سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٢٣٠)

إيماءات

الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير

[وفيه إيماء]

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٣هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل

بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها

وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

١. ١-"فالحكمة وإن كانت علما اصطلاحيا وليس هو تمام المعنى للآية إلا أن معنى الآية الأصلي لا يفوت وتفاريع الحكمة تعين عليه، وكذلك أن نأخذ من قوله تعالى: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم [الحشر: ٧] تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل على أن ذلك تومىء إليه الآية **إيماء**. وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقا بتفسير آي القرآن كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان

التمانع لتقرير معنى قوله تعالى: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [الأنبياء: ٢٢] وكتقرير مسألة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى: والسماء بنيناها بأيد [الذاريات: ٤٧] فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله تعالى: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج [ق: ٦] فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيأة كان قد زاد المقصود خدمة. وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع. وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: ويوم نسير الجبال [الكهف: ٤٧] أن فناء العالم يكون بالزلازل، ومن قوله: إذا الشمس كورت [التكوير: ١] الآية أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم. وشرط كون ذلك مقبولا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له لئلا يكون كقولهم السي بالسي يذكر (١) .

وللعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة على الإجمال آراء، فأما جماعة منهم فيرون من الحسن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعاني القرآنية، ويرون القرآن مشيرا إلى كثير منها. قال ابن رشد الحفيد في «فصل المقال» : «أجمع المسلمون على أن ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل، والسبب في ورود الشرع بظاهر وباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائحهم في التصديق»

---

(١) السي: بسين مهملة مكسورة وتحتية مشددة النظير والمثيل.". (١)

٢. ٢-"منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم [آل عمران: ٧] هذا من حيث ما لمعانيه من العموم **والإيماء** إلى العلل والمقاصد وغيرها.

ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذليل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير [البقرة: ١٧- ٢٠] بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله. وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى: علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن [المزمل: ٢٠] فقوله ما تيسر يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير.

نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه «سراج المريدين» : «ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم» ونقل الزركشي عن عز الدين بن عبد السلام: «المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٣

الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض» .". (١)

٣. ٣-"مبتكرات القرآن هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب.
فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة، وقد نبه عليه العلماء المتقدمون، وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام.
وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة، شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة، مثاله قوله تعالى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون [النساء: ٩٥] وقوله: ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله [القصص:
٥٠] فبين أن الهوى قد يكون محمودا إذا كان هوى المرء عن هدى، وقوله: إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا [العصر: ٢، ٣] .
ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أومأ إليها في «الكشاف» **إيماء.**
ومنها الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية إلا نادرا، كان في بعض الشعر كأبيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف [٤٤] من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف: ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار إلخ وفي سورة الحديد [١٣] : فضرب بينهم بسور الآيات.

---

(١) التحرير والتنوير ١١٦/١

ومما يتبع هذا أن القرآن يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها، فهو إذا حكى أقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي". (١)

٤. ٤-"كما أظهروا همزة الأناس في قول عبيد بن الأبرص الأسدي:

إن المنايا ليطلع ... ن على الأناس الآمنين

ونزل هذا اللفظ في طوره الثالث منزلة الأعلام الشخصية فتصرفوا فيه هذا التصرف لينتقلوا به إلى طور جديد فيجعلوه مثل علم جديد، وهذه الطريقة مسلوكة في بعض الأعلام. قال أبو الفتح بن جني في شرح قول تأبط شرا في النشيد الثالث عشر من «الحماسة» :

إني لمهد من ثنائي فقاصد ... به لابن عم الصدق شمس بن مالك

شمس بضم الشين وأصله شمس بفتحها كما قالوا حجر وسلمى فيكون مما غير عن نظائره لأجل العلمية اهـ. وفي «الكشاف» في تفسير سورة أبي لهب بعد أن ذكر أن من القراء من قرأ (أبي لهب) بسكون الهاء ما نصه وهي من تغيير الأعلام كقولهم شمس بن مالك بالضم اهـ. وقال قبله: «ولفليتة بن قاسم أمير مكة ابنان أحد هما عبد الله بالجر، والآخر عبد الله بالنصب، وكان بمكة رجل يقال له عبد الله لا يعرف إلا هكذا» اهـ. يعني بكسر دال عبد في جميع أحوال إعرابه، فهو بهذا **الإيماء** نوع مخصوص من العلم، وهو أنه أقوى من العلم بالغلبة لأن له لفظا جديدا بعد اللفظ المغلب. وهذه الطريقة في العلمية التي عرضت لاسم الجلالة لا نظير لها في الأعلام فكان اسمه تعالى غير مشابه لأسماء الحوادث كما أن مسمى ذلك الاسم غير مماثل لمسميات أسماء الحوادث. وقد دلوا على تناسيهم ما في الألف واللام من التعريف وأنهم جعلو هما جزءا من الكلمة بتجويزهم نداء اسم الجلالة مع إبقاء الألف واللام إذ يقولون يا الله مع أنهم يمنعون نداء مدخول الألف واللام.

وقد احتج صاحب «الكشاف» على كون أصله الإله ببيت البعيث المتقدم، ولم يقرر ناظروه

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٢٠

وجه احتجاجه به، وهو احتجاج وجيه لأن معاذ من المصادر التي لم ترد في استعمالهم مضافة لغير اسم الجلالة، مثل سبحان فأجريت مجرى أمثال في لزومها لهاته الإضافة، إذا تقول معاذ الله فلما قال الشاعر معاذ الإله وهو من فصحاء اللسان علمنا أنهم يعتبرون الإله أصلا للفظ الله، ولذلك لم يكن هذا التصرف تغييرا إلا أنه تصرف في حروف اللفظ الواحد كاختلاف وجوه الأداء مع كون اللفظ واحدا، ألا ترى أنهم احتجوا". (١)

٥. ٥-"رحمته، ثم وصف بأنه ملك يوم الدين وهو وصف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبيء عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت ملكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصاف المبالغة التي يفيضها الناس على أعظم الملوك مثل ملك الملوك (شاهان شاه) وملك الزمان وملك الدنيا (شاه جهان) وما شابه ذلك. مع ما في تعريف ذلك اليوم بإضافته إلى الدين أي الجزاء من إدماج التنبيه على عدم حكم الله لأن إيثار لفظ الدين (أي الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العامل بما يعادل أعماله المجزي عليها في الخير والشر، وذلك العدل الخاص قال تعالى: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم [غافر: ١٧] فلذلك لم يقل ملك يوم الحساب فوصفه بأنه ملك يوم العدل الصرف وصف له بأشرف معنى الملك فإن الملوك تتخلد محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل وقد عرف العرب المدحة بذلك. قال النابغة يمدح الملك

عمرو بن الحارث الغساني ملك الشام:

وكم جزانا بأيد غير ظالمة ... عرفا بعرف وإنكارا بإنكار

وقال الحارث بن حلزة يمدح الملك عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة:

ملك مقسط وأفضل من يم ... شي ومن دون ما لديه القضاء

وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى **إيماء** بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذي أعربت عنه جملة الحمد لله، لأن تقييد مفاد الكلام بأوصاف متعلق ذلك المفاد يشعر بمناسبة بين تلك الأوصاف وبين مفاد الكلام مناسبة تفهم من المقام مثل التعليل في مقام

(١) التحرير والتنوير ١/١٦٤

هذه الآية.

[٥] إياك نعبد وإياك نستعين.

إذا أتم الحامد حمد ربه يأخذ في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له انتقالا من الإفصاح عن حق الرب إلى إظهار مراعة ما يقتضيه حقه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة.

فهذا الكلام استئناف ابتدائي.

ومفاتحة العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قبل أن يخاطبوا طريقة عربية. روى". (١)

٦. ٦-"بالاستعانة أيضا مع تخصيصك بالعبادة.

والاستعانة طلب العون. والعون والإعانة تسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده، فهي تحصل بإعداد طريق تحصيله من إعارة آلة، أو مشاركة بعمل البدن كالحمل والقود، أو بقول كالإرشاد والتعليم، أو برأي كالنصيحة. قال الحريري في المقامة: «وخلقي نعم العون» ، أو بمال كدفع المغرم، بحيث يحصل الأمر بعسير من جهود المستعين والمعين.

وأما الاستعانة بالله فهي طلب المعونة على ما لا قبل للبشر بالإعانة عليه ولا قبل للمستعين بتحصيله بمفرده، ولذلك فهي مشعرة بأن المستعين يصرف مقدرته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه بتيسير ما لا قبل لقدرة المستعين على تحصيله بمفرده، فهذه هي المعونة شرعا. وقد فسرها العلماء بأنها هي خلق ما به تمام الفعل أو تيسيره، فتنقسم قسمين ضرورية أي ما يتوقف الفعل عليها فلا يحصل بدونها أي لا يحصل بدون توفر متعلقها وهي إعطاء الاقتدار للفاعل وتصوره للفعل وحصول المادة والآلة، ومجموع هاته الأربعة يعبر عنه بالاستطاعة، ويعبر عنها بسلامة الأسباب والآلات وبها يصح تكليف المستطيع.

القسم الثاني المعونة غير الضرورية وينبغي أن تخص باسم الإعانة وهي إيجاد المعين ما يتيسر به الفعل للمعان حتى يسهل عليه ويقرب منه كإعداد الراحلة في السفر للقادر على المشي. وبانضمام هذا المعنى للمعنى الأول تتم حقيقة التوفيق المعرف عندهم بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة، وسمى الراغب هذا القسم الثاني بالتوفيق ولا تعارض بين كلامه وبين تعريفهم إياه لما علمت من أنه لا يحصل إلا بعد حصول المعونة بالمعنى الأول فتم التوفيق والمقصود

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٧/١

هنا الاستعانة على الأفعال المهمة كلها التي أعلاها تلقي الدين وكل ما يعسر على المرء تذليله من توجهات النفوس إلى الخير وما يستتبع ذلك من تحصيل الفضائل. وقرينة هذا المقصود رسمه في فاتحة الكتاب ووقوع تخصيص الإعانة عقب التخصيص بالعبادة. ولذلك حذف متعلق نستعين الذي حقه أن يذكر مجرورا بعلى، وقد أفاد هذا الحذف الهام عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تأدبا معه تعالى، ومن توابع ذلك وأسبابه وهي المعارف والإرشادات والشرائع وأصول العلوم فكلها من الإعانة المطلوبة وكلها من الله تعالى فهو الذي ألهمنا مبادئ العلوم وكلفنا الشرائع ولقننا النطق، قال: ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين [البلد: ٨- ١٠]- فالأول إيماء إلى طريق المعارف وأصلها المحسوسات وأعلاها المبصرات، والثاني إيماء إلى". (١)

٧. ٧-"النطق والبيان للتعليم، والثالث إلى الشرائع.

والحصر المستفاد من التقديم في قوله: وإياك نستعين حصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بالاستعانات المتعارفة بين الناس بعضهم ببعض في شؤونهم، ومعنى الحصر هنا لا نستعين على عظائم الأمور التي لا يستعان فيها بالناس إلا بالله تعالى. ويفيد هذا القصر فيهما التعريض بالمشركين الذين يعبدون غير الله ويستعينون بغيره لأنهم كانوا فريقين منهم من عبد غير الله على قصد التشريك إلا أن ولعه واستهتاره بغير الله تعالى أنساه عبادة الله تعالى كما عبدت سبأ الشمس وعبد الفرس النور والظلمة، وعبد القبط العجل وألهوا الفراعنة، وعبدت أمم السودان الحيوانات كالثعابين. ومن المشركين من أشرك مع عبادة الله عبادة غيره وهذا حال معظم العرب ممن عبد الأصنام أو عبد الكواكب، فقد عبدت ضبة وتيم وعكل الشمس، وعبدت كنانة القمر، وعبدت لخم وخزاعة وبعض قريش الشعرى، وعبدت تميم الدبران، وعبدت طيىء الثريا، وهؤلاء كلهم جعلوا الآلهة بزعمهم وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى، فهؤلاء جمعوا العبادة والاستعانة بهم لأن جعلهم وسيلة إلى الله ضرب من الاستعانة، وإنما قلنا إن استفادة الرد على المشركين ونحوهم بطريق التعريض أي بطريق عرض الكلام لأن القصر الحقيقي لا يصلح أن يكون لرد الاعتقاد إلا

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٨٤

تعريضا لأن معناه حاصل على الحقيقة كما أشار إليه السلكوتي في «حاشية التفسير» .
فإن قلت كيف أمرنا بأن لا نعبد إلا الله ولا نستعين إلا به حسبما تشير إليه هذه الآية، وقد
ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما علم عبد الله بن عباس قال له «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»
فلم يأت بصيغة قصر. قلت قد ذكر الشيخ الجد قدس الله روحه في تعليقه على هذا الحديث أن ترك طريقة القصر إيماء إلى أن المقام لا يقبل الشركة وأن من حق السؤال أن لا يكون إلا لله القادر العليم، وقد قال علماء البلاغة إذا كان الفعل مقصورا في نفسه فارتكاب طريق القصر لغو من الكلام اهـ.
وأقول تقفية على أثره إن مقام الحديث غير مقام الآية فمقام الحديث مقام تعليم خاص لمن نشأ وشب وترجل في الإسلام فتقرر قصر الحكم لديه على طرف الثمام ولذلك استغنى عنه وأما مقام هذه الآية فمقام مفتتح الوحي والتشريع واستهلال الوعظ والتقريع، فناسب تأكيد الحكم بالقصر مع التعريض بحال الشرك الشنيع على أن تعليق الأمر بهما في جواب الشرط على حصول أي سؤال وأية استعانة يفيد مفاد القصر تعريضا بالمشركين". (١)

٨. ٨-"فاليهود تمردوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة وبدلوا الشريعة عمدا فلزمهم وصف المغضوب عليهم وعلق بهم في آيات كثيرة. والنصارى ضلوا بعد الحواريين وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة قال تعالى: قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل [المائدة: ٧٧] . وفي وصف الصراط المسئول في قوله: اهدنا الصراط المستقيم بالمستقيم إيماء إلى أن الإسلام واضح الحجة قويم المحجة لا يهوي أهله إلى هوة الضلالة كما قال تعالى: قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما [الأنعام: ١٦١] وقال: وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله [الأنعام: ١٥٣] ، على

(١) التحرير والتنوير ١/١٨٥

تفاوت في مراتب إصابة مراد الله تعالى ولذلك

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد»

ولم يترك بيان الشريعة مجاري اشتباه بين الخلاف الذي تحيط به دائرة الإسلام والخلاف الذي يخرج بصاحبه عن محيط الإسلام قال تعالى: إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] .

واختلف القراء في حركة هاء الضمير من قوله: أنعمت عليهم، وقوله: غير المغضوب عليهم، وما ضاهاهما من كل ضمير جمع وتثنية مذكر ومؤنث للغائب وقع بعد ياء ساكنة، فالجمهور قرأوها بكسر الهاء تخلصا من الثقل لأن الهاء حاجز غير حصين فإذا ضمت بعد الياء فكان ضمتها قد وليت الكسرة أو الياء الساكنة وذلك ثقيل وهذه لغة قيس وتميم وسعد بن بكر. وقرأ حمزة عليهم وإليهم ولديهم فقط بضم الهاء وما عداها بكسر الهاء نحو إليهما وصياصيهم وهي لغة قريش والحجازيين. وقرأ يعقوب كل ضمير من هذا القبيل مما قبل الهاء فيه ياء ساكنة بضم الهاء. وقد ذكرنا هذا هنا فلا نعيد ذكره في أمثاله وهو مما يرجع إلى قواعد علم القراءات في هاء الضمير.

واختلفوا أيضا في حركة ميم ضمير الجمع الغائب المذكر في الوصل إذا وقعت قبل متحرك فالجمهور قرأوا: عليهم غير المغضوب عليهم بسكون الميم وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون في رواية عنه بضمة مشبعة: غير المغضوب عليهم وهي لغة بعض العرب

وعليها قول لبيد:

وهمو فوارسها وهم حكامها

فجاء باللغتين، وقرأ ورش بضم الميم وإشباعها إذا وقع بعد الميم همز دون نحو: غير المغضوب عليهم وأجمع الكل على إسكان الميم في الوقف.". (١)

٩. ٩-"محتويات هذه السورة

هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٠٠

كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها، ولكن هذا لا يحجم بنا
عن التعرض إلى لائحات منها، وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام، وسدى متين من فصاحة الكلمات.
ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.
وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية، وأساليب الكتب التشريعية، وأساليب التذكير والموعظة، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين، ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحديا إجماليا بحروف التهجي المفتتح بها رمزا يقتضي استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده، فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز **إيماء** إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله:
وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] . فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه، وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافا أربعة (وكانوا قبل الهجرة صنفين) بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي. وإذ قد كان أخص الأصناف انتفاعا بهديه هم المؤمنين بالغيب المقيمين الصلاة- يعني المسلمين- ابتدئ بذكرهم، ولما كان أشد الأصناف عنادا وحقدا صنفا المشركين الصرحاء والمنافقين لف الفريقان لفا واحدا فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ثم خص بالإطناب صنف أهل النفاق تشويها لنفاقهم وإعلانا لدخائلهم ورد مطاعنهم، ثم كان خاتمة ما قرعت به أنوفهم صريح التحدي الذي رمز إليه بدءا تحديا يلجئهم إلى الاستكانة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة، ويلقي في قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحداهم، فكان ذلك من رد". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/١

١٠. ١٠-"حين ألقت بقباء بركها ... واستمر القتل في عبد الأشل
أي عبد الأشهل. وقول أبي فؤاد:
يدرين حندل حائر لجنوبها ... فكأنما تذكى سنابكها الحبا
أراد الحباحب. وقال الأخطل:
أمست مناها بأرض ما يبلغها ... بصاحب الهم إلا الجسرة الأجد
أراد منازلها. ووقع («طراز المجالس» - المجلس) (١) للمتأخرين من هذا كثير مع التورية كقول ابن مكانس:
لم أنس بدرا زارني ليلة ... مستوفزا مطلعا للخطر

فلم يقم إلا بمقدار ما ... قلت له أهلا وسهلا ومر
أراد بعض كلمة مرحبا وقد أكثرت من شواهده توسعة في مواقع هذا الاستعمال الغريب ولست أريد بذلك تصحيح حمل حروف فواتح السور على ذلك لأنه لا يحسن تخريج القرآن عليه وليس معها ما يشير إليه مع التورية بجعل مر من المرور.
القول الثامن أنها إشارات إلى أحوال من تزكية القلب، وجعلها في «الفتوحات» في الباب الثاني إيماء إلى شعب الإيمان، وحاصله أن جملة الحروف الواقعة في أوائل سور القرآن على تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفا والثمانية هنا هي حقيقة البضع حصل له ذلك بالكشف فيكون عدد الحروف ثمانية وسبعين وقد
قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»
فهذه الحروف هي شعب الإيمان، ولا يكمل لأحد أسرار الإيمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها. وكيف يزعم زاعم أنها واردة في معان غير معروفة مع ثبوت تلقي السامعين لها بالتسليم من مؤمن ومعاند، ولولا أنهم فهموا منها معنى معروفا دلت عليه القرائن لسأل السائلون وتورك المعاندون.
قال القاضي أبو بكر بن العربي: لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبيء صلى الله عليه وسلم بل تلا عليهم حم فصلت وص وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة قلت وقد سألوا عن أوضح من هذا

فقالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] ، وأما ما استشهدوا

---

(١) نسبه إليه المبرد في «الكامل» ص ٢٤٥. وسيبويه في «كتابه» ص ٥٧ جزء ٢ وتبعهما المفسرون.". (١)

١١. ١١-"الماء واحتطاب الحطب والصيد وجني الثمار والتقاط ما لا ملك لأحد عليه ولا هو كائن في ملك أحد، ومثل خدمته بقوته من حمل ثقل ومشي لقضاء شؤون من يؤجره وانحباس للحراسة، أو كان مما يصنع أشياء من مواد يملكها وله حق الانتفاع بها كالخبز والنسج والتجر وتطريق الحديد وتركيب الأطعمة وتصوير الآنية من طين الفخار، أو كان مما أنتجه مثل الغرس والزرع والتوليد، أو مما ابتكره بعقله مثل التعليم والاختراع والتأليف والطب والمحاماة والقضاء ونحو ذلك من الوظائف والأعمال التي لنفع العامة أو الخاصة، أو مما أعطاه إياه مالك رزق من هبات وهدايا ووصايا، أو أذن بالتصرف كإحياء الموات، أو كان مما ناله بالتعارض كالبيوع والإجارات والأكرية والشركات والمغارسة، أو مما صار إليه من مال انعدم صاحبه بكونه أحق الناس به كالإرث. وتملك اللقطة بعد التعريف المشروط، وحق الخمس في الركاز. فهذه وأمثالها مما شمله قول الله تعالى: مما رزقناهم.

وليس لأحد ولا لمجموع الناس حق فيما جعله الله رزق الواحد منهم لأنه لا حق لأحد في مال لم يسع لاكتسابه بوسائله

وقد جاءت هند بنت عقبة زوج أبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «إن أبا سفيان رجل مسيك فهل أنفق من الذي له عيالنا فقال لها:

«لا إلا بالمعروف»

أي إلا ما هو معروف أنه تتصرف فيه الزوجة مما في بيتها مما وضعه الزوج في بيته لذلك دون مسارقة ولا خلسة.

وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو ينفقون لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس كقوله تعالى: ويطعمون

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٠/١

الطعام على حبه [الإنسان: ٨] ، مع رعي فواصل الآيات على
حرف النون، وفي الإتيان بمن التي هي للتبعيض **إيماء** إلى كون الإنفاق المطلوب شرعا هو إنفاق بعض المال لأن الشريعة لم تكلف الناس حرجا، وهذا البعض يقل ويتوفر بحسب أحوال المنفقين. فالواجب منه ما قدرت الشريعة نصبه ومقاديره من الزكاة وإنفاق الأزواج والأبناء والعبيد، وما زاد على الواجب لا ينضبط تحديده وما زاد فهو خير، ولم يشرع الإسلام وجوب تسليم المسلم ما ارتزقه واكتسبه إلى يد غيره. وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهي الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فإنهما أقدم المشروعات وهما أختان في كثير من آيات القرآن، ولأن هذه الصفات". (١)

١٢. ١٢-"الذين اقتصروا في قولهم على هذا القول لأنهم لغلوهم في الكفر لا يستطيعون أن يذكروا الإيمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم استثقالا لهذا الاعتراف فيقتصرون على ذكر الله واليوم الآخر إيهاما للاكتفاء ظاهرا ومحافظة على كفرهم باطنا لأن أكثرهم وقادتهم من اليهود.

وفي التعبير بيقول في مثل هذا المقام **إيماء** إلى أن ذلك قول غير مطابق للواقع لأن الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلق الغرض بذكر نصه وحكي بلفظ يقول أومأ ذلك إلى أنه غير مطابق لاعتقاده أو أن المتكلم يكذبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله: وما هم بمؤمنين وجملة وما هم بمؤمنين في موضع الحال من ضمير يقول أي يقول هذا القول في حال أنهم غير مؤمنين.
والآية أشارت إلى طائفة من الكفار وهم المنافقون الذين كان بعضهم من أهل يثرب وبعضهم من اليهود الذين أظهروا الإسلام وبقيتهم من الأعراب المجاورين لهم، ورد في حديث كعب بن مالك أن المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك بضعة وثمانون، وقد عرف من أسمائهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو رأس المنافقين، والجد بن قيس، ومعتب بن قشير، والجلاس بن سويد الذي نزل فيه: يحلفون بالله ما قالوا [التوبة: ٧٤] ، وعبد الله بن سبأ اليهودي ولبيد

(١) التحرير والتنوير ٢٣٦/١

بن الأعصم من بني زريق حليف اليهود كما في باب السحر من كتاب الطب من «صحيح البخاري» ، والأخنس أبي بن شريق الثقفي كان يظهر الود والإيمان وسيأتي عند قوله تعالى: ومن الناس من يعجبك [البقرة: ٢٠٤] ، وزيد بن اللصيت القينقاعي ووديعة بن ثابت من بني عمرو بن عوف، ومخشن بن حمير الأشجعي اللذين كانا يثبطان المسلمين من غزوة تبوك، وقد قيل إن زيد بن اللصيت تاب وحسن حاله، وقيل لا، وأما مخشن فتاب وعفا الله عنه وقتل شهيدا يوم القيامة.

وفي كتاب «المرتبة الرابعة» لابن حزم قد ذكر قوم معتب بن قشير الأوسي من بني عمرو بن عوف في المنافقين وهذا باطل لأن حضوره بدرا يبطل هذا الظن بلا شك ولكنه ظهر منه يوم أحد ما يدل على ضعف إيمانه فلمزوه بالنفاق فإنه القائل يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا [آل عمران: ١٥٤] ، رواه عنه الزبير بن العوام قال ابن عطية كان مغموصا بالنفاق. ومن المنافقين أبو عفك أحد بني عمرو بن عوف ظهر نفاقه حين قتل رسول الله الحارث بن سويد بن صامت وقال شعرا يعرض بالنبيء صلى الله عليه وسلم وقد أمر رسول الله". (١)

١٣. ١٣-"[٢٢]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢]

الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢)

الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم.

يتعين أن قوله: الذي جعل لكم الأرض فراشا صفة ثانية للرب لأن مساقها مساق قوله: الذي خلقكم [البقرة: ٢١] ، والمقصود **الإيماء** إلى سبب آخر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها فإنه لما أوجب عبادته أنه خالق الناس كلهم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إياه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٣/١

وحده، وهي نعمه المستمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته فإنه مكن لهم سبل العيش وأولها المكان الصالح للاستقرار عليه بدون لغوب فجعله كالفراش لهم ومن إحاطة هذا القرار بالهواء النافع لحياتهم والذي هو غذاء الروح الحيواني، وذلك ما أشير إليه بقوله: والسماء بناء وبكون تلك الكرة الهوائية واقية الناس من إضرار طبقات فوقها متناهية في العلو، من زمهرير أو عناصر غريبة قاتلة خانقة، فالكرة الهوائية جعلت فوق هذا العالم فهي كالبناء له ونفعها كنفع البناء فشبهت به على

طريقة التشبيه البليغ وبأن أخرج للناس ما فيه إقامة أود حياتهم باجتماع ماء السماء مع قوة الأرض وهو الثمار.

والمراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب وهو ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض كما هو المراد في قوله: أو كصيب من السماء [البقرة:

١٩] وهذا هو المراد الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع.

ومعنى جعل الأرض فراشا أنها كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها وهو أخص أحوال الاستقرار. والمعنى أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جلد الإنسان وبين رخاوة الحمأة بحيث يتزحزح الكائن فوقها ويسوخ فيها وتلك منة عظيمة.

وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حاجزة بين الكرة الأرضية وبين الكرة الأثيرية فهي كالبناء فيما يراد له البناء وهو الوقاية من الأضرار النازلة، فإن للكرة الهوائية دفعا لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض ودفع أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب إلينا وتلطيفها حتى تختلط بالهواء أو صد الهواء إياها عنا مع ما في مشابهة منظر الكرة الهوائية لهيئة القبة، والقبة بيت من أدم مقبب وتسمى بناء،". (١)

١٤. ١٤-"الذين ينقضون عهد الله الآية وصفا للفاسقين وكان المراد من الفاسقين اليهود كما علمت كان ذكر العهد **إيماء** إلى أن الفاسقين هنا هم، وتسجيلا على اليهود بأنهم قد حق عليهم هذا الوصف من قبل اليوم بشهادة كتبهم وعلى ألسنة أنبيائهم فكان لاختيار لفظ العهد هنا وقع عظيم يتنزل منزلة المفتاح الذي يوضع في حل اللغز ليشير للمقصود فهو

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣١/١

العهد الذي سيأتي ذكره في قوله تعالى: وأوفوا بعهدي [البقرة: ٤٠] .
والميثاق مفعال وهو يكون للآلة كثيرا كمرقاة ومرآة ومحراث، قال الخفاجي كأنه إشباع للمفعل، وللمصدر أيضا نحو الميلاد والميعاد وهو الأظهر هنا. والضمير للعهد أي من بعد توكيد العهد وتوثيقه. ولما كان المراد بالعهد عهدا غير معين، بل كل ما عاهدوا عليه كان توكيد كل ما يفرضه المخاطب بما تقدمه من العهود وما تأخر عنه فهو على حد:
ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها [النحل: ٩١] فالميثاق إذن عهد آخر اعتبر مؤكدا لعهد سبقه أو لحقه.
وقوله: ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل قيل ما أمر الله به أن يوصل هو قرابة الأرحام يعني وحيث ترجح أن المراد به بعض عمل اليهود فذلك إذ تقاتلوا وأخرجوا كثيرا منهم من ديارهم ولم تزل التوراة توصي بني إسرائيل بحسن معاملة بعضهم لبعض. وقيل
الإعراض عن قطع ما أمر الله به أن يوصل هو موالاة المؤمنين. وقيل اقتران القول بالعمل. وقيل التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعض والكفر ببعض. وقال البغوي يعني بما أمر الله به أن يوصل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبجميع الرسل.
وأقول تكميلا لهذا إن مراد الله تعالى مما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها وحفظ نظام عالمهم وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل، وإنما اختلفت الشرائع على حسب مبلغ تهييء البشر لتلقي مراد الله تعالى ولذلك قلما اختلفت الأصول الأساسية للشرائع الإلهية قال تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين [الشورى: ١٣] الآية. وإنما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافا مراعى فيه مبلغ طاقة البشر لطفا من الله تعالى بالناس ورحمة منه بهم حتى في حملهم على مصالحهم ليكون تلقيهم لذلك أسهل، وعملهم به أدوم، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت راهق فيه البشر مبلغ غاية الكمال العقلي وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعدادهم الفكري وإن تخالفت الأعصار وتباعدت الأقطار فكان دينا عاما لجميع البشر، فلا جرم أن كانت الشرائع

السابقة تمهيدا له لتهييء البشر لقبول تعاليمه وتفاريعها". (١)

١٥. ١٥-"ولأن الله تعالى لم يترك عملا كان يعمله فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان، وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات يسمون الحن والبن- بحاء مهملة مكسورة ونون في الأول، وبموحدة مكسورة ونون في الثاني- وقيل اسمهم الطم والرم- بفتح أولهما-، وأحسبه من المزاعم، وأن وضع هذين الاسمين من باب قول الناس: هيان بن بيان إشارة إلى غير موجود أو غير معروف. ولعل هذا أنجز لأهل القصص من خرافات الفرس أو اليونان فإن الفرس زعموا أنه كان قبل الإنسان في الأرض جنس اسمه الطم والرم كان اليونان يعتقدون أن الأرض كانت معمورة بمخلوقات تدعى التيتان وأن زفس وهو المشتري كبير الأرباب في اعتقادهم جلاهم من الأرض لفسادهم. وكل هذا ينافيه سياق الآية فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل، فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم، فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك، وقد بعث الله الرسل وبين الشرائع فربما اجتمعت الرسالة والخلافة وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخطتين قال تعالى: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله

(١) التحرير والتنوير ٣٧١/١

[النساء: ٦٤] ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبيء صلى الله عليه وسلم على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة ولم ينازع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، من جفاة الأعراب ودعاة الفتنة فالمناظرة مع أمثالهم سدى.". (١)

١٦. ١٦-"والاستفهام المحكي عن كلام الملائكة محمول على حقيقته مضمن معنى التعجب والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك فدلالة الاستفهام على ذلك هنا بطريق الكناية مع تطلب ما يزيل إنكارهم واستبعادهم فلذلك تعين بقاء الاستفهام على حقيقته خلافا لمن توهم الاستفهام هنا لمجرد التعجب، والذي أقدم الملائكة على هذا السؤال أنهم علموا أن الله لما أخبرهم أراد منهم إظهار علمهم تجاه هذا الخبر لأنهم مفطورون على الصدق والنزاهة من كل مؤاربة فلما نشأ ذلك في نفوسهم أفصحت عنه دلالة تدل عليه يعلمها الله تعالى من أحوالهم لا سيما إذا كان من تمام الاستشارة أن يبدي المستشار ما يراه نصحا وفي الحديث: «المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم»
يعني إذا تكلم فعليه أداء أمانة النصيحة.
وعبر بالموصول وصلته **للإيماء** إلى وجه بناء الكلام وهو الاستفهام والتعجب لأن من كان من شأنه الفساد والسفك لا يصلح للتعمير لأنه إذا عمر نقض ما عمره. وعطف سفك الدماء على الإفساد للاهتمام به. وتكرير ضمير (الأرض) للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرانها وحفظ نظامها ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم وفي صرف إرادة الله تعالى عن ذلك إن كان في الاستشارة ائتمار.
والإفساد تقدم في قوله تعالى: ألا إنهم هم المفسدون [البقرة: ١٢] .
والسفك الإراقة وقد غلب في كلامهم تعديته إلى الدماء وأما إراقة غير الدم فهي سفح بالحاء. وفي المجيء بالصلة جملة فعلية دلالة على توقع أن يتكرر الإفساد والسفك من هذا المخلوق وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية إما بوصف الله لهم هذا

(١) التحرير والتنوير ١/٣٩٩

الخليفة أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب وعن الامتثال إلى العصيان فإن العقل يشتمل على شاهية وغاضبة وعاقلة ومن مجموعها ومجموع بعضها تحصل تراكيب من التفكير نافعة وضارة، ثم إن القدرة التي في الجوارح تستطيع تنفيذ كل ما يخطر للعقل وقواه أن يفعله ثم إن النطق يستطيع إظهار

خلاف الواقع وترويج الباطل، فيكون من أحوال ذلك فساد كبير ومن أحواله أيضا صلاح عظيم وإن طبيعة استخدام ذي القوة لقواه قاضية بأنه سيأتي بكل ما تصلح له هذه القوى خيرها وشرها فيحصل فعل مختلط من". (١)

١٧. ١٧-"بمعنى نزه فيكون كالغفران والشكران، والكفران من غفر وشكر وكفر وقد كثر استعماله منصوبا على المفعولية المطلقة بإضمار فعله ك معاذ الله [يوسف: ٢٣] وقد يخرج عن ذلك نادرا قال: «سبحانك اللهم ذا السبحان» وكأنهم لما خصصوه في الاستعمال بجعله كالعلم على التنزيه عدلوا عن قياس اشتقاقه فصار سبحان كالعلم الجنسي مثل برة وفجار- بكسر الراء- في قول النابغة:

فحملت برة واحتملت فجار

ومنعوه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون قال سيبويه: وأما ترك تنوين (سبحان) فلأنه صار عندهم معرفة وقول الملائكة: لا علم لنا إلا ما علمتنا خبر مراد منه الاعتراف بالعجز لا الإخبار عن حالهم لأنهم يوقنون أن الله يعلم ما تضمنه كلامهم.

ولا أنهم قصدوا لازم الفائدة وهي أن المخبر عالم بالخبر فتعين أن الخبر مستعمل في الاعتراف.

ثم إن كلامهم هذا يدل على أن علومهم محدودة غير قابلة للزيادة فهي مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم، فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها.

وفي تصدير كلامهم بسبحانك إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها [البقرة: ٣٠] فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار.

والاعتذار وإن كان يحصل بقولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا لكن حصول ذلك منه بطريق

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠٢/١

الكناية دون التصريح ويحصل آخرا لا ابتداء فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجيلا بما يدل على ملازمة جانب الأدب العظيم إنك أنت العليم الحكيم ساقوه مساق التعليل لقولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا لأن المحيط علمه بكل شيء المحكم لكل خلق إذا لم يجعل لبعض مخلوقاته سبيلا إلى علم شيء لم يكن لهم قبل بعلمه إذ الحصول بقدر القبول والاستعداد أي فلا مطمع لنا في تجاوز العلم إلى ما لم تهيء لنا علمه بحسب فطرتنا.

والذي دل على أن هذا القول مسوق للتعليل وليس مجرد ثناء هو تصديره بإن في غير مقام رد إنكار ولا تردد.

قال الشيخ في «دلائل الإعجاز» (١) ومن شأن إن إذا جاءت على هذا الوجه (أي أن تقع إثر كلام وتكون لمجرد الاهتمام) أن تغني غناء الفاء العاطفة (مثلا) وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأنت ترى الكلام بها مقطوعا موصولا، وأنشد قول بشار:

---

(١) صفحة ١٩٧ طبع المنار.". (١)

١٨. ١٨-"الخطاب بمنزلة أن يكون مسوقا إليهم لقوله عقب ذلك: قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض.

وابتداء خطاب آدم بندائه مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الآمر لأن شأن الآمر والمخاطب- بالكسر- إذا تلطف مع المخاطب- بالفتح- أن يذكر اسمه ولا يقتصر على ضمير الخطاب حتى لا يساوي بخطابه كل خطاب، ومنه ما جاء في حديث الشفاعة بعد ذكر سجود النبيء وحمده الله بمحامد يلهمه إياها

فيقول: «يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع»

وهذه نكتة ذكر الاسم حتى في أثناء المخاطبة كما قال امرؤ القيس:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٤/١

وربما جعلوا النداء طريقا إلى إحضار اسمه الظاهر لأنه لا طريق لإحضاره عند المخاطبة إلا بواسطة النداء فالنداء على كل تقدير مستعمل في معناه المجازي.

فلما أنبأهم بأسمائهم.

الإنباء إخبارهم بالأسماء، وفيه إيماء بأن المخبر به شيء مهم. والضمير المجرور بالإضافة ضمير المسميات مثل ضمير عرضهم، وفي إجرائه على صيغة ضمائر العقلاء ما قرر في قوله: ثم عرضهم [البقرة: ٣١] .

وقوله: فلما أنبأهم بأسمائهم الضمير في (أنبأ) لآدم وفي (قال) ضمير اسم الجلالة وإنما لم يؤت بفاعله اسما ظاهرا مع أنه جرى على غير من هو له أي عقب ضمائر آدم في قوله: أنبئهم وأنبأهم لأن السياق قرينة على أن هذا القول لا يصدر من مثل آدم.

قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض.

جواب (لما) والقائل هو الله تعالى وهو المذكور في قوله: وإذ قال ربك [البقرة: ٣٠] وعادت إليه ضمائر قال إني أعلم [البقرة: ٣٠] وعلم [البقرة: ٣١] وعرضهم وما قبله من الضمائر وهو تذكير لهم بقوله لهم في أول المحاورة: إني أعلم ما لا تعلمون وذلك القول وإن لم يكن فيه: أعلم غيب السماوات والأرض". (١)

١٩. ١٩-"فشمل جميع الشرائع الإلهية المخاطب بها طوائف الناس لوقوع (هدى) نكرة في سياق الشرط وهو من صيغ العموم، وأولى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم وبذلك تهيأ الموقع لقوله: والذين كفروا إلخ فالله أخذ العهد من لدن آدم على اتباع الهدى العام كقوله: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة [آل عمران: ٨١] الآية.

وهذه الآية تدل على أن الله لا يؤاخذ البشر بما يقترفونه من الضلال إلا بعد أن يرسل إليهم من يهديهم فأما في تفاصيل الشرائع فلا شك في ذلك ولا اختلاف وأما في توحيد الله وما يقتضيه من صفات الكمال فيجري على الخلاف بين علمائنا في مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك، ولعل الآية تدل على أن الهدى الآتي من عند الله في ذلك قد حصل من عهد آدم

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٧/١

ونوح وعرفه البشر كلهم فيكون خطابا ثابتا لا يسع البشر ادعاء جهله وهو أحد قولين عن الأشعري، وقيل لا، وعند المعتزلة والماتريدية أنه دليل عقلي.

وقوله: فلا خوف عليهم نفي لجنس الخوف. وخوف مرفوع في قراءة الجمهور وقرأه يعقوب مبنيا على الفتح وهما وجهان في اسم (لا) النافية للجنس وقد روي بالوجهين قول المرأة الرابعة من نساء حديث أم زرع «زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة» . وبناء الاسم على الفتح نص في نفي الجنس ورفعه محتمل لنفي الجنس ولنفي فرد واحد، ولذلك فإذا انتفى اللبس استوى الوجهان كما هنا إذ القرينة ظاهرة في نفي الجنس.

وقوله: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا يحتمل أنه من جملة ما قيل لآدم فإكمال ذكره هنا استيعاب لأقسام ذرية آدم وفيه تعريض بالمشركين من ذرية آدم وهو يعم من كذب

بالمعجزات كلها ومن جملتها القرآن، عطف على (من) الشرطية في قوله: فمن تبع هداي إلخ فهو من عطف جملة إسمية على جملة إسمية، وأتى بالجملة المعطوفة غير شرطية مع ما في الشرطية من قوة الربط والتنصيص على ترتب الجزاء على الشرط وعدم الانفكاك عنه لأن معنى الترتب والتسبب وعدم الانفكاك قد حصل بطرق أخرى فحصل معنى الشرط من مفهوم قوله: فمن تبع هداي فلا خوف عليهم فإنه بشارة يؤذن مفهومها بنذارة من لم يتبعه فهو خائف حزين فيترقب السامع ما يبين هذا الخوف والحزن فيحصل ذلك بقوله: والذين كفروا وكذبوا الآية. وأما معنى التسبب فقد حصل من تعليق الخبر على الموصول وصلته المؤمي إلى وجه بناء الخبر وعلته على أحد التفسيرين في **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وأما عدم الانفكاك". (١)

٢٠. ٢٠-"[٤١]

[سورة البقرة (٢) : آية ٤١]

وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون (٤١)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤٤/١

وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم.

شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام وهدي القرآن وهذا هو المقصود من خطابهم ولكن قدم بين يديه ما يهيىء نفوسهم إلى قبوله كما تتقدم المقدمة على الغرض، والتخلية على التحلية.

والإيمان بالكتاب المنزل من عند الله أو بكتب الله وإن كان من جملة ما شمله العهد المشار إليه بقوله: وأوفوا بعهدي [البقرة: ٤٠] إلا أنه لم يلتفت إليه هنا من تلك الجهة لأنهم عاهدوا الله على أشياء كثيرة كما تقدم ومن جملتها الإيمان بالرسل والكتب التي تأتي بعد موسى عليه السلام إلا أن ذلك مجمل في العهد فلا يتعين أن يكون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو مما عاهدوا الله عليه بل حتى يصدقوا بأنه من عند الله وأن الجائي به رسول من الله فهم مدعوون إلى ذلك التصديق هنا. فعطف قوله: وآمنوا على قوله: وإياي فارهبون [البقرة: ٤٠] كعطف المقصد على المقدمة، وعطفه على قوله: وأوفوا بعهدي من قبيل عطف الخاص على العام في المعنى ولكن هذا من عطف الجمل فلا يقال فيه عطف خاص على عام لأنه إنما يكون في عطف الجزئي على الكلي من المفردات لا في عطف الجمل وإنما أردنا تقريب موقع الجملة وتوجيه إيرادها موصولة غير مفصولة.

وفي تعليق الأمر باسم الموصول وهو (ما أنزلت) دون غيره من الأسماء نحو الكتاب أو القرآن أو هذا الكتاب **إيماء** إلى تعليل الأمر بالإيمان به وهو أنه منزل من الله وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنه منزل من الله. ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله. وهي العلامة الدينية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله: الم ذلك الكتاب [البقرة: ١، ٢] إلى قوله: فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] كذلك جعل الإعجاز المعنوي وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع.

ثم الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالذي جاء به وبالذي أنزله.

والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بني

إسرائيل". (١)

٢١. ٢١-"وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد نفع أخروي لا سيما إذا كان ذلك المال ينفق على العدو في الدين، فلذلك عقب الأمر بالإيمان بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما لا يتجشمهما إلا مؤمن صادق. ولذلك جاء في المنافقين وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى

[النساء: ١٤٢] وقوله: فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون [الماعون: ٤، ٥] وفي «الصحيح» أن صلاة العشاء أثقل صلاة على المنافقين.

وفي هذه الآية دليل لمالك على قتل من يمتنع من أداء الصلاة مع تحقق أنه لم يؤدها من أول وقت صلاة من الصلوات إلى خروجه إذا كان وقتا متفقا بين علماء الإسلام، لأنه جعل ذلك الامتناع مع عدم العذر دليلا على انتفاء إيمانه، لكنه لما كان مصرحا بالإيمان قال مالك: إنه يقتل حدا جمعا بين الأدلة ومنعها لذريعة خرم الملة.

ويوشك أن يكون هذا دليلا لمن قالوا بأن تارك الصلاة كافر لولا الأدلة المعارضة.

وفيها دليل لما فعل أبو بكر رضي الله عنه من قتال مانعي الزكاة وإطلاق اسم المرتدين عليهم لأن الله جعل الصلاة والزكاة أمارة صدق الإيمان إذ قال لبني إسرائيل وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ولهذا قال أبو بكر لما راجعه عمر في عزمه على قتال أهل الردة حين منعوا إعطاء الزكاة وقال له: كيف تقاتلهم وقد قالوا: لا إله إلا الله وقد

قال رسول الله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»

فقال أبو بكر: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، فحصل من عبارته على إيجازها جواب عن دليل عمر.

وقوله: واركعوا مع الراكعين تأكيد لمعنى الصلاة لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها فلكي لا يقولوا إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله: واركعوا مع الراكعين.

والركوع طأطأة وانحناء الظهر لقصد التعظيم أو التبجيل، وقد كانت العرب تفعله لبعض

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٨/١

كبرائهم، قال الأعشى:

إذا ما أتانا أبو مالك ... ركعنا له وخلعنا العمامة

(وروي سجدنا له وخلعنا العمارا، والعمار هو العمامة) .

وقوله: مع الراكعين إيماء إلى وجوب مماثلة المسلمين في أداء شعائر الإسلام المفروضة فالمراد بالراكعين المسلمون وفيه إشارة إلى الإتيان بالصلاة بأركانها وشرائطها.". (١)

٢٢. ٢٢-"ظلم فلا يكون للحال معه موقع. وقد اطلعت بعد هذا على «تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي» فوجدته قال: وأنتم ظالمون أي لا شبهة لكم في اتخاذه.

وقوله: ثم عفونا عنكم من بعد ذلك هو محل المنة، وعطفه بثم لتراخي رتبة هذا العفو في أنه أعظم من جميع تلك النعم التي سبق عدها ففيه زيادة المنة فالمقصود من الكلام هو المعطوف بثم وأما ما سبق من قوله: وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة إلخ فهو تمهيد له وتوصيف لما حف بهذا العفو من عظم الذنب. وقوله: من بعد ذلك حال من ضمير «عفونا» مقيدة للعفو إعجابا به أي هو عفو حال حصوله بعد ذلك الذنب العظيم وليس ظرفا لغوا متعلقا بعفونا حتى يقال: إن ثم دلت على معناه فيكون تأكيدا لمدلول ثم تأخير العفو فيه وإظهار شناعته بتأخير العفو عنه وإنما جاء قوله ذلك مقترنا بكاف خطاب الواحد في خطاب الجماعة لأن ذلك لكونه أكثر أسماء الإشارة استعمالا بالإفراد إذ خطاب المفرد أكثر غلب فاستعمل لخطاب الجمع تنبيها على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد ومثل هذا في كلام العرب كثير لأن التثنية والجمع شيآن خلاف الأصل لا يصار إليهما إلا عند تعيين معنا هما فإذا لم يقصد تعيين معنا هما فالمصير إليهما اختيار محض.

وقوله: لعلكم تشكرون رجاء لحصول شكركم، وعدل عن لام التعليل إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة فتفسير لعل بمعنى لكي يفيت هذه الخصوصية وقد تقدم كيفية دلالة لعل على الرجاء في كلام الله تعالى عند قوله: يا أيها الناس اعبدوا ربكم إلى قوله لعلكم تتقون [البقرة:

---

(١) التحرير والتنوير ٤٧٣/١

٢١] . ومعنى الشكر تقدم في قوله تعالى: الحمد لله رب العالمين [الفاتحة: ٢] وللغزالي فيه باب حافل عدلنا عن ذكره لطوله فارجع إليه في كتاب «الإحياء» .
[٥٣]

[سورة البقرة (٢) : آية ٥٣]
وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون (٥٣)
هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتابا فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع.
والمراد من (الكتاب) التوراة التي أوتيها موسى فالتعريف للعهد، ويعتبر معها ما ألحق بها على نحو ما قدمناه في قوله تعالى: ذلك الكتاب [البقرة: ٢] ." (١)

٢٣. ٢٣-"مجانا (أي يصطادونه بأنفسهم) والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم وقد يبست نفوسنا فلا ترى إلا هذا المن فبكوا فغضب الله عليهم وسأله موسى العفو فعنا عنهم وأرسل عليهم السلوى فادخروا منها طعام شهر كامل.
والتعبير بلن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده، فإن التأبيد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء الأبد أولها وآخرها فلن في نفي الأفعال مثل لا التبرئة (١) في نفي النكرات.
ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى لأن المراد أنه متكرر كل يوم.
وجملة يخرج لنا إلى آخرها هي مضمون ما طلبوا منه أن يدعو به فهي في معنى مقول قول محذوف كأنه قيل قل لربك يخرج لنا ومقتضى الظاهر أن يقال أن يخرج لنا فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه حتى كأن إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه، وهذا أسلوب تكرر في القرآن مثل قوله: قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة [إبراهيم: ٣١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠١/١

وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن [الإسراء: ٥٣] وهو كثير فهو بمنزلة شرط وجزاء كأن قيل إن تدع ربك بأن يخرج لنا يخرج لنا، وهذا بتنزيل سبب السبب منزلة السبب فجزم الفعل المطلوب في جواب الأمر بطلبه لله للدلالة على تحقق وقوعه لثقتهم بإجابة الله تعالى دعوة موسى، وفيه تحريض على إيجاد ما علق عليه الجواب كأنه أمر في مكنته فإذا لم يفعل فقد شح عليهم بما فيه نفعهم.

والإخراج: الإبراز من الأرض، و (من) الأولى تبعيضية والثانية بيانية أو الثانية أيضا تبعيضية لأنهم لا يطلبون جميع البقل بل بعضه، وفيه تسهيل على المسئول ويكون قوله: من بقلها حالا من (ما) أو هو بدل من (ما تنبت) بإعادة حرف الجر، وعن الحسن: كانوا قوما فلاحة فنزعوا إلى عكرهم (٢) .

وقد اختلف في الفوم فقيل: هو الثوم بالمثلثة وإبدال الثاء فاء شائع في كلام العرب كما قالوا: جدث وجدف وثلغ وفلغ، وهذا هو الأظهر والموافق لما عد معه ولما في التوراة. وقيل الفوم الحنطة وأنشد الزجاج لأحيحة بن الجلاح:

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا ... ورد المدينة من مزارع فوم

---

(١) هي النافية للجنس، المفيدة لاستغراق النفي جميع أفراد الجنس.

(٢) العكر- بكسر العين وسكون الكاف- الأصل.". (١)

٢٤. ٢٤-"بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد حتى تنقطع حجتهم إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهموا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لما تبين لهم من بطلان فكان هذا مرتبطا بقوله:

وآمنوا بما أنزلت مصدقا [البقرة: ٤١] ومقدمة للإنحاء عليهم في مقابلتهم للدعوة المحمدية الآتي ذكرها في قوله تعالى: وقالوا قلوبنا غلف [البقرة: ٨٨] .

فقوله تعالى: ولقد آتينا موسى الكتاب تمهيد للمعطوف وهو قوله: وقفينا من بعده بالرسل الذي هو المبني عليه التعجب في قوله: أفكلما جاءكم رسول فقوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٢/١

ولقد آتينا موسى الكتاب تمهيد التمهيد وإلا فهو قد علم من الآيات السابقة فلا مقتضى للإعلام به استقلالا هنا ولكنه ذكر ليبنى عليه ما بعده فكأنه تحصيل لما تقدم أي ولقد كان ما كان مما تقدم وهو إيتاء موسى الكتاب وقفينا أيضا بعده بالرسل فهو كالعلاوة أو كقول القائل هذا وقد كان كذا.

و (قفى) مضاعف قفا تقول قفوت فلانا إذا جئت في إثره لأنك حينئذ كأنك تقصد جهة قفاه فهو من الأفعال المشتقة من الجوامد مثل جبهه، فصار المضاعف قفاه بفلان تقفية وذلك أنك جعلته مأمورا بأن يقفو بجعل منك لا من تلقاء نفسه أي جعلته يقفوه غيره ولكون المفعول واحدا جعلوا المفعول الثاني عند التضعيف متعلقا بالفعل بباء التعدية لئلا يلتبس التابع بالمتبوع فقالوا: قفى زيدا بعمرو عوض أن يقولوا: قفى زيدا عمرا.

فمعنى قفينا من بعده بالرسل أرسلنا رسلا وقد حذف مفعول قفينا للعلم به وهو ضمير موسى. وقوله: من بعده أي من بعد ذهابه أي موته، وفيه **إيماء** إلى التسجيل على اليهود بأن مجيء الرسل بعد موسى ليس ببدع.

والجمع في الرسل للعدد والتعريف للجنس وهو مراد به التكثير قاله صاحب «الكشاف» أي لأن شأن لفظ الجنس المعرف إذا لم يكن عهد أن يدل على الاستغراق فلما كان الاستغراق هنا متعذرا دل على التكثير مجازا لمشابهة الكثير بجميع أفراد الجنس كقولك لم يبق أحد في البلد لم يشهد الهلال إذا شهده جماعات كثيرة وهو قريب من معنى الاستغراق العرفي (١).

وسمي أنبياء بني إسرائيل الذين من بعد موسى رسلا مع أنهم لم يأتوا بشرع جديد اعتبارا

---

(١) لأن الاستغراق العرفي منظور فيه إلى استغراق جميع الأفراد في مكان أو زمان تنزيلا لهم منزلة الكل. وهذا جعل بمعنى الكثرة لا غير.". (١)

٢٥. ٢٥-"بالنسبة إلى هدى القرآن كلا هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور [المائدة: ٤٤]

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٩٣

وقوله: وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة [المائدة: ٤٦] وإما قصرا إضافيا أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات وبذلك أيضا لا ينتفي الهدى عن كثير من التعاليم والنصائح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص.

وقوله: هو الهدى الضمير ضمير فصل. والتعريف في الهدى تعريف الجنس

الدال على الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل وتعريف الجزأين وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر وللخبر أيضا.

والتوكيد بأن لتحقيق الخبر وتحقيق نسبته وإبطال تردد المتردد لأن القصر الإضافي لما كان المقصود منه رد اعتقاد المخاطب قد لا يتفطن المخاطب إلى ما يقتضيه من التأكيد فزيد هنا مؤكد آخر وهو حرف (إن) اهتماما بتأكيد هذا الحكم. فقد اجتمع في هذه الجملة عدة مؤكدات هي: حرف إن والقصر، إذ القصر تأكيد على تأكيد ما في «المفتاح» فهو في قوة مؤكدين، مع تأكيد القصر بضمير الفصل وهي تنحل إلى أربعة مؤكدات لأن القصر بمنزلة تأكيدين وقد انضم إليهما تأكيد القصر بضمير الفصل وتأكيد الجملة بحرف (إن) .

ولعل الآية تشير إلى أن استقبال النبيء صلى الله عليه وسلم في الصلاة إلى القبلة التي يستقبلها اليهود لقطع معذرة اليهود كما سيأتي في قوله تعالى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه [البقرة: ١٤٣] ، فأعلم رسوله بقوله: ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى بأن ذلك لا يلين من تصلب اليهود في عنادهم فتكون **إيماء** إلى تمهيد نسخ استقبال بيت المقدس.

وقوله: ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم. اللام موطئة للقسم وذلك توكيد للخبر وتحقيق له. وعبر عن طريقتهم هنالك بالملة نظرا لاعتقادهم وشهرة ذلك عند العرب، وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهد له بقوله: إن هدى الله هو الهدى فإن الهوى". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩٤/١

٢٦. ٢٦-"وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم.

وإناطة الحكم بوصف الظالمين **إيماء** إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد.

وفي الآية أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقا لإسناد الإمامة إليه أعني سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك. قال فخر الدين: قال الجمهور من الفقهاء والمتكلمين الفاسق حال فسقه لا يجوز عقد الإمامة له. وفي «تفسير ابن عرفة» تسليم ذلك. ونقل ابن عرفة عن المازري والقرطبي عن الجمهور إذا عقد للإمام على وجه صحيح ثم فسق وجار فإن كان فسقه بكفر وجب خلعه وأما بغيره من المعاصي فقال الخوارج والمعتزلة وبعض أهل السنة يخلع وقال جمهور أهل السنة لا يخلع بالفسق والظلم وتعطيل الحدود ويجب وعظه وترك طاعته فيما لا تجب فيه طاعة وهذا مع القدرة على خلعه فإن لم يقدر عليه إلا بفتنة وحرب فاتفقوا على منع القيام عليه وأن الصبر على جوره أولى من استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء انطلاق أيدي السفهاء والفساق في الأرض وهذا حكم كل ولاية في قول علماء السنة، وما نقل عن أبي حنيفة من جواز كون الفاسق خليفة وعدم جواز كونه قاضيا قال أبو بكر الرازي الجصاص هو خطأ في النقل.

وقرأ الجمهور من العشرة (عهدي) بفتح ياء المتكلم وهو وجه من الوجوه في ياء المتكلم وقرأه حمزة وحفص بإسكان الياء.

[١٢٥]

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٥]

وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود (١٢٥)

تدرج في ذكر منقبة إبراهيم إذ جعل الله بيته بهذه الفضيلة. و (إذ) أضافها إلى جلالته فقال: (بيتي) ، واستهلال لفضيلة القبلة الإسلامية، فالواو عاطفة على ابتلى [البقرة: ١٢٤]

وأعيدت (إذ) للتنبيه على". (١)

٢٧. ٢٧-"وجاء في التوراة (في الإصحاح ١٧ من التكوين) «ظهر الرب لإبرام أي إبراهيم» وقال له: أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملا فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا وفي فقرة ٢٠ وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا» .

وذكر عبد الحق الإسلامي السبتي الذي كان يهوديا فأسلم هو وأولاده وأهله في سبتة وكان موجودا بها سنة ٧٣٦ ست وثلاثين وسبعمائة في كتاب له سماه «الحسام المحدود في الرد على اليهود» : أن كلمة كثيرا جدا أصلها في النص العبراني «مادا مادا» وأنها رمز في التوراة لاسم محمد بحساب الجمل لأن عدد حروف «مادا مادا» بحساب الجمل عند اليهود تجمع عدد اثنين وتسعين وهو عدد حروف محمد اهـ وتبعه على هذا البقاعي في «نظم الدرر» .

ومعنى يتلوا عليهم آياتك يقرؤها عليهم قراءة تذكير، وفي هذا **إيماء** إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع. فالآيات جمع آية وهي الجملة من جمل القرآن، سميت آية لدلالتها على صدق الرسول بمجموع ما فيها من دلالة صدور مثلها من أمي لا يقرأ ولا يكتب، وما نسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة على توحيد الله وكمال صفاته دلالة لم تترك مسلكا للضلال في عقائد الأمة بحيث أمنت هذه الأمة من الإشراك،

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا» .

وجيء بالمضارع في قوله: يتلوا للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته.

والحكمة العلم بالله ودقائق شرائعه وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده، وعن مالك: الحكمة معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك، وعن الشافعي الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلاهما ناظر إلى أن عطف الحكمة على الكتاب يقتضي شيئا من المغايرة بزيادة معنى وسيجيء تفصيل معنى الحكمة عند قوله تعالى: يؤتي الحكمة من يشاء في هذه السورة

---

(١) التحرير والتنوير ٧٠٧/١

. [٢٦٩]
والتزكية التطهير من النقائص وأكبر النقائص الشرك بالله، وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن وأبوا إلا البقاء على الشرك.
وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه قال تعالى: فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه [القيامة: ١٨، ١٩] العلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن.". (١)

٢٨. ٢٨-"يقول البصريون في هذه الآية إنه مقدر قول محذوف خلافا للكوفيين القائلين بأن وصى ونحوه ناصب للجملة المقولة، ويشبه أن يكون الخلاف بينهم لفظيا.
واصطفى لكم اختار لكم الدين أي الدين الكامل، وفيه إشارة إلى أنه اختاره لهم من بين الأديان وأنه فضلهم به لأن اصطفى لك يدل على أنه ادخره لأجله، وأراد به دين الحنيفية المسمى بالإسلام فلذلك قال: فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.
ومعنى فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون النهي عن مفارقة الإسلام أعنى ملة إبراهيم في جميع أوقات حياتهم، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة لأن الحي لا يدري متى يأتيه الموت فنهي أحد عن أن يموت غير مسلم أمر بالاتصاف بالإسلام في جميع أوقات الحياة فالمراد من مثل هذا النهي شدة الحرص على تلك المنهي.
وللعرب في النهي المراد منه النهي عن لازمه طرق ثلاثة: الأول: أن يجعلوا المنهي عنه مما لا قدرة للمخاطب على اجتنابه فيدلوا بذلك على أن المراد نفي لازمه مثل قولهم لا تنس كذا أي لا ترتكب أسباب النسيان، ومثل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا أي لا تفعل فأعرفك لأن معرفة المتكلم لا ينهي عنها المخاطب،
وفي الحديث: «فلا يذادن أقوام عن حوضي»
، الثاني: أن يكون المنهي عنه مقدورا للمخاطب ولا يريد المتكلم النهي عنه ولكن عما يتصل به أو يقارنه فيجعل النهي في اللفظ عن شيء ويقيده بمقارنه للعلم بأن المنهي عنه مضطر لإيقاعه فإذا أوقعه اضطر لإيقاع مقارنه نحو قولك لا أراك بثياب مشوهة، ومنه قوله

(١) التحرير والتنوير ٧٢٣/١

تعالى: فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، الثالث: أن يكون المنهي عنه ممكن الحصول ويجعله مفيدا مع احتمال المقام لأن يكون النهي عن الأمرين إذا اجتمعا ولو لم يفعل أحدهما نحو لا تجئني سائلا وأنت تريد أن لا يسألك فإما أن يجيء ولا يسأل وإما أن لا يجيء بالمرة، وفي الثانية إثبات أن بني إبراهيم ويعقوب كانوا على ملة الإسلام وأن الإسلام جاء بما كان عليه إبراهيم وبنوه حين لم يكن لأحد سلطان عليهم، وفيه **إيماء** إلى أن ما طرأ على بنيه بعد ذاك من الشرائع إنما اقتضته أحوال عرضت وهي دون الكمال الذي كان عليه إبراهيم ولهذا قال تعالى: إن الدين عند الله الإسلام [آل عمران: ١٩] وقال: وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم

المسلمين من قبل

[الحج: ٧٨] .". (١)

٢٩. ٢٩-"اختلف في اشتقاق سبط قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما في سورة الأعراف [١٦٠] عن الزجاج: الأظهر أن السبط عبراني عرب اهـ.

قلت: وفي العبرانية سيبط بتحتية بعد السين ساكنة.

وجملة: قالوا نعبد إلهك جواب عن قوله: ما تعبدون جاءت على طريقة المحاورات بدون واو وليست استئنافا لأن الاستئناف إنما يكون بعد تمام الكلام ولا تمام له قبل حصول الجواب. وجيء في قوله: نعبد إلهك معرفا بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين وحثيين وأراميين ثم كان موت يعقوب في أرض الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى. وأيضا فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آبائه أن فيها **إيماء** إلى أنهم مقتدون بسلفهم.

(١) التحرير والتنوير ٧٢٩/١

وفي الإتيان بعطف البيان من قولهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ضرب من محسن الاطراد تنويها بأسماء هؤلاء الأسلاف كقول ربيعة بن نصر بن قعين:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وإنما أعيد المضاف في قوله: وإله آبائك لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام وليست بواجبة، وإطلاق الآباء على ما شمل إسماعيل وهو عم ليعقوب إطلاق من باب التغليب ولأن العم بمنزلة الأب.

وقد مضى التعريف بإبراهيم وإسماعيل.

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم وهو أصغر من إسماعيل بأربع عشرة سنة وأمه سارة.

ولد سنة ١٨٩٦ ست وتسعين وثمانمائة وألف قبل ميلاد المسيح وهو جد بني إسرائيل وغيرهم من أمم تقرب لهم.

واليهود يقولون: إن الابن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه وفداه الله هو إسحاق، والحق أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل في صغره حين لم يكن لإبراهيم ولد غيره ليظهر كمال الامتثال". (١)

٣٠. ٣٠-"والمعنى: وتزول قوتكم ونفوذ أمركم، وذلك لأن التنازع يفضي إلى التفرق، وهو يوهن أمر الأمة، كما تقدم في معنى الفشل.

ثم أمرهم الله بشيء يعم نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفا في قوله: فاثبتوا واذكروا الله كثيرا وفي قوله:

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا الآية. ألا وهو الصبر، فقال: واصبروا لأن الصبر هو تحمل المكروه، وما هو شديد على النفس، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمل المكاره، فالصبر يجمع تحمل الشدائد والمصاعب، ولذلك كان قوله: واصبروا بمنزلة التذييل.

وقوله: إن الله مع الصابرين **إيماء** إلى منفعة للصبر إلهية، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلها.

وجملة إن الله مع الصابرين قائمة مقام التعليل للأمر، لأن حرف التأكيد في مثل هذا قائم

---

(١) التحرير والتنوير ٧٣٣/١

مقام فاء التفريع، كما تقدم في مواضع.

[٤٧]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٧]

ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (٤٧)

جملة: ولا تكونوا معطوفة على ولا تنازعوا [الأنفال: ٤٦] عطف نهي على نهي.

ويصح أن تكون معطوفة على جملة فاثبتوا [الأنفال: ٤٥] عطف نهي على أمر، إكمالا لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء، بأن يتلبسوا بما يدنيهم من النصر، وأن يتجنبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد.

وجيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين". (١)

٣١. ٣١-"وأما الإضمار في آل عمران فلكون التكذيب تكذيبا لآيات دالة على ثبوت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلم.

وأما الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا، دونه في سورة آل عمران [١١] ، فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم، بمعنى لازمها، وهو إنزال الضر بهم، وينكرون أنه شديد العقاب لهم، فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين، وفي سورة آل عمران [١١] لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله، عقبه: قل للذين كفروا ستغلبون [آل عمران: ١٢] الآية.

وزيد وصف «قوي» هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

والقوي الموصوف بالقوة، وحقيقتها كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال التي تراد منها،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/١٠

وهي متفاوتة مقول عليها بالتشكيك.

وقد تقدم عند قوله تعالى: فخذها بقوة [الأعراف: ١٤٥] . وهي إذا وصف الله بها مستعملة في معناها اللزومي وهي منتهى القدرة على فعل ما تتعلق به إرادته تعالى من الممكنات.

والمقصود من ذكر هذين الوصفين: **الإيماء** إلى أن أخذهم كان قويا شديدا، لأنه عقاب قوي شديد العقاب، كقوله: فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر [القمر: ٤٢] ، وقوله:

إن أخذه أليم شديد [هود: ١٠٢] .

[٥٣]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٥٣]

ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم (٥٣)

استئناف بياني. والإشارة إلى مضمون قوله: فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب [الأنفال: ٥٢] أي ذلك المذكور بسبب أن الله لم يك مغيرا إلخ أي ذلك الأخذ بسبب أعمالهم التي تسببوا بها في زوال نعمتهم.". (١)

٣٢. ٣٢-"النبيء صلى الله عليه وسلم، وهم على كفرهم، ثم نقضوا عهدهم، وهم مستمرون على الكفر، وإنما وصفهم ب شر الدواب لأن دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أسطع، ولأن الدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بينة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له، وقد اندرج الفريقان من الكفار في جنس شر الدواب.

وتقدم آنفا الكلام على نظير قوله: إن شر الدواب عند الله الصم البكم [الأنفال: ٢٢] الآية.

وتعريف المسند بالموصولية **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر عنهم بأنهم شر الدواب.

والفاء في فهم لا يؤمنون عطفت صلة على صلة، فأفادت أن الجملة الثانية من الصلة، وأنها

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤/١٠

تمام الصلة المقصودة **للإيماء**، أي: الذين كفروا من قبل الإسلام فاستمر كفرهم فهم لا يؤمنون بعد سماع دعوة الإسلام. ولما كان هذا الوصف هو الذي جعلهم شر الدواب عند الله عطف هنا بالفاء للإشارة إلى أن سبب إجراء ذلك الحكم عليهم هو مجموع الوصفين، وأتى بصلة فهم لا يؤمنون جملة اسمية لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنهم غير مرجو منهم الإيمان.

فإن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي مع عدم إيلاء المسند إليه حرف النفي، لقصد إفادة تقوية نفي الإيمان عنهم، أي الذين ينتفي الإيمان منهم في المستقبل انتفاء قويا فهم بعداء عنه أشد الابتعاد.

وليس التقديم هنا مفيدا للتخصيص لأن التخصيص لا أثر له في الصلة، ولأن

الأكثر في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي، إذا لم يقع المسند إليه عقب حرف النفي، أن لا يفيد تقديمه إلا التقوي، دون التخصيص، وذلك هو الأكثر في القرآن كقوله تعالى: وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون [البقرة: ٢٧٢] إذ لا يراد وأنتم دون غيركم لا تظلمون.

فقوله: الذين عاهدت منهم بدل من الذين كفروا بدلا مطابقا، فالذين عاهدهم هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون. وتعدية عاهدت بمن للدلالة على أن العهد كان يتضمن التزاما من جانبهم، لأنه يقال أخذت منه عهدا، أي التزاما،". (١)

٣٣. ٣٣-"و (صابرون) ثابتون في القتال، لأن الثبات على الآلام صبر، لأن أصل الصبر تحمل المشاق، والثبات منه، قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا وفي الحديث: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لاقيتم فاصبروا»

. وقال النابغة:

تجنب بني حن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تلق إلا بصابر

وقال زفر بن الحارث الكلابي:

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

والمعنى: عرفوا بالصبر والمقدرة عليه، وذلك باستيفاء ما يقتضيه من أحوال الجسد وأحوال

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٤٧

النفس، وفيه إيماء إلى توخي انتقاء الجيش، فيكون قيدا للتحريض، أي: حرض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون، فالمقصود أن لا يكون فيهم من هو ضعيف النفس فيفشل الجيش، كقول طالوت إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني [البقرة: ٢٤٩] .

وذكر في جانب جيش المسلمين في المرتين عدد العشرين وعدد المائة، وفي جانب جيش المشركين عدد المائتين وعدد الألف، إيماء إلى قلة جيش المسلمين في ذاته، مع الإيماء إلى أن ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم في أنفسهم، فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوي نفوس أهله، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهن استشعار قلة عدد جيشهم في ذاته.

أما اختيار لفظ العشرين للتعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ العشرة: فلعل وجهه أن لفظ العشرين أسعد بتقابل السكنات في أواخر الكلم لأن للفظة مائتين من المناسبة بسكنات كلمات الفواصل من السورة، ولذلك ذكر المائة مع الألف، لأن بعدها ذكر مميز العدد بألفاظ تناسب سكنات الفاصلة، وهو قوله: لا يفقهون فتعين هذا اللفظ قضاء لحق الفصاحة.". (١)

٣٤. ٣٤-"فهذا الخبر كفالة للمسلمين بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله، من عددهم وهو يستلزم وجوب ثبات العدد منهم، لعشرة أمثاله، وبذلك يفيد إطلاق الأمر بالثبات للعدو الواقع في قوله: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا [الأنفال: ٤٥] ، وإطلاق النهي عن الفرار الواقع في قوله: فلا تولوهم الأدبار [الأنفال: ١٥] الآية كما تقدم. وهو من هذه الناحية التشريعية حكم شديد شاق اقتضته قلة عدد المسلمين يومئذ وكثرة عدد المشركين، ولم يصل إلينا أن المسلمين احتاجوا إلى العمل به في بعض غزواتهم، وقصارى ما علمنا أنهم ثبتوا لثلاثة أمثالهم في وقعة بدر، فقد كان المسلمون زهاء ثلاثمائة وكان المشركون زهاء الألف، ثم نزل التخفيف من بعد ذلك بالآية التالية.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٧/١٠

والتعريف بالموصول في الذين كفروا **للإيماء** إلى وجه بناء الخير الآتي: وهو سلب الفقاهة عنهم.

والباء في قوله: بأنهم للسببية. أي بعدم فقههم. وإجراء نفي الفقاهة صفة

ل قوم دون أن يجعل خبرا فيقال: ذلك بأنهم لا يفقهون، لقصد إفادة أن عدم الفقاهة صفة ثابتة لهم بما هم قوم، لئلا يتوهم أن نفي الفقاهة عنهم في خصوص هذا الشأن، وهو شأن الحرب المتحدث عنه، للفرق بين قولك: حدثت فلانا حديثا فوجدته لا يفقه، وبين قولك: فوجدته رجلا لا يفقه.

والفقه فهم الأمور الخفية، والمراد نفي الفقه عنهم من جانب معرفة الله تعالى بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم.

وإنما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم: لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره، فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب الظاهرية، فيحسبون أن كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلين لقولهم: «إنما الغرة للكاثر» ، ولأنهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح، والمؤمنون يعولون على نصر الله، ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله، ولا يهابون الموت في سبيل الله، لأنهم موقنون بالحياة الأبدية المسرة بعد الموت.". (١)

٣٥. ٣٥-"ويجوز في ضاد (ضعف) الضم والفتح، كالمكث والمكث، والفقر والفقر، وقد قرئ بهما فقرأه الجمهور- بضم الضاد- وقرأه عاصم، وحمزة، وخلف- بفتح الضاد-.

ووقع في كتاب «فقه اللغة» للثعالبي أن الفتح في وهن الرأي والعقل، والضم في وهن الجسم، وأحسب أنها تفرقة طارئة عند المولدين.

وقرأ أبو جعفر ضعفاء- بضم الضاد وبمد في آخره- جمع ضعيف.

والفاء في قوله: فإن تكن منكم مائة صابرة لتفريع التشريع على التخفيف.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب تكن بالمثناة الفوقية.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٦٨

وقرأه البقية- بالتحتية- للوجه المتقدم آنفا.

وعبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما: ليجيء الناسخ على وفق المنسوخ، فقوبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقي مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة، **إيماء** إلى أن موجب التخفيف كثرة المسلمين، لا قلة المشركين، وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين **إيماء** إلى أن المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف.

وأعيد وصف مائة المسلمين ب صابرة لأن المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات.

ولم توصف مائة الكفار بالكفر وبأنهم قوم لا يفقهون: لأنه قد علم، ولا مقتضي لإعادته.

و بإذن الله أمره فيجوز أن يكون المراد أمره التكليفي، باعتبار ما تضمنه الخبر من الأمر، كما تقدم، ويجوز أن يراد أمره التكويني باعتبار صورة الخبر والوعد.". (١)

٣٦. ٣٦-"و «ما أخذ» هو مال الفداء، والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها. فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بعد إسلامه من فيء البحرين. وإنما حملنا الخير على الأفضل من المال لأن ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع، ولأنه عطف عليه قوله: ويغفر لكم وذلك هو خير الآخرة المترتب على الإيمان، لأن المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن.

والتذييل بقوله: والله غفور رحيم **للإيماء** إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم، لأنها مغفرة شديد الغفران رحيم بعباده، فمثال المبالغة وهو غفور المقتضي قوة المغفرة وكثرتها، مستعمل فيهما باعتبار كثرة المخاطبين وعظم المغفرة لكل واحد منهم.

وقرأ الجمهور من الأسرى - بفتح الهمزة وراء بعد السين- مثل أسرى الأولى، وقرأها أبو عمرو، وأبو جعفر من الأسارى- بضم الهمزة وألف بعد السين وراءه- فورود هما في هذه الآية تفنن.

---

(١) التحرير والتنوير ٧١/١٠

[٧١]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧١]

وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم (٧١)

الضمير في يريدوا عائد إلى من في أيديكم من الأسرى. وهذا كلام خاطب به الله رسوله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لنفسه، وليبلغ مضمونه إلى الأسرى، ليعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنة على المسلمين التي أفادها قوله: فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا [الأنفال: ٦٩] ، فكمل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة، أي: أن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة. والخيانة نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة.". (١)

٣٧. ٣٧-"الذين لم يطلعوا على دخيلة الأمر، فلعل بعض قبائل العرب من المشركين يتعجب من هذه البراءة، ويسأل عن سببها، وكيف أنهيت العهود وأعلنت الحرب، فكان المقام مقام بيان سبب ذلك، وأنه أمران: بعد ما بين العقائد، وسبق الغدر.

والاستفهام ب كيف: إنكاري إنكارا لحالة كيان العهد بين المشركين وأهل الإسلام، أي دوام العهد في المستقبل مع الذين عاهدوهم يوم الحديبية وما بعده ففعل يكون مستعمل في معنى الدوام مثل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله [النساء: ١٣٦] كما دل عليه قوله بعده فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. وليس ذلك إنكارا على وقوع العهد، فإن العهد قد انعقد بإذن من الله، وسماه الله فتحا في قوله: إنا فتحنا لك فتحا مبينا [الفتح: ١] وسمي رضى المؤمنين به يومئذ سكينة في قوله: هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين [الفتح: ٤] .

والمعنى: أن الشأن أن لا يكون لكم عهد مع أهل الشرك، للبون العظيم بين دين التوحيد

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٨١

ودين الشرك، فكيف يمكن اتفاق أهليهما، أي فما كان العهد المنعقد معهم إلا أمرا موقتا بمصلحة. ففي وصفهم بالمشركين **إيماء** إلى علة الإنكار على دوام العهد معهم.

وهذا يؤيد ما فسرنا به وجه إضافة البراءة إلى الله ورسوله، وإسناد العهد إلى ضمير المسلمين، في قوله تعالى: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم [التوبة: ١] .

ومعنى عند الاستقرار المجازي، بمعنى الدوام أي إنما هو عهد موقت، وقد كانت قريش نكثوا عهدهم الذي عاهدوه يوم الحديبية، إذ أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على خزاعة، وكانت خزاعة داخلة في عهد النبيء صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك سبب التجهيز لغزوة فتح مكة.

واستثناء إلا الذين عاهدتم، من معنى النفي الذي استعمل فيه الاستفهام ب كيف يكون للمشركين عهد، أي لا يكون عهد المشركين إلا المشركين الذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

والذين عاهدوهم عند المسجد الحرام: هم بنو ضمرة، وبنو جذيمة بن الديل، من كنانة وبنو بكر من كنانة.". (١)

٣٨. ٣٨-"و (مساجد الله) مواضع عبادته بالسجود والركوع: المراد المسجد الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى.

وعمر المساجد: العبادة فيها لأنها إنما وضعت للعبادة، فعمرها بمن يحل فيها من المتعبدين، ومن ذلك اشتقت العمرة، والمعنى: ما يحق للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله. وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين: **إيماء** إلى أن الشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله.

وقد جاء الحال في قوله: شاهدين على أنفسهم بالكفر مبينا لسبب براءتهم من أن يعمروا مساجد الله، وهو حال من ضمير يعمروا فبين عامل الضمير وهو يعمروا الداخل في حكم الانتفاء، أي: انتفى تأهلهم لأن يعمروا مساجد الله بحال شهادتهم على أنفسهم بالكفر، فكان لهذه الحال مزيد اختصاص بهذا الحرمان الخاص من عمارة مساجد الله، وهو

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٠

الحرمان الذي لا استحقاق بعده.
والمراد بالكفر: الكفر بالله، أي بوحدانيته، فالكفر مرادف للشرك، فالكفر في حد ذاته موجب للحرمان من عمارة أصحابه مساجد الله، لأنها مساجد الله فلا حق لغير الله فيها، ثم هي قد أقيمت لعبادة الله لا لغيره، وأقام إبراهيم- عليه السلام- أول مسجد وهو الكعبة عنوانا على التوحيد، وإعلانا به، كما تقدم في قوله تعالى: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا في سورة آل عمران [٩٦] ، فهذه أول درجة من الحرمان. ثم كون كفرهم حاصلا باعترافهم به موجب لانتفاء أقل حظ من هذه العمارة، وللبراءة من استحقاقها، وهذه درجة ثانية من الحرمان.
وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ، ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها.
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: بإفراد مسجد الله أي المسجد الحرام وهو المقصود، أو التعريف بالإضافة للجنس. وقرأ الباقون: مساجد الله، فيعم المسجد الحرام وما عددناه معه آنفا.". (١)

٣٩. ٣٩-"وأما الأعنة والقبة فقبة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش وسميت الأعنة وكانت لبني مخزوم. وهم أبناء عم قصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد.
وأما الحكومة وأموال الآلهة- ولم أقف على حقيقتها- فأحسب أن تسميتها الحكومة لأن المال المتجمع بها هو ما يحصل من جزاء الصيد في الحرم أو في الإحرام. وأما تسميتها أموال الآلهة لأنها أموال تحصل من نحو السائبة والبحيرة وما يوهب للآلهة من سلاح ومتاع. فكانت لبني سهم وهم أبناء عم لقصي. وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن قيس بن سهم.
وأما الأيسار وهي الأزلام التي يستقسمون بها فكانت لبني جمح وهم أبناء عم لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد صفوان بن أمية بن خلف.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٠/١٠

وقد أبطل الإسلام جميع هذه المناصب، عدا السدانة والسقاية،
لقول النبيء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع «ألا إن كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت»
(١).
وكانت مناصب العرب التي بيد قصي بن كلاب خمسة: الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء- فلما كبر قصي جعل المناصب لابنه عبد الدار، ثم اختصم أبناء قصي بعد موته وتداعوا للحرب، ثم تداعوا للصلح، على أن يعطوا بني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأحدثت مناصب لبعض من قريش غير أبناء قصي فانتهت المناصب إلى عشرة كما ذكرنا.
وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ليس لأنه محل التسوية المردودة عليهم لأنهم لم يدعوا التسوية بين السقاية أو العمارة بدون الإيمان، بل ذكر الإيمان إدماج، **للإيماء** إلى
أن الجهاد أثر الإيمان، وهو ملازم للإيمان، فلا يجوز للمؤمن التنصل منه بعلة اشتغاله بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. وليس ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر لكون الذين جعلوا مزية سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مثل مزية الإيمان

---

(١) رواه ابن الأثير في «النهاية» في مادة (أثر) ومادة (سقى) .". (١)

٤٠. ٤٠-"برهان على أن الإيمان هو الأصل، وأن شعبه المتولدة منه أفضل الأعمال، وأن ما عداها من المكارم والخيرات في الدرجة الثانية في الفضل، لأنها ليست من شعب الإيمان، وإن كان كلا الصفتين لا ينفع إلا إذا كان مع الإيمان، وخاصة الجهاد.
وفيه **إيماء** إلى أنه: لولا الجهاد لما كان أهل السقاية وعمارة المسجد الحرام مؤمنين، فإن إيمانهم كان من آثار غزوة فتح مكة وجيش الفتح إذ آمن العباس بن عبد المطلب وهو صاحب السقاية، وآمن عثمان بن طلحة وهو صاحب عمارة المسجد الحرام.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٥/١٠

فأما ما رواه الطبري والواحدي عن ابن عباس: من أن نزول هذه الآية كان يوم بدر، بسبب المماراة التي وقعت بين علي بن أبي طالب والعباس، فموقع التذييل بقوله:

والله لا يهدي القوم الظالمين واضح: أي لا يهدي المشركين الذين يسقون الحاج ويعمرون المسجد الحرام، إذ لا يجدي ذلك مع الإشراك. فتبين أن ما توهموه من المساواة بين تلك الأعمال وبين الجهاد، وتنازعهم في ذلك، خطأ من النظر، إذ لا تستقيم تسوية التابع بالمتبوع والفرع بالأصل، ولو كانت السقاية والعمارة مساويتين للجهاد لكان أصحابهما قد اهتدوا إلى نصر الإيمان، كما اهتدى إلى نصره المجاهدون، والمشاهدة دلت على خلاف ذلك: فإن المجاهدين كانوا مهتدين ولم يكن أهل السقاية والعمارة بالمهتدين. فالهداية شاع إطلاقها مجازا باستعارتها لمعنى الإرشاد على المطلوب، وهي بحسب هذا الإطلاق مراد بها مطلوب خاص وهو ما يطلبه من يعمل عملا يتقرب به إلى الله، كما يقتضيه تعقيب ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد بهذه الجملة.

وكني بنفي الهداية عن نفي حصول الغرض من العمل.

والمعنى: والله لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم.

ونسب إلى ابن وردان أنه روى عن أبي جعفر أنه قرأ: سقاة الحاج- بضم السين جمع الساقي- وقرأ وعمرة- بالعين المفتوحة وبدون ألف وبفتح الراء جمع عامر- وقد اختلف فيها عن ابن وردان.". (١)

٤١. ٤١-"والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا الفوز لأجل تلك الأوصاف التي ميزتهم: وهي الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس.
[٢١، ٢٢]

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٢١ إلى ٢٢]

يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (٢١) خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم (٢٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/١٠

بيان للدرجة العظيمة التي في قوله: أعظم درجة عند الله [التوبة: ٢٠] فتلك الدرجة هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم. ومجموع هذه الأمور لم يمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة، الذين وإن صلحوا لأن ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها.

والتبشير: الإخبار بخير يحصل للمخبر لم يكن عالما به.

فإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدد إدخال السرور بذلك لهم، لأن تجدد التبشير يؤذن بأن المبشر به شيء لم يكن معلوما للمبشر (بفتح الشين) وإلا لكان الإخبار به تحصيلا للحاصل.

وكون المسند إليه لفظ الرب، دون غيره مما يدل على الخالق سبحانه، **إيماء** إلى الرحمة بهم والعناية: لأن معنى الربوبية يرجع إلى تدبير المربوب والرفق به واللطف به، ولتحصل به الإضافة إلى ضميرهم إضافة تشريف.

وتقدمت الرحمة في قوله: الرحمن الرحيم [الفاتحة: ١] .

والرضوان- بكسر الراء وبضمها-: الرضا الكامل الشديد، لأن هذه الصيغة تشعر بالمبالغة مثل الغفران والشكران والعصيان.

والجنات تقدم الكلام عليها في ذكر الجنة في سورة البقرة، وجمعها باعتبار مراتبها وأنواعها وأنواع النعيم فيها.". (١)

٤٢. ٤٢-"الأول يوم حنين، على أن التراخي الزمني مراد تنزيلا لعظم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإن أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت.

والسكينة: الثبات واطمئنان النفس وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى: أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم في سورة البقرة [٢٤٨] ، وتعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سكينة خارقة للعادة ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه أنفا كرامة لنبيئه صلى الله عليه وسلم وإجابة لندائه الناس، ولذلك قدم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٩/١٠

وإعادة حرف على بعد حرف العطف: تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول- عليه الصلاة والسلام- سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف.

والجنود جمع جند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو الجماعة المهيئة للحرب، وواحده بياء النسب: جندي، وقد تقدم عند قوله تعالى: فلما فصل طالوت بالجنود في سورة البقرة [٢٤٩] . وقد يطلق الجند على الأمة العظيمة ذات القوة، كما في قوله تعالى: هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود في سورة البروج [١٧، ١٨] والمراد بالجنود هنا جماعات من الملائكة موكلون بهزيمة المشركين كما دل عليه فعل أنزل، أي أرسلها الله لنصرة المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولذلك قال:

لم تروها ولكون الملائكة ملائكة النصر أطلق عليها اسم الجنود.

وتعذيبه الذين كفروا: هو تعذيب القتل والأسر والسبي.

والإشارة ب وذلك جزاء الكافرين إلى العذاب المأخوذ من عذب.

[٢٧]

[سورة التوبة (٩) : آية ٢٧]

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم (٢٧)

ثم للتراخي الرتبي، عطف على جملة ثم أنزل الله سكينته على رسوله إلى قوله وذلك جزاء الكافرين [التوبة: ٢٦] . وهذا إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة فإنهم". (١)

٤٣. ٤٣-"[سورة التوبة (٩) : آية ٣٣]

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٣٣)

بيان لجملة ويأبى الله إلا أن يتم نوره [التوبة: ٣٢] بأنه أرسل رسوله بهذا الدين، فلا يريد إزالته، ولا يجعل تقديره باطلا وعبثا. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٨/١٠

الدين.

وفي قوله: هو الذي أرسل رسوله صيغة قصر، أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يطفئونه.

واجتلاب اسم الموصول: للإيماء إلى أن مضمون الصلة علة للجملة التي بنيت عليها هذه الجملة وهي جملة: ويأبى الله إلا أن يتم نوره [التوبة: ٣٢] .

وعبر عن الإسلام بالهدى ودين الحق تنويها بفضله، وتعريضا بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.

وفعل الإظهار إذا عدي ب على كان مضمنا معنى النصر، أو التفضيل، أي لينصره على الأديان كلها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها، ومنه المظاهرة أي المناصرة، وقد تقدم ذكرها آنفا عند قوله: ولم يظاهروا عليكم أحدا [التوبة: ٤] .

فالإسلام كان أشرف الأديان: لأن معجزة صدقه القرآن، وهو معجزة تدرك بالعقل، ويستوي في إدراك إعجازها جميع العصور، ولخلو هذا الدين عن جميع العيوب في الاعتقاد والفعل، فهو خلي عن إثبات ما لا يليق بالله تعالى، وخلي عن وضع التكاليف الشاقة، وخلي عن الدعوة إلى الإعراض عن استقامة نظام العالم، وقد فصلت ذلك في الكتاب الذي سميته «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام» .

وظهور الإسلام على الدين كله حصل في العالم باتباع أهل الملل إياه في سائر الأقطار، بالرغم على كراهية أقوامهم وعظماء مللهم ذلك، ومقاومتهم إياه بكل حيلة ومع ذلك فقد ظهر وعلا وبان فضله على الأديان التي جاورها وسلامته من الخرافات". (١)

٤٤. ٤٤-"عليه وسلم وصاحبيه فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستجلبه من الشام وخشي أبو ذر الفتنة في المدينة فاعتزلها وسكن الربذة وثبت على رأيه وقوله.

والفاء في قوله: فبشرهم داخلة على خبر الموصول، لتنزيل الموصول منزلة الشرط، لما فيه من الإيماء إلى تعليل الصلة في الخبر، فضمير الجمع عائد إلى الذين ويجوز كون الضمير عائدا

(١) التحرير والتنوير ١٧٣/١٠

إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون. والفاء للفصيحة بأن يكون بعد أن ذكر آكلي الأموال الصادين عن سبيل الله وذكر الكانزين، أمر رسوله بأن ينذر جميعهم بالعذاب، فدلت الفاء على شرط محذوف تقديره: إذا علمت أحوالهم هذه فبشرهم، والتبشير مستعار للوعيد على طريقة التهكم.

[٣٥]

[سورة التوبة (٩) : آية ٣٥]

يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٣٥)

انتصب يوم يحمى على الظرفية لعذاب [التوبة: ٣٤] ، لما في لفظ عذاب من معنى يعذبون.

وضمير عليها عائد إلى الذهب والفضة [التوبة: ٣٤] بتأويلهما بالدنانير والدراهم، أو عائد إلى أموال الناس [التوبة: ٣٤] والذهب والفضة [التوبة: ٣٤] ، إن كان الضمير في قوله: فبشرهم [التوبة: ٣٤] عائدا إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون [التوبة: ٣٤] .

والحمي شدة الحرارة. يقال: حمي الشيء إذا اشتد حره.

والضمير المجرور بعلى عائد إلى الذهب والفضة [التوبة: ٣٤] باعتبار أنها دنانير أو دراهم، وهي متعددة وبني الفعل للمجهول لعدم تعلق الغرض بالفاعل، فكأنه قيل: يوم يحمي الحامون عليها، وأسند الفعل المبني للمجهول إلى المجرور لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحمي لظهوره: إذ هو النار التي تحمى، ولذلك لم يقرن بعلامة التأنيث، عدي بعلى الدالة على الاستعلاء المجازي لإفادة أن الحمي تمكن من الأموال بحيث تكتسب حرارة المحمي كلها، ثم أكد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: في نار جهنم فصارت الأموال محمية عليها النار وموضوعة في النار.". (١)

٤٥. ٤٥-"[سورة التوبة (٩) : آية ٤٣]

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣)

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٨/١٠

استأذن فريق من المنافقين النبيء صلى الله عليه وسلم، أن يتخلفوا عن الغزوة، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة وأذن النبيء صلى الله عليه وسلم لمن استأذنه حملا للناس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلما بأن المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا، كما قال تعالى:
لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا [التوبة: ٤٧] فعاتب الله نبيئه صلى الله عليه وسلم في أن أذن لهم،
لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلا للنبيء صلى الله عليه وسلم على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان، كما قال الله تعالى: ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم [محمد: ٣٠].
والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنه غرض أنف.
وافتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب العتاب لأنه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقربين.
وألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة **إيماء** إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيء صلى الله عليه وسلم.
وحذف متعلق أذنت لظهوره من السياق، أي لم أذنت لهم في القعود والتخلف.". (١)

٤٦. ٤٦-"ومعنى هذه الآية: أن الله كشف سرا من أسرار نفوس المنافقين بأنه خلق في نفوسهم شحا وحرصا على المال وفتنة بتوفيره والإشفاق من ضياعه، فجعلهم بسبب ذلك في عناء وعذاب من جراء أموالهم، فهم في كبد من جمعها. وفي خوف عليها من النقصان،

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢١٠

وفي ألم من إنفاق ما يلجئهم الحال إلى إنفاقه منها، فقد أراد الله تعذيبهم في الدنيا بما الشأن أن يكون سبب نعيم وراحة، وتم مراده. وهذا من أشد العقوبات الدنيوية وهذا شأن البخلاء وأهل الشح مطلقا، إلا أن المؤمنين منهم لهم مسلاة عن الرزايا بما يرجون من الثواب على الإنفاق أو على الصبر. ثم يجوز أن يكون هذا الخلق قد جبلهم الله عليه من وقت وجودهم فيكون ذلك من جملة بواعث كفرهم ونفاقهم، إذ الخلق السيء يدعو بعضه بعضا، فإن الكفر خلق سيء فلا عجب أن تنساق إليه نفس البخيل الشحيح، والنفاق يبعث عليه الخلق السيء من الجبن والبخل، ليتقي صاحبه المخاطر، وكذلك الشأن في أولادهم إذ كانوا في فتنة من الخوف على إيمان بعض أولادهم، وعلى خلاف بينهم وبين بعض أولادهم الموفقين إلى الإسلام: مثل حنظلة: ابن أبي عامر الملقب غسيل الملائكة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي فكان ذلك من تعذيب أبويهما.

ولكون ذكر الأولاد كالتكملة هنا لزيادة بيان عدم انتفاعهم بكل ما هو مظنة أن ينتفع به الناس، عطف الأولاد بإعادة حرف النفي بعد العاطف، **إيماء** إلى أن ذكرهم كالتكملة والاستطراد.

واللام في ليعذبهم للتعليل: تعلقت بفعل الإرادة للدلالة على أن المراد حكمة وعلة فتغني عن مفعول الإرادة، وأصل فعل الإرادة أن يعدى بنفسه كقوله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [البقرة: ١٨٥] ويعدى غالبا باللام كما في هذه الآية وقوله تعالى: يريد الله ليبين لكم في سورة النساء [٢٦] وقول كثير:

أريد لأنسى حبها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل مكان

وربما عدوه باللام وكي مبالغة في التعليل كقول قيس بن عبادة:

أردت لكيما يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود". (١)

٤٧. ٤٧-"بالإيمان، كما فسر به المفسرون، يعنون بالمؤمنين المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر، وهم المنافقون.

وقرأ حمزة- بجر- ورحمة عطفا على خير، أي أذن رحمة، والمآل واحد.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٨/١٠

وقد جاء ذكر هذه الخصلة مع الخصلتين الأخريين على عادة القرآن في انتهاز فرصة الإرشاد إلى الخير، بالترغيب والترهيب، فرغبهم في الإيمان ليكفروا عن سيئاتهم الفارطة،

ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول بقوله: والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبيء بوصف رسول الله إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم، فهو من تعليق الحكم بالمشتق المؤذن بالعلية.

وفي الموصول إيماء إلى أن علة العذاب هي الإيذاء، فالعلة مركبة.

[٦٢]

[سورة التوبة (٩) : آية ٦٢]

يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٢)

عدل عن أسلوب الحكاية عنهم بكلمة ومنهم، لأن ما حكي هنا حال من أحوال جميعهم. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، فلا تغرهم أيمانهم، فضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبيء.

والمراد: الحلف الكاذب، بقرينة قوله: والله ورسوله أحق أن يرضوه، أي بتركهم الأمور التي حلفوا لأجلها، على أنه قد علم أن أيمانهم كاذبة مما تقدم في قوله:

وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون [التوبة: ٤٢] ". (١)

٤٨. ٤٨-"فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير.

التفريع على قوله: جاهد الكفار والمنافقين [التوبة: ٧٣] على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس فلما أمر بجهادهم والغلظة عليهم وتوعدهم بالمصير إلى النار، فرع على ذلك الإخبار بأن التوبة مفتوحة لهم وأن تدارك أمرهم في مكنتهم، لأن المقصود من الأمر بجهادهم قطع شأفة مضرتهم أو أن يصلح حالهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٤/١٠

والتوبة هي إخلاصهم الأيمان. والضمير يعود إلى الكفار والمنافقين، والضمير في يك عائد إلى مصدر يتوبوا وهو التوب.

والتولي: الإعراض والمراد به الإعراض عن التوبة. والعذاب في الدنيا عذاب الجهاد والأسر، وفي الآخرة عذاب النار.

وجيء بفعل يك في جواب الشرط دون أن يقال فإن يتوبوا فهو خير لهم لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، **والإيماء** إلى أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة لأن فعل التكوين مؤذن بذلك.

وحذف نون «يكن» للتخفيف لأنها لسكونها تهيأت للحذف وحسنه وقوع حركة بعدها والحركة ثقيلة فلذلك شاع حذف هذه النون في كلامهم كقوله: وإن تك حسنة يضاعفها في سورة النساء [٤٠] .

وجملة: وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير عطف على جملة يعذبهم الله إلخ فتكون جوابا ثانيا للشرط، ولا يريبك أنها جملة اسمية لا تصلح لمباشرة أداة الشرط بدون فاء رابطة. لأنه يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في المتبوعات فإن حرف العطف كاف في ربط الجملة تبعا للجملة المعطوف عليها.

والمعنى أنهم إن تولوا لم يجدوا من ينصرهم من القبائل إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلا من لا يعبأ بهم عددا وعددا، والمراد نفي الولي النافع كما هو
مفهوم الولي وأما من لا ينفع فهو حبيب وودود وليس بالولي.". (١)

٤٩. ٤٩-"ومعنى والله لا يهدي القوم الفاسقين أن الله لا يقدر لهم الهدي إلى الإيمان لأجل فسقهم، أي بعدهم عن التأمل في أدلة النبوءة، وعن الإنصاف في الاعتراف بالحق فمن كان ذلك ديدنه طبع على قلبه فلا يقبل الهدى فمعنى لا يهدي لا يخلق الهدى في قلوبهم.

[٨١]

[سورة التوبة (٩) : آية ٨١]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧١/١٠

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٨١)

استئناف ابتدائي. وهذه الآية تشير إلى ما حصل للمنافقين عند الاستنفار لغزوة تبوك فيكون المراد بالمخلفين خصوص من تخلف عن غزوة تبوك من المنافقين.

ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أن فرحهم بتخلفهم قد قوي لما استغفر لهم النبيء صلى الله عليه وسلم وظنوا أنهم استغفلوه فقضوا مأربهم ثم حصلوا الاستغفار ظنا منهم بأن معاملة الله إياهم تجري على ظواهر الأمور.

فالمخلفون هم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك استأذنوا النبيء صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلفين بصيغة اسم المفعول لأن النبيء خلفهم، وفيه **إيماء** إلى أنه ما أذن لهم في التخلف إلا لعلمه بفساد قلوبهم، وأنهم لا يغنون عن المسلمين شيئا كما قال: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا [التوبة: ٤٧] .

وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلف نكدا عليهم ونغصا كما وقع للثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم.

والمقعد هنا مصدر ميمي أي بقعودهم.

وخلاف لغة في خلف. يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم، أي ظعنوا ولم يظعن. ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خلف أنه يشير إلى أن قعودهم كان". (١)

٥٠. ٥٠-"والتزكية: جعل الشيء زكيا، أي كثير الخيرات. فقوله: تطهرهم إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله: تزكيهم إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية. فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.

والصلاة عليهم: الدعاء لهم. وتقدم آنفا عند قوله تعالى: وصلوات الرسول [التوبة: ٩٩] .

وقد كان النبيء صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول: اللهم صل على آل فلان

. كما ورد في حديث عبد الله بن أبي أوفى يجمع النبيء صلى الله عليه وسلم في دعائه في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٠/١٠

هذا الشأن بين معنى الصلاة وبين لفظها فكان يسأل من الله تعالى أن يصلي على المتصدق.
والصلاة من الله الرحمة، ومن النبيء الدعاء.
وجملة: إن صلاتك سكن لهم تعليل للأمر بالصلاة عليهم بأن دعاءه سكن لهم، أي سبب سكن لهم، أي خير. فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل.
والسكن: بفتحتين ما يسكن إليه، أي يطمأن إليه ويرتاح به. وهو مشتق من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه، لأن الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنها غير مستقرة، ولذلك سمي ذلك قلقا لأن القلق كثرة التحرك. وقال تعالى: وجعل الليل سكنا [الأنعام: ٩٦] وقال:
والله جعل لكم من بيوتكم سكنا [النحل: ٨٠] ، ومن أسماء الزوجة السكن، أو لأن دعاءه لهم يزيد نفوسهم صلاحا وسكونا إلى الصالحات لأن المعصية تردد واضطراب، كما قال تعالى: فهم في ريبهم يترددون [التوبة: ٤٥] ، والطاعة اطمئنان ويقين، كما قال تعالى:
ألا بذكر الله تطمئن القلوب [الرعد: ٢٨] .
وجملة: والله سميع عليم تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا المجيب للدعاء.
وذكره للإشارة إلى قبول دعاء النبيء صلى الله عليه وسلم. ففيه **إيماء** إلى التنويه بدعائه.
وذكر العليم **إيماء** إلى أنه ما أمره بالدعاء لهم إلا لأن في دعائه لهم خيرا عظيما وصلاحا في الأمور.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر ويعقوب صلاتك بصيغة الجمع. وقرأه حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف". (١)

٥١. ٥١-"وأما توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا فهي استجابته لتوبتهم من ذنبهم.
والمهاجرون والأنصار: هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالثناء لأنهم لم يترددوا ولم يتثاقلوا ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن اتسى بهم من غيرهم من القبائل.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٣

ووصف المهاجرون والأنصار ب الذين اتبعوه **للإيماء** إلى أن لصلة الموصول تسببا في هذه المغفرة.

ومعنى اتبعوه أطاعوه ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

والساعة: الحصة من الزمن.

والعسرة: اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشدة. وساعة العسرة هي زمن استنفار النبيء صلى الله عليه وسلم الناس إلى غزوة تبوك. فهو الذي تقدمت الإشارة إليه بقوله: يا أيها

الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض

[التوبة: ٣٨] فالذين انتدبوا وتأهبوا وخرجوا هم الذين اتبعوه، فأما ما بعد الخروج إلى الغزو فذلك ليس هو الاتباع ولكنه الجهاد. ويدل لذلك قوله: من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم أي من المهاجرين والأنصار، فإنه متعلق ب اتبعوه أي اتبعوا أمره بعد أن خامر فريقا منهم خاطر التثاقل والقعود والمعصية بحيث يشبهون المنافقين، فإن ذلك لا يتصور وقوعه بعد الخروج، وهذا الزيغ لم يقع ولكنه قارب الوقوع.

وكاد من أفعال المقاربة تعمل في اسمين عمل كان، واسمها هنا ضمير شأن مقدر، وخبرها هو جملة الخبر عن ضمير الشأن، وإنما جعل اسمها هنا ضمير شأن لتهويل شأنهم حين أشرفوا على الزيغ.

وقرأ الجمهور تزيغ بالمثناة الفوقية. وقرأه حمزة، وحفص عن عاصم، وخلف بالمثناة التحتية. وهما وجهان في الفعل المسند لجمع تكسير ظاهر.". (١)

٥٢. ٥٢-"ولما كان مصير الفقه سجية لا يحصل إلا بمزاولة ما يبلغ إلى ذلك كانت صيغة التفعل المؤذنة بالتكلف متعينة لأن يكون المراد بها تكلف حصول الفقه، أي الفهم في الدين.

وفي هذا **إيماء** إلى أن فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة، ولذلك جاء في الحديث الصحيح «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»

(١) التحرير والتنوير ١١/٥٠

، ولذلك جزم العلماء بأن الفقه أفضل العلوم.

وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد.

والإنذار: الإخبار بما يتوقع منه شر. والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة.

ومنه النذير. وتقدم في قوله تعالى: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا في سورة البقرة [١١٩] ، فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنه أهم، لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين.

وحذف مفعول يحذرون للتعميم، أي يحذرون ما يحذر، وهو فعل المحرمات وترك الواجبات. واقتصر على الحذر دون العمل للإنذار لأن مقتضى الإنذار التحذير، وقد علمت أنه يفيد الأمرين.

[١٢٣]

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢٣]

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (١٢٣)

كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على أيلة وبصرى، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة". (١)

٥٣. ٥٣-"براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام بحيث كلما استقر بلد للإسلام وكان تجاوره بلاد كفر كان حقا على

---

(١) التحرير والتنوير ٦٢/١١

المسلمين غزو البلاد المجاورة. ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك. وفي توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبيء **إيماء** إلى أن النبيء- عليه الصلاة والسلام- لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب. ولعل في قوله: واعلموا أن الله مع المتقين **إيماء** إلى التسلية على فقد نبيهم- عليه الصلاة والسلام- وأن الله معهم كقوله في الآية الأخرى وسيجزي الله الشاكرين [آل عمران: ١٤٤] .

والغلظة بكسر الغين: الشدة الحسية والخشونة، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة، كقوله: واغلظ عليهم [التوبة: ٧٣] . قال في «الكشاف» : وذلك يجمع الجرأة والصبر على القتال والعنف في القتل والأسر. اه.

قلت: والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين.

ومعنى أمر المسلمين بحصول ما يجده الكافرون من غلظة المؤمنين عليهم هو أمر المؤمنين بأن يكونوا أشداء في قتالهم. وهذه مبالغة في الأمر بالشدة لأنه أمر لهم بأن يجد الكفار فيهم الشدة. وذلك الوجدان لا يتحقق إلا إذا كانت الغلظة بحيث تظهر وتنال العدو فيحس بها، كقوله تعالى لموسى: فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها [طه: ١٦] . وإنما وقعت هذه المبالغة لما عليه العدو من القوة، فإن المقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم، وهم أصحاب عدد وعدد فلا يجدون الشدة من المؤمنين إلا إذا كانت شدة عظيمة.". (١)

٥٤. ٥٤-"وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما اللام و (قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره، ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولا من الله، ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيث إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء،

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١١

ولأن في هذا التأكيد تسجيلا عليهم مرادا به **الإيماء** إلى اقتراب الرحيل، لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب انتهائه، وهو تسجيل منه على المؤمنين، وإيداع للمنافقين ومن بقي من المشركين. على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله تعالى: يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين [المائدة: ١٥] وكقوله تعالى: يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا [النساء: ١٧٤] فما زيدت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا لغرض أهم من إزالة الإنكار.

والمجيء: مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين. شبه توجهه إليهم بالخطاب الذي لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكان آخر. وهو استعمال شائع في القرآن.

والأنفس: جمع نفس، وهي الذات. ويضاف النفس إلى الضمير فيدل على قبيلة معاد الضمير، أي هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق.

يقال: هو قريشي من أنفسهم، ويقال: القريشي مولاهم أو حليفهم، فمعنى من أنفسكم من صميم نسبكم، فتعين أن الخطاب للعرب لأن النازل بينهم القرآن يومئذ لا يعدون العرب ومن حالفهم وتولاهم مثل سلمان الفارسي وبلال الحبشي، وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناوأته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن وإنه لذكر لك ولقومك [الزخرف: ٤٤] أي يبقى منه لكم ذكر حسن.". (١)

٥٥. ٥٥-"(الرءوف) : الشديد الرأفة. والرحيم: الشديد الرحمة، لأنهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلق بهما وهو بالمؤمنين.

والرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضر بالمرءوف به. يقال: رؤوف رحيم. والرحمة: رقة تقتضي الإحسان للمرحوم، بينهما عموم وخصوص مطلق، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة. وتقدمت الرأفة عند قوله تعالى: وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس

(١) التحرير والتنوير ٧١/١١

لرؤف رحيم في سورة البقرة [١٤٣] والرحمة في سورة الفاتحة [٣] .
وتقديم المتعلق على عامليه المتنازعينه في قوله: بالمؤمنين رؤف رحيم للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأما رحمته بهم. وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم.
والفاء في قوله: فإن تولوا للتفريع على إرسال النبيء صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الصفات إليهم فإن صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتباعه لأنه من أنفسهم ومحب لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتبعه منهم، فتفرع عليه أنهم محقوقون بالإيمان به فإن آمنوا فذاك وإن لم يؤمنوا فإن الله حسيبه وكافيه. وقد دل الشرط على مقابله لأن فإن تولوا يدل على تقدير ضده وهو إن أذعنوا بالإيمان.
وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتمادا على قرينة حرف التفريع فقيل له: فإن تولوا فقل حسبي
الله
. والتقدير: فإن توليتم عنه فحسبه الله وقل حسبي الله. فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة **الإيماء** إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم.
والتولي: الإعراض والإدبار: وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد.". (١)

٥٦. ٥٦-"والحسب: الكافي، أي كافيك شر إعراضهم لأنهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق. وتلك حالة مظنة السعي في الكيد والأذى.
ومعنى الأمر بأن يقول: حسبي الله أن يقول ذلك قولا ناشئا عن عقد القلب عليه، أي فاعلم أن حسبك الله وقل حسبي الله، لأن القول يؤكد المعلوم ويرسخه في نفس العالم به، ولأن في هذا القول إبلاغا للمعرضين عنه بأن الله كافيه إياهم.
والتوكل: التفويض. وهو مبالغة في وكل.

---
(١) التحرير والتنوير ١١/٧٣

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها ولم يؤمر بمجرد التوكل كما أمر في قوله: فتوكل على الله إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] . ولا أخبر بأن الله حسبه مجرد إخبار كما في قوله: فإن حسبك الله [الأنفال: ٦٢] .

وجملة: لا إله إلا هو مستأنفة للثناء، أو في موضع الحال وهي ثناء بالوحدانية.
وعطفت عليها جملة: وهو رب العرش العظيم للثناء بعظيم القدرة لأن من كان ربا للعرش العظيم ثبت أنه قدير، لأنه قد اشتهر أن العرش أعظم المخلوقات، ولذلك وصف بالعظيم، فالعظيم في هذه الآية صفة للعرش، فهو مجرور.
وفي هاتين الآيتين إشعار بالإيداع والإعذار للناس، وتنبيه إلى المبادرة باغتنام وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ليتشرفوا بالإيمان به وهم يشاهدونه ويقتبسون من أنوار هديه، لأن الاهتداء بمشاهدته والتلقي منه أرجى لحصول كمال الإيمان والانتفاع بقليل من الزمان لتحصيل وافر الخير الذي لا يحصل مثله في أضعاف ذلك الزمان.
وفيهما أيضا **إيماء** إلى اقتراب أجل النبيء صلى الله عليه وسلم لأن التذكير بقوله: لقد جاءكم يؤذن بأن هذا المجيء الذي مضى عليه زمن طويل يوشك أن ينقضي، لأن لكل وارد قفولا، ولكل طالع أفولا. وقد روي عن أبي بن كعب وقتادة أن هاتين الآيتين هما أحدث القرآن عهدا بالله عز وجل، أي آخر ما نزل من القرآن.". (١)

٥٧. ٥٧-"في قوله: ما خلق الله ذلك إلا بالحق. فعلى قراءة نفصل بالنون وهي لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير ففي ضمير صاحب الحال التفات، وعلى قراءة يفصل بالتحية وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب أمرها ظاهر.
والتفصيل: التبيين، لأن التبيين يأتي على الفصول الشيء كلها. وقد تقدم عند قوله تعالى: وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين في سورة الأنعام [٥٥] .
والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار.
وجعل التفصيل لأجل قوم يعلمون، أي الذين من شأنهم العلم لما يؤذن به المضارع من تجدد

(١) التحرير والتنوير ٧٤/١١

العلم، وإنما يتجدد لمن هو ديدنه ودأبه، فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين.

وذكر لفظ (قوم) **إيماء** إلى أنهم رسخ فيهم وصف العلم، فكان من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] . وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بتفصيل الآيات ليسوا من الذين يعلمون ولا ممن رسخ فيهم العلم.

[٦]

[سورة يونس (١٠) : آية ٦]

إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون (٦)

استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير. وهو استدلال بأحوال الضوء والظلمة وتعاقب الليل والنهار وفي ذلك عبرة عظيمة. وهو بما فيه من عطف قوله تعالى: وما خلق الله في السماوات والأرض أعم من الدليل الأول لشموله ما هو أكثر من خلق الشمس والقمر ومن خلق الليل والنهار ومن كل ما في الأرض والسماء مما تبلغ إليه معرفة الناس في مختلف العصور وعلى تفاوت مقادير الاستدلال من عقولهم.

وتأكيد هذا الاستدلال بحرف إن لأجل تنزيل المخاطبين به الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد منزلة من ينكر أن في ذلك آيات على الوحدانية بعدم جريهم على موجب العلم.". (١)

٥٨. ٥٨-"ولوقوع هذه الجملة موقع الوعيد الصالح لأن يعلمه الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم عدل فيها عن طريقة الخطاب بالضمير إلى طريقة الإظهار، وجيء بالموصولة **للإيماء** إلى أن الصلة علة في حصول الخبر.

وقد جعل عنوان الذين لا يرجون لقاءنا علامة عليهم فقد تكرر وقوعه في القرآن.

ومن المواقع ما لا يستقيم فيه اعتبار الموصولية إلا للاشتهار بالصلة كما سنذكر عند قوله تعالى: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا في هذه

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٩٧

السورة [١٥] .
والرجاء: ظن وقوع الشيء من غير تقييد كون المظنون محبوبا وإن كان ذلك كثيرا في كلامهم لكنه ليس بمتعين. فمعنى: لا يرجون لقاءنا لا يظنونه ولا يتوقعونه.
ومعنى: رضوا بالحياة الدنيا أنهم لم يعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى لأن الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة فيشعرون بتطلب حياة تكون أصفى من أكدارها فلا يلبثون أن تطلع لهم أدلة وجودها، وناهيك بإخبار الصادق بها ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جعل الرضى بالحياة الدنيا مذمة وملقيا في مهواة الخسران.
وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة. وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى والتزود لها. وفي ذلك مقامات ودرجات بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية، وأعلاها مقام
قول النبيء صلى الله عليه وسلم «فقلت ما لي وللدنيا»
. والاطمئنان: السكون يكون في الجسد وفي النفس وهو الأكثر، قال تعالى: يا أيتها النفس المطمئنة [الفجر: ٢٧] . وقد تقدم تصريف هذا الفعل عند قوله تعالى: ولكن ليطمئن قلبي في سورة البقرة". (١)

٥٩. ٥٩-"ومعنى (اطمأنوا بها) سكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة، لأن السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرك لغيره.
وعن قتادة: إذا شئت رأيت هذا الموصوف صاحب دنيا، لها يرضى، ولها يغضب، ولها يفرح، ولها يهتم ويحزن.
والذين هم غافلون هم عين الذين لا يرجون اللقاء، ولكن أعيد الموصول للاهتمام بالصلة

(١) التحرير والتنوير ١١/٩٩

والإيماء إلى أنها وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر. وإنما لم يعد الموصول في قوله: ورضوا بالحياة الدنيا لأن الرضى بالحياة الدنيا من تكملة معنى الصلة التي في قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا.

والمراد بالغفلة: إهمال النظر في الآيات أصلا، بقرينة المقام والسياق وبما تومىء إليه الصلة بالجملة الاسمية هم عن آياتنا غافلون الدالة على الدوام، وبتقديم المجرور في قوله عن آياتنا غافلون من كون غفلتهم غفلة عن آيات الله خاصة دون غيرها من الأشياء فليسوا من أهل الغفلة عنها مما يدل مجموعه على أن غفلتهم عن آيات الله دأب لهم وسجية، وأنهم يعتمدونها فتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله وإباء النظر فيها عنادا ومكابرة. وليس المراد من تعرض له الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات.

وأعقب ذلك باسم الإشارة لزيادة إحصاء صفاتهم في أذهان السامعين، ولما يؤذن به جيء اسم الإشارة مبتدأ عقب أوصاف من التنبيه على أن المشار إليه جدير بالخبر من أجل تلك الأوصاف كقوله تعالى: أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

والمأوى: اسم مكان الإيواء، أي الرجوع إلى مصيرهم ومرجعهم.

والباء للسببية. والإتيان ب (ما) الموصولة في قوله: بما كسبوا **للإيماء** إلى علة الحكم، أي أن مكسوبهم سبب في مصيرهم إلى النار، فأفاد تأكيد السببية المفادة بالباء.

والإتيان ب (كان) للدلالة على أن هذا المكسوب ديدنهم.

والإتيان بالمضارع للدلالة على التكرير، فيكون ديدنهم تكرير ذلك الذي كسبوه.". (١)

٦٠. ٦٠-"[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩ إلى ١٠]

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم (٩) دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (١٠)

جاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لتكون أحوال المؤمنين مستقلة بالذكر غير تابعة

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٠٠

في اللفظ لأحوال الكافرين، وهذا من طرق الاهتمام بالخبر. ومناسبة ذكرها مقابلة أحوال الذين يكذبون بلقاء الله بأضدادها تنويها بأهلها وإغاضة للكافرين.

وتعريف المسند إليه بالموصولية هنا دون اللام **للإيماء** بالموصول إلى علة بناء الخبر وهي أن إيمانهم وعملهم هو سبب حصول مضمون الخبر لهم.

والهداية: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه. فمعنى يهديهم ربهم يرشدهم إلى ما فيه خيرهم. والمقصود الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها. وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

والباء في بإيمانهم للسببية، بحيث إن الإيمان يكون سببا في مضمون الخبر وهو الهداية فتكون الباء لتأكيد السببية المستفادة من التعريف بالموصولية نظير قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا إلى بما كانوا يكسبون [يونس: ٧، ٨] في تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى، بأن يجعل الله للإيمان نورا يوضع في عقل المؤمن ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سببا مغناطيسيا لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمال لا يزال يزداد يوما فيوما، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح.

وفي الحديث: «قد يكون

في الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فعمر بن الخطاب»

(١) . قال ابن وهب: تفسير محدثون ملهمون

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي. واللفظ له.". (١)

٦١. ٦١-"والإتيان بالموصولية في تعريف الكافرين للدلالة على أن الطغيان أشده إنكارهم البعث، ولأنه صار كالعلامة عليهم كما تقدم آنفا.

[١٢]

---

(١) التحرير والتنوير ١٠١/١١

[سورة يونس (١٠) : آية ١٢]

وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (١٢)

عطف على جملة ولو يعجل الله للناس الشر [يونس: ١١] الآية، لأن الغرض الأهم من كلتيهما هو الاعتبار بذميم أحوال المشركين تفظيعا لحالهم وتحذيرا من الوقوع في أمثالها بقرينة تنهية هذه الآية بجملة كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون. فلما بين في الآية السابقة وجه تأخير عذاب الاستئصال عنهم وإرجاء جزائهم إلى الآخرة بين في هذه الآية حالهم عند ما يمسهم شيء من الضر وعند ما يكشف الضر عنهم.

فالإنسان مراد به الجنس، والتعريف باللام يفيد الاستغراق العرفي، أي الإنسان الكافر، لأن جمهور الناس حينئذ كافرون، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعدون بضعة وسبعين رجلا مع نسائهم وأبنائهم الذين هم تبع لهم. وبهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون، كما في قوله تعالى: ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا [مريم: ٦٦]- وقوله: يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك [الانفطار: ٦، ٧] . ويأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال الجاهلية فيفيق كل من غفلته.

وعدل عن الإتيان بالضمير الراجع إلى (الناس) من قوله: ولو يعجل الله للناس الشر [يونس: ١١] لأن في ذكر لفظ الإنسان **إيماء** إلى التذكير بنعمة الله عليهم إذ جعلهم، من أشرف الأنواع الموجودة على الأرض. ومن المفسرين من جعل اللام في الإنسان للعهد وجعل المراد به أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه مهشم، وكان مشركا،

وكان أصابه مرض.". (١)

٦٢. ٦٢-"ثم إن قولهم يحتمل أن يكون جدا، ويحتمل أن يريدوا به الاستهزاء، وعلى الاحتمالين فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بما يقلع شبهتهم من نفوسهم

(١) التحرير والتنوير ١١/١٠٩

إن كانوا جادين، أو من نفوس من يسمعونهم من دهمائهم فيحسبوا كلامهم جدا فيترقبوا تبديل القرآن.

وضمير الغيبة في قوله: وإذا تتلى عليهم راجع إلى الناس المراد منهم المشركون أو راجع إلى الذين لا يرجون لقاءنا في قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا [يونس: ٧] .

وتقديم الظرف في قوله: إذا تتلى على عامله وهو قال الذين لا يرجون لقاءنا

للاهتمام بذكر ذلك الوقت الذي تتلى فيه الآيات عليهم فيقولون فيه هذا القول تعجيبا من كلامهم ووهن أحلامهم.

ولكون العامل في الظرف فعلا ماضيا علم أن قولهم هذا واقع في الزمن الماضي، فكانت إضافة الظرف المتعلق به إلى جملة فعلها مضارع وهو تتلى دالة على أن ذلك المضارع لم يرد به الحال أو الاستقبال إذ لا يتصور أن يكون الماضي واقعا في الحال أو الاستقبال فتعين أن اجتلاب الفعل المضارع لمجرد الدلالة على التكرر والتجدد، أي ذلك قولهم كلما تتلى عليهم الآيات.

وما صدق الذين لا يرجون لقاءنا هو ما صدق الضمير في قوله: (عليهم) ، فكان المقام للإضمار، فما كان الإظهار بالموصولية إلا لأن الذين لا يرجون لقاء الله اشتهر به المشركون فصارت هذه الصلة كالعلم عليهم. كما أشرنا إليه عند قوله آنفا إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا [يونس: ٧] ، وليس بين الصلة وبين الخبر هنا علاقة تعليل فلا يكون الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر.

ولما كان لاقتراحهم معنى صريح، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجود، ومعنى التزامي كنائي، وهو أنه غير منزل من عند الله وأن الذي جاء به غير مرسل من الله، كان الجواب عن قولهم جوابين، أحدهما: ما لقنه الله بقوله:". (١)

٦٣. ٦٣-"وطلبا لصلاحهم، وأنه لا يضره عدم قبولهم رحمته وهدايته. ولذلك أتى في حكاية كلامهم العدول عن اسم الجلالة إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١١٧

من ربه إيماء إلى الربوبية الخاصة بالتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي ربوبية المصطفي (بصيغة اسم الفاعل) للمصطفى (بصيغة المفعول) من بين بقية الخلق المقتضية الغضب لغضبه لتوهمهم أن غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى.

وقد أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى من مداركهم جوابا فيه تعريض بالتهديد لهم وهو قوله: فقل إنما الغيب لله، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكن من حاله المتثبت في أمره.

والغيب: ما غاب عن حواس الناس من الأشياء، والمراد به هنا ما يتكون من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات. وتفسير هذا قوله: قل إنما الآيات عند الله [الأنعام: ١٠٩] .

واللام للملك، أي الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام.

وجملة: فانتظروا إني معكم من المنتظرين تفريع على جملة: إنما الغيب لله أي ليس دأبي ودأبكم إلا انتظار ما يأتي به الله إن شاء، كقول نوح لقومه: إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين [هود: ٣٣] .

وهذا تعريض بالتهديد لهم أن ما يأتي به الله لا يترقبون منه إلا شرا لهم، كقوله تعالى: وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون [الأنعام: ٨] ". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣١/١١

٦٤. ٦٤-"والجري: السير السريع في الأرض أو في البحر، قال تعالى: بسم الله مجراها [هود: ٤١] والظاهر أنه حقيقة فيهما.

والريح مؤنثة في كلام العرب. وتقدم في قوله: وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته في سورة الأعراف [٥٧] . والطيبة: الملائمة الرفيقة بالراكبين.

والطيب: الموصوف بالطيب الشديد. وأصل معنى الطيب الملاءمة فيما يراد من الشيء، كقوله تعالى: فلنحيينه حياة طيبة [النحل: ٩٧] ، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا. ومنه سمي الشيء الذي له ريح وعرف طيبا.

وجملة: جاءتها ريح عاصف جواب إذا. وفي ذكر جريهن بريح طيبة وفرحهم بها **إيماء** إلى أن مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقع من دلالة علامات النوتية كما هو الغالب. وفيه **إيماء** إلى أن ذلك بتقدير مراد لله تعالى ليخوفهم ويذكرهم بوحدانيته. وضمير جاءتها عائد إلى الفلك لأن جمع غير العاقل يعامل معاملة المفرد المؤنث.

والعاصف: وصف خاص بالريح، أي شديدة السرعة. وإنما لم تلحقه علامة التأنيث لأنه مختص بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث، مثل: نافس وحائض ومرضع، فشاع استعماله كذلك، وذكر وصفا للريح فبقي لا تلحقه التاء. وقالوا: إنما لم تلحقه التاء لأنه في معنى النسب، مثل: لابن، وتامر. وفيه نظر.

ومعنى من كل مكان من كل جهة من جهات الفلك، فالابتداء الذي تفيده (من) ابتداء الأمكنة المتجهة إلى الفلك.

ومعنى أحيط بهم أخذوا وأهلكوا، فالعرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكن منها وغلبها، لأن الإحاطة بها تدل على الإحداق بها وتطويقها. ولما كان ذلك هزيمة وامتلاكا لها صار ترتيب أحيط بهم استعارة تمثيلية للهلاك كما تقدم في قوله

تعالى: والله محيط بالكافرين [البقرة: ١٩] وقوله تعالى: لتأتنني به إلا أن يحاط بكم [يوسف: ٦٦] وقوله: وأحيط بثمره [الكهف: ٤٢] أي هلكت. فمعنى وظنوا أنهم أحيط بهم ظنوا

الهلاك.". (١)

٦٥.	٦٥-"والضمير في قوله: أكثرهم عائد إلى أصحاب ضمير شركائكم [يونس: ٣٥] وضمير فما لكم كيف تحكمون [يونس: ٣٥] .

وإنما عمهم في ضمائر شركائكم وفما لكم كيف تحكمون، وخص بالحكم في اتباعهم الظن أكثرهم، لأن جميع المشركين اتفقوا في اتباع عبادة الأصنام. وبين هنا أنهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادتها **إيماء** إلى أن من بينهم عقلاء قليلين ارتقت مدارك أفهامهم فوق أن يعتقدوا أن للأصنام تصرفا ولكنهم أظهروا عبادتها تبعا للهوى وحفظا للسيادة بين قومهم. والمقصود من هذا ليس هو تبرئة للذين عبدوا الأصنام عن غير ظن بإلهيتها فإنهم شر من الذين عبدوها عن تخيل، ولكن المقصود هو زيادة الاستدلال على بطلان عبادتها حتى إن من عبادها فريقا ليسوا مطمئنين لتحقق إلهيتها.

وبالتأمل يظهر أن هؤلاء هم خاصة القوم وأهل الأحلام منهم لأن المقام مقام تخطئة ذلك الظن. ففيه إيقاظ لجمهورهم، وفيه زيادة موعظة لخاصتهم ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطمئن إليه قلوبهم. وهذا كقوله الآتي: ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به [يونس: ٤٠] .

والظن: يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون [البقرة: ٤٥، ٤٦] ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك. ويظهر أنه حقيقة في هذا الثاني وأنه مجاز في الأول لكنه في الأول شائع فصار كالمشترك. وقد تقدم في سورة البقرة عند الكلام على الآية المذكورة. ومنه قوله تعالى: قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين في سورة الأعراف [٦٦] ، وقوله: وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه في سورة براءة [١١٨] .

وقد أطلق مجازا على الاعتقاد المخطئ، كما في قوله تعالى: إن بعض الظن إثم [الحجرات: ١٢]

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/١١

وقول النبيء- عليه الصلاة والسلام- إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث
". (١)

٦٦.   ٦٦-"[سورة يونس (١٠) : آية ٤٥]
ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥)
عطف على: ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم [يونس: ٢٨] عطف القصة على القصة عودا إلى غرض من الكلام بعد تفصيله وتفريعه وذم المسوق إليهم وتقريعهم فإنه لما جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانية لله تعالى. وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به
أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنه خارج عن طوق البشر وتسفيه الذين كذبوه وتفننوا في الإعراض عنه واستوفي الغرض حقه عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى إذ هو حين خيبة أولئك الذين كذبوا بالبعث وهم الذين أشركوا وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر.
وانتصب يوم على الظرفية لفعل خسر. والتقدير: وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم، فارتباط الكلام هكذا: وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم. وتقديم الظرف على عامله للاهتمام لأن المقصود الأهم تذكيرهم بذلك اليوم وإثبات وقوعه مع تحذيرهم ووعيدهم بما يحصل لهم فيه.
ولذلك عدل عن الإضمار إلى الموصولية في قوله: قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله دون قد خسروا، للإيماء إلى أن سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله وذلك التكذيب من آثار الشرك فارتبط بالجملة الأولى، وهي جملة: ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم إلى قوله: وضل عنهم ما كانوا يفترون [يونس: ٢٨- ٣٠] .
وقرأ الجمهور نحشرهم بنون العظمة، وقرأه حفص عن عاصم بياء الغيبة، فالضمير يعود إلى

---
(١) التحرير والتنوير ١٦٥/١١

اسم الجلالة في قوله قبله: إن الله لا يظلم الناس شيئا [يونس: ٤٤] .". (١)

٦٧. ٦٧-"وجملة: يتعارفون بينهم حال من الضمير المنصوب في نحشرهم.

والتعارف: تفاعل من عرف، أي يعرف كل واحد منهم يومئذ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.

والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار لتصوير أنهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنه ينافي تمزق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت. فظهر خسرانهم يومئذ بأنهم نفوا البعث فلم يستعدوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

[٤٦]

[سورة يونس (١٠) : آية ٤٦]

وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦)

كان ذكر تكذيبهم الذي جاء في صدر السورة بقوله: قال الكافرون إن هذا لسحر مبين [يونس: ٢] ، ثم الوعيد عليه بعذاب يحل بهم، والإشارة إلى أنهم كذبوا بالوعيد في قوله: ولو يعجل الله للناس الشر إلى قوله: لننظر كيف تعملون [يونس: ١١- ١٤] منذرا

بترقب عذاب يحل بهم في الدنيا كما حل بالقرون الذين من قبلهم، وكان معلوما من خلق النبيء صلى الله عليه وسلم رأفته بالناس ورغبته أن يتم هذا الدين وأن يهتدي جميع المدعوين إليه، فربما كان النبيء يحذر أن ينزل بهم عذاب الاستئصال فيفوت اهتداؤهم. وكان قوله: ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون [يونس: ١١] تصريحا بإمكان استبقائهم وإيماء إلى إمهالهم. جاء هذا الكلام بيانا لذلك وإنذارا بأنهم إن أمهلوا فأبقي عليهم في الدنيا فإنهم غير مفلتين من المصير

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٨١

إلى عقاب الآخرة حين يرجعون إلى تصرف الله دون حائل.". (١)

٦٨. ٦٨-"وجاء الكلام على طريقة إبهام الحاصل من الحالين لإيقاع الناس بين الخوف والرجاء وإن كان المخاطب به النبيء- صلى الله عليه وسلم.

والمراد ب بعض الذي نعدهم هو عذاب الدنيا فإنهم أوعدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، قال تعالى: وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك. فالمعنى إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيته أنت أو لم يقع فتوفاك الله فمصيرهم إلينا على كل حال.

فمضمون أو نتوفينك قسيم لمضمون نرينك بعض الذي نعدهم.

والجملتان معا جملتا شرط، وجواب الشرط قوله: فإلينا مرجعهم.

ولما جعل جواب الشرطين إرجاعهم إلى الله المكنى به عن العقاب الآجل، تعين أن التقسيم الواقع في الشرط ترديد بين حالتين لهما مناسبة بحالة تحقق الإرجاع إلى عذاب الله على كلا التقديرين، وهما حالة التعجيل لهم بالعذاب في الدنيا وحالة تأخير العذاب إلى الآخرة. وأما إراءة الرسول تعذيبهم وتوفيه بدون إرائته فلا مناسبة لهما بالإرجاع إلى الله على كلتيهما إلا باعتبار مقارنة إحداهما لحالة التعجيل ومناسبة الأخرى لحالة التأخير.

وإنما كني عن التعجيل بأن يريد الله الرسول **للإيماء** إلى أن حالة تعجيل العذاب لا يريد الله منها إلا الانتصاف لرسوله بأن يريه عذاب معانديه، ولذلك بني على ضد ذلك ضد التعجيل فكني بتوفيه عن عدم تعجيل العذاب بل عن تأخيره إذ كانت حكمة التعجيل هي الانتصاف للرسول صلى الله عليه وسلم.

ولما جعل مضمون جملة: نتوفينك قسيما لمضمون جملة: نرينك تعين أن إراءته ما أوعدوا به من عذاب الدنيا إنما هو جزاء عن تكذيبهم إياه وأذاهم له انتصارا له حتى يكون أمره جاريا على سنة الله في المرسلين، كما قال نوح: رب انصرني بما

كذبون

[المؤمنون: ٢٦] وقد أشار إلى هذا قوله تعالى عقبه: ولكل أمة رسول [يونس: ٤٧] الآية وقوله: ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] . وقد أراه الله تعالى بعض

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٨٣

الذي توعدهم بما لقوا من". (١)

٦٩. ٦٩-"وحكي قولهم بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة،كقوله تعالى: ويصنع الفلك [هود: ٣٨] للدلالة على تكرر صدوره منهم، وأطلق الوعد على الموعود به، فالسؤال عنه باسم الزمان مؤول بتقدير يدل عليه المقام، أي متى ظهوره.

والسؤال مستعمل في الاستبطاء، وهو كناية عن عدم اكتراثهم به وأنهم لا يأبهون به لينتقل من ذلك إلى أنهم مكذبون بحصوله بطريق **الإيماء** بقرينة قولهم: إن كنتم صادقين أي إن كنتم صادقين في أنه واقع فعينوا لنا وقته، وهم يريدون أننا لا نصدقك حتى نرى ما وعدتنا كناية عن اعتقادهم عدم حلوله وأنهم لا يصدقون به. والوعد المذكور هنا ما هددوا به من عذاب الدنيا.

والخطاب بقولهم: إن كنتم للرسول، فضمير التعظيم للتهكم كما في قوله:

وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون [الحجر: ٦] وقوله: وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام [الفرقان: ٧] وقول أبي بكر بن الأسود الكناني:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

وهذا المحمل هو المناسب لجوابهم بقوله: قل لا أملك. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء وللمسلمين، جمعوهم في الخطاب لأن النبيء أخبر به والمسلمين آمنوا به فخاطبوهم بذلك جميعا لتكذيب النبيء وإدخال الشك في نفوس المؤمنين به. وإنما خص الرسول- عليه الصلاة والسلام- بالأمر بجوابهم لأنه الذي أخبرهم بالوعيد وأما المؤمنون فتابعون له في ذلك.

ومعنى: لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا: لا أستطيع، كما تقدم في قوله تعالى:

قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا في سورة العقود [٧٦] .

وقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض لأنهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد ولأن استطاعة الضر أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/١١

(٢) التحرير والتنوير ١٨٩/١١

٧٠. ٧٠-"وبتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من الكفار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبيء والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جراء ذلك، ولمح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعدا لا يقبل التغيير ولا التخلف تطمينا لنفوسهم، كما أشعر به قوله عقبه تبديل لكلمات الله.

وافتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه، كما تقدم في قوله: ألا إنهم هم المفسدون في سورة البقرة [١٢] ، ولذلك أكدت الجملة ب إن بعد أداة التنبيه.

وفي التعبير ب أولياء الله دون أن يؤتى بضمير الخطاب كما هو مقتضى وقوعه عقب قوله: ولا تعملون من عمل [يونس: ٦١] يؤذن بأن المخاطبين قد حق لهم أنهم من أولياء الله مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم.

وجملة: لا خوف عليهم ولا هم يحزنون خبر إن.

والخوف: توقع حصول المكروه للمتوقع، فيتعدى بنفسه إلى الشيء المتوقع حصوله.

فيقال: خاف الشيء، قال تعالى: فلا تخافوهم وخافون [آل عمران: ١٧٥] . وإذا كان توقع حصول المكروه لغير المتوقع يقال للمتوقع: خاف عليه، كقوله تعالى: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم

[الشعراء: ١٣٥] .

وقد اقتضى نظم الكلام نفي جنس الخوف لأن (لا) إذا دخلت على النكرة دلت على نفي الجنس، وأنها إذا بني الاسم بعدها على الفتح كان نفي الجنس نصا وإذا لم يبن الاسم على الفتح كان نفي الجنس ظاهرا مع احتمال أن يراد نفي واحد من ذلك الجنس إذا كان المقام صالحا لهذا الاحتمال، وذلك في الأجناس التي لها أفراد من الذوات مثل رجل، فأما أجناس المعاني فلا يتطرق إليها ذلك الاحتمال فيستوي فيها رفع اسم (لا) وبناؤه على الفتح، كما في قول إحدى نساء حديث أم زرع «زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة» فقد رويت هذه الأسماء بالرفع وبالبناء على الفتح.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/١١

٧١. ٧١-"كما متع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا، فذكر قصة نوح مع قومه عظة للمشركين وملقيا بالوجل والذعر في قلوبهم، وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بأنهم أسوة بالأنبياء، والصالحين من أقوامهم، وكذلك قصة موسى- عليه السلام- عقبها كما ينبيء عن ذلك قوله في نهاية هذه القصص أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [يونس: ٩٩] الآيات. وقوله: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك [يونس: ٩٤] الآيات.

وبهذا يظهر حسن موقع (إذ) من قوله: إذ قال لقومه يا قوم إلى آخره، فإن تقييد النبأ بزمن قوله: لقومه **إيماء** إلى أن محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محل العبرة، لأنه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح- عليه السلام- في صم آذانهم عن دعوة رسولهم، وقوله ذلك لهم إنما كان بعد أن كرر دعاءهم زمنا طويلا فكان ذلك آخر جدل بينه وبينهم، والنبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل مكة سنين وقت نزول هذه السورة ثم حاورهم وجادلهم ولأن ذلك الزمن هو أعظم موقف وقفه نوح- عليه السلام- مع قومه، وكان هو الموقف الفاصل الذي أعقبه العذاب بالغرق.

وإذ اسم للزمن الماضي. وهو هنا بدل اشتمال من نبأ أو من نوح. وفي ذكر قصة نوح- عليه السلام- وما بعدها تفصيل لما تقدم إجماله من قوله تعالى: ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات [يونس: ١٣] .

وضمير عليهم عائد إلى الذين يفترون على الله الكذب [يونس: ٦٩] .

والتلاوة: القراءة. وتقدمت في سورة الأنفال.

والنبأ: الخبر. وتقدم في قوله: ولقد جاءك من نبإ المرسلين في سورة الأنعام". (١)

٧٢. ٧٢-"ولك أن تجعل معنى فعل فكذبوه الاستمرار على تكذيبه مثل فعل آمنوا في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله [النساء: ١٣٦] ، فتكون الفاء لتفريع حصول ما بعدها على حصول ما قبلها.

وأما الفاء التي في جملة: فنجيناه فهي للترتيب والتعقيب، لأن تكذيب قومه قد استمر إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/١١

وقت إغراقهم وإنجاء نوح- عليه السلام- ومن اتبعه. وهذا نظم بديع وإيجاز معجز إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمنا بقوله: إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي [يونس: ٧١] الآية، فكان كرد العجز على الصدر. ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلها حتى انتهى بإغراقهم، فذكر إنجاء نوح وإغراق المكذبين له، وبذلك عاد الكلام إلى ما عقب مجادلة نوح الأخيرة قومه المنتهية بقوله: وأمرت أن أكون من المسلمين [يونس: ٧٢] فكان تفننا بديعا في النظم مع إيجاز بهيج.

وتقدم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أن إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذبيه، ولتعجيل المسرة للمسلمين السامعين لهذه القصة.

والفلك: السفينة، وتقدم عند قوله تعالى: والفلك التي تجري في البحر في سورة البقرة [١٦٤]
.

والخلائف: جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره. وتقدم عند قوله تعالى: إني جاعل في الأرض خليفة في سورة البقرة [٣٠] . وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك تفرع على كل زوجين منهم أمة.

وتعريف قوم نوح بطريق الموصولية في قوله: وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا **للإيماء** إلى سبب تعذيبهم بالغرق، وأنه التكذيب بآيات الله إنذارا للمشركين من العرب ولذلك ذيل بقوله: فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، أي المنذرين بالعذاب المكذبين بالإنذار.". (١)

٧٣. ٧٣-"وما جاءهم من العلم يجوز أن يكون ما جاءهم به الأنبياء من شرع الله فلم يعملوا بما جاؤوهم به، وأعظم ذلك تكذيبهم بمحمد- عليه الصلاة والسلام-.

فعن ابن عباس: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبيء محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قبل مبعثه مقرين بنبيء يأتي، فلما جاءهم العلم، وهو القرآن اختلفوا في تصديق محمد- عليه الصلاة والسلام-، قال ابن عباس: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

ويجوز أن يكون العلم هو القرآن، وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية كمعنى قوله: إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا

---
(١) التحرير والتنوير ٢٤٣/١١

بينهم [آل عمران: ١٩] ، وقوله: وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة [البينة: ٤] فإن البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم لأن قبل هذا قوله: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة [البينة:
١، ٢] الآية. وقال تعالى: فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به [البقرة: ٨٩] .
وهذا المحمل هو المناسب لحرف (حتى) في قوله تعالى: فما اختلفوا حتى جاءهم العلم.
وتعقيب فما اختلفوا بالغاية يؤذن بأن ما بعد الغاية منتهى حالة الشكر، أي فبقوا
في ذلك المبوأ، وفي تلك النعمة، حتى اختلفوا فسلبت نعمتهم فإن الله سلبهم أوطانهم.
وجملة: إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة تذييل وتوعد، والمقصود منه: أن أولئك قوم مضوا بما عملوا وأن أمرهم إلى ربهم كقوله: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم [البقرة: ١٣٤] ، وفيه **إيماء** إلى أن على الحاضرين اليوم أن يفكروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة.
و (بين) ظرف مكان للقضاء المأخوذ من فعل (يقضي) ففعل القضاء كأنه متخلل بينهم لأنه متعلق بتبيين المحق والمبطل.". (١)

٧٤. ٧٤-"وقوله: فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا [الأنعام: ٤٣] وهذه الآية أصرح في ذلك لوجود (كان) الدالة على المضي والانقضاء. والمقصود: التعريض بأن مشركي أهل مكة يوشك أن يكونوا على سنن أهل القرى. قال تعالى: ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون [الأنبياء: ٦] ، ونظير هذه الآية استعمالا ومعنى قوله تعالى: فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم [هود: ١١٦] ، وذلك تعريض بتحريض أهل مكة على الإيمان قبل نزول العذاب.
والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك

---
(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/١١

لا يكون استثنائهم استثناء منقطعا.

وإذ كان الكلام تغليطا لأهل القرى المعرضين عن دعوة الرسل، وتعريضا بالتحذير مما وقعوا فيه. كان الكلام إثباتا صريحا ووقوع قرية وهو نكرة في مساق الإثبات أفاد العموم بقرينة السياق مثل قول الحريري: «يا أهل ذا المغنى وقيتم ضرا» أي كل ضر لا ضرا معينا، وبقرينة الاستثناء فإنه معيار العموم، وهذا الاستثناء من كلام موجب فلذلك انتصب قوله: إلا قوم يونس فهذا وجه تفسير الآية. وجرى عليه كلام العكبري في «إعراب القرآن» ، والكواشي في «التخليص» وجمهور المفسرين جعلوا جملة: فلولا كانت قرية آمنت في قوة المنفية، وجعلوا الاستثناء منقطعا منصوبا ولا داعي إلى ذلك.

وجملة: لما آمنوا مستأنفة لتفصيل مجمل معنى الاستثناء. وفي الآية **إيماء** إلى أن أهل مكة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب. وذلك حالهم عند ما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عدة وعدة، فيكاد يحل بهم عذاب

استئصال لولا أنهم عجلوا بالإيمان يوم الفتح.

فقال لهم النبيء صلى الله عليه وسلم: «أنتم الطلقاء»

." (١)

٧٥. ٧٥-"عبد الله بن خطل، لأنه لم يأت مؤمنا قبل أن يتمكن منه المسلمون ولم ينفعه التعلق بأستار الكعبة لأن ذلك التعلق ليس بإيمان وإنما هو من شعار العوذ في الجاهلية بما أبطله الإسلام إذ

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «إن الحرم لا يعيذ عاصيا»

. وقد بينا في آخر سورة غافر [٨٤] عند قوله تعالى: فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده إلى آخر السورة فانظره.

[٩٩]

[سورة يونس (١٠) : آية ٩٩]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٩/١١

ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩)
عطف على جملة: إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون [يونس: ٩٧] لتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدم من مشابهة حال قريش مع النبيء صلى الله عليه وسلم بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدمة الكلية للجملة التي بعدها،
وهي جملة: أفأنت تكره المفرعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التسلية.
والناس: العرب، أو أهل مكة منهم، وذلك **إيماء** إلى أنهم المقصود من سوق القصص الماضية كما بيناه عند قوله تعالى: واتل عليهم نبأ نوح [يونس: ٧١] .
والتأكيد ب كلهم للتنصيص على العموم المستفاد من (من) الموصولة فإنها للعموم، والتأكيد ب جميعا لزيادة رفع احتمال العموم العرفي دون الحقيقي.
والمعنى: لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح.
و". (١)

٧٦. ٧٦-"[سورة يونس (١٠) : آية ١٠٩]
واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٠٩)
عطف على قل أي بلغ الناس ذلك القول واتبع ما يوحى إليك، أي اتبع في نفسك وأصحابك ما يوحى إليك. واصبر أي على معاندة الذين لم يؤمنوا بقرينة الغاية بقوله: حتى يحكم الله فإنها غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر.
ولما كان الحكم يقتضي فريقين حذف متعلقه تعويلا على قرينة السياق، أي حتى يحكم الله بينك وبينهم.
وجملة: وهو خير الحاكمين ثناء وتذييل لما فيه من العموم، أي وهو خير الحاكمين بين كل خصمين في هذه القضية وفي غيرها، فالتعريف في الحاكمين للاستغراق بقرينة التذييل.
وخير تفضيل، أصله أخير فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. والأخيرية من الحاكمين أخيرية

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٢/١١

وفاء الإنصاف في إعطاء الحقوق. وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم، لأن الأمر بالصبر مشعر بأن المأمور به معتدى عليه، ففي الإخبار بأن الله خير الحاكمين **إيماء** بأن الله ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا. وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع.". (١)

٧٧. ٧٧-"فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك [هود: ١٢] ، وقوله: أفمن كان على بينة من ربه إلى قوله أولئك يؤمنون به [هود: ١٧] قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وقوله: وأقم الصلاة طرفي النهار [هود:
١١٤] الآية. قيل نزلت في قصة أبي اليسر كما سيأتي، والأصح أنها كلها مكية وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهم لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي، على أن الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنها مكية.

نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وقد عدت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور. ونقل ابن عطية في أثناء تفسير هذه السورة أنها نزلت قبل سورة يونس لأن التحدي فيها وقع بعشر سور وفي سورة يونس وقع التحدي بسورة، وسيأتي بيان هذا.

وقد عدت آياتها مائة وإحدى وعشرين في العدد المدني الأخير. وكانت آياتها معدودة في المدني الأول مائة واثنتين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون.

وأغراضها: ابتدأت **بالإيماء** إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومىء إليه الحروف المقطعة في أول السورة.

وباتلائها بالتنويه بالقرآن.

وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى.

وبأن الرسول- عليه الصلاة والسلام- نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين

(١) التحرير والتنوير ٣١٠/١١

بمتاع حسن إلى أجل مسمى.

وإثبات الحشر.

والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس.". (١)

.٧٨ ٧٨-"[٨]

[سورة هود (١١) : آية ٨]

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨)

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه.

مناسبته لما قبله أن في كليهما وصف فن من أفانين عناد المشركين وتهكمهم بالدعوة الإسلامية، فإذا خبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالبعث وأن شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربانية استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكم ظنا أن تأخره عجز.

واللام موطئة للقسم. وجملة ليقولن ما يحبسه جواب القسم مغنية من جواب الشرط.

والأمة: حقيقتها الجماعة الكثيرة من الناس الذين أمرهم واحد، وتطلق على المدة كأنهم راعوا أنها الأمد الذي يظهر فيه جيل فأطلقت على مطلق المدة، أي بعد مدة.

ومعدودة معناه مقدرة، أي مؤجلة. وفيه إيماء إلى أنها ليست مديدة لأنه شاع في كلام العرب إطلاق العد والحساب ونحوهما على التقليل، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد، ولذلك يقولون في عكسه: بغير حساب، مثل والله يرزق من يشاء بغير حساب [البقرة: ٢١٢] .

والحبس: إلزام الشيء مكانا لا يتجاوزه. ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا، أي ما يمنع

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٢/١١

أن يصل إلينا ويحل بنا وهم يريدون التهكم.". (١)

٧٩. ٧٩-"ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن.

هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم إذ يقولون ما يحبس عنا العذاب، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة. وهذا تهديد وتخويف بأنه لا يصرف عنهم ولكنه مؤخر.

وافتتح الكلام بحرف التنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم.

وتقديم الظرف للإيماء بأن إتيان العذاب لا شك فيه حتى أنه يوقت بوقت.

والصرف: الدفع والإقصاء.

والحوق: الإحاطة.

والمعنى: أنه حال بهم حلولا لا مخلص منه بحال.

وجملة وحاق بهم في موضع الحال أو معطوفة على خبر ليس.

وصيغة المضي مستعملة في معنى التحقق، وهذا عذاب القتل يوم بدر.

وما صدق ما كانوا به يستهزؤن هو العذاب، وباء به سببية أي بسبب ذكره فإن ذكر العذاب كان سببا لاستهزائهم حين توعدهم به النبيء صلى الله عليه وسلم.

والإتيان بالموصول في موضع الضمير للإيماء إلى أن استهزاءهم كان من أسباب غضب الله عليهم. وتقديره إحاطة العذاب بهم بحيث لا يجدون منه مخلصا.". (٢)

٨٠. ٨٠-"والنعماء- بفتح النون وبالمد- النعمة واختير هذا اللفظ هنا وإن كان لفظ النعمة أشهر لمحسن رعي النظير في زنة اللفظين النعماء والضراء. والمراد هنا النعمة الحاصلة بعد الضراء.

والمس مستعمل في مطلق الإصابة على وجه المجاز. واختيار فعل الإذاقة لما تقدم، واختيار فعل المس بالنسبة إلى إدراك الضراء إيماء إلى أن إصابة الضراء أخف من إصابة النعماء، وأن

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٠

(٢) التحرير والتنوير ١٢/١١

لطف الله شامل لعباده في كل حال.
وأكدت الجملة باللام الموطئة للقسم وبنون التوكيد في جملة جواب القسم لمثل الغرض الذي بيناه في الجملة السابقة.
وجعل جواب القسم القول للإشارة إلى أنه تبجح وتفاخر، فالخبر في قوله: ذهب السيئات عني مستعمل في الازدهاء والإعجاب، وذلك هو مقتضى زيادة عني متعلقا ب ذهب للإشارة إلى اعتقاد كل واحد أنه حقيق بأن تذهب عنه السيئات غرورا منه بنفسه، كما في قوله: ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى [فصلت: ٥٠] .
وجملة إنه لفرح فخور استئناف ابتدائي للتعجيب من حاله، و (فرح وفخور) مثالا مبالغة، أي لشديد الفرح شديد الفخر. وشدة الفرح: تجاوزه الحد وهو البطر والأشر، كما في قوله: إن الله لا يحب الفرحين [القصص: ٧٦] .
والفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس.
والمعنى أنه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وما كان فيه من الضراء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وناقل الأحوال، والمخالف بين أسبابها. وفي معنى الآيتين قوله في سورة الشورى [٤٨] وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور.". (١)

٨١. ٨١-"إلى أن مضمون الكلام المفرع عليه سبب لتوجيه هذا التوقع لأن من شأن المفرع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء يأسا قد يبعث على ترك دعائهم، فذلك كله أفيد بفاء التفريع.
والتوقع المستفاد من (لعل) مستعمل في تحذير من شأنه التبليغ. ويجوز أن يقدر استفهام حذفت أداته. والتقدير: ألعلك تارك. ويكون الاستفهام مستعملا في النفي للتحذير، وذلك نظير قوله تعالى: لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين [الشعراء: ٣] .
والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حدا يوجب توقع الأمر المستفهم عنه حتى أن

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٢

المتكلم يستفهم عن حصوله. وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همة المخاطب وإلهاب همته لدفع الفتور عنه، فليس في هذا تجويز ترك النبيء صلى الله عليه وسلم تبليغ بعض ما يوحى إليه، وذلك البعض هو ما فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها [الأعراف: ٢٠٣].

والمعنى تحذيره من التأثر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب، فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه.

وضائق: اسم فاعل من ضاق. وإنما عدل عن أن يقال (ضيق) هنا إلى ضائق لمراعاة النظير مع قوله: (تارك) لأن ذلك أحسن فصاحة. ولأن ضائق لا دلالة فيه على تمكن وصف الضيق من صدره بخلاف ضيق، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف، **إيماء** إلى أن أقصى ما يتوهم توقعه في جانبه صلى الله عليه وسلم هو ضيق قليل يعرض له.

والضيق مستعمل مجازا في الغم والأسف، كما استعمل ضده وهو الانشراح في الفرح والمسرة.". (١)

٨٢. ٨٢-"والمراد ب شاهد منه شاهد من ربه، أي شاهد من الله وهو القرآن لأنه لإعجازه

المعاندين عن الإتيان بعشر سور مثله كان حجة على أنه آت من جانب الله.

ومن ابتدائية. وضمير منه عائد إلى ربه. ويجوز أن يعود إلى شاهد أي شاهد على صدقه كائن في ذاته وهو إعجازه إياهم عن الإتيان بمثله.

ومن قبله حال من كتاب موسى. وكتاب موسى عطف على شاهد منه والمراد تلوه في الاستدلال بطريق الارتقاء فإن النصارى يهتدون بالإنجيل ثم يستظهرون على ما في الإنجيل بالتوراة لأنها أصله وفيها بيانه، ولذلك لما عطف كتاب موسى على شاهد الذي هو معمول

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٦

يتلوه قيد كتاب موسى بأنه من قبله، أي ويتلوه شاهد منه. ويتلوه كتاب موسى حالة كونه من قبل الشاهد أي سابقا عليه في النزول. وإذا كان المراد ب فمن كان على بينة من ربه النصارى خاصة كان لذكر كتاب موسى **إيماء** إلى أن كتاب موسى- عليه السلام- شاهد على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ولم يذكر أهل ذلك الكتاب وهم اليهود لأنهم لم يكونوا على بينة من ربهم كاملة من جهة عدم تصديقهم بعيسى- عليه السلام-.

وإماما ورحمة حالان ثناء على التوراة بما فيها من تفصيل الشريعة فهو إمام يهتدى به ورحمة للناس يعملون بأحكامها فيرحمهم الله في الدنيا بإقامة العدل وفي الآخرة بجزاء الاستقامة إذ الإمام ما يؤتم به ويعمل على مثاله.

والإشارة ب أولئك إلى فمن كان على بينة من ربه، أي أولئك الذين كانوا على بينة من ربهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين، وذلك في معنى قوله تعالى: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين [الأنعام: ٨٩] .

وإقحام أولئك هنا يشبه إقحام ضمير الفصل، وفيه تنبيه على أن ما بعده من الخبر مسبب على ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف وهي كونهم على بينة من ربهم معضدة بشواهد من الإنجيل والتوراة.". (١)

٨٣. ٨٣-"الإشارة من الوصف، وهذا أشد الظلم كما تقدم في أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده علم أن عرضهم على ربهم عرض زجر وانتقام.

والعرض إذا عدي بحرف (على) أفاد معنى الإحضار بإراءة.

واختيار وصف السبب **للإيماء** إلى القدرة عليهم.

وعطف فعل (يقول) على فعل (يعرضون) الذي هو خبر، فهو عطف على جزء الجملة السابقة وهو هنا ابتداء عطف جملة على جملة فكلا الفعلين مقصود بالإخبار عن اسم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٨

الإشارة.
والمعنى أولئك يعرضون على الله للعقاب ويعلن الأشهاد بأنهم كذبوا على ربهم فضحا لهم.
والأشهاد: جمع شاهد بمعنى حاضر، أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحق. وهؤلاء الأشهاد من الملائكة.
واستحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للناس كلهم حتى يشتهر ما سيخبر به عن حالهم، والمقصود من ذلك شهرتهم بالسوء وافتضاحهم.
والإتيان بالموصول في الخبر عنهم **إيماء** إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم وهو ألا لعنة الله على الظالمين، على أن المقصود تشهيرهم دون الشهادة.
والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم في قوله: أولئك يعرضون على ربهم.
وجملة ألا لعنة الله على الظالمين من بقية قول الأشهاد. وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير، والخبر مستعمل في الدعاء خزيا وتحقيرا". (١)

٨٤. ٨٤-"الإنسان فيطلق كما يطلق الإنسان على الواحد والأكثر، والمؤنث والمذكر. وقد يثنى كما في قوله تعالى: أنؤمن لبشرين مثلنا [المؤمنون: ٤٧] .
وقالوا: وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا فجعلوا أتباع الناس المعدودين في عادتهم أراذل محقورين دليلا على أنه لا ميزة له على سادتهم الذين يلوذ بهم أشراف القوم وأقوياؤهم. فنفوا عنه سبب السيادة من جهتي ذاته وأتباعه، وذلك تعريض بأنهم لا يتبعونه لأنهم يترفعون عن مخالطة أمثالهم وأنه لو أبعدهم عنه لاتبعوه، ولذلك ورد بعده وما أنا بطارد الذين آمنوا [هود: ٢٩] الآية.
والأرذال: جمع أرذل المجعول اسما غير صفة كذلك على القياس، أو جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل: المحتقر. وأرادوا أنهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء. وإضافة (أراذل) إلى ضمير جماعة المتكلمين لتعيين القبيلة، أي أراذل قومنا. وعبر عنهم بالموصول والصلة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/١٢

دون أن يقال: إلا أراذلنا لحكاية أن في كلام الذين كفروا إيماء إلى شهرة أتباع نوح- عليه السلام- بين قومهم بوصف الرذالة والحقارة، وكان أتباع نوح- عليه السلام- من ضعفاء القوم ولكنهم من أزكياء النفوس ممن سبق لهم الهدى.

وبادي قرأه الجمهور- بياء تحتية في آخره- على أنه مشتق من بدا المقصور إذا ظهر، وألفه منقلبة عن الواو لما تحركت وانفتح ما قبلها، فلما صيغ منه وزن فاعل وقعت الواو متطرفة إثر كسرة فقلبت ياء. والمعنى فيما يبدو لهم من الرأي دون بحث عن خفاياه ودقائقه.

وقرأه أبو عمرو وحده- بهمزة في آخره- على أنه مشتق من البداء، وهو أول الشيء.

والمعنى: فيما يقع أول الرأي، أي دون إعادة النظر لمعرفة الحق من التمويه، ومآل المعنيين واحد.

والرأي: نظر العقل، مشتق من فعل رأى، كما استعمل رأى بمعنى ظن وعلم.". (١)

٨٥. ٨٥-"واختيار وصف الرب دون اسم الجلالة للدلالة على أن إعطاءه البينة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به.

ومعنى فعميت فخفيت، وهو استعارة، إذ شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون كالعمياء في أنها لم تصل إلى عقولهم كما أن الأعمى لا يهتدي للوصول إلى مقصده فلا يصل إليه.

ولما ضمن معنى: الخفاء عدي فعل (عميت) بحرف (على) تجريدا للاستعارة. وفي ضد هذه الاستعارة جاء قوله تعالى: وآتينا ثمود الناقة مبصرة [الإسراء:

٥٩] ، أي آتيناهم آية واضحة لا يستطاع جحدها لأنها آية محسوسة، ولذلك سمي جحدهم إياها ظلما فقال: فظلموا بها [الإسراء: ٥٩] .

ومن بديع هذه الاستعارة هنا أن فيها طباقا لمقابلة قولهم في مجادلتهم ما نراك إلا بشرا- وما نراك اتبعك- وما نرى لكم علينا من فضل [هود: ٢٧] . فقابل نوح- عليه السلام- كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى.

وعطف (عميت) بفاء التعقيب إيماء إلى عدم الفترة بين إيتائه البينة والرحمة وبين خفائها

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٤٨

عليهم. وهو تعريض لهم بأنهم بادروا بالإنكار قبل التأمل.
وجملة أنلزمكموها سادة مسد مفعولي أرأيتم لأن الفعل علق عن العمل بدخول همزة الاستفهام.
وجواب الشرط محذوف دل عليه فعل أرأيتم وما سد مسد مفعوليه. وتقدير الكلام: قال يا قوم إن كنت على بينة من ربي إلى آخره أترون أنلزمكم قبول البينة وأنتم لها كارهون.
وجيء بضمير المتكلم المشارك هنا للإشارة إلى أن الإلزام لو فرض وقوعه لكان له أعوان عليه وهم أتباعه فأراد أن لا يهمل ذكر أتباعه وأنهم أنصار له لو شاء أن يهيب بهم. والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين إياهم.". (١)

٨٦. ٨٦-"ويجوز أن تجعل كاف التشبيه مفيدة معنى التعليل كالتي في قوله تعالى: واذكروه كما هداكم [البقرة: ١٩٨] فيفيد التفاوت بين السخريتين، لأن السخرية المعللة أحق من الأخرى، فالكفار سخروا من نوح- عليه السلام- لعمل يجهلون غايته، ونوح- عليه السلام- وأتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور، كما دل عليه قوله: فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه فهو تفريع على جملة فإنا نسخر منكم أي سيظهر من هو الأحق بأن يسخر منه.
وفي إسناد (العلم) إلى ضمير المخاطبين دون الضمير المشارك بأن يقال: فسوف نعلم، **إيماء** إلى أن المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك. وهذا يفيد أدبا شريفا بأن الواثق بأنه على الحق لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية، وأن عليه وعلى أتباعه أن يسخروا من الساخرين.
والخزي: الإهانة، وقد تقدم عند قوله تعالى: ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته في آخر سورة آل عمران [١٩٢] .
والعذاب المقيم: عذاب الآخرة، أي من يأتيه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الخالد في الآخرة.
ومن استفهامية معلقة لفعل العلم عن العمل، وحلول العذاب: حصوله شبه الحصول بحلول

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٢

القادم إلى المكان وهو إطلاق شائع حتى ساوى الحقيقة.

[٤٠]

[سورة هود (١١) : آية ٤٠]

حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل (٤٠)

حتى غاية ل يصنع الفلك [هود: ٣٨] أي يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا، ف إذا ظرف مضمن معنى الشرط ولذلك جيء له بجواب. وهو جملة قلنا احمل.". (١)

٨٧. ٨٧-"ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه، لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافا إلى نوح- عليه السلام- تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

وجملة فقال رب إن ابني من أهلي بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع كما لم يعطف البيان في قوله تعالى: إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إني وهن العظم مني [مريم: ٣، ٤] ، وخولف ذلك هنا. ووجه في «الكشاف» اقترانه بالفاء بأن فعل نادى مستعمل في إرادة النداء، أي مثل فعل (قمتم) في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم [المائدة: ٦] الآية، يريد أن ذلك إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر فإن وجود الفاء في الجملة التي هي بيان للنداء قرينة على أن فعل نادى مستعار لمعنى إرادة النداء، أي أراد نداء ربه فأعقب إرادته بإصدار النداء، وهذا إشارة إلى أنه أراد النداء فتردد في الإقدام عليه لما علم من قوله تعالى: إلا من سبق عليه القول [هود: ٤٠] فلم يطل تردده لما غلبته الشفقة على ابنه فأقدم على نداء، ربه، ولذلك قدم الاعتذار بقوله: إن ابني من أهلي. فقوله: إن ابني من أهلي خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنه

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/١٢

يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ولكنه اقتحمه لأن المسئول له من أهله فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر ب إن للاهتمام به.

وكذلك جملة وإن وعدك الحق خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنه يعلم أن وعد الله حق.

والمراد بالوعد ما في قوله تعالى: إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون [المؤمنون: ٣٧] إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق". (١)

٨٨. ٨٨-"ونداء نوح- عليه السلام- للتنويه به بين الملأ.

والهبوط: النزول. وتقدم في قوله: اهبطوا مصرا في سورة البقرة [٦١] .

والمراد: النزول من السفينة لأنها كانت أعلى من الأرض.

والسلام: التحية، وهو مما يخاطب بها عند الوداع أيضا، يقولون: اذهب بسلام، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما وخطابه بالسلام حينئذ **إيماء** إلى أنه كان في ضيافة الله تعالى لأنه كان كافلا له النجاة، كما قال تعالى: وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا [القمر: ١٣، ١٤] .

وأصل السلام: السلامة، فاستعمل عند اللقاء إيذانا بتأمين المرء ملاقيه وأنه لا يضمر له سوءا، ثم شاع فصار قولا عند اللقاء للإكرام. وبذلك نهى النبيء صلى الله عليه وسلم الذين قالوا: السلام على الله، فقوله هنا: اهبط بسلام نظير قوله: ادخلوها بسلام آمنين [الحجر: ٤٦] فإن السلام ظاهر في التحية لتقييده ب (آمنين) . ولو كان السلام مرادا به السلامة لكان التقييد ب (آمنين) توكيدا وهو خلاف الأصل.

ومنا تأكيد لتوجيه السلام إليه لأن (من) ابتدائية، فالمعنى: بسلام ناشىء من عندنا، كقوله: سلام قولا من رب رحيم [يس: ٥٨] . وذلك كثير في كلامهم. وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام فهو أشد مبالغة من الذي لا تذكر معه (من) .

والباء للمصاحبة، أي اهبط مصحوبا بسلام منا. ومصاحبة السلام الذي هو التحية مصاحبة

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٨٤

مجازية.". (١)

٨٩. ٨٩-"عنهم **إيماء** إلى أن اختصاصهم بالكرامة لأجل كونهم ناشئين عن فئة مكرمة بمصاحبة نوح- عليه السلام-، فحصل تنويه نوح- عليه السلام- وصحبته ونسلهم بطريق إيجاز بديع.

وجملة وأمم سنمتعهم إلخ، عطف على جملة اهبط بسلام منا إلى آخرها، وهي استئناف بياني لأنها تبيين لما أفاده التنكير في قوله: وعلى أمم ممن معك من الاحتراز عن أمم آخرين. وهذه الواو تسمى استينافية وأصلها الواو العاطفة وبعضهم يرجعها إلى الواو الزائدة، ويجوز أن تكون الواو للتقسيم، والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا، والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنهم من ذرية نوح ولم يتبعوا سبيل جدهم، فأشعروا بأنهم من الأمم التي أنبأ الله نوحا بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم. ونظير هذا قوله تعالى: ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا [الإسراء: ٣] أي وكان المتحدث عنهم غير شاكرين للنعمة.

وإطلاق المس على الإصابة القوية تقدم عند قوله تعالى: وإن يمسسك الله بضر

فلا كاشف له إلا هو

في الأنعام [١٧] .

وذكر منا مع يمسهم لمقابلة قوله في ضده بسلام منا ليعلموا أن ما يصيب الأمة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشر هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتب المسببات العادية على أسبابها، إذ من حق الناس أن يتبصروا في الحوادث ويتوسموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم ويعلموا أن الله يخاطبهم بدلالة الكائنات عند انقطاع خطابه إياهم على ألسنة الرسل، فإن الرسل يبينون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها. ومثاله ما هنا فقد بين لهم على لسان نوح-

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٨٩

عليه السلام- أنه يمتع أمما ثم يمسهم عذاب أليم بما يصنعون.". (١)

٩٠. ٩٠-"وعدي كفروا ربهم بدون حرف الجر لتضمينه معنى عصوا في مقابلة واتبعوا أمر كل جبار عنيد، أو لأن المراد تقدير مضاف، أي نعمة ربهم لأن مادة الكفر لا تتعدى إلى الذات وإنما تتعدى إلى أمر معنوي.

وجملة ألا بعدا لعاد ابتدائية لإنشاء ذم لهم. وتقدم الكلام على بعدا عند قوله في قصة نوح- عليه السلام- وقيل بعدا للقوم الظالمين [هود: ٤٤] .

وقوم هود بيان ل (عاد) أو وصف ل (عاد) باعتبار ما في لفظ قوم من معنى الوصفية.

وفائدة ذكره **الإيماء** إلى أن له أثرا في الذم بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضا بالمشركين من العرب، وليس ذكره للاحتراز عن عاد أخرى وهم إرم كما جوزه صاحب «الكشاف» لأنه لا يعرف في العرب عاد غير قوم هود وهم إرم، قال تعالى:

ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد [الفجر: ٦، ٧] .

[٦١]

[سورة هود (١١) : آية ٦١]

وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١)

قوله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحا- إلى قوله- غيره الكلام فيه كالذي في قوله: وإلى عاد أخاهم هودا [هود: ٥٠] إلخ.

وذكر ثمود وصالح- عليه السلام- تقدم في سورة الأعراف.

وثمود: اسم جد سميت به القبيلة، فلذلك منع من الصرف بتأويل القبيلة.

وجملة هو أنشأكم من الأرض في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهية غيره، وكأنهم كانوا مثل مشركي قريش لا يدعون لأصنامهم خلقا ولا رزقا، فلذلك كانت الحجة عليهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٩١

ناهضة واضحة.". (١)

٩١. ٩١-"[٦٦- ٦٨]

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود (٦٨)

تقدم الكلام على نظائر بعض هذه الآية في قصة هود في سورة الأعراف.

ومتعلق نجينا محذوف.

وعطف ومن خزي يومئذ على متعلق نجينا المحذوف، أي نجينا صالحا- عليه السلام- ومن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيف به العذاب فإن العذاب يكون على كيفيات بعضها أخزى من بعض. فالمقصود من العطف عطف منة على منة لا عطف إنجاء على إنجاء، ولذلك عطف المتعلق ولم يعطف الفعل، كما عطف في قصة عاد نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ [هود: ٥٨] لأن ذلك إنجاء من عذاب مغاير للمعطوف عليه.

وتنوين يومئذ تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا.

والخزي: الذل، وهو ذل العذاب، وتقدم الكلام عليه قريبا.

وجملة إن ربك هو القوي العزيز معترضة.

وقد أكد الخبر بثلاث مؤكدات للاهتمام به. وعبر عن ثمود بالذين ظلموا للإيماء بالموصول إلى علة ترتب الحكم، أي لظلمهم وهو ظلم الشرك. وفيه تعريض بمشركي أهل مكة بالتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنهم ظالمون أيضا.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/١٢

(٢) التحرير والتنوير ١١٤/١٢

٩٢. ٩٢-"والمراد أن يعبده دون غيره ويتوكل عليه دون غيره بقرينة وإليه يرجع الأمر كله، وبقرينة التفريع لأن الذي يرجع إليه كل أمر لا يعقل أن يصرف شيء من العبادة ولا من التوكل إلى غيره، فلذلك لم يؤت بصيغة تدل على تخصيصه بالعبادة للاستغناء عن ذلك بوجوب سبب تخصيصه بهما.

وجملة وما ربك بغافل عما تعملون فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدم. والواو فيه كالواو في قوله: ولله غيب السماوات والأرض فإن عدم غفلته عن أي عمل أنه يعطي كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولذلك علق وصف الغافل بالعمل ولم يعلق بالذوات نحو: بغافل عنكم، **إيماء** إلى أن على العمل جزاء.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب «عما تعملون» - بتاء فوقية- خطابا للنبيء صلى الله عليه وسلم والناس معه في الخطاب. وقرأ من عداهم بالمثناة التحتية على أن يعود الضمير إلى الكفار فهو تسلية للنبيء- عليه الصلاة والسلام- وتهديد للمشركين.". (١)

٩٣. ٩٣-"وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

قال تعالى: لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين [سورة يوسف: ٧] .

وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف- عليهم السلام- على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

وفيها العبرة بهجرة قوم النبيء صلى الله عليه وسلم إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب- عليه السلام- وآله، وذلك **إيماء** إلى أن قريشا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعا لهجرة النبيء صلى الله عليه وسلم.

وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها.

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٩٦

واسترقاق الصبي اللقيط. واسترقاق السارق، وأحوال المساجين. ومراقبة المكاييل.

وإن في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و (اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه". (١)

٩٤. ٩٤-"القائل من إلقاء يوسف- عليه السلام- في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة لأنه يحصل به إبعاد يوسف- عليه السلام- عن أبيه إبعادا لا يرجى بعده تلاقيهما دون إلحاق ضر الإعدام بيوسف- عليه السلام- فإن التقاط السيارة إياه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده، لأنه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم أو باعوه فزاد بعدا على بعد.

والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع.

والسيارة: الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلاحة والبحارة.

والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأنهم علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة والميرة.

وجملة إن كنتم فاعلين شرط حذف جوابه لدلالة وألقوه، أي إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألقوه في غيابات الجب ولا تقتلوه.

وفيه تعريض بزيادة التريث فيما أضمروه لعلهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه، ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو إن **إيماء** إلى أنه لا ينبغي الجزم به، فكان هذا القائل أمثل

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٩٩

الإخوة رأيا وأقربهم إلى التقوى، وقد علموا أن السيارة يقصدون إلى جميع الجباب للاستقاء، لأنها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر. وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط.". (١)

٩٥. ٩٥-"عقبه بالاستدراك بقوله: ولكن أكثر الناس لا يعلمون استدراكا على ما يقتضيه
هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تجعل لأن عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره.
[٢٢]

[سورة يوسف (١٢) : آية ٢٢]
ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (٢٢)
هذا إخبار عن اصطفاء- يوسف- عليه السلام- للنبوءة. ذكر هنا في ذكر مبدأ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منة الله عليه بتمكينه في الأرض وتعليمه تأويل الأحاديث.
والأشد: القوة. وفسر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.
والحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضده. وأريد به هنا النبوءة كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان- عليهما السلام- وكلا آتينا حكما وعلما [سورة الأنبياء: ٧٩] . والمراد بالعلم علم زائد على النبوءة.
وتنكير علما للنوعية، أو للتعظيم. والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه: ذلكما مما علمني ربي [سورة يوسف: ٣٧] .
وقال فخر الدين: الحكم: الحكمة العملية لأنها حكم على هدى النفس. والعلم: الحكمة النظرية.
والقول في وكذلك نجزي المحسنين كالقول في نظيره، وتقدم عند قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا في سورة البقرة [١٤٣] .

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/١٢

وفي ذكر المحسنين إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة.". (١)

٩٦. ٩٦-"وعبر عما عرضته المرأة بالموصولية لما في الصلة من الإيماء إلى كون المطلوب حالة هي مظنة الطواعية، لأن تمالئ الناس على طلب الشيء من شأنه أن يوطن نفس المطلوب للفعل، فأظهر أن تمالئهن على طلبهن منه امتثال أمر المرأة لم يفل من صارم عزمه على الممانعة، وجعل ذلك تمهيدا لسؤال العصمة من الوقوع في شرك كيدهن، فانتقل من ذكر الرضى بوعيدها إلى سؤال العصمة من كيدها.

وأسند فعل يدعونني إلى نون النسوة، فالواو الذي فيه هو حرف أصلي وليست واو الجماعة، والنون ليست نون رفع لأنه مبني لاتصاله بنون النسوة، ووزنه يفعلن. وأسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أن التي دعته امرأة واحدة، إما لأن تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في كيدهن، وإما لأن النسوة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف- عليه السلام- وتحريضه على إجابة الداعية، وتحذيره من وعيدها بالسجن. وعلى وزان هذا يكون القول في جمع الضمير في كيدهن [سورة يوسف: ٢٨] أي كيد صنف النساء، مثل قول العزيز إن كيدكن عظيم، أي كيد هؤلاء النسوة.

وجملة وإلا تصرف عني كيدهن خبر مستعمل في التخوف والتوقع التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول والقوة والخشية من تقلب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرع عنه جملة فاستجاب له ربه.

ومعنى أصب أمل. والصبو: الميل إلى المحبوب.

والجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم. والقول في أن مبالغة أكن من الجاهلين أكثر من أكن جاهلا كالقول في وليكونا من الصاغرين [سورة يوسف: ٣٢] .". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/١٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٦/١٢

٩٧. ٩٧-"أو رصدوا الأعين إليهم، فيكون ذلك ضرا لهم وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف- عليه السلام- ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» .

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن (بنيامين) يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة.

والمتفرقة أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

وجملة وما أغني عنكم من الله من شيء معترضة في آخر الكلام، أي وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئا. ومن الله متعلق ب أغني، أي لا يكون ما أمرتكم به مغنيا غناء مبتدئا من عند الله بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط.

وتقدم وجه تركيب وما أغني عنكم من الله من شيء عند قوله تعالى: ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا في سورة العقود [٤١] .

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليه

قول النبيء صلى الله عليه وسلم «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»

،

وفي الأثر «إذا أراد الله أمرا يسر أسبابه»". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢١

٩٨. ٩٨-"وقوله: إن في ذلك لآيات الإشارة إلى ما تقدم من قوله: الله الذي رفع السماوات [الرعد: ٢] إلى هنا بتأويل المذكور.

وجعل الأشياء المذكورات ظروفا لآيات لأن كل واحدة من الأمور المذكورة

تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أن التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقومات قوميتهم، أي جبلتهم كما بيناه في دلالة لفظ قوم على ذلك عند قوله تعالى: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] .

وفي هذا **إيماء** إلى أن الذين نسبوا أنفسهم إلى التفكير من الطبائعيين فعللوا صدور الموجودات عن المادة ونفوا الفاعل المختار ما فكروا إلا تفكيرا قاصرا مخلوطا بالأوهام ليس ما تقتضيه جبلة العقل إذ اشتبهت عليهم العلل والمواليد، بأصل الخلق والإيجاد.

وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر.

والتفكير تقدم عند قوله تعالى: أفلا تتفكرون في سورة الأنعام [٥٠] .

[٤]

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤]

وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٤)

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها". (١)

٩٩. ٩٩-"والتفضيل: منة بالأفضل وعبرة به وبضده وكناية عن الاختلاف.

وقرأ الجمهور تسقى بفوقية اعتبارا بجمع جنات، وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب يسقى بتحتية على تأويل المذكور.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٨٥

وقرأ الجمهور ونفضل بنون العظمة، وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ويفضل بتحتية. والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: الله الذي رفع السماوات بغير عمد. وتأنيث بعضها عند من قرأ يسقى بتحتية دون أن يقول بعضه لأنه أريد يفضل بعض الجنات على بعض في الثمرة.
والأكل: بضم الهمزة وسكون الكاف هو المأكول. ويجوز في اللغة ضم الكاف.
وظرفية التفضيل في الأكل ظرفية في معنى الملابسة لأن التفاضل يظهر بالمأكول، أي نفضل بعض الجنات على بعض أو بعض الأعناب والزرع والنخيل على بعض من جنسه بما يثمره.
والمعنى أن اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحدا والغذاء بالماء واحدا ما هو إلا لقوى خفية أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة.
ومن ثم جاءت جملة إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون مجيء التذييل.
وأشار قوله: ذلك إلى جميع المذكور من قوله: وهو الذي مد الأرض [سورة الرعد: ٣] . وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات. وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدل على ذلك.
ووصفت الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون تعريضا بأن من لم تقنعهم تلك الآيات منزلون منزلة من لا يعقل وزيد في الدلالة على أن العقل سجية للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة لقوم **إيماء** إلى أن العقل من مقومات قوميتهم كما بيناه في الآية قبلها.". (١)

١٠٠. ١٠٠-"لما فيه من خفي البشارة والنذارة، ولأنه تمام التمثيل. والتقدير: فذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض.
والجفاء: الطريح المرمي، وهذا وعيد للمشركين بأنهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون.
وعبر عن الماء بما ينفع الناس **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض تعريضا للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنهم ليسوا ما ينفع الناس، وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى: أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [سورة الأنبياء:

(١) التحرير والتنوير ١٣/٨٨

. [١٠٥

واكتفي بذكر وجه شبه النافع بالماء وغير النافع بالزبد عن ذكر وجه شبه النافع بالذهب أو الفضة وغير النافع بزبدهما استغناء عنه.

وجملة كذلك يضرب الله الأمثال مستأنفة تذييلية لما في لفظ الأمثال من العموم. فهو أعم من جملة كذلك يضرب الله الحق والباطل لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه فلما أعقب بمثل آخر وهو فأما الزبد فيذهب جفاء جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال. وحصل أيضا توكيد جملة كذلك يضرب الله الحق والباطل لأن العام يندرج فيه الخاص.

فإشارة كذلك إلى التمثيل السابق في جملة أنزل من السماء ماء أي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال، وهو المقصود بهذا التذييل.

والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحد للمشركين، وليعلم أن جملة فأما الزبد فيذهب جفاء لم يؤت بها لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع بل ولضرب المثل، فيعلم لممثل له بطريق التعريض بالمشركين". (١)

١٠١. ١٠١-"والمؤمنين، فيكون الكلام قد تم عند قوله: كذلك يضرب الله الأمثال كما في شأن التذييل.

[١٨]

[سورة الرعد (١٣) : آية ١٨]

للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد (١٨)

استئناف بياني لجملة كذلك يضرب الله الأمثال، أي فائدة هذه الأمثال أن للذين استجابوا

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٣

لربهم حين يضربها لهم الحسنى إلى آخره.
فمناسبته لما تقدم من التمثيلين أنهما عائدان إلى أحوال المسلمين والمشركين. ففي ذكر هذه الجملة زيادة تنبيه للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين لأن المؤمنين استجابوا لله بما عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأما المشركون فأعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، قال تعالى: وما يعقلها إلا العالمون [سورة العنكبوت: ٤٣] ، فكان جزاؤهم عذابا عظيما وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم. فمعنى استجابوا لربهم استجابوا لدعوته بما تضمنه المثل السابق وغيره.
وقوله: الحسنى مبتدأ وللذين استجابوا خبره. وفي العدول إلى الموصولين وصلتيهما في قوله: للذين استجابوا- والذين لم يستجيبوا إيماء إلى أن الصلتين سببان لما حصل للفريقين.
وتقديم المسند في قوله: للذين استجابوا لربهم الحسنى لأنه الأهم لأن الغرض التنويه بشأن الذين استجابوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضا.". (١)

١٠٢. ١٠٢-"الأعمال، لأن بذل المال يشق على النفوس فكان له من الأهمية ما جعله ثانيا للصلاة.
ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله: ويدرؤن بالحسنة السيئة لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء ما يحرص عليه لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدعوا السيئات بالحسنات.
والقول في عطف والذين صبروا وفي إعادة اسم الموصول كالقول في والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل.
والصبر: من المحامد. وتقدم في قوله تعالى: واستعينوا بالصبر في سورة البقرة [٤٥] . والمراد الصبر على مشاق أفعال الخير ونصر الدين.
وابتغاء وجه ربهم مفعول لأجله ل صبروا. والابتغاء: الطلب. ومعنى ابتغاء وجه الله ابتغاء رضاه كأنه فعل فعلا يطلب به إقباله عند لقائه، وتقدم في قوله تعالى: وما تنفقون إلا ابتغاء

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/١٣

وجه الله في آخر سورة البقرة [٢٧٢] .

والمعنى أنهم صبروا لأجل أن الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء ليقال ما أصبره على الشدائد ولاتقاء شماتة الأعداء.

والسر والعلانية تقدم وجه ذكرهما في قوله تعالى: الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية أواخر سورة البقرة [٢٧٤] .

والدرء: الدفع والطرد. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يعد ما يمنع حصوله، فيصدق ذلك بأن يتبع السيئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة.

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها» . وخاصة فيما بينه وبين ربه.". (١)

١٠٣. ١٠٣-"ولذلك أردفت الجملة بقوله: لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك.

والأمة: هي أمة الدعوة فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

وتقدم معنى قد خلت من قبلها أمم في سورة آل عمران عند قوله: قد خلت من قبلكم سنن [سورة آل عمران: ١٣٧] . ويتضمن قوله: قد خلت من قبلها أمم التعريض بالوعيد بمثل مصير الأمم الخالية التي كذبت رسلها.

وتضمن لام التعليل في قوله: لتتلوا عليهم أن الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات.

والتلاوة: القراءة. فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن، كقوله: وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه [سورة النمل: ٩٢] الآية.

وفيه **إيماء** إلى أن القرآن هو معجزته لأنه ذكره في مقابلة إرسال الرسل الأولين ومقابلة قوله: ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه [سورة الرعد: ٧] . وقد جاء ذلك صريحا في قوله: أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم [سورة العنكبوت: ٥١] .

وقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٩/١٣

البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي»

. وجملة وهم يكفرون بالرحمن عطف على جملة كذلك أرسلناك، أي أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر لم تدخل الهداية قلوبهم، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى أمة لأن الأمة منها مؤمنون.

والتعبير بالمضارع في يكفرون للدلالة على تجدد ذلك واستمراره. ومعنى كفرهم بالله إشراكهم معه غيره في الإلهية، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به.". (١)

١٠٤. ١٠٤-"كانوا قد سروا بنزول القرآن مصدقا للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم مقصورة على العرب فكان اليهود يستظهرون بالقرآن على المشركين، قال تعالى: وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا [سورة البقرة: ٨٩] . وكان النصارى يستظهرون به على اليهود وفريق لم يثبت لهم الفرح بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكة وما كفر الفريقان به إلا حين علموا أن دعوة الإسلام عامة.

وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم ب يفرحون دون يؤمنون. وإنما سلكنا هذا الوجه بناء على أن هذه السورة مكية كان نزولها قبل أن يسلم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن، فإن كانت السورة مدينة أو كان هذا من المدني فلا إشكال. فالمراد بالذين آتيناهم الكتاب الذين أوتوه إيتاء كاملا، وهو المجرد عن العصبية لما كانوا عليه وعن الحسد، فهو كقوله تعالى: الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به [سورة البقرة: ١٢١] .

فالأظهر أن المراد بالأحزاب أحزاب الذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: فاختلف الأحزاب من بينهم في سورة مريم [٣٧] ، أي ومن أحزابهم من ينكر بعض القرآن، فاللام عوض عن المضاف إليه. ولعل هؤلاء هم خبثاؤهم ودهاتهم الذين توسموا أن القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه، وهو ما فيه من **الإيماء** إلى ذلك من إبطال أصول عقائدهم مثل عبودية عيسى- عليه السلام- بالنسبة للنصارى، ونبوءته بالنسبة لليهود.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٤٠

وفي التعبير عنهم بالأحزاب **إيماء** إلى أن هؤلاء هم المتحزبون المتصلبون لقومهم ولما كانوا عليه. وهكذا كانت حالة اضطراب أهل الكتاب عند ما دمغتهم بعثة النبيء صلى الله عليه وسلم وأخذ أمر الإسلام يفشو.". (١)

١٠٥. ١٠٥-"ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ويعقوب ويثبت- بسكون المثلثة وتخفيف الموحدة-.

[٤٠]

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤٠]

وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤٠)

عطف على جملة يمحوا الله ما يشاء ويثبت [الرعد: ٣٩] باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبينت هذه الجملة أن النبيء صلى الله عليه وسلم ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقبه وإنما هو مبلغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبيء صلى الله عليه وسلم ذلك أم لم يشهده.

وجعل التوفي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله: نرينك.

والمعنى: ما عليك إلا البلاغ سواء رأيت عذابهم أم لم تره.

وفي الإتيان بكلمة بعض **إيماء** إلى أنه يرى البعض. وفي هذا إنذار لهم بأن الوعيد نازل بهم ولو تأخر وأن هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه الذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعا مستمرا بعده، ضرورة أن الوسيلة لا تكون من الأهمية بأشد من المقصد المقصودة لأجله.

وتأكيد الشرط بنون التوكيد وما المزيدة بعد إن الشرطية مراد منه تأكيد الربط بين هذا الشرط وجوابه وهو فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. على أن نون التوكيد لا يقترن بها فعل الشرط إلا إذا زيدت ما بعد إن الشرطية فتكون إرادة التأكيد مقتضية

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/١٣

لاجتلاب مؤكدين، فلا يكون ذلك إلا لغرض تأكيد قوي.". (١)

١٠٦. ١٠٦-"وقد أرى الله نبيئه بعض ما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبيء صلى الله عليه وسلم ولم يره بعضه مثل عذاب أهل الردة فإن معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل: مسيلمة الكذاب.

وفي الآية **إيماء** إلى أن العذاب الذي يحل بالمكذبين لرسوله صلى الله عليه وسلم عذاب قاصر على المكذبين لا يصيب غير المكذب لأنه استئصال بالسيف قابل للتجزئة واختلاف الأزمان رحمة من الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وعلى في قوله: عليك البلاغ وعلينا الحساب مستعملة في الإيجاب والإلزام، وهو في الأول حقيقة وفي الثاني مجاز في الوجوب لله بالتزامه به.

وإنما للحصر، والمحصور فيه هو البلاغ لأنه المتأخر في الذكر من الجملة المدخولة لحرف الحصر، والتقدير: عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب، ولهذا قدم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه.

وجملة وعلينا الحساب عطف على جملة عليك البلاغ فهي مدخولة في المعنى لحرف الحصر.

والتقدير: وإنما علينا الحساب، أي محاسبتهم على التكذيب لا غير الحساب من إجابة مقترحاتهم.

[٤١]

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤١]

أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (٤١)

عطف على جملة وإما نرينك بعض الذي نعدهم [الرعد: ٤٠] المتعلقة بجملة لكل أجل كتاب. عقبت بهذه الجملة لإنذار المكذبين بأن ملامح نصر النبيء صلى الله عليه وسلم قد

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٦٩

لاحت وتباشير ظفره قد طلعت ليتدبروا في". (١)

١٠٧. ١٠٧-"واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه، وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة. والامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله تعالى الذي أنزله ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه.
وإيقاظ المعاندين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان بدعا من الرسل. وأن كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل.
وضرب له مثلا برسالة موسى- عليه السلام- إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب.
وكيف كانت عاقبة المكذبين.
وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته وذكر البعث وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك **والإيماء** إلى مقابلته بحال المؤمنين.
وعد بعض نعمه على الناس تفضيلا ثم جمعها إجمالا.". (٢)

١٠٨. ١٠٨-"والقوم: الأمة والجماعة، فقوم كل أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة، وقوم كل رسول أمته المبعوث إليهم، إذ كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم العرب، وأما أمته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم الناس كافة.
وإنما كان المخاطب أولا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذر نزوله بلغات الأمم كلها، فاختار الله أن يكون رسوله- عليه الصلاة والسلام- من أمة هي أفصح

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٧٠

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٧٨

الأمم لسانا، وأسرعهم أفهاما، وألمعهم ذكاء، وأحسنهم استعدادا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من الرسل في حياته عدد من الناس مثل الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في حياته فقد عم الإسلام بلاد العرب وقد حج مع النبيء صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع نحو خمسين ألفا أو أكثر. وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون.

واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب، لأنها أصلح اللغات جمع معان، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع، وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادىء ذي بدء، وعهد إليها نشره بين الأمم.

وفي التعليل بقوله: ليبين لهم **إيماء** إلى هذا المعنى، لأنه لما كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها، قال تعالى: نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين [سورة الشعراء: ١٩٥] . فهذا كله من مطاوي هذه الآية.

ولكن لما كان المقصود من سياقها الرد على طعنهم في القرآن بأنه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتصر في رد خطئهم على أنه إنما كان كذلك ليبين لهم لأن ذلك هو الذي يهمهم.". (١)

.١٠٩ ١٠٩-"سوء العذاب. فكان مضمون جملة ويذبحون هنا مقصودا بالعد كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماما بشأنه، فعطفه من عطف الخاص على العام. وعلى كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر، فالقرآن حكى مراد كلام موسى- عليه السلام- من ذكر العذاب الأعم وذكر الأخص للاهتمام به، وهو حاصل على كلا النظمين. وإنما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفننا في إعادة القصة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبينا.

وأما عطف جملة ويستحيون نساءكم في الآيات الثلاث فلأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب، لأن استحياء النساء في ذاته نعمة ولكنه يصير من العذاب عند اقترانه

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٧/١٣

بتذبيح الأبناء، إذ يعلم أن مقصودهم من استحياء النساء استرقاقهن وإهانتهن فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهن. ولذلك سمي جميع ذلك بلاء.

وأصل البلاء: الاختبار. والبلاء هنا المصيبة بالشر، سمي باسم الاختبار لأنه اختبار لمقدار الصبر، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل. وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلا على المكروه. وما ورد منه مستعملا في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل كقوله: ونبلوكم بالشر والخير فتنة [سورة الأنبياء: ٣٥] ، وقوله: ونبلوا أخباركم [سورة محمد: ٣١] .

وتقدم في نظيرها من سورة البقرة.

وجعل هذا الضر الذي لحقهم واردا من جانب الله لأن تخليه آل فرعون لفعل ذلك وعدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحق الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب- عليهم السلام- واتباعهم دين القبط وعبادة آلهتهم.

واختيار وصف الرب هنا **للإيماء** إلى أنه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين كقوله: وإن عدتم عدنا [سورة الإسراء: ٨] .". (١)

١١٠. ١١٠-"الذين كفروا رسلهم تكذيبا قاطعا وتوقع الرسل أذاة قومهم إياهم شأن القاطع بكذب من زعم أنه مرسل من الله، ولأنهم قد بدأوهم بالأذى كما دل عليه قولهم: ولنصبرن على ما آذيتمونا. أظهر الرسل لقومهم أنهم غير غافلين عن ذلك وأنهم يتلقون ما عسى أن يواجههم به المكذبون من أذى بتوكلهم على الله هم ومن آمن معهم فابتدأوا بأن أمروا المؤمنين بالتوكل تذكيرا لهم لئلا يتعرض إيمانهم إلى زعزعة الشك حرصا على ثبات المؤمنين،

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم لعمر- رضي الله عنه-: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب» . وفي ذلك الأمر إيذان بأنهم لا يعبأون بما يضمره لهم الكافرون من الأذى، كقول السحرة لفرعون حين آمنوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون [سورة الشعراء: ٥٠] .

وتقديم المجرور في قوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون مؤذن بالحصر وأنهم لا يرجون نصرا من

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/١٣

غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم. وفيه **إيماء** إلى أنهم واثقون بنصر الله.

والجملة معطوفة بالواو عطف الإنشاء على الخبر.

والفاء في قوله: فليتوكل المؤمنون رابطة لجملة (ليتوكل المؤمنون) بما أفاده

تقديم المجرور من معنى الشرط الذي يدل عليه المقام. والتقدير: إن عجبتم من قلة اكتراثنا بتكذيبكم أيها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المكذبين أيها المؤمنون فليتوكل المؤمنون على الله فإنهم لن يضيرهم عدوهم. وهذا كقوله تعالى: وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين كما تقدم في سورة العقود [٢٣] .

والتوكل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنه أعلم بما يصلح، فالتوكل على الله تحقق أنه أعلم بما ينفع أولياءه من خير الدنيا والآخرة. وقد تقدم الكلام على التوكل عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [٥٩] .

وجملة وما لنا ألا نتوكل على الله استدلال على صدق رأيهم في تفويض". (١)

١١١. ١١١-"من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، قال في حجة الوداع «منزلنا إن

شاء الله غدا بالخيف خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»

. وعلى تقدير أن يكون المراد ب الذين كفروا في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتصافهم بالكفر حتى صار الخصلة التي يعرفون بها. وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهر الجمع فيكون هذا التوعد سنة الأمم ويكون **الإيماء** إليهم به سنة الله مع رسله.

وتأكيد توعدهم بالإخراج بلام القسم ونون التوكيد ضراوة في الشر.

و (أو) لأحد الشيئين، أقسموا على حصول أحد الأمرين لا محالة، أحدهما من فعل المقسمين، والآخر من فعل من خوطب بالقسم، وليست هي أو التي بمعنى إلى أو بمعنى إلا.

والعود: الرجوع إلى شيء بعد مفارقته. ولم يكن أحد من الرسل متبعا ملة الكفر بل كانوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٣

منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم، فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم، وكان الرسل يتجنبون مجتمعاتهم بدون أن يشعروا بمجانبتهم، فلما جاءوهم بالحق ظنوهم قد انتقلوا من موافقتهم إلى مخالفتهم فطلبوا منهم أن يعودوا إلى ما كانوا يحسبونهم عليه.

والظرفية في قوله: في ملتنا مجازية مستعملة في التمكن من التلبس بالشيء المتروك فكأنه عاد إليه.

والملة: الدين. وقد تقدم عند قوله تعالى: دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا في آخر سورة الأنعام [١٦١] ، وانظر قوله: فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا في أوائل سورة آل عمران". (١)

١١٢. ١١٢-"وتفريع جملة فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين على قول الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا [سورة إبراهيم: ١٣] الخ تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض، أي أوحى الله إلى الرسل ما يثبت به قلوبهم، وهو الوعد بإهلاك الظالمين.

وجملة لنهلكن الظالمين بيان لجملة (أوحى..) .

وإسكان الأرض: التمكين منها وتخويلها إياهم، كقوله: وأورثكم أرضهم وديارهم [سورة الأحزاب: ٢٧] .

والخطاب في لنسكننكم للرسل والذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكن الله لرسوله مكة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها.

ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (١٤) .

ذلك إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من لنهلكن، ولنسكننكم. عاد إليهما اسم الإشارة بالإفراد بتأويل المذكور، كقوله: ومن يفعل ذلك يلق أثاما [سورة الفرقان: ٦٨] .

واللام للملك، أي ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي، كقوله تعالى: ذلك لمن خشي ربه [سورة البينة: ٨] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٦

والمعنى: ذلك الوعد لمن خاف مقامي، أي ذلك لكم لأنكم خفتم مقامي، فعدل عن ضمير الخطاب إلى لمن خاف مقامي لدلالة الموصول على **الإيماء** إلى أن الصلة علة في حصول تلك العطية.". (١)

١١٣. ١١٣-"والخطاب في يذهبكم لجماعة من جملتهم المخاطب ب ألم تر. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة، تأكيدا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله: لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم، أي إن شاء أعدم الناس كلهم وخلق ناسا آخرين.

وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجا للتعليم بالوعيد وإظهارا لعظيم القدرة. وفيه **إيماء** إلى أنه يذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض.

وجملة وما ذلك على الله بعزيز عطف على جملة إن يشأ يذهبكم مؤكد لمضمونها، وإنما سلك بهذا التأكيد ملك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكد في الجملة بأنه يفيد أن هذا المشيء سهل عليه هين، كقوله: وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه [سورة الروم: ٢٧]
.

والعزيز على أحد: المتعاصي عليه الممتنع بقوته وأنصاره.

[٢١]

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢١]

وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١)

عطف على جملة إن يشأ يذهبكم [إبراهيم: ٢٠] باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب، وفي الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعا، أي يوم القيامة.

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ويبرزون لله، فعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٧

وقوعه حتى كأنه قد وقع، مثل قوله تعالى: أتى أمر الله [سورة النحل: ١] ". (١)

١١٤. ١١٤-"ومن عصاه، وذكر أنه أراد من إسكان أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يشكروا النعم المسئولة لهم. وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية إليه.

وجملة وما يخفى على الله من شيء تذييل لجملة إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، أي تعلم أحوالنا وتعلم كل شيء. ولكونها تذييلا أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع.

[٣٩]

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٣٩]

الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء (٣٩)

لما دعا الله لأهم ما يهمه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته وأن ذلك ليس بعجب في أمر الله خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدين في إبان الكبر وحين اليأس من الولادة فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء، أي مجيب، أي متصف بالإجابة وصفا ذاتيا، تمهيدا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوته سلفا. فهذا مناسبة موقع هذه الجملة بعد ما قبلها بقرينة قوله: إن ربي لسميع الدعاء.

واسم الموصول إيماء إلى وجه بناء الحمد. وعلى في قوله: على الكبر للاستعلاء المجازي بمعنى مع، أي وهب ذلك تعليا على الحالة التي شأنها أن لا تسمح بذلك. ولذلك يفسرون على هذه بمعنى مع، أي مع الكبر الذي لا تحصل معه الولادة. وكان عمر إبراهيم حين ولد له إسماعيل- عليهما السلام- ستا وثمانين سنة (٨٦) . وعمره حين ولد له إسحاق- عليهما السلام- مائة سنة (١٠٠) . وكان لا يولد له من قبل.

وجملة إن ربي لسميع الدعاء تعليل لجملة وهب، أي وهب ذلك لأنه سميع الدعاء. والسميع

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢١٥

مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ". (١)

١١٥. ١١٥-"وإنما ذكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها كما أومأ إلى ذلك قوله: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.

والتسوية: تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح.

والنفخ: حقيقته إخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين كالصفير، واستعير هنا لوضع قوة لطيفة السريان قوية التأثير دفعة واحدة، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ.

وتقريب نفخ الروح في الحي أنه تكون القوة البخارية أو الكهربائية المنبعثة من القلب عند انتهاء استواء المزاج وتركيب أجزاء المزاج تكونا سريعا دفعيا وجريان آثار تلك القوة في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن في تجاويف جميع أعضائه الرئيسة وغيرها.

وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق. وفيه **إيماء** إلى أن حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلا بتفاضل آثارها وأعمالها، وأن كراهة الذات أو الرائحة إلى حالة يكرهها بعض الناس أو كلهم إنما هو تابع لما يلائم الإدراك الحسي أو ينافره تبعا لطباع الأمزجة أو لإلف العادة ولا يؤبه في علم الله تعالى. وهذا هو ضابط وصف القذارة والنزاهة عند البشر.

ألا ترى أن المني يستقذر في الحس البشري على أن منه تكوين نوعه، ومنه تخلقت أفاضل البشر. وكذلك المسك طيب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشم وما هو إلا غدة من خارجات بعض أنواع الغزال، قال تعالى: وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون [سورة السجدة: ٧- ٩] .". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٣/١٣

(٢) التحرير والتنوير ٤٤/١٤

١١٦. ١١٦-"والفاء في فإنك رجيم دالة على سبب إخراجه من السماوات. و (إن) مؤذنة بالتعليل. وذلك إيماء إلى سبب إخراجه من عوالم القدس، وهو ما يقتضيه وصفه بالرجيم متلوث الطوية وخبث النفس، أي حيث ظهر هذا فيك فقد خبثت نفسك خبثا لا يرجى بعده صلاح فلا تبقى في عالم القدس والنزاهة.

والرجيم: المطرود. وهو كناية عن الحقارة. وتقدم في أول هذه السورة وحفظناها من كل شيطان رجيم [سورة الحجر: ١٧] .

وضمير منها عائد إلى السماوات وإن لم تذكر لدلالة ذكر الملائكة عليها. وقيل: إلى الجنة. وقد اختلف علماؤنا في أنها موجودة.

واللعنة: السب بالطرد. و (على) مستعملة في الاستعلاء المجازي وهو تمكن اللعنة والشتم منه حتى كأنه يقع فوقه.

وجعل يوم الدين وهو يوم الجزاء غاية للعن استعمالا في معنى الدوام، كأنه قيل أبدا. وليس ذلك بمقتضي أن اللعنة تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدها، ولكن المراد أن اللعنة عليه في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله فذلك يومئذ أشد من اللعنة.

[٣٦- ٣٨]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٣٦ إلى ٣٨]

قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨)

سؤاله النظرة بعد إعلامه بأنه ملعون إلى يوم الدين فاض به خبث جبلته البالغ نهاية الخباثة التي لا يشفيها إلا دوام الإفساد في هذا العالم، فكانت هذه الرغبة مجلبة لدوام شقوته.". (١)

١١٧. ١١٧-"وعبر بآل لوط- عليه السلام- لأنهم نزلوا في منزلة بين أهله فجاءوا آله وإن كان المقصود بالخطاب والمجيء هو لوط.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٧/١٤

وتولى لوط- عليه السلام- تلقيهم كما هو شأن كبير المنزل ولكنه وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي كانت تمر بهم فألهم إلى أن لهم قصة غريبة ولذلك قال لهم:
إنكم قوم منكرون، أي لا تعرف قبيلتكم. وتقدم عند قوله تعالى: نكرهم في سورة هود [٧٠] .
وقد أجابوه بما يزيل ذلك إذ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون إضرابا عن قوله: إنكم قوم منكرون وإبطالا لما ظنه من كونهم من البشر الذين لم يعرف قبيلتهم فلا يأمنهم أن يعاملوه بما يضره.
وعبر عن العذاب ب «ما كانوا فيه يمترون» **إيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو التعذيب، أي بالأمر الذي كان قومك يشكون في حلوله بهم وهو العذاب، فعلم أنهم ملائكة.
والمراد بالحق الخبر الحق، أي الصدق، ولذلك ذيل بجملة وإنا لصادقون.
وقوله: قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون حكاية لخطاب الملائكة لوطا- عليه السلام- لمعنى عباراتهم محولة إلى نظم عربي يفيد معنى كلامهم في نظم عربي بليغ، فبنا أن نبين خصائص هذا النظم العربي:
فإعادة فعل أتيناك بعد واو العطف مع أن فعل أتيناك مرادف لفعل جئناك دون أن يقول: وبالحق، يحتمل أن يكون للتأكيد اللفظي بالمرادف. والتعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنن لدفع تكرار الفعل الواحد، كقوله تعالى في سورة الفرقان [٣٣] : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا
. وعليه تكون الباء في قوله: بما كانوا فيه يمترون وقوله: بالحق للملابسة.". (١)

١١٨. ١١٨-"وزيد هنا أن ذلك خلق بالحق.
وكان قوله تعالى: وإن الساعة لآتية فذلكة لقوله تعالى: وإنا لنحن نحيي ونميت- إلى-: وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم [سورة الحجر: ٢٥] ، فعاد سياق الكلام إلى حيث فارق مهيعه. ولذلك تخلص إلى ذكر القرآن بقوله: ولقد آتيناك سبعا من المثاني [سورة الحجر: ٨٧] الناظر إلى قوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [سورة الحجر: ٩] .

(١) التحرير والتنوير ١٤/٦٣

وجملة إن ربك هو الخالق العليم في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي لأن في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربك، فمصلحة النبيء صلى الله عليه وسلم في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم، فالله الخلاق لكم ولهم ولنفسك وأنفسهم، العليم بما يأتيه كل منكم، وهذا كقوله تعالى: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون [سورة فاطر: ٨] .

ومناسبة لقوله تعالى: وإن الساعة لآتية ظاهرة.

وفي وصفه ب الخالق العليم **إيماء** إلى بشارة النبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله يخلق من أولئك من يعلم أنهم يكونون أولياء للنبيء صلى الله عليه وسلم وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين

ولدوا،

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده»

. وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبيء صلى الله عليه وسلم:

دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد

يعني بالداعي النبيء صلى الله عليه وسلم.

وتلك هي نكتة ذكر وصف الخالق دون غيره من الأسماء الحسنى.". (١)

١١٩. ١١٩-"واعلم أن معنى المقتسمين على الوجه المختار المقتسمون القرآن. وهذا هو معنى جعلوا القرآن عضين، فكان ثاني الوصفين بيانا لأولهما وإنما اختلفت العبارتان للتفنن. وأن ذم المشبه بهم يقتضي ذم المشبهين فعلم أن المشبهين قد تلقوا القرآن العظيم بالرد والتكذيب.

[٩٢، ٩٣]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٧٨

فو ربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)

الفاء للتفريع، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى: وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل [سورة الحجر: ٨٥] .

والواو للقسم، فالمفرع هو القسم وجوابه. والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. وليس الرسول- عليه الصلاة والسلام- ممن يشك في صدق هذا الوعيد ولكن التأكيد متسلط على ما في الخبر من تهديد معاد ضمير النصب في لنسئلنهم.

ووصف الرب مضافا إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذبين عن تكذيبهم إياه سؤال رب يغضب لرسوله- عليه الصلاة والسلام-.

والسؤال مستعمل في لازم معناه وهو عقاب المسئول كقوله تعالى: ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم [سورة التكاثر: ٨] فهو وعيد للفريقين.

[٩٤- ٩٦]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٩٤ إلى ٩٦]

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين (٩٤) إنا كفيناك المستهزئين (٩٥) الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون (٩٦)

تفريع على جملة ولقد آتيناك سبعا من المثاني [سورة الحجر: ٨٧] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه.". (١)

١٢٠. ١٢٠-"وجملة إنا كفيناك المستهزئين تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به، فإن اختفاء النبيء صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله أهمها تعدد الداخلين في الإسلام في تلك المدة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدين مع أن دعوته مخفية، ثم إن الله أمر رسوله- عليه الصلاة والسلام- بإعلان دعوته لحكمة أعلى تهيأ اعتبارها في علمه تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٨٧

والتعبير عنهم بوصف المستهزئين **إيماء** إلى أنه كفاه استهزاءهم وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى.

وتأكيد الخبر ب (إن) لتحقيقه اهتماما بشأنه لا للشك في تحققه.

والتعريف في المستهزئين للجنس فيفيد العموم، أي كفيناك كل مستهزء. وفي التعبير عنهم بهذا الوصف **إيماء** إلى أن قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى: لن يضروكم إلا أذى [سورة آل عمران: ١١١] ، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبيء صلى الله عليه وسلم بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى الكفاية تولي الكافي مهم المكفي، فالكافي هو متولي عمل عن غيره لأنه أقدر عليه أو لأنه يبتغي راحة المكفى. يقال: كفيت مهمك، فيتعدى الفعل إلى مفعولين ثانيهما هو المهم المكفي منه. فالأصل أن يكون مصدرا فإذا كان اسم ذات فالمراد أحواله التي يدل عليها المقام، فإذا قلت: كفيتك عدوك، فالمراد: كفيتك بأسه، وإذا قلت:

كفيتك غريمك، فالمراد: كفيتك مطالبته. فلما قال هنا كفيناك المستهزئين فهم أن المراد كفيناك الانتقام منهم وإراحتك من استهزائهم. وكانوا يستهزئون بصنوف من الاستهزاء كما تقدم.

ويأتي في آيات كثيرة من استهزائهم استهزاؤهم بأسماء سور القرآن مثل سورة العنكبوت وسورة البقرة، كما في «الإتقان» في ذكر أسماء السور.". (١)

١٢١. ١٢١-"الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملا في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق.

ويدخل فيه كما قيل ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنة، غير أن ذلك خاص

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٨٩

بالمؤمنين، فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس المتوسل به إلى إقامة الحجة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها **إيماء** إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى (بسكلات) ، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيرة بمصفى النفط وتسمى (أطوموبيل) ، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء. فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها.

وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكل من نعمته.

[٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ٩]

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩)

جملة معترضة.. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير.". (١)

١٢٢. ١٢٢-"وفي هذا **إيماء** إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم.

وجملة إن الله لغفور رحيم استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنا لك وإن تعدوا نعمت

---

(١) التحرير والتنوير ١١١/١٤

الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [سورة إبراهيم: ٣٤] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا [سورة إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم لظلوم كفار بوصفين هنا لغفور رحيم إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

[١٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ١٩]

والله يعلم ما تسرون وما تعلنون (١٩)

عطف على جملة أفمن يخلق كمن لا يخلق [سورة النحل: ١٧] . فبعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق انتقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم.

ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقب بالدليل لأنه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن". (١)

١٢٣. ١٢٣-"وتفرع عليه الإخبار بجملة فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة، وهو تفريع الأخبار عن الأخبار، أي يتفرع على هذه القضية القاطعة بما تقدم من الدلائل أنكم قلوبكم منكرة وأنتم مستكبرون وأن ذلك ناشيء عن عدم إيمانكم بالآخرة.

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته «الذين لا يؤمنون بالآخرة» لأنهم قد عرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين، كقوله: وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا [سورة الفرقان: ٢١] ، **وللإيماء** إلى أن لهذه الصلة

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٢٤

ارتباطا باستمرارهم على العناد، لأن انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرأهم على نبذ دعوة الإسلام ظهريا فلم يتوقعوا مؤاخذة على نبذها، على تقدير أنها حق فينظروا في دلائل أحقيتها مع أنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يؤمنون بأنه أعد للناس يوم جزاء على أعمالهم.

ومعنى قلوبهم منكرة جاحدة بما هو واقع. استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنه ضد الإقرار. فحذف متعلق منكرة لدلالة المقام عليه، أي منكرة للوحدانية.

وعبر بالجملة الاسمية قلوبهم منكرة للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجية وتمكن من نفوسهم لأنهم ضروا به من حيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصر في العواقب.

وكذلك جملة وهم مستكبرون بنيت على الاسمية للدلالة على تمكن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في آية سورة الفرقان [٢١] لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا لأن تلك الآية لم تتقدمها دلائل على الوحدانية مثل الدلائل المذكورة في هذه الآية.

وجملة لا جرم أن الله يعلم معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.". (١)

١٢٤. ١٢٤-"للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين (٣١) مستأنفة ابتدائية، وهي كلام من الله تعالى مثل نظيرها في آية قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة في سورة الزمر [١٠] ، وليست من حكاية قول الذين اتقوا.

والذين أحسنوا: هم المتقون فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصلا بالإتيان بالموصول إلى **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر، أي جزاؤهم حسنة لأنهم أحسنوا.

وقوله تعالى: في هذه الدنيا يجوز أن يتعلق بفعل أحسنوا. ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا حالا من حسنة. وانظر ما يأتي في نظر هذه الآية من سورة الزمر من نكتة هذا التوسيط.

ومعنى ولدار الآخرة خير أنها خير لهم من الدنيا فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة فلهم في الآخرة أحسن، فكما كان للذين كفروا عذاب الدنيا وعذاب جهنم كان للذين اتقوا خير

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٨/١٤

الدنيا وخير الآخرة. فهذا مقابل قوله تعالى في حق المشركين ليحملوا أوزارهم كاملة [سورة النحل: ٢٥] وقوله تعالى: وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون [سورة النحل: ٢٦] .
وحسنة الدنيا هي الحياة الطيبة وما فتح الله لهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان.
وخير الآخرة هو النعيم الدائم، قال تعالى: من عمل صالحا". (١)

١٢٥. ١٢٥-"وآمنوا، ومنهم أقوام تمكنت منهم الضلالة فهلكوا. ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم.
وأن تفسيرية لجملة بعثنا لأن البعث يتضمن معنى القول، إذ هو بعث للتبليغ.
والطاغوت: جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام. وقد يذكرونه بصيغة الجمع، فيقال: الطواغيت، وهي الأصنام. وتقدم عند قوله تعالى: يؤمنون بالجبت والطاغوت في سورة النساء [٥١] .
وأسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنه أمر جميعهم بالهدى تنبيها للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء [سورة النحل: ٣٥] بأن الله بين لهم الهدى، فاهتداء المهتدين بسبب بيانه، فهو الهادي لهم.
والتعبير في جانب الضلالة بلفظ «حقت عليهم» دون إسناد الإضلال إلى الله إشارة إلى أن الله لما نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة «فحقت عليهم الضلالة» ، أي ثبتت ولم ترتفع.
وفي ذلك إيماء إلى أن بقاء الضلالة من كسب أنفسهم ولكن ورد في آيات أخرى أن الله يضل الضالين، كما في قوله: ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا [سورة الأنعام: ١٢٥] ، وقوله عقب هذا فإن الله لا يهدي من يضل [سورة النحل:
٣٧] على قراءة الجمهور، ليحصل من مجموع ذلك علم بأن الله كون أسبابا عديدة بعضها جاء من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض، وبعضها تابع للدعوات الضالة بحيث تهيأت من اجتماع أمور شتى لا يحصيها إلا الله، أسباب تامة تحول بين الضال وبين الهدى. فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حق الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٤٢

المباشرة كان ضلالهم من حالات أنفسهم، وباعتبار الأسباب العالية المتوالدة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور. فافهم.". (١)

١٢٦. ١٢٦-"ثم فرع على ذلك الأمر باليسر في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقفا على السير في الأرض، ولو كان المراد مطلق الفناء لأمرهم بمشاهدة المقابر وذكر السلف الأوائل.
[٣٧]

[سورة النحل (١٦) : آية ٣٧]
إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين (٣٧)
استئناف بياني، لأن تقسيم كل أمة ضالة إلى مهتد منها وباق على الضلال يثير سؤالا في نفس النبيء صلى الله عليه وسلم عن حال هذه الأمة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها، أو أن الله يهديهم جميعا. وذلك من حرصه على خيرهم ورأفته بهم، فأعلمه الله أنه مع حرصه على هداهم فإنهم سيبقى منهم فريق على ضلالة.
وفي الآية لطيفتان:
الأولى: التعريض بالثناء على النبيء صلى الله عليه وسلم في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنق في نفس من يلحقه الأذى ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم. مطهرة من كل نقص ينشأ عن الأخلاق الحيوانية.
واللطيفة الثانية: **الإيماء** إلى أن غالب أمة الدعوة المحمدية سيكونون مهتدين وأن الضلال منهم فئة قليلة، وهم الذين لم يقدر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقدرته من الأسباب التي هيأت لهم البقاء في الضلال.
والحرص: فرط الإرادة الملحة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.
والشرط هنا ليس لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط، لأن

---
(١) التحرير والتنوير ١٤/١٥٠

مضمون الشرط معلوم الحصول، لأن علاماته ظاهرة بحيث يعلمه". (١)

١٢٧. ١٢٧-"السامعين أن يسألوا كيف لم يقتد بهم من بقوا على الكفر فتقع جملة لو كانوا يعلمون بيانا لما استبهم على السائل. والتقدير: لو كانوا يعلمون ذلك لاقتدوا بهم ولكنهم لا يعلمون. فضمير يعلمون عائد إلى الذين كفروا [سورة النحل: ٣٩] .

ويجوز أن يكون السؤال المثار هو: كيف يحزن المهاجرون على ما تركوه من ديارهم وأموالهم وأهليهم، فيكون: المعنى لو كان المهاجرون يعلمون ما أعد لهم علم مشاهدة لما حزنوا على مفارقة ديارهم ولكانت هجرتهم عن شوق إلى ما يلاقونه بعد هجرتهم، لأن تأثير العلم الحسي على المزاج الإنساني أقوى من العلم العقلي لعدم

احتياج العلم الحسي إلى استعمال نظر واستدلال، ولعدم اشتمال العلم العقلي على تفاصيل الكيفيات التي تحبها النفوس وترتمي إليها الشهوات، كما أشار إليه قوله تعالى:

قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي [سورة البقرة: ٢٦٠] . فليس المراد بقوله تعالى: لو كانوا يعلمون لو كانوا يعتقدون ويؤمنون، لأن ذلك حاصل لا يناسب موقع لو الامتناعية.

فضمير يعلمون على هذا «للذين هاجروا» . وفي هذا الوجه تتناسق الضمائر.

والذين صبروا صفة «للذين هاجروا» . والصبر: تحمل المشاق. والتوكل: الاعتماد.

وتقدم الصبر عند قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة أوائل سورة البقرة [٤٥] . والتوكل عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [١٥٩] .

والتعبير في جانب الصبر بالمضي وفي جانب التوكل بالمضارع **إيماء** إلى أن صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأن الله قد جعل لهم فرجا بالهجرة الواقعة والهجرة المترقبة. فهذا بشارة لهم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٥١/١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٥٩/١٤

١٢٨. ١٢٨-"الكلام آنفا حكاية تكذيبهم إياه تصريحا وتعريضا، فأقبل الله على الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه منزلته بأنه في منزلة الرسل الأولين- عليهم الصلاة والسلام-.

وفي هذا الخطاب تعريض بالمشركين، ولذلك التفت إلى خطابهم بقوله تعالى:

فسئلوا أهل الذكر.

وصيغة القصر لقلب اعتقاد المشركين وقولهم: أبعث الله بشرا رسولا [سورة الإسراء: ٩٤] ، فقصر الإرسال على التعلق برجال موصوفين بأنهم يوحى إليهم.

ثم أشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخا لهم لأن التوبيخ يناسبه الخطاب لكونه أوقع في نفس الموبخ، فاحتج عليهم بقوله: فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون إلخ. فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين أهل الكتب اليهود والنصارى والصابئة.

والذكر: كتاب الشريعة. وقد تقدم عند قوله تعالى: وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر في أول سورة الحجر [٦] .

وفي قوله تعالى: إن كنتم لا تعلمون **إيماء** إلى أنهم يعلمون ذلك ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء، فلذلك جيء في الشرط بحرف إن التي ترد في

الشرط المظنون عدم وجوده.

وجملة فسئلوا أهل الذكر معترضة بين جملة وما أرسلنا وبين قوله تعالى:

بالبينات والزبر.

والجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الجملة مفرعا على ما قبله، وقد جعلها في «الكشاف» معترضة على اعتبار وجوه ذكرها في متعلق قوله تعالى: بالبينات.

ونقل عنه في سورة الإنسان [٢٩] عند قوله تعالى: إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا أنه لا تقترن الجملة المعترضة بالفاء. وتردد صاحب «الكشاف» في صحة ذلك عنه لمخالفته كلامه في آية سورة النحل.". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦١

١٢٩. ١٢٩-"والذكر الكلام الذي شأنه أن يذكر، أي يتلى ويكرر. وقد تقدم عند قوله تعالى:

وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر في سورة الحجر [٦] . أي ما كنت بدعا من الرسل فقد أوحينا إليك الذكر. والذكر: ما أنزل ليقرأه الناس ويتلونه تكرارا ليتذكروا ما اشتمل عليه.
وتقديم المتعلق المجرور على المفعول للاهتمام بضمير المخاطب.

وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله: بالبينات والزبر **إيماء** إلى أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو بينة وزبور معا، أي هو معجزة وكتاب شرع. وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا معجزة أخرى، وقد قال الله تعالى: وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون سورة العنكبوت [٥٠، ٥١] .
وفي الحديث: أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»

. والتبيين: إيضاح المعنى.

والتعريف في «الناس» للعموم.

والإظهار في قوله تعالى: ما نزل إليهم يقتضي أن ما صدق الموصول غير الذكر المتقدم، إذ لو كان إياه لكان مقتضى الظاهر أن يقال لتبينه: للناس. ولذا فالأحسن أن يكون المراد بما نزل إليهم الشرائع التي أرسل الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل القرآن جامعا لها ومبينا لها ببليغ نظمه ووفرة معانيه، فيكون في معنى قوله تعالى: ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء [سورة النحل: ٨٩] .

وإسناد التبيين إلى النبيء- عليه الصلاة والسلام- باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان. واللام على هذا الوجه لذكر العلة الأصلية في إنزال القرآن.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/١٤

١٣٠. ١٣٠-"وفسر ما نزل إليهم بأنه عين الذكر المنزل، أي أنزلنا إليك الذكر لتبينه للناس، فيكون إظهارا في مقام الإضمار لإفادة أن إنزال الذكر إلى النبيء صلى الله عليه وسلم هو إنزاله إلى الناس كقوله تعالى: لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم [سورة الأنبياء: ١٠] .

وإنما أتي بلفظه مرتين **للإيماء** إلى التفاوت بين الإنزالين: فإنزاله إلى النبيء صلى الله عليه وسلم مباشرة، وإنزاله إلى إبلاغه إليهم.

فالمراد بالتبيين على هذا تبيين ما في القرآن من المعاني، وتكون اللام لتعليل بعض الحكم الحاقة بإنزال القرآن فإنها كثيرة، فمنها أن يبينه النبيء صلى الله عليه وسلم فتحصل فوائد العلم والبيان، كقوله تعالى: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس [سورة آل عمران: ١٨٧] .

وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنة، وبيان مجمل القرآن بالسنة، وترجيح دليل السنة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه إذ كل من الكتاب والسنة هو من تبيين النبيء صلى الله عليه وسلم إذ هو واسطته.

عطف لعلهم يتفكرون حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكر الناس فيه وتأملهم فيما يقربهم إلى رضى الله تعالى. فعلى الوجه الأول في تفسير لتبين للناس يكون المراد أن يتفكروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده، وعلى الوجه الثاني أن يتفكروا في بيانك ويعوه بأفهامهم.

[٤٥]

[سورة النحل (١٦) : آية ٤٥]

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (٤٥)

بعد أن ذكرت مساويهم ومكائدهم وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحا وبعذاب الدنيا تعريضا، فرع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من

استرسالهم في المعاندة غير مقدرين أن". (١)

١٣١. ١٣١-"والداخر: الخاضع الذليل، أي داخرون لعظمة الله تعالى.
[٤٩، ٥٠]

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٩ إلى ٥٠]
ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (٤٩)
يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (٥٠)
لما ذكر في الآية السابقة السجود القسري ذكر بعده هنا سجود آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار.
وتقديم المجرور على فعله مؤذن بالحصر، أي سجد لله لا لغيره ما في السموات وما في الأرض، وهو تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام.
وأوثرت ما الموصولة دون (من) تغليبا لكثرة غير العقلاء.
ومن دابة بيان ل ما في الأرض، إذ الدابة ما يدب على الأرض غير الإنسان.
ومعنى سجود الدواب لله أن الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلب الدفع عن نفسها من المتغلب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقي، ونحو ذلك من الملائمات. فحالها بذلك كحال شاكر تتيسر تلك الملائمات لها، وإنما تيسيرها لها ممن فطرها. وقد تصحب أحوال تنعمها حركات تشبه **إيماء** الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به الناس لخفائه وجهلهم بأوقاته، وإطلاق السجود على هذا مجاز.
ويشمل ما في السماوات مخلوقات غير الملائكة، مثل الأرواح، أو يراد بالسماوات الأجواء فيراد بما فيها الطيور والفراش.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٤
(٢) التحرير والتنوير ١٤/١٧٠

١٣٢.   ١٣٢-"ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى: ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى. فموقع الاستدراك هنا أنه تعقيب لقوله تعالى: ما ترك عليها من دابة.

والأجل: المدة المعينة لفعل ما. والمسمى: المعين، لأن التسمية تعيين الشيء وتمييزه، وتسمية الآجال تحديدها.

وتقدم نظير هذه عند قوله تعالى: ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون في سورة الأعراف [٣٤] .

[٦٢]

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٢]

ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون (٦٢)

هذا ضغث على إبالة من أحوالهم في إشراكهم تخالف قصة قوله تعالى: ويجعلون لله البنات [سورة النحل: ٥٧] باعتبار ما يختص بهذه القصة من إضافتهم الأشياء المكروهة عندهم إلى الله مما اقتضته كراهتهم البنات بقوله تعالى: ولهم ما يشتهون [سورة النحل: ٥٧] ، فكان ذلك الجعل ينطوي على خصلتين من دين الشرك، وهما: نسبة البنوة إلى الله، ونسبة أخس أصناف الأبناء في نظرهم إليه، فخصت الأولى بالذكر بقوله ويجعلون لله البنات مع **الإيماء** إلى كراهتهم البنات كما تقدم. وخصت هذه بذكر الكراهية تصريحا، ولذلك كان الإتيان بالموصول والصلة ما يكرهون هو مقتضى المقام الذي هو تفظيع قولهم وتشنيع استئثارهم.

وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنهم جعلوا لله أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرف وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها لله كما أشار إليه قوله تعالى: فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون [سورة الأنعام: ١٣٦] .

وفي «الكشاف» : «يجعلون لله أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها» . فهو مراد من عموم

الموصول، فتكون هذه القصة أعم من قصة قوله تعالى:". (١)

١٣٣. ١٣٣-"وعبر عن الضلال بطريقة الموصولية الذي اختلفوا فيه **للإيماء** إلى أن سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم، فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.

والإتيان بصيغة القصر في قوله تعالى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقيه وتدبره من مؤمن وكافر كل بما يليق بحاله حتى يستووا في الاهتداء.

ثم إن هذا القصر يعرض بتفنيد أقوال من حسبوا من المشركين أن القرآن أنزل لذكر القصص لتعليل الأنفس في الأسمار ونحوها حتى قال مضلهم: أنا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد، آتيكم بقصة (رستم) و (إسفنديار) . فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحق وحصول أثر ذينك الأمرين، وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى.

وأدخلت لام التعليل على فعل «تبين» الواقع موقع المفعول لأجله لأنه من فعل المخاطب لا من فعل فاعل أنزلنا، فالنبيء هو المباشر للبيان بالقرآن تبليغا وتفسيرا.

فلا يصح في العربية الإتيان بالتبيين مصدرا منصوبا على المفعولية لأجله إذ ليس متحدا مع العامل في الفاعل، ولذلك خولف في المعطوف فنصب هدى ورحمة لأنهما من أفعال منزل القرآن، فالله هو الهادي والراحم بالقرآن، وكل من البيان والهدى والرحمة حاصل بالقرآن فآلت الصفات الثلاث إلى أنها صفات للقرآن أيضا.". (٢)

١٣٤. ١٣٤-"والتعبير ب لقوم يؤمنون دون للمؤمنين، أو للذين آمنوا، **للإيماء** إلى أنهم الذين الإيمان كالسجية لهم والعادة الراسخة التي تتقوم بها قوميتهم، كما تقدم في قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٩٦/١٤

لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] .
وهاته الآية بمنزلة التذييل للعبر والحجج الناشئة عن وصف أحوال المخلوقات ونعم الخالق على الناس المبتدئة من قوله تعالى: أفمن يخلق كمن لا يخلق [سورة النحل:
١٧] .
[٦٥]

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٥]
والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون (٦٥)
انتهى الكلام المعترض به وعاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه ذلك من التذكير بالنعم. فهذه منة من المنن وعبرة من العبر وحجة من الحجج المتفرعة عن التذكير بنعم الله والاعتبار بعجيب صنعه.
عاد الكلام إلى تعداد نعم جمة ومعها ما فيها من العبر أيضا جمعا عجيبا بين الاستدلال ووصلا للكلام المفارق عند قوله تعالى: وبالنجم هم يهتدون [سورة النحل:
١٦] ، كما علمته فيما تقدم. فكان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة مسوقا مساق الاستدلال، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها بالماء النازل من السماء.
وبهذا الاعتبار خالفت هذه النعمة النعمة المذكورة في قوله سابقا هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر [سورة النحل: ١٠] باختلاف الغرض الأولي، فهو هنا لك الاستدلال بتكوين الماء وهنا الامتنان.
وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، أي الله لا غيره أنزل من السماء ماء.
وذلك في معنى قوله تعالى: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم". (١)

١٣٥. ١٣٥-"والقول في جملة إن في ذلك لآية لقوم يعقلون مثل قوله آنفا: إن في ذلك لآية لقوم يسمعون [سورة النحل: ٦٥] . والإشارة إلى جميع ما ذكر من نعمة سقي الألبان

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٩٧

وسقي السكر وطعم الثمر.
واختير وصف العقل هنا لأن دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبر فيما وصفته الآية هنا، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم.
[٦٨، ٦٩]

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٨ إلى ٦٩]
وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)
عطف عبرة على عبرة ومنة على منة. وغير أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابا، وكان ما في بطون النحل وسطا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإن النحل يمتص ما في الثمرات والأنوار من المواد السكرية العسلية ثم يخرجه عسلا كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى.
وفيه عبرة أخرى وهي أن أودع الله في ذبابة النحل إدراكا لصنع محكم مضبوط منتج شرابا نافعا لا يحتاج إلى حلب الحالب.
فافتتحت الجملة بفعل أوحى دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة والله أنزل [سورة النحل: ٦٥] ، لما في أوحى من **الإيماء** إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرا عجيبا وعملا متقنا وهندسة في الجبلة.". (١)

١٣٦. ١٣٦-"بطونها شراب بيانا لما سأل عنه. وهو أيضا موضع المنة كما كان تمام العبرة.
وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد الخروج وتكرره.
وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومىء إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به

---
(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٠٤

وهو محل المنة، وليرتب عليه جملة فيه شفاء للناس. وسمي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ. وقد تقدم ذكر الشراب في قوله تعالى: لكم منه شراب في أوائل هذه السورة [النحل: ١٠].

ووصفه ب مختلف ألوانه لأن له مدخلا في العبرة، كقوله تعالى: تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل [سورة الرعد: ٤] ، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة.

وفي العسل خواص كثيرة المنافع مبينة في علم الطب.

وجعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وهي الملابسة للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه، **وإيماء** إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل.

فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظروف عن بعض أجزاء الظرف، لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالبا. شبه تخلف المقارنة في بعض الأحوال بقلة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظروف ومظروفاتها، وبذلك يبقى تعريف «الناس» على عمومه، وإنما التخلف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل.

وتنكير شفاء في سياق الإثبات لا يقتضي العموم فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء، كما أن مفاد (في) من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال.

وعموم التعريف في قوله تعالى: للناس لا يقتضي العموم الشمولي لكل فرد فرد بل لفظ (الناس) عمومه بدلي. والشفاء ثابت للعسل في". (١)

١٣٧. ١٣٧-"والقدس: الطهر. وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حاتم الجود، وزيد الخير. والمراد: حاتم الجواد، وزيد الخير. فالمعنى: الملك المقدس.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/١٤

والباء في بالحق للملابسة، وهي ظرف مستقر في موضع الحال من الضمير المنصوب في نزله مثل تنبت بالدهن [سورة المؤمنون: ٢٠] ، أي ملابسا للحق لا شائبة للباطل فيه.

وذكرت علة من علل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي تبديل آية مكان آية، بأن في ذلك تثبيتا للذين آمنوا إذ يفهمون محمل كل آية ويهدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر.

ففي قوله تعالى: نزله روح القدس من ربك إبطال لقولهم: إنما أنت مفتر [سورة النحل: ١٠١] ، وفي قوله تعالى بالحق إيقاظ للناس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنها حق.

وفي التعليل بحكمة التثبيت والهدى والبشرى بيان لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنه تثبيت لقلوبهم بصحة اليقين وهدى وبشرى لهم.

وفي تعلق الموصول وصلته بفعل التثبيت **إيماء** إلى أن حصول ذلك لهم بسبب إيمانهم، فيفيد تعريضا بأن غير المؤمنين تقصر مداركهم عن إدراك ذلك الحق فيختلط عليهم الفهم ويزدادون كفرا ويضلون ويكون نذارة لهم.

والمراد بالمسلمين الذين آمنوا، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف.

وقوله تعالى: وهدى وبشرى عطف على الجار والمجرور من قوله: ليثبت، فيكون هدى وبشرى مصدرين في محل نصب على المفعول لأجله، لأن قوله". (١)

١٣٨. ١٣٨-"وعبر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم، فيقال: إنما يفتري الكذب أنتم، ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأن للصلة أثرا في افترائهم، لما تفيده الموصولية من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر.

وعليه فإن من لا يؤمن بالدلائل الواضحة التي هي آيات صدق لا يسعه إلا الافتراء لترويج

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٨٥

تكذيبه بالدلائل الواضحة. وفي هذا كناية عن كون تكذيبهم بآيات الله عن مكابرة لا عن شبهة.

ثم أردفت جملة القصر بجملة قصر أخرى بطريق ضمير الفصل وطريق تعريف المسند وهي جملة وأولئك هم الكاذبون.

وافتتحت باسم الإشارة، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، لينبه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرهم على الكذب، لأن من لا يؤمن بآيات الله يتخذ الكذب ديدنا له متجددا.

وجعل المسند في هذه الجملة معرفا باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتحد بهم وصار منحصرا فيهم، أي الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء. وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه، فيحصل قصران في هذه الجملة: قصر موصوف على صفة، وقصر تلك الصفة على ذلك الموصوف. والقصران الأولان الحاصلان من قوله:

إنما يفتري وقوله: وأولئك هم إضافيان، أي لا غيرهم الذي رموه بالافتراء وهو محاشى منه، والثالث أولئك هم الكاذبون قصر حقيقي ادعائي للمبالغة، إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغا قويا منزلة انحصاره فيهم.

واختير في الصلة صيغة لا يؤمنون دون: لم يؤمنوا، لتكون على وزان ما عرفوا به سابقا في قوله: الذين لا يؤمنون بآيات الله، ولما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرون على انتفاء الإيمان لا يثبت لهم ضد ذلك.". (١)

١٣٩. ١٣٩-"البقرة [١٦٤] ، وقوله تعالى: وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون في سورة يونس [١٠١] .

[١٠٨، ١٠٩]

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠٨ إلى ١٠٩]

أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون (١٠٨) لا جرم

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٩١

أنهم في الآخرة هم الخاسرون (١٠٩)

جملة مبينة لجملة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين [سورة النحل: ١٠٧] بأن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر الصادق في دلائل الوحدانية، ومن الوعي لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن المنزل عليه، ومن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبسوا به.

وافتتاح الجملة باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز تبيينا لمعنى الصلة المتقدمة، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد.

وأخبر عن اسم الإشارة بالموصول لما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الحكم المبين بهذه الجملة.

وهو مضمون جملة فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم [النحل: ١٠٦].

والطبع: مستعار لمنع وصول الإيمان وأدلته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس. وقد تقدم مفصلا عند قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة في سورة البقرة [٧].

وجملة وأولئك هم الغافلون تكملة للبيان، أي الغافلون الأكملون في الغفلة، لأن الغافل البالغ الغاية ينافي حالة الاهتداء.". (١)

١٤٠. ١٤٠-"التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى: كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة [سورة آل عمران: ٩٣] ، أي عليهم دون غيرهم فلا تحسبوا أن ذلك من الحنيفية.

[١١٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٩]

ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٩)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٧/١٤

موقع هذه الآية من اللواتي قبلها كموقع قوله السابق ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا [سورة النحل: ١١٠] . فلما ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرموه على أنفسهم، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك، ووردت قوارع الذم لما صنعوا، كان مما يتوهم علوقه بأذهان المسلمين أن يحسبوا أنهم سينالهم شيء من غمص لما اقترفوه في الجاهلية، فطمأن الله نفوسهم بأنهم لما تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد أن أفسدوا فإن الله قد غفر لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة.

ووقع الإقبال بالخطاب على النبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أن تلك المغفرة من بركات الدين الذي أرسل به.

وذكر اسم الرب مضافا إلى ضمير النبيء للنكتة المتقدمة آنفا في قوله: ثم إن ربك للذين هاجروا.

والجهالة: انتفاء العلم بما يجب. والمراد: جهالتهم بأدلة الإسلام.

وثم للترتيب الرتبي، لأن الجملة المعطوفة ب ثم تضمنت حكم التوبة وأن المغفرة والرحمة من آثارها، وذلك أهم عند المخاطبين مما سبق من وعيد، أي الذين عملوا السوء جاهلين بما يدل على فساد ما علموه. وذلك قبل أن يستجيبوا لدعوة الرسول فإنهم في مدة تأخرهم عن الدخول في". (١)

١٤١. ١٤١-"الموصول وصلته من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر. وذلك **الإيماء** هو المقصود هنا لأن المقصود إثبات أن اليهود لم يكونوا على الحنيفية كما علمت آنفا.

وليس معنى فعل اختلفوا وقوع خلاف بينهم بأمر السبت بل فعل اختلفوا مراد به خالفوا كما

في قول النبيء صلى الله عليه وسلم «واختلافهم أنبيائهم»

، أي عملهم خلاف ما أمر به أنبياؤهم. فحاصل المعنى هكذا: ما فرض السبت على أهل السبت إلا لأنهم لم يكونوا على ملة إبراهيم، إذ مما لا شك فيه عندهم أن ملة إبراهيم ليس

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣١٣

منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها.
ولم يقع التعرض لليوم المقدس عند النصارى لعدم الداعي إلى ذلك حين نزول هذه السورة كما علمت.
ولا يؤخذ من هذا أن ملة إبراهيم كان اليوم المقدس فيها يوم الجمعة لعدم ما يدل على ذلك، والكافي في نفي أن يكون اليهود على ملة إبراهيم أن يوم حرمة السبت لم تكن من ملة إبراهيم.
ثم الأظهر أن حرمة يوم الجمعة ادخرت للملة الإسلامية
لقول النبيء صلى الله عليه وسلم «فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد» .
فقوله: «فهدانا الله إليه»
يدل على أنه لم يسبق ذلك في ملة أخرى.
فهذا وجه تفسير هذه الآية، ومحمل الفعل والضمير المجرور في قوله: اختلفوا فيه.
وما ذكره المفسرون من وجوه لا يخلو من تكلف وعدم طائل. وقد جعلوا ضمير فيه عائدا إلى السبت. وتأولوا معنى الاختلاف فيه بوجوه. ولا مناسبة بين الخبر وبين ما توهم أنه تعليل له على معنى جعل السبت عليهم لأنهم اختلفوا على نبيئهم موسى- عليه السلام- لأجل السبت، لأن نبيهم". (١)

١٤٢. ١٤٢-"فلما كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان الحكمة في ذلك بينت الحكمة بأن الله هو أعلم بمصير الناس وليس ذلك لغير الله من الناس فما عليك إلا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم لأن العلم بمن يهتدي ومن يضل موكول إلى الله وإنما عليك التبليغ في كل حال.
وهذا قول فصل بين فريق الحق وفريق الباطل.
وقدم العلم بمن ضل لأنه المقصود من التعليل لأن دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهم، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٢٣

التكميل.

وفيه **إيماء** إلى أنه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه.

وتأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به. وأما إن فهي في مقام التعليل ليست إلا لمجرد الاهتمام، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز فإن إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصفة على الموصوف، فإن القصر تأكيد على تأكيد.

وإعادة ضمير الفصل في قوله: وهو أعلم بالمهتدين للتنصيص على تقوية هذا الخبر لأنه لو قيل: وأعلم بالمهتدين، لاحتمل أن يكون معطوفا على جملة هو أعلم بمن ضل على أنه خبر (لإن) غير داخل في حيز التقوية بضمير الفصل، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال.

ولم يقل: وبالمهتدين، تصريحا بالعلم في جانبهم ليكون صريحا في تعلق العلم به.

وهذان القصران إضافيان، أي ربك أعلم بالضالين والمهتدين، لا هؤلاء الذين يظنون أنهم مهتدون وأنكم ضالون.". (١)

١٤٣. ١٤٣-"والتفضيل في قوله: هو أعلم تفضيل على علم غيره بذلك. فإنه علم متفاوت بحسب تفاوت العالمين في معرفة الحقائق.

وفي هذا التفضيل **إيماء** إلى وجوب طلب كمال العلم بالهدى، وتمييز الحق من الباطل، وغوص النظر في ذلك، وتجنب التسرع في الحكم دون قوة ظن بالحق، والحذر من تغلب تيارات الأهواء حتى لا تنعكس الحقائق ولا تسير العقول في بنيات الطرائق، فإن الحق باق على الزمان والباطل تكذبه الحجة والبرهان.

والتخلق بهذه الآية هو أن كل من يقوم مقاما من مقامات الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب عليه أن يكون سالكا للطرائق الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلا كان منصرفا عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/١٤

هو فيه من سياسة الأمة، وأن يخشى أن يعرض مصالح الأمة للتلف، فإصلاح الأمة يتطلب إبلاغ الحق إليها بهذه الوسائل الثلاث. والمجتمع الإسلامي لا يخلو عن متعنت أو ملبس وكلاهما يلقي في طريق المصلحين شواك الشبه بقصد أو بغير قصد. فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه.

في «الموطأ» أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال في خطبة خطبها في آخر عمره: «أيها الناس قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا» وضرب بإحدى يديه على الأخرى. (لعله ضرب بيده اليسرى على يده اليمنى الممسكة السيف أو العصا في حال الخطبة) . وهذا الضرب علامة على أنه ليس وراء ما ذكر مطلب للناس في حكم لم يسبق له بيان في الشريعة.

وقدم ذكر علمه بمن ضل عن سبيله على ذكر علمه بالمهتدين لأن المقام تعريض بالوعيد للضالين، ولأن التخلية مقدمة على التحلية، فالوعيد مقدم على الوعد.". (١)

١٤٤. ١٤٤-"المشاكلة. ويجوز أن يكون عوقبتم حقيقة لأن ما يلقونه من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آبائهم.

والأمر في قوله: فعاقبوا للوجوب باعتبار متعلقه، وهو قوله: بمثل ما عوقبتم به فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب.

وفي هذه الآية إيماء إلى أن الله يظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم، فلعل بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب. فهي ناظرة إلى قوله: ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا [سورة النحل: ١١٠] .

ورغبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه، لأنه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله تعالى:

ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم [سورة فصلت: ٣٤] ، وقوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله [سورة الشورى: ٤٠] .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٤/١٤

وضمير الغائب عائد إلى الصبر المأخوذ من فعل صبرتم، كما في قوله تعالى:
اعدلوا هو أقرب للتقوى [سورة المائدة: ٨] .
وأكد كون الصبر خيرا- بلام القسم- زيادة في الحث عليه.
وعبر عنهم بالصابرين إظهارا في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين، أي الصبر خبر لجنس الصابرين.
[١٢٧]

[سورة النحل (١٦) : آية ١٢٧]
واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧)
خص النبيء صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى، أخذا بالعزيمة بعد أن رخص لهم في المعاقبة.". (١)

١٤٥. ١٤٥-"بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تأريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى: إلى المسجد الأقصى [الإسراء: ١] فأحل الله به محمدا- عليه الصلاة والسلام- بعد أن هجر وخرب **إيماء** إلى أن أمته تجدد مجده.
وأن الله مكنه من حرمي النبوءة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.
ثم إثبات دلائل تفرد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانية.
والتذكير بالنعم التي سخرها الله للناس، وما فيها من الدلائل على تفرده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتخاذ بنات له.

---
(١) التحرير والتنوير ٣٣٦/١٤

وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.
وعن ابن عباس أنه قال: التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل.
وفي رواية عنه: ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى، أي من قوله تعالى: لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا
إلى قوله: ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا [الإسراء: ٢٢- ٣٩] .
ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أن القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة.". (١)

١٤٦. ١٤٦-"فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيها أو تنقيصا لا يليقان بجلال الله تعالى مثل سبحان ربك رب العزة عما يصفون [الصافات: ١٨٠] يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التنزيه، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم [النور: ١٦] ، وقول الأعشى:
قد قلت لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر
ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادرا منه كان المعنى تعجيب السامعين، لأن التعجب مستحيلة حقيقته على الله لا لأن ذلك لا يلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إلى التمثيل، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو لعلكم تفلحون [البقرة: ١٨٩] ، بل لأنه لا يستقيم تعجب المتكلم من فعل نفسه، فيكون معنى التعجيب فيه من قبيل قولهم أتعجب من قول فلان كيت وكيت.
ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى. ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلا للشك في قدرة الله وللإشراك به كان من شأنه أن ينطق المتأمل بتسبيح الله تعالى، أي تنزيهه عن العجز.
وأصل صيغ التسبيح هو كلمة «سبحان الله» التي نحت منها السبحلة. ووقع التصرف في

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٨

صيغها بالإضمار نحو سبحانك وسبحانه، وبالموصول نحو سبحان الذي خلق الأزواج كلها [يس: ٣٦] ومنه هذه الآية.
والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من **الإيماء** إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى.
ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم، فقد آمن به المسلمون وأكبره المشركون.". (١)

١٤٧. ١٤٧-"وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات أنه رسول من الله، وأنه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قيل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعا له على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام.
وأسرى لغة في سرى، بمعنى سار في الليل، فالهمزة هنا ليست للتعدية لأن
التعدية حاصلة بالباء، بل أسرى فعل مفتح بالهمزة مرادف سرى، وهو مثل أبان المرادف بان، ومثل أنهج الثوب بمعنى نهج أي بلي، ف أسرى بعبده بمنزلة ذهب الله بنورهم [البقرة: ١٧] .
وللمبرد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة والتعدية بالباء بأن الثانية أبلغ لأنها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل، فأصل (ذهب به) أنه استصحبه، كما قال تعالى وسار بأهله [القصص: ٢٩] . وقالت العرب أشبعهم شتما، وراحوا بالإبل.
وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال أسرى بعبده دون سرى بعبده، وهي التلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال تعالى فإنك بأعيننا [الطور: ٤٨] ، وقال: إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا [التوبة: ٤٠] .
فالمعنى: الذي جعل عبده مسريا، أي ساريا، وهو كقوله تعالى: فأسر بأهلك بقطع من الليل [هود: ٨١] .
وإذ قد كان السرى خاصا بسير الليل كان قوله: ليلا إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيدا، على أن الإفادة كما يقولون خير من الإعادة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٠

وفي ذلك **إيماء** إلى أنه إسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضا ليتوسل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم.
فتنكير ليلا للتعظيم، بقرينة الاعتناء بذكره مع علمه من فعل أسرى، وبقرينة عدم تعريفه، أي هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنا". (١)

١٤٨. ١٤٨-"وفي هذا الوصف بصيغة التفضيل باعتبار أصل وضعها معجزة خفية من معجزات القرآن **إيماء** إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذ.
فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية، والتي بينها
قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي»
. وفائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته بقوله: من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أمران:
- أحدهما: التنصيص على قطع المسافة العظيمة في جزء ليلة، لأن كلا من الظرف وهو ليلا ومن المجرورين من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قد تعلق بفعل أسرى، فهو تعلق يقتضي المقارنة، ليعلم أنه من قبيل المعجزات.
- وثانيهما: **الإيماء** إلى أن الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزا إلى أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضا فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرعت في المسجد الأقصى. ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سرى يعقبه تأويب. وبذلك حصل رد العجز على الصدر.
ومن هنا يظهر مناسبة نزول التشريع الاجماعي في هذه السورة في الآيات المفتتحة بقوله

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٥

تعالى: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، ففيها: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله

إلا بالحق، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن،". (١)

١٤٩. ١٤٩-"وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم [الإسراء: ٢٣- ٣٥] **إيماء** إلى أن هذا الدين سيكون دينا يحكم في الناس وتنفذ أحكامه.

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم- عليه السلام- كما

ورد ذلك عن النبيء صلى الله عليه وسلم. ففي «الصحيحين» عن أبي ذر قال: «قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت كم بينهما؟ قال أربعون سنة»

. فهذا الخبر قد بين أن المسجد الأقصى من بناء إبراهيم لأنه حدد بمدة هي من مدة حياة إبراهيم- عليه السلام-. وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام.

وهذا مما أهمل أهل الكتاب ذكره. وهو مما خص الله نبيئه بمعرفته. والتوراة تشهد له، فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: أن إبراهيم لما دخل أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين) نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلا من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين (لوزا) فسماه يعقوب: بيت إيل، كما في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن «الطيبة») وبنى هنالك مذبحا للرب.

وهم يطلقون المذبح على المسجد لأنهم يذبحون القرابين في مساجدهم. قال عمر بن أبي ربيعة:

دمية عند راهب قسيس ... صوروها في مذبح المحراب

أي مكان المذبح من المسجد، لأن المحراب هو محل التعبد، قال تعالى: وهو قائم يصلي في المحراب [آل عمران: ٣٩] .

ولا شك أن مسجد إبراهيم هو الموضع الذي توخى داود- عليه السلام- أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه أو أوحى الله إليه بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان- عليه

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٥

السلام- أن يبني عليه المسجد، أي الهيكل. وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفوس) أن الجبل الذي سكنه إبراهيم". (١)

١٥٠. ١٥٠-"الحاصل من قبل الرؤية. قال تعالى: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين [الأنعام: ٧٥] .

فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية. قال تعالى: وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي [البقرة: ٢٦٠] ، ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل أو لم يطمئن قلبك، لأن اطمئنان القلب متسع المدى لا حد له فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوءة، وقد بادر محمدا صلى الله عليه وسلم بإراءة الآيات قبل أن يسأله إياها توفيرا في الفضل.

قال علي بن حزم الظاهري وأجاد:

ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المعاينة الكليم

واعلم أن تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقا بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة.

وفي تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلم في قوله:

باركنا ... ولنريه من آياتنا سلوك لطريقة الالتفات المتبعة كثيرا في كلام البلغاء. وقد مضى الكلام على ذلك في قوله تعالى: إياك نعبد في [الفاتحة: ٥] .

والالتفات هنا امتاز بلطائف:

منها: أنه لما استحضرت الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم.

ومنها: **الإيماء** إلى أن النبيء- عليه الصلاة والسلام- عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٦

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٢١

١٥١. ١٥١-"وضمير كما دخلوه عائد إلى العباد المذكور في ذكر المرة الأولى بقرينة اقتضاء المعنى مراجع الضمائر كقوله تعالى: وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها [الروم: ٩] ، وقول عباس بن مرداس:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم ... بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا

فالسياق دال على معاد (أحرزوا) ومعاد (جمعوا) .

وسوء الوجوه: جعل المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتى تبدو على وجوهكم لأن ما يخالج الإنسان من غم وحزن، أو فرح ومسرة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد، كقول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق أراد إذا ما تفرق الناس وتظهر علامات الفرق في أعينهم.

ودخول المسجد دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله: كما دخلوه أول مرة المراد منه قوله: فجاسوا خلال الديار [الإسراء: ٥] .

والتتبير: الإهلاك والإفساد.

وما علوا موصول هو مفعول «يتبروا» ، وعائد الصلة محذوف لأنه متصل منصوب، والتقدير: ما علوه، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب.

ولم يعدهم الله في هذه المرة إلا بتوقع الرحمة دون رد الكرة، فكان إيماء إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة. وبهذا تبين أن المشار إليه بهذه المرة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبيء ملاخي في الإصحاحين الثالث والرابع من كتابه وأنذرهم زكرياء ويحيي وعيسى (١) فلم يرعووا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.

---

(١) انظر الإصحاح الثالث من إنجيل مرقس الحوارى.". (١)

١٥٢. ١٥٢-"وتأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه، وحال المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر، فالتوكيد مستعمل في معنييه دفع الإنكار والاهتمام،

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٧

ولا تعارض بين الاعتبارين.

وقوله: هذا القرآن إشارة إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن قبل هذه الآية.

وبينت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويها بشأن القرآن.

وقد جاءت هذه الآية تنفيسا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قصت عن بني إسرائيل وما حل بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وفي التعبير للتي هي أقوم نكتة لطيفة ستأتي. وتلك عادة القرآن في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه.

وللتي هي أقوم صفة لمحذوف دل عليه يهدي، أي للطريق التي هي أقوم، لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفضيل القويم. والمعنى: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: وجعلناه هدى لبني إسرائيل [الإسراء: ٢] . ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم، لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم

المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة". (١)

١٥٣. ١٥٣-"وعجول: صيغة مبالغة في عاجل. يقال: عجل فهو عاجل وعجول.

وكتب في المصحف ويدع بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل كما كتب سندع الزبانية [العلق: ١٨] ونظائرها. قال الفراء: لو كتبت بالواو لكان

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٤٠

صوابا.

[١٢]

[سورة الإسراء (١٧) : آية ١٢]

وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا (١٢)

عطف على ويدع الإنسان بالشر [الإسراء: ١١] ، إلخ. والمناسبة أن جملة ويدع الإنسان تتضمن أن الإبطاء تأخير الوعد لا يرفعه وأن الاستعجال لا يجدي صاحبه لأن لكل شيء أجلا، ولما كان الأجل عبارة عن أزمان كان مشتملا على ليل ونهار متقضيين. وهذا شائع عند الناس في أن الزمان متقض وإن طال.

فلما أريد التنبيه على ذلك أدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة، وكونهما منتين على الناس، وكون الناس ربما كرهوا

الليل لظلمته، واستعجلوا انقضاءه بطلوع الصباح في أقوال الشعراء وغيرهم، ثم بزيادة العبرة في أنهما ضدان، وفي كل منهما آثار النعمة المختلفة وهي نعمة السير في النهار.

واكتفى بعدها عن عد نعمة السكون في الليل لظهور ذلك بالمقابلة، وبتلك المقابلة حصلت نعمة العلم بعدد السنين والحساب لأنه لو كان الزمن كله ظلمة أو كله نورا لم يحصل التمييز بين أجزائه.

وفي هذا بعد ذلك كله **إيماء** إلى ضرب مثل للكفر والإيمان، وللضلال والهدى، فلذلك عقب به قوله: وآتينا موسى الكتاب [الإسراء: ٢] الآية، وقوله:". (١)

١٥٤. ١٥٤-"وتخصيص من بعد نوح إيجاز، كأنه قيل من قوم نوح فمن بعدهم، وقد جعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنه أول رسول، واعتبر القصص من بعده لأن زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان، ولأن العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٤٣

ووجه ذكره تذكير المشركين به وأن عذاب الله لا حد له، والتنبيه على أن الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق وناهيك بما حل بقوم نوح من العذاب المهول.

وجملة وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا إقبال على خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بالخصوص، لأن كل ما سبق من الوعيد والتهديد إنما مآله إلى حمل الناس على تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من القرآن بعد أن لجوا في الكفر وتفننوا في التكذيب، فلا جرم ختم ذلك بتطمين النبيء بأن الله مطلع على ذنوب القوم. وهو تعريض بأنه مجازيهم بذنوبهم بما يناسب فظاعتها، ولذلك جاء بفعل كفى وبوصفي خبيرا بصيرا المكنى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية والمعلومة من ضمائرهم أعني أعمالهم ونواياهم.

وقدم ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأن العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح.

وفي الحديث: «ألا وإن في الجسد مضعة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»

. وفي ذكر فعل (كفى) إيماء إلى أن النبيء غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربه فهو كافية وحسبه، قال: فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم [البقرة: ١٣٧] أو إلى أنه في غنية عن الهم في شأنهم كقوله لنوح: فلا تسئلن ما ليس لك به علم [هود: ٤٦] فهذا إما تسلية له عن أذاهم وإما صرف له عن التوجع لهم.

وفي خطاب النبيء بذلك تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار.". (١)

١٥٥. ١٥٥-"وعطف جملة جعلنا له جهنم بحرف (ثم) لإفادة التراخي الرتبي. وله ظرف مستقر هو المفعول الثاني ل جعلنا، قدم على المفعول الأول للاهتمام.

وجملة يصلاها مذموما مدحورا بيان أو بدل اشتمال لجملة جعلنا له جهنم ومذموما مدحورا حالان من ضمير الرفع في يصلاها يقال: صلي النار إذا أصابه حرقها.

والذم الوصف بالمعايب التي في الموصوف.

والمدحور: المطرود. يقال: دحره، والمصدر: الدحور، وتقدم عند قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٥٧

قال اخرج منها مذؤما مدحورا في سورة الأعراف [١٨] .

والاختلاف بين جملة من كان يريد العاجلة وجملة ومن أراد الآخرة بجعل الفعل مضارعا في الأولى وماضيا في الثانية للإيماء إلى أن إرادة الناس العاجلة متكررة متجددة. وفيه تنبيه على أن أمور العاجلة متقضية زائلة، وجعل فعل إرادة الآخرة، ماضيا لدلالة المضي على الرسوخ تنبيها على أن خير الآخرة أولى بالإرادة، ولذلك جردت الجملة من (كان) ومن المضارع، وما شرط في ذلك إلا أن يسعى للآخرة سعيها وأن يكون مؤمنا.

وحقيقة السعي المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنه يسير سيرا سريعا إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها. وإضافته إلى ضمير الآخرة من إضافة المصدر إلى مفعوله في المعنى، أي السعي لها، وهو مفعول مطلق لبيان النوع.

وفي الآية تنبيه على أن إرادة خير الآخرة من غير سعي غرور وأن إرادة كل شيء لا بد لنجاحها من السعي في أسباب حصوله. قال عبد الله بن المبارك:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس". (١)

١٥٦. ١٥٦-"مختصر الجامع أن رجلا سأل مالكا فقال: إن أبي في بلد السودان وقد كتب إلي أن أقدم عليه وأمي تمنعني من ذلك؟ فقال مالك: أطع أباك ولا تعص أمك. وذكر القرافي في المسألة السابعة من ذلك الفرق أن مالكا أراد منع الابن من الخروج إلى السودان بغير إذن الأم.

الثاني: قول الشافعية أن الأبوين سواء في البر. وهذا القول يقتضي وجوب طلب الترجيح إذا أمرا ابنهما بأمرين متضادين.

وحكى القرطبي عن المحاسبي في كتاب «الرعاية» أنه قال: لا خلاف بين العلماء في أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع. وحكى القرطبي عن الليث أن للأم ثلثي البر وللأب الثلث، بناء على اختلاف رواية الحديث المذكور أنه قال: ثم أبوك بعد المرة الثانية أو بعد المرة الثالثة. والوجه أن تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأن محمل الحديث مع اختلاف

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٦٠

روايتيه على أن الأم أرجح على الإجمال.

ثم أمر بالدعاء لهما برحمة الله إياهما وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلا بالابتهال إلى الله تعالى.

وهذا قد انتقل إليه انتقالا بديعا من قوله: واخفض لهما جناح الذل من الرحمة فكان ذكر رحمة العبد مناسبة للانتقال إلى رحمة الله، وتنبيها على أن التخلق بمحبة الولد الخير لأبويه يدفعه إلى معاملته إياهما به فيما يعلمانه وفيما يخفى عنهما حتى فيما يصل إليهما بعد مماتهما.

وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير»

. وفي الآية **إيماء** إلى أن الدعاء لهما مستجاب لأن الله أذن فيه. والحديث المذكور مؤيد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملا لأبويه.

وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلت على التخصيص كقوله:

ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين [التوبة: ١١٣] الآية.". (١)

١٥٧. ١٥٧-"وأما الخطأ- بفتح الخاء والطاء- فهو ضد العمد. وفعله: أخطأ. واسم الفاعل مخطئ، قال تعالى: وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم [الأحزاب: ٥] . وهذه التفرقة هي سر العربية وعليها المحققون من أئمتها.

وقرأ الجمهور خطأ- بكسر الخاء وسكون الطاء بعدها همزة-، أي إثما. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو جعفر خطأ- بفتح الخاء وفتح الطاء-. والخطأ ضد الصواب، أي أن قتلهم محض خطأ ليس فيه ما يعذر عليه فاعله.

وقرأه ابن كثير خطاء- بكسر الخاء وفتح الطاء وألف بعد الطاء بعده همزة ممدودا-. وهو فعال من خطىء إذا أجرم، وهو لغة في خطء، وكأن الفعال فيها للمبالغة.

وأكد ب (إن) لتحقيقه ردا على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أن وأد البنات من السداد، ويقولون: دفن البنات من المكرمات. وأكد أيضا بفعل (كان) لإشعار (كان) بأن كونه إثما

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٧٢

أمرا استقر.

[٣٢]

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٣٢]

ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا (٣٢)

عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات **إيماء** إلى أنهم كانوا يعدون من أعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأن في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يعرف للنسل مرجع يأوي إليه وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجرى الإضمار فيه بصيغة الجمع كما جرى في قوله: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [الإسراء: ٣١] لمثل ما وجه به تغيير الأسلوب هنالك فإن المنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهل الجاهلية.". (١)

١٥٨. ١٥٨-"فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالا سيئا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية بل عليهم أن يتبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال: فلا يسرف في القتل.

والسرف: الزيادة على ما يقتضيه الحق، وليس خاصا بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة. فالسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، أما مع القاتل وهو واضح كما قال المهلهل في الأخذ بثأر أخيه كليب:

كل قتيل في كليب غرة ... حتى يعم القتل آل مرة

وأما قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل فقد كانوا يقتنعون عن العجز عن القاتل بقتل رجل من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي يجعلون كليها متفاوتا بحسب شرف القتيل، كما قالت كبشة بنت معديكرب:

فيقتل جبرا بامرىء لم يكن له ... بواء ولكن لا تكايل بالدم

(١) التحرير والتنوير ٨٩/١٥

البواء: الكفء في الدم. تريد فيقتل القاتل وهو المسمى جبرا، وإن لم يكن كفؤا لعبد الله أخيها، ولكن الإسلام أبطل التكايل بالدم.

وضمير يسرف بياء الغيبة، في قراءة الجمهور، يعود إلى الولي مظنة السرف في القتل بحسب ما تعودوه. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف- بتاء الخطاب- أي خطاب للولي.

وجملة إنه كان منصورا استئناف، أي أن ولي المقتول كان منصورا بحكم القود فلما ذا يتجاوز الحد من النصر إلى الاعتداء والظلم بالسرف في القتل. حذرهم الله من السرف في القتل وذكرهم بأنه جعل للولي سلطانا على القاتل.

وقد أكد ذلك بحرف التوكيد وبإقحام (كان) الدال على أن الخبر مستقر الثبوت.

وفيه **إيماء** إلى أن من تجاوز حد العدل إلى السرف في القتل لا ينصر.". (١)

١٥٩. ١٥٩-"ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه الخفي الإتيان بلفظ (سلطان) هنا الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق والصالح لإرادة إقامة السلطان، وهو الإمام الذي يأخذ الحقوق من المعتدين إلى المعتدى عليهم حين تنتظم جامعة المسلمين بعد الهجرة. ففيه **إيماء** إلى أن الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، ولم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان. وهذا الحكم منوط بالقتل الحادث بين الأشخاص وهو قتل العدوان، فأما القتل الذي هو لحماية البيضة والذب عن الحوزة، وهو الجهاد، فله أحكام أخرى. وبهذا تعلم التوجيه للإتيان بضمير جماعة المخاطبين على ما تقدم في قوله تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [الإسراء: ٣١] وما عطف عليه من الضمائر.

واعلم أن جملة ومن قتل مظلوما معطوفة على جملة ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق عطف قصة على قصة اهتماما بهذا الحكم بحيث جعل مستقلا، فعطف على حكم آخر، وإلا فمقتضى الظاهر أن تكون مفصولة، إما استئنافا لبيان حكم حالة تكثر، وإما بدل بعض من جملة إلا بالحق.

و (من) موصولة مبتدأ مراد بها العموم، أي وكل الذي يقتل مظلوما. وأدخلت الفاء في جملة خبر المبتدأ لأن الموصول يعامل معاملة الشرط إذا قصد به العموم والربط بينه وبين خبره.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٩٤

وقوله تعالى: فقد جعلنا لوليه سلطانا هو في المعنى مقدمة للخبر بتعجيل ما يطمئن نفس ولي المقتول. والمقصود من الخبر التفريع بقوله تعالى: فلا يسرف في القتل، فكان تقديم قوله تعالى: فقد جعلنا لوليه سلطانا تمهيدا لقبول النهي عن السرف في القتل، لأنه إذا كان قد جعل له سلطان فقد صار الحكم بيده وكفاه ذلك شفاء لغليله.". (١)

١٦٠. ١٦٠-"والإصفاء: جعل الشيء صفوا، أي خالصا، وتعدية أصفى إلى ضمير المخاطبين على طريقة الحذف والإيصال، وأصله: أفأصفى لكم. وقوله: بالبنين الباء فيه إما مزيدة لتوكيد لصوق فعل (أصفى) بمفعوله. وأصله: أفأصفى لكم ربكم البنين، كقوله تعالى: وامسحوا برؤسكم [المائدة: ٦] أو ضمن أصفى معنى آثر فتكون الباء للتعدية دالة على معنى الاختصاص بمجرورها، فصار (أصفى) مع متعلقه بمنزلة فعلين، أي قصر البنين عليكم دونه، أي جعل لم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم، وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها. وفساد ذلك ظاهر بأدنى نظر فإذا تبين فساده على هذا الوضع فقد تبين انتفاء وقوعه إذ هو غير لائق بجلال الله تعالى. وقد تقدم هذا عند قوله تعالى:
ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون في سورة النحل [٥٧] . وقوله: إن يدعون من دونه إلا إناثا في [النساء: ١١٧] .
وجملة إنكم لتقولون قولا عظيما تقرير لمعنى الإنكار وبيان له، أي تقولون:
اتخذ الله الملائكة بنات. وأكد فعل «تقولون» بمصدره تأكيدا لمعنى الإنكار. وجعله مجرد قول لأنه لا يعدو أن يكون كلاما صدر عن غير روية، لأنه لو تأمله قائله أدنى تأمل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا.
والعظيم: القوي. والمراد هنا أنه عظيم في الفساد والبطلان بقرينة سياق الإنكار.
ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم، لأنه قول مدخول من جوانبه لاقتضائه إيثار الله بأدون صنفي البنوة مع تخويلهم الصنف الأشرف. ثم ما يقتضيه ذلك من نسبته خصائص الأجسام لله تعالى من تركيب وتولد واحتياج إلى الأبناء للإعانة وليخلفوا الأصل بعد زواله، فأي فساد أعظم من هذا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٩٥

وفي قوله: اتخذ إيماء إلى فساد آخر، وهو أنهم يقولون: اتخذ الله ولدا [البقرة: ١١٦] . والاتخاذ يقتضي أنه خلقه ليتخذه، وذلك ينافي التولد فكيف يلتئم". (١)

١٦١. ١٦١-"الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنبيها للمشركين على وجوب إقلاعهم عن بعثتهم وعنادهم، وتأمينا للنبيء صلى الله عليه وسلم من مكرهم به وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام.

وحقيقة الحجاب: الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه. وهو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبيء- عليه الصلاة والسلام- عن الإضرار به للإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه. وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمون ولا يفعلون، وذلك من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصممون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهمون. وذلك خلق يسري إلى النفوس تديجيا تغرسه في النفوس بادىء الأمر شهوة الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير ملكة في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره.

وإطلاق الحجاب على ما يصلح للمعنيين إما للحمل على حقيقة اللفظ، وإما للحمل على ما له نظير في القرآن. وقد جاء في الآية الأخرى ومن بيننا وبينك حجاب [فصلت: ٥] . ولما كان إنكارهم البعث هو الأصل الذي استبعدوا به دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم حتى زعموا أنه يقول محالا إذ يخبر بإعادة الخلق بعد الموت وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة [سبأ: ٧- ٨] استحضروا في هذا الكلام بطريق الموصولة لما في الصلة من الإيماء إلى علة جعل ذلك الحجاب بينه وبينهم فلذلك قال: وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٨/١٥

(٢) التحرير والتنوير ١١٦/١٥

١٦٢. ١٦٢-"والمعنى: لو كنتم حجارة أو حديدا لأحياكم الله، لأنهم جعلوا كونهم عظاما حجة لاستحالة الإعادة، فرد عليهم بأن الإعادة مقدرة لله تعالى ولو كنتم حجارة أو حديدا، لأن الحجارة والحديد أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات إذ لم يسبق فيهما حلول الحياة قط بخلاف الرفات والعظام.

والتفريع في فسيقولون من يعيدنا على جملة قل كونوا حجارة أي قل لهم ذلك فسيقولون لك: من يعيدنا.

وجعل سؤالهم هنا عن المعيد لا عن أصل الإعادة لأن البحث عن المعيد أدخل في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع فإنهم نفوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلي لأن التسليم الجدلي أقوى، في معارضة الدعوى، من المنع.

والاستفهام في من يعيدنا تهكمي. ولما كان قولهم هذا محقق الوقوع في المستقبل أمر النبيء بأن يجيبهم عند ما يقولونه جواب تعيين لمن يعيدهم إبطالا للازم التهكم، وهو الاستحالة في نظرهم بقوله: قل الذي فطركم أول مرة إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم، لأن ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزيادة المحاجة، كقوله في محاجة موسى لفرعون قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين [الشعراء: ٢٥-٢٦].

وجيء بالمسند إليه موصولا لقصد ما في الصلة من **الإيماء** إلى تعليل الحكم بأن الذي فطرهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم، كقوله تعالى: وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه [الروم: ٢٧] فإنه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر أن يخلقكم مرة ثانية. والإنغاض: التحريك من أعلى إلى أسفل والعكس. فإنغاض الرأس تحريكه كذلك، وهو تحريك الاستهزاء.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٢٨

١٦٣. ١٦٣-"وتغيير أسلوب الخطاب في قوله: وربك أعلم بعد قوله: ربكم أعلم بكم [الإسراء: ٥٤] **إيماء** إلى أن الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأن من شؤون النبيء صلى الله عليه وسلم التي لها مزيد اختصاص به، تقفية على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصفات الإلهية، بإبطال أقوالهم في أحوال النبي. ذلك أن المشركين لم يقبلوا دعوة النبيء بغرورهم أنه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم، وقالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولا، أبعث الله بشرا رسولا، فأبكتهم الله بهذا الرد بقوله: وربك أعلم بمن في السماوات والأرض فهو العالم حيث يجعل رسالته.

وكان قوله: وربك أعلم بمن في السماوات والأرض كالمقدمة لقوله: ولقد فضلنا بعض النبيئين الآية. أعاد تذكيرهم بأن الله أعلم منهم بالمستأهل للرسالة بحسب

ما أعده الله فيه من الصفات القابلة لذلك، كما قال الله تعالى عنهم قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته في سورة الأنعام [١٢٤] .

وكان الحكم في هذه المقدمة على عموم الموجودات لتكون بمنزلة الكلية التي يؤخذ منها كل حكم لجزئياتها، لأن المقصود بالإبطال من أقوال المشركين جامع لصور كثيرة من أحوال الموجودات من البشر والملائكة وأحوالهم لأن بعض المشركين أحالوا إرسال رسول من البشر، وبعضهم أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم، وبعضهم أحالوا إرسال من لا يأتي بمثل ما جاء به موسى- عليه الصلاة والسلام-. وذلك يثير أحوالا جمة من العصور والرجال والأمم أحياء وأمواتا. فلا جرم كان للتعميم موقع عظيم في قوله: بمن في السماوات والأرض، وهو أيضا كالمقدمة لجملة ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض، مشيرا إلى أن تفاضل الأنبياء ناشيء على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضل. وهذا إيجاز تضمن إثبات النبوءة وتقررها فيما مضى ما لا قبل لهم بإنكاره، وتعدد الأنبياء مما". (١)

١٦٤. ١٦٤-"يجعل محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل، وإثبات التفاضل بين الأفراد من البشر، فمنهم رسول ومنهم مرسل إليهم، وإثبات التفاضل بين أفراد الصنف الفاضل. وتقرر ذلك فيما مضى تقررا لا يستطيع إنكاره إلا مكابر بالتفاضل حتى بين

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٦/١٥

الأفضلين سنة إلهية مقررة لا نكران لها. فعلم أن طعنهم في نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم طعن مكابرة وحسد. كما قال تعالى في شأن اليهود أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما في سورة النساء [٥٤]
.

وتخصيص داوود- عليه السلام- بالذكر عقب هذه القضية العامة وجهه صاحب «الكشاف» ومن تبعه بأن فائدة التلميح إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وأمته أفضل الأمم لأن في الزبور أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون. وهذا حسن. وأنا أرى أن يكون وجه هذا التخصيص **الإيماء** إلى أن كثيرا من الأحوال المرموقة في نظر الجاهلين وقاصري الأنظار بنظر الغضاضة هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال التي اصطفاها الله لها، وأن التفضيل بالنبوءة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة فإن داوود- عليه السلام- كان راعيا من رعاة الغنم في بني إسرائيل، وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داوود لمحاربة جالوت الكنعاني، فلما قتل داوود جالوت آتاه الله النبوءة وصيره ملكا لإسرائيل، فهو النبيء الذي تجلى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة.

وذكر إيتائه الزبور هو محل التعريض للمشركين بأن المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم لأن ذلك مكتوب في الزبور كما تقدم آنفا. وقد أوتي داوود الزبور ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتابا بعد موسى- عليه السلام-.

وذكر داوود تقدم في سورة الأنعام وفي آخر سورة النساء.". (١)

١٦٥. ١٦٥-"المنون. والأصل فيها أن يكون الفعل بعدها منصوبا ب (أن) مضمرة، فإذا وقعت بعد عاطف جاز رفع المضارع بعدها ونصبه.

ويجوز أن تكون (إذا) ظرفا للزمان، وتنوينها عوض عن جملة محذوفة على قول جماعة من نحاة الكوفة، وهو غير بعيد. ألا ترى أنها إذا وقعت بعد عاطف لم ينتصب بعدها المضارع إلا نادرا لانتفاء معنى التسبب، ولأنها حينئذ لا يظهر فيها معنى الجواب والجزاء.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٣٧

والتقدير: وإذا أخرجوك أو وإذا خرجت لا يلبثون خلفك إلا قليلا.

وقرأ الجمهور خلفك.

وخلفك أريد به بعدك. وأصل الخلف الوراء فاستعمل مجازا في البعدية، أي لا يلبثون بعدك.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، وخلف خلافك وهو لغة في خلف. وتقدم عند قوله تعالى: بمقعدهم خلاف رسول الله [التوبة: ٨١] .

واللبث: الاستقرار في المكان، أي لا يستقرون في مكة بل يخرجون منها فلا يرجعون. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك مهاجرا وكانوا السبب في خروجه فكأنهم أخرجوه، كما تقدم عند قوله تعالى: وأخرجوهم من حيث أخرجوكم في سورة البقرة [١٩١] ، فلم يلبث الذين تسببوا في إخراجه وألبوا عليه قومهم بعده إلا قليلا ثم خرجوا إلى وقعة بدر فلقوا حتفهم هنالك فلم يرجعوا وحق عليهم الوعيد، وأبقى الله عامتهم ودهاءهم لضعف كيدهم فأراد الله أن يدخلوا في الإسلام بعد ذلك.

وفي الآية **إيماء** إلى أن الرسول سيخرج من مكة وأن مخرجيه، أي المتسببين في خروجه، لا يلبثون بعده بمكة إلا قليلا.

والسنة: العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها. وتقدم القول في أنها اسم جامد أو اسم مصدر عند قوله تعالى: قد خلت من قبلكم سنن [آل عمران: ١٣٦] ، أي عادة الله في كل". (١)

١٦٦. ١٦٦-"لكن رحمة من ربك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك فهو باق غير مذهوب به.

وهذا **إيماء** إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [الحجر: ٩] .

وموقع إن فضله كان عليك كبيرا موقع التعليل للاستثناء المنقطع، أي لكن رحمة من ربك منعت تعلق المشيئة بإذهاب الذي أوحينا إليك، لأن فضله كان عليك كبيرا فلا يحرمك

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٧٩

فضل الذي أوحاه إليك. وزيادة فعل (كان) لتوكيد الجملة زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع.

[٨٨]

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٨٨]

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨)

استئناف للزيادة في الامتنان. وهو استئناف بياني لمضمون جملة إن فضله كان عليك كبيرا [الإسراء: ٨٧] . وافتتاحه ب (قل) للاهتمام به. وهذا تنويه بشرف القرآن فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحديا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارا.

واللام موطئة للقسم.

وجملة لا يأتون بمثله جواب القسم المحذوف.

وجرد الجواب من اللام الغالب اقترانها بجواب القسم كراهية اجتماع لامين: لام القسم، ولام النافية.". (١)

١٦٧. ١٦٧-"حكاية كلامهم بالاستفهام الإنكاري. وإحالتهم ذلك مستندة إلى أنهم صاروا عظاما ورفاتا، أي بتعذر إعادة خلق أمثال تلك الأجزاء، ولم يستدلوا بدليل آخر، فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء أعظم منها من

عدم أوغل في الفناء دليلا يقطع دعواهم.

والاستفهام في أولم يروا إنكاري مشوب بتعجيب من انتفاء علمهم، لأنهم لما جرت عقائدهم على استبعاد البعث كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى، فيؤول الكلام إلى إثبات أنهم علموا ذلك في نفس الأمر.

والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنها عديت إلى كون الله قادرا، وذلك ليس من المبصرات.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٢/١٥

والمعنى: أو لم يعلموا أن الله قادر على أن يخلق مثلهم.

وضمير مثلهم عائد إلى ما عاد إليه ضمير يروا وهو الناس في قوله:

وما منع الناس [الإسراء: ٩٤] أي المشركين.

والمثل: المماثل، أي قادر على أن يخلق ناسا أمثالهم، لأن الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أن الله قادر على أن يخلق خلقا آخر، ويكون في الآية **إيماء** إلى أن البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم، فيخلق لكل ميت جسد جديد على مثال جسده الذي كان في الدنيا وتوضع فيه الروح التي كانت له.

ويجوز أن يكون لفظ «مثل» هنا كناية عن نفس ما أضيف إليه، كقول العرب: مثلك لا يبخل، وقوله تعالى: ليس كمثله شيء [الشورى: ١١] على أحد تأويلين فيه، أي على جعل الكاف الداخلة على لفظ «مثله» غير زائدة. والمعنى: قادر على أن يخلقهم، أي أن يعيد خلقهم، فإن ذلك ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض.

ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث فقيل: تكون الإعادة عن عدم، وقيل تكون عن جمع ما تفرق من الأجسام. وقيل: ينبت من عجب". (١)

١٦٨. ١٦٨-"ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرة تلك النواة.

ووصف اسم الجلالة بالموصول **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وهو الإنكار عليهم، لأن خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه.

وجملة وجعل لهم أجلا لا ريب فيه معطوفة على جملة أولم يروا لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول، أي تحققوا أن الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلا لا ريب فيه.

والأجل: الزمان المجعول غاية يبلغ إليها في حال من الأحوال. وشاع إطلاقه على امتداد الحياة، وهو المدة المقدرة لكل حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو تقويها.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٠

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جعل لوقوع البعث في علم الله تعالى.
ووجه كون هذا الجعل لهم أنهم داخلون في ذلك الأجل لأنهم من جملة من يبعث حينئذ، فتخصيصهم بالذكر لأنهم الذين أنكروا البعث، والمعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا.
ومعنى كون الأجل لا ريب فيه: أنه لا ينبغي فيه: ريب، وأن ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر، فهو من باب قوله: ذلك الكتاب لا ريب فيه [البقرة: ٢] .
ويجوز أن يكون الأجل أجل الحياة، أي وجعل لحياتهم أجلا، فيكون استدلالا ثانيا على البعث، أي ألم يروا أنه جعل لهم أجلا لحياتهم، فما أوجدهم وأحياهم وجعل لحياتهم أجلا إلا لأنه سيعيدهم إلى حياة أخرى،". (١)

١٦٩. ١٦٩-"وإجراء هذه الصلات الثلاث على اسم الجلالة الذي هو متعلق الحمد لأن في هذه الصلاة إيماء إلى وجه تخصيصه بالحمد.
والإتيان بالمفعول المطلق بعد كبره للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم، ولأن من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.". (٢)

١٧٠. ١٧٠-"أو تنزيلا للفعل منزلة اللازم لأن المقصود المنذر به وهو البأس الشديد تهويلا له ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله.
والبأس: الشدة في الألم. ويطلق على القوة في الحرب لأنها تؤلم العدو. وقد تقدم في قوله تعالى: والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس من سورة البقرة [١٧٧] .
والمراد هنا: شدة الحال في الحياة الدنيا، وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن، وعليه درج الطبري. وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين، وذلك بأس من لدنه تعالى لأنه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه، فاستعمال (لدن) هنا في معنييه الحقيقي والمجازي.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢١/١٥
(٢) التحرير والتنوير ٢٤٠/١٥

وليس في جعل الإنذار ببأس الدنيا علة لإنزال الكتاب ما يقتضي اقتصار علل إنزاله على ذلك، لأن الفعل الواحد قد تكون له علل كثيرة يذكر بعضها ويترك بعض.

وإنما آثرت الحمل على جعل اليأس الشديد بأس الدنيا للنقصي مما يرد على إعادة فعل وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا [الكهف: ٤] كما سيأتي.

ويجوز أن يراد بالبأس عذاب الآخرة فإنه بأس شديد، ويكون قوله: من لدنه مستعملا في حقيقته. وبهذا الوجه فسر جمهور المفسرين.

ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة وبأس عذاب الدنيا، وعلى هذا درج ابن عطية والقرطبي، ويكون استعمال من لدنه في معنييه الحقيقي والمجازي، أما في عذاب الآخرة فظاهر، وأما في عذاب الدنيا فلأن بعضه بالقتل والأسر وهما من أفعال الناس ولكن الله أمر المسلمين بهما فهما من لدنه.

وحذف مفعول لينذر لدلالة السياق عليه لظهور أنه ينذر الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولا بالمنزل عليه، ولدلالة مقابله عليه في قوله: ويبشر المؤمنين.". (١)

١٧١. ١٧١-"ينذر السابق يعرف بها الفريق المنذرون بكلا الإنذارين، وهو يومىء إلى المنذرين المحذوف في قوله: لينذر بأسا شديدا [الكهف: ٢] ويغني عن ذكره. وهذه العلة أثارتها مناسبة ذكر التبشير قبلها، وقد حذف هنا المنذر به اعتمادا على مقابله المبشر به.

والمراد ب الذين قالوا اتخذ الله ولدا هنا المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأن عيسى ابن الله تعالى، لأن القرآن المكي ما تعرض للرد على أهل الكتاب مع تأهلهم للدخول في العموم لاتحاد السبب.

والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنهم قد عرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعا عليهم بهذه المقالة، **وإيماء** إلى أنهم استحقوا ما أنذروا به لأجلها ولغيرها، فمضمون الصلة من موجبات ما أنذروا به لأن العلل تتعدد.

والولد: اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى، يستوي فيه الواحد والجمع. وتقدم في قوله: قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه في سورة يونس [٦٨] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٥

وجملة ما لهم به من علم حال من الذين قالوا. والضمير المجرور بالباء عائد إلى القول المفهوم من قالوا.

و (من) لتوكيد النفي. وفائدة ذكر هذه الحال أنها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذبا ليست لهم فيه شبهة، فأطلق العلم على سبب العلم كما دل عليه قوله تعالى: ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه [المؤمنون: ١١٧] .

وضمير به عائد على مصدر مأخوذ من فعل قالوا، أي ما لهم بذلك القول من علم.

وعطف ولا لآبائهم لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون [الزخرف: ٢٣] ، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلدوهم.". (١)

١٧٢. ١٧٢-"كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع.

ووجه فصل الجملة أنها مخالفة للتي قبلها بالإنشائية المخالفة للخبرية.

وفعل كبرت- بضم الباء-. أصله: الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه، ويستعمل مجازا في الشدة والقوة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجيب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام.

ودل على قصد التعجيب منها انتصاب كلمة على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنه تمييز نسبة التعجيب، ومن أجل هذا مثلوا بهذه الآية لورود فعل الأصلي والمحول لمعنى المدح والذم في معنى نعم وبئس بحسب المقام.

والضمير في قوله: كبرت يرجع إلى الكلمة التي دل عليها التمييز.

وأطلقت الكلمة على الكلام وهو إطلاق شائع، ومنه قوله تعالى: إنها كلمة هو قائلها [المؤمنون: ١٠٠] ،

وقول النبيء صلى الله عليه وآله وسلم: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:
ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥١/١٥

وجملة تخرج من أفواههم صفة ل كلمة مقصود بها من جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها.

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلا لفظاعتها.

وفيه **إيماء** إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه، لأنه لاستحالته تتلقاه وتنطق به أفواههم وتسمعه أسماعهم ولا تتعقله عقولهم لأن المحال لا يعتقده العقل ولكنه يتلقاه المقلد دون تأمل.". (١)

١٧٣. ١٧٣-"ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في شدة حرصه على اتباع قومه له وفي غمه من إعراضهم. وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبته فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم. ويكون حرف (على) ظرفا مستقرا في موضع الحال من ضمير الخطاب، ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان.

وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في آخر أوقات رجائه في إيمانهم **إيماء** إلى أنهم غير صائرين إلى الإيمان، وتهيئة نفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم رأفة من ربه به، ولذلك قال: إن لم يؤمنوا بهذا الحديث بصيغة الفعل المضارع المقتضية الحصول في المستقبل، أي إن استمر عدم إيمانهم.

واسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن، لأنه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار. وبين بأنه الحديث.

والحديث: الخبر. وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنه إخبار من الله لرسوله، إذ الحديث هو الكلام الطويل المتضمن أخبارا وقصصا. سمي الحديث حديثا باعتبار اشتماله على الأمر الحديث، أي الذي حدث وجد، أي الأخبار المستجدة التي لا يعلمها المخاطب، فالحديث فعيل بمعنى مفعول. وانظر ما يأتي عند قوله تعالى: الله نزل أحسن الحديث في سورة الزمر [٢٣] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٢/١٥

وأسفا مفعول له من باخع نفسك أي قاتلها لأجل شدة الحزن، والشرط معترض بين المفعولين، ولا جواب له للاستغناء عن الجواب بما قبل الشرط.". (١)

١٧٤. ١٧٤-"وأوى أويا إلى المكان: جعله مسكنا له، فالمكان: المأوى. وقد تقدم عند قوله تعالى: أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون في سورة يونس [٨] .

والفتية: جمع قلة لفتى، وهو الشاب المكتمل. وتقدم عند قوله تعالى في سورة يوسف. والمراد بالفتية: أصحاب الكهف. وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا، فعدل عن ذلك لما يدل عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السن. وذكرهم بهذا الوصف **للإيماء** إلى ما فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحق، ولذلك عدل عن الإضمار فلم يقل: إذ أووا إلى الكهف.

ودلت الفاء في جملة فقالوا على أنهم لما أووا إلى الكهف بادروا بالابتهال إلى الله.

ودعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، أي أن يمن عليهم برحمة عظيمة تناسب عنايته باتباع الدين الذي أمر به، فزيادة من لدنك للتعلق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك، لأن في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقع ضدها، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة، ولئلا يلاقوا في اغترابهم مشقة وألما، وأن لا يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين.

ثم سألوا الله أن يقدر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق والنجاة من مناوأة المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشيء.

و (من) في قوله: من أمرنا ابتدائية.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٦/١٥

١٧٥. ١٧٥-"على عموم الناس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس، ودل علم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك.

وضمير «يقولون» عائد إلى غير مذكور لأنه معلوم من المقام، أي يقول الناس أو المسلمون، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنهم نبهوا إلى أن جميعه لا حجة لهم فيه.

ومعنى سين الاستقبال سار إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين، وليس في الانتهاء إلى عدد الثمانية **إيماء** إلى أنه العدة في نفس الأمر.

وقد أعلم الله أن قليلا من الخلق يعلمون عدتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك.

وفي مقدمتهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن قصتهم جاءت على لسانه فلا شك أن الله أطلعه على عدتهم.

وروي أن ابن عباس قال: أنا من القليل.

وكأن أقوال الناس تمالأت على أن عدتهم فردية تيمنا بعدد المفرد، وإلا فلا دليل على ذلك دون غيره، وقد سمى الله قولهم ذلك رجما بالغيب.

والرجم حقيقته: الرمي بحجر ونحوه. واستعير هنا لرمي الكلام من غير روية ولا تثبت، قال زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجم والباء في بالغيب للتعدية، كأنهم لما تكلموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به.

وكل من جملة رابعهم كلبهم وجملة سادسهم كلبهم في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف.

وجملة وثامنهم كلبهم الواو فيها واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو وإن كان نكرة". (١)

١٧٦. ١٧٦-"المصبورة وهي الدابة تشد لتجعل غرضا للرمي. ولتضمين فعل (اصبر) معنى الملازمة علق به ظرف (مع) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩١/١٥

والغداة قرأه الجمهور- بألف بعد الدال-: اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس.
والعشي: المساء. والمقصود أنهم يدعون الله دعاء متخللا سائر اليوم والليلة.
والدعاء: المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات.
والتعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة. وقرأ ابن عامر بالغداة- بسكون الدال وواو بعد الدال مفتوحة- وهو مرادف الغداة.
وجملة يريدون وجهه في موضع الحال. ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.
ثم أكد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم.
وظاهر ولا تعد عيناك عنهم نهي العينين عن أن تعدوا عن الذين يدعون ربهم، أي أن تجاوزاهم، أي تبعدا عنهم. والمقصود: الإعراض، ولذلك ضمن فعل العدو معنى الإعراض، فعدي إلى المفعول ب (عن) وكان حقه أن يتعدى إليه بنفسه يقال: عداه، إذا جاوزه. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما، فيؤول إلى معنى: ولا تعدي عينيك عنهم.
وهو إيجاز بديع.
وجملة تريد زينة الحياة الدنيا حال من كاف الخطاب، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت.
وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همهم الصور الظاهرة.". (١)

١٧٧. ١٧٧-"وجملة وإن تدعهم إلى الهدى عطف على جملة إنا جعلنا على قلوبهم، وهي متفرعة عليها، ولكنها لم تعطف بالفاء لأن المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقل.
وأكد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو (لن) ، وبلفظ (أبدا) المؤكد لمعنى (لن) ، وبحرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط.
وإنما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني، أي ذلك

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٠٥

مسبب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحق.

[٥٨]

[سورة الكهف (١٨) : آية ٥٨]

وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا (٥٨)

جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم إمهالا للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلهم يشكرون، موجها الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وآله وسلم مفتتحا باستحضار الجلالة بعنوان الربوبية للنبيء صلى الله عليه وآله وسلم **إيماء** إلى أن مضمون الخبر تكريم له، كقوله: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم [الأنفال: ٣٣] .

والوجه في نظم الآية أن يكون الغفور نعتا للمبتدأ ويكون ذو الرحمة هو الخبر لأنه المناسب للمقام ولما بعده من جملة لو يؤاخذهم، فيكون ذكر الغفور إدماجا في خلال المقصود. فخص بالذكر من أسماء الله تعالى اسم الغفور تعريضا بالترغيب في الاستغفار.". (١)

١٧٨. ١٧٨-"وفي هذا أصل من أصول التعليم أن ينبه المعلم المتعلم بعوارض موضوعات العلوم الملقنة لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة.

وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي لوقوعه نكرة في سياق النفي، وأن المنفي استطاعته الصبر المفيد أنه لو تجشم أن يصبر لم يستطع ذلك، فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه.

وزيادة معي **إيماء** إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره فانتفاء الصبر على أعماله أجدر.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٥٦

وجملة وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا في موضع الحال من اسم (إن) أو من ضمير تستطيع، فالواو واو الحال وليست واو العطف لأن شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأن بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلة للأولى. وإنما أوثر مجيئها في صورة الجملة الحالية، دون أن تفصل عن الجملة الأولى فتقع علة مع أن التعليل هو المراد، للتنبيه على أن مضمونها علة ملازمة لمضمون التي قبلها إذ هي حال من المسند إليه في الجملة قبلها.

و (كيف) للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خبرا.

والخبر- بضم الخاء وسكون الباء-: العلم. وهو منصوب على أنه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله: ما لم تحط به، أي إحاطة من حيث العلم.

والإحاطة: مجاز في التمكن، تشبيها لقوة تمكن الاتصاف بتمكن الجسم المحيط بما أحاط به.

وقوله: ستجدني إن شاء الله صابرا أبلغ في ثبوت الصبر من نحو: سأصبر، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه. وظاهر أن متعلق الصبر هنا هو الصبر على ما من شأنه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في". (١)

١٧٩. ١٧٩-"يقل: جزاؤهم الجنة. وقد تقدم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة: إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها [الكهف: ٢٩] ثم قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا [الكهف: ٣٠] .

وفي الإتيان ب كانت دلالة على أن استحقاقهم الجنات أمر مستقر من قبل مهيأ لهم.

وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم.

كما قال تعالى: وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون [الزخرف: ٧٢] .

وجمع الجنات **إيماء** إلى سعة نعيمهم، وأنها جنان كثيرة كما

جاء في الحديث: «إنها جنان كثيرة»

. والفردوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين، وعن مجاهد هو معرب عن الرومية. وقيل عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي، أي ليس معربا. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٧٢

القرآن. وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمى باب الفراديس.

وإضافة الجنات إلى الفردوس بيانية، أي جنات هي من صنف الفردوس.

وورد في

الحديث أن الفردوس أعلى الجنة أو وسط الجنة

. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنه علم بالغلبة.

فإن حملت هذه الآية عليه كانت إضافة جنات إلى الفردوس إضافة حقيقية، أي جنات هذا المكان.". (١)

١٨٠. ١٨٠-"وفسر أيضا سويا بأنه حال من ضمير المخاطب، أي حال كونك سويا، أي بدون عاهة الخرس والبكم، ولكنها آية لك اقتضتها الحكمة التي بيناها في سورة آل عمران. وعلى هذا فذكر الوصف لمجرد تأكيد الطمأنينة، وإلا فإن تأجيله بثلاث ليال كاف في الاطمئنان على انتفاء العاهة.

[١١]

[سورة مريم (١٩) : آية ١١]

فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١)

الظاهر أن المعنى أنه خرج على قومه ليصلي على عادته، فكان في محرابه في صلاة خاصة ودعاء خفي، ثم خرج لصلاة الجماعة إذ هو الحبر الأعظم لهم.

وضمن خرج معنى طلع فعدي ب على كقوله تعالى: فخرج على قومه في زينته [القصص: ٧٩] .

والمحراب: بيت أو محتجر يخصص للعبادة الخاصة. قال الحريري: فمحرابي أحرى بي.

والوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها، **والإيماء** لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام.

و (أن) تفسيرية. وجملة سبحوا بكرة وعشيا تفسير (لأوحى) ، لأن (أوحى) فيه معنى القول

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٥٠

دون حروفه.

وإنما أمرهم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكرياء لما لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف". (١)

١٨١. ١٨١-"ولو فعل أحد صمتا بدون نذر ولا قصد عبادة لم يكن حراما إلا إذا بلغ إلى حد المشقة المضنية.

وقد بقي عند النصارى اعتبار الصمت عبادة وهم يجعلونه ترحما على الميت أن يقفوا صامتين هنيهة.

ومعنى فقولي إني نذرت للرحمن صوما فانذري صوما وإن لقيت من البشر أحدا فقولي: إني نذرت صوما فحذفت جملة للقرينة. وقد جعل القول المتضمن إخبارا بالنذر عبارة عن إيقاع النذر وعن الإخبار به كناية عن إيقاع النذر لتلازمهما لأن الأصل في الخبر الصدق والمطابقة للواقع مثل قوله تعالى: قولوا آمنا بالله [البقرة: ١٣٦] . وليس المراد أنها تقول ذلك ولا تفعله لأن الله تعالى لا يأذن في الكذب إلا في حال الضرورة مع عدم تأتي الصدق معها، ولذلك جاء في الحديث: «إن في المعاريض مندوحة عن الكذب»

. وأطلق القول على ما يدل على ما في النفس، وهو **الإيماء** إلى أنها نذرت صوما مجازا بقرينة قوله فلن أكلم اليوم إنسيا. فالمراد أن تؤدي ذلك بإشارة إلى أنها نذرت صوما بأن تشير إشارة تدل على الانقطاع عن الأكل، وإشارة تدل على أنها لا تتكلم لأجل ذلك، فإن كان الصوم في شرعهم مشروطا بترك الكلام كما قيل فالإشارة الواحدة كافية، وإن كان الصوم عبادة مستقلة قد يأتي بها الصائم مع ترك الكلام تشير إشارتين للدلالة على أنها نذرت الأمرين، وقد علمت مريم أن الطفل الذي كلمها هو الذي يتولى الجواب عنها حين تسأل بقرينة قوله تعالى: فأشارت إليه [مريم: ٢٩] .". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٧٤/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٩٣/١٦

١٨٢. ١٨٢-"في سورة البقرة [٢٤٦] عند قوله: إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا، فدل ذلك على أن قوله لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر

إنما كان عن وحي من الله ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام.

وقرأ الجمهور نبيا بياء مشددة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة. وقرأه نافع وحده (نبيئا) بهمزة آخره، وبذلك تصير الفاصلة القرآنية على حرف الألف، ومثل تلك الفاصلة كثير في فواصل القرآن.

وقوله: إذ قال لأبيه

إلخ بدل اشتمال من (إبراهيم) . و (إذ) اسم زمان مجرد عن الظرفية لأن (إذ) ظرف متصرف على التحقيق. والمعنى: اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه فإن ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يذكر.

وأبو إبراهيم هو (آزار) تقدم ذكره في سورة الأنعام.

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه.

قال الجد الوزير رحمه الله فيما أملاه علي ذات ليلة من عام ١٣١٨ هـ فقال:

«علم إبراهيم أن في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة **إيماء** إلى أنه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ، منبها على خطئه عند ما يتأمل في عمله، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب

عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالا ففطن بخطل رأيه". (١)

١٨٣. ١٨٣-"والحفي: الشديد البر والإلطاف. وتقدم في سورة الأعراف [١٨٧] عند قوله:

يسئلونك كأنك حفي عنها.

وجملة وأعتزلكم عطف على جملة سأستغفر لك ربي، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع

---

(١) التحرير والتنوير ١١٣/١٦

اعتزالي إياكم الآن، لأن المضارع غالب في الحال. أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى، وهو المحكي بقوله تعالى: وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين [الصافات: ٩٩] ، وقد خرج من بلد الكلدان عازما على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى.

رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن، لأن بقية القوم هم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعا، ولذلك قال له وأعتزلكم.

وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه تنزيلا لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس، لأن أباه واحد منهم وأمرهم سواء، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم.

وعطف على ضمير القوم أصنامهم للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلانا بتغيير المنكر.

وعبر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله ما تدعون من دون الله للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلة اعتزاله إياهم وأصنامهم: بأن تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها، فذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم.

والدعاء: العبادة، لأنها تستلزم دعاء المعبود.

وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعو الله احتراسا من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما". (١)

١٨٤. ١٨٤-"والإرث: مستعمل مجازا في السلب والأخذ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك.

والمقصود: تذكيره بالموت، أو تهديده بقرب هلاكه.

ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإن العاصي ولد عمرا الصحابي الجليل وهشاما الصحابي الشهيد يوم أجنادين، فهنا بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم ونكاية وكمد للعاصي بن وائل.

والفرد: الذي ليس معه ما يصير به عددا، إشارة إلى أنه يحشر كافرا وحده دون ولده، ولا مال له، وفردا حال.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/١٦

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨١ إلى ٨٢]

واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢)

عطف على جملة ويقول الإنسان أإذا ما مت [مريم: ٦٦] فضمير اتخذوا عائد إلى الذين أشركوا لأن الكلام جرى على بعض منهم.

والاتخاذ: جعل الشخص الشيء لنفسه، فجعل الاتخاذ هنا الاعتقاد والعبادة. وفي فعل الاتخاذ **إيماء** إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله به كما قال تعالى عن إبراهيم: قال أتعبدون ما تنحتون [الصافات: ٩٥] .

وفي قوله من دون الله **إيماء** إلى أن الحق يقتضي أن يتخذوا الله إلها، إذ بذلك تقرر الاعتقاد الحق من مبدإ الخليقة، وعليه دلت العقول الراجحة.

ومعنى ليكونوا لهم عزا ليكونوا معزين لهم، أي ناصرين، فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنهم نفس العز، أي أن مجرد الانتماء لها يكسبهم عزا.". (١)

١٨٥. ١٨٥-"وذكر الرحمن هنا حكاية لقولهم بالمعنى، وهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] ، فهم إنما يقولون: اتخذ الله ولدا كما حكي عنهم في آيات كثيرة منها آية سورة الكهف [٤] . فذكر الرحمن هنا وضع للمرادف في موضع مرادفه، فذكر اسم الرحمن لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.

وفيه أيضا **إيماء** إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمان اتخاذ الولد كما سيأتي في قوله: وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا.

والخطاب في لقد جئتم للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد، كما تقدم في قوله آنفا:

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/١٦

وإن منكم إلا واردها [مريم: ٧١] فلا يحسن تقدير: قل لقد جئتم.

وجملة لقد جئتم شيئا إدا مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة وقالوا اتخذ الرحمن ولدا من التشنيع والتفظيع.

وقرأ نافع والكسائي بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث، وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعا لضمير مؤنث متصل، وقرأ البقية: تكاد بالتاء المثناة الفوقية، وهو الوجه الآخر.

والتفطر: الانشقاق، والجمع بينه وبين وتنشق الأرض تفنن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ. والخرور: السقوط.

ومن في قوله: منه للتعليل، والضمير المجرور بمن عائد إلى شيئا إدا، أو إلى القول المستفاد من قالوا اتخذ الرحمن ولدا.". (١)

١٨٦. ١٨٦-"ومعنى آتي الرحمن عبدا: الإتيان المجازي، وهو الإقرار والاعتراف، مثل: باء بكذا، أصله رجع، واستعمل بمعنى اعترف.

وعبدا حال، أي معترف لله بالإلهية غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبدا.

ويجوز جعل آتي الرحمن بمعنى صائر إليه بعد الموت، ويكون المعنى أنه يحيا عبدا ويحشر عبدا بحيث لا تشوبه نسبة البنوة في الدنيا ولا في الآخرة.

وتكرير اسم الرحمن في هذه الآية أربع مرات **إيماء** إلى أن وصف الرحمان الثابت لله، والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله وإن أنكروا لفظه، ينافي ادعاء الولد له لأن الرحمان وصف يدل على عموم الرحمة وتكثرها. ومعنى ذلك: أنها شاملة لكل موجود، فذلك يقتضي أن كل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى، ولا يتقوم ذلك إلا بتحقق العبودية فيه. لأنه لو كان بعض الموجودات ابنا لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالبنوة مساويا له في الإلهية المقتضية الغنى المطلق، ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له، وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة.

فذكر هذا الوصف عند قوله: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا وقوله أن دعوا للرحمن ولدا تسجيل

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٧٠

لغباوتهم.

وذكره عند قوله: وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا **إيماء** إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله.

وذكره عند قوله: إلا آتي الرحمن عبدا استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها.". (١)

١٨٧. ١٨٧-"والذكر يجوز أن يكون بمعنى التذكر بالعقل، ويجوز أن يكون الذكر باللسان. واللام في لذكري للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، لأن الصلاة تذكر العبد بخالقه. إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته. ففي هذا الكلام **إيماء** إلى حكمة مشروعية الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [العنكبوت: ٤٥] يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة لأن المكلف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه والله عرف موسى حكمة الصلاة مجملة وعرفها محمدا صلى الله عليه وسلم مفصلة.

ويجوز أن يكون اللام أيضا للتوقيت، أي أقم الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري. ويجوز أن يكون الذكر الذكر اللساني لأن ذكر اللسان يحرك ذكر القلب ويشتمل على الثناء على الله والاعتراف بما له من الحق، أي الذي عينته لك. ففي الكلام **إيماء** إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة، وفي الكلام حذف يعلم من السياق.

وجملة إن الساعة آتية مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء.

والساعة: علم بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب.

وجملة أكاد أخفيها في موضع الحال من الساعة، أو معترضة بين جملة وعلتها.

والإخفاء: الستر وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام.

والمشهور في الاستعمال أن «كاد» تدل على مقاربة وقوع الفعل المخبر به عنها، فالفعل

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٧٣

بعدها في حيز الانتفاء، فقوله تعالى:". (١)

١٨٨. ١٨٨-"وفرع على كونها آتية وأنها مخفاة التحذير من أن يصده عن الإيمان بها قوم لا يؤمنون بوقوعها اغترارا بتأخر ظهورها، فالتفريع على قوله أكاد أخفيها أوقع لأن ذلك الإخفاء هو الذي يشبه به الذين أنكروا البعث على الناس، قال تعالى: فسينغضون إليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا [الإسراء: ٥١] وقال: وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين [الجاثية: ٣٢] .

وصيغ نهي موسى عن الصد عنها في صيغة نهي من لا يؤمن بالساعة عن أن يصد موسى عن الإيمان بها، مبالغة في نهي موسى عن أدنى شيء يحول بينه وبين الإيمان بالساعة، لأنه لما وجه الكلام إليه وكان النهي نهي غير المؤمن عن أن يصد موسى، علم أن المراد نهي موسى عن ملابسة صد الكافر عن الإيمان بالساعة، أي لا تكن لين الشكيمة لمن يصدك ولا تصغ إليه فيكون لينك له مجرئا إياه على أن يصدك، فوقع النهي عن المسبب. والمراد النهي عن السبب، وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا ولا أرينك هاهنا.

وزيادة واتبع هواه **للإيماء** بالصلة إلى تعليل الصد، أي لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى دون دليل ولا شبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة كما أشار إليه قوله لتجزى كل نفس بما تسعى.

وفرع على النهي أنه إن صد عن الإيمان بالساعة ردي، أي هلك. والهلاك مستعار لأسوأ الحال كما في قوله تعالى: يهلكون أنفسهم في سورة براءة [٤٢] .

والتفريع ناشىء عن ارتكاب المنهي لا على النهي، ولذلك جيء بالتفريع بالفاء ولم يقع بالجزاء المجزوم، فلم يقل: ترد، لعدم صحة". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٦

١٨٩. ١٨٩-"عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسئول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء، وأن الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلم معتاد ولا في صورة المعتاد، كما دل عليه قوله بعد ذلك لنريك من آياتنا الكبرى [طه: ٢٣] .

فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه. وبنيت الإشارة بالظرف المستقر وهو قوله بيمينك، ووقع الظرف حالا من اسم الإشارة، أي ما تلك حال كونها بيمينك؟.

ففي هذا إيماء إلى أن السؤال عن أمر غريب في شأنها، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسئول عنه جريا على الظاهر، وببيان بعض منافعها استقصاء لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأن شأن الواضحات أن لا يسأل عنها إلا والسائل يريد من سؤاله أمرا غير ظاهر، ولذلك لما

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: «أي يوم هذا؟» سكت الناس وظنوا أنه سيسميه بغير اسمه. وفي رواية أنهم قالوا: «الله ورسوله أعلم، فقال: أليس يوم الجمعة؟ ... » إلى آخره.

فابتدأ موسى ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسئول عنه، وتوقع أن السؤال عنه توسل لتطلب بيان وراءه. فقال: هي عصاي، بذكر المسند إليه، مع أن غالب الاستعمال حذفه في مقام السؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولا". (١)

١٩٠. ١٩٠-"المتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته. لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى في سورة العقود [٣١] فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فجاءت

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢٠٥

الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض.

والتارة: المرة، وجمعها تارات. وأصل ألفها الواو. وقال ابن الأعرابي: أصل ألفها همزة فلما كثر استعمالهم لها تركوا الهمزة. وقال بعضهم: ظهر الهمز في جمعها على فعل فقالوا: تئر بالهمز. ويظهر أنها اسم جامد ليس له أصل مشتق منه.

والإخراج: هو إخراجها إلى الحشر بعد إعادة هياكل الأجسام في داخل الأرض، كما هو ظاهر قوله ومنها نخرجكم، ولذلك جعل الإخراج تارة ثانية للخلق الأول من الأرض. وفيه **إيماء** إلى أن إخراج الأجساد من الأرض بإعادة خلقها كما خلقت في المرة الأولى، قال تعالى: كما بدأنا أول خلق نعيده [الأنبياء: ١٠٤] .

[٥٦]

[سورة طه (٢٠) : آية ٥٦]

ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦)

رجوع إلى قصص موسى- عليه السلام- مع فرعون. وهذه الجملة بين الجمل التي حكت محاورة موسى وفرعون وقعت هذه كالمقدمة لإعادة سوق ما جرى بين موسى

وفرعون من المحاورة. فيجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة: قال فمن ربكما يا موسى [طه: ٤٩] باعتبار". (١)

١٩١. ١٩١-"[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٧٣)

أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد صلى الله عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/١٦

وسلم مثل صدق.

والإيثار: التفضيل. وتقدم في قوله تعالى: لقد آثرك الله علينا في سورة يوسف [٩١] .

والتفضيل بين فرعون وما جاءهم من البينات مقتض حذف مضاف يناسب المقابلة بالبينات، أي لن نؤثر طاعتك أو دينك على ما جاءنا من البينات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى، وبذلك يلتئم عطف والذي فطرنا، أي لا نؤثرك في الربوبية على الذي فطرنا.

وجيء بالموصول للإيماء إلى التعليل، لأن الفاطر هو المستحق بالإيثار.

وأخر الذي فطرنا عن ما جاءنا من البينات لأن البينات دليل على أن الذي خلقهم أراد منهم الإيمان بموسى ونبذ عبادة غير الله، ولأن فيه تعريضا بدعوة فرعون للإيمان بالله.

وصيغة الأمر في قوله فاقض ما أنت قاض مستعملة في التسوية، لأن ما أنت قاض ما صدقه ما توعدهم به من تقطيع". (١)

١٩٢. ١٩٢-"فجملة ولقد أوحينا إلى موسى ابتدائية، والواو عاطفة قصة على قصة وليست عاطفة بعض أجزاء قصة على بعض آخر.

وأسر أمر من السرى- بضم السين وفتح الراء- وتقدم في سورة الإسراء أنه يقال: سرى وأسرى. وإنما أمره الله بذلك تجنبا لنكول فرعون عليهم. والإضافة في قوله بعبادي لتشريفهم وتقريبهم والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسوا عبيدا لفرعون.

والضرب: هنا بمعنى الجعل كقولهم: ضرب الذهب دنانير. وفي الحديث:

«واضربوا إلي معكم بسهم» ، وليس هو كقوله أن اضرب بعصاك البحر [الشعراء: ٦٣] لأن الضرب هنالك متعد إلى البحر وهنا نصب طريقا.

واليبس- بفتح المثناة والموحدة-. ويقال:- بسكون الموحدة-: وصف بمعنى اليابس. وأصله مصدر كالعدم والعدم، وصف به للمبالغة ولذلك لا يؤنث فقالوا: ناقة يبس إذا جف لبنها.

ولا تخاف مرفوع في قراءة الجمهور، وعد لموسى اقتصر على وعده دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢٦٦

والجملة في موضع الحال.

وقرأ حمزة وحده لا تخف على جواب الأمر الذي في قوله فاضرب، وكلمة تخف مكتوبة في المصاحف بدون ألف لتكون قراءتها بالوجهين لكثرة نظائر هذه الكلمة ذات الألف في وسطها في رسم المصحف ويسميه المؤدبون «المحذوف» .

وأما قوله ولا تخشى فالإجماع على قراءته بألف في آخره. فوجه قراءة حمزة فيها مع أنه قرأ بجزم المعطوف عليه". (١)

١٩٣. ١٩٣-"والتشبيه راجع إلى تشبيهها بنفسها كناية عن كونها إذا أريد تشبيهها وتقريبها بما هو أعرف منها في بابها لم يجد مريد ذلك طريقا لنفسه في التشبيه إلا أن يشبهها بنفسها، لأنها لا يفوقها غيرها في بابها حتى تقرب به، على نحو ما تقدم في قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا في سورة البقرة [١٤٣] ، ونظائره كثيرة في القرآن.

و (من) في قوله من أنباء ما قد سبق تبعيضية، هي صفة لمحذوف تقديره: قصصا من أنباء ما قد سبق. ولك أن تجعل (من) اسما بمعنى بعض، فتكون مفعول نقص. والأنباء: الأخبار. و (ما) الموصولة ما صدقها الأزمان، لأن الأخبار تضاف إلى أزمانها، كقولهم: أخبار أيام العرب، والقرون الوسطى. وهي كلها من حقها في الموصولية أن تعرف ب (ما) الغالبة في غير العاقل. ومعلوم أن المقصود ما فيها من أحوال الأمم، فلو عرفت ب (من) الغالبة في العقلاء لصح ذلك وكل ذلك واسع.

وقوله وقد آتيناك من لدنا ذكرا **إيماء** إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها. **فللإيماء** إلى هذا قال تعالى: وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه.

وتنكير ذكرا للتعظيم، أي آتيناك كتابا عظيما. وقوله من لدنا توكيد لمعنى آتيناك وتنويه بشأن

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢٧٠

القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده.". (١)

١٩٤. ١٩٤-"وعبر ب يحدث إيماء إلى أن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكرا لم يكن من قبل، قال ذو الرمة:

ولما جرت في الجزل جريا كأنه ... سنا الفجر أحدثنا لخالقها شكرا

و (لعل) للرجاء، أي أن حال القرآن أن يقرب الناس من التقوى والتذكر، بحيث يمثل شأن من أنزله وأمر بما فيه بحال من يرجو فيلفظ بالحرف الموضوع لإنشاء الرجاء.

فحرف (لعل) استعارة تبعية تنبيء عن تمثيلية مكنية، وقد مضى معنى (لعل) في القرآن عند قوله تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون في سورة البقرة [٢١] .

وجملة فتعالى الله الملك الحق معترضة بين جملة وكذلك أنزلناه وبين جملة ولا تعجل بالقرآن. وهذا إنشاء ثناء على الله منزل القرآن وعلى منة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بين لعباده من وسائل الإصلاح وحملهم عليه بالترغيب والترهيب وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام وأحسن أسلوب فهو مفرع على ما تقدم من قوله وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا إلى آخرها ... والتفريع مؤذن بأن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كل ذلك ناشيء عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة.

وفي وصفه بالحق إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص كما قال تعالى: الملك يومئذ الحق للرحمن [الفرقان: ٢٦] .

وفي الحديث: «فيقول الله أنا الملك أين ملوك الأرض»

، أي أحضروهم هل تجدون منهم من ينازع في ذلك، كقول الخليفة معاوية حين خطب في المدينة «يا أهل المدينة أين علماؤكم» .". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٢/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٣١٥/١٦

١٩٥. ١٩٥-"ويجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل آياته.
فعن ابن عباس: كان النبيء يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل حرصا على الحفظ وخشية من النسيان فأنزل الله ولا تعجل بالقرآن الآية. وهذا كما قال ابن عباس في قوله تعالى:
لا تحرك به لسانك لتعجل به
[القيامة: ١٦] كما في «صحيح البخاري» . وعلى هذين التأويلين يكون المراد بقضاء وحيه إتمامه وانتهاؤه، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول.
وعن مجاهد وقتادة أن معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تمله عليهم حتى تتبين لك معانيه. وعلى هذا التأويل يكون قضاء الوحي تمام معانيه. وعلى كلا التفسيرين يجري اعتبار موقع قوله وقل رب زدني علما.
وقرأ الجمهور يقضى بتحتية في أوله مبنيا للنائب، ورفع وحيه على أنه نائب الفاعل. وقرأه يعقوب- بنون العظمة وكسر الضاد وبفتحة على آخر نقضي وبنصب وحيه.
وعطف جملة وقل رب زدني علما يشير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأن الباعث على الاستعجال محمود. وفيه تلطف مع النبيء صلى الله عليه وسلم إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعا وفهما، **إيماء** إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة
كقول النبيء صلى الله عليه وسلم لأبي بكر حين دخل المسجد فوجد النبيء راكعا فلم يلبث أن يصل إلى الصف بل ركع ودب إلى الصف راكعا فقال له: «زادك الله حرصا ولا تعد»
". (١)

١٩٦. ١٩٦-"وذكرت تفصيلا هنا، فابتدئ في ذكر متعلق عداوته بآدم لأن آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجه لأن عداوته إياها تبع لعداوته آدم زوجها، وكانت عداوته متعلقة بكليهما لاتحاد علة العداوة، وهي حسده إياهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء الذي هو عنوان الفكر الموصل إلى الهدى وعنوان التعبير عن الضمير الموصل

---
(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٦

للإرشاد، وكل ذلك مما يبطل عمل الشيطان ويشق عليه في استهوائهما واستهواء ذريتهما، ولأن الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم فحنق لما أمر بالسجود لآدم.

فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى (١١٩) قوله فلا يخرجنكما من الجنة تفريع على الإخبار بعداوة إبليس له ولزوجه: بأن نهيا نهي تحذير عن أن يتسبب إبليس في خروجهما من الجنة، لأن العدو لا يروقه صلاح حال عدوه. ووقع النهي في صورة نهي عن عمل هو من أعمال الشيطان لا من أعمال آدم كناية عن نهي آدم عن التأثر بوسائل إخراجهما من الجنة، كما يقال: لا أعرفنك تفعل كذا، كناية عن: لا تفعل، أي لا تفعل كذا حتى أعرفه منك، وليس المراد النهي عن أن يبلغ إلى المتكلم خبر فعل المخاطب.

وأسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازا، لأن في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع **الإيماء** إلى أن شقاء الذكر أصل شقاء المرأة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.". (١)

١٩٧. ١٩٧-"وجملة إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى تعليل للشقاء المترتب على الخروج من الجنة المنهي عنه، لأنه لما كان ممتعا في الجنة برفاهية العيش من مأكل وملبس ومشرب واعتدال جو مناسب للمزاج كان الخروج منها مقتضيا فقدان ذلك.

وتضحى مضارع ضحي: كرضي، إذا أصابه حر الشمس في وقت الضحى، ومصدره الضحو، وحر الشمس في ذلك الوقت هو مبدأ شدته، والمعنى: لا يصيبك ما ينافر مزاجك، فالاقتصار على انتفاء الضحو هنا اكتفاء، أي ولا تصرد، وآدم لم يعرف الجوع والعري والظمأ والضحو بالوجدان، وإنما عرفها بحقائقها ضمن تعليمه الأسماء كلها كما تقدم في سورة البقرة.

وجمع له في هذا الخبر أصول كفاف الإنسان في معيشته **إيماء** إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلة، لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعارا بخصائص المكون في مقوماته، كما ورد في حديث الإسراء من توفيق النبيء صلى الله عليه

(١) التحرير والتنوير ٣٢١/١٦

وسلم لاختيار اللبن على الخمر فقيل له: لو اخترت الخمر لغوت أمتك.

وقد قرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله ألا تجوع فيها ولا تعرى، وقرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله لا تظمؤا فيها ولا تضحى لمناسبة بين الجوع والعري، في أن الجوع خلو باطن الجسم عما يقيه تألمه وذلك هو الطعام، وأن العري خلو ظاهر الجسم عما يقيه تألمه وهو لفح الحر وقرص البرد ولمناسبة بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أن الأول ألم حرارة الباطن والثاني ألم حرارة الظاهر. فهذا اقتضى عدم اقتران ذكر الظمأ والجوع، وعدم اقتران ذكر العري بألم". (١)

١٩٨. ١٩٨-"- والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله.

- والتذكير بأن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله.

- وذكر كثير من أخبار الرسل عليهم السلام.

- والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وأنه رحمة للعالمين.

- والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع لا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة.

- وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة، وذكر من أشراط الساعة فتح ياجوج وماجوج.

- وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.

- ومن **الإيماء** إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل.

- ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذ لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.

- وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٢/١٦

- وما يكرهه على فعل ما لا يريد.

- وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء.". (١)

١٩٩. ١٩٩-"و (الذين ظلموا) بدل من واو الجماعة لزيادة تقرير أنهم المقصود من النجوى، ولما في الموصول من **الإيماء** إلى سبب تناجيهم بما ذكر وأن سبب ذلك كفرهم وظلمهم أنفسهم، وللنداء على قبح ما هم متصفون به.

وجملة هل هذا إلا بشر مثلكم بدل من النجوى لأن ذلك هو ما تناجوا به، فهو بدل مطابق. وليست هي كجملة قالوا إن هذان لساحران من جملة فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى في سورة [طه: ٦٢- ٦٣] فإن تلك بدل بعض من كل لأن ذلك القول هو آخر ما أسفرت عليه النجوى.

ووجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطلع المسلمون على ما تآمروا به لئلا يتصدى الرسول صلى الله عليه وسلم للرد عليهم لأنهم علموا أن حجتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضللوا الدهماء، أو أنهم أسروا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم لما تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول الناس في الإسلام فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك وناجوهم بذلك ليدخلوا الشك في قلوبهم.

والنجوى: المحادثة الخفية. والإسرار: هو الكتمان والكلام الخفي جدا. وقد تقدم الجمع بينهما في قوله تعالى ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم في سورة [براءة:
٧٨] ، وتقدم وجه جعل النجوى مفعولا ل أسروا في قوله تعالى وأسروا النجوى في [سورة طه: ٦٢] ، أي جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها لأن شأن التشاور في المهم كتمانه كيلا يطلع عليه المخالف فيفسده.

والاستفهام في قوله هل هذا إلا بشر مثلكم إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أي فكيف تؤمنون بنبوءته وهو أحد منكم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٧/١٧

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٧

٢٠٠. ٢٠٠-"الأولون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم كما أنبأ بذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان.

وفي ضمير ذلك تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها فيما حكي عنهم أول السورة بقوله تعالى: ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم [الأنبياء: ٢- ٣] كما أنبأ بذلك ظاهر معنى الآية.

ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم كما اقتضته تعدية فعل أنزلنا بحرف (إلى) شأن تعدية فعل الإنزال أن يكون المجرور ب «إلى» هو المنزل إليه فجعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظرا إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: لقد أنزلنا لكم.

وتنكير كتابا للتعظيم إيماء إلى أنه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.

والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله ذكر رحمت ربك عبده زكرياء [مريم: ٢] . وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرفا

بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاما موجها فيصح قصد المعنيين معا من كلمة (الذكر) بأن مجيء القرآن مشتملا على أعظم الهدى، وهو تذكير لهم بما به نهاية إصلاحهم، ومجيئه بلغتهم، وفي قومهم، وبواسطة واحد منهم، سمعة عظيمة لهم كما قال تعالى: بلسان عربي مبين [الشعراء: ١٩٥]- وقال- كما أرسلنا فيكم رسولا منكم [البقرة: ١٥١] ". (١)

٢٠١. ٢٠١-"ومناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صدق رسله وعده وهو خبر يفيد ابتداء التنويه بشأن الرسل ونصرهم وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر إهلاك المكذبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصف ما حل بهم ليكون ذلك مقصودا بذاته ابتداء اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٧

المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة، وأن الله ينشيء بعدهم أمة مؤمنة كقوله تعالى إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد في سورة [إبراهيم: ١٩] .

و (كم) اسم، له حق صدر الكلام لأن أصله اسم استفهام عن العدد، وشاع استعماله للإخبار عن كثرة الشيء على وجه المجاز لأن الشيء الكثير من شأنه أن يستفهم عنه، والتقدير: قصمنا كثيرا من القرى ف (كم) هنا خبرية. وهي واقعة في محل نصب بفعل قصمنا.

وفي (كم) الدالة على كثرة العدد **إيماء** إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلف إهلاك هذه القرى، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم أي الشرك **إيماء** إلى سبب الإهلاك فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم، فيعلم المشركون التهديد بأن ذلك حال بهم لا محالة بحكم العموم، وأن هذا ليس مرادا به قرية معينة، فما روي عن ابن عباس: «أن المراد بالقرية (حضوراء) - بفتح الحاء- مدينة باليمن قتلوا نبيئا اسمه شعيب بن ذي مهدم في زمن أرمياء نبيء بني إسرائيل فسلط الله عليهم بختنصر فأفناهم» . فإنما أراد أن هذه القرية ممن شملتهم هذه الآية، والتقدير: قصمنا كثيرا. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن في سورة [الأنعام: ٦] .

وأطلق القرية على أهلها كما يدل عليه قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين.". (١)

٢٠٢. ٢٠٢-"وأضرب عن الاستدلال بأنه استدلال مضيع فيهم بقوله تعالى: بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون، أي لا ترج منهم اعترافا ببطلان شركهم من دليل العقل المتقدم ولا من دليل شهادة الشرائع المذكور ثانيا، فإن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يكتسبون علمه. والمراد بكونهم لا يعلمون الحق أنهم لا يتطلبون علمه كما دلت عليه قرينة التفريع عليه بقوله تعالى فهم معرضون، أي معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها.

وإنما أسند هذا الحكم إلى أكثرهم لا لجميعهم تسجيلا عليهم بأن قليلا منهم يعلمون الحق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٧

ويجحدونه، أو إيماء إلى أن قليلا منهم تهيأت نفوسهم لقبول الحق. وتلك هي الحالة التي تعرض للنفس عند هبوب نسمات التوفيق عليها مثل ما عرض لعمر بن الخطاب حين وجد اللوح عند أخته مكتوبا فيه سورة طه فأقبل على قراءته بشراشره فما أتمها حتى عزم على الإسلام.

[٢٥]

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٢٥]

وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢٥)

لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقيه أقبل على رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى: قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي [الأنبياء: ٢٤] ، فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.". (١)

٢٠٣. ٢٠٣-"والاستفهام على كلتا القراءتين إنكاري، توجه الإنكار على إهمالهم للنظر. والرؤية تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية. والاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينقذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار، وإنكار إعمال الفكر في دلالة الأشياء على لوازمها حتى لا يقع أحد في الضلال جدير أيضا بالإنكار أو بالتقرير المشوب بإنكار كما سنفصله.

والرتق: الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.

والفتق: ضده، وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.

والإخبار عن السماوات والأرض بأنهما رتق إخبار بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة.

ثم إن قوله تعالى كانتا يحتمل أن تكونا معا رتقا واحدا بأن تكون السماوات والأرض جسما ملتئما متصلا. ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها، والأرض رتقا على حدتها وكذلك

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/١٧

الاحتمال في قوله تعالى ففتقناهما.

وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقا، لأن الرتق متمكن منهما أشد تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق **إيماء** إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي.

والرتق يحتمل أن يراد به معان تنشأ على محتملاتها معان في الفتق، فإن اعتبرنا الرؤية بصرية فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض،". (١)

٢٠٤. ٢٠٤-"يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم واثقون بأنهم يموتون بعده فتتم شماتتهم، أو كأنهم لا يموتون أبدا فلا يشمت بهم أحد، وجه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون.

وفي الآية **إيماء** إلى أن الذين لم يقدر الله لهم الإسلام ممن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبيء عليه الصلاة والسلام فلا يشمتون به فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيتهم إلى الإسلام.

ففي قوله تعالى: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد طريقة القول بالموجب، أي أنك تموت كما قالوا ولكنهم لا يرون ذلك وهم بحال من يزعمون أنهم مخلدون فأيقنوا

بأنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم، فالتفريع كان على ما في الجملة الأولى من القول بالموجب، أي ما هم بخالدين حتى يوقنوا أنهم يرون موتك. وفي الإنكار الذي هو في معنى النفي إنذار لهم بأنهم لا يرى موته منهم أحد.

[٣٥]

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٣٥]

كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥)

جمل معترضات بين الجملتين المتعاطفتين.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/١٧

ومضمون الجملة الأولى مؤكد لمضمون الجملة المعطوف عليها، وهي وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد [الأنبياء: ٣٤] . ووجه إعادتها اختلاف القصد فإن الأولى للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين.

واستعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأن الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى بالباطن.". (١)

٢٠٥. ٢٠٥-"وذكر الوجوه والأدبار للتنكيل بهم وتخويفهم لأن الوجوه أعز الأعضاء على الناس كما قال عباس بن مرداس:

نعرض للسيوف إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للطام

ولأن الأدبار يأنف الناس من ضربها لأن ضربها إهانة وهزي، ويسمى الكسع.

والوجه الثاني: أن يكون ضمير يكفون عائدا إلى الذين كفروا، والكف بمعنى الدرء والستر مجازا بعلاقة اللزوم، أي حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم. أي حين تحيط بهم النار مواجهة ومدابرة. وذكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهم أنهم قد يكفونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميع من لدينا كتبهم من المفسرين. والوجه الأول أرجح معنى، لأنه المناسب مناسبة تامة للكافرين الحاضرين المقرعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك في قولهم متى هذا الوعد ولقوله تعالى سأريكم آياتي [الأنبياء: ٣٧] كما تقدم.

وقوله تعالى: ولا هم ينصرون عطف على لا يكفون أي لا يكف عنهم نفح النار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار ولا يجدون لهم ناصرا ينصرهم فهم واقعون في ورطة العذاب.

وفي هذا إيماء إلى أنهم ستحل بهم هزيمة بدر فلا يستطيعون خلاصا منها ولا يجدون نصيرا من أحلافهم.

و (بل) للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعد لهم، إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة وفجأة، وهو أشد على النفوس لعدم التهيؤ له والتوطن عليه، كما قال كثير:

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١٧

فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يوما لها النفس ذلت". (١)

٢٠٦. ٢٠٦-"وإن كان المراد عذاب الآخرة فنفي الناصر تكذيب لهم في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله [يونس: ١٨] .

وفاعل تأتيهم ضمير عائد إلى الوعد. وإنما قرن الفعل بعلامة المؤنث على الوجه الأول المتقدم في قوله تعالى: حين لا يكفون عن وجوههم النار باعتبار الوقعة أو نحو ذلك، وهو **إيماء** إلى أن ذلك سيكون فيما اسمه لفظ مؤنث مثل الوقعة والغزوة.

وأما على الوجه الثاني المتقدم الذي درج عليه سائر المفسرين فيما رأينا فلتأويل الوعد بالساعة أو القيامة أو الحين لأن الحين في معنى الساعة.

والبغتة: المفاجأة، وهي حدوث شيء غير مترقب.

والبهت: الغلب المفاجئ المعجز عن المدافعة، يقال: بهته فبهت. قال تعالى في سورة [البقرة: ٢٥٨] فبهت الذي كفر أي غلب. وهو معنى التفريع في قوله تعالى: فلا يستطيعون ردها وقوله تعالى: ولا هم ينظرون أي لا تؤخر عنهم. وفيه تنبيه لهم إلى أنهم أنظروا زمنا طويلا لعلهم يقلعون عن ضلالهم.

وما أشد انطباق هذه الهيئة على ما حصل لهم يوم بدر قال تعالى: ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا في [الأنفال: ٤٢] ، وقال تعالى:

ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا [الأنفال: ٤٤] . ولا شك في أن المستهزئين مثل أبي جهل وشيبة ابني ربيعة وعتبة ابن ربيعة وأمية بن خلف، كانوا ممن بغتهم عذاب السيف وكان أنصارهم من قريش ممن بهتهم ذلك.

وأما إذا أريد بضمير تأتيهم الساعة والقيامة فهي تأتي بغتة لمن هم من جنس المشركين أو تأتيهم النفخة والنشرة بغتة. وأما أولئك المستهزءون فكانوا قد انقرضوا منذ قرون.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٧١/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٧٢/١٧

٢٠٧. ٢٠٧-"إبراهيم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي الرشد الذي أرشده. وفائدة الإضافة هنا التنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي رشدا يليق به ولأن رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم، أي هو الذي علمتم سمعته التي طبقت الخافقين فما ظنكم برشد أوتيه من جانب الله تعالى، فإن الإضافة لما كانت على معنى اللام كانت مفيدة للاختصاص فكأنه انفرد به. وفيه إيماء إلى أن إبراهيم كان قد انفرد بالهدى بين قومه.

وزاده تنويها وتفخيما تذييله بالجملة المعترضة قوله تعالى: وكنا به عالمين أي آتيناه رشدا عظيما على علم منا بإبراهيم، أي بكونه أهلا لذلك الرشد، وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من قرآنه، أي علم من سريرته صفات قد رضيها وأحمدها فاستأهل بها اتخاذه خليلا. وهذا كقوله تعالى: ولقد اخترناهم على علم على العالمين [الدخان: ٣٢] وقوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] .

وقوله من قبل أي من قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا. ووجه ذكر هذه القبلية التنبيه على أنه ما وقع إيتاء الذكر موسى وهارون إلا لأن شريعتهما لم تزل معروفة مدروسة.

وإذ قال ظرف لفعل آتينا أي كان إيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل إلخ، فذلك هو الرشد الذي أوتيه، أي حين نزول الوحي إليه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، فذلك أول ما بدىء به من الوحي.

وقوم إبراهيم كانوا من (الكلدان) وكان يسكن بلدا يقال له (كوثى) بمثلثة في آخره بعدها ألف. وهي المسماة في التوراة (أور الكلدان) ، ويقال: أيضا إنها (أورفة) في (الرها) ،". (١)

٢٠٨. ٢٠٨-"ثم سكن هو وأبوه وأهله (حاران) وحاران هي (حران) ، وكانت بعد من بلاد الكلدان كما هو مقتضى الإصحاح ١٢ من التكوين لقوله فيه: «اذهب من أرضك ومن

عشيرتك ومن بيت أبيك» . ومات أبوه في (حاران) كما في الإصحاح ١١ من التكوين

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١٧

فيتعين أن دعوة إبراهيم كانت من (حاران) لأنه من حاران خرج إلى أرض كنعان. وقد اشتهر حران بأنه بلد الصابئة وفيه هيكل عظيم للصابئة، وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورا مجسمة.

والاستفهام في قوله تعالى: ما هذه التماثيل يتسلط على الوصف في قوله تعالى:

التي أنتم لها عاكفون فكأنه قال: ما عبادتكم هذه التماثيل؟. ولكنه صيغ بأسلوب توجه الاستفهام إلى ذات التماثيل لإبهام السؤال عن كنه التماثيل في بادىء الكلام **إيماء** إلى عدم الملاءمة بين حقيقتها المعبر عنها بالتماثيل وبين وصفها بالمعبودية المعبر عنه بعكوفهم عليها.

وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنونه سائلا مستعلما ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم وجدنا آباءنا لها عابدين فإن شأن السؤال بكلمة (ما) أنه لطلب شرح ماهية المسئول عنه.

والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية.

والتعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال الذاتي.

والأصنام التي كان يعبدها الكلدان قوم إبراهيم هي (بعل) وهو أعظمها، وكان مصوغا من ذهب وهو رمز الشمس في عهد سميراميس، وعبدوا رموزا للكواكب ولا شك أنهم كانوا يعبدون أصنام قوم نوح: ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا، إما بتلك الأسماء وإما بأسماء أخرى. وقد دلت الآثار على أن من أصنام أشور (إخوان الكلدان) صنما اسمه (نسروخ) وهو نسر لا محالة.". (١)

٢٠٩. ٢٠٩-"وجعل العكوف مسندا إلى ضميرهم مؤذن بأن إبراهيم لم يكن من قبل مشاركا لهم في ذلك فيعلم منه أنه في مقام الرد عليهم، ذلك أن الإتيان بالجملة الاسمية في قوله تعالى: أنتم لها عاكفون فيه معنى العبادة، فذلك عدي باللام لإفادة ملازمة عبادتها.

وجاءوا في جوابه بما توهموا إقناعه به وهو أن عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم فحسبوه مثلهم يقدس عمل الآباء ولا ينظر في مصادفته الحق، ولذلك لم يلبث أن أجابهم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين مؤكدا ذلك بلام القسم.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/١٧

وفي قوله تعالى: كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال من اجتلاب فعل الكون وحرف الظرفية، إيماء إلى تمكنهم من الضلال وانغماسهم فيه لإفادة أنه ضلال بواح لا شبهة فيه، وأكد ذلك بوصفه ب مبين. فلما ذكروا له آباءهم شركهم في التخطئة بدون هوادة بعطف الآباء عليهم في ذلك ليعلموا أنهم لا عذر لهم في اتباع آبائهم ولا عذر لآبائهم في سنن ذلك لهم لمنافاة حقيقة تلك الأصنام لحقيقة الألوهية واستحقاق العبادة.

ولإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالا، وإيقانهم أن آباءهم على الحق، شكوا في حال إبراهيم أنطق عن جد منه وأن ذلك اعتقاده فقالوا أجئتنا بالحق، فعبروا عنه بالحق المقابل للعب وذلك مسمى الجد. فالمعنى: بالحق في اعتقادك أم أردت به المزح، فاستفهموا وسألوه أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. والباء للمصاحبة.

والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المسمى مزحا، وأرادوا بتأويل". (١)

٢١٠. ٢١١-"وعطف ونوحا على لوطا [الأنبياء: ٧٤] ، أي آتينا نوحا حكما وعلما، فحذف المفعول الثاني لآتينا [الأنبياء: ٧٤] لدلالة ما قبله عليه، أي آتيناه النبوءة حين نادى، أي نادانا.

ومعنى نادى دعا ربه أن ينصره على المكذبين من قومه بدليل قوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم.

وبناء قبل على الضم يدل على مضاف إليه مقدر، أي من قبل هؤلاء، أي قبل الأنبياء المذكورين. وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنته المرادة له

تعريضا بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكروا أنه لم تشذ عن نصر الله رسله شاذة ولا فاذة.

وأهل نوح: أهل بيته عدا أحد بنيه الذي كفر به.

والكرب العظيم: هو الطوفان. والكرب: شدة حزن النفس بسبب خوف أو حزن.

ووجه كون الطوفان كربا عظيما أنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مده ولا يزال لاحقا بمواقع هروبهم حتى يعمهم فيبقوا زمنا يذوقون آلام الخوف فالغرق وهم يغرقون ويطفون حتى يموتوا بانحباس التنفس وفي ذلك كله كرب متكرر، فلذلك وصف بالعظيم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٩٥

وعدي نصرناه بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية، كما في قوله تعالى:
إنكم منا لا تنصرون [المؤمنون: ٦٥] ، وهو أبلغ من تعديته ب (على) لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المنعة والحماية فلا يناله العدو بشيء. وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة.

ووصف القوم بالموصول للإيماء إلى علة الغرق الذي سيذكر بعد. وجملة إنهم كانوا قوم سوء علة لنصر نوح عليه السلام لأن نصره يتضمن إضرار القوم المنصور عليهم.". (١)

٢١١. ٢١١-"وذكر الموصول في تعريفهم لأن الموصول للإيماء إلى أن سبب فوزهم هو سبق تقدير الهداية لهم. وذكر اسم الإشارة بعد ذلك لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدم على اسم الإشارة من الأوصاف، وهو سبق الحسنى من الله.

واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم، والرفعة تشبه بالبعد.

وجملة لا يسمعون حسيسها بيان لمعنى مبعدون، أي مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد مما يبلغ منه المرئي.

والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.

وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم. وجيء فيه بما يدل على العموم وهو في ما اشتهت أنفسهم وما يدل على الدوام وهو خالدون.

والشهوة: تشوق النفس إلى ما يلذ لها.

وجملة لا يحزنهم الفزع خبر ثان عن الموصول.

والفزع: نفرة النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجزع. والمراد

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١١٣

به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم.". (١)

٢١٢. ٢١٢-"يجيء مثل هذا الوعد في القرآن في [سورة النور: ٥٥] في قوله تعالى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.

وعلى قراءة حمزة أن هذا الوعد تكرر في الكتب لفرق من العباد الصالحين.

ومعنى من بعد الذكر أن ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمة.

فبعد أن ألقيت إليهم الأوامر وعدوا بميراث الأرض، وقيل المراد ب الذكر كتاب الشريعة وهو التوراة.

قال تعالى: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين [الأنبياء: ٤٨] فيكون الظرف في قوله تعالى: من بعد الذكر مستقرا في موضع الحال من الزبور.

والمقصود من هذه الحال **الإيماء** إلى أن الوعد المتحدث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة. وهو الوعد الذي ذكر في قوله تعالى حكاية عن موسى: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم [المائدة: ٢١] ، وأنه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من الملك والسلطان لأن ذلك وعد كان قبل داوود. فإن ملك داوود أحد مظاهره. بل المراد **الإيماء** إلى أنه وعد وعده الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل وليسوا إلا المسلمين الذين صدقهم الله وعده فملكوا الأرض ببركة رسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيئهم صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم آنفا.

وجملة إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين تذييل للوعد وإعلان بأن قد آن أوانه وجاء إبانه. وفإن لم يأت بعد داوود قوم مؤمنون ورثوا الأرض، فلما جاء الإسلام وآمن الناس بمحمد صلى

(١) التحرير والتنوير ١٥٦/١٧

الله عليه وسلم فقد بلغ البلاغ إليهم.". (١)

٢١٣. ٢١٣-"لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيا، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب، وهي:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا: «أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل» دون خصوصية أزيد من ذلك فجمع ستة معان لا غير. وهي غير خصوصية إنما هي وفرة معان. وليس تنكير «حبيب ومنزل» إلا للوحدة لأنه أراد فردا معينا من جنس الأحباب وفردا معينا من جنس المنازل، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل، ومنزله.

واعلم أن انتصاب رحمة على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة.

ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه

النبيء صلى الله عليه وسلم بقوله: «إنما أنا رحمة مهداة»

. (١)

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد تلاميذه أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس:

«زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٦٣

(١) رواه محمد بن طاهر المقدسي في كتاب «ذخيرة الحفاظ» عن أبي هريرة يصفه بالضعف.". (١)

٢١٤. ٢١٤-"إلى يوم القيامة، ليتلقوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله، فتقوى كل فريق بحسب حالهم من التلبس بما نهى الله عنه والتفريط فيما أمر به، ليستبدلوا ذلك بضده.

وأول فريق من الناس دخولا في خطاب يا أيها الناس هم المشركون من أهل مكة حتى قيل إن الخطاب بذلك خاص بهم. وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم.

وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين **إيماء** إلى استحقاقه أن يتقى لعظمته بالخالقية، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم.

وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف الرب دون نحو الخالق والسيد.

وتعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام. وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية.

وجملة إن زلزلة الساعة شيء عظيم في موضع العلة للأمر بالتقوى كما يفيده حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردد للسامع فيه.

والتعليل يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرا في الأمر بالتقوى وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله:

ولكن عذاب الله شديد

[الحج: ٢] .". (٢)

(١) التحرير والتنوير ١٦٦/١٧

(٢) التحرير والتنوير ١٨٦/١٧

٢١٥.	٢١٥-"تقتضي هذه الكناية كناية عن تعميم هذا الهول لكل الناس لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع بحيث يذهل فيه من هو في حال شدة التيقظ لوفرة دواعي اليقظة. وذلك أن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دل ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة. وهذا من بديع الكناية

عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية، وهذا النوع من الكناية يسمى **الإيماء**.

و (ما) في عما أرضعت

موصولة ما صدقها الطفل الرضيع. والعائد محذوف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل، وحذف مثله كثير.

والإتيان بالموصول وصلته في تعريف المذهول عنه دون أن يقول عن ابنها للدلالة على أنها تذهل عن شيء هو نصب عينها وهي في عمل متعلق به وهو الإرضاع زيادة في التكني عن شدة الهول.

وقوله وتضع كل ذات حمل حملها

هو كناية أيضا كقوله تذهل كل مرضعة عما أرضعت

. ووضع الحمل لا يكون إلا لشدة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف لأن الحمل في قرار مكين.

والحمل: مصدر بمعنى المفعول، بقرينة تعلقه بفعل تضع

أي تضع جنينها.

والتعبير ب ذات حمل

دون التعبير: بحامل، لأنه الجاري في الاستعمال في الأكثر. فلا يقال: امرأة حامل، بل يقال: ذات". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٩٠

٢١٦. ٢١٦-"[سورة الحج (٢٢) : آية ٣]

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣)

عطف على جملة يا أيها الناس اتقوا ربكم [الحج: ١] ، أي الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتقي الله ويخشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته. وهذا الفريق هم أيمة الشرك وزعماء الكفر لأنهم الذين يتصدون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة وتمويه.

والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنهم لولا تضليلهم قومهم وصدهم إياهم عن متابعة الدين لاتبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجته وقبولها في الفطرة.

وقيل: أريد ب من يجادل في الله النضر بن الحارث أو غيره كما سيأتي، فتكون (من) الموصولة صادقة على متعدد عامة لكل من تصدق عليه الصلة.

والمجادلة: المخاصمة والمحاجة. والظرفية مجازية، أي يجادل جدلا واقعا في شأن الله. ووصف الجدل بأنه بغير علم، أي جدلا ملتبسا بمغايرة العلم، وغير العلم هو الجهل، أي جدلا ناشئا عن سوء نظر وسوء تفكير فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات كالوحدانية والعلم وفعل ما يشاء.

واتباع الشيطان: الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتاده والعمل بذلك دون تردد ولا عرض على نظر واستدلال.

وكلمة (كل) في قوله كل شيطان مستعملة في معنى الكثرة. كما سيأتي قريبا عند قوله تعالى: وعلى كل ضامر [الحج: ٢٧] في هذه السورة.". (١)

٢١٧. ٢١٧-"[١٢]

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٢]

يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد (١٢)

جملة يدعوا من دون الله إلخ حال من ضمير انقلب [الحج: ١١] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/١٧

وقدم الضر على النفع في قوله ما لا يضره **إيماء** إلى أنه تملص من الإسلام تجنبا للضر لتوهمه أن ما لحقه من الضر بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه، فعاد إلى عبادة الأصنام حاسبا أنها لا تضره. وفي هذا **الإيماء** تهكم به يظهر بتعقيبه بقوله تعالى: وما لا ينفعه أي فهو مخطئ في دعائه الأصنام لتزيل عنه الضر فينتفع بفعلها.

والمعنى: أنها لا تفعل ما يجلب ضرا ولا ما يجلب نفعا.

والإشارة في قوله ذلك هو الضلال إلى الدعاء المستفاد من يدعوا.

والقول في اسم الإشارة وضمير الفصل والقصر مثل ما تقدم في قوله ذلك هو الخسران المبين [الحج: ١١] .

والبعيد: المتجاوز الحد المعروف في مدى الضلال، أي هو الضلال الذي لا يماثله ضلال لأنه يعبد ما لاغناء له.

[١٣]

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٣]

يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير (١٣)

جملة في موضع حال ثانية، ومضمونها ارتقاء في تضليل عابدي الأصنام. فبعد أن بين لهم أنهم يعبدون ما لا غناء لهم فيه زاد". (١)

٢١٨. ٢١٨-"فيحتمل أن يكون موقعها استئنافا ابتدائيا أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين في قوله تعالى: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم [الحج: ٨] الآية، وقوله: ومن الناس من يعبد الله على حرف [الحج: ١١] . وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجلهم للدخول في الإسلام وأن لم يتريثوا في ذلك وهؤلاء هم المنافقون.

ويحتمل أن يكون موقعها تذييلا لقوله: ومن الناس من يعبد الله على حرف [الحج: ١١] الآية بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى فيكون المراد: أن الفريق الذين

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢١٥

يعبدون الله على حرف والمخبر عنهم بقوله: خسر الدنيا والآخرة [الحج:
١١] هم قوم يظنون أن الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام.
فأما ظنهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنهم قد أيسوا من النصر استبطاء، وأما في الآخرة فلأنهم لا يؤمنون بالبعث ومن أجل هذا علق فعل لن ينصره بالمجرور بقوله في الدنيا والآخرة **إيماء** إلى كونه متعلق الخسران في قوله خسر الدنيا والآخرة [الحج: ١١] . فإن عدم النصر خسران في الدنيا بحصول ضده، وفي الآخرة باستحالة وقوع الجزاء في الآخرة حسب اعتقاد كفرهم، وهؤلاء مشركون مترددون.
ويترجح هذا الاحتمال بتغيير أسلوب الكلام، فلم يعطف بالواو كما عطف قوله
ومن الناس من يعبد الله [الحج: ١١] ولم تورد فيه جملة ومن الناس كما أوردت في ذكر الفريقين السابقين ويكون المقصود من الآية تهديد هذا الفريق. فيكون التعبير عن هذا الفريق بقوله من كان يظن إلخ إظهارا في مقام الإضمار فإن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ذلك الفريق فيقال بعد قوله: إن الله يفعل ما يريد [الحج: ١٤] ،". (١)

٢١٩. ٢١٩-"ذكر الهداية في قوله: وهدوا إلى الطيب من القول، ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لأحوال الكافرين وسيجيء ذكر مقابلها في قوله: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله إلى قوله: نذقه من عذاب أليم [الحج: ٢٥] وذلك من أفانين المقابلة.
والمعنى: وقد هدوا إلى صراط الحميد في الدنيا، وهو دين الإسلام، شبه بالصراط لأنه موصل إلى رضى الله.
والحميد من أسماء الله تعالى، أي المحمود كثيرا فهو فعيل بمعنى مفعول، فإضافة صراط إلى اسم «الله» لتعريف أي صراط هو. ويجوز أن يكون الحميد صفة ل صراط، أي المحمود لسالكه. فإضافة صراط إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، والصراط المحمود هو صراط دين الله. وفي هذه الجملة **إيماء** إلى سبب استحقاق تلك النعم أنه الهداية السابقة إلى دين الله في الحياة الدنيا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٨/١٧

[٢٥]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٢٥]

إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم (٢٥)

هذا مقابل قوله وهدوا إلى صراط الحميد [الحج: ٢٤] بالنسبة إلى أحوال المشركين إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل في الأحوال المذكورة في آية فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار [الحج: ١٩] كما تقدم. فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني. والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدهم عن سبيل الله.". (١)

٢٢٠. ٢٢٠-"ووصف المسجد بقوله: الذي جعلناه للناس الآية **للإيماء** إلى علة مؤاخذة المشركين بصدهم عنه لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبد به العاكف فيه، أي المستقر في المسجد، والبادي، أي البعيد عنه إذا دخله.

والمراد بالعاكف: الملازم له في أحوال كثيرة، وهو كناية عن الساكن بمكة لأن الساكن بمكة يعكف كثيرا في المسجد الحرام، بدليل مقابلته بالبادي، فأطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازا بعلاقة اللزوم العرفي. وفي ذكر العكوف تعريض بأنهم لا يستحقون بسكنى مكة مزية على غيرهم، وبأنهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من

الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة.

وقرأ الجمهور سواء- بالرفع- على أنه مبتدأ والعاكف فيه فاعل سد مسد الخبر، والجملة مفعول ثان ل جعلناه. وقرأه حفص بالنصب على أنه المفعول الثاني ل جعلناه.

والعكوف: الملازمة. والبادي: ساكن البادية.

وقوله سواء لم يبين الاستواء فيما ذا لظهور أن الاستواء فيه بصفة كونه مسجدا إنما هي في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته وهي: الطواف، والسعي، ووقوف عرفة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/١٧

وكتب والباد في المصحف بدون ياء في آخره، وقرأ ابن كثير والبادي بإثبات الياء على القياس لأنه معرف، والقياس إثبات ياء الاسم المنقوص إذا كان معرفا باللام، ومحمل كتابته في المصحف بدون ياء عند أهل هذه القراءة أن الياء عوملت معاملة الحركات وألفات أواسط الأسماء فلم يكتبوها. وقرأه نافع بغير". (١)

٢٢١. ٢٢١-"به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة» . أ. هـ.

يعني أن المشرك لما عدل عن الإيمان الفطري وكان في مكنته فكأنه كان في السماء فسقط منها، فتوزعته أنواع المهالك، ولا يخفى عليك أن في مطاوي هذا التمثيل تشبيهات كثيرة لا يعوزك استخراجها.

والسحيق: البعيد فلا نجاة لمن حل فيه.

وقوله: أو تهوي به الريح تخيير في نتيجة التشبيه، كقوله: أو كصيب من السماء [البقرة: ١٩] . أشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه. وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه لا

يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول.

والخرور: السقوط. وتقدم في قوله: فخر عليهم السقف من فوقهم في [سورة النحل: ٢٦]

.

وفتخطفه مضاعف خطف للمبالغة، الخطف والخطف: أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو ومنه تخطف الكرة. والهوي: نزول شيء من علو إلى الأرض. والباء في تهوي به للتعدية مثلها في: ذهب به.

وقرأ نافع، وأبو جعفر فتخطفه- بفتح الخاء وتشديد الطاء مفتوحة- مضارع خطف

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٣٧

المضاعف. وقرأه الجمهور- بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة- مضارع خطف المجرد.". (١)

.٢٢٢ ٢٢٢-"[٣٧]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٧]
لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين (٣٧)
لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم
جملة في موضع التعليل لجملة كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون [الحج: ٣٦] ، أي دل على أنا سخرناها لكم لتشكروني أنه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها حين تتمكنون من الانتفاع بها فلا يريد الله منكم على ذلك إلا أن تتقوه.
والنيل: الإصابة. يقال ناله، أي أصابه ووصل إليه. ويقال أيضا بمعنى أحرز، فإن فيه معنى الإصابة كقوله تعالى: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون [آل عمران: ٩٢] وقوله: وهموا بما لم ينالوا [التوبة: ٧٤] .
والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نضح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمروة. قال الحسن: كانوا يلطخون بدماء القرابين وكانوا يشرحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى، يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج.
وفي قوله: لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم **إيماء** إلى أن
إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا إذ لا ينتفع بلحومها وجلودها وأجزائها إلا بالنحر أو الذبح وأن المقصد من شرعها انتفاع الناس المهدين وغيرهم.
فأما المهدون فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/١٧

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النحر". (١)

٢٢٣. ٢٢٣-"وتعرض صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول طلبا لفضيلة المبادرة، فإن التقوى التي
تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها.
وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفرس الحبس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وهي المعاوضة لربع الحبس إذا خرب.
وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل، ومعنى التعليل فيه أقوى، وعلته انتفاع المسلمين، ومسلك العلة **الإيماء** الذي في قوله تعال: فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر [الحج: ٣٦] .
واعلم أن توهم التقرب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرب إليه بتلك الدماء عقيدة وثنية قديمة فربما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام فلا يدعون أحدا يأكله.
وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رمادا ويتوهمون أن رائحة الشواء تسر الآلهة المتقرب إليها بالقرابين، وكان المصريون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل لأنها مقدسة.
وقرأ الجمهور ينال، ويناله بتحتية في أولهما. وقرأه يعقوب بفوقية على مراعاة ما يجوز في ضمير جمع غير العاقل. وربما كانوا يقذفون بمزع من اللحم على أنها لله فربما أصابها محتاج وربما لم يتفطن لها فتأكلها السباع أو تفسد.
ويشمل التقوى ذكر اسم الله عليها والتصدق ببعضها على المحتاجين.
ويناله مشاكلة ل ينال الأول، استعير النيل لتعلق العلم. شبه علم الله تقواهم بوصول الشيء المبعوث إلى الله تشبيها وجهه الحصول في كل وحسنته المشاكلة.". (٢)

---
(١) التحرير والتنوير ٢٦٧/١٧
(٢) التحرير والتنوير ٢٦٩/١٧

٢٢٤. ٢٢٤-"[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٨]

إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور (٣٨)

استئناف بياني جوابا لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله الآية، فإنه توعد المشركين على صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم، وبشر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضد وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة. وطال الكلام في ذلك بما تبعه لا جرم تشوفت نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم في الدنيا، وهل ينتصر لهم من أعدائهم أو يدخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة. فكان المقام خليقا بأن يطمئن الله نفوسهم بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم، وحذف مفعول يدافع لدلالة المقام.

فالكلام موجه إلى المؤمنين، ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إما لمجرد تحقيق الخبر، وإما لتنزيل غير المتردد منزلة المتردد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه.

والتعبير بالموصول لما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر وأن دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم.

وقرأ الجمهور لفظ يدافع بألف بعد الدال فيفيد قوة الدفع. وقرأه أبو عمرو، وابن كثير، ويعقوب يدافع بدون ألف بعد الدال.

وجملة إن الله لا يحب كل خوان كفور تعليل لتقييد الدفاع بكونه عن الذين آمنوا، بأن الله لا يحب الكافرين الخائنين،". (١)

٢٢٥. ٢٢٥-"وهذا يجري على كلتا القراءتين في قوله يقاتلون والتفسير الذي رأيته أنسب وأرشق.

وجملة وإن الله على نصرهم لقدير عطف على جملة أذن للذين يقاتلون أي أذن لهم بذلك وذكروا بقدرة الله على أن ينصرهم. وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سنن كلام العظيم المقتدر بإيراد الوعد في صورة الإخبار بأن ذلك بمحل العلم منه ونحوه، كقولهم: عسى أن يكون كذا، أو أن عندنا خيرا، أو نحو ذلك، بحيث لا يبقى للمترقب شك في الفوز بمطلوبه. وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردد في ذلك لأنهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧١/١٧

استبطأوا النصر.

[٤٠]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٤٠]

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠)

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله

بدل من الذين يقاتلون [الحج: ٣٩] ، وفي إجراء هذه الصلة عليهم **إيماء** إلى أن المراد بالمقاتلة الأذى، وأعظمه إخراجهم من ديارهم كما قال تعالى: والفتنة أشد من القتل [البقرة: ١٩١] .

وبغير حق حال من ضمير أخرجوا، أي أخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم

الموجب إخراجهم، فإن للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولد بين قوم هو مساو لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغلبة لسكانه، كما قال عمر بن الخطاب". (١)

٢٢٦. ٢٢٦-"والبيع: جمع بيعة- بكسر الباء وسكون التحتية- مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها، ولعلها معربة عن لغة أخرى.

والصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معربة عن كلمة (صلوثا) (بالمثلثة في آخره بعدها ألف) . فلما عربت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك. وعن مجاهد، والجحدري، وأبي العالية، وأبي رجاء أنهم قرأوها هنا وصلوات بمثلثة في آخره. وقال ابن عطية: قرأ عكرمة، ومجاهد صلويثا- بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء- (أي المثلثة كما قال القرطبي) وهذه المادة قد فاتت أهل اللغة وهي غفلة عجيبة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٤/١٧

والمساجد: اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء ومسجد المدينة.

وجملة يذكر فيها اسم الله كثيرا صفة والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلى ما في تلك الجمل من الموصوف بالصفة. فلذلك قيل برجوع صفة يذكر فيها اسم الله إلى صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد للأربعة المذكورات قبلها وهي معاد ضمير فيها. وفائدة هذا الوصف **الإيماء** إلى أن سبب هدمها أنها يذكر فيها اسم الله كثيرا، أي ولا تذكر أسماء أصنام أهل الشرك فإنهم لما أخرجوا المسلمين بلا سبب إلا أنهم يذكرون اسم الله فيقولون ربنا الله، لمحو ذكر اسم الله من بلدهم لا جرم أنهم يهدمون المواضع المجعولة لذكر اسم الله كثيرا، أي دون ذكر الأصنام. فالكثرة مستعملة في الدوام". (١)

٢٢٧. ٢٢٧-"لاستغراق الأزمنة، وفي هذا **إيماء** إلى أن في هذه المواضع فائدة دينية وهي ذكر اسم الله.

قال ابن خويز منداد من أيمة المالكية (من أهل أواخر القرن الرابع) «تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نارهم» اه.

قلت: أما بيوت النار فلا تتضمن هذه الآية منع هدمها فإنها لا يذكر فيها اسم الله وإنما منع هدمها عقد الذمة الذي ينعقد بين أهلها وبين المسلمين، وقيل الصفة راجعة إلى مساجد خاصة.

وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأن صوامع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها، وكانت أشهر عندهم، لأنهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها، وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى مثل الصوامع. وأما ذكر الصلوات بعدهما فلأنه قد تهيأ المقام لذكرها، وتأخير المساجد لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالا للفائدة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٧٨

وقوله ولينصرن الله من ينصره عطف على جملة ولولا دفاع الله الناس، أي أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله، ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد. وهذه الجملة تذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين الذين أخرجهم المشركون.

وجملة إن الله لقوي عزيز تعليل لجملة ولينصرن الله من ينصره، أي كان نصرهم مضمونا لأن ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزة. والقوة مستعملة في القدرة:

والعزة هنا حقيقة لأن العزة هي المنعة، أي عدم تسلط غير صاحبها على صاحبها.". (١)

٢٢٨. ٢٢٨-"بالمصير إلى مصيرهم، ونظير هذه الآية إجمالا وتفصيلا تقدم غير مرة في سورة آل عمران وغيرها.

وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: فقد كذبت قبلهم إلخ إذ التقدير: فلا عجب في تكذيبهم، أو فلا غضاضة عليك في تكذيب قومك إياك فإن تلك عادة أمثالهم.

وقوم إبراهيم هم الكلدان، وأصحاب مدين هم قوم شعيب، وإنما لم يعبر عنهم بقوم شعيب لئلا يتكرر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات.

وقال: وكذب موسى لأن مكذبيه هم القبط قوم فرعون ولم يكذبه قومه بنو إسرائيل.

وقوله: فأمليت للكافرين معناه فأمليت لهم، فوضع الظاهر موضع الضمير **للإيماء** إلى أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل تعريضا بالنذارة لمشركي قريش.

والأخذ حقيقته: التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم، ومناسبة هذه الاستعارة أن الإملاء لهم يشبه بعد الشيء عن متناوله فشبه انتهاء ذلك الإملاء بالتناول، شبه ذلك بأخذ الله إياهم عنده، لظهور قدرته عليهم بعد وعيدهم، وهذا الأخذ معلوم في آيات أخرى عدا أن قوم إبراهيم لم يتقدم في القرآن ذكر لعذابهم أو أخذهم سوى أن قوله تعالى في [سورة الأنبياء: ٧٠] وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين مشير إلى سوء عاقبتهم مما أرادوا به من الكيد، وهذه الآية صريحة في ذلك كما أشرنا إليه هنالك.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٩/١٧

ومناسبة عد قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذكر فيها من أخذوا من الأقوام، أن". (١)

٢٢٩. ٢٢٩-"كما حكى الله عنهم في قوله: وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] ، وقال: ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين [السجدة: ٢٨] فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله فأمليت للكافرين [الحج: ٤٤] الآية.

وحكي ويستعجلونك بصيغة المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديدا منهم للاستهزاء وتوركا على المسلمين.

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إياهم.

والباء من قوله بالعذاب زائدة لتأكيد معنى الاستعجال بشدته كأنه قيل يحرصون على تعجيله. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة في أول [سورة الرعد: ٦] .

ولما كان استعجالهم إياه تعريضا منهم بأنهم موقنون بأنه غير واقع أعقب بقوله:

ولن يخلف الله وعده، أي فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة لأنه وعد من الله والله لا يخلف وعده. وفيه تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلا يستبطئونه.

وقوله: وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون عطف على جملة ولن يخلف الله وعده، فإن الله توعدهم بالعذاب وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة وهم إنما استعجلوا عذاب الدنيا تهكما وكناية عن إيقانهم بعدم وقوعه بلازم واحد، **وإيماء** إلى عدم

وقوع عذاب الآخرة بلازمين، فرد الله عليهم ردا عاما بقوله: ولن يخلف الله وعده، وكان ذلك تثبيتا للمؤمنين، ثم أعقبه بإنذارهم بأن عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا وهو أشد العذاب.

فقوله: وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون خبر مستعمل في التعريض بالوعيد، وهذا

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٨٣

اليوم هو يوم القيامة.". (١)

٢٣٠. ٢٣٠-"والغرض من خطابهم إعلامهم بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يغيظ النبيء صلى الله عليه وسلم ولا يصده عن أداء رسالته، ففي ذلك قمع لهم إذ كانوا يحسبون أنهم بتكذيبهم واستهزائهم يملونه فيترك دعوتهم، وفيه تثبيت للنبيء وتسلية له فيما يلقاه منهم.
وقصر النبيء على صفة النذارة قصر إضافي، أي لست طالبا نكايتكم ولا تزلفا إليكم فمن آمن فلنفسه ومن عمي فعليها.
والنذير: المحذر من شر يتوقع.
وفي تقديم المجرور المؤذن بالاهتمام بنذارتهم إيماء إلى أنهم مشرفون على شر عظيم فهم أحرياء بالنذارة.
والمبين: المفصح الموضح، أي مبين للإنذار بما لا إيهام فيه ولا مصانعة.
وفرع على الأمر بالقول تقسيم للناس في تلقي هذا الإنذار المأمور الرسول بتبليغه إلى مصدق ومكذب لبيان حال كلا الفريقين في الدنيا والآخرة ترغيبا في الحالة الحسنى وتحذيرا من الحالة السوأى فقال تعالى: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم إلى آخره ... فهذا إخبار من الله تعالى كما يقتضيه قوله في آياتنا.
والجملة معترضة بالفاء.
والمغفرة: غفران ما قدموه من الشرك وما يتبعه من شرائع الشرك وضلالاته ومفاسده. وهذه المغفرة تفضي إلى نعيم الآخرة، فالمعنى: أنهم فازوا في الدار الآخرة.
والرزق: العطاء. ووصفه بالكريم يجمع وفرته وصفاءه من المكدرات كقوله تعالى: لهم أجر غير ممنون [فصلت: ٨] ذلك هو الجنة.". (٢)

٢٣١. ٢٣١-"وللذين في قلوبهم مرض هم المترددون في قبول الإيمان. والقاسية قلوبهم هم الكافرون المصممون على الكفر. والفريقان هم المراد ب الظالمين في قوله: وإن الظالمين لفي

---
(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٩١
(٢) التحرير والتنوير ١٧/٢٩٤

شقاق بعيد. فذكر الظالمين إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أن علة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم، أي كفرهم.

والشقاق: الخلاف والعداوة.

والبعيد هنا مستعمل في معنى: البالغ حدا قويا في حقيقته. تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد كما في قوله تعالى فذو دعاء عريض [فصلت: ٥١] أي دعاء كثير ملح.

وجملة وإن الظالمين لفي شقاق بعيد معترضة بين المتعاطفات.

والذين أوتوا العلم هم المؤمنون بقرينة مقابلته ب للذين في قلوبهم مرض وبقوله وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. فالمراد بالعلم الوحي والكتب التي أوتيها أصحاب الرسل السابقين فإنهم بها يصيرون من أهل العلم.

وإطلاق الذين أوتوا العلم على المؤمنين تكرر في القرآن.

وهذا ثناء على أصحاب الرسل بأنهم أوتوا العلم، وهو علم الدين الذي يبلغهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن نور النبوءة يشرق في قلوب الذين يصحبون الرسول.

ولذلك تجد من يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون قبل الإيمان جلفا فإذا آمن انقلب حكيما، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»

." (١)

٢٣٢. ٢٣٢-"قوله تعالى:

ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني في سورة [البقرة: ٧٨] .

وجملة إن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم معترضة. والواو للاعتراض، والذين أوتوا العلم هم المؤمنون. وقد جمع لهم الوصفان كما في قوله تعالى: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث في سورة [الروم: ٥٦] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٠٢

وكما في سورة [سبأ: ٦] ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق.
فإظهار لفظ الذين آمنوا في مقام ضمير الذين أوتوا العلم لقصد مدحهم بوصف الإيمان، **والإيماء** إلى أن إيمانهم هو سبب هديهم. وعكسه قوله تعالى: إن الله لا يهدي
من هو كاذب كفار
[الزمر: ٣] . فالمراد بالهدى في كلتا الآيتين عناية الله بتيسيره وإلا فإن الله هدى الفريقين بالدعوة والإرشاد فمنهم من اهتدى ومنهم من كفر.
وكتب في المصحف لهاد بدون ياء بعد الدال واعتبارا بحالة الوصل على خلاف الغالب. وفي الوقف يثبت يعقوب الياء بخلاف البقية.
[٥٥]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٥٥]
ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم (٥٥)
لما حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أن ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرسل يكون عليهم فتنة. خص في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخصهم بأنهم يستمر شكهم فيما جاء به". (١)

٢٣٣. ٢٣٣-"لأننا نعاقب على قدر الذنب لا على قدر الغضب، فليس ذكر وصفي لعفو غفور **إيماء** إلى الترغيب في العفو عن المشركين.
ويجوز أن يكون تعليلا للوعد بجزاء المهاجرين اتباعا للتعليل في قوله: إن الله لعليم حليم [الحج: ٥٩] لأن الكلام مستمر في شأنهم.
[٦١]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٦١]
ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير (٦١)

---
(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٠٧

ليس اسم الإشارة مستعملا في الفصل بين الكلامين مثل شبيهه الذي قبله، بل الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفل النصر، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب

مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، لما تقرر من اشتهار التضاد بين الليل والنهار، أي الظلمة والنور، وقريب منها استعارة التلبيس للإقحام في الحرب في قول المرار السلمي:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى ... إذا التبست نفضت لها يدي

فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله: بأن الله يولج الليل إلخ.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريرا لشبيهه السابق لقصر توكيده لأنه متصل به لأن جملة بأن الله يولج الليل في النهار إلخ، مرتبطة بجملة ومن عاقب بمثل ما عوقب به إلخ، ولذلك يصح جعل بأن الله يولج الليل في النهار إلخ متعلقا بقوله لينصرنه الله [الحج: ٦٠] .

والإيلاج: الإدخال. مثل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه تشبيها لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر،". (١)

٢٣٤. ٢٣٤-"فإيلاج الليل في النهار: غشيان ضوء النهار على ظلمة الليل، وإيلاج النهار في الليل: غشيان ظلمة الليل على ما كان من ضوء النهار. فالمولج هو المختفي، فإيلاج الليل انقضاؤه. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة لأن تقلص ظلمة الليل يحصل تدريجا، وكذلك تقلص ضوء النهار يحصل تدريجا، فأشبه ذلك إيلاج شيء في شيء إذ يبدو داخلا فيه شيئا فشيئا.

والباء للسببية، أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/١٧

فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصناع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل.

وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقاد، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة، ولأن الإيمان نور يتجلى به

الحق والاعتقاد الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي في النهار، ففي هذا **إيماء** إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل، أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك، ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار.". (١)

٢٣٥. ٢٣٥-"والإتيان بالفعل المضارع المفيد للتجدد على الوجهين لأن في الدلائل التي تحف بهم والتي ذكروا ببعضها في الآيات الماضية ما هو كاف لإقلاعهم عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحق.

ومن دون يفيد أنهم يعرضون عن عبادة الله، لأن كلمة دون وإن كانت اسما للمباعدة قد يصدق بالمشاركة بين ما تضاف إليه وبين غيره. فكلمة (دون) إذا دخلت عليها (من) صارت تفيد معنى ابتداء الفعل من جانب مباعد لما أضيف إليه (دون) . فاقتضى أن المضاف إليه غير مشارك في الفعل. فوجه ذلك أنهم لما أشربت قلوبهم الإقبال على عبادة الأصنام وإدخالها في شؤون قرباتهم حتى الحج إذ قد وضعوا في شعائره أصناما بعضها وضعوها في الكعبة وبعضها فوق الصفا والمروة جعلوا كالمعطلين لعبادة الله أصلا.

والسلطان: الحجة. والحجة المنزلة: هي الأمر الإلهي الوارد على ألسنة رسله وفي شرائعه، أي يعبدون ما لا يجدون عذرا لعبادته من الشرائع السالفة: وقصارى أمرهم أنهم اعتذروا بتقدم آبائهم بعبادة أصنامهم، ولم يدعوا أن نبيئا أمر قومه بعبادة صنم ولا أن دينا إلهيا رخص في عبادة الأصنام.

وما ليس لهم به علم، أي ليس لهم به اعتقاد جازم لأن الاعتقاد الجازم لا يكون إلا عن

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٥/١٧

دليل، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه. وتقديم انتفاء الدليل الشرعي على انتفاء الدليل العقلي لأن الدليل الشرعي أهم.

وما التي في قوله وما للظالمين من نصير نافية. والجملة عطف على جملة ويعبدون من دون الله أي يعبدون ما ذكر وما لهم نصير فلا تنفعهم عبادة الأصنام.

فالمراد بالظالمين المشركون المتحدث عنهم، فهو من الإظهار في مقام الإضمار **للإيماء** إلى". (١)

٢٣٦. ٢٣٦-"وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارها إياها، إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها.

والخطاب في قوله تعرف لكل من يصلح للخطاب بدليل قوله بالذين يتلون عليهم آياتنا.

والتعبير ب الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار. ومقتضى الظاهر أن يكون تعرف في وجوه الذين كفروا، أي وجوه الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، فخولف مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم **بالإيماء** إلى أن علة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر.

والسطو: البطش، أي يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدة الغضب والغيظ من سماع القرآن.

وبالذين يتلون يجوز أن يكون مرادا به النبيء صلى الله عليه وسلم من إطلاق اسم الجمع على الواحد كقوله: وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم [الفرقان: ٣٧] ، أي كذبوا الرسول.

ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول، أما الذين سطوا عليهم من المؤمنين فلعلهم غير الذين قرأوا عليهم القرآن، أو لعل السطو عليهم كان بعد نزول هذه الآية فلا إشكال في ذكر فعل المقاربة.

وجملة يكادون يسطون في موضع بدل الاشتمال لجملة تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر لأن الهم بالسطو مما يشتمل عليه المنكر.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٥/١٧

٢٣٧. ٢٣٧-"وفي هذا الترتيب **إيماء** إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال.

والمراد بالركوع والسجود الصلوات. وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية. وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله واعبدوا ربكم تنبيه على أن الصلاة عماد الدين.

والمراد بالعبادة: ما أمر الله الناس أن يتعبدوا به مثل الصيام والحج.

وقوله وافعلوا الخير أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة، وحسن المعاملة كصلة الرحم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق، وهذا مجمل بينته وبينت مراتبه أدلة أخرى.

والرجاء المستفاد من لعلكم تفلحون مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحد الموجب للفلاح فيما حدد الله تعالى، فهذه حقيقة الرجاء. وأما ما يستلزمه الرجاء من تردد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تحيل الشك على الله تعالى.

واعلم أن قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا إلى لعلكم تفلحون اختلف الأئمة في كون ذلك موضع سجدة من سجود القرآن. والذي ذهب إليه الجمهور أن ليس ذلك موضع سجدة وهو قول مالك في «الموطأ» و «المدونة» ، وأبي حنيفة، والثوري.

وذهب جمع غفير إلى أن ذلك موضع سجدة، وروى الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وفقهاء المدينة، ونسبه ابن العربي إلى مالك". (١)

٢٣٨. ٢٣٨-"[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٢]

الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢)

إجراء الصفات على المؤمنون [المؤمنون: ١] بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره **للإيماء** إلى وجه فلاحهم وعلته، أي أن كل خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم. وهذا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/١٧

يقتضي أن كل خصلة من هذه الخصال سبب للفلاح لأنه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا فإن الفلاح لا يتم إلا بخصال أخرى مما هو مرجع التقوى، ولكن لما كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبيء عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سببا للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين [المدثر: ٤٢- ٤٦] على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها في الغرض المذكور.
والخشوع تقدم في قوله تعالى: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين في سورة البقرة [٤٥] وفي قوله: وكانوا لنا خاشعين في سورة الأنبياء [٩٠] . وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولا شك أن الخشوع، أي الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح.
وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع
وخاصة إذا كان في حال الصلاة لأن الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته.
وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له. وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها.". (١)

٢٣٩. ٢٣٩-"ووصف الفواكه ب كثيرة باعتبار اختلاف الأصناف كالبسر والرطب والتمر، وكالزيت والعنب الرطب، وأيضا باعتبار كثرة إثمار هذين الشجرين.
وشجرة عطف على جنات أي وأخرجنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء
وهي شجرة الزيتون، وجملة تخرج صفة ل شجرة وتخصيصها بالذكر مع طي كون الناس منها يأكلون تنويه بشأنها، وإيماء إلى كثرة منافعها لأن من ثمرتها طعاما وإصلاحا ومداواة، ومن أعودها وقود وغيره،

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٩

وفي الحديث «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»

. وطور سيناء: جبل في صحراء سيناء الواقعة بين عقبة أيلة وبين مصر، وهي من بلاد فلسطين في القديم وفيه ناجى موسى ربه تعالى، وتقدم الكلام عليه في سورة الأعراف [١٤٣] عند قوله: ولكن انظر إلى الجبل، وغلب عليه اسم الطور بدون إضافة، وطور سيناء أو طور سينين. ومعنى الطور الجبل. وسيناء قيل اسم شجر يكثر هنالك. وقيل اسم حجارة. وقيل هو اسم لذلك المكان، قيل هو اسم نبطي وقيل هو اسم حبشي ولا يصح.

وإنما اغتر من قاله بمشابهة هذا الاسم لوصف الحسن في اللغة الحبشية وهو كلمة سناه، ومثل هذا التشابه قد أثار أغلاطا.

وسكنت ياء سيناء سكونا ميتا وبه قرأ الجمهور. ويجوز فيها الفتح وسكون الياء سكونا حيا، وبه قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، وهو في القراءتين ممدود، وهو فيهما ممنوع من الصرف فقيل للعلمية والعجمة على قراءة الكسر لأن وزن فعلاء إذا كان عينه أصلا لا تكون ألفه للتأنيث بل للإلحاق وألف الإلحاق لا تمنع الصرف، وعلى قراءة الفتح فمنعه لأجل ألف التأنيث لأن وزن فعلاء من أوزان ألف التأنيث.

وقوله: تخرج من طور سيناء يقتضي أن لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة". (١)

٢٤٠. ٢٤٠-"وعطف مقالة نوح على جملة إرساله بفاء التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال.

وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) حتى أهملوا عبادة الله ونسوها.

وكذلك حكيت دعوة نوح قومه في أكثر الآيات بصيغة أمر بأصل عبادة الله دون الأمر بقصر عبادتهم على الله مع الدلالة على أنهم ما كانوا ينكرون وجود الله ولذلك عقب كلامه بقوله: ما لكم من إله غيره.

ويدل على هذا قولهم: ولو شاء الله لأنزل ملائكة فهم مثبتون لوجود الله، فجملة ما لكم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤/١٨

من إله غيره في موقع التعليل للأمر بعبادته وهو تعليل أخص من المعلل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره فلا يستحق غيره العبادة فلا تعبدوا أصنامكم معه.

وغيره نعت ل إله. قرأه الجمهور بالرفع على اعتبار محل المنعوت ب (غير) لأن المنعوت مجرور بحرف جر زائد، وقرأه الكسائي بالجر على اعتبار اللفظ المجرور بالحرف الزائد.

وفرع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتقائهم عذاب الله تعالى.

وقد خولفت في حكاية جواب الملأ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة في سورة البقرة [٣٠] . فعطف هنا جواب الملأ من قومه بالفاء لوجهين:

أحدهما: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح.

والثاني: ليفاد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر. ووصف الملأ بأنهم الذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم هو الذي أنطقهم". (١)

٢٤١. ٢٤١-"وقد حكى الله في آيات أخرى عن قوم هود وعن قوم صالح أنهم أجابوا دعوة رسولهم بالرد والزجر كقول قوم هود قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء [هود: ٥٣، ٥٤] ، وقول قوم صالح قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب
[هود: ٦٢] .

وقوله وقال الملأ من قومه الذين كفروا الذين كفروا نعت ثان ل الملأ فيكون على وزان قوله في قصة نوح فقال الملأ الذين كفروا من قومه [المؤمنون: ٢٤] .

وإنما أخر النعت هنا ليتصل به الصفتان المعطوفتان من قوله: وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم.

واللقاء: حضور أحد عند آخر. والمراد لقاء الله تعالى للحساب كقوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/١٨

واعلموا أنكم ملاقوه في سورة البقرة [٢٢٣] وعند قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا في سورة الأنفال [٤٥] .

وإضافة بلقاء إلى الآخرة على معنى (في) أي اللقاء في الآخرة.

والإتراف: جعلهم أصحاب ترف. والترف: النعمة الواسعة. وقد تقدم عند قوله: وارجعوا إلى ما أترفتم فيه في سورة الأنبياء [١٣] .

وفي هذين الوصفين **إيماء** إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسولهم لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف إذ ألفوا أن يكونوا سادة لا تبعا، قال تعالى: وذرني والمكذبين أولي النعمة [المزمل: ١١] ، ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به فقال بعضهم لبعض ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون.

وما هذا إلا بشر مثلكم كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولا من الله فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.". (١)

٢٤٢. ٢٤٢-"صدق بالخبر لأجل المخبر، أي لأجل ثقته في نفسه. فأصل هذه اللام لام العلة والأجل. ومنه قوله تعالى: فآمن له لوط [العنكبوت: ٢٦] وقوله: وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون [الدخان: ٢١] . وأما تعدية فعل الإيمان بالباء فإنها إذا علق به ما يدل على الخبر تقول: آمنت بأن الله واحد. وبهذا ظهر الفرق بين قولك: آمنت بمحمد وقولك: آمنت لمحمد. فمعنى الأول: أنك صدقت شيئا.

ولذلك لا يقال: آمنت لله وإنما يقال: آمنت بالله. وتقول: آمنت بمحمد وآمنت لمحمد.

ومعنى الأول يتعلق بذاته وهو الرسالة ومعنى الثاني أنك صدقته فيما جاء به.

ومثلنا وصف لبشرين وهو مما يصح التزام إفراده وتذكيره دون نظر إلى مخالفة صيغة موصوفه كما هنا. ويصح مطابقته لموصوفه كما في قوله تعالى: إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم [الأعراف: ١٩٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٨

وهذا طعن في رسالتهما من جانب حالهما الذاتي ثم أعقبوه بطعن من جهة منشئهما وقبيلهما فقالوا: وقومهما لنا عابدون، أي وهم من فريق هم عباد لنا وأحط منا فكيف يسوداننا.

وقوله: عابدون جمع عابد، أي مطيع خاضع. وقد كانت بنو إسرائيل خولا للقبط وخدما لهم قال تعالى: وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل [الشعراء: ٢٢].

وتفرع على قولهم التصميم على تكذيبهم إياهما المحكي بقوله فكذبوهما، أي أرسي أمرهم على أن كذبوهما، ثم فرع على تكذيبهم أن كانوا من المهلكين إذ أهلكهم الله بالغرق، أي فانتظموا في سلك الأقوام الذين أهلكوا. وهذا أبلغ من أن يقال:

فأهلكوا، كما مر بنا غير مرة.

والتعقيب هنا تعقيب عرفي لأن الإغراق لما نشأ عن التكذيب فالتكذيب مستمر إلى حين الإهلاك.

وفي هذا تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم لأن في قوله: من المهلكين إيماء إلى أن الإهلاك سنة الله في الذين يكذبون رسله.". (١)

٢٤٣. ٢٤٣-"وعطف العمل الصالح على الأمر بأكل الطيبات إيماء إلى أن همة الرسل إنما تنصرف إلى الأعمال الصالحة، وهذا كقوله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات [المائدة: ٩٣] المراد به ما تناولوه من الخمر قبل تحريمها.

وقوله: إني بما تعملون عليم تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة لأن ذلك يتضمن الوعد بالجزاء عنها وأنه لا يضيع منه شيء، فالخبر مستعمل في التحريض.

[٥٢]

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥٢]

وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (٥٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٦٥

يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة يا أيها الرسل كلوا من الطيبات [المؤمنون: ٥١] إلخ، فيكون هذا مما قيل للرسل. والتقدير: وقلنا لهم إن هذه أمتكم أمة واحدة الآية.
ويجوز أن تكون عطفا على قصص الإرسال المبدوءة من قوله: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه [المؤمنون: ٢٣] لأن تلك القصص إنما قصت عليهم ليهتدوا بها إلى أن شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله بالإلهية. وعلى هذا الوجه يكون سياقها كسياق آية سورة الأنبياء [٩٢] إن هذه أمتكم أمة واحدة الآية.
وفي هذه الآية ثلاث قراءات بخلاف آية سورة الأنبياء. فتلك اتفق القراء على قراءتها بكسر همزة (إن) . فأما هذه الآية فقرأ الجمهور وأن بفتح الهمزة وتشديد النون، فيجوز أن تكون خطابا للرسل وأن تكون خطابا للمقصودين بالنذارة على الوجهين وفتح الهمزة بتقدير لام كي متعلقة بقوله: فاتقون عند من لا يرى وجود الفاء فيه مانعا من تقديم معموله، أو متعلقة بمحذوف دل عليه فاتقون عند من يمنع تقديم المعمول على العامل المقترن بالفاء، كما تقدم في قوله تعالى: فإياي فارهبون في سورة النحل". (١)

٢٤٤. ٢٤٤-"وقد تقدم عند قوله تعالى: وأولئك لهم الخيرات في سورة براءة [٨٨] ، وتقدم في سورة الأنبياء [٧٣- ٩٠] .
و (بل) إضراب عن المظنون لا على الظن كما هو ظاهر بالقرينة، أي لسنا نسارع لهم بالخيرات كما ظنوا بل لا يشعرون بحكمة ذلك الإمداد وأنها لاستدراجهم وفضحهم بإقامة الحجة عليهم.
[٥٧- ٦١]

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥٧ إلى ٦١]
إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لا يشركون (٥٩) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون (٦٠) أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٦١)

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/١٨

هذا الكلام مقابل ما تضمنته الغمرة من قوله فذرهم في غمرتهم [المؤمنون: ٥٤] من الإعراض عن عبادة الله وعن التصديق بآياته، ومن إشراكهم آلهة مع الله، ومن شحهم عن الضعفاء وإنفاق مالهم في اللذات، ومن تكذيبهم بالبعث. كل ذلك مما شملته الغمرة فجيء في مقابلها بذكر أحوال المؤمنين ثناء عليهم، ألا ترى إلى قوله بعد هذا بل قلوبهم في غمرة من هذا [المؤمنون: ٦٣] .

فكانت هذه الجملة كالتفصيل لإجمال الغمرة مع إفادة المقابلة بأحوال المؤمنين.

واختير أن يكون التفصيل بذكر المقابل لحسن تلك الصفات وقبح أضدادها تنزيها للذكر عن تعداد رذائلهم، فحصل بهذا إيجاز بديع، وطباق من ألطف البديع، وصون للفصاحة من كراهة الوصف الشنيع.

وافتتاح الجملة ب إن للاهتمام بالخبر، والإتيان بالموصولات للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها وتكرير". (١)

٢٤٥. ٢٤٥-"و (إذا) الأولى ظرفية فيها معنى الشرط فلذلك كان الأصل والغالب فيها أن تدل على ظرف مستقبل. وإذا الثانية فجائية داخلة على جواب شرط (إذا) .

والمترفون: المعطون ترفا وهو الرفاهية، أي المنعمون كقوله تعالى: وذرني والمكذبين أولي النعمة [المزمل: ١١] فالمترفون منهم هم سادتهم وأكابرهم والضمير المضاف إليه عائد إلى جميع المشركين أصحاب الغمرة.

وإنما جعل الأخذ واقعا على المترفين منهم لأنهم الذين أضلوا عامة قومهم ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لا تبعت الدهماء الحق لأن العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحق بسبب سلامتهم من جل دواعي المكابرة من توقع تقلص سؤدد وزوال نعيم. وكذلك حق على قادة الأمم أن يؤاخذوا بالتبعات اللاحقة للعامة من جراء أخطائهم ومغامرتهم عن تضليل أو سوء تدبر، وأن يسألوا عن الخيبة أن ألقوا بالذين اتبعوهم في مهواة الخطر كما قال تعالى: وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] ، وقال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٧٦

بغير علم ألا ساء ما يزرون [النحل: ٢٥] .
وتخصيص المترفين بالتعذيب مع أن شأن العذاب الإلهي إن كان دنيويا أن يعم الناس كلهم **إيماء** إلى أن المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامة، ولأن المترفين هم أشد إحساسا بالعذاب لأنهم لم يعتادوا مس الضراء والآلام. وقد علم مع ذلك أن العذاب يعم جميعهم من قوله: إذا هم يجأرون فإن الضميرين في إذا هم ويجأرون عائدان إلى ما عاد إليه ضمير مترفيهم بقرينة قوله: قد كانت آياتي تتلى عليكم إلى قوله سامرا تهجرون فإن ذلك كان من عمل جميعهم. ويجوز أن يكون المراد بالمترفين جميع المشركين فتكون الإضافة بيانية ويكون ذكر المترفين تهويلا في التهديد تذكيرا لهم بأن العذاب". (١)

٢٤٦. ٢٤٦-"(٩٥)
آذنت الأيات السابقة بأقصى ضلال المشركين وانتفاء عذرهم فيما دانوا به الله تعالى وبغضب الله عليهم لذلك، وأنهم سواء في ذلك مع الأمم التي عجل الله لها العذاب في
الدنيا وادخر لها عذابا آخر في الآخرة، فكان ذلك نذراة لهم بمثله وتهديدا بما سيقولونه وكان مثارا لخشية النبيء صلى الله عليه وسلم أن يحل العذاب بقومه في حياته والخوف من هؤله فلقن الله نبيئه أن يسأل النجاة من ذلك العذاب. وفي هذا التلقين تعريض بأن الله منجيهم من العذاب بحكمته، **وإيماء** إلى أن الله يري نبيئه حلول العذاب بمكذبيه كما هو شأن تلقين الدعاء كما في قوله: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [البقرة: ٢٨٦] الآية.
فهذه الجملة استئناف بياني جوابا عما يختلج في نفس رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقد تحقق ذلك فيما حل بالمشركين يوم بدر ويوم حنين. فالوعيد المذكور هنا وعيد بعقاب في الدنيا كما يقتضيه قوله: فلا تجعلني في القوم الظالمين.
وذكر في هذا الدعاء لفظ (رب) مكررا تمهيدا للإجابة لأن وصف الربوبية يقتضي الرأفة بالمربوب.
وأدخل بعد حرف الشرط (ما) الزائدة للتوكيد فاقترن فعل الشرط بنون التوكيد لزيادة تحقيق

---
(١) التحرير والتنوير ٨٢/١٨

ربط الجزاء بالشرط.

ونظيره في تكرير المؤكدات بين الشرط وجوابه قول الأعشى:

إما ترينا حفاة لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

أي فاعلمي حقا أنا نحفى تارة وننتعل أخرى لأجل ذلك، أي لأجل إخفاء الخطى لا للأجل وجدان نعل مرة وفقدانها أخرى كحال أهل الخصاصة.

وقد تقدم في قوله وإما ينزغنك من الشيطان نزغ في آخر الأعراف [٢٠٠] .

والمعنى: إذا كان ما يوعدون حاصلا في حياتي فأنا أدعوكم أن لا تجعلوني فيهم حينئذ.". (١)

٢٤٧. ٢٤٧-"واستعمال حرف الظرفية من قوله: في القوم الظالمين يشير إلى أنه أمر أن يسأل الكون في موضع غير موضع المشركين، وقد تحقق ذلك بالهجرة إلى المدينة فالظرفية هنا حقيقية، أي بينهم.

والخبر الذي هو قوله: وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون مستعمل في إيجاد الرجاء بحصول وعيد المكذبين في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا فلا حاجة إلى إعلام الرسول بقدرة الله على ذلك.

وفي قوله: أن نريك إيماء إلى أنه في منجاة من أن يلحقه ما يوعدون به وأنه

سيراه مرأى عين دون كون فيه. وقد يبدو أن هذا وعد غريب لأن المتعارف أن يكون العذاب سماويا فإذا نجى الله منه بعض رسله مثل لوط فإنه يبعده عن موضع العذاب ولكن كان عذاب هؤلاء غير سماوي فتحقق في مصرع صناديدهم يوم بدر بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ووقف رسول الله على القليب قليب بدر وناداهم بأسمائهم واحدا واحدا وقال لهم «لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا»

. وبهذا القصد يظهر موقع حرفي التأكيد (إن) واللام من إصابة محز الإعجاز.

[٩٦]

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/١١٨

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٩٦]

ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون (٩٦)

لما أنبأ الله رسوله عليه الصلاة والسلام بما يلمح له بأنه منجز وعيده من الذين كذبوه فعلم الرسول والمسلمون أن الله ضمن لهم النصر أعقب ذلك بأن أمره بأن يدفع مكذبيه بالتي هي أحسن وأن لا يضيق بتكذيبهم صدره فذلك دفع السيئة بالحسنة كما هو أدب الإسلام.

وسيأتي بيانه في سورة فصلت [٣٤] عند قوله ادفع بالتي هي أحسن.

وقوله نحن أعلم بما يصفون خبر مستعمل كناية عن كون الله يعامل أصحاب الإساءة لرسوله بما هم أحقاء به من العقاب لأن الذي هو أعلم بالأحوال يجري عمله على مناسب تلك الأحوال بالعدل وفي هذا تطمين لنفس الرسول صلى الله عليه وسلم.". (١)

٢٤٨. ٢٤٨-"من صحت يمينه صح لعانه وهذا قول مالك والشافعي، واشترط أبو حنيفة الحرية وحجته في ذلك إلحاق اللعان بالشهادة لأن الله سماه شهادة.

ولأجل المحافظة على هذه البدلية اشترط أن تكون أيمان اللعان بصيغة: «أشهد بالله» عند الأئمة الأربعة. وأما ما بعد صيغة (أشهد) فيكون كاليمين على حسب الدعوى التي حلف عليها بلفظ لا احتمال فيه.

وقوله: فشهادة أحدهم أربع شهادات قرأه الجمهور بنصب أربع على أنه مفعول مطلق لشهادة فيكون فشهادة أحدهم محذوف الخبر دل عليه معنى الشرطية الذي في الموصول واقتران الفاء بخبره، والتقدير: فشهادة أحدهم لازمة له. ويجوز أن يكون الخبر قوله: إنه لمن الصادقين على حكاية اللفظ مثل قولهم: «هجيرا أبي بكر لا إله إلا الله» . وقرأه حمزة والكسائي وحفص وخلف برفع أربع على أنه خبر المبتدإ وجملة إنه لمن الصادقين إلى آخرها بدل من فشهادة أحدهم. ولا خلاف بين القراء

في نصب أربع شهادات الثاني.

وفي قوله: إنه لمن الصادقين حكاية للفظ اليمين مع كون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة،

---

(١) التحرير والتنوير ١١٩/١٨

أي يقول: إني لمن الصادقين فيما ادعيت عليها.

وأما قوله: والخامسة أي فالشهادة الخامسة، أي المكملة عدد خمس للأربع التي قبلها. وأنث اسم العدد لأنه صفة لمحذوف دل عليه قوله فشهادة أحدهم والتقدير: والشهادة الخامسة. وليس لها مقابل في عدد شهود الزنى. فلعل حكمة زيادة هذه اليمين مع الأيمان الأربع القائمة مقام الشهود الأربعة أنها لتقوية الأيمان الأربع باستذكار ما يترتب على أيمانه إن كانت غموسا من الحرمان من رحمة الله تعالى. وهذا هو وجه كونها مخالفة في صيغتها لصيغ الشهادات الأربع التي تقدمتها. وفي ذلك **إيماء** إلى أن الأربع هي المجعولة بدلا عن الشهود وأن هذه الخامسة تذييل للشهادة وتغليظ لها.

وقرأ الجمهور: والخامسة أن غضب الله عليها بالرفع كقوله: والخامسة أن لعنت الله عليه وهو من عطف الجمل. وقرأه حفص عن". (١)

٢٤٩. ٢٤٩-"والإثم: الذنب وتقدم عند قوله تعالى: قل فيهما إثم كبير في سورة البقرة [٢١٩]

وعند قوله: وذروا ظاهر الإثم وباطنه في سورة الأنعام [١٢٠] .

وتولي الأمر: مباشرة عمله والتهمم به.

والكبر بكسر الكاف في قراءة الجمهور، ويجوز ضم الكاف. وقرأ به يعقوب وحده، ومعناه: أشد الشيء ومعظمه، فهما لغتان عند جمهور أيمة اللغة. وقال ابن جني والزجاج: المكسور بمعنى الإثم، والمضموم: معظم الشيء. والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو منافق وليس من المسلمين.

وضمير منهم عائد إلى الذين جاؤ بالإفك. وقيل: الذي تولى كبره حسان ابن ثابت لما وقع في «صحيح البخاري» : «عن مسروق قال: دخل حسان على عائشة فأنشد عندها أبياتا منها:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكن أنت لست كذلك. قال مسروق فقلت: تدعين مثل هذا يدخل

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٥/١٨

عليك وقد أنزل الله تعالى: والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم فقالت: أي عذاب أشد من العمى» .

والوعيد بأن له عذابا عظيما يقتضي أنه عبد الله بن أبي بن سلول. وفيه إنباء بأنه يموت على الكفر فيعذب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار، وأما بقية العصبة فلهم من الإثم بمقدار ذنبهم. وفيه **إيماء** بأن الله يتوب عليهم إن تابوا كما هو الشأن في هذا الدين.

[١٢]

[سورة النور (٢٤) : آية ١٢]

لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين (١٢)

استئناف لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين وتعنيفهم بعد أن سماه إفكا.". (١)

٢٥٠. ٢٥٠-"بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يحب أن يستره ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب.

ومعنى تستأنسوا تطلبوا الأنس بكم، أي تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت، وأنسه به بانتفاء الوحشة والكراهية. وهذا كناية لطيفة عن الاستئذان، أي أن يستأذن الداخل، أي يطلب إذنا من شأنه أن لا يكون معه استيحاش رب المنزل بالداخل. قال ابن وهب قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان. يريد أنه المراد كناية أو مرادفة فهو من الأنس، وهذا الذي قاله مالك هو القول الفصل. ووقع لابن القاسم في «جامع العتيبة» أن الاستئناس التسليم. قال ابن العربي: وهو بعيد. وقلت: أراد ابن القاسم السلام بقصد الاستئذان فيكون عطف وتسلموا عطف تفسير. وليس المراد بالاستئناس أنه مشتق من آنس بمعنى علم لأن ذلك إطلاق آخر لا يستقيم هنا فلا فائدة في ذكره وذلك بحسب الظاهر فإنه إذا أذن له دل إذنه على أنه لا يكره دخوله وإذا كره دخوله لا يأذن له والله متولي علم ما في قلبه فلذلك عبر عن الاستئذان بالاستئناس مع ما في ذلك من **الإيماء** إلى علة مشروعية

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٣/١٨

الاستئذان.

وفي ذلك من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على توفر الأخوة الإسلامية.

وعطف الأمر بالسلام على الاستئناس وجعل كلاهما غاية للنهي عن دخول البيوت تنبيها على وجوب الإتيان بهما لأن النهي لا يرتفع إلا عند حصولهما.

وعن ابن سيرين: «أن رجلا استأذن على النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: أأدخل؟ فأمر النبيء رجلا عنده أو أمة اسمها روضة فقال: إنه لا يحسن أن يستأذن فليقل: السلام عليكم أأدخل. فسمعه الرجل فقال:

السلام عليكم أأدخل. فقال: ادخل»

، وروى مطرف عن مالك عن زيد بن أسلم: «أنه استأذن على عبد الله بن عمر فقال: أألج. فأذن له ابن عمر، فلما دخل قال له ابن عمر:

ما لك واستئذان العرب؟ (يريد أهل الجاهلية) إذا استأذنت". (١)

٢٥١. ٢٥١-"لوضع متاعه بدلالة لحن الخطاب.

وكذلك يشمل دخول المسافر وإن كان لا متاع له لقصد التظلل أو المبيت بدلالة لحن الخطاب أو القياس.

وقد فسر المتاع بالمصدر، أي التمتع والانتفاع. قال جابر بن زيد: كل منافع الدنيا متاع. وقال أبو جعفر النحاس: هذا شرح حسن من قول إمام من أيمة المسلمين وهو موافق للغة، وتبعه على ذلك في «الكشاف» . ونوه بهذا التفسير أبو بكر ابن العربي فيكون إيماء إلى أن من لا منفعة له في دخولها لا يؤذن له في دخولها لأنه يضيق على أصحاب الاحتياج إلى بقاعها.

وجملة: والله يعلم ما تبدون وما تكتمون مستعملة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود وهي كون البيوت غير مسكونة وكون الداخل محتاجا إلى دخولها بله أن يدخلها

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٧/١٨

بقصد التجسس على قطانها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم.

[٣٠]

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٠]

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠)

أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه.

ولما كان الغض التام لا يمكن جيء في الآية بحرف من الذي هو للتبعيض إيماء إلى ذلك إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه وذلك يتذكره المسلم من استحضاره أحكام الحلال والحرام في هذا الشأن فيعلم أن غض البصر مراتب: منه واجب ومنه دون ذلك، فيشمل غض البصر عما اعتاد الناس كراهية التحقق فيه كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك فقد

جاء في حديث عمر بن الخطاب حين". (١)

٢٥٢. ٢٥٢-"وكلم الغزل. ومن ذلك رقص النساء في مجالس الرجال ومن ذلك التلطخ بالطيب الذي يغلب عبيقه. وقد أومأ إلى علة ذلك قوله تعالى: ليعلم ما يخفين من زينتهن ولعن النبيء صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلجات للحسن.

قال مكي بن أبي طالب ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع وسماها أبو بكر ابن العربي: آية الضمائر.

وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

أعقبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين والمؤمنات بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماء إلى أن فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلة البشرية من الاستحسان والشهوة

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٨

فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثم يتغلغل هو فيه فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم.

والجملة معطوفة على جملة: قل للمؤمنين [النور: ٣٠] . ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس استئناف تشريع.

ونبه بقوله: جميعا على أن المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات وإن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب، وأن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابوا.

وتقدم الكلام على التوبة في سورة النساء [١٧] عند قوله تعالى: إنما التوبة على الله.

وكتب في المصحف أيه بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة المؤمنون.

فقرأها الجمهور بفتح الهاء بدون ألف في الوصل. وقرأها أبو عامر بضم الهاء إتباعا لحركة (أي) . ووقف عليها". (١)

٢٥٣. ٢٥٣-"بيده عقدة النكاح [البقرة: ٢٣٧] في قول جماعة في محمل الذي بيده عقدة النكاح منهم الشافعي.

وقال بعض المفسرين: الخطاب في قوله: وآتوهم للمسلمين. أمرهم الله بإعانة المكاتبين.

والأمر محمول على الندب عند أكثر العلماء وحمله الشافعي على الوجوب. وقال إسماعيل بن حماد القاضي: وجعل الشافعي الكتابة غير واجبة وجعل الأمر بالإعطاء للوجوب فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا وهذا لا نظير له اهـ. وفيه نظر.

وإضافة المال إلى الله لأنه ميسر أسباب تحصيله. وفيه **إيماء** إلى أن الإعطاء من ذلك المال شكر والإمساك جحد للنعمة قد يتعرض به الممسك لتسلب النعمة عنه.

والموصول في قوله الذي آتاكم يجوز أن يكون وصفا ل مال الله ويكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه. ويجوز أن يكون وصفا لاسم الجلالة فيكون امتنانا وحثا على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة ويكون مفعول آتاكم محذوفا للعموم، أي ءاتاكم على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة. ويكون مفعول آتاكم محذوفا للعموم، أي ءاتاكم نعما كثيرة كقوله: وآتاكم من كل

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢١٤

ما سألتموه [إبراهيم: ٣٤] .
وأحكام الكتابة وعجز المكاتب عن أداء نجومه ورجوعه مملوكا وموت المكاتب وميراث الكتابة وأداء أبناء المكاتب نجوم كتابته مبسوطة في كتب الفروع.
ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم.". (١)

٢٥٤. ٢٥٤-"ولا يعقل أن يكون البغاء محرما قبل نزول هذه الآية إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدل على تحريم البغاء، ولأنه لو كان كذلك لم يتصور حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم.
ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى [النساء: ٤٣] توطئة لتحريم الخمر ألبتة. وهو الذي جرى عليه المفسرون مثل الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة بل بما تأولوا به معاني الآية إذ تأولوا قوله: إن أردن تحصنا بأن الشرط لا يراد به عدم النهي عن الإكراه على البغاء إذا انتفت إرادتهن التحصن بل كان الشرط خرج مخرج الغالب لأن إرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات إذ كن يحببن التعفف، أو لأن القصة التي كانت سبب نزول الآية كانت معها إرادة التحصن.
والداعي إلى ذكر القيد تشنيع حالة البغاء في الإسلام بأنه عن إكراه وعن منع من التحصن.
ففي ذكر القيدين إيماء إلى حكمة تحريمه وفساده وخباثة الاكتساب به.
وذكر إن أردن تحصنا لحالة الإكراه إذ إكراههم إياهن لا يتصور إلا وهن يأبين وغالب الإباء أن يكون عن إرادة التحصن. هذا تأويل الجمهور ورجعوا في الحامل على التأويل إلى حصول إجماع الأمة على حرمة البغاء سواء كان الإجماع لهذه الآية أو بدليل آخر انعقد الإجماع على مقتضاه فلا نزاع في أن الإجماع على تحريم البغاء ولكن النظر في أن تحريمه هل كان بهذه الآية.
وأنا أقول: إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢١/١٨

والذي يظهر من كلام ابن العربي أنه قد نحا بعض العلماء إلى اعتبار الشرط في الآية دليلا على تحريم الإكراه على البغاء بقيد إرادة الإماء التحصن.". (١)

٢٥٥. ٢٥٥-"يقولون: ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين ونسقي الحاج ونقري الضيف. كما أشار إليه قوله تعالى: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر [التوبة: ١٩] يعدون أعمالا من أفعال الخير فكانت هذه الآيات إبطالا لحسبانهم، قال تعالى: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا [الفرقان: ٢٣] وقد أعلمناك أن هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة وذلك حين كان المشركون يتعقبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسسون ما نزل من القرآن.

والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. والذين كفروا مبتدأ وخبره جملة: أعمالهم كسراب إلخ.

وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بني عليه مسند إليه آخر وهو أعمالهم.

ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرر في النفس كمال التقرر وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة.

وفي الإتيان بالموصول وصلته **إيماء** إلى وجه بناء الخبر. وهو أنه من جزاء كفرهم بالله. على أنه قد يكون عنوان الذين كفروا قد غلب على المشركين من أهل مكة فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف إشارة إلى أنه إبطال لشيء اعتقده الذين كفروا. فتشبيه الكافرين وأعمالهم تشبيه تمثيلي: شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضى الله ثم تبين أنها لا تجديهم بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز: شبه ذلك بحالة ظمئان يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء لم يجد ماء ووجد هنالك غريما يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة.

واعلم أن الحالة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول والحالة المشبه بها حالة محسوسة. أي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/١٨

داخلة تحت إدراك الحواس.". (١)

٢٥٦. ٢٥٦-"(٥٠)

عطف جملة: ويقولون على جملة: والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [النور: ٤٦] لما تتضمنه جملة: يهدي من يشاء من هداية بعض الناس وحرمان بعضهم من الهداية كما هو مقتضى: من يشاء. وهذا تخلص إلى ذكر بعض ممن لم يشأ الله هدايتهم وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام وهم أهل النفاق. فبعد أن ذكرت دلائل انفراد الله تعالى بالإلهية وذكر الكفار الصرحاء الذين لم يهتدوا بها في قوله: والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة [النور: ٣٩] الآيات تهيأ المقام لذكر صنف آخر من الكافرين الذين لم يهتدوا بآيات الله وأظهروا أنهم اهتدوا بها.

وضمير الجمع عائد إلى معروفين عند السامعين وهم المنافقون لأن ما ذكر بعده هو من أحوالهم، وعود الضمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن، على أنهم قد تقدم ما يشير إليهم بطريق التعريض في قوله: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة [النور: ٣٧] .

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثم إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضى بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة وفريقا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنا.

ففي قوله: يقولون إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى: قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] .

وعبر بالمضارع لإفادة تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق التي بينتها في سورة البقرة. ومفعول أطعنا محذوف دل عليه ما قبله، أي أطعنا الله والرسول.

والإشارة في قوله: وما أولئك إلى ضمير يقولون، أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم. وإنما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥١/١٨

يظهر كفرهم عند ما تحل بهم النوازل". (١)

٢٥٧. ٢٥٧-"يخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك كما حكى الله تعالى من قول عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [المنافقون: ٨] ، فكانوا يظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالاة لأهل الشرك حتى إذا ظهروا على المسلمين لم يلمزوا المنافقين بأنهم قد بدلوا دينهم، مع ما لهذا الكلام من المناسبة مع قوله: وإن تطيعوه تهتدوا [النور: ٥٤] ، فيكون المعنى: وإن تطيعوه تهتدوا وتنصروا وتأمنوا. ومع ما روي من حوادث تخوف المسلمين ضعفهم أمام أعدائهم فكانوا مشفقين عن غزو أهل الشرك ومن كيد المنافقين ودلالتهم المشركين على عورات المسلمين فقيل كانت تلك الحوادث سببا لنزول هذه الآية.

قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح.

فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: لا تغبرون (أي لا تمكثون) إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة» . ونزلت هذه الآية

. فكان اجتماع هذه المناسبات سببا لنزول هذه الآية في موقعها هذا بما اشتملت عليه من الموعود به الذي لم يكن مقتصرا على إبدال خوفهم أمنا كما اقتضاه أثر أبي العالية، ولكنه كان من جملة الموعود كما كان سببه من عداد الأسباب.

وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قدم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيها لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا **إيماء** إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم: وإن تطيعوه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٨/١٨

تهتدوا [النور: ٥٤] ، وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات". (١)

٢٥٨. ٢٥٨-"وإنما صيغ الكلام في هذا النظم ولم يقتصر على قوله: ليستخلفنهم دون تقييد بقوله: في الأرض ل ليستخلفنهم **للإيماء** إلى أن الاستخلاف يحصل في معظم الأرض. وذلك يقبل الامتداد والانقباض كما كان الحال يوم خروج بلاد الأندلس من حكم الإسلام. ولكن حرمة الأمة واتقاء بأسها ينتشر في المعمورة كلها بحيث يخافهم من عداهم من الأمم في الأرض التي لم تدخل تحت حكمهم ويسعون الجهد في مرضاتهم ومسالمتهم. وهذا اسخلاف كامل ولذلك نظر بتشبيه باستخلاف الذين من قبلهم يعني الأمم التي حكمت معظم العالم وأخافت جميعه مثل الأشوريين والمصريين والفنيقيين واليهود زمن سليمان، والفرس، واليونان، والرومان.

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر فيكون موصول الجمع مستعملا في معنى المثنى. وعن الضحاك: هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ولعل هذا مراد مالك. وعلى هذا فالمراد بالذين من قبلهم صلحاء الملوك مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأنوشروان، وأصحمة النجاشي، وملكي صادق الذي كان في زمن إبراهيم ويدعى حمورابي، وذي القرنين، وإسكندر المقدوني، وبعض من ولي جمهورية اليونان.

وفي الآية دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية كانوا بمحل الرضى من الله تعالى لأنه استخلفهم استخلافا كاملا كما استخلف الذين من قبلهم وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة.

وجملة: ليستخلفنهم بيان لجملة: وعد لأنها عين الموعود به. ولما كانت جملة قسم وهو من قبيل القول كانت إحداهما بيانا للأخرى.

وقرأ الجمهور: كما استخلف بالبناء للفاعل، أي كما استخلف الله الذين من قبلهم. وقرأه أبو بكر عن عاصم بالبناء للنائب فيكون الذين نائب فاعل.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/١٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٦/١٨

٢٥٩. ٢٥٩-"وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل. وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبيء صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه قوله: «وإن هم أبوا (أي إلا القتال) فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (أي ينفصل مقدم العنق عن الجسد) ولينفذن الله أمره» .

وقوله: لهم مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله: دينهم لأن المجرور بالحرف أضعف تعلقا من مفعول الفعل، فقدم لهم عليه للإيماء إلى العناية بهم، أي يكون التمكين لأجلهم، كتقديم المجرور على المفعولين في قوله: ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك [الشرح: ١، ٢] .

وإضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به لأنه دين الله كما دل عليه قوله عقبه: الذي ارتضى لهم، أي الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضا ليكونوا أتباع هذا الدين. وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم.

وإنما قال: وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ولم يقل: وليؤمننهم، كما قال في سابقيه لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذ إلا إلى الأمن، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدم آنفا، فكانوا في حالة هي ضد الأمن ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منة واحدة. وإضافة الخوف إلى ضميرهم للإشارة إلى أنه خوف معروف مقرر.

وتنكير أمنا للتعظيم بقرينة كونه مبدلا من بعد خوفهم المعروف بالشدة.

والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين. وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة. وليس هذا الوعد بمقتض أن لا تحدث حوادث". (١)

٢٦٠. ٢٦٠-"والعورة في الأصل: الخلل والنقص. وفيه قيل لمن فقدت عينه أعور وعورت عينه، ومنه عورة الحي وهي الجهة غير الحصينة منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر، قال لبيد:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٧/١٨

وأجن عورات الثغور ظلامها وقال تعالى: يقولون إن بيوتنا عورة [الأحزاب: ١٣] ثم أطلقت على ما يكره انكشافه كما هنا وكما سمي ما لا يحب الإنسان كشفه من جسده عورة. وفي قوله: ثلاث عورات لكم نص على علة إيجاب الاستئذان فيها.

وقوله: ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن تصريح بمفهوم الظروف في قوله:

من قبل صلاة الفجر وما عطف عليه، أي بعد تلك الأوقات المحددة. فصلاة الفجر حد معلوم، وحالة وضع الثياب من الظهيرة تحديد بالعرف، وما بعد صلاة العشاء من الحصة التي تسع في العرف تصرف الناس في التهيؤ إلى النوم.

ولك أن تجعل (بعد) بمعنى (دون) ، أي في غير تلك الأوقات الثلاثة كقوله تعالى:

فمن يهديه من بعد الله [الجاثية: ٢٣] ، وضمير بعدهن عائد إلى ثلاث عورات، أي بعد تلك الأوقات.

ونفي الجناح عن المخاطبين في قوله: ليس عليكم بعد أن كان الكلام على استئذان المماليك والذين لم يبلغوا الحلم إيماء إلى لحن خطاب حاصل من قوله:

ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم فإن الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات كما يرشد السامع إليه قوله: ثلاث عورات لكم.

وإنما لم يصرح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم إذ الشأن أنهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم فأما إذا دعت الحاجة إلى الدخول عليهم فالحكم فيهم سواء. وقد أشار إلى العلة قوله تعالى:

طوافون عليكم بعضكم على بعض.". (١)

٢٦١. ٢٦١-"والفرقان: القرآن وهو في الأصل مصدر فرق، كما في قوله: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان [الأنفال: ٤١] وقوله: يجعل لكم فرقانا [الأنفال: ٢٩] . وجعل علما بالغلبة على القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل لما بين من دلائل الحق ودحض الباطل. وقد تقدم في قوله تعالى: وأنزل الفرقان في سورة آل عمران [٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٩٤

وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا للإيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرق بين الحق والباطل.

ووصف النبيء ب عبده تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله: وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام [الفرقان: ٧] الآية.

والمراد ب للعالمين جميع الأمم من البشر لأن العالم يطلق على الجنس وعلى النوع وعلى الصنف بحسب ما يسمح به المقام، والنذارة لا تكون إلا للعقلاء ممن قصدوا بالتكليف.

وقد مضى الكلام على لفظ العالمين في سورة الفاتحة [٢] .

والنذير: المخبر بسوء يقع، وهو فعيل بمعنى مفعل بصيغة اسم الفاعل مثل الحكيم.

والاقتصار في وصف الرسول هنا على النذير دون البشير كما في قوله: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا

[سبأ: ٢٨] لأن المقام هنا لتهديد المشركين إذ كذبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام.

فكان مقتضيا لذكر النذارة دون البشارة، وفي ذلك اكتفاء لأن البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة. وسيجيء: وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا في هذه السورة [٥٦] .

وفي هذه الآية جمع بين التنويه بشأن القرآن وأنه منزل من الله وتنويه بشأن النبيء عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته.

[٢]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢]

الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا". (١)

٢٦٢. ٢٦٢-"(٢)

أجريت على اسم الله تعالى هذه الصفات الأربع بطريق تعريف الموصولية لأن بعض الصلات معروف عند المخاطبين اتصاف الله به وهما الصفتان الأولى والرابعة وإذ قد كانتا معلومتين

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٨

كانت الصلتان الأخريان المذكورتان معهما في حكم المعروف لأنهما أجريتا على من عرف بالصلتين الأولى والرابعة فإن المشركين ما كانوا يمترون في أن الله هو مالك السماوات والأرض ولا في أن الله هو خالق كل شيء كما في قوله: قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله الآيات من سورة المؤمنين [٨٦، ٨٧] ، ولكنهم يثبتون لله ولدا وشريكا في الملك.

ومن بديع النظم أن جعل الوصفان المختلف فيهما معهم متوسطين بين الوصفين اللذين لا مرية فيهما حتى يكون الوصفان المسلمين كالدليل أولا والنتيجة آخرا، فإن الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولدا ولا أن يتخذ شريكا لأن ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق فيقتضي أن يكون اتخاذه ولدا وشريكا عبثا إذ لا غاية له، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدس.

فقوله: الذي له ملك السماوات والأرض بدل من الذي نزل الفرقان [الفرقان: ١] .

وإعادة اسم الموصول لاختلاف الغرض من الصلتين لأن الصلة الأولى في غرض الامتنان بتنزيل القرآن للهدى، والصلة الثانية في غرض اتصاف الله تعالى بالوحدانية.

وفي الملك **إيماء** إلى أن الاشتراك في الملك ينافي حقيقة الملك التامة التي لا يليق به غيرها.

والخلق: الإيجاد، أي أوجد كل موجود من عظيم الأشياء وحقيرها. وفرع على خلق كل شيء فقدره تقديرا لأنه دليل على إتقان الخلق إتقانا يدل على أن الخالق متصف بصفات الكمال.". (١)

٢٦٣. ٢٦٣-"وتقدم في قوله: ومن أظلم ممن منع مساجد الله في سورة البقرة [١١٤] .

والظلم الذي أتوه هو نسبتهم الرسول إلى الاختلاق فإنه اعتداء على حقه الذي هو الصدق.

والزور: الكذب، وأحسن ما قيل في الزور: إنه الكذب المحسن المموه بحيث يشتبه بالصدق.

وكون قولهم ذلك كذبا ظاهر لمخالفته الواقع فالقرآن ليس فيه شيء من الإفك، والذين زعموهم معينين عليه لا يستطيع واحد منهم أن يأتي بكلام عربي بالغ غاية البلاغة ومرتق إلى حد الإعجاز، وإذا كان لبعضهم معرفة ببعض أخبار الرسل فما هي إلا معرفة ضئيلة

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٨/١٨

غير محققة كشأن معرفة العامة والدهماء.

[٥]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥]

وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٥)

الضمير عائد إلى الذين كفروا، فمدلول الصلة مراعى في هذا الضمير إيماء إلى أن هذا القول من آثار كفرهم.

الأساطير: جمع أسطورة بضم الهمزة كالأحدوثة والأحاديث، والأغلوطة والأغاليط، وهي القصة المسطورة. وقد تقدم معناها مفصلا عند قوله: حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين في سورة الأنعام [٢٥] . وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث العبدري قال: إن القرآن قصص من قصص الماضين.

وكان النضر هذا قد تعلم بالحيرة قصص ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار فكان يقول لقريش: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم وكان يقول في القرآن: هو أساطير الأولين. قال ابن عباس: كل ما ذكر فيه أساطير الأولين في القرآن فالمقصود منه قول النضر بن الحارث. وقد تقدم هذا في سورة الأنعام وفي أول سورة يوسف.". (١)

٢٦٤. ٢٦٤-"(١٦)

الأمر بالقول يقتضي مخاطبا مقولا له ذلك: فيجوز أن يقصد: قل لهم، أي للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق: «أذلك خير أم الجنة» ؟ فالجمل متصلة السياق، والاستفهام حينئذ للتهكم إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيرا. ويجوز أن يقصد: قل للمؤمنين، فالجملة معترضة بين آيات الوعيد لمناسبة إبداء البون بين حال المشركين وحال المؤمنين، والاستفهام حينئذ مستعمل في التلميح والتلطف. وهذا كقوله:

أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم في سورة الصافات [٦٢] .

والإشارة إلى المكان الضيق في جهنم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٤/١٨

وخير اسم تفضيل، وأصله (أخير) بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال.
والتفضيل على المحمل الأول في موقع الآية مستعمل للتهكم بالمشركين.
وعلى المحمل الثاني مستعمل للتمليح في خطاب المؤمنين وإظهار المنة عليهم.
ووصف الموعودين بأنهم متقون على المحمل الأول جار على مقتضى الظاهر، وعلى المحمل الثاني جار على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير الخطاب، فوجه العدول إلى الإظهار ما يفيده المتقون من العموم للمخاطبين ومن
يجيء بعدهم.
وجملة: كانت لهم جزاء ومصيرا تذييل لجملة: جنة الخلد التي وعد المتقون لما فيها من التنويه بشأن الجنة بتنكير جزاء ومصيرا مع **الإيماء** إلى أنهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى: نعم الثواب وحسنت مرتفقا [الكهف: ٣١] وقوله:
بئس الشراب وساءت مرتفقا في سورة الكهف [٣١- ٢٩] .
وجملة: لهم فيها ما يشاؤن، حال من جنة الخلد أو صفة ثانية. وجملة:
كان على ربك وعدا مسؤلا حال ثانية والرابط محذوف إذ التقدير: وعدا لهم.
والضمير المستتر في: كان على ربك وعدا عائد إما إلى الوعد المفهوم". (١)

٢٦٥. ٢٦٥-"ونسبوا إليهم موالاتهم. والمعنى لا نتخذ من يوالينا دونك، أي من يعبدنا دونك.
والاستدراك الذي أفاده (لكن) ناشيء عن التبري من أن يكونوا هم المضلين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلا يتوهم أن تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين.
والمقصود بالاستدراك ما بعد (حتى) وهو نسوا الذكر. وأما ما قبلها فقد أدمج بين حرف الاستدراك ومدخوله ما يسجل عليهم فظاعة ضلالهم بأنهم قابلوا رحمة الله ونعمته عليهم وعلى آبائهم بالكفران، فالخبر عن الله بأنه متع الضالين وآباءهم مستعمل في الثناء على الله بسعة الرحمة، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران غضبا عليهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣٣٥

وجعل نسيانهم الذكر غاية للتمتيع **للإيماء** إلى أن ذلك التمتيع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم فهو كجود في أرض سبخة قال تعالى: وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون [الواقعة: ٨٢] .

والتعرض إلى تمتيع آبائهم هنا مع أن نسيان الذكر إنما حصل من المشركين الذين بلغتهم الدعوة المحمدية ونسوا الذكر، أي القرآن، هو زيادة تعظيم نعمة التمتيع عليهم بأنها نعمة متأثلة تليدة، مع الإشارة إلى أن كفران النعمة قد انجر لهم من آبائهم الذين سنوا لهم عبادة الأصنام. ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يظهر أن ضمير نسوا وضمير كانوا عائدان إلى الظالمين المكذبين بالإسلام دون آبائهم لأن الآباء لم يسمعوا الذكر.

والنسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة لأنه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمل ولا بصيرة. وتقدم في قوله تعالى: وتنسون ما تشركون في سورة الأنعام [٤١] .

والذكر: القرآن لأنه يتذكر به الحق، وقد تقدم في قوله تعالى:". (١)

٢٦٦. ٢٦٦-"والجملة استئناف يتنزل منزلة جواب عن قولهم. والتأكيد بلام القسم لإفادة معنى التعجيب لأن القسم يستعمل في التعجب كقول أحد بني كلاب أو بني نمير أنشده ثعلب في «مجالسه» والقالي في «أماليه» :

ألا يا سنا برق على قلل الحمى ... لهنك من برق علي كريم

فإن قوله: من برق، في قوة التمييز وإنما يكون التمييز فيه لما فيه من معنى التعجب.

والاستكبار: مبالغة في التكبر، فالسين والتاء للمبالغة مثل استجاب.

وفي للظرفية المجازية شبهت أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها، أي هو استكبار متمكن منهم كقوله تعالى: وفي أنفسكم أفلا تبصرون [الذاريات: ٢١] .

ويجوز أن تكون في للتعليل كما

في الحديث «دخلت امرأة النار في هرة حبستها»

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٠/١٨

الحديث، أي استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم. وليست الظرفية حقيقية لقلة جدوى ذلك إذ من المعلوم أن الاستكبار لا يكون إلا في النفس لأنه من الأفعال النفسية.

والعتو: تجاوز الحد في الظلم، وتقدم في قوله تعالى: وعتوا عن أمر ربهم في الأعراف [٧٧] .

وإنما كان هذا ظلما لأنهم تجاوزوا مقدار ما خولهم الله من القابلية.

وفي هذا **إيماء** إلى أن النبوءة لا تكون بالاكتساب وإنما هي إعداد من الله تعالى قال: الله أعلم حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] .

[٢٢]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٢]

يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا (٢٢)

استئناف ثان جواب عن مقالتهم، فبعد إبداء التعجيب منها عقب بوعيد لهم، فيه حصول بعض ما طلبوا حصوله الآن، أي هم سيرون الملائكة ولكنها رؤية تسوءهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ففي هذا الاستئناف تلميح وتهكم بهم لأن ابتداءه مطمع بالاستجابة وآخره مؤيس بالوعيد، فالكلام جرى". (١)

٢٦٧. ٢٦٧-"وجملة (يا ويلتا) معترضة بين جملة يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا وجملة ليتني لم أتخذ فلانا خليلا.

و (فلان) : اسم يكني عمن لا يذكر اسمه العلم، كما يكنى ب (فلانة) عمن لا يراد ذكر اسمها العلم، سواء كان ذلك في الحكاية أم في غيرها. قاله ابن السكيت وابن مالك خلافا لابن السراج وابن الحاجب في اشتراط وقوعه في حكاية بالقول، فيعامل (فلان) معاملة العلم المقرون بالنون الزائدة و (فلانة) معاملة العلم المقترن بهاء التأنيث، وقد جمعهما قول الشاعر:

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم ... فلانة أضحت خلة لفلان

أراد نفسه وحبيبته.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٦

وقال المرار العبسي:

وإذا فلان مات عن أكرومة ... دفعوا معاوز فقده بفلان

أراد: إذا مات من له اسم منهم أخلفوه بغيره في السؤدد، وكذلك قول معن بن أوس:

وحتى سألت القرض من كل ذي ... الغنى ورد فلان حاجتي وفلان

وقال أبو زيد في «نوادره» : أنشدني المفضل لرجل من ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة، أي في أواسط القرن الأول للهجرة:

إن لسعد عندنا ديوانا ... يخزي فلانا وابنه فلانا

والداعي إلى الكناية بفلان إما قصد إخفاء اسمه خيفة عليه أو خيفة من أهلهم أو للجهل به، أو لعدم الفائدة لذكره، أو لقصد نوع من له اسم علم. وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي أو حملت على إرادة كل مشرك له خليل صده عن اتباع الإسلام.

وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليلا دون تمني أن يكون عصاه فيما سول له قصدا للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها.

وفيه إيماء إلى أن شأن الخلة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي". (١)

٢٦٨. ٢٦٨-"والموصول في قوله: الذين كذبوا بآياتنا للإيماء إلى علة الخبر عنهم بالتدمير.

وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختصرت به القصة فذكر منها حاشيتاها: أولها وآخرها لأنهما المقصود بالقصة وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم.

والتدمير: الإهلاك، والهلاك: دمور.

وإتباع الفعل بالمفعول المطلق لما في تنكير المصدر من تعظيم التدمير وهو الإغراق في اليم.

[٣٧]

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٤

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٣٧]
وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما (٣٧)
عطف على جملة ولقد آتينا موسى الكتاب [الفرقان: ٣٥] باعتبار أن المقصود وصف قومه بالتكذيب والإخبار عنهم بالتدمير.
وانتصب قوم نوح بفعل محذوف يفسره أغرقناهم على طريقة الاشتغال، ولا يضر الفصل بكلمة لما لأنها كالظرف، وجوابها محذوف دل عليه مفسر الفعل المحذوف، وفي هذا النظم اهتمام بقوم نوح لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكد بضميرهم.
ويجوز أن يكون وقوم نوح عطفا على ضمير النصب في قوله فدمرناهم [الفرقان: ٣٦] أي ودمرنا قوم نوح، وتكون جملة لما كذبوا الرسل أغرقناهم مبينة لجملة فدمرناهم.
والآية: الدليل، أي جعلناهم دليلا على مصير الذين يكذبون رسلهم. وجعلهم آية: هو تواتر خبرهم بالغرق آية.
وجعل قوم نوح مكذبين الرسل مع أنهم كذبوا رسولا واحدا لأنهم استندوا في تكذيبهم رسولهم إلى إحالة أن يرسل الله بشرا لأنهم قالوا:". (١)

٢٦٩. ٢٦٩-"وانتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشد من حال الأنعام بأنهم أضل سبيلا من الأنعام. وضلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها وهؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا كقوله تعالى فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار [البقرة: ٧٤] الآية.
[٤٥، ٤٦]

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ إلى ٤٦]
ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٩

استئناف ابتدائي فيه انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وإثبات أن القرآن من عند الله أنزله على رسوله، وصفات الرسل وما تخلل ذلك من الوعيد وهو من هذا الاعتبار

متصل بقوله: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] الآية.

وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله وهو من هذه الجهة متصل بقوله في أول السورة واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا [الفرقان: ٣] الآية.

وتوجيه الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وسلم يقتضي أن الكلام متصل بنظيره من قوله تعالى: قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض [الفرقان: ٦] . وما عطف عليه قل أذلك خير [الفرقان: ١٥] وما أرسلنا قبلك من المرسلين [الفرقان: ٢٠] وكفى بربك هاديا [الفرقان: ٣١] فكلها مخاطبات للنبيء صلى الله عليه وسلم. وقد جعل مد الظل وقبضه تمثيلا لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجما جار على حكمة التدرج لأنه أمكن في حصول المقصود، وذلك ما دل عليه قوله سابقا كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] . فكان في قوله: ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ... الآية زيادة في التعليل على ما في قوله كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] .

ويستتبع هذا **إيماء** إلى تمثيل نزول القرآن بظهور شمس في المواضع التي كانت". (١)

٢٧٠. ٢٧٠-"ليكون مستكملا وصف الطهارة القاصرة والمتعدية، فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنة في أثناء المنن المقصودة، ويكون كقوله تعالى: وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به [الأنفال: ١١] وصف الطهارة الذاتية وتطهيره، فيكون هذا الوصف إدماجا ولولا ذلك لكان الأحق بمقام الامتنان وصف الماء بالصفاء أو نحو ذلك.

والبلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للري والجفاف لأن ري الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي، وجفاف الأرض يجف به النبات فيشبه الميت.

ولماء المطر خاصية الإحياء لكل أرض لأنه لخلوه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٣٨

والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحا بكل أرض وبكل نبات على اختلاف طباع الأرضين والمنابت.

والبلدة: البلد. والبلد يذكر ويؤنث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا: دار ودارة. ووصفت البلدة بميت، وهو وصف مذكر لتأويل بلدة بمعنى مكان لقصد التخفيف. وقال في «الكشاف» ما معناه: إنه لما دل على المبالغة في الاتصاف بالموت ولم يكن جاريا على أمثلة المبالغة نزل منزلة الاسم الجامد (أي فلم يغير) . وأحسن من هذا أنه أريد به اسم الميت، ووصف البلدة به وصف على معنى التشبيه البليغ.

وفي قوله لنحيي به بلدة ميتا **إيماء** إلى تقريب إمكان البعث.

ونسقيه بضم النون مضارع أسقى مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال: أسقى وسقى. قال تعالى: قالتا لا نسقي [القصص: ٢٣] بفتح النون. وقيل: سقى: أعطى الشراب، وأسقى: هيأ الماء للشرب. وهذا القول أسد لأن الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى هيأناه لشرب الأنعام والأناسي فكل من احتاج للشرب شرب منه سواء من شرب ومن لم يشرب.

وأنعاما مفعول ثان ل نسقيه. وقوله: مما خلقنا حال من أنعاما وأناسي. و (من) تبعيضية. و (ما) موصولة، أي بعض ما خلقناه، والموصول **للإيماء** إلى علة الخبر، أي نسقيهم لأنهم مخلوقات. ففائدة هذا الحال الإشارة إلى رحمة الله بها لأنها خلقه. وفيه إشارة إلى أن أنواعا أخرى من". (١)

٢٧١. ٢٧١-"يعذب عذابا غير مضاعف وغير مخلد فيه، لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده، إلا بقرينة.

والتوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب، وإذ كان فيما سبق ذكر الشرك فالتوبة هنا التلبس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/١٩

المؤاخذة كما اقترفه المشرك في مدة شركه كما

في الحديث «الإسلام يجب ما قبله»

، ولذلك فعطف وآمن على من تاب للتنويه بالإيمان، وليبنى عليه قوله:

وعمل عملا صالحا وهو شرائع الإسلام تحريضا على الصالحات **وإيماء** إلى أنها لا يعتد بها إلا مع الإيمان كما قال تعالى في سورة البلد [١٧] ثم كان من الذين آمنوا، وقال في عكسه والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا [النور: ٣٩] .

وقتل النفس الواقع في مدة الشرك يجبه إيمان القاتل لأجل مزية الإيمان، والإسلام يجب ما قبله بلا خلاف، وإنما الخلاف الواقع بين السلف في صحة توبة القاتل إنما هو في المؤمن القاتل مؤمنا متعمدا. ولما كان مما تشمله هذه الآية لأن سياقها في الثناء على المؤمنين فقد دلت الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من هذه الذنوب المعدودة ومنها قتل النفس بدون حق وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة. وقد تقدم ذلك مفصلا في سورة النساء [٩٣] عند قوله تعالى: ومن يقتل مؤمنا متعمدا الآية.

وفرع على الاستثناء الذين تابوا وآمنوا وعملوا عملا صالحا أنهم يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهو كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك لأن من تاب مستثنى من من يفعل ذلك [الفرقان: ٦٨] فتعين أن السيئات المضافة إليهم هي

السيئات المعروفة، أي التي تقدم ذكرها، الواقعة منهم في زمن شركهم.

والتبديل: جعل شيء بدلا عن شيء آخر، وتقدم عند قوله تعالى: ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة في سورة الأعراف [٩٥] ، أي يجعل الله لهم حسنات كثيرة عوضا عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة وهذا التبديل جاء مجملا وهو". (١)

٢٧٢. ٢٧٢-"ويجوز أن يكون إطلاق اللقي لسماع ألفاظ التحية والسلام لأجل **الإيماء** إلى أنهم يسمعون التحية من الملائكة يلقونهم بها، فهو مجاز بالحذف قال تعالى: وتتلقاهم

(١) التحرير والتنوير ٧٦/١٩

الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون في سورة الأنبياء [١٠٣] .
وقوله: حسنت مستقرا ومقاما هو ضد ما قيل في المشركين إنها ساءت مستقرا ومقاما [الفرقان: ٦٦] . والتحية تقدمت في قوله: وإذا حييتم بتحية في سورة النساء [٨٦] ، وفي قوله: وتحيتهم فيها سلام في سورة يونس [١٠] ، وقوله: تحية من عند الله مباركة طيبة في آخر النور [٦١] .
[٧٧]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٧]
قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (٧٧)
لما استوعبت السورة أغراض التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمنته من توحيد الله، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعللاتهم، وأحوال المؤمنين، وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، ختمت بأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنهم قد شفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتوركهم في مجادلته فبين لهم حقارتهم عند الله تعالى وأنه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعا لعذرهم فإذ كذبوا فسوف يحل بهم العذاب.
وما من قوله: ما يعبؤا بكم نافية. وتركيب: ما يعبأ به، يدل على التحقير، وضده عبأ به يفيد الحفاوة.
ومعنى ما يعبؤا: ما يبالي وما يهتم، وهو مضارع عبأ مثل: ملأ يملأ مشتق من العبء بكسر العين وهو الحمل بكسر الحاء وسكون الميم، أي الشيء الثقيل الذي يحمل على البعير ولذلك يطلق العبء على العدل بكسر فسكون، ثم تشعبت عن هذا إطلاقات كثيرة. فأصل ما يعبؤا: ما يحمل عبئا، تمثيلا بحالة المتعب من الشيء، فصار المقصود: ما يهتم وما يكترث، وهو كناية عن قلة العناية.". (١)

(١) التحرير والتنوير ٨٥/١٩

٢٧٣. ٢٧٣-"والمشار إليه ب ذلك هو المذكور من الأرض، وإنبات الله الأزواج فيها، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة.

والتأكيد بحرف إن لتنزيل المتحدث عنهم منزلة من ينكر دلالة ذلك الإنبات وصفاته على ثبوت الوحدانية التي هي باعث تكذيبهم الرسول لما دعاهم إلى إثباتها، وإفراد (آية) لإرادة الجنس، أو لأن في المذكور عدة أشياء في كل واحد منها آية فيكون على التوزيع.

وجملة: وما كان أكثرهم مؤمنين عطف على جملة: إن في ذلك لآية إخبارا عنهم بأنهم مصرون على الكفر بعد هذا الدليل الواضح، وضمير أكثرهم عائد إلى معلوم من المقام كما عاد الضمير الذي في قوله: ألا يكونوا مؤمنين [الشعراء: ٣] ، وهم مشركو أهل مكة وهذا تحد لهم كقوله: ولن تفعلوا [البقرة: ٢٤] .

وأسند نفي الإيمان إلى أكثرهم لأن قليلا منهم يؤمنون حينئذ أو بعد ذلك.

وكان هنا مقحمة للتأكيد على رأي سيبويه والمحققين.

وجملة: وإن ربك لهو العزيز الرحيم تذييل لهذا الخبر: بوصف الله بالعزة، أي تمام القدرة فتعلمون أنه لو شاء لعجل لهم العقاب، وبوصف الرحمة **إيماء** إلى أن في إمهالهم رحمة بهم لعلهم يشكرون، ورحيم بك. قال تعالى: وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب [الكهف: ٥٨] . وفي وصف الرحمة **إيماء** إلى أنه يرحم رسله بتأييده ونصره.

واعلم أن هذا الاستدلال لما كان عقليا اقتصر عليه ولم يكرر بغيره من نوع الأدلة العقلية كما كررت الدلائل الحاصلة من العبرة بأحوال الأمم من قوله: وإذ نادى ربك موسى [الشعراء: ١٠] إلى آخر قصة أصحاب ليكة.

[١٠، ١١]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٠ إلى ١١]

وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون (١١)

شروع في عد آيات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر عواقب المكذبين برسلهم".

(١)

٢٧٤. ٢٧٤-"ليحذر المخاطبون بالدعوة إلى الإسلام من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين.

وفي ضمن ذلك تبيين لبعض ما نادى به الرسل من البراهين.

وإذ قد كانت هذه الأدلة من المثلات قصد ذكر كثير اشتهر منها ولم يقتصر على حادثة واحدة لأن الدلالة غير العقلية يتطرقها احتمال عدم الملازمة بأن يكون ما أصاب قوما من أولئك على وجه الصدفة والاتفاق فإذا تبين تكرر أمثالها ضعف احتمال الاتفاقية، لأن قياس التمثيل لا يفيد القطع إلا بانضمام مقومات له من تواتر وتكرر.

وإنما ابتدئ بذكر قصة موسى ثم قصة إبراهيم على خلاف ترتيب حكاية القصص الغالب في القرآن من جعلها على ترتيب سبقها في الزمان، لعله لأن السورة نزلت للرد على المشركين في إلحاحهم على إظهار آيات من خوارق العادات في الكائنات زاعمين أنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءتهم آية فضرب لهم المثل بمكابرة فرعون وقومه في آيات موسى إذ قالوا: إن هذا لساحر مبين [يونس: ٢] وعطف وإذ نادى ربك موسى عطف جملة على جملة: أولم يروا إلى الأرض [الشعراء: ٧] بتمامها.

ويكون إذ اسم زمان منصوبا بفعل محذوف تقديره: واذكر إذ نادى ربك موسى على طريقة قوله في القصة التي بعدها واتل عليهم نبأ إبراهيم [الشعراء: ٦٩] . وفي هذا المقدر تذكير للرسول عليه الصلاة والسلام بما يسليه عما يلقاه من قومه.

ونداء الله موسى الوحي إليه بكلام سمعه من غير واسطة ملك.

جملة: أن ائت القوم الظالمين تفسير لجملة: نادى، وأن تفسيرية.

والمقصود من سوق هذه القصة هو الموعظة بعاقبة المكذبين وذلك عند قوله تعالى:

فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر إلى قوله: وإن ربك لهو العزيز الرحيم [الشعراء: ٦٣- ٦٨] . وأما ما تقدم ذلك من قوله: وإذ نادى ربك موسى إلخ فهو تفصيل لأسباب الموعظة بذكر دعوة موسى إلى ما أمر بإبلاغه وإعراض فرعون وقومه وما عقب ذلك إلى الخاتمة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/١٩

واستحضار قوم فرعون بوصفهم بالقوم الظالمين **إيماء** إلى علة الإرسال. وفي هذا الإجمال توجيه نفس موسى لترقب تعيين هؤلاء القوم بما يبينه، وإثارة لغضب". (١)

٢٧٥. ٢٧٥-"موسى عليهم حتى ينضم داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثال أمر الله الباعثه إليهم، وذلك أوقع لكلامه في نفوسهم. وفيه **إيماء** إلى أنهم اشتهروا بالظلم.

ثم عقب ذلك بذكر وصفهم الذاتي بطريقة البيان من القوم الظالمين وهو قوله:

قوم فرعون، وفي تكرير كلمة قوم موقع من التأكيد فلم يقل: ائت قوم فرعون الظالمين، كقول جرير:

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم ... لا يلفينكم في سوأة عمر

والظلم يعم أنواعه، فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة، ومنها ظلمهم الناس حقوقهم إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم، وتقدم استعماله في المعنيين مرارا في ضد العدل ومن أظلم ممن منع مساجد الله في البقرة [١١٤] ، وبمعنى الشرك في قوله: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم في الأنعام [٨٢] .

واعلم أنه قد عدل هنا عن ذكر ما ابتدئ به نداء موسى مما هو في سورة طه [١٢- ٢٣] بقوله: إني أنا ربك فاخلع نعليك إلى قوله: لنريك من آياتنا الكبرى لأن المقام هنا يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتعاظ بعاقبتهم. وأما مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معا فكان مقام إطناب مع ما في ذلك من اختلاف الأسلوب في حكاية القصة الواحدة كما تقدم في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير.

والإتيان المأمور به هو ذهابه لتبليغ الرسالة إليهم. وهذا إيجاز يبينه قوله: أتيا

فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين

[الشعراء: ١٦] إلى آخره.

وجملة: ألا يتقون مستأنفة استئنافا بيانيا لأنه لما أمره بالإتيان إليهم لدعوتهم ووصفهم بالظالمين

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٣/١٩

كان الكلام مثيرا لسؤال في نفس موسى عن مدى ظلمهم فجيء بما يدل على توغلهم في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعث لموسى على بلوغ الغاية في الدعوة وتهيئة لتلقيه تكذيبهم بدون مفاجأة، فيكون ألا من قوله: ألا يتقون مركبا من حرفين همزة الاستفهام و (لا) النافية. والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم، وتعجيب موسى من ذلك، فإن موسى كان مطلعا على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد علم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتل أنبياء بني إسرائيل....". (١)

٢٧٦. ٢٧٦-"الغرض المستفهم عنه على فرض وقوعها وهو غرض الاستمرار على التكذيب، وهو استفهام حقيقي.

وليست الواو مؤخرة عن همزة الاستفهام لأن لحرف الاستفهام الصدارة بل هي لعطف الاستفهام.

والعامل في الحال وصاحب الحال مقدران دل عليهما قوله: لأجعلنك [الشعراء: ٢٩] ، أي أتجعلني من المسجونين.

ووصف «شيء» ب مبين اسم فاعل من أبان المتعدي، أي مظهر أني رسول من الله.

وأعرض فرعون عن التصريح بالتزام الاعتراف بما سيجيئ به موسى فجاء بكلام محتمل إذ قال فأت به إن كنت من الصادقين. وفي قوله: إن كنت من الصادقين إيماء إلى أن في كلام فرعون ما يقتضي أن فرض صدق موسى فرض ضعيف كما هو الغالب في شرط إن مع إيهام أنه جاء بشيء مبين يعتبر صادقا فيما دعا إليه، فبقي تحقيق أن ما سيجيء به موسى مبين أو غير مبين. وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع والنزول ليتأتى إنكاره إن احتاج إليه.

والثعبان: الحية الضخمة الطويلة.

ووصف ثعبان بأنه مبين الذي هو اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بان بمعنى ظهر، ف مبين دال على شدة الظهور من أجل أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أي ثعبان ظاهر أنه ثعبان لا لبس فيه ولا تخييل.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٠٤

وبالاختلاف بين مبين الأول ومبين الثاني اختلفت الفاصلتان معنى فكانتا من قبيل الجناس ولم تكونا مما يسمى مثله إيطاء.
والإلقاء: الرمي من اليد إلى الأرض، وتقدم في سورة الأعراف.
والنزع: سل شيء مما يحيط به، ومنه نزع اللباس، ونزع الدلو من البئر. ونزع اليد: إخراجها من القميص، فلذلك استغنى عن ذكر المنزوع منه لظهوره، أي أخرج يده من جيب قميصه.". (١)

٢٧٧. ٢٧٧-"بالأقصر و (أبودو) وتسمى اليوم العرابة المدفونة، و (أبو) وهي (بو) وهي إدنو، و (أون رميسي) ، و (أرمنت) و (سنى) وهي أسناء و (ساورت) وهي السيوط، و (خمونو) وهي الأشمونيين، و (بامازيت) وهي البهنسا، و (خسوو) وهي سخا، و (كارببنا) وهي سد أبي قيرة، و (سودو) وهي الفيوم، و (كويتي) وهي قفط.
والتعريف في المدائن للاستغراق، أي في مدائن القطر المصري، وهو استغراق عرفي، أي المدائن التي لحكم فرعون أو المظنون وقوعها قرب طريقهم. وكان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه بنو إسرائيل فأراد أن يتعرض لهم في كل طريق يظن مرورهم به. وكان لا يدري لعلهم توجهوا صوب الشام، أو صوب الصحراء الغربية، وما كان يظن أنهم يقصدون شاطىء البحر الأحمر بحر «القلزم» وكان يومئذ يسمى بحر «سوف» .
وجملة إن هؤلاء لشرذمة قليلون مقول لقول محذوف لأن حاشرين يتضمن معنى النداء، أي يقولون إن هؤلاء لشرذمة قليلون.
والإشارة ب هؤلاء إلى حاضر في أذهان الناس لأن أمر بني إسرائيل قد شاع في أقطار مصر في تلك المدة التي بين جمع السحرة وبين خروج بني إسرائيل، وليست الإشارة للسحرة خاصة إذ لا يلتئم ذلك مع القصة.
وفي اسم الإشارة **إيماء** إلى تحقير لشأنهم أكده التصريح بأنهم شرذمة قليلون.
والشرذمة: الطائفة القليلة من الناس، هكذا فسره المحققون من أئمة اللغة، فإتباعه بوصف قليلون للتأكيد لدفع احتمال استعمالها في تحقير الشأن أو بالنسبة إلى جنود فرعون، فقد

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/١٩

كان عدد بني إسرائيل الذين خرجوا ستمائة ألف، هكذا قال المفسرون، وهو موافق لما في سفر العدد من التوراة في الإصحاح السادس والعشرين.

وقليلون خبر ثان عن اسم الإشارة، فهو وصف في المعنى لمدلول هؤلاء وليس وصفا لشرذمة ولكنه مؤكد لمعناها، ولهذا جيء به بصيغة جمع السلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة.". (١)

٢٧٨. ٢٧٨-"نظام تلك المخلوقات كما كان حال الإشراك في العرب فيكون الاستثناء متصلا لأن الله من جملة معبوديهم، أي إلا الرب الذي خلق العوالم. وتقدم ذكر أصنام قوم إبراهيم في سورة الأنبياء. وانظر ما يأتي في سورة العنكبوت.

[٧٨- ٨٢]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧٨ إلى ٨٢]

الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢)

الأظهر أن الموصول في موضع نعت ل رب العالمين [الشعراء: ٧٧] وأن فهو يهدين عطف على الصلة مفرع عليه لأنه إذا كان هو الخالق فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولاها غيره. ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ مستأنفا به ويكون فهو يهدين خبرا عن الذي. وزيدت الفاء في الخبر لمشابهة الموصول للشرط. وعلى الاحتمالين ففي الموصولية **إيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو الاستدراك بالاستثناء الذي في قوله: إلا رب العالمين [الشعراء: ٧٧] ، أي ذلك هو الذي أخلص له لأنه خلقني كقوله في الآية الأخرى: إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض [الأنعام: ٧٩] .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: فهو يهدين دون أن يقول: فيهدين، لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب. وليس الضمير ضمير فصل لأن ضمير الفصل لا يقع

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٠/١٩

بعد العاطف.
والتعبير بالمضارع في قوله: يهدين لأن الهداية متجددة له. وجعل فعل الهداية مفرعا بالفاء على فعل الخلق لأنه معاقب له لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنها ناشئة عن خلق العقل كما قال تعالى: الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [طه:
٥٠] . والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى: وهديناه النجدين [البلد:
١٠] فيكون المعنى: الذي خلقني جسدا وعقلا. ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصوما من الخطأ.". (١)

٢٧٩. ٢٧٩-"وتقدم الكلام على معنى الخزي عند تفسير قوله تعالى: إلا خزي في الحياة الدنيا في سورة البقرة [٨٥] . وقوله: إنك من تدخل النار فقد أخزيته في آل عمران [١٩٢]
.
وضمير يبعثون راجع إلى العباد المعلوم من المقام.
وجملة: إنه كان من الضالين تعليل لطلب المغفرة لأبيه فيه **إيماء** إلى أنه سأل له مغفرة خاصة وهي مغفرة أكبر الذنوب أعني الإشراك بالله، وهو سؤال اقتضاه مقام الخلة وقد كان أبوه حيا حينئذ لقوله في الآية الأخرى: قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا [مريم: ٤٧] . ولعل إبراهيم علم من حال أبيه أنه لا يرجى إيمانه بما جاء به ابنه أو أن الله أوحى إليه بذلك ما ترشد إليه آية وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [التوبة: ١١٤] . ويجوز أنه لم يتقرر في شرع إبراهيم حينئذ حرمان المشركين من المغفرة فيكون ذلك من معنى قوله تعالى: فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [التوبة: ١١٤] . ويجوز أن يكون طلب الغفران له كناية عن سبب الغفران وهو هدايته إلى الإيمان.
ويوم لا ينفع مال إلخ يظهر أنه من كلام إبراهيم عليه السلام فيكون يوم لا ينفع بدلا من يوم يبعثون قصد به إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

---
(١) التحرير والتنوير ١٤٢/١٩

واستظهر ابن عطية: أن الآيات التي أولها يوم لا ينفع مال ولا بنون يريد إلى قوله: فنكون من المؤمنين [الشعراء: ١٠٢] منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله تعالى صفة لليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه أن لا يخزى فيه اه.

وهو استظهار رشيق فيكون: يوم لا ينفع مال استئنافا خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو يوم لا ينفع مال ولا بنون. وفتحة يوم فتحة بناء لأن (يوم) ظرف أضيف إلى فعل معرب فيجوز إعرابه ويجوز بناؤه على الفتح، فهو كقوله تعالى: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم [المائدة: ١١٩] . ويظهر على هذا الوجه أن يكون المراد ب من أتى الله بقلب سليم الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى وصفه". (١)

٢٨٠. ٢٨٠-"موضع الحال من الواو في أتأتون. ومن فصلية، أي تفيد معنى الفصل بين متخالفين بحيث لا يماثل أحدهما الآخر. فالمعنى: مفصولين من العالمين لا يماثلكم في ذلك صنف من العالمين. وهذا المعنى جوزه في «الكشاف» ثانيا وهو أوفق بمعنى: العالمين الذي المختار فيه أنه جمع (عالم) بمعنى النوع من المخلوقات كما تقدم في سورة الفاتحة.

وإثبات معنى الفصل لحرف من قاله ابن مالك، ومثل بقوله تعالى: والله يعلم المفسد من المصلح [البقرة: ٢٢٠] ، وقوله: ليميز الله الخبيث من الطيب [الأنفال: ٣٧] .

ونظر فيه ابن هشام في «مغني اللبيب» وهو معنى رشيق متوسط بين معنى الابتداء ومعنى البدلية وليس أحدهما. وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى والله يعلم المفسد من المصلح في سورة البقرة [٢٢٠] .

والمعنى: أتأتون الذكران مخالفين جميع العالمين من الأنواع التي فيها ذكور وإناث فإنها لا يوجد فيها ما يأتي الذكور.

فهذا تنبيه على أن هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العجم فهو عمل ابتدعوه ما فعله غيرهم، ونحوه قوله تعالى في الآية الأخرى إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين [العنكبوت: ٢٨] .

والمراد بالأزواج: الإناث من نوع، وإطلاق اسم الأزواج عليهن مجاز مرسل بعلاقة الأول،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/١٩

ففي هذا المجاز تعريض بأنه يرجو ارعواءهم.

وفي قوله: ما خلق لكم ربكم **إيماء** إلى الاستدلال بالصلاحية الفطرية لعمل على بطلان عمل يضاده، لأنه مناف للفطرة. فهو من تغيير الشيطان وإفساده لسنة الخلق والتكوين، قال تعالى حكاية عنه ولآمرنهم فليغيرن خلق الله [النساء: ١١٩] .

وبل لإضراب الانتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذم تغليظا للإنكار بعد لينه لأن شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر والأخذ بأصرح مراتب الإعلان فإنه إن استطاع بلسانه غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لينه وأنه يبتدىء باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشد ولذلك انتقل لوط من قوله:". (١)

٢٨١. ٢٨١-"والذي يشهد لذلك ويرجحه أن القرآن لما ذكر هذه القصة لأهل مدين وصف شعيبا بأنه أخوهم، ولما ذكرها لأصحاب ليكة لم يصف شعيبا بأنه أخوهم إذ لم يكن شعيب نسيبا ولا صهرا لأصحاب ليكة، وهذا **إيماء** دقيق إلى هذه النكتة. ومما يرجح ذلك قوله تعالى في سورة الحجر [٧٨، ٧٩] وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين، فجعل ضميرهم مثنى باعتبار أنهم مجموع قبيلتين: مدين وأصحاب ليكة.

وقد بينا ذلك في سورة الحجر. وإنما ترسل الرسل من أهل المدائن قال تعالى:

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى [يوسف: ١٠٩] وتكون الرسالة شاملة لمن حول القرية.

وافتتح شعيب دعوته بمثل دعوات الرسل من قبله للوجه الذي قدمناه.

وشمل قوله: ألا تتقون النهي عن الإشراك فقد كانوا مشركين كما في آية سورة هود.

[١٨١- ١٨٣]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٨١ إلى ١٨٣]

أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم (١٨٢) ولا تبخسوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/١٩

الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١٨٣)
استئناف من كلامه انتقل به من غرض الدعوة الأصلية بقوله: ألا تتقون [الشعراء: ١٧٧] إلى آخره إلى الدعوة التفصيلية بوضع قوانين المعاملة بينهم، فقد كانوا مع شركهم بالله يطففون المكيال والميزان ويبخسون أشياء الناس إذا ابتاعوها منهم، ويفسدون في الأرض.
فأما تطفيف الكيل والميزان فظلم وأكل مال بالباطل، ولما كان تجارهم قد تمالؤوا عليه اضطر الناس إلى التبايع بالتطفيف.
وأوفوا أمر بالإيفاء، أي جعل الشيء وافيا، أي تاما، أي اجعلوا الكيل غير ناقص. والمخسر: فاعل الخسارة لغيره، أي المنقص، فمعنى ولا تكونوا من المخسرين لا تكونوا من المطففين. وصوغ من المخسرين أبلغ من: لا تكونوا مخسرين. لأنه يدل على الأمر بالتبرؤ من أهل هذا الصنيع، كما تقدم آنفا في عدة آيات منها قوله: لتكونن من المرجومين [الشعراء: ١١٦] في قصة نوح.". (١)

٢٨٢. ٢٨٢-"والقسطاس: بضم القاف وبكسرها من أسماء العدل، ومن أسماء الميزان، وتقدم في قوله تعالى: وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا في سورة الإسراء [٣٥] ، حمل على المعنيين هنا كما هنالك وإن كان الوصف ب المستقيم يرجح أن المقصود به الميزان، وتقدم تفصيل ما يرجع إليه هذا التشريع في قصته في الأعراف.
وقرأ الجمهور: بالقسطاس بضم القاف. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر القاف.
وبخس أشياء الناس: غبن منافعها وذمها بغير ما فيها ليضطروهم إلى بيعها بغبن.
وأما الفساد فيقع على جميع المعاملات الضارة.
والبخس: النقص والذم. وتقدم في قوله: ولا يبخس منه شيئا في سورة البقرة [٢٨٢] ونظيره في سورة الأعراف. وقد تقدم نظير بقية الآية في سورة هود. ومن بخس الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع: إن سلعتك رديئة، ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برخص. [١٨٤]

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/١٩

[سورة الشعراء (٢٦) : آية ١٨٤]

واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين (١٨٤)

أكد قوله في صدر خطابه فاتقوا الله [الشعراء: ١٧٩] بقوله هنا: واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين وزاد فيه دليل استحقاقه التقوى بأن الله خلقهم وخلق الأمم من قبلهم، وباعتبار هذه الزيادة أدخل حرف العطف على فعل اتقوا ولو كان مجرد تأكيد لم يصح عطفه. وفي قوله: الذي خلقكم **إيماء** إلى نبذ اتقاء غيره من شركائهم.

والجبلة: بكسر الجيم والباء وتشديد اللام: الخلقة، وأريد به المخلوقات لأن الجبلة اسم كالمصدر ولهذا وصف ب الأولين. وقيل: أطلق الجبلة على أهلها، أي وذوي الجبلة الأولين.

والمعنى: الذي خلقكم وخلق الأمم قبلكم.". (١)

٢٨٣. ٢٨٣-"والمعنى: فإن عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم. ولما كان التبرؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبت الله جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم وأن يتوكل على ربه فهو كافيه كما قال: ومن يتوكل على الله فهو حسبه [الطلاق: ٣] . وعلق التوكل بالاسمين العزيز الرحيم وما تبعهما من الوصف بالموصول وما ذيل به من **الإيماء** إلى أنه يلاحظ قوله ويعلم نيته، إشارة إلى أن التوكل على الله يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف العزيز الرحيم للإشارة إلى أنه بعزته قادر على تغلبه على عدوه الذي هو أقوى منه، وأنه برحمته يعصمه منهم. وقد لوحظ هذان الاسمان غير مرة في هذه السورة لهذا الاعتبار كما تقدم.

والتوكل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمه، وقد تقدم عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [١٥٩] .

ووصفه تعالى: ب الذي يراك حين تقوم

مقصود به لازم معناه. وهو أن النبيء صلى الله عليه وسلم بمحل العناية منه لأنه يعلم توجهه إلى الله ويقبل ذلك منه، فالمراد من قوله: يراك

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٥/١٩

رؤية خاصة وهي رؤية الإقبال والتقبل كقوله: فإنك بأعيننا [الطور: ٤٨] .
والقيام: الصلاة في جوف الليل، غلب هذا الاسم عليه في اصطلاح القرآن، والتقلب في الساجدين هو صلاته في جماعات المسلمين في مسجده. وهذا يجمع معنى العناية بالمسلمين تبعا للعناية برسولهم، فهذا من بركته صلى الله عليه وسلم، وقد جمعها هذا التركيب العجيب الإيجاز.
وفي هذه الآية ذكر صلاة الجماعة. قال مقاتل لأبي حنيفة: هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال أبو حنيفة: لا يحضرني فتلا مقاتل هذه الآية.
وموقع إنه هو السميع العليم موقع التعليل للأمر ب فقل إني بريء مما تعملون [الشعراء: ٢١٦] ، وللأمر ب توكل على العزيز الرحيم، فصفة السميع مناسبة للقول، وصفة العليم مناسبة للتوكل، أي إنه يسمع قولك ويعلم عزمك.
وضمير الفصل في قوله: هو السميع العليم للتقوية.". (١)

٢٨٤. ٢٨٤-"والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن ييسر الله الاهتداء به دون من جحدوا أنه من عند الله.
والتحدي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء.
والاعتبار بملك أعظم ملك أوتيه نبيء. وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام، وما بلغه من العلم بأحوال الطير، وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة.
وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود. والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ. وفي ذلك إيماء إلى أن نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة تقارنها سياسة الأمة ثم يعقبها ملك، وهو خلافة النبيء صلى الله عليه وسلم.
وأن الشريعة المحمدية سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لبني إسرائيل ملك سليمان.
ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كهانهم وعرافيهم، وسدنة آلهتهم. وإثبات البعث وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطها.
وأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة. ثم موادعة المشركين وإنباؤهم بأن شأن الرسول

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٠٤

الاستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأن آيات الصدق سيشاهدونها والله مطلع على أعمالهم.

قال ابن الفرس: ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ. ونفيه أن يكون فيها إحكام ولا نسخ معناه أنها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ. وقال القرطبي في تفسير آية وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه [النمل: ٩١، ٩٢] الآية نسختها آية القتال اه، يعني الآية النازلة بالقتال في سورة البراءة. وتسمى آية السيف، والقرطبي معاصر لابن الفرس إلا أنه كان بمصر وابن الفرس بالأندلس، وقوله: لأعذبنه عذابا شديدا [النمل: ٢١] ويؤخذ منهما حكمان كما سيأتي.

[١]

[سورة النمل (٢٧) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم". (١)

٢٨٥. ٢٨٥-"والبشرى: اسم للتبشير، ووصف الكتاب بالهدى والبشرى جار على طريقة المجاز العقلي، وإنما الهادي والمبشر الله أو الرسول بسبب الكتاب. والعامل في الحال ما في اسم الإشارة من معنى: أشير، كقوله: وهذا بعلي شيخا [هود: ٧٢] ، وقد تقدم ما فيه في سورة إبراهيم.

وللمؤمنين يتنازعه هدى وبشرى لأن المؤمنين هم الذين انتفعوا بهديه كقوله:

هدى للمتقين [البقرة: ٢] .

ووصف المؤمنين بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنهم عرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين، ألا ترى أن الله عرف الكفار بقوله وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة [فصلت: ٦، ٧] ، ولأن في الصلة **إيماء** إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنهم على هدى من ربهم ومفلحون.

والزكاة: الصدقة لأنها تزكي النفس أو تزكي المال، أي تزيده بركة. والمراد بالزكاة هنا الصدقة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/١٩

مطلقا أو صدقة واجبة كانت على المسلمين، وهي مواساة بعضهم بعضا كما دل عليه قوله في صفة المشركين بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين [الفجر: ١٧، ١٨] . وأما الزكاة المقدرة بالنصب والمقادير الواجبة على أموال الأغنياء فإنها فرضت بعد الهجرة فليست مرادا هنا لأن هذه السورة مكية.

وجملة: وهم بالآخرة هم يوقنون عطف على الصلة وليست من الصلة، ولذلك خولف بين أسلوبها وأسلوب الصلة فأتي له بجملة اسمية اهتماما بمضمونها لأنه باعث على فعل الخيرات، على أن ضمير هم الثاني يجوز أن يعتبر ضمير فصل دالا على القصر، أي ما يوقن بالآخرة إلا هؤلاء.

والقصر إضافي بالنسبة إلى مجاوريهم من المشركين، وإلا فإن أهل الكتاب يوقنون بالآخرة، إلا أنهم غير مقصود حالهم للمخاطبين من الفريقين. وتقديم بالآخرة للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بها.". (١)

٢٨٦. ٢٨٦-"خالصا أو مشوبا بشيء من التأمل في مفاسده، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

[٥]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٥]

أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥)

قصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أن استحقاقهم ما يخبر به عنهم ناشيء عما تقدم اسم الإشارة كما في أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

وعزز ما نبه عليه باسم الإشارة فأعقب باسم الموصول وصلته لما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر.

وجيء بلام الاختصاص للإشارة إلى أنهم في حالتهم هذه قد هيىء لهم سوء العذاب. والظاهر

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢١٩

أن المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر وما بعده بقرينة عطف: وهم في الآخرة هم الأخسرون.

ففي الآية إشارة إلى جزاءين: جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقونه بكفرهم، فهم ما داموا كافرين متهيئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.

وجزاء في الآخرة ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر، وهذا المصير يسمى بالموافاة عند الأشعري.

ولكون نوال العذاب الأول إياهم قابلا للتفصي منه بالإيمان قبيل حلوله بهم جيء في جانبه بلام الاختصاص المفيدة كونه مهيأ تهيئة، أما أصالة جزاء الآخرة إياهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.

فالضمائر في قوله لهم وقوله: وهم في الآخرة هم عائدة إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة [النمل: ٤] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص معينين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه". (١)

٢٨٧. ٢٨٧-"في قوله: فإني غفور رحيم. فالتقدير: إلا من ظلم من قبل الإرسال وتاب من ظلمه فخاف عقابي فلا يخاف لأني غافر له وقابل لتوبته لأني غفور رحيم. وانتظم الكلام على إيجاز بديع اقتضاه مقام تعجيل المسرة، ونسج على منسج التذكرة الرمزية لعلم المتخاطبين بذلك كأنه يقول: لم أهمل توبتك يوم اعتديت وقولك هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي [القصص: ١٥، ١٦] ، وعزمك على الاستقامة يوم قلت: رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين [القصص: ١٧] .

ولذلك اقتصر في الاستثناء على خصوص من بدل حسنا بعد سوء إذ لا يتصور في الرسول الإصرار على الظلم.

ومن ألطف **الإيماء** الإتيان بفعل ظلم ليومىء إلى قول موسى يوم ارتكب الاعتداءب إني ظلمت نفسي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٢/١٩

[القصص: ١٦] ولذلك تعين أن يكون المقصود ب من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء موسى نفسه.

وقال الفراء والزجاج والزمخشري وجرى عليه كلام الضحاك: الاستثناء منقطع وحرف الاستثناء بمعنى الاستدراك فالكلام استطراد للتنبيه على أن من ظلم وبدل حسنا بعد سوء من الناس يغفر له. وعليه تكون من صادقة على شخص ظلم وليس المراد بها مخالفات بعض الرسل. وهذا التأويل دعا إليه أن الرسالة تنافي سبق ظلم النفس. والذي حداهم إلى ذلك أن من مقتضى الاستثناء المتصل إثبات نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى، ونقيض انتفاء الخوف حصول الخوف. والموجود بعد أداة الاستثناء أنه مغفور له فلا خلاف عليه. ويفهم منه أنه لو ظلم ولم يبدل حسنا بعد سوء يخاف عذاب الآخرة.

أما الزمخشري فزاد على ما سلكه الفراء والزجاج فجعل ما صدق من ظلم رسولا ظلم. والذي دعاه إلى اعتبار الاستثناء منقطعا هو أحد الداعيين اللذين دعيا الفراء والزجاج وهو أن الحكم المثبت للمستثنى ليس نقيضا لحكم المستثنى منه ولذلك جعل ما صدق من ظلم رسولا من الرسل ظلم بما فرط منه من صغائر ليشمل موسى وهو واحد منهم.

وقد تحصل من الاحتمالين في معنى الاستثناء أن الرسل في حضرة الله (أي حين". (١)

٢٨٨. ٢٨٨-"تكون عارفة بالعبرانية، ويحتمل أن يكون الكتاب مكتوبا بالعربية القحطانية، فإن عظمة ملك سليمان لا تخلو من كتاب عارفين بلغات الأمم المجاورة لمملكته، وكونه بلغته أظهر وأنسب بشعار الملوك، وقد كتب النبيء صلى الله عليه وسلم للملوك باللغة العربية.

أما الكلام المذكور في هذه الآية فهو ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى بتضمين دقائقه وخصوصيات اللغة التي أنشئ بها.

وقوله: إنه من سليمان هو من كلام الملكة ابتدأت به مخاطبة أهل مشورتها لإيقاظ أفهامهم إلى التدبر في مغزاه لأن اللائق بسليمان أن لا يقدم في كتابه شيئا قبل اسم الله تعالى، وأن معرفة اسم سليمان تؤخذ من ختمه وهو خارج الكتاب فلذلك ابتدأت به أيضا.

والتأكيد ب (إن) في الموضعين يترجم عما في كلامهما باللغة السبائية من عبارات دالة على

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٣٠

اهتمامها بمرسل الكتاب وبما تضمنه الكتاب اهتماما يؤدى مثله في العربية الفصحى بحرف التأكيد الذي يدل على الاهتمام في مقام لا شك فيه.

وتكرير حرف (إن) بعد واو العطف **إيماء** إلى اختلاف المعطوف والمعطوف عليه بأن المراد بالمعطوف عليه ذات الكتاب، والمراد بالمعطوف معناه وما اشتمل عليه، كما تقول: إن فلانا لحسن الطلعة وإنه لزكي. وهذا من خصوصيات إعادة العامل بعد حرف العطف مع إغناء حرف العطف عن ذكر العامل، ونظيره قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم

[النساء: ٥٩] ، أعيد أطيعوا لاختلاف معنى الطاعتين، لأن طاعة الله تنصرف إلى الأعمال الدينية، وطاعة الرسول مراد بها طاعته في التصرفات الدنيوية، ولذلك عطف على الرسول أولو الأمر من الأمة.

وقوله: إنه من سليمان حكاية لمقالها، وعرفت هي ذلك من عنوان الكتاب بأعلاه أو بظاهره على حسب طريقة الرسائل السلطانية في ذلك العهد في بني إسرائيل، مثل افتتاح كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بجملة: «من محمد رسول الله» .". (١)

٢٨٩. ٢٨٩-"ذكره أن نزول هذه السورة كان في وقت تآمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبيء صلى الله عليه وسلم، وهو التآمر

الذي حكاه الله في قوله: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين [الأنفال: ٣٠] فضرب الله لهم مثلا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابها وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر الله بهم، وذكر أن في قصتهم آية لقوم يعلمون.

[٥٠- ٥٣]

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٠ إلى ٥٣]

ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٩/١٩

وقومهم أجمعين (٥١) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣)

سمى الله تآمرهم مكرا لأنه كان تدبير ضر في خفاء. وأكد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر، وتنوينه للتعظيم.

والمكر الذي أسند إلى اسم الجلالة مكر مجازي. استعير لفظ المكر لمبادرة الله إياهم باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله، وتأخيره استئصالهم إلى الوقت الذي تآمروا فيه على قتل صالح لشبه فعل الله ذلك بفعل الماكر في تأجيل فعل إلى وقت الحاجة، مع عدم إشعار من يفعل به.

وأكد مكر الله وعظم كما أكد مكرهم وعظم، وذلك بما يناسب جنسه، فإن عذاب الله لا يدانيه عذاب الناس فعظيمه أعظم من كل ما يقدره الناس.

والمراد بالمكر المسند إلى الجلالة هو ما دلت عليه جملة: أنا دمرناهم وقومهم أجمعين الآية.

وفي قوله: وهم لا يشعرون تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال فليس في ذلك ترشيح للاستعارة ولا تجريد.

والخطاب في قوله: فانظر للنبيء صلى الله عليه وسلم. واقترانه بفاء التفريع إيماء إلى أن". (١)

٢٩٠. ٢٩٠-"كالفساد كان ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم. وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت وتلا: فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. وهذا من أسلوب أخذ كل ما يحتمل من معاني الكلام في القرآن كما ذكرناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

ونزيده هنا ما لم يسبق لنا في نظائره، وهو أن الحقائق العقلية لما كان قوام ماهياتها حاصلا في الوجود الذهني كان بين كثير منها انتساب وتقارب يرد بعضها إلى بعض

باختلاف الاعتبار. فالشرك مثلا حقيقة معروفة يكون بها جنسا عقليا وهو بالنظر إلى ما يبعث عليه وما ينشأ عنه ينتسب إلى حقائق أخرى مثل الظلم، أي الاعتداء على الناس

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٨٤

بأخذ حقوقهم فإنه من أسبابه، ومثل الفسق فإنه من آثاره، وكذلك التكذيب فإنه من آثاره أيضا: وذرني والمكذبين [المزمل: ١١] ، ومثل الكبر ومثل الإسراف فإنهما من آثاره أيضا: فمن أساليب القرآن أن يعبر عن الشرك بألفاظ هذه الحقائق للإشارة إلى أنه جامع عدة فظائع، وللتنبيه على انتسابه إلى هذه الأجناس، وليعلم المؤمنون فساد هذه الحقائق من حيث هي فيعبر عنه هنا بالظلم وهو كثير ليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم، ناهيك أن الشرك من أنواعه. وكذلك قوله: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب [غافر: ٢٨] أي هو متأصل في الشرك وإلا فإن الله هدى كثيرا من المسرفين والكاذبين بالتوبة، ومن قوله: أليس في جهنم مثوى للمتكبرين [الزمر: ٦٠] ونحو ذلك.

وجملة: إن في ذلك لآية معترضة بين الجمل المتعاطفة. والإشارة إلى ما ذكر من عاقبة مكرهم. والآية: الدليل على انتصار الله لرسله.

واللام في لقوم يعلمون لام التعليل يعني آية لأجلهم، أي لأجل إيمانهم. وفيه تعريض بأن المشركين الذين سبقت إليهم هذه الموعظة إن لم يتعظوا بها فهم قوم لا يعلمون.

وفي ذكر كلمة (قوم) إيماء إلى أن من يعتبر بهذه الآية متمكن في العقل حتى كان العقل من صفته القومية، كما تقدم في قوله تعالى: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة". (١)

٢٩١. ٢٩١-"فأما إذا جرينا على قول الذين نسبوا إلى اليهود استقبال جهة المغرب وإلى النصارى استقبال جهة المشرق من المفسرين فيأتي على تفسيرهم أن تقول أن ذكر المشرق والمغرب إشارة إلى قبلة النصارى وقبلة اليهود، فيكون الجواب جوابا بالإعراض عن ترجيح قبلة المسلمين لعدم جدواه هنا، أو يكون قوله: يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم إيماء إلى قبلة الإسلام، والمراد بالصراط المستقيم هنا وسيلة الخير وما يوصل إليه كما تقدم في قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم [الفاتحة: ٦] فيشمل ذلك كل هدي إلى خير ومنه الهدي إلى استقبال أفضل جهة. فجملة: يهدي من يشاء حال من اسم الجلالة ولا يحسن جعلها بدل اشتمال من جملة: لله المشرق والمغرب لعدم وضوح اشتمال جملة: قل لله المشرق والمغرب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٦/١٩

على معنى جملة: يهدي من يشاء إذ مفاد الأولى أن الأرض جميعها لله أي فلا تتفاضل الجهات ومفاد الثانية أن الهدى بيد الله.

واتفق علماء الإسلام على أن استقبال الكعبة أي التوجه إليها شرط من شروط صحة الصلاة المفروضة والنافلة إلا لضرورة في الفريضة كالقتال والمريض لا يجد من يوجهه إلى جهة القبلة أو لرخصة في النافلة للمسافر إذا كان راكبا على دابة أو في سفينة لا يستقر بها. فأما الذي هو في المسجد الحرام ففرض عليه استقبال عين الكعبة من أحد جوانبها ومن كان بمكة في موضع يعاين منه الكعبة فعليه التوجه إلى جهة الكعبة التي يعاينها فإذا طال الصف من أحد جوانب الكعبة وجب على من كان من أهل الصف غير مقابل لركن من أركان الكعبة أن يستدير بحيث يصلون دائرين بالكعبة صفا وراء صف بالاستدارة، وأما الذي تغيب ذات الكعبة عن بصره فعليه الاجتهاد بأن يتوخى أن يستقبل جهتها فمن العلماء من قال يتوخى المصلي جهة مصادفة عين الكعبة بحيث لو فرض خط بينه وبين الكعبة لوجد وجهه قبالة جدارها، وهذا شاق يعسر تحققه إلا بطريق إرصاد علم الهيئة (١) ويعبر عن هذا باستقبال العين وباستقبال السمت وهذا قول ابن القصار واختاره أحد أشياخ أبي الطيب عبد المنعم الكندي ونقله المالكية عن الشافعي، ومن العلماء من قال يتوخى المصلي أن يستقبل جهة أقرب ما بينه وبين الكعبة بحيث لو مشى باستقامة لوصل حول الكعبة ويعبر عن هذا باستقبال الجهة أي جهة الكعبة وهذا قول أكثر المالكية واختاره الأبهري والباجي وهو قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل وهو من التيسير ورفع

---

(١) قاله ابن رشد في «البداية» (١/ ١١١) ، دار المعرفة، وفيه: «إن إصابة العين شيء لا يدرك إلا". (١)

٢٩٢. ٢٩٢-"بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلا رسولها، وقد يكون تقديمه لتكون الكلمة التي تختم بها الآية في محل الوقف كلمة ذات حرف مد قبل الحرف الأخير لأن المد أمكن للوقف وهذا من بدائع فصاحة القرآن،

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢

وقيل تقديم المجرور مفيد لقصر الفاعل على المفعول وهو تكلف ومثله غير معهود في كلامهم.

وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.

الواو عاطفة على جملة: سيقول السفهاء من الناس [البقرة: ١٤٢] وما اتصل بها من الجواب بقوله: قل لله المشرق والمغرب قصد به بيان الحكمة من شرع استقبال بيت المقدس ثم تحويل ذلك إلى شرع استقبال الكعبة، وما بين الجملتين من قوله: وكذلك جعلناكم أمة وسطا إلى آخرها اعتراض.

والجعل هنا جعل التشريع بدليل أن مفعوله من شؤون التعبد لا من شؤون الخلق وهو لفظ القبلة، ولذلك ففعل جعل هنا متعد إلى مفعول واحد لأنه بمعنى شرعنا، فهذه الآيات نزلت بعد الأمر بالتوجه إلى الكعبة فيكون المراد بيت المقدس، وعدل عن تعريف المسند باسمه إلى الموصول لمحاكاة كلام المردود عليهم حين قالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها [البقرة: ١٤٢] مع **الإيماء** إلى تعليل الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: إلا لنعلم أي ما جعلنا تلك قبلة مع إرادة نسخها فألزمناكها زمنا إلا لنعلم إلخ.

والاستثناء في قوله: إلا لنعلم استثناء من علل وأحوال أي ما جعلنا ذلك لسبب وفي حال إلا لنظهر من كان صادق الإيمان في الحالتين حالة تشريع استقبال بيت المقدس وحالة تحويل الاستقبال إلى الكعبة. وذكر عبد الحكيم (١) أنه قد روي أن بعض العرب ارتدوا عن الإسلام لما استقبل رسول الله بيت المقدس حمية لقبلة العرب، واليهود كانوا تأولوا لأنفسهم العذر في التظاهر بالإسلام كما قررناه عند قوله تعالى: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا [البقرة: ١٤] فنافقوا وهم يتأولون للصلاة معه بأنها عبادة لله تعالى وزيادة على صلواتهم التي هم محافظون عليها إذا خلوا إلى شياطينهم مع أن صلاتهم مع المسلمين لا تشتمل على ما ينافي تعظيم شعائرهم

---

(١) أي السيالكوتي.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢

٢٩٣. ٢٩٣-"ولأن في استقبالها **إيماء** إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب. ولما كان الرضى مشعرا بالمحبة الناشئة عن تعقل اختير في هذا المقام دون تحبها أو تهواها أو نحوهما فإن مقام النبيء صلى الله عليه وسلم يربو عن أن يتعلق ميله بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعية استقبال بيت المقدس، ألا ترى أنه لما جاء في جانب قبلتهم بعد أن نسخت جاء بقوله: ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم الآية.

وقوله: فول وجهك تفريع على الوعد وتعجيل به والمعنى فول وجهك في حالة الصلاة وهو مستفاد من قرينة سياق الكلام على المجادلة مع السفهاء في شأن قبلة الصلاة.

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والأمر متوجه إليه باعتبار ما فيه من إرضاء رغبته، وسيعقبه بتشريك الأمة معه في الأمر بقوله: وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.

والشطر بفتح الشين وسكون الطاء الجهة والناحية وفسره قتادة بتلقاء، وكذلك قرأه أبي بن كعب، وفسر الجبائي وعبد الجبار الشطر هنا بأنه وسط الشيء، لأن الشطر يطلق على نصف الشيء فلما أضيف إلى المسجد والمسجد مكان اقتضى أن نصفه عبارة عن نصف مقداره ومساحته وذلك وسطه، وجعلا شطر المسجد الحرام كناية عن الكعبة لأنها واقعة من المسجد الحرام في نصف مساحته من جميع الجوانب (أي تقريبا) قال عبد الجبار ويدل على أن المراد ما ذكرنا وجهان أحدهما أن المصلي لو وقف بحيث يكون متوجها إلى المسجد ولا يكون متوجها إلى الكعبة لا تصح صلاته، الثاني لو لم نفسر

الشطر بما ذكرنا لم يبق لذكر الشطر فائدة إذ يغني أن يقول: فول وجهك شطر المسجد الحرام ولكان الواجب التوجه إلى المسجد الحرام لا إلى خصوص الكعبة.

فإن قلت ما فائدة قوله: فلنولينك قبلة ترضاها قبل قوله: فول وجهك وهلا قال: في السماء فول وجهك إلخ، قلت فائدته إظهار الاهتمام برغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها بحيث يعتنى بها كما دل عليه وصف القبلة بجملة ترضاها.

ومعنى (نولينك) نوجهنك، وفي التوجيه قرب معنوي لأن ولى المتعدي بنفسه إذا لم يكن بمعنى القرب الحقيقي فهو بمعنى الارتباط به، ومنه الولاء والولي، والظاهر أن تعديته إلى مفعول ثان

من قبيل الحذف والتقدير ولى وجهه إلى كذا ثم يعدونه إلى مفعول ثالث بحرف عن". (١)

٢٩٤. ٢٩٤-"استقبال المسلمين في صلاتهم لجهة معينة تكميل لمعنى الخشوع في صلاة الإسلام فيكون من التكملات التي ادخرها الله تعالى لهذه الشريعة لتكون تكملة الدين تشريفا لصاحبها صلى الله عليه وسلم ولأمته إن كان الاحتمال الأول، فإن كان الثاني فالأمر لنا بالاستقبال لئلا تكون صلاتنا أضعف استحضارا لجلال الله تعالى من صلاة غيرنا.

ولذلك اتفق علماؤنا على أن الاستقبال لجهة معينة كان مقارنا لمشروعية الصلاة في الإسلام فإن كان استقباله جهة الكعبة عن اجتهاد من النبيء صلى الله عليه وسلم فعلته أنه المسجد الذي عظمه أهل الكتابين والذي لم يداخله إشراك ولا نصبت فيه أصنام فكان ذلك أقرب دليل لاستقبال جهته ممن يريد استحضار وحدانية الله تعالى، وإن كان استقبال بيت المقدس بوحي من الله تعالى فلعل حكمته تأليف قلوب أهل الكتابين وليظهر بعد ذلك للنبيء وللمسلمين من اتبعهم من أهل الكتاب حقا ومن اتبعهم نفاقا لأن الأخيرين قد يتبعون الإسلام ظاهرا ويستقبلون في صلاتهم قبلتهم القديمة فلا يرون حرجا على أنفسهم في ذلك فإذا تغيرت القبلة خافوا من قصدهم لاستدبارها فأظهروا ما كانوا مستبطينه من الكفر كما أشار له قوله تعالى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول [البقرة: ١٤٢] الآية.

ولعل العدول عن الأمر باستقبال الكعبة في صدر الإسلام كان لخضد شوكة مكابرة قريش وطعنهم في الإسلام فإنه لو استقبل مكة لشمخوا بأنوفهم وقالوا هذا بلدنا ونحن أهله واستقباله حنين إليه وندامة على الهجرة منه، كما قد يكون قوله تعالى: ومن أظلم ممن منع مساجد الله [البقرة: ١١٤] وقوله: ولله المشرق والمغرب [البقرة: ١١٥] **إيماء** إليه كما قدمناه، وعليه ففي تحويل القبلة إلى الكعبة بعد ذلك بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن أمر قريش قد أشرف على الزوال وأن وقعة بدر ستكون الفيصل بين المسلمين وبينهم، ثم أمر الله بتحويل القبلة إلى البيت الذي هو أولى بذلك وإلى جهته للبعيد عنه.

وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (١٤٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٨

اعتراض بين جملة: فول وجهك شطر المسجد الحرام وجملة ومن حيث خرجت فول وجهك [البقرة: ١٤٩] الآية.". (١)

٢٩٥. ٢٩٥-"ولذلك وقع التعبير بالمضارع في قوله:

لمن يقتل في سبيل الله المشعر بأنه أمر مستقبل وهم الذين قتلوا في وقعة بدر بعيد نزول هذه الآية.

وقد تقدم القول في نظير هذه الآية عند قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة [البقرة: ٤٥] الآية إلا أنا نقول هنا إن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إنها لكبيرة علما منه بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال وقال هنالك إلا على الخاشعين ولم يذكر مثل هذا هنا، وفي هذا إيماء إلى أن المسلمين قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنهم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك، وزاد هنا فقال: إن الله مع الصابرين فبشرهم بأنهم ممن يمتثل هذا الأمر ويعد لذلك في زمرة الصابرين.

وقوله: إن الله مع الصابرين تذييل في معنى التعليل أي اصبروا ليكون الله معكم لأنه مع الصابرين.

وقوله: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء عطف النهي على الأمر قبله لمناسبة التعرض للغزو مما يتوقع معه القتل في سبيل الله، فلما أمروا بالصبر عرفوا أن الموت في سبيل الله أقوى ما يصبرون عليه، ولكن نبه مع ذلك على أن هذا الصبر ينقلب شكرا عند ما يرى الشهيد كرامته بعد الشهادة، وعند ما يوقن ذووه بمصيره من الحياة الأبدية، فقوله: ولا تقولوا نهي عن القول الناشئ عن اعتقاد، ذلك لأن الإنسان لا يقول إلا ما يعتقد فالمعنى ولا تعتقدوا، والظاهر أن هذا تكميل لقوله: وما كان الله ليضيع إيمانكم [البقرة: ١٤٣] كما تقدم من حديث البراء فإنه قال: «قتل أناس قبل تحويل القبلة» ، فأعقب قوله: وما كان الله ليضيع إيمانكم بأن فضيلة شهادتهم غير منقوصة.

وارتفع أموات على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي لا تقولوا هم أموات.

وبل للإضراب الإبطالي إبطالا لمضمون المنهي عن قوله، والتقدير بل هم أحياء، وليس المعنى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/٢

بل قولوا هم أحياء لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبر العظيم،
فقوله: «أحياء» هو خبر مبتدأ محذوف وهو كلام مستأنف بعد بل الإضرابية.
وإنما قال: ولكن لا تشعرون للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية". (١)

٢٩٦. ٢٩٦-"والكتمان يكون بإلغاء الحفظ والتدريس والتعليم، ويكون بإزالته من الكتاب أصلا وهو ظاهره قال تعالى: وتخفون كثيرا [الأنعام: ٩١] ، يكون بالتأويلات البعيدة عن مراد الشارع لأن إخفاء المعنى كتمان له، وحذف متعلق يكتمون الدال على المكتوم عنه للتعميم أي يكتمون ذلك عن كل أحد ليتأتى نسيانه وإضاعته.
وقوله: من بعد متعلق ب (يكتمون) وذكر هذا الظرف لزيادة التفظيع لحال الكتمان وذلك أنهم كتموا البينات والهدى مع انتفاء العذر في ذلك لأنهم لو كتموا ما لم يبين لهم لكان لهم بعض العذر أن يقولوا كتمناه لعدم اتضاح معناه فكيف وهو قد بين ووضح في التوراة.
واللام في قوله: للناس لام التعليل أي بيناه في الكتاب لأجل الناس أي أردنا إعلانه وإشاعته أي جعلناه بينا، وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من الكتمان وهو أنه مع كونه كتمانا للحق وحرمانا منه هو اعتداء على مستحقه الذي جعل لأجله ففعلهم هذا تضليل وظلم.
والتعريف في (الناس) للاستغراق لأن الله أنزل الشرائع لهدى الناس كلهم وهو استغراق عرفي أي الناس المشرع لهم.
وقوله: أولئك إشارة إلى الذين يكتمون وسط اسم الإشارة بين اسم إن وخبرها للتنبيه على أن الحكم الوارد بعد ذلك قد صاروا أحرياء به لأجل تلك الصفات التي ذكرت قبله بحيث إن تلك الصفات جعلتهم كالمشاهدين للسامع فأشير إليهم وهو في الحقيقة إشارة إلى أوصافهم، فمن أجل ذلك أفادت الإشارة التنبيه على أن تلك الأوصاف
هي سبب الحكم وهو إيماء للعلة على حد: أولئك على هدى من ربهم [البقرة: ٥] .
واختير اسم إشارة البعيد ليكون أبعث للسامع على التأمل منهم والالتفات إليهم أو لأن اسم الإشارة بهذه الصيغة هو الأكثر استعمالا في كلامهم.

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٢

وقد اجتمع في الآية إيمان إلى وجه ترتب اللعن على الكتمان وهما **الإيماء** بالموصول إلى وجه بناء الخبر أي علته وسببه، **والإيماء** باسم الإشارة للتنبيه على أحرويتهم بذلك، فكان تأكيد **الإيماء** إلى التعليل قائما مقام التنصيص على العلة.". (١)

٢٩٧. ٢٩٧-"وفيه: «أشهد عليكم اليوم السماء والأرض قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة» .

فقوله تعالى: ويلعنهم اللاعنون تذكير لهم باللعنة المسطورة في التوراة فإن التوراة متلوة دائما بينهم فكلما قرأ القارئون هذا الكلام تجددت لعنة المقصودين به، والذين كتموا ما أنزل من البينات والهدى هم أيضا يقرأون التوراة فإذا قرأوا لعنة الكاتمين فقد لعنوا أنفسهم بألسنتهم فأما الذين يلعنون المجرمين والظالمين غير الكاتمين ما أنزل من البينات والهدى فهم غير مشمولين في هذا العموم وبذلك كان الاستغراق المستفاد من تعريف اللاعنون باللام استغراقا عرفيا.

واعلم أن لام الاستغراق العرفي واسطة بين لام الحقيقة ولام الاستغراق الحقيقي.

وإنما عدل إلى التعريف مع أنه كالنكرة مبالغة في تحققه حتى كأنه صار معروفا لأن المنكر مجهول، أو يكون التعريف للعهد أي يلعنهم الذين لعنوهم من الأنبياء الذين أوصوا بإعلان العهد وأن لا يكتموه.

ولما كان في صلة الذين يكتمون **إيماء** كما قدمناه فكل من يفعل فعلا من قبيل مضمون الصلة من غير أولئك يكون حقيقا بما تضمنه اسم الإشارة وخبره فإن من مقاصد القرآن في ذكر القصص الماضية أن يعتبر بها المسلمون في الخير والشر، وعن ابن عباس أن كل ما ذم الله أهل الكتاب عليه فالمسلمون محذرون من مثله، ولذا قال أبو هريرة لما قال الناس أكثر أبو هريرة من الرواية عن رسول الله فقال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم حديثا بعد أن قال الناس أكثر أبو هريرة: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية وساق الحديث (١) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٦٧

فالعالم يحرم عليه أن يكتم من علمه ما فيه هدى للناس لأن كتم الهدى إيقاع في الضلالة سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة والعلم
الذي يحصل عن نظر كالاجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأن فيها خيرا للمسلمين، ويحرم عليه بطريق القياس الذي تومئ إليه العلة أن يبث في الناس ما يوقعهم في أوهام بأن يلقنها وهو لا يحسن تنزيلها ولا تأويلها، فقد
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»
وكذلك كل ما يعلم أن الناس لا يحسنون وضعه.

---

(١) أخرجه البخاري في: (٣) «كتاب العلم» (٤٢) ، باب حفظ العلم، حديث (١١٨) . انظر «فتح الباري» (١/ ٢١٣، دار المعرفة.". (١)

٢٩٨. ٢٩٨-"وقوله: حلالا طيبا تعريض بتحميقهم فيما أعنتوا به أنفسهم فحرموها من نعم طيبة افتراء على الله، وفيه إيماء إلى علة إباحته في الإسلام وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم.
والمقصود إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من قوله: وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم [الأنعام: ١٣٨] الآيات. قيل نزلت في ثقيف وبني عامر بن صعصعة وخزاعة وبني مدلج حرموا على أنفسهم من الأنعام أي مما ذكر في سورة الأنعام.
ومن في قوله: مما في الأرض للتبعيض، فالتبعيض راجع إلى كون المأكول بعضا من كل نوع وليس راجعا إلى كون المأكول أنواعا دون أنواع، لأنه يفوت غرض الآية، فما في الأرض عام خصصه الوصف بقوله: حلالا طيبا فخرجت المحرمات الثابت تحريمها بالكتاب أو السنة.
وقوله: حلالا طيبا حالان من (ما) الموصولة، أولهما لبيان الحكم الشرعي والثاني لبيان علته لأن الطيب من شأنه أن تقصده النفوس للانتفاع به فإذا ثبت الطيب ثبتت الحلية لأن الله

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٦٩

رفيق بعباده لم يمنعهم مما فيه نفعهم الخالص أو الراجح.

والمراد بالطيب هنا ما تستطيبه النفوس بالإدراك المستقيم السليم من الشذوذ وهي النفوس التي تشتهي الملائم الكامل أو الراجح بحيث لا يعود تناوله بضر جثماني أو روحاني وسيأتي معنى الطيب لغة عند قوله تعالى: قل أحل لكم الطيبات [المائدة: ٤] في سورة المائدة.

وفي هذا الوصف معنى عظيم من **الإيماء** إلى قاعدة الحلال والحرام فلذلك قال علماؤنا: إن حكم الأشياء التي لم ينص الشرع فيها بشيء أن أصل المضار منها التحريم وأصل المنافع الحل، وهذا بالنظر إلى ذات الشيء بقطع النظر عن عوارضه كتعلق حق الغير به الموجب تحريمه، إذ التحريم حينئذ حكم للعارض لا للمعروض.

وقد فسر الطيب هنا بما يبيحه الشرع وهو بعيد لأنه يفضي إلى التكرار، ولأنه يقتضي استعمال لفظ في معنى غير متعارف عندهم.

وقوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دوما، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة.". (١)

٢٩٩. ٢٩٩-"[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٠]

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (١٧٠)

الأحسن عندي أن يكون عطفا على قوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان [البقرة: ١٦٨] ، فإن المقصود بالخطاب في ذلك هم المشركون فإنهم الذين ائتمروا لأمره بالسوء والفحشاء، وخاصة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، والمسلمون محاشون عن مجموع ذلك.

وفي هذه الآية المعطوفة زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات، أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر.

بل إضراب إبطال، أي أضربوا عن قول الرسول، اتبعوا ما أنزل الله، إضراب إعراض بدون

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/٢

حجة إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم.

وفي ضمير لهم التفات من الخطاب الذي في قوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان [البقرة: ١٦٨] .

والمراد بما ألفوا عليه ءاباءهم، ما وجدوهم عليه من أمور الشرك كما قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون [الزخرف: ٢٣] والأمة: الملة وأعظم ذلك عبادة الأصنام.

وقوله: أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون كلام من جانب آخر للرد على قولهم نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإن المتكلم لما حكاه عنهم رد قولهم هذا باستفهام يقصد منه الرد ثم التعجيب، فالهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجيب **إيماء**، والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي.

و (لو) للشرط وجوابها محذوف دل عليه الكلام السابق، تقديره: لاتبعوهم، والمستفهم عنه هو الارتباط الذي بين الشرط وجوابه، وإنما صارت الهمزة للرد لأجل

العلم بأن المستفهم عنه يجاب عنه بالإثبات بقرائن حال المخبر عنه والمستفهم. ومثل هذا التركيب من بديع التراكيب العربية وأعلاها إيجازا و (لو) في مثله تسمى وصلية وكذلك (إن) إذا وقعت في موقع (لو) .

وللعلماء في معنى الواو وأداة الشرط في مثله ثلاثة أقوال:". (١)

٣٠٠. ٣٠٠-"وقد قيل في وجه ذكر اللحم هنا وتركه في قوله: إنما حرم عليكم الميتة وجوه قال ابن عطية: إن المقصد الدلالة على تحريم عينه ذكي أم لم يذك اه. ومراده بهذا ألا يتوهم متوهم أنه إنما يحرم إذا كان ميتة وفيه بعد، وقال الألوسي خصه لإظهار حرمته، لأنهم فضلوه على سائر اللحوم فربما استعظموا وقوع تحريمه اه. يريد أن ذكره لزيادة التغليظ أي ذلك اللحم الذي تذكرونه بشراهة، ولا أحسب ذلك، لأن الذين استجادوا لحم الخنزير هم الروم دون العرب، وعندي أن إقحام لفظ اللحم هنا إما مجرد تفنن في الفصاحة وإما **للإيماء** إلى طهارة ذاته كسائر الحيوان، وإنما المحرم أكله لئلا يفضي تحريمه بالناس إلى قتله أو تعذيبه، فيكون فيه

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٠٦

حجة لمذهب مالك بطهارة عين الخنزير كسائر الحيوان الحي، وإما للترخيص في الانتفاع بشعره لأنهم كانوا يغرزون به الجلد.

وحكمة تحريم لحم الخنزير أنه يتناول القاذورات بإفراط فتنشأ في لحمه دودة (١) مما يقتاته لا تهضمها معدته فإذا أصيب بها آكله قتلته.

ومن عجيب ما يتعرض له المفسرون والفقهاء البحث في حرمة خنزير الماء وهي مسألة فارغة إذ أسماء أنواع الحوت روعيت فيها المشابهة كما سموا بعض الحوت فرس البحر وبعضه حمام البحر وكلب البحر، فكيف يقول أحد بتأثير الأسماء والألقاب في الأحكام الشرعية وفي «المدونة» توقف مالك أن يجيب في خنزير الماء وقال: أنتم تقولون خنزير. قال ابن شأس: رأى غير واحد أن توقف مالك حقيقة لعموم أحل لكم صيد البحر [المائدة: ٩٦] وعموم قوله تعالى: ولحم الخنزير ورأى بعضهم أنه غير متوقف فيه حقيقة، وإنما امتنع من الجواب إنكارا عليهم تسميتهم إياه خنزيرا ولذلك قال أنتم تسمونه خنزيرا يعني أن العرب لم يكونوا يسمونه خنزيرا وأنه لا ينبغي تسميته خنزيرا ثم السؤال عن أكله حتى يقول قائلون أكلوا لحم الخنزير، أي فيرجع كلام مالك إلى صون ألفاظ الشريعة ألا يتلاعب بها، وعن أبي حنيفة أنه منع أكل خنزير البحر غير متردد أخذا بأنه سمي خنزيرا، وهذا عجيب منه وهو المعروف بصاحب الرأي، ومن أين لنا ألا يكون

لذلك الحوت اسم آخر في لغة بعض العرب فيكون أكله محرما على فريق ومباحا لفريق.

وقوله تعالى: وما أهل به لغير الله أي ما أعلن به أو نودي عليه بغير اسم الله تعالى، وهو مأخوذ من أهل إذا رفع صوته بالكلام ومثله استهل ويقولون: استهل الصبي صارخا إذا رفع

---

(١) وتسمى في الفرنسية () والمرض يسمى () .". (١)

٣٠١. ٣٠١-"صوته بالبكاء، وأهل بالحج أو العمرة إذا رفع صوته بالتلبية عند الشروع فيهما، والأقرب أنه مشتق من قول الرجل: هلا لقصد التنبيه المستلزم لرفع الصوت وهلا أيضا اسم صوت لزجر الخيل، وقيل مشتق من الهلال، لأنهم كانوا إذا رأوا الهلال نادى

---

(١) التحرير والتنوير ١١٩/٢

بعضهم بعضا وهو عندي من تلفيقات اللغويين وأهل الاشتقاق، ولعل اسم الهلال إن كان مشتقا وكانوا يصيحون عند رؤيته وهو الذي اشتق من هل وأهل بمعنى رفع صوته، لأن تصاريف أهل أكثر، ولأنهم سموا الهلال شهرا من الشهرة كما سيأتي.

وكانت العرب في الجاهلية إذا ذبحت أو نحرت للصنم صاحوا باسم الصنم عند الذبح فقالوا باسم اللات أو باسم العزى أو نحوهما، وكذلك كان عند الأمم التي تعبد آلهة إذا قربت لها القرابين، وكان نداء المعبود ودعاؤه عند الذبح إليه عادة عند اليونان كما جاء في «الإلياذة» لهوميروس.

فأهل في الآية مبني للمجهول أي ما أهل عليه المهل غير اسم الله، وضمن (أهل) معنى تقرب فعدي لمتعلقه بالباء وباللام مثل تقرب، فالضمير المجرور بالباء عائد إلى ما أهل، وفائدة هذا التضمين تحريم ما تقرب به لغير الله تعالى سواء نودي عليه باسم المتقرب إليه أم لا، والمراد بغير الله الأصنام ونحوها.

وأما ما يذبحه سودان بلدنا بنية أن الجن تشرب دمه ولا يذكرون اسم الله عليه زعما بأن الجن تفر من نورانية اسم الله فالظاهر أنه لا يجوز أكله وإن كان الذين يفعلونه مسلمين ولا يخرجهم ذلك عن الإسلام. وقال ابن عرفة في «تفسيره» : الأظهر جواز أكله لأنه لم يهل به لغير الله.

وقوله: «فمن اضطر» إلخ الفاء فيه لتفريع الإخبار لا لتفريع المعنى، فإن معنى رفع الحرج عن المضطر لا ينشأ عن التحريم، والمضطر هو الذي ألجأته الضرورة أي الحاجة أي اضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات فلا إثم عليه، وقوله: غير باغ ولا عاد حال، والبغي الظلم، والعدوان المحاربة والقتال، ومجيء هذه الحال هنا للتنويه بشأن المضطر في حال إباحة هاته المحرمات له بأنه بأكلها يكون غير باغ ولا عاد، لأن الضرورة تلجئ إلى البغي والاعتداء فالآية إيماء إلى علة الرخصة وهي رفع البغي

والعدوان بين الأمة، وهي أيضا إيماء إلى حد الضرورة وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم

يكن دأبه البغي والعدوان بأنه سيبغي ويعتدي". (١)

٣٠٢. ٣٠٢-"عما تمكن المؤاخذة عليه لا بمعنى تجاوز الذنب، ونحوه
قوله صلى الله عليه وسلم في رؤيا القليب «وفي نزعه ضعف والله يغفر له»
. ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة.
[١٧٤]

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٤]
إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٧٤)
عود إلى محاجة أهل الكتاب لاحق بقوله تعالى: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى [البقرة: ١٥٩] بمناسبة قوله: إنما حرم عليكم الميتة والدم [البقرة: ١٧٣] تحذيرا للمسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم وتحليل بعض ما حرم الله عليهم لأنهم كانوا إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرؤا من كتابهم ما غيروا العمل بأحكامه كما قال تعالى: تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا [الأنعام: ٩١] كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة حين دعا النبيء صلى الله عليه وسلم أحد اليهود ليقرأ ذلك الحكم من التوراة فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك كما أخرجه البخاري في كتاب الحدود، ولجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات جاء قوله هنا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار لقصد المشاكلة.
وفي هذا تهيئة للتخلص إلى ابتداء شرائع الإسلام فإن هذا الكلام فيه إبطال لما شرعه أهل الكتاب في دينهم فكون التخلص ملونا بلوني الغرض السابق والغرض اللاحق.
وعدل عن تعريفهم بغير الموصول إلى الموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى سبب الخبر وعلته نحو قوله تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [غافر: ٦٠] .
والقول في الكتمان تقدم عند قوله تعالى: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٢٠

[البقرة: ١٥٩] والكتاب المذكور هنا هو الكتاب المعهود من السياق وهو كتاب الذين يكتمون

، فيشبه أن تكون (أل) عوضا عن المضاف إليه، والذين يكتمونه هم اليهود والنصارى أي يكتمون البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ويكتمون بعض الأحكام التي بدلوها.". (١)

٣٠٣. ٣٠٣-"وإذا تقرر أن الآية لا دلالة لها على نفي القصاص بين الأصناف المختلفة ولا على إثباته من جهة ما ورد على كل تأويل غير ذلك من انتقاض بجهة أخرى، فتعين أن قوله:

الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى محمله الذي لا شك فيه هو مساواة أفراد كل صنف بعضها مع بعض دون تفاضل بين الأفراد، ثم أدلة العلماء في تسوية القصاص بين

بعض الأصناف مع بعض الذكور بالإناث وفي عدمها كعدم تسوية الأحرار بالعبيد عند الذين لا يسوون بين صنفيهما خلافا لأبي حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وداود أدلة أخرى غير هذا القيد الذي في ظاهر الآية، فأما أبو حنيفة فأخذ بعموم قوله: القتلى ولم يثبت له مخصصا ولم يستثن منه إلا القصاص بين المسلم والكافر الحربي واستثناؤه لا خلاف فيه، ووجهه أن الحربي غير معصوم الدم، وأما المعاهد ففي حكم قتل المسلم إياه مذاهب، وأما الشافعي وأحمد فنفيا القصاص من المسلم للذمي والمعاهد وأخذا

بحديث «لا يقتل مسلم بكافر»

، ومالك والليث قالا لا قصاص من المسلم إذا قتل الذمي والمعاهد قتل عدوان وأثبتا القصاص منه إذا قتل غيلة.

وأما القصاص بين الحر والعبد في قطع الأطراف فليس من متعلقات هذه الآية وسيأتي عند قوله تعالى: والجروح قصاص [المائدة: ٤٥] في سورة العقود. ونفى مالك والشافعي وأحمد القصاص من الحر للعبد استنادا لعمل الخلفاء الراشدين وسكوت الصحابة، واستنادا لآثار مروية، وقياسا على انتفاء القصاص من الحر في إصابة أطراف العبد فالنفس أولى بالحفظ. والقصاص من العبد لقتله الحر ثابت عندهما بالفحوى، والقصاص من الذكر لقتل الأنثى

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢

ثابت بلحن الخطاب.

فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة.

الفاء لتفريع الإخبار أي لمجرد الترتيب اللفظي لا لتفريع حصول ما تضمنته الجملة المعطوفة بها على حصول ما تضمنته ما قبلها، والمقصود بيان أن أخذ الولي بالقصاص المستفاد من صور كتب عليكم القصاص في القتلى ليس واجبا عليه ولكنه حق له فقط لئلا يتوهم من قوله: كتب عليكم أن الأخذ به واجب على ولي القتيل، والتصدي لتفريع ذكر هذا بعد ذكر حق القصاص **للإيماء** إلى أن الأولى بالناس قبول الصلح استبقاء لأواصر أخوة". (١)

٣٠٤. ٣٠٤-"والجمهور على أن الوصية بأكثر من الثلث باطلة للحديث المشهور عن سعد بن أبي وقاص أنه مرض فعاده النبيء صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في أن يوصي بجميع ماله فمنعه إلى أن قال له «الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» ،

وقال أبو حنيفة: إن لم يكن للموصي ورثة ولو عصبة دون بيت المال جاز للموصي أن يوصي بجميع ماله ومضى ذلك أخذا **بالإيماء** إلى العلة في قوله «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير» إلخ. وقال: إن بيت المال جامع لا عاصب وروي أيضا عن علي وابن عباس ومسروق وإسحاق بن راهويه، واختلف في إمضائها للوارث إذا أجازها بقية الورثة ومذهب العلماء من أهل الأمصار أنها إذا أجازها الوارث مضت.

هذا وقد اتفق المسلمون على أن الله تعالى عين كيفية قسمة تركة الميت بآية المواريث، وأن آية الوصية المذكورة هنا صارت بعد ذلك غير مراد منها ظاهرها، فالقائلون بأنها محكمة قالوا: بقيت الوصية لغير الوارث والوصية للوارث بما زاد على نصيبه من الميراث فلا نسخ بين الآيتين.

والقائلون بالنسخ يقول منهم من يرون الوصية لم تزل مفروضة لغير الوارث: إن آية المواريث نسخت الاختيار في الموصى له والإطلاق في المقدار الموصى به، ومن يرى

(١) التحرير والتنوير ٢/١٤٠

منهم الوصية قد نسخ وجوبها وصارت مندوبة يقولون: إن آية المواريث نسخت هذه الآية كلها فأصبحت الوصية المشروعة بهذه الآية منسوخة بآية المواريث للإجماع على أن آية المواريث نسخت عموم الوالدين والأقربين الوارثين، ونسخت الإطلاق الذي في لفظ (الوصية) والتخصيص بعد العمل بالعام، والتقييد بعد العمل بالمطلق كلاهما نسخ، وإن كان لفظ آية المواريث لا يدل على ما يناقض آية الوصية، لاحتمالها أن يكون الميراث بعد إعطاء الوصايا أو عند عدم الوصية بل ظاهرها ذلك لقوله: من بعد وصية [النساء: ١١] ، وإن كان الحديثان الواردان في ذلك آحادا لا يصلحان لنسخ القرآن عند من لا يرون نسخ القرآن بخبر الآحاد، فقد ثبت حكم جديد للوصية وهو الندب أو الوجوب على الخلاف في غير الوارث وفي الثلث بدليل الإجماع المستند للأحاديث وفعل الصحابة، ولما ثبت حكم جديد للوصية فهو حكم غير مأخوذ من الآية المنسوخة بل هو حكم مستند للإجماع، هذا تقرير أصل استنباط العلماء في هذه المسألة وفيه ما يدفع عن الناظر إشكالات كثيرة للمفسرين والفقهاء في تقرير كيفية النسخ.". (١)

٣٠٥. ٣٠٥-"شهد بمعنى تحقق وعلم، مع زيادة في تأكيد حكم الرخصة ولزيادة بيان معنى قوله: فمن شهد منكم الشهر فليصمه.

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

استئناف بياني كالعلة لقوله: ومن كان مريضا إلخ بين به حكمة الرخصة أي شرع لكم القضاء لأنه يريد بكم اليسر عند المشقة.

وقوله: ولا يريد بكم العسر نفي لضد اليسر، وقد كان يقوم مقام هاتين الجملتين جملة قصر نحو أن يقول: ما يريد بكم إلا اليسر، لكنه عدل عن جملة القصر إلى جملتي إثبات ونفي لأن المقصود ابتداء هو جملة الإثبات لتكون تعليلا للرخصة، وجاءت بعدها جملة النفي تأكيدا لها، ويجوز أن يكون قوله: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر تعليلا لجميع ما تقدم من قوله: كتب عليكم الصيام [البقرة: ١٨٣] إلى هنا فيكون **إيماء** إلى أن مشروعية الصيام وإن كانت تلوح في صورة المشقة والعسر فإن في طيها من المصالح ما يدل على أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٥١

الله أراد بها اليسر أي تيسير تحصيل رياضة النفس بطريقة سليمة من إرهاق أصحاب بعض الأديان الأخرى أنفسهم.
وقرأ الجمهور: (اليسر) و (العسر) بسكون السين فيهما، وقرأه أبو جعفر بضم السين ضمة إتباع.
ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون.
عطف على جملة: يريد الله بكم اليسر إلخ إذ هي في موقع العلة كما علمت فإن مجموع هذه الجمل الأربع تعليل لما قبلها من قوله: فمن شهد منكم الشهر إلى قوله: فعدة من أيام أخر.
واللام في قوله: ولتكبروا تسمى شبه الزائدة وهي اللام التي يكثر وقوعها بعد فعل الإرادة وفعل الأمر أي مادة أمر اللذين مفعولهما أن المصدرية مع فعلها، فحق ذلك". (١)

٣٠٦. ٣٠٦-"في سياق الشرط فقال سألك عبادي وقال:
أجيب دعوة الداع ولو قيل وليدعوني فأستجيب لهم لكان حكما جزئيا خاصا بهم، فقد ظهر وجه اتصال الآية بالآيات قبلها ومناسبتها لهن وارتباطها بهن من غير أن يكون هنالك اعتراض جملة.
وقيل إنها جملة معترضة اقترنت بالواو بين أحكام الصيام للدلالة على أن الله تعالى مجازيهم على أعمالهم وأنه خبير بأحوالهم، قيل إنه ذكر الدعاء هنا بعد ذكر الشكر للدلالة على أن الدعاء يجب أن يسبقه الثناء.
والعباد الذين أضيفوا إلى ضمير الجلالة هم المؤمنون لأن الآيات كلها في بيان أحكام الصوم ولوازمه وجزائه وهو من شعار المسلمين، وكذلك اصطلاح القرآن غالبا في ذكر العباد مضافا لضمير الجلالة، وأما قوله تعالى: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء [الفرقان:
١٧] بمعنى المشركين فاقتضاه أنه في مقام تنديمهم على استعبادهم للأصنام.
وإنما قال تعالى: فإني قريب ولم يقل: فقل لهم إني قريب إيجازا لظهوره من قوله: وإذا سألك عبادي عني، وتنبيها على أن السؤال مفروض غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفة قرآنية وهي إيهام أن الله تعالى تولى جوابهم عن سؤالهم بنفسه إذ حذف في اللفظ ما يدل على وساطة

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٥/٢

النبيء صلى الله عليه وسلم تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء.

واحتيج للتأكيد بإن، لأن الخبر غريب وهو أن يكون تعالى قريبا مع كونهم لا يرونه.

وأجيب خبر ثان لإن وهو المقصود من الإخبار الذي قبله تمهيدا له لتسهيل قبوله.

وحذفت ياء المتكلم من قوله «دعان» في قراءة نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي لأن حذفها في الوقف لغة جمهور العرب عدا أهل الحجاز، ولا تحذف عندهم في الوصل لأن الأصل عدمه ولأن الرسم يبنى على حال الوقف، وأثبت الياء ابن كثير وهشام ويعقوب في الوصل والوقف، وقرأ ابن ذكوان وعاصم بحذف الياء في الوصل والوقف وهي لغة هذيل، وقد تقدم أن الكلمة لو وقعت فاصلة لكان الحذف متفقا عليه في قوله تعالى: وإياي فارهبون [البقرة: ٤٠] في هذه السورة.

وفي هذه الآية **إيماء** إلى أن الصائم مرجو الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان.". (١)

٣٠٧. ٣٠٧-"وثعلبة بن غنمة الأنصاري فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، قال العراقي لم أقف لهذا السبب على إسناد.

وجمع الضمير في قوله: يسئلونك مع أن المروي أن الذي سأله رجلان- نظرا

لأن المسئول عنه يهم جميع السامعين أثناء تشريع الأحكام ولأن من تمام ضبط النظام أن يكون المسئول عنه قد شاع بين الناس واستشرف كثير منهم لمعرفته سواء في ذلك من سأل بالقول ومن سأل في نفسه.

وذكر فوائد خلق الأهلة في هذا المقام **للإيماء** إلى أن الله جعل للحج وقتا من الأشهر لا يقبل التبديل وذلك تمهيدا لإبطال ما كان في الجاهلية من النسيء في أشهر الحج في بعض السنين.

والسؤال: طلب أحد من آخر بذل شيء أو إخبارا بخبر، فإذا كان طلب بذل عدي فعل السؤال بنفسه وإذا كان طلب إخبار عدي الفعل بحرف «عن» أو ما ينوب منابه.

(١) التحرير والتنوير ٢/١٧٩

وقد تكررت في هذه السورة آيات مفتتحة ب يسئلونك وهي سبع آيات غير بعيد بعضها عن بعض، جاء بعضها غير معطوف بحرف العطف وهي أربع وبعضها معطوفا به وهي الثلاث الأواخر منها، وأما غير المفتتحة بحرف العطف فلا حاجة إلى تبيين تجردها عن العاطف لأنها في استئناف أحكام لا مقارنة بينها وبين مضمون الجمل التي قبلها فكانت جديرة بالفصل دون عطف، ولا يتطلب لها سوى المناسبة لمواقعها. وأما الجمل الثلاث الأواخر المفتتحة بالعاطف فكل واحدة منها مشتملة على أحكام لها مزيد اتصال بمضمون ما قبلها فكان السؤال المحكي فيها مما شأنه أن ينشأ عن التي قبلها فكانت حقيقة بالوصل بحرف العطف كما سيتضح في مواقعها.

والسؤال عن الأهلة لا يتعلق بذواتها إذ الذوات لا يسأل إلا عن أحوالها، فيعلم هنا تقدير وحذف أي عن أحوال الأهلة، فعلى تقدير كون السؤال واقعا بها غير مفروض فهو يحتمل السؤال عن الحكمة ويحتمل السؤال عن السبب، فإن كان عن الحكمة فالجواب بقوله: قل هي مواقيت للناس جار على وفق السؤال، وإلى هذا ذهب صاحب «الكشاف» ، ولعل المقصود من السؤال حينئذ استثبات كون المراد الشرعي منها موافقا لما اصطلحوا عليه لأن كونها مواقيت ليس مما يخفى حتى يسأل عنه، فإنه متعارف لهم، فيتعين كون المراد من سؤالهم إن كان واقعا هو تحقق الموافقة للمقصد الشرعي.

وإن كان السؤال عن السبب فالجواب بقوله: قل هي مواقيت". (١)

٣٠٨. ٣٠٨-"والمراد من الذين آمنوا المسلمون لا محالة، والضمير في اختلفوا عائد للمختلفين كلهم، سواء الذين اختلفوا في الحق قبل مجيء الرسل والذين اختلفوا في الشرائع بعد مجيء الرسل والبينات ولذلك بينه بقوله: من الحق وهو الحق الذي تقدم ذكره في قوله: وأنزل معهم الكتاب بالحق اختلاف الفريقين راجع إلى الاختلاف في تعيين الحق إما عن جهل أو عن حسد وبغي.

والإذن: الخطاب بإباحة فعل وأصله مشتق من فعل أذن إذا أصغى أذنه إلى كلام من يكلمه، ثم أطلق على الخطاب بإباحة فعل على طريقة المجاز بعلاقة اللزوم لأن الإصغاء إلى كلام

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٩٤

المتكلم يستلزم الإقبال عليه وإجابة مطلبه، وشاع ذلك حتى صار الإذن أشيع في معنى الخطاب بإباحة الفعل، وبذلك صار لفظ الإذن قابلا لأن يستعمل مجازا في معان من مشابهات الخطاب بالإباحة، فأطلق في هذه الآية على التمكين من الاهتداء وتيسيره بما في الشرائع من بيان الهدى والإرشاد إلى وسائل الاهتداء على وجه الاستعارة، لأن من ييسر لك شيئا فكأنه أباح لك تناوله.

وفي هذا **إيماء** إلى أن الله بعث بالإسلام لإرجاع الناس إلى الحق وإلى التوحيد الذي كانوا عليه، أو لإرجاعهم إلى الحق الذي جاءت الرسل لتحصيله، فاختلف أتباعهم فيه بدلا من أن يحققوا بأفهامهم مقاصد ما جاءت به رسلهم، فحصل بما في الإسلام من بيان القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وضوح الحق والإرشاد إلى كيفية أخذه، فحصل بمجيء الإسلام إتمام مراد الله مما أنزل من الشرائع السالفة.

وقوله: والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم تذييل لبيان أن فضل الله يعطيه من يشاء، وهذا إجمال، وتفصيله أن حكمة الله اقتضت أن يتأخر تمام الهدى إلى وقت مجيء شريعة الإسلام لما تهيأ البشر بمجيء الشرائع السابقة لقبول هذه الشريعة الجامعة،

فكانت الشرائع السابقة تمهيدا وتهيئة لقبول دين الإسلام، ولذلك صدرت هذه الآية بقوله: كان الناس أمة واحدة، فكما كان البشر في أول أمره أمة واحدة على هدى بسيط ثم عرضت له الضلالات عند تحرك الأفكار البشرية، رجع البشر إلى دين واحد في حالة ارتقاء الأفكار، وهذا اتحاد عجيب، لأنه جاء بعد تشتت الآراء والمذاهب، ولذا قال تعالى: إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، و". (١)

٣٠٩. ٣٠٩-"إن هذا لشيء عجاب [ص: ٥] فليس الكفر بالله إلا ركنا من أركان الصد عن الإسلام فلذلك قدم الصد عن سبيل الله ثم ثنى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصد عن سبيل الله بدلالة التضمن، ثم عد عليهم الصد عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه. ولا يصح أن يكون «والمسجد الحرام» عطفا على الضمير في قوله (به)

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٢/٢

لأنه لا معنى للكفر بالمسجد الحرام فإن الكفر يتعدى إلى ما يعبد وما هو دين وما يتضمن دينا، على أنهم يعظمون المسجد الحرام ولا يعتقدون فيه ما يسوغ أن يتكلف بإطلاق لفظ الكفر عليه على وجه المجاز.

وقوله: وإخراج أهله منه أي إخراج المسلمين من مكة فإنهم كانوا حول المسجد الحرام لأن في إخراجهم مظالم كثيرة فقد مرض المهاجرون في خروجهم إلى المدينة ومنهم كثير من أصابته الحمى حتى رفعت من المدينة ببركة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، على

أن التفضيل إنما تعلق بوقوع القتال في الأشهر الحرم لا بنفس القتل فإن له حكما يخصه.

والأهل: الفريق الذين لهم مزيد اختصاص بما يضاف إليه اللفظ، فمنه أهل الرجل عشيرته، وأهل البلد المستوطنون به، وأهل الكرم المتصفون به، أراد به هنا المستوطنين بمكة وهم المسلمون، وفيه **إيماء** إلى أنهم أحق بالمسجد الحرام، لأنهم الذين اتبعوا ملة من بنى المسجد الحرام قال تعالى: وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون [الأنفال: ٣٤] وقوله: والفتنة أكبر من القتل تذييل مسوق مساق التعليل، لقوله: وإخراج أهله منه وإذ قد كان إخراج أهل الحرم منه أكبر من القتل كان ما ذكر قبله من الصد عن الدين والكفر بالله والصد عن المسجد الحرام أكبر بدلالة الفحوى، لأن تلك أعظم جرما من جريمة إخراج المسلمين من مكة.

والفتنة: التشغيب والإيقاع في الحيرة واضطراب العيش فهي اسم شامل لما يعظم من الأذى الداخل على أحد أو جماعة من غيرهم، وأريد بها هنا ما لقيه المسلمون من المشركين من المصائب في الدين بالتعرض لهم بالأذى بالقول والفعل، ومنعهم من إظهار عبادتهم، وقطيعتهم في المعاملة، والسخرية بهم والضرب المدمي والتمالؤ على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم والإخراج من مكة ومنع من أموالهم ونسائهم وصدهم عن البيت، ولا يخفى أن مجموع ذلك أكبر من قتل المسلمين واحدا من رجال المشركين وهو عمرو الحضرمي وأسرهم رجلين منهم.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٣٠

٣١٠. ٣١٠-"وجيء باسم الإشارة للدلالة على أن رجاءهم رحمة الله لأجل إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، فتأكد بذلك ما يدل عليه الموصول من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وإنما احتيج لتأكيده لأن الصلتين لما كانتا مما اشتهر بهما المسلمون وطائفة منهم صارتا كاللقب إذ يطلق على المسلمين يومئذ في لسان الشرع اسم الذين آمنوا كما يطلق على مسلمي قريش يومئذ اسم المهاجرين فأكد قصد الدلالة على وجه بناء الخبر من الموصول.

والرجاء: ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله، فإن وعد الله وإن كان لا يخلف فضلا منه وصدقا، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل لمراد الله قد تفوت لموانع لا يدريها المكلف ولئلا يتكلوا في الاعتماد على العمل.

[٢١٩، ٢٢٠]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٩]

يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٠]

في الدنيا والآخرة ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم (٢٢٠)

يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.

استئناف لإبطال عملين غالبين على الناس في الجاهلية وهما شرب الخمر والميسر وهذا من عداد الأحكام التي بينها في هاته السورة مما يرجع إلى إصلاح الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهلية، والمشروع في بيانها من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى [البقرة: ١٧٨] إلى آخر السورة، عدا ما تخلل ذلك من الآداب والزواجر والبشائر والمواعظ والأمثال والقصص على عادة القرآن في تفنن أساليبه تنشيطا للمخاطبين والسامعين والقارئين ومن بلغ، وقد تناسقت في هذه الآية.

والسائلون هم المسلمون قال الواحدي: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من

الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال، فنزلت هذه الآية، قال في «الكشاف» : فلما نزلت هذه الآية ترك الخمر قوم وشربها آخرون ثم نزلت بعدها آية المائدة [٩٠] : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر.

وشرب الخمر عمل متأصل في البشر قديما لم تحرمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأما ما يذكره علماء الإسلام إن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشواهد على ضده متوافرة، وإنما جرأهم على هذا القول ما قعدوه في". (١)

٣١١. ٣١١-"وقدم الإمساك على التسريح إيماء إلى أنه الأهم، المرغب فيه في نظر الشرع.

والإمساك حقيقته قبض اليد على شيء مخافة أن يسقط أو يتفلت، وهو هنا استعارة لدوام المعاشرة.

والتسريح ضد الإمساك في معنييه الحقيقي والمجازي، وهو مستعار هنا لإبطال سبب المعاشرة بعد الطلاق، وهو سبب الرجعة ثم استعارة ذلك الإبطال للمفارقة فهو مجاز بمرتبتين.

والمعروف هنا هو ما عرفه الناس في معاملاتهم من الحقوق التي قررها الإسلام أو قررتها العادات التي لا تنافي أحكام الإسلام. وهو يناسب الإمساك لأنه يشتمل على أحكام العصمة كلها من إحسان معاشرة، وغير ذلك، فهو أعم من الإحسان. وأما التسريح فهو فراق ومعروفه منحصر في الإحسان إلى المفارقة بالقول الحسن والبذل بالمتعة، كما قال تعالى: فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا [الأحزاب: ٤٩] وقد كان الأزواج يظلمون المطلقات ويمنعونهن من حليهن ورياشهن، ويكثرون الطعن فيهن قال ابن عرفة في «تفسيره» : «فإن قلت هلا قيل فإمساك بإحسان أو تسريح بمعروف قلت عادتهم يجيبون بأن المعروف أخف من الإحسان إذ المعروف حسن العشرة وإعطاء حقوق الزوجية، والإحسان ألا يظلمها من حقها فيقتضي الإعطاء وبذل المال أشق على النفوس من حسن المعاشرة فجعل المعروف مع الإمساك المقتضي دوام العصمة، إذ لا يضر تكرره وجعل الإحسان
الشاق مع التسريح الذي لا يتكرر» .

(١) التحرير والتنوير ٣٣٨/٢

وقد أخذ قوم من الآية منع الجمع بين الطلاق الثلاث في كلمة، بناء على أن المقصود من قوله مرتان التفريق وسنذكر ذلك عند قوله تعالى: فإن طلقها فلا تحل له من بعد [البقرة: ٢٣٠] الآية.

ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به.

يجوز أن تكون الواو اعتراضية، فهو اعتراض بين المتعاطفين، وهما قوله: فإمساك". (١)

٣١٢. ٣١٢-"لكم أن تأخذوا [البقرة: ٢٢٩] إلخ إذ لا يصح تفريع الطلاق الذي لا تحل بعده المرأة على وقوع الخلع، إذ ليس ذلك من أحكام الإسلام في قول أحد، فمن العجيب ما وقع في «شرح الخطابي على سنن أبي داود» : أن ابن عباس احتج لكون الخلع فسخا بأن الله ذكر الخلع ثم أعقبه بقوله: فإن طلقها فلا تحل له من بعد الآية قال: «فلو كان الخلع طلاقا لكان الطلاق أربعا» ولا أحسب هذا يصح عن ابن عباس لعدم جريه على معاني الاستعمال العربي.

وقوله: فلا تحل له أي تحرم عليه وذكر قوله: من بعد أي من بعد ثلاث تطليقات تسجيلا على المطلق، وإيماء إلى علة التحريم، وهي تهاون المطلق بشأن امرأته، واستخفافه بحق المعاشرة، حتى جعلها لعبة تقلبها عواصف غضبه وحماقته، فلما ذكر لهم قوله من بعد علم المطلقون أنهم لم يكونوا محقين في أحوالهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

والمراد من قوله: تنكح زوجا غيره أن تعقد على زوج آخر، لأن لفظ النكاح في كلام العرب لا معنى له إلا العقد بين الزوجين، ولم أر لهم إطلاقا آخر فيه لا حقيقة ولا مجازا، وأيا ما كان إطلاقه في الكلام فالمراد في هاته الآية العقد بدليل إسناده إلى المرأة، فإن المعنى الذي ادعى المدعون أنه من معاني النكاح بالاشتراك والمجاز أعني المسيس، لا يسند في كلام العرب للمرأة أصلا، وهذه نكتة غفلوا عنها في المقام.

وحكمة هذا التشريع العظيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق أزواجهم، وجعلهن لعبا

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠٧/٢

في بيوتهم، فجعل للزوج الطلقة الأولى هفوة، والثانية تجربة، والثالثة فراقا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث موسى والخضر: «فكانت الأولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا فلذلك قال له الخضر في الثالث هذا فراق بيني وبينك

[الكهف: ٧٨] .

وقد رتب الله على الطلقة الثالثة حكمين وهما سلب الزوج حق الرجعة، بمجرد الطلاق، وسلب المرأة حق الرضا بالرجوع إليه إلا بعد زوج، واشتراط التزوج بزوج ثان بعد ذلك لقصد تحذير الأزواج من المسارعة بالطلقة الثالثة، إلا بعد التأمل والتريث، الذي لا يبقى بعده رجاء في حسن المعاشرة، للعلم بحرمة العود إلا بعد زوج، فهو عقاب للأزواج المستخفين بحقوق المرأة، إذا تكرر منهم ذلك ثلاثا، بعقوبة ترجع إلى إيلام الوجدان، لما ارتكز". (١)

٣١٣. ٣١٣-"واذكروا نعمت الله عليكم فذكرهم بما أنعم عليهم بعد الجاهلية بالإسلام، الذي سماه نعمة كما سماه بذلك في قوله: واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا [آل عمران: ١٠٣] فكما أنعم عليكم بالانسلاخ عن تلك الضلالة، فلا ترجعوا إليها

بالتعاهد بعد الإسلام.

وقوله: وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة معطوف على (نعمة) ، وجملة يعظكم به حال ويجوز جعله مبتدأ وجملة يعظكم خبرا، والكتاب: القرآن.

والحكمة: العلم المستفاد من الشريعة، وهو العبرة بأحوال الأمم الماضية وإدراك مصالح الدين، وأسرار الشريعة، كما قال تعالى، بعد أن بين حكم الخمر والميسر كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠] ومعنى إنزال الحكمة أنها كانت حاصلة من آيات القرآن كما ذكرنا، ومن **الإيماء** إلى العلل، ومما يحصل أثناء ممارسة الدين، وكل ذلك منزل من الله تعالى بالوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن فسر الحكمة بالسنة فقد فسرها ببعض دلائلها. والموعظة والوعظ: النصح والتذكير بما يلين القلوب، ويحذر

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤١٥

الموعوظ.

وقوله: واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شيء تنزيلا لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة، منزلة من يجهل أن الله عليم، فإن العليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء، لأن هذا العليم قدير.

[٢٣٢]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٢]

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢٣٢)

المراد من هذه الآية مخاطبة أولياء النساء بألا يمنعوهن من مراجعة أزواجهن بعد أن أمر المفارقين بإمساكهن بمعروف ورغبهم في ذلك، إذ قد علم أن المرأة إذا رأت الرغبة من الرجل الذي كانت تألفه وتعاشره لم تلبث أن تقرن رغبته برغبتها، فإن المرأة سريعة". (١)

٣١٤. ٣١٤-"ووجه تفسيره هذا بقوله: «لأنه إذا وجد العضل بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين» .

والعضل: المنع والحبس وعدم الانتقال، فمنه عضلت المرأة بالتشديد إذا عسرت ولادتها وعضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج، والمعاضلة في الكلام: احتباس المعنى حتى لا يبدو من الألفاظ، وهو التعقيد، وشاع في كلام العرب في منع الولي مولاته من النكاح. وفي الشرع هو المنع بدون وجه صلاح، فالأب لا يعد عاضلا برد كفء أو اثنين، وغير الأب يعد عاضلا برد كفء واحد.

وإسناد النكاح إلى النساء هنا لأنه هو المعضول عنه، والمراد بأزواجهن طالبو المراجعة بعد انقضاء العدة، وسماهن أزواجا مجازا باعتبار ما كان، لقرب تلك الحالة، وللإشارة

(١) التحرير والتنوير ٤٢٥/٢

إلى أن المنع ظلم فإنهم كانوا أزواجا لهن من قبل، فهم أحق بأن يرجعهن إليهم.
وقوله: إذا تراضوا بينهم بالمعروف شرط للنهي، لأن الولي إذا علم عدم التراضي بين الزوجين، ورأى أن المراجعة ستعود إلى دخل وفساد فله أن يمنع مولاته نصحا لها، وفي هذا الشرط إيماء إلى علة النهي: وهي أن الولي لا يحق له منعها مع تراضي الزوجين بعود المعاشرة، إذ لا يكون الولي أدرى بميلها منها، على حد قولهم في المثل المشهور «رضي الخصمان ولم يرض القاضي» .
وفي الآية إشارة إلى اعتبار الولاية للمرأة في النكاح بناء على غالب الأحوال يومئذ لأن جانب المرأة جانب ضعيف مطموع فيه، معصوم عن الامتهان، فلا يليق تركها تتولى مثل هذا الأمر بنفسها لأنه ينافي نفاستها وضعفها، فقد يستخف بحقوقها الرجال، حرصا على منافعهم وهي تضعف عن المعارضة.
ووجه الإشارة: أن الله أشار إلى حقين: حق الولي بالنهي عن العضل إذ لو لم يكن الأمر بيده لما نهى عن منعه، ولا يقال: نهى عن استعمال ما ليس بحق له لأنه لو كان كذلك لكان النهي عن البغي والعدوان كافيا، والجيء بصيغة: ما يكون لكم ونحوها وحق المرأة في الرضا ولأجله أسند الله النكاح إلى ضمير النساء، ولم يقل: أن تنكحوهن أزواجهن، وهذا مذهب مالك والشافعي وجمهور فقهاء الإسلام، وشذ أبو حنيفة في المشهور عنه فلم يشترط الولاية في النكاح، واحتج له الجصاص بأن الله أسند النكاح هنا للنساء وهو استدلال بعيد استعمال العرب في قولهم: نكحت المرأة، فإنه بمعنى تزوجت". (١)

٣١٥. ٣١٥-"وجملة يرضعن خبر مراد به التشريع، وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات، ولأنه عقب بقوله وإن أردتم أن تسترضعوا فإن الضمير شامل للآباء والأمهات على وجه التغليب كما يأتي، فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لها، وقد صرح بذلك في سورة الطلاق بقوله وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى [الطلاق:
٦] ولأنه عقب بقوله: وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وذلك أجر الرضاعة،

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٢٧

والزوجة في العصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة، بل لأجل العصمة.

وقوله: أولادهن صرح بالمفعول مع كونه معلوما، **إيماء** إلى أحقية الوالدات بذلك وإلى ترغيبهن فيه لأن في قوله: أولادهن تذكيرا لهن بداعي الحنان والشفقة، فعلى هذا التفسير- وهو الظاهر من الآية والذي عليه جمهور السلف- ليست الآية واردة إلا لبيان إرضاع المطلقات أولادهن، فإذا رامت المطلقة إرضاع ولدها فهي أولى به، سواء كانت بغير أجر أم طلبت أجر مثلها، ولذلك كان المشهور عن مالك: أن الأب إذا وجد من ترضع له غير الأم بدون أجر وبأقل من أجر المثل، لم يجب إلى ذلك، كما سنبينه.

ومن العلماء من تأول الوالدات على العموم، سواء كن في العصمة أو بعد الطلاق كما في القرطبي والبيضاوي، ويظهر من كلام ابن الفرس في «أحكام القرآن» أن هذا قول مالك. وقال ابن رشد في «البيان والتحصيل» : إن قوله تعالى: والوالدات يرضعن أولادهن محمول على عمومه في ذات الزوج وفي المطلقة مع عسر الأب، ولم ينسبه إلى مالك، ولذلك قال ابن عطية: قوله: يرضعن خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على الندب والتخيير لبعضهن وتبعه البيضاوي، وفي هذا استعمال صيغة الأمر في القدر المشترك وهو مطلق الطلب ولا داعي إليه. والظاهر أن حكم إرضاع الأم ولدها في العصمة يستدل له بغير هذه الآية، ومما يدل على أنه ليس المراد الوالدات اللائي في العصمة قوله تعالى: وعلى المولود له رزقهن الآية، فإن اللائي في العصمة لهن النفقة والكسوة بالأصالة.

والحول في كلام العرب: العام، وهو مشتق من تحول دورة القمر أو الشمس في فلكه من مبدأ مصطلح عليه، إلى أن يرجع إلى السمت الذي ابتدأ منه، فتلك المدة التي ما بين المبدأ والمرجع تسمى حولا.". (١)

٣١٦. ٣١٦-"وللأمزجة في ذلك تأثير أيضا.

وعن ابن عباس أن التقدير بالحولين للولد الذي يمكث في بطن أمه ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر، فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا، وهكذا بزيادة كل شهر في البطن ينقص شهر من مدة الرضاعة حتى يكون لمدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٣٠

وحمله وفصاله ثلاثون شهرا [الأحقاف: ١٥] ، وفي هذا القول منزع إلى تحكيم أحوال الأمزجة لأنه بمقدار ما تنقص مدة مكثه في البطن، تنقص مدة نضج مزاجه. والجمهور على خلاف هذا وأن الحولين غاية لإرضاع كل مولود. وأخذوا من الآية أن الرضاع المعتبر هو ما كان في الحولين، وأن ما بعدهما لا حاجة إليه، فلذلك لا يجاب إليه طالبه.

وعبر عن الوالد بالمولود له، إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم لأن منافع الولد منجرة إليه، وهو لا حق به ومعتز به في القبيلة حسب مصطلح الأمم، فهو الأجدر بإعاشته، وتقويم وسائلها.

والرزق: النفقة، والكسوة: اللباس، والمعروف: ما تعارفه أمثالهم وما لا يجحف بالأب. والمراد بالرزق والكسوة هنا ما تأخذه المرضع أجرا عن إرضاعها، من طعام ولباس لأنهم كانوا يجعلون للمراضع كسوة ونفقة، وكذلك غالب إجاراتهم إذ لم يكن أكثر قبائل العرب أهل ذهب وفضة، بل كانوا يتعاملون بالأشياء، وكان الأجراء لا يرغبون في الدرهم والدينار، وإنما يطلبون كفاية ضروراتهم، وهي الطعام والكسوة، ولذلك أحال

الله تقديرهما على المعروف عندهم من مراتب الناس وسعتهم، وعقبه بقوله: لا تكلف نفس إلا وسعها.

وجمل: لا تكلف نفس إلا وسعها إلى قول: ولا مولود له بولده معترضات بين جملة وعلى المولود وجملة وعلى الوارث فموقع جملة لا تكلف نفس إلا وسعها تعليل لقوله بالمعروف، وموقع جملة لا تضار والدة إلى آخرها موقع التعليل أيضا، وهو اعتراض يفيد أصولا عظيمة للتشريع ونظام الاجتماع.

والتكليف تفعيل بمعنى جعله ذا كلفة، والكلفة: المشقة، والتكلف: التعرض لما فيه مشقة، ويطلق التكليف على الأمر بفعل فيه كلفة، وهو اصطلاح شرعي جديد.

والوسع، بتثليث الواو: الطاقة، وأصله من وسع الإناء الشيء إذا حواه ولم يبق منه شيء، وهو ضد ضاق عنه، والوسع هو ما يسعه الشيء فهو بمعنى المفعول، وأصله استعارة". (١)

٣١٧. ٣١٧-"الطفل لورثه هو، روي عن عمر بن الخطاب وقتادة والسدي والحسن ومجاهد وعطاء وإسحاق وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل فيتقرر بالآية، أن النفقة واجبة

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٣٢

على قرابة الرضيع وهم بالضرورة قرابة أبيه أي إذا مات أبوه ولم يترك مالا: تجب نفقة الرضيع على الأقارب. على حسب قربهم في الإرث ويجري ذلك على الخلاف في توريث ذي الرحم المحرم فهؤلاء يرون حقا على القرابة إنفاق العاجز في مالهم كما أنهم يرثونه إذا ترك مالا فهو من المواساة الواجبة مثل الدية.

وقال الضحاك وقبيصة بن ذؤيب وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز: المراد وارث الأب وأريد به نفس الرضيع. فالمعنى: أنه إذا مات أبوه وترك مالا فنفقته من إرثه.

ويتجه على هذا أن يقال: ما وجه العدول عن التعبير بالولد إلى التعبير بالوارث؟ فتجيب بأنه للإيماء إلى أن الأب إنما وجبت عليه نفقة الرضيع لعدم مال للرضيع، فلهذا لما اكتسب مالا وجب عليه في ماله لأن غالب أحوال الصغار ألا تكون لهم أموال مكتسبة سوى الميراث، وهذا تأويل بعيد لأن الآية تكون قد تركت حكم من لا مال له.

وقيل: أريد بالوارث المعنى المجازي وهو الذي يبقى بعد انعدام غيره كما في قوله تعالى: ونحن الوارثون [الحجر: ٢٣] يعني به أم الرضيع قاله سفيان فتكون النفقة على الأم قال التفتازاني في «شرح الكشاف» «وهذا قلق في هذا المقام إذ ليس لقولنا: فالنفقة

على الأب وعلى من بقي من الأب والأم معنى يعتد به» يعني أن إرادة الباقي تشمل صورة ما إذا كان الباقي الأب ولا معنى لعطفه على نفسه بهذا الاعتبار. وفي «المدونة» عن زيد بن أسلم وربيعة أن الوارث هو ولي الرضيع عليه مثل ما على الأب من عدم المضارة.

هذا كله على أن الآية محكمة لا منسوخة وأن المشار إليه بقوله: مثل ذلك هو الرزق والكسوة. وقال جماعة: الإشارة بقوله: مثل ذلك راجعة إلى النهي عن المشارة. قال ابن عطية: وهو لمالك وجميع أصحابه والشعبي والزهري والضحاك اهـ.

وفي «المدونة» في ترجمة ما جاء فيمن تلزم النفقة من كتاب إرخاء الستور عن ابن القاسم قال مالك وعلى الوارث مثل ذلك أي ألا يضار. واختاره ابن العربي بأنه الأصل فقال القرطبي: يعني في الرجوع إلى أقرب مذكور، ورجحه ابن عطية بأن الأمة أجمعت على ألا يضار الوارث. واختلفوا: هل عليه رزق وكسوة اهـ يعني مورد الآية بما هو مجمع على حكمه ويترك ما فيه الخلاف.

وهنالك تأويل بأنها منسوخة، رواه أسد بن الفرات عن ابن القاسم". (١)

٣١٨. ٣١٨-"وجعل جماعة الأمر هنا للندب لقوله بعد: حقا على المحسنين فإنه قرينة على صرف الأمر إلى أحد ما يقتضيه، وهو ندب خاص مؤكد للندب العام في معنى الإحسان، وهو قول مالك وشريح، فجعلها حقا على المحسنين، ولو كانت واجبة لجعلها حقا على جميع الناس، ومفهوم جعلها حقا على المحسنين أنها ليست حقا على جميع الناس، وكذلك قوله المتقين في الآية الآتية، لأن المتقي هو كثير الامتثال، على أننا لو حملنا المتقين على كل مؤمن لكان بين الآيتين تعارض المفهوم والعموم، فإن المفهوم الخاص يخصص العموم.

وفي «تفسير الأبي» عن ابن عرفة: «قال محمد بن مسلمة من أصحاب مالك: المتعة واجبة يقضى بها إذ لا يأبى أن يكون من المحسنين ولا من المتقين إلا رجل سوء، ثم ذكر ابن عرفة عن ابن عبد السلام عن ابن حبيب أنه قال بتقديم العموم على المفهوم عند التعارض، وأنه الأصح عند الأصوليين، قلت: فيه نظر، فإن القائل بالمفهوم لا بد أن يخصص بخصوصه عموم العام إذا تعارضا، على أن لمذهب مالك أن المتعة عطية

ومؤاساة، والمؤاساة في مرتبة التحسيني، فلا تبلغ مبلغ الوجوب، ولأنها مال بذل في غير عوض، فيرجع إلى التبرعات، والتبرعات مندوبة لا واجبة، وقرينة ذلك قوله تعالى: حقا على المحسنين فإن فيه **إيماء** إلى أن ذلك من الإحسان لا من الحقوق، على أنه قد نفى الله الجناح عن المطلق ثم أثبت المتعة، فلو كانت المتعة واجبة لانتقض نفي الجناح، إلا أن يقال: إن الجناح نفي لأن المهر شيء معين، قد يجحف بالمطلق بخلاف المتعة، فإنها على حسب وسعه ولذلك نفى مالك ندب المتعة للتي طلقت قبل البناء وقد سمى لها مهرا، قال: فحسبها ما فرض لها أي لأن الله قصرها على ذلك، رفقا بالمطلق، أي فلا تندب لها ندب خاصا، بأمر القرآن. وقد قال مالك: بأن المطلقة المدخول بها يستحب تمتيعها، أي بقاعدة الإحسان الأعم ولما مضى من عمل السلف.

وقوله: على الموسع قدره وعلى المقتر قدره الموسع من أوسع إذا صار ذا سعة، والمقتر من

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٣٦

أقتر إذا صار ذا قتر وهو ضيق العيش، والقدر- بسكون الدال وبفتحها- ما به تعيين ذات الشيء أو حاله، فيطلق على ما يساوي الشيء من الأجرام، ويطلق على ما يساويه في القيمة، والمراد به هنا الحال التي يقدر بها المرء في مراتب الناس في الثروة، وهو". (١)

٣١٩. ٣١٩-"الاختلاف بين فساء مطر المنذرين وبين فانظر كيف كان عاقبة المجرمين [الأعراف:
٨٤] فهما عبرتان بحالهم تفرعتا على وصف ما حل بهم فوزعت العبرتان على الآيتين لئلا يخلو تكرير القصة من فائدة.
والمراد بآل لوط لوط وأهل بيته لأن رب البيت ملاحظ في هذا الاستدلال كقوله تعالى أدخلوا آل فرعون أشد العذاب [غافر: ٤٦] ، أراد فرعون وآله.
[٥٩]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٥٩]
قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)
قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لما استوفى غرض الاعتبار والإنذار حقه بذكر عواقب بعض الأمم التي كذبت الرسل وهي أشبه أحوالا بأحوال المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذي أنزل عليه، وفي خلال ذلك وحفافيه تسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من قومه أقبل الله بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يلقنه ماذا يقوله عقب القصص والمواعظ السالفة استخلاصا واستنتاجا منها، وشكر الله على المقصود منها.
فالكلام استئناف والمناسبة ما علمت. أمر الرسول بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم من النصر ورفعة الدرجات. وعلى أن أهلك الأعداء الظالمين كقوله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين [الأنعام: ٤٥] ونظيره قوله في سورة العنكبوت [٦٣] قل الحمد لله

(١) التحرير والتنوير ٤٦٢/٢

بل أكثرهم لا يعقلون وقوله في آخر هذه السورة [٩٣] وقل الحمد لله سيريكم

الآية. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحمد الله على ذلك باعتبار ما أفاده سوق تلك القصص من **الإيماء** إلى وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر على أعدائه. فقوله قل الحمد لله أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بإنشاء حمد الله. وقد تقدمت صيغة الحمد في أول الفاتحة.

وعطف على المأمور بأن يقوله من الحمد أمر بأن يتبعه بالسلام على الرسل الذين سبقوه قدرا لقدر ما تجشموه في نشر الدين الحق.

وأصل سلام سلمت سلاما، مقصود منه الإنشاء فحذف الفعل وأقيم". (١)

٣٢٠. ٣٢٠-"والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه. والاستفهام إنكاري. وبل للإضراب عن الاستفهام الإنكاري تفيد معنى (لكن) باعتبار ما تضمنه الإنكار من انتفاء أن يكون مع الله إله فكان حق الناس أن لا يشركوا معه في الإلهية غيره فجيء بالاستدراك لأن المخاطبين بقوله وأنزل لكم وقوله ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لم ينتفعوا بالدليل مع أنه دليل ظاهر مكشوف، فهم مكابرون في إعراضهم عن الاهتداء بهذا الدليل، فهم يعدلون بالله غيره، أي يجعلون غيره عديلا مثيلا له في الإلهية مع أن غيره عاجز عن ذلك فيكون يعدلون من عدل الذي يتعدى بالباء، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يعدى ب (عن) .

وسئل بعض العرب عن الحجاج فقال: «قاسط عادل» ، فظنوه أثنى عليه فبلغت كلمته للحجاج، فقال: أراد قوله تعالى أما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا

[الجن: ١٥] أي وذلك قرينة على أن المراد ب (عادل) أنه عادل عن الحق.

وأيا ما كان فالمقصود توبيخهم على الإشراك مع وضوح دلالة خلق السموات والأرض وما ينزل من السماء إلى الأرض من الماء.

ولما كانت تلك الدلالة أوضح الدلالات المحسوسة الدالة على انفراد الله بالخلق وصف الذين

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٦

أشركوا مع الله غيره بأنهم في إشراكهم معرضون إعراض مكابرة عدولا عن الحق الواضح قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان:
٢٥] .

والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنهم مستمرون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل. وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم **إيماء** إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة.

[٦١]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦١]

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١)

أم للإضراب الانتقالي مثل أختها السابقة. وهذا انتقال من الاستدلال". (١)

٣٢١. ٣٢١-"و (من) هذه وإن كانت من صيغ العموم فالضمائر المذكورة عائدة إليها بتخصيص عمومها ببعض من في الأرض وهم الذين يزعمون أنهم يعلمون الغيب من الكهان والعرافين وسدنة الأصنام الذين يستقسمون للناس بالأزلام، وهو تخصيص لفظي من دلالة السياق وهو من قسم المخصص المنفصل اللفظي. والخلاف الواقع بين علماء الأصول في اعتبار عود الضمير إلى بعض أفراد العام مخصصا للعموم يقرب من أن يكون خلافا لفظيا. ومنه قوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن [البقرة: ٢٢٨] فإن ضمير بعولتهن عائد إلى المطلقات الرجعيات من قوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن [البقرة: ٢٢٨] الذي هو عام للرجعيات وغيرهن.

وبهذا تعلم أن التعبير ب الذين كفروا [النمل: ٦٧] هنا ليس من الإظهار في مقام الإضمار لأن الذين كفروا أعم من ما صدق (من) في قوله لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب.

[٦٧- ٦٨]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٢

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون (٦٧) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٦٨)

أعقب وصف عماية الزاعمين علم الغيب بذكر شبهتهم التي أرتهم البعث مستحيل الوقوع، ولذلك أسند القول هنا إلى جميع الذين كفروا دون خصوص الذين يزعمون علم الغيب، ولذلك عطفت الجملة لأنها غايرت التي قبلها بأنها أعم.

والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من **الإيماء** إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين فكأنه قيل وقالوا بكفرهم أإذا كنا ترابا..

إلى آخره استفهاما بمعنى الإنكار.

أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم.

والتأكيد ب إن لمجاراة كلام المردود عليه بالإنكار. والتأكيد تهكم.". (١)

٣٢٢. ٣٢٢-"[سورة النمل (٢٧) : آية ٧٨]

إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم (٧٨)

لما سبق ذكر المشركين بطعنهم في القرآن وتكذيبهم بوعيده، وذكر بني إسرائيل بما يقتضي طعنهم فيه بأنه لمخالفة ما في كتبهم، وذكر المؤمنين بأنهم اهتدوا به وكان لهم رحمة فهم موقنون بما فيه، تمخض الكلام عن خلاصة هي افتراق الناس في القرآن فريقين: فريق طاعن، وفريق موقن، فلا جرم اقتضى ذلك حدوث تدافع بين الفريقين. وهو مما يثير في نفوس المؤمنين سؤالا عن مدى هذا التدافع، والتخالف بين الفريقين ومتى ينكشف الحق، فجاء قوله إن ربك يقضي بينهم بحكمه استئنافا بيانيا فيعلم أن القضاء يقتضي مختلفين. وأن كلمة (بين) تقتضي متعددا، فأفاد أن الله يقضي بين المؤمنين بالقرآن والطاعنين فيه قضاء يبين المحق من المبطل. وهذا تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن استبطائهم النصر فإن النبيء أول المؤمنين، وإنما تقلد المؤمنون ما أنبأهم به فالقضاء للمؤمنين قضاء له بادىء ذي بدء.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٤

وفيه توجيه الخطاب إلى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإسناد القضاء إلى الله في شأنه بعنوان أنه رب له **إيماء** بأن القضاء سيكون مرضيا له وللمؤمنين. فجعل الرسول في هذا الكلام بمقام المبلغ وجعل القضاء بين أمته مؤمنهم وكافرهم، وتعجيل لمسرة الرسول بهذا **الإيماء**.

وإذا قد أسند القضاء إلى الله وعلق به حكم مضاف إلى ضميره فقد تعين أن يكون المراد من المتعلق غير المتعلق به وذلك يلجيء: إما إلى تأويل معنى إضافة الحكم بما يخالف معنى إسناد القضاء إذا اعتبر اللفظان مترادين لفظا ومعنى، فيكون ما تدل عليه الإضافة من اختصاص المضاف بالمضاف إليه مقصودا به ما اشتهر به المضاف باعتبار المضاف إليه.

وذلك أن الكل يعلمون أن حكم الله هو العدل ولأن المضاف إليه هو الحكم العدل. فالمعنى على هذا: أن ربك. يقضي بينهم بحكمه المعروف المشتهر اللائق بعموم علمه واطراد عدله.

وإما أن يؤول الحكم بمعنى الحكمة وهو إطلاق شائع قال تعالى وكلا آتينا حكما وعلما [الأنبياء: ٧٩] وقال وآتيناه الحكم صبيا [مريم: ١٢] ولم يكن يحيى حاكما وإنما كان حكيما نبيئا فيكون". (١)

٣٢٣. ٣٢٣-"في تأييده ونفعه. وشأن (إن) إذا جاءت في مقام التعليل أن تكون بمعنى الفاء فلا تفيد تأكيدا ولكنها للاهتمام.

وجيء في فعل التوكل بعنوان اسم الجلالة لأن ذلك الاسم يتضمن معاني الكمال كلها، ومن أعلاها العدل في القضاء ونصر المحق. وذلك بعد أن عجلت مسرة **الإيماء** إلى أن القضاء في جانب الرسول عليه الصلاة والسلام بإسناده القضاء إلى عنوان الرب مضافا إلى ضمير الرسول كما تقدم آنفا.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي اقتضاه وجود مقتضي جلب حرف التوكيد لإفادة التعليل فلا يفيد التقديم تخصيصا ولا تقويا.

والمبين: الواضح الذي لا ينبغي الامتراء فيه ولا المصانعة للمحكوم له.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٠

وفي الآية إشارة إلى أن الذي يعلم أن الحق في جانبه حقيق بأن يثق بأن الله مظهر حقه ولو بعد حين.

[٨٠]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٨٠]

إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين (٨٠)

استئناف بياني جوابا عما يخطر في بال السامع عقب قوله إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] من التساؤل عن إعراض أهل الشرك لما عليه الرسول من الحق المبين. وهو أيضا تعليل آخر للأمر بالتوكل على الله بالنظر إلى مدلوله الكنائي، فموقع حرف التوكيد فيه كموقعه في التعليل بالجملة التي قبله. وهذا عذر للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له، ولكونه تعليلا لجانب من التركيب وهو الجانب الكنائي غير الذي علل بجملة إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] لم تعطف هذه الجملة على التي قبلها تنبيها على استقلالها بالتعليل.

والإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.

والموتى والصم: مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون من يقوله لهم. شبهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن،". (١)

٣٢٤. ٣٢٤-"وقال الماوردي: قيل هذا مثل ضربه الله، أي وليس بخبر. وفيما ضرب فيه المثل ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه مثل للدنيا يظن الناظر إليها أنها ثابتة كالجبال وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب، قاله سهل بن عبد الله التستري.

الثاني: أنه مثل للإيمان تحسبه ثابتا في القلب، وعمله صاعد إلى السماء.

الثالث: أنه مثل للنفس عند خروج الروح، والروح تسير إلى العرش.

وكأنهم أرادوا بالتمثيل التشبيه والاستعارة.

ولا يخفى على الناقد البصير بعد هذه التأويلات الثلاثة لأنه إن كان الجبال مشبها بها فهذه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤/٢٠

الحالة غير ثابتة لها حتى تكون هي وجه الشبه وإن كان لفظ الجبال مستعارا لشيء وكان مر السحاب كذلك كان المستعار له غير مصرح به ولا ضمنيا.

وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية بأن الرائي يحسب الجبال جامدة، ولا بيان وجه تشبيه سيرها بسير السحاب، ولا توجيه التذليل بقوله تعالى صنع الله الذي أتقن كل شيء فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق، ومعنى بالتأمل خليق، فوضعها أنها وقعت موقع الجملة المعترضة بين المجمل وبيانه من قوله ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلى قوله من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون [النمل: ٨٧- ٨٩] بأن يكون من تخلل دليل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد إدماجا وجمعا بين استدعاء للنظر، وبين الزواجر والنذر، كما صنع في جملة ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه [النمل: ٨٦] الآية.

أو هي معطوفة على جملة ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه [النمل: ٨٦] الآية، وجملة ويوم ينفخ في الصور [النمل: ٨٧] معترضة بينهما لمناسبة ما في الجملة المعطوف عليها من الإيماء إلى تمثيل الحياة بعد الموت، ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها". (١)

٣٢٥. ٣٢٥-"وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم ومالهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى.

وأعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى. وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين.

وتخلل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أن الله مظهرهم على المشركين بقوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض [القصص: ٥] الآية.

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٠

وختم الكلام بتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم وتثبيته ووعده بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين.

ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودوا أن تفصل لهم قصة رسالة موسى عليه السلام فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيلها من معرفة نافعة لهم تنظيرا لحالهم وحال أعدائهم. فالمقصود ابتداء هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أولها نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون [القصص: ٣] أي للمؤمنين.

[١]

[سورة القصص (٢٨) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (١)

تقدم القول في نظيره في فاتحة سورة الشعراء.

[٢، ٣]

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢ إلى ٣]

تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣)

الإشارة في قوله تلك آيات الكتاب المبين على نحو الإشارة في نظيره في سورة الشعراء [٢] . فالمشار إليه ما هو مقروء يوم نزول هذه الآية من القرآن تنويها بشأن القرآن وأنه شأن عظيم.

وجملة نتلوا عليك من نبإ موسى مستأنفة استئنافا ابتدائيا.". (١)

٣٢٦. ٣٢٦-"وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٦٣

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها.
والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى طائفة منهم إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعا.
وأشار بقوله طائفة إلى أنه استضعف فريقا كاملا، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية وذلك فساد لأنه يقرن الفاضل بالمفضول.
من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة وهي:
المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم أي يأمر بذبحهم، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي. والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال. وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة. وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.
المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل **إيماء** إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء". (١)

٣٢٧. ٣٢٧-"جانب بني إسرائيل وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم [البقرة: ٢١٦] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.
وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال فالتقطه

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٢٠

آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا [القصص: ٨] مع قوله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا [القصص: ٩] .

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاء أسرع ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] وليتوسموا من بوارق ظهور النبيء محمد صلى الله عليه وسلم وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأخرة.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين يخفف من لأواء فساد المفسدين فإن وجود امرأة فرعون كان سببا في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي فقالت امرأته لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا [القصص: ٩] كما قدمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله ولتعلم أن وعد الله حق من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله ولكن أكثرهم لا يعلمون من الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.". (١)

٣٢٨. ٣٢٨-"وجملة فغفر له معترضة بين جملة قال رب إني ظلمت نفسي وجملة قال رب بما أنعمت علي [القصص: ١٧] كان اعتراضها إعلاما لأهل القرآن بكرامة موسى عليه السلام عند ربه.

وجملة إنه هو الغفور الرحيم تعليل لجملة فغفر له علل المغفرة له بأنه شديد الغفران ورحيم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٨٦

بعباده، مع تأكيد ذلك بصيغة القصر إيماء إلى أن ما جاء به هو من ظلم نفسه وما حفه من الأمور التي ذكرناها.

[١٧]

[سورة القصص (٢٨) : آية ١٧]

قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين (١٧)

إعادة قال أفاد تأكيدا لفعل قال رب إني ظلمت نفسي [القصص: ١٦] . أعيد القول للتنبيه على اتصال كلام موسى حيث وقع الفصل بينه بجملتي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم [القصص: ١٦] . ونظم الكلام: قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، رب بما أنعمت فلن أكون ظهيرا للمجرمين، وليس قوله قال رب بما أنعمت علي مستأنفا عن قوله فغفر له [القصص: ١٦] لأن موسى لم يعلم أن الله غفر له إذ لم يكن يوحى إليه يومئذ.

والباء للسببية في بما أنعمت علي و (ما) موصولة وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير مجرور بمثل ما جر به الموصول، والحذف في مثله كثير. والتقدير: بالذي أنعمت به علي. ويجوز أن تكون (ما) مصدرية وما صدق الإنعام عليه، هو ما أوتيه من الحكمة والعلم فتميزت عنده الحقائق ولم يبق للعوائد والتقاليد تأثير على شعوره. فأصبح لا ينظر الأشياء إلا بعين الحقيقة، ومن ذلك أن لا يكون ظهيرا وعونا للمجرمين.

وأراد بالمجرمين من يتوسم منهم الإجرام، وأراد بهم الذين يستذلون الناس ويظلمونهم لأن القبطي أذل الإسرائيلي بغصبه على تحميله الحطب دون رضاه.

ولعل هذا الكلام ساقه مساق الاعتبار عن قتله القبطي وثوقا بأنه قتله خطأ.

واقتران جملة فلن أكون ظهيرا للمجرمين بالفاء لأن الموصول كثيرا ما". (١)

٣٢٩. ٣٢٩-"تدبير، وأن الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته كما أشار إليه قوله تعالى فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون [يونس: ١٦] . وإن أوضح تلك المظاهر هو مظهر استقامة السيرة ومحبة الحق، وأن دليل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٩٢

عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته مما له من المكائد. وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي حالهم معه. ثم إن في قوله تعالى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك الآية **إيماء** إلى أن رسوله صلى الله عليه وسلم سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه.

[٢٢]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٢٢]

ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل (٢٢)

هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام إذ قال إني مهاجر إلى ربي [العنكبوت: ٢٦] . وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيئا يبصره بآداب النبوءة ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته كما دل عليه قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل.

فقوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين عطف على جمل محذوفة إذ التقدير: ولما خرج من المدينة هائما على وجهه فاتفق أن كان مسيره في طريق يؤدي إلى أرض مدين حينئذ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. قال ابن عباس: خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظن بربه.

وتوجه: ولى وجهه، أي استقبل بسيره تلقاء مدين.

وتلقاء: أصله مصدر على وزن التفعال بكسر التاء، وليس له نظير في كسر التاء

إلا تمثال، وهو بمعنى اللقاء والمقاربة. وشاع إطلاق هذا المصدر على جهته فصار من ظروف المكان التي تنصب على الظرفية. والتقدير: لما توجه جهة تلاقي مدين، أي جهة تلاقي بلاد مدين، وقد تقدم قوله تعالى وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار في سورة الأعراف".

(١)

---

(١) التحرير والتنوير ٩٧/٢٠

٣٣٠. ٣٣٠-"قوله تعالى وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم [الشورى: ٥٢] فهي الهداية بالدعوة والإرشاد فاختلف الإطلاقان.

ومفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي من يشاء اهتداءه، والمشيئة تعرف بحصول الاهتداء وتتوقف على ما سبق من علمه وتقديره.

وفي قوله وهو أعلم بالمهتدين إيماء إلى ذلك، أي هو أعلم من كل أحد بالمهتدين في أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب ما تهيأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير واتقاء العاقبة والانفعال لما يلقى إليها من الدعوة ودلائلها. ولكل ذلك حال ومدى ولكليهما أسباب تكوينية في الشخص وأسلافه وأسباب نمائه أو ضعفه من الكيان والوسط والعصر والتعقل.

[٥٧]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥٧]

وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون (٥٧)

هذه بعض معاذيرهم قالها فريق منهم ممن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق، فاعتذروا بهذه

المعذرة، فروي عن ابن عباس أن الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناسا من قريش جاءوا النبيء صلى الله عليه وسلم فقال الحارث «إنا لنعلم أن قولك حق ولكنا نخاف إن اتبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنما نحن أكلة رأس» (أي أن جمعنا يشبعه الرأس الواحد من الإبل وهذه الكلمة كناية عن القلة) فهؤلاء اعترفوا في ظاهر الأمر بأن النبيء صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الهدى.

والتخطف: مبالغة في الخطف، وهو انتزاع شيء بسرعة، وتقدم في قوله تعالى تخافون أن يتخطفكم الناس في سورة الأنفال [٢٦] . والمراد: يأسرنا الأعداء معهم إلى ديارهم، فرد الله عليهم بأن قريشا مع قلتهم عدا وعدة أتاح الله لهم بلدا هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من

العدو على كثرة قبائل العرب واشتغالهم بالغارة على". (١)

٣٣١. ٣٣١-"والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها. وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثرا في القرى.

وإسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبيء صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن المقصود بهذا الإنذار هم أمة محمد الذين كذبوا فالخطاب للنبيء عليه السلام لهذا المقصد. ولهذا وقع الالتفات عنه إلى ضمير المتكلم في قوله آياتنا للإشارة إلى أن الآيات من عند الله وأن الدين دين الله.

وضمير عليهم عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله وسئل القرية التي كنا فيها [يوسف: ٨٢] ، ومنه قوله فليدع ناديه [العلق: ١٧] .

وقد حصل في هذه الجملة تفنن في الأساليب إذ جمعت الاسم الظاهر وضمائر الغيبة والخطاب والتكلم.

ثم بين السبب بقوله وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى في حالة إلا في حالة ظلمهم أنفسهم بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول.

وجملة وأهلها ظالمون في موضع الحال، وهو حال مستثنى من أحوال محذوفة اقتضاها الاستثناء المفرغ، أي ما كنا مهلكي القرى في حال إلا في حال ظلم أهلها.

[٦٠]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٠]

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون (٦٠)

لما ذكرهم الله بنعمه عليهم تذكيرا أدمج في خلال الرد على قولهم إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا [القصص: ٥٧] بقوله تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا [القصص:

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٤٨

٥٧] أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأما ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا". (١)

٣٣٢. ٣٣٢-"صنعوا حين تحققوا أنهم معذبون؟ فأجيب بأنهم لو أنهم كانوا يهتدون سبيلا لسلكوه ولكنهم لا سبيل لهم إلى النجاة.

وعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون لو حرف شرط وجوابها محذوفا دل عليه حذف مفعول يهتدون أي يهتدون خلاصا أو سبيلا. والتقدير: لتخلصوا منه. وعلى الوجوه الثلاثة ففعل كانوا مزيد في الكلام لتوكيد خبر (أن) أي لو أنهم يهتدون اهتداء متمكنا من نفوسهم، وفي ذلك **إيماء** أنهم حينئذ لا قرارة لنفوسهم. وصيغة المضارع في يهتدون دالة على التجدد فالاهتداء منقطع عنهم وهو كناية عن عدم الاهتداء من أصله.

الوجه الرابع: أن تكون لو للتمني المستعمل في التحسر عليهم. والمراد اهتداؤهم في حياتهم الدنيا كيلا يقعوا في هذا العذاب، وفعل كانوا حينئذ في موقعه الدال على الاتصاف بالخبر في الماضي، وصيغة المضارع في يهتدون لقصد تجدد الهدى المتحسر على فواته عنهم فإن الهدى لا ينفع صاحبه إلا إذا استمر إلى آخر حياته.

ووجه خامس عندي: أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا، والكلام على حذف مضاف تقديره: ورأوا آثار العذاب. والرؤية بصرية، أي وهم رأوا العذاب في حياتهم أي رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذبوا الرسل وهذا في معنى قوله تعالى في سورة إبراهيم [٤٥ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وجملة لو أنهم كانوا يهتدون شرط جوابه محذوف دل عليه لو أنهم كانوا يهتدون أي بالاتعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدنيا على أن وراءه عذابا أعظم منه لاهتدوا فأقلعوا عن الشرك وصدقوا النبيء صلى الله عليه وسلم. وهذا لأنه يفيد معنى زائدا على ما أفادته جملة فلم يستجيبوا لهم. فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية، وكلها مقصودة، فالآية من جوامع الكلم.

[٦٥- ٦٦]

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٥٣

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٥ إلى ٦٦]
ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦)
هو يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون [القصص: ٦٢] . كرر الحديث عنه". (١)

٣٣٣. ٣٣٣-"فإنهم لما نودوا أين شركائي الذين كنتم تزعمون [القصص: ٦٢] انبرى رؤساؤهم فلفقوا جوابا عدلوا به عن جادة الاستفهام إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنوا لقومهم عبادة الأصنام، فلما سئلوا عن جواب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم عيوا عن الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنهم لم
يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإن الرسول بعث إليهم أنفسهم.
ولهذا تفرع على (عميت عليهم الأنباء) قوله فهم لا يتساءلون أي لا يسأل بعضهم بعضا لاستخراج الآراء وذلك من شدة البهت والبغت على الجميع أنهم لا متنصل لهم من هذا السؤال فوجموا.
وإذ كان الاستفهام لتمهيد أنهم محقوقون بالعذاب علم من عجزهم عن الجواب عنه أنهم قد حق عليهم العذاب.
[٦٧]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٧]
فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧)
تخلل بين حال المشركين ذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين على طريقة الاعتراض لأن الأحوال تزداد تميزا بذكر أضدادها، والفاء للتفريع على ما أفاده قوله فعميت عليهم الأنباء [القصص: ٦٦] من أنهم حق عليهم العذاب.
ولما كانت (أما) تفيد التفصيل وهو التفكيك والفصل بين شيئين أو أشياء في حكم فهي

(١) التحرير والتنوير ١٦١/٢٠

مفيدة هنا أن غير المؤمنين خاسرون في الآخرة وذلك ما وقع **الإيماء** إليه بقوله فهم لا يتساءلون [القصص: ٦٦] فإنه يكتفي بتفصيل أحد الشيئين عن ذكر مقابله ومنه قوله تعالى فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل [النساء: ١٧٥] أي وأما الذين كفروا بالله فيضد ذلك.

والتوبة هنا: الإقلاع عن الشرك والندم على تقلده. وعطف الإيمان عليها لأن المقصود حصول إقلاع عن عقائد الشرك وإحلال عقائد الإسلام محلها ولذلك عطف عليه وعمل صالحا لأن بعض أهل الشرك كانوا شاعرين بفساد دينهم". (١)

٣٣٤. ٣٣٤-"وكان يصدهم عن تقلد شعائر الإسلام أسباب مغرية من الأعراض الزائلة التي فتنوا بها.

و (عسى) ترج لتمثيل حالهم بحال من يرجى منه الفلاح. وأن يكون من المفلحين أشد في إثبات الفلاح من: أن يفلح، كما تقدم غير مرة.

[٦٨]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٨]

وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٦٨)

وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة.

هذا من تمام الاعتراض وهي جملة فأما من تاب وآمن وعمل صالحا [القصص: ٦٧] وظاهر عطفه على ما قبله أن معناه آيل إلى التفويض إلى حكمة الله تعالى في خلق قلوب منفتحة للاهتداء ولو بمراحل، وقلوب غير منفتحة له فهي قاسية صماء، وأنه الذي اختار فريقا على فريق. وفي «أسباب النزول» للواحدي «قال أهل التفسير نزلت جوابا للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله عنه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] اه. يعنون بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف. وهما المراد بالقريتين. وتبعه الزمخشري وابن عطية. فإذا كان كذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٢٠

كان اتصال معناها بقوله ماذا أجبتم المرسلين [القصص: ٦٥] ، فإن قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم هو من جملة ما أجابوا به دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. والمعنى: أن الله يخلق ما يشاء من خلقه من البشر وغيرهم ويختار من بين مخلوقاته لما يشاء مما يصلح له جنس ما منه الاختيار، ومن ذلك اختياره للرسالة من يشاء إرساله، وهذا في معنى قوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] ، وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم والوجهان لا يتزاحمان.

والمقصود من الكلام هو قوله ويختار فذكر يخلق ما يشاء إيماء إلى أنه أعلم بمخلوقاته.

وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي يفيد القصر في هذا المقام إن لوحظ سبب النزول أي ربك وحده لا أنتم تختارون من يرسل إليكم.

وجوز أن يكون ما من قوله ما كان لهم الخيرة موصولة مفعولا لفعل". (١)

٣٣٥. ٣٣٥-"جميع المحامد مما تضمنه اسم الجلالة في أصل معناه قبل نقله إلى العلمية.

والمجرور يتنازعه كلا الفعلين. ووجه تقييد التنزيه والترفيع ب (ما يشركون) أنه لم يجترىء أحد أن يصف الله تعالى بما لا يليق به ويستحيل عليه إلا أهل الشرك بزعمهم أن ما نسبوه إلى الله إنما هو كمال مثل اتخاذ الولد أو هو مما أنبأهم الله به، وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها [الأعراف: ٢٨] . وزعموا أن الآلهة شفعاؤهم عند الله. وقالوا في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وأما ما عدا ذلك فهم معترفون بالكمال لله، قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان: ٢٥] . وما مصدرية أي سبحانه وتعالى عن إشراكهم.

[٦٩]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٩]

وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٦٩)

عطف على وربك يخلق ما يشاء ويختار [القصص: ٦٨] أي هو خالقهم ومركبهم على

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٦٤

النظام الذي تصدر عنه الأفعال والاعتقادات فيكونون مستعدين لقبول الخير والشر وتغليب أحدهما على الآخر اعتقادا وعملا، وهو يعلم ما تخفيه صدورهم، أي نفوسهم

وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم. فضمير صدورهم عائد إلى ما من قوله يخلق ما يشاء [القصص: ٦٨] باعتبار معناها، أي ما تكن صدور المخلوقات وما يعلنون. وحيث أجريت عليهم ضمائر العقلاء فقد تعين أن المقصود البشر من المخلوقات وهم المقصود من العموم في ما يشاء [القصص: ٦٨] فبحسب ما يعلم منهم يختارهم ويجازيهم فحصل بهذا **إيماء** إلى علة الاختيار وإلى الوعد والوعيد. وهذا منتهى الإيجاز.

وفي إحضار الجلالة بعنوان وربك **إيماء** إلى أن مما تكنه صدورهم بغض محمد صلى الله عليه وسلم. وتقدم ما تكن صدورهم وما يعلنون آخر النمل [٧٤] .

[٧٠]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٧٠]

وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون (٧٠)

عطف على جملة وربك يخلق ما يشاء ويختار [القصص: ٦٨] الآية. والمقصود هو قوله". (١)

٣٣٦. ٣٣٦-"موجودا بالإجاءة بشيء من مكان إلى مكان، ووجه الشبه المثول والظهور.

والضياء: النور. وهو في هذا العالم من شعاع الشمس قال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء. وتقدم في سورة يونس [٥] . وعبر بالضياء دون النهار لأن ظلمة الليل قد تخف قليلا بنور القمر فكان ذكر الضياء **إيماء** إلى ذلك.

وفي تعدية فعل يأتيكم في الموضعين إلى ضمير المخاطبين **إيماء** إلى أن إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس. وهذا إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال على الانفراد بالإلهية. وإذ قد استمر المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدليل وقد علموا أن الأصنام لا تقدر على إيجاد الضياء جعلوا كأنهم لا يسمعون هذه الآيات التي أقامت الحجة الواضحة

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٦/٢٠

على فساد معتقدهم، ففرع على تلك الحجة الاستفهام الإنكاري عن انتفاء سماعهم بقوله أفلا تسمعون أي أفلا تسمعون الكلام المشتمل على التذكير بأن الله هو خالق الليل والضياء ومنه هذه الآية. وليس قوله أفلا تسمعون تذييلا.

وكرر الأمر بالقول في مقام التقرير لأن التقرير يناسبه التكرير مثل مقام التوبيخ ومقام التهويل.

وعكس الاستدلال الثاني بفرض أن يكون النهار وهو انتشار نور الشمس، سرمدا بأن خلق الله الأرض غير كروية الشكل بحيث يكون شعاع الشمس منتشرا على جميع سطح الأرض دوما.

ووصف الليل ب تسكنون فيه إدماج للمنة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة وتلك هي نعمة السكون فيه فإنها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة استعادة نشاط المجموع العصبي الذي به التفكير والعمل، ولذة الأمن من العدو.

ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

وتفرع على هذا الاستدلال أيضا تنزيلهم منزلة من لا يبصرون الأشياء الدالة على عظيم صنع الله وتفرده بصنعها وهي منهم بمرأى الأعين.". (١)

٣٣٧. ٣٣٧-"ويجوز أن تكون إن لمجرد الاهتمام بالخبر ومناط الاهتمام هو مجموع ما تضمنته القصة من العبر التي منها أنه من قوم موسى فصار عدوا له ولأتباعه، فأمره أغرب من أمر فرعون.

وعدل عن أن يقال: كان من بني إسرائيل، لما في إضافة قوم إلى موسى من الإيماء إلى أن لقارون اتصالا خاصا بموسى فهو اتصال القرابة.

وجملة فبغى عليهم معترضة بين جملة إن قارون كان من قوم موسى وجملة وآتيناه من الكنوز، والفاء فيها للترتيب والتعقيب، أي لم يلبث أن بطر النعمة واجترأ على ذوي قرابته، للتعجيب من بغي أحد على قومه كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

والبغي: الاعتداء، والاعتداء على الأمة الاستخفاف بحقوقها، وأول ذلك خرق شريعتها.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٧٠

وفي الإخبار عنه بأنه من قوم موسى تمهيد للكناية بهذا الخبر عن إرادة التنظير بما عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي بعض قرابته من المشركين عليه.

وفي قوله إن قارون كان من قوم موسى محسن بديعي وهو ما يسمى النثر المتزن، أي النثر الذي يجيء بميزان بعض بحور الشعر، فإن هذه الجملة جاءت على ميزان مصراع من بحر الخفيف، ووجه وقوع ذلك في القرآن أن الحال البلاغي يقتضي التعبير بألفاظ وتركيب يكون مجموعه في ميزان مصراع من أحد بحور الشعر.

وجملة إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة صلة ما الموصولة عند نحاة البصرة الذين لا يمنعون أن تقع إن في افتتاح صلة الموصول. ومنع الكوفيون من ذلك واعتذر عنهم بأن ذلك غير مسموع في كلام العرب ولذلك تأولوا ما هنا بأنها نكرة موصوفة وأن الجملة بعدها في محل الصفة.

والمفاتح: جمع مفتح بكسر الميم وفتح المثناة الفوقية وهو آلة الفتح، ويسمى المفتاح أيضا. وجمعه مفاتيح وقد تقدم عند قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب في سورة الأنعام". (١)

٣٣٨. ٣٣٨-"ولاختلاف هذه التقادير اختلفوا في الوقف فالجمهور يقفون على ويكأنه بتمامه والبعض يقف على (وي) والبعض يقف على (ويك) .

ومعنى الآية على الأقوال كلها أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله تعالى في خلقه وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق فخاطب بعضهم بعضا بذلك وأعلنوه.

والبسط: مستعمل مجازا في السعة والكثرة.

ويقدر مضارع قدر المتعدي، وهو بمعنى: أعدى بمقدار، وهو مجاز في القلة لأن التقدير يستلزم قلة المقدر لعسر تقدير الشيء الكثير قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها [الطلاق: ٧] .

وفائدة البيان بقوله من عباده **الإيماء** إلى أنه في بسطة الأرزاق وقدرها متصرف تصرف المالك في ملكه إذ المبسوط لهم والمقدور عليهم كلهم عبيده فحقهم الرضى بما قسم لهم مولاهم.

ومعنى لولا أن من الله علينا لخسف بنا: لولا أن من الله علينا فحفظنا من رزق كرزق قارون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٧٦

لخسف بنا، أي لكنا طغينا مثل طغيان قارون فخسف بنا كما خسف به، أو لولا أن من الله علينا بأن لم نكن من شيعة قارون لخسف بنا كما خسف به وبصاحبيه، أو لولا أن من الله علينا بثبات الإيمان.

وقرأ الجمهور لخسف بنا على بناء فعل «خسف» للمجهول للعلم بالفاعل من قولهم: لولا أن من الله علينا. وقرأه يعقوب بفتح الخاء والسين، أي لخسف الله الأرض بنا.

وجملة ويكأنه لا يفلح الكافرون تكرير للتعجيب، أي قد تبين أن سبب هلاك قارون هو كفره برسول الله.". (١)

٣٣٩. ٣٣٩-"هدى وأنهم على ضلال بعد أن قدم لذلك من أحوال رسالة موسى عليه السلام ما فيه عبرة بالمقارنة بين حالي الرسولين وما لقياه من المعرضين.

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام به. وجيء بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العلم لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر. وأنه خبر الكرامة والتأييد أي أن الذي أعطاك القرآن ما كان إلا مقدرا نصرك وكرامتك لأن إعطاء القرآن شيء لا نظير له فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى. قال كعب بن زهير:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ال ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

وفيه **إيماء** إلى تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومعنى فرض عليك القرآن اختاره لك من قولهم: فرض له كذا، إذا عين له فرضا، أي نصيبا.

ولما ضمن فرض معنى (أنزل) لأن فرض القرآن هو إنزاله، عدي فرض بحرف (على) .

والرد: إرجاع شيء إلى حاله أو مكانه. والمعاد: اسم مكان العود، أي الأول كما يقتضيه حرف الانتهاء. والتنكير في معاد للتعظيم كما يقتضيه مقام الوعد والبشارة، وموقعهما بعد قوله من جاء بالحسنة فله خير منها (١) [القصص: ٨٤] ، أي إلى معاد أي معاد.

والمعاد يجوز أن يكون مستعملا في معنى آخر أحوال الشيء وقراره الذي لا انتقال منه تشبيها بالمكان العائد إليه بعد أن صدر منه أو كناية عن الأخارة فيكون مرادا به الحياة الآخرة. قال

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٠

ابن عطية: وقد اشتهر يوم القيامة بالمعاد لأنه معاد الكل اه. أي فأبشر بما تلقى في معادك من الكرامة التي لا تعادلها كرامة والتي لا تعطى لأحد غيرك. فتنكير معاد أفاد أنه عظيم الشأن، وترتبه على الصلة أفاد أنه لا يعطى لغيره مثله كما أن القرآن لم يفرض على أحد مثله.

ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهود القريب من الحقيقة. وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه، فيراد به هنا بلده الذي كان به وهو مكة. وهذا الوجه يقتضي أنه كناية عن خروجه منه ثم عوده إليه لأن الرد يستلزم المفارقة. وإذ قد كانت السورة

---

(١) في المطبوعة (عشر أمثالها) .". (١)

٣٤٠. ٣٤٠-"من الفتنة من المشركين واستبطأوا النصر على الظالمين، وذهولهم عن سنة الكون في تلك الحالة منزلة من ينكر أن من يخالف الدهماء في ضلالهم ويتجافى عن أخلاقهم ورذالتهم لا بد أن تلحقه منهم فتنة.

ولما كان هذا السنن من آثار ما طبع الله عليه عقول غالب البشر وتفكيرهم غير المعصوم بالدلائل وكان حاصلا في الأمم السالفة كلها أسند فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسنادا مجازيا لأنه خالق أسبابه كما خلق أسباب العصمة منه لمن كان أهلا للعصمة من مثله، وفي هذا الإسناد إيماء إلى أن الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها. وإلى هذا يشير دعاء موسى عليه السلام المحكي في سورة يونس [٨٨] وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فسأل الله أن يخلق ضد الأسباب التي غرت فرعون وملأه وغشيت على قلبه بالضلال.

والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى، وقد قص القرآن بعض ذلك في سورة البروج.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٢٠

وحكمها سار في حال كل من يتمسك بالحق بين قوم يستخفون به من المسلمين لأن نكران الحق أنواع كثيرة.

والواو الداخلة على جملة ولقد فتنا الذين من قبلهم يجوز أن تكون عاطفة على جملة أحسب الناس [العنكبوت: ٢] ، ويجوز كونها عاطفة على جملة وهم لا يفتنون [العنكبوت: ٢] فتكون بمعنى الحال، أي والحال قد فتنا الذين من قبلهم، وعلى كلا التقديرين فالجملة معترضة بين ما قبلها وما تفرع عنه من قوله فليعلمن الله الذين صدقوا. فلك أن تسمي تلك الواو اعتراضية. وإسناد فعل فتنا إلى الله تعالى لقصد تشريف هذه الفتون بأنه جرى على سنة الله في الأمم. فالفاء في قوله فليعلمن الله الذين صدقوا تفريع على جملة وهم لا يفتنون [العنكبوت: ٢] ، أي يفتنون فيعلم الله الذين صدقوا منهم والكاذبين. والمفرع هو علم الله الحاصل في". (١)

٣٤١. ٣٤١-"مبينة لها ولذلك فصلت. ولولا هذا الوقع لكان حق الإخبار بها أن يجيء بواسطة حرف العطف.

ورجاء لقاء الله: ظن وقوع الحضور لحساب الله.

ولقاء الله: الحشر للجزاء لأن الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم، لهم أو عليهم، مباشرة بدون واسطة، وقد تقدم في قوله الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم [البقرة: ٤٦] وقوله واعلموا أنكم ملاقوه في سورة البقرة [٢٢٣] .

وأجل الله يجوز أن يكون الوقت الذي عينه الله في علمه للبعث والحساب فيكون من الإظهار في مقام الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقال: فإنه لآت فعدل إلى الإظهار كما في إضافة أجل إلى اسم الجلالة من **الإيماء** إلى أنه لا يخلف. والمقصود الاهتمام بالتحريض على الاستعداد. ويجوز أن يكون المراد ب أجل الله الأجل الذي عينه الله لنصر المؤمنين وانتهاء فتنة المشركين إياهم باستئصال مساعير تلك الفتنة، وهم صناديد قريش وذلك بما كان من النصر يوم بدر ثم ما عقبه إلى فتح مكة فيكون الكلام تثبيتا للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حين استبطأ المؤمنون النصر للخلاص من فتنة المشركين حتى يعبدوا الله لا يفتنوهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٤

في عبادته. والمعنى عليه: إن كنتم مؤمنين بالبعث إيقانا ينبعث من تصديق وعد الله به فإن تصديقكم بمجيء النصر أجدر لأنه وعدكم به، ف من شرطية، وجعل فعل الشرط فعل الكون للدلالة على تمكن هذ الرجاء من فاعل فعل الشرط.

ولهذا كان قوله فإن أجل الله لآت جوابا لقوله من كان يرجوا لقاء الله باعتبار دلالته على الجواب المقدر ليلتئم الربط بين مدلول جملة الشرط ومدلول جملة الجزاء.

ولولا ذلك لاختل الربط بين الشرط والجزاء إذ يفضي إلى معنى من لم يكن يرجو لقاء الله فإن أجل الله غير آت. وهذا لا يستقيم في مجاري الكلام فلزم تقدير شيء من باب دلالة الاقتضاء.

وتأكيد جملة الجزاء بحرف التوكيد على الوجه الأول للتحريض والحث على الاستعداد للقاء الله، وعلى الوجه الثاني لقصد تحقيق النصر الموعود به تنزيلا لاستبطائه منزلة التردد لقصد إذكاء يقينهم بما وعد الله ولا يوهنهم طول المدة الذي يضخمه الانتظار. وبهذا يظهر وقع التذييل بوصفي السميع العليم دون غيرهما من الصفات العلى **للإيماء** بوصف السميع إلى أن الله تعالى سمع". (١)

٣٤٢. ٣٤٢-"مقالة بعضهم من الدعاء بتعجيل النصر كما أشار إليه قوله تعالى وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله [البقرة: ٢١٤] .

وكقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»

. **والإيماء** بوصف العليم إلى أن الله علم ما في نفوسهم من استعجال النصر ولو كان المراد من أجل الله الموت لما كان وجه للإعلام بإتيانه بله تأكيده، وكذا لو كان المراد منه البعث لكان قوله من كان يرجوا لقاء الله كافيا، فهذا وجه ما أشارت إليه الآيات بالمنطوق والاقتضاء، والعدول بها عن هذا المهيع وإلى ما في «الكشاف» و «مفاتيح الغيب»

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٨

أخذا من كلام أبي عبيدة تحويل لها عن مجراها وصرف كلمة الرجاء عن معناها وتفكيك لنظم الكلام عن أن يكون آخذا بعضه بحجز بعض.

وإظهار اسم الجلالة في جملة فإن أجل الله لآت مع كون مقتضى الظاهر الإضمار لتقدم اسم الجلالة في جملة الشرط من كان يرجوا لقاء الله لئلا يلتبس معاد الضمير بأن يعاد إلى من إذ المقصود الإعلام بأجل مخصوص وهو وقت النصر الموعود كما في قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون [سبأ: ٢٩، ٣٠] .

وعبر بفعل الرجاء عن ترقب البعث لأن الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممن يرجو لقاء الله لأنهم يترقبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه. قال بلال رضي الله عنه حين احتضاره متمثلا بقول بعض الأشعريين الذين وفدوا على النبيء صلى الله عليه وسلم:

غدا ألقى الأحبه ... محمدا وصحبه

[٦]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦]

ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين (٦)

أي ومن جاهد ممن يرجون لقاء الله، فليست الواو للتقسيم، وليس من". (١)

٣٤٣. ٣٤٣-"هو أنهم آمنوا وعملوا الصالحات وهو على الوجه إظهار في مقام الإضمار لنكتة هذا الإيماء.

فالجزاء فضل لأن العبد إذا امتثل أمر الله فإنما دفع عن نفسه تبعة العصيان فأما الجزاء على طاعة مولاه فذلك فضل من المولى، وغفران ما تقدم من سيئاتهم فضل عظيم لأنهم كانوا أحقاء بأن يؤاخذوا بما عملوه وبأن إقلاعهم عن ذلك في المستقبل لا يقتضي التجاوز عن الماضي لكنه زيادة في الفضل.

وانتصب أحسن على أنه وصف لمصدر محذوف هو مفعول مطلق من فعل لنجزينهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٩

والتقدير: ولنجزينهم جزاء أحسن.
وإضافته إلى الذي كانوا يعملون لإفادة عظم الجزاء كله فهو مقدر بأحسن أعمالهم. وتقدير الكلام: لنجزينهم عن جميع صالحاتهم جزاء أحسن صالحاتهم. وشمل هذا من يكونون مشركين فيؤمنون ويعملون الصالحات بعد نزول هذه الآية.
[٨- ٩]

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٨ إلى ٩]
ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين (٩)
لم يترك القرآن فاذة من أحوال علائق المسلمين بالمشركين إلا بين واجبهم فيها المناسب لإيمانهم، ومن أشد تلك العلائق علاقة النسب فالنسب بين المشرك والمؤمن
يستدعي الإحسان وطيب المعاشرة ولكن اختلاف الدين يستدعي المناواة والمغاضبة ولا سيما إذا كان المشركون متصلبين في شركهم ومشفقين من أن تأتي دعوة الإسلام على أساس دينهم فهم يلحقون الأذى بالمسلمين ليقلعوا عن متابعة الإسلام، فبين الله بهذه الآية ما على المسلم في معاملة أنسبائه من المشركين. وخص بالذكر منها نسب الوالدين لأنه أقرب نسب فيكون ما هو دونه أولى بالحكم الذي يشرع له.
وحدثت قضية أو قضيتان دعتا إلى تفصيل هذا الحكم.
روي أن سعد بن". (١)

٣٤٤. ٣٤٤-"سؤالا في نفوس الأبناء أنهم هل يعاملون الوالدين بالإساءة لأجل إشراكهما فأنبئوا أن عقابهما على الشرك مفوض إلى الله تعالى فهو الذي يجازي المحسنين والمسيئين.
والمرجع: البعث. والإنباء: الإخبار، وهو مستعمل كناية عن علمه تعالى بما يعملون من ظاهر الأعمال وخفيها، أي ما يخفونه عن المسلمين وما يكنونه في قلوبهم، وذلك أيضا كناية عن

(١) التحرير والتنوير ٢١٢/٢٠

الجزاء عليه من خير أو شر، ففي قوله فأنبئكم كنايتان: أولاهما إيماء، وثانيتهما تلويح، أي فأجازيكم ثوابا على عصيانهما فيما يأمران، وأجازيهما عذابا على إشراكهما.

فجملة والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين تصريح ببعض ما أفادته الكناية التي في قوله فأنبئكم بما كنتم تعملون، اهتماما بجانب جزاء المؤمنين. وقد أشير إلى شرف هذا الجزاء بأنه جزاء الصالحين الكاملين كقوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين [النساء: ٦٩] ألا ترى إلى قول سليمان وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين [النمل: ١٩] .

ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن المؤمن لما أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة فجعل الله جزاء عن وحشة تلك التفرقة أنسا بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

[١٠]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ١٠]

ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠)

هذا فريق من الذين أسلموا بمكة كان حالهم في علاقاتهم مع المشركين حال من لا يصبر على الأذى فإذا لحقهم أذى رجعوا إلى الشرك بقلوبهم وكتموا ذلك عن المسلمين فكانوا منافقين فأنزل الله فيهم هذه الآية قبل الهجرة، قاله الضحاك وجابر بن زيد. وقد تقدم في آخر سورة النحل أن من هؤلاء الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبا قيس بن الوليد ابن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن". (١)

٣٤٥. ٣٤٥-"[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٤ إلى ١٥]

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون (١٤) فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين (١٥)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢١٥

سيقت هذه القصة واللاتي بعدها شواهد على ما لقي الرسل والذين آمنوا معهم من تكذيب المشركين كما صرح به قوله عقب القصتين وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم [العنكبوت: ١٨] على أحد الوجهين الآتيين.

وابتدئت القصص بقصة أول رسول بعثه الله لأهل الأرض فإن لأوليات الحوادث وقعا في نفوس المتأملين في التاريخ، وقد تقدم تفصيل قصته في سورة هود.

وزادت هذه الآية أنه لبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة. وظاهر الآية أن هذه مدة رسالته إلى قومه ولا غرض في معرفة عمره يوم بعثه الله إلى قومه، وفي ذلك اختلاف بين المفسرين، وفائدة ذكر هذه المدة للدلالة على شدة مصابرته على أذى قومه ودوامه على إبلا غ الدعوة تثبيتا للنبيء صلى الله عليه وسلم. وأوثر تمييز ألف ب سنة لطلب الخفة بلفظ سنة، وميز خمسين بلفظ عاما لئلا يكرر لفظ سنة.

والفاء من قوله: فأخذهم الطوفان عطف على أرسلنا كما عطف عليه فلبث وقد طوي ذكر ما ترتب عليه أخذهم بالطوفان وهو استمرار تكذيبهم.

وجملة وهم ظالمون حال، أي أخذهم وهم متلبسون بالظلم، أي الشرك وتكذيب الرسول، تلبسا ثابتا لهم متقررا وهذا تعريض للمشركين بأنهم سيأخذهم عذاب.

وفاء فأنجيناه عطف على فأخذهم الطوفان. وهذا **إيماء** إلى أن الله منجي المؤمنين من العذاب.

وقوله وجعلناها آية للعالمين الضمير للسفينة. ومعنى كونها آية أنها دليل على وقوع الطوفان عذابا من الله للمكذبين الرسل، فكانت السفينة آية ماثلة في". (١)

٣٤٦. ٣٤٦-"ولذلك أعقب بجملة ثم الله ينشئ النشأة الآخرة فهي جملة مستقلة. (وثم) للترتيب الرتبي كما تقدم في قوله ثم يعيده [العنكبوت: ١٩] .

وإظهار اسم الجلالة بعد تقدم ضميره في قوله كيف بدأ الخلق وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ثم ينشىء. قال في «الكشاف» : لأن الكلام كان واقعا في الإعادة فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فالذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة. فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى

(١) التحرير والتنوير ٢٢٢/٢٠

هو الذي ينشيء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ اه. يريد أن العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتسجيل وقوع هذا الإنشاء الثاني، فتكون الجملة مستقلة حتى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل لأن في اسم الجلالة إحضارا لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين، وليفيد وقوع المسند إليه مخبرا عنه بمسند فعلي معنى التقوي.

وجملة إن الله على كل شيء قدير تذييل، أي قدير على البعث وعلى كل شيء إذا أراده.

وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال.

والنشأة بوزن فعلة: المرة من النشء وهو الإيجاد، وكذلك قرأها الجمهور، عبر عنها بصيغة المرة لأنها نشأة دفعية تخالف النشء الأول ويقال: النشاءة بمد بعد الشين بوزن الكآبة ومثلها الرأفة والرءافة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بالمد. ووصفها ب الآخرة إيماء بأنها مساوية للنشأة الأولى فلا شبهة لهم في إحالة وقوعها. وأما قوله تعالى ولقد علمتم النشأة الأولى [الواقعة: ٦٢] فذلك على سبيل المشاكلة التقديرية لأن قوله قبله وننشئكم في ما لا تعلمون

[الواقعة: ٦١] يتضمن النشأة الآخرة فعبر عن مقابلتها بالنشأة.

[٢١]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٢١]

يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون (٢١)

لما ذكر النشأة الآخرة أتبع ذكرها بذكر أهم ما تشتمل عليه وما أوجدت لأجله وهو الثواب والعقاب.". (١)

٣٤٧. ٣٤٧-"ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها. ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٠

الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

روى أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، فقال: سينهاه ما تقول»

أي صلاته بالليل.

واعلم أن التعريف في قوله الفحشاء والمنكر تعريف الجنس فكلما تذكر المصلي عند صلاته عظمة ربه ووجوب طاعته وذكر ما قد يفعله من الفحشاء والمنكر كانت صلاته حينئذ قد نهته عن بعض أفراد الفحشاء والمنكر.

والفحشاء: اسم للفاحشة، والفحش: تجاوز الحد المقبول. فالمراد من الفاحشة: الفعلة المتجاوزة ما يقبل بين الناس. وتقدم في قوله تعالى إنما يأمركم بالسوء والفحشاء في سورة البقرة [١٦٩] . والمقصود هنا من الفاحشة: تجاوز الحد المأذون فيه شرعا من القول والفعل، وبالمنكر: ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه.

وكأن الجمع بين الفاحشة والمنكر منظور فيه إلى اختلاف جهة ذمه والنهي عنه.

وقوله ولذكر الله أكبر يجوز أن يكون عطفا على جملة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فيكون عطف علة على علة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة كما في قوله تعالى فاسعوا إلى ذكر الله [الجمعة: ٩] أي صلاة الجمعة. ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريق الإضافة **للإيماء** إلى تعليل أن الصلاة

تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر لأنها ذكر الله وذكر الله أمر كبير، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف كما في قولنا: الله أكبر، لا تريد أنه أكبر من كبير آخر.". (١)

٣٤٨. ٣٤٨-"المزية الخامسة: أن كون القرآن كتابا متلوا مستطاعا إدراك خصائصه لكل عربي، ولكل من حذق العربية من غير العرب مثل أيمة العربية، يبعده عن مشابهة نفثات السحرة والطلاسم، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنه تخيلات كما قال قوم فرعون لموسى: يا أيها الساحر [الزخرف: ٤٩] وقال تعالى حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٦٠

القمر:

وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر [القمر: ٢] ، فأشار قوله: يعرضوا إلى أن ذلك القول صدر عنهم في معجزة مرئية.

وعلق بالرحمة والذكرى قوله: لقوم يؤمنون للإشارة إلى أن تلك منافع من القرآن زائدة على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة التي هي منفعة الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن حاصلة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيبته ومستقلة عن الحاجة إلى بيانه وتكميله بالدعوة وبتكريرها.

واستحضار المؤمنين بعنوان: (قوم يؤمنون) دون أن يقال: للمؤمنين، لما في لفظ قوم من **الإيماء** إلى أن الإيمان من مقومات قوميتهم، أي لقوم شعارهم أن يؤمنوا، يعني لقوم شعارهم النظر والإنصاف فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلما وعلوا، فالفعل مراد به الحال القريبة من الاستقبال. وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها.

[٥٢]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٥٢]

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون (٥٢)

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض.

بعد أن ألقمهم حجر الحجة الدامغة أمر بأن يجعل الله حكما بينه وبينهم لما استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة. وهذا من الكلام المنصف المقصود منه استدراج المخاطب.

وكفى بالله بمعنى هو كاف لي في إظهار الحق، والباء مزيدة للتوكيد وقد تقدم نظيره في قوله: وكفى بالله شهيدا في سورة النساء". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٦

٣٤٩. ٣٤٩-"والمسمى أريد به المعين المحدود أي في علم الله تعالى. وقد تقدم عند قوله تعالى: ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى في سورة الحج [٥] .

والمعنى: لولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلا لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم ولكن أراد الله تأخيره لحكم علمها، منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد، وليعلموا أن الله لا يستفزه استعجالهم العذاب لأنه حكيم لا يخالف ما قدره بحكمته، حليم يمهل عباده. فالمعنى: لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب في وقت طلبهم تعجيله، ثم أنذرهم بأنه آتيهم بغتة وأن إتيانه محقق لما دل عليه لام القسم ونون التوكيد وذلك عند حلول الأجل المقدر له. وقد حل بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال تعالى: ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد [الأنفال: ٤٢] فاستأصل صناديدهم يومئذ وسقط في أيديهم.

وإذ قد كان الله أعد لهم عذابا أعظم من عذاب يوم بدر وهو عذاب جهنم الذي يعم جميعهم أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم. وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضا بين المتعاطفين **إيماء** إلى أن ذلك جواب استعجالهم فإنهم استعجلوا العذاب فأنذروا بعذابين، أحدهما أعجل من الآخر. وفي إعادة: يستعجلونك بالعذاب تهديد وإنذار بأخذهم، فجملة: وإن جهنم معطوفة على جملة: وليأتينهم بغتة فهما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف.

والإحاطة كناية عن عدم إفلاتهم منها.

والمراد بالكافرين المستعجلون، واستحضروا بوصف الكافرين للدلالة على أنه موجب إحاطة العذاب بهم. واستعمل اسم الفاعل في الإحاطة المستقبلة مع أن شأن اسم الفاعل أن يفيد الاتصاف في زمن الحال، تنزيلا للمستقبل منزلة زمان الحال تنبيها على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في إخباره.

ويتعلق: يوم يغشاهم العذاب ب (محيطة) ، أي تحيط بهم يوم يغشاهم العذاب.

وفي قوله: يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم تصوير للإحاطة. والغشيان: التغطية والحجب.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢١

٣٥٠. ٣٥٠-"ثم يرجعون إلى الله. وقصد منها أيضا تهوين ما يلاقيه المؤمنون من الأذى في الله ولو بلغ إلى الموت بالنسبة لما يترقبهم من فضل الله وثوابه الخالد، وفيه إيذان بأنهم يترقبهم جهاد في سبيل الله.

وقرأ الجمهور ترجعون بتاء الخطاب على أنه خطاب للمؤمنين في قوله: يا عبادي الذين آمنوا [العنكبوت: ٥٦] . وقرأه أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة تبعا لقوله:

يغشاهم العذاب [العنكبوت: ٥٥] .

[٥٨- ٥٩]

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين (٥٨) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٥٩)

عطف على جملة: والذين آمنوا بالباطل [العنكبوت: ٥٢] .

وجيء بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، أي نبوئنهم غرفا لأجل إيمانهم وعملهم الصالح.

والتبوئة: الإنزال والإسكان، وقد تقدم عند قوله تعالى: ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق في سورة يونس [٩٣] . وقرأ الجمهور: لنبوئنهم بموحدة بعد نون العظمة وهمزة بعد الواو. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: لنثوينهم بمثلثة بعد النون وتحتية بعد الواو من أثواه بهمزة التعدية إذا جعله ثاويا، أي مقيما في مكان.

والغرف: جمع غرفة، وهو البيت المعتلى على غيره. وتقدم عند قوله تعالى:

أولئك يجزون الغرفة في آخر سورة الفرقان [٧٥] .

وجملة: نعم أجر العاملين إلخ ... إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أعطوه، فلذلك قطعت عن العطف. وقوله: الذين صبروا خبر مبتدأ محذوف اتباعا للاستعمال، والتقدير: هم". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٣

٣٥١. ٣٥١-"وعلق ذلك بعنوان الكافرين للتنبيه على استحقاقهم ذلك لأجل كفرهم.

والتعريف في (الكافرين) تعريف العهد، أي لهؤلاء الكافرين وهم الذين ذكروا من قبل بأنهم افتروا على الله كذبا وكذبوا بالحق، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لإحضارهم بوصف الكفر.

والهمزة في أليس في جهنم مثوى للاستفهام التقريري، وأصلها: إما الإنكار بتنزيل المقر منزلة المنكر ليكون إقراره أشد لزوما له، وإما أن تكون للاستفهام فلما دخلت على النفي أفادت التقرير لأن إنكار النفي إثبات للمنفي وهو إثبات مستعمل في التقرير على وجه الكناية.

وهذا التقرير بالهمزة هو غالب استعمال الاستفهام مع النفي، ومنه قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فإنه لا يحتمل غير معنى التقرير بشهادة الذوق ولياقة مقام مدح الخليفة. وهذا تقرير لمن يسمع هذا الكلام. جعل كون جهنم مثواهم أمرا مسلما معروفا بحيث يقر به كل من يسأل عنه كناية عن تحقق المغبة على طريقة إيماء الكناية.

[٦٩]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٩]

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين (٦٩)

ختم توبيخ المشركين وذمهم بالتنويه بالمؤمنين إظهارا لمزيد العناية بهم فلا يخلو مقام ذم أعدائهم عن الثناء عليهم، لأن ذلك يزيد الأعداء غيظا وتحقيرا. والذين جاهدوا في الله هم المؤمنون الأولون فالموصول بمنزلة المعرف بلام العهد. وهذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ومدافعة كيد العدو وهو المتقدم في قوله أول السورة

[العنكبوت: ٦] ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال كما علمت من قبل. وجيء بالموصول للإيماء إلى أن الصلة سبب الخبر. ومعنى جاهدوا فينا". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢١/٣٦

٣٥٢. ٣٥٢-"جاهدوا في مرضاتنا، والدين الذي اخترناه لهم. والظرفية مجازية، يقال: هي ظرفية تعليل تفيد مبالغة في التعليل.

والهداية: الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي، أي لنزيدنهم هدى.

وسبل الله: الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه، شبهت بالطرق الموصلة إلى منزل الكريم المكرم للضيف.

والمراد ب المحسنين جميع الذين كانوا محسنين، أي كان عمل الحسنات شعارهم وهو عام.

وفيه تنويه بالمؤمنين بأنهم في عداد من مضى من الأنبياء والصالحين.

وهذا أوقع في إثبات الفوز لهم مما لو قيل: فأولئك المحسنون لأن في التمثيل بالأمور المقررة المشهورة تقريرا للمعاني ولذلك

جاء في تعليم الصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم قوله: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»

. والمعية: هنا مجاز في العناية والاهتمام بهم. والجملة في معنى التذييل بما فيها من معنى العموم. وإنما جيء بها معطوفة للدلالة على أن المهم من سوقها هو ما تضمنته من أحوال المؤمنين، فعطفت على حالتهم الأخرى وأفادت التذييل بعموم حكمها.

وفي قوله لنهدينهم سبلنا **إيماء** إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهبون لها أيام نزول هذه السورة.". (١)

٣٥٣. ٣٥٣-"وتقديم أنفسهم وهو مفعول يظلمون على فعله للاهتمام بأنفسهم في تسليط ظلمهم عليها لأنه ظلم يتعجب منه، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة. وليس تقديم المفعول هنا للحصر لأن الحصر حاصل من جملتي النفي والإثبات.

[١٠]

[سورة الروم (٣٠) : آية ١٠]

ثم كان عاقبة الذين أساؤا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن (١٠)

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٣٧

ثم للتراخي الرتبي لأن هذه العاقبة أعظم رتبة في السوء من عذاب الدنيا، فيجوز أن يكون هذا الكلام تذييلا لحكاية ما حل بالأمم السالفة من قوله كيف كان عاقبة الذين من قبلهم [الروم: ٩] .

والمعنى: ثم عاقبة كل من أساءوا السوأى مثلهم، فيكون تعريضا بالتهديد لمشركي العرب كقوله تعالى دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها [محمد: ١٠] ، فالمراد ب الذين أساؤا كل مسيء من جنس تلك الإساءة وهي الشرك. ويجوز أن يكون إنذارا لمشركي العرب المتحدث عنهم من قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون [الروم: ٦] فيكونوا المراد ب الذين أساؤا، ويكون إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لقصد **الإيماء** بالصلة، أي أن سبب عاقبتهم السوأى هو إساءتهم، وأصل الكلام: ثم كان عاقبتهم السوأى. وهذا إنذار بعد الموعظة ونص بعد القياس، فإن الله وعظ المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم بعواقب الأمم التي كذبت رسلها ليكونوا على حذر من مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل، ثم أعقب تلك الموعظة بالنذارة بأنهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل، ثم أعقب تلك الموعظة بالنذارة بأنهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة، وأوقع فعل كان الماضي في موقع المضارع للتنبيه على تحقيق وقوعه مثل أتى أمر الله [النحل: ١] إتماما للنذارة.

والعاقبة: الحالة الأخيرة التي تعقب حالة قبلها. وتقدمت في قوله: ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين

في سورة الأنعام [١١] ، وقوله: والعاقبة للتقوى في طه". (١)

٣٥٤. ٣٥٤-"والإخراج: فصل شيء محوي عن حاويه. يقال: أخرجه من الدار، وأخرج يده من جيبه، فهو هنا مستعمل لإنشاء شيء من شيء. والإتيان بصيغة المضارع في يخرج ويحي لاستحضار الحالة العجيبة مثل قوله الله الذي يرسل الرياح [الروم: ٤٨] . فهذا الإخراج والإحياء آية عظيمة على استحقاقه التعظيم والإفراد بالعبادة إذ أودع هذا النظام العجيب في الموجودات فجعل في الشيء الذي لا حياة له قوة وخصائص تجعله ينتج الأشياء الحية الثابتة المتصرفة ويجعل في تراب الأرض قوى تخرج الزرع والنبات حيا ناميا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٥٩

وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها: إنشاء الأجنة من النطف، وإنشاء الفراخ من البيض وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدم في سورة آل عمران. وفي الآية **إيماء** إلى أن الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة،

وإخراج هند بنت عتبة بن ربيعة من أبيها أحد أيمة الكفر وقد قالت للنبيء صلى الله عليه وسلم: «ما كان أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك واليوم ما أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك، فقال لها النبيء صلى الله عليه وسلم:

«وأيضا»

(أي ستزيدين حبا لنا بسبب نور الإسلام) .

وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من أبيها. ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها إلى مكة حسب شروط الهدنة فقالت: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبيء صلى الله عليه وسلم: يخرج الحي من الميت، ونزلت آية الامتحان فلم يردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما وكانت أول النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية.

والتشبيه في قوله وكذلك تخرجون راجع إلى ما يصلح له من المذكور قبله وهو ما فيه إنشاء حياة شيء بعد موته بناء على ما قدمناه من أن قوله ويخرج الميت من الحي ليس مقصودا من الاستدلال ولكنه احتراس وتكملة. ويجوز أن يكون التشبيه راجعا إلى أقرب مذكور وهو إحياء الأرض بعد موتها، أي وكإخراج النبات من الأرض بعد موته فيها يكون إخراجكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتا فيها، كما قال تعالى والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم". (١)

٣٥٥. ٣٥٥-"السماوية والأرضية، وما هو محل العبرة من أحوالهما المتقاربة المتلازمة كالليل والنهار والفصول، والمتضادة كالعلو والانخفاض.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٦٨

وإذ قد كان أشرف ما على الأرض نوع الإنسان قرن ما في بعض أحواله من الآيات بما في خلق الأرض من الآيات، وخص من أحواله المتخالفة لأنها أشد عبرة إذ كان فيها اختلاف بين أشياء متحدة في الماهية، ولأن هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامتة أشعة الشمس لها فهي من آثار خلق السماوات والأرض. ولذلك فالظاهر أن المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان وأن ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له **وإيماء** إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض. وقد كانت هذه الآية متعلقة بأحوال عرضية في الإنسان ملازمة له فبتلك الملازمة أشبهت الأحوال الذاتية المطلقة ثم النسبية، فلذلك ذكرت هذه الآية عقب الآيتين السابقتين حسب الترتيب السابق. وقد ظهر وجه المقارنة بين خلق السماوات والأرض وبين اختلاف ألسن البشر وألوانهم، وتقدم في سورة آل عمران [١٩٠] قوله إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.

والألسنة: جمع لسان، وهو يطلق على اللغة كما في قوله تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه [إبراهيم: ٤] وقوله لسان الذي يلحدون إليه أعجمي [النحل: ١٠٣] .

واختلاف لغات البشر آية عظيمة فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة.". (١)

٣٥٦. ٣٥٦-"صنع الله تعالى مما يشعر به صاحب النوم من أحوال نومه، لأن النائم لا يعرف من نومه إلا الاستعداد له وإلا أنه حين يهب من نومه يعلم أنه كان نائما فأما حالة النائم في حين نومه ومقدار تنبهه لمن يوقظه، وشعوره بالأصوات التي تقع بقربه، والأضواء التي تنتشر على بصره فتنبهه أو لا تنبهه، كل ذلك لا يتلقاه النائم إلا بطريق الخبر من الذين

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٧٣

يكونون أيقاظا في وقت نومه. فطريق العلم بتفاصيل أحوال النائمين واختلافها السمع، وقد يشاهد المرء حال نوم غيره إلا أن عبرته بنومه الخاص به أشد، فطريق السمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النوم، فلذلك قيل لقوم يسمعون. وأيضا لأن النوم يحول دون الشعور بالمسموعات بادىء ذي بدء قبل أن يحول دون الشعور بالمبصرات.

وأجريت صفة يسمعون على قوم للإيماء إلى أن السمع متمكن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] . ووجه جعل ذلك آيات لما ينطوي عليه من تعدد الدلالات بتعدد المستدلين وتولد دقائق تلك الآية بعضها عن بعض كما تقدم آنفا.

ومعنى اللام في قوله لقوم يسمعون كما تقدم في معناه عند قوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [الروم: ٢١] .

[٢٤]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٤]

ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٢٤)

تلك آية خامسة وهي متعلقة بالإنسان وليست متصلة به، فإن البرق آية من آيات صنع الله وهو من خلق القوى الكهربائية النورانية في الأسحبة وجعلها آثارا مشاهدة، وكم من قوى أمثالها منبثة في العوالم العلوية لا تشاهد آثارها.". (١)

٣٥٧. ٣٥٧-"وباسم المصدر تارة ومن آياته منامكم بالليل والنهار [الروم: ٢٣] ومرة بالفعل المجرد المؤول بالمصدر ومن آياته يريكم البرق.

ولك أن تجعل المجرور متعلقا ب يريكم وتكون من ابتدائية في موضع الحال من البرق، وتكون جملة يريكم البرق معطوفة على جملة ومن آياته منامكم بالليل

والنهار

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٧٧

[الروم: ٢٣] إلخ. فيكون تغيير الأسلوب لأن مناط هذه الآية هو تقرير الناس بها إذ هي غير متصلة بذواتهم فليس حظهم منها سوى مشاهدتها والإقرار بأنها آية بينة. فهذا التقرير كالذي في قوله تعالى الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها [الرعد: ٢] ، وليتأتى عطف وينزل من السماء ماء عليه لأنه تكملة لهذه الآية.

وقوله خوفا وطمعا مفعول لأجله معطوف عليه. والمراد: خوفا تخافونه وطمعا تطمعونه. فالمصدران مؤولان بمعنى الإرادة، أي إرادة أن تخافوا خوفا وتطمعوا. وقد تقدم الكلام على البرق في قوله هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا في سورة الرعد [١٢] . وتقدم هنالك أن خوفا مفعول له وطمعا كذلك وتوجيه ذلك.

وجعلت هذه الآية آيات لا نطوائها على دقائق عظيمة في خلق القوى التي هي أسباب البرق ونزول المطر وخروج النبات من الأرض بعد جفافها وموتها. ونيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل لأن العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كاف في فهم ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قرر في نظائره آنفا.

وإجراء يعقلون على لفظ قوم للإيماء إلى ما تقدم ذكره آنفا في مثله. ومعنى اللام في قوله لقوم يعقلون مثل معنى أختها في قوله لقوم يتفكرون [الروم: ٢١] .

[٢٥]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٥]

ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٢٥)

ختمت الآيات بهذه الآية السادسة وهي التي دلت على عظيم القدرة على". (١)

٣٥٨. ٣٥٨-"ولذلك عقب بجملة كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون، أي نفصل الدلائل على الاعتقاد الصحيح تفصيلا كهذا التفصيل وضوحا بينا، وجملة إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون [الروم: ٢٤] استئناف ابتدائي. والقوم الذين يعقلون هم المتنزهون عن المكابرة

---

(١) التحرير والتنوير ٧٩/٢١

والإعراض، والطالبون للحق والحقائق لوفرة عقولهم، فيزداد المؤمنون يقينا ويؤمن الغافلون والذين تروج عليهم ضلالات المشركين ثم تنكشف عنهم بمثل هذه الدلائل البينة.

وفي ذكر لفظ قوم وإجراء الصفة عليه **إيماء** إلى أن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا من كان العقل من مقومات قوميته كما تقدم في قوله تعالى لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] ، وتقدمت له نظائر كثيرة. والقول في إيثار وصف العقل هنا دون غيره من أوصاف النظر والفكر كالقول فيما تقدم عند قوله ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا إلى قوله يعقلون [الروم: ٢٤] .

وفي هذا تعريض بالمتصلبين في شركهم بأنهم ليسوا من أهل العقول، وليسوا ممن ينتفعون كقوله تعالى وما يعقلها إلا العالمون [العنكبوت: ٤٣] وقوله ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون [البقرة: ١٧١] .

وقوله كذلك تقدم نظيره في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] .

[٢٩]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٩]

بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين (٢٩)

إضراب إبطالي لما تضمنه التعريض الذي في قوله كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون [الروم: ٢٨] إذ اقتضى أن الشأن أن ينتفع الناس بمثل هذا المثل فيقلع المشركون منهم عن إشراكهم ويلجوا حظيرة الإيمان، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وما تسوله لهم نفوسهم ولم يطلبوا الحق ويتفهموا دلائله فهم عن العلم بمنأى. فالتقدير: فما نفعتهم الآيات المفصلة بل اتبعوا أهواءهم.". (١)

٣٥٩. ٣٥٩-"وثم للتراخي الرتبي لأن إشراكهم بالله بعد الدعاء والإنابة وحصول رحمته أعجب من إشراكهم السابق، ففي التراخي الرتبي معنى التعجيب من تجدد إشراكهم، وحرف المفاجأة إذا يفيد أيضا أن هذا الفريق أسرعوا العودة إلى الشرك بحدثان ذوق الرحمة لتأصل الكفر منهم وكمونه في نفوسهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٢١

وضمير منه عائد إلى الله تعالى. ومن ابتدائية متعلقة ب أذاقهم.
ورحمة فاعل أذاقهم ولم يؤنث لها الفعل لأن تأنيث مسمى الرحمة غير حقيقي ولأجل الفصل بالمجرور. وتقديم المجرور على الفاعل للاهتمام به ليظهر أن الذي أصابهم هو من فضل الله وتقديره لا غير ذلك. واللام في قوله ليكفروا لام التعليل وهي مستعارة لمعنى التسبب الذي حقه أن يفاد بالفاء لأنهم لما أشركوا لم يريدوا بشركهم أن يجعلوه علة للكفر بالنعمة ولكنهم أشركوا محبة للشرك فكان الشرك مفضيا إلى كفرهم نعمة الله خشية الإفضاء والتسبب بالعلة الغائية على نحو قوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا [القصص: ٨] .
وضمير ليكفروا عائد إلى الفريق باعتبار معناه.
والإيتاء: إعطاء النافع، أي بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضر عنهم. ثم التفت عن الغيبة إلى الخطاب بقوله فتمتعوا توبيخا لهم وإنذارا، وجيء بفاء التفريع في قوله فتمتعوا لأن الإنذار والتوبيخ مفرعان عن الكلام السابق. والأمر في (تمتعوا) مستعمل في التهديد والتوبيخ. والتمتع: الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدة تنقضي.
والفاء في فسوف تعلمون تفريع للإنذار على التوبيخ، وهو رشيق. و (سوف تعلمون) إنذار بأنهم يعلمون في المستقبل شيئا عظيما، والعلم كناية عن حصول الأمر الذي يعلم، أي عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن، وهو إيماء إلى عظمتها وأنها غير مترقبة لهم. وهذا إشارة إلى ما سيصابون به". (١)

٣٦٠. ٣٦٠-"والإذاقة: استعارة مكنية شبه ما يصيبهم من الآلام فيحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم. ولما كان ما عملوه لا يصيبهم بعينه تعين أن بعض الذي عملوا أطلق على جزاء العمل ولذلك فالبعضية تبعيض للجزاء، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل، أي أن ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقونه. وفي هذا تهديد إن لم يقلعوا عن مساوئ أعمالهم كقوله تعالى: ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة [فاطر: ٤٥] ، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال تعالى:
ولعذاب الآخرة أشد وأبقى [طه: ١٢٧] .

---
(١) التحرير والتنوير ٢١/٩٨

والعدول عن أن يقال: بعض أعمالهم إلى بعض الذي عملوا للإيماء إلى ما في الموصول من قوة التعريف، أي أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدورها منهم.

والرجاء المستفاد من (لعل) يشير إلى أن ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عما هم اكتسبوه، وأن حالهم حال من يرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين تمردهم وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى: أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون [التوبة: ١٢٦] .

والرجوع مستعار للإقلاع عن المعاصي كأن الذي عصى ربه عبد أبق عن سيده، أو دابة قد أبدت، ثم رجع. وفي الحديث «الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا دابته عنده» .

وقرأ الجمهور ليذيقهم بالياء التحتية، أي ليذيقهم الله. ومعاد الضمير قوله الله الذي خلقكم [الروم: ٤٠] . وقرأه قنبل عن ابن كثير وروح عن عاصم بنون العظمة.". (١)

٣٦١. ٣٦١-"السماء، فتعين أن يكون الجمع بينهما في الذكر مرادا منه اختلاف أحوال السحاب. والمقصود من هذا: أن اختلاف الحال آية على سعة القدرة.

والخطاب في فترى الودق خطاب لغير معين وهو كل من يتأتى منه سماع هذا وتتأتى منه رؤية الودق. والودق: المطر. وضمير خلاله للسحاب بحالتيه المذكورتين وهما حالة بسطه في السماء وحالة جعله كسفا فإن المطر ينزل من خلال السحاب المغلق والغمامات. والخلال: جمع خلل بفتحتين وهو الفرجة بين شيئين. وتقدم نظير هذه الجملة في سورة النور [٤٣] .

وذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر وفي وقت انحباسه بين استبشار وإبلاس إدماج للتذكير برحمة الله إياهم وللاعتبار باختلاف تأثرات نفوسهم في السراء والضراء، وفي ذلك إيماء إلى عظيم تصرف الله في خلقة الإنسان إذ جعله قابلا لاختلاف الانفعال مع

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١١٣

اتحاد العقل والقلب كما جعل السحاب مختلف الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج الودق من خلاله.

وإن في قوله وإن كانوا مخففة مهملة عن العمل، واللام في قوله لمبلسين اللام الفارقة بين إن المخففة وإن الشرطية.

والإبلاس: يأس مع انكسار. وقوله من قبله تكرير لقوله من قبل أن ينزل عليهم [الروم: ٤٩] لتوكيد معنى قبلية نزول المطر وتقريره في نفوس السامعين. قال ابن عطية: أفاد التأكيد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار اهـ. يعني أن إعادة قوله من قبله زيادة تنبيه على الحالة التي كانت من قبل نزول المطر. وقال في «الكشاف» : «فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم» اهـ.". (١)

٣٦٢. ٣٦٢-"عجل [الأنبياء: ٣٧]

يدل على تمكن الوصف من الموصوف حتى كأنه منتزع منه، قال تعالى: وخلق الإنسان ضعيفا [النساء: ٢٨] .

والمعنى: أنه كما أنشأكم أطوارا تبتدئ من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأول وما لحقه من الأطوار، ولهذا أخبر عنه بقوله: يخلق ما يشاء.

وذكر وصف العلم والقدرة لأن التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم، وإبرازه على أحكم وجه هو من أثر القدرة. وتنكير ضعف وقوة للنوعية ف ضعف المذكور ثانيا هو عين ضعف المذكور أولا، وقوة المذكورة ثانيا عين قوة المذكورة أولا. وقولهم: النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى، يريدون به التنكير المقصود منه الفرد الشائع لا التنكير المراد به النوعية. وعطف وشيبة للإيماء إلى أن هذا الضعف لا قوة بعده وأن بعده العدم بما شاع من أن الشيب نذير الموت.

والشيبة: اسم مصدر الشيب. وقد تقدم في قوله تعالى: واشتعل الرأس شيبا في سورة مريم

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٢٢

[٤] .

[٥٥]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٥]

ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون (٥٥)

لما ذكر عدم انتفاع المشركين بآيات القرآن وشبهوا بالأموات والصم والعمي فظهرت فظاعة حالهم في العاجلة أتبع ذلك بوصف حالهم حين تقوم الساعة في استصحاب مكابرتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، بأن الله حين يعيد خلقهم وينشىء لهم أجساما كأجسامهم ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه في الدنيا من السفسطة والمغالطة والغرور، فإذا نشروا من القبور وشعروا بصحة أجسامهم وعقولهم وكانوا قد علموا في آخر أوقات حياتهم". (١)

٣٦٣. ٣٦٣-"الإعانة أو الإغناء أو غير ذلك من فوائد الشكر للمشكورين على تفاوت مقاماتهم، والله غني عن جميع ذلك، وهو حميد، أي: كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلها حتى حال الكافر به كما قال تعالى ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها سورة الرعد [١٥] .

ومن بلاغة القرآن وبديع إيجازه أن كان قوله أن اشكر لله جامعا لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان، ولأمره بالشكر على ذلك، فقد جمع قوله أن اشكر لله الإرشاد إلى الشكر، مع الشروع في الأمر المشكور عليه تنبيها على المبادرة بالشكر عند حصول النعمة. وإنما قوبل الإعراض عن الشكر بوصف الله بأنه حميد لأن الحمد والشكر متقاربان،

وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر»

، فلما لم يكن في أسماء الله تعالى اسم من مادة الشكر إلا اسمه الشكور وهو بمعنى شاكر، أي: شاكر لعباده عبادتهم إياه عبر هنا باسمه حميد. وجيء في فعل يشكر بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٢٨

واللام في قوله أن اشكر لي [لقمان: ١٤] داخلة على مفعول الشكر وهي لام ملتزم زيادتها مع مادة الشكر للتأكيد والتقوية، وتقدم في قوله واشكروا لي في سورة البقرة [١٥٢] .
[١٣]

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٣]
وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣)
عطف على جملة آتينا لقمان الحكمة [لقمان: ١٢] لأن الواو نائبة مناب الفعل فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ
قال لابنه فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة.
وإذ ظرف متعلق بالفعل المقدر الذي دلت عليه واو العطف، أي والتقدير:
وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه. وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء". (١)

٣٦٤. ٣٦٤-"أصله، ثم لما التقت ياء التصغير ساكنة قبل واو الكلمة المتحركة بحركة الإعراب قلبت الواو ياء لتقاربهما وأدغمتا، ولما
نودي وهو مضاف إلى ياء المتكلم حذفت ياء المتكلم لجواز حذفها في النداء وكراهية تكرر الأمثال، وأشير إلى الياء المحذوفة بإلزامه الكسر في أحوال الإعراب الثلاثة لأن الكسرة دليل على ياء المتكلم. وتقدم في سورة يوسف. والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة **إيماء** وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة.
ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل. وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدهرية والإشراك، فكان قوله لا تشرك بالله يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته. وقرأ حفص عن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥٣

عاصم في المواضع الثلاثة في هذه السورة يا بني بفتح الياء مشددة على تقدير: يا بنيا بالألف وهي اللغة الخامسة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ثم حذفت الألف واكتفي بالفتحة عنها، وهذا سماع.

وجملة إن الشرك لظلم عظيم تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها. وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودل عليه الحديث

في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم

". (١)

٣٦٥. ٣٦٥-"وجملة إن الله لطيف خبير:

- يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف لأن النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس ولذلك جيء بالنتيجة كلية بعد الاستدلال بجزئية. وإنما لم نجعلها تعليلا لأن مقام تعليم لقمان ابنه يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق، وشرط التعليل أن يكون مسلما معلوما قبل العلم بالمعلل ليصح الاستدلال به.

- ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان تعليما من الله للمسلمين.

واللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو

(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٢١

وصف مؤذن بالعلم والقدرة الكاملين، أي يعلم ويقدر وينفذ قدرته، وتقدم في قوله وهو اللطيف الخبير في سورة الأنعام [١٠٣] . ففي تعقيب يأت بها الله بوصفه ب (اللطيف) **إيماء** إلى أن التمكن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من اختلال نظام صنعه. وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح.

[١٧]

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٧]
يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧)
انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح. وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وتقدم في أول سورة البقرة. وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال ليتطلب". (١)

٣٦٦. ٣٦٦-"والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره.
والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترا واختيالا فلذلك يسمى ذلك المشي مرحا كما في الآية، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق، أي مشيا مرحا، وتقدم في سورة الإسراء [٣٧] . وموقع قوله في الأرض بعد لا تمش مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض هو **الإيماء** إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم قويهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنه مساو لسائر الناس.

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٦٤

وموقع إن الله لا يحب كل مختال فخور موقع إن الله لطيف خبير [لقمان: ١٦] كما تقدم.
والمختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال من فعل خال إذا كان ذا خيلاء، فهو خائل.
والخيلاء: الكبر والازدهاء، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف فوزن المختال مختيل فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا، فقوله إن الله لا يحب كل مختال مقابل قوله ولا تصاعر خدك للناس، وقوله فخور مقابل قوله ولا تمش في الأرض مرحا.
والفخور: شديد الفخر. وتقدم في قوله إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا
في سورة النساء [٣٦] .
ومعنى إن الله لا يحب كل مختال فخور أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين، ولا يخطر ببال أهل الاستعمال أن يكون مفاده أن الله لا يحب مجموع المختالين الفخورين إذا اجتمعوا بناء على ما ذكره عبد القاهر من أن كل إذا وقع في حيز النفي مؤخرا عن أداته ينصب النفي على الشمول، فإن ذلك إنما هو في كل التي يراد منها تأكيد الإحاطة لا في كل التي يراد منها الأفراد، والتعويل في ذلك على القرائن. على أنا نرى ما ذكره الشيخ أمر أغلبي غير مطرد في استعمال أهل اللسان ولذلك نرى صحة الرفع والنصب في لفظ (كل) في قول أبي النجم العجلي:
قد أصبحت أم الخيار تدعي ... علي ذنبا كله لم أصنع
وقد بينت ذلك في تعليقاتي على دلائل الإعجاز.". (١)

٣٦٧. ٣٦٧-"لله، أي خالصا له كما في قوله تعالى فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله في سورة آل عمران [٢٠] .
والإحسان: العمل الصالح والإخلاص في العبادة.
وفي الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»
. والمعنى: ومن يسلم إسلاما لا نفاق فيه ولا شك فقد أخذ بما يعتصم به من الهوي أو التزلزل.
وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى مضى الكلام على نظيره عند قوله تعالى فمن يكفر

(١) التحرير والتنوير ١٦٧/٢١

بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى في سورة البقرة [٢٥] ، وهو ثناء على المسلمين. وتذييل هذا بقوله وإلى الله عاقبة الأمور **إيماء** إلى وعدهم بلقاء الكرامة عند الله في آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة.

والتعريف في الأمور للاستغراق، وهو تعميم يراد به أن أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله وموكولة إليه فجزاؤهم بالخير مناسب لعظمة الله.

والعاقبة: الحالة الخاتمة والنهاية. والأمور: جمع أمر وهو الشأن.

وتقديم إلى الله للاهتمام والتنبيه إلى أن الراجع إليه يلاقي جزاءه وافيا.

[٢٣]

[سورة لقمان (٣١) : آية ٢٣]

ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور (٢٣)

لما خلا ذم الذين كفروا عن الوعيد وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم عطف عنان الكلام إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتهوين كفرهم عليه تسلية له وتعريضا بقلة العبء بهم لأن مرجعهم إلى الله فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم، فهو تعريض لهم بالوعيد.

وأسند النهي إلى كفرهم عن أن يكون محزنا للرسول صلى الله عليه وسلم مجازا عقليا في نهي". (١)

٣٦٨. ٣٦٨-"وقوله من رب العالمين خبر عن المبتدأ ومن ابتدائية.

والمعنى: من عنده ووحيه، كما تقول: جاءني كتاب من فلان. ووقعت جملة لا ريب فيه بأسلوب المعلوم المقرر فلم تجعل خبرا ثانيا عن المبتدأ لزيادة التشويق إلى الخبر ليقرر كونه من رب العالمين.

ومعنى لا ريب فيه أنه ليس أهلا لأن يرتاب أحد في تنزيله من رب العالمين لما حف بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعه، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاستقامة، ومجيء مثله من مثله

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٧٧

مع ما هو معلوم من وصف الأمية. فمعنى نفي أن يكون الريب مظروفا في هذا الكتاب أنه لا يشتمل على ما يثير الريب، فالذين ارتابوا بل كذبوا أن يكون من عند الله فهم لا يعدون أن يكونوا متعنتين على علم، أو جهالا يقولون قبل أن يتأملوا وينظروا والأولون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم، وقد تقدم ذلك في أول سورة البقرة.

واستحضار الجلالة بطريق الإضافة بوصف رب العالمين دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من **الإيماء** إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزلا للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية، كما قال تعالى: مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه [المائدة: ٤٨] . وفيه **إيماء** إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالته بشرا منهم حسدا من عند أنفسهم لأن ربوبية الله للعالمين تنبيء عن أنه لا يسأل عما يفعل وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته.

[٣]

[سورة السجده (٣٢) : آية ٣]

أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون (٣)

جاءت أم للإضراب عن الكلام السابق إضراب انتقال، وهي أم المنقطعة التي بمعنى بل التي للإضراب.". (١)

٣٦٩. ٣٦٩-"[سورة السجده (٣٢) : آية ٤]

الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون (٤)

لما كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عقب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن.

وجيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به قطعا لدابر عقيدة

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٠٦

الشريك في الإلهية، وخبر المبتدأ جملة ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع، ويكون قوله: الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما صفة لاسم الجلالة.

وجيء باسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر وأنه الانفراد بالربوبية لجميع الخلائق في السماوات والأرض وما بينهما، ومن أولئك المشركون المعنيون بالخبر، والخطاب موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

والولي: مشتق من الولاء، بمعنى: العهد والحلف والقرابة. ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولى. وأريد بالولي: المشارك في الربوبية.

والشفيع: الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضر أو جلب نفع. والمشركون زعموا أن الأصنام آلهة شركاء لله في الإلهية ثم قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله [يونس: ١٨] وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى [الزمر: ٣] .

ومن في قوله من دونه ابتدائية في محل الحال من ضمير لكم، و (دون) بمعنى غير، ومن في قوله من ولي زائدة لتأكيد النفي، أي: لا ولي لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالا لما زعموه لأصنامهم من الوصفين إبطالا راجعا إلى إبطال الإلهية عنها. وليس المراد أنهم لا نصير لهم ولا شفيع إلا الله لأن الله لا ينصرهم على نفسه ولا يشفع لهم عند نفسه، قال الله تعالى: ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم [محمد: ١١] وقال: من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه [البقرة: ٢٥٥] .

وتقدم تفسير نظيره إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام". (١)

٣٧٠. ٣٧٠-"وتخلص من هذا الوصف العام إلى خلق الإنسان لأن في خلقة الإنسان دقائق في ظاهره وباطنه وأعظمها العقل.

والإنسان أريد به الجنس، وبدء خلقه هو خلق أصله آدم كما في قوله تعالى:

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم [الأعراف: ١١] ، أي: خلقنا أباكم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. ويدل على هذا المعنى هنا قوله: ثم جعل نسله من سلالة فإن ذلك بدىء من أول نسل لآدم وحواء، وقد تقدم خلق آدم في سورة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢١١

البقرة. ومن في قوله من طين ابتدائية.

والنسل: الأبناء والذرية. سمي نسلا لأنه ينسل، أي: ينفصل من أصله وهو مأخوذ من نسل الصوف والوبر إذا سقط عن جلد الحيوان، وهو من بابي كتب وضرب.

ومن في قوله من سلالة ابتدائية. وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سلالة كما في الآية لأنها تنفصل عن الرجل، فقوله من ماء مهين بيان ل سلالة. ومن بيانية فالسلالة هي الماء المهين، هذا هو الظاهر لمتعارف الناس ولكن في الآية **إيماء** علمي لم يدركه الناس إلا في هذا العصر وهو أن النطفة يتوقف تكون الجنين عليها لأنه يتكون من ذرات فيها تختلط مع سلالة من المرأة وما زاد على ذلك يذهب فضله، فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين، فتكون من في قوله من ماء مهين للتبعيض أو للابتداء.

والمهين: الشيء المتهن الذي لا يعبأ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصان.

والتسوية: التقويم، قال تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم [التين: ٤] .

والضمير المنصوب في سواه عائد إلى نسله لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف ب ثم وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح، قال تعالى:". (١)

٣٧١. ٣٧١-"حمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بتخفيف الميم على أنها مركبة من لام التعليل و (ما) المصدرية، أي جعلناهم أيمة لأجل صبرهم وإيقانهم.

[٢٥]

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢٥]

إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (٢٥)

استئناف بياني لأن قوله تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا [السجدة: ٢٤] يثير سؤالا في نفس السامع من المؤمنين الذين سمعوا ما في القرآن من وصف اختلاف بني إسرائيل

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢١٦

وانحرافهم عن دينهم وشاهد كثير منهم بني إسرائيل في زمانه غير متحلين بما يناسب ما قامت به أئمتهم من الهداية فيود أن يعلم سبب ذلك فكان في هذه الآية جواب ذلك تعليما للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

والخطاب للنبيء والمراد أمته تحذيرا من ذلك **وإيماء** إلى وجوب تجنب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين.

والفصل: القضاء والحكم، وهو يقتضي أن اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من الهدى فهو اختلاف غير مستند إلى أدلة ولا جار في مهيع أصل الشريعة ولكنه متابعة للهوى وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى: ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم [آل عمران: ١٠٥] .

وليس منه اختلاف أيمة الدين في تفاريع الأحكام وفي فهم الدين مما لا ينقض أصوله ولا يخالف نصوصه وإنما هو إعمال لأصوله ولأدلته في الأحوال المناسبة لها وحمل متعارضها بعضه على بعض فإن ذلك كله محمود غير مذموم وقد اختلف أصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم في حياته فلم يعنف أحدا، واختلفوا بعد وفاته فلم يعنف بعضهم بعضا. ويشمل ما كانوا فيه يختلفون ما كان اختلافا بين المهتدين والضالين منهم وما كان اتفاقا من جميع أمتهم على الضلالة فإن ذلك خلاف بين المجمعين وبين ما". (١)

٣٧٢. ٣٧٢-"نطقت به شريعتهم وسنته أنبياؤهم، ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم.

وضمير هو في قوله هو يفصل ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى **إيماء** إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٣٨

[٢٦]

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢٦]

أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون (٢٦)

عطف على جملة ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها [السجدة: ٢٢] ، ولما كان ذلك التذكير متصلا كقوله وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون [السجدة: ١٠] كان الهدي، أي العلم المستفهم عنه بهذا الاستفهام شاملا للهدي إلى دليل البعث وإلى دليل العقاب على الإعراض عن التذكير فأفاد قوله كم أهلكنا من قبلهم من القرون معنين: أحدهما: إهلاك أمم كانوا قبلهم فجاء هؤلاء المشركون بعدهم، وذلك تمثيل للبعث وتقريب لإمكانه. وثانيهما: إهلاك أمم كذبوا رسلهم ففيهم عبرة لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

والاستفهام إنكاري، أي هم لم يهتدوا بدلائل النظر والاستدلال التي جاءهم بها القرآن فأعرضوا عنها ولا اتعظوا بمصارع الأمم الذين كذبوا أنبياءهم وفي مهلكهم آيات تزجر أمثالهم عن السلوك فيما سلكوه. فضمير لهم عائد إلى المجرمين أو إلى من ذكر بآيات ربه. ويهد من الهداية وهي الدلالة والإرشاد، يقال: هداه إلى كذا.

وضمن فعل يهد معنى يبين، فعدي باللام فأفاد هداية واضحة بينة. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى أولم يهد للذين يرثون الأرض في سورة [الأعراف: ١٠٠] . واختير فعل الهداية في هذه الآية لإرادة الدلالة الجامعة للمشاهدة ولسماع أخبار تلك الأمم تمهيدا لقوله في آخرها أفلا يسمعون، ولأن كثرة". (١)

٣٧٣. ٣٧٣-"واسم الإشارة في هذا الفتح مع إمكان الاستغناء عنه بذكر مبينه مقصود منه التحقير وقلة الاكتراث به كما في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢١

إنباء بقلة اكتراثه بالموت ومنه قوله تعالى حكاية عنهم: أهذا الذي يذكر آلهتكم [الأنبياء: ٣٦] فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأن يوم الفتح الحق هو يوم القيامة وهو يوم الفصل وحينئذ ينقطع أمل الكفار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة ولا يجدون إنظارا لتدارك ما فاتهم، أي إفادتهم هذه الموعظة خير لهم من تطلبهم معرفة وقت حلول يوم الفتح لأنهم يقولون يومئذ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون [السجدة: ١٢] مع ما في هذا الجواب من **الإيماء** إلى أن زمن حلوله غير معلوم للناس وأنه مما استأثر الله به فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنه لا يدري متى يحل به لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا [الأنعام: ١٥٨] . ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين: من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحق، وهم إنما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في الحياة الدنيا.

وإظهار وصف الذين كفروا في مقام الإضمار مع أنهم هم القائلون متى هذا الفتح لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب خيبتهم. ثم فرع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه الله خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعرض عن هؤلاء القائلين المكذبين وأن لا يزيد في الإلحاح عليهم تأييسا من إيمان المجادلين منهم المتصدين للتمويه على دهمائهم. وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتيا لا إعراض مستمر، ولا عن الدعوة إلى الله ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية.

والانتظار: الترقب. وأصله مشتق من النظر فكأنه مطاوع: أنظره، أي أراه فانتظر، أي: تكلف أن ينظر. وحذف مفعول انتظر للتهويل، أي: انتظر أياما يكون لك فيها النصر،". (١)

٣٧٤. ٣٧٤-"وأن ينزلوا عند عبد الله بن أبي ابن سلول ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، وطعمة بن أبيرق فسألوا رسول الله أن يترك ذكر آلهة قريش، فغضب المسلمون وهم عمر بقتل النفر القرشيين، فمنعه

(١) التحرير والتنوير ٢٤٣/٢١

رسول الله لأنه كان أعطاهم الأمان، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فنزلت هذه الآية، أي:- اتق الله في حفظ الأمان ولا تطع الكافرين- وهم النفر القرشيون- والمنافقين- وهم عبد الله بن أبي ومن معه-. وهذا الخبر لا سند له ولم يعرج عليه أهل النقد مثل الطبري وابن كثير.
[٢]

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٢]
واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا (٢)
هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبني وما يتصل بها، ولذلك جيء بالفعل المضارع الصالح للاستقبال، وجرد من علامة الاستقبال لأنه قريب من زمن الحال.
والمقصود من الأمر باتباعه أنه أمر باتباع خاص تأكيد للأمر العام باتباع الوحي.
وفيه إيذان بأن ما سيوحى إليه قريبا هو مما يشق عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبني لأنهم ألفوه واستقر في عوائدهم وعاملوا المتبنين معاملة الأبناء الحق.
ولذلك ذيلت جملة واتبع ما يوحى إليك بجملة إن الله كان بما تعملون خبيرا تعليلا للأمر بالاتباع وتأنيسا به لأن الله خبير بما في عوائدكم ونفوسكم فإذا أبطل شيئا من ذلك فإن إبطاله من تعلق العلم بلزوم تغييره فلا تتريثوا في امتثال أمره في ذلك، فجملة إن الله كان بما تعملون خبيرا في موقع العلة فلذلك فصلت لأن حرف التوكيد مغن غناء فاء التفريع كما مر آنفا.
وفي إفراد الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بقوله واتبع وجمعه بما يشمله وأمته في قوله بما تعملون **إيماء** إلى أن فيما سينزل من الوحي ما يشتمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبيء عليه الصلاة والسلام مشاركا لبعض الأمة في التلبس بها وهو حكم التبني إذ كان النبيء متبنيا زيد بن حارثة من قبل بعثته.". (١)

٣٧٥. ٣٧٥-"إلى ضمير الجلالة في قوله واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به [المائدة: ٧] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٥٢

وقوله ومنك ومن نوح إلخ هو من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام بهم فإن هؤلاء المذكورين أفضل الرسل، وقد ذكر ضمير محمد صلى الله عليه وسلم قبلهم **إيماء** إلى تفضيله على جميعهم، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود. ولهذه النكتة خص ضمير النبيء بإدخال حرف (من) عليه بخصوصه، ثم أدخل حرف (من) على مجموع الباقين فكان قد خص باهتمامين: اهتمام التقديم، واهتمام إظهار اقتران الابتداء بضمير بخصوصه غير مندمج في بقيتهم عليهم السلام.

وسيجيء أن ما في سورة الشورى [١٣] من تقديم ما وصى به نوحا على والذي أوحينا إليك [الشورى: ١٣] طريق آخر هو آثر بالغرض الذي في تلك السورة من قوله تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم الآية [الشورى: ١٣].

وجملة وأخذنا منهم ميثاقا غليظا أعادت مضمون جملة وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم لزيادة تأكيدها، وليبنى عليها وصف الميثاق بالغليظ، أي: عظيما جليل الشأن في جنسه فإن كل ميثاق له عظم فلما وصف هذا ب غليظا أفاد أن له عظما خاصا، وليعلق به لام التعليل من قوله ليسئل الصادقين.

وحقيقة الغليظ: القوي المتين الخلق، قال تعالى: فاستغلظ فاستوى على سوقه [الفتح: ٢٩] . واستعير الغليظ للعظيم الرفيع في جنسه لأن الغليظ من كل صنف هو أمكنه في صفات جنسه.

واللام في قوله ليسئل الصادقين عن صدقهم لام كي، أي: أخذنا منهم ميثاقا غليظا لنعظم جزاء للذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ولنشدد العذاب جزاء للذين يكفرون بما جاءتهم به رسل الله، فيكون من دواعي ذكر هذا الميثاق هنا أنه توطئة لذكر جزاء الصادقين وعذاب الكافرين زيادة على ما ذكرنا من دواعي ذلك آنفا. وهذه علة من علل أخذ الميثاق من النبيئين وهي آخر العلل حصولا فأشعر". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٧٥

٣٧٦. ٣٧٦-"قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عزم عليه. وأرسل الله على جيش المشركين ريحا شديدة فأزالت خيامهم وأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، واختل أمرهم، وهلك كراعهم وخفهم، وحدث تخاذل بينهم وبين قريظة وظنت قريش أن قريظة صالحت المسلمين وأنهم ينضمون إلى المسلمين على قتال الأحزاب، فرأى أهل الأحزاب الرأي في أن يرتحلوا فارتحلوا عن المدينة وانصرف جيش المسلمين راجعا إلى المدينة. فقوله تعالى إذ جاءتكم جنود ذكر توطئة لقوله فأرسلنا عليهم ريحا إلخ لأن ذلك هو محل المنة. والريح المذكورة هنا هي ريح الصبا وكانت باردة وقلعت الأوتاد والأطناب وسفت التراب في عيونهم وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم. وفيها

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» .

والجنود التي لم يروها هي جنود الملائكة الذين أرسلوا الريح وألقوا التخاذل بين الأحزاب وكانوا وسيلة إلقاء الرعب في نفوسهم.

وجملة وكان الله بما تعملون بصيرا في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله نعمة الله وهي **إيماء** إلى أن الله نصرهم على أعدائهم لأنه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة والمصابرة في حفر الخندق والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة وبذلهم النفوس في نصر دين الله فجازاهم الله بالنصر المبين كما قال ولينصرن الله من ينصره [الحج: ٤٠] .

وقرأ الجمهور بما تعملون بصيرا بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة ومحملها على الالتفات.

والجنود الأول جمع جند، وهو الجمع المتحد المتناصر ولذلك غلب على الجمع المجتمع لأجل القتال فشاع الجند بمعنى الجيش. وذكر جنود هنا بلفظ الجمع مع". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٩/٢١

٣٧٧. ٣٧٧-"في ناحية منها، أي: اسم أرض بما فيها من الحوائط والنخل والمدينة في تلك الأرض. سميت باسم يثرب من العمالقة، وهو يثرب بن قانية الحفيد الخامس لإرم بن سام بن نوح. وقد

روي عن البراء بن عازب وابن عباس أن النبيء صلى الله عليه وسلم نهى عن تسميتها يثرب وسماها طابة.

وفي قوله يا أهل يثرب لا مقام لكم محسن بديعي، وهو الاتزان لأن هذا القول يكون منه مصراع من بحر السريع من عروضه الثانية المخبولة المكشوفة إذ صارت مفعولات بمجموع الخبل والكشف إلى فعلن فوزنه مستفعلن مستفعلن فعلن.

والمراد بقوله فريق منهم جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وليسوا فريقا من الطائفة المذكورة آنفا، بل هؤلاء هم أوس بن قيظي وجمع من عشيرته بني حارثة وكان بنو حارثة أكثرهم مسلمين وفيهم منافقون، فجاء منافقوهم يعتذرون بأن منازلهم عورة، أي: غير حصينة.

وجملة ويستأذن فريق عطف على جملة قالت طائفة، وجيء فيها بالفعل المضارع للإشارة إلى أنهم يلحون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه.

والعورة: الثغر بين الجبلين الذي يتمكن العدو أن يتسرب منه إلى الحي، قال لبيد:

وأجن عورات الثغور ظلامها والاستئذان: طلب الإذن وهؤلاء راموا الانخذال واستحيوا. ولم يذكر المفسرون أن النبيء صلى الله عليه وسلم أذن لهم. وذكر أهل السير أن ثمانين منهم رجعوا دون إذنه. وهذا يقتضي أنه لم يأذن لهم وإلا لما ظهر تميزهم عن غيرهم، وأيضا فإن في الفعل المضارع من قوله

يستأذن **إيماء** إلى أنه لم يأذن لهم وستعلم ذلك، ومنازل بني حارثة كانت في أقصى المدينة قرب منازل بني سلمة فإنهما كانا حيين متلازمين قال تعالى: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا [آل عمران: ١٢٢] هما بنو حارثة وبنو سلمة في غزوة أحد.

وفي الحديث: أن بني سلمة راموا أن ينقلوا منازلهم قرب المسجد فقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم»

أي خطاكم.". (١)

٣٧٨. ٣٧٨-"والرد: الإرجاع إلى المكان الذي صدر منه فإن ردهم إلى ديارهم من تمام النعمة على المسلمين بعد نعمة إرسال الريح عليهم لأن رجوعهم أعمل في اطمئنان المسلمين.
وعبر عن الأحزاب بالذين كفروا **للإيماء** إلى أن كفرهم هو سبب خيبتهم العجيبة الشأن.
والباء في بغيظهم للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: ردهم مغيظين.
وإظهار اسم الجلالة دون ضمير المتكلم للتنبيه على عظم شأن هذا الرد العجيب كما تقدم في قوله تعالى: ليجزي الله الصادقين بصدقهم [الأحزاب: ٢٤] .
والغيظ: الحنق والغضب، وكان غضبهم عظيما يناسب حال خيبتهم لأنهم تجشموا كلفة التجمع والإنفاق وطول المكث حول المدينة بلا طائل وخابت آمالهم في فتح المدينة وأكل ثمارها وإفناء المسلمين، وهم يحسبون أنها منازلة أيام قليلة، ثم غاظهم ما لحقهم من النكبة بالريح والانهزام الذي لم يعرفوا سببه.
وجملة لم ينالوا خيرا حال ثانية. ولك أن تجعل جملة لم ينالوا خيرا استئنافا بيانيا لبيان موجب غيظهم.
وكفى بمعنى أغنى، أي: أراحهم من كلفة القتال بأن صرف الأحزاب.
وكفى بهذا المعنى تتعدى إلى مفعولين يقال: كفيتك مهمك وليست هي التي تزاد الباء في مفعولها فتلك بمعنى: حسب.
وفي قوله وكفى الله المؤمنين القتال حذف مضاف، أي كلفة القتال، أو أرزاء القتال، فإن المؤمنين كانوا يومئذ بحاجة إلى توفير عددهم وعددهم بعد مصيبة يوم أحد ولو التقوا مع جيش المشركين لكانت أرزاؤهم كثيرة ولو انتصروا على المشركين.
والقول في إظهار اسم الجلالة في قوله وكفى الله المؤمنين القتال كالقول في ورد الله الذين كفروا بغيظهم.". (٢)

---
(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٨٥
(٢) التحرير والتنوير ٢١/٣١٠

٣٧٩. ٣٧٩-"وتقديم المفعول في فريقا تقتلون للاهتمام بذكره لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى، ولذلك لم يقدم مفعول تأسرون إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله.

وقوله وأرضا لم تطؤها أي: تنزلوا بها غزاة وهي أرض أخرى غير أرض قريظة وصفت بجملة لم تطؤها أي: لم تمشوا فيها. فقيل: إن الله بشرهم بأرض أخرى يرثونها من بعد. قال قتادة: كنا نحدث أنها مكة. وقال مقاتل وابن رومان: هي خيبر، وقيل: أرض فارس والروم. وعلى هذه التفاسير يتعين أن يكون فعل أورثكم مستعملا في حقيقته ومجازه فأما في حقيقته فبالنسبة إلى مفعوله وهو أرضهم وديارهم وأموالهم، وأما استعماله في مجازه فبالنسبة إلى تعديته إلى أرضا لم تطؤها، أي:

أن يورثكم أرضا أخرى لم تطؤوها، من باب: أتى أمر الله [النحل: ١] أو يؤول فعل أورثكم بمعنى: قدر أن يورثكم. وأظهر هذه الأقوال أنها أرض خيبر فإن المسلمين فتحوها بعد غزوة قريظة بعام وشهر. ولعل المخاطبين بضمير أورثكم هم الذين فتحوا خيبر لم ينقص منهم أحد أو فقد منه القليل ولأن خيبر من أرض أهل الكتاب وهم ممن ظاهروا المشركين فيكون قصدها من قوله وأرضا مناسبا تمام المناسبة.

وفي التذييل بقوله وكان الله على كل شيء قديرا **إيماء** إلى البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده. وعندي: أن المراد بالأرض التي لم يطؤوها أرض بني النضير وأن معنى لم تطؤها لم تفتحوها عنوة، فإن الوطء يطلق على معنى الأخذ الشديد، قال الحارث بن وعلة الذهلي:

ووطأتنا وطئا على حنق ... وطء المقيد نابت الهرم

ومنه قوله تعالى: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم [الفتح: ٢٥] ، فإن أرض بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله من غير إيجاف". (١)

٣٨٠. ٣٨٠-"[٣٣]

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٣]

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٣١٣

وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٣)

وقرن في بيوتكن.

هذا أمر خصصن به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرا لهن، وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبيء صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة. وقد كان المسلمون لما ضاق عليهم المسجد النبوي يصلون الجمعة في بيوت أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم كما في حديث «الموطأ» . وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف. ووجهها أبو عبيدة عن الكسائي والفراء والزجاج بأنها لغة أهل الحجاز في قر بمعنى: أقام واستقر، يقولون: قررت في المكان بكسر الراء من باب علم فيجيء مضارعه بفتح الراء فأصل قرن اقررن فحذفت الراء الأولى للتخفيف من التضعيف وألقيت حركتها على القاف نظير قولهم: أحسن بمعنى أحسن في قول أبي زبيد:

سوى أن الجياد من المطايا ... أحسن به فهن إليه شوس

وأنكر المازني وأبو حاتم أن تكون هذه لغة، وزعم أن قررت بكسر الراء في الماضي لا يرد إلا في معنى قرة العين، والقراءة حجة عليهما. والتزم النحاس قولهما وزعم أن تفسير الآية على هذه القراءة أنها من قرة العين وأن المعنى: واقررن عيونا في بيوتكن، أي لكن في بيوتكن قرة عين فلا تتطلعن إلى ما جاوز ذلك، أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن.

وقرأ بقية العشرة وقرن بكسر القاف. قال المبرد: هو من القرار، أصله: اقررن بكسر الراء الأولى فحذفت تخفيفا، وألقيت حركتها على القاف كما قالوا: ظلت ومست.

وقال ابن عطية: يصح أن يكون قرن، أي بكسر القاف أمرا من الوقار، يقال: وقر فلان يقر، والأمر منه قر للواحد، وللنساء قرن مثل عدن، أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن مع الإيماء إلى علة ذلك بأنه وقار لهن.

وقرأ الجمهور بيوتكن بكسر الباء. وقرأه ورش عن نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو

جعفر بضم الباء.". (١)

٣٨١. ٣٨١-"إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى: يا نساء النبيء من يأت منكن [الأحزاب: ٣٠] الآية. فإن موقع إنما يفيد ربط ما بعدها بما قبلها لأن حرف (إن) جزء من إنما وحرف (إن) من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب كما بينه الشيخ عبد القاهر، فالمعنى أمركن الله بما أمر ونهاكن عما نهى لأنه أراد لكن تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة.

والتعريف في البيت تعريف العهد وهو بيت النبيء صلى الله عليه وسلم وبيوت النبيء عليه الصلاة والسلام كثيرة فالمراد بالبيت هنا بيت كل واحدة من أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم وكل بيت من تلك البيوت أهله النبيء صلى الله عليه وسلم وزوجه صاحبة ذلك، ولذلك جاء بعده قوله: واذكرن ما يتلى في بيوتكن [الأحزاب: ٣٤] ، وضميرا الخطاب موجهان إلى نساء النبيء صلى الله عليه وسلم على سنن الضمائر التي تقدمت. وإنما جيء بالضميرين بصيغة جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبيء صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب لأنه رب كل بيت من بيوتهن وهو حاضر هذا الخطاب إذ هو مبلغه. وفي هذا التغليب **إيماء** إلى أن هذا التطهير لهن لأجل مقام النبيء صلى الله عليه وسلم لتكون قريناته مشابهات له في الزكاة والكمال، كما قال الله تعالى: والطيبات للطيبين [النور: ٢٦] يعني أزواج النبيء للنبيء صلى الله عليه وسلم، وهو نظير قوله في قصة إبراهيم: رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت [هود: ٧٣] والمخاطب زوج إبراهيم وهو معها.

والرجس في الأصل: القذر الذي يلوث الأبدان، واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية لأنها تجعل عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقذر. وقد تقدم في قوله تعالى: رجس من عمل الشيطان في سورة العقود [٩٠] .

واستعير التطهير لضد ذلك وهو تجنيب الذنوب والنقائص كما يكون الجسم أو الثوب طاهرا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢٢

واستعير الإذهاب للإنجاء والإبعاد.". (١)

٣٨٢. ٣٨٢-"وجه تعداد الصفات المذكورة في هذه الآية لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة.

وسلك مسلك الإطناب في تعداد الأوصاف لأن المقام لزيادة البيان لاختلاف أفهام الناس في ذلك، على أن في هذا التعداد **إيماء** إلى أصول التشريع كما سنبينه في آخر تفسير هذه الآية.

وبهذه الآثار يظهر اتصال هذه الآيات بالتي قبلها. وبه يظهر وجه تأكيد هذا الخبر بحرف إن لدفع شك من شك في هذا الحكم من النساء.

والمراد ب المسلمين والمسلمات من اتصف بهذا المعنى المعروف شرعا.

والإسلام بالمعنى الشرعي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، ولا يعتبر إسلاما إلا مع الإيمان. وذكر المؤمنين والمؤمنات بعده للتنبيه على أن الإيمان هو الأصل، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى: فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون في البقرة [١٣٢] .

والمراد ب المؤمنين والمؤمنات الذين آمنوا. والإيمان: أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقدر خيره وشره. وتقدم الكلام على الإيمان في أوائل سورة البقرة.

و (القانتين والقانتات) : أصحاب القنوت وهو الطاعة لله وعبادته، وتقدم آنفا ومن يقنت منكن لله ورسوله [الأحزاب: ٣١] والصادقين والصادقات من حصل منهم صدق القول وهو ضد الكذب، والصدق كله حسن، والكذب لا خير فيه إلا لضرورة.

وشمل ذلك الوفاء بما يلتزم به من أمور الديانة كالوفاء بالعهد والوفاء بالنذر، وتقدم عند قوله تعالى: أولئك الذين صدقوا في سورة البقرة [١٧٧] .

وب الصابرين والصابرات: أهل الصبر والصبر محمود في ذاته لدلالته على قوة العزيمة، ولكن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٤

المقصود هنا هو تحمل المشاق في أمور الدين، وتحمل المكاره في". (١)

٣٨٣. ٣٨٣-"أحدهما: ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته.

قال النبيء صلى الله عليه وسلم «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده»

، ففي قوله: «وذكرهم الله»

إيماء إلى أن الجزاء من جنس عملهم فدل على أنهم كانوا في شيء من ذكر الله وقد قال تعالى: فاذكروني أذكركم [البقرة: ١٥٢]

وقال فيما أخبر عنه رسوله صلى الله عليه وسلم «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»

. وشمل ما يذكر عقب الصلوات ونحو ذلك من الأذكار.

والمحمل الثاني: الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه كما قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى:

والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [آل عمران: ١٣٥]

فدخل فيه التوبة ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلها من القتل وأخذ أموال الناس والحرابة والإضرار بالناس في المعاملات. ومما يوضح شموله لهذه الشرائع كلها تقييده ب كثيرا لأن المرء إذا ذكر الله كثيرا فقد استغرق ذكره على المحملين جميع ما يذكر الله عنده.

ويراعى في الاتصاف بهذه الصفات أن تكون جارية على ما حدده الشرع في تفاصيلها.

والمغفرة: عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، وقد تقدمت في قوله تعالى: وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين في سورة الأعراف [٢٣] . واعلم أن عطف الصفات بالواو المفيد مجرد التشريك في الحكم دون حرفي الترتيب: الفاء وثم، شأنه أن يكون الحكم المذكور معه ثابتا لكل واحد اتصف بوصف من الأوصاف المشتق منها موصوفه لأن أصل العطف بالواو أن يدل على مغايرة المعطوفات في الذات، فإذا قلت:

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٢

وجدت فيهم الكريم والشجاع والشاعر كان المعنى: أنك وجدت فيهم ثلاثة أناس كل واحد منهم موصوف بصفة من المذكورات.

وفي الحديث: «فإن منهم المريض والضعيف وذا الحاجة»

أي أصحاب المرض والضعف والحاجة، بخلاف العطف بالفاء كقوله تعالى:

والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا [الصافات: ١- ٣] فإن الأوصاف المذكورة في تلك الآية ثابتة". (١)

٣٨٤. ٣٨٤-"وكان صائما، فلما غربت الشمس قال لبلال: «انزل فاجدح لنا» ، فقال: يا رسول الله لو أمسيت. ثم قال: «انزل فاجدح لنا» ، فقال: يا رسول الله لو أمسيت إن عليك نهارا ثم قال: «انزل فاجدح» ، فنزل فجدح له في الثالثة فشرب. فمراجعة بلال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أنه علم أن الأمر غير عزم.

وذكر اسم الجلالة هنا **للإيماء** إلى أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة لله، قال تعالى: من يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: ٨٠] . فالمقصود إذا قضى رسول الله أمرا كما تقدم في قوله تعالى: فأن لله خمسه وللرسول في سورة الأنفال [٤١] إذ المقصود: فإن للرسول خمسه.

والخيرة: اسم مصدر تخير، كالطيرة اسم مصدر تطير. قيل ولم يسمع في هذا الوزن غيرهما، وتقدم في قوله تعالى: ما كان لهم الخيرة في سورة القصص [٦٨] .

ومن تبعيضية وأمرهم بمعنى شأنهم وهو جنس، أي أمورهم. والمعنى: ما كان اختيار بعض شؤونهم ملكا يملكونه بل يتعين عليهم اتباع ما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا خيرة لهم.

و (مؤمن ومؤمنة) لما وقعا في حيز النفي يعمان جميع المؤمنين والمؤمنات فلذلك جاء ضميرها ضميرها جمع لأن المعنى: ما كان لجمعهم ولا لكل واحد منهم الخيرة كما هو شأن العموم.

وقرأ الجمهور أن تكون بمثناة فوقية لأن فاعله مؤنث لفظا. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام وابن عامر بتحتية لأن الفاعل المؤنث غير الحقيقي يجوز في فعله التذكير ولا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤

سيما إذا وقع الفصل بين الفعل وفاعله.

وقوله: ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام سواء فيما هو فيه الخيرة أم كان عن عمد للهوى في المخالفة". (١)

٣٨٥. ٣٨٥-"والقدر بفتح الدال: إيجاد الأشياء على صفة مقصودة وهو مشتق من القدر بسكون الدال وهو الكمية المحددة المضبوطة، وتقدم في قوله تعالى: فسالت أودية بقدرها في سورة الرعد [١٧] وقوله: وما ننزله إلا بقدر معلوم في سورة الحجر [٢١] . ولما كان من لوازم هذا المعنى أن يكون مضبوطا محكما كثرت الكناية بالقدر عن الإتقان والصدور عن العلم.

ومنه حديث: «كل شيء بقضاء وقدر»

، أي من الله.

واصطلح علماء الكلام: أن القدر اسم للإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه، ويطلقونه على الشيء الذي تعلق به القدر وهو المقدور كما في هذه الآية، فالمعنى:

وكان أمر الله مقدرا على حكمة أرادها الله تعالى من ذلك الأمر، فالله لما أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بتزوج زينب التي فارقها زيد كان عالما بأن ذلك لائق برسوله عليه الصلاة والسلام كما قدر لأسلافه من الأنبياء.

وفي قوله: الذين يبلغون جيء بالموصول دون اسم الإشارة أو الضمير لما في هذه الصلة من إيماء إلى انتفاء الحرج عن الأنبياء في تناول المباح بأن الله أراد منهم تبليغ الرسالة وخشية الله بتجنب ما نهى عنه ولم يكلفهم إشقاق نفوسهم بترك الطيبات التي يريدونها، ولا حجب وجدانهم عن إدراك الأشياء على ما هي عليه من حسن الحسن وقبح القبيح، ولا عن انصراف الرغبة إلى تناول ما حسن لديهم إذا كان ذلك في حدود الإباحة، ولا كلفهم مراعاة ميول الناس ومصطلحاتهم وعوائدهم الراجعة إلى الحيدة بالأمور عن مناهجها فإن في تناولهم رغباتهم المباحة عونا لهم على النشاط في تبليغ رسالات الله، ولذلك عقب بقوله: ولا يخشون أحدا إلا الله، أي لا يخشون أحدا خشية تقتضي فعل شيء أو تركه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٢

ثم إن جملة الذين يبلغون إلى آخرها يجوز أن تكون في موضع الصفة للذين

خلوا من قبل، أي الأنبياء. وإذ قد علم أن النبيء صلى الله عليه وسلم متبع ما أذن الله له اتباعه من سنة الأنبياء قبله علم أنه متصف بمضمون جملة الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله بحكم قياس المساواة، فعلم أن الخشية التي في قوله: وتخشى الناس [الأحزاب: ٣٧] ليست خشية خوف توجب ترك ما يكرهه الناس أو فعل ما يرغبونه بحيث يكون الناس محتسبين على النبيء عليه الصلاة". (١)

٣٨٦. ٣٨٦-"لواحد) والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صبيانا ولم يكن منهم موجود حين نزول الآية.

والمنفي هو وصف الأبوة المباشرة لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم فلا التفات إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها إذ ليس ذلك بمقصود، ولا يخطر ببال أحد نفي أبوته لهم بمعنى الأبوة العليا، أو المراد أبوة الصلب دون أبوة الرحم.

وإضافة (رجال) إلى ضمير المخاطبين والعدول عن تعريفه باللام لقصد توجيه الخطاب إلى الخائضين في قضية تزوج زينب إخراجا للكلام في صيغة التغليط والتغليظ.

وأما توجيهه بأنه كالاحتراز عن أحفاده وأنه قال: من رجالكم وأما الأحفاد فهم من رجاله ففيه سماجة وهو أن يكون في الكلام توجيه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم بريء من المخاطبين أعني المنافقين وليس بينه وبينهم الصلة الشبيهة بصلة الأبوة الثابتة بطريقة لحن الخطاب من قوله تعالى وأزواجه أمهاتهم [الأحزاب: ٦] كما تقدم.

واستدراك قوله: ولكن رسول الله لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة فذكروا بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كالأب لجميع أمته في شفقته ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبيء مع أمته.

والواو الداخلة على لكن زائدة ولكن عاطفة ولم ترد لكن في كلام العرب عاطفة إلا مقترنة بالواو كما صرح به المرادي في «شرح التسهيل» . وحرف لكن مفيد الاستدراك.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢/٢٢

وعطف صفة وخاتم النبيئين على صفة رسول الله تكميل وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم **وإيماء** إلى أن في انتفاء أبوته لأحد من الرجال حكمة قدرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه.

وإذ قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبيء كان كونه خاتم النبيئين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع". (١)

٣٨٧. ٣٨٧-"والذكر: ذكر اللسان وهو المناسب لموقع الآية بما قبلها وبعدها.

والتسبيح: يجوز أن يراد به الصلوات النوافل فليس عطف وسبحوه على اذكروا الله من عطف الخاص على العام.

ويجوز أن يكون المأمور به من التسبيح قول: سبحان الله، فيكون عطف وسبحوه على اذكروا الله من عطف الخاص على العام اهتماما بالخاص لأن معنى التسبيح التنزيه عما لا يجوز على الله من النقائص فهو من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتمجيد، ولأن في التسبيح **إيماء** إلى التبرؤ مما يقوله المنافقون في حق النبيء صلى الله عليه وسلم فيكون في معنى قوله تعالى: ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم [النور: ١٦] فإن كلمة: سبحان الله، يكثر أن تقال في مقام

التبرؤ من نسبة ما لا يليق إلى أحد

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله! المؤمن لا ينجس» .

وقول هند بنت عتبة حين أخذ على النساء البيعة «أن لا يزنين» : سبحان الله أتزني الحرة.

والبكرة: أول النهار. والأصيل: العشي الوقت الذي بعد العصر. وانتصبا على الظرفية التي يتنازعها الفعلان اذكروا الله.. وسبحوه.

والمقصود من البكرة والأصيل إعمار أجزاء النهار بالذكر والتسبيح بقدر المكنة لأن ذكر طرفي الشيء يكون كناية عن استيعابه كقول طرفة:

لكالطول المرخى وثنياه باليد ومنه قولهم: المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلها، والرأس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٤٤

والعقب كناية عن الجسد كله، والظهر والبطن كذلك.
وقدم البكرة على الأصيل لأن البكرة أسبق من الأصيل لا محالة. وليس الأصيل جديدا بالتقديم في الذكر كما قدم لفظ تمسون في قوله في سورة الروم فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون [الروم: ١٧] لأن كلمة المساء تشمل أول الليل فقدم لفظ تمسون هنالك رعيا لا عتبار الليل أسبق في حساب أيام الشهر عند العرب وفي الإسلام وليست كذلك كلمة الأصيل.". (١)

٣٨٨. ٣٨٨-"والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة. وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبيء صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل.
وقدمت البشارة على النذارة لأن النبيء صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.
والنذير: مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبيء عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.
وانتصب شاهدا على الحال من كاف الخطاب وهي حال مقدرة، أي أرسلناك مقدرا أن تكون شاهدا على الرسل والأمم في الدنيا والآخرة. ومثل سيبويه للحال المقدرة بقوله: مررت برجل معه صقر صائدا به.
وجيء في جانب النذارة بصيغة فعيل دون اسم الفاعل لإرادة الاسم فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم. ومن الأمثال: أنا النذير العريان، أي الآتي بخبر حلول العدو بديار قوم. والمراد بالعريان أنه ينزع عنه قميصه ليشير به من مكان مرتفع فيراه من لا يسمع نداءه، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم كما قال: إن هو إلا نذير لكم بين يدي

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٢

عذاب شديد [سبأ: ٤٦] للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بمنذر.

وفي الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه: وأنذر عشيرتك الأقربين [الشعراء: ٢١٤] خرج حتى صعد الصفا، فنادى: يا

صباحاه (كلمة ينادي بها من يطلب النجدة) فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»

. فهذا يشير إلى تمثيل الحالة التي استخلصها

بقوله: (فإني نذير". (١)

٣٨٩. ٣٨٩-"مما يعزز الأخوة الإسلامية المرغب فيها. ونقل قريب من هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد واختاره أبو علي الجبائي وهو الأرجح لأن قرة العين لا تحصل على مضض ولأن الحط في الحق يوجب الكدر. ويؤيده أن النبيء صلى الله عليه وسلم لم يأخذ إلا به ولم يحفظ عنه أنه آثر إحدى أزواجه

بليلة سوى ليلة سودة التي وهبتها لعائشة، استمر ذلك إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وقد جاء في الصحيح أنه كان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به كل يوم على بيوت أزواجه، وكان مبدأ شكواه في بيت ميمونة إلى أن جاءت نوبة ليلة عائشة فأذن له أزواجه أن يمرض في بيتها رفقا به.

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حين قسم لهن «اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»

، ولعل ذلك كان قبل نزول التفويض إليه بهذه الآية.

وفي قوله: ويرضين بما آتيتهن كلهن إشارة إلى أن المراد الرضى الذي يتساوين فيه وإلا لم يكن للتأكيد ب كلهن نكتة زائدة، فالجمع بين ضميرهن في قوله: كلهن يومىء إلى رضى متساو

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٢٢

بينهن.

وضميرا أعينهن ولا يحزن عائدان إلى (من) في قوله: ممن عزلت. وذكر ولا يحزن بعد ذكر أن تقر أعينهن مع ما في قرة العين من تضمن معنى انتفاء الحزن **بالإيماء** إلى ترغيب النبيء صلى الله عليه وسلم في ابتغاء بقاء جميع نسائه في مواصلته لأن في عزل بعضهن حزنا للمعزولات وهو بالمؤمنين رؤوف لا يحب أن يحزن أحدا.

وكلهن توكيد لضمير يرضين أو يتنازعه الضمائر كلها.

والإيتاء: الإعطاء وغلب على إعطاء الخير إذا لم يذكر مفعوله الثاني، أو ذكر غير معين كقوله: فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين [الأعراف: ١٤٤] ، فإذا ذكر مفعوله الثاني فالغالب أنه ليس بسوء. ولم أره يستعمل في إعطاء السوء فلا تقول: آتاه سجنا وآتاه ضربا، إلا في مقام التهكم أو المشاكلة، فما هنا من القبيل الأول، ولهذا يبعد تفسيره بأنهن يرضين بما أذن الله فيه لرسوله من عزلهن وإرجائهن. وتوجيهه في «الكشاف» تكلف.

والتذييل بقوله: والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما كلام جامع لمعنى الترغيب والتحذير ففيه ترغيب النبيء صلى الله عليه وسلم في الإحسان بأزواجه وإمائه". (١)

٣٩٠. ٣٩٠-"والمتعرضات للتزوج به، وتحذير لهن من إضمار عدم الرضى بما يلقينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي إجراء صفتي عليما حليما على اسم الجلالة **إيماء** إلى ذلك، فمناسبة صفة العلم لقوله: والله يعلم ما في قلوبكم ظاهرة، ومناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم في أليق الأحوال بصفة الحليم لأن همه صلى الله عليه وسلم التخلق بخلق الله

تعالى وقد أجرى الله عليه صفات من صفاته مثل رؤوف رحيم ومثل شاهد. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٧٦

ولهذا لم يأخذ رسول الله بهذا التخيير في النساء اللاتي كن في معاشرته، وأخذ به في الواهبات أنفسهن مع الإحسان إليهن بالقول والبذل فإن الله كتب الإحسان على كل شيء.
وأخذ به في ترك التزوج من بنات عمه وعماته وخاله وخالاته لأن ذلك لا حرج فيه عليهن.
[٥٢]

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٢]
لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا (٥٢)
موقع هذه الآية في المصحف عقب التي قبلها يدل على أنها كذلك نزلت وأن الكلام متصل بعضه ببعض ومنتظم هذا النظم البديع، على أن حذف ما أضيفت إليه بعد ينادي على أنه حذف معلوم دل عليه الكلام السابق فتأخرها في النزول عن الآيات التي قبلها وكونها متصلة بها وتتمة لها مما لا ينبغي أن يتردد فيه، فتقدير المضاف إليه المحذوف لا يخلو: إما أن يؤخذ من ذكر الأصناف قبله، أي من بعد الأصناف المذكورة بقوله: إنا أحللنا لك أزواجك [الأحزاب: ٥٠] الخ. وإما أن يكون مما يقتضيه الكلام من الزمان، أي من بعد هذا الوقت، والأول الراجح.
وبعد يجوز أن يكون بمعنى (غير) كقوله تعالى: فمن يهديه من بعد الله [الجاثية: ٢٣] وهو استعمال كثير في اللغة، وعليه فلا ناسخ لهذه الآية من القرآن ولا هي ناسخة لغيرها، ومما يؤيد هذا المعنى التعبير بلفظ الأزواج في قوله: ولا أن تبدل". (١)

٣٩١. ٣٩١-"[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٦]
إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦)
أعقبت أحكام معاملة أزواج النبيء عليه الصلاة والسلام بالثناء عليه وتشريف مقامه **إيماء** إلى أن تلك الأحكام جارية على مناسبة عظمة مقام النبيء عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى، وإلى أن لأزواجه من ذلك التشريف حظا عظيما. ولذلك كانت صيغة الصلاة عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٧٧/٢٢

التي علمها للمسلمين مشتملة على ذكر أزواجه كما سيأتي قريبا، وليجعل ذلك تمهيدا لأمر المؤمنين بتكرير ذكر النبيء صلى الله عليه وسلم بالثناء والدعاء والتعظيم، وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالا من صلاة أشرف المخلوقات على الرسول لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك، والتأكيد للاهتمام. ومجيء الجملة الاسمية لتقوية الخبر، وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الحكم، والصلاة من الله والملائكة تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: هو الذي يصلي عليكم وملائكته في هذه السورة [٤٣] . وهذه صلاة خاصة هي أرفع صلاة مما شمله قوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته لأن عظمة مقام النبيء يقتضي عظمة الصلاة عليه.

وجملة يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه هي المقصودة وما قبلها توطئة لها وتمهيد لأن الله لما حذر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربهم فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، فجملة يا أيها الذين آمنوا بمنزلة النتيجة الواقعة بعد التمهيد. وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيرا إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته.

والأمر بالصلاة عليه معناه: إيجاد الصلاة، وهي الدعاء، فالأمر يؤول إلى إيجاد أقوال فيها دعاء وهو مجمل في الكيفية.

والصلاة: ذكر بخير، وأقوال تجلب الخير، فلا جرم كان الدعاء هو أشهر". (١)

٣٩٢. ٣٩٢-"الذين آذوا رسولهم، وجه إليهم بعد ذلك نداء بأن يتسموا بالتقوى وسداد القول لأن فائدة النهي عن المناكر التلبس بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبث الفضائل.

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به واستجلاب الإصغاء إليه. ونداؤهم بالذين آمنوا

---

(١) التحرير والتنوير ٩٧/٢٢

لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به. ففيه تعريض بأن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبيء صلى الله عليه وسلم قصدا ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منافقون، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شعب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

والقول: الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه.

والسديد: الذي يوافق السداد. والسداد: الصواب والحق ومنه تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها، فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل ابتداء السلام وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه: إني أحبك.

والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر.

وفي الحديث: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»

،

وفي الحديث الآخر: «رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم»

،

وفي الحديث الآخر: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» .

ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء. فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد.

وفي الحديث: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها»

وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأيمة الفقه. ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح. ومن القول السديد الآذان والإقامة قال تعالى: إليه يصعد الكلم الطيب في سورة فاطر [١٠] . فبالقول السديد

تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيء تشيع الضلالات والتمويهات". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢٢

٣٩٣.   ٣٩٣-"منها، وهو يستلزم التمكن من تصريفها، ففي التميم بهذين الوصفين **إيماء** إلى أن المقصود من الجملة قبله استحماق الذين أقبلوا في شؤونهم على آلهة باطلة.
[٢]

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٢]
يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (٢)
بيان لجملة وهو الحكيم الخبير [سبأ: ١] لأن العلم بما ذكر هنا هو العلم بذواتها وخصائصها وأسبابها وعللها وذلك عين الحكمة والخبرة، فإن العلم يقتضي العمل، وإتقان العمل بالعلم.
وخص بالذكر في متعلق العلم ما يلج وما يخرج من الأرض دون ما يدب على سطحها، وما ينزل وما يعرج إلى السماء دون ما يجول في أرجائها لأن ما ذكر لا يخلو عن أن يكون دابا وجائلا فيهما، والذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم ما يدب عليها وما يزحف فوقها، والذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج يعلم ما في الأجواء والفضاء من الكائنات المرئية وغيرها ويعلم سير الكواكب ونظامها.
والولوج: الدخول والسلوك مثل ولوج ماء المطر في أعماق الأرض وولوج الزريعة.
والذي يخرج من الأرض، النبات والمعادن والدواب المستكنة في بيوتها ومغاراتها، وشمل ذلك من يقبرون في الأرض وأحوالهم. والذي ينزل من السماء: المطر والثلج والرياح، والذي يعرج فيها ما يتصاعد في طبقات الجو من الرطوبات البحرية ومن العواصف الترابية، ومن العناصر التي تتبخر في الطبقات الجوية فوق الأرض، وما يسبح في الفضاء وما يطير في الهواء، وعروج الأرواح عند مفارقة الأجساد قال تعالى: تعرج الملائكة والروح إليه [المعارج: ٤] .
واعلم أن كلمتي يلج ويخرج أوضح ما يعبر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض، وأن كلمتي ينزل ويعرج أوضح ما يعبر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء، من كلمات اللغة التي تدل على المعاني الموضوعة للدلالة عليها

دلالة مطابقية على". (١)

٣٩٤. ٣٩٤-"والأظهر أن المراد من الذين أوتوا العلم من آمنوا بالنبيء صلى الله عليه وسلم من أهل مكة لأنهم أوتوا القرآن. وفيه علم عظيم هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه، فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فظا غليظا حتى إذا أسلم رق قلبه وامتلأ صدره بالحكمة وانشرح لشرائع الإسلام واهتدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. وأول مثال لهؤلاء وأشهره وأفضله هو عمر بن الخطاب للبون البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام. وهذا ما أعرب عنه قول أبي خراش الهذلي خالطا فيه الجد بالهزل:

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

فإنهم كانوا إذا لقوا النبيء صلى الله عليه وسلم أشرقت عليهم أنوار النبوءة فملأتهم حكمة وتقوى.

وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: «لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها»

. وبفضل ذلك ساسوا الأمة وافتتحوا الممالك وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذميهم ومعاهدهم وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة. وعلى هذا المحمل حمل الذين أوتوا العلم في سورة الحج [٥٤] ويؤيده قوله تعالى: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في سورة الروم [٥٦]

.

وجملة ويهدي إلى صراط العزيز الحميد في موضع المعطوف على المفعول الثاني ل يرى. والمعنى: يرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هاديا إلى العزيز الحميد، وهو من عطف الفعل على الاسم الذي فيه مادة الاشتقاق وهو الحق فإن المصدر في قوة الفعل لأنه إما مشتق أو هو أصل الاشتقاق. والعدول عن الوصف إلى صيغة المضارع لإشعارها بتجدد الهداية وتكررها. وإيثار وصفي العزيز الحميد هنا دون بقية الأسماء الحسنى **إيماء** إلى أن المؤمنين حين يؤمنون بأن القرآن هو الحق والهداية استشعروا من الإيمان أنه صراط يبلغ به

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٣٧

إلى العزة قال تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [المنافقون: ٨] ، ويبلغ إلى الحمد، أي الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.". (١)

٣٩٥. ٣٩٥-"وقال الزمخشري عند قوله: إن في ذلك لآية لكل عبد منيب [سبأ: ٩] لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به اهـ. فقال الطيبي: فيه إشارة إلى بيان نظم هذه الآية بقوله: ولقد آتينا داود منا فضلا لأنه كالتخلص منه إليه، لأنه من المنيبين المتفكرين في آيات الله، قال تعالى:
واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب [ص: ١٧] هـ. يريد الطيبي أن داود من أشهر المثل في المنيبين بما اشتهر به من انقلاب حاله بعد أن كان راعيا غليظا إلى أن اصطفاه الله نبيئا وملكا صالحا مصلحا لأمة عظيمة، فهو مثل المنيبين كما قال تعالى: واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب وقال: فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب [ص: ٢٤] ، فلإنابته وتأويبه أنعم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وباركه وبارك نسله. وفي ذكر فضله عبرة للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضا بضد ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله، وفي هذا
إيماء إلى بشارة النبيء صلى الله عليه وسلم بأنه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزة عظيمة وتأسيس ملك أمة عظيمة كما آلت حال داود، وذلك الإيماء أوضح في قوله تعالى:
اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب الآية في سورة ص [١٧] .
وسمى الطيبي هذا الانتقال إلى ذكر داود وسليمان تخلصا، والوجه أن يسميه استطرادا أو اعتراضا وإن كان طويلا، فإن الرجوع إلى ذكر أحوال المشركين بعد ما ذكر من قصة داود وسليمان وسبأ يرشد إلى أن إبطال أحوال أهل الشرك هي المقصود من هذه السورة كما سننبه عليه عند قوله تعالى: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه [سبأ: ٢٠] .
وتقديم التعريف بداود عليه السلام عند قوله تعالى: وآتينا داود زبورا في سورة النساء [١٦٣] وعند قوله: ومن ذريته داود في سورة الأنعام [٨٤] .

---
(١) التحرير والتنوير ١٤٦/٢٢

و (من) في قوله: منا ابتدائية متعلقة ب آتينا، أي من لدنا ومن عندنا، وذلك تشريف للفضل الذي أوتيه داود، كقوله تعالى: رزقا من لدنا [القصص: ٥٧] . وتنكير فضلا لتعظيمه وهو فضل النبوءة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمة، وفضل القضاء بالعدل، وفضل الشجاعة في الحرب، وفضل سعة النعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع". (١)

٣٩٦. ٣٩٦-"وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف صدق بتشديد الدال بمعنى حقق ظنه عليهم حين انخدعوا لوسوسته فهو لما وسوس لهم ظن أنهم يطيعونه فجد في الوسوسة حتى استهواهم فحقق ظنه عليهم.

وفي (على) إيماء إلى أن عمل إبليس كان من جنس التغلب والاستعلاء عليهم.

وقوله: فاتبعوه تفريع وتعقيب على فعل صدق عليهم إبليس ظنه أي تحقق ظنه حين انفعلوا لفعل وسوسته فبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران.

وإلا فريقا استثناء من ضمير الرفع في فاتبعوه وهو استثناء متصل إن كان ضمير «اتبعوه» عائدا على المشركين وأما إن كان عائدا على أهل سبإ فيحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين وإلا فهو استثناء منقطع، أي لم يعصه في ذلك إلا فريق من المؤمنين وهم الذين آمنوا من أهل مكة، أو الذين آمنوا من أهل سبإ. فلعل فيهم طائفة مؤمنين ممن نجوا قبل إرسال سيل العرم.

والفريق: الطائفة مطلقا، واستثناؤها من ضمير الجماعة يؤذن بأنهم قليل بالنسبة للبقية، وإلا فإن الفريق يصدق بالجماعة الكثيرة كما في قوله تعالى: فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة [الأعراف: ٣٠] .

والتعريف في المؤمنين للاستغراق ومن تبعيضية، أي إلا فريقا هم بعض جماعات المؤمنين في الأزمان والبلدان.

وقوله: وما كان له عليهم من سلطان أي ما كان للشيطان من سلطان على الذين اتبعوه.

وفعل كان في النفي مع من التي تفيد الاستغراق في النفي يفيد انتفاء السلطان، أي الملك

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٥٥

والتصريف للشيطان، أي ليست له قدرة ذاتية هو مستقل بها يتصرف بها في العالم كيف يشاء لأن تلك القدرة خاصة بالله تعالى.

والاستثناء في قوله: إلا لنعلم استثناء من علل. فيفيد أن تأثير وسوسته فيهم كان بتمكين من الله، أي لكن جعلنا الشيطان سببا يتوجه إلى عقولهم وإرادتهم فتخامرها وسوسته فيتأثر منها فريق وينجو منها فريق بما أودع الله في هؤلاء". (١)

٣٩٧. ٣٩٧-"وهذا احتجاج بالدليل النظري لأن الاعتراف بأن الله هو الرزاق يستلزم انفراده بإلهيته إذ لا يجوز أن ينفرد ببعض صفات الإلهية ويشارك في بعض آخر فإن الإلهية حقيقة لا تقبل التجزئة والتبعيض.

وأعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول فإن أصل الأمر بالقول في مقام التصدي للتبليغ دال على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمر زيادة في الاهتمام.

ومن استفهام للتنبيه على الخطأ ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله:

قل الله لتحقق أنهم لا ينكرون ذلك الجواب كما في قوله تعالى: قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار إلى قوله: فسيقولون الله في سورة يونس [٣١] . وتقدم نظير صدر هذه الآية في سورة الرعد.

وعطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفية توقع الخصم في شرك المغلوبية وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر بين موافقة الحق وعدمها، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدوانهما. ولذلك جيء بحرف أو المفيد للترديد المنتزع من

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

ومن لطائفه هنا أن اشتمل على إيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللف. فإنه ذكر ضمير

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٣/٢٢

جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين، ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى والآخرين موجهون إلى الضلال المبين، لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا أيضا من التعريض وهو أوقع من التصريح لا سيما في استنزال طائر الخصم.

وفيه أيضا تجاهل العارف فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات.". (١)

٣٩٨. ٣٩٨-"[سورة سبإ (٣٤) : آية ٢٦]

قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (٢٦)

إعادة فعل قل لما عرفت في الجملة التي قبلها من زيادة الاهتمام بهذه المحاجات لتكون كل مجادلة مستقلة غير معطوفة فتكون هذه الجملة استئنافا ابتدائيا.

وأيضا فهي بمنزلة البيان للتي قبلها لأن نفي سؤال كل فريق عن عمل غيره يقتضي أن هنالك سؤالا عن عمل نفسه فبين بأن الذي يسأل الناس عن أعمالهم هو الله تعالى، وأنه الذي يفصل بين الفريقين بالحق حين يجمعهم يوم القيامة الذي هم منكروه فما ظنك بحالهم يوم تحقق ما أنكروه.

وهنا تدرج الجدل من **الإيماء** إلى الإشارة القريبة من التصريح لما في إثبات يوم الحساب والسؤال من المصارحة بأنهم الضالون. ويسمى هذا التدرج عند أهل الجدل بالترقي.

والفتح: الحكم والفصل بالحق، كقوله تعالى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين [الأعراف: ٨٩] وهو مأخوذ من فتح الكوة لإظهار ما خلفها.

وجملة وهو الفتاح العليم تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته وإحاطة العلم، وبذلك كان تذييلا لجملة يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق المتضمنة حكما جزئيا فذيل بوصف كلي.

وإنما أتبع الفتاح ب العليم للدلالة على أن حكمه عدل محض لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٢٢

بالأحوال والعواقب.". (١)

٣٩٩. ٣٩٩-"[سورة سبإ (٣٤) : آية ٢٧]

قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم (٢٧)

أعيد الأمر بالقول رابع مرة لمزيد الاهتمام وهو رجوع إلى مهيع الاحتجاج على بطلان الشرك فهو كالنتيجة لجملة قل من يرزقكم من السماوات والأرض [سبأ: ٢٤] .

والأمر في قوله: أروني مستعمل في التعجيز، وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله: قل من يرزقكم إلى إبطال ذلك بدليل البداهة.

وقد سلك من طرق الجدل طريق الاستفسار، والمصطلح عليه عند أهل الجدل أن يكون الاستفسار مقدما على طرائق المناظرة وإنما أخر هنا لأنه كان مفضيا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافيرها فأريد تأخيره لئلا يفوت افتضاح الخصم بالأدلة السابقة تبسيطا لبساط المجادلة حتى يكون كل دليل مناديا على غلط الخصوم وباطلهم. وافتضاح الخطأ من مقاصد المناظر الذي قامت حجته.

والإراءة هنا من الرؤية البصرية فيتعدى إلى مفعولين: أحدهما بالأصالة، والثاني بهمزة التعدية.

والمقصود: أروني شخوصهم لنبصر هل عليها ما يناسب صفة الإلهية، أي أن كل من يشاهد الأصنام بادىء مرة يتبين له أنها خلية عن صفات الإلهية إذ يرى حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه لأن انتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها كقول البحتري:

أن يرى مبصر ويسمع واع والتعبير عن المرئي بطريق الموصولية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إياهم شركاء لله تعالى في الربوبية على نحو قول عبدة بن الطيب:

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

وفي جعل الصلة ألحقتم إيماء إلى أن تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفا ذاتيا حقا ولكن المشركين ألحقوها بالله تعالى، فتلك خلعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٩٥

وتلك حالة تخالف صفة الإلهية لأن الإلهية صفة ذاتية قديمة، وهذا الإلحاق اخترعه لهم عمرو بن لحي ولم يكن عند العرب من قبل، وضمير به عائد إلى اسم الجلالة من جملة قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله [سبأ: ٢٤] .

وانتصب شركاء على الحال من اسم الموصول. والمعنى: شركاء له.". (١)

٤٠٠. ٤٠٠-"في الزمان وإضافته إلى اليوم بيانية لأن الميعاد هو اليوم نفسه.

وجملة لا تستأخرون عنه ساعة إما صفة ل ميعاد وإما حال من ضمير لكم.

والاستئخار والاستقدام مبالغة في التأخر والتقدم مثل: استحباب، فالسين والتاء للمبالغة.

وقدم الاستئخار على الاستقدام إيماء إلى أنه ميعاد بأس وعذاب عليهم من شأنه أن يتمنوا تأخره، ويكون ولا تستقدمون تتميما لتحققه عند وقته المعين في علم الله.

والساعة: حصة من الزمن، وتنكيرها للتقليل بمعونة المقام.

[٣١]

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣١]

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين (٣١)

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه.

كان المشركون لما فاجأتهم دعوة الإسلام وأخذ أمره في الظهور قد سلكوا طرائق مختلفة لقمع تلك الدعوة، وقد كانوا قبل ظهور الإسلام لاهين عن الخوض فيما سلف من الشرائع فلما قرعت أسماعهم دعوة الإسلام اضطربت أقوالهم: فقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء [الأنعام: ٩١] ، وقالوا غير ذلك، فمن ذلك أنهم لجأوا إلى أهل الكتاب وهم على مقربة منهم بالمدينة وخيبر وقريظة ليتلقوا منهم ملقنات يفحمون بها النبيء صلى الله عليه وسلم فكان أهل الكتب يملون عليهم كلما لقوهم ما عساهم أن يموهوا على الناس عدم صحة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٩٦

الرسالة المحمدية، فمرة يقولون: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى [القصص: ٤٨] ، ومرة يقولون: لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه [الإسراء: ٩٣] ، وكثيرا ما كانوا يحسبون مساواته للناس في الأحوال البشرية منافية لكونه رسولا إليهم مختارا من عند الله فقالوا:
مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق [الفرقان: ١٧] وإلى قوله: هل كنت إلا بشرا رسولا [الإسراء: ٩٣] ، وهم لا يحاجون بذلك عن اعتقاد بصحة رسالة موسى عليه السلام ولكنهم يجعلونه وسيلة لإبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فلما دمغتهم حجج القرآن العديدة الناطقة بأن محمدا ما هو بدع من الرسل وأنه جاء بمثل ما جاءت به الرسل فحاجهم بقوله: قل فأتوا بكتاب من". (١)

٤٠١. ٤٠١-"عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين [القصص: ٤٩] الآية.
فلما لما يجدوا سبيلا للمكابرة في مساواة حاله بحال الرسل الأولين وأووا إلى مأوى الشرك الصريح فلجأوا إلى إنكار رسالة الرسل كلهم حتى لا تنهض عليهم الحجة بمساواة أحوال الرسول وأحوال الرسل الأقدمين فكان من مستقر أمرهم أن قالوا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه.
وقد كان القرآن حاجهم بأنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل كما في سورة القصص [٤٨] ، أي كفر أمثالهم من عبدة الأصنام وهم قبط مصر بما أوتي موسى وهو من الاستدلال بقياس المساواة والتمثيل.
فهذا وجه قولهم: ولا بالذي بين يديه لأنهم لم يكونوا مدعوين لا يؤمنوا بكتاب آخر غير القرآن ولكن جرى ذلك في مجاري الجدال والمناظرة فعدم إيمانهم بالقرآن مشهور معلوم وإنما أرادوا قطع وسائل الإلزام الجدلي.
وهذه الآية انتقال إلى ذكر طعن المشركين في القرآن وهي معطوفة على جملة ويقولون متى هذا الوعد [سبأ: ٢٩] .
والاقتصار على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يبطلها إيماء إلى أن بطلانها باد لكل من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع وهذا بهتان واضح.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/٢٢

وحكاية مقالتهم هذه بصيغة الماضي تؤذن بأنهم أقلعوا عنها.
وجيء بحرف لن لتأكيد نفي إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد تأييسا للنبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الطمع في إيمانهم به.
واسم الإشارة مشار به إلى حاضر في الأذهان لأن الخوض في القرآن شائع بين الناس من مؤيد ومنكر فكأنه مشاهد. وليس في اسم الإشارة معنى التحقير لأنهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنقصان، ألا ترى إلى قول الوليد بن المغيرة: «إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق» ، وقول عبد الله بن أبي بعد ذلك: «لا أحسن مما تقول أيها المرء» ،
وأن عتبة بن ربيعة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال له: «هل ترى بما أقول بأسا؟» فقال: «لا والدماء»
. وكيف وقد تحداهم الإتيان". (١)

٤٠٢. ٤٠٢-"تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا ... علي حراصا لو يسرون مقتلي
وأما ابن عطية فأنكره، وقال: «ولم يثبت قط في اللغة أن (أسر) من الأضداد» .
قلت: وفيه نظر. وقد عد هذه الكلمة في الأضداد كثير من أهل اللغة وأنشد أبو عبيدة قول الفرزدق:
ولما رأى الحجاج جرد سيفه ... أسر الحروري الذي كان أضمرا
وفي كتاب «الأضداد» لأبي الطيب الحلبي قال أبو حاتم: ولا أثق بقول أبي عبيدة في القرآن ولا بقول الفرزدق والفرزدق كثير التخليط في شعره. وذكر أبو الطيب عن التوزي أن غير أبي عبيدة أنشد بيت الفرزدق والذي جر على تفسير «أسروا» بمعنى أظهروا هنا هو ما يقتضي إعلانهم بالندامة من قولهم: لولا أنتم لكنا مؤمنين [سبأ: ٣١] . وفي
آيات أخرى مثل قوله تعالى: ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا [الفرقان: ٢٧] الآية.
والندامة: التحسر من عمل فات تداركه. وقد تقدمت عند قوله تعالى: فأصبح من النادمين في سورة العقود [[المائدة]] [٣١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٢/٢٢

وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون [٣٣] .
عطف على جملة إذ الظالمون موقوفون [سبأ: ٣١] . والتقدير: ولو ترى إذ جعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا. وجواب (لو) المحذوف جواب للشرطين.
والأغلال: جمع غل بضم الغين، وهو دائرة من حديد أو جلد على سعة الرقبة توضع في رقبة المأسور ونحوه ويشد إليها بسلسلة أو سير من جلد أو حبل، وتقدم في أول سورة الرعد.
وجعل الأغلال في الأعناق شعار على أنهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه.
وتقدم عند قوله تعالى: وأولئك الأغلال في أعناقهم في الرعد [٥] . والذين كفروا هم هؤلاء الذين جرت عليهم الضمائر المتقدمة فالإتيان بالاسم الظاهر وكونه موصولا **للإيماء** إلى أن ذلك جزاء الكفر، ولذلك عقب بجملة هل يجزون إلا ما كانوا يعملون مستأنفة استئنافا بيانيا،". (١)

٤٠٣. ٤٠٣-"[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٩]
قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٣٩)
أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى ردا على مزاعم المشركين بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات انتفاع بالمال للتقرب إلى رضى الله إن استعمل في طلب مرضاة الله تفضيلا لما أشير إليه إجمالا من أن ذلك قد يكون فيه قربة إلى الله بقوله: إلا من آمن وعمل صالحا [سبأ: ٣٧] كما تقدم.
وقوله: قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له تقدم نظيره قريبا تأكيدا لذلك وليبنى عليه قوله: وما أنفقتم من شيء الآية. فالذي تقدم رد على المشركين، والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين، والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة. وهذا من
وجوه الإعجاز أن يكون الكلام الواحد صالحا لغرضين وأن يتوجه إلى طائفتين.
ولما كان هذا الثاني موجها إلى المؤمنين أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله: من عباده أي المؤمنين، وضمير له عائد إلى من، أي ويقدر لمن يشاء من عباده.

---
(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢١٠

ومفعول يقدر محذوف دل عليه مفعول يبسط.

وكان ما تقدم حديثا عن بسط الرزق لغير المؤمنين فلم ينعموا بوصف من عباده لأن في الإضافة تشريفا للمؤمنين، وفي هذا امتنان على الذين يبسط عليهم الرزق بأن جمع الله لهم فضل الإيمان وفضل سعة الرزق، وتسلية للذين قدر عليهم رزقهم بأنهم نالوا فضل الإيمان وفضل الصبر على ضيق الحياة.

وفي تعليق له ب يقدر **إيماء** إلى أن ذلك القدر لا يخلو من فائدة للمقدور عليه رزقه، وهي فائدة الثواب على الرضى من قسم له والسلامة من الحساب عليه يوم القيامة.

وفي الحديث «ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كفر بها عنه حتى الشوكة يشاكها»

. ولولا هذا **الإيماء** لقيل: ويقدر عليه، كما قال: ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله [الطلاق: ٧] . وأما حال الكافرين فإنهم ينعم على بعضهم برزق يحاسبون عليه أشد". (١)

٤٠٤. ٤٠٤-"مجادلتهم لأن الواقع ينافي ذلك فقد نزل القرآن بعد ذلك طويلا مشتملا على دعوتهم وتحذيرهم وإنذارهم.

وصيغة القصر التي في قوله: فإنما أضل على نفسي لقصر الضلال المفروض، أي على نفسي لا عليكم لأنهم كانوا يحاولون أن يقلع عما دعاهم إليه ولم يقتصروا على صدودهم.

وتعدية أضل بحرف على تتضمن استعارة مكنية إذ شبه الضلال بجريرة عليه فعداه بالحرف الشائع استعماله في الأشياء المكره عليها غير الملائمة، عكس اللام، وذكر حرف الاستعلاء تخييل للمكنية ولا يقال: ضمن أضل معنى أجني، لأن ضللت الذي هو فعل الشرط المفروض غير مضمن معنى فعل آخر.

وأما قوله: وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي فكالاحتراس من أن يكون حاله مقتصرا على فرض كونه مظنة الضلال مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأن ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه لأنه ما كان يصل لذلك وهو مغمور بأمة جاهلية لولا إرشاد الله إياه كما قال تعالى: وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/٢٢

[الشورى: ٥٢] .

واختير في جانب الهدى فعل اهتديت الذي هو مطاوع (هدى) لما فيه من **الإيماء** إلى أن له هاديا، وبينه بقوله: فبما يوحي إلي ربي ليحصل شكره لله إجمالا ثم تفصيلا، وفي قوله: فبما يوحي إلي ربي **إيماء** إلى أنه على هدى لأنه أثبت أن وحيا من الله وارد إليه.

وقد استفيد أن الضلال المفروض إن حصل فسببه من قبل نفسه، من إسناد فعل أضل إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم، وهو أغرق في التعلق به، وليس الغرض من ذلك الكلام بيان التسبب ولكن عدم مجاوزة الضلال المفروض إليهم إذ هم يتبعوه فيما تلبس به، ولم يرتكب مثل هذا في جانب فرض اهتدائه لأن اهتداءه كان هو الحاصل في الواقع وكان شاملا له ولغيره من الذين اتبعوه لأن اهتداءه ملابس لدعوته الناس إلى اتباعه، ولأن الغرض من الشرطين مختلف وإن كان يعلم من المقابلة أن سبب الضلال". (١)

٤٠٥. ٤٠٥-"وأما المؤمنون العصاة فليسوا من حزبه لأنهم يعلمون كيده ولكنهم يتبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون منه. وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم»

. وذكر والذين آمنوا وعملوا الصالحات تتميم بأن الذين لم يكونوا من حزبه قد فازوا بالخيرات.

وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطوت ما بين ذينك من المراتب ليعلم أن ما بين ذلك ينالهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين على عادة القرآن في وضع المسلم بين الخوف والرجاء، والأمل والرهبة.

[٨]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٨]

أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤٠

نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون (٨)

لما جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإنساني، وتقسيم الناس إلى فريقين: فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغتروا بغروره ولم يناصبوه العداء، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنبوا السير في مسالكه، ثم تقسيمهم إلى كافر معذب ومؤمن صالح منعم عليه، أعقب ذلك **بالإيماء** إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير، وبتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على من لم يخلصوا من حبائل الشيطان من أمة دعوته بأسلوب الملاطفة في التسلية ففرع على جميع ما تقدم قوله: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا إلى قوله: بما يصنعون فابتداؤه بفاء التفريع ربط له بما تقدم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم، فالتفريع على قوله: إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير [فاطر: ٦] ، ثم بإبراز الكلام المفرع في صورة الاستفهام الإنكاري، واجتلاب الموصول الذي تومىء صلته إلى علة الخبر المقصود، فأشير إلى أن وقوعه في

هذه الحالة ناشىء من تزيين الشيطان له سوء عمله، فالمزين للأعمال السيئة هو الشيطان قال تعالى: وزين لهم الشيطان أعمالهم [النمل: ٢٤] فرأوا أعمالهم". (١)

٤٠٦. ٤٠٦-"و (الرفع) : حقيقته نقل الجسم من مقره إلى أعلى منه وهو هنا كناية للقبول عند عظيم، لأن العظيم تتخيله التصورات رفيع المكان. فيكون كل من (يصعد) و (يرفع) تبعتين قرينتي مكنية بأن شبه جانب القبول عند الله تعالى بمكان مرتفع لا يصله إلا ما يصعد إليه.

فقوله: العمل مبتدأ وخبره يرفعه، وفي بناء المسند الفعلي على المسند إليه ما يفيد تخصيص المسند إليه بالمسند، فإذا انضم إليه سياق جملته عقب سياق جملة القصر المشعر بسريان حكم القصر إليه بالقرينة لاتحاد المقام إذ لا يتوهم أن يقصر صعود الكلم الطيب على الجانب الإلهي ثم يجعل لغيره شركة معه في رفع العمل الصالح، تعين معنى التخصيص، فصار المعنى: الله الذي يقبل من المؤمنين أقوالهم وأعمالهم الصالحة.

وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة يرفعه ولم يعطف على الكلم الطيب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٦٣

في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:
أولاهما: **الإيماء** إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب (عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة) فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه
كقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا تلقاها الرحمان بيمينه، وكلتا يديه يمين، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل الجبل»
. وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنما يحسن أن يجعل متعلقا لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع.". (١)

٤٠٧. ٤٠٧-"والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور.
هذا فريق من الذين يريدون العزة من المشركين وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك [الأنفال: ٣٠] الآية قاله أبو العالية فعطفهم على من كان يريد العزة تخصيص لهم بالذكر لما اختصوا به من تدبير المكر. وهو من عطف الخاص على العام للاهتمام بذكره.
والمكر: تدبير إلحاق الضر بالغير في خفية لئلا يأخذ حذره، وفعله قاصر. وهو يتعلق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة، يقال: مكر بفلان، ويتعلق بوسيلة المكر بباء السببية يقال: مكر بفلان بقتله فانتصاب السيئات هنا على أنه وصف لمصدر المكر نائبا مناب المفعول المطلق المبين لنوع الفعل فكأنه قيل والذين يمكرون المكر السيء.
وكان حق وصف المصدر أن يكون مفردا كقوله تعالى: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله [فاطر: ٤٣] فلما أريد هنا التنبيه على أن أولياء الشيطان لهم أنواع من المكر عدل عن الإفراد إلى الجمع وأتي به جمع مؤنث للدلالة على معنى الفعلات من المكر، فكل واحدة من مكرهم هي سيئة، كما جاء ذلك في لفظ (صالحة) كقول جرير:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٧٣

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

أي صالحات كثيرة، وأنواع مكراتهم هي ما جاء في قوله تعالى: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك [الأنفال: ٣٠] .

والتعريف في السيئات تعريف الجنس. وجيء باسم الموصول **للإيماء** إلى أن مضمون الصلة علة فيما يرد بعدها من الحكم، أي لهم عذاب شديد جزاء مكرهم. وعبر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدد مكرهم واستمراره وأنه دأبهم وهجيراهم.

ولما توعدهم الله بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أن مكرهم لا يروج ولا ينفق وأن الله سيبطله فلا ينتفعون منه في الدنيا، ويضرون بسببه في الآخرة فقال ومكر أولئك هو يبور.". (١)

٤٠٨. ٤٠٨-"دعا به في قادش المذكور في الإصحاح التاسع من سفر التثنية، ووصيته في عبر الأردن التي في الإصحاح السابع والعشرين من السفر المذكور، ومثل نشيده الوعظي الذي نطق به وأمر بني إسرائيل بحفظه والترنم به في الإصحاح الثاني والثلاثين منه، ومثل الدعاء الذي بارك به أسباط إسرائيل في عربات مؤاب في آخر حياته في الإصحاح الثالث والثلاثين منه.

وزبور عيسى أقواله المأثورة في الأناجيل مما لم يكن منسوبا إلى الوحي.

فالضمير في «جاءوا» للرسل وهو على التوزيع، أي جاء مجموعهم بهذه الأصناف من الآيات، ولا يلزم أن يجيء كل فرد منهم بجميعها كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا.

وجواب إن يكذبوك محذوف دلت عليه علته وهي قوله: فقد كذبت رسل من قبلك

[فاطر: ٤] . والتقدير: إن يكذبوك فلا تحزن، ولا تحسبهم مفلتين من العقاب على ذلك إذ قد كذب الأقوام الذين جاءتهم رسل من قبل هؤلاء وقد عاقبناهم على تكذيبهم.

فالفاء في قوله: فقد كذب الذين من قبلهم فاء فصيحة أو تفريع على المحذوف.

وجملة جاءتهم صلة الذين، ومن قبلهم في موضع الحال من اسم الموصول مقدم عليه أو متعلق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٧٤

ب جاءتهم.

وثم عاطفة جملة أخذت على جملة جاءتهم أي ثم أخذتهم، وأظهر الذين كفروا في موضع ضمير الغيبة **للإيماء** إلى أن أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنهم كفروا.

والأخذ مستعار للاستئصال والإفناء شبه إهلاكهم جزاء على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم فتبقى ديارهم بلقعا كأنهم أخذوا منها.

و (كيف) استفهام مستعمل في التعجيب من حالهم وهو مفرع بالفاء على أخذت الذين كفروا، والمعنى: أخذتهم أخذا عجيبا كيف ترون أعجوبته.". (١)

٤٠٩. ٤٠٩-"صفة غفور [فاطر: ٢٨] ولذلك ختمت هذه الآية بقوله: إنه غفور شكور فصل ذلك الثناء وذكرت آثاره ومنافعه.

فالمراد ب الذين يتلون كتاب الله المؤمنون به لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به وهم المراد بالعلماء.

قال تعالى: بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم [العنكبوت: ٤٩] . وهو أيضا كناية عن إيمانهم لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صدق به وتلقاه باعتناء.

وتضمن هذا أنهم يكتسبون من العلم الشرعي من العقائد والأخلاق والتكاليف، فقد أشعر الفعل المضارع بتجدد تلاوتهم فإن نزول القرآن متجدد فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه.

وكتاب الله القرآن وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته إليه من تعظيم شأنه.

وأتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة [٢] الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة فإنها أعظم الأعمال البدنية، ثم أتبعت بعمل عظيم من الأعمال في المال وهي الإنفاق، والمراد بالإنفاق حيثما أطلق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبها وما ورد الإنفاق في السور المكية إلا والمراد به الصدقات المستحبة إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ على أنه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حددت بالنصب والمقادير.

وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٩٩

وعملوا به فلا تجدد فيه، وامتثال الذي كلفوا به يقتضي أنهم مداومون عليه.
وقوله: مما رزقناهم إدماج للامتنان **وإيماء** إلى أنه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق فهم يعطون منه أهل الحاجة.
ووقع الالتفات من الغيبة من قوله: كتاب الله إلى التكلم في قوله: مما رزقناهم لأنه المناسب للامتنان.". (١)

٤١٠. ٤١٠-"أي كرمه، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى: كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة [البقرة: ٢٦١] الآية.
وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه، فإن من صفاته الغفور الشكور، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر.
فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما همت به ولم تفعله، وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة، والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل لأن الذي يجازي على عمل المجزي بجزاء وافر يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله.
وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها.
وفي الآية ما يشمل ثواب قراء القرآن، فإنهم يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب والتنور بأنوار كلام الله.
[٣١]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٣١]
والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير

(١) التحرير والتنوير ٣٠٦/٢٢

(٣١)

والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه.

لما كان المبدأ به من أسباب ثواب المؤمنين هو تلاوتهم كتاب الله أعقب التنويه بهم بالتنويه بالقرآن للتذكير بذلك، ولأن في التذكير بجلال القرآن وشرفه **إيماء** إلى علة استحقاق الذين يتلونه ما استحقوا. وابتدئ التنويه به بأنه وحي من الله إلى رسوله، وناهيك بهذه الصلة تنويها بالكتاب، وهو يتضمن تنويها بشأن الذي أنزل عليه من قوله:

والذي أوحينا إليك، ففي هذا مسرة للنبيء صلى الله عليه وسلم وبشارة له بأنه أفضل الرسل وأن كتابه أفضل الكتب.". (١)

٤١١. ٤١١-"وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه كونه الحق الكامل، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأن يقال: وهو الكتاب الحق.

فالتعريف في الكتاب تعريف العهد.

ومن بيانية لما في الموصول من الإبهام، والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحق. فقدم الموصول الذي حقه أن يقع صفة للكتاب تقديما للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكن من الذهن فضل تمكن.

فجملة والذي أوحينا إليك من الكتاب معطوفة على جملة إن الذين يتلون كتاب الله [فاطر: ٢٩] فهي مثلها في حكم الاستئناف.

وضمير هو ضمير فصل، وهو تأكيد لما أفاده تعريف المسند من القصر.

والتعريف في الحق تعريف الجنس. وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه، أي قصر جنس الحق على الذي أوحينا إليك، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بحقية ما عداه من الكتب.

فأما الكتب غير الإلهية مثل (الزند فستا) كتاب (زرادشت) ومثل كتب الصابئة فلأن ما فيها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠٨

من قليل الحق قد غمر بالباطل والأوهام.

وأما الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وما تضمنته كتب الأنبياء كالزبور وكتاب أرميا من الوحي الإلهي، فما شهد القرآن بحقيته فقد دخل في شهادة قوله: مصدقا لما بين يديه، وما جاء نسخه بالقرآن فقد بين النسخ تحديد صلاحيته في القرآن. وذلك أيضا

تصديق لها لأنه يدفع موهم بطلانها عند من يجد خلافها في القرآن وما عسى أن يكون قد نقل على تحريف أو تأويل فقد دخل فيما أخرجه القصر. وقد بين القرآن معظمه وكشف عن مواقعه كقوله: وهو محرم عليكم إخراجهم [البقرة: ٨٥] .

ومعنى «ما بين يديه» ما سبقه لأن السابق يجيء متقدما على المسبوق فكأنه يمشي بين يديه كقوله تعالى: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ: ٤٦] .". (١)

٤١٢. ٤١٢-"والمس: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو شدة حر وشدة برد.

واللغوب: الإعياء من جراء عمل أو جري.

وإعادة الفعل المنفي في قوله: ولا يمسنا فيها لغوب لتأكيد انتفاء المس.

[٣٦]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٣٦]

والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور (٣٦)

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقينا بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان.

وفي قوله تعالى في الكفار: ولا يخفف عنهم من عذابها **إيماء** إلى أن نار عقاب المؤمنين خفيفة عن نار المشركين.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠٩

فجملة والذين كفروا معطوفة على جملة جنات عدن يدخلونها [فاطر: ٣٣] .
ووقع الإخبار عن نار جهنم بأنها لهم بلام الاستحقاق للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم كقوله تعالى: فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين في سورة البقرة [٢٤] وقوله: واتقوا النار التي أعدت للكافرين في سورة آل عمران
[١٣١] ، فنار عقاب عصاة المؤمنين نار مخالفة أو أنها أعدت للكافرين.
وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم لاقترافهم الأعمال السيئة التي شأنها أن تكون للكافرين.
وقدم المجرور في لهم نار جهنم على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن.
وجملة لا يقضى عليهم بدل اشتمال من جملة لهم نار جهنم، والقضاء:
حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى: فوكزه موسى فقضى عليه [القصص: ١٥] . وهو هنا محتمل". (١)

٤١٣. ٤١٣-"وفي هذا إبطال لخلق أهل الجاهلية القائلين في أمثالهم «انصر أخاك ظالما أو
مظلوما» . وقد ألقى النبيء صلى الله عليه وسلم على أصحابه إبطال ذلك فساق لهم هذا المثل حتى سألوا عنه ثم أصلح معناه مع بقاء لفظه فقال: «إذا كان ظالما تنصره على نفسه فتكفه عن ظلمه» .
[٣٨، ٣٩]

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٨ إلى ٣٩]
إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور (٣٨) هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا (٣٩)

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/٢٢

جملة إن الله عالم غيب السماوات والأرض
استئناف واصل بين جملة إن الله بعباده لخبير بصير [فاطر: ٣١] وبين جملة قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض [فاطر: ٤٠] الآية، فتسلسلت معانيه فعاد إلى فذلكة الغرض السالف المنتقل عنه من قوله: وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم إلى قوله: إن الله بعباده لخبير بصير [فاطر: ٢٥- ٣١] ، فكانت جملة: إن الله عالم غيب السماوات والأرض
كالتذييل لجملة إن الله بعباده لخبير بصير.
وفي هذا **إيماء** إلى أن الله يجازي كل ذي نية على حسب ما أضمره ليزداد النبيء صلى الله عليه وسلم يقينا بأن الله غير عالم بما يكنه المشركون.
وجملة إنه عليم بذات الصدور
مستأنفة هي كالنتيجة لجملة إن الله عالم غيب السماوات والأرض
لأن ما في الصدور من الأمور المغيبة فيلزم من علم الله بغيب السموات والأرض علمه بما في صدور الناس.
و «ذات الصدور» ضمائر الناس ونياتهم، وتقدم عند قوله تعالى: إنه عليم بذات الصدور في سورة الأنفال [٤٣] .
وجيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة لأن المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنه". (١)

٤١٤. ٤١٤-"يعم الظلم وغيره. وأوثر في سورة النحل بظلمهم لأنها جاءت عقب تشنيع ظلم عظيم من ظلمهم وهو ظلم بناتهم الموءودات وإلا أن هنالك قال: ما ترك عليها [النحل: ٦١] وهنا ما ترك على ظهرها وهو تفنن تبعه المعري في قوله:
وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد
والضمير للأرض هنا وهناك في البيت لأنها معلومة من المقام. والظهر: حقيقته متن الدابة الذي يظهر منها، وهو ما يعلو الصلب من الجسد وهو مقابل البطن فأطلق على ظهر

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٢١

الإنسان أيضا وإن كان غير ظاهر لأن الذي يظهر من الإنسان صدره وبطنه. وظهر الأرض مستعار لبسطها الذي يستقر عليه مخلوقات الأرض تشبيها للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية. ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة.

فأما قوله هنا: فإن الله كان بعباده بصيرا، وقد قال هنالك لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون [النحل: ٦١] ، فما هنا إيماء إلى الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى.

والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، ولهذا فقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا دليل جواب (إذا) وليس هو جوابها، ولذلك كان حقيقا بقرنه بفاء التسبب، وأما ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنهم إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.

وقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا هو أيضا جواب عن سؤال مقدر أن يقال: ماذا جنت الدواب حتى يستأصلها الله بسبب ما كسب الناس، وكيف يهلك كل من على الأرض وفيهم المؤمنون والصالحون، فأفيد أن الله أعلم بعدله. فأما الدواب فإنها مخلوقة لأجل الإنسان كما قال تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٩] ، فإهلاكها قد يكون إنذارا للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم، وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقا إلى النجاة كما نجى هودا ومن معه، ولعله إن أهلكهم أن يعوض لهم حسن الدار كما

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ثم يحشرون على نياتهم» .". (١)

٤١٥. ٤١٥-"على أهل أقصى المدينة. وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، قال أبو تمام:

كانت هي الوسط المحمي فاتصلت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وأما قوله تعالى في سورة القصص [٢٠] وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن داعيا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٤٠

للإيمان.

وعلى هذا فهذا الرجل غير مذكور في سفر أعمال الرسل وهو مما امتاز القرآن بالإعلام به.

وعن ابن عباس وأصحابه وجد أن اسمه حبيب بن مرة قيل: كان نجارا وقيل غير ذلك فلما أشرف الرسل على المدينة رآهم ورأى معجزة لهم أو كرامة فآمن. وقيل:

كان مؤمنا من قبل، ولا يبعد أن يكون هذا الرجل الذي وصفه المفسرون بالنجار أنه هو (سمعان) الذي يدعى (بالنيجر) المذكور في الإصحاح الحادي عشر من سفر أعمال الرسل وأن وصف النجار محرف عن (نيجر) فقد جاء في الأسماء التي جرت في كلام المفسرين عن ابن عباس اسم شمعون الصفا أو سمعان. وليس هذا الاسم موجودا في كتاب أعمال الرسل.

ووصف الرجل بالسعي يفيد أنه جاء مسرعا وأنه بلغه هم أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحهم خشية عليهم وعلى الرسل، وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر.

وجملة قال يا قوم بدل اشتمال من جملة «جاء رجل» لأن مجيئه لما كان لهذا الغرض كان مما اشتمل عليه المجيء المذكور.

وافتتاح خطابه إياهم بندائهم بوصف القومية له قصد منه أن في كلامه الإيماء إلى أن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه.

والاتباع: الامتثال، استعير له الاتباع تشبيها للأخذ برأي غيره بالمتبع له في سيره.

والتعريف في المرسلين للعهد.". (١)

٤١٦. ٤١٦-"وجملة اتبعوا من لا يسئلكم أجرا مؤكدة لجملة اتبعوا المرسلين مع زيادة الإيماء إلى علة اتباعهم بلوائح علامات الصدق والنصح على رسالتهم إذ هم يدعون إلى هدى ولا نفع ينجر لهم من ذلك فتمحضت دعوتهم لقصد هداية المرسل إليهم، وهذه كلمة حكمة جامعة، أي اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم.

وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأن القوم كانوا في شك من صدق

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٢

المرسلين وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنهم يجرون لأنفسهم نفعا من ذلك لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال وصاروا بعداء عن إدراك المقاصد السامية كانوا يعدون كل سعي يلوح على امرئ إنما يسعى به إلى نفعه. فقدم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة وليتهيؤوا إلى التأمل فيما يدعونهم إليه، ولأن هذا من قبيل التخلية بالنسبة للمرسلين والمرسل إليهم، والتخلية تقدم على التحلية، فكانت جملة لا يسئلكم أجرا أهم في صلة الموصول.

والأجر يصدق بكل نفع دنيوي يحصل لأحد من عمله فيشمل المال والجاه والرئاسة. فلما نفي عنهم أن يسألوا أجرا فقد نفي عنهم أن يكونوا يرمون من دعوتهم إلى نفع دنيوي يحصل لهم.

وبعد ذلك تهيأ الموقع لجملة وهم مهتدون، أي وهم متصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى، فتضمنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه وترغيبا في متابعتهم.

واعلم أن هذه الآية قد مثل بها القزويني في «الإيضاح» و «التلخيص» للإطناب المسمى بالإيغال وهو أن يوتى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتم المعنى بدونه لنكتة، وقد تبين لك مما فسرنا به أن قوله: وهم مهتدون لم يكن مجرد زيادة بل كان لتوقف الموعظة عليها، وكان قوله: من لا يسئلكم أجرا كالتوطئة له. ونعتذر لصاحب «التلخيص» بأن المثال يكفي فيه الفرض والتقدير.". (١)

٤١٧. ٤١٧-"ويجوز أن يكون من حذف المفعول لإرادة العموم. والتقدير: وما عملت أيديهم شيئا من ذلك. وكلا الحذفين شائع.

وفرع عليه استفهام الإنكار لعدم شكرهم بأن اتخذوا للذي أوجد هذا الصنع العجيب أندادا. وجيء بالمضارع مبالغة في إنكار كفرهم بأن الله حقيق بأن يكرروا شكره فكيف يستمرون على الإشراك به.

[٣٦]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٧/٢٢

[سورة يس (٣٦) : آية ٣٦]
سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)
اعتراض بين جملة وآية لهم الأرض [يس: ٣٣] وجملة وآية لهم الليل [يس:
٣٧] ، أثاره ذكر إحياء الأرض وإخراج الحب والشجر منها فإن ذلك أحوالا وإبداعا عجيبا يذكر بتعظيم مودع تلك الصنائع بحكمته وذلك تضمن الاستدلال بخلق الأزواج على طريقة الإدماج. وسبحان هنا لإنشاء تنزيه الله تعالى عن أحوال المشركين تنزيها عن كل ما لا يليق بإلهيته وأعظمه الإشراك به وهو المقصود هنا. وإجراء الموصول على الذات العلية للإيماء إلى وجه إنشاء التنزيه والتعظيم. وقد مضى الكلام على سبحان في سورة البقرة وغيرها.
والأزواج: جمع زوج وهو يطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان، ويطلق
الزوج على معنى الصنف المتميز بخواصه من نوع الموجودات تشبيها له بصنف الذكر وصنف الأنثى كما في قوله تعالى: فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى وتقدم في سورة طه [٥٣] ، والإطلاق الأول هو الكثير كما يؤخذ من كلام الراغب، وهو الذي يناسبه نقل اللفظ من الزوج الذي يكون ثانيا لآخر، فيجوز أن يحمل للأزواج في هذه الآية على المعنى الأول فيكون تذكيرا بخلق أصناف الحيوان الذي منه الذكر والأنثى، وتكون من في المواضع الثلاثة ابتدائية متعلقة بفعل خلق.". (١)

٤١٨. ٤١٨-"من فضول أموالهم أو أن يعطوهم ما كانوا يجعلونه لله من أموالهم الذي حكاه الله عنهم بقوله:
وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا [الأنعام: ١٣٦] فلعل من أسلم من الفقراء سألوا المشركين ما اعتادوا يعطونهم قبل إسلامهم فيقولون أعطوا مما رزقكم الله وقد سمعوا منهم كلمات إسلامية لم يكونوا يسمعونها من قبل، وربما كانوا يحاجونهم بأن الله هو الرزاق ولا يقع في الكون كائن إلا بإرادته فجعل المشركون يتعللون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقناه الله فلما ذا لم يرزقكم، فلو شاء الله لأطعمكم

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٥

كما أطعمنا. وقد يقول بعضهم ذلك جهلا فإنهم كانوا يجهلون وضع صفات الله في مواضعها كما حكى الله عنهم: وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم [الزخرف: ٢٠] .

وإظهار الموصول من قوله: قال الذين كفروا في مقام الإضمار مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: قالوا أنطعم إلخ لنكتة **الإيماء** إلى أن صدور هذا القول منهم إنما هو لأجل كفرهم ولأجل إيمان الذين سئل الإنفاق عليهم.

روى ابن عطية: إن النبيء صلى الله عليه وسلم أمر المشركين بالإنفاق على المساكين في شدة أصابت الناس فشح فيها الأغنياء على المساكين ومنعوهم ما كانوا يعطونهم.

واللام في قوله: للذين آمنوا يجوز أن تكون لتعدية فعل القول إلى المخاطب به أي خاطبوا المؤمنين بقولهم: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، ويجوز أن تكون اللام للعلة، أي قال الذين كفروا لأجل الذين آمنوا، أي قالوا في شأن الذين آمنوا كقوله تعالى: الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا [آل عمران: ١٦٨] وقوله: وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه [الأحقاف: ١١] أي قالوا ذلك تعلة لعدم الإنفاق على فقراء المؤمنين.

والاستفهام في أنطعم إنكاري، أي لا نطعم من لو شاء الله لأطعمهم بحسب اعتقادكم أن الله هو المطعم.

والتعبير في جوابهم بالإطعام مع أن المطلوب هو الإنفاق: إما لمجرد التفنن تجنبا لإعادة اللفظ فإن الإنفاق يراد منه الإطعام، وإما لأنهم سئلوا الإنفاق وهو أعم من الإطعام لأنه يشمل الإكساء والإسكان فأجابوا بإمساك الطعام وهو أيسر". (١)

٤١٩. ٤١٩-"ذلك عن الله تعالى.

واسم الرحمن حينئذ من كلام الملائكة لزيادة توبيخ الكفار على تجاهلهم به في الدنيا.

[٥٣]

[سورة يس (٣٦) : آية ٥٣]

إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٣

فذلكة لجملة ما ينظرون إلا صيحة واحدة [يس: ٤٩] إلى قوله: وصدق المرسلون [يس: ٥٢] لأن النفخ مرادف للصيحة في إطلاقها المجازي، فاقتران فعل كانت بتاء التأنيث لتأويل النفي مأخوذ من ونفخ في الصور [يس: ٥١] بمعنى النفخة ينظر إلى الإخبار عنه ب صيحة. ووصفها ب واحدة لأن ذلك الوصف هو المقصود من الاستثناء المفرغ، أي ما كان ذلك النفخ إلا صيحة واحدة لا يكرر استدعاؤهم للحضور بل النفخ الواحد يخرجهم من القبور ويسير بهم ويحضرهم للحساب.

وأما قوله تعالى: ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [الزمر: ٦٨] فتلك نفخة سابقة تقع على الناس في الدنيا فيفنى بها الناس وسيأتي ذكرها في سورة الزمر.

ولما كان قوله: إن كانت إلا صيحة واحدة في قوة التكرير والتوكيد لقوله ونفخ في الصور [يس: ٥١] كان ما تفرع عليه من قوله: فإذا هم جميع لدينا محضرون بمنزلة العطف على قوله: فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون [يس: ٥١] فكأنه مثل ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون [يس: ٥١] وفإذا هم جميع لدينا محضرون، وإعادة حرف المفاجأة إيماء إلى حصول مضمون الجملتين المقترنتين بحرف المفاجأة في مثل لمح البصر حتى كان كليهما مفاجأ في وقت واحد. وتقدم الكلام على نظير هذا التركيب آنفا.

وجميع نعت للمبتدأ، أي هم جميعهم، فالتنوين في جميع عوض المضاف إليه الرابط للنعت بالمنعوت، أي مجتمعون لا يحضرون أفواجا وزرافات، وقد تقدم قوله تعالى: وإن كل لما جميع لدينا محضرون [يس: ٣٢] في هذه السورة.". (١)

٤٢٠. ٤٢٠-"[سورة يس (٣٦) : آية ٥٩]

وامتازوا اليوم أيها المجرمون (٥٩)

يجوز أن يكون عطفا على جملة إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون [يس: ٥٥] ويجوز أن يعطف على سلام قولا [يس: ٥٨] ، أي ويقال: امتازوا اليوم أيها المجرمون، على الضد مما يقال لأصحاب الجنة. والتقدير: سلام يقال لأهل الجنة قولا، ويقال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٩

للمجرمين: امتازوا، فتكون من توزيع الخطابين على مخاطبين في مقام واحد كقوله تعالى: يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك [يوسف: ٢٩] .

وامتاز مطاوع مازه، إذا أفرده عما كان مختلطا معه، وجه الأمر إليهم بأن يمتازوا مبالغة في الإسراع بحصول الميز لأن هذا الأمر أمر تكوين فعبر عن معنى. فيكون الميز بصوغ الأمر من مادة المطاوعة، فإن قولك: لتنكسر الزجاجة أشد في الإسراع بحصول الكسر فيها من أن تقول: اكسروا الزجاجة. والمراد: امتيازهم بالابتعاد عن الجنة، وذلك بأن يصيروا إلى النار فيؤول إلى معنى: ادخلوا النار. وهذا يقتضي أنهم كانوا في المحشر ينتظرون ماذا يفعل بهم كما أشرنا إليه عند قوله تعالى آنفا: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون [يس: ٥٥] ، فلما حكي ما فيه أصحاب الجنة من النعيم حين يقال لأصحاب النار: فاليوم لا تظلم نفس شيئا [يس: ٥٤] ، حكي ذلك ثم قيل للمشركين وامتازوا اليوم أيها المجرمون.

وتكرير كلمة اليوم ثلاث مرات في هذه الحكاية للتعريض بالمخاطبين فيه وهم الكفار الذين كانوا يجحدون وقوع ذلك اليوم مع تأكيد ذكره على أسماعهم بقوله: فاليوم لا تظلم نفس [يس: ٥٤] وقوله: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل [يس: ٥٥] وقوله:

امتازوا اليوم أيها المجرمون.

ونداؤهم بعنوان: المجرمون **للإيماء** إلى علة ميزهم عن أهل الجنة بأنهم مجرمون، فاللام في المجرمون موصولة، أي أيها الذين أجرموا.". (١)

٤٢١. ٤٢١-"وفرع عليه توبيخهم بقلة العقول بقوله: أفلم تكونوا تعقلون، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون، أي يدركون، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك. وزيادة فعل الكون **للإيماء** إلى أن العقل لم يتكون فيهم ولا هم كائنون به.

[٦٣، ٦٤]

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥/٢٣

هذه جهنم التي كنتم توعدون (٦٣) اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤)
إقبال على خطاب الذين عبدوا معبودات يسولها لهم الشيطان، إذ تبدو لهم جهنم بحيث يشار إليها ويعرفون أنها هي جهنم التي كانوا في الدنيا ينذرون بها وتذكر لهم في الوعيد مدة الحياة. والأمر بقوله: اصلوها مستعمل في الإهانة والتنكير.
واصلوها أمر من صلي يصلى، إذا استدفأ بحر النار، وإطلاق الصلي على الإحراق تهكم.
والتعريف في اليوم تعريف العهد، أي هذا اليوم الحاضر وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا من استبطاء الوعد والتكذيب إذ يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] .
والباء في بما كنتم تكفرون سببية، أي بسبب كفركم في الدنيا.
[٦٥]

[سورة يس (٣٦) : آية ٦٥]
اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥)
الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وقوله: اليوم ظرف متعلق ب نختم.
والقول في لفظ اليوم كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.". (١)

٤٢٢. ٤٢٢-"[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٦ إلى ٦٧]
ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (٦٧)
عطف على جملة ويقولون متى هذا الوعد [يس: ٤٨] . وموقع هاتين الآيتين من التي قبلهما أنه لما ذكر الله إلجاءهم إلى الاعتراف بالشرك بعد إنكاره يوم القيامة كان ذلك مثيرا لأن يهجس في نفوس المؤمنين أن يتمنوا لو سلك الله بهم في الدنيا مثل هذا الإلجاء فألجأهم إلى الإقرار بوحدانيته وإلى تصديق رسوله واتباع دينه، فأفاد الله أنه لو تعلقت إرادته بذلك في

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩/٢٣

الدنيا لفعل، إيماء إلى أن إرادته تعالى تجري تعلقاتها على وفق علمه تعالى وحكمته. فهو قد جعل نظام الدنيا جاريا على حصول الأشياء عن أسبابها التي وكل الله إليها إنتاج مسبباتها وأثارها وتوالداتها حتى إذا بدل هذا العالم بعالم الحقيقة أجرى الأمور كلها على المهيع الحق الذي لا ينبغي غيره في مجاري العقل والحكمة. والمعنى إنا ألجأناهم إلى الإقرار في الآخرة بأن ما كانوا عليه في الدنيا شرك وباطل ولو نشاء لأريناهم آياتنا في الدنيا ليرتدعوا ويرجعوا عن كفرهم وسوء إنكارهم.

ولما كانت لو تقتضي امتناعا لامتناع فهي تقتضي معنى: لكنا لم نشأ ذلك فتركناهم على شأنهم استدراجا وتمييزا بين الخبيث والطيب. فهذا كلام موجه إلى المسلمين ومراد منه تبصرة المؤمنين وإرشادهم إلى الصبر على ما يلاقونه من المشركين حتى يأتي نصر الله.

فالطمس والمسخ المعلقان على الشرط الامتناعي طمس ومسخ في الدنيا لا في الآخرة. والطمس: مسخ شواهد العين بإزالة سوادها وبياضها أو اختلاطهما وهو العمى أو العور، ويقال: طريق مطموسة، إذا لم تكن فيها آثار السائرين ليقفوها السائر. وحرف الاستعلاء للدلالة على تمكن الطمس وإلا فإن طمس يتعدى بنفسه.". (١)

٤٢٣. ٤٢٣-"تكريرهم الشكر كانت إفادة التعجيب من عدم الشكر من أصله بالفحوى ولذلك أعقبه بقوله: واتخذوا من دون الله آلهة [يس: ٧٤] .

[٧٤، ٧٥]

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٤ إلى ٧٥]

واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥)

عطف على جملة أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما [يس: ٧١] ، أي ألم يروا دلائل الوحدانية ولم يتأملوا جلائل النعمة، واتخذوا آلهة من دون الله المنعم والمنفرد بالخلق. ولك أن تجعله عطفا على الجملتين المفرعتين، والمقصود من الإخبار

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٥١

باتخاذهم آلهة من دون الله التعجيب من جريانهم على خلاف حق النعمة ثم مخالفة مقتضى دليل الوحدانية المدمج في ذكر النعم.

والإتيان باسم الجلالة العلم دون ضمير إظهار في مقام الإضمار لما يشعر به اسمه العلم من عظمة الإلهية **إيماء** إلى أن اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة ليكون ذلك توطئة لقوله بعده فلا يحزنك قولهم [يس: ٧٦] أي فإنهم قالوا ما هو أشد نكرا.

وأما الإضمار في قوله في سورة الفرقان [٣] : واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون فلأنه تقدم ذكر انفراده بالإلهية صريحا من قوله: الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا [الفرقان: ٢] .

وقوله: لعلهم ينصرون وقعت (لعل) فيه موقعا غير مألوف لأن شأن (لعل) أن تفيد إنشاء رجاء المتكلم بها وذلك غير مستقيم هنا. وقد أغفل المفسرون التعرض لتفسيره، وأهمله علماء النحو واللغة من استعمال (لعل) ، فيتعين: إما أن تكون (لعل) تمثيلية مكنية بأن شبه شأن الله فيما أخبر عنهم بحال من". (١)

٤٢٤. ٤٢٤-"فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسندا للمحيي، على أن الجواب صالح لأن يكون إبطالا للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري كأنه قيل: بل يحييها الذي أنشأها أول مرة. ولم يبن الجواب على بيان إمكان الإحياء وإنما جعل بيان الإمكان في جعل المسند إليه موصولا لتدل الصلة على الإمكان فيحصل الغرضان، فالموصول هنا **إيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو يحييها، أي

يحييها لأنه أنشأها أول مرة فهو قادر على إنشائها ثاني مرة كما أنشأها أول مرة. قال تعالى: ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون [الواقعة: ٦٢] ، وقال: وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه [الروم: ٢٧] .

وذيل هذا الاستدلال بجملة وهو بكل خلق عليم أي واسع العلم محيط بكل وسائل الخلق التي لا نعلمها: كالخلق من نطفة، والخلق من ذرة، والخلق من أجزاء النبات المغلقة كسوس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٧٠

الفول وسوس الخشب، فتلك أعجب من تكوين الإنسان من عظامه.
وفي تعليق الإحياء بالعظام دلالة على أن عظام الحي تحلها الحياة كلحمه ودمه، وليست بمنزلة القصب والخشب وهو قول مالك وأبي حنيفة ولذلك تنجس عظام الحيوان الذي مات دون ذكاة. وعن الشافعي: أن العظم لا تحله الحياة فلا ينجس بالموت. قال ابن العربي: وقد اضطرب أرباب المذاهب فيه. والصحيح ما ذكرناه، يعني أن بعضهم نسب إلى الشافعي موافقة قول مالك وهو قول أحمد فيصير اتفاقا وعلماء الطب يثبتون الحياة في العظام والإحساس. وقال ابن زهر الحكيم الأندلسي في كتاب «التيسير» : أن جالينوس اضطرب كلامه في العظام هل لها إحساسا والذي ظهر لي أن لها إحساسا بطيئا.
[٨٠]

[سورة يس (٣٦) : آية ٨٠]
الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠)
بدل من الذي أنشأها [يس: ٧٩] بدلا مطابقا، وإنما لم تعطف الصلة على الصلة فيكتفى بالعطف عن إعادة اسم الموصول لأن في إعادة الموصول تأكيدا للأول واهتماما بالثاني حتى تستشرف نفس السامع لتلقي ما يرد بعده فيفطن بما في". (١)

٤٢٥. ٤٢٥-"يختاره العاقل، فكان من جزائهم على ذلك أنهم يطعمون طعاما مؤلما ويسقون شرابا قذرا بدون اختيار كما تلقوا دين آبائهم تقليدا واعتباطا.
فموقع (إن) موقع فاء السببية، ومعناها معنى لام التعليل، وهي لذلك مفيدة ربط الجملة بالتي قبلها كما تربطها الفاء ولام التعليل كما تقدم غير مرة.
والمراد: المشركون من أهل مكة الذين قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة [الزخرف: ٢٢] .
وفي قوله: ألفوا آباءهم ضالين إيماء إلى أن ضلالهم لا يخفى عن الناظر فيه لو تركوا على الفطرة العقلية ولم يغشوها بغشاوة العناد.
والفاء الداخلة على جملة فهم على آثارهم يهرعون فاء العطف للتفريع والتسبب، أي متفرع

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٢٣

على إلفائهم آباءهم ضالين أن اقتفوا آثارهم تقليدا بلا تأمل، وهذا ذم لهم.

والآثار: ما تتركه خطى الماشين من موطىء الأقدام فيعلم السائر بعدهم أن مواقعها مسلوكة موصلة إلى معمور، فمعنى على الاستعلاء التقريبي، وهو معنى المعية لأنهم يسيرون معها ولا يلزم أن يكونوا معتلين عليها.

ويهرعون بفتح الراء مبنيا للمجهول مضارع: أهرعه، إذا جعله هارعا، أي حمله على الهرع وهو الإسراع المفرط في السير، عبر به عن المتابعة دون تأمل، فشبه قبول الاعتقاد بدون تأمل بمتابعة السائر متابعة سريعة لقصد الالتحاق به.

وأسند إلى المجهول للدلالة على أن ذلك ناشيء عن تلقين زعمائهم وتعاليم المضللين، فكأنهم مدفوعون إلى الهرع في آثار آبائهم فيحصل من قوله: يهرعون تشبيه حال الكفرة بحال من يزجى ويدفع إلى السير وهو لا يعلم إلى أين يسار به.". (١)

٤٢٦. ٤٢٦-"الدرجة، اقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويها بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويقلع المشركون عن الشرك. وهذه نعمة تاسعة. وأقحم معها من عبادنا لتشريفه بتلك الإضافة على نحو ما تقدم آنفا في قوله تعالى: إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم [الصافات: ٤٠- ٤١] وهذه نعمة عاشرة، وفي ذلك تنبيه على عظيم قدر الإيمان.

وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حل بقوم نوح وتسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وجعل نوح قدوة له، وإيماء إلى أن الله ينصره كما نصر نوحا على قومه وينجيه من أذاهم وتنويه بشأن المؤمنين. وثم التي في قوله: ثم أغرقنا الآخرين للترتيب والتراخي الرتبيين لأن بعض ما ذكر قبلها في الكلام هو مما حصل بعد مضمون جملتها في نفس الأمر كما هو بين، ومعنى التراخي الرتبي هنا أن إغراق الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله، أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه.

ومعنى الآخرين من عداه وعدا أهله، أي بقية قومه، وفي التعبير عنهم بالآخرين ضرب من الاحتقار. ومما في الحديث أنه جاءه رجل فقال: «إن الآخر قد زنى» يعني نفسه على رواية الآخر بمد الهمزة وهي إحدى روايتين في الحديث.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٢٣

وتقدم ذكر نوح وقصته عند قوله تعالى: إن الله اصطفى آدم ونوحا في آل عمران [٣٣] ، وفي الأعراف، وفي سورة هود، وذكر سفينته في أول سورة العنكبوت.

[٨٣- ٨٧]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٣ إلى ٨٧]

وإن من شيعته لإبراهيم (٨٣) إذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤) إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أإفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧)

تخلص إلى حكاية موقف إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوتهم إلى التوحيد". (١)

٤٢٧. ٤٢٧-"والمعنى: ففكر في حيلة يخلو له بها بد أصنامهم فقال: إني سقيم ليلزم مكانه ويفارقوه فلا يريهم بقاؤه حول بدهم ثم يتمكن من إبطال معبوداتهم بالفعل. والوجه: أن التعقيب الذي أفادته الفاء من قوله: فنظر تعقيب عرفي، أي لكل شيء بحسبه فيفيد كلاما مطويا يشير إلى قصة إبراهيم التي قال فيها: إني سقيم والتي تفرع عليها قوله تعالى: فراغ إلى أهله [الذاريات: ٢٦] إلخ.

وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله: نظرة إيماء إلى أن الله ألهمه المكيدة وأرشده إلى الحجة كما قال تعالى: ولقد آتينا إبراهيم رشده [الأنبياء: ٥١] .

وقوله: إني سقيم عذر انتحله ليتركوه فيخلو ببيت الأصنام ليخلص إليها عن كثب فلا يجد من يدفعه عن الإيقاع بها. وليس في القرآن ولا في السنة بيان لهذا لأنه غني عن البيان. وذكر المفسرون أنه اعتذر عن خروجه مع قومه من المدينة في يوم عيد يخرجون فيه فزعم أنه مريض لا يستطيع الخروج فافترض إبراهيم خروجهم ليخلو ببد الأصنام وهو الملائم لقوله: فتولوا عنه مدبرين.

والسقيم: صفة مشبهة وهو المريض كما تقدم في قوله: بقلب سليم [الصافات: ٨٤] . يقال: سقم بوزن مرض، ومصدره السقم بالتحريك، فيقال: سقام وسقم بوزن قفل.

والتولي: الإعراض والمفارقة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٣٥

لم ينطق إبراهيم فإن النجوم دلته على أنه سقيم ولكنه لما جعل قوله: إني سقيم مقارنا لنظره في النجوم أو هم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

ومدبرين حال، أي ولوه أدبارهم، أي: ظهورهم. والمعنى: ذهبوا وخلفوه وراء ظهورهم بحيث لا ينظرونه. وقد قيل: إن مدبرين حال مؤكدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولي غالبا لدفع توهم أنه تولي مخالفة وكراهة دون انتقال. وما وقع في التفاسير في معنى نظره في النجوم وفي تعيين سقمه المزعوم كلام لا يمتع بين موازين المفهوم، وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص ومن يزعم ذلك فقد ضل". (١)

٤٢٨. ٤٢٨-"وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكراما لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحيد.

والفاء في قوله: فانظر ماذا ترى فاء تفريع، أو هي فاء الفصيحة، أي إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى. والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقه أن يتعدى إلى مفعولين ولكن علقه الاستفهام عن العمل. والمعنى: تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول لأنه أعلم بصلاح ابنه وليس إبراهيم مأمورا بذبح ابنه جبرا، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتبر كافرا.

وقرأ الجمهور ماذا ترى بفتح التاء والراء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، أي ماذا تريني من امتثال أو عدمه. وحكي جوابه فقال: يا أبت افعل ما تؤمر دون عطف، جريا على حكاية المقاولات كما تقدم عند قوله تعالى: قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها في سورة البقرة [٣٠] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/٢٣

وابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن.

والتعبير عن الذبح بالموصول وهو ما تؤمر دون أن يقول: اذبحني، يفيد وحده **إيماء** إلى السبب الذي جعل جوابه امتثالا لذبحه.". (١)

٤٢٩. ٤٢٩-"رجال حرمه وسدنة بيته» فكان ذلك قبل الإسلام وقال الله تعالى لهم بعد الإسلام: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله [التوبة: ١٩] . وقال تعالى: وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون [الأنفال: ٣٤] وقال:

إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيء والذين آمنوا [آل عمران: ٦٨] .

وقد ضرب الله هذه القصة مثلا لحال النبيء صلى الله عليه وسلم في ثباته على إبطال الشرك وفيما لقي من المشركين **وإيماء** إلى أنه يهاجر من أرض الشرك وأن الله يهديه في هجرته ويهب له أمة عظيمة كما وهب إبراهيم أتباعا، فقال: إن إبراهيم كان أمة [النحل: ١٢٠]

.

وفي قوله تعالى: ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين مثل لحال النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه من أهل مكة ولحال المشركين من أهل مكة.

[١١٤- ١١٦]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ إلى ١١٦]

ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦)

عطف على قوله: ولقد نادانا نوح [الصافات: ٧٥] ، والمناسبة هي ما ذكر هنالك.

وذكر هنا ما كان منة على موسى وهارون وهو النبوءة فإنها أعظم درجة يرفع إليها الإنسان، ولذلك اكتفي عن تعيين الممنون به لحمل الفعل على أكمل معناه. وجعلت منة

---

(١) التحرير والتنوير ١٥١/٢٣

من الله عليهما لأن موسى لم يسأل النبوءة إذ ليست النبوءة بمكتسبة وكانت منة على هارون أيضا لأنه إنما سأل له موسى ذلك ولم يسأله هارون، فهي منة عليه وإرضاء لموسى، والمنة عليهما من قبيل إيصال المنافع فإن الله أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإبراهيم وإسرائيل.

وفي اختلاف مبادئ القصص الثلاث إشارة إلى أن الله يغضب لأوليائه إما باستجابة دعوة، وإما لجزاء على سلامة طوية وقلب سليم، وإما لرحمة منه ومنة على عباده المستضعفين. وإنجاء موسى وهارون وقومهما كرامة أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمة إزالة الضر، فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام وهما: إعطاء المنافع، ودفع المضار.". (١)

٤٣٠. ٤٣٠-"والتولي حقيقته: المفارقة كما تقدم في قصة إبراهيم فتولوا عنه مدبرين [الصافات: ٩٠] ، واستعمل هنا مجازا في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم. والحين: الوقت. وأجمل هنا **إيماء** إلى تقليله، أي تقريبه، فالتنكير للتحقير المعنوي وهو التقليل. ومعنى أبصرهم انظر إليهم، أي من الآن، وعدي (أبصر) إلى ضميرهم الدال على ذواتهم، وليس المراد النظر إلى ذواتهم لكن إلى أحوالهم، أي تأمل أحوالهم تركيف ننصرك عليهم، وهذا وعيد بما حل بهم يوم بدر.

وحذف ما يتعلق به الإبصار من حال أو مفعول معه بتقدير: وأبصرهم مأسورين مقتولين، أو وأبصرهم وما يقضى به عليهم من أسر وقتل لدلالة ما تقدم من قوله: إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون [الصافات: ١٧٢، ١٧٣] عليه، إذ ليس المأمور به أيضا ذواتهم، وهذا من دلالة الاقتضاء. وصيغة الأمر في وأبصرهم مستعملة في الإرشاد على حد قول:

إذا أعجبتك الدهر حال من امرئ ... فدعه وواكل أمره واللياليا

أي إذا شئت أن تتحقق قرارة حاله فانتظره.

وعبر عن ترتب نزول الوعيد بهم بفعل الإبصار للدلالة على أن ما توعدوا به واقع لا محالة وأنه قريب حتى أن الموعود بالنصر يتشوف إلى حلوله فكان ذلك كناية عن تحققه وقربه لأن تحديق البصر لا يكون إلا إلى شيء أشرف على الحلول.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٢٣

وتفريع فسوف يبصرون على وأبصرهم تفريع لإنذارهم بوعيد قريب على بشارة النبيء بقربه فإن ذلك المبصر يسر النبيء صلى الله عليه وسلم ويحزن أعداءه، ففي الكلام اكتفاء، كأنه قيل: أبصرهم وما ينزل بهم فسوف تبصر ما وعدناك وليبصروا ما ينزل بهم فسوف يبصرونه. وحذف مفعول يبصرون لدلالة ما دلت عليه دلالة الاقتضاء. واعلم أن تفريع فسوف يبصرون على وأبصرهم يمنع من إرادة أن يكون المعنى: وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب بعد ذلك الحين كما لا يخفى.". (١)

٤٣١. ٤٣١-"ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل» .

واعلم أن في اختيار هذا التمثيل البديع معنى بديعا من **الإيماء** إلى أن العذاب الذي وعدوه هو ما أصابهم يوم بدر من قتل وأسر على طريقة التورية.

[١٧٨- ١٧٩]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٧٨ إلى ١٧٩]

وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩)

عطف على جملة فإذا نزل بساحتهم [الصافات: ١٧٧] الآية لأن معنى المعطوف عليها الوعد بأن الله سينتقم منهم فعطف عليه أمره رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتم بعنادهم.

وهذه نظير التي سبقتها المفرعة بالفاء فلذلك يحصل منها تأكيد نظيرتها، على أنه قد يكون هذا التولي غير الأول وإلى حين آخر وإبصار آخر، فالظاهر أنه تول عمن يبقى من المشركين بعد حلول العذاب الذي استعجلوه، فيحتمل أن يكون حينا من أوقات الدنيا فهو إنذار بفتح مكة. ويحتمل أن يكون إلى حين من أحيان الآخرة، وإنما جعل ذلك غاية لتولي النبيء صلى الله عليه وسلم عنهم لأن توليه العذاب عنهم غاية لتولي النبيء صلى الله عليه وسلم عنهم لأن توليه عنهم مستمر إلى يوم القيامة فإن مدة لحاق النبيء صلى الله عليه

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٩٦

وسلم بالرفيق الأعلى لما كانت متصلة بتوليه عنهم جعلت تلك المدة كأنها ظرف للتولي ينتهي بحين إحضارهم للعقاب، فيكون قوله:

حتى حين مرادا به الأبد.

وحذف مفعول وأبصر في هذه الآية لدلالة ما في نظيرها عليه.

[١٨٠- ١٨٢]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٨٠ إلى ١٨٢]

سبحان ربك رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١) والحمد لله رب العالمين (١٨٢)

خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم تذييلا لخطابه المبتدأ بقوله تعالى: فاستفتهم ألربك البنات [الصافات: ١٤٩] الآية. فإنه خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله. وهذه الآية فذلكة لما احتوت عليه السورة من الأغراض جمعت تنزيه الله والثناء على". (١)

٤٣٢. ٤٣٢-"ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن لنقص في علوه ومجده ولكن لأنهم عجبوا أن جاءهم به رجل منهم.

ولك أن تجعل بل إضراب انتقال من الشروع في التنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه، لأن في بيان ذلك السبب تحقيقا للتنويه بالقرآن كما يقال: دع ذا وخذ في حديث..، كقول امرئ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقال زهير:

دع ذا وعد القول في هرم ... خير البداة وسيد الحضر

وقول الأعشى:

فدع ذا ولكن ما ترى رأي كاشح ... يرى بيننا من جهله دق منشم

وقول العجاج:

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٨/٢٣

دع ذا وبهج حسبا مبهجا ومعنى ذلك أن الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن ذلك إلى ما هو أهم وهو بيان سبب إعراض المعرضين عنه لاعتزازهم بأنفسهم وشقاقهم، فوقع العدول عن جواب القسم استغناء بما يفيد مفاد ذلك الجواب.

وإنما قيل: الذين كفروا دون (الكافرون) لما في صلة الموصول من **الإيماء** إلى الإخبار عنهم بأنهم في عزة وشقاق. والعزة تحوم إطلاقاتها في الكلام حول معاني المنعة والغلبة والتكبر فإن كان ذلك جاريا على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية وإن كان عن غرور وإعجاب بالنفس فهي عزة مزورة قال تعالى: وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم [البقرة: ٢٠٦] ، أي أخذته الكبرياء وشدة العصيان، وهي هنا عزة باطلة أيضا لأنها إباء من الحق وإعجاب بالنفس. وضد العزة الذلة قال تعالى: أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين [المائدة: ٥٤]

وقال السموأل أو غيره:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل". (١)

٤٣٣. ٤٣٣-"و (في) للظرفية المجازية مستعارة لقوة التلبس بالعزة. والمعنى: متلبسون بعزة على الحق.

والشقاق: العناد والخصام. والمراد: وشقاق لله بالشرك ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب.

والمعنى: أن الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن هو ما في قرارة نفوسهم من العزة والشقاق. [٣]

[سورة ص (٣٨) : آية ٣]

كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص (٣)

استئناف بياني لأن العزة عن الحق والشقاق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم مما يثير في خاطر السامع أن يسأل عن جزاء ذلك فوقع هذا بيانا له، وهذه الجملة معترضة بين جملة بل الذين كفروا في عزة وشقاق [ص: ٢] ، وبين جملة وعجبوا أن جاءهم منذر منهم [ص:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٠٥

٤] .

وكان هذا البيان إخبارا مرفقا بحجة من قبيل قياس تمثيل، لأن قوله: من قبلهم يؤذن بأنهم مثلهم في العزة والشقاق ومتضمنا تحذيرا من التريث عن إجابة دعوة الحق، أي ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم ندم ولا متاب كما لم ينفع القرون من قبلهم. فالتقدير:

سيجازون على عزتهم وشقاقهم بالهلاك كما جوزيت أمم كثيرة من قبلهم في ذلك فليحذروا ذلك فإنهم إن حقت عليهم كلمة العذاب لم ينفعهم متاب كما لم ينفع الذين من قبلهم متاب عند رؤية العذاب.

وكم اسم دال على عدد كثير. ومن قرن تمييز لإبهام العدد، أي عددا كثيرا من القرون، وهي في موضع نصب بالمفعولية ل أهلكنا.

والقرن: الأمة كما في قوله تعالى: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين [المؤمنون: ٤٢] . ومن قبلهم يجوز أن يكون ظرفا مستقرا جعل صفة ل قرن مقدمة عليه فوقعت حالا، وإنما قدم للاهتمام بمضمونه ليفيد الاهتمام **إيماء** إلى أنهم أسوة لهم في العزة والشقاق وأن ذلك سبب إهلاكهم. ويجوز أن يكون متعلقا ب أهلكنا على أنه ظرف لغو، وقدم على مفعول فعله". (١)

٤٣٤. ٤٣٤-"مع أن المفعول أولى بالسبق من بقية معمولات الفعل ليكون تقديمه اهتماما به **إيماء** إلى الإهلاك كما في الوجه الأول.

وفرع على الإهلاك أنهم نادوا فلم ينفعهم نداؤهم، تحذيرا من أن يقع هؤلاء في مثل ما وقعت فيه القرون من قبلهم إذ أضاعوا الفرصة فنادوا بعد فواتها فلم يفدهم نداؤهم ولا دعاؤهم.

والمراد بالنداء في فنادوا نداؤهم الله تعالى تضرعا، وهو الدعاء كما حكي عنهم في قوله تعالى:

ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون [الدخان: ١٢] . وقوله:

حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون [المؤمنون: ٦٤] .

وجملة ولات حين مناص في موضع الحال، والواو واو الحال، أي نادوا في حال لا حين مناص لهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٦/٢٣

ولات حرف نفي بمعنى (لا) المشبهة ب (ليس) ولات حرف مختص بنفي أسماء الأزمان وما يتضمن معنى الزمان من إشارة ونحوها. وهي مركبة من (لا) النافية وصلت بها تاء زائدة لا تفيد تأنيثا لأنها ليست هاء وإنما هي كزيادة التاء في قولهم: ربت وثمت. والنفي بها لغير الزمان ونحوه خطأ في اللغة وقع فيه أبو الطيب إذ قال:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... والآن أقحم حتى لات مقتحم

وأغفل شارحو ديوانه كلهم وقد أدخل لات على غير اسم زمان. وأيا ما كان فقد صارت (لا) بلزوم زيادة التاء في آخرها حرفا مستقلا خاصا بنفي أسماء الزمان فخرجت عن نحو: ربت وثمت.

وزعم أبو عبيد القاسم بن سلام أن التاء في ولات حين مناص متصلة ب حين وأنه رآها في مصحف عثمان متصلة ب حين وزعم أن هذه التاء". (١)

٤٣٥. ٤٣٥-"يصطفيه وليس الاختيار لهم فيجعلوا من لم يقدموه عليهم في دينهم غير أهل لأن يختاره الله.

وتقديم الظرف للاهتمام لأنه مناط الإنكار وهو كقوله تعالى: أهم يقسمون رحمت ربك [الزخرف: ٣٢] .

والخزائن: جمع خزانة بكسر الخاء. وهي البيت الذي يخزن فيه المال أو الطعام، ويطلق أيضا على صندوق من خشب أو حديد يخزن فيه المال.

والخزن: الحفظ والحرز. والرحمة: ما به رفق بالغير وإحسان إليه، شبهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إليه النفوس في أنه لا يعطى إلا بمشيئة خازنه على طريقة الاستعارة المكنية. وإثبات الخزائن: تخييل مثل إثبات الأظفار للمنية،

والإضافة على معنى لام الاختصاص. والعدول عن اسم الجلالة إلى وصف لأن له مزيد مناسبة للغرض الذي الكلام فيه **إيماء** إلى أن تشريفه إياه بالنبوءة من آثار صفة ربوبيته له لأن وصف الرب مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال. وأجري على الرب صفة العزيز لإبطال تدخلهم في تصرفاته، وصفة الوهاب لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعا لرغباتهم دون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٠٧

مودة الله تعالى.

والعزيز: الذي لا يغلبه شيء، والوهاب: الكثير المواهب فإن النبوءة رحمة عظيمة فلا يخول إعطاؤها إلا لشديد العزة وافر الموهبة.

[١٠]

[سورة ص (٣٨) : آية ١٠]

أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب (١٠)

إضراب انتقالي إلى رد يأتي على جميع مزاعمهم ويشمل بإجماله جميع النقوض التفصيلية لمزاعمهم بكلمة جامعة كالحوصلة فيشبه التذييل لما يتضمنه من عموم الملك وعموم الأماكن المقتضي عموم العلم وعموم التصرف ينعى عليهم قولهم في المغيبات بلا علم وتحكمهم في مراتب الموجودات بدون قدرة ولا غنى.". (١)

٤٣٦. ٤٣٦-"فأنتج ذلك التسجيل استحقاقهم عذاب الله في قوله: فحق عقاب، أي عقابي، فحذفت ياء المتكلم للرعاية على الفاصلة وأبقيت الكسرة في حالة الوصل.

وحق: تحقق، أي كان حقا، لأنه اقتضاه عظيم جرمهم. والعقاب: هو ما حل بكل أمة منهم من العذاب وهو الغرق والتمزيق بالريح، والغرق أيضا، والصيحة، والخسف، وعذاب يوم الظلة.

وفي هذا تعريض بالتهديد لمشركي قريش بعذاب مثل عذاب أولئك لاتحادهم في موجبه.

[١٥]

[سورة ص (٣٨) : آية ١٥]

وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق (١٥)

لما أشعر قوله: فحق عقاب [ص: ١٤] بتهديد مشركي قريش بعذاب ينتظرهم جريا على سنة الله في جزاء المكذبين رسله، عطف على جملة الإخبار عن حلول العذاب بالأحزاب

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/٢٣

السابقين جملة توعد بعذاب الذين ماثلوهم في التكذيب.
وهؤلاء إشارة إلى كفار قريش لأن تجدد دعوتهم ووعيدهم وتكذيبهم يوما فيوما جعلهم كالحاضرين فكانت الإشارة مفهوما منها أنها إليهم، وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته إذا استعمل هؤلاء ولم يكن معه مشار إليه مذكور: أنه يريد به المشركين من
أهل مكة كما نبهت عليه فيما مضى غير مرة.
وينظر مشتق من النظر بمعنى الانتظار قال تعالى: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة [الأنعام: ١٥٨] ، أي ما ينتظر المشركون إلا صيحة واحدة، وهذا كقوله تعالى:
فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم [يونس: ١٠٢] .
والمتبادر من الآية أنها تهديد لهم بصيحة صاعقة ونحوها كصيحة ثمود أو صيحة النفخ في الصور التي يقع عندها البعث للجزاء، ولكن ما سبق ذكره آنفا من أن قوله تعالى: جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب [ص: ١١] إيماء إلى بشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن معانديه سيهزمون ويعمل فيهم السيف يوم بدر، يقتضي أن الصيحة". (١)

٤٣٧. ٤٣٧-"صيحة القتال وهي أن يصيح النذير: يا صباحاه كما صاح الصارخ بمكة حين تعرض المسلمون لعير قريش ببدر. ووصفها ب واحدة إشارة إلى أن الصاعقة عظيمة مهلكة، أو أن النفخة واحدة وهي نفخة الصعق، وفي خفي المعنى إيماء إلى أن القوم يبتدرون إلى السلاح ويخرجون مسرعين لإنقاذ غيرهم فكانت الوقعة العظيمة وقعة يوم بدر أو صيحة المبارزين للقتال يومئذ.
وأسند الانتظار إليهم في حين أنهم غافلون عن ذلك ومكذبون بظاهره إسناد مجازي على طريقة المجاز العقلي فإنهم ينتظر بهم ذلك المسلمون الموعودون بالنصر، أو ينتظر بهم الملائكة الموكلون بحشرهم عند النفخة، فلما كانوا متعلق الانتظار أسند فعل ينظر إليهم لملابسة المفعولية على نحو في عيشة راضية [الحاقة: ٢١] .
والفواق، بفتح الفاء وضمها: اسم لما بين حلبتي حالب الناقة ورضعتي فصيلها، فإن الحالب

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٢٣

يحلب الناقة ثم يتركها ساعة ليرضعها فصيلها ليدر اللبن في الضرع ثم يعودون فيحلبونها، فالمدة التي بين الحلبتين تسمى فواقا. وهي ساعة قليلة وهم قبل ابتداء الحلب يتركون الفصيل يرضعها لتدر باللبن. وجمهور أهل اللغة على أن الفتح والضم فيه سواء، وذهب أبو عبيدة والفراء إلى أن بين المفتوح والمضموم فرقا فقالا: المفتوح بمعنى الراحة مثل الجواب من الإجابة، والمضموم اسم للمدة. واللبن المجتمع في تلك الحصة يسمى:

الفيقة بكسر الفاء، وجمعها أفاويق.

ومعنى ما لها من فواق ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، وهذا كقوله تعالى: ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية [يس: ٤٩، ٥٠] .

وقرأ الجمهور فواق بفتح الفاء. وقرأه حمزة والكسائي بضم الفاء.

[١٦]

[سورة ص (٣٨) : آية ١٦]

وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب (١٦)

حكاية حالة استخفافهم بالبعث والجزاء وتكذيبهم ذلك، وتكذيبهم بوعيد". (١)

٤٣٨. ٤٣٨-"تعجيل العقاب بأن يكونوا سموا الحظ من العقاب قطا على طريق التهكم، كما قال عمرو بن

كلثوم إذ جعل القتال قرى:

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا

فيكونون قد أدمجوا تهكما في تهكم إغراقا في التهكم.

وتسميتهم يوم الحساب أيضا من التهكم لأنهم لا يؤمنون بالحساب.

[١٧- ٢٠]

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١٧ إلى ٢٠]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٣

اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب (١٧) إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق (١٨) والطير محشورة كل له أواب (١٩) وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (٢٠)

أعقب حكاية أقوالهم من التكذيب ابتداء من قوله: وقال الكافرون هذا ساحر كذاب [ص: ٤] إلى هنا، بأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوالهم إذ كان جميعها أذى: إما صريحا كما قالوا: ساحر كذاب وقالوا: إن هذا إلا اختلاق [ص: ٧] إن هذا لشيء يراد [ص: ٦] ، وإما ضمنا وذلك ما في سائر أقوالهم من إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بقولهم: ربنا عجل لنا قطنا [ص: ١٦] من إثبات أن الإله واحد، ويشمل ما يقولونه مما لم يحك في أول هذه السورة.

وقوله: واذكر عبدنا داود إلى آخره يجوز أن يكون عطفا على قوله: اصبر على ما يقولون بأن أتبع أمره بالصبر وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لقوه من الناس ثم كانت لهم عاقبة النصر وكشف الكرب. ويجوز أن يكون عطفا على مجموع ما تقدم عطف القصة على القصة والغرض هو هو. وابتدئ بذكر داود لأن الله أعطاه ملكا وسلطانا لم يكن لآبائه ففي ذكره إيماء إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند فقد كان حال النبيء صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود عليه السلام.

وأدمج في خلال ذلك الإيماء إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى واتقاء". (١)

٤٣٩. ٤٣٩-"مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة إبعادا لرسوله صلى الله عليه وسلم عن مهاوي الخطأ والزلل وتأديبا له في أول أمره وآخره مما أن يتلقى بالعذل. وكان داود أيضا قد صبر على ما لقيه من حسد شاول (طالوت) ملك إسرائيل إياه على انتصاره على جالوت ملك فلسطين.

فالمصدر المتصرف منه واذكر عبدنا داود هو الذكر بضم الذال وهو التذكر

وليس هو ذكر اللسان لأنه إنما أمر النبيء صلى الله عليه وسلم بذلك لتسليته وحفظ كماله لا ليعلمه المشركين ولا ليعلمه المسلمين على أن كلا الأمرين حاصل تبعا حين إبلاغ المنزل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٢٦

في شأن داود إليهم وقراءته عليهم. ومعنى الأمر بتذكر ذلك تذكر ما سبق إعلام النبيء صلى الله عليه وسلم به من فضائله وتذكير ما عسى أن يكون لم يعلمه مما يعلم به في هذه الآية.

ووصف داود ب عبدنا وصف تشريف بالإضافة بقرينة المقام كما تقدم عند قوله:

إلا عباد الله المخلصين في سورة الصافات [٤٠] .

والأيد: القوة والشدة، مصدر: آد يئيد، إذا اشتد وقوي، ومنه التأييد التقوية، قال تعالى:

فآواكم وأيدكم بنصره في سورة الأنفال [٢٦] .

وكان داود قد أعطي قوة نادرة وشجاعة وإقداما عجيبين وكان يرمي الحجر بالمقلاع فلا يخطىء الرمية، وكان يلوي الحديد ليصنعه سردا للدروع بأصابعه، وهذه القوة محمودة لأنه استعملها في نصر دين التوحيد.

وجملة إنه أواب تعليل للأمر بذكره **إيماء** إلى أن الأمر لقصد الاقتداء به، كما قال تعالى:

فبهداهم اقتده [الأنعام: ٩٠] ، فالجملة معترضة بين جملة واذكر وجملة بيانها وهي إنا سخرنا الجبال معه.

والأواب: الكثير الأوب، أي الرجوع. والمراد: الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عند حدوده وتدارك ما فرط فيه. والتائب يطلق عليه الأواب، وهو غالب استعمال القرآن وهو مجاز ولا تسمى التوبة أوبا، و «زبور» داود المسمى عند اليهود ب «المزامير» مشتمل على كثير من الاستغفار وما في معناه من التوبة.". (١)

٤٤٠. ٤٤٠-"العلماء في الخليفة شروطا كلها تحوم حول الحيلولة بينه وبين اتباع الهوى وما يوازيه من الوقوع في الباطل، وهي:

التكليف، والحرية، والعدالة، والذكورة، وأما شرط كونه من قريش عند الجمهور فلئلا يضعف أمام القبائل بغضاضة.

وانتصب فيضلك بعد فاء السببية في جواب النهي. ومعنى جواب النهي جواب المنهي عنه فهو السبب في الضلال وليس النهي سببا في الضلال. وهذا بخلاف طريقة الجزم في جواب النهي.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٣

وسبيل الله: الأعمال التي تحصل منها مرضاته وهي الأعمال التي أمر الله بها ووعد بالجزاء عليها، شبهت بالطريق الموصل إلى الله، أي إلى مرضاته. وجملة: إن الذين يضلون عن سبيل الله إلى آخرها يظهر أنها مما خاطب الله به داود، وهي عند أصحاب العدد آية واحدة من قوله: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض إلى يوم الحساب، فهي في موقع العلة للنهي، فكانت (إن) مغنية عن فاء التسبب والترتب، فالشيء الذي يفضي إلى العذاب الشديد خليق بأن ينهى عنه، وإن كانت الجملة كلاما منفصلا عن خطاب داود كانت معترضة ومستأنفة استئنافا بيانيا لبيان خطر الضلال عن سبيل الله.

والعموم الذي في قوله الذين يضلون عن سبيل الله يكسب الجملة وصف التذييل أيضا وكلا الاعتبارين موجب لعدم عطفها. وجيء بالموصول **للإيماء** إلى أن الصلة علة لاستحقاق العذاب. واللام في لهم عذاب للاختصاص، والباء في بما نسوا يوم الحساب سببية.

و (ما) مصدرية، أي بسبب نسيانهم يوم الحساب، وتتعلق الباء بالاستقرار الذي ناب عنه المجرور في قوله: لهم عذاب.

والنسيان: مستعار للإعراض الشديد لأنه يشبه نسيان المعرض عنه كما في قوله تعالى: نسوا الله فنسيهم [التوبة: ٦٧] ، وهو مراتب أشدها إنكار البعث والجزاء، قال تعالى: فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم [السجدة: ١٤] . ودونه مراتب كثيرة تكون على وفق مراتب العذاب لأنه إذا كان السبب ذا مراتب كانت المسببات تبعا لذلك.". (١)

٤٤١. ٤٤١-"ووصفه ب بارد **إيماء** إلى أن به زوال ما بأيوب من الحمى من القروح.

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء»

، أي نافع شاف، وبالتنوين استغني عن وصف شراب إذ من المعلوم أن الماء شراب فلولا إرادة التعظيم بالتنوين لكان الإخبار عن الماء بأنه شراب إخبارا بأمر معلوم، ومرجع تعظيم شراب إلى كونه عظيما لأيوب وهو شفاء ما به من مرض.

[٤٣]

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٤٥

[سورة ص (٣٨) : آية ٤٣]
ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب (٤٣)
اقتصار أيوب في دعائه على التعريض بإزالة النصب والعذاب يشعر بأنه لم يصب بغير الضر في بدنه. ويحتمل أن يكون قد أصابه تلف المال وهلاك العيال كما جاء في كتاب «أيوب» من كتب اليهود فيكون اقتصاره على النصب والعذاب في دعائه لأن في هلاك الأهل والمال نصبا وعذابا للنفس. ولم يتقدم في هذه الآية ولا في آية سورة الأنبياء أن أيوب رزىء أهله فيجوز أن يكون معنى ووهبنا له أهله ومثلهم معهم أن الله أبقى له أهله فلم يصب فيهم بما يكره وزاده بنين وحفدة.
ويكون فعل وهبنا مستعملا في حقيقته ومجازه. ويؤيد هذا المحمل وقوع كلمة معهم عقب كلمة ومثلهم فإن (مع) تشعر بأن الموهوب لاحق بأهله ومزيد فيهم فليس في الآية تقدير مضاف في قوله: ووهبنا له أهله.
وليس في الأخبار الصحيحة ما يخالف هذا إلا أقوالا عن المفسرين ناشئة عن أفهام مختلفة.
ويحتمل أن يكون مما أصابه أنه هلك وأولاده في مدة ضره كما جاء في كتاب «أيوب» من كتب اليهود وأقوال بعض السلف من المفسرين فيتعين تقدير مضاف، أي وهبنا له عوض أهله. وألفاظ الآية تنبو عن هذا الوجه الثاني.". (١)

٤٤٢. ٤٤٢-"إلى غيرهم وذلك كناية عن قصر محبتهن على أزواجهن.
ويجوز أن يكون المعنى: أنهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن فلا تتوجه أنظار أزواجهن إلى غيرهن اكتفاء منهم بحسنهن وذلك كناية عن تمام حسنهن في أنظار أزواجهن بحيث لا يتعلق استحسانهم بغيرهن، فالأطراف المقصورة أطراف أزواجهن، وإسناد قاصرات إليهن مجاز عقلي إذ كان حسنهن سبب قصر أطراف الأزواج فإنهن ملابسات سبب سبب القصر.
وأتراب: جمع ترب بكسر التاء وسكون الراء، وهو اسم لمن كان عمره مساويا عمر من يضاف إليه، تقول: هو ترب فلان، وهي ترب فلانة، ولا تلحق لفظ ترب علامة تأنيث.
والمراد: أنهن أتراب بعضهن لبعض، وأنهن أتراب لأزواجهن لأن التحاب بين الأقران أمكن.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧١/٢٣

والظاهر أن أتراب وصف قائم بجميع نساء الجنة من مخلوقات الجنة ومن النساء اللاتي كن أزواجا في الدنيا لأصحاب الجنة، فلا يكون بعضهن أحسن شبابا من بعض فلا يلحق بعض أهل الجنة غض إذا كانت نساء غيره أجد شبابا، ولئلا تتفاوت نساء الواحد من المتقين في شرخ الشباب، فيكون النعيم بالأقل شبابا دون النعيم بالأجد منهن.

وتقدم الكلام على وعندهم قاصرات الطرف عين في سورة الصافات [٤٨] .

[٥٣]

[سورة ص (٣٨) : آية ٥٣]

هذا ما توعدون ليوم الحساب (٥٣)

استئناف ابتدائي فيجوز أن يكون كلاما قيل للمتقين وقت نزول الآية فهو مؤكد لمضمون جملة وإن للمتقين لحسن مآب [ص: ٤٩] . والإشارة إذن إلى ما سبق ذكره من قوله: لحسن مآب فاسم الإشارة هنا مغاير لاستعماله المتقدم في قوله: هذا ذكر [ص: ٤٩] . وجيء باسم الإشارة القريب تنزيلا للمشار إليه منزلة المشار إليه الحاضر إيماء إلى أنه محقق وقوعه تبشيرا للمتقين. والتعبير بالمضارع في قوله: توعدون على ظاهره.". (١)

٤٤٣. ٤٤٣-"الاستفهام، وحذفت همزة الوصل من فعل (اتخذنا) لأنها لا تثبت مع همزة الاستفهام لعدم صحة الوقف على همزة الاستفهام، فجملة أتخذناهم بدل من جملة ما لنا لا نرى رجالا. وأم حرف إضراب، والتقدير: بل زاغت عنهم أبصارنا.

والزيغ: الميل عن الجهة، أي مالت أبصارنا عن جهتهم فلم تنظرهم.

و (ال) في الأبصار عوض عن المضاف إليه، أي أبصارنا، فيكون المعنى: أكان تحقيرنا إياهم في الدنيا خطأ. وكني عنه باتخاذهم سخريا لأن في فعل أتخذناهم إيماء إلى أنهم ليسوا بأهل للسخرية، وهذا تندم منهم على الاستسخار بهم.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف أتخذناهم بهمزة وصل على أن الجملة صفة رجالا ثانية وعليه تكون أم منقطعة للإضراب عن قولهم أتخذناهم سخريا أي بل زاغت عنهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/٢٣

الأبصار.

والسخري: اسم مصدر سخر منه، إذا استهزأ به، فالسخري الاستهزاء، وهو دال على شدة الاستهزاء لأن ياءه في الأصل ياء نسب وياء النسب تأتي للمبالغة في الوصف.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين. وقرأه الباقون بكسر السين كما تقدم في سورة المؤمنين.

[٦٤]

[سورة ص (٣٨) : آية ٦٤]

إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤)

تذييل وتنهية لوصف حال الطاغين وأتباعهم، وعذابهم، وجدالهم. وتأكيد الخبر بحرف التوكيد منظور فيه لما يلزم الخبر من التعريض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم بأنه حق، أي ثابت كقوله: وإن الدين لواقع [الذاريات: ٦] .". (١)

٤٤٤. ٤٤٤-"والخلق العجيب في أطوار تكون الإنسان والحيوان. والاستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عند ما يصيبهم الضر. والدعوة إلى التدبر فيما يلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول. وتنبيههم على كفرانهم شكر النعمة. والمقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله. وأن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل. والتحذير من أن يحل بالمشركين ما حل بأهل الشرك من الأمم الماضية. وإعلام المشركين بأنهم وشركاءهم لا يعبأ بهم عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم فالله غني عن عبادتهم، ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأن الله كفاه إياهم جميعا. وإثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت.

وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها. وضرب لهم مثله بالنوم والإفاقة بعده وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين. وتمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ودعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم، ودعاء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/٢٣

المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر. وختمت بوصف حال يوم الحساب.

وتخلل ذلك كله وعيد ووعد، وأمثال، وترهيب وترغيب، ووعظ **وإيماء** بقوله: قل هل يستوي الذين يعلمون [الزمر: ٩] الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم وأن المشركين أهل جهالة، وذلك تنويه برفعة العلم ومذمة الجهل.

[١- ٢]

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١ إلى ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم". (١)

٤٤٥. ٤٤٥-"تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (١) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (٢)

فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جعلت مقدمة لهذه السورة لأن القرآن جامع لما حوته وغيره من أصول الدين.

ف تنزيل مصدر مراد به معناه المصدري لا معنى المفعول، كيف وقد أضيف إلى الكتاب وأصل الإضافة أن لا تكون بيانية.

وتنزيل: مصدر نزل المضاعف وهو مشعر بأنه أنزله منجما. واختيار هذه الصيغة هنا للرد على الطاعنين لأنهم من جملة ما تعللوا به قولهم: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] . وقد تقدم الفرق بين المضاعف والمهموز في مثله في المقدمة الأولى.

والتعريف في الكتاب للعهد، وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير وكل مجادلة. وأجرى على اسم الجلالة الوصف ب العزيز الحكيم **للإيماء** إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين، فيكون عزيزا قال تعالى: وإنه لكتاب عزيز [فصلت: ٤١] ، أي القرآن، عزيز غالب بالحجة لمن كذب به، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه، ويكون حكيما مثل صفة منزله.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣١٣

والحكيم: إما بمعنى الحاكم، فالقرآن أيضا حاكم عن معارضيه بالحجة، وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان قال تعالى: مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه [المائدة: ٤٨] .

وإما بمعنى: المحكم المتقن، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ، وإما بمعنى الموصوف بالحكمة، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزله بها. وهذه

معان مرادة من الآية فيما نرى، على أن في هذين الوصفين **إيماء** إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وبإعجازه العلمي، إذا اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها كما بيناه في المقدمة العاشرة.

وفي وصف الحكيم **إيماء** إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة يؤتي الحكمة من يشاء [البقرة: ٢٦٩]. ". (١)

٤٤٦. ٤٤٦-"وهذا **إيماء** إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالشكر بإفراده بالعبادة، **وإيماء** إلى أن إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات:
٥٦] .

فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله مخلصا له الدين، فالمأمور به عبادة خاصة، ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملا في معنى الأمر بالدوام عليها. ولذلك أيضا لم يؤت في هذا التركيب بصيغة قصر خلاف قوله: بل الله فاعبد [الزمر: ٦٦] لأن المقصود هنا زيادة التصريح بالإخلاص والرسول صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يعبد غير الله. وقد توهم ابن الحاجب من عدم تقديم المعمول هنا أن تقديم المفعول في قوله تعالى: بل الله فاعبد في آخر هذه السورة لا يفيد القصر وهي زلة عالم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٣

والإخلاص: الإمحاض وعدم الشوب بمغاير، وهو يشمل الإفراد. وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي إفراد الله بالإلهية. وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد وأخص منه وهو أن تكون عبادة النبيء صلى الله عليه وسلم ربه غير مشوبة بحظ دنيوي كما قال تعالى: قل ما أسئلكم عليه من أجر [ص: ٨٦] .

والدين: المعاملة. والمراد به هنا معاملة المخلوق ربه وهي عبادته. فالمعنى:

مخلصا له العبادة غير خالط بعبادته عبادة غيره. وانتصب مخلصا على الحال من الضمير المستتر في فاعبد.

ولما أفاد قوله: مخلصا له الدين معنى إفراده بالعبادة لم يكن هنا مقتض لتقديم مفعول فاعبد الله على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله: مخلصا له الدين، وبذلك يبطل استناد الشيخ ابن الحاجب لهذه الآية في توجيه رأيه بأنكار إفادة تقديم المفعول على فعله التخصيص، وتضعيفه لاستدلال أيمة المعاني بقوله تعالى: بل الله فاعبد آخر السورة [٦٦] بأنه تقديم لمجرد". (١)

٤٤٧. ٤٤٧-"إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار.

يجوز أن يكون خبرا ثانيا عن قوله: والذين اتخذوا من دونه أولياء وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله وعن كونهم كفارين بسبب ذلك، وكناية عن كونهم ضالين.

ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا لأن قوله: إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون يثير في نفوس السامعين سؤالا عن مصير حالهم في الدنيا من جراء اتخاذهم أولياء من دونه، فيجاب بأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، أي يذرهم في ضلالهم ويمهلهم إلى يوم الجزاء بعد أن بين لهم الدين فخالفوه.

والمراد ب من هو كاذب كفار الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي المشركين، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم، وعدل عنه إلى الإضمار لما في الصلة من وصفهم بالكذب وقوة الكفر.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٦/٢٣

وهداية الله المنفية عنهم هي: أن يتداركهم الله بلطفه بخلق الهداية في نفوسهم، فالهداية المنفية هي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ وهو ظاهر، فالمراد نفي عناية الله بهم، أي العناية التي بها تيسير الهداية عليهم حتى يهتدوا، أي لا يوفقهم الله بل يتركهم على رأيهم غضبا عليهم. والتعبير عنهم بطريق الموصولية لما في الموصول من الصلاحية لإفادة **الإيماء** إلى علة الفعل ليفيد أن سبب حرمانهم التوفيق هو كذبهم وشدة كفرهم.

فإن الله إذا أرسل رسوله إلى الناس فبلغهم كانوا عند ما يبلغهم الرسول رسالة ربه بمستوى متحد عند الله بما هم عبيد مربوبون ثم يكونون أصنافا في تلقيهم الدعوة فمنهم طالب هداية بقبول ما فهمه ويسأل عما جهله، ويتدبر وينظر ويسأل، فهذا بمحل الرضى من ربه فهو يعينه ويشرح صدره للخير حتى يشرق باطنه بنور الإيمان كما قال تعالى: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا [الأنعام: ١٢٥] وقال:

ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم [الحجرات: ٧، ٨] .". (١)

٤٤٨. ٤٤٨-"وفي استحضارهم بالموصول وصلته **إيماء** إلى أن تقرر إيمانهم مما يقتضي التقوى والامتثال للمهاجرة. وجملة للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وما عطف عليها استئناف بياني لأن إيراد الأمر بالتقوى للمتصفين بها يثير سؤال سائل عن المقصود من ذلك الأمر فأريد بيانه بقوله: أرض الله واسعة، ولكن جعل قوله للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة تمهيدا له لقصد تعجيل التكفل لهم بموافقة الحسنى في هجرتهم.

ويجوز أن تكون جملة للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة مسوقة مساق التعليل للأمر بالتقوى الواقع بعدها.

والمراد بالذين أحسنوا: الذين اتقوا الله وهم المؤمنون الموصوفون بما تقدم من قوله: أمن هو قانت [الزمر: ٩] الآية، لأن تلك الخصال تدل على الإحسان المفسر

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٢٣

بقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

، فعدل عن التعبير بضمير

الخطاب بأن يقال: لكم في الدنيا حسنة، إلى الإتيان باسم الموصول الظاهر وهو الذين أحسنوا ليشمل المخاطبين وغيرهم ممن ثبتت له هذه الصلة. وذلك في معنى: اتقوا ربكم لتكونوا محسنين فإن للذين أحسنوا حسنة عظيمة فكونوا منهم. وتقديم المسند في للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة للاهتمام بالمحسن إليهم وأنهم أحرياء بالإحسان.

والمراد بالحسنة الحالة الحسنة، واستغني بالوصف عن الموصوف على حد قوله:

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [البقرة: ٢٠١] . وقوله في عكسه وجزاء سيئة سيئة مثلها [الشورى: ٤٠] . وتوسيط قوله: في هذه الدنيا بين للذين أحسنوا وبين حسنة نظم مما اختص به القرآن في مواقع الكلم لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم، وهذا من طرق إعجاز القرآن. فيجوز أن يكون قوله: في هذه الدنيا حالا من حسنة قدم على صاحب الحال للتنبيه من أول الكلام على أنها جزاؤهم في الدنيا، لقلة خطور ذلك في بالهم ضمن الله لهم تعجيل الجزاء الحسن في الدنيا قبل ثواب الآخرة على". (١)

٤٤٩. ٤٤٩-"والمعنى: أن الله وعدهم أن يلاقوا حسنة إذا هم هاجروا من ديار الشرك.

وليس حسن العيش ولا ضده مقصورا على مكان معين وقد وقع التصريح بما كني عنه هنا في قوله تعالى: قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها [النساء: ٩٧] .

والمراد: الإيماء إلى الهجرة إلى الحبشة. قال ابن عباس في قوله تعالى: قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة.

ونكتة الكناية هنا إلقاء الإشارة إليهم بلطف وتأنيس دون صريح الأمر لما في مفارقة الأوطان من الغم على النفس، وأما الآية التي في سورة النساء فإنها حكاية توبيخ الملائكة لمن لم يهاجروا.

وموقع جملة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب موقع التذييل لجملة للذين أحسنوا وما عطف عليها لأن مفارقة الوطن والتغرب والسفر مشاق لا يستطيعها إلا صابر، فذيل الأمر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٣/٢٣

به بتعظيم أجر الصابرين ليكون إعلاما للمخاطبين بأن أجرهم على ذلك عظيم لأنهم حينئذ من الصابرين الذين أجرهم بغير حساب.

والصبر: سكون النفس عند حلول الآلام والمصائب بأن لا تضجر ولا تضطرب لذلك، وتقدم عند قوله تعالى: وبشر الصابرين في سورة البقرة [١٥٥] . وصيغة العموم في قوله: الصابرين تشمل كل من صبر على مشقة في القيام بواجبات الدين وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ومراتب هذا الصبر متفاوتة وبقدرها يتفاوت الأجر.

والتوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي تاما. والأجر: الثواب في الآخرة كما هو مصطلح القرآن. وقوله: بغير حساب كناية عن الوفرة والتعظيم لأن الشيء الكثير لا يتصدى لعده، والشيء العظيم لا يحاط بمقداره فإن الإحاطة بالمقدار ضرب من الحساب وذلك

شأن ثواب الآخرة الذي لا يخطر على قلب بشر.". (١)

٤٥٠. ٤٥٠-"اللذين وجه الخطاب السابق إليهما، وتعيين كل لما وجه إليه منطو بقرينة السياق وقرينة ما بعده من قوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه [الزمر: ١٥] .

وإعادة الأمر بالقول على هذا للتأكيد اهتماما بهذا المقول، وأما على الوجه الثاني من الوجهين المتقدمين في المراد من توجيه المطلب في قوله: إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين [الزمر: ١١] الآية فتكون إعادة فعل قل لأجل اختلاف المقصودين بتوجيه القول إليهم، وقد تقدم قول مقاتل: قال كفار قريش للنبيء: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى.

[١٤- ١٥]

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١٤ إلى ١٥]

قل الله أعبد مخلصا له ديني (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين (١٥)

قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه (١٤) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٥/٢٣

أمر بأن يعيد التصريح بأنه يعبد الله وحده تأكيدا لقوله: قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين [الزمر: ١١] ، لأهميته، وإن كان مفاد الجملتين واحدا لأنهما معا تفيدان أنه لا يعبد إلا الله تعالى باعتبار تقييد أعبد الله الأول بقيد مخلصا له الدين وباعتبار تقديم المفعول على أعبد الثاني فتأكد معنى التوحيد مرتين ليتقرر ثلاث مرات، وتمهيدا لقوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه وهو المقصود.

والفاء في قوله: فاعبدوا إلخ لتفريع الكلام الذي بعدها على الكلام قبلها فهو تفريع ذكري.

والأمر في قوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه مستعمل في معنى التخلية، ويعبر عنه بالتسوية.

والمقصود التسوية في ذلك عند المتكلم فتكون التسوية كناية عن قلة

الاكتراث بفعل المخاطب، أي أن ذلك لا يضربني كقوله في سورة الكهف [٢٩] : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، أي اعبدوا أي شيء شئتم عبادته من دون الله. وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة **إيماء** إلى أن رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل.". (١)

٤٥١. ٤٥١-"والجملة معطوفة على جملة قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم [غافر: ١٥] الآية.

والتعبير عن المؤمنين ب- الذين اجتنبوا الطاغوت لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو لهم البشرى، وهذا مقابل قوله: ذلك يخوف الله به عباده [الزمر: ١٦] .

والطاغوت: مصدر أو اسم مصدر طغا على وزن فعلوت بتحريك العين بوزن رحموت وملوكت. وفي أصله لغتان الواو والياء لقولهم: طغا طغوا مثل علو، وقولهم: طغوان وطغيان.

وظاهر «القاموس» أنه واوي، وإذ كانت لامه حرف علة ووقعت بعدها واو زنة فعلوت استثقلت الضمة عليها فقدموها على العين ليتأتى قلبها ألفا حيث تحركت وانفتح ما قبلها فصار طاغوت بوزن فلعوت بتحريك اللام وتاؤه زائدة للمبالغة في المصدر.

ومن العلماء من جعل الطاغوت اسما أعجميا على وزن فاعول مثل جالوت وطالوت وهارون،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٩/٢٣

وذكره في «الإتقان» فيما وقع في القرآن من المعرب وقال: إنه الكاهن بالحبشية. واستدركه ابن حجر فيما زاده على أبيات ابن السبكي في الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن، وقد تقدم ذكره بأخصر مما هنا عند قوله تعالى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت في سورة النساء [٥١] .

وأطلق الطاغوت في القرآن والسنة على القوي في الكفر أو الظلم، فأطلق على الصنم، وعلى جماعة الأصنام، وعلى رئيس أهل الكفر مثل كعب بن الأشرف. وأما جمعه على طواغيت فذلك على تغليب الإسمية علما بالغلبة إذ جعل الطاغوت لواحد الأصنام وهو قليل، وهو هنا مراد به جماعة الأصنام وقد أجري عليه ضمير المؤنث في قوله: أن يعبدوها باعتبار أنه جمع لغير العاقل، وأجري عليه ضمير جماعة الذكور في قوله تعالى: والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات في سورة البقرة [٢٥٧] باعتبار أنه وقع خبرا عن الأولياء وهو جمع مذكر، وباعتبار تنزيلها منزلة العقلاء في زعم عبادها. وأن يعبدوها بدل من الطاغوت بدل اشتمال.". (١)

٤٥٢. ٤٥٢-"مستعملا في تفاوت الموصوف به في الفضل على غيره فهو للدلالة على قوة الوصف، مثل قوله تعالى: قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه [يوسف: ٣٣] . أثنى الله عليهم بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام نظار في الأدلة الحقيقية نقاد للأدلة السفسطائية. وفي الموصول إيماء إلى أن اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله إياهم.

وجملة أولئك الذين هداهم الله مستأنفة لاسترعاء الذهن لتلقي هذا الخبر. وأكد هذا الاسترعاء بجعل المسند إليه اسم إشارة ليتميز المشار إليهم. أكمل تميزه مع التنبيه على أنهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله واستماعهم كلام الله واتباعهم إياه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل.

والإتيان باسم الإشارة عقب ذكر أوصاف أو أخبار طريقة عربية في الاهتمام بالحكم والمحكوم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٦٤

عليه فتارة يشار إلى المحكوم عليه كما هنا وتارة يشار إلى الخبر كما في قوله:
هذا وإن للطاغين لشر مآب في سورة [ص: ٥٥] .
وقد أفاد تعريف الجزأين في قوله: أولئك الذين هداهم الله قصر الهداية عليهم وهو قصر صفة على موصوف وهو قصر إضافي قصر تعيين، أي دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.
ومعنى هداهم الله أنهم نالوا هذه الفضيلة بأن خلق الله نفوسهم قابلة للهدى الذي يخاطبهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فتهيأت نفوسهم لذلك وأقبلوا على سماع الهدى بشراشرهم وسعوا إلى ما يبلغهم إلى رضاه وطلبوا النجاة من غضبه. وليس المراد بهدي الله إياهم أنه وجه إليهم أوامر إرشاده لأن ذلك حاصل للذين خوطبوا بالقرآن فأعرضوا عنه ولم يتطلبوا البحث عما يرضي الله تعالى فأصروا على الكفر.". (١)

٤٥٣. ٤٥٣-"يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش
وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها» .
[٢٠]

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٠]
لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد (٢٠)
أعيدت بشارة الذين اجتنبوا الطاغوت تفصيلا للإجمال الواقع من قبل. وافتتح الإخبار عنهم بحرف الاستدراك لزيادة تقرير الفارق بين حال المؤمنين وحال المشركين والمضادة بينهما، فحرف الاستدراك هنا لمجرد الإشعار بتضاد الحالين ليعلم السامع أنه سيتلقى حكما مخالفا لما سبق كما تقدم في قوله تعالى: ولكن انظر إلى الجبل في سورة الأعراف [١٤٣] ، وقوله:

---
(١) التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٣

ولكن كره الله انبعاثهم في سورة براءة [٤٦] ، فحصل في قضية الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت تقرير على تقرير ابتدئ بالإشارتين في قوله: أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب [الزمر: ١٨] ثم بما أعقب من تفريع حال أضدادهم على ذكر أحوالهم ثم بالاستدراك الفارق بين حالهم وحال أضدادهم.

والمراد بالذين اتقوا ربهم: هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله واتبعوا أحسن القول واهتدوا بهدي الله وكانوا أولي الألباب، فعدل عن الإتيان بضميرهم هنا إلى الموصول لقصد مدحهم بمدلول الصلة **وللإيماء** إلى أن الصلة سبب للحكم المحكوم به على الموصول وهو نوالهم الغرف. وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف الرب المضاف إلى ضمير المتقين لما في تلك الإضافة من تشريفهم برضى ربهم عنهم.

واللام في لهم للاختصاص. والمعنى: أنها لهم في الجنة، أي أعدت لهم في الجنة.

والغرف: جمع غرفة بضم الغين وسكون الراء، وهي البيت المرتكز على بيت آخر، ويقال لها العلية (بضم العين وكسرها وبكسر اللام مشددة والتحتية كذلك)". (١)

٤٥٤. ٤٥٤-"الفاعل في اقتضائه الاتصاف بالوصف في زمن الحال فيكون **إيماء** إلى أن الجنة مخلوقة من الآن.

ويجوز عندي أن يكون الوصف احترازا عن نوع من الغرف تكون نحتا في الحجر في الجبال مثل غرف ثمود، ومثل ما يسميه أهل الجنوب التونسي غرفا، وهي بيوت منقورة في جبال (مدنين) و (مطماطة) و (تطاوين) وانظر هل تسمى تلك البيوت غرفا في العربية فإن كتب اللغة لم تصف مسمى الغرفة وصفا شافيا. ويجوز أن يكون مبنية وصفا للغرف باعتبار ما دل عليه لفظها من معنى المبني المعتلي فيكون الوصف دالا على تمكن المعنى الموصوف، أي مبنية بناء بالغا الغاية في نوعه كقولهم: ليل أليل، وظل ظليل.

وجري الأنهار من تحتها من كمال حسن منظرها للمطل منها. ومعنى من تحتها أن الأنهار تمر على ما يجاور تحتها، كما تقدم في قوله تعالى: جنات تجري من تحتها الأنهار في آل

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٣/٢٣

عمران [١٥] ، فأطلق اسم «تحت» على مجاوره.
ويجوز أن يكون المعنى: تجري من تحت أسسها الأنهار، أي تخترق أسسها وتمر فيها وفي ساحاتها، وذلك من أحسن ما يرى في الديار كديار دمشق وقصر الحمراء بالأندلس وديار أهل الترف في مدينة فاس فيكون إطلاق «تحت» حقيقة.
والمعنى: أن كل غرفة منها يجري تحتها نهر فهو من مقابلة الجمع ليقسم على الآحاد، وذلك بأن يصعد الماء إلى كل غرفة فيجري تحتها.
ووعد الله مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لنفسه لأن قوله: لهم غرف في معنى: وعدهم الله غرفا وعدا منه. ويجوز انتصابه على الحال من غرف على حد قوله: وعدا علينا، وإضافة وعد إلى اسم الجلالة مؤذنة بأنه وعد موفى به فوقعت جملة لا يخلف الله الميعاد بيانا لمعنى وعد الله.
والميعاد: مصدر ميمي بمعنى الوعد.". (١)

٤٥٥. ٤٥٥-"الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية بدليل من مخلوقاته التي يشاهدها الناس مشاهدة متكررة، فيكون قوله تعالى: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء إلى قوله: إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب (١) متصلا بقوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها [الزمر: ٦] المتصل بقوله تعالى: خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار [الزمر: ٥] ، ويكون ما بيناه من تمثيل حال نزول القرآن وانتفاع المؤمنين إدماجا في هذا الاستدلال. وعلى كلا الوجهين أدمج في أثناء الكلام **إيماء** إلى إمكان إحياء الناس حياة ثانية.
والكلام استفهام تقريري، والخطاب لكل من يصلح للخطاب فليس المراد به مخاطبا معينا.
والرؤية بصرية.
وقوله: أنزل من السماء ماء تقدم نظيره في قوله: وهو الذي أنزل من السماء ماء في سورة الأنعام [٩٩] .
وفسلكه أدخله، أي جعله سالكا، أي داخلا، ففعل سلك هنا متعد وقد تقدم عند قوله

(١) التحرير والتنوير ٣٧٥/٢٣

تعالى: وسلك لكم فيها سبلا في سورة طه [٥٣] ، وذكرنا هنالك أن فعل سلك يكون قاصرا ومتعديا، وهذا الإدخال دليل ثان.

وينابيع جمع ينبوع وهو العين من الماء، تقدم في قوله تعالى: حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا في سورة الإسراء [٩٠] . وانتصب ينابيع على الحال من ضمير ماء. وتصيير الماء الداخل في الأرض ينابيع دليل ثالث على عظيم قدرة الله.

وعطف ب ثم قوله: ثم يخرج به زرعا لإفادة التراخي الرتبي بحرف ثم كشأنها في عطف الجمل لأن إخراج الزرع من الأرض بعد إقحالها أوقع في نفوس الناس لأنه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم وإذ هو المقصود من المطر. وهذا الإخراج دليل رابع.

والألوان: جمع لون، واللون: كيفية لائحة على ظاهر الجسم في الضوء، وتقدم في سورة فاطر

---

(١) في المطبوعة إنما يتذكر أولوا الألباب.". (١)

٤٥٦. ٤٥٦-"مقام الإضمار **للإيماء** إلى أن ما يلاقونه من العذاب مسبب على ظلمهم، أي شركهم.

والمعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب فلا يجد وقاية تنجيه من ذوق العذاب فيقال لهم: ذوقوا العذاب.

ويجوز أن يكون المراد بالظالمين جميع الذين أشركوا بالله من الأمم غير خاص بالمشركين المتحدث عنهم، فيكون الظالمين إظهارا على أصله لقصد التعميم، فتكون الجملة في معنى التذييل، أي ويقال لهؤلاء وأشباههم، ويظهر بذلك وجه تعقيبه بقوله تعالى: كذب الذين من قبلهم [الزمر: ٢٥] .

وجاء فعل وقيل بصيغة المضي وهو واقع في المستقبل لأنه لتحقق وقوعه نزل منزلة فعل مضى. ويجوز أن يكون جملة وقيل للظالمين في موضع الحال بتقدير (قد) ولذلك لا يحتاج إلى تأويل صيغة المضي على معنى الأمر المحقق وقوعه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٧٧

والذوق: مستعار لإحساس ظاهر الجسد لأن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجلد فوجه الشبه قوة الجنس.
والمذوق: هو العذاب فهو جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه، فجعل المذوق نفس ما كانوا يكسبون مبالغة مشيرة إلى أن الجزاء وفق أعمالهم وأن الله عادل في تعذيبهم.
وأوثر تكسبون على (تعملون) لأن خطابهم كان في حال اتقائهم سوء العذاب ولا يخلو حال المعذب من التبرم الذي هو كالإنكار على معذبه. فجيء بالصلة الدالة على أن ما ذاقوه جزاء ما اكتسبوه قطعا لتبرمهم.". (١)

٤٥٧. ٤٥٧-"[٣٢]

بسم الله الرحمن الرحيم
(سورة الزمر) \

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٣٢]
فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين (٣٢)
أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها تفريع القضاء عن الخصومة التي في قوله:
ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون [الزمر: ٣١] إذ قد علمت أن الاختصام كني به عن الحكم بينهم فيما خالفوا فيه وأنكروه، والمعنى: يقضي بينكم يوم القيامة فيكون القضاء على من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه إذ هو الذي لا أظلم منه، أي فيكون القضاء على المشركين إذ كذبوا على الله بنسبة الشركاء إليه والبنات، وكذبوا بالصدق وهو القرآن، وما صدق ممن كذب على الله الفريق الذين في قوله: وإنهم ميتون [الزمر: ٣٠] وهم المعنيون في قوله تعالى: وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون [الزمر: ٢٤] .
وقد كني عن كونهم مدينين بتحقيق أنهم أظلم لأن من العدل أن لا يقر الظالم على ظلمه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩٤/٢٣

فإذا وصف الخصم بأنه ظالم علم أنه محكوم عليه كما قال تعالى حكاية عن داود:
قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه [ص: ٢٤] . وقد عدل عن صوغ الحكم عليهم بصيغة الإخبار إلى صوغه في صورة الاستفهام **للإيماء** إلى أن السامع لا يسعه إلا الجواب بأنهم أظلم.
فالاستفهام مستعمل مجازا مرسلا أو كناية مراد به أنهم أظلم الظالمين وأنه لا ظالم أظلم منهم، فآل معناه إلى نفي أن يكون فريق أظلم منهم فإنهم أتوا أصنافا من". (١)

٤٥٨. ٤٥٨-"الظلم العظيم: ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته إذ زعموا أن له شركاء في الربوبية، والكذب عليه بادعاء أنه أمرهم بما هم عليه من الباطل، وظلم الرسول صلى الله عليه وسلم بتكذيبه، وظلم القرآن بنسبته إلى الباطل، وظلم المؤمنين بالأذى، وظلم حقائق العالم بقلبها وإفسادها، وظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد.
وعدل عن الإتيان بضميرهم إلى الإتيان بالموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه كونهم أظلم الناس. وإنما اقتصر في التعليل على أنهم كذبوا على الله وكذبوا بالصدق لأن هذين الكذبين هما جماع ما أتوا به من الظلم المذكور آنفا.
والصدق: ضد الكذب. والمراد بالصدق القرآن الذي جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم، ومجيء الصدق إليهم: بلوغه إياهم، أي سماعهم إياه وفهمهم فإنه بلسانهم وجاء بأفصح بيان بحيث لا يعرض عنه إلا مكابر مؤثر حظوظ الشهوة والباطل على حظوظ الإنصاف والنجاة.
وفي الجمع بين كلمة (الصدق) وفعل كذب محسن الطباق.
وإذ جاءه متعلق ب كذب، وإذ ظرف زمن ماض وهو مشعر بالمقارنة بين الزمن الذي تدل عليه الجملة المضاف إليها، وحصول متعلقه، فقوله: إذ جاءه يدل
على أنه كذب بالحق بمجرد بلوغه إياه بدون مهلة، أي بادر بالتكذيب بالحق عند بلوغه إياه من غير وقفة لإعمال رؤية ولا اهتمام بميز بين حق وباطل.
وجملة أليس في جهنم مثوى للكافرين مبينة لمضمون جملة فمن أظلم ممن كذب على الله أي

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٤

أن ظلمهم أوجب أن يكون مثواهم في جهنم.

والاستفهام تقريري، وإنما وجه الاستفهام إلى نفي ما المقصود التقرير به جريا". (١)

٤٥٩. ٤٥٩-"ووعد الإيجاب، يقال: لك عندي كذا أي ألتزم لك بكذا، ثم يجوز أن الله يلهمهم أن يشاءوا ما لا يتجاوز قدر ما عين الله من الدرجات في الجنة فإن أهل الجنة متفاوتون في الدرجات.

وفي الحديث: «إن الله يقول لأحدهم: تمنه، فلا يزال يتمنى حتى تنقطع به الأماني فيقول الله لك ذلك وعشرة أمثاله معه»

. ويجوز أن ما يشاؤن مما يقع تحت أنظارهم في قصورهم ويحجب الله عنهم ما فوق ذلك بحيث لا يسألون إلا ما هو من عطاء أمثالهم وهو عظيم ويقلع الله من نفوسهم ما ليس من حظوظهم. ويجوز أن ما يشاؤن كناية عن سعة ما يعطونه كما

ورد في الحديث «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وهذا كما يقول من أسديت إليه بعمل عظيم:

لك علي حكمك، أو لك عندي ما تسأل، وأنت تريد ما هو غاية الإحسان لأمثاله.

وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف ربهم في قوله: عند ربهم **إيماء** إلى أنه

يعطيهم عطاء الربوبية والإيثار بالخير.

ثم نوه بهذا الوعد بقوله: ذلك جزاء المحسنين والمشار إليه هو ما يشاءون لما تضمنه من أنه جزاء لهم على التصديق. وأشير إليه باسم الإشارة لتضمنه تعظيما لشأن المشار إليه. والمراد بالمحسنين أولئك الموصوفون بأنهم المتقون، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم فيقال: ذلك جزاؤهم، فوقع الإظهار في مقام الإضمار لإفادة الثناء عليهم بأنهم محسنون.

والإحسان: هو كمال التقوى لأنه

فسره النبيء صلى الله عليه وسلم بأنه: «أن تعبد الله كأنك تراه»

وأي إحسان وأي تقوى أعظم من نبذهم ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٦

تصديقا للذي جاء بالصدق وإيثارا لرضى الله على شهوة النفس ورضى العشيرة.". (١)

٤٦٠. ٤٦٠-"إذا ذكر النبيء صلى الله عليه وسلم أن الله واحد أو ذكر المسلمون كلمة لا إله إلا الله اشمأزت قلوب المشركين من ذلك. وكذلك إذا ذكر الله بأنه إله الناس ولم يذكر مع ذكره أن أصنامهم شركاء لله اشمأزت قلوبهم من الاقتصار على ذكر الله فلا يرضون بالسكوت عن وصف أصنامهم بالإلهية وذلك مؤذن بأنهم يسوونها بالله تعالى.

فقوله: وحده لك أن تجعله حالا من اسم الجلالة ومعناه منفردا. ويقدر في قوله: ذكر الله معنى: ذكر بوصف الإلهية ويكون معنى ذكر الله وحده ذكر تفرده بالإلهية. وهذا جار على قول يونس بن حبيب في وحده. ولك أن تجعله مصدرا وهو قول الخليل بن أحمد، أي هو مفعول مطلق لفعل ذكر لبيان نوعه، أي ذكرا وحدا، أي لم يذكر مع اسم الله أسماء أصنامهم. وإضافة المصدر إلى ضمير الجلالة لاشتهار المضاف إليه بهذا الوحد. وهذا الذكر هو الذي يجري في دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم وفي الصلوات وتلاوة القرآن وفي مجامع المسلمين.

ومعنى إذا ذكر الذين من دونه إذا ذكرت أصنامهم بوصف الإلهية وذلك حين يسمعون أقوال جماعة المشركين في أحاديثهم وإيمانهم باللات والعزى، أي ولم يذكر اسم الله معها فاستبشارهم بالاقتصار على ذكر أصنامهم مؤذن بأنهم يرجحون جانب الأصنام على جانب الله تعالى. والذكر: هو النطق بالاسم. والمراد إذا ذكر المسلمون اسم الله اشمأز المشركون لأنهم لم يسمعوا ذكر آلهتهم وإذا ذكر المشركون أسماء أصنامهم استبشر الذين يسمعونهم من قومهم.

والتعبير عن آلهتهم ب الذين من دونه

دون لفظ:

شركائهم أو شفعائهم، للإيماء إلى أن علة استبشارهم بذلك الذكر هو أنه ذكر من هم دون الله، أي ذكر مناسب لهذه الصلة، أي هو ذكر خال عن اسم الله، فالمعنى: وإذا ذكر شركاؤهم دون ذكر الله إذا هم يستبشرون.

والاقتصار على التعرض لهذين الذكرين لأنهما أظهر في سوء نوايا المشركين نحو الله تعالى، وفي بطلان اعتذارهم بأنهم ما يعبدون الأصنام إلا ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، فأما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٩

الذكر الذي يذكر فيه اسم الله وأسماء آلهتهم كقولهم في". (١)

٤٦١. ٤٦١-"القول تنفيسا عنه من كدر الأسى على قومه، وإعذارا لهم بالنذارة، وإشعارا لهم بأن الحق في جانبهم مضاع، وأن الأجدر بالرسول صلى الله عليه وسلم متاركتهم وأن يفوض الحكم في خلافهم إلى الله. وفي هذا التفويض إشارة إلى أن الذي فوض أمره إلى الله هو الواثق بحقية دينه المطمئن بأن التحكيم يظهر حقه وباطل خصمه.

وابتدئ خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه بالنداء لأن المقام مقام توجيه وتحاكم.

وإجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلهم لحكمه وشمول علمه لدخائلهم من محق ومبطل.

والفاطر: الخالق، وفاطر السماوات والأرض فاطر لما تحتوي عليه. ووصف فاطر السماوات والأرض مشعر بصفة القدرة، وتقديمه قبل وصف العلم لأن شعور الناس بقدرته سابق على شعورهم بعلمه، ولأن القدرة أشد مناسبة لطلب الحكم لأن الحكم إلزام وقهر فهو من آثار القدرة مباشرة.

والغيب: ما خفي وغاب عن علم الناس، والشهادة: ما يعلمه الناس مما يدخل تحت الإحساس الذي هو أصل العلوم.

والعدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر في قوله: بين عبادك دون أن يقول:

بيننا، لما في عبادك من العموم لأنه جمع مضاف فيشمل الحكم بينهم في قضيتهم هذه والحكم بين كل مختلفين لأن التعميم أنسب بالدعاء والمباهلة.

وجملة أنت تحكم بين عبادك خبر مستعمل في الدعاء. والمعنى: احكم بيننا.

وفي تلقين هذا الدعاء للنبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أنه الفاعل الحق. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: أنت تحكم لإفادة الاختصاص، أي أنت لا غيرك. وإذ لم يكن في الفريقين من يعتقد أن غير الله يحكم بين الناس في مثل هذا الاختلاف فيكون الرد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٩

عليه بمفاد القصر، تعين أن القصر مستعمل كناية تلويحية". (١)

٤٦٢. ٤٦٢-"وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة. فقلنا:
الموعد أضاة بني غفار، وقلنا: من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحباه. فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام وإذا هو قد فتن فافتتن فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة. وكانوا هم يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله: قل يا عبادي الذين أسرفوا إلى قوله: مثوى للمتكبرين [الزمر: ٦٠] قال عمر فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى فقلت: اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم» اهـ. فقول عمر: «فأنزل الله» يريد أنه سمعه بعد أن هاجر وأنه مما نزل بمكة فلم يسمعه عمر إذ كان في شاغل تهيئة الهجرة فما سمعها إلا وهو بالمدينة فإن عمر هاجر إلى المدينة قبل النبيء صلى الله عليه وسلم.
فالخطاب بقوله: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم تمهيد بإجمال يأتي بيانه في الآيات بعده من قوله: وأنيبوا إلى ربكم [الزمر: ٥٤] . وبعد هذا فعموم «عبادي» وعموم صلة الذين أسرفوا يشمل أهل المعاصي من المسلمين وإن كان المقصود الأصلي من الخطاب المشركين على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعها.
وقرأ الجمهور يا عبادي الذين أسرفوا بفتح ياء المتكلم، وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب بإسكان الياء. ولعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها وهو قوله تعالى: قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم [الزمر: ١٠] ، أن الخطاب هنا للذين أسرفوا وفي مقدمتهم المشركون وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات (يا) المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلم تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماء إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده.
والإسراف: الإكثار. والمراد به هنا الإسراف في الذنوب والمعاصي، وتقدم ذكر الإسراف في قوله تعالى: ولا تأكلوها إسرافا في سورة النساء [٦] وقوله: فلا يسرف في القتل في سورة

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٣١

الإسراء [٣٣] . والأكثر أن يعدى إلى متعلقه بحرف من، وتعديته هنا ب- (على) لأن".
(١)

٤٦٣. ٤٦٣-"السامع يسأل عن سبب اسوداد الوجوه فيجاب بأن في جهنم مثواهم يعني لأن السواد يناسب ما سيلفح وجوههم من مس النار فأجيب بطريقة الاستفهام التقريري بتنزيل السائل المقدر منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم، لمصيرهم إلى النار، فإن للدخائل عناوينها، وهذا الاستفهام كما في قوله تعالى:
ليقولوا أهؤلاء من
الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين
[الأنعام: ٥٣] ، وكقول أبي مسعود الأنصاري للمغيرة بن شعبة حين كان أمير الكوفة وقد أخر الصلاة يوما «ما هذا يا مغيرة أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم» . وكقول الحجاج في خطبته في أهل الكوفة «ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر» إلخ.
والتكبر: شدة الكبر، ومن أوصاف الله تعالى المتكبر، والكبر: إظهار المرء التعاظم على غيره لأنه يعد نفسه عظيما. وتعريف المتكبرين هنا للاستغراق، وأصحاب التكبر مراتب أقواها الشرك، قال تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [غافر: ٦٠] وهو المعني
بقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان» أخرجه مسلم عن ابن مسعود ، ألا ترى أنه قابله بالإيمان، ودونه مراتب كثيرة متفاوتة في قوة حقيقة ماهية التكبر، وكلها مذمومة. وما يدور على الألسن: أن الكبر على أهل الكبر عبادة، فليس بصحيح.
وفي وصفهم بالمتكبرين إيماء إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبا لكبريائهم لأن المتكبر إذا كان سيىء الوجه انكسرت كبرياؤه لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه.

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٤

[٦١]

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٦١]

وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون (٦١)

عطف على جملة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة [الزمر: ٦٠] إلى". (١)

٤٦٤. ٤٦٤-"فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

وانتصب جميعا هنا على الحال من الأرض وتقدم نظيره آنفا في قوله: قل لله الشفاعة جميعا [الزمر: ٤٤] .

والقبضة بفتح القاف المرة من القبض، وتقدم في قوله: فقبضت قبضة من أثر الرسول في سورة طه [٩٦] .

والإخبار عن الأرض بهذا المصدر الذي هو بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق للمبالغة في الاتصاف بالمعنى المصدري وإنما صيغ لها وزن المرة تحقيرا لها في جانب عظمة ملك الله تعالى، وإنما لم يجأ بها مضمومة القاف بمعنى الشيء المقبوض لئلا تفوت المبالغة في الاتصاف ولا الدلالة على التحقير فالقبضة مستعارة للتناول استعارة تصريحية، والقبضة تدل على تمام التمكن من المقبوض وأن المقبوض لا تصرف له ولا تحرك.

وهذا إيماء إلى تعطيل حركة الأرض وانقماع مظاهرها إذ تصبح في عالم الآخرة شيئا موجودا لا عمل له وذلك بزوال نظام الجاذبية وانقراض أسباب الحياة التي كانت تمد الموجودات الحية على سطح الأرض من حيوان ونبات.

وطي السماوات: استعارة مكنية لتشويش تنسيقها واختلال أبعاد أجرامها، فإن الطي رد ولف بعض شقق الثوب أو الورق على بعض بعد أن كانت مبسوطة منتشرة على نسق مناسب للمقصود من نشره فإذا انتهى المقصود طوي المنشور، قال تعالى: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده [الأنبياء: ١٠٤] . وإثبات الطي تخييل.

والباء في بيمينه للآلة والسببية. واليمين: وصف لليد ولا يد هنا وإنما هي كناية عن القدرة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٥١

لأن العمل يكون باليد اليمين قال الشاعر أنشده الفراء والمبرد، قال القرطبي:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها ... تناولت منها حاجتي بيمين". (١)

٤٦٥. ٤٦٥-"[سورة الزمر (٣٩) : آية ٧٥]

وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)

وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم.

عطف على ما قبله من ذكر أحوال يوم القيامة التي عطف بعضها على بعض ابتداء من قوله تعالى: ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض [الزمر: ٦٨] إن من جملة تلك الأحوال حف الملائكة حول العرش.

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم فيكون إيذانا بأنها رؤية دنو من العرش وملائكته، وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش.

والحف: الإحداق بالشيء والكون بجوانبه.

وجملة يسبحون بحمد ربهم حال، أي يقولون أقوالا تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة لحمدهم إياه. فالباء في بحمد ربهم للملابسة تتعلق ب يسبحون.

وفي استحضار الله تعالى بوصف ربهم **إيماء** إلى أن قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق.

وقضي بينهم بالحق.

تأكيد لجملة وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون [الزمر: ٦٩] المتقدمة.

وقيل الحمد لله رب العالمين.

يجوز أن يكون توكيدا لجملة وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده [الزمر: ٧٤] .

ويجوز أن يكون حكاية قول آخر لقائلين من الملائكة والرسل وأهل الجنة، فهو أعم من القول المتقدم الذي هو قول المسوقين إلى الجنة من المتقين، فهذا قولهم يحمدون الله على

(١) التحرير والتنوير ٦٢/٢٤

عدل قضائه وجميع صفات كماله.". (١)

٤٦٦. ٤٦٦-"الأخذ لأن ذلك الأخذ كان تحقيقا لكلمات الله، أي تصديقا لما أخبرهم به من الوعيد، فالمراد ب الذين كفروا جميع الكافرين، فالكلام تعميم بعد تخصيص فهو تذييل لأن المراد بالأحزاب الأمم المعهودة التي ذكرت قصصها فيكون الذين كفروا أعم.
وبذلك يكون التشبيه في قوله:
وكذلك حقت كلمات ربك جاريا على أصل التشبيه من المغايرة بين المشبه والمشبه به، وليس هو من قبيل قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] ونظائره.
ويجوز أن يكون المراد ب الذين كفروا عين المراد بقوله آنفا: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا [غافر: ٤] أي مثل أخذ قوم نوح والأحزاب حقت كلمات ربك على كفار قومك، أي حقت عليهم كلمات الوعيد إذا لم يقلعوا عن كفرهم.
و (كلمات الله) هي أقواله التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذبين، وعلى الذين كفروا يتعلق ب حقت.
وقوله: أنهم أصحاب النار يجوز أن يكون بدلا من كلمة ربك بدلا مطابقا فيكون ضمير أنهم عائد إلى الذين كفروا، أي حق عليهم أن يكونوا أصحاب النار، وفي هذا **إيماء** إلى أن الله غير معاقب أمة الدعوة المحمدية بالاستئصال لأنه أراد أن يخرج منهم ذرية مؤمنين.
ويجوز أن يكون على تقدير لام التعليل محذوفة على طريقة كثرة حذفها قبل (أن) .
والمعنى: لأنهم أصحاب النار، فيكون ضمير أنهم عائدا إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا.
وقرأ الجمهور كلمة ربك بالإفراد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع، والإفراد هنا مساو للجمع لأن المراد به الجنس بقرينة أن الضمير المجرور ب (على) تعلق بفعل حقت وهو ضمير جمع فلا جرم أن تكون الكلمة جنسا صادقا بالمتعدد بحسب تعدد أزمان كلمات

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٢٤

الوعيد وتعدد الأمم المتوعدة.". (١)

٤٦٧. ٤٦٧-"سأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأن الأهم أن يسأل عن ضد ذلك، وفي هذا الأسلوب

إيماء ورمز إلى أن المهم من هذه الآيات كلها هو موعظة أهل الشرك رجوعا إلى قوله:
وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار [غافر: ٦] والمراد ب الذين كفروا هنا مشركو أهل مكة، فإنهم المقصود بهذه الأخبار كما تقدم آنفا في قوله:
ويستغفرون للذين آمنوا [غافر: ٧] .
والمعنى: أنهم يناديهم الملائكة تبليغا عن رب العزة، قال تعالى: أولئك ينادون من مكان بعيد [فصلت: ٤٤] وهو بعد عن مرتبة الجلال، أي ينادون وهم في جهنم كما دل عليه قوله:
فهل إلى خروج من سبيل [غافر: ١١] .
واللام في لمقت الله لام القسم. والمقت: شدة البغض. وإذ تدعون ظرف ل مقتكم أنفسكم.
وإذ ظرف للزمن الماضي، أي حين كنتم تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في الدنيا بقرينة تدعون وجيء بالمضارع في تدعون وفتكفرون
للدلالة على تكرر دعوتهم إلى الإيمان وتكرر كفرهم، أي تجدده.
ومعنى: مقتهم أنفسهم حينئذ أنهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومغبة سوء، فكان فعلهم ذلك شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضر والكيد، وهذا كما يقال:
فلان عدو نفسه. وفي حديث سعد بن أبي وقاص عن عمر بن الخطاب أن عمر قال لنساء من قريش يسألن النبيء صلى الله عليه وسلم ويستكثرن، فلما دخل عمر ابتدرن الحجاب فقال لهن: «يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم» .
فالمقت مستعار لقلة التدبر فيما يضر. وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله: إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون فمناط الكلام هو فتكفرون وفي ذكر ينادون ما يدل على كلام محذوف

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٨٨

تقديره: إن الذين كفروا يمقتهم الله وينادون لمقت الله إلخ.". (١)

٤٦٨. ٤٦٨-"لا ظلم اليوم، ثم إن الله سريع الحساب، وأما مواقع هاته الجمل الثلاث فإن جملة اليوم تجزى إلخ واقعة موقع البيان لما في جملة لمن الملك اليوم [غافر: ١٦] وجوابها من إجمال، وجملة لا ظلم اليوم واقعة موقع بدل الاشتمال من جملة اليوم تجزى كل نفس بما كسبت أي جزاء عادلا لا ظلم فيه، أي ليس فيه أقل شوب من الظلم حسبما اقتضاه وقوع النكرة بعد لا النافية للجنس.

وتعريف اليوم في قوله: اليوم تجزى كل نفس وقوله: لا ظلم اليوم نظير تعريف لمن الملك اليوم [غافر: ١٦] ، وجملة إن الله سريع الحساب واقعة موقع

التعليل لوقوع الجزاء في ذلك اليوم ولانتفاء الظلم عن ذلك الجزاء. وتأخيرها عن تينك الجملتين مشير إلى أنها علة لهما، فحرف التوكيد واقع موقع فاء السببية كما هو شأن إن إذا جاءت في غير مقام رد الإنكار، فسرعة الحساب تقتضي سرعة الحكم. وسرعة الحكم تقتضي تملؤ الحاكم من العلم بالحق، ومن تقدير جزاء كل عامل على عمله دون تردد ولا بحث لأن الحاكم علام الغيوب، فكان قوله: سريع الحساب علة لجميع ما تقدمه في هذا الغرض. والمعنى: أن الله محاسبهم حسابا سريعا لأنه سريع الحساب.

والحساب مصدر حاسب غيره إذا حسب له ما هو مطلوب بإعداده، وفائدة ذلك تختلف فتارة يكون الحساب لقصد استحضار أشياء كيلا يضيع منها شيء، وتارة يكون لقصد توقيف من يتعين توقيفه عليها، وتارة يكون لقصد مجازاة كل شيء منها بعدله، وهذا الأخير هو المراد هنا ولأجله سمي يوم الجزاء يوم الحساب، وهو المراد في قوله تعالى:

إن حسابهم إلا على ربي [الشعراء: ١١٣] . والباء في قوله: بما كسبت للسببية، أي تجزى بسبب ما كسبت، أي جزاء مناسبا لما كسبت، أي عملت.

وفي الآية **إيماء** إلى أن تأخير القضاء بالحق بعد تبينه للقاضي بدون عذر ضرب من ضروب الجور لأن الحق إن كان حق العباد فتأخير الحكم لصاحب الحق إبقاء لحقه بيد غيره، ففيه تعطيل انتفاعه بحقه برهة من الزمان وذلك ظلم، ولعل صاحب الحق في حاجة إلى تعجيل

---

(١) التحرير والتنوير ٩٥/٢٤

حقه لنفع معطل أو لدفع ضر جاثم، ولعله أن". (١)

٤٦٩. ٤٦٩-"والذين آمنوا معه وأنهم أضمروه ولم يعلنوه ثم شغلهم عن إنفاذه ما حل بهم من المصائب التي ذكرت في قوله تعالى في سورة الأعراف [١٣٠] : ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الآية، ثم بقوله: فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد [الأعراف: ١٣٣] الآية.

والضلال: الضياع والاضمحلال كقوله: قالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد [السجدة: ١٠] أي هذا الكيد الذي دبروه قد أخذ الله على أيديهم فلم يجدوا لانقاذه سبيلا.

[٢٦]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٦]

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)

عطف وقال بالواو يدل على أنه قال هذا القول في موطن آخر ولم يكن جوابا لقولهم: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه [غافر: ٢٥] ، وفي هذا الأسلوب **إيماء** إلى أن فرعون لم يعمل بإشارة الذين قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه وأنه سكت ولم يراجعهم بتأييد ولا إعراض، ثم رأى أن الأجدر قتل موسى دون أن يقتل الذين آمنوا معه لأن قتله أقطع لفتنتهم.

ومعنى: ذروني إعلامهم بعزمه بضرب من إظهار ميله لذلك وانتظاره الموافقة عليه بحيث يمثل حاله وحال المخاطبين بحال من يريد فعل شيء فيصد عنه، فلرغبته فيه يقول لمن يصده: دعني أفعل كذا، لأن ذلك التركيب مما يخاطب به الممانع والملائم ونحوهما، قال طرفة:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ثم استعمل هذا في التعبير عن الرغبة ولم يكن ثمة معارض أو ممانع، وهو استعمال شائع في هذا وما يرادفه مثل: دعني وخلني، كما في قوله تعالى: ذرني ومن خلقت وحيدا [المدثر:

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٤

١١] وقوله: وذرني والمكذبين [المزمل: ١١] ، وقول أبي القاسم السهيلي:". (١)

٤٧٠. ٤٧٠-"فأخبر موسى قومه بأن ربه حافظ له ليثقوا بالله كما كان مقام النبيء لا حين كان في أول البعثة تحرسه أصحابه في الليل فلما نزل قوله تعالى: فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين [الحجر: ٩٤، ٩٥] الآية أمر أصحابه بأن يتخلوا عن حراسته.

وتأكيد الخبر بحرف (إن) متوجه إلى لازم الخبر وهو أن الله ضمن له السلامة وأكد ذلك لتنزيل بعض قومه أو جلهم منزلة من يتردد في ذلك لما رأى من إشفاقهم عليه.

والعوذ: الالتجاء إلى المحل الذي يستعصم به العائذ فيدفع عنه من يروم ضره، يقال: عاذ بالجبل، وعاذ بالجيش، وقال تعالى: فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم [النحل: ٩٨] .

وعبر عن الجلالة بصفة الرب مضافا إلى ضمير المتكلم لأن في صفة الرب **إيماء** إلى توجيه العوذ به لأن العبد يعوذ بمولاه. وزيادة وصفه برب المخاطبين **للإيماء** إلى أن عليهم أن لا يجزعوا من مناواة فرعون لهم وأن عليهم أن يعوذوا بالله من كل ما يفظعهم.

وجعلت صفة لا يؤمن بيوم الحساب مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنها تتضمن الإشراك وزيادة، لأنه إذا اجتمع في المرء التجبر والتكذيب بالجزاء قلت مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس.

[٢٨]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٨]

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٤/٢٤

عطف قول هذا الرجل يقتضي أنه قال قوله هذا في غير مجلس شورى". (١)

٤٧١. ٤٧١-"والإشارة في قوله كذلك: إلى الضلال المأخوذ من قوله: يضل الله أي مثل ذلك الضلال يضل الله المسرفين المرتابين، أي أن ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام. والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين.

والمسرف: المفرط في فعل لا خير فيه. والمرتاب: الشديد الريب، أي الشك.

وإسناد الإضلال إلى الله كإسناد نفي الهداية إليه في قوله: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب [غافر: ٢٨] ، وتقدم آنفا.

وقوله: الذين يجادلون في آيات الله يجوز أن يكون مبتدأ خبره كبر مقتا ويجوز أن يكون بدلا من (من) في قوله: من هو مسرف مرتاب فبين أن ما صدق (من) جماعة لا واحد، فروعي في من هو مسرف مرتاب لفظ (من) فأخبر عنه بالإفراد، وروعي في البدل معنى (من) فأبدل منه موصول الجمع. وصلة الذين عرف بها المشركون من قريش قال تعالى: إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا [فصلت:

٤٠] وقال في هذه السورة [٤] : ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد.

واختيار المضارع في يجادلون لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها وأنهم لا ينفكون عنها. وهذا صريح في ذمهم وكناية عن ذم جدالهم الذي أوجب ضلالهم.

وفي الموصولية إيماء إلى علة إضلالهم، أي سبب خلق الضلال في قلوبهم الإسراف بالباطل تكرر مجادلتهم قصدا للباطل. والمجادلة: تكرير الاحتجاج لإثبات مطلوب المجادل وإبطال مطلوب من يخالفه قال تعالى: وجادلهم بالتي هي أحسن [النحل: ١٢٥] ، فمن المجادلة في آيات الله المحاجة لإبطال دلالتها، ومنها المكابرة فيها كما قالوا:". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ١٤٢/٢٤

٤٧٢. ٤٧٢-"واليوم كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا. ومن العذاب بيان ل يوما لأنه أريد به المقدار فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز. ويجوز تعلقه ب يخفف.

وجواب خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به: إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب. وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم بأن الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب.

والواو في قوله: أولم تك تأتيكم رسلكم لم يعرج المفسرون على موقعها. وهي واو العطف عطف بها (خزنة جهنم) كلامهم على كلام الذين في النار من قبيل طريقة عطف المتكلم كلاما على كلام صدر من المخاطب **إيماء** إلى أن حقه أن يكون من بقية كلامه وأن لا يغفله، وهو ما يلقب بعطف التلقين كقوله تعالى: قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي [البقرة: ١٢٤] فإن أهل النار إذا تذكروا ذلك علموا وجاهة تنصل خزنة جهنم من الشفاعة لهم، وتفريع فادعوا على ذلك ظاهر على كلا التقديرين.

وهمزة الاستفهام مقدمة من التأخير على التقديرين، لوجوب صدارتها.

وجملة وما دعاء الكافرين إلا في ضلال يجوز أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلا لكلامهم يبين أن قولهم: فادعوا مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي دعاؤكم لم ينفعكم لأن دعاء الكافرين في ضلال والواو اعتراضية، ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا واعتراضا.

والبينات: الحجج الواضحة والدعوات الصريحة إلى اتباع الهدى. فلم يسعهم إلا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم بالبينات فقالوا: بلى فرد عليهم خزنة جهنم بالتنصل من أن يدعوا الله بذلك، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم بقولهم: فادعوا تفريعا على اعترافهم بمجيء الرسل إليهم بالبينات.". (١)

٤٧٣. ٤٧٣-"واللعنة: البعد والطرد، أي من رحمة الله، ولهم سوء الدار هي جهنم. وتقديم (لهم) في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم.

[٥٣- ٥٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٦٥

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)

هذا من أوضح مثل نصر الله رسله والذين آمنوا بهم وهو أشبه الأمثال بالنصر الذي قدره الله تعالى للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإن نصر موسى على قوم فرعون كون الله به أمة عظيمة لم تكن يؤبه بها وأوتيت شريعة عظيمة وملكا عظيما، وكذلك كان نصر النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكان أعظم من ذلك وأكمل وأشرف.

فجملة: ولقد آتينا موسى الهدى إلخ معترضة بين إنا لننصر رسلنا [غافر: ٥١] وبين التفريع عليه في قوله: فاصبر إن وعد الله حق [غافر: ٥٥] ، وأي نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقلة والتبع لأمة أخرى في أحكام تلائم أحوال الأمة التابعة، إلى مصير الأمة مالكة أمر نفسها ذات شريعة ملائمة لأحوالها ومصالحها وسيادة على أمم أخرى، وذلك مثل المسلمين مع النبيء صلى الله عليه وسلم وبعده وهو **إيماء** إلى الوعد بأن القرآن الذي كذب به المشركون باق موروث في الأمة الإسلامية.

والهدى الذي أوتيه موسى هو ما أوحي إليه من الأمر بالدعوة إلى الدين الحق، أي الرسالة وما أنزل إليه من الشريعة وهي المراد بالكتاب، أي التوراة، وهو الذي أورثه الله بني إسرائيل، أي جعله باقيا فيهم بعد موسى عليه السلام فهم ورثوه عن موسى، أي أخذوه منه في حياته وأبقاه الله لهم بعد وفاته، فإطلاق الإيراث استعارة. وفي ذلك إيذان بأن الكتاب من جملة الهدى الذي أوتيه موسى، قال تعالى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور [المائدة: ٤٤] ، ففي الكلام إيجاز حذف تقديره: ولقد آتينا موسى الهدى والكتاب وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، فإن موسى أوتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل وهو الرسالة وأوتي من الهدى ما أورثه بنو إسرائيل وهو الشريعة التي في التوراة.

وهدى وذكرى حالان من الكتاب، أي هدى لبني إسرائيل وذكرى". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٩/٢٤

٤٧٤. ٤٧٤-"مقتضى الظاهر الإضمار، لتكون الجملة مستقلة بالدلالة فتصلح لأن تسير مسير الأمثال، فالمعنى أنهم أنكروا البعث لاستبعادهم خلق الأجسام مع أن في خلق السماوات والأرض ما لا يبقى معه استبعاد مثل ذلك.

[٥٨]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٥٨]

وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨)

لما نزلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلا لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير، وقد علم حال المؤمنين من مفهوم صفة أكثر الناس لأن الأكثرين من الذين لا يعلمون يقابلهم أقلون يعلمون. والمعنى: لا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين الذين تضمنهما قوله: ولكن أكثر الناس لا يعلمون [غافر: ٥٧] .

ونفي الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر كما قدمنا في قوله تعالى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين الآية في سورة النساء [٩٥] ، ومن المتبادر أن الأفضل هو صاحب الحال الأفضل وهو البصير إذ لا يختلف الناس في أن البصر أشرف من العمى في شخص واحد، ونفي الاستواء بدون متعلق يقتضي العموم في متعلقاته، لكنه يخص بالمتعلقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته، ويسمى مثل هذا العموم العموم العرفي، وتقدم نظيرها في سورة فاطر [١٩] .

وقوله: والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء زيادة بيان لفضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان. والمعنى: وما يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيئون، أي في أعمالهم كما يؤذن بذلك قوله: وعملوا الصالحات ولا المسيء، وفيه إيماء إلى". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٧٧

٤٧٥. ٤٧٥-"اختلاف جزاء الفريقين وهذا **الإيماء** إدماج للتنبيه على الثواب والعقاب.
والواو في قوله: والذين آمنوا عاطفة الجملة على الجملة بتقدير: وما يستوي الذين آمنوا.
والواو في قوله: ولا المسيء عاطفة المسيء على الذين آمنوا عطف المفرد على المفرد، فالعطف الأول عطف المجموع مثل قوله تعالى: هو الأول والآخر والظاهر والباطن [الحديد: ٣] .
وإنما قدم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة، والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون، فقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة.
وأما قوله: والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماما بشرف المؤمنين.
وأعيدت (لا) النافية بعد واو العطف على النفي، وكان العطف مغنيا عنها فإعادتها لإفادة تأكيد نفي المساواة ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب، ولذلك تعد (لا) في مثله زائدة كما في «مغني اللبيب» ، وكان الظاهر أن تقع (لا) قبل (الذين آمنوا) ، فعدل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عمل الصالحات، وأن ذكر الذين آمنوا قبل المسيء للاهتمام بالذين آمنوا ولا مقتضي للعدول عنه بعد أن قضي حق الاهتمام بالذين سبق الكلام لأجل تمثيلهم، فحصل في الكلام اهتمامان.
وقريب منه ما في سورة فاطر في أربع جمل: اثنتين قدم فيهما جانب تشبيه الكافرين، واثنتين قدم فيهما تشبيه جانب المؤمنين، وذلك قوله تعالى: وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات [فاطر: ١٩- ٢٢]
.
وقليلا حال من أكثر الناس في قوله تعالى قبله:". (١)

٤٧٦. ٤٧٦-"يؤت بلام الابتداء في قوله في سورة طه [١٥] إن الساعة آتية لأن الخطاب لموسى عليه السلام.

---
(١) التحرير والتنوير ١٧٨/٢٤

وجيء باسم الفاعل في آتية الذي هو حقيقة في الحال، للإيماء إلى أنها لما تحققت فقد صارت كالشيء الحاضر المشاهد. والمراد تحقيق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

وجملة لا ريب فيها مؤكدة لجملة إن الساعة لآتية، ونفي الريب عن نفس الساعة، والمراد نفيه عن إتيانها لدلالة قوله: آتية على ذلك.

ومعنى نفي الريب في وقوعها: أن دلائلها واضحة بحيث لا يعتد بريب المرتابين فيها لأنهم ارتابوا فيها لعدم الروية والتفكر، وهذا قريب من قوله تعالى: ذلك الكتاب لا ريب فيه [البقرة: ٢] .

فموقع الاستدراك الذي في قوله: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل كيف ينفي الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس، فكان الاستدراك بقوله: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون جوابا لذلك السؤال.

والمعنى: ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها ولو تأملوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، فلذلك نفي عنهم هنا وصف الإيمان.

وهذا الاستدراك استئناف بياني، ولولا أن (لكن) يكثر أن تقع بعد واو العطف لكانت الجملة جديرة بالفصل دون عطف، فهذا العطف تحلية لفظية.

وأكثر الناس هم المشركون، وهم يومئذ أكثر من المؤمنين جدا.

[٦٠]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٠]

وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠)

لما كانت المجادلة في آيات الله تشمل مجادلتهم في وحدانية الإلهية كما دل عليه". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٨٠

٤٧٧. ٤٧٧-"فإذا كان الدعاء هو العبادة كانت العبادة هي الدعاء لا محالة.

فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه، وهذا إطلاق أقل شيوعا من الأول، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفراد الله بالعبادة، أي الاعتراف بوحدانيته.

والاستجابة تطلق على إعطاء المسئول لمن سأله وهو أشهر إطلاقها وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك السابق وبحصول الثواب على أعمال الإيمان فإفادة الآية على معنى طلب الحاجة من الله يناسب ترتب الاستجابة على ذلك الطلب معلقا على مشيئة الله أو على استيفاء شروط قبول الطلب، وإعطاء خير منه في الدنيا، أو إعطاء عوض منه في الآخرة. وإفادتها على معنى إفراد الله بالعبادة، أي بأن يتوبوا عن الشرك، فترتب الاستجابة هو قبول ذلك، فإن قبول التوبة من الشرك مقطوع به.

فلما جمعت الآية بين الفعلين على تفاوت بين شيوع الإطلاق في كليهما علمنا أن في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صرح بالمعنى المشهور، في كلا الفعلين ثم أعقب بقوله: إن الذين يستكبرون عن عبادتي، فعلمنا أن المراد الدعاء والعبادة، وأن الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة. ففعل ادعوني مستعمل في معنييه بطريقة عموم المشترك.

وفعل أستجب مستعمل في حقيقته ومجازه، والقرينة ما علمت، وذلك من الإيجاز والكلام الجامع.

وتعريف الله بوصف الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافته من الإيماء إلى وجوب امتثال أمره لأن من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها لأن المربوب محقوق بالطاعة لربه، ولهذا لم يعرج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته.

وجملة إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم تعليل للأمر". (١)

٤٧٨. ٤٧٨-"بالدعاء تعليلا يفيد التحذير من إباية دعاء الله حين الإقبال على دعاء الأصنام، كما قال تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٢/٢٤

ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا [غافر: ١٢] وكان المشركون لا يضرعون إلى الله إلا إذا لم يتوسموا استجابة شركائهم، كما قال تعالى: فلما نجاكم إلى البر أعرضتم [الإسراء: ٦٧] . ومعنى التعليل للأمر بالدعاء بهذا التحذير: أن الله لا يحب لعباده ما يفضي بهم إلى العذاب، قال تعالى: ولا يرضى لعباده الكفر [الزمر:
٧] ففي الآية دليل على طلب الله من عباده أن يدعوه في حاجاتهم.
ومشروعية الدعاء لا خلاف فيها بين المسلمين وإنما الخلاف في أنه ينفع في رد القدر أو لا؟ وهو خلاف بيننا وبين المعتزلة. وليس في الآية حجة عليهم لأنهم تأولوا معنى أستجب لكم، وتقدم قوله تعالى: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب الآية في سورة البقرة [١٨٦] ، وفي الإتيان بالموصول إيماء إلى التعليل.
وداخرين حال من ضمير سيدخلون أي أذلة، دخر كمنع وفرح: صغر وذل، وتقدم قوله: سجدا لله وهم داخرون في سورة النحل [٤٨] .
وقرأ الجمهور سيدخلون بفتح التحتية وضم الخاء. وقرأه أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم التحتية وفتح الخاء على البناء للنائب، أي سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم.
[٦١]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٦١]
الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١)
يجوز أن يكون اسم الجلالة بدلا من ربكم في وقال ربكم [غافر: ٦٠] أتبع ربكم بالاسم العلم ليقضى بذلك حقان: حق استحقاقه أن يطاع بمقتضى الربوبية والعبودية، وحق استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات. ولذلك لم يؤت مع وصف الرب المتقدم بشيء من ذكر نعمه ولا كمالاته اجتزاء بمقتضى حق الربوبية، وذكر مع الاسم العلم بعض إنعامه وإفضاله ثم وصف الاسم بالموصول وصلته إشارة إلى بعض صفاته، وإيماء إلى

وجه الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تقوية الأمر بدعائه.". (١)

٤٧٩. ٤٧٩-"[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٣]

كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣)

هذه الجملة معترضة بمنزلة التعليل لمضمون الجملة التي قبلها وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربهم خالقهم وخالق كل شيء فإن في تعليل ذلك ما يبين سبب التعجيب، فجيء في جانب المأفوكين بالموصول لأن الصلة تومىء إلى وجه بناء الخبر وعلته، أي أن استمرارهم على الجحد بآيات الله دون تأمل ولا تدبر في معانيها ودلائلها يطبع نفوسهم على الانصراف عن العلم بوجوب الوحدانية له تعالى. فالإشارة بذلك إلى الإفك المأخوذ من فعل تؤفكون [غافر: ٦٢] أي مثل إفككم ذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون.

فيجوز أن يكون المراد ب الذين كانوا بآيات الله يجحدون المخاطبين بقوله:

ذلكم الله ربكم [غافر: ٦٢] ، ويكون الموصول وصلته إظهارا في مقام الإضمار، والمعنى: كذلك تؤفكون، أي مثل إفككم تؤفكون، ويكون التشبيه مبالغة في أن إفكهم بلغ في كنه الإفك النهاية بحيث لو أراد المقرب أن يقربه للسامعين بشبيه له لم يجد شبيها له أوضح منه وأجلى في ماهيته فلا يسعه إلا أن يشبهه بنفسه على الطريقة المألوفة المبينة في قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] ، وبذلك تكون صلة الموصول من قوله: الذين كانوا بآيات الله يجحدون إيماء إلى علة إفكهم تعليلا صريحا.

ويجوز أن يكون المراد ب الذين كانوا بآيات الله يجحدون كل من جحد بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذبين فيصير التعليل المومى إليه بالصلة تعليلا تعريضيا لأنه إذا كان الإفك شأن الذين يجحدون بآيات الله كلهم فقد شمل ذلك هؤلاء بحكم المماثلة.

وصيغة المضارع لاستحضار الحالة، وذكر فعل الكون للدلالة على أن الجحد بآيات الله شأنهم وهجيراهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٨٣

وهذا أصل عظيم في الأخلاق العلمية، فإن العقول التي تتخلق بالإنكار". (١)

٤٨٠. ٤٨٠-"وعبر عن هذا الخلق بفعل صوركم لأن التصوير خلق على صورة مرادة تشعر بالعناية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم [الأعراف: ١١] فاقتضى حسن الصور فلذلك عدل في جانب خلق الإنسان عن فعل الجعل إلى فعل التصوير بقوله:
وصوركم فهو كقوله تعالى: الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة [الانفطار: ٧، ٨] ثم صرح بما اقتضاه فعل التصوير من الإتقان والتحسين بقوله: فأحسن صوركم.
والفاء في قوله: فأحسن صوركم عاطفة جملة على جملة ودالة على التعقيب أي أوجد صورة الإنسان فجاءت حسنة.
وعطف على هذه العبرة والمنة منة أخرى فيها عبرة، أي خلقكم في أحسن صورة ثم أمدكم بأحسن رزق، فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد، ولما كان الرزق شهوة في ظاهره وكان مشتملا على حكمة إمداد الجسم بوسائل تجديد قواه الحيوية وكان في قوله:
ورزقكم **إيماء** إلى نعمة طول الوجود فلم يكن الإنسان من الموجودات التي تظهر على الأرض ثم تضمحل في زمن قريب وجمع له بين حسن الإيجاد وبين حسن الإمداد فجعل ما به مدد الحياة وهو الرزق من أحسن الطيبات على خلاف رزق بقية أنواع الحيوان.
ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين موقع ذلكم الله ربكم كموقع نظيره المتقدم آنفا. وإعادة هذا تكرير للتوقيف على خطل رأيهم في عبادة غيره على طريقة التعريض، بقرينة ما تقدم في نظيره من قوله: لا إله إلا هو فأنى تؤفكون [غافر: ٦٢] ، وقرينة قوله هنا: لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين [غافر: ٦٥] .
وفرع على ما ذكر من بدائع صنعه وجزيل منه. أن أنش ئ الثناء عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الكمال فقال: فتبارك الله، وفعل تبارك صيغة مفاعلة مستعملة مجازا في قوة ما اشتق منه الفعل. وهو مشتق من اسم جامد وهو البركة، والبركة: اسم يدل على تزايد الخير.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٤

وإظهار اسم الجلالة مع فعل". (١)

٤٨١. ٤٨١-"عن القائل أسرع أعمال الإنسان وأيسر، وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو كن المركب من حرفين متحرك وساكن.

[٦٩- ٧٢]

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٩ إلى ٧٢]

ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢)

بنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورك كما تقدم في أول السورة إذ كان من أولها قوله: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا [غافر: ٤] وتكرر ذلك خمس مرات فيها، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها بقوله: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا [غافر: ٤] ثم بإبطاله بقوله: الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله [غافر: ٣٥] ، ثم بقوله: إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر [غافر: ٥٦] ثم بقوله: ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون.

وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله، فجملة ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله مستأنفة للتعجيب

من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البينة. والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظا، والمراد به: التقرير على الإثبات، كما تقدم غير مرة، منها عند قوله: قال أولم تؤمن في سورة البقرة [٢٦٠] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/٢٤

والرؤية علمية، وفعلها معلق عن العمل بالاستفهام ب أنى يصرفون، و (أنى) بمعنى (كيف) ، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله:". (١)

٤٨٢. ٤٨٢-"قول عمر لما قال له أبو قتادة يوم حنين «ما شأن الناس» حين انهزموا وفروا قال عمر: «أمر الله» . وفي العدول عن: إذن الله، إلى أمر الله تعريض بأن ما سيظهره الله من الإذن لمحمد صلى الله عليه وسلم هي آيات عقاب لمعانديه، فمنها: آية الجوع سبع سنين حتى أكلوا الميتة، وآية السيف يوم بدر إذ استأصل صناديد المكذبين من أهل مكة، وآية السيف يوم حنين إذ استأصل صناديد أهل الطائف، وآية الأحزاب التي قال الله عنها: يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها [الأحزاب: ٩] ثم قال: ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديرا [الأحزاب: ٢٥- ٢٧] .

وفي إيثار قضي بالحق بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبين الصدق، ترشيح لما في قوله: أمر الله من التعريض بأنه أمر انتصاف من المكذبين. ولذلك عطف عليه وخسر هنالك المبطلون أي خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

والخسران: مستعار لحصول الضر لمن أراد النفع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدم معناه غير مرة، منها قوله تعالى: فما ربحت تجارتهم في أوائل سورة البقرة [١٦] .

وهنالك أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلى الزمان المعبر عنه ب (إذا) في قوله: فإذا جاء أمر الله.

وفي هذه الاستعارة نكتة بديعية وهي **الإيماء** إلى أن المبطلين من قريش ستأتيهم الآية في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٠/٢٤

مكان من الأرض وهو مكان بدر وغيره من مواقع إعمال السيف فيهم". (١)

٤٨٣. ٤٨٣-"وهذا حكم الله في البأس بمعنى العقاب الخارق للعادة والذي هو آية بينة، فأما البأس الذي هو معتاد والذي هو آية خفية مثل عذاب بأس السيف الذي نصر الله به رسوله يوم بدر ويوم فتح مكة، فإن من يؤمن عند رؤيته مثل أبي سفيان بن حرب حين رأى جيش
الفتح، أو بعد أن ينجو منه مثل إيمان قريش يوم الفتح بعد رفع السيف عنهم، فإيمانه كامل مثل إيمان خالد بن الوليد، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد ارتداده.
ووجه عدم قبول الإيمان عند حلول عذاب الاستئصال وقبول الإيمان عند نزول بأس السيف أن عذاب الاستئصال مشارفة للهلاك والخروج من عالم الدنيا فإيقاع الإيمان عنده لا يحصل المقصد من إيجاب الإيمان وهو أن يكون المؤمنون حزبا وأنصارا لدينه وأنصارا لرسله، وماذا يغني إيمان قوم لم يبق فيهم إلا رمق ضعيف من حياة، فإيمانهم حينئذ بمنزلة اعتراف أهل الحشر بذنوبهم وليست ساعة عمل، قال تعالى في شأن فرعون:
إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين [يونس: ٩٠، ٩١] ، أي فلم يبق وقت لاستدراك عصيانه وإفساده، وقال تعالى: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا [الأنعام: ١٥٨] فأشار قوله: أو كسبت في إيمانها خيرا إلى حكمة عدم انتفاع أحد بإيمانه ساعتئذ. وإنما كان ما حل بقوم يونس حالا وسيطا بين ظهور البأس وبين الشعور به عند ظهور علاقاته كما بيناه في سورة يونس.
وجملة وخسر هنالك الكافرون كالفذلكة لقوله: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، وبذلك آذنت بانتهاء الغرض من السورة. وهنالك اسم إشارة إلى مكان، استعير للإشارة إلى الزمان، أي خسروا وقت رؤيتهم بأسنا إذ انقضت حياتهم وسلطانهم وصاروا إلى ترقب عذاب خالد مستقبل.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٤

والعدول عن ضمير الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة [غافر: ٢١] إلى الاسم الظاهر وهو الكافرون **إيماء** إلى أن سبب خسرانهم هو الكفر بالله وذلك إعذار للمشركين من قريش.". (١)

٤٨٤. ٤٨٤-"أسلوب سورة غافر

أسلوبها أسلوب المحاجة والاستدلال على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا. وافتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأن أول أغراضها أن القرآن من عند الله ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحداهم، لذلك فلم يفعلوا، كما تقدم في فاتحة سورة البقرة. وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزل القرآن **إيماء** إلى أنه لا يشبه كلام البشر لأنه كلام العزيز العليم، **وإيماء** إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر، وترهيب من العقاب على الإصرار، وذلك كله من براعة الاستهلال. ثم تخلص من **الإيماء** والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

وخص بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر وأطيل ذلك لشدة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم مثل مؤمن آل فرعون، وتخلل ذلك ثبات موسى وثبات مؤمن آل فرعون **إيماء** إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات. وختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعماهم عن النظر في دلائل الكون فحسبوا أنهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر. وخوف الله المشركين من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/٢٤

الانزلاق في مهواة الأولين بأن سنة الله في عباده الإمهال ثم المؤاخذة، فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسن الختام.". (١)

٤٨٥. ٤٨٥-"ولك أن تجعل قوله: من الرحمن الرحيم في موضع الصفة للمبتدأ وتجعل قوله: كتاب خبر المبتدأ، وعلى كلا التقديرين هو أسلوب فخم وقد مضى مثله في قوله تعالى: المص كتاب أنزل إليك [الأعراف: ١، ٢] .

والمراد: أنه منزل، فالمصدر بمعنى المفعول كقوله: وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣] وهو مبالغة في كونه فعل الله تنزيله، تحقيقا لكونه موحى به وليس منقولا من صحف الأولين. وتنكير تنزيل وكتاب لإفادة التعظيم.

والكتاب: اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة وسمي القرآن كتابا لأن الله أوحى بألفاظه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يكتب ما أوحي إليه، ولذلك اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبون له كل ما ينزل عليه من القرآن. وإيثار الصفتين الرحمن الرحيم على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور كقوله تعالى: فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة [الأنعام: ١٥٧] وقوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] وقوله: أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون [العنكبوت: ٥١] .

والجمع بين صفتي الرحمن الرحيم للإيماء إلى أن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة. وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك: قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى [فصلت: ٤٤] .

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٢٤

ومعنى: فصلت آياته بينت، والتفصيل: التبيين والإخلاء من الالتباس.". (١)

٤٨٦. ٤٨٦-"والاستغفار: طلب العفو عما فرط من ذنب أو عصيان وهو مشتق من الغفر وهو الستر.

والمعنى: فأخلصوا إلى الله في عبادته ولا تشركوا به غيره واسألوا منه الصفح عما فرط منكم من الشرك والعناد.

وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون (٧) وعيد للمشركين بسوء الحال والشقاء في الآخرة يجوز أن يكون من جملة القول الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله فهو معطوف على جملة إنما أنا بشر. ويجوز أن يكون كلاما معترضا من جانب الله تعالى فتكون الواو اعتراضية بين جملة قل إنما أنا بشر وجملة قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض [فصلت: ٩] أي أجبهم بقولك: أنا بشر مثلك يوحى إلي ونحن أعتدنا لهم الويل والشقاء إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه، فيكون هذا إخبارا من الله تعالى.

وذكر المشركين إظهار في مقام الإضمار ويستفاد تعليق الوعيد على استمرارهم على الكفر من الإخبار عن الويل بكونه ثابتا للمشركين والموصوفين بالذين لا يؤتون الزكاة و بأنهم كافرون بالبعث لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، ولأن الموصول يؤذن **بالإيماء** إلى وجه بناء الخبر. فأما كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل

فظاهر، وأما كون عدم إيتاء الزكاة موجبا للويل فذلك لأنه حمل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام، فذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث بأنهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشح بالمال وكفى بذلك تشويها في حكم الأخلاق وحكم العرف فيهم لأنهم يتعيرون باللؤم، ولكنهم يبذلون المال في غير وجهه ويحرمون منه مستحقيه.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٤/٢٣٩

٤٨٧. ٤٨٧-"فإن قول الرسل لهم: لا تعبدوا إلا الله قد حكي بفعل فيه دلالة على القول، وهو فعل جاءتهم كما تقدم آنفا.

فقولهم: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة يتضمن إبطال رسالة البشر عن الله تعالى.

ومفعول شاء محذوف دل عليه السياق، أي لو شاء ربنا أن يرسل إلينا لأنزل ملائكة من السماء مرسلين إلينا، وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولا عليه بجواب لو كقوله تعالى: فلو شاء لهداكم أجمعين [الأنعام: ١٤٩] ، ونكتته الإبهام ثم البيان، وأما الحذف في الآية فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة، ونظيره

قول المعري:

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد

وتضمن كلامهم قياسا استثنائيا تركيبه: لو شاء ربنا أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة ينزلهم من السماء لكنه لم ينزل إلينا ملائكة فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولا. وهذا **إيماء** إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم: فإنا بما أرسلتم به كافرون أي جاحدون رسالتكم وهو أيضا كناية عن التكذيب.

[١٥، ١٦]

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١٥ إلى ١٦]

فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦)

بعد أن حكى عن عاد وثمود ما اشترك فيه الأمتان من الكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصت به كل أمة منهما من صورة الكفر، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حل بكل أمة منهما من العذاب.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٥

٤٨٨. ٤٨٨-"وجملة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة جملة معترضة، والواو اعتراضية. والرؤية علمية، والاستفهام إنكاري، والمعنى: إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوة حيث أعرضوا عن رسالة رسول ربهم وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم. وإجراء وصف الذي خلقهم على اسم الجلالة لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافيا في الدلالة على أنه أشد منهم قوة، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه فينظروا في أدلة صدق رسوله إليهم.

وضمير هو أشد منهم ضمير فصل، وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محققا كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفيا.

والقوة حقيقتها: حالة في الجسم يتأتى بها أن يعمل الأعمال الشاقة، وتطلق على لازم ذلك من القدرة ووسائل الأعمال، وقد تقدم بيان إطلاقها في قوله تعالى: فخذها بقوة في سورة الأعراف [١٤٥] ، والمراد بها هنا معناها الحقيقي والكنائي والمجازي، فهو مستعمل في حقيقته تصريحا وكناية، ومجازه لما عندهم من وسائل تذليل صعاب الأمور لقوة أجسامهم وقوة عقولهم. والعرب تضرب المثل بعاد في أصالة آرائهم فيقولون:

أحلام عاد، قال النابغة:

أحلام عاد وأجسام مطهرة ... من المعقة والآفات والإثم

ويقولون في وصف الأشياء التي يقل صنع أمثالها: عادية يقولون: بئر عادية، وبناء عادي.

ولما كانت القوة تستلزم سعة القدرة أسند القوة إلى الله تعالى بمعنى أن قدرته تعالى لا يستعصي عليها شيء تتعلق به إرادته تعالى، وهذا المراد هنا في قوله: أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة أي هو أوسع قدرة من قدرتهم فإطلاق القوة". (١)

٤٨٩. ٤٨٩-"وأتبع اسم الإشارة بالبدل بقوله: ظنكم لزيادة بيانه ليتمكن ما يعقبه من الخبر، والخبر هو فعل أرداكم وما تفرع عليه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٧/٢٤

والذي ظننتم بربكم صفة ل ظنكم. والإتيان بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أرداكم وما تفرع عليه، أي الذي ظننتم بربكم ظنا باطلا. والعدول عن اسم الله العلم إلى بربكم للتنبيه على ضلال ظنهم، إذ ظنوا خفاء بعض أعمالهم عن علمه مع أنه ربهم وخالقهم فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم، وهو يشير إلى قوله: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [الملك: ١٤] ، ففي وصف بربكم إيماء إلى هذا المعنى.

والإرداء: الإهلاك، يقال: ردي كرضي، إذا هلك، أي مات، والإرداء مستعار للإيقاع في سوء الحالة بحيث أصارهم مثل الأموات فإن ذلك أقصى ما هو متعارف بين الناس في سوء الحالة وفي الإتيان بالمسند فعلا إفادة قصر، أي ما أرداكم إلا ظنكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي لم تردكم شهادة جوارحكم حتى تلوموها بل أرداكم ظنكم أن الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه.

وقوله: فأصبحتم من الخاسرين تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون الله ووثقوا من تحصيل سعادتهم، وهم ما عرفوا الله حق معرفته فعاملوا الله بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنوا النجاة، فشبه حالهم بحال التاجر الذي استعد للربح فوقع في الخسارة.

والمعنى: أنه نعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، تلك الأصول التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن الله ونفوا البعث، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى: وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين.". (١)

٤٩٠. ٤٩٠-"وعلى كلا الوجهين يتعين أن يكون المراد ب الذين كفروا هنا: المشركين الذين الكلام عنهم.

ف الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى علة إذاقة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٧٢

العذاب، أي لكفرهم المحكي بعضه فيما تقدم. وإذاقة العذاب: تعذيبهم، استعير له الإذاقة على طريق المكنية والتخييلة. والعذاب الشديد عن ابن عباس: أنه عذاب يوم بدر فهو عذاب الدنيا.

وعطف ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون عن ابن عباس: لنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة. وأسوأ الذي كانوا يعملون منصوب على نزع الخافض.

والتقدير: على أسوأ ما كانوا يعملون، ولك أن تجعله منصوبا على النيابة عن المفعول المطلق تقديره: جزاء مماثلا أسوأ الذي كانوا يعملون.

وأسوأ: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وإنما أريد به السيئ، فصيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوئه. وإضافته إلى الذي كانوا يعملون من إضافة البعض إلى الكل وليس من إضافة اسم التفضيل إلى المفضل عليه.

والإشارة ب ذلك جزاء أعداء الله إلى ما تقدم وهو الجزاء والعذاب الشديد على أسوأ أعمالهم. وأعداء الله: هم المشركون الذين تقدم ذكرهم بقوله تعالى: ويوم نحشر أعداء الله [فصلت: ١٩] .

والنار عطف بيان من جزاء أعداء الله.

ودار الخلد: النار. فقوله: لهم فيها دار الخلد جاء بالظرفية بتنزيل النار منزلة ظرف لدار الخلد وما دار الخلد إلا عين النار. وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار. وهو معدود من المحسنات البديعية، ومنه قوله تعالى: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة [الأحزاب: ٢١] وقول أبي حامد العتابي:". (١)

٤٩١. ٤٩١-"قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»

. وعن أبي بكر ثم استقاموا: لم يشركوا بالله شيئا. وعن عمر: استقاموا على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان: ثم أخلصوا العمل لله.

وعن علي: ثم أدوا الفرائض

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٩/٢٤

. فقد تولى تفسير هذه الآية الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره، وعناية هؤلاء الأربعة أقطاب الإسلام ببيان الاستقامة مشير إلى أهميتها في الدين.

وتعريب المسند إليه بالموصولية دون أن يقال: إن المؤمنين ونحوه لما في الصلة من الإيماء إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزل الملائكة عليهم بتلك الكرامة مسبب على قولهم: ربنا الله واستقامتهم فإن الاعتقاد الحق والإقبال على العمل الصالح هما سبب الفوز.

وثم للتراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم:

ربنا الله كان قولا منبعثا عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية.

وجمع قوله: قالوا ربنا الله ثم استقاموا أصلي الكمال الإسلامي، فقوله: قالوا ربنا الله مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به، ومعرفة الخير لأجل العمل به، فالكمال علم يقيني وعمل صالح، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني.

وأشار قوله: استقاموا إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق، أي أن يكون وسطا غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط قال تعالى: اهدنا الصراط المستقيم [الفاتحة: ٦] وقال: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل،". (١)

٤٩٢. ٤٩٢-"الوصف الرابع: أنه لا يتطرقه الباطل ولا يخالطه صريحه ولا ضمنيه، أي لا يشتمل على الباطل بحال. فمثل ذلك ب من بين يديه ولا من خلفه.

والمقصود استيعاب الجهات تمثيلا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه فإن صده خاتله فأتاه من خلفه، وقد تقدم في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/٢٤

قوله تعالى: ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم [الأعراف: ١٧] .

فمعنى: لا يأتيه الباطل لا يوجد فيه ولا يداخله، وليس المراد أنه لا يدعى عليه الباطل.

الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية لأنه تنزيل من حكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا [البقرة: ٢٦٩] فإن كلام الحكيم يأتي محكما متقنا رصينا لا يشوبه الباطل.

الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، والحميد هو المحمود حمدا كثيرا، أي

مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد وإنما يحمد الكلام إذ يكون دليلا للخيرات وسائقا إليها لا مطعن في لفظه ولا في معناه، فيحمده سامعه كثيرا لأنه يجده مجلبة للخير الكثير، ويحمد قائله لا محالة خلافا للمشركين.

وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه ففرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال: وإنه لكتاب عزيز الآيات.

[٤٣]

[سورة فصلت (٤١) : آية ٤٣]

ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم (٤٣)

ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك.

استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله: إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا [فصلت: ٤٠] ، وقوله: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم [فصلت: ٤١] وما تخلل ذلك من الأوصاف فيقول سائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ فأجيب بأن هذه سنة الأنبياء". (١)

٤٩٣. ٤٩٣-"إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بأن الله يغفر له. ووقوع هذا الخبر عقب قوله: ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك يومىء إلى أن هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله وأن الوعيد للذين

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٩/٢٤

آذوه، فالخبر مستعمل في لازمه.

ومعنى المغفرة له: التجاوز عما يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير. وحرف إن فيه لإفادة التعليل والتسبب لا للتأكيد.

وكلمة ذو مؤذنة بأن المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكل منهما.

ووصف العقاب ب أليم دون وصف آخر للإشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا لأجله فإنهم آلموا نفس النبيء صلى الله عليه وسلم بما عصوا وآذوا.

وفي جملة: إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم محسن الجمع ثم التقسيم، فقوله: ما يقال لك يجمع قائلا ومقولا له فكان **الإيماء** بوصف (ذو مغفرة) إلى المقول له، ووصف ذو عقاب أليم إلى القائلين، وهو جار على طريقة اللف والنشر المعكوس وقرينة المقام ترد كلا إلى مناسبه.

[٤٤]

[سورة فصلت (٤١) : آية ٤٤]

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد (٤٤)

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي.

اتصال نظم الكلام من أول السورة إلى هنا وتناسب تنقلاته بالتفريع والبيان والاعتراض والاستطراد يقتضي أن قوله: ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا إلى آخره تنقل في درج إثبات أن قصدهم العناد فيما يتعللون به ليواجهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه بما يختلقونه عليه من الطعن فيه والتكذيب به، وتكلف الأعذار الباطلة ليتستروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم المحجوج، فأخذ ينقض دعاويهم عروة عروة، إذ ابتدئت السورة بتحديهم بمعجزة

القرآن بقوله:". (١)

٤٩٤. ٤٩٤-"والميزان، لأجل ما في الموصولية من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنه من جنس الحق والعدل، مثل الموصول في قوله تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [غافر: ٦٠] .

ولام التعريف في الكتاب لتعريف الجنس، أي إنزال الكتب وهو ينظر إلى قوله آنفا: وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب [الشورى: ١٥] .

والباء في بالحق للملابسة، أي أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل.

والحق: كل ما يحق، أي يجب في باب الصلاح عمله ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة.

والميزان حقيقته: آلة الوزن، والوزن: تقدير ثقل جسم، والميزان آلة ذات كفتين معتدلتين معلقتين في طرفي قضيب مستو معتدل، له عروة في وسطه، بحيث لا تتدلى إحدى الكفتين على الأخرى إذا أمسك القضيب من عروته. والميزان هنا مستعار للعدل والهدي بقرينة قوله أنزل فإن الدين هو المنزل والدين يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدين وفي إعطاء الحقوق، فشبه بالميزان في تساوي رجحان كفتيه قال تعالى: وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط [الحديد: ٢٥] .

وجملة وما يدريك لعل الساعة قريب معطوفة على جملة الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، والمناسبة هي ما ذكرناه من إيذان تلك الجملة بمقدر.

وكلمة وما يدريك جارية مجرى المثل، والكاف منها خطاب لغير معين بمعنى:

قد تدري، أي قد يدري الداري، ف ما استفهامية والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة.

ويدريك من الدراية بمعنى العلم. وقد علق فعل (يدري) عن العمل بحرف الترجي.

وعن ابن عباس كل ما جاء فعل (ما أدراك) فقد أعلمه الله به أي بينه له عقب كلمة (ما أدراك) نحو وما أدراك ما هيه نار حامية [القارعة: ١٠، ١١] وكل ما جاء فيه وما يدريك".

---

(١) التحرير والتنوير ٣١١/٢٤

(١)

٤٩٥. ٤٩٥-"منه أن الله يمحو باطل المشركين وبهتانهم ويحقق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعلى مراعاة هذا المعنى جرى جمع من أهل التفسير مثل الكسائي وابن الأنباري والزجاج والزمخشري ولم يجعلوا ويمح عطفا على فعل الجزاء لأن المتبادر أن هذا وعد من الله بإظهار الإسلام، ووعيد المشركين بأن دينهم زائل. وهذا هو المتبادر من رفع ويحق باتفاق القراء على رفعه، والمراد بالمحو على هذا: الإزالة. والمراد بالباطل:

الباطل المعهود وهو دين الشرك. وبالحق: الحق المعهود، وهو الإسلام.

أو يكون المعنى أن من شأن الله تعالى أن يزيل الباطل ويفضحه بإيجاد أسباب زواله وأن يوضح الحق بإيجاد أسباب ظهوره، حتى يكون ظهوره فاضحا لبطلان الباطل فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه وأظهر الحق، فالمراد بالباطل: جنس الباطل، وبالحق جنس الحق، وتكون الجملة كالتذييل للتفريع. والمعنى الأول أنسب بالاستئناف، ولإفادته الوعيد بإزالة ما هم عليه ونصر المسلمين عليهم.

وعلى كلا المعنيين فقوله: ويمح الله الباطل كلام مستأنف ليس معطوفا على جزاء الشرط إذ ليس المعنى على: إن يشأ الله يمح الباطل، بل هو تحقيق لمحوه للباطل كقوله تعالى: إن الباطل كان زهوقا [الإسراء: ٨١] ، كما دل عليه رفع ويحق الحق بكلماته، ففعل يمح مرفوع وحقه ظهور الواو في آخره، ولكنها حذفت تخفيفا في النطق، وتبع حذفها في النطق حذفها في الرسم اعتبارا بحال النطق كما حذف واو سندع الزبانية [العلق: ١٨] وواو ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير [الإسراء: ١١] . وذكر في «الكشاف» أن الواو ثبتت في بعض المصاحف ولم يعينه ولا ذكره غيره فيما رأيت.

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ويمح الله الباطل دون أن يقول: ويمح الباطل، لتقوية تمكن المسند إليه من الذهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل. وإنما عدل على الجملة الاسمية في صوغ ويمح الله الباطل فلم يقل: والله يمحو الباطل، لأنه أريد أن ما في إفادة المضارع من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٦٨

التجدد والتكرير **إيماء** إلى أن هذا شأن الله وعادته لا تتخلف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأن إفادة". (١)

٤٩٦. ٤٩٦-"فحصلت في جملة وهو الذي يقبل التوبة عن عباده أربع مبالغات: بناء الجملة على الاسمية وعلى الموصولية وعلى المضارعية، وعلى تعدية فعل الصلة ب عن دون (من) .

والتوبة: الإقلاع عن فعل المعصية امتثالا لطاعة الله، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه في سورة البقرة [٣٧] . وقبول التوبة منة من الله تعالى لأنه لو شاء لما رضي عن الذي اقترف الجريمة ولكنه جعلها مقبولة لحكمته وفضله.

وفي ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك **إيماء** إلى أن الله رفيق بعباده لمقام العبودية فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه.

والعفو: عدم مؤاخذة الجاني بجنايته. والسيئات: الجرائم لأنها سيئة عند الشرع.

والعفو عن السيئات يكون بسبب التوبة بأن يعفو عن السيئات التي اقترفها العاصي قبل توبته، ويكون بدون ذلك مثل العفو عن السيئات عقب الحج المبرور، ومثل العفو عن السيئات لأجل الشهادة في سبيل الله، ومثل العفو عن السيئات لكثرة الحسنات بأن يمحى عن العاصي من سيئاته ما يقابل مقدارا من حسناته على وجه يعلمه الله تعالى، ومثل العفو عن الصغائر باجتناب الكبائر.

والتعريف في السيئات تعريف الجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك قال تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به [النساء: ٤٨] ولك أن تجعله عوضا عن المضاف إليه، أي عن سيئات عباده فيعم جميع العباد عموما مخصوصا بالأدلة لهذا الحكم كما في الوجه الأول.

وجملة ويعلم ما تفعلون معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال، والمقصود: أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرها. وقرأ الجمهور ما يفعلون بياء الغيبة، أي ما يفعل

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٢٥

عباده. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب على طريقة الالتفات. والاستجابة: مبالغة في الإجابة، وخصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوة أو الأمر.". (١)

٤٩٧. ٤٩٧-"يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم ومحاسبة أنفسهم حتى لا يحسبوا أن الجزاء الذي أوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة بل يعلموا أنه قد يصيبهم الله بما هو جزاء لهم في الدنيا، ولما كان ما أصاب قريشا من القحط والجوع استجابة لدعوة النبيء صلى الله عليه وسلم عليهم كما تقدم، وكانت تلك الدعوة ناشئة على ما لاقوه به من الأذى، لا جرم كان ما أصابهم مسببا على ما كسبت أيديهم.

فالجملة عطف على جملة وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا [الشورى: ٢٨] ، وأطلق كسب الأيدي على الأفعال والأقوال المنكرة على وجه المجاز بعلاقة الإطلاق، أي بما صدر منكم من أقوال الشرك والأذى للنبيء صلى الله عليه وسلم وفعل المنكرات الناشئة عن دين الشرك.

والخطاب للمشركين ابتداء لأنهم المقصود من سياق الآيات كلها وهم أولى بهذه الموعظة لأنهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة ويشمل المؤمنين بطريق القياس وبما دل على شمول هذا الحكم لهم من الأخبار الصحيحة ومن آيات أخرى.

والباء للسببية، أي سبب ما أصابكم من مصيبة هو أعمالكم. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر فبما كسبت أيديكم على أن (ما) موصولة وهي مبتدأ. وفبما كسبت أيديكم ظرف مستقر هو خبر المبتدأ. وكذلك كتبت في مصحف المدينة ومصحف الشام وقرأ الباقون فبما كسبت أيديكم بفاء قبل الباء وكذلك كتبت في مصحف البصرة ومصحف الكوفة، على أن (ما) متضمنة معنى الشرط فاقترن خبرها بالفاء لذلك، أو هي شرطية والفاء رابطة لجواب الشرط ويكون وقوع فعل الشرط ماضيا للدلالة على التحقق.

ومن بيانية على القراءتين لما في الموصول واسم الشرط من الإبهام.

والمصيبة: اسم للحادثة التي تصيب بضر ومكروه، وقد لزمتها هاء التأنيث للدلالة على

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٩٠

الحادثة فلذلك تنوسيت منها الوصفية وصارت اسما للحادثة المكروهة.

فقراءة الجمهور تعين معنى عموم التسبب لأفعالهم فيما يصيبهم من المصائب لأن (ما) في هذه القراءة إما شرطية والشرط دال على التسبب وإما موصولة مشبهة بالشرطية، فالموصولية تفيد **الإيماء** إلى علة الخبر، وتشبيهها بالشرطية يفيد التسبب.". (١)

٤٩٨. ٤٩٨-"[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٢ إلى ٣٤]

ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣٣) أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير (٣٤)

لما جرى تذكيرهم بأن ما أصابهم من مصيبة هو مسبب عن اقتراف أعمالهم، وتذكيرهم بحلول المصائب تارة وكشفها تارة أخرى بقوله: ويعفوا عن كثير [الشورى:

٣٠] ، وأعقب بأنهم في الحالتين غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية سيق لهم ذكر هذه الآية جامعة مثالا لإصابة المصائب وظهور مخائلها المخيفة المذكرة بما يغفلون عنه من قدرة الله والتي قد تأتي بما أنذروا به وقد تنكشف عن غير ضر، ودليلا على عظيم قدرة الله تعالى وأنه لا محيص عن إصابة ما أراده، وإدماجا للتذكير بنعمة السير في البحر وتسخير البحر للناس فإن ذلك نعمة، قال تعالى: والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس في سورة البقرة [١٦٤] ، فكانت هذه الجملة اعتراضا مثل جملة ومن آياته خلق السماوات والأرض [الشورى: ٢٩] .

والآيات: الأدلة الدالة على الحق.

والجواري: جمع جارية صفة لمحذوف دل عليه ذكر البحر، أي السفن الجواري في البحر كقوله تعالى في سورة الحاقة [١١] إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية.

وعدل عن: الفلك إلى الجوار **إيماء** إلى محل العبرة لأن العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها.

والأعلام: جمع علم وهو الجبل، والمراد: بالجواري السفن العظيمة التي تسع ناسا كثيرين، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٩/٢٥

وكتبت كلمة الجوار في المصحف بدون ياء بعد الراء ولها نظائر كثيرة في القرآن في الرسم والقراءة، وللقراء في أمثالها اختلاف هي التي تدعى عند علماء القراءات بالياءات الزوائد.
وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر الجواري في هذه السورة بإثبات الياء في". (١)

٤٩٩. ٤٩٩-"وجعلت وأمرهم شورى بينهم عطفا على الصلة. وقد عرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم فإذا نزل بهم مهم اجتمعوا وتشاوروا وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم
بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة، فلما أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري فأجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له.
وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان وأي أمر أعظم من أمر الإيمان.
والأمر: اسم من أسماء الأجناس العامة مثل: شيء وحادث. وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام، أي جميع أمورهم متشاور فيها بينهم.
والإخبار عن الأمر بأنه شورى من قبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة. والإسناد مجاز عقلي لأن الشورى تسند للمتشاورين، وأما الأمر فهو ظرف مجازي للشورى، ألا ترى أنه يقال: تشاوروا في كذا، قال تعالى: وشاورهم في الأمر فاجتمع في قوله: وأمرهم شورى مجاز عقلي واستعارة تبعية ومبالغة.
والشورى مصدر كالبشرى والفتيا هي أن قاصد عمل يطلب ممن يظن فيه صواب الرأي والتدبير أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوة من عمله، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: وشاورهم في الأمر في سورة آل عمران [١٥٩] .
وقوله: بينهم ظرف مستقر هو صفة ل شورى. والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الظرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمهم الأمر من أهل

(١) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٥

الرأي فلا يدخل فيها من لا يهمه الأمر، وإلى أنها سر بين المتشاورين قال بشار:
ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم وقد كان شيخ الإسلام محمود ابن الخوجة أشار في حديث جرى بيني وبينه إلى اعتبار هذا **الإيماء** إشارة بيده حين تلا هذه الآية، ولا أدري أذلك استظهار منه أم". (١)

٥٠٠. ٥٠٠-"ربهم هذه المعاملة تسليك عن معاملتهم إياك على نحو قوله تعالى: يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك [النساء: ١٥٣] ، ولهذا لا تجد نظائر هذه الجملة في معناها مفتتحا بمثل هذا الضمير لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه وإن كان معناهما متماثلا، فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة. ولكن نظم هذه الآية جاء صالحا لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خلق للناس كلهم مرتكز في الجبلة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية، فيحمل الإنسان في الموضعين على جنس بني آدم ويحمل الفرح على مطلقه المقول عليه بالتشكيك حتى يبلغ مبلغ البطر، وتحمل السيئة التي قدمتها أيديهم على مراتب السيئات إلى أن تبلغ مبلغ الإشراك، ويحمل وصف كفور على ما يشمل اشتقاقه من الكفر بتوحيد الله، والكفر بنعمة الله.
ولهذا اختلفت محامل المفسرين للآية. فمنهم من حملها على خصوص الإنسان
الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي، ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير. ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشف ومنهم من عكس وهي طريقة الكواشي في تلخيصه. وعلى الوجهين فالمراد ب الإنسان في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق، أي إذا أذقنا الناس، وأن الناس كفورون، ويكون استغراقا عرفيا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان لأن أكثر نوع الإنسان يومئذ مشركون، وهذا هو المناسب لقوله: فإن الإنسان كفور أي شديد الكفر قويه، ولقوله: بما قدمت أيديهم أي من الكفر. وإنما عدل عن التعبير بالناس

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٥

إلى التعبير بالإنسان **للإيماء** إلى أن هذا الخلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام فالذين لم". (١)

٥٠١. ٥٠١-"وتأكيد الخبر ب (إن) للاهتمام به لأن الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبيء صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بهذا المقام العظيم فالخبر مستعمل في لازم معناه، على أنه مستعمل أيضا للتعريض بالمنكرين لهديه فيكون في التأكيد ملاحظة تحقيقه وإبطال إنكارهم. فكما أن الخبر مستعمل في لازمين من لوازم معناه فكذلك التأكيد ب (إن) مستعمل في غرضين من أغراضه، وكلا الأمرين مما ألحق باستعمال المشترك في معنييه.

وتنكير صراط للتعظيم مثل تنكير (عظم) في قول أبي خراش:

فلا وأبي الطير المربة في الضحى ... على خالد لقد وقعن على عظم

ولأن التنكير أنسب بمقام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته.

وعدل عن إضافة صراط إلى اسم الجلالة ابتداء لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل بأن يبدل منه بعد ذلك صراط الله ليتمكن بهذا الأسلوب المعنى المقصود فضل تمكن على نحو قوله: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم [الفاتحة: ٦، ٧] .

وإجراء وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته **للإيماء** إلى أن سبب استقامة الصراط الذي يهدي إليه النبيء بأنه صراط الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض فلا يعزب عنه شيء مما يليق بعباده، فلما أرسل إليهم رسولا بكتاب لا يرتاب في أن ما أرسل لهم فيه صلاحهم.

ألا إلى الله تصير الأمور.

تذييل وتنهية للسورة بختام ما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع منذر بوعيد للمعرضين فاجع ومبشر بالوعد لكل خاشع. وافتتحت الجملة بحرف

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٤/٢٥

التنبيه لاسترعاء أسماع الناس.". (١)

٥٠٢. ٥٠٢-"ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يصطفى لها ورحمة للناس المرسل إليهم، جعل تحكمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيار هم من يختار لها وتعيين المتأهل لإبلاغها إلى المرحومين.

ووجه الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وسلم وأضيف لفظ (الرب) إلى ضميره إيماء إلى أن الله مؤيده تأنيسا له، لأن قولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] قصدوا منه الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أن الله ربه، أي متولي أمره وتدبيره.

وجملة نحن قسمنا بينهم معيشتهم تعليل للإنكار والنفي المستفاد منه، واستدلال عليه، أي لما قسمنا بين الناس معيشتهم فكانوا مسيرين في أمورهم على نحو ما هيأنا لهم من نظام الحياة وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجا إلى بعض ومسخرا به. فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدنيا، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ فإن ذلك أعظم شؤون البشر. فهذا وجه الاستدلال.

والسخري بضم السين وبكسرها وهما لغتان ولم يقرأ في القراءات المشهورة إلا بضم السين. وقرأ ابن محيص في الشاذ بكسر السين: اسم للشيء المسخر، أي المجبور على عمل بدون اختياره، واسم لمن يسخر به، أي يستهزأ به كما في «مفردات» الراغب و «الأساس» و «القاموس» . وقد فسر هنا بالمعنيين كما قال القرطبي. وقال ابن عطية: هما لغتان في معنى التسخير ولا تدخل لمعنى الهزء في هذه الآية. ولم يقل ذلك غيره وكلام الراغب محتمل. واقتصر الطبري على معنى التسخير. فالوجه في ذلك أن المعنيين معتبران في هذه الآية. وإيثار لفظ سخريا في الآية دون غيره لتحمله للمعنيين وهو اختيار من وجوه الإعجاز فيجوز أن يكون المعنى ليتعمل بعضهم بعضا في شؤون حياتهم فإن الإنسان مدني، أي محتاج إلى إعانة بعضه

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١٥٥

بعضا، وعليه فسر الزمخشري وابن عطية وقاله السدي وقتادة والضحاك وابن زيد،". (١)

٥٠٣. ٥٠٣-"لن يخلص العام خليل عشرا ... ذاق الضماد أو يزور القبرا

وقد حصل من اجتماع هذه الدوال الثلاث في الآية طباق عزيز بين ثلاثة معان متضادة في الجملة.

[٤٠]

[سورة الزخرف (٤٣) : آية ٤٠]

أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠)

تفريع على جملة ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا [الزخرف: ٣٦] لأن ذلك أفاد توغلهم في الضلالة وعسر انفكاكهم عنها، لأن مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلى التهوين على النبيء صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من الكد والتحرق عليهم في تصميمهم على الكفر والغي وفيه **إيماء** إلى تأييس من اهتداء أكثرهم.

والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداهم ناجعا فيهم إذا كان الله قدر ضلالهم فأوجد أسبابه، قال تعالى: إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل [النحل: ٣٧] ، ولما كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم في معاودة دعوتهم كحال من يظن أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزل منزلة من يظن ذلك فخوطب باستفهام الإنكار وسلط الاستفهام على كلام فيه طريق قصر بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مع إيلاء الضمير حرف الإنكار وهو قصر مؤكد وقصر قلب، أي أنت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء، وهو نظير أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [يونس:

٩٩] .

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشا، وهو النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصم العمي إشارة أن التمحل للضلال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٠١

ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال لا أن التخلق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات. وهو معنى

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»

أي حتى يحق عليه أن الكذب ملكة له، وإذ قد كان إعراضهم انصرافا عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصم العمي كما مهد لذلك بقوله: ومن يعش عن ذكر الرحمن [الزخرف: ٣٦]". (١)

٥٠٤. ٥٠٤-"كما ذكرناه هنالك، فظهرت

المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصم العمي.

وعطف ومن كان في ضلال مبين فيه معنى التذييل لأنه أعم من كل من الصم والعمي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أن الصمم والعمى لما كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصر جزئيا في حالة خاصة فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيها على عموم الأحوال وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة لأن اجتماع الصمم والعمى أبين ضلالا.

[٤١، ٤٢]

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٤١ إلى ٤٢]

فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون (٤١) أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون (٤٢)

تفريع على جملة أفأنت تسمع الصم [الزخرف: ٤٠] إلى آخرها المتضمنة **إيماء** إلى التأييس من اهتدائهم، والصريحة في تسلية النبيء صلى الله عليه وسلم من شدة الحرص في دعوتهم، فجاء هنا تحقيق وعد بالانتقام منهم، ومعناه: الوعد بإظهار الدين إن كان في حياة النبيء صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته، ووعيدهم بالعقاب في الدنيا قبل عقاب الآخرة، فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذكر في هذه الجملة أمران: الانتقام منهم لا محالة، وكون ذلك واقعا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته. والمفرع هو فإنا منهم منتقمون وما ذكر

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/٢٥

معه، فمراد منه تحقق ذلك على كل تقدير.

و (إما) كلمتان متصلتان أصلهما (إن) الشرطية و (ما) زائدة بعد (إن) ، وأدغمت نون (إن) في الميم من حرف (ما) ، وزيادة (ما) للتأكيد، ويكثر اتصال فعل الشرط بعد (إن) المزيدة بعدها (ما) بنون التوكيد زيادة في التأكيد، ويكتبونها بهمزة وميم وألف تبعا لحالة النطق بها.

والذهاب به هنا مستعمل للتوفي بقرينة قوله: أو نرينك الذي وعدناهم لأن الموت مفارقة للأحياء فالإماتة كالانتقال به، أي تغييبه ولذلك يعبر عن الموت بالانتقال.

والمعنى: فإما نتوفينك فإنا منهم منتقمون بعد وفاتك.". (١)

٥٠٥. ٥٠٥-"في قوله: إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل [الزخرف: ٥٩] الآية، أي لما جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به، فحذف جواب لما لأن المقصود هو قوله: فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم [الزخرف: ٦٥] لأنه يفيد أن سنن الأمم المبعوث إليهم الرسل لم يختلف فإنه لم يخل رسول عن قوم آمنوا به وقوم كذبوه ثم كانوا سواء في نسبة الشركاء في الإلهية بمزاعم النصارى أن عيسى ابن لله تعالى كما أشار إليه قوله: فويل للذين ظلموا [الزخرف: ٦٥] أي أشركوا كما هو اصطلاح القرآن غالبا. فتم التشابه بين الرسل السابقين وبين محمد صلى الله عليهم أجمعين، فحصل في الكلام إيجاز تدل عليه فاء التفريع.

وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أن الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقا بها من قبل، فإن عيس بعث إلى قوم لم يكونوا

يدينون بالشرك إذ هو قد بعث لبني إسرائيل وكلهم موحدون فلما اختلف أتباعه بينهم وكذبت به فرق وصدقه فريق ثم لم يتبعوا ما أمرهم به لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك.

وجملة قال قد جئتكم بالحكمة مبينة لجملة جاء عيسى بالبينات وليست جوابا لشرط لما الذي جعل التفريع في قوله: فاختلف الأحزاب من بينهم [مريم: ٣٧] دليلا عليه. وفي إيقاع جملة قد جئتكم بالحكمة بيانا لجملة جاء عيسى بالبينات **إيماء** إلى أنه بادأهم بهذا القول،

(١) التحرير والتنوير ٢١٧/٢٥

لأن شأن أهل الضلالة أن يسرعوا إلى غاياتها ولو كانت مبادئ الدعوة تنافي عقائدهم، أي لم يدعهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلف فيه ولم يدعهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب.
وابتداؤه بإعلامهم أنه جاءهم بالحكمة والبيان وهو إجمال حال رسالته ترغيب لهم في وعي ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة المفرع بعضها على هذه المقدمة بقوله:
فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه.
والحكمة هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكف عن القبيح وهي هنا النبوءة،". (١)

٥٠٦. ٥٠٦-"التشريعات بأن ذلك كله من ربه، أي بواسطته فإنه إذا كان الإرسال رحمة كان الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة قال تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] ، ويعلم من كونه رب الرسول صلى الله عليه وسلم أنه رب الناس كلهم إذ لا يكون الرب رب بعض الناس دون بعض فأغنى عن أن يقول:
رحمة من ربك وربهم، لأن غرض إضافة رب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم يأبى ذلك، ثم سيصرح بأنه ربهم في قوله ربكم ورب آبائكم الأولين [الدخان: ٨] وهو مقام آخر سيأتي بيانه.
وجملة إنه هو السميع العليم تعليل لجملة إنا كنا مرسلين رحمة من ربك أي كنا مرسلين رحمة بالناس لأنه علم عبادة المشركين للأصنام وعلم إغواء أيمة الكفر للأمم وعلم ضجيج الناس من ظلم قويهم ضعيفهم وعلم ما سوى ذلك من أقوالهم فأرسل الرسل لتقويمهم وإصلاحهم وعلم أيضا نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض فأرسل الرسل بالشرائع لكف الناس عن الفساد وإصلاح عقائدهم وأعمالهم، فأشير إلى علم النوع الأول
بوصف السميع لأن السميع هو الذي يعلم الأقوال فلا يخفى عليه منها شيء. وأشير إلى علم النوع الثاني بوصف العليم الشامل لجميع المعلومات. وقدم السميع للاهتمام بالمسموعات لأن أصل الكفر هو دعاء المشركين أصنامهم.
واعلم أن السميع والعليم تعليلان لجملة إنا كنا مرسلين بطريق الكناية الرمزية لأن علة الإرسال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٦

في الحقيقة هي إرادة الصلاح ورحمة الخلق. وأما العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقه، فالتعليل بصفة العلم بناء على مقدمة أخرى وهي أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد، فإذا كان لا يحب ذلك وكان عليما بتصرفات الخلق كان علمه وحكمته مقتضيين أن يرسل للناس رسلا رحمة بهم. وضمير الفصل أفاد الحصر، أي هو السميع العليم لا أصنامكم التي تدعونها. وفي هذا **إيماء** إلى الحاجة إلى إرسال الرسول إليهم بإبطال عبادة الأصنام.
وفي وصف السميع العليم تعريض بالتهديد.". (١)

٥٠٧. ٥٠٧-"والمشركين في بلد واحد كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا [الأعراف: ١٥٥] . وفيه **إيماء** إلى أن الله سيخرج المؤمنين من مكة قبل أن يحل بأهلها هذا العذاب، فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [البقرة:
٢٨٦] الآيات. وعليه فجملة إنا مؤمنون تعليل لطلب دفع العذاب عنهم، أي إنا متلبسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين، وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان، وأسلوب الكلام جار على أن جملة إنا مؤمنون تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إن) من معنى الإخبار دون الوعد، ومن التعليل دون التأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل في زمن الحال دون الاستقبال، ولأن سياقه خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بترقب إعانة الله إياه على المشركين، كما كان يدعو «أعني عليهم بسبع كسني يوسف» فمقتضى المقام تأمينه من أن يصيب العذاب المسلمين وفيهم النبيء صلى الله عليه وسلم، وظاهر مادة الكشف تقتضي إزالة شيء كان حاصلا في شيء إلا أن الكشف هنا لما لم يكن مستعملا في معناه الحقيقي كان مجازه محتملا أن يكون مستعملا في منع حصول شيء يخشى حصوله كما في قوله تعالى:
إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا [يونس: ٩٨] فإن قوم يونس لم يحل بهم عذاب فزال عنهم ولكنهم توعدوا به فبادروا بالإيمان فنجاهم الله منه، وقول

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/٢٥

جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

أراد أنه يمنع العدو من أن ينالهم بسوء، ومحتملا للاستعمال في زوال شيء كان حصل. ولم يذكر أحد من رواة السير والآثار أن المشركين وعدوا النبيء صلى الله عليه وسلم بأنهم يسلمون إن أزال الله عنهم القحط.". (١)

٥٠٨. ٥٠٨-"[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٤٣ إلى ٥٠]

إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦) خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧)

ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩) إن هذا ما كنتم به تمترون (٥٠)

لما ذكر الله فريقا مرحومين على وجه الإجمال قابله هنا بفريق معذبون وهم المشركون، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم، فكان مقتضى الظاهر أن يبتدأ الكلام بالإخبار عنهم بأنهم يأكلون شجرة الزقوم كما قال في سورة الواقعة [٥١، ٥٢] ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم الآية، فعدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم بأنها طعام الأثيم اهتماما بالإعلام بحال هذه الشجرة. وقد جعلت شجرة الزقوم شيئا معلوما للسامعين فأخبر عنها بطريق تعريف الإضافة لأنها سبق ذكرها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدخان فإن الواقعة عدت السادسة والأربعين في عداد نزول السور وسورة الدخان ثالثة وستين. ومعنى كون الشجرة طعاما أن ثمرها طعام، كما قال تعالى: طلعها كأنه رؤس الشياطين فإنهم لآكلون منها [الصافات: ٦٥، ٦٦] .

وكتبت كلمة شجرة في المصاحف بتاء مفتوحة مراعاة لحالة الوصل وكان الشائع في رسم أواخر الكلم أن تراعى فيه حالة الوقف، فهذا مما جاء على خلاف الأصل.

والأثيم: الكثير الآثام كما دلت عليه زنة فعيل. والمراد به: المشركون المذكورون في قوله: إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى [الدخان: ٣٤، ٣٥] ، فهذا من الإظهار في مقام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٩٠

الإضمار لقصد **الإيماء** إلى أن المهم بالشرك مع سبب معاملتهم هذه.". (١)

٥٠٩. ٥٠٩-"ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم (٥٧) .

عطف على وزوجناهم بحور عين وهذا تذكير بنعمة السلامة مما ارتبك فيه غيرهم. وذلك مما يحمد الله عليه كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني مما هو فيه. وضمير وقاهم عائد إلى ضمير المتكلم في وزوجناهم على طريقة الالتفات.

وفضلا حال من المذكورات. والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم.

وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منا.

ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبيء صلى الله عليه وسلم **والإيماء** إلى أن ذلك إكرام له لإيمانهم به.

وجملة ذلك هو الفوز العظيم تذييل، والإشارة في ذلك هو الفوز العظيم لتعظيم الفضل ببعد المرتبة. وأتي بضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل المشار إليه وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنه لا فوز غيره.

[٥٨، ٥٩]

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون (٥٨) فارتقب إنهم مرتقبون (٥٩)

الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة للسورة، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتب علتها.

وضمير يسرناه عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٥

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٠/٢٥

٥١٠.   ٥١٠-"من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه، من جانب بلاغته إذ غلبت بلاغة بلغائهم، ومن جانب معانيه إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء، وقد تقدم مثيل هذا في طالعة سورة الزمر وقريب منه في طالعة سورة غافر.
[٣- ٥]

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٣ إلى ٥]
إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين (٣) وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥)
موقع هذا الكلام موقع تفصيل المجمل لما جمعته جملة تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم [الجاثية: ٢] باعتبار أن آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنما كانت آيات للمؤمنين الموقنين، وللذين حصل لهم العلم بسبب ما ذكرهم به القرآن، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: تلك آيات الله نتلوها عليك [الجاثية: ٦] .
وأكد ب إن وإن كان المخاطبون غير منكريه لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى وإلا فقد قال الله تعالى: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم في سورة الزخرف [٩] .
والخطاب موجه إلى المشركين ولذلك قال: لآيات للمؤمنين وقال: آيات لقوم يوقنون دون أن يقال: لآيات لكم أو آيات لكم، أي هي آيات لمن يعلمون دلالتها من
المؤمنين ومن الذين يوقنون إشارة إلى أن تلك الآيات لا أثر لها في نفوس من هم بخلاف ذلك. والمراد بكون الآيات في السماوات والأرض أن ذات السماوات والأرض وعداد صفاتها دلائل على الوحدانية فجعلت السماوات والأرض بمنزلة الظرف لما أودعته". (١)

(١) التحرير والتنوير ٣٢٦/٢٥

٥١١.	٥١١-"يتأتيان في مثل هذا التركيب كلما وقع في الكلام، وقد تقدم عند قوله تعالى: قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة في سورة إبراهيم [٣١] .

وللذين لا يرجون أيام الله يراد بهم المشركون من أهل مكة.

والرجاء: ترقب وتطلب الأمر المحبوب، وهذا أشهر إطلاقاته وهو الظاهر في هذه الآية.

والأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب على معاند أو مقاتل، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب: أيام العرب، أي التي كان فيها قتال بين قبائل منهم فانتصر بعضهم على بعض، كما يقال أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس، قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

فإذا قالوا: أيام بني فلان، أرادوا الأيام التي انتصر فيها من أضيفت الأيام إلى اسمه، ويقولون: أيام بني فلان على بني فلان فيريدون أن المجرور بحرف الاستعلاء

مغلوب لتضمن لفظ أيام أو (يوم) معنى الانتصار والغلب. وبذلك التضمن كان المجرور متعلقا بلفظ أيام أو (يوم) وإن كان جامدا، فمعنى أيام الله على هذا هو من قبيل قولهم: أيام بني فلان، فيحصل من محمل الرجاء على ظاهر استعماله.

ومحمل أيام الله على محمل أمثاله أن معنى الآية للذين لا تترقب نفوسهم أيام نصر الله، أي نصر الله لهم: إما لأنهم لا يتوكلون على الله ولا يستنصرونه بل توجههم إلى الأصنام، وإما لأنهم لا يخطر ببالهم إلا أنهم منصورون بحولهم وقوتهم فلا يخطر ببالهم سؤال نصر الله أو رجاؤه وهم معروفون بهذه الصلة بين المسلمين فلذلك أجريت عليهم هنا وعرفوا بها. وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأن الله ينصر الذين يرجون أيام نصره وهم المؤمنون. والغرض من هذا التعريض **الإيماء** بالموصول إلى وجه أمر". (١)

٥١٢.	٥١٢-"وجعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيته.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣٤٠

وذكر لفظ (قوم) **للإيماء** إلى أن الإيقان متمكن من نفوسهم كأنه من مقومات قوميتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين.

والإيقان: العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه. وحذف متعلقه لأنه معلوم بما جاءت به آيات الله.

[٢١]

[سورة الجاثية (٤٥) : آية ٢١]

أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون (٢١)

انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها ثم من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله ثم من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال وتخييلهم للناس أنهم يصيرون في الآخرة، على الحال التي كانوا عليها في الدنيا، عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الآخرة، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله: من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون [الجاثية: ١٥] .

فحرف أم

للإضراب الانتقالي، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد أم

استفهام إنكاري، والتقدير: لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا لا في الحياة وفي في الممات. والذين اجترحوا السيئات

في نقل عن ابن عباس: أنهم المشركون كما يؤذن به الانتقال من الغرض السابق إلى هذا الغرض وإنما عبر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد ولأن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥١/٢٥

٥١٣. ٥١٣-"أحسن حالا من المؤمنين لا أن يكونوا مثل المؤمنين لأنهم قالوا ذلك في مقام التطاول على المؤمنين، وإرادة إفحامهم بسفسطتهم. فبنا أن نبين موقع هذا الكاف في الآية.

والذي أرى: أن موقعه **الإيماء** إلى أن الله قدر للمؤمنين حسن الحال بعد الممات حتى صار ذلك المقدر مضرب الأمثال ومناط التشبيه، وإلى أن حسبان المشركين أنفسهم في الآخرة على حالة حسنة باطل، فعبر عن حسبانهم الباطل بأنهم أثبتوا لأنفسهم في الآخرة الحال التي هي حال المؤمنين، أي حسب المشركون بزعمهم أن يكونوا بعد الموت في حالة إذا أراد الواصف أن يصفها وصفها بمشابهة حال المؤمنين في عند الله وفي نفس الأمر، وليس المراد أن المشركين مثلوا حالهم بحال المؤمنين فيؤول قوله:

كالذين آمنوا

إلى حكاية الكلام المحكي بعبارة تساويه لا بعبارة قائله، وذلك مما يتوسع فيه في حكاية الأقوال كقوله تعالى حكاية عن عيسى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله، ربي وربكم [المائدة: ١١٧] فإن ما أمره الله به: أن اعبدوا الله ربك وربهم، وذلك من خلاف مقتضى الظاهر دعا الله هنا قصد التنويه بالمؤمنين والعناية بزلفاهم عند الله، فكأنه قيل: أحسبوا أن نجعلهم في حالة حسنة ولكن هذا المأمول في حسبانهم هو في نفس الأمر حال المؤمنين لا حالهم. فأوجز الكلام، وفهم السامع يبسطه. والمواجه بهذا الكلام هم النبيء والمؤمنون تكملة للغرض المبتدأ به في قوله: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله [الجاثية: ١٤] على أن لك أن تجعل قوله تعالى: كالذين آمنوا

معترضا بين مفعولي (نجعل) وهما ضميرا الغائبين وجملة سواء محياهم

أو ولفظ سواء

في قراءة نصبه فلا يكون مرادا إدخاله في حسبان المشركين.

ويجوز على هذا أن يكون قوله: كالذين آمنوا

تهكما على المشركين في حسبانهم تأكيدا للإنكار عليهم.

ومن خلاف ظاهر التركيب ما قيل: إن مدلول سواء محياهم ومماتهم

ليس من

حسبان المشركين المنكور ولكنه كلام مستأنف، والمعنى: أنه لما أنكر". (١)

٥١٤. ٥١٤-"حسبان استواء الكافرين والمؤمنين خطر ببال السامع أن يسأل كيف واقع حال الفريقين فأجيب بأن حال محياهم هو مقياس حال مماتهم، أي حالهم في الآخرة مختلف كما هو في الدنيا مختلف، فالمؤمنون يحيون في الإقبال على ربهم ورجاء فضله، والكافرون يعيشون معرضين عن عبادة ربهم آيسين من البعث والجزاء. وهذا ليس عين الجواب ولكنه من الاكتفاء بعلة الجواب عن ذكره. والتقدير: حال الفريقين مختلف في الآخرة كما كان مختلفا في الحياة.

وجملة ساء ما يحكمون

تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني. واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في تخالف حالي المشركين والمؤمنين فإن نوط الحكم فيها بصلة الذين اجترحوا السيئات

يجعل منها **إيماء** إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان وإن لم يحسب أحد من المؤمنين ذلك وعن تميم الداري أنه بات ليلة يقرأ هذه الآية ويركع ويسجد ويبكي إلى الصباح. وروي مثل ذلك عن الربيع بن خيثم وعن الفضيل بن عياض: أنه كان كثيرا ما يردد من أول الليل هذه الآية ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت. يخاطب نفسه فكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين.

والمحيا والممات: مصدران ميميان أو اسما زمان، أي حياتهم وموتهم، وهو على كلا الاعتبارين بتقدير مضاف، أي حالة محياهم وحالات مماتهم.

[٢٢]

[سورة الجاثية (٤٥) : آية ٢٢]

وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون (٢٢)

الجملة معترضة والواو اعتراضية وهو اعتراض بين الكلام المتقدم وبين ما فرع عليه من قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣٥٤

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه [الجاثية: ٢٣] هو كالدليل على انتفاء أن يكون الذين اجترحوا السيئات الذين هم في بحبوحة عيش مدة حياتهم أن يكونوا في نعيم بعد مماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مدة حياتهم فكان جزاؤهم النعيم بعد". (١)

٥١٥. ٥١٥-"وتقديم هم على يستعتبون وهو مسند فعلي بعد حرف النفي هنا تعريض بأن الله يعتب غيرهم، أي يرضي المؤمنين، أي يغفر لهم.
[٣٦، ٣٧]

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٣٦ إلى ٣٧]
فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين (٣٦) وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٣٧)
الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم، فلما كان ذلك كله من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه فيجوز أن يكون هذا الكلام مرادا منه ظاهر الإخبار، ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملا في معناه الكنائي وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه. ويجوز أن يكون إنشاء حمد لله تعالى وثناء عليه. وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ونظيره قوله تعالى: فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين في سورة الأنعام [٤٥] .
وتقديم (لله) لإفادة الاختصاص، أي الحمد مختص به الله تعالى يعني الحمد الحق الكامل مختص به تعالى كما تقدم في سورة الفاتحة.
وإجراء وصف رب السماوات على اسمه تعالى إيماء إلى علة قصر الحمد على الله إخبارا وإنشاء تأكيدا لما اقتضته الفاء في قوله: فلله الحمد. وعطف ورب الأرض بتكرير لفظ رب للتنويه بشأن الربوبية لأن رب السماوات والأرض يحق حمده على أهل السماء والأرض،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٥/٢٥

فأما أهل السماء فقد حمدوه كما أخبر الله عنهم بقوله:
والملائكة يسبحون بحمد ربهم [الشورى: ٥] . وأما أهل الأرض فمن حمده منهم فقد أدى حق الربوبية ومن حمد غيره وأعرض عنه فقد سجل على نفسه سمة الإباق، وكان بمأوى النار محل استحقاق.". (١)

٥١٦. ٥١٦-"وهو عمل شاق لأمه فذكرت مدة الحمل والإرضاع لأنها لطولها تستدعي صبر الأم على تحمل كلفة الجنين والرضيع.
والفصال: الفطام، وذكر الفصال لأنه انتهاء مدة الرضاع فذكر مبدأ مدة الحمل بقوله: وحمله وانتهاء الرضاع بقوله: وفصاله. والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرا. وقرأ يعقوب وفصله بسكون الصاد، أي فصله عن الرضاعة بقرينة المقام.
ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة تسعة أشهر وهو الغالب أرضعت المولود أحد وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرا زائدا في الإرضاع لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالا.
ومن بديع هذا الطي في الآية أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع فلولا قصد **الإيماء** إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام. وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع آية سورة البقرة [٢٣٣] والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين دليلا على أن الوضع قد يكون لستة أشهر، ونسب مثله إلى ابن عباس.
ورووا عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت

(١) التحرير والتنوير ٣٧٧/٢٥

لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فذكر له فبعث إليها عثمان، فلما أتي بها أمر برجمها فبلغ ذلك عليا". (١)

٥١٧. ٥١٧-"على الراحلة أفيجزئ أن أحج عنه، قال: نعم حجي عنه»
، وهو حج غير واجب على أبيها لعجزه.

والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية وهو جمع لم يسمع له بمفرد. وقيل مفرده: شدة بكسر الشين وهاء التأنيث مثل نعمة جمعها أنعم، وليس الأشد اسما لعدد من سني العمر وإنما سنو العمر مظنة للأشد. ووقته ما بعد الثلاثين سنة وتمامه عند الأربعين سنة ولذلك عطف على بلغ أشده قوله: وبلغ أربعين سنة أي بلغ الأشد ووصل إلى أكمله فهو كقوله تعالى: ولما بلغ أشده واستوى [القصص: ١٤] ، وتقدم في سورة يوسف، وليس قوله: وبلغ أربعين سنة تأكيدا لقوله بلغ أشده لأن إعادة فعل بلغ تبعد احتمال التأكيد وحرف العطف أيضا يبعد ذلك الاحتمال.

وأوزعني: ألهمني. وأصل فعل أوزع الدلالة على إزالة الوزع، أي الانكفاف عن عمل ما، فالهمزة فيه للإزالة، وتقدم في سورة النمل.

ونعمتك اسم مصدر مضاف يعم، أي ألهمني شكر النعم التي أنعمت بها علي وعلى والدي من جميع النعم الدينية كالإيمان والتوفيق ومن النعم الدنيوية كالصحة والجدة.

وما ذكر من الدعاء لذريته بقوله: وأصلح لي في ذريتي استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفل الإنسان عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذريته إليه مثل ما كان منه لأبويه وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد.

وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين **إيماء** إلى أن المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة.

وفي حديث أبي هريرة عن النبيء صلى الله عليه وسلم: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٠

فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»

، وفي رواية «لولده» وهو حديث حسن متعددة طرقه.". (١)

٥١٨. ٥١٨-"المراد بالإنسان من قوله: ووصينا الإنسان [الأحقاف: ١٥] غير معين بل المراد الجنس المستعمل في الاستغراق كما قدمناه. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما قبلها من الوصف والحث يحدث ترقب السامع لمعرفة فائدة ذلك فكان قوله: أولئك الذين يتقبل عنهم إلى آخره جوابا لترقية.

وعموم أحسن ما عملوا يكسب الجملة فائدة التذييل، أي الإحسان بالوالدين والدعاء لهما وللذرية من أفضل الأعمال فهو من أحسن ما عملوا. وقد تقبل منهم كل ما هو أحسن ما عملوا. والتقبل: ترتب آثار العمل من ثواب على العمل واستجابة للدعاء.

وفي هذا **إيماء** إلى أن هذا الدعاء مرجو الإجابة لأن الله تولى تلقينه مثل الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

وعدي فعل يتقبل بحرف (عن) ، وحقه أن يعدى بحرف (من) تغليبا لجانب المدعو لهم وهم الوالدان والذرية، لأن دعاء الولد والوالد لأولئك بمنزلة النيابة عنهم في عبادة الدعاء وإذا كان العمل بالنيابة متقبلا علم أن عمل المرء لنفسه متقبل أيضا ففي الكلام اختصار كأنه قيل: أولئك يتقبل منهم ويتقبل عن والديهم وذريتهم أحسن ما عملوا.

وقرأ الجمهور يتقبل ويتجاوز بالياء التحتية مضمومة مبنيين للنائب وأحسن مرفوع على النيابة عن الفاعل ولم يذكر الفاعل لظهور أن المتقبل هو الله وقرأها حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنونين مفتوحتين ونصب أحسن.

وقوله: في أصحاب الجنة في موضع الحال من اسم الإشارة، أي كائنين في أصحاب الجنة حين يتقبل أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم لأن أصحاب الجنة متقبل

أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم، وذكر هذا للتنويه بهم بأنهم من الفريق المشرفين كما يقال: أكرمه في أهل العلم.

وانتصب وعد الصدق على الحال من التقبل والتجاوز المفهوم من معاني يتقبل ويتجاوز،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/٢٦

فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل كما أعيد". (١)

٥١٩. ٥١٩-"يحصل لهم يوم البعث جمعا بين الاستدلال والإنذار، وذكر من ذلك ما يقال لهم مما لا مندوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم جمعا بين ما رد به في الدنيا من قوله: بلى (١) [الأحقاف: ٣٣] وما يردون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم: بلى وربنا. والجملة عطف على جملة أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض [الأحقاف: ٣٣] إلخ.
وأول الجملة المعطوفة قوله: أليس هذا بالحق لأنه مقول فعل قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم
يعرضون على النار.
وتقديم الظرف على عامله للاهتمام بذكر ذلك اليوم لزيادة تقريره في الأذهان.
وذكر الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار **للإيماء** بالموصول إلى علة بناء الخبر، أي يقال لهم ذلك لأنهم كفروا. والإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعده قال فذوقوا العذاب. والحق: الثابت.
والاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمون أن الجزاء باطل وكذب، وقالوا وما نحن بمعذبين [الصافات: ٥٩] ، وإنما أقسموا على كلامهم بقسم وربنا قسما مستعملا في الندامة والتغليظ لأنفسهم وجعلوا المقسم به بعنوان الرب تحننا وتخضعا.
وفرع على إقرارهم فذوقوا العذاب. والذوق مجاز في الإحساس. والأمر مستعمل في الإهانة.
[٣٥]

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٣٥]
فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥)
فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥/٢٦

صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى واستهزائهم به وبما جاء به من البعث ابتداء من قوله: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين [الأحقاف: ٧] ، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم.

---

(١) في المطبوعة: فله.". (١)

٥٢٠. ٥٢٠-"فهل يهلك إلا القوم الفاسقون.

فرع على جملة كأنهم يوم يرون ما يوعدون إلى من نهار، أي فلا يصيب العذاب إلا المشركين أمثالهم. والاستفهام مستعمل في النفي، ولذلك صح الاستثناء منه كقوله تعالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه [البقرة: ١٣٠] .

ومعنى التفريع أنه قد اتضح مما سمعت أنه لا يهلك إلا القوم الفاسقون، وذلك من قوله: قل ما كنت بدعا من الرسل [الأحقاف: ٩] ، وقوله: لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين إلى قوله: ولا هم يحزنون [الأحقاف: ١٢، ١٣] ، وقوله: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى [الأحقاف: ٢٧] الآية.

والإهلاك مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي، فإن ما حكي فيما مضى بعضه إهلاك حقيقي مثل ما في قصة عاد، وما في قوله: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى، وبعضه مجازي وهو سوء الحال، أي عذاب الآخرة: وذلك فيما حكي من عذاب الفاسقين.

وتعريف القوم تعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي كل القوم الفاسقين فيعم مشركي مكة الذين عناهم القرآن فكان لهذا التفريع معنى التذييل.

والتعبير بالمضارع في قوله: فهل يهلك على هذا الوجه لتغليب إهلاك المشركين الذي لما يقع على إهلاك الأمم الذين قبلهم. ولك أن تجعل التعريف تعريف العهد، أي القوم المتحدث عنهم في قوله: كأنهم يوم يرون ما يوعدون الآية، فيكون إظهارا في

مقام الإضمار للإيماء إلى سبب إهلاكهم أنه الإشراك.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٦/٢٦

والمراد بالفسق هنا الفسق عن الإيمان وهو فسق الإشراك. وأفاد الاستثناء أن غيرهم لا يهلكون هذا الهلاك، أو هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.". (١)

٥٢١. ٥٢١-"وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، **وإيماء** بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر أي لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود.

والكفر: الإشراك بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجردا عن قرينة إرادة غير المشركين. وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي:

الكفر، والصد عن سبيل الله، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال الله إياهم.

والصد عن سبيل: هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى. وأضيف (السبيل) إلى الله لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده إن الدين عند الله الإسلام [آل عمران: ١٩] . واستعير اسم السبيل للدين لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته.

ومن الصد عن سبيل الله صدهم المسلمين عن المسجد الحرام قال تعالى:

ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام [الحج: ٢٥] . ومن الصد عن المسجد الحرام: إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة، وصدهم عن العمرة عام الحديبية.

ومن الصد عن سبيل الله: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم، فلذلك قيل: إن الآية نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا من سادة المشركين من قريش. وهم:

أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبي بن خلف وأمية بن خلف ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج وأبو البختري بن هشام والحارث بن هشام وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل وحكيم بن حزام وهذا الأخير أسلم من بعد وصار من خيرة الصحابة. وعد

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٢٦

منهم صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ومقيس الجمحي والعباس بن". (١)

٥٢٢. ٥٢٢-"عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وهذان أسلما وحسن إسلامهما وفي الثلاثة الآخرين خلاف. ومن الصد عن سبيل الله صدهم الناس عن سماع القرآن وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [فصلت: ٢٦] .
والإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله الخطأ للطريق المسلوك للوصول إلى مكان يراد وهو يستلزم المعاني الأخر. وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا لأنه الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يثبهم عليها من صلة رحم، وإطعام جائع، ونحوهما، ولأن من إضلال أعمالهم أن كان غالب أعمالهم عبثا وسيئا ولأن من إضلال أعمالهم أن الله خيب سعيهم فلم يحصلوا منه على طائل فانهزموا يوم بدر وذهب إطعامهم الجيش باطلا، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يشفوا غليلهم يوم أحد، ثم توالت انهزاماتهم في المواقع كلها قال تعالى: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون [الأنفال: ٣٦] .
[٢]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٢]
والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم (٢)
هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته، أي لأجل إيمانهم إلخ كفر عنهم سيئاتهم.
وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي: الإيمان مقابل الكفر، والإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه أضل أعمالهم [محمد: ١] ، وكفر عنهم سيئاتهم مقابل بعض آخر مما تضمنه أضل أعمالهم، وأصلح بالهم مقابل بقية ما تضمنه

(١) التحرير والتنوير ٧٣/٢٦

أضل أعمالهم. وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله: وهو الحق من ربهم". (١)

٥٢٣. ٥٢٣-"به فجع الفرسان فوق خيولهم ... كما فجعت تحت الستور العواتق

تساقط من أيديهم البيض حيرة ... وزعزع عن أجيادهن المخانق

وفي هذه الآية محسن الطباق مرتين بين الذين كفروا والذين آمنوا وبين الحق والباطل. وفي بيتي الزمخشري محسن الطباق مرة واحدة بين فوق وتحت.

واتباع الباطل واتباع الحق تمثيليتان لهيئتي العمل بما يأمر به أيمة الشرك أولياءهم وما يدعو إليه القرآن، أي عملوا بالباطل وعمل الآخرون بالحق.

ووصف الحق بأنه من ربهم تنويه به وتشريف لهم.

كذلك يضرب الله للناس أمثالهم.

تذييل لما قبله، أي مثل ذلك التبيين للحالين يبين الله الأحوال للناس بيانا واضحا.

والمعنى: قد بينا لكل فريق من الكافرين والمؤمنين حاله تفصيلا وإجمالا، وما تفضي إليه من استحقاق المعاملة بحيث لم يبق خفاء في كنه الحالين، ومثل ذلك البيان يمثل الله للناس أحوالهم كيلا تلتبس عليهم الأسباب والمسببات.

ومعنى يضرب: يلقي وهذا إلقاء تبيين بقرينة السياق، وتقدم عند قوله تعالى:

أن يضرب مثلا ما في سورة البقرة [٢٦] .

والأمثال: جمع مثل بالتحريك وهو الحال التي تمثل صاحبها، أي تشهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره. واللام للأجل، والمراد بالناس جميع الناس. وضمير أمثالهم للناس.

والمعنى: كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم، وفي هذا **إيماء** إلى وجوب التوسم لتمييز المنافقين عن المسلمين حقا، فإن من مقاصد

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٢٦

السورة التحذير من المنافقين.". (١)

٥٢٤. ٥٢٤-"أي أمرتم بضرب رقابهم، والحال أن الله لو شاء لاستأصلهم ولم يكلفكم بقتالهم، ولكن الله ناط المسببات بأسبابها المعتادة وهي أن يبلو بعضكم ببعض.

وتعدية (انتصر) بحرف (من) مع أن حقه أن يعدى بحرف (على) لتضمينه معنى: انتقم.

والاستدراك راجع إلى ما في معنى المشيئة من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب غير ما بعد الاستدراك.

والبلو حقيقته: الاختبار والتجربة، وهو هنا مجاز في لازمه وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم ومن إهانة الكفار، وهو أن شأنهم بمرأى ومسمع من الناس.

والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦) هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض وهو مقابل ما في قوله: فضرب الرقاب إلى قوله: وإما فداء، فإن ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا فذكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

وجملة والذين قتلوا في سبيل الله إلخ عطف على جملة فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب الآية فإنه لما أمرهم بقتال المشركين أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله.

وذكر الذين قتلوا في سبيل الله إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يضل الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن مقتضى الظاهر من الإضمار إلى الإظهار ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوي الخبر، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته، **وللإيماء** إلى وجه بناء الخبر على الصلة بأن تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٧٧/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ٨٣/٢٦

٥٢٥. ٥٢٥-"فجملة فلن يضل أعمالهم خبر عن الموصول، وقرنت بالفاء لإفادة السببية في ترتب ما بعد الفاء على صلة الموصول لأن الموصول كثيرا ما يشرب معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل قتلوا منصرفة إلى الاستقبال لأن ذلك مقتضى الشرط. وجملة سيهديهم وما عطف عليها بيان لجملة فلن يضل أعمالهم. وتقدم الكلام آنفا على معنى إضلال الأعمال وإصلاح البال.

ومعنى عرفها لهم أنه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنة، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يترددون في أنهم داخلونها، وذلك من تعجيل الفرح بها. وقيل: عرفها جعل فيها عرفا، أي ريحا طيبا، والتطييب من تمام حسن الضيافة.

وقرأ الجمهور قاتلوا بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم.

وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم قتلوا بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.

[٧]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٧]

يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧)

لما ذكر أنه لو شاء الله لا نتصر منهم علم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين.

فالجملة استئناف ابتدائي لهاته المناسبة. وافتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام **وإيماء** إلى أن **الإيماء** يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مشاهدة يوم بدر.". (١)

(١) التحرير والتنوير ٨٤/٢٦

٥٢٦. ٥٢٦-"والداعية إلى الطاعة، وبأنه ما يقع عنده صلاح العبد آخرة. وفسر المعتزلة اللطف بإيصال المنافع إلى العبد من وجه يدق
إدراكه وتمكينه بالقدرة والآلات.

[١٧]

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٧]

والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧)

جملة معترضة بين جملة ومنهم من يستمع إليك [الأنعام: ٢٥] وما فيهم عنها من قوله: فهل ينظرون إلا الساعة [الزخرف: ٦٦] والواو اعتراضية. والمقصود من هذا الاعتراض: مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على الأسلوب الذي أقيمت عليه هذه السورة كما تقدم في أولها. فهذا أسلوب مستمر وإن اختلفت مواقع جمله.

والمعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا لطف الله بهم فزادهم هدى وأرسخ الإيمان في قلوبهم ووفقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم. وإيتاء التقوى مستعار لتيسير أسبابها إذ التقوى معنى نفساني، والإيتاء يتعدى حقيقة للذوات. وإضافة التقوى إلى ضمير الذين اهتدوا **إيماء** إلى أنهم عرفوا بها واختصت بهم.

[١٨]

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٨]

فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم (١٨)

فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها

تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله: أفلم يسيروا في الأرض إلى قوله: واتبعوا أهواءهم [محمد: ١٠- ١٦] الشاملة لأحوال الفريقين ففرع عليها أن كلا الفريقين ينتظرون حلول الساعة لينالوا جزاءهم على سوء كفرهم فضمير ينظرون مراد به الكافرون لأن الكلام تهديد ووعيد، ولأن المؤمنين ينتظرون أمورا أخر مثل النصر والشهادة، قال تعالى: قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين [التوبة: ٥٢] الآية.

والنظر هنا بمعنى الانتظار كما في قوله تعالى: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك [الأنعام: ١٥٨] الآية.

والاستفهام إنكار مشوب بتهكم، وهو إنكار وتهكم على غائبين، موجه إلى". (١)

٥٢٧. ٥٢٧-"حين فروا من الجهاد فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال

قال الحريش القريعي، أو العباس بن مدراس:

نعرض للسيوف إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للنظام

ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفروا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم.

[٢٨]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٢٨]

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم (٢٨)

الإشارة بذلك إلى الموت الفظيع الذي دل عليه قوله: فكيف إذا توفتهم الملائكة [محمد: ٢٧] كما تقدم آنفا. واتباعهم ما أسخط الله: هو اتباعهم الشرك. والسخط مستعار لعدم الرضى بالفعل. وكراهتهم رضوان الله: كراهتهم أسباب رضوانه وهو الإسلام.

وفي ذكر اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه محسن الطباق مرتين للمضادة بين السخط والرضوان، والاتباع والكراهية. والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار، ففي الكلام أيضا محسن اللف والنشر المرتب. فكان ذلك التعذيب مناسبا لحالي توقيهم في الفرار من القتال وللسببين الباعثين على ذلك التوقي.

وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه قوله: فأحبط أعمالهم فكان اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سببا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة،

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٠٢

وإحباط أعمالهم.". (١)

٥٢٨. ٥٢٨-"الشيخ الجد في «حاشيته على المحلي» عن القرافي في «شرح المحصول» ونقل حلولو في «شرح جمع الجوامع» عن القرافي في «الذخيرة» : أن مالكا قال بوجوب سبع نوافل بالشروع، وهي: الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد، وزاد حلولو إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع ولم أقف على مأخذ القرافي ذلك ولا على مأخذ حلولو في الأخير. ولم ير الشافعي وجوبا بالشروع في شيء من النوافل وهو الظاهر.

[٣٤]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٣٤]

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم (٣٤)

هذه الآية تكملة لآية إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول [محمد: ٣٢] إلخ لأن تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ولبيان أن الله مبطل صنائعهم وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم لمغفرة الله إذا ماتوا على ما هم عليه من الكفر فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

واقتران خبر الموصول بالفاء إيماء إلى أنه أشرف معنى الشرط فلا يراد به ذو صلة معين بل المراد كل من تحققت فيه ماهية الصلة وهي الكفر والموت على الكفر.

[٣٥]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٣٥]

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم (٣٥)

الفاء للتفريع على ما تقرر في نفوس المؤمنين من خذل الله تعالى المشركين بما أخبر به من أنه أضل أعمالهم وقدر لهم التعس، وبما ضرب لهم من مصائر أمثالهم من الذين من قبلهم دمرهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١١٩

الله وأهلكهم ولم يجدوا ناصرا، وما وعد به المؤمنين من النصر عليهم وما أمرهم به من قتالهم وبتكلفه للمؤمنين بالولاية وما وعدهم من الجزاء في دار الخلد وبما أتبع ذلك من وصف كيد فريق المنافقين للمؤمنين". (١)

٥٢٩. ٥٢٩-"الحديبية ثمرة غزوهم، ويتضمن تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلف بأنهم حين يعلمون أن هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم

ولا أهاليهم، فلو كان عذرهم حقا لما حرصوا على الخروج إذا توقعوا المغانم ولأقبلوا على الاشتغال بأموالهم وأهليهم.

ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة لم يؤت معها بمجرور لك كما أتي به في قوله: سيقول لك المخلفون آنفا لأن هذا قول راغب صادق غير مزور لأجل الترويج على النبيء صلى الله عليه وسلم كما علمت ذلك فيما تقدم.

واستغني عن وصفهم بأنهم من الأعراب لأن تعريف المخلفون تعريف العهد، أي المخلفون المذكورون.

وقوله: إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها متعلق ب سيقول المخلفون وليس هو مقول القول.

وإذا ظرف للمستقبل، ووقوع فعل المضي بعده دون المضارع مستعار لمعنى التحقيق، وإذا قرينة على ذلك لأنها خاصة بالزمن المستقبل.

والمراد بالمغانم في قوله: إذا انطلقتم إلى مغانم: الخروج إلى غزوة خيبر فأطلق عليها اسم مغانم مجازا لعلاقة الأول مثل إطلاق خمرا في قوله: إني أراني أعصر خمرا [يوسف: ٣٦] . وفي هذا المجاز إيماء إلى أنهم منصورون في غزوتهم.

وأن النبيء صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية إلى المدينة أقام شهر ذي الحجة سنة وست وأياما من محرم سنة سبع ثم خرج إلى غزوة خيبر ورام المخلفون عن الحديبية أن يخرجوا معه فمنعهم لأن الله جعل غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان خاصة إذ وعدهم بفتح قريب.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٩/٢٦

وقوله: لتأخذوها ترشيح للمجاز وهو **إيماء** إلى أن المغانم حاصلة لهم لا محالة.

وذلك أن الله أخبر نبيئه صلى الله عليه وسلم أنه وعد أهل الحديبية أن يعوضهم عن عدم دخول مكة مغانم خيبر.". (١)

٥٣٠. ٥٣٠-"[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢١]

وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا (٢١)

هذا من عطف الجملة على الجملة فقوله: أخرى مبتدأ موصوف بجملة لم تقدروا عليها والخبر قوله: قد أحاط الله بها.

ومجموع الجملة عطف على جملة وعدكم الله مغانم كثيرة [الفتح: ٢٠] فلفظ أخرى صفة لموصوف محذوف دل عليه مغانم الذي في الجملة قبلها، أي هي نوع آخر من المغانم صعبة المنال، ومعنى المغانم يقتضي غانمين فعلم أنها لهم، أي غير التي وعدهم الله بها، أي هذه لم يعدهم الله بها، ولم نجعل وأخرى عطفا على قوله هذه [الفتح: ٢٠] عطف المفرد على المفرد إذ ليس المراد غنيمة واحدة بل غنائم كثيرة.

ومعنى لم تقدروا عليها: أنها موصوفة بعدم قدرتكم عليها، فلما كانت جملة لم تقدروا عليها صفة ل أخرى لم يقتض مدلول الجملة أنهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا، وإنما المعنى: أن صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلق أطماعكم بأخذها.

والإحاطة بالهمز: جعل الشيء حائطا أي حافظا، فأصل همزته للجعل وصار بالاستعمال قاصرا، ومعناه: احتوى عليه ولم يترك له منصرفا فول على شدة القدرة عليه قال تعالى: لتأتنني به إلا أن يحاط بكم [يوسف: ٦٦] أي إلا أن تغلبوا غلبا لا تستطيعون معه الإتيان به.

فالمعنى: أن الله قدر عليها، أي قدر عليها فجعلها لكم بقرينة قوله قبله لم تقدروا عليها.

والمعنى: ومغانم أخرى لم تقدروا على نيلها قد قدر الله عليها، أي فأنا لكم إياها.

وإلا لم يكن لإعلامهم بأن الله قدر على ما لم يقدروا عليه جدوى لأنهم لا يجهلون ذلك، أي أحاط الله بها لأجلكم، وفي معنى الإحاطة **إيماء** إلى أنها كالشيء المحاط به من جوانبه

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٦٧

فلا يفوتهم مكانه، جعلت كالمخبوء لهم. ولذلك ذيل بقوله: وكان الله على كل شيء قديرا إذ هو أمر مقرر في علمهم.". (١)

٥٣١. ٥٣١-"فعلم أن الآية أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم: نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول وهي مغانم خيبر، ونوع هو مغانم مرجوة كثيرة غير معين وقت حصولها، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات، ونوع هو مغانم عظيمة لا يخطر ببالهم نوالها قد أعدها الله للمسلمين ولعلها مغانم بلاد الروم وبلاد الفرس وبلاد البربر. وفي الآية إيماء إلى أن هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنه لم يأت في ذكره بضميرهم، وهو
الذي تأوله عمر في عدم قسمة سواد العراق وقرأ قوله تعالى: والذين جاؤ من بعدهم [الحشر: ١٠].
[٢٢، ٢٣]

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٢ إلى ٢٣]
ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا (٢٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٣)
هذا عطف على قوله: وكف أيدي الناس عنكم [الفتح: ٢٠] على أن بعضه متعلق بالمعطوف عليه، وبعضه معطوف على المعطوف عليه فما بينهما ليس من الاعتراض.
والمقصود من هذا العطف التنبيه على أن كف أيدي الناس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوتهم وعدتهم ونشاطهم. وليس الكف لدفع غلبة المشركين إياهم لأن الله قدر للمسلمين عاقبة النصر فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيرا، أي لم ينتصروا بجمعهم ولا بمن يعينهم.
والمراد بالذين كفروا ما أريد بالناس في قوله: وكف أيدي الناس عنكم. وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أن الكفر هو سبب تولية الأدبار في قتالهم للمسلمين تمهيدا

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٨٠

لقوله: سنة الله التي قد خلت من قبل.". (١)

٥٣٢. ٥٣٢-"والموعود به صادق بدخولهم مكة بالعمرة سنة سبع وهي عمرة القضية، فإنهم دخلوا المسجد الحرام آمنين وحلق بعضهم وقصر بعض غير خائفين إذ كان بينهم وبين المشركين عهد، وذلك أقرب دخول بعد هذا الوعد، وصادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجة الوداع، وعدم الخوف فيه أظهر. وأما دخولهم مكة يوم الفتح فلم يكونوا فيه محرمين. قال مالك في «الموطأ» بعد أن ساق حديث قتل ابن خطل يوم الفتح (ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ محرما والله أعلم) .

ومحلقين رؤسكم حال من ضمير آمنين وعطف عليه ومقصرين والتحليق والتقصير كناية عن التمكن من إتمام الحج والعمرة وذلك من استمرار الأمن على أن هذه الحالة حكت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤياه، أي يحلق من رام الحلق ويقصر من رام التقصير، أي لا يعجلهم الخوف عن الحلق فيقتصروا على التقصير.

وجملة لا تخافون في موضع الحال فيجوز أن تكون مؤكدة ل آمنين تأكيدا بالمرادف للدلالة على أن الأمن كامل محقق، ويجوز أن تكون حالا مؤسسة على أن آمنين معمول لفعل تدخلن وأن لا تخافون معمول ل آمنين، أي آمنين أمن من لا يخاف، أي لا تخافون غدرا.

وذلك **إيماء** إلى أنهم يكونون أشد قوة من عدوهم الذي أمنهم، وهذا يومىء إلى حكمة تأخير دخولهم مكة إلى عام قابل حيث يزدادون قوة واستعدادا وهو أظهر في دخولهم عام حجة الوداع.

والفاء في قوله: فعلم ما لم تعلموا لتفريع الأخبار لا لتفريع المخبر به لأن علم الله سابق على دخولهم وعلى الرؤيا المؤذنة بدخولهم كما تقدم في قوله: فعلم ما في قلوبهم [الفتح: ١٨] .

وفي إيثار فعل جعل في هذا التركيب دون أن يقول: فتح لكم من دون ذلك فتحا قريبا أو نحوه إفادة أن هذا الفتح أمره عجيب ما كان ليحصل مثله لولا أن الله كونه.

وصيغة الماضي في جعل لتنزيل المستقبل المحقق منزلة الماضي، أو لأن جعل بمعنى قدر. ودون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٨١

هنا بمعنى غير، ومن (م) ابتدائية أو". (١)

٥٣٣. ٥٣٣-"وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة **إيماء** إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين في سورة العقود [٥٤] .

وفي تعليق رحماء مع ظرف (بين) المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعا

قال النبيء صلى الله عليه وسلم «تجد المسلمين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى له جميع الجسد بالسهر والحمى»

. والخطاب في تراهم لغير معين بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي.

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك، أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعا سجدا.

وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا في مساق الثناء **إيماء** إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه.

والسيما: العلامة، وتقدم عند قوله تعالى: تعرفهم بسيماهم في البقرة [٢٧٣] وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود.

واختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها من أثر السجود على ثلاثة أنحاء الأول: أنها أثر محسوس للسجود، الثاني أنها من الأثر النفسي للسجود، الثالث أنها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة. فبالأول فسر مالك بن أنس وعكرمة وأبو العالية قال مالك: السيما هي ما".

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٠٠

(١)

٥٣٤. ٥٣٤-"بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان [الحجرات: ١١] تحذيرا لهم من الحياد عن مهيع الإيمان وتجنيبا لهم ما هو من شأن أهل الكفر.

فالخبر في قوله: حبب إليكم الإيمان إلى قوله: والعصيان مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة محبة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه. وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية من آثار الكفر والفسوق والعصيان.

وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلم لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة. وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبب إليه ونبذ ما كره إليه.

وعدي فعلا حبب وكره بحرف (إلى) لتضمينهما معنى بلغ، أي بلغ إليكم حب الإيمان وكره الكفر. ولم يعد فعل وزينه بحرف (إلى) مثل فعلي حبب وكره، **للإيماء** إلى أنه لما رغبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم. والتزيين: جعل الشيء زينا، أي حسنا قال عمر بن أبي ربيعة:

أجمعت خلتي مع الفجر بينا ... جلل الله ذلك الوجه زينا

وجملة أولئك هم الراشدون معترضة للمدح. والإشارة ب أولئك إلى ضمير المخاطبين في قوله: إليكم مرتين وفي قوله: قلوبكم أي الذين أحبوا الإيمان وتزينت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي هم المستقيمون على طريق الحق.

وأفاد ضمير الفصل القصر وهو قصر إفراد إشارة إلى أن بينهم فريقا ليسوا براشدين وهم الذين تلبسوا بالفسق حين تلبسهم به فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٥/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٧/٢٦

٥٣٥.   ٥٣٥-"وهذا **إيماء** إلى بيان قوله: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] ، أي من أجل ما يخالجكم ارتياب في بعض ما آمنتم به مما اطلع الله عليه.

وقوله: أولئك هم الصادقون قصر، وهو قصر إضافي أيضا، أي هم الصادقون لا أنتم في قولكم آمنا.

[١٦]

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٦]

قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم (١٦)

أعيد فعل قل ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر أن يقول لهم لم تؤمنوا إلى آخره، فأعيد لما طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة، فهذا متصل بقوله: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم اتصال البيان بالمبين، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام.

وجملة قل معترضة بين الجملتين المبينة والمبينة.

قيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: قل لم تؤمنوا الآية جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلفوا أنهم مؤمنون فنزل قوله: «قل أتعلمون الله بدينكم ولم يرو بسند معروف وإنما ذكره البغوي تفسيرا ولو كان كذلك لوبخهم الله على الأيمان الكاذبة كما وبخ المنافقين في سورة براءة [٤٢] بقوله وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم الآية. ولم أر ذلك بسند مقبول، فهذه الآية مما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم.

والتعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلم لأن صيغة التفعيل تقتضي قوة في حصول الفعل كالتفريق والتفسير، يقال: أعلمه وعلمه كما يقال: أنبأه ونبأه. وهذا يفيد أنهم تكلفوا وتعسفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أبلغهم أن الله نفى عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه تدل إلى محاولة إقناع الله بما يعلم خلافه.

وباء بدينكم زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله كقوله تعالى: وامسحوا برؤسكم وقول

النابغة:". (١)

٥٣٦. ٥٣٦-"لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله: النخل باسقات لها طلع نضيد [ق: ١٠] .

وهذه السورة مكية كلها قال ابن عطية: بإجماع من المتأولين.

وفي «تفسير القرطبي» و «الإتقان» عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب [ق: ٣٨] أنها نزلت في اليهود، يعني في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أن مقالة اليهود سمعت بالمدينة، يعني: وألحقت بهذه السورة لمناسبة موقعها. وهذا المعنى وإن كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوءة والأنبياء، على أن إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالها إلى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه [الزمر: ٦٧] فإنها نزلت بمكة.

وورد أن النبيء صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والبحار على أصبع والجبال على أصبع ثم يقول «أنا الملك أين ملوك الأرض» فتلا النبيء صلى الله عليه وسلم الآية

. والمقصود من تلاوتها هو قوله: وما قدروا الله حق قدره. **والإيماء** إلى سوء فهم اليهود صفات الله.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد [البلد: ١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦٨

وقد أجمع العادون على عد آيها خمسا وأربعين.". (١)

٥٣٧. ٥٣٧-"و (أن جاءهم) مجرور ب (من) المحذوفة مع أن، أي عجبوا من مجيء منذر منهم، أو عجبوا من ادعاء أن جاءهم منذر منهم.

وعبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف منذر وهو المخبر بشر سيكون للإيماء إلى أن عجبهم كان ناشئا عن صفتين في الرسول صلى الله عليه وسلم إحداهما أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي مخبر بما لا يصدقون بوقوعه، وإنما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب الآخرة بعد البعث كما قال تعالى: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ: ٤٦] . والثانية كونه من نوع البشر.

وفرع على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذكر مقالتهم التي تفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة بقوله: فقال الكافرون هذا شيء عجيب الآية. وخص هذا بالعناية بالذكر لأنه أدخل عندهم في الاستبعاد وأحق بالإنكار فهو الذي غرهم فأحالوا أن يرسل الله إليهم أحد من نوعهم ولذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء بصفة منذر قبل وصفه بأنه منهم ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوى الاستبعاد والتعجب.

ثم إن ذلك يتخلص منه إلى إبطال حجتهم وإثبات البعث وهو المقصود بقوله: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم إلى قوله: كذلك الخروج [ق: ٤- ١١] . فقد حصل في ضمن هاتين الفاصلتين خصوصيات كثيرة من البلاغة: منها إيجاز الحذف، ومنها ما أفاده الإضراب من الاهتمام بأمر البعث، ومنها الإيجاز البديع الحاصل من التعبير ب منذر، ومنها إقحام وصفه بأنه منهم لأن لذلك مدخلا في تعجبهم، ومنها الإظهار في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر، ومنها الإجمال المعقب بالتفصيل في قوله: هذا شيء عجيب أإذا متنا إلخ.

وعبر عنهم بالاسم الظاهر في فقال الكافرون دون: فقالوا، لتوسيمهم فإن هذه المقالة من

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٤

آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين.". (١)

٥٣٨. ٥٣٨-"وفصلت الجملة بدون عطف لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام. وقيل هي جواب القسم كما علمته آنفا وأيا ما كان فهو رد لقولهم ذلك رجع بعيد.

والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكن لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالما بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجساما كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة فقوله: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم **إيماء** إلى دليل الإمكان لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا. فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم فلو قال، نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم.

واعلم أن هذا الكلام بيان للإمكان رعيا لما تضمنه كلامهم من الإحالة لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم وهو كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمر لم نكلف بالبحث عنه وقد اختلف فيها أيمة أهل السنة فقال جمهور أهل السنة والمعتزلة تعاد الأجسام بعد عدمها. ومعنى إعادتها. إعادة أمثالها بأن يخلق الله أجسادا مثل الأولى تودع فيها الأرواح التي كانت في الدنيا حالة في الأجساد المعدومة الآن فيصير ذلك الجسم لصاحب الروح في الدنيا وبذلك يحق أن يقال: إن هذا هو فلان الذي عرفناه في الدنيا إذ الإنسان كان إنسانا بالعقل والنطق، وهما مظهر الروح. وأما الجسد فإنه يتغير بتغيرات كثيرة ابتداء من وقت كونه جنينا، ثم من وقت الطفولة ثم ما بعدها من الأطوار فتخلف أجزاؤه المتجددة أجزاءه المقتضية، وبرهان ذلك مبين في علم الطبيعيات، لكن ذلك التغير لم يمنع من اعتبار الذات ذاتا واحدة لأن هوية

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٩

الذات حاصلة من الحقيقة". (١)

٥٣٩. ٥٣٩-"والباسقات: الطويلات في ارتفاع، أي عاليات فلا يقال: باسق للطويل الممتد على الأرض. وعن ابن شداد: الباسقات الطويلات مع الاستقامة. ولم أره لأحد من أيمة اللغة. ولعل مراده من الاستقامة الامتداد في الارتفاع. وهو بالسين المهملة في لغة جميع العرب عدا بني العنبر من تميم يبدلون السين صادا في هذه الكلمة. قال ابن جني: الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف.

وروى الثعلبي عن قطبة بن مالك أنه سمع النبيء صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح قرأها بالصاد

. ومثله في ابن عطية وهو حديث غير معروف.

والذي في «صحيح مسلم» وغيره عن قطبة بن مالك مروية بالسين. ومن العجيب

أن الزمخشري قال: وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم باصقات.

وانتصب باسقات على الحال.

والمقصود من ذلك الإيماء إلى بديع خلقته وجمال طلعته استدلالا وامتنانا.

والطلع: أول ما يظهر من ثمر التمر، وهو في الكفرى، أي غلاف العنقود.

والنضيد: المنضود، أي المصفف بعضه فوق بعض ما دام في الكفرى فإذا انشق عنه الكفرى فليس بنضيد. فهو معناه بمعنى مفعول قال تعالى: وطلح منضود [الواقعة: ٢٩] .

وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة ومن المنة بمحاسن منظر ما أوتوه.

[١١]

[سورة ق (٥٠) : آية ١١]

رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)

رزقا للعباد مفعول لأجله لقوله: فأنبتنا به جنات [ق: ٩] إلى آخره، فهو مصدر، أي لنرزق

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٨١

العباد، أي نقوتهم. والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله: تبصرة وذكرى [ق: ٨] .

والعباد: الناس وهو جمع عبد بمعنى عبد الله، فأما العبد المملوك فجمعه العبيد.

وهذا استدلال وامتنان.". (١)

٥٤٠. ٥٤٠-"المستفهم عنه، أي بل ما عيينا بالخلق الأول، أي وهم يعلمون ذلك ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنهم تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه، فالإضراب على أصله من الإبطال.

واللبس: الخلط للأشياء المختلفة الحقائق بحيث يعسر أو يتعذر معه تمييز مختلفاتها بعضها عن بعض. والمراد منه اشتباه المألوف المعتاد الذي لا يعرفون غير بالواجب العقلي الذي لا يجوز انتفاؤه، فإنهم اشتبه عليهم إحياء الموتى وهو ممكن عقلا بالأمر المستحيل في العقل فجزموا بنفي إمكانه فنفوه، وتركوا القياس بأن من قدر على إنشاء ما لم يكن موجودا هو على إعادة ما كان موجودا أقدر.

وجيء بالجملة الاسمية من قوله: هم في لبس من خلق جديد للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنه متمكن من نفوسهم لا يفارقهم البتة، وليتأتى اجتلاب حرف الظرفية في الخبر فيدل على انغماسهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

ومن في قوله: من خلق جديد ابتدائية وهي صفة ل لبس، أي لبس واصل إليهم ومنجر عن خلق جديد، أي من لبس من التصديق به.

وتنكير لبس للنوعية وتنكير خلق جديد كذلك، أي ما هو إلا خلق من جملة ما يقع من خلق الله الأشياء مما وجه إحالته ولتنكيره أجريت عليه الصفة ب جديد.

والجديد: الشيء الذي في أول أزمان وجوده.

وفي هذا الوصف تورك عليهم وتحميق لهم من إحالتهم البعث، أي اجعلوه خلقا جديدا كالخلق الأول، وأي فارق بينهما.

وفي تسمية إعادة الناس للبعث باسم الخلق إيماء إلى أنها إعادة بعد عدم الأجزاء لا جمع

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٣

لمتفرقها، وقد مضى القول فيه في أول السورة.". (١)

٥٤١. ٥٤١-"والتقديم: جعل الشيء قدام غيره.

والمراد به هنا: كونه سابقا على المؤاخذة بالشرك لأن الله توعدهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالمعنى الأول المكنى عنه بين بجملة ما يبدل القول لدي، أي لست مبطلا ذلك الوعيد، وهو القول، إذ الوعيد من نوع القول، والتعريف للعهد، أي فما أوعدتكم واقع لا محالة لأن الله تعهد أن لا يغفر لمن يشرك به ويموت على ذلك.

والمعنى الثاني المكنى عنه بين بجملة وما أنا بظلام للعبيد، أي فلذلك قدمت إليكم الوعيد.

والمبالغة التي في وصف بظلام راجعة إلى تأكيد النفي. والمراد: لا أظلم شيئا من الظلم، وليس المعنى: ما أنا بشديد الظلم كما قد يستفاد من توجه النفي إلى المقيد يفيد أن يتوجه إلى القيد لأن ذلك أغلبي. والأكثر في نفي أمثلة المبالغة أن يقصد بالمبالغة مبالغة النفي، قال طرفة:

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فإنه لا يريد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي.

وذكر الشيخ في «دلائل الإعجاز» توجه نفي الشيء المقيد إلى خصوص القيد كتوجه الإثبات سواء، ولكن كلام التفتازاني في كتاب «المقاصد في أصول الدين» في مبحث رؤية الله تعالى أشار إلى استعمالين في ذلك، فالأكثر أن النفي يتوجه إلى القيد فيكون المنفي القيد، وقد يعتبر القيد قيدا للنفي وهذا هو التحقيق. على أني أرى أن عد مثل صيغة المبالغة في عداد القيود محل نظر فإن المعتبر من القيود هو ما كان لفظا زائدا على اللفظ المنفي من صفة أو حال أو نحو ذلك، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال: لست ظلاما، ولكن أظلم، ويحسن أن يقال لا آتيك محاربا ولكن مسالما.

وقد أشار في «الكشاف» إلى أن إيثار وصف بظلام هنا **إيماء** إلى أن المنفي". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٣١٦

٥٤٢. ٥٤٢-"ويجوز أن يكون توعدون من الوعد، أي الإخبار بشيء يقع في المستقبل مثل قوله: إن وعد الله حق [لقمان: ٣٣] فوزنه تفعلون. والمراد بالوعد الوعد بالبعث.
ووصف لصادق مجاز عقلي إذ الصادق هو الموعد به على نحو فهو في عيشة راضية [الجاثية: ٢١] .
والدين: الجزاء. والمراد إثبات البعث الذي أنكروه.
ومعنى لواقع واقع في المستقبل بقرينة جعله مرتبا في الذكر على ما يوعدون وإنما يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل وفي ذكر الجزاء زيادة على الكناية به عن إثبات البعث تعريض بالوعيد على إنكار البعث.
وكتب في المصاحف إنما متصلة وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد لأنهما كلمتان لم تصيرا كلمة واحدة، بخلاف إنما التي هي للقصر. ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه.
[٧- ٩]

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٧ إلى ٩]
والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩)
هذا قسم أيضا لتحقيق اضطراب أقوالهم في الطعن في الدين وهو كالتذييل للذي قبله، لأن ما قبله خاص بإثبات الجزاء. وهذا يعم إبطال أقوالهم الضالة فالقسم لتأكيد المقسم عليه لأنهم غير شاعرين بحالهم المقسم على وقوعه، ومتهالكون على الاستزادة منه، فهم منكرون لما في أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلا مركبا والجهل المركب إنكار للعلم الصحيح. والقول في القسم ب السماء كالقول في القسم ب الذاريات [الذاريات: ١] .
ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك، أي طرائق لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قددا ولذلك وصف المقسم به ليكون **إيماء** إلى نوع جواب القسم.". (١)

(١) التحرير والتنوير ٣٤٠/٢٦

٥٤٣. ٥٤٣-"الحسن وقتادة: أنه عائد إلى القرآن أو إلى الدين، أي لأنهما مما جرى القول في شأنهما، وحرف (عن) للمجاوزة.

وعلى كل فالمراد بقوله من أفك المشركون المصروفون عن التصديق. والمراد بالذي فعل الإفك المجهول المشركون الصارفون لقومهم عن الإيمان، وهما الفريقان اللذان تضمنهما قوله تعالى: وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [فصلت: ٢٦] .

وإنما حذف فاعل يؤفك وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز.

وقد حملهم الله بهاتين الجملتين تبعة أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم كما قال تعالى: وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم [العنكبوت: ١٣] .

[١٠، ١١]

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١٠ إلى ١١]

قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١)

دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف لأن المقصود بقتلهم أن الله يهلكهم، ولذلك يكثر أن يقال: قاتله الله، ثم أجري مجرى اللعن والتحقير والتعجيب من سوء أحوال المدعو عليه بمثل هذا.

وجملة الدعاء لا تعطف لأنها شديدة الاتصال بما قبلها مما أوجب ذلك الوصف لدخولهم في هذا الدعاء، كما كان تعقيب الجمل التي قبلها بها إيماء إلى أن ما قبلها سبب للدعاء عليهم، وهذا من بديع الإيجاز.

والخرص: الظن الذي لا حجة لصاحبه على ظنه، فهو معرض للخطأ في ظنه، وذلك كناية عن الضلال عمدا أو تساهلا، فالخراصون هم أصحاب القول المختلف، فأفاد أن قولهم المختلف ناشيء عن خواطر لا دليل عليها. وقد تقدم في الأنعام [١١٦] إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون فالمراد هنا الخرص بالقول في ذات الله وصفاته.

واعلم أن الخرص في أصول الاعتقاد مذموم لأنها لا تبنى إلا على اليقين لخطر أمرها وهو

أصل محل الذم في هذه الآية.". (١)

٥٤٤. ٥٤٤-"فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول:
أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»
. وفي إيثار التعبير عن الجلالة بوصف (رب) مضاف إلى ضمير المتقين معنى من اختصاصهم بالكرامة **والإيماء** إلى أن سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيته المختصة بهم وهي المطابقة لصفات الله تعالى في نفس الأمر.

وجملة إنهم كانوا قبل ذلك محسنين تعليل لجملة إن المتقين في جنات وعيون، أي كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم كما قيل للمشركين ذوقوا فتنتكم [الذاريات: ١٤] . والمحسنون: فاعلو الحسنات وهي الطاعات.

وفائدة الظرف في قوله: قبل ذلك أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنات والعيون وما آتاهم ربهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه، ثم يفاد بقوله قبل ذلك، أي قبل التنعم به أنهم كانوا محسنين، أي عاملين الحسنات كما فسره قوله: كانوا قليلا من الليل ما يهجعون الآية. فالمعنى: أنهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده ولم يروه.

وجملة كانوا قليلا من الليل ما يهجعون بدل من جملة كانوا قبل ذلك محسنين بدل بعض من كل لأن هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان في العمل.

وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يبذل على النفس وهو شيئان.

أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة.

وثانيهما: المال الذي تشح به النفوس غالبا، وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النفس وإصلاح الناس. وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال فإن صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى الله

(١) التحرير والتنوير ٣٤٣/٢٦

تعالى. وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل.". (١)

٥٤٥. ٥٤٥-"وكون ذلك في السماء يجوز أن يكون معناه أنه محقق في علم أهل السماء، أي الملائكة الموكلين بتصريفه. ويجوز أن يكون المعنى: أن مكان حصوله في السماء، من جنة أو جهنم بناء على أن الجنة وجهنم موجودتان من قبل يوم القيامة، وفي ذلك اختلاف لا حاجة إلى ذكره. وفيه إيماء إلى أن ما أوعدوه يأتيهم من قبل السماء كما قال تعالى: فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم [الدخان: ١٠، ١١]
.
فإن ذلك الدخان كان في طبقات الجو كما تقدم في سورة الدخان.
[٢٣]

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٢٣]
فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)
بعد أن أكد الكلام بالقسم ب الذاريات [الذاريات: ١] وما عطف عليها فرع على ذلك زيادة تأكيد بالقسم بخالق السماء والأرض على أن ما يوعدون حق فهو عطف على الكلام السابق ومناسبته قوله: وما توعدون [الذاريات: ٢٢] .
وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الرب سبحانه.
وضمير إنه لحق عائد إلى ما توعدون [الذاريات: ٢٢] . وهذا من رد العجز على المصدر لأنه رد على قوله أول السورة إنما توعدون لصادق [الذاريات: ٥] وانتهى الغرض.
وقوله: مثل ما أنكم تنطقون زيادة تقرير لوقوع ما أوعدوه بأن شبه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون. وهذا نظير قولهم: كما أن قبل اليوم أمس، أو كما أن بعد اليوم غدا. وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة، ومنه تمثيل سرعة الوصول لقرب المكان في قول زهير:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٦

فهن ووادي الرس كاليد للفم وقولهم: مثل ما أنك هاهنا، وقولهم: كما أنك ترى وتسمع.". (١)

٥٤٦. ٥٤٦-"والذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من **الإيماء** إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم.

واليوم الذي أوعدوه هو زمن حلول العذاب فيحتمل أن يراد يوم القيامة ويحتمل حلول العذاب في الدنيا، وأيا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.

وإضافة (يوم) إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي هو معين لجزائهم كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون [الأنبياء: ١٠٣] . واليوم: يصدق بيوم القيامة، ويصدق بيوم بدر الذي استأصل الله فيه شوكتهم.

ولما كان المضاف إليه ضمير الكفار المعينين وهم كفار مكة ترجح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنما هو يوم بدر لأن يوم القيامة لا يختص بهم بل هو عام لكفار الأمم كلهم بخلاف اليوم الذي في قوله في سورة الأنبياء [١٠٣] : وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون لأن ضمير الخطاب فيها عائد إلى الذين سبقت لهم منا الحسنى [الأنبياء: ١٠١] كلهم.

وفي الآية من اللطائف تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر قليب بدر الذي رميت فيه أشلاء سادتهم وهو اليوم القائل فيه شداد بن الأسود الليثي المكنى أبا بكر يرثي قتلاهم:

وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى تزين بالسنام

تحيي بالسلامة أم بكر ... وهل لي بعد قومي من سلام

ولعل هذا مما يشمل قول النبيء صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر قد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٥٥

وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا [الأعراف: ٤٤] .". (١)

٥٤٧. ٥٤٧-"ووصفه ب المعمور لأنه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين قال تعالى: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر [التوبة: ١٨] الآية. ومناسبة القسم سبق القسم بكتاب التوراة فعقب ذلك بالقسم بمواطن نزول القرآن فإن ما نزل به من القرآن أنزل بمكة وما حولها مثل جبل حراء. وكان نزوله شريعة ناسخة لشريعة التوراة، على أن الوحي كان ينزل حول الكعبة.

وفي حديث الإسراء «بينا أنا نائم عند المسجد الحرام إذ جاءني الملكان»

إلخ، فيكون توسيط القسم بالكعبة في أثناء ما أقسم به من شؤون شريعة موسى عليه السلام إدماجا.

وفي «الطبري» : أن عليا سئل: ما البيت المعمور؟ فقال: «بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا، يقال: له الضراح»

(بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وحاء مهملة) ، وأن مجاهدا والضحاك وابن زيد قالوا مثل ذلك.

وعن قتادة أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «هل تدرون ما البيت المعمور؟ قال: فإنه مسجد في السماء تحته

الكعبة»

إلى آخر الخبر. وثمة أخبار كثيرة متفاوتة في أن في السماء موضعا يقال له: البيت المعمور، لكن الروايات في كونه المراد من هذه الآية ليست صريحة.

وأما السقف المرفوع: ففسروه بالسماء لقوله تعالى: وجعلنا السماء سقفا محفوظا [الأنبياء: ٣٢] وقوله: والسماء رفعها [الرحمن: ٧] فالرفع حقيقي ومناسبة القسم بها أنها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن. وتسمية السماء على طريقة التشبيه البليغ.

والبحر: يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية. وعندي: أن المراد بحر القلزم، وهو البحر الأحمر ومناسبة القسم به أنه به أهلك فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٧

فلحق بهم فرعون.

والمسجور: قيل المملوء، مشتقا من السجر، وهم الملء والإمداد. فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال خلق الله إياه مملوءا ماء دون أن تملأه أودية أو سيول، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه وذلك دال على عظم القدرة. والظاهر عندي: أن وصفه بالمسجور **للإيماء** إلى". (١)

٥٤٨. ٥٤٨-"على لغة أزد شنوة فإنه لم يسمع في فصيح الكلام: تزوج بامرأة.

وحور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، وهن النساء اللاتي كن أزواجا لهم في الدنيا إن كن مؤمنات ومن يخلقهن الله في الجنة لنعمة الجنة وحكم نساء المؤمنين اللاتي هن مؤمنات ولم يكن في العمل الصالح مثل أزواجهن في لحاقهن بأزواجهن في الدرجات في الجنة تقدم عند قوله تعالى: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون في سورة الزخرف [٧٠] وما يقال فيهن يقال في الرجال من أزواج النساء الصالحات.

وعين صفة ثانية، وحقها أن تعطف ولكن كثر ترك العطف.

[٢١]

[سورة الطور (٥٢) : آية ٢١]

والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين (٢١)

والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء.

اعتراض بين ذكر كرامات المؤمنين، والواو اعتراضية.

والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار لتكون الصلة **إيماء** إلى أن وجه بناء الخبر الوارد بعدها، أي أن سبب إلحاق ذرياتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم وكون الذريات آمنوا بسبب إيمان آبائهم لأن الآباء المؤمنين يلقنون أبناءهم الإيمان.

والمعنى: والمؤمنون الذين لهم ذريات مؤمنون ألحقنا بهم ذرياتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٣٩

وقد قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا [التحريم: ٦] ، وهل يستطيع أحد أن يقي النار غيره إلا بالإرشاد. ولعل ما في الآية من إلحاق ذرياتهم من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته.

والتنكير في قوله: بإيمان يحتمل أن يكون للتعظيم، أي بإيمان عظيم، وعظمته بكثرة الأعمال الصالحة، فيكون ذلك شرطا في إلحاقهم بآبائهم وتكون النعمة في جعلهم في مكان واحد.". (١)

٥٤٩. ٥٤٩-"وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة **إيماء** إلى أن هذه العناية بالمحسنين من أمته قد حصلت لهم ببركته.

والواسع: الكثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأن المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممن يحل فيه قال تعالى: ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما، وتقدم في سورة غافر [٧] .

هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

الخطاب للمؤمنين، ووقوعه عقب قوله: ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ينبيء عن اتصال معناه بمعنى ذلك فهو غير موجه لليهود كما في «أسباب النزول» للواحدي وغيره. وأصله

لعبد الله بن لهيعة عن ثابت بن حارث الأنصاري. قال: «كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير يقولون: هو صديق، فبلغ ذلك النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» ، فأنزل الله هذه الآية

. وعبد الله بن لهيعة ضعفه ابن معين وتركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي. وقال الذهبي: العمل على تضعيفه، قلت: لعل أحد رواة هذا الحديث لم يضبط فقال: فأنزل الله هذه الآية، وإنما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذا بعموم قوله: هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض إلخ، حجة عليهم، وإلا فإن السورة مكية والخوض مع اليهود إنما كان بالمدينة.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٧

وقال ابن عطية: حكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم. وكأن الباعث على تطلب سبب لنزولها قصد إبداء وجه اتصال قوله:
فلا تزكوا أنفسكم بما قبله وما بعده وأنه استيفاء لمعنى سعة المغفرة ببيان سعة الرحمة واللطف بعباده إذ سلك بهم مسلك اليسر والتخفيف فعفا عما لو أخذهم به لأحرجهم فقوله: هو أعلم بكم نظير قوله:". (١)

٥٥٠. ٥٥٠-"وقرأ الجمهور (وثمودا) بالتنوين على إطلاق اسم جد القبيلة عليها. وقرأه عاصم وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة.
وجملة إنهم كانوا هم أظلم وأطغى تعليل لجملة أهلك عادا إلى آخرها، وضمير الجمع في إنهم كانوا يجوز أن يعود إلى قوم نوح، أي كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون عائدا إلى عاد وثمود وقوم نوح والمعنى: أنهم أظلم وأطغى من قومك الذين كذبوك فتكون تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الرسل من قبله لقوا من أممهم أشد مما لقيه محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه إيماء إلى أن الله مبق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنه قدر دخول بقيتها في الإسلام ثم أبنائها.
وضمير الفصل في قوله كانوا هم أظلم لتقوية الخبر.
[٥٣، ٥٤]

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٥٣ إلى ٥٤]
والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤)
والمؤتفكة صفة لموصوف محذوف يدل عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي، والتقدير: القرى المؤتفكة، وهي قرى قوم لوط الأربع وهي (سدوم) و (عمورة) و (آدمة) و (صبوييم) . ووصفت في سورة براءة [٧٠] بالمؤتفكات لأن وصف جمع المؤنث يجوز أن يجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث. وقد صار هذا الوصف غالبا عليها بالغلبة.
وذكرت القرى باعتبار ما فيها من السكان تفننا ومراعاة للفواصل.

---
(١) التحرير والتنوير ١٢٣/٢٧

ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفا للأمة، أي لأمة لوط ليكون نظيرا لذكر عاد وثمود وقوم نوح كما في قوله تعالى: وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة في سورة الحاقة [٩] .
والائتفاك: الانقلاب، يقال: أفكها فأتفكت. والمعنى: التي خسف بها فجعل عاليها سافلها، وقد تقدم ذكرها في سورة براءة.
وانتصب المؤتفكة مفعول أهوى أي أسقط أي جعلها هاوية.
والإهواء: الإسقاط، يقال: أهواه فهوى، ومعنى ذلك: أنه رفعها في الجو". (١)

٥٥١. ٥٥١-"اضمحلال هذا العالم، وكان فعل الماضي مستعملا في حقيقته. وروي أن حذيفة بن اليمان قرأ وقد انشق القمر.
وإن كان نزولها قبل حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث أنس بن مالك فهو إنذار باقتراب الساعة وانشقاق القمر الذي هو من أشراط الساعة ومع **الإيماء** إلى أن الانشقاق سيكون معجزة لما يسأله المشركون. ويرجح هذا المحمل قوله تعالى عقبه: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر [القمر: ٢] كما سيأتي هنالك.
وإذ قد حمل معظم السلف من المفسرين ومن خلفهم هذه الآية على أن انشقاق القمر حصل قبل نزولها أو بقرب نزولها فبنا أن نبين إمكان حصول هذا الانشقاق مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالا لجحد الملحدين، وتقريبا لفهم المصدقين.
فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدث في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيل أنه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأن الهوة انشقاق وموافق لمرأى الناس لأنهم رأوه كأنه مشقوق.
ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ظل ذلك الجسم على نحو ما يسمى بالخسوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكد هذا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٤/٢٧

ومن الممكن أن يكون هذا الانشقاق حدثا مركبا من خسوف نصفي في القمر على عادة الخسوف فحجب نصف القمر، والقمر على سمت أحد الجبلين وقد حصل في الجو ساعتئذ سحاب مائي انعكس في بريق مائه صورة القمر مخسوفا بحيث يخاله الناظر نصفا آخر من القمر دون كسوف طالعا على جهة ذلك الجبل، وهذا من غرائب حوادث الجو.

وقد عرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة". (١)

٥٥٢. ٥٥٢-"فالمراد بالاستقرار الذي في قوله: مستقر الاستقرار في الدنيا.

وفي هذا تعريض **بالإيماء** **إيماء** إلى أن أمر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سيرسخ ويستقر بعد تقلقله.

ومستقر: بكسر القاف اسم فاعل من استقر، أي قر، والسين والتاء للمبالغة مثل السين والتاء في استجاب.

وقرأ الجمهور برفع الراء من مستقر. وقرأه أبو جعفر بخفض الراء على جعل كل أمر عطفا على الساعة [القمر: ١] . والتقدير: واقترب كل أمر. وجعل مستقر صفة أمر.

والمعنى: أن إعراضهم عن الآيات وافتراءهم عليها بأنها سحر ونحوه وتكذيبهم الصادق وتمالؤهم على ذلك لا يوهن وقعها في النفوس ولا يعوق إنتاجها. فأمر النبيء صلى الله عليه وسلم صائر إلى مصير أمثاله الحق من الانتصار والتمام واقتناع الناس به وتزايد أتباعه، وأن اتباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم صائر إلى مصير أمثاله الباطلة من الانخذال والافتضاح وانتقاص الأتباع.

وقد تضمن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وتهديدا للمشركين واستدعاء لنظر المترددين.

[٤، ٥]

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤ إلى ٥]

ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٩/٢٧

عطف على جملة وكذبوا واتبعوا أهواءهم [القمر: ٣] أي جاءهم في القرآن من أنباء الأمم ما فيه مزدجر لهؤلاء، أو أريد بالأنباء الحجج الواردة في القرآن، أي جاءهم ما هو أشد في الحجة من انشقاق القمر. ومن الأنباء بيان ما فيه مزدجر قدم على المبين ومن بيانية.

والمزدجر: مصدر ميمي، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على". (١)

٥٥٣. ٥٥٣-"في معنى القول بالتكذيب، فإن قوم نوح شافهوا نوحا بأنه كاذب، وإن كان مستعملا في اعتقادهم كذبه، فقد دل على اعتقادهم إعراضهم عن إنذاره وإهمالهم الانضواء إليه عند ما أنذرهم بالطوفان.

وعرف قوم نوح بالإضافة إلى اسمه إذ لم تكن للأمة في زمن نوح اسم يعرفون به.

وأسند التكذيب إلى جميع القوم لأن الذين صدقوه عدد قليل فإنه ما آمن به إلا قليل، كما تقدم في سورة هود.

والفاء في قوله: فكذبوا عبدنا لتفريع الإخبار بتفصيل تكذيبهم إياه بأنهم قالوا: مجنون وازدجر، على الإخبار بأنهم كذبوه على الإجمال، وإنما جيء بهذا الأسلوب لأنه لما كان المقصود من الخبر الأول تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فرع عليه الإخبار بحصول المشابهة بين تكذيب قوم نوح رسولهم وتكذيب المشركين محمدا صلى الله عليه وسلم في أنه تكذيب لمن أرسله الله واصطفاه بالعبودية الخاصة، وفي أنه تكذيب مشوب ببهتان إذ قال كلا الفريقين لرسوله: مجنون، ومشوب ببذاءة إذ آذى كلا الفريقين رسولهم وازدجروه. فمحل التفريع هو وصف نوح بعبودية الله تكريما له، والإخبار عن قومه بأنهم افتروا عليه وصفه بالجنون، واعتدوا عليه بالأذى والازدجار. فأصل تركيب الكلام: كذبت قبلهم قوم نوح فقالوا: مجنون وازدجر. ولما أريد **الإيماء** إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء جعل ما بعد التسلية مفرعا بفاء التفريع ليظهر قصد استقلال ما قبله ولولا ذلك لكان الكلام غنيا عن الفاء إذ كان يقول: كذبت قوم نوح عبدنا.

وأعيد فعل فكذبوا لإفادة توكيد التكذيب، أي هو تكذيب قوي كقوله تعالى: وإذا بطشتم بطشتم جبارين [الشعراء: ١٣٠] وقوله: ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٤/٢٧

غوينا [القصص: ٦٣] ، وقول الأحوص:

فإذا تزول تزول عن متخمط ... تخشى بوادره على الأقران

وقد نبه على ذلك ابن جني في إعراب هذا البيت من «ديوان الحماسة» ، وذكر أن أبا علي الفارسي نحا غير هذا الوجه ولم يبينه.". (١)

٥٥٤. ٥٥٤-"وجملة كذلك نجزي من شكر معترضة، وهي استئناف بياني عن جملة نجيناهم بسحر باعتبار ما معها من الحال، أي إنعاما لأجل أنه شكر، ففيه **إيماء** بأن إهلاك غيرهم لأنهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين.

وفي قوله: من عندنا تنويه بشأن هذه النعمة لأن ظرف (عند) يدل على الادخار والاستئثار مثل (لدن) في قوله: من لدنا. فذلك أبلغ من أن يقال: نعمة منا أو أنعمنا.

[٣٦]

[سورة القمر (٥٤) : آية ٣٦]

ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦)

عطف على جملة إنا أرسلنا عليهم حاصبا [القمر: ٣٤] .

وتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة لأجله وهو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتماروا بالنذر.

والبطشة: المرة من البطش، وهو الأخذ بعنف لعقاب ونحوه، وتقدم في قوله: أم لهم أيد يبطشون بها في آخر الأعراف [١٩٥] ، وهي هنا تمثيل للإهلاك السريع مثل قوله: يوم نبطش البطشة الكبرى في سورة الدخان [١٦] .

والتماري: تفاعل من المراء وهو الشك. وصيغة المفاعلة للمبالغة. وضمن فتماروا معنى: كذبوا، فعدي بالباء، وتقدم عند قوله تعالى: فبأي آلاء ربك تتمارى في سورة النجم [٥٥] .

[٣٧]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/١٨٠

[سورة القمر (٥٤) : آية ٣٧]
ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧)
إجمال لما ذكر في غير هذه السورة في قصة قوم لوط أنه نزل به ضيف فرام قومه الفاحشة بهم وعجز لوط عن دفع قومه إذ اقتحموا بيته وأن الله أعمى أعينهم فلم يروا كيف يدخلون.". (١)

٥٥٥. ٥٥٥-"فقوله: سيهزم الجمع ويولون الدبر جواب عن قولهم: نحن جميع منتصر فلذلك لم تعطف الجملة على التي قبلها. وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم بذلك وهو يعلم أن الله
منجز وعده ولا يزيد ذلك الكافرين إلا غرورا فلا يعيروه جانب اهتمامهم وأخذ العدة لمقاومته كما قال تعالى في نحو ذلك: ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا [الأنفال: ٤٤].
والتعريف في الجمع للعهد، أي الجمع المعهود من قوله: نحن جميع منتصر والمعنى: سيهزم جمعهم. وهذا معنى قول النحاة: اللام عوض عن المضاف إليه.
والهزم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، كقوله: قل للذين كفروا ستغلبون [آل عمران: ١٢]. وبني الفعل للمجهول لظهور أن الهازم المسلمون.
ويولون: يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدى بالتضعيف إلى مفعولين، وقد حذف مفعوله الأول هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولونكم الأدبار.
والدبر: الظهر، وهو ما أدبر، أي كان وراء، وعكسه القبل.
والآية: إخبار بالغيب، فإن المشركين هزموا يوم بدر، وولوا الأدبار يومئذ، وولوا الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق ففروا بليل كما مضى في سورة الأحزاب
وقد ثبت في «الصحيح» أن النبيء صلى الله عليه وسلم لما خرج لصف القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا.

---
(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٠٥

وأفرد الدبر، والمراد الجمع لأنه جنس يصدق بالمتعدد، أي يولي كل أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن، على أن انهزام الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة. وهذا الهزم وقع يوم بدر.

روي عن عكرمة أن عمر بن الخطاب قال: «لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبيء صلى الله عليه وسلم". (١)

٥٥٦. ٥٥٦-"ففي خلق الإنسان دلالتان: أولاهما: الدلالة على تفرد الله تعالى بالإلهية، وثانيتهما: الدلالة على نعمة الله على الإنسان.

والخلق: نعمة عظيمة لأن فيها تشريفا للمخلوق بإخراجه من غياهب العدم إلى مبرز الوجود في الأعيان، وقدم خلق الإنسان على خلق السماوات والأرض لما علمت آنفا من مناسبة إردافه بتعليم القرآن.

ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه يفيد تقوي الحكم. ولك أن تجعله للتخصيص بتنزيلهم منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لأنهم عبدوا غيره.

[٤]

[سورة الرحمن (٥٥) : آية ٤]

علمه البيان (٤)

خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي علم جنس الإنسان أن يبين عما في نفسه ليفيده غيره ويستفيد هو.

والبيان: الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان فهو من أعظم النعم.

وأما البيان بغير النطق من إشارة **وإيماء** ولمح النظر فهو أيضا من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق.

ومعنى تعليم الله الإنسان البيان: أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك وألهمه وضع اللغة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٧

للتعارف، وقد تقدم عند قوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها في سورة البقرة [٣١] .
وفيه الإشارة إلى أن نعمة البيان أجل النعم على الإنسان، فعد نعمة التكاليف الدينية وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان وهي خصائص اللغة وآدابها.
ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه لإفادة تقوي الحكم.
وفيه من التبكيت ما علمته آنفا، ووجهه أنهم لم يشكروه على نعمة البيان إذ". (١)

٥٥٧. ٥٥٧-"والمراد بالإنسان آدم وهو أصل الجنس وقوله: من صلصال تقدم نظيره في سورة الحجر [٢] .
والصلصال: الطين اليابس.
والفخار: الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف. وظاهر كلام المفسرين أن قوله: كالفخار صفة ل صلصال. وصرح بذلك الكواشي في «تلخيص التبصرة» ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف. والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالا من الإنسان، أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة.
والمعنى أنه صلصال يابس يشبه يبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به، وقد عبر عنه بالحمأ المسنون، والطين اللازب، والتراب.
والجان: الجن والمراد به إبليس وما خرج عنه من الشياطين، وقد حكى الله عنه قوله: خلقتني من نار وخلقته من طين [ص: ٧٦] .
والمارج: هو المختلط وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق، وعيشة راضية، أي خلق الجان من خليط من النار، أي مختلط بعناصر أخرى إلا أن الناس أغلب عليه كما كان التراب أغلب على تكوين الإنسان مع ما فيه من عنصر النار وهو الحرارة الغريزية والمقصود هنا هو خلق الإنسان بقرينة تذييله بقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان [الرحمن: ١٦] وإنما قرن بخلق الجان إظهارا لكمال النعمة في خلق الإنسان من مادة لينة قابلا للتهذيب والكمال وصدور الرفق بالموجودات التي معه على وجه الأرض.
وهو أيضا تذكير وموعظة بمظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته في خلق نوع الإنسان وجنس

(١) التحرير والتنوير ٢٣٣/٢٧

الجان.

وفيه إيماء إلى ما سبق في القرآن النازل قبل هذه السورة من تفضيل الإنسان على الجان إذ أمر الله الجان بالسجود للإنسان، وما ينطوي في ذلك من وفرة مصالح الإنسان

على مصالح الجان، ومن تأهله لعمران العالم لكونه مخلوقا من طينته إذ الفضيلة تحصل من مجموع أوصاف لا من خصوصيات مفردة.". (١)

٥٥٨. ٥٥٨-"تذكيرا بنعمة إلهام الناس إلى اختراع الشراع لإسراع سير السفن وهي مما اخترع بعد صنع سفينة نوح.

ووصفت الجواري بأنها كالأعلام، أي الجبال وصفا يفيد تعظيم شأنها في صنعها المقتضي بداعة إلهام عقول البشر لصنعها، والمقتضي عظم المنة بها لأن السفن العظيمة أمكن لحمل العدد الكثير من الناس والمتاع.

[٢٥]

[سورة الرحمن (٥٥) : آية ٢٥]

فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٥)

تكرير لنظيره السابق.

[٢٦، ٢٧]

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧)

لما كان قوله: وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام [الرحمن: ٢٤] مؤذنا بنعمة إيجاد أسباب النجاة من الهلاك وأسباب السعي لتحصيل ما به إقامة العيش إذ يسر للناس السفن عونا للناس على الأسفار وقضاء الأوطار مع السلامة من طغيان ماء البحار، وكان وصف السفن بأنها كالأعلام توسعة في هذه النعمة أتبعه بالموعظة بأن هذا لا يحول بين الناس وبين ما قدره

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٤٥

الله لهم من الفناء، على عادة القرآن في الفرص للموعظة والتذكير كقوله: أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة [النساء: ٧٨] . وفائدة هذا أن لا ينسوا الاستعداد للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته.

ووقوع هذه الجملة عقب ما عدد من النعم فيه **إيماء** إلى أن مصير نعم الدنيا إلى الفناء.

والجملة استئناف ابتدائي.

وضمير عليها مراد به الأرض بقرينة المقام مثل حتى توارت بالحجاب [ص: ٣٢] ، أي الشمس ومثله في القرآن وكثير وفي كلام البلغاء.". (١)

٥٥٩. ٥٥٩-"وأفاد تعليق مجروره به بواسطة (إلى) أنه مسير إليه حتى ينتهي إليه، فدل على مكان.

وهذا من الإيجاز.

وإضافة ميقات إلى يوم معلوم لأن التجمع واقع في ذلك اليوم. وإذ كان التجمع الواقع في اليوم واقعا في ذلك الميقات كانت بين الميقات واليوم ملابسة صححت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة وهذا أدق من جعل الإضافة بيانية. وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه في ذلك اليوم الذي جحدوه.

[٥١- ٥٥]

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٥١ إلى ٥٥]

ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالؤن منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)

هذا من جملة ما أمر النبيء صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم.

وثم للترتيب الرتبي فإن في التصريح بتفصيل جزائهم في ذلك اليوم ما هو أعظم وقعا في النفوس من التعريض الإجمالي بالوعيد الذي استفيد من قوله: إن الأولين والآخرين لمجموعون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٥٢

[الواقعة: ٤٩، ٥٠] .

وهذا التراخي الرتبي مثل الذي في قوله تعالى: قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم [التغابن: ٧] بمنزلة الاعتراض بين جملة إن الأولين والآخرين [الواقعة: ٤٩] وجملة: خلقناكم فلولا تصدقون [الواقعة: ٥٧] .

والخطاب موجه للمقول إليهم ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم فليس في هذا الخطاب التفات كما قد يتوهم، وفي ندائهم بهذين الوصفين **إيماء** إلى أنهما سبب ما لحقهم من الجزاء السيئ، ووصفهم بأنهم: ضالون مكذبون، ناظر إلى قولهم: أإذا متنا وكنا ترابا [الواقعة: ٤٧] إلخ.

وقدم وصف الضالون على وصف المكذبون مراعاة لترتيب الحصول لأنهم ضلوا عن الحق فكذبوا بالبعث ليحذروا من الضلال ويتدبروا في دلائل البعث وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقع.". (١)

٥٦٠. ٥٦٠-"الذي تحرثون الأرض لأجله، وهو النبات ما أنتم تنبتونه بل نحن ننبته.

وجملة أأنتم تزرعونه إلخ بيان لجملة أفرأيتم ما تحرثون كما تقدم في أأنتم تخلقونه [الواقعة: ٥٩] والاستفهام في أأنتم تزرعونه إنكاري كالذي في قوله: أأنتم تخلقونه.

والقول في موقع أم من قوله: أم نحن الزارعون كالقول في موقع نظيرتها من قوله: أم نحن الخالقون [الواقعة: ٥٩] أي أن (أم) منقطعة للإضراب.

وكذلك القول في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: أأنتم تزرعونه مثل ما في قوله: أأنتم تخلقونه [الواقعة: ٥٩] .

وكذلك القول في نفي الزرع عنهم وإثباته لله تعالى يفيد معنى قصر الزرع، أي الإنبات على الله تعالى، أي دونهم، وهو قصر مبالغة لعدم الاعتداد بزرع الناس.

ويؤخذ من الآية **إيماء** لتمثيل خلق الأجسام خلقا ثانيا مع الانتساب بين الأجسام البالية والأجسام المجددة منها بنبات الزرع من الحبة التي هي منتسبة إلى سنبلة زرع أخذت

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٣٠٩

هي منها فتأتي هي بسنبلة مثلها.

[٦٥- ٦٧]

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٦٥ إلى ٦٧]

لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧)

جملة لو نشاء لجعلناه حطاما، موقعها كموقع جملة: نحن قدرنا بينكم الموت [الواقعة: ٦٠] في أنها استدلال بإفنائه ما أوجده على انفراده بالتصرف إيجادا وإعداما، تكلمة لدليل إمكان البعث.

واللام في قوله: لجعلناه مفيدة للتأكيد. ويكثر اقتران جواب (لو) بهذه اللام إذا كان ماضيا مثبتا كما يكثر تجرده عنها كما سيجيء في الآية الموالية لهذه.

والحطام: الشيء الذي حطمه حاطم، أي كسره ودقه فهو بمعنى المحطوم،". (١)

٥٦١. ٥٦١-"وجملة إن كنتم صادقين بيان لجملة إن كنتم غير مدينين وعلى التفسير الأول لمعنى مدينين يكون وجه إعادة هذا الشرط مع أنه مما استفيد بقوله: إن كنتم غير مدينين هو الإيماء إلى فرض الشرط في قوله: إن كنتم غير مدينين بالنسبة لما في نفس الأمر وأن الشرط في قوله: إن كنتم صادقين هو فرض وتقدير لا وقوع له نفي البعث، وعلى الوجه الثاني يرجع قوله: إن كنتم صادقين إلى ما أفاده التحضيض، وموقع فاء التفريع من إرادة أن قبض الأرواح لتأخيرها إلى يوم الجزاء، أي إن كنتم صادقين في نفي البعث والجزاء.

وضمير التأنيث في قوله: ترجعونها عائد إلى الروح الدال عليه التاء في قوله: إذا بلغت الحلقوم.

ومعنى الاستدراك في ولكن لا تبصرون راجع إلى قوله: ونحن أقرب إليه منكم لرفع توهم قائل: كيف يكون أقرب إلى المحتضر من العواد الحافين حوله وهم يرون شيئا غيرهم يدفع ذلك بأنهم محجوبون عن رؤية أمر الله تعالى.

وجملة ولكن لا تبصرون معترضة، والواو اعتراضية. ومفعول تبصرون محذوف دل عليه قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٧

ونحن أقرب إليه.
ومعنى مدينين مجازين على أعمالكم. وعلى هذا المعنى حمله جمهور المتقدمين من المفسرين ابن عباس ومجاهد وجابر بن زيد والحسن وقتادة، وعليه جمهور المفسرين من المتأخرين على الإجمال، وفسره الفراء والزمخشري مدينين بمعنى: عبيد لله، من
قولهم: دان السلطان الرعية، إذا ساسهم، أي غير مربوبين وهو بعيد عن السياق.
واعلم أن قوله: إن كنتم غير مدينين فرض وتقدير ف إن فيه بمنزلة (لو) ، أي لو كنتم غير مدينين، أي غير مجزيين على الأعمال.
وأسند فعل إن كنتم غير مدينين إلى المخاطبين بضمير المخاطبين، دون أن يقول: إن كان الناس غير مدينين لأن المخاطبين هم الذين لأجل إنكارهم البعث سيق هذا الكلام. والمعنى: لو كنتم أنتم وكان الناس غير مدينين لما أخرجت". (١)

٥٦٢. ٥٦٢-"الأرواح من الأجساد إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غرض سام، وهو وضع كل روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاء على الأعمال، ولذلك أوثر لفظ غير مدينين دون أن يقال: غير مبعوثين، أو غير معادين، وإن كان لا يلزم من نفي الإدانة نفي البعث فإنه يجوز أن يكون بعث بلا جزاء لكن ذلك لا يدعى لأنه عبث.
فقوله: إن كنتم غير مدينين **إيماء** إلى أن الغرض من سوق هذا الدليل إبطال إنكارهم البعث الذي هو لحكمة الجزاء.
ومن مستتبعات هذا الكلام أن يفيد **الإيماء** إلى حكمة الموت بالنسبة للإنسان لأنه لتخليص الأرواح من هذه الحياة الزائلة المملوءة باطلا إلى الحياة الأبدية الحق التي تجري فيها أحوال الأرواح على ما يناسب سلوكها في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله تعالى:
أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون [المؤمنون: ١١٥] فيقتضي أنه لولا أنكم مدينون لما انتزعنا الأرواح من أجسادها بعد أن جعلناها فيها ولأبقيناها لأن الروح الإنساني ليس كالروح الحيواني، فتكون الآية مشتملة على دليلين: أحدهما بحاق التركيب، والآخر

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٣٤٥

بمستتبعاته التي أومأ إليها قوله: إن كنتم غير مدينين. والغرض الأول هو الذي ذيل بقوله: إن كنتم صادقين.

هذا تفسير الآية الذي يحيط بأوفر معانيها دلالة واقتضاء ومستتبعات. وجعل في «الكشاف» معنى الآية يصب إلى إبطال ما يعتقده الدهريون، أي الذين يقولون نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر [الجاثية: ٢٤] ، لأنهم نفوا أن يكونوا عبادا لله. وجعل معنى مدينين مملوكين لله، وبذلك فسره الفراء وقال ابن عطية: «إنه أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبر بمجازى أو بمحاسب، فذلك هنا قلق» . وقلت: في كلامه نظر ظاهر.

وجعل الزمخشري تفريعه على ما حكي من كلامهم السابق مبنيا على أن ما حكي من كلامهم في الأنواء والتكذيب يفضي إلى مذهب التعطيل، فاستدل عليهم بدليل يقتضي وجود الخالق وهو كله ناء عن معنى الآية لأن الدهرية لا ينتحلها جميع العرب بل هي نحلة طوائف قليلة منهم وناء عن متعارف ألفاظها وعن ترتيب استدلالها.". (١)

٥٦٣. ٥٦٣-"ذو روح، أما من كان في العذاب فحياته أقل من الموت، قال تعالى: لا يموت فيها ولا يحيى [الأعلى: ١٣] ، أي لأنه يتمنى الموت فلا يجده.

والريحان: شجر لورقه وقضبانه رائحة ذكية شديد الخضرة كانت الأمم تزين به مجالس الشراب. قال الحريري «وطورا يستبزل الدنان، ومرة يستنشق الريحان» وكانت ملوك العرب تتخذه، قال النابغة:

يحيون بالريحان يوم السباسب وتقدم عند قوله تعالى: والحب ذو العصف والريحان في سورة الرحمن [١٢] ، فتخصيصه بالذكر قبل ذكر الجنة التي تحتوي عليه إيماء إلى كرامتهم عند الله، مثل قوله:

والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار [الرعد: ٢٣، ٢٤] .

وجملة فروح وريحان جواب (أما) التي هي بمعنى: مهما يكن شيء. وفصل بين (ما) المتضمنة معنى اسم شرط وبين فعل شرط وبين الجواب بشرط آخر هو إن كان من المقربين لأن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٧

الاستعمال جرى على لزوم الفصل بين (أما) وجوابها بفاصل كراهية اتصال فاء الجواب بأداة الشرط لما التزموا حذف فعل الشرط فأقاموا مقامه فاصلا كيف كان.

وجواب (إن) الشرطية محذوف أغنى عنه جواب (أما) .

وكذلك قوله: فسلام لك من أصحاب اليمين.

والسلام: اسم للسلامة من المكروه، ويطلق على التحية، واللام في قوله: لك للاختصاص.

والكلام إجمال للتنويه بهم وعلو مرتبتهم وخلاصهم من المكدرات لتذهب نفس السامع كل مذهب.

واختلف المفسرون في قوله: فسلام لك من أصحاب اليمين فقيل: كاف الخطاب موجهة لغير معين، أي لكل من يسمع هذا الخبر. والمعنى: أن السلامة الحاصلة لأصحاب اليمين تسر من يبلغه أمرها. وهذا كما يقال:". (١)

٥٦٤. ٥٦٤-"وتحذير المسلمين من الوقوع في مهواة فساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم من إهمال ما جاءهم من الهدى حتى قست قلوبهم وجر ذلك إلى الفسوق كثيرا منهم.

والتذكير بالبعث. والدعوة إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية.

والأمر بالصبر على النوائب والتنويه بحكمة إرسال الرسل والكتب لإقامة أمور الناس على العدل العام.

والإيماء إلى فضل الجهاد في سبيل الله.

وتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام على أن في ذريتهما مهتدين وفاسقين.

وأن الله أتبعهما برسل آخرين، منهم عيسى عليه السلام الذي كان آخر رسول أرسل بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعه كانوا على سنة من سبقهم، منهم مؤمن ومنهم كافر.

ثم أهاب بالمسلمين أن يخلصوا الإيمان تعريضا بالمنافقين ووعدهم بحسن العاقبة وأن الله فضلهم على الأمم لأن الفضل بيده يوتيه من يشاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٧

[١]

[سورة الحديد (٥٧) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (١)

افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كنهها المشركون والمانوية ونحوهم من أهل التثنية وأصحاب التثليث والبراهمة، وهي الصفة التي ينبيء عنها اسمه العلم أعني". (١)

.٥٦٥ ٥٦٥-"(٢)

تتنزل جملة الذين يظاهرون منكم من نسائهم وما يتم أحكامها منزلة البيان لجملة قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها [المجادلة: ١] الآية لأن فيها مخرجا مما لحق بالمجادلة من ضر بظهار زوجها، وإبطالا له، ولها أيضا موقع الاستئناف البياني لجملة قد سمع الله يثير سؤالا في النفس أن تقول: فماذا نشأ عن استجابة الله لشكوى المجادلة فيجاب بما فيه المخرج لها منه.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب يظهرون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء مفتوحتين بدون ألف بعد الظاء على أن أصله: يتظهرون، فأدغمت التاء في الظاء لقرب مخرجيهما، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف يظاهرون بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها على أن أصله: يتظاهرون، فأدغمت التاء كما تقدم، وقرأ عاصم يظاهرون بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء على أنه مضارع ظاهر.

ولم يأت مصدره إلا على وزن الفعال ووزن المفاعلة. يقال: صدر منه ظهار

ومظاهرة، ولم يقولوا في مصدره بوزن التظهر، فقراءة نافع قد استغني فيها عن مصدره بمصدر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٦/٢٧

مرادفه.

ومعناه أن يقول الرجل لزوجه: أنت علي كظهر أمي. وكان هذا قولا يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيد تحريم نكاحها وبت عصمته. وهو مشتق من الظهر ضد البطن لأن الذي يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي، يريد بذلك أنه حرمها على نفسه. كما أن أمه حرام عليه، فإسناد تركيب التشبيه إلى ضمير المرأة على تقدير حالة من حالاتها، وهي حالة الاستمتاع المعروف، سلكوا في هذا التحريم مسلك الاستعارة المكنية بتشبيه الزوجة حين يقربها زوجها بالراحلة، وإثبات الظهر لها تخيل للاستعارة، ثم تشبيه ظهر زوجته بظهر أمه، أي في حالة من أحواله، وهي حالة الاستمتاع المعروف. وجعل المشبه ذات الزوجة. والمقصود أخص أحوال الزوجة وهو حال قربانها فآل إلى إضافة الأحكام إلى الأعيان.

فالتقدير: قربانك كقربان ظهر أمي، أي اعتلائها الخاص. ففي هذه الصيغة حذف ومجيء حروف لفظ ظهر في صيغة ظهار أو مظاهرة يشير إلى صيغة التحريم التي هي «أنت علي كظهر أمي» **إيماء** إلى تلك الصيغة على نحو". (١)

٥٦٦. ٥٦٦-"ولهذا ذيل بقوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون لأنهم إذا توكلوا على الله توكلا حقا بأن استفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان واستعانوا بالله على تيسير ذلك لهم فإن الله يحفظهم من كيد الشيطان قال تعالى: ومن يتوكل على الله فهو حسبه [الطلاق: ٣] .

ويجوز أن يكون عموم شيئا مرادا به الخصوص، أي ليس بضارهم شيئا مما يوهمه تناجي المنافقين من هزيمة أو قتل إلا بتقدير الله حصول هزيمة أو قتل.

والمعنى: أن التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعا فأعلمهم الله أن لا يحزنوا بالنجوى لأن الأمور تجري على ما قدره الله في نفس الآمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة.

وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: وعلى الله فليتوكل المؤمنون للاهتمام بمدلول هذا المتعلق. [١١]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/١٠

[سورة المجادلة (٥٨) : آية ١١]

يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١)

فصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنهما يجمعهما غرض التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك المراعاة أولى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.

ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخرت تلك عن آيات النجوى العامة إيذانا بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في النجوى هو مسوغ الانتقال من النوع الأول إلى النوع الثاني، **والإيماء** إلى تميزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.

وأيضا قد كان للمنافقين نية مكر في قضية المجلس كما كان لهم نية مكر في". (١)

٥٦٧. ٥٦٧-"النجوى، وهذا مما أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسح في المجلس النبوي الشريف.

روي عن مقاتل أنه قال: كان النبيء صلى الله عليه وسلم في الصفة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سبقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم وكان النبيء صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر فقال لمن حوله: قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبوا القرب من نبيئهم فسبقوا إلى مجلسه فأنزل الله هذه الآية

تطييبا لخاطر الذين أقيموا، وتعليما للأمة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها، وواجب الاعتراف بمزية أهل المزايا، قال الله تعالى: ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض [النساء: ٣٢] ، وقال: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم

(١) التحرير والتنوير ٣٦/٢٨

درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى [الحديد:
١٠] .
والخطاب ب يا أيها الذين آمنوا خطاب لجميع المؤمنين يعم من حضروا المجلس الذي وقعت فيه حادثة سبب النزول وغيرهم ممن عسى أن يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم.
وابتدئت الآية بالأمر بالتفسح لأن إقامة الذين أقيموا إنما كانت لطلب التفسيح فإناطة الحكم إيماء إلى علة الحكم.
والتفسح: التوسع وهو تفعل من فسح له بفتح السين مخففة إذا أوجد له فسحة في مكان، وفسح المكان من باب كرم إذا صار فسيحا. ومادة التفعل هنا للتكلف، أي يكلف أن يجعل فسحة في المكان وذلك بمضايقة مع الجلاس.
وتعريف المجالس يجوز أن يكون تعريف العهد، وهو مجلس النبيء صلى الله عليه وسلم، أي إذا قال النبيء صلى الله عليه وسلم لكم ذلك لأن أمره لا يكون إلا لمراعاة حق راجح على غيره والمجلس مكان الجلوس. وكان مجلس النبيء صلى الله عليه وسلم بمسجده والأكثر أن يكون جلوسه المكان المسمى بالروضة وهو ما بين منبر النبيء صلى الله عليه وسلم وبيته.
ويجوز أن يكون تعريف المجالس تعريف الجنس. وقوله: يفسح الله لكم". (١)

٥٦٨. ٥٦٨-"من المؤمنين، أي دون من يضمه المجلس من المنافقين. فكان مقتضى الظاهر أن يقال: يرفع الله الناشزين منكم فاستحضروا بالموصول بصلة الإيمان لما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى علة رفع الدرجات لأجل امتثالهم أمر القائل انشزوا وهو الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان لإيمانهم وأن ذلك الامتثال من إيمانهم ليس لنفاق أو لصاحبه امتعاض.
وعطف «الذين أوتوا العلم منهم» عطف الخاص على العام لأن غشيان مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو لطلب العلم من مواعظه وتعليمه، أي والذين أوتوا العلم منكم أيها المؤمنون، لأن الذين أوتوا العلم قد يكون الأمر لأحد بالقيام من المجلس لأجلهم، أي لأجل إجلاسهم، وذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا، ولأنهم إذا تمكنوا من مجلس الرسول صلى الله عليه

(١) التحرير والتنوير ٣٧/٢٨

وسلم كان تمكنهم أجمع للفهم وأنفى للملل، وذلك أدعى لإطالتهم الجلوس وازديادهم التلقي وتوفير مستنبطات أفهامهم فيما يلقى إليهم من العلم، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا.

ولعل البدريين الذين نزلت الآية بسبب قصتهم كانوا من الصحابة الذين أوتوا العلم.

ويجوز أن بعضا من الذين أمروا بالقيام كان من أهل العلم فأقيم لأجل رجحان فضيلة البدريين عليه، فيكون في الوعد للذي أقيم من مكانه برفع الدرجات استئناس له بأن الله رافع درجته.

هذا تأويل نظم الآية الذي اقتضاه قوة إيجازه. وقد ذهب المفسرون في الإفصاح عن استفادة المعنى من هذا النظم البديع مذاهب كثيرة وما سلكناه أوضح منها.

وانتصب درجات، على أنه ظرف مكان يتعلق ب يرفع أي: يرفع الله الذين آمنوا رفعا كائنا في درجات.

ويجوز أن يكون نائبا عن المفعول المطلق ل يرفع لأنها درجات من الرفع، أي مرافع.". (١)

٥٦٩. ٥٦٩-"وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار.

ثم خطاب المؤمنين بالأمر بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار والتذكير بتفاوت حال الفريقين.

وبيان عظمة القرآن وجلالته واقتضائه خشوع أهله.

وتخلل ذلك إيماء إلى حكمة شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظمها الإسلام بحيث لا تشق على أصحاب الأموال.

والآمر باتباع ما يشرعه الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وختمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنه يسبح له ما في السماوات والأرض [الحشر: ٢٤] تزكيه لحال المؤمنين وتعريضا بالكافرين.

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٨

[١]

[سورة الحشر (٥٩) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١)

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى تذكير للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير فكأنه قال سبحوا لله كما سبح له ما في السماوات والأرض.

وتعريض بأولئك الذين نزلت السورة فيهم بأنهم أصابهم ما أصابهم لتكبرهم عن تسبيح الله حق تسبيحه بتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم إذ أعرضوا عن النظر في دلائل رسالته أو كابروا في معرفتها.

والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد [١] ، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها: ما في السماوات والأرض وهاهنا قال: ما في السماوات وما في الأرض لأن فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على". (١)

٥٧٠. ٥٧٠-"عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجمع ذلك كله في اسم واحد هو ما الموصولة التي صلتها قوله: في السماوات والأرض. وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي ما الموصولة الثانية التي صلتها في الأرض، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها. وأوثر الإخبار عن سبح لله ما في السماوات وما في الأرض بفعل المضي لأن المخبر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير.

[٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٦٤/٢٨

[سورة الحشر (٥٩) : آية ٢]

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار (٢)

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا.

يجوز أن تجعل جملة هو الذي أخرج الذين كفروا إلى آخرها استئنافا ابتدائيا لقصد إجراء هذا التمجيد على اسم الجلالة لما يتضمنه من باهر تقديره، ولما يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

ويجوز أن تجعل علة لما تضمنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين هم فريقان مما في الأرض فإن القصة التي تضمنتها فاتحة السورة من أهل أحوالهما.

ويجوز أن تجعل مبينة لجملة وهو العزيز الحكيم [الحشر: ١] لأن هذا التسخير العظيم من آثار عزه وحكمته.

وعلى كل الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك وتمهيد للمقصود من السورة وهو قسمة أموال بني النضير.

وتعريف جزأي الجملة بالضمير والموصول يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا". (١)

٥٧١. ٥٧١-"ثم أمر النبيء صلى الله عليه وسلم المسلمين بالسير إليهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة فسار إليهم هو والمسلمون وأمرهم بأن يخرجوا من قريتهم فامتنعوا وتنادوا إلى الحرب ودس إليهم عبد الله بن أبي ابن سلول أن لا يخرجوا من قريتهم وقال: إن قاتلكم المسلمون فنحن معكم ولننصرنكم وإن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة (أي سدوا منافذ بعضها لبعض ليكون كل درب منها صالحا للمدافعة) وحصونها، ووعدهم أن معه ألفين من قومه وغيرهم، وأن معهم قريظة وحلفاءهم من غطفان من العرب فحاصرهم النبيء

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٦٥

صلى الله عليه وسلم وانتظروا عبد الله بن أبي ابن سلول وقريظة وغطفان أن يقدموا إليهم ليردوا عنهم جيش المسلمين فلما رأوا أنهم لم ينجدوهم قذف الله في قلوبهم الرعب فطلبوا من النبيء صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى إلا الجلاء عن ديارهم وتشارطوا على أن يخرجوا ويحمل كل ثلاثة أبيات منهم حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به من الخشب والأبواب.

فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر، وقليل منهم لحقوا ببلاد الشام في مدن (أريحا) وأذرعات من أرض الشام وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

واللام في قوله: لأول الحشر لام التوقيت وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول ظرفا لعمل مثل قوله تعالى: يقول يا ليتني قدمت لحياتي [الفجر: ٢٤] أي من وقت حياتي. وقولهم: كتب ليوم كذا. وهي بمعنى (عند) . فالمعنى أنه أخرجهم عند مبدأ الحشر المقدر لهم، وهذا إيماء إلى أن الله قدر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب. وهذا التقدير أمر به النبيء صلى الله عليه وسلم كما سيأتي. فالتعريف في الحشر تعريف العهد.

والحشر: جمع ناس في مكان قال تعالى: وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم [الشعراء: ٣٦، ٣٧] .

والمراد به هنا: حشر يهود جزيرة العرب إلى أرض غيرها، أي جمعهم للخروج، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء إذا كان الجلاء لجماعة عظيمة تجمع من متفرق ديار البلاد.". (١)

٥٧٢. ٥٧٢-"العجوة والبرمني في قول جمهور أهل المدينة وأيمة اللغة. وتمر اللينة يسمى اللون.

وإيثار لينة على نخلة لأنه أخف ولذلك لم يرد لفظ نخلة مفردا في القرآن، وإنما ورد النخل اسم جمع.

قال أهل اللغة: ياء لينة أصلها واو انقلبت ياء لوقوعها إثر كسرة ولم يذكروا سبب كسر أوله ويقال: لونة وهو ظاهر.

وفي كتب السيرة يذكر أن بعض نخل بني النضير أحرقه المسلمون وقد تضمن ذلك شعر

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢٨

حسان ولم يذكر القرآن الحرق فلعل خبر الحرق مما أرجف به فتناقله بعض الرواة، وجرى عليه شعر حسان وشعر أبي سفيان بن الحارث، أو أن النخلات التي قطعت أحرقها الجيش للطبخ أو للدفء.

وجيء بالحال في قوله: قائمة على أصولها لتصوير هيئتها وحسنها. وفيه **إيماء** إلى أن ترك القطع أولى. وضمير أصولها عائد إلى ما الموصولة في قوله تعالى:

ما قطعتم لأن مدلول ما هنا جمع وليس عائدا إلى لينة لأن اللينة ليس لها عدة أصول بل لكل لينة أصل واحد.

وتعلق على أصولها ب قائمة. والمقصود: زيادة تصوير حسنها. والأصول:

القواعد. والمراد هنا: سوق النخل قال تعالى: أصلها ثابت وفرعها في السماء [إبراهيم: ٢٤] . ووصفها بأنها قائمة على أصولها هو بتقدير: قائمة فروعها على أصولها لظهور أن أصل النخلة بعضها.

والفاء من قوله: فبإذن الله مزيدة في خبر المبتدأ لأنه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيرا إذا ضمن معنى التسبب، وقد قرىء بالفاء وبدونها قوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم في سورة الشورى [٣٠] .

وعطف وليخزي الفاسقين من عطف العلة على السبب وهو فبإذن الله لأن السبب في معنى العلة، ونظيره قوله تعالى: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين الآية في آل عمران [١٦٦] .". (١)

٥٧٣. ٥٧٣-"وعندي أن هذا أحسن الوجوه، وإن قل قائلوه. والجمهور يجعلون النصب على المفعول معه سماعيا فهو عندهم قليل الاستعمال فتجنبوا تخريج آيات القرآن عليه حتى ادعى ابن هشام في «مغني اللبيب» أنه غير واقع في القرآن بيقين. وتأول قوله تعالى:

فأجمعوا أمركم وشركاءكم [يونس: ٧١] ، ذلك لأن جمهور البصريين يشترطون أن يكون العامل في المفعول معه هو العامل في الاسم الذي صاحبه ولا يرون واو المعية ناصبة المفعول معه خلافا للكوفيين والأخفش فإن الواو عندهم بمعنى (مع) . وقال عبد القاهر:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٧٧

منصوب بالواو.

والحق عدم التزام أن يكون المفعول معه معمولا للفعل، ألا ترى صحة قول القائل: استوى الماء والخشبة. وقولهم: سرت والنيل، وهو يفيد الثناء عليهم بأن دار الهجرة دارهم آووا إليها المهاجرين لأنها دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها.

وبذلك يتضح أن متعلق من قبلهم فعل تبوؤا بمفرده، وأن المجرور المتعلق به قيد فيه دون ما ذكر بعد الواو لأن الواو ليست واو عطف فلذلك لا تكون قائمة مقام الفعل السابق لأن واو المعية في معنى ظرف فلا يعلق بها مجرور.

وفي ذكر الدار (وهي المدينة) مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة بحيث جعل تبوءهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان ولعل هذا هو الذي عناه مالك رحمه الله فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق. فقال:

إن المدينة تبوئت بالإيمان والهجرة وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ: والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم الآية.

وجملة يحبون من هاجر إليهم حال من الذين تبوؤوا الدار، وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

ومن آثار هذه المحبة ما ثبت في «الصحيح» من خبر سعد بن الربيع مع عبد الرحمان بن عوف إذ عرض سعد عليه أن يقاسمه ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه، وقد أسكنوا المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم، وحسبك الأخوة التي آخى النبيء صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.". (١)

٥٧٤. ٥٧٤-"وجملة يقولون في موضع المفعول الثاني. والتقدير: ألم ترهم قائلين. وجيء بالفعل المضارع لقصد تكرر ذلك منهم، أي يقولون ذلك مؤكدينه ومكررينه لا على سبيل البداء أو الخاطر المعدول عنه.

والذين نافقوا المخبر عنهم هنا هم فريق من بني عوف من الخزرج من المنافقين سمي منهم عبد

---

(١) التحرير والتنوير ٩١/٢٨

الله بن أبي ابن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، ووديعة بن أبي قوتل، أو ابن قوقل، وسويد (لم ينسب) وداعس (لم ينسب) ، بعثوا إلى بني النضير حين حاصر جيش المسلمين بني النضير يقولون لهم:

اثبتوا في معاقلكم فإنا معكم.

والمراد بإخوانهم بنو النضير وإنما وصفهم بالإخوة لهم لأنهم كانوا متحدين في الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وليست هذه أخوة النسب فإن بني النضير من اليهود، والمنافقين الذين بعثوا إليهم من بني عوف من عرب المدينة وأصلهم من الأزد.

وفي وصف إخوانهم ب الذين كفروا **إيماء** إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر إلا أن كفر المنافقين كفر الشرك وكفر إخوانهم كفر أهل الكتاب وهو الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولام لئن أخرجتم موطئة للقسم، أي قالوا لهم كلاما مؤكدا بالقسم.

وإنما وعدوهم بالخروج معهم ليطمئنوا لنصرتهم فهو كناية عن النصر وإلا فإنهم لا يرضون أن يفارقوا بلادهم.

وجملة ولا نطيع فيكم أحدا معطوفة على جملة لئن أخرجتم فهي من المقول لا من المقسم عليه، وقد أعريت عن المؤكد لأن بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر.

ومعنى فيكم في شأنكم، ويعرف هذا بقرينة المقام، أي في ضركم إذ لا يخطر بالبال أنهم لا يطيعون من يدعوهم إلى موالاة إخوانهم، ويقدر المضاف في مثل هذا بما يناسب المقام.

ونظيره قوله تعالى: فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، [المائدة: ٥٢]". (١)

٥٧٥. ٥٧٥-"ولذلك أقحم لفظ القوم في قوله بأنهم قوم لا يعقلون **إيماء** إلى أن ذلك من آثار ضعف عقولهم حتى صارت عقولهم كالمعدومة فالمراد: أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح.

وأوثر هنا لا يعقلون. وفي الآية التي قبلها لا يفقهون [الحشر: ١٣] لأن معرفة مآل التشتت

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٩٩

في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفت في ساعد الأمة معرفة «مشهورة» بين العقلاء. قال أحد بني نبهان يخاطب قومه إذ أزمعوا على حرب بعضهم:

وأن الحزامة أن تصرفوا ... لحي سوانا صدور الأسل

فإهمالهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم فكانت هذه الحالة شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين.

وقد تقدم غير مرة أن إسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأن ذلك الحكم كالجبلة المقومة للقومية وقد ذكرته آنفا.

[١٥]

[سورة الحشر (٥٩) : آية ١٥]

كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (١٥)

خبر مبتدأ محذوف دل عليه هذا الخبر، فالتقدير: مثلهم كمثل الذين من قبلهم قريبا، أي حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الذين من قبلهم قريبا.

والمراد: أن حالهم المركبة من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، ومن خذلان المنافقين إياهم عند الحاجة، ومن أنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، كحال الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب وهم بنو النضير فإنهم أظهروا الاستعداد للحرب وأبوا الجلاء، فلم يحاربوا إلا في قريتهم إذ حصنوها وقبعوا فيها حتى أعياهم الحصار فاضطروا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانهم من أهل الكتاب.". (١)

٥٧٦. ٥٧٦-"وابتدئ في هذه الصفات العلية بصفة الوحدانية وهي مدلول الذي لا إله إلا هو وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات. ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي، وفاتحة آل عمران.

وثني بصفة عالم الغيب لأنها الصفة التي تقتضيها صفة الإلهية إذ علم الله هو العلم الواجب

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/٢٨

وهي تقتضي جميع الصفات إذ لا تتقوم حقيقة العلم الواجب إلا بالصفات السلبية، وإذ هو يقتضي الصفات المعنوية، وإنما ذكر من متعلقات علمه أمور الغيب لأنه الذي فارق به علم الله تعالى علم غيره، وذكر معه علم الشهادة للاحتراس توهم أنه يعلم الحقائق العالية الكلية فقط كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين ولأن التعريف في الغيب والشهادة للاستغراق. أي كل غيب وشهادة، وذلك مما لا يشاركه فيه غيره.

وهو علم الغيب والشهادة، أي الغائب عن إحساس الناس والمشاهد لهم. فالمقصود فيهما بمعنى اسم الفاعل، أي عالم ما ظهر للناس وما غاب عنهم من كل غائب يتعلق به العلم على ما هو عليه.

والتعريف في الغيب والشهادة للاستغراق الحقيقي.

وفي ذكر الغيب إيماء إلى ضلال الذين قصروا أنفسهم على المشاهدات وكفروا بالمغيبات من البعث والجزاء وإرسال الرسل، أما ذكر علم الشهادة فتتميم على أن المشركين يتوهمون الله لا يطلع على ما يخفونه. قال تعالى: وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم إلى قوله: من الخاسرين [فصلت: ٢٢، ٢٣] .

وضمير هو الرحمن الرحيم ضمير فصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها قال تعالى: ورحمتي وسعت كل شيء [الأعراف: ١٥٦] .

وقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»

. وقد تقدم الكلام على الرحمن الرحيم في سورة الفاتحة [٣] .

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى". (١)

٥٧٧. ٥٧٧-"وتعدية جاء إلى ضمير المخاطبين وهم الذين آمنوا لأنهم الذين انتفعوا بذلك الحق وتقبلوه فكأنه جاء إليهم لا إلى غيرهم وإلا فإنه جاء لدعوة الذين آمنوا والمشركين فقبله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/١١٩

الذين آمنوا ونبذه المشركون.

وفيه **إيماء** إلى أن كفر الكافرين به ناشيء عن حسدهم الذين آمنوا قبلهم.

وفي ذلك أيضا إلهاب لقلوب المؤمنين ليحذروا من موالاة المشركين.

وجملة يخرجون الرسول وإياكم حال من ضمير كفروا، أي لم يكتفوا بكفرهم بما جاء من الحق فتلبسوا معه بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخراجكم من بلدكم لأن تؤمنوا بالله ربكم، أي هو اعتداء حملهم عليه أنكم آمنتم بالله ربكم. وأن ذلك لا عذر لهم فيه لأن إيمانكم لا يضيرهم. ولذلك أجري على اسم الجلالة وصف ربكم على حد قوله تعالى: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد [الكافرون: ١- ٣] ثم قال: لكم دينكم ولي دين [الكافرون: ٦] .

وحكيت هذه الحالة بصيغة المضارع لتصوير الحالة لأن الجملة لما وقعت حالا من ضمير وقد كفروا كان إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تلك الحالة عملا فظيعا، فأريد استحضار صورة ذلك الإخراج العظيم فظاعة اعتلالهم له.

والإخراج أريد به: الحمل على الخروج بإتيان أسباب الخروج من تضييق على المسلمين وأذى لهم.

وأسند الإخراج إلى ضمير العدو كلهم لأن جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين. وربما أغروا به سفهاءهم، ولذلك فالإخراج مجاز في أسبابه، وإسناده إلى المشركين إسناد حقيقي.

وهذه الصفات بمجموعها لا تنطبق إلا على المشركين من أهل مكة ومجموعها هو علة النهي عن موادتهم.

وجيء بصيغة المضارع في قوله تعالى: أن تؤمنوا، لإفادة استمرار إيمان المؤمنين وفيه **إيماء** إلى الثناء على المؤمنين بثباتهم على دينهم، وأنهم لم يصدهم عنه ما سبب لهم الخروج من بلادهم.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/٢٨

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أن الكافرين محقوقون بأن تقاتلوهم لأنهم شذوا عن جميع المخلوقات فلم يسبحوا الله ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية. وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنهم لم يؤدوا حق تسبيح الله، لأن الله مستحق لأن يوفى بعهده في الحياة الدنيا وأن الله ناصر الذين آمنوا على عدوهم.

وتقدم الكلام على نظير قوله: سبح لله إلى الحكيم في أول سورة الحشر وسورة الحديد.

وفي إجراء وصف العزيز عليه تعالى هنا إيماء إلى أنه الغالب لعدوه فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه فتفروا منهم عند اللقاء.

وإجراء صفة الحكيم إن حملت على معنى المتصف بالحكمة أن الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يخليهم يغلبونكم. وإن حملت على معنى

المحكم للأمور فكذلك.

[٢، ٣]

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٢ إلى ٣]

يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣)

ناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأن الإيمان من شأنه أن يزع المؤمن عن أن يخالف فعله قوله في الوعد بالخير.

واللام لتعليل المستفهم عنه وهو الشيء المبهم الذي هو مدلول ما الاستفهامية لأنها تدل على أمر مبهم يطلب تعيينه.

والتقدير: تقولون ما لا تفعلون لأي سبب أو لأية علة.

وتتعلق اللام بفعل تقولون المجرور مع حرف الجر لصدارة الاستفهام.

والاستفهام عن العلة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضيا لله تعالى، أي أن ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك كما في قوله

تعالى: قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل في سورة البقرة". (١)

٥٧٩. ٥٧٩-"شاهدوه من دلائل رسالته، وكما أكد علمهم ب قد أكد حصول المعلوم ب (أن) المفتوحة، فحصل تأكيدان للرسالة. والمعنى: فكيف لا يجري أمركم على وفق هذا العلم.

والإتيان بعد قد بالمضارع هنا للدلالة على أن علمهم بذلك مجدد بتجدد الآيات والوحي، وذلك أجدى بدوام امتثاله لأنه لو جيء بفعل المضي لما دل على أكثر من حصول ذلك العلم فيما مضى. ولعله قد طرأ عليه ما يبطله، وهذا كالمضارع في قوله:

قد يعلم الله المعوقين منكم في سورة الأحزاب [١٨] .

والزيغ: الميل عن الحق، أي لما خالفوا ما أمرهم رسولهم جعل الله في قلوبهم زيغا، أي تمكن الزيغ من نفوسهم فلم ينفكوا عن الضلال.

وجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين تذييل، أي وهذه سنة الله في الناس فكان قوم موسى الذين آذوه من أهل ذلك العموم.

وذكر وصف الفاسقين جاريا على لفظ القوم **للإيماء** إلى الفسوق الذي دخل في مقومات قوميتهم. كما تقدم عند قوله تعالى: إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله: لآيات لقوم يعقلون في البقرة [١٦٤] .

فالمعنى: الذين كان الفسوق عن الحق سجية لهم لا يلطف الله بهم ولا يعتني بهم عناية خاصة تسوقهم إلى الهدى، وإنما هو طوع الأسباب والمناسبات.

[٦]

[سورة الصف (٦١) : آية ٦]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

عطف على جملة وإذ قال موسى لقومه [الصف: ٥] فعلى الوجه الأول في موقع التي قبلها

(١) التحرير والتنوير ١٧٤/٢٨

فموقع هذه مساو له.

وأما على الوجه الثاني في الآية السابقة فإن هذه مسوقة مساق التتميم لقصة موسى بذكر مثال آخر لقوم حادوا عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم من غير إفادة". (١)

٥٨٠. ٥٨٠-"موضع الحال، وهذا الوجه يناسب قوله تعالى: لما يلحقوا بهم لأن اللحوق هو معنى الاتصال.

وموضع جملة لما يلحقوا بهم موضع الحال، وينشأ عن هذا المعنى إيماء إلى أن الأمم التي تدخل في الإسلام بعد المسلمين الأولين يصيرون مثلهم، وينشأ منه أيضا رمز إلى أنهم يتعربون لفهم الدين والنطق بالقرآن فكم من معان جليلة حوتها هذه الآية سكت عنها أهل التفسير.

وهذه بشارة غيبية بأن دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم ستبلغ أمما ليسوا من العرب وهم فارس، والأرمن، والأكراد، والبربر، والسودان، والروم، والترك، والتتار، والمغول، والصين، والهنود، وغيرهم وهذا من معجزات القرآن من صنف الإخبار بالمغيبات.

وفي الآية دلالة على عموم رسالة النبيء صلى الله عليه وسلم لجميع الأمم.

والنفي ب (لما) يقتضي أن المنفي بها مستمر الانتفاء إلى زمن التكلم فيشعر بأنه مترقب الثبوت كقوله تعالى: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] ، أي وسيدخل كما في «الكشاف» ، والمعنى: أن آخرين هم في وقت نزول هذه الآية لم يدخلوا في الإسلام ولم يلتحقوا بمن أسلم من العرب وسيدخلون في أزمان أخرى.

واعلم أن

قول النبيء صلى الله عليه وسلم «لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء»

إيماء إلى مثال مما يشمله قوله تعالى: وآخرين منهم لأنه لم يصرح في جواب سؤال السائل بلفظ يقتضي انحصار المراد ب آخرين في قوم سلمان. وعن عكرمة: هم التابعون. وعن مجاهد: هم الناس كلهم الذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عمر: هم أهل اليمن.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/٢٨

وقوله: وهو العزيز الحكيم تذييل للتعجيب من هذا التقدير الإلهي لانتشار هذا الدين في جميع الأمم. فإن العزيز لا يغلب قدرته شيء. والحكيم تأتي أفعاله عن قدر محكم.
[٤]

[سورة الجمعة (٦٢) : آية ٤]
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم". (١)

٥٨١. ٥٨١-"وأحسب أن ذلك تخفيف على الناس إذ وجبت عليهم خطبتان مع الصلاة فكانت كل
خطبة بمنزلة ركعة وهذا سبب الجلوس بين الخطبتين **للإيماء** إلى أنهما قائمتان مقام الركعتين ولذلك كان الجلوس خفيفا. غير أن الخطبتين لم تعطيا أحكام الركعتين فلا يضر فوات إحداهما أو فواتهما معا ولا يجب على المسبوق تعويضهما ولا سجود لنقصهما عند جمهور فقهاء الأمصار، روي عن عطاء ومجاهد وطاووس: أن من فاتته الخطبة يوم الجمعة صلى أربعا صلاة الظهر. وعن عطاء: أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة أضاف إليها ثلاث ركعات وهو أراد إن فاتته الخطبة وركعة من صلاة الجمعة (١) .
وجعلت القراءة في الصلاة جهرا مع أن شأن صلوات النهار إسرار القراءة لفائدة إسماع الناس سورا من القرآن كما أسمعوا الخطبة فكانت صلاة إرشاد لأهل البلد في يوم من كل أسبوع.
والإجماع على أن صلاة الجمعة قائمة مقام صلاة الظهر في يوم الجمعة فمن صلاها لا يصلي معها ظهرا فأما من لم يصلها لعذر أو لغيره فيجب عليه أن يصلي الظهر. ورأيت في الجامع الأموي في دمشق قام إمام يصلي بجماعة ظهرا بعد الفراغ من صلاة الجمعة وذلك بدعة.
وإنما اختلف الأئمة في أصل الفرض في وقت الظهر يوم الجمعة فقال مالك والشافعي في آخر قوليه وأحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة: صلاة الجمعة المعروفة فرض وقت الزوال في يوم الجمعة وصلاة الظهر في ذلك اليوم لا تكون إلا بدلا عن صلاة الجمعة، أي لمن لم يصل الجمعة لعذر ونحوه.

---
(١) التحرير والتنوير ٢١٢/٢٨

وقال أبو حنيفة والشافعي في أول قوليه (المرجوع عنه) وأبو يوسف ومحمد في رواية: الفرض بالأصل هو الظهر وصلاة الجمعة بدل عن الظهر، وهو الذي صححه فقهاء الحنفية.
وقال محمد في رواية عنه: الفرض إحدى الصلاتين من غير تعيين والتعيين للمكلف فأشبه الواجب المخير (لأن الواجب المخير لا يأثم فيه فاعل أحد الأمرين وتارك الجمعة بدون عذر آثم) .

---

(١) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» ص ٥٤٨ ج ٣.". (١)

٥٨٢. ٥٨٢-"ومجيء الأجل حلول الوقت المحدد للاتصال بين الروح والجسد وهو ما علمه الله من طاقة البدن للبقاء حيا بحسب قواه وسلامته من العوارض المهلكة.
وهذا إرشاد من الله للمؤمنين ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، فلا يؤخروا ما يهمهم عمله سؤال ثوابه فما من أحد يؤخر العمل الذي يسره أن يعمله وينال ثوابه إلا وهو معرض لأن يأتيه الموت عن قريب أو يفاجئه، فعليه بالتحرز الشديد من هذا التفريط في كل وقت وحال، فربما تعذر عليه التدارك بفجأة الفوات، أو وهن المقدرة فإنه إن كان لم تطاوعه نفسه على العمل الصالح قبل الفوات فكيف يتمنى تأخير الأجل المحتوم.
والله خبير بما تعملون.
عطف على جملة لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم [المنافقون: ٩] . أو تذييل والواو اعتراضية.
ويفيد بناء الخبر على الجملة الاسمية تحقيق علم الله بما يعمله المؤمنون. ولما كان المؤمنون لا يخامرهم شك في ذلك كان التحقيق والتقوي راجعا إلى لازم الخبر وهو الوعد والوعيد والمقام هنا مقامهما لأن الإنفاق المأمور به منه الواجب المندوب. وفعلهما يستحق الوعد. وترك أولهما يستحق الوعيد.
وإيثار وصف خبير دون: عليم، لما تؤذن به مادة خبير من العلم بالأمور الخفية ليفيد أنه تعالى عليم بما ظهر من الأعمال وما بطن مثل أعمال القلب التي هي العزائم والنيات، وإيقاع هذه الجملة بعد ذكر ما يقطعه الموت من ازدياد الأعمال الصالحة **إيماء** إلى أن ما عسى أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٢٣

يقطعه الموت من العزم على العمل إذا كان وقته المعين له شرعا ممتدا كالعمر للحج على المستطيع لمن لم يتوقع طرو مانع. وكالوقت المختار للصلوات، أن حيلولة الموت دون إتمامه لا يرزيء المؤمن ثوابه لأن المؤمن إذا اعتاد حزبا أو عزم على عمل صالح ثم عرض له ما منعه منه أن الله يعطيه أجره.

ومن هذا القبيل: أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة كما في الحديث الصحيح.". (١)

٥٨٣. ٥٨٣-"[٣]

[سورة التغابن (٦٤) : آية ٣]

خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (٣)

خلق السماوات والأرض.

استئناف بياني ناشيء عن قوله: فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] يبين أن انقسامهم إلى قسمي الكافرين والمؤمنين نشأ عن حياد فريق من الناس عن الحق الذي أقيم عليه خلق السماوات والأرض لأن الحق أن يؤمن الناس بوجود خالقهم، وبأنه واحد وأن يفردوه بالعبادة فذلك الذي أراده الله من خلقهم، قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] . وقال: فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله [الروم: ٣٠] فمن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر فقد حاد عن الحق والفطرة.

بالحق.

وقوله: بالحق معترض بين جملة خلق السماوات والأرض وجملة وصوركم.

وفي قوله: بالحق إيماء إلى إثبات البعث والجزاء لأن قوله بالحق متعلق بفعل خلق تعلق الملابسة المفاد بالباء، أي خلقا ملابسا للحق، والحق ضد الباطل، ألا

ترى إلى قوله: إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله: ربنا ما خلقت هذا باطلا [آل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٥٦

عمران: ١٩٠، ١٩١] . والباطل مصدقه هنالك هو العبث لقوله تعالى: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق [الدخان: ٣٨، ٣٩] فتعين أن مصدق الحق في قوله: خلق السماوات والأرض بالحق أنه ضد العبث والإهمال.

والمراد ب خلق السماوات والأرض خلق ذواتهن وخلق ما فيهن من المخلوقات كما أنبأ عنه قوله: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق، أي ما خلقناهما وما بينهما إلا بالحق، فكذلك يكون التقدير في الآية من هذه السورة.

وملابسة الحق لخلق السماوات والأرض يلزم أن تكون ملابسة عامة مطردة لأنه لو اختلت ملابسة حال من أحوال مخلوقات السماوات للحق لكان ناقضا لمعنى ملابسة خلقها للحق، فكان نفي البعث للجزاء على أعمال المخلوقات موجبا". (١)

٥٨٤. ٥٨٤-"اختلال تلك الملابسة في بعض الأحوال. وتخلف الجزاء عن الأعمال في الدنيا مشاهد إذ كثيرا ما نرى الصالحين في كرب ونرى أهل الفساد في نعمة، فلو كانت هذه الحياة الدنيا قصارى حياة المكلفين لكان كثير من أهل الصلاح غير لاق جزاء على صلاحه. وانقلب أكثر أهل الفساد متمتعا بإرضاء خباثة نفسه ونوال مشتهياته، فكان خلق كلا هذين الفريقين غير ملابس للحق، بالمعنى المراد.

ولزيادة الإيقاظ لهذا الإيمان عطف عليه قوله: وإليه المصير وكل ذلك توطئة إلى ما سبقه من قوله تعالى: زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا [التغابن: ٧] الآية.

وفي قوله: بالحق رمز إلى الجزاء وهو وعيد ووعد.

وفي قوله: خلق السماوات إلى آخره إظهار أيضا لعظمة الله في ملكوته.

وصوركم فأحسن صوركم.

إدماج امتنان على الناس بأنهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإجمال وذلك من الكمال وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية فقد خلقوا في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه لا يعتورها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما يناكد محاسن سائرها بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطير والحيتان من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٤/٢٨

مشي على أربع مع انتكاس الرأس غالبا، أو زحف، أو نقز في المشي في البعض.

ولا تعتور الإنسان نقائص في صورته إلا من عوارض تعرض في مدة تكوينه من صدمات لبطون الأمهات، أو علل تحل بهن، أو بالأجنة أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور. فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإنسان على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة ولكنه نقص نسبي في المحاسن فقد جمع بين **الإيماء** إلى ما اقتضته الحكمة قد نبههم إلى ما اقتضاه الإنعام. وفيه إشارة إلى دليل إمكان البعث كما قال:

أفعيينا بالخلق الأول [ق: ١٥] ، وقال: أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم [يس: ٨١] .". (١)

٥٨٥. ٥٨٥-"وأما عطف وما تعلنون فتتميم للتذكير بعموم تعلق علمه تعالى بالأعمال.

وقد تضمن قوله: ويعلم ما تسرون وما تعلنون وعيدا ووعدا ناظرين إلى قوله:

فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] فكانت الجملة لذلك شديدة الاتصال بجملة هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] .

وإعادة فعل يعلم للتنبيه على العناية بهذا التعلق الخاص للعلم الإلهي بعد ذكر تعلقه العام في قوله: يعلم ما في السماوات والأرض تنبيها على الوعيد والوعد بوجه خاص.

وجملة والله عليم بذات الصدور تذييل لجملة ويعلم ما تسرون لأنه يعلم ما يسره جميع الناس من المخاطبين وغيرهم.

وذات الصدور صفة لموصوف محذوف نزلت منزلة موصوفها، أي صاحبات الصدور، أي المكتومة فيها.

والتقدير: بالنوايا والخواطر ذات الصدور كقوله: وحملناه على ذات ألواح [القمر: ١٣] وتقدم بيانه عند قوله تعالى: إنه عليم بذات الصدور في سورة الأنفال [٤٣] .

[٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٦٥

[سورة التغابن (٦٤) : آية ٥]

ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (٥)

انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله: والله بما تعملون بصير [التغابن: ٢] ، إلى قوله: وإليه المصير [التغابن: ٣] ، وقوله: ويعلم ما تسرون وما تعلنون [التغابن: ٤] ، إلى تعريض أوضح منه بطريق **الإيماء** إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معا فأن ما يسمى في باب الكناية بالإيمان أقل لوازم من التعريض والرمز فهو أقرب إلى التصريح.

وهذا **الإيماء** بضرب المثل بحال أمم تلقوا رسلهم بمثل ما تلقى به المشركون محمدا صلى الله عليه وسلم

تحذيرا لهم من أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك، فالجملة ابتدائية لأنها عد لصنف ثان من أصناف كفرهم وهو إنكار الرسالة.

فالخطاب لخصوص الفريق الكافر بقرينة قوله: الذين كفروا من قبل فهذا". (١)

٥٨٦. ٥٨٦-"والمعنى: أن المؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متبع لوصايا الله تعالى فهو مجاف لفاسد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة. قال تعالى: وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون [البقرة: ١٥٥- ١٥٧] ، أي أصحاب الهدى الكامل لأنه هدى متلقى من التعاليم الإلهية الحق المعصومة من الخطل كقوله هنا: يهد قلبه.

وهذا الخبر في قوله: ومن يؤمن بالله يهد قلبه **إيماء** إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب فلذلك ذيل بجملة والله بكل شيء عليم فهو تذييل للجملة التي قبلها وارد على مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن الله، ومن أن الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب ومن الأمر بالثبات والصبر عند المصائب، أي يعلم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٦٧

جميع ذلك.

وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب لأن فائدة علم الله التي تهم الناس هو التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات.

[١٢]

[سورة التغابن (٦٤) : آية ١٢]

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين (١٢)

عطف على جملة ومن يؤمن بالله يهد قلبه [التغابن: ١١] لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيئون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من مصالح الأعمال كما يدل عليه تذييل الكلام بقوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون [آل عمران: ١٢٢] ، ولأن طلب الطاعة فرع عن

تحقق الإيمان كما

في حديث معاذ «أن النبيء صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: إنك ستأتي قوما أهل كتاب فأول ما تدعوهم إليه فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة»

الحديث.". (١)

٥٨٧. ٥٨٧-"به قال تعالى: إن بعض الظن إثم [الحجرات: ١٢] وقال: أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [الحجرات: ٦] .

والعفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها. ولو مع توبيخ.

والصفح: الإعراض عن المذنب، أي ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ.

والغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته.

والجمع بينها هنا إيماء إلى تراتب آثار هذه العداوة وما تقتضيه آثارها من هذه المعاملات الثلاث. وحذف متعلق الأفعال الثلاثة لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم فيما يصدر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٠

منهم مما يؤذيكم، ويجوز أن يكون حذف المتعلق لإرادة عموم الترغيب في العفو.
وإنما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب إذا كان ذنبه متعلقا بحق ذلك المرء وبهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة وفي أدلة الشريعة تقييدات لها.
وجملة فإن الله غفور رحيم دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر فالتقدير وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم لأن الله غفور رحيم، أي للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث.
[١٥]

[سورة التغابن (٦٤) : آية ١٥]
إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١٥)
تذييل لأن فيه تعميم أحوال الأولاد بعد أن ذكر حال خاص ببعضهم.
وأدمج فيه الأموال لأنها لم يشملها طلب الحذر ولا وصف العداوة. وقدم ذكر الأموال على الأولاد لأن الأموال لم يتقدم ذكرها بخلاف الأولاد.
ووجه إدماج الأموال هنا أن المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم من المشركين فغلبوهم على أموالهم ولم تذكر الأموال في الآية السابقة لأن الغرض هو التحذير من أشد الأشياء اتصالا بهم وهي أزواجهم وأولادهم. ولأن فتنة هؤلاء مضاعفة لأن الداعي إليها يكون من أنفسهم ومن مساعي الآخرين وتسويلهم. وجرد عن ذكر". (١)

٥٨٨. ٥٨٨-"وعدد آيها اثنتا عشرة آية في عدد الأكثر. وعدها أهل البصرة إحدى عشرة آية.
وهي معدودة السادسة والتسعين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البينة.
وسبب نزولها ما
رواه مسلم عن طريق ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمان بن أيمن يسأل ابن عمر

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٥

كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضا؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ليراجعها، فردها وقال: إذا طهرت فليطلق أو ليمسك. قال ابن عمر وقرأ النبيء: يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن

[الطلاق: ١] .

وظاهر قوله: وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم إلخ. إنها نزلت عليه ساعتئذ. ويحتمل أن تكون نزلت قبل هذه الحادثة. وقال الواحدي عن السدي: أنها نزلت في قضية طلاق ابن عمر، وعن قتادة أنها نزلت بسبب أن النبيء صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ولم يصح. وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئا من ذلك لم يصح وأن الأصح أن الآية نزلت بيانا لشرع مبتدإ.

أغراضها

الغرض من آيات هذه السورة تحديد أحكام الطلاق وما يعقبه من العدة والإرضاع والإنفاق والإسكان. تتميما للأحكام المذكورة في سورة البقرة.

والإيماء إلى حكمة شرع العدة.

والنهي عن الإضرار بالمطلقات والتضييق عليهن.

والإشهاد على التطليق وعلى المراجعة.

وإرضاع المطلقة ابنها بأجر على الله.

والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما.

وتخلل ذلك الأمر بالمحافظة الوعد بأن الله يؤيد من يتقي الله ويتبع حدوده ويجعل له من أمره يسرا ويكفر عنه سيئاته.". (١)

٥٨٩. ٥٨٩-"شرع مبتدإ قالوا: إنه يجوز أن يكون المراد إذا طلقتم في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم ولكن طلقوهن لعدتهن، أي في أطهارهن كما سيأتي.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٣

وتكرير فعل فطلقوهن لمزيد الاهتمام به فلم يقل إذا طلقتم النساء فلطهرهن وقد تقدم نظير ذلك عند قوله تعالى: وإذا بطشتم بطشتم جبارين في سورة الشعراء [١٣٠] ، وقوله: وإذا مروا باللغو مروا كراما في سورة الفرقان [٧٢] .

واللام في لعدتهن لام التوقيت وهي بمعنى عند مثل كتب ليوم كذا من شهر كذا. ومنه قوله تعالى: أقم الصلاة لدلوك الشمس [الإسراء: ٧٨] لا تحتمل هذه اللام غير ذلك من المعاني التي تأتي لها اللام. ولما كان مدخول اللام هنا غير زمان علم أن المراد الوقت المضاف إلى عدتهن أي وقت الطهر.

ومعنى التركيب أن عدة النساء جعلت وقتا لإيقاع طلاقهن فكني بالعدة عن الطهر لأن المطلقة تعتد بالأطهار.

وفائدة ذلك أن يكون إيماء إلى حكمة هذا التشريع وهي أن يكون الطلاق عند ابتداء العدة وإنما تبتدأ العدة بأول طهر من أطهار ثلاثة لدفع المضرة عن المطلقة بإطالة انتظار تزويجها لأن ما بين حيضها إذا طلقت فيه وبين طهرها أيام غير محسوبة في عدتها فكان أكثر المطلقين يقصدون بذلك إطالة مدة العدة ليوسعوا على أنفسهم زمن الارتياء للمراجعة قبل أن يبن منهم.

وفعل طلقتم مستعمل في معنى أردتم الطلاق وهو استعمال وارد ومنه قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم [المائدة: ٦] الآية والقرينة ظاهرة.

والآية تدل على إباحة التطليق بدلالة الإشارة لأن القرآن لا يقدر حصول فعل محرم من دون أن يبين منعه.

والطلاق مباح لأنه قد يكون حاجيا لبعض الأزواج فإن الزوجين شخصان اعتشرا اعتشارا حديثا في الغالب لم تكن بينهما قبله صلة من نسب ولا جوار ولا تخلق بخلق متقارب أو متماثل فيكثر أن يحدث بينهما بعد التزوج تخالف في بعض نواحي المعاشرة قد يكون شديدا ويعسر تذليله، فيمل أحدهما ولا يوجد سبيل إلى". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٥

٥٩٠.   ٥٩٠-"شديدة اللهجة في التحدي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ولزيادة الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ربكم للتذكير بأنه حقيق بأن يتقى غضبه.

لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة.

استئناف أو حال من ضمير أحصوا العدة، أي حالة كون العدة في بيوتهن، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من مضمون جملة أحصوا العدة لأن مكثهن في بيوتهن في مدة العدة يحقق معنى إحصاء العدة.

ولكلا الوجهين جردت الجملة عن الاقتران بالواو جوازا أو وجوبا.

وفي إضافة البيوت إلى ضمير النساء **إيماء** إلى أنهن مستحقات المكث في البيوت مدة العدة بمنزلة مالك الشيء وهذا ما يسمى في الفقه ملك الانتفاع دون العين ولأن بقاء المطلقات في البيوت اللاتي كن فيها أزواجا استصحاب لحال الزوجية إذ الزوجة هي المتصرفة في بيت زوجها ولذلك يدعوها العرب «ربة البيت» وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت في العدة إلا في استمتاع المطلق.

وهذا الحكم سببه مركب من قصد المكارمة بين المطلق والمطلقة. وقصد الانضباط في علة الاعتداد تكميلا لتحقق لحاق ما يظهر من حمل بأبيه المطلق حتى يبرأ النسب من كل شك.

وجملة ولا يخرجن عطف على جملة لا تخرجوهن وهو نهي لهن عن الخروج فإن المطلق قد يخرجها فترغب المطلقة في الخروج لأنها تستثقل البقاء في بيت زالت عنه سيادتها فنهاهن الله عن الخروج. فإذا كان البيت مكترى سكنته المطلقة وكراؤه على المطلق وإذا انتهى أمد كرائه فعلى المطلق تجديده إلى انتهاء عدة المطلقة.

وهذا الترتب بين الجملتين يشعر بالسببية وأن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة لأنها معتدة لأجله أي لأجل حفظ نسبه وعرضه فهذا". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٩

٥٩١. ٥٩١-"والإمساك: اعتزام المراجعة عبر عنه بالإمساك **للإيماء** إلى أن المطلقة الرجعية لها حكم الزوجة فيما عدا الاستمتاع فكأنه لما راجعها قد أمسكها أن لا تفارقه فكأنه لم يفارقها لأن الإمساك هو الضن بالشيء وعدم التفريط فيه ومنه قوله تعالى: أمسك عليك زوجك [الأحزاب: ٣٧] وأنه إذا لم يراجعها فكأنه قد أعاد فراقها وقسا قلبه.

ومن أجل هذه النكتة جعل عدم الإمساك فراقا جديدا في قوله: أو فارقوهن بمعروف.

والأمر في فأمسكوهن أو فارقوهن للإباحة، وأو فيه للتخيير.

والباء في بمعروف للملابسة أي ملابسة كل من الإمساك والفراق للمعروف.

والمعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.

فالمعروف في الإمساك: حسن اللقاء والاعتذار لها عما فرط والعود إلى حسن المعاشرة.

والمعروف في الفراق: كف اللسان عن غيبتها وإظهار الاستراحة منها.

والمعروف في الحالين من عمل الرجل لأنه هو المخاطب بالإمساك أو الفراق.

وأما المعروف الذي هو من عمل المرأة فمقرر من أدلة أخرى كقوله تعالى: ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف [البقرة: ٢٢٨] .

وتقديم الإمساك أعني المراجعة على إمضاء المفارقة، **إيماء** إلى أنه أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة مع ما تقدم من التعبير عن المراجعة بالإمساك، ففهم أن المراجعة مندوب إليها لأن أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

ولما قيد أمر الإباحة من قوله: فأمسكوهن أو فارقوهن، بقيد بالمعروف، فهم منه أنه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية أن يطلق الرجل امرأته فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أياما ثم طلقها يفعل ذلك ثلاثا ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضرارا بها.

وقد تقدم هذا عند قوله تعالى: وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، إلى قوله: ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا في سورة البقرة". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٠٨

٥٩٢. ٥٩٢-"والمراد عذاب الآخرة لأن الإعداد التهيئة وإنما يهيأ الشيء الذي لم يحصل.

وإن جعلت الحساب والعذاب المذكورين آنفا حساب الآخرة وعذابها كما تقدم آنفا فجملة أعد الله لهم عذابا شديدا استئنافا لبيان أن ذلك متزايد غير مخفف منه كقوله:

فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا [النبأ: ٣٠] .

فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا.

هذا التفريع المقصود على التكاليف السابقة وخاصة على قوله: وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه [الطلاق: ١] وهو نتيجة ما مهد له به من قوله: وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله.

وفي نداء المؤمنين بوصف أولي الألباب **إيماء** إلى أن العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله لأنها كمال نفساني، ولأن فوائدها حقيقية دائمة، ولأن بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون [يونس: ٦٢، ٦٣] ، وقوله: أولي معناه ذوي، وتقدم بيانه عند قوله:

واللائي يئسن من المحيض [الطلاق: ٤] آنفا والذين آمنوا بدل من أولي الألباب.

وهذا الاتباع يومىء إلى أن قبولهم الإيمان عنوان على رجاحة عقولهم. والإتيان بصلة الموصول إشعار بأن الإيمان سبب للتقوى وجامع لمعظمها ولكن للتقوى درجات هي التي أمروا بأن يحيطوا بها.

قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور.

في هذه الجملة معنى العلة للأمر بالتقوى لأن إنزال الكتاب نفع عظيم لهم مستحق شكرهم عليه.". (١)

٥٩٣. ٥٩٣-"(١)

افتتاح السورة بخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بالنداء تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبيء صلى الله عليه وسلم والأمة ولأن سبب النزول كان من علائقه.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٦/٢٨

والاستفهام في قوله: لم تحرم مستعمل في معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاما بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللاء تمالأن عليه لفرط غيرتهن، أي ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام.

وهذا يومىء إلى ضبط ما يراعى من الغيرة وما لا يراعى.

وفعل تحرم مستعمل في معنى: تجعل ما أحل لك حراما، أي تحرمه على نفسك كقوله تعالى: إلا ما حرم إسرائيل على نفسه [آل عمران: ٩٣] وقرينته قوله هنا: ما أحل الله لك.

وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراما كما في قوله تعالى: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق [الأعراف: ٣٢] ، وقوله: يحلونه عاما ويحرمونه عاما [التوبة: ٣٧] ، فإن التفعيل يأتي بمعنى التصبير كما يقال: وسع هذا الباب ويأتي بمعنى إيجاد الشيء على حالة مثل ما يقال للخياط: وسع طوق الجبة.

ولا يخطر ببال أحد أن يتوهم منه أنك غيرت إباحته حراما على الناس أو عليك.

ومن العجيب قول «الكشاف» : ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله إنما أحله لمصلحة عرفها في إحلاله إلخ.

وصيغة المضارع في قوله: لم تحرم لأنه أوقع تحريما متجددا.

فجملة تبتغي حال من ضمير تحرم. فالتعجيب واقع على مضمون الجملتين مثل قوله: لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة [آل عمران: ١٣٠] .

وفي الإتيان بالموصول في قوله: ما أحل الله لك لما في الصلة من **الإيماء** إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما". (١)

٥٩٤. ٥٩٤-"والاستفهام حقيقي ولك أن تجعله للتعجب من علمه بذلك.

وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سر زوجها زلة خلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٨

شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سر زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة وواجب الإخلاص لرسول الله أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل.

وهذا هو الأدب السادس من معاني الآداب التي اشتملت عليها القصة وأجملنا ذكرها آنفا.

وإيثار وصفي العليم الخبير هنا دون الاسم العلم لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علما وخبرا بكل شيء.

والعليم: القوي العلم وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي العلم المحيط بكل معلوم.

والخبير: أخص من العليم لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله ولذلك يقال خبرته، أي بلوته وتطلعت بواطن أمره، قال ابن برجان (بضم الموحدة وبجيم مشددة) في «شرح الأسماء» : «الفرق بين الخبر والعلم وسائر الأشياء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من وجه وأضف ذلك إلى تلك الصفة وسم الفائدة بذلك الوجه الذي عنه حصلت فمتى حصلت من موضع الحضور سميت مشاهدة والمتصف بها هو الشاهد والشهيد. وكذلك إن حصلت من وجه سمع أو بصر فالمتصف بها سميع وبصير. وكذلك إن حصلت من علم أو علامة فهو العلم والمتصف به العالم والعليم، وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه ببلوى أو امتحان أو تجربة أو تبليغ فهو الخبر. والمسمى به الخبير» اه. وقال الغزالي في «المقصد الأسنى» : «العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيرا اه» .

فيتضح أن اتباع وصف العليم بوصف الخبير إيماء إلى أن الله علم دخيلة المخاطبة وما قصدته من إفشاء السر للأخرى.". (١)

٥٩٥. ٥٩٥-"[سورة التحريم (٦٦) : آية ٤]

إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٤/٢٨

التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما فهو استئناف خطاب وجهه الله إلى حفصة وعائشة لأن إنباء النبيء صلى الله عليه وسلم بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذ قد كان ذلك إثما لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره ذكرها بواجب التوبة منه.

وخطاب التثنية عائدة إلى المنبئة والمنبأة فأما المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله: إلى بعض أزواجه [التحريم: ٣] .

وأما المنبأة فمعادها ضمني لأن فعل نبأت [التحريم: ٣] يقتضيه فأما المنبئة فأمرها بالتوبة ظاهر. وأما المذاع إليها فلأنها شريكة لها في تلقي الخبر السر ولأن المذيعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك فهاتان موعظتان لمذيع السر ومشاركة المذاع إليه في ذلك وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها بما أذاعته عنه ضرتها.

وصغت: مالت، أي مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج، ومنه سمي سماع الكلام إصغاء لأن المستمع يميل سمعه إلى من يكلمه، وتقدم عند قوله تعالى:

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة في سورة الأنعام [١١٣] . وفيه إيماء إلى أن فيما فعلتاه انحرافا عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به وأن عليهما أن تتوبا مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما.

وهذان الأدبان الثامن والتاسع من الآداب التي اشتملت عليها هذه الآيات.

والتوبة: الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه وسيأتي الكلام عليها في هذه السورة.

وإذ كان المخاطب مثنى كانت صيغة الجمع في (قلوب) مستعملة في الاثنين طلبا لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين فإن صيغة التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام. فلما أمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية.". (١)

٥٩٦.   ٥٩٦-"(٥)

ليس هذا مما يتعلق بالشرط في قوله: وإن تظاهرا عليه [التحريم: ٤] بل هو كلام مستأنف عدل به إلى تذكير جميع أزواجه بالحذر من أن يضيق صدره عن تحمل أمثال هذا الصنيع

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٥٦

فيفارقهن لتقلع المتلبسة وتحذر غيرها من مثل فعلها.
فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عقبت بها جملة إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما [التحريم: ٤] التي أفادت التحذير من عقاب في الآخرة إن لم تتوبا مما جرى منهما في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفاد هذا **الإيماء** إلى التحذير من عقوبة دنيوية لهن يأمر الله فيها نبيئه صلى الله عليه وسلم وهي عقوبة الطلاق عليه ما يحصل من المؤاخذة في الآخرة إن لم تتوبا، ولذلك فصلت عن التي قبلها لاختلاف الغرضين.
وفي قوله: عسى ربه إن طلقكن إيجاز بحذف ما يترتب عليه إبدالهن من تقدير إن فارقكن.
فالتقدير: عسى أن يطلقكن هو (وإنما يطلق بإذن ربه) أن يبدله ربه بأزواج خير منكن.
وفي هذا ما يشير إلى المعنى الرابع عشر والخامس عشر من معاني الموعظة
والإرشاد التي ذكرناها آنفا.
وعسى هنا مستعملة في التحقيق وإيثارها هنا لأن هذا التبديل مجرد فرض وليس بالواقع لأنهن لا يظن بهن عدم الإرعواء عما حذرن منه، وفي قوله: خيرا منكن تذكير لهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من فضل زوجهن عند الله وإجراء الأوصاف المفصلة بعد الوصف المجمل وهو خيرا منكن للتنبيه على أن أصول التفضيل موجودة فيهن فيكمل اللاء يتزوجهن النبيء صلى الله عليه وسلم فضل على بقية النساء بأنهن صرن أزواجا للنبيء صلى الله عليه وسلم.
وهذه الآية إلى قوله: خيرا منكن نزلت موافقة لقول عمر لابنته حفصة رضي الله عنهما مثل هذا اللفظ وهذا من القرآن الذي نزل وفاقا لقول عمر أو رأيه تنويها بفضله.
وقد
وردت في حديث في «الصحيحين» واللفظ للبخاري «عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى [البقرة: ١٢٥] ، وقلت: «يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب» فأنزل الله آية الحجاب. وبلغني معاتبة النبيء بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت:

إن انتهيتن أو ليبدلن الله". (١)

٥٩٧. ٥٩٧-"وذكر خروجها من السفينة بعد الطوفان ثم طوي ذكرها لما ذكر الله بركته نوحا وبنيه وميثاقه معهم فلم تذكر معهم زوجه. فلعلها كفرت بعد ذلك أو لعل نوحا تزوج امرأة أخرى بعد الطوفان لم تذكر في التوراة.

ووصف الله فعل امرأة نوح بخيانة زوجها، فقال المفسرون: هي خيانة في الدين، أي كانت كافرة مسرة الكفر، فلعل الكفر حدث مرة أخرى في قوم نوح بعد الطوفان ولم يذكر في القرآن.

وأما حديث امرأة لوط فقد ذكر في القرآن مرات. وتقدم في سورة الأعراف ويقال: فلانة كانت تحت فلان، أي كانت زوجا له.

والتحتية هنا مجاز في معنى الصيانة والعصمة ومنه قول أنس بن مالك في الحديث المروي في «الموطأ» وفي «صحيح البخاري» عن أم حرام بنت ملحان: «وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت» .

ومن بدائع الأجوبة أن أحد الأمراء من الشيعة سأل أحد علماء السنة: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأجابه: «الذي كانت ابنته تحته» فظن أنه فضل عليا إذ فهم أن الضمير المضاف إليه «ابنة» ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الضمير المضاف إليه (تحت) ضمير اسم الموصول، وإنما أراد السني العكس بأن يكون ضمير «ابنته» ضمير الموصول «تحته» ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك هو أبو بكر.

وقد ظهر أن المراد بالعبدين نوح ولوط وإنما خصا بوصف «عبدين صالحين» مع أن وصف النبوة أخص من وصف الصلاح تنويها بوصف الصلاح وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين كما في قوله تعالى: وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين [الصافات: ١١٢] . ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن فإن وصف النبوءة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٦٠

والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك تفريط المرء ما اؤتمن عليه وما". (١)

٥٩٨. ٥٩٨-"وهذا **إيماء** إلى تبرئتها مما رماها به القوم البهت.
وهذا نظير قوله تعالى: والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون [النور: ٢٦].
ويجوز أن تجعل من للتبعيض، أي هي بعض من قنت لله. وغلبت صيغة جمع الذكور ولم يقل: من القانتات، جريا على طريقة التغليب وهو من تخريج الكلام على مقتضى الظاهر.
وهذه الآية مثال في علم المعاني.
ونكتته هنا الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة وأن شأن ذلك أن يكون للرجال لأن نساء بني إسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة.
ووصفت مريم بالموصول وصلته لأنها عرفت بتلك الصلة من قصتها المعروفة من تكرر ذكرها فيما نزل من القرآن قبل هذه السورة.
وفي ذكر القانتين **إيماء** إلى ما أوصى الله به أمهات المؤمنين بقوله تعالى: ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين [الأحزاب: ٣١] الآية.
وقرأ الجمهور وكتابه. وقرأه حفص وأبو عمرو ويعقوب وكتبه بصيغة الجمع، أي آمنت بالكتب التي أنزلت قبل عيسى وهي «التوراة» و «الزبور» وكتب الأنبياء من بني إسرائيل، و «الإنجيل» إن كان قد كتبه الحواريون في حياتها.
الجزء التاسع والعشرون". (٢)

٥٩٩. ٥٩٩-"ويجوز أن يكون خلق مصدرا فيشمل خلق السماوات وخلق غيرها فإن صنع الله رحمة للناس لو استقاموا كما صنع لهم وأوصاهم، فتفيد هذه الجملة مفاد التذييل في أثناء
الكلام على وجه الاعتراض ولا يكون إظهارا في مقام الإضمار.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٥/٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٧٩/٢٨

والتعبير بوصف الرحمن دون اسم الجلالة إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سببا لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى: وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر [الأنعام: ٩٧] وقال: هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق [يونس: ٥] .

وأيضا في ذلك الوصف تورك على المشركين إذ أنكروا اسمه تعالى: الرحمن وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا [الفرقان: ٦٠] .

وفرع عليه قوله: فارجع البصر إلخ. والتفريع للتسبب، أي انتفاء رؤية التفاوت، جعل سببا للأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوما عن يقين دون تقليد للمخبر.

ورجع البصر: تكريره والرجع: العود إلى الموضع الذي يجاء منه، وفعل: رجع يكون قاصرا ومتعديا إلى مفعول بمعنى: أرجع، فارجع هنا فعل أمر من رجع المتعدي.

والرجع يقتضي سبق حلول بالموضع، فالمعنى: أعد النظر، وهو النظر الذي دل عليه قوله: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت أي أعد رؤية السماوات وأنها لا تفاوت فيها إعادة تحقيق وتبصر، كما يقال: أعد نظرا.

والخطاب في قوله: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت وقوله: فارجع البصر إلخ. خطاب لغير معين.

وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشركين مع دلالته على الوجوب للمسلمين فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال.". (١)

٦٠٠. ٦٠٠-"والقبض: ضد البسط. والمراد به هنا ضد الصف المذكور قبله، إذ كان ذلك الصف صادقا على معنى البسط ومفعوله المحذوف هنا هو عين المحذوف في المعطوف عليه، أي قابضات أجنحتهن حين يدنينها من جنوبهن للازدياد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٩

وأوثر الفعل المضارع في يقبضن لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين إذ بذلك العكس يزداد الطيران قوة امتداد زمان.
وجيء في وصف الطير ب صافات بصيغة الاسم لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي ويجددن قبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض
الأجنحة على زيادة التحرك عند ما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران، ونظيره قوله تعالى في الجبال والطير يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة [ص: ١٨-١٩] لأن التسبيح في وقتين والطير محشورة دوما.
وانتصب فوقهم على الحال من الطير وكذلك انتصب صافات.
وجملة ويقبضن في موضع نصب على الحال لعطفها على الوصف الذي هو حال فالرؤية بصرية مضمنة معنى النظر، ولذلك عديت إلى المرئي ب (إلى) . والاستفهام في أولم يروا إنكاري، ونزلوا منزلة من لم ير هاته الأحوال في الطير لأنهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية.
وجملة ما يمسكهن إلا الرحمن مبينة لجملة أولم يروا إلى الطير وما فيها من استفهام إنكار، أي كان حقهم أن يعلموا أنهن ما يمسكهن إلا الرحمان إذ لا ممسك لها ترونه كقوله تعالى: ويمسك السماء أن تقع على الأرض [الحج: ٦٥] .
وفي هذا **إيماء** إلى أن الذي أمسك الطير عن الهوي المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطير من الهوي.
ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها". (١)

٦٠١. ٦٠١-"وأقحم الشرط بين فعل الرؤية وما سد مسد مفعوليه.
والفاء في قوله: فمن يأتيكم [الملك: ٣٠] رابطة لجواب الشرط لأنه لما وقع بعد ما أصله المبتدأ والخبر وهو المفعولان المقدران رجح جانب الشرط.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٢٩

والمعية في قوله: ومن معي معية مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار [الفتح:
٢٩] الآية، أي الذين آمنوا معه، وقوله: والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم [التحريم:
٨] كما أطلقت على الموافقة في الرأي والفهم في قول أبي هريرة: «أنا مع ابن أخي» ، يعني موافق لأبي سلمة بن عبد الرحمان، وذلك حين اختلف أبو سلمة وابن عباس في المتوفى عنها الحامل إذا وضعت حملها قبل مضي عدة الوفاة.

والاستفهام بقوله: فمن يجير الكافرين إلخ إنكاري، أي لا يجيرهم منه مجير، أي أظننتم أن تجدوا مجيرا لكم إذا هلكنا فذلك متعذر فماذا ينفعكم هلاكنا.

والعذاب المذكور هنا ما عبر عنه بالوعد في الآية قبلها.

وتنكير عذاب للتهويل.

والمراد ب الكافرين جميع الكافرين فيشمل المخاطبين.

والكلام بمنزلة التذييل، وفيه حذف، تقديره: من يجيركم من عذاب فإنكم كافرون ولا مجير للكافرين.

وذكر وصف الكافرين لما فيه من **الإيماء** إلى علة الحكم لأنه وصف إذا علق به حكم أفاد تعليل ما منه اشتقاق الوصف.

وقرأ الجمهور بفتحة على ياء أهلكني، وقرأها حمزة بإسكان الياء.

وقرأ الجمهور ياء معي بفتحة. وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء.
[٢٩]

[سورة الملك (٦٧) : آية ٢٩]

قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين (٢٩)". (١)

٦٠٢. ٦٠٢-"هذا تكرير ثالث لفعل قل من قوله: قل هو الذي أنشأكم [الملك: ٢٣] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٥٣

وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله: أو رحمنا [الملك: ٢٨] فإنه بعد أن سوى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أن أي الحالين فرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب، أعقبه بأن المسلمين آمنوا بالرحمان، فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أي الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءه عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة.

وضمير هو عائد إلى الله تعالى الواقع في الجملة قبله، أي الله هو الذي وصفه الرحمن فهو يرحمنا، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تحرموا آثار رحمته.

ونحن توكلنا عليه دون غيره وأنتم غركم عزكم وجعلتم الأصنام معتمدكم ووكلاءكم.

وبهذه التوطئة يقع **الإيماء** إلى الجانب المهتدي والجانب الضال من قوله:

فستعلمون من هو في ضلال مبين لأنه يظهر بداء تأمل أن الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف الرحمن وتوكلوا على الأوثان.

ومن موصولة، وما صدق من فريق مبهم متردد بين فريقين تضمنهما قوله:

إن أهلكني الله ومن معي [الملك: ٢٨] وقوله: فمن يجير الكافرين [الملك: ٢٨] ، فأحد الفريقين فريق النبيء صلى الله عليه وسلم ومن معه، والآخر فريق الكافرين، أي فستعلمون اتضاح الفريق الذي هو في ضلال مبين.

وتقديم معمول توكلنا عليه لإفادة الاختصاص، أي توكلنا عليه دون غيره تعريضا بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوها في التوكل مع الله، أو نسوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الأصنام.

وإنما لم يقدم معمول آمنا عليه فلم يقل: به آمنا لمجرد الاهتمام إلى الإخبار عن إيمانهم بالله لوقوعه عقب وصف الآخرين بالكفر في قوله: فمن يجير الكافرين من عذاب أليم [الملك: ٢٨] فإن هذا جواب آخر عن تمنيهم له الهلاك سلك به طريق التبكيت، أي هو الرحمان يجيرنا من سوء ترومونه لنا لأننا آمنا به ولم نكفر به". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤/٢٩

٦٠٣. ٦٠٣-"كما كفرتم، فلم يكن المقصود في إيراده نفي الإشراك وإثبات التوحيد، إذ الكلام في الإهلاك والإنجاء المعبر عنه ب رحمنا [الملك: ٢٨] فجيء بجملة آمنا على أصل مجرد معناها دون قصد الاختصاص، بخلاف قوله: وعليه توكلنا لأن التوكل يقتضي منجيا وناصرا،

والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتكل على ما أنتم متكلون عليه، بل على الرحمان وحده توكلنا.

وفعل فستعلمون معلق عن العمل لمجيء الاستفهام بعده.

وقرأ الجمهور فستعلمون بتاء الخطاب على أنه مما أمر بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقرأه الكسائي بياء الغائب على أن يكون إخبارا من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين.

[٣٠]

[سورة الملك (٦٧) : آية ٣٠]

قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (٣٠)

إيماء إلى أنهم يترقبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف فإن مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم، كما دل عليه خبر تعجب القافلة من (جرهم) التي مرت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجر بابنه إسماعيل ففجر الله لها زمزم ولمحت القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا: ما عهدنا بهذه الأرض ماء، ثم حفر ميمون بن خالد الحضرمي بأعلاها بئرا تسمى بئر ميمون في عهد الجاهلية قبيل البعثة، وكانت بها بئر أخرى تسمى الجفر (بالجيم) لبني تيم بن مرة، وبئر تسمى الجم ذكرها ابن عطية وأهملها «القاموس» و «تاجه» ، ولعل هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبيء صلى الله عليه وسلم.

فماء هذه الآبار هو الماء الذي أنذروا بأنه يصبح غورا، وهذا الإنذار نظير الواقع في سورة القلم [١٧- ٣٣] إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إلى قوله: لو كانوا يعلمون.

والغور: مصدر غارت البئر، إذا نزح ماؤها فلم تنله الدلاء.

والمراد: ماء البئر كما في قوله: أو يصبح ماؤها غورا في ذكر جنة سورة الكهف". (١)

٦٠٤. ٦٠٤-"ومن قوله: فاصبر لحكم ربك إلى قوله: من الصالحين [القلم: ٤٨- ٥٠] مدني، ومن قوله: وإن يكاد الذين كفروا [القلم: ٥١] إلى آخر السورة مكي.

وفي «الإتقان» عن السخاوي: أن المدني منها من قوله: إنا بلوناهم إلى لو كانوا يعلمون [القلم: ١٧- ٣٣] ومن قوله: فاصبر لحكم ربك إلى قوله: من الصالحين [القلم: ٤٨- ٥٠] فلم يجعل قوله: إن للمتقين عند ربهم إلى قوله: فهم يكتبون [القلم: ٣٤- ٤٧] مدنيا خلافا لما نسبه الماوردي إلى ابن عباس.

وهذه السورة عدها جابر بن زيد ثانية السور نزولا قال: نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك وبعدها سورة المزمل ثم سورة المدثر، والأصح حديث عائشة «أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر» .

وما في حديث جابر بن عبد الله «أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي» يحمل على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك جمعا بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي «تفسير القرطبي» : أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

واتفق العادون على عد آيها ثنتين وخمسين.

أغراضها

جاء في هذه السورة الإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: والقلم وما يسطرون [القلم: ١] .

وابتدئت بخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين.

وإبطال مطاعن المشركين في النبيء صلى الله عليه وسلم.

وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٥٥

وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان". (١)

٦٠٥. ٦٠٥-"كما تقدم في قوله تعالى: والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا في سورة الزخرف [٢- ٣] ، وتنظيره بقول أبي تمام:

وثناياك إنها إغريض ... البيت ويسطرون: مضارع سطر، يقال: سطر من باب نصر، إذا كتب كلمات عدة تحصل منها صفوف من الكتابة، وأصله مشتق من السطر وهو القطع، لأن صفوف الكتابة تبدو كأنها قطع.

وضمير يسطرون راجع إلى غير مذكور في الكلام وهو معلوم للسامعين لأن ذكر القلم ينبيء بكتبة يكتبون به فكان لفظ القسم متعلقا بآلة الكتابة والكتابة، والمقصود:

المكتوب في إطلاق المصدر على المفعول، فهو بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن الساطرين غير معلومين، فكأنه قيل: والمسطور، نظير قوله تعالى: وكتاب مسطور في رق منشور [الطور: ٢- ٣] .

ومن فسر القلم بمعنى تعلق علم الله تعالى بما سيكون جعل ضمير يسطرون راجعا إلى الملائكة فيكون السطر رمزا لتنفيذ الملائكة ما أمر الله بتنفيذه حين تلقي ذلك، أي يكتبون ذلك للعمل به أو لإبلاغه من بعضهم إلى بعض على وجه لا يقبل الزيادة ولا

النقصان، فشبه ذلك الضبط بضبط الكاتب ما يريد إبلاغه بدون تغيير.

وأوثر القسم بالقلم والكتابة **للإيماء** إلى أن باعث الطاعنين على الرسول صلى الله عليه وسلم واللامزين له بالمجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب.

والمقسم عليه نفي أن يكون النبيء صلى الله عليه وسلم مجنونا والخطاب له بهذا تسلية له لئلا يحزنه قول المشركين لما دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبيء صلى الله عليه وسلم وحكاه الله عنهم في آخر السورة [القلم: ٥١] وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون. وهكذا كل ما ورد فيه نفي صفة الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال المشركين كقوله: وما صاحبكم بمجنون [التكوير: ٢٢] . وقد زل فيه صاحب «الكشاف» زلة لا تليق بعلمه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٥٨

والمقصود من نفي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفيه وهو أن يكون". (١)

٦٠٦. ٦٠٦-"ساءهم منه تحقيرهم بصفات الذم وتحقير أصنامهم وآبائهم من جانب الكفر فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه وكان الحال صلحا بينهم ويترك كل فريق فريقا وما عبده.

والطاعة: قبول ما يبتغى عمله، ووقوع فعل تطع في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعم كل إجابة لطلب منهم، فالطاعة مراد بها هنا المصالحة والملاينة كما في قوله تعالى: فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا [الفرقان: ٥٢] ، أي لا تلن لهم.

واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف لأنه بمنزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فإن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته.

ومن هنا يتضح أن جملة ودوا لو تدهن فيدهنون بيان لمتعلق الطاعة المنهي عنها ولذلك فصلت ولم تعطف.

وفعل تدهن مشتق من الإدهان وهو الملاينة والمصانعة، وحقيقة هذا الفعل أن يجعل لشيء دهنا إما لتليينه وإما لتلوينه، ومن هاذين المعنيين تفرعت معاني الإدهان كما أشار إليه الراغب، أي ودوا منك أن تدهن لهم فيدهنوا لك، أي لو تواجههم بحسن المعاملة فيواجهونك بمثلها.

والفاء في فيدهنون للعطف، والتسبب عن جملة لو تدهن جوابا لمعنى التمني المدلول عليه بفعل ودوا بل قصد بيان سبب ودادتهم ذلك، فلذلك لم ينصب الفعل بعد الفاء بإضمار (أن) لأن فاء المتسبب كافية في إفادة ذلك، فالكلام بتقدير مبتدإ محذوف تقديره: فهم يدهنون. وسلك هذا الأسلوب ليكون الاسم المقدر مقدما على الخبر الفعلي فيفيد معنى الاختصاص، أي فالإدهان منهم لا منك، أي فاترك الإدهان لهم ولا تتخلق أنت به، وهذه طريقة في الاستعمال إذا أريد بالترتبات أنه ليس تعليق جواب كقوله تعالى: فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا [الجن: ١٣] ، أي فهو لا يخاف بخسا ولا رهقا.

وحرف لو يحتمل أن يكون شرطيا ويكون فعل تدهن شرطا، وأن يكون جواب الشرط محذوفا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٦١

ويكون التقدير: لو تدهن لحصل لهم ما يودون. ويحتمل أن". (١)

٦٠٧. ٦٠٧-"وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب قال تعالى: أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون [السجدة: ١٨] ، وقال: لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة [الحشر: ٢٠] ، وقال: أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار [ص: ٢٨] وقال السموأل أو الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظا في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدنيا بطريق فحوى الخطاب.

وقوله: أفنجعل المسلمين كالمجرمين كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود بالمجرمين، عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف المجرمين من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين.

فلذلك لم يكن ضمير الخطاب في قوله: ما لكم كيف تحكمون التفاتا عن ضمائر الغيبة من قوله: ودوا لو تدهن فيدهنون [القلم: ٩] وقوله إنا بلوناهم [القلم: ١٧] .

وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعا لتغير توجيه الكلام، لأن شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد.

وما لكم استفهام إنكاري لحالة حكمهم، ف ما لكم مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى: قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله في سورة البقرة [٢٤٦] .

وكيف تحكمون استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير لكم، أي انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم، أي فإن ثبت لهم كان منكرا باعتبار حالة حكمهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٢٩

والمعنى: لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم.". (١)

٦٠٨. ٦٠٨-"فالتقمه

الحوت وهو مليم

وإما بمعنى العيب وهو كونه عاريا جائعا فيكون في معنى قوله:

فنبذناه بالعراء وهو سقيم [الصافات: ١٤٥] فإن السقم عيب أيضا.

وتنكير نعمة للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة.

وفرع على هذا النفي الإخبار بأن الله اجتباه وجعله من الصالحين.

والمراد ب الصالحين المفضلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين [الشعراء: ٨٣] وذلك **إيماء** إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات، وقد تقدم في قوله: كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين في سورة التحريم [١٠]

.

قال ابن عباس: رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه.

[٥١- ٥٢]

[سورة القلم (٦٨) : الآيات ٥١ إلى ٥٢]

وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (٥١) وما هو إلا ذكر للعالمين (٥٢)

عطف على جملة فذرني ومن يكذب بهذا الحديث [القلم: ٤٤] ، عرف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبيء صلى الله عليه وسلم من الحقد والغيظ وإضمار الشر عند ما يسمعون القرآن.

والزلق: بفتحتين زلل الرجل من ملاسة الأرض من طين عليها أو دهن، وتقدم في قوله تعالى: فتصبح صعيدا زلقا في سورة الكهف [٤٠] .

ولما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالبا أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاض

(١) التحرير والتنوير ٩٢/٢٩

على وجه الكناية، ومنه قوله هنا ليزلقونك، أي يسقطونك ويصرعونك.

وعن مجاهد: أي ينفذونك بنظرهم. وقال القرطبي: يقال زلق السهم وزهق، إذا نفذ، ولم أراه لغيره، قال الراغب قال يونس: لم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القرآن اه.". (١)

٦٠٩. ٦٠٩-"تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرق زجل

وقول جرير:

ونحن لكم يوم القيامة أفضل أي ونحن منكم أفضل.

ويجوز أن تكون اللام التي تنوى في الإضافة إذا لم تكن الإضافة على معنى (من) .

والأصل: فهل ترى باقيتهم، فلما قصد التنصيص على عموم النفي واقتضى ذلك جلب (من) الزائدة لزم تنكير مدخول (من) الزائدة فأعطي حق معنى الإضافة بإظهار اللام التي الشأن أن تنوى كما في قوله تعالى: بعثنا عليكم عبادا لنا [الإسراء: ٥] فإن أصله: عبادنا.

وموقع المجرور باللام في موقع النعت ل باقية قدم عليها فصار حالا.

[٩- ١٠]

[سورة الحاقة (٦٩) : الآيات ٩ إلى ١٠]

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة (٩) فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية (١٠)

عطف على جملة كذبت ثمود وعاد بالقارعة [الحاقة: ٤] .

وقد جمع في الذكر هنا عدة أمم تقدمت قبل بعثة موسى عليه السلام إجمالا وتصريحا، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكرا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم، فحصل في الكلام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٠٧

احتباك.
والمراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام وهو (منفطاح الثاني) .
وإنما أسند الخطء إليه لأن موسى أرسل إليه ليطلق بني إسرائيل من العبودية قال تعالى:
اذهب إلى فرعون إنه طغى [النازعات: ١٧] فهو المؤاخذ بهذا العصيان وتبعه القبط امتثالا لأمره وكذبوا موسى وأعرضوا عن دعوته.". (١)

٦١٠. ٦١٠-"وتقديم الجحيم على عامله لتعجيل المساءة مع الرعاية على الفاصلة وكذلك تقديم في سلسلة على عامله.
واقتران فعل فاسلكوه بالفاء إما لتأكيد الفاء التي اقترنت بفعل فغلوه، وإما للإيذان بأن الفعل منزل منزلة جزاء شرط محذوف، وهذا الحذف يشعر به تقديم المعمول غالبا كأنه قيل: مهما فعلتم به شيئا فاسلكوه في سلسلة، أو مهما يكن شيء فاسلكوه.
والمقصود تأكيد وقوع ذلك والحث على عدم التفريط في الفعل وأنه لا يرجى له تخفيف، ونظيره قوله تعالى: وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر [المدثر: ٣- ٥] ، وتقدم عند قوله تعالى: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا في سورة [يونس: ٥٨] .
والسلسلة: اسم لمجموع حلق من حديد داخل بعض تلك الحلق في بعض تجعل لوثاق شخص كي لا يزول من مكانه، وتقدم في قوله تعالى: إذ الأغلال في أعناقهم
والسلاسل
في سورة غافر [٧١] .
وجملة ذرعها سبعون ذراعا صفة سلسلة وهذه الصفة وقعت معترضة بين المجرور ومتعلقه للتهويل على المشركين المكذبين بالقارعة، وليست الجملة مما خوطب الملائكة الموكلون بسوق المجرمين إلى العذاب، ولذلك فعدد السبعين مستعمل في معنى الكثرة على طريقة الكناية مثل قوله تعالى: إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم [التوبة: ٨٠] .
والذرع: كيل طول الجسم بالذراع وهو مقدار من الطول مقدر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٢٠

الشبر، والفتر، والرتب (بفتح الراء والتاء) ، والعتب، والبصم، والخطوة.

وجملة إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم.

ووصف الله بالعظيم هنا **إيماء** إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.". (١)

٦١١. ٦١١-"وعدل عن أن يقال: إنا خلقناهم من نطفة، كما قال في آيات أخرى إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج [الإنسان: ٢] وقال: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم [يس: ٧٧، ٧٨] وغيرها من آيات كثيرة، عدل عن ذلك إلى الموصول في قوله: مما يعلمون توجيها للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا، وعلم ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون، ومنه قوله تعالى: ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون [الواقعة: ٦٢] . وكان في قوله تعالى: مما يعلمون **إيماء** إلى أنهم يخلقون الخلق الثاني مما لا يعلمون كما قال في الآية الأخرى سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون [يس: ٣٦] وقال: وننشئكم في ما لا تعلمون

[الواقعة: ٦١] فكان في الخلق الأول سر لا يعلمونه.

ومجيء إنا خلقناهم موكدا بحرف التأكيد لتنزيلهم فيما صدر منهم من الشبهة الباطلة منزلة من لا يعلمون أنهم خلقوا من نطفة وكانوا معدومين، فكيف أحالوا إعادة خلقهم بعد أن عدم بعض أجزائهم وبقي بعضها ثم أتبع هذه الكناية عن إمكان إعادة الخلق بالتصريح بذلك بقوله: فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم مفرعا على قوله: إنا خلقناهم مما يعلمون والتقدير: فإنا لقادرون الآية.

وجملة (لا أقسم برب المشارق) إلخ معترضة بين الفاء وما عطفته.

والقسم بالله بعنوان ربوبيته المشارق والمغارب معناه: ربوبيته العالم كله لأن العالم منحصر في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٣٨

جهات شروق الشمس وغروبها.

وجمع المشارق والمغارب باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته على عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات،

ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب، أقسم الله به على سنة أقسام القرآن.

وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسم بربها رعي لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياء بعد الموت.". (١)

٦١٢. ٦١٢-"و (حتى) متعلقة ب (ذرهم) لما فيه من معنى، أمهلهم وانتظرهم، فإن اليوم الذي وعدوه هو يوم النشور حين يجازون على استهزائهم وكفرهم، فلا يكون غاية ل يخوضوا ويلعبوا والغاية هنا كناية عن دوام تركهم.

وإضافة (يوم) إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.

وقرأ الجمهور يلاقوا بألف بعد اللام من الملاقاة. وقرأه أبو جعفر بدون ألف من اللقاء.

واللقاء: مجاز على كل تقدير: فعلى قراءة الجمهور هو مجاز من جهتين لأن اليوم لا يلقى ولا يلقى. وعلى قراءة أبي جعفر هو مجاز من جهة واحدة لأن اللقاء إنما يقع بين الذوات.

ويوم يخرجون من الأجداث بدل من يومهم ليس ظرفا.

والخروج: بروز أجسادهم من الأرض.

وقرأ الجمهور يخرجون بفتح التحتية على البناء للفاعل. وقرأه أبو بكر عن عاصم بضمها على البناء للمفعول.

والأجداث: جمع جدث بفتحتين وهو القبر، والقبر: حفير يجعل لموارة الميت.

وضمير يخرجون عائد إلى المشركين المخبر عنه بالأخبار السابقة. وجميعهم قد دفنوا في قبور أو وضعوا في قليب بدر.

والنصب بفتح فسكون: الصنم، ويقال: نصب بضمتين، ووجه تسميته نصبا أنه ينصب

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/٢٩

للعبادة، قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

ويوفضون مضارع أوفض، إذا أسرع وعدا في سيره، أي كأنهم ذاهبون إلى صنم، شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها لأن لهذا الإسراع اختصاصا بهم، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام **وإيماء** إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دع، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام.". (١)

٦١٣. ٦١٣-"الربط والتلازم بين هذا الشرط المقدر وبين جزائه بجملة إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، أي أن الوقت الذي عينه الله لحلول العذاب بكم إن لم تعبدوه ولم تطيعون إذا جاء إبانه باستمراركم على الشرك لا ينفعكم الإيمان ساعتئذ، كما قال تعالى: فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين [يونس: ٩٨] ، فيكون هذا حثا على التعجيل بعبادة الله وتقواه.

فالأجل الذي في قوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر غير الأجل الذي في قوله:

ويؤخركم إلى أجل مسمى ويناسب ذلك قوله عقبه لو كنتم تعلمون المقتضي أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة المتعلقة بآجال الأمم المعينة لاستئصالهم، وأما عدم تأخير آجال الأعمار عند حلولها فمعلوم للناس مشهور في كلام الأولين. وفي إضافة أجل إلى اسم الجلالة في قوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر **إيماء** إلى أنه ليس الأجل المعتاد بل هو أجل عينه الله للقوم إنذارا لهم ليؤمنوا بالله. ويحتمل أن تكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تحديد غاية تأخيرهم إلى أجل مسمى، أي دون تأخيرهم تأخيرا مستمرا فيسأل السامع في نفسه عن علة تنهية تأخيرهم بأجل آخر فيكون أجل الله غير الأجل الذي في

قوله: إلى أجل مسمى.

ويحتمل أن تكون الجملة تعليلا لكلا الأجلين: الأجل المفاد من قوله: من قبل أن يأتيهم عذاب أليم [نوح: ١] فإن لفظ قبل يؤذن بأن العذاب موقت بوقت غير بعيد فله أجل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٨٣

مبهم غير بعيد، والأجل المذكور بقوله: ويؤخركم إلى أجل مسمى فيكون أجل الله صادقا على الأجل المسمى وهو أجل كل نفس من القوم.

وإضافته إلى الله إضافة كشف، أي الأجل الذي عينه الله وقدره لكل أحد.

وبهذا تعلم أنه لا تعارض بين قوله: ويؤخركم إلى أجل مسمى وبين قوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر إما لاختلاف المراد بلفظي (الأجل) في قوله: إلى أجل مسمى وقوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، وإما لاختلاف معنيي المجيء ومعنيي التأخير في قوله: إذا جاء لا يؤخر فانفكت جهة التعارض.". (١)

٦١٤. ٦١٤-"وفي جعل القمر نورا **إيماء** إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام هو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة.

وقد اجتمع في قوله: وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا استدلال وامتنان.

[١٧- ١٨]

[سورة نوح (٧١) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨)

أنشأ الاستدلال بخلق السماوات حضور الأرض في الخيال فأعقب نوح به دليله السابق، استدلالا بأعجب ما يرونه من أحوال ما على الأرض وهو حال الموت والإقبار، ومهد لذلك ما يتقدمه من إنشاء الناس.

وأدمج في ذلك تعليمهم بأن الإنسان مخلوق من عناصر الأرض مثل النبات وإعلامهم بأن بعد الموت حياة أخرى.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٩١

وأطلق على معنى: أنشأكم، فعل أنبتكم للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين كما قال تعالى: وأنبتها نباتا حسنا [آل عمران: ٣٧] ، أي أنشأها وكما يقولون: زرعك الله للخير، ويزيد وجه الشبه هنا قربا من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض، وقيل التقدير: أنبت أصلكم، أي آدم عليه السلام، قال تعالى: كمثل آدم خلقه من تراب [آل عمران: ٥٩] .

ونباتا: اسم من أنبت، عومل معاملة المصدر فوقع مفعولا مطلقا ل أنبتكم للتوكيد، ولم يجر على قياس فعله فيقال: إنباتا، لأن نباتا أخف فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالا في الفصاحة، بخلاف قوله بعده إخراجا فإنه لم يعدل عنه إلى: خروجا، لعدم ملاءمته لألفاظ". (١)

٦١٥. ٦١٥-"[سورة نوح (٧١) : الآيات ٢١ إلى ٢٣]

قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١) ومكروا مكرا كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣)

هذه الجملة بدل من جملة قال رب إني دعوت قومي [نوح: ٥] بدل اشتمال لأن حكاية عصيان قومه إياه مما اشتملت عليه حكاية أنه دعاهم فيحتمل أن تكون المقالتان في وقت واحد جاء فيه نوح إلى مناجاة ربه بالجواب عن أمره له بقوله: أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم [نوح: ١] فتكون إعادة فعل قال من قبيل ذكر عامل المبدل منه في البدل كقوله تعالى: تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا [المائدة: ١١٤] ، للربط بين كلاميه لطول الفصل بينهما.

ويحتمل أن تكون المقالتان في وقتين جمعها القرآن حكاية لجوابيه لربه، فتكون إعادة فعل قال لما ذكرنا مع الإشارة إلى تباعد ما بين القولين.

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما سبقها من قوله: قال رب إني دعوت قومي إلى هنا مما يثير عجبا من حال قومه المحكي بحيث يتساءل السامع عن آخر أمرهم، فابتدئ ذكر ذلك بهذه الجملة وما بعدها إلى قوله: أنصارا [نوح: ٢٥] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٠٤

وتأخير هذا بعد عن قوله قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا [نوح: ٥] ارتقاء في التذمر منهم لأن هذا حكاية حصول عصيانهم بعد تقديم الموعظة إليهم بقوله: يرسل السماء عليكم مدرارا إلى قوله: سبلا فجاجا [نوح: ١١- ٢٠] وإظهار اسم نوح مع القول الثاني دون إضمار لبعد معاد الضمير لو تحمله الفعل، وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه، كما تقدم في قوله: قال رب إلخ. وتأكيد الخبر ب (إن) للاهتمام بما استعمل فيه من التحسر والاستنصار. ثم ذكر أنهم أخذوا بقول الذين يصدونهم عن قبول دعوة نوح، أي اتبعوا سادتهم وقادتهم. وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد، فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال.

وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في". (١)

٦١٦. ٦١٦-"وليس ذلك مما يدخل في أصول عقيدة الإسلام ولذلك لم نكفر منكري وجود موجودات معينة من هذا النوع إذ لم تثبت حقيقتها بأدلة قطعية، بخلاف حال من يقول: إن ذكر الجن لم يذكر في القرآن بعد علمه بآيات ذكره.

وأما ما يروى في الكتب من أخبار جزئية في ظهورهم للناس وإتيانهم بأعمال عجيبة فذلك من الروايات الخيالية.

وإنا لم نلق أحدا من أثبات العلماء الذين لقيناهم من يقول: إنه رأى أشكالهم أو آثارهم وما نجد تلك القصص إلا على ألسنة الذين يسرعون إلى التصديق بالأخبار أو تغلب عليهم التخيلات.

وإن كان فيهم من لا يتهم بالكذب ولكنه مما يضرب له مثل قول المعري:

ومثلك من تخيل ثم خالا فظهور الجن للنبيء صلى الله عليه وسلم تارات كما في حديث الجني الذي تفلت ليفسد عليه صلاته

هو من معجزاته مثل رؤيته الملائكة ورؤيته الجنة والنار في حائط القبلة وظهور الشيطان لأبي هريرة في حديث زكاة الفطر.

وقد مضى ذكر الجن عند قوله: وجعلوا لله شركاء الجن في سورة الأنعام [١٠٠] ، وقوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٠٦

ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس في سورة الأعراف [١٧٩] .
والذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم أنه أوحي إليه بخبر الجن: هم جميع الناس الذين كان النبيء صلى الله عليه وسلم يبلغهم القرآن من المسلمين والمشركين أراد الله إبلاغهم هذا الخبر لما له من دلالة على شرف هذا الدين وشرف كتابه وشرف من جاء به، وفيه إدخال مسرة على المسلمين وتعريض بالمشركين إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن وفهموا مقاصده وهم لا يعرفون لغته ولا يدركون بلاغته فأقبلوا عليه، والذين جاءهم بلسانهم وأدركوا خصائص بلاغته أنكروه وأعرضوا عنه.
وفي الإخبار عن استماع الجن للقرآن بأنه أوحي إليه ذلك **إيماء** إلى أنه ما علم بذلك إلا بإخبار الله إياه بوقوع هذا الاستماع، فالآية تقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم بحضور الجن لاستماع القرآن قبل نزول هذه الآية.
وأما آية الأحقاف [٢٩] وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن". (١)

٦١٧. ٦١٧-"عن ذكرنا، أو عن ذكري، لاقتضاء الحال **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر فإن المعرض عن ربه الذي خلقه وأنشأه ودبره حقيق بأن يسلك عذابا صعدا.
والصعد: الشاق الغالب، وكأنه جاء من مصدر صعد، كفرح إذا علا وارتفع، أي صعد على مفعوله وغلبه، كما يقال: علاه بمعنى تمكن منه، وأن لا تعلوا على الله [الدخان: ١٩] .
وقرأ الجمهور نسلكه بنون العظمة ففيه التفات. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف يسلكه بياء الغائب فالضمير المستتر يعود إلى ربه.
[١٨]

[سورة الجن (٧٢) : آية ١٨]
وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨)
اتفق القراء العشرة على فتح الهمزة في وأن المساجد لله فهي معطوفة على مرفوع أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن [الجن: ١] ، ومضمونها مما أوحي به إلى النبيء صلى الله عليه وسلم

---
(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢١٩

وأمر بأن يقوله. والمعنى: قل أوحي إلي أن المساجد لله، فالمصدر المنسبك مع أن واسمها وخبرها نائب فاعل أوحي [الجن: ١] .

والتقدير: أوحي إلي اختصاص المساجد بالله، أي بعبادته لأن بناءها إنما كان ليعبد الله فيها، وهي معالم التوحيد.

وعلى هذا الوجه حمل سيبويه الآية وتبعه أبو علي في «الحجة» .

وذهب الخليل أن الكلام على حذف لام جر قبل أن، فالمجرور مقدم على متعلقه للاهتمام.

والتقدير: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا.

واللام في قوله لله للاستحقاق، أي الله مستحقها دون الأصنام والأوثان فمن وضع الأصنام في مساجد الله فقد اعتدى على الله.

والمقصود هنا هو المسجد الحرام لأن المشركين كانوا وضعوا فيه الأصنام والأنصاب وجعلوا الصنم (هبل) على سطح الكعبة، قال تعالى: ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها [البقرة: ١١٤] يعني بذلك المشركين من قريش.

وهذا توبيخ للمشركين على اعتدائهم على حق الله وتصرفهم فيما ليس لهم أن". (١)

٦١٨. ٦١٨-"يطلع لأن يظهر جاء من الظهور وهو المشاهدة ولتضمينه معنى: يطلع، عدي بحرف على.

ووقوع الفعل في حيز النفي يفيد العموم، وكذلك وقوع مفعوله وهو نكرة في حيزه يفيد العموم.

وحرف على مستعمل في التمكن من الاطلاع على الغيب وهو كقوله تعالى وأظهره الله عليه [التحريم: ٣] فهو استعلاء مجازي.

واستثني من هذا النفي من ارتضاه ليطلعه على بعض الغيب، أي على غيب أراد الله إظهاره من الوحي فإنه من غيب الله، وكذلك ما أراد الله أن يؤيد به رسوله صلى الله عليه وسلم من إخبار

بما سيحدث أو إطلاع على ضمائر بعض الناس.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٤٠

فقوله: ارتضى مستثنى من عموم أحدا. والتقدير: إلا أحدا ارتضاه، أي اختاره للاطلاع على شيء من الغيب لحكمة أرادها الله تعالى.

والإتيان بالموصول والصلة في قوله: إلا من ارتضى من رسول لقصد ما تؤذن به الصلة من **الإيماء** إلى تعليل الخبر، أي يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيعلم من هذا الإيماء أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو أن يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى: غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين [الروم ٢- ٤] .

والمراد بهذا الإطلاع المحقق المفيد علما كعلم المشاهدة. فلا تشمل الآية ما قد يحصل لبعض الصالحين من شرح صدر بالرؤيا الصادقة،

ففي الحديث: «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوءة، أو بالإلهام»

. قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» رواه مسلم

. قال مسلم: قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون.

وقد قال مالك في الرؤيا الحسنة: إنها تسر ولا تغر، يريد لأنها قد يقع الخطأ في تأويلها.". (١)

٦١٩. ٦١٩-"قيام الليل في أول هذه السورة فقام النبيء وأصحابه»

، على أنه لا خلاف في رفع فرض القيام عن المسلمين. وتقرر أنه مندوب فيه.

واختلف في استمرار وجوبه على النبيء صلى الله عليه وسلم ولا طائل وراء الاستدلال على ذلك أو عدمه.

وقوله: إلا قليلا استثناء من الليل أي إلا قليلا منه، فلم يتعلق إيجاب القيام عليه بأوقات

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٤٨

الليل كلها.
ونصفه بدل من قليلا بدلا مطابقا وهو تبيين لإجمال قليلا فجعل القليل هنا النصف أو أقل منه بقليل.
وفائدة هذا الإجمال **الإيماء** إلى أن الأولى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل وأن جعله نصف الليل رحمة ورخصة للنبيء صلى الله عليه وسلم، ويدل لذلك تعقيبه بقوله: أو انقص منه قليلا أي انقص من النصف قليلا، فيكون زمن قيام الليل أقل من نصفه، وهو حينئذ قليل فهو رخصة في الرخصة.
وقال أو زد عليه وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد أو زد عليه بمثل ما قيد به أو انقص منه لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبيء صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه وقيل له في ذلك: «إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا» . والتخيير المستفاد من حرف أو منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر لأن لذلك ارتباطا بسعة النهار للعمل ولأخذ الحظ الفائت من النوم.
وبعد فذلك توسيع على النبيء صلى الله عليه وسلم لرفع حرج تحديده لزمن القيام فسلك به مسلك التقريب.
وجعل ابن عطية الليل اسم جنس يصدق على جميع الليالي، وأن المعنى: إلا قليلا من الليالي، وهي الليالي التي يكون فيها عذر يمنعه من قيامها، أي هو استثناء من الليالي باعتبار جزئياتها لا باعتبار الأجزاء، ثم قال: نصفه إلى آخره.
وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقت النوم عادة فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله: ولأن الليل وقت سكون". (١)

٦٢٠. ٦٢٠-"ووقع في قوله تعالى: أو زد عليه ورتل القرآن إذا (شبعت) فتحة نون القرآن محسن الاتزان بأن يكون مصراعا من بحر الكامل أحذ دخله الإضمار مرتين.
[٥]

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٥٩

[سورة المزمل (٧٣) : آية ٥]

إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥)

تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضا بين جملة قم الليل [المزمل: ٢] وجملة إن ناشئة الليل هي أشد وطئا [المزمل: ٦] ، وهو جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبيء صلى الله عليه وسلم ليحمل شدة الوحي، وفي هذا إيماء إلى أن الله يسر عليه ذلك كما قال تعالى: إن علينا جمعه وقرآنه

[القيامة: ١٧] ، فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة قم الليل إلا قليلا [المزمل: ٢] فهذا إشعار بأن نزول هذه الآية كان في أول عهد النبيء صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن فلما قال له: ورتل القرآن ترتيلا [المزمل: ٤] أعقب ببيان علة الأمر بترتيل القرآن.

والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه: إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة الملك.

وحقيقة الإلقاء: رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه، ويقال: شيء لقى، أي مطروح، استعير الإلقاء للإبلاغ دفعة على غير ترقب.

والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيرا على الرسول الأمي تنوء الطاقة عن تلقيه.

وأشعر قوله: إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لقوله قبله: إنا سنلقي عليك وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقيل صعب تلقيه ممن أنزل عليه.

قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده»

(أي تغير بمثل القشعريرة)

وقالت عائشة: «رأته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا»

. ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال

هديه ووفرة معانيه. قال الفراء: «ثقيلا ليس بالكلام السفساف» . وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به فكم غاصت فيه أفهام". (١)

٦٢١. ٦٢١-"واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مثله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون [المؤمنون: ٤٧] وقد قال أهل مكة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا [الفرقان: ٢١] . وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل وهو زعيم المناوين للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤلبين عليه وأشد صناديد قريش كفرا.

وأكد الخبر ب (إن) لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولا.

ونكر رسولا لأنهم يعلمون المعني به في هذا الكلام، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإرسال.

وأدمج في التنظير والتهديد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه شاهدا عليهم.

والمراد بالشهادة هنا: الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس وبذلك يكون وصف شاهدا موافقا لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال، أي هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ.

وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربهم، وذلك قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا

كما ورد تفصيل تفسيرها في الحديث الصحيح، وقد تقدم في سورة البقرة [١٤٣] .

وتنكير رسولا المرسل إلى فرعون لأن الاعتبار بالإرسال لا بشخص المرسل إذ التشبيه تعلق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦١/٢٩

بالإرسال في قوله: كما أرسلنا إلى فرعون إذ تقديره كإرسالنا إلى فرعون رسولا.

وتفريع فعصى فرعون الرسول **إيماء** إلى أن ذلك هو الغرض من هذا الخبر وهو التهديد بأن يحل بالمخاطبين لما عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما حل بفرعون.". (١)

٦٢٢. ٦٢٢-"بالخبر مختلفا فإن بين قيام النبيء صلى الله عليه وسلم وقيام الطائفة التي معه تفاوتا في الحكم والمقدار، وكذلك براءة الله من المشركين وبراءة رسوله. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن

ويعاملهم، وأما الله فغاضب عليهم ولا عنهم. وهذا وجه العدول عن أن يقول: إن الله يعلم أنكم تقومون. إلى قوله: أنك تقوم ثم قوله: وطائفة إلخ.

ووصف طائفة بأنهم (من الذين معه) ، فإن كان المراد بالمعية المعية الحقيقية، أي المصاحبة في عمل مما سيق له الكلام. أي المصاحبين لك في قيام الليل، لم يكن في تفسيره تعيين لناس بأعيانهم،

ففي حديث عائشة في «صحيح البخاري» «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان»

. وإن كانت المعية معية مجازية وهي الانتساب والصحبة والموافقة فقد عددنا منهم:

عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي وأبا الدرداء، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت تويت الأسدية، فهؤلاء ورد ذكرهم مفرقا في أحاديث التهجد من «صحيح البخاري» .

واعلم أن صدر هذه الآية **إيماء** إلى الثناء على النبيء صلى الله عليه وسلم في وفائه بقيام الليل حق الوفاء وعلى الطائفة الذين تابعوه في ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٧٣

فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم مراد به الكناية عن الرضى عنهم فيما فعلوا.
والمقصود: التمهيد لقوله: علم أن لن تحصوه إلى آخر الآية.
ولأجل هذا الاعتبار أعيد فعل علم في جملة علم أن سيكون منكم مرضى إلخ ولم يقل: وأن سيكون منكم مرضى بالعطف.
وجملة والله يقدر الليل والنهار معترضة بين جملتي إن ربك يعلم أنك تقوم وجملة علم أن لن تحصوه وقد علمت مناسبة اعتراضها آنفا.". (١)

٦٢٣. ٦٢٣-"لهم أن ما التزموه من التأسي بالنبيء صلى الله عليه وسلم في ذلك غير لازم لهم. وعلل عدم وجوبه عليهم بأن الأمة يكثر فيها أصحاب الأعذار التي يشق معها قيام الليل فلم يجعله الله واجبا عليهم أو رفع وجوبه. ولولا اعتبار المظنة العامة لأبقي حكم القيام ورخص لأصحاب العذر في مدة العذر فقط فتبين أن هذا تعليل الحكم الشرعي بالمظنة والحكم هنا عدمي، أي عدم الإيجاب فهو نظير قصر الصلاة في السفر على قول عائشة أم المؤمنين: «إن الصلاة فرضت ركعتين ثم زيد في ثلاث من الصلوات في الحضر وأبقيت صلاة السفر» ، وعلة بقاء الركعتين هو مظنة المشقة في السفر.
وأوجب الترخص في قيام الليل أنه لم يكن ركنا من أركان الإسلام فلم تكن المصلحة الدينية قوية فيه.
وأما حكم القيام فهو ما دل عليه قوله: قم الليل إلا قليلا [المزمل: ٢] وما دلت عليه أدلة التحريض عليه من السنة. وقد مضى ذلك كله. فهذه الآية صالحة لأن تكون أصلا للتعليل بالمظنة وصالحة لأن تكون أصلا تقاس عليه الرخص العامة التي تراعى فيها مشقة غالب الأمة مثل رخصة بيع السلم دون الأحوال الفردية والجزئية.
وقوله: وأقيموا الصلاة تذكير بأن الصلوات الواجبة هي التي تحرصون على إقامتها وعدم التفريط فيها كما قال تعالى: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا [النساء: ١٠٣] .
وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماء إلى أن في الصلوات الخمس ما
يرفع التبعة عن المؤمنين وأن قيام الليل نافلة لهم وفيه خير كثير وقد تضافرت الآثار على هذا

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٨٢

ما هو في كتب السنة.

وعطف وآتوا الزكاة تتميم لأن الغالب أنه لم يخل ذكر الصلاة من قرن الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» .

وإقراض الله هو الصدقات غير الواجبة، شبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يقرضه الله لأن الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل فشابه حال معطي الصدقة مستجيبا رغبة الله فيه بحال من أقرض مستقرضا في أنه حقيق بأن يرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الذي يعطاه يوم الجزاء.". (١)

٦٢٤. ٦٢٤-"وبالأسحار هم يستغفرون [الذاريات: ١٨] ،

وقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا كل ليلة (١) إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» . وقال: «من تعار (٢) من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له»

. وجملة إن الله غفور رحيم تعليل للأمر بالاستغفار، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة. والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة. وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة.

---

(١) هذا من المتشابه، وتأويله: أنه ينزل رضاه على عباده.

(٢) التعارر: التقلب على الفراش ليلا بعد نوم حين ينتبه النائم فيبدل جنبا عوض جنب.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٧/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٠/٢٩

٦٢٥.   ٦٢٥-"والواو عطفت جملة ربك فكبر على جملة قم فأنذر [المدثر: ٢] .

ودخلت الفاء على (كبر) إيذانا بشرط محذوف يكون (كبر) جوابه، وهو شرط عام إذ لا دليل على شرط مخصوص وهيئ لتقدير الشرط بتقديم المفعول. لأن تقديم المعمول قد ينزل منزلة الشرط

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم «ففيهما فجاهد»

(يعني الأبوين) .

فالتقدير: مهما يكن شيء فكبر ربك.

والمعنى: أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده في كل زمان وكل حال وهذا من الإيجاز.

وجوز ابن جني أن تكون الفاء زائدة قال: هو كقولك زيدا فاضرب، تريد:

زيدا اضرب.

وتكبير الرب تعظيمه ففعل (كبر) يفيد معنى نسبة مفعوله إلى أصل مادة اشتقاقه وذلك من معاني صيغة فعل، أي أخبر عنه بخبر التعظيم، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظم بشيء كبير في نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.

فمعنى وربك فكبر: صف ربك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها.

ومعنى (كبر) : كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعليما. ويشمل هذا المعنى أن يقول: «الله أكبر» لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجل وأنزه من كل جليل، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير **إيماء** إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله: وثيابك فطهر [المدثر: ٤] فإنه **إيماء** إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة. ووقع في رواية معمر عن الزهري عند مسلم أن قال: وذلك قبل أن تفرض الصلاة. فالظاهر أن الله فرض عليه الصلاة عقب هذه السورة وهي غير الصلوات الخمس فقد ثبت أنه صلى

في المسجد الحرام.". (١)

٦٢٦. ٦٢٦-"لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي «إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم» .

ففي هذه الآية إيماء إلى التصدق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة.

والمن: تذكير المنعم المنعم عليه بإنعامه.

والاستكثار: عد الشيء كثيرا، أي لا تستعظم ما تعطيه.

وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة. وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعنى ولا تمنن تستكثر ليس شيء منها بمناسب، وقد أنهاها القرطبي إلى أحد عشر.

وتستكثر جملة في موضع الحال من ضمير تمنن وهي حال مقدرة.

[٧]

[سورة المدثر (٧٤) : آية ٧]

ولربك فاصبر (٧)

تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.

والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها.

ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمل للشيء الشاق.

ويعدى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف (على) ، يقال: صبر على الأذى.

ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام.

ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله. فيجوز أن تكون اللام في قوله لربك لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف، أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٩٦

سورة الطور [٤٨] وقوله: فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا في سورة الإنسان [٢٤] فيناسب نداءه ب يا أيها المدثر [المدثر: ١] لأنه تدثر من شدة وقع رؤية الملك، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب.". (١)

٦٢٧. ٦٢٧-"ويجوز أن تكون اللام للتعليل، وحذف متعلق فعل الصبر، أي اصبر لأجل ربك على كل ما يشق عليك.

وتقديم لربك على « (اصبر) للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجعل بعضهم اللام في لربك لام التعليل، أي اصبر على أذاهم لأجله، فيكون في معنى: إنه يصبر توكلا على أن الله يتولى جزاءهم، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق النبيء صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

والصبر تقدم عند قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة في [البقرة: ٤٥] .

وفي التعبير عن الله بوصف (ربك) **إيماء** إلى أن هذا الصبر بر بالمولى وطاعة له.

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته وهي من جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.

[٨- ١٠]

[سورة المدثر (٧٤) : الآيات ٨ إلى ١٠]

فإذا نقر في الناقور (٨) فذلك يومئذ يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير (١٠)

الفاء لتسبب هذا الوعيد عن الأمر بالإنذار في قوله فأنذر [المدثر: ٢] ، أي فأنذر المنذرين وأنذرهم وقت النقر في الناقور وما يقع يومئذ بالذين أنذروا فأعرضوا عن التذكرة، إذ الفاء يجب أن تكون مرتبطة بالكلام الذي قبلها.

ويجوز أن يكون معطوفا على فاصبر [المدثر: ٧] بناء على أنه أمر بالصبر على أذى المشركين.

والناقور: البوق الذي ينادى به الجيش ويسمى الصور وهو قرن كبير، أو شبهه ينفخ فيه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٩٩

النافخ لنداء ناس يجتمعون إليه من جيش ونحوه، قال خفاف بن ندبة:

إذا ناقورهم يوما تبدى ... أجاب الناس من غرب وشرق

ووزنه فاعول وهو زنة لما يقع به الفعل من النقر وهو صوت اللسان مثل". (١)

٦٢٨. ٦٢٨-"أمر محمد وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فقال ابن إسحاق: فأنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله: ذرني ومن خلقت وحيدا الآيات.

وعن أبي نصر القشيري أنه قال: قيل بلغ النبيء صلى الله عليه وسلم قول كفار مكة: أنت ساحر فوجد من ذلك غما وحم فتدثر بثيابه فقال الله تعالى: قم فأنذر

[المدثر: ٢] .

وأياما كان فقد وقع الاتفاق على أن هذا القول صدر عن الوليد بن المغيرة وأنه المعني بقوله تعالى: ومن خلقت وحيدا فإن كان قول الوليد صدر منه بعد نزول صدر هذه السورة فجملة ذرني ومن خلقت وحيدا مستأنفة استئنافا ابتدائيا والمناسبة ظاهرة، وإن كان قول الوليد هو سبب نزول السورة، كان متصلا بقوله: ولربك فاصبر [المدثر: ٧] على أنه تعليل للأمر بالصبر بأن الله يتولى جزاء هذا القائل، وما بينهما اعتراض، ويؤيد هذا أن ابتداء الوحي كان في رمضان وأن فترة الوحي دامت أربعين يوما على الأصح سواء نزل وحي بين بدء الوحي وفترته مدة أيام، أو لم ينزل بعد بدئه شيء ووقعت فترته، فيكون قد أشرف شهر ذي القعدة على الانصرام فتلك مدة اقتراب الموسم فأخذ المشركون في الاستعداد لما يقولونه للوفود إذا استخبروهم خبر النبيء صلى الله عليه وسلم.

وتصدير الجملة بفعل ذرني إيماء إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مهتما ومغتما مما اختلقه الوليد بن المغيرة، فاتصاله بقوله: ولربك فاصبر يزداد وضوحا.

وتقدم ما في نحو ذرني وكذا، من التهديد والوعيد للمذكور بعد واو المعية، في تفسير قوله تعالى: فذرني ومن يكذب بهذا الحديث في سورة القلم [٤٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٠

وجيء بالموصول وصلته في قوله: ومن خلقت وحيدا لإدماج تسجيل كفران الوليد النعمة في الوعيد والتهديد.

وانتصب وحيدا على الحال من من الموصولة.

والوحيد: المنفرد عن غيره في مكان أو حال مما يدل عليه سياق الكلام، أو شهرة أو قصة، وهو فعيل من وحد من باب كرم وعلم، إذا انفرد.". (١)

٦٢٩. ٦٢٩-"وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته وهي كثرة الولد وسعة المال، ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش في أمورهم لأنه كان أسن من أبي جهل وأبي سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام **إيماء** إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به. وجاء هذا الوصف بعد فعل خلقت، ليصرف هذا الوصف عما كان مرادا به فينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل خلقت أي أوجدته وحيدا عن المال والبنين والبسطة، فيغير عن غرض المدح

والثناء الذي كانوا يخصونه به، إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كل مخلوق فتكون من قبيل قوله: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا [النحل: ٧٨] الآية.

وعطف على ذلك وجعلت له مالا عطف الخاص على العام.

والممدود: اسم مفعول من مد الذي بمعنى: أطال، بأن شبهت كثرة المال بسعة مساحة الجسم، أو من مد الذي بمعنى: زاد في الشيء من مثله، كما يقال: مد الوادي النهر، أي مالا مزيدا في مقداره ما يكتسبه صاحبه من المكاسب. وكان الوليد من أوسع قريش ثراء.

وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان وكانت غلة ماله ألف دينار (أي في السنة) .

وامتن الله عليه بنعمة البنين ووصفهم بشهود جمع شاهد، أي حاضر، أي لا يفارقونه فهو مستأنس بهم لا يشتغل باله بمغيبهم وخوف معاطب السفر عليهم فكانوا بغنى عن طلب الرزق بتجارة أو غارة، وكانوا يشهدون معه المحافل فكانوا فخرا له، قيل: كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر ابنا، والمذكور منهم سبعة، وهم: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٣

والعاصي، وقيس أو أبو قيس، وعبد شمس (وبه يكنى) . ولم يذكر ابن حزم في «جمهرة الأنساب» : العاصي. واقتصر على ستة.

والتمهيد: مصدر مهد بتشديد الهاء الدال على قوة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما يقض جنب المضطجع عليها، ومهد الصبي تسمية بالمصدر.

والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر.". (١)

٦٣٠. ٦٣٠-"واليقين: اسم مصدر يقن كفرح، إذا علم علما لا شك معه ولا تردد.

وإتيانه مستعار لحصوله بعد إن لم يكن حاصلا، شبه الحصول بعد الانتفاء بالمجيء بعد المغيب.

والمعنى: حتى حصل لنا العلم بأن ما كنا نكذب به ثابت، فقوله: حتى أتانا اليقين على هذا الوجه غاية لجملة نكذب بيوم الدين.

ويطلق اليقين أيضا على الموت لأنه معلوم حصوله لكل حي فيجوز أن يكون مرادا هنا كما في قوله تعالى: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين [الحجر: ٩٩] . فتكون جملة حتى أتانا اليقين غاية للجمل الأربع التي قبلها من قوله: لم نك من المصلين إلى بيوم الدين.

والمعنى: كنا نفعل ذلك مدة حياتنا كلها.

وفي الأفعال المضارعة في قوله: لم نك، ونخوض، ونكذب إيذان بأن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم.

وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته، وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها.

وقد حرم الله هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعة المؤمنين على أقدارهم.

وفي قوله: فما تنفعهم شفاعة الشافعين **إيماء** إلى ثبوت الشفاعة لغيرهم يوم القيامة على

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٤/٢٩

الجملة وتفصيلها في صحاح الأخبار.

وفاء فما تنفعهم شفاعة الشافعين تفريع على قوله: كل نفس بما كسبت رهينة، أي فهم دائمون في الارتهان في سقر.". (١)

٦٣١. ٦٣١-"والوزر: المكان الذي يلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون.

فيجوز أن يكون كلا لا وزر كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى جوابا لمقالة الإنسان، أي لا وزر لك، فينبغي الوقف على المفر. ويجوز أن يكون من تمام مقالة

الإنسان، أي يقول: أين المفر؟ ويجيب نفسه بإبطال طعمه فيقول كلا لا وزر أي لا وزر لي، وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلا النار كما ورد في الحديث، فيحسن أن يوصل أين المفر بجملة كلا لا وزر.

وأما قوله: إلى ربك يومئذ المستقر

فهو كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبيء صلى الله عليه وسلم في الدنيا بقرينة قوله: يومئذ

، فهو اعتراض وإدماج للتذكير بملك ذلك اليوم.

وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته.

والمستقر

: مصدر ميمي من استقر، إذا قر في المكان ولم ينتقل، والسين والتاء للمبالغة في الوصف. وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي إلى ربك لا إلى ملجأ آخر. والمعنى: لا ملجأ يومئذ للإنسان إلا منتهيا إلى ربك، وهذا كقوله تعالى: وإلى الله المصير [آل عمران: ٢٨] .

وجملة ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر

مستأنفة استئنافا بيانيا أثاره قوله: إلى ربك يومئذ المستقر

، أو بدل اشتمال من مضمون تلك الجملة، أي إلى الله مصيرهم وفي مصيرهم ينبأون بما

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٨/٢٩

قدموا وما أخروا.

وينبغي أن يكون المراد ب الإنسان

الكافر جريا على سياق الآيات السابقة لأنه المقصود بالكلام وإن كان كل إنسان ينبأ يومئذ بما قدم وأخر من أهل الخير ومن أهل الشر قال تعالى: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء الآية [آل عمران: ٣٠] . واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد، فإن في القرآن فنونا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة. وهذا مما يغفل عن مراعاته بعض المفسرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة.". (١)

٦٣٢. ٦٣٢-"وتقدم في قوله تعالى: يوم يكشف عن ساق في سورة القلم [٤٢] .

فمعنى والتفت الساق بالساق طرأت مصيبة على مصيبة.

والخطاب في قوله: إلى ربك التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله: بل تحبون العاجلة [القيامة: ٢٠] لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

والتعريف في المساق تعريف الجنس الذي يعم الناس كلهم بما فيهم الإنسان الكافر المردود عليه. ولك أن تعبر عن اللام بأنها عوض عن المضاف إليه، أي مساق

الإنسان الذي يسأل: أيان يوم القيامة [القيامة: ٦] .

والمساق: مصدر ميمي ل (ساق) ، وهو تسيير ماش أمام مسيره إلى حيث يريد مسيره، وضده القود، وهو هنا مجاز مستعمل في معنى الإحضار والإيصال إلى حيث يلقى جزاء ربه.

وسلك في الجمل التي بعد إذا مسلك الإطناب لتهويل حالة الاحتضار على الكافر وفي ذلك إيماء إلى أن الكافر يتراءى له مصيره في حالة احتضاره وقد دل عليه

حديث عبادة بن الصامت في «الصحيح» عن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت.

قال: ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٩

إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه» .
[٣١- ٣٥]

[سورة القيامة (٧٥) : الآيات ٣١ إلى ٣٥]
فلا صدق ولا صلى (٣١) ولكن كذب وتولى (٣٢) ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥)
تفريع على قوله: يسئل أيان يوم القيامة [القيامة: ٦] .
فالضمير عائد إلى الإنسان في قوله: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [القيامة: ٣] أي لجهله البعث لم يستعد له.". (١)

٦٣٣. ٦٣٣-"إهمال أحد شيئا وعدم عنايته بأحواله ويتعهده، وهو هنا مستعمل في المعنى المجازي.
والمراد بما يترك عليه الإنسان هنا ما يدل عليه السياق، أي حال العدم دون إحياء مما دل عليه قوله تعالى: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [القيامة: ٣] وقوله: ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر
[القيامة: ١٣] .
وعدل عن بناء فعل يترك للفاعل فبني للنائب إيجازا لأجل العلم بالفاعل من قوله السابق: ألن نجمع عظامه فكأنه قال: أيحسب الإنسان أن نتركه دون بعث وأن نهمل أعماله سدى.
فجاء ذكر سدى هنا على طريقة الإدماج فيما سيق له الكلام، **إيماء** إلى أن مقتضى حكمة خلق الإنسان أن لا يتركه خالقه بعد الموت فلا يحييه ليجازيه على ما عمله في حياته الأولى.
وفي إعادة أيحسب الإنسان تهيئة لما سيعقب من دليل إمكان البعث من جانب المادة بقوله: ألم يك نطفة [القيامة: ٣٧] إلى آخر السورة.
فقوله: أيحسب الإنسان أن يترك سدى تكرير وتعداد للإنكار على الكافرين تكذيبهم

---
(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٦٠

بالعبث، ألا ترى أنه وقع بعد وصف يوم القيامة وما فيه من الحساب على ما قدم الإنسان وأخر.

ومعنى هذا مثل قوله تعالى: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون [المؤمنون: ١١٥].

وسدى بضم السين وبالقصر: اسم بمعنى المهمل ويقال: سدى بفتح السين والضم أكثر وهو اسم يستوي فيه المفرد والجمع يقال: إبل سدى، وجمل سدى ويشتق منه فعل فيقال: أسدى إبله وأسديت إبلي، وألفه منقلبة عن الواو.

ولم يفسر صاحب «الكشاف» هذه الكلمة وكذلك الراغب في المفردات ووقع سدى في موضع الحال من ضمير يترك.

فإن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأبدع تركيبه ووهبه القوى العقلية التي لم يعطها غيره من أنواع الحيوان ليستعملها في منافع لا تنحصر أو في ضد". (١)

٦٣٤. ٦٣٤-"أغراضها

التذكير بأن كل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرا لخالقه ومحذر من الإشراك به.

وإثبات الجزاء على الحالين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن

الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.

وتثبيت النبيء صلى الله عليه وسلم على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه له وبالإقبال على عبادته.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٥/٢٩

والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.
[١]

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم
هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١)
استفهام تقريري والاستفهام من أقسام الخطاب وهو هنا موجه إلى غير معين ومستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك **إيماء** إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالواحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين.
وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.
فجملة هل أتى على الإنسان تمهيد وتوطئة للجملة التي بعدها وهي إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج [الإنسان: ٢] إلخ.". (١)

٦٣٥. ٦٣٥-"[سورة الإنسان (٧٦) : الآيات ٢٣ إلى ٢٤]
إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤)
من هنا يبتدىء ما لا خلاف في أنه مكي من هذه السورة.
وعلى كلا القولين فهذا استئناف ابتدائي، ويجيء على قول الجمهور أن السورة كلها مكية وهو الأرجح، أنه استئناف للانتقال من الاستدلال على ثبوت البعث بالحجة والترهيب والوعيد للكافرين به والترغيب والوعد للمؤمنين به بمرهبات ومرغبات هي من الأحوال التي تكون بعد البعث، فلما استوفى ذلك ثني عنان الكلام إلى تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والربط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغم على تصلب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أنزل عليه مما شأنه أن يوهن العزيمة البشرية، فذكره الله بأنه نزل عليه الكتاب لئلا يعبأ بتكذيبهم.

---
(١) التحرير والتنوير ٣٧١/٢٩

وفي إيراد هذا بعد طول الكلام في أحوال الآخرة، قضاء لحق الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا فابتدئ بحال أشرف الناس وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بحال الذين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين من يحبون العاجلة [الإنسان: ٢٧] ومن اتخذ إلى ربه سبيلا [الإنسان:
٢٩] فأدخلهم في رحمته.
وتأكيد الخبر ب (إن) للاهتمام به.
وتأكيد الضمير المتصل بضمير منفصل في قوله: إنا نحن لتقرير مدلول الضمير تأكيدا لفظيا للتنبيه على عظمة ذلك الضمير ليفضي به إلى زيادة الاهتمام بالخبر إذ يتقرر أنه فعل من ذلك الضميران له لأنه لا يفعل إلا فعلا منوطا بحكمة وأقصى الصواب.
وهذا من الكناية الرمزية، وبعد فالخبر بمجموعه مستعمل في لازم معناه وهو التثبيت والتأييد فمجموعه كناية ومزية.
وإيثار فعل نزلنا الدال على تنزيله منجما آيات وسورا تنزيلا مفرقا إدماج **للإيماء** إلى أن ذلك كان من حكمة الله تعالى التي أومأ إليها تأكيد الخبر ب (إن) وتأكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، فاجتمع فيه تأكيد على تأكيد وذلك". (١)

٦٣٦. ٦٣٦-"والمعنى: أحكمنا ربط أجزاء أجسامهم فكانت مشدودا بعضها إلى بعض.
وقوله: وإذا شئنا بدلنا أمثالهم إخبار بأن الله قادر على أن يبدلهم بناس آخرين.
فحذف مفعول شئنا لدلالة وجواب إذا عليه كما هو الشأن في فعل المشيئة غالبا.
واجتلاب إذا في هذا التعليق لأن شأن إذا أن تفيد اليقين بوقوع ما قيد بها بخلاف حرف (إن) فهو **إيماء** إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع.
فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله: نحن خلقناهم إلخ، ويحمل الشرط على التحقق قال تعالى: وإن الدين لواقع [الذاريات: ٦] .
ويجوز أن يكون قوله: وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تهديدا لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث،

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠٢/٢٩

أي لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقا آخر مثلهم كقوله تعالى: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد [إبراهيم: ١٩] .

ويكون إذا مرادا به تحقق التلازم بين شرط إذا وجوابها، أي الجملة المضاف إليها، والجملة المتعلق بها.

وفعل التبديل يقتضي مبدلا ومبدلا به وأيهما اعتبرته في موضع الآخر صح لأن كل مبدل بشيء هو أيضا مبدل به ذلك الشيء، ولا سيما إذا لم يكن في المقام غرض ببيان المرغوب في اقتنائه والمسموح ببذله من الشيئين المستبدلين، فحذف من الكلام هنا متعلق بدلنا وهو المجرور بالباء لأنه أولى بالحذف، وأبقي المفعول.

وقد تقدم نظيره في سورة الواقعة [٦١] في قوله: على أن نبدل أمثالكم

، ومنه قوله تعالى: إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم في سورة المعارج [٤٠، ٤١] فالتقدير: بدلنا منهم.

والأمثال: جمع مثل وهو المماثل في ذات أو صفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم وهو التبديل الذي سيكون في المعاد.". (١)

٦٣٧. ٦٣٧-"[سورة المرسلات (٧٧) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

ثم نتبعهم الآخرين (١٧) كذلك نفعل بالمجرمين (١٨)

حرف (ثم) للتراخي الرتبي لأن التهديد أهم من الإخبار عن أهل المحشر، لأنه الغرض من سوق هذا كله، ولأن إهلاك الآخرين أشد من إهلاك الأولين لأنه مسبوق بإهلاك آخر.

ووقعت جملة كذلك نفعل بالمجرمين موقع البيان لجملة ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين [المرسلات: ١٦، ١٧] ، وهو كالتذييل يبين سبب وقوع إهلاك الأولين وأنه سبب لإيقاع الإهلاك بكل مجرم، أي تلك سنة الله في معاملة المجرمين فلا محيص لكم عنها.

وذكر وصف المجرمين **إيماء** إلى أن سبب عقابهم بالإهلاك هو إجرامهم.

والإشارة في قوله: كذلك إلى الفعل المأخوذ من نفعل، أي مثل ذلك الفعل نفعل.

و (المجرمون) من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن قال تعالى: إن الذين أجرموا كانوا من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٤١٠

الذين آمنوا يضحكون [المطففين: ٢٩] وسيأتي في هذه السورة كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون [المرسلات: ٤٦] .

[١٩]

[سورة المرسلات (٧٧) : آية ١٩]

ويل يومئذ للمكذبين (١٩)

تقرير لنظيره المتقدم تأكيدا للتهديد وإعادة لمعناه.

التهديد: من مقامات التكرير كقول الحارث بن عياد:

قربا مربط النعامة مني الذي كرره مرارا متوالية في قصيدته اللامية التي أثارت حرب البسوس.". (١)

٦٣٨. ٦٣٨-"واسم الإشارة مبتدأ والرسل خبر، وليس الرسل بدلا لأن الإخبار عن الجماعة بأنها الرسل أوقع في استحضار الجماعة العجيب شأنهم الباهر خبرهم، وجملة «فضلنا» حال.

والمقصود من هذه الآية تمجيد سمعة الرسل عليهم السلام، وتعليم المسلمين أن هاته الفئة الطيبة مع عظيم شأنها قد فضل الله بعضها على بعض، وأسباب التفضيل لا يعلمها إلا الله تعالى، غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدى البشر، وفي عموم ذلك الهدى ودوامه، وإذا

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس»

، فما بالك بمن هدى الله بهم أمما في أزمان متعاقبة، ومن أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل. ويتضمن الكلام ثناء عليهم وتسلية للرسول عليه السلام فيما لقي من قومه.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٩/٢٩

وقد خص الله من جملة الرسل بعضا بصفات يتعين بها المقصود منهم، أو بذكر اسمه، فذكر ثلاثة إذ قال: منهم من كلم الله، وهذا موسى عليه السلام لاشتهاره بهذه الخصلة العظيمة في القرآن، وذكر عيسى عليه السلام، ووسط بينهما **الإيماء** إلى محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه، بقوله: ورفع بعضهم درجات.

وقوله: ورفع بعضهم درجات يتعين أن يكون المراد من البعض هنا واحدا من الرسل معينا لا طائفة، وتكون الدرجات مراتب من الفضيلة ثابتة لذلك الواحد: لأنه لو كان المراد من البعض جماعة من الرسل مجملا، ومن الدرجات درجات بينهم لصار الكلام تكرارا مع قوله فضلنا بعضهم على بعض، ولأنه لو أريد بعض فضل على بعض لقال، ورفع بعضهم فوق بعض درجات كما قال في الآية الأخرى: ورفع بعضكم فوق بعض درجات [الأنعام: ١٦٥]
.

وعليه فالعدول من التصريح بالاسم أو بالوصف المشهور به لقصد دفع الاحتشام عن المبلغ الذي هو المقصود من هذا الوصف وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والعرب تعبر بالبعض عن
النفس كما في قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها". (١)

٦٣٩. ٦٣٩-"والمراد بالبينات على هذا الاحتمال أدلة الشريعة الواضحة التي تفرق بين متبع الشريعة ومعاندها والتي لا تقبل خطأ الفهم والتأويل لو لم يكن دأبهم المكابرة ودحض الدين لأجل عرض الدنيا، والمعنى أن الله شاء اقتتالهم فاقتتلوا، وشاء اختلافهم فاختلفوا، والمشيئة هنا مشيئة تكوين وتقدير لا مشيئة الرضا لأن الكلام مسوق مساق التمني للجواب والتحسير على امتناعه وانتفائه المفاد بلو كقول طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

وقوله: ولكن اختلفوا استدراك على ما تضمنه جواب لو شاء الله: وهو ما اقتتل، لكن ذكر في الاستدراك لازم الضد لجواب لو وهو الاختلاف لأنهم لما اختلفوا اقتتلوا ولو لم يختلفوا لما

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٣

اقتتلوا. وإنما جيء بلازم الضد في الاستدراك **للإيماء** إلى سبب الاقتتال ليظهر أن معنى نفي مشيئة الله تركهم الاقتتال، هو أنه خلق داعية الاختلاف فيهم، فبتلك الداعية اختلفوا، فجرهم الخلاف إلى أقصاه وهو الخلاف في العقيدة، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فاقتتلوا لأن لزوم الاقتتال لهذه الحالة أمر عرفي شائع، فإن كان المراد اختلاف أمة الرسول الواحد فالإيمان والكفر في الآية عبارة عن خطأ أهل الدين فيه

إلى الحد الذي يفضي ببعضهم إلى الكفر به، وإن كان المراد اختلاف أمم الرسل كل للأخرى كما في قوله: وقالت اليهود ليست النصارى على شيء [البقرة: ١١٣] ، فالإيمان والكفر في الآية ظاهر، أي فمنهم من آمن بالرسول الخاتم فاتبعه ومنهم من كفر به فعاداه، فاقتتل الفريقان.

وأياما كان المراد من الوجهين فإن قوله: فمنهم من آمن ومنهم من كفر ينادي على أن الاختلاف الذي لا يبلغ بالمختلفين إلى كفر بعضهم بما آمن به الآخر لا يبلغ بالمختلفين إلى التقاتل، لأن فيما أقام الله لهم من بينات الشرع ما فيه كفاية الفصل بين المختلفين في اختلافهم إذا لم تغلب عليهم المكابرة والهوى أو لم يعمهم سوء الفهم وقلة الهدى.

لا جرم أن الله تعالى جعل في خلقة العقول اختلاف الميول والأفهام، وجعل في تفاوت الذكاء وأصالة الرأي أسبابا لاختلاف قواعد العلوم والمذاهب، فأسباب الاختلاف إذن مركوزة في الطباع، ولهذا قال تعالى: ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم". (١)

٦٤٠. ٦٤٠-"وقال الشيخ ابن عاشور جدي في تعليق له على حديث فضل إخفاء الصدقة من «صحيح مسلم» : «عطف إيتاء الفقراء على الإخفاء المجعول شرطا للخيرية في الآية- مع العلم بأن الصدقة للفقراء- يؤذن بأن الخيرية لإخفاء حال الفقير وعدم إظهار اليد العليا عليه» ، أي فهو **إيماء** إلى العلة وأنها الإبقاء على ماء وجه الفقير، وهو القول الفصل لانتفاء شائبة الرياء.

وقوله: ويكفر عنكم من سيئاتكم قرأه نافع والكسائي وأبو بكر وأبو جعفر وخلف بنون

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٣

العظمة، وبجزم الراء عطفاء على موضع جملة الجواب وهي جملة فهو خير لكم، فيكون التكفير معلقا على الإخفاء. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بالنون أيضا وبرفع الراء على أنه وعد على إعطاء الصدقات ظاهرة أو خفية وقرأه ابن عامر وحفص بالتحتية- على أن ضميره عائد إلى الله- وبالرفع.

[٢٧٢]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٢]

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢)

استئناف معترض به بين قوله إن تبدوا الصدقات [البقرة: ٢٧١] وبين قوله: وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، ومناسبته هنا أن الآيات المتقدمة يلوح من خلالها أصناف من الناس: منهم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومنهم

الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، ومنهم الذين يتيممون الخبيث منه ينفقون، ومنهم من يعدهم الشيطان الفقر ويأمرهم بالفحشاء. وكان وجود هذه الفرق مما يثقل على النبيء صلى الله عليه وسلم، فعقب الله ذلك بتسكين نفس رسوله والتهوين عليه بأن ليس عليه هداهم ولكن عليه البلاغ. فالهدى هنا بمعنى الإلجاء لحصول الهدى في قلوبهم، وأما الهدى بمعنى التبليغ والإرشاد فهو على النبيء، ونظائر هذا في القرآن كثيرة. فالضمير راجع إلى جميع من بقي فيهم شيء من عدم الهدى وأشدهم المشركون والمنافقون، وقيل الضمير راجع إلى ناس معروفين، روي أنه كان لأسماء ابنة أبي بكر أم كافرة وجد كافر فأرادت أسماء- عام عمرة القضية- أن تواسيهما بمال، وأنه أراد بعض الأنصار الصدقة على قرابتهم وأصهارهم في بني النضير وقريظة، فنهى". (١)

٦٤١. ٦٤١-"يسألون، وتعين أن قوله:

لا يسئلون الناس إلحافا تعريض بالملحفين في السؤال، أي زيادة فائدة في عدم السؤال.

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٦٩

وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم.

أعيد التحريض على الإنفاق فذكر مرة رابعة، وقوله: فإن الله به عليم كناية عن الجزاء عليه لأن العلم يكنى به عن أثره كثيرا، فلما كان الإنفاق مرغبا فيه من الله، وكان علم الله بذلك معروفا للمسلمين، تعين أن يكون الإخبار بأنه عليم به أنه عليم بامتثال المنفق، أي فهو لا يضيع أجره إذ لا يمنعه منه مانع بعد كونه عليما به، لأنه قدير عليه.

وقد حصل بمجموع هذه المرات الأربع من التحريض ما أفاد شدة فضل الإنفاق بأنه نفع للمنفق، وصلة بينه وبين ربه، ونوال الجزاء من الله، وأنه ثابت له في علم الله.

[٢٧٤]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٤]

الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٧٤)

جملة مستأنفة تفيد تعميم أحوال فضائل الإنفاق بعد أن خصص الكلام بالإنفاق للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، فاسم الموصول مبتدأ، وجملة فلهم أجرهم خبر المبتدأ. وأدخل الفاء في خبر الموصول للتنبيه على تسبب استحقاق الأجر على الإنفاق لأن المبتدأ لما كان مشتملا على صلة مقصود منها التعميم، والتعليل، **والإيماء** إلى علة بناء الخبر على المبتدأ- وهي ينفقون- صح إدخال الفاء في خبره كما تدخل في جواب الشرط لأن أصل الفاء الدلالة على التسبب وما أدخلت في جواب الشرط إلا لذلك.

والسر: الخفاء. والعلانية: الجهر والظهور. وذكر عند ربهم لتعظيم شأن الأجر.". (١)

٦٤٢. ٦٤٢-"عنهم أنهم قالوا: «ليس علينا في الأميين سبيل» . وهذه نصوص التوراة في مواضع كثيرة تنهى عن أشياء أو تأمر بأشياء وتخصها ببني إسرائيل، وتسوغ مخالفة ذلك مع الغريب، ولم نر في دين من الأديان التصريح بالتسوية في الحقوق سوى دين الإسلام، فكيف نعتد بشهادة هؤلاء الذين يرون المسلمين مارقين عن دين الحق مناوئين لهم، ويرمون بذلك

(١) التحرير والتنوير ٧٧/٣

نبيئهم فمن دونه، فماذا يرجى من هؤلاء أن يقولوا الحق لهم أو عليهم والنصرانية تابعة لأحكام التوراة. على أن تجافي أهل الأديان أمر كان كالجبلي فهذا الإسلام مع أمره المسلمين بالعدل مع أهل الذمة لا نرى منهم امتثالا فيما يأمرهم به في شأنهم.

وفي القرآن إيماء إلى هذه العلة «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل» .

وفي «البخاري» ، في حديث أبي قلابة في مجلس عمر بن عبد العزيز. وما روي عن سهل بن أبي حثمة الأنصاري: أن نفرا من قومه ذهبوا إلى خيبر فتفرقوا بها، فوجدوا أحدهم قتيلا، فقالوا للذين وجد فيهم القتيل أنتم قتلتم صاحبنا، قالوا ما قتلنا، فانطلقوا إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فشكوا إليه، فقال لهم: «تأتون بالبينة على من قتله» ، قالوا: «ما لنا بينة» ، قال: «فتحلف لكم يهود خمسين يمينا» ، قالوا: «ما يبالون أن يقتلونا أجمعين ثم يحلفون» ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبطل دمه فوداه من مال الصدقة. فقد أقر النبيء صلى الله عليه وسلم قول الأنصار في اليهود: إنهم ما يبالون أن يقتلوا كل القوم ثم يحلفون.

فإن قلت: كيف اعتدت الشريعة بيمين المدعى عليه من الكفار، قلت: اعتدت بها لأنها أقصى ما يمكن في دفع الدعوى، فرأتها الشريعة خيرا من إهمال الدعوى من أصلها.

ولأجل هذا اتفق علماء الإسلام على عدم قبول شهادة أهل الكتاب بين المسلمين في غير الوصية في السفر، واختلفوا في الإشهاد على الوصية في السفر، فقال ابن عباس ومجاهد وأبو موسى الأشعري وشريح بقبول شهادة غير المسلمين في الوصية في السفر، وقضى به أبو موسى الأشعري مدة قضائه في الكوفة، وهو قول أحمد وسفيان الثوري وجماعة من العلماء، وقال الجمهور: لا تجوز شهادة غير المسلمين على المسلمين ورأوا أن ما في آية الوصية منسوخ، وهو قول زيد بن أسلم ومالك وأبي حنيفة والشافعي، واختلفوا في شهادة بعضهم على بعض عند قاضي المسلمين فأجازها أبو حنيفة ناظرا في ذلك". (١)

٦٤٣. ٦٤٣-"وجعل إحداهما الثاني مرادا به إحدى المرأتين. ولما اختلف المدلول لم يبق إظهار في

مقام الإضمار، وهو تكلف وتشتيت للضمائر لا دليل عليه، فينزه تخريج كلام الله عليه،

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/٣

وهو الذي عناه الغزنوي بقوله: «ومن رددتم عليه الحل إلخ» .
والذي أراه أن هذا الإظهار في مقام الإضمار لنكتة هي قصد استقلال الجملة بمدلولها كيلا تحتاج إلى كلام آخر فيه معاد الضمير لو أضمر، وذلك يرشح الجملة لأن تجري مجرى المثل.
وكأن المراد هنا **الإيماء** إلى أن كلتا الجملتين علة لمشروعية تعدد المرأة في الشهادة، فالمرأة معرضة لتطرق النسيان إليها وقلة ضبط ما يهم ضبطه، والتعدد مظنة لاختلاف مواد النقص والخلل، فعسى ألا تنسى إحداهما ما نسيته الأخرى. فقوله أن تضل تعليل لعدم الاكتفاء بالواحدة، وقوله: فتذكر إحداهما الأخرى تعليل لإشهاد امرأة ثانية حتى لا تبطل شهادة الأولى من أصلها.
ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا.
عطف ولا يأب على واستشهدوا شهيدين لأنه لما أمر المتعاقدين باستشهاد شاهدين نهى من يطلب إشهاده عن أن يأبى، ليتم المطلوب وهو الإشهاد.
وإنما جيء في خطاب المتعاقدين بصيغة الأمر وجيء في خطاب الشهداء بصيغة النهي اهتماما بما فيه التفريط. فإن المتعاقدين يظن بهما إهمال الإشهاد فأمرا به، والشهود يظن بهم الامتناع فنهوا عنه، وكل يستلزم ضده.
وتسمية المدعوين شهداء باعتبار الأول القريب، وهو المشارفة، وكأن في ذلك نكتة عظيمة: وهي **الإيماء** إلى أنهم بمجرد دعوتهم إلى الإشهاد، قد تعينت عليهم الإجابة، فصاروا شهداء.
وحذف معمول دعوا إما لظهوره من قوله- قبله- واستشهدوا شهيدين أي إذا ما دعوا إلى الشهادة أي التحمل، وهذا قول قتادة، والربيع بن سليمان، ونقل عن ابن عباس، فالنهي عن الإباية عند الدعاء إلى الشهادة حاصل بالأولى، ويجوز أن يكون". (١)

٦٤٤. ٦٤٤-"إذ جعل صاحب «الكشاف» كيف يلتقيان بيانا لحاجة وأخرى، أو تجعل تديروها صفة ثانية لتجارة في معنى البيان، ولعل فائدة ذكره **الإيماء** إلى تعليل الرخصة في ترك الكتابة، لأن إدارتها أغنت عن الكتابة. وقيل: الاستثناء متصل، والمراد بالتجارة الحاضرة

(١) التحرير والتنوير ٣/١١٢

المؤجلة إلى أجل قريب، فهي من جملة الديون، رخص فيها ترك الكتابة بها، وهذا بعيد.
وقوله: فليس عليكم جناح ألا تكتبوها تصريح بمفهوم الاستثناء، مع ما في زيادة قوله: جناح من الإشارة إلى أن هذا الحكم رخصة، لأن رفع الجناح مؤذن بأن الكتابة أولى وأحسن.
وقرأ الجمهور تجارة بالرفع: على أن تكون تامة، وقرأه عاصم بالنصب: على أن تكون ناقصة، وأن في فعل تكون ضميرا مستترا عائدا على ما يفيده خبر كان، أي إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة، كما في قول عمرو بن شاس- أنشده سيبويه-:
بني أسد هل تعلمون بلاءنا ... إذا كان يوماذا كواكب أشنعا

تقديره إذا كان اليوم يوماذا كواكب، وقوله: ألا أصله إن لا فرسم مدغما.
وأشهدوا إذا تبايعتم.
تشريع للإشهاد عند البيع ولو بغير دين إذا كان البيع غير تجارة حاضرة، وهذا إكمال لصور المعاملة: فإنها إما تداين، أو آيل إليه كالبيع بدين، وإما تناجز في تجارة، وإما تناجز في غير تجارة كبيع العقار والعروض في غير التجر. وقيل: المراد بتبايعتم التجارة، فتكون الرخصة في ترك الكتابة مع بقاء الإشهاد بدون كتابة، وهذا بعيد جدا، لأن الكتابة
ما شرعت إلا لأجل الإشهاد والتوثق.
وقوله تعالى: وأشهدوا أمر: قيل هو للوجوب، وهذا قول أبي موسى الأشعري، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، والضحاك،". (١)

٦٤٥. ٦٤٥-"وقوله تعالى: وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم حذف مفعول تفعلوا وهو معلوم، لأنه الإضرار المستفاد من لا يضار مثل «اعدلوا هو أقرب» والفسوق: الإثم العظيم، قال تعالى: بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان [الحجرات: ١١] .
واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم.
أمر بالتقوى لأنها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق. وقوله: ويعلمكم الله تذكير بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، ونظام العالم، وهو أكبر العلوم

---

(١) التحرير والتنوير ١١٦/٣

وأنفعها، ووعد بدوام ذلك لأنه جيء فيه بالمضارع، وفي عطفه على الأمر بالتقوى **إيماء** إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل أي ليعلمكم. وجعله بعضهم من معاني الواو، وليس بصحيح.

وإظهار اسم الجلالة في الجمل الثلاث: لقصد التنويه بكل جملة منها حتى تكون مستقلة الدلالة، غير محتاجة إلى غيرها المشتمل على معاد ضميرها، حتى إذا سمع السامع كل واحدة منها حصل له علم مستقل، وقد لا يسمع إحداها فلا يضره ذلك في فهم أخراها، ونظير هذا الإظهار قول الحماسي (١) :

اللؤم أكرم من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

واللؤم داء لوبر يقتلون به ... لا يقتلون بداء غيره أبدا

فإنه لما قصد التشنيع بالقبيلة ومن ولدها، وما ولدته، أظهر اللؤم في الجمل الثلاث ولما كانت الجملة الرابعة كالتأكيد للثالثة لم يظهر اسم اللؤم بها. هذا، ولإظهار اسم الجلالة نكتة أخرى وهي التهويل. وللتكرير مواقع يحسن فيها، ومواقع لا يحسن فيها، قال الشيخ في «دلائل الإعجاز» (٢) ، في الخاتمة التي ذكر فيها أن الذوق قد يدرك أشياء لا يهتدى لأسبابها، وأن ببعض الأئمة قد يعرض له الخطأ في التأويل: «ومن ذلك

---

(١) وهو الحكم ابن مقداد ويدعى ابن زهرة وزهرة أمه ويعرف بالحكم الأصم الفزاري، وتنسب الأبيات إلى عويف القوافي أيضا واسمه عوف بن حصن الفزاري.

(٢) ص ٤٠٠ مطبعة الموسوعات بمصر.". (١)

٦٤٦. ٦٤٦-"وقعة بدر، ويبعد ذلك أن سورة آل عمران اشتملت على التذكير بنصر المسلمين يوم بدر، وأن فيها ذكر يوم

أحد، ويجوز أن يكون بعضها نزل متأخرا. وذكر الواحدي في أسباب النزول، عن المفسرين: أن أول هذه السورة إلى قوله: ونحن له مسلمون [آل عمران: ٨٤] نزل بسبب وفد نجران،

---

(١) التحرير والتنوير ١١٨/٣

هو وفد السيد والعاقب، أي سنة اثنتين من الهجرة، ومن العلماء من قالوا: نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال، وكان نزولها في وقعة أحد، أي شوال سنة ثلاث، وهذا وأقرب، فقد اتفق المفسرون على أن قوله تعالى: وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال [آل عمران: ١٢١] أنه قتال يوم أحد. وكذلك قوله: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم [آل عمران: ١٤٤] فإنه مشير إلى الإرجاف يوم أحد بقتل النبيء صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون أولها نزل بعد البقرة إلى نهاية ما يشير إلى حديث وفد نجران، وذلك مقدار ثمانين آية من أولها إلى قوله: وإذ غدوت من أهلك [آل عمران: ١٢١] قاله القرطبي في أول السورة، وفي تفسير قوله: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب [آل عمران: ٧٩] الآية. وقد تقدم القول في صدر سورة الفاتحة: إننا بينا إمكان تقارن نزول سور عدة في مدة واحدة، فليس معنى قولهم: نزلت سورة كذا بعد سورة كذا، مرادا منه أن المعدودة نازلة بعد أخرى أنها ابتدئ نزولها بعد انتهاء الأخرى، بل المراد أنها ابتدئ نزولها بعد ابتداء نزول التي سبقتها.

وقد عدت هذه السورة الثامنة والأربعين في عداد نزول سور القرآن.

وعدد آيها مائتان في عد الجمهور وعددها عند أهل العدد بالشام مائة وتسع وتسعون.

واشتملت هذه السورة، من الأغراض: على الابتداء بالتنويه بالقرآن، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وتقسيم آيات القرآن، ومراتب الأفهام في تلقيها، والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه لا يعدله دين، وأنه لا يقبل دين عند الله، بعد ظهور الإسلام، غير الإسلام، والتنويه بالتوراة والإنجيل، والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن، تمهيدا لهذا الدين فلا يحق للناس، أن يكفروا به، وعلى التعريف بدلائل إلاهية الله تعالى، وانفراده، وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: من جعلوا له". (١)

٦٤٧. ٦٤٧-"[٢- ٤]

(١) التحرير والتنوير ٣/١٤٤

الله لا إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام (٤)

الله لا إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان.

ابتدئ الكلام بمسند إليه خبره فعلي: لإفادة تقوية الخبر اهتماما به.

وجيء بالاسم العلم: لتربية المهابة عند سماعه، ثم أردف بجملة لا إله إلا هو، جملة معترضة أو حالية، ردا على المشركين، وعلى النصارى خاصة. وأتبع بالوصفين الحي القيوم لنفي اللبس عن مسمى هذا الاسم، **والإيماء** إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها لأنه غير حي أو غير قيوم، فالأصنام لا حياة لها، وعيسى في اعتقاد النصارى قد أميت، فما هو الآن بقيوم ولا هو في حال حياته بقيوم على تدبير العالم، وكيف وقد أوذي في الله، وكذب، واختفى من أعدائه. وقد مضى القول في معنى الحي القيوم في تفسير آية الكرسي.

وقوله: نزل عليك الكتاب خبر عن اسم الجلالة. والخبر هنا مستعمل في الامتنان، أو هو تعريض ونكاية بأهل الكتاب: الذين أنكروا ذلك. وجيء بالمسند فعلا لإفادة تقوية الخبر، أو للدلالة- مع ذلك- على الاختصاص: أي الله لا غيره نزل عليك الكتاب إبطالا لقول المشركين: إن القرآن من كلام الشيطان، أو من طرائق الكهانة، أو يعلمه بشر.

والتضعيف في نزل للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كميته، في الفعل المتعدي بغير التضعيف، من أجل أنهم قد أتوا ببعض الأفعال المتعدية، للدلالة على ذلك، كقولهم: فسر وفسر، وفرق وفرق، وكسر وكسر، كما أتوا بأفعال قاصرة بصيغة المضاعفة، دون تعدية للدلالة على قوة الفعل، كما قالوا: مات وموت وصاح وصيح. فإما إذا صار التضعيف للتعدية فلا أوقن بأنه يدل على تقوية الفعل، إلا أن يقال: إن العدول عن التعدية بالهمز، إلى التعدية بالتضعيف، لقصد ما عهد في التضعيف من

تقوية معنى الفعل، فيكون قوله:". (١)

٦٤٨. ٦٤٨-"أبطل أحكام الكتابين، وأما كون شرع من قبلنا شرعا لنا عند معظم أهل الأصول، فذلك فيما حكاه عنهم القرآن لا ما يوجد في الكتابين، فلا يستقيم اعتبار الاستغراق بهذا الاعتبار بل بما ذكرناه.

والفرقان في الأصل مصدر فرق كالشكران والكفران والبهتان، ثم أطلق على ما يفرق به بين الحق والباطل قال تعالى: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان [الأنفال: ٤١] وهو يوم بدر.

وسمي به القرآن قال تعالى: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده [الفرقان: ١] والمراد بالفرقان هنا القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل، وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه على هدي التوراة والإنجيل لأن التفرقة بين الحق والباطل أعظم أحوال الهدى، لما فيها من البرهان، وإزالة الشبهة. وإعادة قوله: وأنزل الفرقان بعد قوله: نزل عليك الكتاب بالحق للاهتمام، وليوصل الكلام به في قوله: إن الذين كفروا بآيات الله [آل عمران: ٤] الآية أي بآياته في القرآن.

إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام.

استئناف بياني ممهد إليه بقوله: نزل عليك الكتاب بالحق لأن نفس السامع تتطلع إلى معرفة عاقبة الذين أنكروا هذا التنزيل.

وشمل قوله: الذين كفروا بآيات الله المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة، لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله- هنا- لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله لأنه معجزة. وعبر عنهم بالموصول إيجازا لأن الصلة تجمعهم، **والإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو قوله: لهم عذاب شديد.

وعطف قوله: والله عزيز ذو انتقام على قوله: إن الذين كفروا بآيات الله لأنه من تكملة هذا الاستئناف: لمجيئه مجيء التبيين لشدة عذابهم إذ هو عذاب عزيز منتقم كقوله: فأخذناهم

---

(١) التحرير والتنوير ٣/١٤٧

أخذ عزيز مقتدر [القمر: ٤٢] .". (١)

٦٤٩. ٦٤٩-"(كيف) مشتملة على حروف مادة الكيفية، والتكيف، وهو الحالة والهيئة، وإن كان الأكثر في الاستعمال أن تكون اسم استفهام، وليست (كيف) فعلا لأنها لا دلالة فيها على الزمان، ولا حرفا لاشتمالها على مادة اشتقاق. وقد تجيء (كيف) اسم شرط إذا اتصلت بها ما

الزائدة وفي كل ذلك لا تفارقها الدلالة على الحالة، ولا يفارقها إيلاء الجملة الفعلية إياها إلا ما شذ من قولهم: كيف أنت. فإذا كانت استفهاما فالجملة بعدها هي المستفهم عنه فتكون معمولة للفعل الذي بعدها، ملتزما تقديمها عليه لأن للاستفهام الصدارة، وإذا جردت عن الاستفهام كان موقعها من الإعراب على حسب ما يطلبه الكلام الواقعة هي فيه من العوامل كسائر الأسماء.

وأما الجملة التي بعدها- حينئذ- فالأظهر أن تعتبر مضافا إليها اسم كيف ويعتبر كيف من الأسماء الملازمة للإضافة. وجرى في كلام بعض أهل العربية أن فتحة (كيف) فتحة بناء.

والأظهر عندي أن فتحة كيف فتحة نصب لزمتها لأنها دائما متصلة بالفعل فهي معمولة له على الحالية أو نحوها، فلملازمة ذلك الفتح إياها أشبهت فتحة البناء.

فكيف في قوله هنا كيف يشاء يعرب مفعولا مطلقا «ليصوركم» ، إذ التقدير: حال تصوير يشاؤها كما قاله ابن هشام في قوله تعالى: كيف فعل ربك [الفجر: ٦] .

وجوز صاحب «المغني» أن تكون شرطية، والجواب محذوف لدلالة قوله:

يصوركم عليه وهو بعيد لأنها لا تأتي في الشرط إلا مقترنة بما. وأما قول الناس:

كيف شاء فعل فلحن. وكذلك جزم الفعل بعدها قد عد لحنا عند جمهور أئمة العربية.

وذل تعريف الجزأين على قصر صفة التصوير عليه تعالى وهو قصر حقيقي لأنه كذلك في الواقع إذ هو مكون أسباب ذلك التصوير وهذا **إيماء** إلى كشف شبة النصارى إذ توهموا أن تخلق عيسى بدون ماء أب دليل على أنه غير بشر وأنه إله وجهلوا أن التصوير في الأرحام وإن اختلفت كيفياته لا يخرج عن كونه خلقا لما كان معدوما فكيف يكون ذلك المخلوق

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٠/٣

المصور في الرحم إلها.". (١)

٦٥٠. ٦٥٠-"إيماء إلى أن دعوتهم استجيبت. والمراد بالذين كفروا: المشركون، وهذا وصف غالب عليهم في اصطلاح القرآن وقيل: الذين كفروا بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم أريد هنا قريظة والنضير وأهل نجران ويرجح هذا بأنهم ذكروا بحال فرعون دون حال عاد وثمود فإن اليهود والنصارى أعلق بأخبار فرعون. كما أن العرب أعلق بأخبار عاد وثمود، وأن الرد على النصارى من أهم أغراض هذه السورة. ويجوز أن يكون المراد جميع الكافرين: من المشركين، وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون لأن وعيد اليهود في هذه الآية أهم.

ومعنى «تغني» تجزي وتكفي وتدفع، وهو فعل قاصر يتعدى إلى المفعول بعن نحو:

«ما أغنى ماليه» .

ولدلالة هذا الفعل على الإجزاء والدفع، كان مؤذنا بأن هنالك شيئا يدفع ضره، وتكفى كلفته، فلذلك قد يذكرون مع هذا الفعل متعلقا ثانيا ويعدون الفعل إليه بحرف (من) كما في هذه الآية. فتكون (من) للبدل والعوض على ما ذهب إليه في «الكشاف» ، وجعل ابن عطية (من) للابتداء.

وقوله: من الله أي من أمر يضاف إلى الله لأن تعليق هذا الفعل، تعليقا ثانيا، باسم ذات لا يقصد منه إلا أخص حال اشتهرت به، أو في الغرض المسوق له الكلام فيقدر معنى اسم مضاف إلى اسم الجلالة. والتقدير هنا من رحمة الله، أو من طاعته، إذا كانت (من) للبدل وكذا قدره في «الكشاف» ، ونظره بقوله تعالى: وإن الظن لا يغني من الحق شيئا [النجم: ٢٨] . وعلى جعل (من) للابتداء كما قال ابن عطية تقدر من غضب الله، أو من عذابه، أي غناء مبتدئا من ذلك: على حد قولهم: نجاه من كذا أي فصله منه، ولا

يلزم أن تكون (من) مع هذا الفعل، إذا عدي بعن، مماثلة لمن الواقعة بعد هذا الفعل الذي يعد بعن، لإمكان اختلاف معنى التعلق باختلاف مساق الكلام. والغالب أن يأتوا بعد فعل أغنى بلفظ (شيء) مع ذكر المتعلقين كما في الآية، وبدون ذكر متعلقين، كما في قول

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٣

أبي سفيان، يوم أسلم: «لقد علمت أن لو كان معه إله غيره لقد أغنى عني شيئا» .". (١)

٦٥١. ٦٥١-"النبيء صلى الله عليه وسلم. والاستفهام للعرض تشويقا من نفوس المخاطبين إلى تلقي ما سيقص عليهم كقوله تعالى: هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم [الصف: ١٠] الآية.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب: أأنبئكم بتسهيل الهمزة الثانية واوا. وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وروح عن يعقوب، وخلف: بتخفيف الهمزتين.

وجملة للذين اتقوا عند ربهم جنات مستأنفة وهي المنبأ به. ويجوز أن يكون للذين اتقوا متعلقا بقوله: «خير» و «جنات» مبتدأ محذوف الخبر: أي لهم، أو خبرا لمبتدأ محذوف. وقد ألغي ما يقابل شهوات الدنيا في ذكر نعيم الآخرة لأن لذة البنين ولذة المال هنالك مفقودة، للاستغناء عنها، وكذلك لذة الخيل والأنعام إذ لا دواب في الجنة، فبقي ما يقابل النساء والحرث، وهو الجنات والأزواج، لأن بهما تمام النعيم والتأنس، وزيد عليهما رضوان الله الذي حرمه من جعل حظه لذات الدنيا وأعرض عن الآخرة. ومعنى المطهرة المنزهة مما يعتري نساء البشر مما تشمئز منه النفوس، فالطهارة هنا حسية لا معنوية.

وعطف رضوان من الله على ما أعد للذين اتقوا عند الله: لأن رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي لأن رضوان الله تقريب روحاني قال تعالى: ورضوان من الله أكبر [التوبة: ٧٢] .

وقرأ الجمهور: رضوان- بكسر الراء- وقرأه أبو بكر عن عاصم: بضم الراء وهما لغتان.

وأظهر اسم الجلالة في قوله: ورضوان من الله، دون أن يقول ورضوان منه أي من ربهم: لما في اسم الجلالة من **الإيماء** إلى عظمة ذلك الرضوان.

وجملة والله بصير بالعباد اعتراض لبيان الوعد أي أنه عليم بالذين اتقوا ومراتب تقواهم، فهو يجازيهم، ولتضمن بصير معنى عليم عدي بالباء. وإظهار اسم الجلالة في قوله: والله بصير بالعباد لقصد استقلال الجملة لتكون كالمثل.

وقوله: الذين يقولون عطف بيان للذين اتقوا وصفهم بالتقوى وبالتوجه إلى الله تعالى بطلب

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٢/٣

المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، والجاري على". (١)

٦٥٢. ٦٥٢-"[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (٢٦) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (٢٧)

استئناف ابتدائي المقصود منه التعريض بأهل الكتاب بأن إعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوءة منهم، وانقراض الملك منهم، بتهديدهم وبإقامة الحجة عليهم في أنه لا عجب أن تنتقل النبوءة من بني إسرائيل إلى العرب، مع **الإيماء** إلى أن الشريعة الإسلامية شريعة مقارنة للسلطان والملك.

واللهم في كلام العرب خاص بنداء الله تعالى في الدعاء، ومعناه يا الله. ولما كثر حذف حرف النداء معه قال النحاة: إن الميم عوض من حرف النداء يريدون أن لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لما لم يقع إلا عند إرادة الدعاء صار غنيا عن جلب حرف النداء اختصارا، وليس المراد أن الميم تفيد النداء. والظاهر أن الميم علامة تنوين في اللغة المنقول منها كلمة (اللهم) من عبرانية أو قحطانية وأن أصلها لا هم مرادف إله.

ويدل على هذا أن العرب نطقوا به هكذا في غير النداء كقول الأعشى:

كدعوة من أبي رباح ... يسمعها اللهم الكبير

وأنهم نطقوا به كذلك مع النداء كقول أبي خراش الهذلي:

إني إذا ما حدث ألما ... أقول يا اللهم يا اللهما

وأنهم يقولون يا الله كثيرا. وقال جمهور النحاة: إن الميم عوض عن حرف النداء المحذوف وإنه تعويض غير قياسي: وإن ما وقع على خلاف ذلك شذوذ. وزعم الفراء أن اللهم مختزل من اسم الجلالة وجملة أصلها «يا الله أم» أي أقبل علينا بخير، وكل ذلك تكلف لا دليل عليه.".

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/٣

(١)

٦٥٣. ٦٥٣-"ومن يخرج الحي من الميت في سورة يونس [٣١] . وهذا رمز إلى ظهور الهدى والملك في أمة أمية، وظهور ضلال الكفر في أهل الكتابين، وزوال الملك من خلفهم يعد أن كان شعار أسلافهم، بقرينة افتتاح الكلام بقوله: اللهم مالك الملك إلخ.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف: «الميت» بتشديد التحتية. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب: بسكون التحتية وهما وجهان في لفظ الميت.

وقوله: وترزق من تشاء بغير حساب هو كالتذييل لذلك كله.

والرزق ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام والثمار كقوله: وجد عندها رزقا [آل عمران: ٣٧] وقوله: فليأتكم برزق منه [الكهف: ١٩] ، ويطلق على أعم من ذلك مما ينتفع به كما في قوله تعالى: يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب- ثم قال- إن هذا لرزقنا ما له من نفاد [ص: ٥١- ٥٤] وقوله: قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله ومن ثم سميت الدراهم والدنانير رزقا: لأن بها يعوض ما هو رزق، وفي هذا إيماء إلى بشارة للمسلمين بما أخبئ لهم من كنوز الممالك الفارسية والقيصرية وغيرها.

[٢٨]

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٨]

لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير (٢٨)

استئناف عقب به الآي المتقدمة، المتضمنة عداء المشركين للإسلام وأهله، وحسد اليهود لهم، وتوليهم عنه: من قوله: إن الذين كفروا لن تغني عنهم [آل عمران: ١١٦] إلى هنا.

فالمناسبة أن هذه كالنتيجة لما تقدمها:

نهى الله المؤمنين- بعد ما بين لهم بغي المخالفين وإعراضهم- أن يتخذوا الكفار أولياء من

(١) التحرير والتنوير ٢١٢/٣

دون المؤمنين لأن اتخاذهم أولياء- بعد أن سفه الآخرون دينهم وسفهوا أحلامهم في اتباعه- يعد ضعفا في الدين وتصويبا للمعتدين.". (١)

٦٥٤. ٦٥٤-"وهو ترهيب

- ثم بذكر مقابله في الترغيب بقوله: قل أأنبئكم بخير من ذلكم [آل عمران: ١٥] الآية

- ثم بتأييد ما عليه المسلمون بقوله: شهد الله أنه لا إله إلا هو [آل عمران: ١٨] الآية وفي ذلك تفصيل كثير.

- ثم جاء بطريق المجادلة بقوله: فإن حاجوك [آل عمران: ٢٠] الآية ثم بترهيب بغير استدلال صريح ولكن **بالإيماء** إلى الدليل وذلك قوله: إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق [آل عمران: ٢١]

- ثم بطريق التهديد والإنذار التعريضي بقوله: قل اللهم مالك الملك [آل عمران: ٢٦] الآيات.

- ثم أمر بالقطيعة في قوله: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء [آل عمران: ٢٨] .

- ثم انتقل إلى طريقة الترغيب في قوله: قل إن كنتم تحبون الله إلى قوله: الكافرين

- وختم بذكر عدم محبة الكافرين ردا للعجز على الصدر المتقدم في قوله: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم [آل عمران: ١٠] الآية ليكون نفي المحبة عن جميع الكافرين، نفيا عن هؤلاء الكافرين المعينين.

[٣٣، ٣٤]

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٣٤)

انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة بين التمهيد والمقصد، كطريقة التخلص، فهذا تخلص لمحاجة وفد نجران وقد ذكرناه في أول السورة، فابتدئ هنا بذكر آدم ونوح وهما أبوا

(١) التحرير والتنوير ٣/٢١٥

البشر أو أحدهما وذكر إبراهيم وهو أبو المقصودين بالتفضيل وبالخطاب. فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلا شذوذا من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوروبا واخترعوا نظرية تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهي نظرية فائلة.

وآدم اسم أبي البشر عند جميع أهل الأديان، وهو علم عليه وضعه لنفسه بإلهام من الله تعالى كما وضع مبدأ اللغة، ولا شك أن من أول ما يحتاج إليه هو وزوجه أن يعبر أحدهما للآخر، وظاهر القرآن أن الله أسماه بهذا الاسم من قبل خروجه من جنة عدن ولا يجوز أن يكون اسمه مشتقا من الأدمة، وهي اللون المخصوص لأن تسمية ذلك اللون بالأدمة خاص بكلام العرب فلعل العرب وضعوا اسم ذلك اللون أخذا من وصف لون آدم أبي البشر.". (١)

٦٥٥. ٦٥٥-"وقوله: وما كنت لديهم إيماء إلى خلو كتبهم عن بعض ذلك، وإلا لقال: وما كنت تتلو كتبهم مثل: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب» أي إنك تخبرهم عن أحوالهم كأنك كنت لديهم.

وقوله: إذ يلقون أقلامهم وهي الأقلام التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات: بأن يكتبوا عليها أسماء المقترعين أو أسماء الأشياء المقترع عليها، والناس يصيرون إلى القرعة عند انعدام ما يرجح الحق، فكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام وجعل اليهود الاقتراع بالأقلام التي يكتبون بها التوراة في المدراس رجاء أن تكون بركتها مرشدة إلى ما هو الخير. وليس هذا من شعار الإسلام وليس لإعمال القرعة في الإسلام إلا مواضع تمييز الحقوق المتساوية من كل الجهات وتفصيله في الفقه.

وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالة مريم حين ولدتها أمها حنة، إذ كانت يتيمة كما تقدم فحصل من هذا الامتنان إعلام بأن كفالة زكرياء مريم كانت بعد الاستقسام وفيه تنبيه على تنافسهم في كفالتها.

[٤٥، ٤٦]

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٤٥ إلى ٤٦]

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٢٩

إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (٤٦)
بدل اشتمال من جملة وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك [آل عمران: ٤٢] قصد منه التكرير لتكميل المقول بعد الجمل المعترضة. ولكونه بدلا لم يعطف على إذ قالت الأول.
وتقدم الكلام على يبشرك.
والكلمة مراد بها كلمة التكوين وهي تعلق القدرة التنجيزي كما
في حديث خلق الإنسان من قوله: «ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله»
إلخ.
ووصف عيسى بكلمة مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون الأسباب المعتادة.". (١)

٦٥٦. ٦٥٦-"عن توجه الإرادة بالتنجيز، فبتلك الكلمة كان آدم أيضا كلمة من الله ولكنه لم يوصف بذلك لأنه لم يقع احتياج إلى ذلك لفوات زمانه.
وإنما قال: فيكون ولم يقل فكان لاستحضار صورة تكونه، ولا يحمل المضارع في مثل هذا إلا على هذا المعنى، مثل قوله: الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا [فاطر: ٩] وحمله على غير هذا هنا لا وجه له.
وقوله: الحق من ربك خبر مبتدأ محذوف: أي هذا الحق. ومن ربك حال من الحق. والخطاب في فلا تكن من الممترين للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود التعريض بغيره، والمعرض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلاهية بسبب تحقق أن لا أب لعيسى.
[٦١]

[سورة آل عمران (٣) : آية ٦١]
فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا

---
(١) التحرير والتنوير ٣/٢٤٥

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين (٦١)

تفريع على قوله: الحق من ربك فلا تكن من الممترين لما فيه من **إيماء** إلى أن وفد نجران ممترون في هذا الذي بين الله لهم في هذه الآيات: أي فإن استمروا على محاجتهم إياك مكابرة في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة.

ذلك أن تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبينت لهم، فلم يبق أوضح مما حاججتهم به فعلمت أنهم إنما يحاجونك عن مكابرة، وقلة يقين، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا.

وتعالوا اسم فعل لطلب القدوم، وهو في الأصل أمر من تعالى يتعالى إذا قصد العلو، فكأنهم أرادوا به في الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو، ثم شاع". (١)

٦٥٧. ٦٥٧-"نصرانيا وكان لا يعبد إلا الله، فخرج من عنده فلقي عالما من النصارى فقاوله مثل مقاولة اليهودي، غير أن النصراني قال: أن تأخذ بنصيبك من لعنة الله، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم، فلم يزل رافعا يديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد أني على دين إبراهيم وهذا أمنية منه لا تصادف الواقع. وفي «صحيح البخاري» ، عن أسماء بنت أبي بكر: قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: «يا معشر قريش ليس منكم على دين إبراهيم غيري» وفيه أن النبيء صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبيء صلى الله عليه وسلم الوحي فقدمت إلى النبيء صلى الله عليه وسلم سفرة فأبى زيد بن عمرو أن يأكل منها وقال: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وهذا توهم منه أن النبيء صلى الله عليه وسلم يفعل كما تفعل قريش. وإن زيدا كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء أنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله.

واسم الإشارة في قوله: وهذا النبي مستعمل مجازا في المشتهر بوصف بين المخاطبين كقوله في الحديث: «فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار»

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٤/٣

فالإشارة استعملت في استحضار الدواب المعروفة بالتساقط على النار عند وقودها، والنبيء ليس بمشاهد للمخاطبين بالآية، حينئذ، ولا قصدت الإشارة إلى ذاته. ويجوز أن تكون الإشارة مستعملة في حضور التكلم باعتبار كون النبيء هو الناطق بهذا الكلام، فهو كقول الشاعر:

«نجوت وهذا تحملين طليق» أي والمتكلم الذي تحملينه. والاسم الواقع بعد اسم الإشارة، بدلا منه، هو الذي يعين جهة الإشارة ما هي. وعطف النبيء على الذين اتبعوا إبراهيم للاهتمام به وفيه **إيماء** إلى أن متابعته إبراهيم عليه السلام ليست متابعة عامة فكون الإسلام من الحنيفية أنه موافق لها في أصولها. والمراد بالذين آمنوا المسلمون. فالمقصود معناه اللقبي، فإن وصف الذين آمنوا صار لقبا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك كثر خطابهم في القرآن بيا أيها الذين آمنوا.

ووجه كون هذا النبيء صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا أولى الناس بإبراهيم، مثل الذين اتبعوه،

أنهم قد تخلقوا بأصول شرعه، وعرفوا قدره، وكانوا له لسان صدق دائبا بذكره،". (١)

٦٥٨. ٦٥٨-"أغراضها اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضا عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

وتهديدهم على استهزائهم.

وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

وصفة يوم الحشر إنذارا للذين جحدوا به **والإيماء** إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٧/٣

يوم البعث.
وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس.
[١- ٣]

[سورة النبإ (٧٨) : الآيات ١ إلى ٣]
بسم الله الرحمن الرحيم
عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣)
افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم، افتتاح تشويق ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن.
وإذ كان هذا الافتتاح مؤذنا بعظيم أمر كان مؤذنا بالتصدي لقول فصل فيه، ولما كان في ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضهم يومئذ يجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال.". (١)

٦٥٩. ٦٥٩-"الابتداء بخلق الأرض في الاستدلال فهي أن من الأرض يخرج الناس للبعث فكذلك ثني باستدلال بخلق الناس الأول لأنهم الذين سيعاد خلقهم يوم البعث وهم الذين يخرجون من الأرض، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى:
ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا [مريم: ٦٦، ٦٧] .
وانتصب أزواجا على الحال من ضمير الخطاب في خلقناكم لأن المقصود الاستدلال بخلق الناس وبكون الناس أزواجا، فلما كان المناسب لفعل خلقنا أن يتعدى إلى الذوات جيء بمفعوله ضمير ذوات الناس، ولما كان المناسب لكونهم أزواجا أن يساق مساق إيجاد الأحوال جيء به حالا من ضمير الخطاب في خلقناكم، ولو صرح له بفعل لقيل: وخلقناكم وجعلناكم أزواجا، على نحو ما تقدم في قوله: ألم نجعل الأرض مهادا [النبأ: ٦] وما يأتي من قوله: وجعلنا نومكم سباتا [النبأ: ٩] .

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٣٠

والأزواج: جمع زوج وهو اسم للعدد الذي يكرر الواحد تكريرة واحدة وقد وصف به كما يوصف بأسماء العدد في نحو قول لبيد:

حتى إذا سلخا جمادى ستة ثم غلب الزواج على كل من الذكر وأنثاه من الإنسان والحيوان، فقوله: أزواجا أفاد أن يكون الذكر زوجا للأنثى والعكس، فالذكر زوج لأنثاه والأنثى زوج لذكرها، وتقدم ذلك عند قوله تعالى: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة في سورة البقرة [٣٥] .

وفي قوله: وخلقناكم أزواجا **إيماء** إلى ما في ذلك الخلق من حكمة إيجاد قوة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى وهو مناط **الإيماء** إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد فإن القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداء بقوة التناسل قادر على إيجاد مثله بمثل تلك الدقة أو أدق.

وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته، وامتنان على الناس بأنه خلقهم، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجا". (١)

٦٦٠. ٦٦٠-"والمعاش: يطلق مصدر عاش إذا حيي، فالمعاش: الحياة ويطلق اسما لما به عيش الإنسان من طعام وشراب على غير قياس.

والمعنيان صالحان للآية إذ يكون المعنى: وجعلنا النهار حياة لكم، شبهت اليقظة فيه الحياة، أو يكون المعنى وجعلنا النهار معيشة لكم، والإخبار عنه بأنه معيشة مجاز أيضا بعلاقة السببية لأن النهار سبب للعمل الذي هو سبب لحصول المعيشة وذلك يقابل جعل الليل سباتا بمعنى الانقطاع عن العمل، قال تعالى: ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله [القصص: ٧٣] .

ففي مقابلة السبات بالمعاش على هذين الاعتبارين مطابقتان من المحسنات.

[١٢]

[سورة النبإ (٧٨) : آية ١٢]

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٠

وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)

ناسب بعد ذكر الليل والنهار وهما من مظاهر الأفق المسمى سماء أن يتبع ذلك وما سبقه من خلق العالم السفلي بذكر خلق العوالم العلوية.

والبناء: جعل الجاعل أو صنع الصانع بيتا أو قصرا من حجارة وطين أو من أثواب، أو من أدم على وجه الأرض، وهو مصدر بنى، فبيت المدر مبني، والخيمة مبنية، والطراف والقبة من الأدم مبنيان. والبناء يستلزم الإعلاء على الأرض فليس الحفر بناء ولا نقر الصخور في الجبال بناء. قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

فذكر الدعائم وهي من أجزاء الخيمة.

واستعير فعل بنينا في هذه الآية لمعنى: خلقنا ما هو عال فوق الناس، لأن تكوينه عاليا يشبه البناء.

ولذلك كان قوله: فوقكم **إيماء** إلى وجه الشبه في إطلاق فعل بنينا وليس

ذلك تجريدا للاستعارة لأن الفوقية لا تختص بالمبنيات، مع ما فيه من تنبيه النفوس للاعتبار والنظر في تلك السبع الشداد.

والمراد بالسبع الشداد: السماوات، فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف". (١)

٦٦١. ٦٦١-"ذكر: أعصرت الجارية، أي حان وقت أن تصير تحيض، وذكر ابن قتيبة في «أدب الكاتب» : أركب المهر، إذا حان أن يركب، وأقطف الكرم، إذا حان أن يقطف. ثم ذكر: أقطف القوم: حان أن يقطفوا كرومهم، وأنتجت الخيل: حان وقت نتاجها.

وفي تفسير ابن عطية عند قوله تعالى: ألم تر أن الله يزجي سحابا الآية من سورة النور [٤٣] ، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاما جاء بالريح عصر بعضه بعضا فيخرج الودق منه، ومن ذلك قوله: وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ومن

ذلك قول حسان:

كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠

أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به، أي هذه من عصير العنب وهذه من عصير السحاب، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن العنبري (١) للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان اهـ.

والثجاج: المنصب بقوة وهو فعال من ثج القاصر إذا انصب، يقال: ثج الماء، إذا انصب بقوة، فهو فعل قاصر. وقد يسند الثج إلى السحاب، يقال: ثج السحاب يثج بضم الثاء، إذا صب الماء، فهو حينئذ فعل متعد.

ووصف الماء هنا بالثجاج للامتنان.

وقد بينت حكمة إنزال المطر من السحاب بأن الله جعله لإنبات النبات من الأرض جمعا بين الامتنان **والإيماء** إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث وشكر الصانع.

وجيء بفعل لنخرج دون نحو: لننبت، لأن المقصود **الإيماء** إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام ألا ترى أنه لما كان المقصد الأول من آية سورة (ق) هو الامتنان جيء بفعل «أنبتنا» في قوله:

---

(١) ولي قضاء البصرة سنة ١٥٨ وعزل سنة ١٦٥ وتوفي سنة ١٦٨. وهو الذي ينسب إليه القول بأن المجتهد لا يأثم ولو في أصول الدين إذا لم يخرج باجتهاده عن الإسلام.". (١)

٦٦٢. ٦٦٢-"ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات [ق: ٩] الآية. ثم أتبع ثانيا بالاستدلال به على البعث بقوله: كذلك الخروج [ق: ١١] . والبعث خروج من الأرض قال تعالى: ومنها نخرجكم تارة أخرى في سورة طه [٥٥] .

والحب: اسم جمع حبة وهي البرزة. والمراد بالحب هنا: الحب المقتات للناس مثل: الحنطة، والشعير، والسلت، والذرة، والأرز، والقطنية، وهي الحبوب التي هي ثمرة السنابل ونحوها.

والنبات أصله اسم مصدر نبت الزرع، قال تعالى: والله أنبتكم من الأرض نباتا [نوح: ١٧] وأطلق النبات على النبات من إطلاق المصدر على الفاعل وأصله المبالغة ثم شاع استعماله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٦

فنسيت المبالغة.

والمراد به هنا: النبات الذي لا يؤكل حبه بل الذي ينتفع بذاته وهو ما تأكله الأنعام والدواب مثل التبن والقرط والفصفصة والحشيش وغير ذلك.

وجعلت الجنات مفعولا ل (تخرج) على تقدير مضاف، أي نخل جنات أو شجر جنات، لأن الجنات جمع جنة وهي القطعة من الأرض المغروسة نخلا، أو نخلا وكرما، أو بجميع الشجر المثمر مثل التين والرمان كما جاء في مواضع من القرآن، وهي استعمالات مختلفة باختلاف المنابت.

ووجه إيثار لفظ جنات أن فيه **إيماء** إلى إتمام المنة لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق لما فيها من التنعم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر، ولذلك أتبعت بوصف ألفافا لأنه يزيدها حسنا، وإن كان الفلاحون عندنا يفضلون التباعد بين الأشجار لأن ذلك أوفر لكمية الثمار لأن تباعدها أسعد لها بتخلل الهواء وشعاع الشمس، لكن مساق الآية هنا الامتنان بما فيه نعيم الناس.

وألفاف: اسم جمع لا واحد له من لفظه وهو مثل أوزاع وأخياف، أي كل جنة ملتفة، أي ملتفة الشجر بعضه ببعض.

فوصف الجنات بألفاف مبني على المجاز العقلي لأن الالتفاف في أشجارها ولكن لما كانت الأشجار لا يلتف بعضها على بعض في الغالب إلا إذا جمعتها جنة". (١)

٦٦٣. ٦٦٣-"أسند ألفاف إلى جنات بطريق الوصف. ولعله من مبتكرات القرآن إذ لم أر شاهدا عليه من كلام العرب قبل القرآن.

وقيل: ألفاف جمع لف بكسر اللام بوزن جذع، أي كل جنة منها لف بكسر اللام ولم يأتوا بشاهد عليه. وذكر في «الكشاف» أن صاحب «الإقليد» (١) ذكر بيتا أنشده الحسن بن علي الطوسي (٢) ولم يعزه إلى قائل. وفي «الكشاف» زعم ابن قتيبة (٣) أنه لفاء ولف ثم ألفاف (أي أن ألفافا جمع الجمع) قال: «وما أظنه واجدا له نظيرا» أي لا يجمع فعل جمعا على أفعال، أي لا نظير له إذ لا يقال خضر وأخضار وحمر وأحمار. يريد أنه لا

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٣٠

يخرج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد.

فكان أظهر الوجوه أن ألفافا اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت **الإيماء** إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار. ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا وذلك من رد العجز على الصدر.

[١٧- ١٨]

---

(١) الإقليد اسم تفسير كذا قال القزويني في «الكشف» على «الكشاف» ورأيت في طرة نسخة فيه أن الإقليد لأبي الفتح الهمذاني ولم أعثر على ترجمة مؤلفه.

(٢) الحسن بن علي الطوسي لعله الوزير الملقب نظام الملك والبيت هو:

جنة لف وعيش مغدق ... وندامى كلهم بيض زهر

(٣) لعله ذكر ذلك في غير كتاب أدب الكتاب فإني لم أجده فيه. [.....]".(١)

٦٦٤. ٦٦٤-"[سورة النبإ (٧٨) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

إن يوم الفصل كان ميقاتا (١٧) يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا (١٨)

هذا بيان لما أجمله قوله: عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون [النبأ: ٢- ٣] وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة وهيأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٠

لنخرج به حبا ونباتا [النبأ: ١٥] إلخ، لأن ذلك شبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى: فأنبتنا به جنات وحب الحصيد إلى قوله: كذلك الخروج في سورة ق [٩- ١١] .

وهو استئناف بياني أعقب به قوله: لنخرج به حبا ونباتا [النبأ: ١٥] الآية فيما قصد به من **الإيماء** إلى دليل البعث.

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.

ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء.

والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني المتشابهة والملتبسة فلذلك أطلق على الحكم، وقد يضاف إليه فيقال: فصل القضاء، أي نوع من الفصل لأن القضاء يميز الحق من الظلم.

فالجزاء على الأعمال فصل بين الناس بعضهم من بعض.

وأوثر التعبير عنه بيوم الفصل لإثبات شيئين:

أحدهما: أنه بين ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء وذلك فصل بين الصدق وكذبهم.

وثانيهما: القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اعتدى به بعضهم على بعض.

وإقحام فعل كان لإفادة أن توقيته متأصل في علم الله لما اقتضته حكمته تعالى التي هو أعلم بها وأن استعجالهم به لا يقدمه على ميقاته.". (١)

٦٦٥. ٦٦٥-"مرصادا أمر مقدر لها كما تقدم في قوله: إن يوم الفصل كان ميقاتا [النبأ: ١٧] . وفيه **إيماء** إلى سعة علم الله تعالى حيث أعد في أزله عقابا للطاغين.

ومآبا: مكان الأوب وهو الرجوع، أطلق على المقر والمسكن إطلاقا أصله كناية ثم شاع استعماله فصار اسما للموضع الذي يستقر به المرء.

ونصب مآبا على الحال من جهنم أو على أنه خبر ثان لفعل كانت أو على أنه بدل اشتمال من مرصادا لأن الرصد يشتمل على أشياء مقصودة منها أن يكونوا صائرين إلى جهنم.

وللطاغين متعلق ب مآبا قدم عليه لإدخال الروع على المشركين الذين بشركهم طغوا على

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٩

الله، وهذا أحسن كما علمت آنفا. ولك أن تجعله متعلقا ب مرصادا أو متنازعا فيه بين مرصادا ومآبا كما علمت آنفا.

والطغيان: تجاوز الحد في عدم الاكتراث بحق الغير والكبر، والتعريف فيه للعهد فالمراد به المشركون المخاطبون بقوله: فتأتون أفواجا [النبأ: ١٨] فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد **الإيماء** إلى سبب جعل جهنم لهم لأن الشرك أقصى الطغيان إذ المشركون بالله أعرضوا عن عبادته ومتكبرون على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أنفوا من قبول دعوته وهم المقصود من معظم ما في هذه السورة كما يصرح به قوله: إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا [النبأ: ٢٧، ٢٨] . هذا وإن المسلمين المستخفين بحقوق الله، أو المعتدين على الناس بغير حق، واحتقارا لا لمجرد غلبة الشهوة لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر.

واللابث: المقيم بالمكان. وانتصب لابثين على الحال من الطاغين.

وقرأه الجمهور لابثين على صيغة جمع لابث. وقرأه حمزة وروح عن يعقوب لبثين على صيغة جمع (لبث) من أمثلة المبالغة مثل حذر على خلاف فيه، أو من الصفة المشبهة فتقتضي أن اللبث شأنه كالذي يجثم في مكان لا ينفك عنه.

وأحقاب: جمع حقب بضمتين، وهو زمن طويل نحو الثمانين سنة، وتقدم في قوله: أو أمضي حقبا في سورة الكهف". (١)

٦٦٦. ٦٦٦-"العربدة من هذيان، وكذب وسباب، واللغو والكذب من العيوب التي تعرض لمن تدب الخمر في رؤوسهم، أي فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قبل تحريم الخمر ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا.

وكان العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، قال عمارة بن الوليد:

ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا ... ثياب الندامى بينهم كالغنائم

ولكننا يا أم عمرو نديمنا ... بمنزلة الريان ليس بعائم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦

وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

ويجوز أن يعود ضمير فيها إلى مفازا باعتبار تأويله بالجنة لوقوعه في مقابلة جهنم من قوله: إن جهنم كانت مرصادا [النبأ: ٢١] أو لأنه أبدل حدائق من مفازا وهذا المعنى نشأ عن أسلوب نظم الكلام حيث قدم حدائق وأعنابا إلخ، وأخر وكأسا دهاقا حتى إذا جاء ضمير (فيها) بعد ذلك جاز إرجاعه إلى الكأس وإلى المفاز كما علمت. وهذا من بديع الإيجاز مع وفرة المعاني مما عددناه من وجوه الإعجاز من جانب الأسلوب في المقدمة العاشرة من هذا التفسير، أي لا يسمعون في الجنة الكلام السافل ولا الكذب، فلما أحاط بأهل جهنم أشد الأذى بجميع حواسهم من جراء حرق النار وسقيهم الحميم والغساق لينال العذاب بواطنهم كما نال ظاهر أجسادهم، كذلك نفى عن أهل الجنة أقل الأذى وهو أذى سماع ما يكرهه الناس فإن ذلك أقل الأذى.

وكني عن انتفاء اللغو والكذاب عن شاربي خمر الجنة بأنهم لا يسمعون اللغو والكذاب فيها لأنه لو كان فيها لغو وكذب لسمعوه وهذا من باب قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره أي لا منار به فيهتدى به، وهو نوع من لطيف الكناية، والذي في الآية أحسن مما وقع في بيت امرئ القيس ونحوه لأن فيه **إيماء** إلى أن أهل الجنة منزهة أسماعهم". (١)

٦٦٧. ٦٦٧-"عن سقط القول وسفل الكلام كما في قوله في سورة الواقعة [٢٥] لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما واللغو: الكلام الباطل والهذيان وسقط القول الذي لا يورد عن روية ولا تفكير.

والكذاب: تقدم معناه آنفا.

وقرأ الجمهور: كذابا هنا مشددا، وقرأه الكسائي هنا بتخفيف الذال، وانتصب جزاء على الحال من مفازا وأصل الجزاء مصدر جزى، ويطلق على المجازى به من إطلاق المصدر على المفعول، فالجزاء هنا المجازى به وهو الحدائق والجنات والكواعب والكأس.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٦

والجزاء: إعطاء شيء عوضا على عمل. ويجوز أن يجعل الجزاء على أصل معناه المصدري وينتصب على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعل مقدر. والتقدير: جزينا المتقين.

وإضافة رب إلى ضمير المخاطب مرادا به النبيء صلى الله عليه وسلم **للإيماء** إلى أن جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبيء صلى الله عليه وسلم لأن إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل إيمانهم به وعملهم بما هداهم إليه.

ومن ابتدائية، أي صادرا من لدن الله، وذلك تنويه بكرم هذا الجزاء وعظم شأنه.

ووصف الجزاء بعطاء وهو اسم لم يعطى، أي يتفضل به بدون عوض للإشارة إلى أن ما جوزوا به أوفر مما عملوه، فكان ما ذكر للمتقين من المفاز وما فيه جزاء شكرا لهم وعطاء كرما من الله تعالى وكرامة لهذه الأمة إذ جعل ثوابها أضعافا.

وحسابا: اسم مصدر حسب بفتح السين يحسب بضمها، إذا عد أشياء وجميع ما تصرف من مادة حسب متفرع عن معنى العد وتقدير المقدار، فوقع حسابا صفة جزاء، أي هو جزاء كثير مقدر على أعمالهم.

والتنوين فيه للتكثير، والوصف باسم المصدر للمبالغة وهو بمعنى المفعول،". (١)

٦٦٨. ٦٦٨-"ل ربك من قوله: جزاء من ربك [النبأ: ٣٦] والرحمن نعت ثان.

والرب: المالك المتصرف بالتدبير ورعي الرفق والرحمة، والمراد بالسماوات والأرض وما بينهما مسماها مع ما فيها من الموجودات لأن اسم المكان قد يراد به ساكنه كما في قوله تعالى: فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها في سورة الحج [٤٥] ، فإن الظلم من صفات سكان القرية لا صفة لذاتها، والخواء على عروشها من أحوال ذات القرية لا من أحوال سكانها، فكان إطلاق القرية مرادا به كلا المعنيين.

والمراد بما بين السماوات والأرض: ما على الأرض من كائنات وما في السماوات من الملائكة وما لا يعلمه بالتفصيل إلا الله وما في الجو من المكونات حية وغيرها من أسحبة وأمطار وموجودات سابحة في الهواء.

وما موصولة وهي من صيغ العموم، وقد استفيد من ذلك تعميم ربوبيته على جميع

(١) التحرير والتنوير ٤٧/٣٠

المصنوعات.

وأتبع وصف رب السماوات بذكر اسم من أسمائه الحسنى، وهو اسم الرحمن وخص بالذكر دون غيره من الأسماء الحسنى لأن في معناه **إيماء** إلى أن ما يفيضه من خير على المتقين في الجنة هو عطاء رحمان بهم.

وفي ذكر هذه الصفة الجليلة تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسم الرحمن الوارد في القرآن كما حكى الله عنهم بقوله: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] .

لا يملكون منه خطابا يجوز أن تكون هذه الجملة حالا من ما بينهما لأن ما بين السماوات والأرض يشمل ما في ذلك من المخلوقات العاقلة، أو المزعوم لها العقل مثل الأصنام، فيتوهم أن من تلك المخلوقات من يستطيع خطاب الله ومراجعته.

ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا لإبطال مزاعم المشركين أو للاحتراس لدفع توهم أن ما تشعر به صلة رب من الرفق بالمربوبين في تدبير شؤونهم يسيغ إقدامهم على خطاب الرب.". (١)

٦٦٩. ٦٦٩-"أن الله ارتضى قبول الشفاعة فيه وهم يعلمون ذلك بإلهام هو من قبيل الوحي لأن الإلهام في ذلك العالم لا يعتريه الخطأ.

وجملة وقال صوابا يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول، أي وقد قال المأذون له في الكلام صوابا، أي بإذن الله له في الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضي الله.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة أذن له الرحمن، أي وإلا من قال صوابا فعلم أن من لا يقول الصواب لا يؤذن له.

وفعل وقال صوابا مستعمل في معنى المضارع، أي ويقول صوابا، فعبر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك، أي في علم الله.

وإطلاق صفة الرحمن على مقام الجلالة **إيماء** إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار.

[٣٩]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩/٣٠

[سورة النبإ (٧٨) : آية ٣٩]
ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩)
استئناف ابتدائي كالفذلكة لما تقدم من وعيد ووعد، إنذار وتبشير، سيق مساق التنويه ب يوم الفصل [النبأ: ١٧] . الذي ابتدئ الكلام عليه من قوله: إن يوم الفصل كان ميقاتا [النبأ: ١٧] . والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب وهو نتيجة أعمال الناس من يوم وجود الإنسان في الأرض.
فوصف اليوم بالحق يجوز أن يراد به الثابت الواقع كما في قوله تعالى: وإن الدين لواقع [الذاريات: ٦] قوله آنفا: إن يوم الفصل كان ميقاتا، فيكون الحق بمعنى الثابت مثل ما في قوله تعالى: واقترب الوعد الحق [الأنبياء: ٩٧] .
ويجوز أن يراد بالحق ما قابل الباطل، أي العدل وفصل القضاء فيكون وصف اليوم به على وجه المجاز العقلي إذ الحق يقع فيه واليوم ظرف له قال تعالى: يوم القيامة يفصل بينكم [الممتحنة: ٣] .". (١)

٦٧٠. ٦٧٠-"والتدبير: جولان الفكر في عواقب الأشياء وبإجراء الأعمال على ما يليق بما توجد له فإن كانت السابحات جماعات الملائكة، فمعنى تدبيرها تنفيذ ما نيط بعهدتها على أكمل ما أذنت به فعبر عن ذلك بالتدبير للأمور لأنه يشبه فعل المدبر المتثبت.
وإن كانت السابحات خيل الغزاة فالمراد بالتدبير: تدبير مكائد الحرب من كر، وفر، وغارة، وقتل، وأسر، ولحاق للفارين، أو ثبات بالمكان. وإسناد التدبير إلى السابحات على هذا الوجه مجاز عقلي لأن التدبير للفرسان وإنما الخيل وسائل لتنفيذ التدبير، كما قال تعالى: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق [الحج: ٢٧] ، فأسند الإتيان إلى ضمير كل ضامر من الإبل لأن إتيان الحجيج من الفجاج العميقة يكون بسير الإبل.
وفي هذا المجاز **إيماء** إلى حذق الخيل وسرعة فهمها مقاصد فرسانها حتى كأنها هي المدبرة لما دبره فرسانها.

---
(١) التحرير والتنوير ٥٣/٣٠

والأمر: الشأن والغرض المهم وتنوينه للتعظيم، وإفراده لإرادة الجنس، أي أمورا.
وينتظم من مجموع صفات النازعات، والناشطات، والسابحات، إذا فهم منها جماعات الرماة والجمالة والفرسان أن يكون إشارة إلى أصناف المقاتلين من مشاة وهم الرماة بالقسي، وفرسان على الخيل وكانت الرماة تمشي قدام الفرسان تنضح عنهم بالنبال حتى يبلغوا إلى مكان الملحمة. قال أنيف بن زبان الطائي:
وتحت نحور الخيل خرشف رجلة ... تتاح لغرات القلوب نبالها
ولتحمل الآية لهذه الاحتمالات كانت تعريضا بتهديد المشركين بحرب تشن عليهم
وهي غزوة فتح مكة أو غزوة بدر مثل سورة (والعاديات) وأضرابها، وهي من دلائل نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم إذ كانت هذه التهديدات صريحها وتعريضها في مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة والمسلمون في ضعف فحصل من هذا القسم تعريض بعذاب في الدنيا.
وجملة يوم ترجف الراجفة إلى خاشعة جواب القسم وصريح الكلام". (١)

٦٧١. ٦٧١-"وتأكيد الخبر ب إن ولام الابتداء لتنزيل السامعين الذين سيقت لهم القصة منزلة من ينكر ما فيها من المواعظ لعدم جريهم على الاعتبار والاتعاظ بما فيها من المواعظ.
[٢٧- ٢٩]

[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ٢٧ إلى ٢٩]
أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (٢٧) رفع سمكها فسواها (٢٨) وأغطش ليلها وأخرج ضحاها (٢٩)
انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث وهي قوله: أإنا لمردودون في الحافرة [النازعات: ١٠] وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم إحالة البعث. وإذ قد فرضوا استحالة عود الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا: أإنا لمردودون [النازعات: ١٠] جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٥

فقيل لهم: أأنتم أشد خلقا أم السماء، فلذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل: آلإنسان أشد خلقا، وما هم إلا من الإنسان، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفا بضمائر الغيبة من قوله: يقولون إلى قوله: فإذا هم بالساهرة [النازعات: ١٠- ١٤] ، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب.

فالجملة مستأنفة لقصد الجواب عن شبهتهم لأن حكاية شبهتهم ب يقولون أإنا إلى آخره، تقتضي ترقب جواب عن ذلك القول كما تقدم **الإيماء** إليه عند قوله: يقولون أإنا لمردودون [النازعات: ١٠] .

والاستفهام تقريري، والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى: لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون [غافر: ٥٧] ، ذلك أن نظرهم العقلي غيمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة.". (١)

٦٧٢. ٦٧٢-"وتعريف النفس في قوله: ونهى النفس هو مثل التعريف في المأوى وفي تعريف «أصحاب الجحيم» و «أصحاب الجنة» بطريق الموصول **إيماء** إلى أن الصلتين علتان في استحقاق ذلك المأوى.

[٤٢- ٤٥]

[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ٤٢ إلى ٤٥]

يسئلونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) فيم أنت من ذكراها (٤٣) إلى ربك منتهاها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشاها (٤٥)

استئناف بياني منشؤه أن المشركين كانوا يسألون عن وقت حلول الساعة التي يتوعدهم بها

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٨٣

النبيء صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله عنهم غير مرة في القرآن كقوله: ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] .

وكان سؤالهم استهزاء واستخفافا لأنهم عقدوا قلوبهم على استحالة وقوع الساعة وربما طلبوا التعجيل بوقوعها وأوهموا أنفسهم وأشياعهم أن تأخر وقوعها دليل على اليأس منها لأنهم يتوهمون أنهم إذا فعلوا ذلك مع الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان صادقا لحمي غضب الله مرسله سبحانه فبادر بإراءتهم العذاب وهم يتوهمون شؤون الخالق كشؤون الناس إذا غضب أحدهم عجل بالانتقام طيشا وحنقا قال تعالى: لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا [الكهف: ٥٨] .

فلا جرم لما قضي حق الاستدلال على إمكان البعث بإقامة الدليل وضرب الأمثال، وعرض بعقاب الذين استحقوا بها في قوله: فإذا جاءت الطامة الكبرى [النازعات: ٣٤] ، كان ذلك مثارا لسؤالهم أن يقولوا: هل لمجيء هذه الطامة الكبرى وقت معلوم؟ فكان الحال مقتضيا هذا الاستئناف البياني قضاء لحق المقام وجوابا عن سابق الكلام.

فضمير «يسألون» عائد إلى المشركين أصحاب القلوب الواجفة والذين قالوا: أإنا لمردودون في الحافرة [النازعات: ١٠] ."، (١)

٦٧٣. ٦٧٣-"قد يخالف ما في علم الله، وأن الله لا يقر رسوله صلى الله عليه وسلم على ما فيه مخالفة لما أراده الله في نفس الأمر.

ونظير هذه القضية قضية أسرى بدر التي حدثت بعد سنين من نزول هذه الآية والموقف فيهما متماثل.

وفي قوله تعالى: وما يدريك لعله يزكى [عبس: ٣] إيماء إلى عذر النبيء صلى الله عليه وسلم في

تأخيره إرشاد ابن أم مكتوم لما علمت من أنه يستعمل في التنبيه على أمر مغفول عنه، والمعنى: لعله يزكى تزكية عظيمة كانت نفسه متهيئة لها ساعتئذ إذ جاء مسترشدا حريصا، وهذه حالة خفية.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/٣٠

وكذلك عذره في الحرص على إرشاد المشرك بقوله: وما عليك ألا يزكى [عبس: ٧] إذ كان النبيء صلى الله عليه وسلم يخشى تبعة من فوات إيمان المشرك بسبب قطع المحاورة معه والإقبال على استجابة المؤمن المسترشد.

فإن قال قائل: فلما ذا لم يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم.

قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبين غفلة، أو إشعار بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تعطش ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر بين المسلمين وليحصل للنبيء صلى الله عليه وسلم مزية كلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا المهيع من علي الاجتهاد لتكون نفسه غير غافلة عن مثله وليتأسى به علماء أمته وحكامها وولاة أمورها.

ونظير هذا ما ضربه الله لموسى عليه السلام من المثل في ملاقاة الخضر، وما جرى من المحاورة بينهما، وقول الخضر لموسى: وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا [الكهف: ٦٨] ثم قوله له: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا [الكهف: ٨٢] . وقد سبق مثله في الشرائع السابقة كقوله في قصة نوح: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح [هود: ٤٦] وقوله لإبراهيم: لا ينال عهدي الظالمين [البقرة: ١٢٤] .

هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلا وتفصيلا، وهو بناء على أساس". (١)

٦٧٤. ٦٧٤-"فذكر فعل خلقه الثاني من أسلوب المساواة ليس بإيجاز، وليس بإطناب.

والنطفة: الماء القليل، وهي فعلة بمعنى مفعولة كقولهم: قبضة حب، وغرفة ماء.

وغلب إطلاق النطفة على الماء الذي منه التناسل، فذكرت النطفة لتعين ذكرها لأنها مادة خلق الحيوان للدلالة على أن صنع الله بديع فإمكان البعث حاصل، وليس في ذكر النطفة هنا إيماء إلى تحقير أصل نشأة الإنسان لأن قصد ذلك محل نظر، على أن المقام هنا للدلالة على خلق عظيم وليس مقام زجر المتكبر.

وفرع على فعل خلقه فعل فقدره بفاء التفريع لأن التقدير هنا إيجاد الشيء على مقدار

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٣٠

مضبوط منظم كقوله تعالى: وخلق كل شيء فقدره تقديرا [الفرقان: ٢] أي جعل التقدير من آثار الخلق لأنه خلقه متهيئا للنماء وما يلابسه من العقل والتصرف وتمكينه من النظر بعقله، والأعمال التي يريد إتيانها وذلك حاصل مع خلقه مدرجا مفرعا.

وهذا التفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان في خلال الاستدلال.

وحرف ثم من قوله: ثم السبيل يسره للتراخي الرتبي لأن تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدلالة على بديع صنع الله لأنه أثر العقل وهو أعظم ما في خلق الإنسان وهو أقوى في المنة.

والسبيل: الطريق، وهو هنا مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيها للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي تشبيه المحسوس بالمعقول.

ويجوز أن يكون مستعارا لمسقط المولود من بطن أمه فقد أطلق على ذلك الممر اسم السبيل في قولهم: «السبيلان» فيكون هذا من استعمال اللفظ في مجازيه. وفيه مناسبة لقوله بعده: ثم أماته فأقبره، ف أماته مقابل خلقه و (أقبره) مقابل ثم السبيل يسره لأن الإقبار إدخال في الأرض وهو ضد خروج المولود إلى الأرض.

والتيسير: التسهيل، والسبيل منصوب بفعل مضمر على طريق". (١)

٦٧٥. ٦٧٥-"والإغناء: جعل الغير غنيا، أي غير محتاج لشيء في غرضه. وأصل الإغناء والغنى:

حصول النافع المحتاج إليه، قال تعالى: وما أغني عنكم من الله من شيء [يوسف: ٦٧]

وقال: ما أغنى عني ماليه [الحاقة: ٢٨] . وقد استعمل هنا في معنى الإشغال والإشغال أعم.

فاستعمل الإغناء الذي هو نفع في معنى الإشغال الأعم على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة إيماء إلى أن المؤمنين يشغلهم عن قرابتهم المشركين فرط النعيم ورفع الدرجات كما دل عليه قوله عقبه: وجوه يومئذ مسفرة إلى آخر السورة.

وجملة: وجوه يومئذ مسفرة جواب (إذا) ، أي إذا جاءت الصاخة كان الناس صنفين صنف وجوههم مسفرة وصنف وجوههم مغبرة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/٣٠

وقدم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في سورة النازعات [٣٧] فأما من طغى ثم قوله: وأما من خاف مقام ربه [النازعات: ٤٠] إلى آخره لأن هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين فكان حظ الفريقين مقصودا مسوقا إليه الكلام وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك من قوله: وما يدريك لعله يزكى [عبس: ٣] إلى آخره، ثم قوله: أما من استغنى فأنت له تصدى [عبس: ٥، ٦] .

وأما سورة النازعات فقد بنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة [النازعات: ٦- ٨] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب.

وتنكير وجوه الأول والثاني للتنويع، وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ.

وإعادة يومئذ لتأكيد الربط بين الشرط وجوابه ولطول الفصل بينهما والتقدير:

وجوه مسفرة يوم يفر المرء من أخيه إلى آخره.

وقد أغنت إعادة يومئذ عن ربط الجواب بالفاء.

والمسفرة ذات الإسفار، والإسفار النور والضياء يقال: أسفر الصبح، إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر، أي وجوه متهللة فرحا وعليها أثر النعيم.". (١)

٦٧٦. ٦٧٦-"على الأرض فيهلك الناس والأنعام. وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس وانكدار النجوم.

والوحوش: جمع وحش وهو الحيوان البري غير المتأنس بالناس.

وحشرها: جمعها في مكان واحد، أي مكان من الأرض عند اقتراب فناء العالم فقد يكون سبب حشرها طوفانا يغمر الأرض من فيضان البحار فكلما غمر جزءا من الأرض فرت وحوشه حتى تجتمع في مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك، ويشعر بهذا عطف وإذا البحار سجرت عليه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٣٠

وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش **إيماء** إلى شدة الهول فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس، وليس هذا الحشر الذي يحشر الناس به للحساب بل هذا حشر في الدنيا وهو المناسب لما عد معه من الأشراط، وروي معناه عن أبي بن كعب.

وتسجير البحار: فيضانها قال تعالى: والبحر المسجور في سورة الطور [٦] .

والمراد تجاوز مياهها معدل سطوحها واختلاط بعضها ببعض وذلك من آثار اختلال قوة كرة الهواء التي كانت ضاغطة عليها، وقد وقع في آية سورة الانفطار [٣] : وإذا البحار فجرت وإذا حدث ذلك اختلط ماؤها برملها فتغير لونه.

يقال: سجر مضاعفا وسجر مخففا. وقرىء بهما فقرأه الجمهور مشددا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مخففا.

وقوله تعالى: وإذا النفوس زوجت شروع في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يوم القيامة وقد انتقل إلى ذكرها لأنها تحصل عقب الستة التي قبلها وابتدئ بأولها وهو تزويج النفوس، والتزويج: جعل الشيء زوجا لغيره بعد أن كان كلاهما فردا، والتزويج أيضا: جعل الأشياء أنواعا متماثلة قال تعالى: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين [الرعد: ٣] لأن الزوج يطلق على النوع والصنف من الأشياء والنفوس: جمع نفس، والنفس يطلق على الروح، قال تعالى: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك [الفجر:

٢٧، ٢٨] وقال: أخرجوا أنفسكم [الأنعام: ٩٣] ." (١)

٦٧٧. ٦٧٧-"وإضافة «قول» إلى رسول إما لأدنى ملابسة لأن جبريل يبلغ ألفاظ القرآن إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فيحكيها كما أمره الله تعالى فهو قائلها، أي صادرة منه ألفاظها.

وفي التعبير عن جبريل بوصف رسول **إيماء** إلى أن القول الذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/٣٠

بإبلاغها كما هي.
قال ابن عطية: وقال آخرون الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم في الآية كلها اهـ. ولم يعين اسم أحد ممن قالوا هذا من المفسرين.
واستطرد في خلال الثناء على القرآن الثناء على الملك المرسل به تنويها بالقرآن فإجراء أوصاف الثناء على رسول للتنويه به أيضا، وللكناية على أن ما نزل به صدق لأن كمال القائل يدل على صدق القول.
ووصف رسول بخمسة أوصاف:
الأول: كريم وهو النفيس في نوعه.
والوصفان الثاني والثالث: ذي قوة عند ذي العرش مكين فالقوة حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يقدر عليها غالبا. ومن أوصافه تعالى: «القوي» ، ومنها مقدرة الذات من إنسان أو حيوان على كثير من الأعمال التي لا يقدر عليها أبناء نوعه.
وضدها الضعف قال تعالى: الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة
[الروم: ٥٤] .
وتطلق القوة مجازا على ثبات النفس على مرادها والإقدام ورباطة الجأش، قال تعالى: يا يحيى خذ الكتاب بقوة [مريم: ١٢] وقال: خذوا ما آتيناكم بقوة [البقرة: ٦٣] ، فوصف جبريل ب ذي قوة يجوز أن يكون شدة المقدرة كما وصف بذلك في قوله تعالى:
ذو مرة [النجم: ٦] ، ويجوز أن يكون في القوة المجازية وهي الثبات في أداء ما أرسل به كقوله تعالى: علمه شديد القوى [النجم: ٥] لأن المناسب للتعليم هو قوة النفس، وأما إذا كان المراد محمد صلى الله عليه وسلم فوصفه ب ذي قوة عند ذي العرش يراد بها المعنى المجازي وهو الكرامة والاستجابة له.". (١)

٦٧٨. ٦٧٨-"وعلق وصف (بصير) بضمير الإنسان الذي ظن أن لن يحور، والمراد: العلم بأحواله لا بذاته.

---
(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٣٠

وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام بهذا المجرور أي بصير به لا محالة مع مراعاة الفواصل.
[١٦- ١٩]

[سورة الانشقاق (٨٤) : الآيات ١٦ إلى ١٩]
فلا أقسم بالشفق (١٦) والليل وما وسق (١٧) والقمر إذا اتسق (١٨) لتركبن طبقا عن طبق (١٩)
الفاء لتفريع القسم وجوابه، على التفصيل الذي في قوله: فأما من أوتي كتابه بيمينه [الانشقاق: ٧] إلى هنا: فإنه اقتضى أن ثمة حسابا وجزاء بخير وشر فكان هذا التفريع فذلكة وحوصلة لما فصل من الأحوال وكان أيضا جمعا إجماليا لما يعترض في ذلك من الأهوال.
وتقدم أن: «لا أقسم» يراد منه أقسم، وتقدم وجه القسم بهذه الأحوال والمخلوقات عند قوله: فلا أقسم بالخنس في سورة التكوير [١٥] .
ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسم عليه لأن الشفق والليل والقمر تخالط أحوالا بين الظلمة وظهور النور معها، أو في خلالها، وذلك مناسب لما في قوله: لتركبن طبقا عن طبق من تفاوت الأحوال التي يختبط فيها الناس يوم القيامة أو في حياتهم الدنيا، أو من ظهور أحوال خير من خلال أحوال شر أو انتظار تغير الأحوال إلى ما يرضيهم إن كان الخطاب للمسلمين خاصة كما سيأتي.
ولعل ذكر الشفق **إيماء** إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأن غروب الشمس مثل حالة الموت، وأن ذكر الليل **إيماء** إلى شدة الهول يوم الحساب وذكر القمر **إيماء** إلى حصول الرحمة للمؤمنين.
والشفق: اسم للحمرة التي تظهر في أفق مغرب الشمس إثر غروبها وهو ضياء من شعاع الشمس إذا حجبها عن عيون الناس بعض جرم الأرض، واختلف في تسمية البياض الذي يكون عقب الاحمرار شفقا.". (١)

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٢٦

٦٧٩. ٦٧٩-"[سورة الانشقاق (٨٤) : آية ٢٢]

بل الذين كفروا يكذبون (٢٢)

يجوز أنه إضراب انتقالي من التعجيب من عدم إيمانهم وإنكاره عليهم إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على الكفر والطعن في القرآن، فالكلام ارتقاء في التعجيب والإنكار.

فالإخبار عنهم بأنهم يكذبون مستعمل في التعجيب والإنكار فلذلك عبر عنه بالفعل المضارع الذي يستروح منه استحضار الحالة مثل قوله: يجادلنا في قوم لوط [هود: ٧٤] .

ويجوز أن يكون بل إضرابا إبطاليا، أي لا يوجد ما لأجله لا يؤمنون ولا يصدقون بالقرآن بل الواقع بضد ذلك فإن بواعث الإيمان من الدلائل متوفرة ودواعي الاعتراف بصدق القرآن والخضوع لدعوته متظاهرة ولكنهم يكذبون، أي يستمرون على التكذيب عنادا وكبرياء ويومىء إلى ذلك قوله: والله أعلم بما يوعون [الانشقاق: ٢٣] .

وهذان المعنيان نظير الوجهين في قوله تعالى في سورة الانفطار [٩- ١٠] بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين

وفي اجتلاب الفعل المضارع دلالة على حدوث التكذيب منهم وتجدده، أي بل هم مستمرون على التكذيب عنادا وليس ذلك اعتقادا فكما نفي عنهم تجدد الإيمان وتجدد الخضوع عند قراءة القرآن أثبت لهم تجدد التكذيب.

وقوله: الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: بل هم يكذبون، فعدل إلى الموصول والصلة لما تؤذن به الصلة من ذمهم بالكفر **للإيماء** إلى علة الخبر، أي أنهم استمروا على التكذيب لتأصل الكفر فيهم وكونهم ينعتون به.

[٢٣]

[سورة الانشقاق (٨٤) : آية ٢٣]

والله أعلم بما يوعون (٢٣)

اعتراض بين جملة بل الذين كفروا يكذبون [الانشقاق: ٢٢] ، وجملة: فبشرهم بعذاب أليم

[الانشقاق: ٢٤] وهو كناية عن الإنذار والتهديد بأن الله يجازيهم بسوء طويتهم.". (١)

٦٨٠. ٦٨٠-"مواقيت الأشهر والفصل. كما قال تعالى في نحو هذا: ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم
[المائدة: ٩٧] .

وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأن الله وعد بوقوعه قال تعالى: ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون [المعارج: ٤٤] مع ما في القسم به من إدماج الإيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرض بهم.
ومناسبة القسم ب شاهد ومشهود على اختلاف تأويلاته، ستذكر عند ذكر التأويلات وهي قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود، ويقابله في المقسم عليه قوله:
وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود والبروج: تطلق على علامات من قبة الجو يتراءى للناظر أن الشمس تكون في سمتها مدة شهر من أشهر السنة الشمسية، فالبرج: اسم منقول من اسم البرج بمعنى القصر لأن الشمس تنزله أو منقول من البرج بمعنى الحصن.
والبرج السماوي يتألف من مجموعة نجوم قريب بعضها من بعض لا تختلف أبعادها أبدا، وإنما سمي برجا لأن المصطلحين تخيلوا أن الشمس تحل فيه مدة فهو كالبرج، أي القصر، أو الحصن، ولما وجدوا كل مجموعة منها يخال منها شكل لو أحيط بإطار لخط مفروض لأشبه محيطها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات، ميزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريبا فقالوا:
برج الثور، برج الدلو، برج السنبلة مثلا.
وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهارا في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلا، وقد تقدم عند قوله تعالى: تبارك الذي جعل في السماء بروجا في سورة الفرقان [٦١] .
وشاهد ومشهود مراد بهما النوع. فالشاهد: الرائي، أو المخبر بحق لإلزام منكره. والمشهود:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٣/٣٠

المرئي أو المشهود عليه بحق. وحذف متعلق الوصفين لدلالة". (١)

٦٨١. ٦٨١-"[سورة الطارق (٨٦) : الآيات ١١ إلى ١٤]

والسماء ذات الرجع (١١) والأرض ذات الصدع (١٢) إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤)

بعد أن تبين الدليل على إمكان البعث أعقب بتحقيق أن القرآن حق وأن ما فيه قول فصل إبطالا لما موه عليهم من أن أخباره غير صادقة إذ قد أخبرهم بإحياء الرمم البالية.

فالجملة استئناف ابتدائي لغرض من أغراض السورة.

وافتتح الكلام بالقسم تحقيقا لصدق القرآن في الإخبار بالبعث وفي غير ذلك مما اشتمل عليه من الهدى. ولذلك أعيد القسم ب السماء كما أقسم بها في أول السورة، وذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر.

وفي الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا» . الحديث.

وفي اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله: إنه على رجعه لقادر [الطارق: ٨] وفيه محسن الجناس التام وفي مسمى الرجع وهو المطر المعاقب لمطر آخر مناسبة لمعنى الرجع البعث فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة.

وعطف الأرض في القسم لأن بذكر الأرض إتمام المناسبة بين المقسم والمقسم عليه كما علمت من المثل الذي في الحديث.

والصدع: الشق، وهو مصدر بمعنى المفعول، أي المصدوع عنه، وهو النبات الذي يخرج من شقوق الأرض قال تعالى: أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا [عبس: ٢٥- ٢٩] .

ولأن في هذين الحالين إيماء إلى دليل آخر من دلائل إحياء الناس للبعث فكان في هذا القسم دليلان.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٣٠

والضمير الواقع اسما ل (إن) عائد إلى القرآن وهو معلوم من المقام.". (١)

٦٨٢. ٦٨٢-"تعالى، وإذا نفينا الإلاهية عن الأصنام لأنها لا تخلق كما في قوله تعالى: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له [الحج: ٧٣] كان ذلك تسبيحا لذات الله لا لاسمه لأن اسمه لم يجر عليه في هذا الكلام إخبار ولا توصيف.

فهذا مناط الفرق بين استعمال سبح اسم ربك واستعمال وسبحه ومآل الإطلاقين في المعنى واحد لأن كلا الإطلاقين مراد به الإرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائص.

واعلم أن مما يدل على إرادة التسبيح بالقول وجود قرينة في الكلام تقتضيه مثل التوقيت بالوقت في قوله تعالى: وسبحوه بكرة وأصيلا [الأحزاب: ٤٢] فإن الذي يكلف بتوقيته هو الأقوال والأفعال دون العقائد، ومثل تعدية الفعل بالباء مثل قوله تعالى:

وسبحوا بحمد ربهم [السجدة: ١٥] فإن الحمد قول فلا يصاحب إلا قولا مثله.

وتعريف: اسم بطريق الإضافة إلى ربك دون تعريفه بالإضافة إلى علم الجلالة نحو: سبح اسم الله، لما يشعر به وصف رب من أنه الخالق المدبر. وأما إضافة (رب) إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم فلتشريفه بهذه الإضافة وأن يكون له حظ زائد على التكليف بالتسبيح.

ثم أجري على لفظ ربك صفة الأعلى وما بعدها من الصلات الدالة على تصرفات قدرته، فهو مستحق للتنزيه لصفات ذاته ولصفات إنعامه على الناس بخلقهم في أحسن تقويم، وهدايتهم، ورزقهم، ورزق أنعامهم، للإيماء إلى موجب الأمر بتسبيح اسمه بأنه حقيق بالتنزيه استحقاقا لذاته ولوصفه بصفة أنه خالق المخلوقات خلقا يدل على العلم والحكمة وإتقان الصنع، وبأنه أنعم بالهدى والرزق الذين بهما استقامة حال البشر في النفس والجسد وأوثرت الصفات الثلاث الأول لما لها من المناسبة لغرض السورة كما سنبينه.

فلفظ الأعلى اسم يفيد الزيادة في صفة العلو، أي الارتفاع. والارتفاع معدود في عرف الناس من الكمال فلا ينسب العلو بدون تقييد إلا إلى شيء غير مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضل عليه أفاد التفضيل المطلق كما في وصفه تعالى هنا. ولهذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٦/٣٠

حكي عن فرعون أنه قال: أنا ربكم الأعلى [النازعات: ٢٤] .". (١)

٦٨٣. ٦٨٣-"والمراد: إخراجه من الأرض وهو إنباته.

والمرعى: النبت الذي ترعاه السوائم، وأصله: إما مصدر ميمي أطلق على الشيء المرعي من إطلاق المصدر على المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق وإما اسم مكان الرعي أطلق على ما ينبت فيه ويرعى إطلاقا مجازيا بعلاقة الحلول كما أطلق اسم الوادي على الماء الجاري فيه.

والقرينة جعله مفعولا ل أخرج، وإيثار كلمة المرعى دون لفظ النبات، لما يشعر به مادة الرعي من نفع الأنعام به ونفعها للناس الذين يتخذونها مع رعاية الفاصلة ...

والغثاء: بضم الغين المعجمة وتخفيف المثلثة، ويقال بتشديد المثلثة هو اليابس من النبت.

والأحوى: الموصوف بالحوة بضم الحاء وتشديد الواو، وهي من الألوان: سمرة تقرب من السواد. وهو صفة غثاء لأن الغثاء يابس فتصير خضرته حوة.

وهذا الوصف أحوى لاستحضار تغير لونه بعد أن كان أخضر يانعا وذلك دليل على تصرفه تعالى بالإنشاء وبالإنهاء. وفي وصف إخراج الله تعالى المرعى وجعله غثاء أحوى مع ما سبقه من الأوصاف في سياق المناسبة بينها وبين الغرض المسوق له الكلام إيماء إلى تمثيل حال القرآن وهدايته وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس بحال الغيث

الذي ينبت به المرعى فتنتفع به الدواب والأنعام، وإلى أن هذه الشريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله فيها كما يكمل المرعى ويبلغ نضجه حين يصير غثاء أحوى، على طريقة تمثيلية مكنية رمز إليها بذكر لازم الغيث وهو المرعى. وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله

بقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا»

الحديث.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٤/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٨/٣٠

٦٨٤. ٦٨٤-"واليسرى: مؤنث الأيسر، وصيغة فعلى تدل على قوة الوصف لأنها مؤنث أفعل.

والموصوف محذوف، وتأنيث الوصف مشعر بأن الموصوف المحذوف مما يجري في الكلام على اعتبار اسمه مؤنثا بأن يكون مفردا فيه علامة تأنيث أو يكون جمعا إذ المجموع تعامل معاملة المؤنث. فكان الوصف المؤنث مناديا على تقدير موصوف مناسب للتأنيث في لفظه، وسياق الكلام الذي قبله يهدي إلى أن يكون الموصوف المقدر معنى الشريعة فإن خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن مراعى فيه وصفه العنواني وهو أنه رسول فلا جرم أن يكون أول شؤونه هو ما أرسل به وهو الشريعة.

وقوله: ونيسرك لليسرى إن حمل على ظاهر نظم الكلام وهو ما جرى عليه المفسرون. فالتيسير مستعار للتهيئة والتسخير، أي قوة تمكينه صلى الله عليه وسلم من اليسرى وتصرفه فيها بما يأمر الله به، أي نهيئك للأمور اليسرى في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ القرآن لك وتيسير الشريعة التي أرسلت بها وتيسير الخير لك في الدنيا والآخرة. وهذه الاستعارة تحسنها المشاكلة.

ومعنى اللام في قوله: لليسرى العلة، أي لأجل اليسرى، أي لقبولها، ونحوه

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «كل ميسر لما خلق له»

وتكون هذه الآية على مهيع قوله تعالى:

فسنيسره لليسرى وقوله: فسنيسره للعسرى في سورة الليل [٧- ١٠] .

ويجوز أن يجعل الكلام جاريا على خلاف مقتضى الظاهر بسلوك أسلوب القلب وأن الأصل: ونيسر لك اليسرى، أي نجعلها سهلة لك فلا تشق عليك فيبقى فعل: «نيسرك» على حقيقته، وإنما خولف عمله في مفعوله والمجرور المتعلق به على عكس الشائع في مفعوله والمجرور المتعلق به.

وفي وصفها ب (اليسرى) إيماء إلى استتباب تيسره لها بما أنها جعلت يسرى، فلم يبق إلا حفظه من الموانع التي يشق معها تلقي اليسرى.

فاشتمل الكلام على تيسيرين: تيسير ما كلف به النبيء صلى الله عليه وسلم، أي جعله

يسيرا مع وفائه بالمقصود منه، وتيسير النبيء صلى الله عليه وسلم للقيام بما كلف به.". (١)

٦٨٥. ٦٨٥-"بسم الله الرحمن الرحيم

٨٨- سورة الغاشية

سميت في المصاحف والتفاسير «سورة الغاشية» . وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من «جامعه» لوقوع لفظ «الغاشية» في أولها.

وثبتت في السنة تسميتها «هل أتاك حديث الغاشية» ،

ففي «الموطأ» أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير «بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال:

هل أتاك حديث الغاشية

[الغاشية: ١] . وهذا ظاهر في التسمية لأن السائل سأل عما يقرأ مع سورة الجمعة فالمسؤول عنه السورة الثانية، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه» .

وربما سميت «سورة هل أتاك» بدون كلمة حديث الغاشية، وبذلك عنونها ابن عطية في «تفسيره» وهو اختصار.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة السابعة والستين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف.

وآياتها ست وعشرون.

أغراضها

اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهة حالتهم، ومن ثواب قوم ناعمة حالتهم وعلى وجه الإجمال المرهب أو المرغب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/٣٠

والإيماء إلى ما يبين ذلك الإجمال كله بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة". (١)

٦٨٦. ٦٨٦-"من توقع معاملته إياهم بمثل ما عامل به المكذبين الأولين. أي أن الله بالمرصاد لكل طاغ مفسد.

وعلى كونها جواب القسم تكون كناية عن تسليط العذاب على المشركين إذ لا يراد من الرصد إلا دفع المعتدي من عدو ونحوه، وهو المقسم عليه وما قبله اعتراضا تفننا في نظم الكلام إذ قدم على المقصود بالقسم ما هو استدلال عليه وتنظير بما سبق من عقاب أمثالهم من الأمم من قوله: ألم تر كيف فعل ربك بعاد إلخ، وهو أسلوب من أساليب الخطابة إذ يجعل البيان والتنظير بمنزلة المقدمة ويجعل الغرض المقصود بمنزلة النتيجة والعلة إذا كان الكلام صالحا للاعتبارين مع قصد الاهتمام بالمقدم والمبادرة به.

والعدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى ربك في قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب وقوله: إن ربك لبالمرصاد **إيماء** إلى أن فاعل ذلك ربه الذي شأنه أن ينتصر له، فهو مؤمل بأن يعذب الذين كذبوه انتصارا له انتصار المولى لوليه.

والمرصاد: المكان الذي يترقب فيه الرصد، أي الجماعة المراقبون شيئا، وصيغة مفعال تأتي للمكان وللزمان كما تأتي للآلة، فمعنى الآلة هنا غير محتمل، فهو هنا إما للزمان أو المكان إذ الرصد الترقب.

وتعريف «المرصاد» تعريف الجنس وهو يفيد عموم المتعلق، أي بالمرصاد لكل فاعل، فهو تمثيل لعموم علم الله تعالى بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم، بحال اطلاع الرصد على تحركات العدو والمغيرين، وهذا المثل كناية عن مجازاة كل عامل بما عمله وما يعمله إذ لا يقصد الرصد إلا للجزاء على العدوان، وفي ما يفيده من التعليل **إيماء** إلى أن الله لم يظلمهم فيما أصابهم به.

والباء في قوله لبالمرصاد للظرفية". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٣/٣٠

٦٨٧. ٦٨٧-"ووصف النفس ب المطمئنة ليس وصفا للتعريف ولا للتخصيص، أي لتمييز المخاطبين بالوصف الذي يميزهم عمن عداهم فيعرفون أنهم المخاطبون المأذونون بدخول الجنة لأنهم لا يعرفون أنهم مطمئنون إلا بعد الإذن لهم بدخول الجنة، فالوصف مراد به الثناء **والإيماء** إلى وجه بناء الخبر. وتبشير من وجه الخطاب إليهم بأنهم مطمئنون آمنون.

ويجوز أن يكون للتعريف أو التخصيص بأن يجعل الله إلهاما في قلوبهم يعرفون به أنهم مطمئنون.

والاطمئنان: مجاز في طيب النفس وعدم ترددها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح فيهم حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا ومن أثره اطمئنانهم يوم القيامة حين يرون مخائل الرضى والسعادة نحوهم ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء.

وقد فسر الاطمئنان: بيقين وجود الله ووحدانيته، وفسر باليقين بوعد الله، وبالإخلاص في العمل، ولا جرم أن ذلك كله من مقومات الاطمئنان المقصود فمجموعه مراد وأجزاؤه مقصودة، وفسر بتبشيرهم بالجنة، أي قبل ندائهم ثم نودوا بأن يدخلوا الجنة.

والرجوع يحتمل الحقيقة والمجاز كما علمت من الوجوه المتقدمة في معنى الآية.

والراضية: التي رضت بما أعطيته من كرامة وهو كناية عن إعطائها كل ما تطمح إليه.

والمرضية: اسم مفعول وأصله: مرضيا عنها، فوقع فيه الحذف والإيصال فصار نائب فاعل بدون حرف الجر، والمقصود من هذا الوصف زيادة الثناء مع الكناية عن الزيادة في إفاضة الإنعام لأن المرضي عنه يزيده الراضي عنه من الهبات والعطايا فوق ما رضي به هو.

وفرع على هذه البشرى الإجمالية تفصيل ذلك بقوله: فادخلي في عبادي وادخلي جنتي فهو تفصيل بعد الإجمال لتكرير إدخال السرور على أهلها.

والمعنى: ادخلي في زمرة عبادي. والمراد العباد الصالحون بقرينة مقام الإضافة مع قرنه بقوله: جنتي ومعنى هذا كقوله تعالى: لندخلنهم في الصالحين [العنكبوت: ٩] ". (١)

(١) التحرير والتنوير ٣٤٣/٣٠

٦٨٨. ٦٨٨-"بدرا فإذا صار بدرا صار تلوه الشمس حقيقة لأنه يظهر عند ما تغرب الشمس، وقريبا من غروبها قبله أو بعده، وهو أيضا يضيء في أكثر ليالي الشهر جعله الله عوضا عن الشمس في عدة ليال في الإنارة، ولذلك قيد القسم بحين تلوه لأن تلوه للشمس حينئذ تظهر منه مظاهر التلو للناظرين، فهذا الزمان مثل زمان الضحى في القسم به، فكان بمنزلة قسم بوقت تلوه الشمس، فحصل القسم بذات القمر وبتلوه الشمس.

وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن وهو مما أشرت إليه في المقدمة العاشرة.

وابتدئ بالشمس لمناسبة المقام **إيماء** للتنويه بالإسلام لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكا، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، وأتبع بالقمر لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه لأنهما مثل لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك وذلك عكس ما في سورة الليل لما يأتي.

ومناسبة استحضار السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل، واضحة، ثم ذكرت النفس الإنسانية لأنها مظهر الهدى والضلال وهو المقصود.

والضمير المؤنث في قوله: جلاها ظاهره أنه عائد إلى الشمس فمعنى تجلية النهار بالشمس وقت ظهور الشمس.

فإسناد التجلية إلى النهار مجاز عقلي والقسم إنما هو بالنهار لأنه حالة دالة على دقيق نظام العالم الأرضي. وقيل: الضمير عائد إلى الأرض، أي أضاء الأرض فتجلت للناظرين لظهور المقصود كما يقال عند نزول المطر «أرسلت» يعنون أرسلت السماء ماءها.

وقيد القسم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجا للمنة في القسم.

وابتدئ القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأصلية والمنعكسة لأن الشمس". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٧/٣٠

٦٨٩. ٦٨٩-"أعظم النيرات التي يصل نور شديد منها للأرض، ولما في حالها وحال أضوائها من **الإيماء** إلى أنها مثل لظهور الإيمان بعد الكفر وبث التقوى بعد الفجور فإن الكفر والمعاصي تمثل بالظلمة والإيمان والطاعات تمثل بالضياء قال تعالى: ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه [المائدة: ١٦] .

وأعقب القسم بالنهار بالقسم بالليل لأن الليل مقابل وقت النهار فهو وقت الإظلام.

والغشي: التغطية وليس الليل بمغط للشمس على الحقيقة ولكنه مسبب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب وهو زمن لذلك الغشي.

فإسناد الغشي إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمنه أو إلى مسببه (بفتح الباء) .

والغاشي في الحقيقة هو تكوير الأرض ودورانها تجاه مظهر الشمس وهي الدورة اليومية، وقيل: ضمير المؤنث في يغشاها عائد إلى الأرض على نحو ما قيل في والنهار إذا جلاها وإذا في قوله: إذا تلاها وقوله: إذا جلاها وقوله: إذا يغشاها في محل نصب على الظرفية متعلقة بكون هو حال من القمر ومن النهار ومن الليل فهو ظرف مستقر، أي مقسما بكل واحد من هذه الثلاثة في الحالة الدالة على أعظم أحواله وأشدها دلالة على عظيم صنع الله تعالى.

وبناء السماء تشبيه لرفعها فوق الأرض بالبناء. والسماء آفاق الكواكب قال تعالى: لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق [المؤمنون: ١٧] وتقييد القسم بالليل بوقت تغشيته تذكيرا بالعبرة بحدوث حالة الظلمة بعد حالة النور.

وطحو الأرض: بسطها وتوطئتها للسير والجلوس والاضطجاع، يقال: طحا يطحو ويطحي طحوا وطحيا وهو مرادف «دحا» في سورة النازعات [٣٠] .

و «النفس» : ذات الإنسان كما تقدم عند قوله تعالى: يا أيتها النفس المطمئنة [الفجر: ٢٧] وتنكير «نفس» للنوعية أي جنس النفس فيعم كل نفس عموما بالقرينة على نحو قوله تعالى: علمت نفس ما قدمت وأخرت [الانفطار: ٥] .". (١)

٦٩٠. ٦٩٠-"فالمقصود منه إثبات أن من شؤون الله تعالى تيسرا للعبد أن يعمل بعمل السعادة أو عمل الشقاء سواء كان عمله أصلا للسعادة كالإيمان أو للشقاوة كالكفر، أم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠

كان للعمل مما يزيد السعادة وينقص من الشقاوة وذلك بمقدار الأعمال الصالحة لمن كان مؤمنا لأن ثبوت أحد معنيي التيسير يدل على ثبوت جنسه فيصلح دليلا لثبوت التيسير من أصله.

أو يكون المقصود من سوق الآية الاستدلال على قوله: «اعملوا» لأن الآية ذكرت عملا وذكرت تيسيرا لليسرى وتيسيرا للعسرى، فيكون الحديث إشارة إلى أن العمل هو علامة التيسير وتكون اليسرى معنيا بها السعادة والعسرى معنيا بها الشقاوة، وما صدق السعادة الفوز بالجنة، وما صدق الشقاوة الهوي في النار.

وإذ كان الوعد بتيسير اليسرى لصاحب تلك الصلات الدالة على أعمال الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى كان سلوك طريق الموصولية **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو التيسير فتعين أن التيسير مسبب عن تلك الصلات، أي جزاء عن فعلها: فالمتيسر: تيسير الدوام عليها، وتكون اليسرى صفة للأعمال، وذلك من الإظهار في مقام الإضمار.

والأصل: مستيسر له أعماله، وعدل عن الإضمار إلى وصف اليسرى للثناء على تلك الأعمال بأنها ميسرة من الله كقوله تعالى: ونيسرك لليسرى في سورة الأعلى [٨] .

وخلاصة الحديث أنه بيان للفرق بين تعلق علم الله بأعمال عباده قبل أن يعملوها، وبين تعلق خطابه إياهم بشرائعه، وأن ما يصدر عن الناس من أعمال ظاهرة وباطنة إلى خاتمة كل أحد وموافاته هو عنوان للناس على ما كان قد علمه الله، ويلتقي المهيعان في أن العمل هو وسيلة الحصول على الجنة أو الوقوع في جهنم.

وإنما خص الإعطاء بالذكر في قوله: فأما من أعطى واتقى مع شمول اتقى لمفاده، وخص البخل بالذكر في قوله: وأما من بخل واستغنى مع شمول استغنى له، لتحريض المسلمين على الإعطاء، فالإعطاء والتقوى شعار المسلمين مع التصديق بالحسنى وضد الثلاثة من شعار المشركين.". (١)

٦٩١. ٦٩١-"«وقد ودع محمد» . ولعل

جندبا روى حديثين جمعهما ابن عيينة. وقيل: إن كلمة «في غار» تصحيف، وأن أصلها:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨٦/٣٠

كنت غازيا. ويتعين حينئذ أن يكون حديثه جمع حديثين.

وعدت هذه السورة حادية عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الفجر وقبل سورة الانشراح.

وعدد آيها إحدى عشرة آية.

وهي أول سورة في قصار المفصل.

أغراضها

إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبيء صلى الله عليه وسلم قد انقطع عنه.

وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله.

[١- ٣]

[سورة الضحى (٩٣) : الآيات ١ إلى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣)

القسم لتأكيد الخبر ردا على زعم المشركين أن الوحي انقطع عن النبيء صلى الله عليه وسلم حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليال. فالتأكيد منصب على التعريض المعرض به لإبطال دعوى المشركين. فالتأكيد تعريض بالمشركين وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتردد في وقوع ما يخبره الله بوقوعه.

ومناسبة القسم ب الضحى والليل أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو **إيماء** إلى تمثيل

نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام". (١)

٦٩٢. ٦٩٢-"والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة **إيماء** إلى أن الإسلام جاء مصدقا لها وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام.

والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه.

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه.

[١- ٥]

[سورة التين (٩٥) : الآيات ١ إلى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣) لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤)

ثم رددناه أسفل سافلين (٥)

ابتداء الكلام بالقسم المؤكد يؤذن بأهمية الغرض المسوق له الكلام، وإطالة القسم تشويق إلى المقسم عليه.

والتين ظاهره الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكمثرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير، وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.

والزيتون أيضا ظاهره الثمرة المشهورة ذات الزيت الذي يعتصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به. والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٩٤

إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.
وعلى ظاهر الاسمين للتين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة والنخعي وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم،". (١)

٦٩٣. ٦٩٣-"والبلد الأمين: مكة، سمي الأمين لأن من دخله كان آمنا، فالأمين فعيل بمعنى مفعل مثل: «الداعي السميع» في بيت عمرو بن معديكرب، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول على وجه الإسناد المجازي، أي المأمون ساكنوه قال تعالى: وآمنهم من خوف [قريش: ٤] .
والإشارة إليه للتعظيم ولأن نزول السورة في ذلك البلد فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين نظير قوله: لا أقسم بهذا البلد [البلد: ١] .
وعلى ما تقدم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الإيمان
وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر، فالتين **إيماء** إلى رسالة نوح وهي أول شريعة لرسول، والزيتون **إيماء** إلى شريعة إبراهيم فإنه بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث وقد تقدم في أول الإسراء، وطور سينين **إيماء** إلى شريعة التوراة، والبلد الأمين **إيماء** إلى مهبط شريعة الإسلام، ولم يقع **إيماء** إلى شريعة عيسى لأنها تكملة لشريعة التوراة.
وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان وبأنه المسجد الأقصى **إيماء** إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام لأن المسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى ويكون قوله: وهذا البلد الأمين **إيماء** إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية وبذلك يكون **إيماء** هذه الآية ما صرح به في قوله تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى [الشورى: ١٣] ، وبذلك يكون ترتيب **الإيماء** إلى شرائع نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام غير جار على ترتيب ظهورها فتوجيه مخالفة الترتيب الذكري

(١) التحرير والتنوير ٤٢٠/٣٠

للترتيب الخارجي أنه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين، ومقارنة الاسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض، ليتأتى محسن مراعاة النظير ومحسن التورية، وليناسب سينين فواصل السورة.

وفي ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركا لأدلة وجود الخالق ووحدانية. وفيه إيماء إلى أن ما خالف". (١)

٦٩٤. ٦٩٤-"وعن جابر أول سورة المدثر، وتؤول بأن كلامه نص أن سورة المدثر أول سورة

نزلت بعد فترة الوحي كما في «الإتقان» كما أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحي الثانية.

وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة عشرون، وفي عد أهل الشام ثمان عشرة، وفي عد أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة.

أغراضها

تلقين محمد صلى الله عليه وسلم الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.

والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء.

وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم.

وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقا عجيبا مستخرجا من علقة فذلك مبدأ النظر.

وتهديد من كذب النبيء صلى الله عليه وسلم وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.

وإعلام النبيء صلى الله عليه وسلم أن الله عالم بأمر من يناوؤنه وأنه قامعهم وناصر رسوله.

وتثبيت الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٢/٣٠

وأن لا يعبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم.

[١ -٥]

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ١ الى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤)

علم الإنسان ما لم يعلم (٥)

اقرأ باسم ربك الذي خلق - خلق الإنسان من علق - اقرأ

هذا أول ما أوحي به من القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم لما ثبت عن عائشة عن النبيء صلى الله عليه وسلم مما سيأتي قريبا.". (١)

٦٩٥. ٦٩٥-"وعدل عن اسم الله العلم إلى صفة ربك لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده ردا على الذين جعلوا لأنفسهم أربابا من دون الله فكانت هذه الآية أصلا للتوحيد في الإسلام.

وجيء في وصف الرب بطريق الموصول الذي خلق ولأن في ذلك استدلالا على انفراد الله بالإلهية لأن هذا القرآن سيتلى على المشركين لما تفيده الموصولية من **الإيماء** إي علة الخبر، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالق دل ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره الذي ليس بخالق، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم العزى، وكون الله هو الخالق يعترفون به قال تعالى: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان: ٢٥] فلما كان المقام مقام ابتداء كتاب الإسلام دين التوحيد كان مقتضيا لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته.

وجملة خلق الإنسان من علق يجوز أن تكون بدلا من جملة الذي خلق بدل مفصل من

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٤

مجمل إن لم يقدر له مفعول، أو بدل بعض إن قدر له مفعول عام، وسلك طريق الإبدال لما فيه من الإجمال ابتداء لإقامة الاستدلال على افتقار المخلوقات كلها إليه تعالى لأن المقام مقام الشروع في تأسيس ملة الإسلام. ففي الإجمال إحضار للدليل مع الاختصار مع ما فيه من إفادة التعميم ثم يكون التفصيل بعد ذلك لزيادة تقرير الدليل.

ويجوز أن تكون بيانا من الذي خلق إذا قدر لفعل خلق الأول مفعول دل عليه بيانه فيكون تقدير الكلام: اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق.

وعدم ذكر مفعول لفعل خلق يجوز أن يكون لتنزيل الفعل منزلة اللازم، أي الذي هو الخالق وأن يكون حذف المفعول لإرادة العموم، أي خلق كل المخلوقات، وأن يكون تقديره: الذي خلق الإنسان اعتمادا على ما يرد بعده من قوله خلق الإنسان، فهذه معان في الآية.". (١)

٦٩٦. ٦٩٦-"والكرم: التفضل بعطاء ما ينفع المعطى، ونعم الله عظيمة لا تحصى ابتداء من نعمة الإيجاد، وكيفية الخلق، والإمداد.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف الذي خلق ووصف الذي علم بالقلم يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها. ووصف الأكرم يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص.

ومفعولا علم بالقلم محذوفان دل عليهما قوله: بالقلم وتقديره: علم الكاتبين أو علم ناسا الكتابة، وكان العرب يعظمون علم الكتابة ويعدونها من خصائص أهل الكتاب كما قال أبو حية النميري:

كما خط الكتاب بكف يوما ... يهودي يقارب أو يزيل

ويتفاخر من يعرف الكتابة بعلمه وقال الشاعر:

تعلمت باجاد وآل ... مرامر وسودت أثوابي ولست بكاتب

وذكر أن ظهور الخط في العرب أول ما كان عند أهل الأنبار، وأدخل الكتابة إلى الحجاز

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣٧/٣٠

حرب بن أمية تعلمه من أسلم بن سدرة وتعلمه أسلم من مرامر بن مرة وكان الخط سابقا عند حمير باليمن ويسمى المسند.

وتخصيص هذه الصلة بالذكر وجعلها معترضة بين المبتدأ والخبر **للإيماء** إلى إزالة ما خطر ببال النبيء صلى الله عليه وسلم من تعذر القراءة عليه لأنه لا يعلم الكتابة فكيف القراءة إذ

قال للملك: «ما أنا بقارئ»

ثلاث مرات، لأن

قوله: «ما أنا بقارئ»

اعتذار عن تعذر امتثال أمره بقوله: اقرأ فالمعنى أن الذي علم الناس الكتابة بالقلم والقراءة قادر على أن يعلمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة.

والقلم: شظية من قصب ترقق وتثقف وتبرى بالسكين لتكون ملساء بين الأصابع ويجعل طرفها مشقوقا شقا في طول نصف الأنملة، فإذا بل ذلك الطرف". (١)

٦٩٧. ٦٩٧-"بالقلم **إيماء** إلى استمرار صفة الأمية للنبيء صلى الله عليه وسلم لأنها وصف مكمل لإعجاز القرآن قال تعالى:

وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون [العنكبوت: ٤٨]

.

وهذه آخر الخمس الآيات التي هي أول ما أنزل على النبيء صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

[٦- ١٠]

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ٦ إلى ١٠]

كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨) أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٤٠

استئناف ابتدائي لظهور أنه في غرض لا اتصال له بالكلام الذي قبله.
وحرف كلا ردع وإبطال، وليس في الجملة التي قبله ما يحتمل الإبطال والردع، فوجود كلا في أول الجملة دليل على أن المقصود بالردع هو ما تضمنه قوله: أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى الآية.
وحق كلا أن تقع بعد كلام لإبطاله والزجر عن مضمونه، فوقوعها هنا في أول الكلام يقتضي أن معنى الكلام الآتي بعدها حقيق بالإبطال وبردع قائله، فابتدئ الكلام بحرف الردع للإبطال، ومن هذا القبيل أن يفتتح الكلام بحرف نفي ليس بعده ما يصلح لأن يلي الحرف كما في قول امرئ القيس:
فلا وأبيك ابنة العامر ... ي لا يدعي القوم أني أفر

روى مسلم عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه (أي يسجد في الصلاة) بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته فأتى رسول الله وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده. فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا قال: فأنزل الله
، لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه: إن الإنسان ليطغى الآيات اهـ.". (١)

٦٩٨. ٦٩٨-"وتفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام.
ويستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام والتصدق.
[١]

[سورة القدر (٩٧) : آية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم

---
(١) التحرير والتنوير ٤٤٢/٣٠

إنا أنزلناه في ليلة القدر (١)

اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف (إن) وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي.

ويفيد هذا التقديم قصرا وهو قصر قلب للرد على المشركين الذي نفوا أن يكون القرآن منزلا من الله تعالى.

وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن.

وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر **إيماء** إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه فكون الضمير دون سبق معاد **إيماء** إلى شهرته بينهم.

فيجوز أن يراد به القرآن كله فيكون فعل: «أنزلنا» مستعملا في ابتداء الإنزال لأن الذي أنزل في تلك الليلة خمس الآيات الأول من سورة العلق ثم فتر الوحي ثم عاد إنزاله منجما ولم يكمل إنزال القرآن إلا بعد نيف وعشرين سنة، ولكن لما كان جميع القرآن مقررا في علم الله تعالى مقداره وأنه ينزل على النبيء صلى الله عليه وسلم منجما حتى يتم، كان إنزاله بإنزال الآيات الأول منه لأن ما ألحق بالشيء يعد بمنزلة أوله فقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه» الحديث فاتفق العلماء على أن الصلاة فيما ألحق بالمسجد النبوي لها ذلك الفضل، وأن الطواف في زيادات المسجد الحرام يصح كلما اتسع المسجد.

ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إماء إلى أن الضمير في أنزلناه يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة وهو". (١)

٦٩٩. ٦٩٩-"[٧، ٨]

[سورة البينة (٩٨) : الآيات ٧ الى ٨]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٦/٣٠

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (٧) جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه (٨)
إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية - جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه
قوبل حال الكفرة من أهل الكتاب وحال المشركين بحال الذين آمنوا بعد أن أشير إليهم بقوله: وذلك دين القيمة [البينة: ٥] ، استيعابا لأحوال الفرق في الدنيا والآخرة وجريا على عادة القرآن في تعقيب نذارة المنذرين ببشارة المطمئنين وما ترتب على ذلك من الثناء عليهم، وقدم الثناء عليهم على بشارتهم على عكس نظم الكلام المتقدم في ضدهم ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم فإن الله شكور.
والجملة استئناف بياني ناشيء عن تكرر ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فإن ذلك يثير في نفوس الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين تساؤلا عن حالهم لعل تأخر إيمانهم إلى ما بعد نزول الآيات في التنديد عليهم يجعلهم في انحطاط درجة، فجاءت هذه الآية مبينة أن من آمن منهم هو معدود في خير البريئة.
والقول في اسم الإشارة، وضمير الفصل والقصر وهمز البريئة كالقول في نظيره المتقدم.
واسم الإشارة والجملة المخبر بها عنه جميعها خبر عن اسم إن وجملة: جزاؤهم عند ربهم جنات عدن إلى آخرها مبينة لجملة: أولئك هم خير البرية وعند ربهم ظرف وقع اعتراضا بين جزاؤهم وبين جنات عدن للتنويه بعظم الجزاء بأنه مدخر لهم عند ربهم تكرمة لهم لما في عند من الإيماء إلى الحظوة والعناية، وما في لفظ ربهم من الإيماء إلى إجزال الجزاء بما يناسب عظم المضاف إليه عند، وما يناسب شأن من يرب أن يبلغ بمربوبه عظيم الإحسان.
وإضافة: جنات إلى عدن لإفادة أنها مسكنهم لأن العدن الإقامة، أي ليس جزاؤهم تنزها في الجنات بل أقوى من ذلك بالإقامة فيها.". (١)

٧٠٠. ٧٠٠-"اصفرار الشمس فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مثلي قدره بعد الظل الذي كان له

(١) التحرير والتنوير ٤٨٥/٣٠

عند زوال الشمس. وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشي. ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس، قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القن ... اص عصرا وقد دنا الإمساء

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل ونظام لابتدائه وانقطاعه. وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه **إيماء** إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني أي كل عصر.

ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت العصر. وهي صلاة معظمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى [البقرة: ٢٣٨] .

وجاء في الحديث: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» .

وورد في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة» فذكر «ورجل حلف يمينا فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي بها ما لم يعط»

وتعريفه على هذا تعريف العهد وصار علما بالغلبة كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعرفة باللام مثل العقبة.

ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جبل من الناس، أو ملك أو نبيء، أو دين، ويعين بالإضافة، فيقال: عصر الفطحل، وعصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية، فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا ويكون". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٩/٣٠

٧٠١. ٧٠١-"وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش وهو ما فسر به قوله تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات [هود: ١١٤] .

وهذا الخبر مراد به الحصول في المستقبل بقرينة مقام الإنذار والوعيد، أي لفي خسر في الحياة الأبدية الآخرة فلا التفات إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا، قال تعالى:

لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] .

وتنكير خسر يجوز أن يكون للتنويع، ويجوز أن يكون مفيدا للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسم.

والمعنى: إن الناس لفي خسران عظيم وهم المشركون.

والتعريف في قوله: الصالحات تعريف الجنس مراد به الاستغراق، أي عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بعملها بأمر الدين وعمل الصالحات يشمل ترك السيئات. وقد أفاد استثناء المتصفين بمضمون الصلة ومعطوفها إيماء إلى علة حكم الاستثناء وهو نقيض الحكم الثابت للمستثنى منه فإنهم ليسوا في خسر لأجل أنهم آمنوا

وعملوا الصالحات.

فأما الإيمان فهو حقيقة مقول على جزئياتها بالتواطىء. وأما الصالحات فعمومها مقول عليه بالتشكك، فيشير إلى أن انتفاء الخسران عنهم يتقدر بمقدار ما عملوه من الصالحات وفي ذلك مراتب كثيرة.

وقد دل استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أن يكونوا في خسر على أن سبب كون بقية الإنسان في خسر هو عدم الإيمان والعمل الصالح بدلالة مفهوم الصفة. وعلم من الموصول أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب انتفاء إحاطة الخسر بالإنسان.

وعطف على عمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عطف الخاص على العام للاهتمام به لأنه قد يغفل عنه، يظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم

غيره ودعوته إلى الحق، فالتواصي بالحق يشمل تعليم". (١)

٧٠٢. ٧٠٢-"**إيماء** إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبيء صلى الله عليه وسلم إرهاصا لنبوءته إذ كان ذلك عام مولده.

وأصحاب الفيل: الحبشة الذين جاءوا مكة غازين مضمرين هدم الكعبة انتقاما من العرب من أجل ما فعله أحد بني كنانة الذين كانوا أصحاب النسيء في أشهر الحج. وكان خبر ذلك وسببه أن الحبشة قد ملكوا اليمن بعد واقعة الأخدود التي عذب فيها الملك ذو نواس النصارى، وصار أمير الحبشة على اليمن رجلا يقال له: (أبرهة) وأن أبرهة بنى كنيسة عظيمة في صنعاء دعاها القليس (بفتح القاف وكسر اللام بعد ما تحتية ساكنة،

وبعضهم يقولها بضم القاف وفتح اللام وسكون التحتية) . وفي «القاموس» بضم القاف وتشديد اللام مفتوحة وسكون الياء. وكتبه السهيلي بنون بعد اللام ولم يضبطه وزعم أنه اسم مأخوذ من معاني القلس للارتفاع. ومنه القلنسوة واقتصر على ذلك ولم أعرف أصل هذا اللفظ فإما أن يكون اسم جنس للكنيسة ولعل لفظ كنيسة في العربية معرب منه، وإما أن يكون علما وضعوه لهذه الكنيسة الخاصة وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة فروي أن رجلا من بني فقيم من بني كنانة وكانوا أهل النسيء للعرب كما تقدم عند قوله تعالى: إنما النسيء زيادة في الكفر في سورة براءة [٣٧] ، قصد الكناني صنعاء حتى جاء القليس فأحدث فيها تحقيرا لها ليتسامع العرب بذلك فغضب أبرهة وأزمع غزو مكة ليهدم الكعبة وسار حتى نزل خارج مكة ليلا بمكان يقال له المغمس (كمعظم موضع قرب مكة في طريق الطائف) أو ذو الغميس (لم أر ضبطه) وأرسل إلى عبد المطلب ليحذره من أن يحاربوه وجرى بينهما كلام، وأمر عبد المطلب آله وجميع أهل مكة بالخروج منها إلى الجبال المحيطة بها خشية من معرة الجيش إذا دخلوا مكة. فلما أصبح هيأ جيشه لدخول مكة وكان أبرهة راكبا فيلا وجيشه معه فبينا هو يتهيأ لذلك إذ أصاب جنده داء عضال هو الجدري الفتاك يتساقط منه الأنامل، ورأوا قبل ذلك طيرا ترميهم بحجارة لا تصيب أحدا إلا هلك وهي طير من جند الله فهلك معظم الجيش وأدبر بعضهم ومرض (أبرهة) فقفل راجعا إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣٢/٣٠

صنعاء مريضا، فهلك في صنعاء وكفى الله أهل مكة أمر عدوهم. وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط (فبراير)". (١)

٧٠٣. ٧٠٣-"بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحملونهم سلعهم، وصارت مكة وسطا تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع إذ كانوا بواد غير ذي زرع وكانوا يجلبون أقواتهم فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر وشعير وذرة وزبيب وأديم وثياب والسيوف اليمانية، ومن بلاد الشام الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثياب والسيوف المشرفية، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم، وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله تعالى: ليعبدوا رب هذا البيت

فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن الله عليهم نعما كثيرة لأن هذا الإيلاف كان سببا جامعا لأهم النعم التي بها قوام بقائهم.

وقد تقدم آنفا الكلام على معنى الفاء من قوله: ليعبدوا رب هذا البيت

على الوجوه كلها.

والعبادة التي أمروا بها عبادة الله وحده دون إشراك الشركاء معه في العبادة لأن إشراك من لا يستحق العبادة مع الله الذي هو الحقيق بها ليس بعبادة أو لأنهم شغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله فلا يذكرون الله إلا في أيام الحج في التلبية على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

وتعريف ب

بالإضافة إلى ذا البيت

دون أن يقال: فليعبدوا الله لما يومىء إليه لفظب

من استحقاقه الإفراد بالعبادة دون شريك.

وأوثر إضافةب

إلى ذا البيت

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٦

دون أن يقال: ربهم للإيماء إلى أن البيت هو أصل نعمة الإيلاف بأن أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام فكان سببا لرفعة شأنهم بين العرب قال تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس [المائدة: ٩٧] وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله.

والبيت معهود عند المخاطبين.". (١)

٧٠٤. ٧٠٤-"عليها، فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته.

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنه أبتر، فإن الصلاة لله شكر له وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال تعالى: أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى [العلق: ٩، ١٠] لأنهم إنما نهوه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم، وكذلك النحر لله.

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: فصل لربك دون: فصل لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه.

وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبيء صلى الله عليه وسلم وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به.

ويتعين أن في تفريع الأمر بالنحر مع الأمر بالصلاة على أن أعطاه الكوثر خصوصية تناسب الغرض الذي نزلت السورة له، ألا ترى أنه لم يذكر الأمر بالنحر مع الصلاة في قوله تعالى: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين في سورة الحجر [٩٧، ٩٨] .

ويظهر أن هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صد المشركين إياه عن البيت في الحديبية، فأعلمه الله تعالى بأنه أعطاه خيرا كثيرا، أي قدره له في المستقبل وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فيكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى: إنا فتحنا لك فتحا مبينا [الفتح: ١] فإنه نزل في أمر الحديبية فقد قال له عمر بن الخطاب: أفتح هذا؟ قال: نعم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٠

وهذا يرجع إلى ما رواه الطبري عن قول سعيد بن جبير: أن قوله: فصل لربك وانحر أمر بأن يصلي وينحر هديه وينصرف من الحديبية.
وأفادت اللام من قوله: لربك أنه يخص الله بصلاته فلا يصلي لغيره. ففيه تعريض بالمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها.
وعطف وانحر على فصل لربك يقتضي تقدير متعلقه مماثلا لمتعلق". (١)

٧٠٥. ٧٠٥-"فصل لربك لدلالة ما قبله عليه كما في قوله تعالى: أسمع بهم وأبصر [مريم: ٣٨] أي وأبصر بهم، فالتقدير: وانحر له. وهو **إيماء** إلى إبطال نحر المشركين قربانا للأصنام فإن كانت السورة مكية فلعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اقترب وقت الحج وكان يحج كل عام قبل البعثة وبعدها قد تردد في نحر هداياه في الحج بعد بعثته، وهو يود أن يطعم المحاويج من أهل مكة ومن يحضر في الموسم ويتحرج من أن يشارك أهل الشرك في أعمالهم فأمره الله أن ينحر الهدي لله ويطعمها المسلمين، أي لا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناويا بما تنحره أنه لله.
وإن كانت السورة مدنية، وكان نزولها قبل فرض الحج كان النحر مرادا به الضحايا يوم عيد النحر ولذلك قال كثير من الفقهاء إن قوله: فصل لربك مراد به صلاة العيد،
وروي ذلك عن مالك في تفسير الآية وقال: لم يبلغني فيه شيء.
وأخذوا من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة دلالة على أن الضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح مع أن الضأن أفضل في الضحايا وهي لا تنحر وأن النبيء صلى الله عليه وسلم لم يضح إلا بالضأن تغليب للفظ النحر وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يوم النحر وليشمل الضحايا في البدن والهدايا في الحج أو ليشمل الهدايا التي عطل إرسالها في يوم الحديبية كما علمت آنفا. ويرشح إيثار النحر رعي فاصلة الراء في السورة. وللمفسرين الأولين أقوال أخر في تفسير «انحر» تجعله لفظا غريبا.
[٣]

---

(١) التحرير والتنوير ٥٧٤/٣٠

[سورة الكوثر (١٠٨) : آية ٣]

إن شانئك هو الأبتر (٣)

استئناف يجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا. ويجوز أن تكون الجملة تعليلا لحرف إن إذا لم يكن لرد الإنكار يكثر أن يفيد التعليل كما تقدم عند قوله تعالى: قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم في سورة البقرة [٣٢] .

واشتمال الكلام على صيغة قصر وعلى ضمير غائب وعلى لفظ الأبتر مؤذن بأن". (١)

٧٠٦. ٧٠٦-"بسم الله الرحمن الرحيم

١١٠- سورة النصر

سميت هذه السورة في كلام السلف «سورة إذا جاء نصر الله والفتح روى البخاري: «أن عائشة قالت: لما نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح الحديث.

وسميت في المصاحف وفي معظم التفاسير «سورة النصر» لذكر نصر الله فيها، فسميت بالنصر المعهود عهدا ذكريا.

وهي معنونة في «جامع الترمذي» «سورة الفتح» لوقوع هذا اللفظ فيها فيكون هذا الاسم مشتركا بينها وبين سورة: إنا فتحنا لك فتحا مبينا وعن ابن مسعود أنها تسمى «سورة التوديع» في «الإتقان» لما فيها من **الإيماء** إلى وداعه صلى الله عليه وسلم اهـ. يعني من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى كما سيأتي عن عائشة.

وهي مدنية بالاتفاق. واختلف في وقت نزولها فقيل: نزلت منصرف النبيء صلى الله عليه وسلم من خيبر (أي في سنة سبع) ، ويؤيده ما

رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء نصر أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية»

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٧٥

اهـ، ومجيء أهل اليمن أول مرة هو مجيء وفد الأشعريين عام غزوة خيبر.

ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة، وعليه فالفتح". (١)

٧٠٧. ٧٠٧-"مستقبل ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبل أيضا وهو الأليق باستعمال (إذا) ويحمل

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «جاء نصر الله والفتح»

على أنه استعمال الماضي في معنى المضارع

لتحقق وقوعه أو لأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة.

وعن قتادة: نزلت قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين. وقال الواحدي عن ابن عباس:

«نزلت منصرفه من حنين» ، فيكون الفتح قد مضى ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبلا، وهو في سنة الوفود سنة تسع، وعليه تكون (إذا) مستعملة في مجرد التوقيت دون تعيين.

وروى البزار والبيهقي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عمر أنها نزلت أواسط أيام التشريق (أي عام حجة الوداع) . وضعفه ابن رجب بأن فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

وقال أحمد بن حنبل: لا تحل الرواية عنه وإن صحت هذه الرواية كان الفتح ودخول الناس في الدين أفواجا قد مضيا.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها نحوا من ثلاثة أشهر وعليه تكون (إذا) مستعملة للزمن الماضي لأن الفتح ودخول الناس في الدين قد وقعا.

وقد تظافرت الأخبار رواية وتأويلا أن هذه السورة تشتمل على **إيماء** إلى اقتراب أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها إذ لا خلاف في أن هذا **الإيماء** يشير إلى توقيت بمجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجا فإذا حصل ذلك حان الأجل الشريف.

وفي حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨٧/٣٠

أعلمه له قال: إذا جاء نصر الله والفتح [النصر: ١] وذلك علامة أجلك: فسبح بحمد ربك واستغفره [النصر: ٣] .

وفي هذا ما يؤول ما في بعض الأخبار من إشارة إلى اقتراب ذلك الأجل مثل ما في حديث ابن عباس عند البيهقي في «دلائل النبوة» والدارمي وابن مردويه: لما نزلت: إذا جاء نصر الله والفتح دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة وقال: إنه قد نعيت إلي نفسي فبكت»

إلخ، فإن قوله: «لما نزلت» مدرج من الراوي، وإنما هو". (١)

٧٠٨. ٧٠٨-"إعلام لها في مرضه كما جاء في حديث الوفاة في «الصحيحين» فهذا جمع بين ما يلوح منه تعارض في هذا الشأن.

وعدها جابر بن زيد السورة المائة والثلاث في ترتيب نزول السور، وقال: نزلت بعد سورة الحشر وقبل سورة النور. وهذا جار على رواية أنها نزلت عقب غزوة خيبر.

وعن ابن عباس أنها آخر سورة نزلت من القرآن فتكون على قوله السورة المائة وأربع عشرة نزلت بعد سورة براءة ولم تنزل بعدها سورة أخرى.

وعدد آياتها ثلاث وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلا أنها أطول من سورة الكوثر عدة كلمات، وأقصر من سورة العصر. وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات. وفي حديث ابن أبي شيبة عن أبي إسحاق السبعي في حديث: «طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصلى عبد الرحمان بن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن: إنا أعطيناك الكوثر [الكوثر: ١] وإذا جاء نصر الله والفتح [النصر: ١] .

أغراضها

والغرض منها الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إن كان نزولها عند منصرف النبيء صلى الله عليه وسلم من خيبر كما قال ابن عباس في أحد قوليه.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨٨/٣٠

والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة. ووعده بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية الحد الذي لا يفي بما تطلبه همته الملكية بحيث يكون قد ساوى الحد الملكي الذي وصفه الله تعالى في الملائكة بقوله: يسبحون الليل والنهار لا يفترون [الأنبياء". (١)

٧٠٩. ٧٠٩-"قد قلت لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر

وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه عن تعرضه الثناء

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخلو عن تسبيح الله فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح ودخول الأمة في الإسلام.

وعطف الأمر باستغفار الله تعالى على الأمر بالتسبيح مع الحمد يقتضي أنه من حيز جواب إذا، وأنه استغفار يحصل مع الحمد مثل ما قرر في فسبح بحمد ربك فيدل على أنه استغفار خاص لأن الاستغفار الذي يعم طلب غفران التقصير ونحوه مأمور به من قبل وهو من شأن النبيء صلى الله عليه وسلم فقد

قال: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة»

فكان تعليق الأمر بالتسبيح وبالاستغفار على حصول النصر والفتح إيماء إلى تسبيح واستغفار يحصل بهما تقرب لم ينو من قبل، وهو التهيؤ للقاء الله، وأن حياته الدنيوية أو شكت على الانتهاء، وانتهاء أعمال الطاعات والقربات التي تزيد النبيء صلى الله عليه وسلم في رفع درجاته عند ربه فلم يبق إلا أن يسأل ربه التجاوز عما يعرض له من اشتغال ببعض الحظوظ الضرورية للحياة أو من اشتغال بمهم من أحوال الأمة يفوته بسببه أمر آخر هو أهم منه، مثل فداء أسرى بدر مع فوات مصلحة استئصالهم الذي هو أصلح للأمة فعوتب عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨٩/٣٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى [الأنفال: ٦٧] الآية، أو من ضرورات الإنسان كالنوم والطعام التي تنقص من حالة شبهه بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فكان هذا إيذانا باقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتقاله من حياة تحمل أعباء الرسالة إلى حياة أبدية في العلويات الملكية.
والكلام من قبيل الكناية الرمزية وهي لا تنافي إرادة المعنى الصريح بأن يحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإكثار من قول ذلك. وقد دل ذوق الكلام بعض ذوي الأفهام النافدة من الصحابة على هذا المعنى وغاصب عليه مثل
أبي بكر وعمر والعباس وابنه عبد الله وابن مسعود، فعن مقاتل: «لما نزلت قرأها". (١)

٧١٠. ٧١٠-"ومقتضى الظاهر أن يقول: فسبح بحمده، لتقدم اسم الجلالة في قوله: إذا جاء نصر الله فعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وهو ربك لما في صفة (رب) وإضافتها إلى ضمير المخاطب من **الإيماء** إلى أن من حكمة ذلك النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام نعمة أنعم الله بها عليه إذا حصل هذا الخير الجليل بواسطته فذلك تكريم له وعناية به وهو شأن تلطف الرب بالمربوب، لأن معناه السيادة المرفوقة بالرفق والإبلاغ إلى الكمال.
وقد انتهى الكلام عند قوله: واستغفره وقد
روي: «أن النبيء صلى الله عليه وسلم كان في قراءته يقف عند واستغفره ثم يكمل السورة» . إنه كان توابا تذييل للكلام السابق كله وتعليل لما يقتضي التعليل فيه من الأمر باستغفار ربه باعتبار الصريح من الكلام السابق كما سيتبين لك.
وتواب: مثال مبالغة من تاب عليه. وفعل تاب المتعدي بحرف (على) يطلق بمعنى:
وفق للتوبة، أثبته في «اللسان» و «القاموس» ، وهذا الإطلاق خاص بما أسند إلى الله.
وقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي: إن، وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه.
وحيث كان توكيد ب (إن) هنا غير مقصود به رد إنكار ولا إزالة تردد إذ لا يفرضان في جانب المخاطب صلى الله عليه وسلم، فقد تمحض (إن) لإفادة الاهتمام بالخبر بتأكيده.

(١) التحرير والتنوير ٥٩٤/٣٠

وقد تقرر أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء فاء الترتيب والتسبب وتفيد التعليل وربط الكلام بما قبله كما تفيده الفاء، وقد تقدم غير مرة، منها عند قوله تعالى: إنك أنت العليم الحكيم في سورة البقرة [٣٢] ، فالمعنى: هو شديد القبول لتوبة عباده كثير قبوله إياها.

وإذ قد كان الكلام تذييلا وتعليلا للكلام السابق تعين أن حذف متعلق توابا يقدر بنحو: على التائبين. وهذا المقدر مراد به العموم، وهو عموم". (١)

٧١١. ٧١١-"للتوبة **إيماء** إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى، فإنه لا يسأل عما يفعل بعباده، لولا تفضله بما بين لهم من مراده، ولأن وصف (تواب) أشد ملاءمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة أفواجا لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرخوة.

وروي في «الصحيح» عن عائشة قالت: «ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت

عليه سورة: إذا جاء نصر الله والفتح إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن»

أي يتأول الأمر في قوله: فسبح بحمد ربك واستغفره على ظاهره كما تأوله في مقام آخر على معنى اقتراب أجله صلى الله عليه وسلم.". (٢)

٧١٢. ٧١٢-"شواه، ثم جاء منه صلي كأفعال الإحساس مثل فرح ومرض. ونصب نارا على نزع الخافض.

ووصف النار ب ذات لهب لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وبين كفره إذ هو أبو لهب والنار ذات لهب.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩٦/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٥٩٨/٣٠

وهو ما تقدم الإيماء إليه بذكر كنيته كما قدمناه آنفا، وفي وصف النار بذلك زيادة كشف لحقيقة النار وهو مثل التأكيد.

وبين لفضي لهب الأول ولهب الثاني الجناس التام.

[٤، ٥]

[سورة المسد (١١١) : الآيات ٤ إلى ٥]

وامرأته حمالة الحطب (٤) في جيدها حبل من مسد (٥)

أعقب ذم أبي لهب ووعيده بمثل ذلك لامرأته لأنها كانت تشاركه في أذى النبيء صلى الله عليه وسلم وتعينه عليه.

وامرأته: أي زوجه، قال تعالى في قصة إبراهيم: وامرأته قائمة [هود: ٧١] وفي قصة لوط: إلا امرأته كانت من الغابرين [الأعراف: ٨٣] وفي قصة نسوة يوسف: امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه [يوسف: ٣٠] .

وامرأة أبي لهب هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وقيل: اسمها العوراء، فقيل هو وصف وأنها كانت عوراء، وقيل:

اسمها، وذكر بعضهم: أن اسمها العواء بهمزة بعد الواو.

وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوك فتضعه في الليل في طريق النبيء صلى الله عليه وسلم الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه.

فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا، فأنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سببا لعذاب أعز الناس عليها.". (١)

٧١٣. ٧١٣-"فقوله: وامرأته عطف على الضمير المستتر في سيصلى [المسد: ٣] أي وتصلى امرأته نارا.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٥

وقوله: حمالة الحطب قرأه الجمهور برفع حمالة على أنه صفة لامرأته فيحتمل أنها صفتها في جهنم أنها ويحتمل أنها صفتها التي كانت تعمل في الدنيا بجلب حطب العضاه لتضعه في طريق النبيء صلى الله عليه وسلم على طريقة التوجيه **والإيماء** إلى تعليل تعذيبها بذلك.

وقرأه عاصم بنصب حمالة على الحال من امرأته وفيه من التوجيه **والإيماء** ما في قراءة الرفع.

وجملة: في جيدها حبل من مسد صفة ثانية أو حال ثانية وذلك إخبار بما تعامل به في الآخرة، أي جعل لها حبل في عنقها تحمل فيه الحطب في جهنم لإسعار النار على زوجها جزاء مماثلا لعملها في الدنيا الذي أغضب الله تعالى عليها.

والجيد: العنق، وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محل القلادة منه فقل أن يذكر العنق في وصف النساء في الشعر العربي إلا إذا كان عنقا موصوفا بالحسن وقد جمعهما امرؤ القيس في قوله:

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطل

قال السهيلي في «الروض» : «والمعروف أن يذكر العنق إذا ذكر الحلي أو الحسن فإنما حسن هنا ذكر الجيد في حكم البلاغة لأنها امرأة والنساء تحلي أجيادهن وأم جميل لا حلي لها في الآخرة إلا الحبل المجعول في عنقها فلما أقيم لها ذلك مقام الحلي ذكر الجيد معه، ألا ترى إلى قول الأعشى:

يوم تبدي لنا قتيلة عن جي ... د أسيل تزينه الأطواق

ولم يقل عن عنق، وقول الآخر:

وأحسن من عقد المليحة جيدها

ولم يقل عنقها ولو قال لكان غثا من الكلام. اهـ". (١)

٧١٤. ٧١٤-"إلى الله والدا.

وفيه **الإيماء** إلى أن من يكون مولودا مثل عيسى لا يكون إلها لأنه لو كان الإله مولودا لكان وجوده مسبوقا بعدم لا محالة، وذلك محال لأنه لو كان مسبوقا بعدم لكان مفتقرا إلى من

---

(١) التحرير والتنوير ٦٠٦/٣٠

يخصصه بالوجود بعد العدم، فحصل من مجموع جملة: لم يلد ولم يولد
إبطال أن يكون الله والدا لمولود، أو مولودا من والد بالصراحة. وبطلت إلهية كل مولود بطريق الكناية فبطلت العقائد المبنية على تولد الإله مثل عقيدة (زرادشت) الثانوية القائلة بوجود إلهين: إله الخير وهو الأصل، وإله الشر وهو متولد عن إله الخير، لأن إله الخير وهو المسمى عندهم (يزدان) فكر فكرة سوء فتولد منه إله الشر المسمى عندهم (أهرمن) ، وقد أشار إلى مذهبهم أبو العلاء بقوله:

قال أناس باطل زعمهم ... فراقبوا الله ولا تزعمن

فكر (يزدان) على غرة ... فصيغ من تفكيره (أهرمن)

وبطلت عقيدة النصارى بإلهية عيسى عليه السلام بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الإله لا يكون إلا إلها بأن الإله يستحيل أن يكون له ولد فليس عيسى بابن لله، وبأن الإله يستحيل أن يكون مولودا بعد عدم. فالمولود المتفق على أنه مولود يستحيل أن يكون إلها فبطل أن يكون عيسى إلها.

فلما أبطلت الجملة الأولى إلهية إله غير الله بالأصالة، وأبطلت الجملة الثانية إلهية غير الله بالاستحقاق، أبطلت هذه الجملة إلهية غير الله بالفرعية والتولد بطريق الكناية.

وإنما نفي أن يكون الله والدا وأن يكون مولودا في الزمن الماضي، لأن عقيدة التولد ادعت وقوع ذلك في زمن مضى، ولم يدع أحد أن الله سيتخذ ولدا في المستقبل.

[٤]

[سورة الإخلاص (١١٢) : آية ٤]

ولم يكن له كفوا أحد (٤)

في معنى التذييل للجمل التي قبلها لأنها أعم من مضمونها لأن تلك الصفات المتقدمة صريحها وكنايتها وضمنيها لا يشبهه فيها غيره، مع إفادة هذه انتفاء". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٦١٩/٣٠

٧١٥.   ٧١٥-"وعدد آيها ست آيات، وذكر في «الإتقان» قولا: إنها سبع آيات وليس معزوا لأهل

أغراضها

إرشاد النبيء صلى الله عليه وسلم لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبيء صلى الله عليه وسلم وإفساد إرشاده الناس ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومع السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى.

[١- ٦]

[سورة الناس (١١٤) : الآيات ١ إلى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أعوذ برب الناس (١) ملك الناس (٢) إله الناس (٣) من شر الوسواس الخناس (٤)
الذي يوسوس في صدور الناس (٥) من الجنة والناس (٦)

شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلا أن سورة الفلق تعوذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين.

والقول في الأمر بالقول، وفي المقول، وفي أن الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم، والمقصود شموله أمته، كالقول في نظيرة من سورة الفلق سواء.

وعرف (رب) بإضافته إلى الناس دون غيرهم من المربوبين لأن الاستعاذة من شر يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيضلون ويضلون، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس، فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ومن يلقى إليهم ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين كما يقال لمولى العبد: يا مولى فلان كف عني عبدك.

وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبا مدرجا فإن الله خالقهم، ثم هم غير خارجين

عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بيانا بوصف". (١)

٧١٦. ٧١٦-"أردف بما يدل على عقابهم، ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له. ولأجل هذا المقصد عاد الكلام إلى بقية عقوبات المشركين بقوله تعالى:

أو يعذبهم.

ولكون التذكير بيوم بدر وقع في خلال الإشارة إلى وقعة أحد، كأن في هذا التقسيم **إيماء** إلى ما يصلح بيانا لحكمة الهزيمة اللاحقة المسلمين يوم أحد، إذ كان في استبقاء كثير من المشركين، لم يصبهم القتل يومئذ، ادخار فريق عظيم منهم للإسلام فيما بعد، بعد أن حصل رعبهم من المسلمين بوقعة بدر، وإن حسبوا للمسلمين أي حساب بما شاهدوه من شجاعتهم يوم أحد، وإن لم ينتصروا. ولا يستقيم أن يكون قوله: ليس لك من الأمر شيء متعلقا بأحوال يوم أحد: لأن سياق الكلام ينبو عنه، وحال المشركين يوم أحد لا يناسبه قوله: ليقطع طرفا من الذين كفروا إلى قوله: خائبين.

ووقع في «صحيح مسلم» ، عن أنس بن مالك: أن النبيء صلى الله عليه وسلم شج وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد، وجاء المسلمون يمسحون الدم عن وجه نبيهم، فقال النبيء- عليه السلام-: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»

أي في حال أنه يدعوهم إلى الخير عند ربهم، فنزلت الآية، ومعناه: لا تستبعد فلاحهم. ولا شك أن قوله فنزلت هذه الآية متأول على إرادة:: فذكر النبيء صلى الله عليه وسلم بهذه الآية، لظهور أن ما ذكروه غير صالح لأن يكون سببا لأن النبيء تعجب من فلاحهم أو استبعده، ولم يدع لنفسه شيئا، أو عملا، حتى يقال: «ليس لك من الأمر شيء» .

وروى الترمذي: أن النبيء صلى الله عليه وسلم دعا على أربعة من المشركين، وسمى أناسا، فنزلت هذه الآية لنهيه عن ذلك، ثم أسلموا

. وقيل:

إنه هم بالدعاء، أو استأذن الله أن يدعو عليهم بالاستيصال، فنهي. ويرد هذه الوجوه ما

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٢

في «صحيح مسلم» ، عن ابن مسعود، قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيئا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون

. و". (١)

٧١٧. ٧١٧-"الله تعالى على الإشراك به، ومن حكمته تعالى أن رتب على الأمور الخبيثة آثارا خبيثة، فإن الشرك لما كان اعتقاد تأثير من لا تأثير له، وكان ذلك الاعتقاد يرتكز في نفوس معتقديه على غير دليل، كان من شأن معتقده أن يكون مضطرب النفس متحيرا في العاقبة في تغلب بعض الآلهة على بعض، فيكون لكل قوم صنم هم أخص به، وهم في تلك الحالة يعتقدون أن

لغيره من الأصنام مثل ما له من القدرة والغيرة. فلا تزال آلهتهم في مغالبة ومنافرة. كما لا يزال أتباعهم كذلك، والذين حالهم كما وصفنا لا يستقر لهم قرار في الثقة بالنصر في حروبهم، إذ هم لا يدرون هل الربح مع آلهتهم أم مع أضدادها، وعليه فقوله: ما لم ينزل به سلطانا صلة أجريت على المشرك به ليس القصد بها تعريف الشركاء، ولكن قصد بها **الإيماء** إلى أنه من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم، إذ هم على غير يقين فيما أشركوا واعتقدوا، فقلوبهم وجلة متزلزلة، إذ قد علم كل أحد أن الشركاء يستحيل أن ينزل بهم سلطان. فإن قلت: ما ذكرته يقتضي أن الشرك سبب في إلقاء الرعب في قلوب أهله، فيتعين أن يكون الرعب نازلا في قلوبهم من قبل هذه الوقعة، والله يقول سنلقي» أي في المستقبل، قلت: هو كذلك إلا أن هذه الصفات تستكن في النفوس حتى يدعو داعي ظهورها، فالرعب والشجاعة صفتان لا تظهران إلا عند القتال، وتقويان وتضعفان، فالشجاع تزيد شجاعته بتكرر الانتصار، وقد ينزوي قليلا إذا انهزم ثم تعود له صفته سرعى. كما وصفه عمرو بن الإطنابة في قوله:

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

وقول الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

---

(١) التحرير والتنوير ٨١/٤

وكذلك الرعب والجبن قد يضعف عند حصول بارقة انتصار، فالمشركون لما انهزموا بادىء الأمر يوم أحد، فلت عزيمتهم، ثم لما ابتلى الله المؤمنين بالهزيمة راجعهم شيء من الشجاعة والازدهاء، ولكنهم بعد انصرافهم". (١)

٧١٨. ٧١٨-"[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٧]

إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم (١٧٧)

تكرير لجملة إنهم لن يضروا الله شيئا قصد به، مع التأكيد، إفادة هذا الخبر استقلالا للاهتمام به بعد أن ذكر على وجه التعليل لتسلية الرسول. وفي اختلاف الصلتين **إيماء** إلى أن مضمون كل صلة منهما هو سبب الخبر الثابت لموصولها، وتأكيد لقوله:

إنهم لن يضروا الله شيئا المتقدم، كقول لبيد:

كدخان نار ساطع أسنامها بعد قوله:

كدخان مشعلة يشب ضرامها مع زيادة بيان اشتهارهم هم بمضمون الصلة.

والاشتراء مستعار للاستبدال كما تقدم في قوله تعالى: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى في سورة البقرة [١٦] .

[١٧٨]

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٨]

ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين (١٧٨)

عطف على قوله: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا [آل عمران: ١٦٩] والمقصود مقابلة الإعلام بخلاف الحسبان في حالتين: إحداهما تلوح للناظر حالة ضر، والأخرى تلوح حالة خير، فأعلم الله أن كلتا الحالتين على خلاف ما يتراءى للناظرين.

ويجوز كونه معطوفا على قوله: ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [آل عمران: ١٧٦] إذ نهاه عن أن يكون ذلك موجبا لحزنه، لأنهم لا يضرون الله شيئا، ثم ألقى إليه خبرا

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٢٤

لقصد إبلاغه إلى المشركين وإخوانهم المنافقين: أن لا يحسبوا أن بقاءهم نفع لهم بل هو إملاء لهم يزدادون به آثاما، ليكون أخذهم بعد". (١)

٧١٩. ٧١٩-"الحرص في الإيمان بوحدانيته، إذ الرب هو المالك الذي يرب مملوكه أي، يدبر شؤونه، وليتأتى بذكر لفظ (الرب) طريق الإضافة الدالة على أنهم محقوقون بتقواه حق التقوى، والدالة على أن بين الرب والمخاطبين صلة تعد إضاعتها حماقة وضلالا. وأما التقوى في قوله:

واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام فالمقصد الأهم منها: تقوى المؤمنين بالحذر من التساهل في حقوق الأرحام واليتامى من النساء والرجال. ثم جاء باسم الموصول الذي خلقكم للإيماء إلى وجه بناء الخبر لأن الذي خلق الإنسان حقيق بأن يتقى.

ووصل خلقكم بصلة من نفس واحدة إدماج للتنبيه على عجيب هذا الخلق وحقه بالاعتبار.

وفي الآية تلويح للمشركين بأحقية اتباعهم دعوة الإسلام، لأن الناس أبناء أب واحد، وهذا الدين يدعو الناس كلهم إلى متابعته ولم يخص أمة من الأمم أو نسبا من الأنساب، فهو جدير بأن يكون دين جميع البشر، بخلاف بقية الشرائع فهي مصرحة باختصاصها بأمم معينة. وفي الآية تعريض للمشركين بأن أولى الناس بأن يتبعوه هو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه من ذوي رحمهم. وفي الآية تمهيد لما سيبين في هذه السورة من الأحكام المرتبة على النسب والقرابة.

والنفس الواحدة: هي آدم. والزوج: حواء، فإن حواء أخرجت من آدم. من ضلعه، كما يقتضيه ظاهر قوله: منها.

و (من) تبعيضية. ومعنى التبعيض أن حواء خلقت من جزء من آدم. قيل: من بقية الطينة التي خلق منها آدم. وقيل: فصلت قطعة من ضلعه وهو ظاهر الحديث الوارد في «الصحيحين» .

ومن قال: إن المعنى وخلق زوجها من نوعها لم يأت بطائل، لأن ذلك لا يختص بنوع الإنسان فإن أنثى كل نوع هي من نوعه.

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٧٤

وعطف قوله: وخلق منها زوجها على خلقكم من نفس واحدة، فهو صلة ثانية. وقوله: وبث منهما صلة ثالثة لأن الذي يخلق هذا الخلق العجيب جدير بأن". (١)

٧٢٠. ٧٢٠-"من أيدي الناس تقاربوا في الحاجة والخصاصة، فأصبحوا في ضنك وبؤس، واحتاجوا إلى قبيلة أو أمة أخرى وذلك من أسباب ابتزاز عزهم، وامتلاك بلادهم، وتصيير منافعهم لخدمة غيرهم، فلأجل هاته الحكمة أضاف الله تعالى الأموال إلى جميع المخاطبين ليكون لهم الحق في إقامة الأحكام التي تحفظ الأموال والثروة العامة.

وهذه إشارة لا أحسب أن حكيما من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها. وقد أبعد جماعة جعلوا الإضافة لأدنى ملابسة، لأن الأموال في يد الأولياء، وجعلوا الخطاب للأولياء خاصة. وجماعة جعلوا الإضافة للمخاطبين لأن الأموال من نوع أموالهم، وإن لم تكن أموالهم حقيقة، وإليه مال الزمخشري. وجماعة جعلوا الإضافة لأن السفهاء من نوع المخاطبين فكأن أموالهم أموالهم وإليه مال فخر الدين. وقارب ابن العرب إذ قال: «لأن الأموال مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلى يد وتخرج من ملك إلى ملك» وبما ذكرته من البيان كان لكلمته هذه شأن. وأبعد فريق آخرون فجعلوا الإضافة حقيقية أي لا تؤتوا- يا أصحاب الأموال- أموالكم لمن يضيعها من أولادكم ونسائكم، وهذا أبعد الوجوه، ولا إخال الحامل على هذا التقدير إلا الحيرة في وجه الجمع بين كون الممنوعين من الأموال السفهاء، وبين إضافة تلك الأموال إلى ضمير المخاطبين، وإنما وصفته بالبعد لأن قائله جعله هو المقصود من الآية ولو جعله وجها جائزا يقوم من لفظ الآية لكان له وجه وجيه بناء على ما تقرر في المقدمة التاسعة.

وأجري على الأموال صفة تزيد إضافتها إلى المخاطبين وضوحا وهي قوله: التي جعل الله لكم قياما فجاء في الصفة بموصول **إيماء** إلى تعليل النهي، وإيضاحا لمعنى الإضافة، فإن (قياما) مصدر على وزن فعل بمعنى فعال: مثل عوذ بمعنى عياذ، وهو من الواوي وقياسه قوم، إلا أنه أعل بالياء شذوذا كما شذ جياد في جمع جواد وكما شذ طيال في لغة ضبة في جمع طويل، قصدوا قلب الواو ألفا بعد الكسرة كما فعلوه في قيام ونحوه، إلا أن ذلك في وزن فعال مطرد،

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢١٥

وفي غيره شاذ لكثرة فعال في المصادر، وقلة
فعل فيها، وقيم من غير الغالب. كذا قرأه نافع، وابن عامر: «قيما» بوزن فعل، وقرأه الجمهور «قياما» ، والقيام ما به يتقوم المعاش وهو واوي أيضا". (١)

٧٢١. ٧٢١-"البلوغ. ومن طلب الرجل الزواج عند بلوغه، وبلوغ صلاحية الزواج تختلف باختلاف البلاد في الحرارة والبرودة، وباختلاف أمزجة أهل البلد الواحد في القوة والضعف، والمزاج الدموي والمزاج الصفراوي، فلذلك أحاله القرآن على بلوغ أمد النكاح، والغالب في بلوغ البنت أنه أسبق من بلوغ الذكر، فإن تخلفت عن وقت مظنتها فقال الجمهور: يستدل بالسن الذي لا يتخلف عنه أقصى البلوغ عادة، فقال مالك، في رواية ابن القاسم عنه: هو ثمان عشرة سنة للذكور والإناث، وروي مثله عن أبي حنيفة في الذكور، وقال: في الجاري سبع عشرة سنة، وروى غير ابن القاسم عن مالك أنه سبع عشرة سنة. والمشهور عن أبي حنيفة: أنه تسع عشرة سنة للذكور وسبع عشرة للبنات، وقال الجمهور: خمس عشرة سنة. قاله القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وإسحاق، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وابن الماجشون، وبه قال أصبغ، وابن وهب، من أصحاب مالك، واختاره الأبهري من المالكية، وتمسكوا بحديث ابن عمر أنه عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم أحد وهو ابن خمس عشرة فأجازه. ولا حجة فيه إذ ليس يلزم أن يكون بلوغ عبد الله بن عمر هو معيار بلوغ عموم المسلمين، فصادف أن رآه النبيء صلى الله عليه وسلم وعليه ملامح الرجال، فأجازه، وليس ذكر السن في كلام ابن عمر إيماء إلى ضبط الإجازة. وقد غفل عن هذا ابن العربي في أحكام القرآن، فتعجب من ترك هؤلاء الأئمة تحديد سن البلوغ بخمس عشرة سنة، والعجب منه أشد من عجبه منهم، فإن قضية ابن عمر قضية عين، وخلاف العلماء في قضايا الأعيان معلوم، واستدل الشافعية بما
روي أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كتب ما له وما عليه، وأقيمت عليه الحدود

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٣٥

. وهو حديث ضعيف لا ينبغي الاستدلال به.
ووقت الابتلاء يكون بعد التمييز لا محالة، وقبل البلوغ: قاله ابن المواز عن مالك، ولعل وجهه أن الابتلاء قبل البلوغ فيه تعريض بالمال للإضاعة لأن عقل اليتيم غير كامل، وقال البغداديون من المالكية: الابتلاء قبل البلوغ. وعبر عن استكمال". (١)

٧٢٢. ٧٢٢-"والأولاد جمع ولد بوزن فعل مثل أسد ووثن، وفيه لغة ولد- بكسر الواو وسكون اللام- وكأنه حينئذ فعل الذي بمعنى المفعول كالذبح والسلخ. والولد اسم للابن ذكرا كان أو أنثى، ويطلق على الواحد وعلى الجماعة من الأولاد، والوارد في القرآن بمعنى الواحد وجمعه أولاد.
وفي هنا للظرفية المجازية، جعلت الوصية كأنها مظروفة في شأن الأولاد لشدة تعلقها به كاتصال المظروف بالظرف، ومجرورها محذوف قام المضاف إليه مقامه، لظهور أن ذوات الأولاد لا تصلح ظرفا للوصية، فتعين تقدير مضاف على طريقة دلالة الاقتضاء، وتقديره: في إرث أولادكم، والمقام يدل على المقدر على حد حرمت عليكم أمهاتكم [النساء: ٢٣] فجعل الوصية مظروفة في هذا الشأن لشدة تعلقها به واحتوائه عليها.
وجملة: للذكر مثل حظ الأنثيين بيان لجملة يوصيكم لأن مضمونها هو معنى مضمون الوصية، فهي مثل البيان في قوله تعالى: فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم وتقديم الخبر على المبتدأ في هذه الجملة للتنبيه من أول الأمر على أن الذكر صار له شريك في الإرث وهو الأنثى لأنه لم يكن لهم به عهد من قبل إذ كان الذكور يأخذون المال الموروث كله ولا حظ للإناث، كما تقدم آنفا في تفسير قوله تعالى: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون [النساء: ٧] .

وقوله: للذكر مثل حظ الأنثيين جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، ولم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به، فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم، وقد كان هذا المراد صالحا لأن يؤدى بنحو: للأنثى نصف حظ ذكر، أو للأنثيين مثل حظ ذكر، إذ ليس المقصود إلا بيان المضاعفة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/٤

ولكن قد أوثر هذا التعبير لنكتة لطيفة وهي **الإيماء** إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر، إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات.

وقوله: فإن كن نساء فوق اثنتين إلخ معاد الضمير هو لفظ الأولاد، وهو". (١)

٧٢٣. ٧٢٣-"فإذا تزول تزول عن متخمط ... تخشى بوادره على الأقران

وقوله تعالى: ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا [القصص: ٦٣] والمقصد من التعرض لإرادة الذين يتبعون الشهوات تنبيه المسلمين إلى دخائل أعدائهم، ليعلموا الفرق بين مراد الله من الخلق. ومراد أعوان الشياطين، وهم الذين يتبعون الشهوات.

ولذلك قدم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: والله يريد أن يتوب عليكم ليدل على التخصيص الإضافي. أي الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي يحرضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي، وأما الذين يتبعون الشهوات فيريدون انصرافكم عن الحق، وميلكم عنه إلى المعاصي. وإطلاق الإرادة على رغبة أصحاب الشهوات في ميل المسلمين عن الحق لمشاكلة يريد الله ليبين لكم [النساء: ٢٦] . والمقصود: ويحب الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا. ولما كانت رغبتهم في ميل المسلمين عن الحق رغبة لا تخلو عن سعيهم لحصول ذلك، أشبهت رغبتهم إرادة المريد للفعل، ونظيره قوله تعالى- بعد هذه الآية- يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل [النساء: ٤٤] .

وحذف متعلق تميلوا لظهوره من قرينة المقام، وأراد بالذين يتبعون الشهوات الذين تغلبهم شهواتهم على مخالفة ما شرعه الله لهم: من الذين لا دين لهم، وهم الذين لا ينظرون في عواقب الذنوب ومفاسدها وعقوبتها، ولكنهم يرضون شهواتهم الداعية إليها. وفي ذكر هذه الصلة هنا تشنيع لحالهم، ففي الموصول **إيماء** إلى تعليل الخبر.

والمراد بهم المشركون: أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح أزواج الآباء، واليهود أرادوا أن يتبعوهم في نكاح الأخوات من الأب ونكاح العمات والجمع بين الأختين. والميل العظيم هو

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٧/٤

البعد عن أحكام الشرع والطعن فيها. فكان المشركون يحببون للمسلمين الزنى ويعرضون عليهم البغايا. وكان المجوس يطعنون في تحريم ابنة الأخ وابنة الأخت ويقولون: لماذا أحل دينكم ابنة العمة وابنة الخالة. وكان اليهود يقولون: لا تحرم الأخت التي للأب ولا تحرم العمة ولا الخالة ولا العم ولا الخال. وعبر عن جميع ذلك بالشهوات لأن مجيء الإسلام قد بين انتهاء إباحة ما أبيح في الشرائع الأخرى، بله ما كان حراما في الشرائع كلها وتساهل فيه أهل الشرك.". (١)

٧٢٤. ٧٢٤-"موصولة، فالعائدان من الصلتين محذوفان: أما المجرور فلأن اسم الموصول مجرور بحرف مثل الذي جر به الضمير المحذوف، وأما العائد المنصوب من صلة وبما أنفقوا فلأن العائد المنصوب يكثر حذفه من الصلة. والمراد بالبعض في قوله تعالى: فضل الله بعضهم هو فريق الرجال كما هو ظاهر من العطف في قوله: وبما أنفقوا من أموالهم فإن الضميرين للرجال.

فالتفضيل هو المزايا الجبلية التي تقتضي حاجة المرأة إلى الرجل في الذب عنها وحراستها لبقاء ذاتها، كما قال عمرو بن كلثوم:

يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

فهذا التفضيل ظهرت آثاره على مر العصور والأجيال، فصار حقا مكتسبا للرجال، وهذه حجة برهانية على كون الرجال قوامين على النساء فإن حاجة النساء إلى الرجال من هذه الناحية مستمرة وإن كانت تقوى وتضعف.

وقوله: وبما أنفقوا جيء بصيغة الماضي للإيماء إلى أن ذلك أمر قد تقرر في المجتمعات الإنسانية منذ القدم، فالرجال هم العائلون لنساء العائلة من أزواج وبنات.

وأضيفت الأموال إلى ضمير الرجال لأن الاكتساب من شأن الرجال، فقد كان في عصور البداوة بالصيد وبالغارة وبالغنائم والحرث، وذلك من عمل الرجال، وزاد اكتساب الرجال في عصور الحضارة بالغرس والتجارة والإجارة والأبنية، ونحو ذلك، وهذه حجة خطابية لأنها ترجع إلى مصطلح غالب البشر، لا سيما العرب. ويندر أن تتولى النساء مساعي من

(١) التحرير والتنوير ٢١/٥

الاكتساب، لكن ذلك نادر بالنسبة إلى عمل الرجل مثل استئجار الظئر نفسها وتنمية المرأة مالا ورثته من قرابتها.

ومن بديع الإعجاز صوغ قوله: بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم في قالب صالح للمصدرية وللموصولية، فالمصدرية مشعرة بأن القيامة سببها تفضيل من الله وإنفاق، والموصولية مشعرة بأن سببها ما يعلمه الناس من فضل الرجال ومن إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين: عالمهم وجاهلهم، كقول السموأل أو الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول". (١)

٧٢٥. ٧٢٥-"والقرب هنا مستعمل في معناه المجازي وهو التلبس بالفعل، لأن (قرب) حقيقة في الدنو من المكان أو الذات يقال: قرب منه- بضم الراء- وقربه- بكسر الراء- وهما بمعنى، ومن الناس من زعم أن مكسور الراء للقرب المجازي خاصة، ولا يصح.

وإنما اختير هذا الفعل دون لا تصلوا ونحوه للإشارة إلى أن تلك حالة منافية للصلاة، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام، ومن هنا كانت مؤذنة بتغير شأن الخمر، والتنفير منها، لأن المخاطبين يومئذ هم أكمل الناس إيمانا وأعلقهم بالصلاة، فلا يرمقون شيئا يمنعهم من الصلاة إلا بعين الاحتقار. ومن المفسرين من تأول الصلاة هنا بالمسجد من إطلاق اسم الحال على المحل كما في قوله تعالى: وصلوات ومساجد [الحج: ٤٠] ، ونقل عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن قالوا: كان جماعة من الصحابة يشربون الخمر ثم يأتون المسجد للصلاة مع رسول الله فنهاهم الله عن ذلك ولا يخفى بعده ومخالفته لمشهور الآثار.

وقوله: حتى تعلموا ما تقولون غاية للنهي وإيماء إلى علته، واكتفى بقوله (تقولون) عن تفعلون لظهور أن ذلك الحد من السكر قد يفضي إلى اختلال أعمال الصلاة، إذ العمل يسرع إليه الاختلال باختلال العقل قبل اختلال القول. وفي الآية إيذان بأن السكر الخفيف لا يمنع الصلاة يومئذ أو أريد من الغاية أنها حالة انتهاء السكر فتبقى بعدها النشوة. وسكارى جمع سكران، والسكران من أخذ عقله في الانغلاق، مشتق من السكر، وهو الغلق، ومنه سكر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٥

الحوض وسكر الباب وسكرت أبصارنا [الحجر: ١٥] .
ولما نزلت هذه الآية اجتنب المسلمون شرب الخمر في أوقات الصلوات فكانوا لا يشربون إلا بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح، لبعد ما بين هاتين الصلاتين وبين ما تليانهما، ثم أكمل مع تحريم قربان الصلاة في حالة السكر تحريم قربانها بدون طهارة.". (١)

٧٢٦. ٧٢٦-"وأحسب أن حكمة تشريعه تقرير لزوم الطهارة في نفوس المؤمنين، وتقرير حرمة الصلاة، وترفيع شأنها في نفوسهم، فلم تترك لهم حالة يعدون فيها أنفسهم مصلين بدون طهارة تعظيما لمناجاة الله تعالى، فلذلك شرع لهم عملا يشبه **الإيماء** إلى الطهارة ليستشعروا أنفسهم متطهرين، وجعل ذلك بمباشرة اليدين صعيد الأرض التي هي منبع الماء، ولأن التراب مستعمل في تطهير الآنية ونحوها، ينظفون به ما علق لهم من الأقذار في ثيابهم وأبدانهم وما عونهم، وما الاستجمار إلا ضرب من ذلك، مع ما في ذلك من تجديد طلب الماء لفاقده وتذكيره بأنه مطالب به عند زوال مانعه، وإذ قد كان التيمم طهارة رمزية اقتنعت الشريعة فيه بالوجه والكفين في الطهارتين الصغرى والكبرى، كما دل عليه حديث عمار بن ياسر، ويؤيد هذا المقصد أن المسلمين لما عدموا الماء في غزوة
المريسيع صلوا بدون وضوء فنزلت آية التيمم. هذا منتهى ما عرض لي من حكمة مشروعية التيمم بعد طول البحث والتأمل في حكمة مقنعة في النظر، وكنت أعد التيمم هو النوع الوحيد بين الأحكام الشرعية في معنى التعبد بنوعه، وأما التعبد ببعض الكيفيات والمقادير من أنواع عبادات أخرى فكثير، مثل عدد الركعات في الصلوات، وكأن الشافعي لما اشترط أن يكون التيمم بالتراب خاصة وأن ينقل المتيمم منه إلى وجهه ويديه، راعى فيه معنى التنظيف كما في الاستجمار، إلا أن هذا القول لم ينقل عند أحد من السلف، وهو ما سبق إلى خاطر
عمار بن ياسر حين تمرغ في التراب لما تعذر عليه الاغتسال، فقال له النبيء صلى الله عليه وسلم «يكفيك من ذلك الوجه والكفان»
. ولأجل هذا أيضا اختلف السلف في حكم التيمم، فقال عمر وابن مسعود: لا يقع التيمم

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/٥

بدلا إلا عن الوضوء دون الغسل، وأن الجنب لا يصلي حتى يغتسل سواء كان ذلك في الحضر أم في السفر. وقد تناظر في ذلك أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود: روى البخاري في كتاب التيمم قال أبو موسى لا بن مسعود: أرأيت إذا أجنب فلم يجد الماء كيف يصنع؟ قال عبد الله: لا يصلي حتى يجد الماء. فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبيء: كان يكفيك هكذا، فضرب بكفيه الأرض ثم مسح بهما وجهه وكفيه، قال ابن مسعود: ألم تر عمر لم يقنع منه بذلك، قال أبو موسى. فدعنا من قول عمار، كيف تصنع بهذه الآية وإن كنتم مرضى أو على سفر فما درى عبد الله ما يقول، فقال: إنا لو رخصنا لهم في هذا لأوشك إذا برد على". (١)

٧٢٧. ٧٢٧-"أنه الشرك، والإشارة بقوله: هؤلاء أهدى إلى الذين كفروا، وهو حكاية للقول بمعناه، لأنهم إنما قالوا: «أنتم أهدى من محمد وأصحابه» ، أو قال بعض اليهود لبعض في شأن أهل مكة هؤلاء أهدى، أي حين تناجوا وزوروا ما سيقولونه، وكذلك قوله من الذين آمنوا حكاية لقولهم بالمعنى نداء على غلطهم، لأنهم إنما قالوا: «هؤلاء أهدى من محمد وأتباعه» وإذ كان محمد وأتباعه مؤمنين فقد لزم من قولهم: إن المشركين أهدى من المؤمنين. وهذا محل التعجيب.

وعقب التعجيب بقوله أولئك الذين لعنهم الله. وموقع اسم الإشارة هنا في نهاية الرشاقة، لأن من بلغ من وصف حاله هذا المبلغ صار كالمشاهد، فناسب بعد قوله ألم تر أن يشار إلى هذا الفريق المدعى أنه مرئي، فيقال: (أولئك) . وفي اسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما سيذكر من الحكم لأجل ما تقدم من أحوالهم.

والصلة التي في قوله الذين لعنهم الله ليس معلوما للمخاطبين اتصاف المخبر عنهم بها اتصاف من اشتهر بها فالمقصود أن هؤلاء هم الذين إن سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هم.

ويجوز أن يكون المسلمون قد علموا أن اليهود ملعونون، فالمقصود من الصلة هو ما عطف عليها بقوله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. والموصول على كلا الاحتمالين فيه إيماء إلى تعليل الإخبار الضمني عنهم: بأنهم لا نصير لهم، لأنهم لعنهم الله، والذي

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٦٩

يلعنه لا نصير له. وهذا مقابل قوله في شأن المسلمين والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا [النساء: ٤٥] .". (١)

٧٢٨. ٧٢٨-"[سورة النساء (٤) : الآيات ٧٤ إلى ٧٦]

فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٧٤) وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦)

الفاء: إما للتفريع، تفريع الأمر على الآخر، أي فرع فليقاتل على خذوا حذركم فانفروا [النساء: ٧١] ، أو هي فاء فصيحة، أفصحت عما دل عليه ما تقدم من قوله:

خذوا حذركم وقوله: وإن منكم لمن ليبطئن [٧٢] لأن جميع ذلك اقتضى الأمر بأخذ الحذر، وهو مهيء لطلب القتال والأمر بالنفير والإعلام بمن حالهم حال المتردد المتقاعس، أي فإذا علمتم جميع ذلك، فالذين يقاتلون في سبيل الله هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة لا كل أحد.

ويشرون معناه يبيعون، لأن شرى مقابل اشترى، مثل با ع وابتاع وأكرى واكترى، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى في سورة البقرة [١٦] . فالذين يشرون الحياة الدنيا هم الذين يبذلونها ويرغبون في حظ الآخرة. وإسناد القتال المأمور بع إلى أصحاب هذه الصلة وهي: يشرون الحياة الدنيا بالآخرة للتنويه بفضل المقاتلين في سبيل الله، لأن في الصلة إيماء إلى علة الخبر، أي يبعثهم على القتال في سبيل الله بذلهم حياتهم الدنيا لطلب الحياة الأبدية، وفضيحة أمر المبطئين حتى يرتدعوا عن التخلف، وحتى يكشف المنافقون عن دخيلتهم، فكان". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٥

(٢) التحرير والتنوير ١٢١/٥

٧٢٩. ٧٢٩-"آنفا- يجعل الآية صالحة للاستدلال، وهو استدلال تقريبي لأن أصول الدين لا يستدل فيها بالظواهر كالعموم.

وجيء في حكاية قولهم: يقولوا هذه من عند الله- يقولوا هذه من عندك بكلمة (عند) للدلالة على قوة نسبة الحسنة إلى الله ونسبة السيئة للنبيء عليه الصلاة والسلام أي قالوا ما يفيد جزمهم بذلك الانتساب.

ولما أمر الله رسوله أن يجيبهم قال: قل كل من عند الله مشاكلة لقولهم، وإعرابا عن التقدير الأزلي عند الله.

وأما قوله: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فلم يؤت فيه بكلمة (عند) ، **إيماء** إلى أن ابتداء مجيء الحسنة من الله ومجيء السيئة من نفس المخاطب، ابتداء المتسبب لسبب الفعل، وليس ابتداء المؤثر في الأثر.

وقوله: وأرسلناك للناس رسولا عطف على قوله: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك للرد على قولهم: السيئة من عند محمد، أي أنك بعثت مبلغا شريعة وهاديا، ولست مؤثرا في الحوادث ولا تدل مقارنة الحوادث المؤلمة على عدم صدق الرسالة. فمعنى أرسلناك بعثناك كقوله وأرسلنا الرياح [الحجر:

٢٢] ونحوه. وللناس متعلق ب أرسلناك. وقوله رسولا حال من أرسلناك، والمراد بالرسول هنا معناه الشرعي المعروف عند أهل الأديان: وهو النبيء المبلغ عن الله تعالى، فهو لفظ لقيي دال على هذا المعنى، وليس المراد به اسم المفعول بالمعنى اللغوي ولهذا حسن مجيئه حالا مقيدة ل «أرسلناك» ، لاختلاف المعنيين، أي بعثناك مبلغا لا مؤثرا في الحوادث، ولا أمارة على وقوع الحوادث السيئة. وبهذا يزول إشكال مجيء هذه الحال غير مفيدة إلا التأكيد، حتى احتاجوا إلى جعل المجرور متعلقا ب رسولا، وأنه قدم عليه دلالة على الحصر باعتبار العموم المستفاد من التعريف، كما في «الكشاف» ، أي لجميع الناس لا لبعضهم، وهو تكلف لا داعي إليه، وليس المقام هذا الحصر.". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٣٤/٥

٧٣٠. ٧٣٠-"فلتؤجروا»

. ووصفها بالحسنة وصف كاشف لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة في الخير، وأما إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شر فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيئة، إذ لا يقال (شفع) للذي سعى بجلب سوء.

والنصيب: الحظ من كل شيء: خيرا كان أو شرا، وتقدم في قوله تعالى: أولئك لهم نصيب مما كسبوا في سورة البقرة [٢٠٢] .

والكفل- بكسر الكاف وسكون الفاء- الحظ كذلك، ولم يتبين لي وجه اشتقاقه بوضوح. ويستعمل الكفل بمعنى المثل، فيؤخذ من التفسيرين أن الكفل هو الحظ المماثل لحظ آخر، وقال صاحب «اللسان» : لا يقال هذا كفل فلان حتى يكون قد هيىء لغيره مثله، ولم يعز هذا، ونسبه الفخر إلى ابن المظفر، ولم يذكر ذلك أحد غير هذين فيما علمت، ولعله لا يساعد عليه الاستعمال. وقد قال الله تعالى: يؤتكم كفلين من رحمته [الحديد: ٢٨] . وهل يحتج بما قاله ابن المظفر- وابن المظفر هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي الأديب معاصر المتنبي-. وفي مفردات الراغب أن الكفل هو الحظ من الشر والشدة، وأنه مستعار من الكفل وهو الشيء الرديء، فالجزاء في جانب الشفاعة الحسنة بأنه نصيب إيماء إلى أنه قد يكون له أجر أكثر من ثواب من شفع عنده.

وجملة وكان الله على كل شيء مقيتا تذييل لجملة من يشفع شفاعة حسنة الآية، لإفادة أن الله يجازي على كل عمل بما يناسبه من حسن أو سوء.

والمقيت الحافظ، والرقيب، والشاهد، والمقتدر. وأصله عند أبي عبيدة الحافظ. وهو اسم فاعل من أقات إذا أعطى القوت، فوزنه مفعل وعينه واو. واستعمل مجازا في معاني الحفظ والشهادة بعلاقة اللزوم، لأن من يقيت أحدا فقد حفظه من الخصاصة أو من الهلاك، وهو هنا مستعمل في معنى الاطلاع، أو مضمن معناه، كما ينبيء عنه تعديته بحرف (على) . ومن أسماء الله تعالى المقيت، وفسره الغزالي بموصل الأقوات. فيؤول إلى معنى الرازق، إلا أنه أخص، وبمعنى المستولي على الشيء القادر عليه، وعليه يدل قوله تعالى: وكان الله على كل شيء

مقيتا فيكون راجعا إلى القدرة والعلم.". (١)

٧٣١. ٧٣١-"ومجيء صفتهم بطريقة الموصول لإفادة تعليل استحقاقهم العذاب الأليم، أي لأنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي اتخذوهم أولياء لأجل مضادة المؤمنين. والمراد بالكافرين مشركو مكة، أو أحبار اليهود، لأنه لم يبق بالمدينة مشركون صرحاء في وقت نزول هذه السورة، فليس إلا منافقون ويهود. وجملة أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله استئناف بياني باعتبار المعطوف وهو فإن العزة لله وقوله: أيبتغون هو منشأ الاستئناف، وفي ذلك **إيماء** إلى أن المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيدة، لأن معظم المنافقين من اليهود، بل اتخذوهم ليعتزوا بهم على المؤمنين، **وإيماء** إلى أن المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز، وفي ذلك نهاية التجهيل والذم. والاستفهام إنكار وتوبيخ، ولذلك صح التفريع عنه بقوله: فإن العزة لله جميعا أي لا عزة إلا به، لأن الاعتزاز بغيره باطل. كما قيل: من اعتز بغير الله هان.

وإن كان المراد بالكافرين اليهود فالاستفهام تهكم بالفريقين كقول المثل: كالمستغيث من الرمضاء بالنار. وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية.

وجملة وقد نزل عليكم في الكتاب إلخ يجوز أن تكون معطوفة على جملة بشر المنافقين تذكيرا للمسلمين بما كانوا أعلموا به مما يؤكد التحذير من مخالطتهم، فضمير الخطاب موجه إلى المؤمنين، وضمائر الغيبة إلى المنافقين، ويجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير (يتخذون) ، فيكون ضمير الخطاب في قوله: وقد نزل عليكم خطابا لأصحاب الصلة من قوله: الذين يتخذون الكافرين أولياء [النساء: ١٣٩] على طريقة الالتفات، كأنهم بعد أن أجريت عليهم الصلة صاروا معينين معروفين، فالتفت إليهم بالخطاب، لأنهم يعرفون أنهم أصحاب تلك الصلة، فلعلهم أن يقلعوا عن موالاة الكافرين. وعليه فضمير الخطاب للمنافقين، وضمائر الغيبة للكافرين، والذي نزل في الكتاب هو آيات نزلت قبل نزول هذه السورة في القرآن: في شأن كفر الكافرين والمنافقين

---

(١) التحرير والتنوير ٥/١٤٤

واستهزائهم.

قال المفسرون: إن الذي أحيل عليه هنا هو قوله تعالى في سورة [٦٨] الأنعام:

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره لأن شأن الكافرين يسري إلى الذين يتخذونهم أولياء، والظاهر أن الذي أحال الله عليه هو ما". (١)

٧٣٢. ٧٣٢-"تكرر في القرآن من قبل نزول هذه السورة نحو قوله في البقرة: وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن مما حصل من مجموعه تقرر هذا المعنى.

و (أن) في قوله: أن إذا سمعتم تفسيرية، لأن (نزل) تضمن معنى الكلام دون حروف القول، إذ لم يقصد حكاية لفظ (ما نزل) بل حاصل معناه. وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوفا، وهو بعيد.

وإسناد الفعلين: يكفر ويستهزأ إلى المجهول لتتأتى، بحذف الفاعل، صلاحية إسناد الفعلين إلى الكافرين والمنافقين. وفيه إيماء إلى أن المنافقين يركنون إلى المشركين واليهود لأنهم يكفرون بالآيات ويستهزئون، فتنثلج لذلك نفوس المنافقين، لأن المنافقين لا يستطيعون أن يتظاهروا بذلك للمسلمين فيشفي غليلهم أن يسمع المسلمون ذلك من الكفار.

وقد جعل زمان كفرهم واستهزائهم هو زمن سماع المؤمنين آيات الله. والمقصود أنه زمن نزول آيات الله أو قراءة آيات الله، فعدل عن ذلك إلى سماع المؤمنين، ليشير إلى عجيب تضاد الحالين، فلفي حالة اتصاف المنافقين بالكفر بالله والهزل بآياته يتصف المؤمنون بتلقي آياته والإصغاء إليها وقصد الوعي لها والعمل بها.

وأعقب ذلك بتفريع النهي عن مجالستهم في تلك الحالة حتى ينتقلوا إلى غيرها، لئلا يتوسل الشيطان بذلك إلى استضعاف حرص المؤمنين على سماع القرآن، لأن للأخلاق عدوى، وفي المثل «تعدي الصحاح مبارك الجرب» .

وهذا النهي يقتضي الأمر بمغادرة مجالسهم إذا خاضوا في الكفر بالآيات والاستهزاء بها. وفي النهي عن القعود إليهم حكمة أخرى: وهي وجوب إظهار الغضب لله من ذلك كقوله: تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق [الممتحنة: ١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٣٤

و (حتى) حرف يعطف غاية الشيء عليه، فالنهي عن القعود معهم غايته أم يكفوا عن الخوض في الكفر بالآيات والاستهزاء بها.

وهذا الحكم تدريج في تحريم موالاة المسلمين للكافرين، جعل مبدأ ذلك أن لا يحضروا مجالس كفرهم ليظهر التمايز بين المسلمين الخلص وبين المنافقين، ورخص". (١)

٧٣٣. ٧٣٣-"وجملة إن المنافقين مستأنفة استئنافا بيانيا، ثانيا إذ هي عود إلى أحوال المنافقين.

وتأكيد الخبر ب (إن) لإفادة أنه لا محيص لهم عنه.

والدرك: اسم جمع دركة، ضد الدرج اسم جمع درجة. والدركة المنزلة في الهبوط. فالشيء الذي يقصد أسفله تكون منازل التدلي إليه دركات، والشيء الذي يقصد أعلاه تكون منازل الرقي إليه درجات، وقد يطلق الاسمان على المنزلة الواحدة باختلاف الاعتبار وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل، أي في أذل منازل العذاب، لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حف به من الرذائل.

وقرأ الجمهور: في الدرك- بفتح الراء- على أنه اسم جمع دركة ضد الدرجة.

وقرأه عاصم. وحمزة، والكسائي، وخلف- بسكون الراء- وهما لغتان وفتح الراء هو الأصل، وهو أشهر.

والخطاب في ولن تجد لهم نصيرا لكل من يصح منه سماع الخطاب، وهو تأكيد للوعيد، وقطع لرجائهم، لأن العرب ألفوا الشفاعات والنجدات في المضائق. فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوهما.

واستثنى من هذا الوعيد من آمن من المنافقين، وأصلح حاله، واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، وأخلص دينه لله، فلم يشبه بتردد ولا تربص بانتظار من ينتصر من الفريقين: المؤمنين والكافرين، فأخبر أن من صارت حاله إلى هذا الخير فهو مع المؤمنين، وفي لفظ (مع) إيماء إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق لأن (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل.

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٣٥

وجيء باسم الإشارة في قوله: فأولئك مع المؤمنين لزيادة تمييز هؤلاء الذين تابوا، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة.
وقد علم الناس ما أعد الله للمؤمنين بما تكرر في القرآن، ولكن زاده هنا تأكيدا بقوله: وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما. وحرف التنفيس هنا دل على أن المراد من الأجر أجر الدنيا وهو النصر وحسن العاقبة وأجر الآخرة، إذ الكل مستقبل، وأن ليس المراد منه الثواب لأنه حصل من قبل.". (١)

٧٣٤. ٧٣٤-"إن تبدوا خيرا أو تخفوه إلا إذا خصص ذلك بإبداء الخير لمن ظلمهم، وإخفائه عمن ظلمهم.
وفي الحديث «أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك»
. [١٥٠- ١٥٢]

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٠ إلى ١٥٢]
إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (١٥١) والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما (١٥٢)
عادة القرآن عند التعرض إلى أحوال من أظهروا النواء للمسلمين أن ينتقل من صفات المنافقين، أو أهل الكتاب، أو المشركين إلى صفات الآخرين، فالمراد من الذين يكفرون بالله ورسله هنا هم اليهود والنصارى، قاله أهل التفسير. والأظهر أن المراد به اليهود خاصة لأنهم المختلطون بالمسلمين والمنافقين، وكان كثير من المنافقين يهودا وعبر عنهم بطريق الموصول دون الاسم لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه الخير، ومن شناعة صنيعهم ليناسب الإخبار عنهم باسم الإشارة بعد ذلك.
وجمع الرسل لأن اليهود كفروا بعيسى ومحمد- عليهما السلام-، والنصارى كفروا بمحمد

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٤٤

صلى الله عليه وسلم، فجمع الرسل باعتبار مجموع الكفار، أو أراد بالجمع الاثنين، أو أراد بالإضافة معنى الجنس فاستوى فيه صيغة الإفراد والجمع، لأن المقصود ذم من هذه صفتهم بدون تعيين فريق، وطريق العرب في مثل هذا أن يعبروا بصيغة الجموع وإن كان المعرض به واحدا كقوله تعالى: أم يحسدون الناس [النساء: ٥٤] وقوله: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل [النساء: ٣٧]". (١)

٧٣٥. ٧٣٥-"علما بالغلبة في لغة العرب على كتاب داود النبيء، وهو أحد أسفار الكتاب المقدس عند اليهود.

وعطفت جملة وآتينا داود زبورا على أوحينا إليك. ولم يعطف اسم داود على بقية الأسماء المذكورة قبله **للإيماء** إلى أن الزبور موحى بأن يكون كتابا.

وقرأ الجمهور زبورا- بفتح الزاي-، وقرأه حمزة وخلف- بضم الزاي-.

وقوله: ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل يعني في آي القرآن مثل: هود، وصالح، وشعيب، وزكرياء، ويحيى، وإلياس، واليسع، ولوط، وتبع. ومعنى قوله:

ورسلا لم نقصصهم عليك لم يذكرهم الله تعالى في القرآن، فمنهم من لم يرد ذكره في السنة: مثل حنظلة بن صفوان نبيء أصحاب الرس، ومثل بعض حكماء اليونان عند بعض علماء الحكمة. قال السهروردي في «حكمة الإشراق» : «منهم أهل السفارة» . ومنهم من ذكرته السنة: مثل خالد بن سنان العبسي.

وإنما ذكر الله تعالى هنا الأنبياء الذين اشتهروا عند بني إسرائيل لأن المقصود محاجتهم. وإنما ترك الله أن يقص على النبيء صلى الله عليه وسلم أسماء كثير من الرسل للاكتفاء بمن قصهم عليه، لأن المذكورين هم أعظم الرسل والأنبياء قصصا ذات عبر.

وقوله: وكلم الله موسى تكليما غير الأسلوب فعدل عن العطف إلى ذكر فعل آخر، لأن لهذا النوع من الوحي مزيد أهمية، وهو مع تلك المزية ليس إنزال كتاب من السماء، فإذا لم تكن عبرة إلا بإنزال كتاب من السماء حسب اقتراحهم، فقد بطل أيضا ما عدا الكلمات العشر المنزلة في الألواح على موسى- عليه السلام-.

(١) التحرير والتنوير ٦/٨

وكلام الله تعالى صفة مستقلة عندنا، وهي المتعلقة بإبلاغ مراد الله إلى الملائكة والرسل، وقد تواتر ذلك في كلام الأنبياء والرسل تواترا ثبت". (١)

٧٣٦. ٧٣٦-"حقيقة. وإظهار فعل يشهدون مع وجود حرف العطف للتأكيد. وحرف (لكن) بسكون النون مخفف لكن المشددة النون التي هي من أخوات (إن) وإذا خففت بطل عملها.

وقوله: وكفى بالله شهيدا يجري على الاحتمالين.

وقوله: بما أنزل إليك أنزله بعلمه وقع تحويل في تركيب الجملة لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل، ليكون أوقع في النفس. وأصل الكلام: يشهد بإنزال ما أنزله إليك بعلمه لأن قوله: بما أنزل إليك لم يفد المشهود به إلا ضمنا مع المشهود فيه إذ جيء باسم الموصول ليوصل بصلة فيها إيماء إلى المقصود، ومع ذلك لم يذكر المقصود من الشهادة الذي هو حق مدخول الباء بعد مادة شهد، فتكون جملة أنزله بعلمه مكملة معنى الشهادة. وهذا قريب من التحويل الذي يستعمله العرب في تمييز النسبة. وقال

الزمخشري: «موقع قوله: أنزله بعلمه من قوله: لكن الله يشهد بما أنزل إليك موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز» . فلعله يجعل جملة لكن الله يشهد بما أنزل إليك مستقلة بالفائدة، وأن معنى بما أنزل إليك بصحة ما أنزل إليك، وما ذكرته أعرق في البلاغة.

ومعنى أنزله بعلمه أي متلبسا بعلمه، أي بالغا الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلم من الله تعالى، ومعنى ذلك أنه معجز لفظا ومعنى، فكما أعجز البلغاء من أهل اللسان أعجز العلماء من أهل الحقائق العالية.

والباء في قوله: وكفى بالله شهيدا زائدة للتأكيد، وأصله: كفى الله شهيدا كقوله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا أو يضمن (كفى) معنى اقتنعوا، فتكون الباء للتعدية.

[١٦٧]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥/٦

[سورة النساء (٤) : آية ١٦٧]

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا". (١)

٧٣٧. ٧٣٧-"(١٦٧)

يجوز أن يكون المراد بالذين كفروا هنا أهل الكتاب، أي اليهود، فتكون الجملة بمنزلة الفذلكة للكلام السابق الراد على اليهود من التحاور المتقدم. وصدهم عن سبيل الله يحتمل أن يكون من صد القاصر الذي قياس مضارعه يصد- بكسر الصاد-، أي أعرضوا عن سبيل الله. أي الإسلام، أو هو من صد المتعدي الذي قياس مضارعه- بضم الصاد-، أي صدوا الناس. وحذف المفعول لقصد التكثير. فقد كان اليهود يتعرضون للمسلمين بالفتنة، ويقوون أوهام المشركين بتكذيبهم النبيء صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا المشركين، كما هو الغالب في إطلاق هذا الوصف في القرآن، فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا، انتقل إليه بمناسبة الخوض في مناواة أهل الكتاب للإسلام. وصدهم عن سبيل الله، أي صدهم الناس عن الدخول في الإسلام مشهور.

والضلال الكفر لأنه ضياع عن الإيمان، الذي هو طريق الخير والسعادة، فإطلاق الضلال على الكفر استعارة مبنية على استعارة الطريق المستقيم للإيمان. ووصف الضلال بالبعيد مع أن البعد من صفات المسافات هو استعارة البعد لشدة الضلال وكماله في نوعه، بحيث لا يدرك مقداره، وهو تشبيه شائع في كلامهم: أن يشبهوا بلوغ الكمال بما يدل على المسافات والنهايات كقولهم: بعيد الغور، وبعيد القعر، ولا نهاية له، ولا غاية له، ورجل بعيد الهمة، وبعيد المرمى، ولا منتهى لكبارها، وبحر لا ساحل له، وقولهم:

هذا إغراق في كذا.

ومن بديع مناسبته هنا أن الضلال الحقيقي يكون في الفيافي والموامي، فإذا اشتد التيه والضلال بعد صاحبه عن المعمور، فكان في وصفه بالبعيد تعاهد للحقيقة، وإيماء إلى أن في إطلاقه

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥/٦

على الكفر والجهل نقلا عرفيا.". (١)

٧٣٨. ٧٣٨-"ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم خدلج الساقين خفاق القدم ثم أقبل الحطم في العام القابل وهو عام القضية فسمعوا تلبية حجاج اليمامة فقالوا:

هذا الحطم وأصحابه ومعهم هدي هو مما نهبه من إبل المسلمين، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نهبهم، فنزلت الآية في النهي عن ذلك. فهي حكم عام نزل بعد تلك القضية، وكان النهي عن التعرض لبدن الحطم مشمولا لما اشتملت عليه هذه الآية.

والبيت الحرام هو الكعبة. وسيأتي بيان وصفه بهذا الوصف عند قوله: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس [المائدة: ٩٧] في هذه السورة. وجملة يبتغون فضلا من ربهم صفة ل آمين من قصدهم ابتغاء فضل الله ورضوانه وهم الذين جاءوا لأجل الحج **إيماء** إلى سبب حرمة آمي البيت الحرام.

وقد نهى الله عن التعرض للحجيج بسوء لأن الحج ابتغاء فضل الله ورضوانه، وقد كان أهل الجاهلية يقصدون منه ذلك، قال النابغة:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد عزما

مشمرين على خوص مزممة ... نرجو الإله ونرجو البر والطعما

ويتنزهون عن فحش الكلام، قال العجاج:

ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم

ويظهرون الزهد والخشوع، قال النابغة:

بمصطحبات من لصاف وثبرة ... بزرن إلالا سيرهن التدافع

---

(١) التحرير والتنوير ٤٦/٦

عليهن شعث عامدون لربهم ... فهن كأطراف الحني خواشع". (١)

٧٣٩. ٧٣٩-"والظاهر أن علة تحريمه القذارة: لأنه يكتسب رائحة كريهة عند لقائه الهواء، ولذلك قال كثير من الفقهاء بنجاسة عينه، ولا تعرض في الآية لذلك، أو لأنه يحمل ما في جسد الحيوان من الأجزاء المضرة التي لا يحاط بمعرفتها، أو لما يحدثه تعود شرب الدم من الضراوة التي تعود على الخلق الإنساني بالفساد. وقد كانت العرب تأكل الدم، فكانوا في المجاعات يفصدون من إبلهم ويخلطون الدم بالوبر ويأكلونه، ويسمونه العلهز- بكسر العين والهاء.- وكانوا يملأون المصير بالدم ويشوونها ويأكلونها، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: إنما حرم عليكم الميتة والدم في سورة البقرة [١٧٣] .

وإنما قال: ولحم الخنزير ولم يقل والخنزير كما قال: وما أهل لغير الله به إلى آخر المعطوفات. ولم يذكر تحريم الخنزير في جميع آيات القرآن إلا بإضافة لفظ لحم إلى الخنزير. ولم يأت المفسرون في توجيه ذلك بوجه ينثلج له الصدر. وقد بينا ذلك في

نظير هذه الجملة من سورة البقرة [١٧٣] . ويبدو لي أن إضافة لفظ لحم إلى الخنزير **للإيماء** إلى أن المحرم أكل لحمه لأن اللحم إذا ذكر له حكم فإنما يراد به أكله. وهذا **إيماء** إلى أن ما عدا أكل لحمه من أحوال استعمال أجزائه هو فيها كسائر الحيوان في طهارة شعره، إذا انتزع منه في حياته بالجز، وطهارة عرقه وطهارة جلده بالدبغ، إذا اعتبرنا الدبغ مطهرا جلد الميتة، اعتبارا بأن الدبغ كالذكاة. وقد روي القول بطهارة جلد الخنزير بالدبغ عن داود الظاهري وأبي يوسف أخذا بعموم

قوله صلى الله عليه وسلم: «أيما إهاب دبغ فقد طهر»

رواه مسلم والترمذي عن ابن عباس. وعلة تحريم الخنزير أن لحمه يشتمل على جراثيم مضرة لا تقتلها حرارة النار عند الطبخ، فإذا وصلت إلى دم آكله عاشت في الدم فأحدثت أضرارا عظيمة، منها مرض الديدان التي في المعدة.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٤/٦

وما أهل لغير الله به هو ما سمي عليه عند الذبح اسم غير الله.". (١)

٧٤٠. ٧٤٠-"والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

عطف والمحصنات من المؤمنات على وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم عطف المفرد على المفرد. ولم يعرج المفسرون على بيان المناسبة لذكر حل المحصنات من المؤمنات في أثناء إباحة طعام أهل الكتاب، وإباحة تزوج نسائهم. وعندي: أنه **إيماء** إلى أنهن أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب، والمقصود هو حكم المحصنات من الذين أوتوا الكتاب فإن هذه الآية جاءت لإباحة التزوج بالكتابيات. فقوله: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب عطف على وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم. فالتقدير:

والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم.

والمحصنات: النسوة اللاء أحصنهن ما أحصنهن، أي منعهن عن الخنا أو عن الريب، فأطلق الإحصان: على المعصومات بعصمة الأزواج كما في قوله تعالى في سورة النساء [٢٤] عطفا على المحرمات المحصنات من النساء وعلى المسلمات لأن الإسلام وزعهن عن الخنا، قال الشاعر:

ويصدهن عن الخنا الإسلام وأطلق على الحرائر، لأن الحرائر يترفعن عن الخنا من عهد الجاهلية. ولا يصلح من هذه المعاني هنا الأول، إذ لا يحل تزوج ذات الزوج، ولا الثاني لقوله: من المؤمنات الذي هو ظاهر في أنهن بعض المؤمنات فتعين معنى الحرية، ففسرها مالك بالحرائر، ولذلك منع نكاح الحر". (٢)

٧٤١. ٧٤١-"ويحتمل أن يكون المراد بها الجنس وتكون الصلة **إيماء** إلى تعليل كونهم كافرين فتقتضي أن كل من لا يحكم بما أنزل الله يكفر. وقد اقتضى هذا قضيتين:

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٩٠

(٢) التحرير والتنوير ٦/١٢٣

إحداهما: كون الذي يترك الحكم بما تضمنته التوراة مما أوحاه الله إلى موسى كافرا، أو تارك الحكم بكل ما أنزله الله على الرسل كافرا والثانية: قصر وصف الكفر على تارك الحكم بما أنزل الله.

فأما القضية الأولى: فالذين يكفرون مرتكب الكبيرة يأخذون بظاهر هذا. لأن الجور في الحكم كبيرة والكبيرة كفر عندهم. وعبروا عنه بكفر نعمة يشاركه في ذلك جميع الكبائر، وهذا مذهب باطل كما قررناه غير مرة. وأما جمهور المسلمين وهم أهل السنة من الصحابة فمن بعدهم فهي عندهم قضية مجملة، لأن ترك الحكم بما أنزل الله يقع على أحوال كثيرة فبيان إجماله بالأدلة الكثيرة القاضية بعدم التكفير بالذنوب، ومساق الآية يبين إجمالها. ولذلك قال جمهور العلماء: المراد بمن لم يحكم هنا خصوص اليهود، قاله البراء بن عازب ورواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه مسلم في «صحيحه» . فعلى هذا تكون (من) موصولة، وهي بمعنى لام العهد. والمعنى عليه: ومن ترك الحكم بما أنزل الله تركا مثل هذا الترك، هو ترك الحكم المشوب بالطعن في صلاحيته. وقد عرف اليهود بكثرة مخالفة حكامهم لأحكام كتابهم بناء على تغييرهم إياها باعتقاد عدم مناسبتها لأحوالهم كما فعلوا في حد الزنى فيكون القصر ادعائيا وهو المناسب لسبب نزول الآيات التي كانت هذه ذيلا لها فيكون الموصول لتعريف أصحاب هذه الصلة وليس معللا للخبر. وزيدت الفاء في خبره لمشابهته بالشرط في لزوم خبره له، أي أن الذين عرفوا بهذه الصفة هم الذين إن سألت عن الكافرين فهم هم لأنهم كفروا وأساءوا الصنع.

وقال جماعة: المراد من لم يحكم بما أنزل الله من ترك الحكم به جحدا له، أو استخفافا به، أو طعنا في حقيته بعد ثبوت كونه حكم الله بتواتر أو سماعه من رسول الله، سمعه المكلف بنفسه. وهذا مروي عن ابن مسعود، وابن". (١)

٧٤٢. ٧٤٢-"والنصارى أولياء ذريعة للارتداد، لأن استمرار فريق على موالاة اليهود والنصارى من المنافقين وضعفاء الإيمان يخشى منه أن ينسل عن الإيمان فريق. وأنبأ المترددين ضعفاء الإيمان بأن الإسلام غني عنهم إن عزموا على الارتداد إلى الكفر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١١/٦

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر من يرتدد- بدالين- على فك الإدغام، وهو أحد وجهين في مثله، وهو لغة أهل الحجاز، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام. وقرأ الباقون- بدال واحدة مشددة بالإدغام-، وهو لغة تميم.- وبفتح على الدال- فتحة تخلص من التقاء الساكنين لخفة الفتح، وكذلك هو مرسوم في مصحف مكة ومصحف الكوفة ومصحف البصرة.

والارتداد مطاوع الرد، والرد هو الإرجاع إلى مكان أو حالة، قال تعالى: ردوها علي [ص: ٣٣] . وقد يطلق الرد بمعنى التصيير ومنكم من يرد إلى أرذل العمر [النحل: ٧٠] . وقد لوحظ في إطلاق اسم الارتداد على الكفر بعد الإسلام ما كانوا عليه قبل الإسلام من الشرك وغيره، ثم غلب اسم الارتداد على الخروج من الإسلام ولو لم يسبق للمرتد عنه اتخاذ دين قبله.

وجملة فسوف يأتي الله بقوم إلخ جواب الشرط، وقد حذف منها العائد على الشرط الاسمي، وهو وعد بأن هذا الدين لا يعدم أتباعا بررة مخلصين. ومعنى هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض وعن المنافقين وقلة الاكتراث بهم، كقوله

تعالى: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا وتطمين الرسول والمؤمنين الحق بأن الله يعوضهم بالمرتدين خيرا منهم. فذلك هو المقصود من جواب الشرط فاستغني عنه بذكر ما يتضمنه حتى كان للشرط جوابان.

وفي نزول هذه الآية في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى ما سيكون من ارتداد كثير من العرب عن الإسلام مثل أصحاب الأسود العنسي باليمن، وأصحاب طلحة بن خويلد في بني أسد، وأصحاب مسيلمة بن حبيب الحنفي باليمامة. ثم إلى ما كان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من ارتداد قبائل كثيرة مثل فزارة وغطفان وبني تميم وكندة ونحوهم.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٣٥

٧٤٣. ٧٤٣-"القرآن. وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تسيرها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلا عن بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة بأن يكون لينا في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال، قال:

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب

وقال تعالى: أشداء على الكفار رحماء بينهم [الفتح: ٢٩] .

وقوله: يجاهدون في سبيل الله صفة ثالثة، وهي من أكبر العلامات الدالة على صدق الإيمان.

والجهاد: إظهار الجهد، أي الطاقة في دفاع العدو، ونهاية الجهد التعرض للقتل، ولذلك جيء به على صيغة مصدر فاعل لأنه يظهر جهده لمن يظهر له مثله. وقوله:

ولا يخافون لومة لائم صفة رابعة، وهي عدم الخوف من الملامة، أي في أمر الدين، كما هو السياق.

واللومة الواحدة من اللوم. وأريد بها هنا مطلق المصدر، كاللوم لأنها لما وقعت في سياق النفي فعمت زال منها معنى الواحدة كما يزول معنى الجمع في الجمع المعمم بدخول ال الجنسية لأن (لا) في عموم النفي مثل (ال) في عموم الإثبات، أي لا يخافون جميع أنواع اللوم من جميع اللائمين إذ اللوم منه: شديد، كالتقريع، وخفيف واللائمون:

منهم اللائم المخيف، والحبيب فنفى عنهم خوف جميع أنواع اللوم. ففي الجملة ثلاثة عمومات: عموم الفعل في سياق النفي، وعموم المفعول، وعموم المضاف إليه. وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء واللوم لأن الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة.

ولم يزل الإعراض عن ملام اللائمين علامة على الثقة بالنفس وأصالة الرأي. وقد عد فقهاؤنا في وصف القاضي أن يكون مستخفا باللائمة على أحد تأويلين في عبارة المتقدمين، واحتمال التأويلين دليل على اعتبار كليهما شرعا.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٦

٧٤٤. ٧٤٤-"والرؤية في قوله: وترى بصرية، أي أن حالهم في ذلك بحيث لا يخفى على أحد. والخطاب لكل من يسمع.

وتقدم معنى يسارعون عند قوله: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [النساء: ٤١] .

والإثم: المفاسد من قول وعمل، أريد به هنا الكذب، كما دل عليه قوله: عن قولهم الإثم.

والعدوان: الظلم، والمراد به الاعتداء على المسلمين إن استطاعوه.

والسحت تقدم في قوله: سماعون للكذب أكالون للسحت [المائدة: ٤٢] .

ولولا تحضيض أريد منه التوبيخ.

والربانيون والأحبار تقدم بيان معناهما في قوله تعالى: يحكم بها النبيون [المائدة: ٤٤] الآية.

واقتصر في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم، لأن الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه، ضعف.

وجملة لبئس ما كانوا يصنعون مستأنفة، ذم لصنيع الربانيين والأحبار في سكوتهم عن تغيير المنكر، ويصنعون بمعنى يعلمون، وإنما خولف هنا ما تقدم في الآية قبلها للتفنن، وقيل: لأن يصنعون أدل على التمكن في العمل من يعملون.

واللام للقسم.

[٦٤]

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٤]

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (٦٤)

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.

عطف على جملة وإذا جاؤكم قالوا آمنا [المائدة: ٦١] ، فإنه لما كان أولئك من اليهود والمنافقين انتقل إلى سوء معتقدهم وخبث طويتهم ليظهر فرط التنافي بين معتقدهم ومعتقد أهل الإسلام، وهذا قول اليهود الصرحاء غير المنافقين فلذلك أسند إلى اسم (اليهود) .". (١)

٧٤٥. ٧٤٥-"وهذا بيان للسبب الذي بعثهم على تلك المقالة الشنيعة، أي أعماهم الحسد فزادهم طغيانا وكفرا، وفي هذا إعداد للرسول- عليه الصلاة والسلام- لأخذ الحذر منهم، وتسلية له بأن فرط حنقهم هو الذي أنطقهم بذلك القول الفظيع.

وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

عطف على جملة ولعنوا بما قالوا عطف الخبر على الإنشاء على أحد الوجهين فيه. وفي هذا الخبر **الإيماء** إلى أن الله عاقبهم في الدنيا على بغضهم المسلمين بأن ألقى البغضاء بين بعضهم وبعض، فهو جزاء من جنس العمل، وهو تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يهمه أمر عداوتهم له، فإن البغضاء سجيتهم حتى بين أقوامهم وأن هذا الوصف دائم لهم شأن الأوصاف التي عمي أصحابها عن مداواتها بالتخلق الحسن. وتقدم القول في نظيره آنفا.

كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين.

تركيب أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله تمثيل، شبه به حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها والحزامة في أمرها، بحال من يوقد النار لحاجة بها فتنطفىء، فإنه شاعت استعارات معاني التسعير والحمي والنار ونحوها للحرب، ومنه حمي الوطيس، وفلان مسعر حرب، ومحش حرب، فقوله: أوقدوا نارا للحرب كذلك، ولا نار في الحقيقة، إذ لم يؤثر عن العرب أن لهم نارا تختص بالحرب تعد في نيران العرب التي يوقدونها لأغراض. وقد وهم من ظنها حقيقة، ونبه المحققون على وهمه.

وشبه حال انحلال عزمهم أو انهزامهم وسرعة ارتدادهم عنها، وإحجامهم عن مصابحة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/٦

أعدائهم، بحال من انطفأت ناره التي أوقدها.". (١)

٧٤٦. ٧٤٦-"بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار، إذ كان نزول هذه السورة في آخر مدة النبيء صلى الله عليه وسلم لأن الله دائم على عصمته من أعدائه وهم الذين هون أمرهم في قوله: يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [المائدة: ٤١] فهم المعنيون من الناس في هذه الآية، فالمأمور بتبليغه بعض خاص من القرآن.

وقد علم من خلق النبيء صلى الله عليه وسلم أنه يحب الرفق في الأمور ويقول: إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله (كما جاء في حديث عائشة حين سلم اليهود عليه فقالوا: السام عليكم، وقالت عائشة لهم: السام عليكم واللعنة) ، فلما أمره الله أن يقول لأهل الكتاب وأن أكثركم فاسقون قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه [المائدة: ٥٩، ٦٠] الآية، وكان ذلك القول مجاهرة لهم بسوء أعلمه الله بأن هذا لا رفق فيه فلا يدخل فيما كان يعاملهم به من المجادلة بالتي هي أحسن، فتكون هذه الآية مخصصة لما في حديث عائشة وتدخل في الاستثناء الذي في قوله تعالى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم [النساء: ١٤٨] .

ولذلك أعيد افتتاح الخطاب له بوصف الرسول المشعر بمنتهى شرفه، إذ كان واسطة بين الله وخلقه، والمذكر له بالإعراض عمن سوى من أرسله.

ولهذا الوصف في هذا الخطاب الثاني موقع زائد على موقعه في الخطاب الأول، وهو ما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الكلام الآتي بعده، وهو قوله: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، كما قال تعالى: ما على الرسول إلا البلاغ [المائدة: ٩٩] .

فكما ثبت جنانه بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه، حذر بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن، أو من خشيته إعراضهم عنه إذا أنزل من القرآن في شأنهم، إذ لعله يزيدهم عنادا وكفرا، كما دل عليه قوله في آخر هذه الآية وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٥١

إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين [المائدة: ٦٨] ."․ (١)

٧٤٧. ٧٤٧-"والتبليغ يحصل بما يكفل للمحتاج إلى معرفة حكم تمكنه من معرفته في وقت الحاجة أو قبله، لذلك كان الرسول- عليه الصلاة والسلام- يقرأ القرآن على الناس عند نزول الآية ويأمر بحفظها عن ظهر قلب وبكتابتها، ويأمر الناس بقراءته وبالاستماع إليه.
وقد أرسل مصعبا بن عمير إلى المدينة قبل هجرته ليعلم الأنصار القرآن. وكان أيضا يأمر السامع مقالته بإبلاغها من لم يسمعها، مما يكفل ببلوغ الشريعة كلها للأجيال من الأمة.
ومن أجل ذلك كان الخلفاء من بعده يعطون الناس العطاء على قدر ما معهم من القرآن.
ومن أجل ذلك أمر أبو بكر بكتابة القرآن في المصحف بإجماع الصحابة، وأكمل تلك المزية عثمان بن عفان بانتساخ القرآن في المصاحف وإرسالها إلى أمصار الإسلام، وقد كان رسول الله عين لأهل الصفة الانقطاع لحفظ القرآن.
والذي ظهر من تتبع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يبادر بإبلاغ القرآن عند نزوله، فإذا نزل عليه ليلا أخبر به عند صلاة الصبح.
وفي حديث عمر، قال رسول الله: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: إنا فتحنا لك فتحا مبينا [الفتح: ١] .
وفي حديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك «فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله عند أم سلمة، فقال: يأم سلمة تيب على كعب بن مالك، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره، قال: «إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة. حتى إذا صلى رسول الله صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا» .
وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله نزلت عليه سورة الأنعام جملة واحدة بمكة ودعا رسول الله الكتاب فكتبوها من ليلتهم.
وفي الإتيان بضمير المخاطب في قوله: إليك من ربك **إيماء** عظيم إلى تشريف الرسول صلى الله عليه وسلم بمرتبة الوساطة بين الله والناس، إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم، كما قال في آية آل عمران [١٩٩] وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم،

(١) التحرير والتنوير ٢٥٧/٦

وقوله: لتبين للناس ما نزل إليهم [النحل: ٤٤] .". (١)

٧٤٨. ٧٤٨-"قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين، وليبكت من علم الله أنهم سيفترون، فيزعمون أن قرآنا كثيرا لم يبلغه رسول الله الأمة.

ومعنى لم تفعل لم تفعل ذلك، وهو تبليغ ما أنزل إليك. وهذا حذف شائع في كلامهم، فيقولون: فإن فعلت، أو فإن لم تفعل. قال تعالى: ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين [يونس: ١٠٦] أي إن دعوت ما لا ينفعك، يحذفون مفعول فعلت ولم تفعل لدلالة ما تقدم عليه، وقال تعالى: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا في سورة البقرة [٢٤] . وهذا مما جرى مجرى المثل فلا يتصرف فيه إلا قليلا ولم يتعرض له أئمة الاستعمال.

ومعنى ترتب هذا الجواب على هذا الشرط أنك إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك فتركت بعضه كنت لم تبلغ الرسالة، لأن كتم البعض مثل كتمان الجميع في الاتصاف بعدم التبليغ، ولأن المكتوم لا يدرى أن يكون في كتمانه ذهاب بعض فوائد ما وقع تبليغه، وقد ظهر التغاير بين الشرط وجوابه بما يدفع الاحتياج إلى تأويل بناء الجواب على الشرط، إذ تقدير الشرط: إن لم تبلغ ما أنزل، والجزاء، لم تبلغ الرسالة، وذلك كاف في صحة بناء الجواب على الشرط بدون حاجة إلى ما تأولوه مما في «الكشاف» وغيره. ثم يعلم من هذا الشرط أن تلك منزلة لا تليق بالرسل، فينتج ذلك أن الرسول لا يكتم شيئا مما أرسل به.

وتظهر فائدة افتتاح الخطاب ب يا أيها الرسول للإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي بعده، وفائدة اختتامه بقوله: فما بلغت رسالته.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر رسالاته- بصيغة الجمع. وقرأه الباقون رسالته بالإفراد. والمقصود الجنس فهو في سياق النفي سواء مفرده وجمعه.

ولا صحة لقول بعض علماء المعاني استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، وأن نحو: لا رجال في الدار، صادق بما إذا كان فيها رجلان أو رجل واحد، بخلاف نحو لا رجل في الدار. ويظهر أن قراءة الجمع أصرح لأن لفظ الجمع المضاف من صيغ العموم لا يحتمل

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٥٩

العهد بخلاف المفرد". (١)

٧٤٩. ٧٤٩-"التكبر والتعاظم، ويطلق على المكابرة وكراهية الحق، وهما متلازمان. فالمراد من قوله: لا يستكبرون أنهم متواضعون منصفون. وضمير وأنهم لا يستكبرون يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير بأن منهم، أي وأن الذين قالوا إنا نصارى لا يستكبرون، فيكون قد أثبت التواضع لجميع أهل ملة النصرانية في ذلك العصر. وقد كان نصارى العرب متحلين بمكارم من الأخلاق. قال النابغة يمدح آل النعمان الغساني وكانوا متنصرين:
مجلتهم ذات الإله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضربة لازب
وظاهر قوله الذين قالوا إنا نصارى أن هذا الخلق وصف للنصارى كلهم من حيث أنهم نصارى فيتعين أن يحمل الموصول على العموم العرفي، وهم نصارى العرب، فإن اتباعهم النصرانية على ضعفهم فيها ضم إلى مكارم أخلاقهم العربية مكارم أخلاق دينية، كما كان عليه زهير ولبيد وورقة بن نوفل وأضرابهم.
وضمير وأنهم لا يستكبرون عائد إلى قسيسين ورهبانا لأنه أقرب في الذكر، وهذا تشعر به إعادة قوله وأنهم، ليكون إيماء إلى تغيير الأسلوب في معاد الضمير، وتكون ضمائر الجمع من قوله وإذا سمعوا- إلى قوله- فأثابهم الله [المائدة: ٨٣- ٨٥] تابعة لضمير وأنهم لا يستكبرون.
وقرينة صرف الضمائر المتشابهة إلى معادين هي سياق الكلام. ومثله وارد في الضمائر كقوله تعالى: وعمروها أكثر مما عمروها [الروم: ٩] . فضمير الرفع في عمروها الأول عائد إلى غير ضمير الرفع في عمروها الثاني. وكقول عباس بن مرداس:". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٦٢

(٢) التحرير والتنوير ٧/٨

٧٥٠. ٧٥٠-"ما في الشرائع السابقة من شدة العناية بأحكام المأكولات. وفي ذلك تنبيه لهذه الأمة.

وقوله واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون جاء بالموصول **للإيماء** إلى علة الأمر بالتقوى، أي لأن شأن الإيمان أن يقتضي التقوى، فلما آمنتم بالله واهتديتم إلى الإيمان فكملوه بالتقوى. روي أن الحسن البصري لقي الفرزدق في جنازة، وكانا عند القبر، فقال الحسن للفرزدق: ما أعددت لهذا. يعني القبر. قال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله كذا كذا سنة. فقال الحسن: هذا العمود، فأين الأطناب.

[٨٩]

[سورة المائدة (٥) : آية ٨٩]

لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (٨٩)

استئناف ابتدائي نشأ بمناسبة قوله: لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم [المائدة: ٨٧] لأن التحريم يقع في غالب الأحوال بأيمان معزومة، أو بأيمان تجري على اللسان لقصد تأكيد الكلام، كأن يقول: والله لا آكل كذا، أو تجري بسبب غضب. وقيل: إنها نزلت مع الآية السابقة فلا حاجة لإبداء المناسبة لذكر هذا بعد ما قبله. روى الطبري والواحدي عن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم [المائدة: ٨٧] ونهاهم النبيء صلى الله عليه وسلم عما عزموا عليه من ذلك، كما تقدم آنفا، قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفناها عليها، فأنزل الله تعالى: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم الآية.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٧

٧٥١.   ٧٥١-"الجناح عنهم مقيد بأن يتقوا ويؤمنوا ويعملوا الصالحات، للعلم بأن لكل عمل أثرا على فعله أو على تركه، وإذ قد كانوا مؤمنين من قبل، وكان الإيمان عقدا عقليا لا يقبل التجدد تعين أن المراد بقوله: وآمنوا معنى وداموا على الإيمان ولم ينقضوه بالكفر.

وجملة ثم اتقوا وآمنوا تأكيد لفظي لجملة إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات وقرن بحرف ثم الدال على التراخي الرتبي ليكون إيماءا إلى الازدياد في التقوى وآثار الإيمان، كالتأكيد في قوله تعالى: كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون [النبإ: ٤، ٥] ولذلك لم يكرر قوله: وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات مشمول للتقوى.

وأما جملة ثم اتقوا وأحسنوا فتفيد تأكيدا لفظيا لجملة ثم اتقوا وتفيد الارتقاء في التقوى بدلالة حرف ثم على التراخي الرتبي. مع زيادة صفة الإحسان. وقد فسر النبيء صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . وهذا يتضمن الإيمان لا محالة فلذلك استغني عن إعادة وآمنوا هنا. ويشمل فعل

وأحسنوا الإحسان إلى المسلمين، وهو زائد على التقوى، لأن منه إحسانا غير واجب وهو مما يجلب مرضاة الله، ولذلك ذيله بقوله: والله يحب المحسنين.

وقد ذهب المفسرون في تأويل التكرير الواقع في هذه الآية طرائق مختلفة لا دلائل عليها في نظم الآية، ومرجعها جعل التكرير في قوله: ثم اتقوا على معنى تغاير التقوى والإيمان باختلاف الزمان أو باختلاف الأحوال. وذهب بعضهم في تأويل قوله تعالى: إذا ما اتقوا وما عطف عليه إلى وجوه نشأت عن حمله على معنى التقييد لنفي الجناح بحصول المشروط. وفي جلبها طول.

وقد تقدم أن بعضا من السلف تأول هذه الآية على معنى الرخصة في". (١)

٧٥٢.   ٧٥٢-"باعتبار الجماعة. قال تعالى: وجاءت سيارة [يوسف: ١٩] . والمعنى أحل لكم صيد البحر تتمتعون بأكله ويتمتع به المسافرون، أي تبيعونه لمن يتجرون ويجلبونه إلى الأمصار.

وقوله: وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما زيادة تأكيد لتحريم الصيد، تصريحا بمفهوم قوله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦/٧

لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم [المائدة: ٩٥] ، ولبيان أن مدة التحريم مدة كونهم حرما، أي محرمين أو مارين بحرم مكة. وهذا إيماء لتقليل مدة التحريم استئناسا بتخفيف، وإيماء إلى نعمة اقتصار تحريمه على تلك المدة، ولو شاء الله لحرمه أبدا. وفي «الموطأ» :

أن عائشة قالت لعروة بن الزبير: يا بن أختي إنما هي عشر ليال (أي مدة الإحرام) فإن تخلج في نفسك شيء فدعه. تعني أكل لحم الصيد.

وذيل ذلك بقوله: واتقوا الله الذي إليه تحشرون. وفي إجراء الوصف بالموصول وتلك الصلة تذكير بأن المرجع إلى الله ليعد الناس ما استطاعوا من الطاعة لذلك اللقاء.

والحشر: جمع الناس في مكان. والصيد مراد به المصيد، كما تقدم.

والتحريم متعلق بقتله لقوله قبله لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم [المائدة: ٩٥] فلا يقتضي قوله: وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما تحريم أكل صيد البر على المحرم إذا

اشتراه من بائع أو ناوله رجل حلال إياه، لأنه قد علم أن التحريم متعلق بمباشرة المحرم قتله في حال الإصابة.

وقد أكل رسول الله- صلى الله عليه وسلم - من الحمار الذي صاده أبو قتادة، كما في حديث «الموطأ» عن زيد بن أسلم. وأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم - بقسمة الحمار الذي صاده زيد البهزي بين الرفاق وهم محرمون.

وعلى ذلك مضى عمل الصحابة، وهو قول.

وأما ما صيد لأجل المحرم

فقد ثبت أن النبيء- صلى الله عليه وسلم - رد على الصعب بن جثامة حمارا وحشيا أهداه إليه وقال له: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم» .

وقد اختلف الفقهاء في محل هذا الامتناع. فقيل: يحرم أن يأكله من صيد لأجله لا غير. وهذا قول عثمان بن عفان، وجماعة من فقهاء المدينة، ورواية عن مالك، وهو الأظهر، لأن الظاهر أن الضمير

في قول النبيء- صلى الله عليه وسلم -: «إنما لم نرده عليك إلا أنا حرم»

أنه عائد". (١)

٧٥٣. ٧٥٣-"عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم. قال الأئمة: وقد انفرد به البخاري. ومحمله أنه رأي من ابن عباس، وهو لا يناسب افتتاح الآية بخطاب الذين آمنوا اللهم إلا أن يكون المراد تحذير المؤمنين من نحو تلك المسائل عن غفلة من مقاصد المستهزئين، كما في قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا [البقرة: ١٠٤] ، أو أريد بالذين آمنوا الذين أظهروا الإيمان، على أن لهجة الخطاب في الآية خالية عن الإيماء إلى قصد المستهزئين، بخلاف قوله: لا تقولوا راعنا [البقرة: ١٠٤] فقد عقب بقوله: وللكافرين عذاب أليم [البقرة: ١٠٤] .

وروى الترمذي والدارقطني عن علي بن أبي طالب لما نزلت ولله على الناس حج البيت [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله في كل عام، فسكت، فأعادوا. فقال: لا، ولو قلت: نعم لوجبت، فأنزل الله

يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم

قال: هذا حديث حسن غريب. وروى الطبري قريبا منه عن أبي أمامة وعن ابن عباس.

وتأويل هذه الأسانيد أن الآية تليت عند وقوع هذا السؤال وإنما كان نزولها قبل حدوثه فظنها الراوون نزلت حينئذ. وتأويل المعنى على هذا أن الأمة تكون في سعة إذا لم يشرع لها حكم، فيكون الناس في سعة الاجتهاد عند نزول الحادثة بهم بعد الرسول- صلى الله عليه وسلم -، فإذا سألوا وأجيبوا من قبل الرسول- صلى الله عليه وسلم - تعين عليهم العمل بما أجيبوا به. وقد تختلف الأحوال والأعصار فيكونون في حرج إن راموا تغييره فيكون معنى إن تبد لكم تسؤكم على هذا الوجه أنها تسوء بعضهم أو تسوءهم في بعض الأحوال إذا شقت عليهم. وروى مجاهد عن ابن عباس: نزلت في قوم سألوا رسول الله- صلى الله عليه وسلم - عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. وقال مثله سعيد بن جبير والحسن.

وقوله: أشياء تكثير شيء، والشيء هو الموجود، فيصدق بالذات وبحال الذات، وقد سألوا عن أحوال بعض المجهولات أو الضوال أو عن أحكام بعض الأشياء.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٧

و (أشياء) كلمة تدل على جمع (شيء) ، والظاهر أنه صيغة جمع لأن زنة شيء (فعل) ، و (فعل) إذا كان معتل العين قياس جمعه (أفعال) مثل بيت وشيخ. فالجاري على متعارف". (١)

٧٥٤. ٧٥٤-"الريبة أرجى إلى الظن بحصول الصدق لكثرة ما ضبط على كلا الفريقين مما ينفي الغفلة والتساهل، بله الزور والجور مع توقي سوء السمعة.

ومعنى أن يأتوا بالشهادة: أن يؤدوا الشهادة. جعل أداؤها والإخبار بها كالإتيان بشيء من مكان.

ومعنى قوله على وجهها، أي على سنتها وما هو مقوم تمامها وكمالها، فاسم الوجه في مثل هذا مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيها بوجه الإنسان، إذ هو العضو الذي يعرف به المرء ويتميز عن غيره. ولما أريد منه معنى الاستعارة لهذا المعنى،

وشاع هذا المعنى في كلامهم، قالوا: جاء بالشيء الفلاني على وجهه، فجعلوا الشيء مأتيا به، ووصفوه بأنه أتي به متمكنا من وجهه، أي من كمال أحواله. فحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد منه التمكن، مثل أولئك على هدى من ربهم [البقرة: ٥] .

والجار والمجرور في موضع الحال من بالشهادة، وصار ذلك قرينة على أن المراد من الوجه غير معناه الحقيقي.

وسنة الشهادة وكمالها هو صدقها والتثبت فيها والتنبه لما يغفل عنه من مختلف الأحوال التي قد يستخف بها في الحال وتكون للغفلة عنها عواقب تضيع الحقوق، أي ذلك يعلمهم وجه التثبت في التحمل والأداء وتوخي الصدق، وهو يدخل في قاعدة لزوم صفة اليقظة للشاهد.

وفي الآية **إيماء** إلى حكمة مشروعية الإعذار في الشهادة بالطعن أو المعارضة، فإن في ذلك ما يحمل شهود الشهادة على التثبت في مطابقة شهادتهم، للواقع لأن المعارضة والإعذار يكشفان عن الحق.

وقوله أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم عطف على قوله أن يأتوا باعتبار ما تعلق به من المجرورات، وذلك لأن جملة يأتوا بالشهادة على وجهها أفادت الإتيان بها صادقة لا نقصان

---

(١) التحرير والتنوير ٦٦/٧

فيها بباعث من أنفس الشهود، ولذلك قدرناه بمعنى أن يعلموا كيف تكون الشهادة الصادقة. فأفادت الجملة المعطوف عليها إيجاد وازع للشهود من أنفسهم، وأفادت الجملة المعطوفة وازعا هو توقع ظهور كذبهم.". (١)

٧٥٥. ٧٥٥-"والنور، ومنه قوله تعالى: هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها [الأعراف: ١٨٩] فإن الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر، ولذلك عقبه بقوله: ليسكن إليها [الأعراف: ١٨٩] والخلق أعم في الإطلاق ولذلك قال تعالى في آية أخرى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها [النساء: ١] لأن كل تكوين لا يخلو من تقدير ونظام.

وخص بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين، وهما: الظلمات والنور فقال وجعل الظلمات والنور لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما. وبذكر هذه الأمور الأربعة حصلت الإشارة إلى جنسي المخلوقات من جواهر وأعراض. فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات. وإن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما، وهو ما يسمى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها.

والاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه الأربعة تعريض بإبطال عقائد كفار العرب فإنهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، وكلهم قد أثبتوا آلهة غير الله فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم. فأخبرهم الله تعالى أنه خالق

السماوات والأرض، أي بما فيهم، وخالق الظلمات والنور.

ثم إن في إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض **إيماء** وتعريضا بحالي المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق، فإن الكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه استبانة الهدى والحق. قال تعالى: يخرجهم من الظلمات إلى النور

(١) التحرير والتنوير ٧/٩٣

[البقرة: ٢٥٧] . وقدم ذكر الظلمات مراعاة للترتب في الوجود لأن الظلمة سابقة النور، فإن النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامة.

وإنما جمع الظلمات وأفرد النور اتباعا للاستعمال، لأن لفظ (الظلمات) بالجمع أخف، ولفظ (النور) بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) في القرآن إلا جمعا". (١)

٧٥٦. ٧٥٦-"وفعل فحاق اختلف أئمة اللغة في معناه. فقال الزجاج: هو بمعنى أحاط، وتبعه

الزمخشري، وفسره الفراء بمعنى عاد عليه. وقال الراغب: أصله حق، أي بمعنى وجب، فأبدل أحد حرفي التضعيف حرف علة تخفيفا، كما قالوا تظنى في تظنن، أي وكما قالوا:

تقضى البازي، بمعنى تقضض. والأظهر ما قاله أبو إسحاق الزجاج.

واختير فعل الإحاطة للدلالة على تمكن ذلك منهم وعدم إفلاته أحدا منهم.

وإنما جيء بالموصول في قوله: بالذين سخروا ولم يقل بالساخرين **للإيماء** إلى تعليل الحكم، وهو قوله فحاق.

ومنهم يتعلق ب سخروا، والضمير المجرور عائد إلى الرسل، لزيادة تقرير كون العقاب لأجلهم ترفيعا لشأنهم. وما في قوله: ما كانوا به يستهزؤن موصولة.

والباء في به لتعدية فعل الاستهزاء. ووجود الباء مانع من جعل ما غير موصولة.

وهو ما أطال التردد فيه الكاتبون.

والمراد ب ما كانوا به يستهزؤن ما أنذرهم الرسل به من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم، فحصل بذلك فائدة أخرى، وهي أن المستهزئين كانوا يستهزئون بالرسل وخاصة بما ينذرونهم به من حلول العذاب إن استمروا على عدم التصديق بما جاءوا به.

فاستهزاؤهم بما أنذروا به جعل ما أنذروا به كالشخص المهزوء به إذا جعلنا الباء للتعدية، أو استهزاؤهم بالرسل بسبب ما أنذروهم به إذا جعلت الباء للسببية.

[١١]

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٧

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]

قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)

هذه الجملة وزانها وزان البيان لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فصلت، فإن الجملة التي قبلها تخبر بأن الذين استهزأوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين. وليس افتتاح هذه الجملة بخطاب". (١)

٧٥٧. ٧٥٧-"الرابع: أن فيه **إيماء** إلى أن الله قد نجى أمة الدعوة المحمدية من عذاب الاستئصال الذي عذب به الأمم المكذبة رسلها من قبل، وذلك ببركة النبيء محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعله رحمة للعالمين في سائر أحواله بحكم قوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء:

١٠٧] ، وإذ أراد تكثير تابعيه فلذلك لم يقض على مكذبيه قضاء عاجلا بل أمهلهم وأملى لهم ليخرج منهم من يؤمن به، كما رجا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك لما قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم [الأنفال: ٣٣] . وقد حصل ما رجاه رسول الله فلم يلبث من بقي من المشركين أن آمنوا بالله ورسوله بعد فتح مكة ودخلوا في دين الله أفواجا، وأيد الله بهم بعد ذلك دينه ورسوله ونشروا كلمة الإسلام في آفاق الأرض. وإذ قد قدر الله تعالى أن يكون هذا الدين خاتمة الأديان كان من الحكمة إمهال المعاندين له والجاحدين، لأن الله لو استأصلهم في أول ظهور الدين لأتى على من حوته مكة من مشرك ومسلم، ثم يحشرون على نياتهم، كما

ورد في الحديث لما قالت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم، إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نياتهم» .

فلو كان ذلك في وقت ظهور الإسلام لارتفع بذلك هذا الدين فلم يحصل المقصود من جعله خاتمة الأديان. وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه قل هو القادر على أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٧

يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم

فقال: أعوذ بسبحات وجهك الكريم.

ومعنى كتب تعلقت إرادته، بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلقة تعلقا عاما مطردا بالنسبة إلى المخلوقات وإن كان خاصا بالنسبة إلى الأزمان والجهات. فلما كان ذلك مطردا شبهت إرادته بالإلزام، فاستعير لها فعل (كتب) الذي هو حقيقة في الإيجاب، والقرينة هي مقام الإلهية، أو جعل ذلك على نفسه لأن أحدا لا يلزم نفسه بشيء إلا اختيارا وإلا فإن غيره يلزمه. والمقصود أن ذلك لا يتخلف كالأمر الواجب المكتوب، فإنهم كانوا إذا أرادوا تأكيد وعد أو عهد كتبوه، كما قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء حذر الجور والتطاخي وهل ينقض ما في المهارق الأهواء". (١)

٧٥٨. ٧٥٨-"وفهم من قوله: إن عصيت ربي أن الآمر له بأن يكون أول من أسلم والناهي عن كونه من المشركين هو الله تعالى. وفي العدول عن اسم الجلالة إلى قوله: ربي إيماء إلى أن عصيانه أمر قبيح لأنه ربه فكيف يعصيه.

وأضيف العذاب إلى يوم عظيم تهويلا له لأن في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق وانهزام فريق من المحاربين، فيكون اليوم نكالا على المنهزمين، إذ يكثر فيهم القتل والأسر ويسام المغلوب سوء العذاب، فذكر يوم يثير من الخيال مخاوف مألوفة، ولذلك قال الله تعالى: فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم [الشعراء: ١٨٩] ولم يقل عذاب الظلة إنه كان عذابا عظيما. وسيأتي بيان ذلك مفصلا عند قوله تعالى: يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن في سورة التغابن [٩] ، وبهذا الاعتبار حسن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب، لأن عظمة اليوم العظيم تستلزم عظم ما يقع فيه عرفا.

وقوله: من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة ل عذاب. ويصرف مبني للمجهول في قراءة الأكثر، على أنه رافع لضمير العذاب أو لضمير من على

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٧

النيابة عن الفاعل. والضمير المجرور ب «عن» عائد إلى من أي يصرف العذاب عنه، أو عائد إلى العذاب، أي من يصرف هو عن العذاب، وعلى عكس هذا العود يكون عود الضمير المستتر في قوله: يصرف.
وقرأه حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، وخلف يصرف- بالبناء للفاعل- على أنه رافع لضمير ربي على الفاعلية.
أما الضمير المستتر في رحمه فهو عائد إلى ربي، والمنصوب عائد إلى من على كلتا القراءتين.
ومعنى وصف العذاب بمضمون جملة الشرط والجزاء، أي من وفقه الله لتجنب أسباب ذلك العذاب فهو قد قدر الله له الرحمة ويسر له أسبابها.". (١)

٧٥٩. ٧٥٩-"ولام القسم لتأكيد الخبر بتنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة من ذهل طويلا عن تكذيب الرسل لأنه لما أحزنه قول قومه فيه كان كمن بعد علمه بذلك. ومن قبلك وصف كاشف ل رسل جيء به لتقرير معنى التأسي بأن ذلك سنة الرسل.
وفي موقع هذه الآية بعد التي قبلها إيماء لرجاحة عقول العرب على عقول من سبقهم من الأمم، فإن الأمم كذبت رسلها باعتقاد ونطق ألسنتها، والعرب كذبوا باللسان وأيقنوا بصدق الرسول- عليه الصلاة والسلام- بعقولهم التي لا يروج عندها الزيف.
و (ما) مصدرية، أي صبروا على التكذيب، فيجوز أن يكون قوله وأوذوا عطفا على كذبوا وتكون جملة فصبروا معترضة. والتقدير: ولقد كذبت وأوذيت رسل فصبروا. فلا يعتبر الوقف عند قوله على ما كذبوا بل يوصل الكلام إلى قوله نصرنا، وأن يكون عطفا على كذبت رسل، أي كذبت وأوذوا. ويفهم الصبر على الأذى من الصبر على التكذيب لأن التكذيب أذى فيحسن الوقف عند قوله: على ما كذبوا.
وقرن فعل كذبت بعلامة التأنيث لأن فاعل الفعل إذا كان جمع تكسير يرجح اتصال الفعل بعلامة التأنيث على التأويل بالجماعة. ومن ثم جاء فعلا فصبروا وكذبوا مقترنين بواو الجمع، لأن فاعليهما ضميران مستتران فرجح اعتبار التذكير.
وعطف وأوذوا على كذبت عطف الأعم على الأخص، والأذى أعم من التكذيب، لأن

---

(١) التحرير والتنوير ١٦١/٧

الأذى هو ما يسوء ولو إساءة ما، قال تعالى: لن يضروكم إلا أذى [آل عمران: ١١١]
ويطلق على الشديد منه. فالأذى اسم اشتق منه أذى إذا جعل له أذى وألحقه
به. فالهمزة به للجعل أو للتصيير. ومصادر هذا الفعل أذى وأذاة وأذية. وكلها أسماء مصادر
وليست مصادر. وقياس مصدره الإيذاء لكنه لم يسمع في كلام العرب. فلذلك قال صاحب
«القاموس» : لا يقال: إيذاء. وقال الراغب: يقال: إيذاء. ولعل الخلاف مبني على الخلاف
في أن القياسي يصح إطلاقه ولو لم يسمع في كلامهم أو يتوقف إطلاقه". (١)

٧٦٠. ٧٦٠-"العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون [السجدة: ٢١] وهذا
من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته وفيه إنذار لقريش بأنهم سيصيبهم البأساء والضراء
قبل
الاستئصال، وهو استئصال السيف. وإنما اختار الله أن يكون استئصالهم بالسيف إظهارا
لكون نصر الرسول- عليه الصلاة والسلام- عليهم كان بيده ويد المصدقين به. وذلك أوقع
على العرب، ولذلك روعي حال المقصودين بالإنذار وهم حاضرون. فنزل جميع الأمم
منزلتهم، فقال: فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، فإن (لولا) هنا حرف توبيخ لدخولها على
جملة فعلية ماضوية واحدة، فليست (لولا) حرف امتناع لوجود.
والتوبيخ إنما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود. ففي هذا التنزيل **إيماء** إلى
مساواة الحالين وتوبيخ للحاضرين بالمهم من العبرة لبقاء زمن التدارك قطعا لمعذرهم.
ويجوز أن تجعل (لولا) هنا للتمني على طريقة المجاز المرسل، ويكون التمني كناية عن الإخبار
بمحبة الله الأمر المتمنى فيكون من بناء المجاز على المجاز، فتكون هذه المحبة هي ما عبر عنه
بالفرح
في الحديث «الله أفرح بتوبة عبده»
الحديث. وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله في قوله إذ جاءهم بأسنا تضرعوا
للاهتمام بمضمون جملته، وأنه زمن يحق أن يكون باعثا على الإسراع بالتضرع مما حصل فيه
من البأس.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/٧

والبأس تقدم عند قوله تعالى: وحين البأس في سورة البقرة [١٧٧] . والمراد به هنا الشدة على العدو وغلبته. ومجيء البأس: مجيء أثره، فإن ما أصابهم من البأساء والضراء أثر من آثار قوة قدرة الله تعالى وغلبه عليهم. والمجيء مستعار للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيها لحدوث الشيء بوصول القادم من مكان آخر بتنقل الخطوات.

ولما دل التوبيخ أو التمني على انتفاء وقوع الشيء عطف عليه ب (لكن) عطفا على معنى الكلام، لأن التضرع ينشأ عن لين القلب فكان نفيه المفاد بحرف التوبيخ ناشئا عن ضد اللين وهو القساوة، فعطف ب لكن.". (١)

٧٦١. ٧٦١-"وجملة: والحمد لله رب العالمين يجوز أن تكون معطوفة على جملة: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك بما اتصل بها. عطف غرض على غرض. ويجوز أن تكون اعتراضا تذييليا فتكون الواو اعتراضية. وأيا ما كان موقعها ففي المراد منها اعتبارات ثلاثة:

أحدها: أن تكون تلقينا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يحمدوا الله على نصره رسله وأولياءهم وإهلاك الظالمين، لأن ذلك النصر نعمة بإزالة فساد كان في الأرض، ولأن في تذكير الله الناس به **إيماء** إلى ترقب الأسوة بما حصل لمن قبلهم أن يترقبوا نصر الله كما نصر المؤمنين من قبلهم فيكون الحمد لله مصدرا بدلا من فعله، عدل عن نصبه وتنكيره إلى رفعه وتعريفه للدلالة على معنى الدوام والثبات، كما تقدم في قوله تعالى:

الحمد لله في سورة الفاتحة [٢] .

ثانيها: أن يكون الحمد لله كناية عن كون ما ذكر قبله نعمة من نعم الله تعالى لأن من لوازم الحمد أن يكون على نعمة، فكأنه قيل: فقطع دابر القوم الذين ظلموا.

وتلك نعمة من نعم الله تقتضي حمده.

ثالثها: أن يكون إنشاء حمد لله تعالى من قبل جلاله مستعملا في التعجيب من معاملة الله تعالى إياهم وتدريجهم في درجات الإمهال إلى أن حق عليهم العذاب.

ويجوز أن يكون إنشاء الله تعالى ثناء على نفسه، تعريضا بالامتنان على الرسول والمسلمين.

واللام في الحمد للجنس، أي وجنس الحمد كله الذي منه الحمد على نعمة إهلاك الظالمين.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٢٨

وفي ذلك كله تنبيه على أنه يحق الحمد لله عند هلاك الظلمة، لأن هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب. وهذا الحمد شكر لأنه مقابل نعمة.
وإنما كان هلاكهم صلاحا لأن الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم.". (١)

٧٦٢. ٧٦٢-"والشمس تجري لمستقر لها [يس: ٣٨] ، وهو شامل لوعيد الآخرة ووعيد الدنيا ولكل مستقر. وعن السدي: استقر يوم بدر ما كان يعدهم به من العذاب.
وعطف سوف تعلمون على جملة لكل نبإ مستقر أي تعلمونه، أي هو الآن غير معلوم وتعلمونه في المستقبل عند حلوله بكم. وهذا أظهر في وعيد العذاب في الدنيا.
[٦٨]

[سورة الأنعام (٦) : آية ٦٨]
وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)
عطف على جملة وكذب به قومك [الأنعام: ٦٦] . والعدول عن الإتيان بالضمير إلى الإتيان بالاسم الظاهر وهو اسم الموصول، فلم يقل: وإذا رأيتهم فأعرض عنهم، يدل على أن الذي يخوضون في الآيات فريق خاص من القوم الذين كذبوا بالقرآن أو بالعذاب.
فعموم القوم أنكروا وكذبوا دون خوض في آيات القرآن، فأولئك قسم، والذين يخوضون في الآيات قسم كان أبذى وأقذع، وأشد كفرا وأشنع، وهم المتصدون للطعن في القرآن.
وهؤلاء أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مجادلتهم وترك مجالسهم حتى يرعووا عن ذلك.
ولو أمر الرسول- عليه الصلاة والسلام- بالإعراض عن جميع المكذبين لتعطلت الدعوة والتبليغ.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٣٢

ومعنى إذا رأيت الذين يخوضون إذا رأيتهم في حال خوضهم. وجاء تعريف هؤلاء بالموصولية دون أن يقال الخائضين أو قوما خائضين لأن الموصول فيه **إيماء** إلى وجه الأمر بالإعراض لأنه أمر غريب، إذ شأن الرسول- عليه الصلاة والسلام- أن يمارس الناس لعرض دعوة الدين، فأمر الله إياه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه واستئناس. وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته، أي فأعرض عنهم لأنهم يخوضون في آياتنا.". (١)

٧٦٣. ٧٦٣-"وهذه الآية أحسن ما يمثل به، لمجيء الموصول **للإيماء** إلى إفادة تعليل ما بني عليه من خبر أو إنشاء، ألا ترى أن الأمر بالإعراض حدد بغاية حصول ضد الصلة. وهي أيضا أعدل شاهد لصحة ما فسر به القطب الشيرازي في «شرح المفتاح» قول السكاكي (أو أن تومىء بذلك إلى وجه بناء الخبر) بأن وجه بناء الخبر هو علته وسببه، وإن أبى التفتازاني ذلك التفسير.

والخوض حقيقته الدخول في الماء مشيا بالرجلين دون سباحة ثم استعير للتصرف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسف وهو المشي في الرمل لذلك. واستعير الخوض أيضا للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل لأنه يتكلف له قائله، قال الراغب:

وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، قال تعالى: يخوضون في آياتنا، نخوض ونلعب [التوبة: ٦٥] ، وخضتم كالذي خاضوا [التوبة: ٦٩] ، ذرهم في خوضهم يلعبون [الأنعام: ٩١] . فمعنى يخوضون في آياتنا يتكلمون فيها بالباطل والاستهزاء.

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة وحكم بقية المسلمين كحكمه، كما قال في ذكر المنافقين في سورة النساء [١٤٠] فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

والإعراض تقدم تفسيره عند قوله تعالى: فأعرض عنهم وعظهم في سورة النساء [٦٣] .

والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم، وهو مجاز قريب من الحقيقة لأنه يلزمه الإعراض الحقيقي غالبا، فإن هم غشوا مجلس الرسول- عليه الصلاة والسلام- فالإعراض عنهم أن يقوم عنهم وعن ابن جريج: فجعل إذا استهزأوا قام فحذروا وقالوا لا تستهزءوا

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٨٨

فيقوم. وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلهم يرجعون عن عنادهم.
وحتى غاية للإعراض لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أوجبه رعي مصلحة أخرى هي من قبيل الدعوة فلا يضر توقيف الدعوة زمانا، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هديهم إلى أصلهم لأنها تمحضت للمصلحة.". (١)

٧٦٤. ٧٦٤-"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا [المائدة: ٤٨] . ونسب القرطبي هذا القول للكثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعي. وفي «توضيح» صدر الشريعة نسبة مثل هذا القول لجماعة من أصحابهم.
الثالث: إنما يلزم الاقتداء بشرع إبراهيم- عليه السلام- لقوله تعالى: ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا [النحل: ١٢٣] . ولم أقف على تعيين من نسب إليه هذا القول.
الرابع: لا يلزم إلا اتباع شريعة عيسى لأنها آخر الشرائع نسخت ما قبلها. ولم أقف على تعيين صاحب هذا القول. قال ابن رشد في «المقدمات» : وهذا أضعف الأقوال.
والهاء في قوله: اقتده ساكنة عند جمهور القراء، فهي هاء السكت التي تجلب عند الوقف على الفعل المعتل اللام إذا حذفت لامه للجازم، وهي تثبت في الوقف وتحذف في الوصل، وقد ثبتت في المصحف لأنهم كانوا يكتبون أواخر الكلم على مراعاة
حال الوقف. وقد أثبتها جمهور القراء في الوصل، وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف وهو وارد في الكلام الفصيح. والأحسن للقارىء أن يقف عليها جريا على الأفصح، فجمهور القراء أثبتوها ساكنة ما عدا رواية هشام عن ابن عامر فقد حركها بالكسر، ووجه أبو علي الفارسي هذه القراءة بأنها تجعل الهاء ضمير مصدر «اقتد» ، أي اقتد الاقتداء، وليست هاء السكت، فهي كالهاء في قوله تعالى: عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين [المائدة: ١١٥] أي لا أعذب ذلك العذاب أحدا. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، بحذف الهاء في حالة الوصل على القياس الغالب.
قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين.
استئناف عقب به ذلك البيان العظيم الجامع لأحوال كثير من الأمم. **والإيماء** إلى نبوءة جمع

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٨٩

من الأنبياء والصالحين، وبيان طريقة الجدل في تأييد الدين، وأنه ما جاء إلا كما جاءت ملل تلك الرسل، فلذلك ذيله الله بأمر رسوله أن يذكر قومه بأنه يذكرهم. كما ذكرت الرسل أقوامهم، وأنه". (١)

٧٦٥. ٧٦٥-"وجملة: فاعبدوه مفرعة على قوله: ربكم لا إله إلا هو وقد جعل الأمر بعبادته مفرعا على وصفه بالربوبية والوحدانية لأن الربوبية مقتضية استحقاق العبادة، والانفراد بالربوبية يقتضي تخصيصه بالعبادة، وقد فهم هذا التخصيص من التفريع.

ووجه أمرهم بعبادته أن المشركين كانوا معرضين عن عبادة الله تعالى بحيث لا يتوجهون بأعمال البر في اعتقادهم إلا إلى الأصنام فهم يزوروها ويقربون إليها القرابين وينذرون لها النذور ويستعينون بها ويستنجدون بنصرتها، وما كانوا يذكرون الله إلا في موسم الحج، على أنهم قد خلطوه بالتقرب إلى الأصنام إذ جعلوا فوق الكعبة (هبل) ، وجعلوا فوق الصفا والمروة (إسافا ونائلة) . وكان كثير منهم يهل (لمناة) في منتهى الحج، فكانوا معرضين عن عبادة الله تعالى، فلذلك أمروا بها صريحا، وأمروا بالاقتصار عليها بطريق **الإيماء** بالتفريع.

وجملة: وهو على كل شيء وكيل يجوز أن تكون معطوفة على الصفات المتقدمة فتكون جملة فاعبدوه معترضة، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة فاعبدوه بناء على جواز عطف الخبر على الإنشاء والعكس (وهو الحق) ، على وجه تكميل التعليل للأمر بعبادته دون غيره، بأنه متكفل بالأشياء كلها من الخلق والرزق والإنعام وكل ما يطلب المرء حفظه له، فالوجه عبادته ولا وجه لعبادة غيره، فإن اسم الوكيل جامع لمعنى الحفظ والرقابة، كما تقدم عند قوله تعالى: وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل في سورة آل عمران [١٧٣] .

[١٠٣]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٣]

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣)

جملة ابتدائية لإفادة عظمته تعالى وسعة علمه، فلعظمته جل عن أن يحيط به شيء من

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٣٥٩

أبصار المخلوقين، وذلك تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام". (١)

٧٦٦. ٧٦٦-"فلنحمل اسم الاستفهام هنا على معنى التنبيه والتشكيك في الظن، ونحمل فعل يشعركم على أصل مقتضى أمثاله من أفعال العلم، وإذا كان كذلك كان نفي إيمان المشركين بإتيان آية وإثباته سواء في الفرض الذي اقتضاه الاستفهام، فكان المتكلم بالخيار بين أن يقول: إنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأن يقول: إنها إذا جاءت يؤمنون. وإنما أوثر جانب النفي **للإيماء** إلى أنه الطرف الراجح الذي ينبغي اعتماده في هذا الظن.

هذا وجه الفرق بين التركيبين. وللفروق في علم المعاني اعتبارات لا تنحصر ولا ينبغي لصاحب علم المعاني غض النظر عنها، وكثيرا ما بين عبد القاهر أصنافا منها فليلحق هذا الفرق بأمثاله.

وإن أبيت إلا قياس ما يشعركم على (ما يدريكم) سواء، كما سلكه المفسرون فاجعل الغالب في استعمال (ما يدريك) هو مقتضى الظاهر في استعمال ما يشعركم واجعل تعليق المنفي بالفعل جريا على خلاف مقتضى الظاهر لنكتة ذلك **الإيماء** ويسهل الخطب. وأما وجه كون الواو في قوله: وما يشعركم واو الحال فتكون «ما» نكرة موصوفة بجملة يشعركم. ومعناها شيء موصوف بأنه يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. وهذا الشيء هو ما سبق نزوله من القرآن، مثل قوله تعالى: إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية [يونس: ٩٦، ٩٧] ، وكذلك ما جربوه من تلون المشركين في التفصي من ترك دين آبائهم، فتكون الجملة حالا، أي والحال أن القرآن والاستقراء أشعركم بكذبهم فلا تطمعوا في إيمانهم لو جاءتهم آية ولا في صدق أيمانهم، قال تعالى: إنهم لا أيمان لهم [التوبة: ١٢] . وإني لأعجب كيف غاب عن المفسرين هذا الوجه من جعل «ما» نكرة موصوفة في حين إنهم تطرقوا إلى ما هو أغرب من ذلك.". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٤١٣/٧

(٢) التحرير والتنوير ٤٣٩/٧

٧٦٧.	٧٦٧-"ومعنى تصغى تميل، يقال: صغى يصغى صغيا، ويصغو صغوا- بالياء وبالواو- ووردت الآية على اعتباره- بالياء- لأنه رسم في المصحف بصورة الياء. وحقيقته الميل الحسي، يقال: صغى، أي مال، وأصغى أمال. وفي حديث الهرة:
أنه أصغى إليها الإناء، ومنه أطلق: أصغى بمعنى استمع، لأن أصله أمال سمعه أو أذنه، ثم حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال. وهو هنا مجاز في الاتباع وقبول القول.
والذين لا يؤمنون بالآخرة هم المشركون. وخص من صفات المشركين عدم إيمانهم بالآخرة، فعرفوا بهذه الصلة **للإيماء** إلى بعض آثار وحي الشياطين لهم. وهذا الوصف أكبر ما أضر بهم، إذ كانوا بسببه لا يتوخون فيما يصنعون خشية العاقبة وطلب الخير، بل يتبعون أهواءهم وما يزين لهم من شهواتهم، معرضين عما في خلال ذلك من المفاسد والكفر، إذ لا يترقبون جزاء عن الخير والشر، فلذلك تصغى عقولهم إلى غرور الشياطين.
ولا تصغى إلى دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم والصالحين.
وعطف وليرضوه على ولتصغى، وإن كان الصغي يقتضي الرضى ويسببه فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرر لام التعليل، فخولف مقتضى الظاهر، للدلالة على استقلاله بالتعليل، فعطف بالواو وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال، فيدل على أن صغي أفئدتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلا لأنهم رضوه.
وعطف وليقترفوا ما هم مقترفون على وليرضوه كعطف وليرضوه على ولتصغى.
والاقتراف افتعال من قرف إذا كسب سيئة، قال تعالى بعد هذه الآية: إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون [الأنعام: ١٢٠] فذكر هنالك ل يكسبون مفعولا لأن الكسب يعم الخير والشر، ولم يذكر هنا". (١)

٧٦٨.	٧٦٨-"ولذلك قال تعالى: يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [المجادلة: ١١] وقال: إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار [النساء: ١٤٥] ولما كان لفظ (كل) مرادا به جميع أهل القرية، وأتى بلفظ الدرجات كان **إيماء** إلى تغليب حال المؤمنين

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٢

لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكة بأنهم لا بأس عليهم من عذاب مشركيها، ففيه **إيماء** إلى أن الله منجيهم من العذاب:

في الدنيا بالهجرة، وفي الآخرة بحشرهم على أعمالهم ونياتهم لأنهم لم يقصروا في الإنكار على المشركين، ففي هذه الآية إيذان بأنهم سيخرجون من القرية التي حق على أهلها العذاب، فإن الله أصاب أهل مكة بالجوع والخوف ثم بالغزو بعد أن أنجى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وقد علم من الدرجات أن أسافلها دركات فغلب درجات لنكتة الإشعار ببشارة المؤمنين بعد نذارة المشركين. ومن في قوله مما عملوا تعليلية، أي من أعمالهم أي بسبب تفاوت أعمالهم.

وقوله: وما ربك بغافل عما يعملون خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم.

وقرأ الجمهور: يعملون- بياء الغيبة- فيعود الضمير إلى أهل القرى، والمقصود مشركو مكة، فهو للتسلية والتطمين لئلا يستبطىء وعد الله بالنصر، وهو تعريض بالوعيد للمشركين من باب: واسمعي يا جارة. وقرأه ابن عامر- بتاء الخطاب-، فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، فهو وعد بالجزاء على صالح أعمالهم، ترشيحا للتعبير بالدرجات حسبما قدمناه، ليكون سلا لهم من وعيد أهل القرى أصحاب الظلم، وكلتا القراءتين مراد الله تعالى فيما أحسب.

[١٣٣]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٣]

وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣)

وربك الغني ذو الرحمة.". (١)

٧٦٩. ٧٦٩-"استعارة تمثيلية مكنية، شبهت حالة المؤمنين الفائزين في عملهم، مع حالة المشركين، بحالة الغالب على امتلاك دار عدوه، وطوي المركب الدال على الهيئة المشبه بها،

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/٨٤

ورمز إليه بذكر ما هو من روادفه، وهو عاقبة الدار، فإن التمثيلية تكون مصرحة، وتكون مكنية، وإن لم يقسموها إليهما، لكنه تقسيم لا محيص منه. ويجوز أن تكون الدار مستعارة للحالة التي استقر فيها أحد، تشبيها للحالة بالمكان في الاحتواء، فتكون إضافة عاقبة إلى الدار إضافة بيانية، أي العاقبة الحسنى التي هي حاله، فيكون الكلام استعارة مصرحة.

ومن محاسنها هنا: أنها بنت على استعارة المكانة للحالة في قوله: اعملوا على مكانتكم فصار المعنى: اعملوا في داركم ما أنتم عاملون فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار. وفي الكلام مع ذلك **إيماء** إلى أن عاقبة تلك الدار، أي بلد مكة، أن تكون للمسلمين، كقوله تعالى: أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [الأنبياء: ١٠٥] وقد فسر قوله: من تكون له عاقبة الدار بغير هذا المعنى.

وقرأ الجمهور: من تكون- بتاء فوقية- وقرأه حمزة، والكسائي، بتحتية، لأن تأنيث عاقبة غير حقيقي، فلما وقع فاعلا ظاهرا فيجوز فيه أن يقرن بعلامة التأنيث وبدونها.

وجملة: إنه لا يفلح الظالمون تذييل للوعيد يتنزل منزلة التعليل، أي لأنه لا يفلح الظالمون، ستكون عقبى الدار للمسلمين، لا لكم، لأنكم ظالمون.

والتعريف في الظالمون للاستغراق، فيشمل هؤلاء الظالمين ابتداء، والضمير المجعول اسم (إن) ضمير الشأن تنبيها على الاهتمام بهذا الخبر وأنه أمر عظيم.". (١)

٧٧٠. ٧٧٠-"فعلوه يعود إلى المشركين، أي: لو شاء الله لعصمهم من تزيين شركائهم، أو يعود إلى الشركاء، أي: لو شاء الله لصدهم عن إغواء أتباعهم، وضمير النصب يعود إلى القتل أو إلى التزيين على التوزيع، على الوجهين في ضمير الرفع.

والمراد: ب ما يفترون ما يفترونه على الله بنسبة أنه أمرهم بما اقترفوه، وكان افتراؤهم اتباعا لافتراء شركائهم، فسماه افتراء لأنهم تقلدوه عن غير نظر ولا استدلال، فكأنهم شاركوا الذين افتروه من الشياطين، أو سدنة الأصنام، وقادة دين الشرك، وقد كانوا يموهون على الناس أن هذا مما أمر الله به كما دل عليه قوله في الآية بعد هذه:

افتراء عليه [الأنعام: ١٣٨] وقوله في آخر السورة: قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/٩٣

حرم هذا [الأنعام: ١٥٠] .

[١٣٨]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٨]

وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون (١٣٨)

عطف على جملة: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم [الأنعام: ١٣٧] وهذا ضرب آخر من دينهم الباطل، وهو راجع إلى تحجير التصرف على أنفسهم في بعض أموالهم، وتعيين مصارفه، وفي هذا العطف **إيماء** إلى أن ما قالوه هو من تلقين شركائهم وسدنة أصنامهم كما قلنا في معنى زين لهم شركاؤهم.

والإشارة بهذه وهذه إلى حاضر في ذهن المتكلمين عند صدور ذلك القول: وذلك أن يقول أحدهم هذه الأصناف مصرفها كذا، وهذه مصرفها كذا، فالإشارة من محكي

قولهم حين يشرعون في بيان أحكام". (١)

٧٧١. ٧٧١-"التناسل، حفظا للنوع، وتعميرا للعالم، وإظهارا لما في الإنسان من مواهب تنفعه وتنفع قومه، على ما في عملهم من اعتداء على حق البنت الذي جعله الله لها وهو حق الحياة إلى انقضاء الأجل المقدر لها وهو حق فطري لا يملكه الأب فهو ظلم بين لرجاء صلاح لغير المظلوم ولا يضر بأحد لينتفع غيره. فلما قتل بعض العرب بناتهم بالوأد كانوا قد عطلوا مصالح عظيمة محققة، وارتكبوا به أضرارا حاصلة، من حيث أرادوا التخلص من أضرار طفيفة غير محققة الوقوع، فلا جرم أن كانوا في فعلهم كالتاجر الذي أراد الربح فباء بضياع أصل ماله، ولأجل ذلك سمى الله فعلهم: سفها، لأن السفه هو خفة العقل واضطرابه، وفعلهم ذلك سفه محض، وأي سفه أعظم من إضاعة مصالح جمة وارتكاب أضرار عظيمة وجناية شنيعة، لأجل التخلص من أضرار طفيفة قد تحصل وقد لا تحصل. وتعريف المسند إليه بالموصولية **للإيماء** إلى أن الصلة علة في الخبر فإن خسرانهم مسبب عن قتل أولادهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٠٥

وقوله: سفها منصوب على المفعول المطلق المبين لنوع القتل: أنه قتل سفه لا رأي لصاحبه، بخلاف قتل العدو وقتل القاتل، ويجوز أن ينتصب على الحال من الذين قتلوا، وصفوا بالمصدر لأنهم سفهاء بالغون أقصى السفه.

والباء في قوله: بغير علم للملابسة، وهي في موضع الحال إما من سفها فتكون حالا مؤكدة، إذ السفه لا يكون إلا بغير علم، وإما من فاعل قتلوا، فإنهم لما فعلوا القتل كانوا جاهلين بسفاهتهم وبشناعة فعلهم وبعاقبة ما قدروا حصوله لهم من الضر، إذ قد يحصل خلاف ما قدروه ولو كانوا يزنون المصالح والمفاسد لما أقدموا على فعلتهم الفظيعة.

والمقصود من الإخبار عن كونه بغير علم، بعد الإخبار عنه بأنه". (١)

٧٧٢. ٧٧٢-"مما رزقكم الله لما في صلة الموصول من **الإيماء** إلى تضليل الذين حرموا على أنفسهم، أو على بعضهم، الأكل من بعضها، فعطلوا على أنفسهم بعضا مما رزقهم الله.

ومعنى: ولا تتبعوا خطوات الشيطان النهي عن شؤون الشرك فإن أول خطوات الشيطان في هذا الغرض هي تسويله لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم.

وخطوات الشيطان تمثيل، وقد تقدم عند قوله تعالى: يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان في سورة البقرة [١٦٨] .

وجملة: إنه لكم عدو مبين تعليل للنهي، وموقع (إن) فيه يغني عن فاء التفريع كما تقدم غير مرة، وقد تقدم بيانه في آية البقرة.

[١٤٣، ١٤٤]

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٣ إلى ١٤٤]

ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين".

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١١٤

(١)

٧٧٣.   ٧٧٣-"فلذلك خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان المحرمات في شريعة الإسلام بعد أن خوطب ببيان ما ليس بمحرم مما حرمه المشركون في قوله: قل آلذكرين حرم أم الأنثيين [الأنعام: ١٤٤] الآيات.

وافتتح الكلام المأمور بأن يقوله بقوله: لا أجد إدماجا للرد على المشركين في خلال بيان ما حرم على المسلمين، وهذا الرد جار على طريقة كناية **الإيماء** بأن لم ينف تحريم ما ادعوا تحريمه صريحا، ولكنه يقول لا أجده فيما أوحي إلي ويستفاد من ذلك أنه ليس تحريمه من الله في شرعه، لأنه لا طريق إلى تحريم شيء مما يتناوله الناس إلا بإعلام من الله تعالى، لأن الله هو الذي يحل ما شاء ويحرم ما شاء على وفق علمه وحكمته، وذلك الإعلام لا يكون إلا بطريق الوحي أو ما يستنبط منه، فإذا كان حكم غير موجود في الوحي ولا في فروعه فهو حكم غير حق، فاستفيد بطلان تحريم ما زعموه بطريقة **الإيماء**، وهي طريقة استدلالية لأن فيها نفي الشيء بنفي ملزومه.

وأجد بمعنى: أظفر، وهو الذي مصدره الوجد والوجدان، وهو هنا مجاز في حصول الشيء وبلوغه، يقال: وجدت فلانا ناصرا، أي حصلت عليه، فشبه التحصيل للشيء بالظفر وإلفاء المطلوب، وهو متعد إلى مفعول واحد.

والمراد، ب ما أوحي ما أعلمه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بوحي غير القرآن لأن القرآن النازل

قبل هذه الآية ليس فيه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وإنما نزل القرآن بتحريم ما ذكر في هذه الآية ثم في سورة المائدة.

والطاعم: الآكل، يقال: طعم كعلم، إذا أكل الطعام، ولا يقال ذلك للشارب، وأما طعم بمعنى ذاق فيستعمل في ذوق المطعومات والمشروبات، وأكثر استعماله في النفي، وتقدم بيانه

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٢٧

عند قوله تعالى:". (١)

٧٧٤. ٧٧٤-"قوله: ما حرم ربكم [الأنعام: ١٥١] لغرض **الإيماء** إلى عصمة هذا الصراط من الزلل، لأن كونه صراط الله يكفي في إفادة أنه موصل إلى النجاح، فلذلك صح تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله. ويجوز عود الياء إلى النبيء المأمور بالقول، إلا أن هذا يستدعي بناء التفريع بالأمر باتباعه على ادعاء أنه واضح الاستقامة، وإلا فإن كونه طريق النبيء لا يقتضي تسبب الأمر باتباعه عنه بالنسبة إلى المخاطبين المكذبين.

وقوله: مستقيما حال من اسم الإشارة، وحسن وقوعه حالا أن الإشارة بنيت على ادعاء أنه مشاهد، فيقتضي أنه مستحضر في الذهن بمجمل كلياته وما جربوه منه وعرفوه، وأن ذلك يريهم أنه في حال الاستقامة كأنه أمر محسوس، ولذلك كثر مجيء الحال من اسم الإشارة نحو: وهذا بعلي شيخا [هود: ٧٢] ولم يأتوا به خبرا.

والسبل: الطرق، ووقوعها هنا في مقابلة الصراط المستقيم يدل على صفة محذوفة، أي السبل المتفرقة غير المستقيمة، وهي التي يسمونها: بنيات الطريق، وهي طرق تتشعب من السبيل الجادة ذاهبة، يسلكها بعض المارة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حي، ولا يستطيع السير فيها إلا من عقلها واعتادها، فلذلك سبب عن النهي قوله: فتفرق بكم عن سبيله، أي فإنها طرق متفرقة فهي تجعل سالكها متفرقا عن السبيل الجادة، وليس ذلك لأن السبيل اسم للطريق الضيقة غير الموصلة، فإن السبيل يرادف الصراط ألا ترى إلى قوله: قل هذه سبيلي [يوسف: ١٠٨] ، بل لأن المقابلة والإخبار عنها بالتفرق دل على أن المراد سبل خاصة موصوفة بغير الاستقامة.

والباء في قوله: بكم للمصاحبة: أي فتتفرق السبل مصاحبة لكم، أي تتفرقون مع تفرقها، وهذه المصاحبة المجازية تجعل الباء بمنزلة". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٣٧

(٢) التحرير والتنوير ٨-أ/١٧٣

٧٧٥.   ٧٧٥-"وقوله: قليلا ما تشكرون هو كقوله في أول السورة قليلا ما تذكرون [الأعراف:
٣] ونظائره.
والخطاب للمشركين خاصة، لأنهم الذين قل شكرهم لله تعالى إذا اتخذوا معه آلهة.
ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم كما تقدم آنفا في أول السورة، ويجوز أن يكون على حقيقته أي إن شكركم الله قليل. لأنهم لما عرفوا أنه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها، ويجوز أن تكون القلة كناية عن العدم على طريقة الكلام المقتصد استنزالا لتذكرهم.
وانتصب (قليلا) على الحال من ضمير المخاطبين و (ما) مصدرية، والمصدر المؤول في محل الفاعل بقليلا فهي حال سببية.
وفي التعقيب بهذه الآية لآية: وكم من قرية أهلكناها [الأعراف: ٤] إيماء إلى أن إهمال شكر النعمة يعرض صاحبها لزوالها، وهو ما دل عليه قوله: أهلكناها.
[١١- ١٣]

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١ إلى ١٣]
ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين (١٣)
عطف على جملة: ولقد مكناكم في الأرض [الأعراف: ١٠] تذكيرا بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأن الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد". (١)

٧٧٦.   ٧٧٦-"الآية أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل، وآيات الله الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، كما تقدم عند قوله

---
(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٣٥

تعالى:

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا في سورة البقرة [٣٩] ، وقوله تعالى: وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه في سورة الأنعام [٣٧] ، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للناس، للتعريض بالمشركين من العرب، الذين أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ووجه دلالة الآيات على ذلك إما لأنها جاءت على نظم يعجز البشر عن تأليف مثله، وذلك من خصائص القرآن، وإما لأنها تشتمل على أحكام ومعان لا قبل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها، أو لأنها تدعو إلى صلاح لم يعهده الناس. فيدل ما اشتملت عليه على أنه مما أراده الله للناس، مثل بقية الكتب التي جاءت بها الرسل، وإما لأنها قارنتها أمور خارقة

للعادة تحدى بها الرسول المرسل بتلك الأقوال أمته، فهذا معنى تسميتها آيات، ومعنى إضافتها إلى الله تعالى، ويجوز أن يكون المراد بالآيات ما يشمل المعجزات غير القولية، مثل نبع الماء من بين أصابع محمد صلى الله عليه وسلم ومثل قلب العصا حية لموسى عليه السلام. وإبراء الأكمه لعيسى عليه السلام، ومعنى التكذيب بها العناد بإنكارها وجحدها.

وجملة: فمن اتقى وأصلح جواب الشرط وبينها وبين جملة: إما يأتينكم محذوف تقديره: فاتقى منكم فريق وكذب فريق فمن اتقى إلخ، وهذه الجملة شرطية أيضا، وجوابها فلا خوف عليهم، أي فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولما كان إتيان الرسل فائدته لإصلاح الناس، لا لنفع الرسل، عدل عن جعل الجواب اتباع الرسل إلى جعله التقوى والصلاح. **إيماء** إلى حكمة إرسال الرسل، وتحريضا على اتباعهم بأن فائدته للأمم لا للرسل، كما قال شعيب: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت [هود: ٨٨] ، أي لا خوف عليهم من عقوبة الله في الدنيا والآخرة ولا هم يحزنون من شيء". (١)

٧٧٧. ٧٧٧-"وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد، وإن كان المشركون يثبتون الربوبية لله، والمسلمون لا يمترون في ذلك، لتنزيل المشركين من المخاطبين منزلة من يتردد في كون الله ربا لهم لكثرة إعراضهم عنه في عباداتهم وتوجهاتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/١٠٩

وقوله: الذي خلق السماوات والأرض صفة لاسم الجلالة، والصلة مؤذنة **بالإيماء** إلى وجه بناء الخبر المتقدم، وهو إن ربكم الله لأن خلق السماوات والأرض يكفيهم دليلا على انفراده بالإلهية، كما تقدم عند قوله تعالى: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون بسورة الأنعام [١] .

وقوله: في ستة أيام ثم استوى على العرش تعليم بعظيم قدرته، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية، فلا يدل قوله: في ستة أيام على أن أهل مكة كانوا يعلمون ذلك، وفيه تحد لأهل الكتاب كما في قوله تعالى:

أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل [الشعراء: ١٩٧] وليس القصد من قوله: في ستة أيام الاستدلال على الواحدانية، إذ لا دلالة فيه على ذلك.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجا، وأن لا يكون دفعة، لأنه جعل العوالم متولدا بعضها من بعض، لتكون أتقن صنعا مما لو خلقت دفعة، وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرج، وكانت تلك المدة أقل زمن يحصل فيه المراد من التولد بعظيم القدرة. ولعل تكرر ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التنبيه إلى هذه النكتة البديعة، من كونها مظهر سعة العلم وسعة القدرة.". (١)

٧٧٨. ٧٧٨-"إثبات حكم كلي، فإنه ذكرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء ونعم مجملة وهي زيادة بصطتهم، ثم ذكرهم بقية النعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف.

والآلاء جمع (إلى) ، والإلى: النعمة، وهذا مثل جمع عنب على أعناب، ونظيره جمع إنى بالنون، وهو الوقت، على آناء قال تعالى: غير ناظرين إناه [الأحزاب: ٥٣] أي وقته، وقال ومن آناء الليل فسبح [طه: ١٣٠] .

ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأن ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة.

[٧٠، ٧١]

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/١٦١

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٠ إلى ٧١]
قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين (٧١)
جاوبوا هودا بما أنبأ عن ضياع حجته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتوحيد، وهذا الجواب أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأول، إذ قالوا: إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين [الأعراف: ٦٦] كأنهم راموا استنزل نفس هود ومحاولة إرجاعه عما دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار وذكروه بأن الأمر الذي أنكره هو دين آباء الجميع تعريضا بأنه سفه آباءه، وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصولية في قولهم: ما كان يعبد آباؤنا **إيماء** إلى وجه الإنكار عليه وإلى أنه حقيق بمتابعة دين آبائه، كما
قال الملأ من قريش لأبي طالب حين". (١)

.٧٧٩ ٧٧٩-"وتفسير قوله: وقطعنا دابر الذين كذبوا نظير قوله تعالى: فقطع دابر القوم الذين ظلموا في سورة الأنعام [٤٥] ، وقد أرسل عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعا ولم يبق منهم أحد. والظاهر أن الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم نسل. وأما الآية فلا تقتضي إلا انقراض نسل الذين كذبوا ونزل بهم العذاب والتعريف بطريق الموصولية تقدم في قوله:
وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا [الأعراف: ٦٤] في قصة نوح آنفا، فهو **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو قطع دابرهم.
وما كانوا مؤمنين عطف على كذبوا فهو من الصلة، وفائدة عطفه الإشارة إلى أن كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم: وهما التكذيب والإشراك، تعريضا بمشركي قريش، ولموعظتهم ذكرت هذه القصص. وقد كان ما حل بعاد من الاستيصال تطهيرا أول لبلاد العرب من الشرك، وقطعا لدابر الضلال منها في أول عصور عمرانها، إعدادا لما أراد الله تعالى من انبثاق

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٢٠٧

نور الدعوة المحمدية فيها.

[٧٣]

[سورة الأعراف (٧) : آية ٧٣]

وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (٧٣)

الواو في قوله: وإلى ثمود مثلها في قوله: وإلى عاد أخاهم هودا [الأعراف: ٦٥] ، وكذلك القول في تفسيرها إلى قوله تعالى: من إله غيره.

وثمود أمة عظيمة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جاثر- بجيم ومثلثة كما في «القاموس» - ابن إرم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد في (إرم)". (١)

٧٨٠. ٧٨٠-"كفرهم، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيبا، كما تقدم، فحصل من الآيتين أنهم مستكبرون كافرون.

والمخاطب في قوله: لئن اتبعتم شعيبا هم الحاضرون حين الخطاب لدى الملأ، فحكي كلام الملأ كما صدر منهم، والسياق يفسر المعنيين بالخطاب، أعني عامة قوم شعيب الباقين على الكفر.

(واللام) موطئة للقسم. وإنكم إذا لخاسرون جواب القسم وهو دليل على جواب الشرط محذوف، كما هو الشأن في مثل هذا التركيب.

والخسران تقدم عند قوله تعالى: قد خسر الذين قتلوا أولادهم في سورة الأنعام [١٤٠] . وهو مستعار لحصول الضر من حيث أريد النفع، والمراد به هنا التحذير من أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم، لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث، فإن كانوا يعتقدونه، فالمراد الخسران الأعم، ولكن الأهم عندهم هو الدنيوي.

(والفاء) في: فأخذتهم الرجفة للتعقيب، أي: كان أخذ الرجفة إياهم عقب قولهم لقومهم ما

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٢١٥

قالوا.

وتقدم تفسير: فأخذهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين في نظيرها من قصة ثمود.

والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلة، وهي السحابة، قال تعالى في سورة الشعراء [١٨٩] . فأخذهم عذاب يوم الظلة، وقد عبر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة فتعين أن تكون من نوع الأصوات المنشقة عن قالع ومقلوع لا عن قارع ومقروع وهو الزلزال، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة كما يدل عليه قوله: كأن لم يغنوا فيها.

وجملة: الذين كذبوا شعيبا مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وهو أن اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيبا.". (١)

٧٨١. ٧٨١-"وخاطب موسى قومه بذلك تطمينا لقلوبهم، وتعليما لهم بنصر الله إياهم لأنه علم لأنه بوحي الله إليه.

وجملة: إن الأرض لله تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر، أي: افعلوا ذلك لأن حكم الظلم لا يدوم، ولأجل هذا المعنى فصلت الجملة.

وقوله: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده كناية عن ترقب زوال استعباد فرعون إياهم، قصد منها صرف اليأس عن أنفسهم الناشئ عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه، بأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه لأن ملك الأرض كلها لله فهو الذي يقدر لمن يشاء ملك شيء منها وهو الذي يقدر نزعه.

فالمراد من الأرض هنا الدنيا لأنه أليق بالتذييل وأقوى في التعليل، فهذا **إيماء** إلى أنهم خارجون من مصر وسيملكون أرضا أخرى.

وجملة: والعاقبة للمتقين تذييل، فيجوز أن تكون الواو اعتراضية، أي: عاطفة على ما في قوله: إن الأرض لله من معنى التعليل، فيكون هذا تعليلا ثانيا للأمر بالاستعانة والصبر، وبهذا الاعتبار أوثر العطف بالواو على فصل الجملة مع أن مقتضى التذييل أن تكون

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٣

مفصولة.
والعاقبة حقيقتها نهاية أمر من الأمور وآخره، كقوله تعالى: فكان عاقبتهما أنهما في النار [الحشر: ١٧] ، وقد تقدم ذكرها عند قوله تعالى: قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين في أول سورة الأنعام [١١] ، فإذا عرفت العاقبة باللام
كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أوله ولعل التعريف فيها من قبيل العلم بالغلبة. وذلك لأن كل أحد يود أن يكون آخر أحواله خيرا من أولها لكراهة مفارقة الملائم، أو للرغبة في زوال المنافر، فلذلك أطلقت العاقبة معرفة على انتهاء الحال بما يسر ويلائم، كما قال تعالى: والعاقبة للتقوى [طه: ١٣٢] . وفي حديث أبي سفيان قول هرقل: «وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة» فلا تطلق المعرفة على عاقبة السوء.
فالمراد بالعاقبة هنا عاقبة أمورهم في الحياة الدنيا ليناسب قوله إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده". (١)

٧٨٢. ٧٨٢-"وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكر في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالة معجزة القرآن، فلذلك أعيد التصريح بتسبب الإعراض في غرقهم مع استفادته من التفريع بالفاء في قوله: فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم تنبيها للسامعين للانتقال من القصة إلى العبرة.
وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أن هذا الإعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنه هو علة التكذيب المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدده عند تجدد الآيات.
[١٣٧]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٣٧]
وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون

---
(١) التحرير والتنوير ٦٠/٩

(١٣٧)
وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها.
عطف على فانتقمنا منهم [الأعراف: ١٣٦] . والمعنى: فأخذناهم بالعقاب الذي استحقوه وجازينا بني إسرائيل بنعمة عظيمة.
وتقدم ءانفا الكلام على معنى أورثنا عند قوله تعالى: أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها [الأعراف: ١٠٠] والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم. وقد قيل إن فرعون كان له سلطان على بلاد الشام، ولا حاجة إلى هذا إذ ليس في الآية تعيين
الموروث عنه.
والقوم الذين كانوا يستضعفون هم بنو إسرائيل كما وقع في الآية الأخرى: كذلك وأورثناها بني إسرائيل [الشعراء: ٥٩] ، وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين: أولاهما: **الإيماء** إلى علة الخبر، أي أن الله ملكهم الأرض وجعلهم أمة حاكمة جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد، غيرة من الله على عبيده.
الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاء على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم.
ومعنى يستضعفون: يستعبدون ويهانون، فالسين والتاء للحسبان مثل استنجب، أو للمبالغة كما في استجاب.". (١)

٧٨٣. ٧٨٣-"هنا صرف تكويني في نفوس الأقوام، وعن الحسن: إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى حد إذا وصل إليه مات قلبه.
وفي قص الله تعالى هذا الكلام على محمد صلى الله عليه وسلم تعريض بكفار العرب بأن الله دافعهم عن تعطيل آياته، وبأنه مانع كثيرا منهم عن الإيمان بها لما ذكرناه آنفا.
ويجوز أن تكون جملة سأصرف عن آياتي من خطاب الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه

---
(١) التحرير والتنوير ٧٦/٩

وسلم روى الطبري ذلك عن سفيان بن عيينة، فتكون الجملة معترضة في أثناء قصة بني إسرائيل

بمناسبة قوله: سأريكم دار الفاسقين [الأعراف: ١٤٥] تعريضا بأن حال مشركي العرب كحال أولئك الفاسقين، وتصريحا بسبب إدامتهم العناد والإعراض عن الإيمان، فتكون الجملة مستأنفة استينافا ابتدائيا، وتأتي في معنى الصرف عن الآيات الوجوه السابقة واقتران فعل سأصرف بسين الاستقبال القريب تنبيه على أن الله يعجل ذلك الصرف.

وتقديم المجرور على مفعول سأصرف للاهتمام بالآيات، ولأن ذكره عقب الفعل المتعلق هو به أحسن.

وتعريف المصروفين عن الآيات بطريق الموصولية **للإيماء** بالصلة إلى علة الصرف.

وهي ما تضمنته الصلات المذكورة، لأن من صارت تلك الصفات حالات له ينصره الله، أو لأنه إذا صار ذلك حاله رين على قلبه، فصرف قلبه عن إدراك دلالة الآيات وزالت منه الأهلية لذلك الفهم الشريف.

والأوصاف التي تضمنتها الصلات في الآية تنطبق على مشركي أهل مكة أتم الانطباق.

والتكبر الاتصاف بالكبر. وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلف، وقد بينا ذلك عند قوله تعالى: أبى واستكبر [البقرة: ٣٤] وقوله: استكبرتم في سورة البقرة [٨٧] ، والمعنى: أنهم يعجبون بأنفسهم، ويعدون أنفسهم عظماء فلا يأتمرون لآمر، ولا ينتصحون لناصح.

وزيادة قوله: في الأرض لتفضيح تكبرهم، والتشهير بهم بأن كبرهم مظروف في الأرض، أي ليس هو خفيا مقتصرا على أنفسهم، بل هو مبثوث في الأرض، أي". (١)

٧٨٤. ٧٨٤-"فإنهم آمنوا بالله ورسله، وإنما المقصود زيادة النهي عن اعتقاد التثليث، وهو المقصود من سياق الكلام.

والإيمان بالله الإيمان بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات، والإيمان بالرسول الإيمان بأخص صفاته وهو الرسالة، وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم.

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٠٤

وفي قوله: ورسوله النبيء الأمي التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم.

ووصف النبيء الأمي بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق، وهذا نظير قوله تعالى، في تفضيل المسلمين: وتؤمنون بالكتاب كله [آل عمران: ١١٩] وتقدم معنى الأمي قريبا.

وكلمات جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى: كلا إنها كلمة هو قائلها [المؤمنون: ١٠٠] أي قوله: رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] . فكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرسل، وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه، لأن المقصود الإيماء إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين، إذ كان تكون عيسى عن غير سبب التكون المعتاد بل كان تكونه بقول الله كن كما قال تعالى: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون [آل عمران: ٥٩] ، فاقتضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى، أي
بكونه رسولا من الله، وذلك قطع لمعذرة النصارى في التردد في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واقتضى أن الرسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله، وليس ابن الله، وفي ذلك بيان للإيمان الحق، ورد على اليهود فيما نسبوه إليه، ورد على النصارى فيما غلوا فيه.

والقول في معنى الاتباع تقدم، وكذلك القول في نحو لعلكم تهتدون.

[١٥٩]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٩]

ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٥٩)

ومن قوم موسى عطف على قوله: واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا [الأعراف:

١٤٨]". (١)

٧٨٥. ٧٨٥-"الإسلام، أي لغفور لمن تاب ورجع إلى الحق، وفيه إيماء إلى أن الله قد ينفس عليهم في فترات من الزمن لأن رحمة الله سبقت غضبه، وقد ألم بمعنى هذه الآية قوله تعالى: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا [الإسراء: ٤-٨] .

[١٦٨]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٨]

وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون (١٦٨)

عطف قصة على قصة، وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفرقهم بعد الاجتماع، والتقطيع التفريق، فيكون محمودا مثل وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا [الأعراف: ١٦٠] ، ويكون مذموما، فالتعويل على القرينة لا على لفظ التقطيع.

فالمراد من الأرض الجنس أي في أقطار الأرض.

وأمما جمع أمة بمعنى الجماعة، فيجوز أن يكون المراد هنا تقطيعا مذموما أي تفريقا بعد اجتماع أمتهم فيكون إشارة إلى أسر بني إسرائيل عند ما غزا مملكة إسرائيل (شلمناصر) ملك بابل. ونقلهم إلى جبال أنشور وأرض بابل سنة ٧٢١ قبل الميلاد. ثم أسر (بختنصر) مملكة يهوذا وملكها سنة ٥٧٨ قبل الميلاد، ونقل اليهود من (أرشليم) ولم يبق إلا الفقراء والعجز. ثم عادوا إلى أرشليم سنة ٥٣٠، وبنوا البيت المقدس إلى أن أجلاهم (طيطوس) الروماني، وخرب

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٤١

بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك فتمزقوا أيدي سبأ.
ووصف الأمم بأنهم منهم الصالحون إيذان بأن التفريق شمل المذنبين وغيرهم، وأن الله جعل للصالحين منزلة إكرام عند الأمم التي حلوا بينهما، كما دل عليه قوله:
وبلوناهم بالحسنات والسيئات.". (١)

٧٨٦. ٧٨٦-"والعرض- بفتح العين وفتح الراء- الأمر الذي يزول ولا يدوم. ويراد به المال، ويراد به أيضا ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.
والأدنى الأقرب من المكان، والمراد به هنا الدنيا، وفي اسم الإشارة **إيماء** إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه كالإشارة في قول قيس بن الخطيم:
متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها
وقد قيل: أخذ عرض الدنيا أريد به ملابسة الذنوب، وبذلك فسر سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري، فيشمل كل ذنب، ويكون الأخذ مستعملا في المجاز وهو الملابسة، فيصدق بالتناول باليد وبغير ذلك، فهو من عموم المجاز، وقيل عرض الدنيا هو الرشا وبه فسر السدي، ومعظم المفسرين، فيكون الأخذ مستعملا في حقيقته وهو التناول، وقد يترجح هذا التفسير بقوله وإن يأتهم عرض كما سيأتي.
والقول في: ويقولون هو الكلام اللساني، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات، لأن (ما) بعد يقولون يناسبه الكلام اللفظي، ويجوز أن يكون الكلام النفساني، لأنه فرع عنه، أي قولهم في أنفسهم يعللونها به حين يجيش فيها وازع النهي، فهو بمنزلة قوله تعالى: ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول [المجادلة:
٨] وذلك من غرورهم في الدين.
وبناء فعل «يغفر» على صيغة المجهول لأن الفاعل معروف، وهو الله، إذ لا يصدر هذا الفعل إلا عنه، وللدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم، أو الذي تلبسوا به حين القول، ونائب الفاعل محذوف لعلمه من السياق، والتقدير: سيغفر لنا ذلك، أو ذنوبنا، لأنهم يحسبون أن ذنوبهم كلها مغفورة وقالوا لن تمسنا

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/٩

النار إلا أياما معدودة كما تقدم في سورة البقرة [٨٠] ، أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة، وهو التوبة كما يعلم من السياق، وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها.

وقوله لنا لا يصلح للنيابة عن الفاعل، لأنه ليس في معنى المفعول، إذ فعل". (١)

٧٨٧. ٧٨٧-"وقال رائدهم أرسوا نزاولها ومرسى السفينة استقرارها بعد المخر قال تعالى: بسم الله مجراها ومرساها [هود:
٤١] ، وقد أطلق الإرساء هنا استعارة للوقوع تشبيها لوقوع الأمر الذي كان مترقبا أو متردد فيه بوصول السائر في البر أو البحر إلى المكان الذي يريده.
وقد أمر الله رسوله بجوابهم جواب جد وإغضاء عن سوء قصدهم بالسؤال التهكم، إظهارا لنفي الوصمة عن وصف النبوءة من جراء عدم العلم بوقت الشاعة، وتعليما للذين يترقبون أن يحصل من جواب الرسول عن سؤال المشركين علم للجميع بتعيين وقت الساعة فإذا أمر الساعة مما تتوجه النفوس إلى تطلبه.
فقد
ورد في الصحيح أن رجلا من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ - فقال رسول الله- ماذا أعددت لها؟ - فقال- ما أعددت لها كبير عمل إلا أني أحب الله ورسوله- فقال- أنت مع من أحببت
. وعلم الساعة هو علم تحديد وقتها كما ينبيء عنه السؤال، وقوله: لا يجليها لوقتها إلا هو، فإضافة علم إلى ضمير الساعة على تقدير مضاف بينهما أي علم وقتها، والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله، وظرفية (عند) مجازية استعملت في تحقيق تعلق علم الله بوقتها.
والحصر حقيقي: لأنه الأصل، ولما دل عليه توكيده بعد في قوله: قل إنما علمها عند الله، والقصر الحقيقي يشتمل على معنى الإضافي وزيادة، لأن علم الساعة بالتحديد مقصور على الله تعالى.
والتعريف بوصف الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم إيماء إلى الاستدلال على استئثار الله تعالى

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٦١

بعلم وقت الساعة دون الرسول المسئول ففيه إيماء إلى خطأهم وإلى شبهة خطأهم.

و (التجلية) الكشف، والمراد بها ما يشمل الكشف بالإخبار والتعيين، والكشف بالإيقاع، وكلاهما منفي الإسناد عن غير الله تعالى، فهو الذي يعلم وقتها، وهو الذي يظهرها إذا أراد، فإذا أظهرها فقد أجلاها.

واللام في قوله: لوقتها للتوقيت كالتي في قوله تعالى: أقم الصلاة لدلوك الشمس [الإسراء: ٧٨] .

ومعنى التوقيت، قريب من معنى (عند) ، والتحقيق: أن معناه ناشىء عن معنى لام الاختصاص.". (١)

٧٨٨. ٧٨٨-"ومعنى اللام يناسب أحد معنيي الإجلاء، وهو الإظهار، لأنه الذي إذا حصل تم كشف أمرها، وتحقق الناس أن القادر على إجلائها كان عالما بوقت حلولها.

وفصلت جملة: لا يجليها لوقتها إلا هو لأنها تتنزل من التي قبلها منزلة التأكيد والتقرير.

وقدم المجرور وهو لوقتها على فاعل يجليها الواقع استثناء مفرغا للاهتمام به تنبيها على أن تجلية أمرها تكون عند وقت حلولها لأنها تأتي بغتة.

وجملة: ثقلت في السماوات والأرض معترضة لقصد الإفادة بهولها، والإيماء إلى حكمة إخفائها.

وفعل ثقلت يجوز أن يكون لمجرد الإخبار بشدة، أمرها كقوله: ويذرون وراءهم يوما ثقيلا. ويجوز أن يكون تعجيبا بصيغة فعل- بضم العين- فتقدر الضمة ضمة تحويل الفعل للتعجيب، وإن كانت هي ضمة أصلية في الفعل، فيكون من قبيل قوله: كبرت كلمة تخرج من أفواههم [الكهف: ٥] .

والثقل مستعار للمشقة كما يستعار العظم والكبر، لأن شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تخيل لمن خلت به أنه حامل شيئا ثقيلا، ومنه قوله تعالى: إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا [المزمل: ٥] أي شديدا تلقيه وهو القرآن، ووصف الساعة بالثقل باعتبار ما هو مظروف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٢/٩

في وقتها من الحوادث، فوصفها بذلك مجاز عقلي، والقرينة واضحة، وهي كون الثقل بمعنى الشدة لا يكون وصفا للزمان، ولكنه وصف للأحداث، فإذا أسند إلى الزمان، فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفا للأحداث، كقوله: وقال هذا يوم عصيب
[هود: ٧٧] .
وثقل الساعة أي شدتها هو عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض، من تصادم الكواكب، وانخرام سيرها، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين، والبحار، وجفاف المياه، ونحو ذلك مما ينشأ عن اختلال النظام الذي مكان عليه سير العالم، وذلك كله يحدث شدة عظيمة على كل ذي إدراك من الموجودات.". (١)

٧٨٩. ٧٨٩-"يعلمهم الله صدق التوجه إليه، ويكون موقع ولن تغني عنكم فئتكم شيئا زيادة تقرير لمضمون إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وقوله: وإن تعودوا نعد أي لا تعتمدوا إلا على نصر الله.
فموقع قوله: ولن تغني عنكم فئتكم شيئا بمنزلة التعليل لتعليق مجيء الفتح على أن تستفتحوا المشعر بأن النصر غير مضمون الحصول إلا إذا استنصروا بالله تعالى وجملة ولو كثرت في موضع الحال، ولو إتصالية، وصاحب الحال متصف بضد مضمونها، أي: ولو كثرت فكيف وفئتكم قليلة، وعلى هذا الوجه يكون في قوله: وأن الله مع المؤمنين إظهار في مقام الإضمار، لأن مقتضى الظاهر أن يقال: وإن الله معكم، فعدل إلى الاسم الظاهر **للإيماء** إلى أن سبب عناية الله بهم هو إيمانهم. فهذان تفسيران للآية والوجدان يكون كلاهما مرادا.
والفتح حقيقته إزالة شيء مجعول حاجزا دون شيء آخر، حفظا له من الضياع أو الافتكاك والسرقة، فالجدار حاجز، والباب حاجز، والسد حاجز، والصندوق حاجز، والعدل تجعل فيه الثياب والمتاع حاجز، فإذا أزيل الحاجز أو فرج فيه فرجة يسلك منها إلى المحجوز سميت تلك الإزالة فتحا، وذلك هو المعنى الحقيقي، إذ هو المعنى الذي لا يخلو عن اعتباره جميع استعمال مادة الفتح وهو بهذا المعنى يستعار لإعطاء الشيء العزيز النوال استعارة مفردة أو تمثيلية وقد تقدم عند قوله تعالى: فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/٩

[الأنعام: ٤٤] وقوله تعالى: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات الآية في سورة الأعراف [٩٦] فالاستفتاح هنا طلب الفتح أي النصر، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر.

وكثر إطلاق الفتح على حلول قوم بأرض أو بلد غيرهم في حرب أو غارة، وعلى النصر، وعلى الحكم، وعلى معان أخر، على وجه المجاز أو الكناية وقوله: وأن الله مع المؤمنين وقرأه نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، بفتح همزة إن على تقدير لام التعليل عطفا على قوله: وأن الله موهن كيد الكافرين [الأنفال:

١٨].

وقرأه الباقون بكسر الهمزة، فهو تذييل للآية في معنى التعليل، لأن التذييل لما فيه من العموم يصلح لإفادة تعليل المذيل، لأنه بمنزلة المقدمة الكبرى للمقدمة الصغرى.". (١)

٧٩٠. ٧٩٠-"تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا، فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا **إيماء** إلى أن الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلها، وأنه سيكون هذا أثره فيهم كلما احتفظوا عليه كفوه من قبل سؤالهم، ومن قبل تسديد حالهم، فكيف لا يكونون بعد ترفه حالهم أشد استجابة وأثبت قلوبا.

وفعل واذكروا مشتق من الذكر- بضم الدال- وهو التذكر لا ذكر اللسان، أي تذكروا.

وإذ اسم زمان مجرد عن الظرفية، فهو منصوب على المفعول به، أي اذكروا زمن كنتم قليلا.

وجملة: أنتم قليل مضاف إليها إذ ليحصل تعريف المضاف، وجيء بالجملة اسمية للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم.

وأخبر ب قليل وهو مفرد عن ضمير الجماعة لأن قليلا وكثيرا قد يجيئان غير مطابقين لما جريا عليه، كما تقدم عند قوله تعالى: معه ربيون كثير في سورة آل عمران

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/٩

. [١٤٦]

والأرض يراد بها الدنيا كما تقدم عند قوله تعالى: ولا تفسدوا في الأرض في سورة الأعراف [٥٦] فالتعريف شبيه بتعريف الجنس، أو أريد بها أرض مكة، فالتعريف للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة قليلا مستضعفين بين المشركين، فإنهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد قد جفاهم قومهم وعادوهم فصاروا لا قوم لهم وكانوا على دين لا يعرفه أحد من أهل العالم فلا يطمعون في نصر موافق لهم في دينهم وإذا كانوا كذلك وهم في مكة فهم كذلك في غيرها من الأرض فآواهم الله بأن صرف أهل مكة عن استيصالهم ثم بأن قيض الأنصار أهل العقبة الأولى وأهل العقبة الثانية، فأسلموا وصاروا أنصارا لهم بيثرب، ثم أخرجهم من مكة إلى بلاد الحبشة فئاواهم بها، ثم أمرهم بالهجرة إلى يثرب فئاواهم بها، ثم صار جميع المؤمنين بها أعداء للمشركين فنصرهم هنالك على المشركين يوم بدر، فالله". (١)

٧٩١. ٧٩١-"المسلمين وكانت مكة لقاحا.

وثم للتراخي الحقيقي والرتبي مثل التي قبلها.

والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون.

كان مقتضى الظاهر أن يقال وإلى جهنم يحشرون كما قال في الآية الأخرى: قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد [آل عمران: ١٢] فعدل عن الإضمار هنا إلى الإظهار تخريجا على خلاف مقتضى الظاهر، للإفصاح عن التشنيع بهم في هذا الإنذار حتى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بأصرح عبارة، وهذا كقول عويف القوافي:

اللؤم أكرم من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

لقصد زيادة تشنيع وبر المهجو بتقرير اسمه واسم اللؤم الذي شبه به تشبيها بليغا.

وعرفوا بالموصولية **إيماء** إلى أن علة استحقاقهم الأمرين في الدنيا والآخرة هو وصف الكفر، فيعلم أن هذا يحصل لمن لم يقلعوا عن هذا الوصف قبل حلول الأمرين بهم.

وليميز متعلق ب يحشرون لبيان أن من حكمة حشرهم إلى جهنم أن يتميز الفريق الخبيث

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٩/٩

من الناس من الفريق الطيب في يوم الحشر، لأن العلة غير المؤثرة تكون متعددة، فتمييز الخبيث من الطيب من جملة الحكم لحشر الكافرين إلى جهنم.
وقرأ الجمهور- ليميز- بفتح التحتية الأولى وكسر الميم وسكون التحتية الثانية- مضارع ماز بمعنى فرز وقرأ حمزة والكسائي، ويعقوب، وخلف: بضم التحتية الأولى وفتح الميم التحتية وتشديد الثانية. مضارع ميز إذا محص الفرز وإذ أسند هذا الفعل إلى الله تعالى استوت القراءتان.". (١)

٧٩٢. ١-"فالحكمة وإن كانت علما اصطلاحيا وليس هو تمام المعنى للآية إلا أن معنى الآية الأصلي لا يفوت وتفاريع الحكمة تعين عليه، وكذلك أن نأخذ من قوله تعالى: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم [الحشر: ٧] تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل على أن ذلك تومىء إليه الآية **إيماء**. وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقا بتفسير آي القرآن كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان
التمانع لتقرير معنى قوله تعالى: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [الأنبياء: ٢٢] وكتقرير مسألة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى: والسماء بنيناها بأيد [الذاريات: ٤٧] فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله تعالى: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج [ق: ٦] فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيأة كان قد زاد المقصود خدمة. وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع. وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: ويوم نسير الجبال [الكهف: ٤٧] أن فناء العالم يكون بالزلازل، ومن قوله: إذا الشمس كورت [التكوير: ١] الآية أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم. وشرط كون ذلك مقبولا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له لئلا يكون كقولهم السي بالسي يذكر (١) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٢/٩

وللعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة على الإجمال آراء، فأما جماعة منهم فيرون من الحسن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعاني القرآنية، ويرون القرآن مشيرا إلى كثير منها. قال ابن رشد الحفيد في «فصل المقال» : «أجمع المسلمون على أن ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل، والسبب في ورود الشرع بظاهر وباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائحهم في التصديق»

---

(١) السي: بسين مهملة مكسورة وتحتية مشددة النظير والمثيل.". (١)

٧٩٣. ٢-"منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم [آل عمران: ٧] هذا من حيث ما لمعانيه من العموم **والإيماء** إلى العلل والمقاصد وغيرها.

ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذليل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير [البقرة: ١٧- ٢٠] بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله. وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣/١

أزمان قراءته كما قال تعالى: علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن [المزمل: ٢٠] فقوله ما تيسر يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير.

نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه «سراج المريدين» : «ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم» ونقل الزركشي عن عز الدين بن عبد السلام: «المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه بعض» .". (١)

٧٩٤. ٣-"مبتكرات القرآن هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب.

فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة، وقد نبه عليه العلماء المتقدمون، وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام.

وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة، شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة، مثاله قوله تعالى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون [النساء: ٩٥] وقوله: ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله [القصص:
٥٠] فبين أن الهوى قد يكون محمودا إذا كان هوى المرء عن هدى، وقوله: إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا [العصر: ٢، ٣] .

ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أومأ إليها في «الكشاف» **إيماء.**

---

(١) التحرير والتنوير ١١٦/١

ومنها الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية إلا نادرا، كان في بعض الشعر كأبيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف [٤٤] من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف: ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار إلخ وفي سورة الحديد [١٣] : فضرب بينهم بسور الآيات.

ومما يتبع هذا أن القرآن يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها، فهو إذا حكى أقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي". (١)

٧٩٥. ٤-"كما أظهروا همزة الأناس في قول عبيد بن الأبرص الأسدي:

إن المنايا ليطلع ... ن على الأناس الآمنين

ونزل هذا اللفظ في طوره الثالث منزلة الأعلام الشخصية فتصرفوا فيه هذا التصرف لينتقلوا به إلى طور جديد فيجعلوه مثل علم جديد، وهذه الطريقة مسلوكة في بعض الأعلام. قال أبو الفتح بن جني في شرح قول تأبط شرا في النشيد الثالث عشر من «الحماسة» :

إني لمهد من ثنائي فقاصد ... به لابن عم الصدق شمس بن مالك

شمس بضم الشين وأصله شمس بفتحها كما قالوا حجر وسلمى فيكون مما غير عن نظائره لأجل العلمية اهـ. وفي «الكشاف» في تفسير سورة أبي لهب بعد أن ذكر أن من القراء من قرأ (أبي لهب) بسكون الهاء ما نصه وهي من تغيير الأعلام كقولهم شمس بن مالك بالضم اهـ. وقال قبله: «ولفليتة بن قاسم أمير مكة ابنان أحد هما عبد الله بالجر، والآخر عبد الله بالنصب، وكان بمكة رجل يقال له عبد الله لا يعرف إلا هكذا» اهـ. يعني بكسر دال عبد في جميع أحوال إعرابه، فهو بهذا **الإيماء** نوع مخصوص من العلم، وهو أنه أقوى من العلم

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٢٠

بالغلبة لأن له لفظا جديدا بعد اللفظ المغلب. وهذه الطريقة في العلمية التي عرضت لاسم الجلالة لا نظير لها في الأعلام فكان اسمه تعالى غير مشابه لأسماء الحوادث كما أن مسمى ذلك الاسم غير مماثل لمسميات أسماء الحوادث. وقد دلوا على تناسيهم ما في الألف واللام من التعريف وأنهم جعلو هما جزءا من الكلمة بتجويزهم نداء اسم الجلالة مع إبقاء الألف واللام إذ يقولون يا الله مع أنهم يمنعون نداء مدخول الألف واللام.

وقد احتج صاحب «الكشاف» على كون أصله الإله ببيت البعيث المتقدم، ولم يقرر ناظروه وجه احتجاجه به، وهو احتجاج وجيه لأن معاذ من المصادر التي لم ترد في استعمالهم مضافة لغير اسم الجلالة، مثل سبحان فأجريت مجرى أمثال في لزومها لهاته الإضافة، إذا تقول معاذ الله فلما قال الشاعر معاذ الإله وهو من فصحاء اللسان علمنا أنهم يعتبرون الإله أصلا للفظ الله، ولذلك لم يكن هذا التصرف تغييرا إلا أنه تصرف في حروف اللفظ الواحد كاختلاف وجوه الأداء مع كون اللفظ واحدا، ألا ترى أنهم احتجوا". (١)

٧٩٦. ٥-"رحمته، ثم وصف بأنه ملك يوم الدين وهو وصف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبيء عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت ملكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصاف المبالغة التي يفيضها الناس على أعظم الملوك مثل ملك الملوك (شاهان شاه) وملك الزمان وملك الدنيا (شاه جهان) وما شابه ذلك. مع ما في تعريف ذلك اليوم بإضافته إلى الدين أي الجزاء من إدماج التنبيه على عدم حكم الله لأن إيثار لفظ الدين (أي الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العامل بما يعادل أعماله المجزي عليها في الخير والشر، وذلك العدل الخاص قال تعالى: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم [غافر: ١٧] فلذلك لم يقل ملك يوم الحساب فوصفه بأنه ملك يوم العدل الصرف وصف له بأشرف معنى الملك فإن الملوك تتخلد محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل وقد عرف العرب المدحة بذلك. قال النابغة يمدح الملك

عمرو بن الحارث الغساني ملك الشام:

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٤/١

وكم جزانا بأيد غير ظالمة ... عرفا بعرف وإنكارا بإنكار

وقال الحارث بن حلزة يمدح الملك عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة:

ملك مقسط وأفضل من يم ... شي ومن دون ما لديه القضاء

وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى **إيماء** بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذي أعربت عنه جملة الحمد لله، لأن تقييد مفاد الكلام بأوصاف متعلق ذلك المفاد يشعر بمناسبة بين تلك الأوصاف وبين مفاد الكلام مناسبة تفهم من المقام مثل التعليل في مقام هذه الآية.

[٥] إياك نعبد وإياك نستعين.

إذا أتم الحامد حمد ربه يأخذ في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له انتقالا من الإفصاح عن حق الرب إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة. فهذا الكلام استئناف ابتدائي.

ومفاتحة العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قبل أن يخاطبوا طريقة عربية. روى". (١)

٧٩٧. ٦-"بالاستعانة أيضا مع تخصيصك بالعبادة.

والاستعانة طلب العون. والعون والإعانة تسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده، فهي تحصل بإعداد طريق تحصيله من إعارة آلة، أو مشاركة بعمل البدن كالحمل والقود، أو بقول كالإرشاد والتعليم، أو برأي كالنصيحة. قال الحريري في المقامة: «وخلقي نعم العون» ، أو بمال كدفع المغرم، بحيث يحصل الأمر بعسير من جهود المستعين والمعين.

وأما الاستعانة بالله فهي طلب المعونة على ما لا قبل للبشر بالإعانة عليه ولا قبل للمستعين بتحصيله بمفرده، ولذلك فهي مشعرة بأن المستعين يصرف مقدرته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه بتيسير ما لا قبل لقدرة المستعين على تحصيله بمفرده، فهذه هي المعونة شرعا. وقد فسرها العلماء بأنها هي خلق ما به تمام الفعل أو تيسيره، فتنقسم قسمين ضرورية أي ما يتوقف الفعل عليها فلا يحصل بدونها أي لا يحصل بدون توفر متعلقها وهي إعطاء الاقتدار للفاعل وتصوره للفعل وحصول المادة والآلة، ومجموع هاته الأربعة يعبر عنه

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٧/١

بالاستطاعة، ويعبر عنها بسلامة الأسباب والآلات وبها يصح تكليف المستطيع.

القسم الثاني المعونة غير الضرورية وينبغي أن تخص باسم الإعانة وهي إيجاد المعين ما يتيسر به الفعل للمعان حتى يسهل عليه ويقرب منه كإعداد الراحلة في السفر للقادر على المشي. وبانضمام هذا المعنى للمعنى الأول تتم حقيقة التوفيق المعرف عندهم بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة، وسمى الراغب هذا القسم الثاني بالتوفيق ولا تعارض بين كلامه وبين تعريفهم إياه لما علمت من أنه لا يحصل إلا بعد حصول المعونة بالمعنى الأول فتم التوفيق والمقصود هنا الاستعانة على الأفعال المهمة كلها التي أعلاها تلقي الدين وكل ما يعسر على المرء تذليله من توجهات النفوس إلى الخير وما يستتبع ذلك من تحصيل الفضائل. وقرينة هذا المقصود رسمه في فاتحة الكتاب ووقوع تخصيص الإعانة عقب التخصيص بالعبادة. ولذلك حذف متعلق نستعين الذي حقه أن يذكر مجرورا بعلى، وقد أفاد هذا الحذف الهام عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تأدبا معه تعالى، ومن توابع ذلك وأسبابه وهي المعارف والإرشادات والشرائع وأصول العلوم فكلها من الإعانة المطلوبة وكلها من الله تعالى فهو الذي ألهمنا مبادئ العلوم وكلفنا الشرائع ولقننا النطق، قال: ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين [البلد: ٨- ١٠]- فالأول **إيماء** إلى طريق المعارف وأصلها المحسوسات وأعلاها المبصرات، والثاني **إيماء** إلى". (١)

٧٩٨. ٧-"النطق والبيان للتعليم، والثالث إلى الشرائع.

والحصر المستفاد من التقديم في قوله: وإياك نستعين حصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بالاستعانات المتعارفة بين الناس بعضهم ببعض في شؤونهم، ومعنى الحصر هنا لا نستعين على عظائم الأمور التي لا يستعان فيها بالناس إلا بالله تعالى. ويفيد هذا القصر فيهما التعريض بالمشركين الذين يعبدون غير الله ويستعينون بغيره لأنهم كانوا فريقين منهم من عبد غير الله على قصد التشريك إلا أن ولعه واستهتاره بغير الله تعالى أنساه عبادة الله تعالى كما عبدت سبأ الشمس وعبد الفرس النور والظلمة، وعبد القبط العجل وألهوا الفراعنة، وعبدت أمم السودان الحيوانات كالثعابين. ومن المشركين من أشرك مع عبادة الله عبادة غيره وهذا

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٨٤

حال معظم العرب ممن عبد الأصنام أو عبد الكواكب، فقد عبدت ضبة وتيم وعكل الشمس، وعبدت كنانة القمر، وعبدت لخم وخزاعة وبعض قريش الشعرى، وعبدت تميم الدبران، وعبدت طيىء الثريا، وهؤلاء كلهم جعلوا الآلهة بزعمهم وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى، فهؤلاء جمعوا العبادة والاستعانة بهم لأن جعلهم وسيلة إلى الله ضرب من الاستعانة، وإنما قلنا إن استفادة الرد على المشركين ونحوهم بطريق التعريض أي بطريق عرض الكلام لأن القصر الحقيقي لا يصلح أن يكون لرد الاعتقاد إلا

تعريضا لأن معناه حاصل على الحقيقة كما أشار إليه السلكوتي في «حاشية التفسير» .

فإن قلت كيف أمرنا بأن لا نعبد إلا الله ولا نستعين إلا به حسبما تشير إليه هذه الآية، وقد

ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما علم عبد الله بن عباس قال له «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»

فلم يأت بصيغة قصر. قلت قد ذكر الشيخ الجد قدس الله روحه في تعليقه على هذا الحديث أن ترك طريقة القصر إيماء إلى أن المقام لا يقبل الشركة وأن من حق السؤال أن لا يكون إلا لله القادر العليم، وقد قال علماء البلاغة إذا كان الفعل مقصورا في نفسه فارتكاب طريق القصر لغو من الكلام اهـ.

وأقول تقفية على أثره إن مقام الحديث غير مقام الآية فمقام الحديث مقام تعليم خاص لمن نشأ وشب وترجل في الإسلام فتقرر قصر الحكم لديه على طرف الثمام ولذلك استغنى عنه وأما مقام هذه الآية فمقام مفتتح الوحي والتشريع واستهلال الوعظ والتقريع، فناسب تأكيد الحكم بالقصر مع التعريض بحال الشرك الشنيع على أن تعليق الأمر بهما في جواب الشرط على حصول أي سؤال وأية استعانة يفيد مفاد القصر تعريضا بالمشركين". (١)

٧٩٩. ٨-"فاليهود تمردوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة وبدلوا الشريعة عمدا فلزمهم وصف المغضوب عليهم وعلق بهم في آيات كثيرة. والنصارى ضلوا بعد الحواريين وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة قال تعالى: قل يا

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٨٥

أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل [المائدة: ٧٧] . وفي وصف الصراط المسئول في قوله: اهدنا الصراط المستقيم بالمستقيم إيماء إلى أن الإسلام واضح الحجة قويم المحجة لا يهوي أهله إلى هوة الضلالة كما قال تعالى: قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما [الأنعام: ١٦١] وقال: وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله [الأنعام: ١٥٣] ، على تفاوت في مراتب إصابة مراد الله تعالى ولذلك

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد»

ولم يترك بيان الشريعة مجاري اشتباه بين الخلاف الذي تحيط به دائرة الإسلام والخلاف الذي يخرج بصاحبه عن محيط الإسلام قال تعالى: إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] .

واختلف القراء في حركة هاء الضمير من قوله: أنعمت عليهم، وقوله: غير المغضوب عليهم، وما ضاهاهما من كل ضمير جمع وتثنية مذكر ومؤنث للغائب وقع بعد ياء ساكنة، فالجمهور قرأوها بكسر الهاء تخلصا من الثقل لأن الهاء حاجز غير حصين فإذا ضمت بعد الياء فكان ضمتها قد وليت الكسرة أو الياء الساكنة وذلك ثقيل وهذه لغة قيس وتميم وسعد بن بكر. وقرأ حمزة عليهم وإليهم ولديهم فقط بضم الهاء وما عداها بكسر الهاء نحو إليهما وصياصيهم وهي لغة قريش والحجازيين. وقرأ يعقوب كل ضمير من هذا القبيل مما قبل الهاء فيه ياء ساكنة بضم الهاء. وقد ذكرنا هذا هنا فلا نعيد ذكره في أمثاله وهو مما يرجع إلى قواعد علم القراءات في هاء الضمير.

واختلفوا أيضا في حركة ميم ضمير الجمع الغائب المذكر في الوصل إذا وقعت قبل متحرك فالجمهور قرأوا: عليهم غير المغضوب عليهم بسكون الميم وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون في رواية عنه بضمة مشبعة: غير المغضوب عليهم وهي لغة بعض العرب

وعليها قول لبيد:

وهمو فوارسها وهم حكامها

فجاء باللغتين، وقرأ ورش بضم الميم وإشباعها إذا وقع بعد الميم همز دون نحو:

غير المغضوب عليهم وأجمع الكل على إسكان الميم في الوقف.". (١)

٨٠٠. ٩-"محتويات هذه السورة

هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها، ولكن هذا لا يحجم بنا
عن التعرض إلى لائحات منها، وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام، وسدى متين من فصاحة الكلمات.
ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.
وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية، وأساليب الكتب التشريعية، وأساليب التذكير والموعظة، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين، ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحديا إجماليا بحروف التهجي المفتتح بها رمزا يقتضي استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده، فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز **إيماء** إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله:
وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] . فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه، وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافا أربعة (وكانوا قبل الهجرة صنفين) بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي. وإذ قد كان أخص الأصناف انتفاعا بهديه هم المؤمنين بالغيب المقيمين الصلاة- يعني المسلمين- ابتدئ بذكرهم، ولما كان أشد الأصناف عنادا وحقدا صنفا المشركين الصرحاء والمنافقين لف الفريقان لفا واحدا فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ثم خص بالإطناب صنف أهل النفاق تشويها لنفاقهم وإعلانا لدخائلهم ورد مطاعنهم، ثم كان خاتمة ما قرعت به أنوفهم صريح التحدي الذي رمز إليه بدءا تحديا

(١) التحرير والتنوير ١/٢٠٠

يلجئهم إلى الاستكانة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة، ويلقي في قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحداهم، فكان ذلك من رد". (١)

٨٠١.   ١٠-"حين ألقت بقباء بركها ... واستمر القتل في عبد الأشل

أي عبد الأشهل. وقول أبي فؤاد:

يدرين حندل حائر لجنوبها ... فكأنما تذكى سنابكها الحبا

أراد الحباحب. وقال الأخطل:

أمست مناها بأرض ما يبلغها ... بصاحب الهم إلا الجسرة الأجد

أراد منازلها. ووقع («طراز المجالس» - المجلس) (١) للمتأخرين من هذا كثير مع التورية كقول ابن مكانس:

لم أنس بدرا زارني ليلة ... مستوفزا مطلعا للخطر

فلم يقم إلا بمقدار ما ... قلت له أهلا وسهلا ومر

أراد بعض كلمة مرحبا وقد أكثرت من شواهده توسعة في مواقع هذا الاستعمال الغريب ولست أريد بذلك تصحيح حمل حروف فواتح السور على ذلك لأنه لا يحسن تخريج القرآن عليه وليس معها ما يشير إليه مع التورية بجعل مر من المرور.

القول الثامن أنها إشارات إلى أحوال من تزكية القلب، وجعلها في «الفتوحات» في الباب الثاني **إيماء** إلى شعب الإيمان، وحاصله أن جملة الحروف الواقعة في أوائل سور القرآن على تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفا والثمانية هنا هي حقيقة البضع حصل له ذلك بالكشف فيكون عدد الحروف ثمانية وسبعين وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»

فهذه الحروف هي شعب الإيمان، ولا يكمل لأحد أسرار الإيمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها. وكيف يزعم زاعم أنها واردة في معان غير معروفة مع ثبوت تلقي السامعين لها بالتسليم من مؤمن ومعاند، ولولا أنهم فهموا منها معنى معروفا دلت عليه القرائن لسأل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/١

السائلون وتورك المعاندون.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبيء صلى الله عليه وسلم بل تلا عليهم حم فصلت وص وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة قلت وقد سألوا عن أوضح من هذا فقالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] ، وأما ما استشهدوا

---

(١) نسبه إليه المبرد في «الكامل» ص ٢٤٥. وسيبويه في «كتابه» ص ٥٧ جزء ٢ وتبعهما المفسرون.". (١)

٨٠٢. ١١-"الماء واحتطاب الحطب والصيد وجني الثمار والتقاط ما لا ملك لأحد عليه ولا هو كائن في ملك أحد، ومثل خدمته بقوته من حمل ثقل ومشي لقضاء شؤون من يؤجره وانحباس للحراسة، أو كان مما يصنع أشياء من مواد يملكها وله حق الانتفاع بها كالخبز والنسج والتجر وتطريق الحديد وتركيب الأطعمة وتصوير الآنية من طين الفخار، أو كان مما أنتجه مثل الغرس والزرع والتوليد، أو مما ابتكره بعقله مثل التعليم والاختراع والتأليف والطب والمحاماة والقضاء ونحو ذلك من الوظائف والأعمال التي لنفع العامة أو الخاصة، أو مما أعطاه إياه مالك رزق من هبات وهدايا ووصايا، أو أذن بالتصرف كإحياء الموات، أو كان مما ناله بالتعارض كالبيوع والإجارات والأكرية والشركات والمغارسة، أو مما صار إليه من مال انعدم صاحبه بكونه أحق الناس به كالإرث. وتملك اللقطة بعد التعريف المشروط، وحق الخمس في الركاز. فهذه وأمثالها مما شمله قول الله تعالى: مما رزقناهم.

وليس لأحد ولا لمجموع الناس حق فيما جعله الله رزق الواحد منهم لأنه لا حق لأحد في مال لم يسع لاكتسابه بوسائله

وقد جاءت هند بنت عقبة زوج أبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «إن أبا سفيان رجل مسيك فهل أنفق من الذي له عيالنا فقال لها:

«لا إلا بالمعروف»

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٠/١

أي إلا ما هو معروف أنه تتصرف فيه الزوجة مما في بيتها مما وضعه الزوج في بيته لذلك دون مسارقة ولا خلسة.

وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو ينفقون لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس كقوله تعالى: ويطعمون الطعام على حبه [الإنسان: ٨] ، مع رعي فواصل الآيات على

حرف النون، وفي الإتيان بمن التي هي للتبعيض **إيماء** إلى كون الإنفاق المطلوب شرعا هو إنفاق بعض المال لأن الشريعة لم تكلف الناس حرجا، وهذا البعض يقل ويتوفر بحسب أحوال المنفقين. فالواجب منه ما قدرت الشريعة نصبه ومقاديره من الزكاة وإنفاق الأزواج والأبناء والعبيد، وما زاد على الواجب لا ينضبط تحديده وما زاد فهو خير، ولم يشرع الإسلام وجوب تسليم المسلم ما ارتزقه واكتسبه إلى يد غيره. وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهي الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فإنهما أقدم المشروعات وهما أختان في كثير من آيات القرآن، ولأن هذه الصفات". (١)

٨٠٣. ١٢-"الذين اقتصروا في قولهم على هذا القول لأنهم لغلوهم في الكفر لا يستطيعون أن يذكروا الإيمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم استثقالا لهذا الاعتراف فيقتصرون على ذكر الله واليوم الآخر إيهاما للاكتفاء ظاهرا ومحافظة على كفرهم باطنا لأن أكثرهم وقادتهم من اليهود.

وفي التعبير بيقول في مثل هذا المقام **إيماء** إلى أن ذلك قول غير مطابق للواقع لأن الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلق الغرض بذكر نصه وحكي بلفظ يقول أومأ ذلك إلى أنه غير مطابق لاعتقاده أو أن المتكلم يكذبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله: وما هم بمؤمنين وجملة وما هم بمؤمنين في موضع الحال من ضمير يقول أي يقول هذا القول في حال أنهم غير مؤمنين. والآية أشارت إلى طائفة من الكفار وهم المنافقون الذين كان بعضهم من أهل يثرب وبعضهم

(١) التحرير والتنوير ٢٣٦/١

من اليهود الذين أظهروا الإسلام وبقيتهم من الأعراب المجاورين لهم، ورد في حديث كعب بن مالك أن المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك بضعة وثمانون، وقد عرف من أسمائهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو رأس المنافقين، والجد بن قيس، ومعتب بن قشير، والجلاس بن سويد الذي نزل فيه: يحلفون بالله ما قالوا [التوبة: ٧٤] ، وعبد الله بن سبأ اليهودي ولبيد بن الأعصم من بني زريق حليف اليهود كما في باب السحر من كتاب الطب من «صحيح البخاري» ، والأخنس أبي بن شريق الثقفي كان يظهر الود والإيمان وسيأتي عند قوله تعالى: ومن الناس من يعجبك [البقرة: ٢٠٤] ، وزيد بن اللصيت القينقاعي ووديعة بن ثابت من بني عمرو بن عوف، ومخشن بن حمير الأشجعي اللذين كانا يثبطان المسلمين من غزوة تبوك، وقد قيل إن زيد بن اللصيت تاب وحسن حاله، وقيل لا، وأما مخشن فتاب وعفا الله عنه وقتل شهيدا يوم القيامة.

وفي كتاب «المرتبة الرابعة» لابن حزم قد ذكر قوم معتب بن قشير الأوسي من بني

عمرو بن عوف في المنافقين وهذا باطل لأن حضوره بدرا يبطل هذا الظن بلا شك ولكنه ظهر منه يوم أحد ما يدل على ضعف إيمانه فلمزوه بالنفاق فإنه القائل يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا [آل عمران: ١٥٤] ، رواه عنه الزبير بن العوام قال ابن عطية كان مغموصا بالنفاق. ومن المنافقين أبو عفك أحد بني عمرو بن عوف ظهر نفاقه حين قتل رسول الله الحارث بن سويد بن صامت وقال شعرا يعرض بالنبيء صلى الله عليه وسلم وقد أمر رسول الله". (١)

٨٠٤. ١٣-"[٢٢]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢]

الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢)

الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٦٣

رزقا لكم.
يتعين أن قوله: الذي جعل لكم الأرض فراشا صفة ثانية للرب لأن مساقها مساق قوله: الذي خلقكم [البقرة: ٢١] ، والمقصود **الإيماء** إلى سبب آخر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها فإنه لما أوجب عبادته أنه خالق الناس كلهم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إياه وحده، وهي نعمه المستمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته فإنه مكن لهم سبل العيش وأولها المكان الصالح للاستقرار عليه بدون لغوب فجعله كالفراش لهم ومن إحاطة هذا القرار بالهواء النافع لحياتهم والذي هو غذاء الروح الحيواني، وذلك ما أشير إليه بقوله: والسماء بناء وبكون تلك الكرة الهوائية واقية الناس من إضرار طبقات فوقها متناهية في العلو، من زمهرير أو عناصر غريبة قاتلة خانقة، فالكرة الهوائية جعلت فوق هذا العالم فهي كالبناء له ونفعها كنفع البناء فشبهت به على
طريقة التشبيه البليغ وبأن أخرج للناس ما فيه إقامة أود حياتهم باجتماع ماء السماء مع قوة الأرض وهو الثمار.
والمراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب وهو ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض كما هو المراد في قوله: أو كصيب من السماء [البقرة:
١٩] وهذا هو المراد الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع.
ومعنى جعل الأرض فراشا أنها كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها وهو أخص أحوال الاستقرار. والمعنى أنه جعلها متوسطة بين شدة الصخور بحيث تؤلم جلد الإنسان وبين رخاوة الحمأة بحيث يتزحزح الكائن فوقها ويسوخ فيها وتلك منة عظيمة.
وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حاجزة بين الكرة الأرضية وبين الكرة الأثيرية فهي كالبناء فيما يراد له البناء وهو الوقاية من الأضرار النازلة، فإن للكرة الهوائية دفعا لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض ودفع أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب إلينا وتلطيفها حتى تختلط بالهواء أو صد الهواء إياها عنا مع ما في مشابهة منظر الكرة الهوائية لهيئة القبة، والقبة بيت من أدم مقبب وتسمى بناء،". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣١/١

٨٠٥. ١٤-"الذين ينقضون عهد الله الآية وصفا للفاسقين وكان المراد من الفاسقين اليهود كما علمت كان ذكر العهد إيماء إلى أن الفاسقين هنا هم، وتسجيلا على اليهود بأنهم قد حق عليهم هذا الوصف من قبل اليوم بشهادة كتبهم وعلى ألسنة أنبيائهم فكان لاختيار لفظ العهد هنا وقع عظيم يتنزل منزلة المفتاح الذي يوضع في حل اللغز ليشير للمقصود فهو العهد الذي سيأتي ذكره في قوله تعالى: وأوفوا بعهدي [البقرة: ٤٠] .

والميثاق مفعال وهو يكون للآلة كثيرا كمرقاة ومرآة ومحراث، قال الخفاجي كأنه إشباع للمفعل، وللمصدر أيضا نحو الميلاد والميعاد وهو الأظهر هنا. والضمير للعهد أي من بعد توكيد العهد وتوثيقه. ولما كان المراد بالعهد عهدا غير معين، بل كل ما عاهدوا عليه كان توكيد كل ما يفرضه المخاطب بما تقدمه من العهود وما تأخر عنه فهو على حد:

ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها [النحل: ٩١] فالميثاق إذن عهد آخر اعتبر مؤكدا لعهد سبقه أو لحقه.

وقوله: ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل قيل ما أمر الله به أن يوصل هو قرابة الأرحام يعني وحيث ترجح أن المراد به بعض عمل اليهود فذلك إذ تقاتلوا وأخرجوا كثيرا منهم من ديارهم ولم تزل التوراة توصي بني إسرائيل بحسن معاملة بعضهم لبعض. وقيل

الإعراض عن قطع ما أمر الله به أن يوصل هو موالاة المؤمنين. وقيل اقتران القول بالعمل. وقيل التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعض والكفر ببعض. وقال البغوي يعني بما أمر الله به أن يوصل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبجميع الرسل.

وأقول تكميلا لهذا إن مراد الله تعالى مما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها وحفظ نظام عالمهم وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل، وإنما اختلفت الشرائع على حسب مبلغ تهيىء البشر لتلقي مراد الله تعالى ولذلك قلما اختلفت الأصول الأساسية للشرائع الإلهية قال تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين [الشورى: ١٣] الآية. وإنما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافا مراعى فيه مبلغ طاقة البشر لطفا من الله تعالى بالناس ورحمة منه بهم حتى في حملهم على مصالحهم ليكون تلقيهم لذلك أسهل، وعملهم به أدوم، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت راهق فيه البشر

مبلغ غاية الكمال العقلي وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعدادهم الفكري وإن تخالفت الأعصار وتباعدت الأقطار فكان دينا عاما لجميع البشر، فلا جرم أن كانت الشرائع السابقة تمهيدا له لتهييء البشر لقبول تعاليمه وتفاريعها". (١)

٨٠٦. ١٥-"ولأن الله تعالى لم يترك عملا كان يعمله فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان، وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات يسمون الحن والبن- بحاء مهملة مكسورة ونون في الأول، وبموحدة مكسورة ونون في الثاني- وقيل اسمهم الطم والرم- بفتح أولهما-، وأحسبه من المزاعم، وأن وضع هذين الاسمين من باب قول الناس: هيان بن بيان إشارة إلى غير موجود أو غير معروف. ولعل هذا أنجز لأهل القصص من خرافات الفرس أو اليونان فإن الفرس زعموا أنه كان قبل الإنسان في الأرض جنس اسمه الطم والرم كان اليونان يعتقدون أن الأرض كانت معمورة بمخلوقات تدعى التيتان وأن زفس وهو المشتري كبير الأرباب في اعتقادهم جلاهم من الأرض لفسادهم. وكل هذا ينافيه سياق الآية فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل، فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم، فكانت الآية من هذا الوجه **إيماء** إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك، وقد بعث الله الرسل وبين الشرائع فربما اجتمعت الرسالة والخلافة وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة ولأن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧١/١

امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخطتين قال تعالى: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله

[النساء: ٦٤] ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبيء صلى الله عليه وسلم على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة ولم ينازع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، من جفاة الأعراب ودعاة الفتنة فالمناظرة مع أمثالهم سدى.". (١)

٨٠٧. ١٦-"والاستفهام المحكي عن كلام الملائكة محمول على حقيقته مضمن معنى التعجب والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك فدلالة الاستفهام على ذلك هنا بطريق الكناية مع تطلب ما يزيل إنكارهم واستبعادهم فلذلك تعين بقاء الاستفهام على حقيقته خلافا لمن توهم الاستفهام هنا لمجرد التعجب، والذي أقدم الملائكة على هذا السؤال أنهم علموا أن الله لما أخبرهم أراد منهم إظهار علمهم تجاه هذا الخبر لأنهم مفطورون على الصدق والنزاهة من كل مؤاربة فلما نشأ ذلك في نفوسهم أفصحت عنه دلالة تدل عليه يعلمها الله تعالى من أحوالهم لا سيما إذا كان من تمام الاستشارة أن يبدي المستشار ما يراه نصحا

وفي الحديث: «المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم»

يعني إذا تكلم فعليه أداء أمانة النصيحة.

وعبر بالموصول وصلته **للإيماء** إلى وجه بناء الكلام وهو الاستفهام والتعجب لأن من كان من شأنه الفساد والسفك لا يصلح للتعمير لأنه إذا عمر نقض ما عمره. وعطف سفك الدماء على الإفساد للاهتمام به. وتكرير ضمير (الأرض) للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرانها وحفظ نظامها ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم وفي صرف إرادة الله تعالى عن ذلك إن كان في الاستشارة ائتمار.

والإفساد تقدم في قوله تعالى: ألا إنهم هم المفسدون [البقرة: ١٢] .

والسفك الإراقة وقد غلب في كلامهم تعديته إلى الدماء وأما إراقة غير الدم فهي سفح بالحاء. وفي المجيء بالصلة جملة فعلية دلالة على توقع أن يتكرر الإفساد والسفك من هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩٩/١

المخلوق وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية والعقلية والنطقية إما بوصف الله لهم هذا الخليفة أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب وعن الامتثال إلى العصيان فإن العقل يشتمل على شاهية وغاضبة وعاقلة ومن مجموعها ومجموع بعضها تحصل تراكيب من التفكير نافعة وضارة، ثم إن القدرة التي في الجوارح تستطيع تنفيذ كل ما يخطر للعقل وقواه أن يفعله ثم إن النطق يستطيع إظهار

خلاف الواقع وترويج الباطل، فيكون من أحوال ذلك فساد كبير ومن أحواله أيضا صلاح عظيم وإن طبيعة استخدام ذي القوة لقواه قاضية بأنه سيأتي بكل ما تصلح له هذه القوى خيرها وشرها فيحصل فعل مختلط من". (١)

٨٠٨. ١٧-"بمعنى نزه فيكون كالغفران والشكران، والكفران من غفر وشكر وكفر وقد كثر استعماله منصوبا على المفعولية المطلقة بإضمار فعله ك معاذ الله [يوسف: ٢٣] وقد يخرج عن ذلك نادرا قال: «سبحانك اللهم ذا السبحان» وكأنهم لما خصصوه في الاستعمال بجعله كالعلم على التنزيه عدلوا عن قياس اشتقاقه فصار سبحان كالعلم الجنسي مثل برة وفجار- بكسر الراء- في قول النابغة:

فحملت برة واحتملت فجار

ومنعوه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون قال سيبويه: وأما ترك تنوين (سبحان) فلأنه صار عندهم معرفة وقول الملائكة: لا علم لنا إلا ما علمتنا خبر مراد منه الاعتراف بالعجز لا الإخبار عن حالهم لأنهم يوقنون أن الله يعلم ما تضمنه كلامهم.

ولا أنهم قصدوا لازم الفائدة وهي أن المخبر عالم بالخبر فتعين أن الخبر مستعمل في الاعتراف.

ثم إن كلامهم هذا يدل على أن علومهم محدودة غير قابلة للزيادة فهي مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم، فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها.

وفي تصدير كلامهم بسبحانك إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم: أتجعل فيها من

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠٢/١

يفسد فيها [البقرة: ٣٠] فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار.
والاعتذار وإن كان يحصل بقولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا لكن حصول ذلك منه بطريق الكناية دون التصريح ويحصل آخرا لا ابتداء فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجيلا بما يدل على ملازمة جانب الأدب العظيم إنك أنت العليم الحكيم ساقوه مساق التعليل لقولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا لأن المحيط علمه بكل شيء المحكم لكل خلق إذا لم يجعل لبعض مخلوقاته سبيلا إلى علم شيء لم يكن لهم قبل بعلمه إذ الحصول بقدر القبول والاستعداد أي فلا مطمع لنا في تجاوز العلم إلى ما لم تهيء لنا علمه بحسب فطرتنا.
والذي دل على أن هذا القول مسوق للتعليل وليس مجرد ثناء هو تصديره بإن في غير مقام رد إنكار ولا تردد.
قال الشيخ في «دلائل الإعجاز» (١) ومن شأن إن إذا جاءت على هذا الوجه (أي أن تقع إثر كلام وتكون لمجرد الاهتمام) أن تغني غناء الفاء العاطفة (مثلا) وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأنت ترى الكلام بها مقطوعا موصولا، وأنشد قول بشار:

---

(١) صفحة ١٩٧ طبع المنار.". (١)

٨٠٩. ١٨-"الخطاب بمنزلة أن يكون مسوقا إليهم لقوله عقب ذلك: قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض.
وابتداء خطاب آدم بندائه مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الآمر لأن شأن الآمر والمخاطب- بالكسر- إذا تلطف مع المخاطب- بالفتح- أن يذكر اسمه ولا يقتصر على ضمير الخطاب حتى لا يساوي بخطابه كل خطاب، ومنه ما جاء في حديث الشفاعة بعد ذكر سجود النبيء وحمده الله بمحامد يلهمه إياها
فيقول: «يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع»
وهذه نكتة ذكر الاسم حتى في أثناء المخاطبة كما قال امرؤ القيس:

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤١٤

وربما جعلوا النداء طريقا إلى إحضار اسمه الظاهر لأنه لا طريق لإحضاره عند المخاطبة إلا بواسطة النداء فالنداء على كل تقدير مستعمل في معناه المجازي.

فلما أنبأهم بأسمائهم.

الإنباء إخبارهم بالأسماء، وفيه إيماء بأن المخبر به شيء مهم. والضمير المجرور بالإضافة ضمير المسميات مثل ضمير عرضهم، وفي إجرائه على صيغة ضمائر العقلاء ما قرر في قوله: ثم عرضهم [البقرة: ٣١] .

وقوله: فلما أنبأهم بأسمائهم الضمير في (أنبأ) لآدم وفي (قال) ضمير اسم الجلالة وإنما لم يؤت بفاعله اسما ظاهرا مع أنه جرى على غير من هو له أي عقب ضمائر آدم في قوله: أنبئهم وأنبأهم لأن السياق قرينة على أن هذا القول لا يصدر من مثل آدم.

قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض.

جواب (لما) والقائل هو الله تعالى وهو المذكور في قوله: وإذ قال ربك [البقرة: ٣٠] وعادت إليه ضمائر قال إني أعلم [البقرة: ٣٠] وعلم [البقرة: ٣١] وعرضهم وما قبله من الضمائر وهو تذكير لهم بقوله لهم في أول المحاورة: إني أعلم ما لا تعلمون وذلك القول وإن لم يكن فيه: أعلم غيب السماوات والأرض". (١)

٨١٠. ١٩-"فشمل جميع الشرائع الإلهية المخاطب بها طوائف الناس لوقوع (هدى) نكرة في سياق الشرط وهو من صيغ العموم، وأولى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم وبذلك تهيأ الموقع لقوله: والذين كفروا إلخ فالله أخذ العهد من لدن آدم على اتباع الهدى العام كقوله: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة [آل عمران: ٨١] الآية.

وهذه الآية تدل على أن الله لا يؤاخذ البشر بما يقترفونه من الضلال إلا بعد أن يرسل إليهم من يهديهم فأما في تفاصيل الشرائع فلا شك في ذلك ولا اختلاف وأما في توحيد الله وما

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٧/١

يقتضيه من صفات الكمال فيجري على الخلاف بين علمائنا في مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك، ولعل الآية تدل على أن الهدى الآتي من عند الله في ذلك قد حصل من عهد آدم ونوح وعرفه البشر كلهم فيكون خطابا ثابتا لا يسع البشر ادعاء جهله وهو أحد قولين عن الأشعري، وقيل لا، وعند المعتزلة والماتريدية أنه دليل عقلي.

وقوله: فلا خوف عليهم نفي لجنس الخوف. وخوف مرفوع في قراءة الجمهور وقرأه يعقوب مبنيا على الفتح وهما وجهان في اسم (لا) النافية للجنس وقد روي بالوجهين قول المرأة الرابعة من نساء حديث أم زرع «زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة» . وبناء الاسم على الفتح نص في نفي الجنس ورفعه محتمل لنفي الجنس ولنفي فرد واحد، ولذلك فإذا انتفى اللبس استوى الوجهان كما هنا إذ القرينة ظاهرة في نفي الجنس.

وقوله: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا يحتمل أنه من جملة ما قيل لآدم فإكمال ذكره هنا استيعاب لأقسام ذرية آدم وفيه تعريض بالمشركين من ذرية آدم وهو يعم من كذب

بالمعجزات كلها ومن جملتها القرآن، عطف على (من) الشرطية في قوله: فمن تبع هداي إلخ فهو من عطف جملة إسمية على جملة إسمية، وأتى بالجملة المعطوفة غير شرطية مع ما في الشرطية من قوة الربط والتنصيص على ترتب الجزاء على الشرط وعدم الانفكاك عنه لأن معنى الترتب والتسبب وعدم الانفكاك قد حصل بطرق أخرى فحصل معنى الشرط من مفهوم قوله: فمن تبع هداي فلا خوف عليهم فإنه بشارة يؤذن مفهومها بنذارة من لم يتبعه فهو خائف حزين فيترقب السامع ما يبين هذا الخوف والحزن فيحصل ذلك بقوله: والذين كفروا وكذبوا الآية. وأما معنى التسبب فقد حصل من تعليق الخبر على الموصول وصلته المؤمي إلى وجه بناء الخبر وعلته على أحد التفسيرين في الإيماء إلى وجه بناء الخبر، وأما عدم الانفكاك". (١)

٨١١. ٢٠-"[٤١]

[سورة البقرة (٢) : آية ٤١]

---

(١) التحرير والتنوير ١/٤٤٤

وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون (٤١)

وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم.

شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام وهدي القرآن وهذا هو المقصود من خطابهم ولكن قدم بين يديه ما يهيىء نفوسهم إلى قبوله كما تتقدم المقدمة على الغرض، والتخلية على التحلية.

والإيمان بالكتاب المنزل من عند الله أو بكتب الله وإن كان من جملة ما شمله العهد المشار إليه بقوله: وأوفوا بعهدي [البقرة: ٤٠] إلا أنه لم يلتفت إليه هنا من تلك الجهة لأنهم عاهدوا الله على أشياء كثيرة كما تقدم ومن جملتها الإيمان بالرسل والكتب التي تأتي بعد موسى عليه السلام إلا أن ذلك مجمل في العهد فلا يتعين أن يكون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو مما عاهدوا الله عليه بل حتى يصدقوا بأنه من عند الله وأن الجائي به رسول من الله فهم مدعوون إلى ذلك التصديق هنا. فعطف قوله: وآمنوا على قوله: وإياي فارهبون [البقرة: ٤٠] كعطف المقصد على المقدمة، وعطفه على قوله: وأوفوا بعهدي من قبيل عطف الخاص على العام في المعنى ولكن هذا من عطف الجمل فلا يقال فيه عطف خاص على عام لأنه إنما يكون في عطف الجزئي على الكلي من المفردات لا في عطف الجمل وإنما أردنا تقريب موقع الجملة وتوجيه إيرادها موصولة غير مفصولة.

وفي تعليق الأمر باسم الموصول وهو (ما أنزلت) دون غيره من الأسماء نحو الكتاب أو القرآن أو هذا الكتاب إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به وهو أنه منزل من الله وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنه منزل من الله. ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله. وهي العلامة الدينية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله: الم ذلك الكتاب [البقرة: ١، ٢] إلى قوله: فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] كذلك جعل الإعجاز المعنوي وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع.

ثم الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالذي جاء به وبالذي أنزله.

والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بني إسرائيل". (١)

٨١٢. ٢١-"وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد نفع أخروي لا سيما إذا كان ذلك المال ينفق على العدو في الدين، فلذلك عقب الأمر بالإيمان بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما لا يتجشمهما إلا مؤمن صادق. ولذلك جاء في المنافقين وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى
[النساء: ١٤٢] وقوله: فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون [الماعون: ٤، ٥] وفي «الصحيح» أن صلاة العشاء أثقل صلاة على المنافقين.
وفي هذه الآية دليل لمالك على قتل من يمتنع من أداء الصلاة مع تحقق أنه لم يؤدها من أول وقت صلاة من الصلوات إلى خروجه إذا كان وقتا متفقا بين علماء الإسلام، لأنه جعل ذلك الامتناع مع عدم العذر دليلا على انتفاء إيمانه، لكنه لما كان مصرحا بالإيمان قال مالك: إنه يقتل حدا جمعا بين الأدلة ومنعها لذريعة خرم الملة.
ويوشك أن يكون هذا دليلا لمن قالوا بأن تارك الصلاة كافر لولا الأدلة المعارضة.
وفيها دليل لما فعل أبو بكر رضي الله عنه من قتال مانعي الزكاة وإطلاق اسم المرتدين عليهم لأن الله جعل الصلاة والزكاة أمارة صدق الإيمان إذ قال لبني إسرائيل وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ولهذا قال أبو بكر لما راجعه عمر في عزمه على قتال أهل الردة حين منعوا إعطاء الزكاة وقال له: كيف تقاتلهم وقد قالوا: لا إله إلا الله وقد
قال رسول الله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»
فقال أبو بكر: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، فحصل من عبارته على إيجازها جواب عن دليل عمر.
وقوله: واركعوا مع الراكعين تأكيد لمعنى الصلاة لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها فلكي لا يقولوا إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله: واركعوا مع الراكعين.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٨/١

والركوع طأطأة وانحناء الظهر لقصد التعظيم أو التبجيل، وقد كانت العرب تفعله لبعض كبرائهم، قال الأعشى:

إذا ما أتانا أبو مالك ... ركعنا له وخلعنا العمامة

(وروي سجدنا له وخلعنا العمارا، والعمار هو العمامة) .

وقوله: مع الراكعين **إيماء** إلى وجوب مماثلة المسلمين في أداء شعائر الإسلام المفروضة فالمراد بالراكعين المسلمون وفيه إشارة إلى الإتيان بالصلاة بأركانها وشرائطها.". (١)

٨١٣. ٢٢-"ظلم فلا يكون للحال معه موقع. وقد اطلعت بعد هذا على «تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي» فوجدته قال: وأنتم ظالمون أي لا شبهة لكم في اتخاذه.

وقوله: ثم عفونا عنكم من بعد ذلك هو محل المنة، وعطفه بثم لتراخي رتبة هذا العفو في أنه أعظم من جميع تلك النعم التي سبق عدها ففيه زيادة المنة فالمقصود من الكلام هو المعطوف بثم وأما ما سبق من قوله: وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة إلخ فهو تمهيد له وتوصيف لما حف بهذا العفو من عظم الذنب. وقوله: من بعد ذلك حال من ضمير «عفونا» مقيدة للعفو إعجابا به أي هو عفو حال حصوله بعد ذلك الذنب العظيم وليس ظرفا لغوا متعلقا بعفونا حتى يقال: إن ثم دلت على معناه فيكون تأكيدا لمدلول ثم تأخير العفو فيه وإظهار شناعته بتأخير العفو عنه وإنما جاء قوله ذلك مقترنا بكاف خطاب الواحد في خطاب الجماعة لأن ذلك لكونه أكثر أسماء الإشارة استعمالا بالإفراد إذ خطاب المفرد أكثر غلب فاستعمل لخطاب الجمع تنبيها على أن الكاف قد خرجت عن قصد الخطاب إلى معنى البعد ومثل هذا في كلام العرب كثير لأن التثنية والجمع شيآن خلاف الأصل لا يصار إليهما إلا عند تعيين معنا هما فإذا لم يقصد تعيين معنا هما فالمصير إليهما اختيار محض.

وقوله: لعلكم تشكرون رجاء لحصول شكركم، وعدل عن لام التعليل **إيماء** إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة فتفسير لعل بمعنى لكي يفيت هذه الخصوصية وقد تقدم كيفية دلالة لعل على

---

(١) التحرير والتنوير ٤٧٣/١

الرجاء في كلام الله تعالى عند قوله: يا أيها الناس اعبدوا ربكم إلى قوله لعلكم تتقون [البقرة: ٢١] . ومعنى الشكر تقدم في قوله تعالى: الحمد لله رب العالمين [الفاتحة: ٢] وللغزالي فيه باب حافل عدلنا عن ذكره لطوله فارجع إليه في كتاب «الإحياء» .
[٥٣]

[سورة البقرة (٢) : آية ٥٣]
وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون (٥٣)
هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتابا فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع.
والمراد من (الكتاب) التوراة التي أوتيها موسى فالتعريف للعهد، ويعتبر معها ما ألحق بها على نحو ما قدمناه في قوله تعالى: ذلك الكتاب [البقرة: ٢] .". (١)

٨١٤. ٢٣-"مجانا (أي يصطادونه بأنفسهم) والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم وقد يبست نفوسنا فلا ترى إلا هذا المن فبكوا فغضب الله عليهم وسأله موسى العفو فعنا عنهم وأرسل عليهم السلوى فادخروا منها طعام شهر كامل.
والتعبير بلن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده، فإن التأبيد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء الأبد أولها وآخرها فلن في نفي الأفعال مثل لا التبرئة (١) في نفي النكرات.
ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى لأن المراد أنه متكرر كل يوم.
وجملة يخرج لنا إلى آخرها هي مضمون ما طلبوا منه أن يدعو به فهي في معنى مقول قول محذوف كأنه قيل قل لربك يخرج لنا ومقتضى الظاهر أن يقال أن يخرج لنا فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه حتى كأن إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه، وهذا أسلوب تكرر في

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠١/١

القرآن مثل قوله: قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة [إبراهيم: ٣١] .
وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن [الإسراء: ٥٣] وهو كثير فهو بمنزلة شرط وجزاء كأن قيل إن تدع ربك بأن يخرج لنا يخرج لنا، وهذا بتنزيل سبب السبب منزلة السبب فجزم الفعل المطلوب في جواب الأمر بطلبه لله للدلالة على تحقق وقوعه لثقتهم بإجابة الله تعالى دعوة موسى، وفيه تحريض على إيجاد ما علق عليه الجواب كأنه أمر في مكنته فإذا لم يفعل فقد شح عليهم بما فيه نفعهم.
والإخراج: الإبراز من الأرض، و (من) الأولى تبعيضية والثانية بيانية أو الثانية أيضا تبعيضية لأنهم لا يطلبون جميع البقل بل بعضه، وفيه تسهيل على المسئول ويكون قوله: من بقلها حالا من (ما) أو هو بدل من (ما تنبت) بإعادة حرف الجر، وعن الحسن: كانوا قوما فلاحة فنزعوا إلى عكرهم (٢) .
وقد اختلف في الفوم فقيل: هو الثوم بالمثلثة وإبدال الثاء فاء شائع في كلام العرب كما قالوا: جدث وجدف وثلغ وفلغ، وهذا هو الأظهر والموافق لما عد معه ولما في التوراة. وقيل الفوم الحنطة وأنشد الزجاج لأحيحة بن الجلاح:
قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا ... ورد المدينة من مزارع فوم

---

(١) هي النافية للجنس، المفيدة لاستغراق النفي جميع أفراد الجنس.
(٢) العكر- بكسر العين وسكون الكاف- الأصل.". (١)

٨١٥. ٢٤-"بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد حتى تنقطع حجتهم إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهموا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لما تبين لهم من بطلان فكان هذا مرتبطا بقوله:
وآمنوا بما أنزلت مصدقا [البقرة: ٤١] ومقدمة للإنحاء عليهم في مقابلتهم للدعوة المحمدية الآتي ذكرها في قوله تعالى: وقالوا قلوبنا غلف [البقرة: ٨٨] .
فقوله تعالى: ولقد آتينا موسى الكتاب تمهيد للمعطوف وهو قوله: وقفينا من بعده بالرسل

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٢/١

الذي هو المبني عليه التعجب في قوله: أفكلما جاءكم رسول فقوله:

ولقد آتينا موسى الكتاب تمهيد التمهيد وإلا فهو قد علم من الآيات السابقة فلا مقتضى للإعلام به استقلالا هنا ولكنه ذكر ليبنى عليه ما بعده فكأنه تحصيل لما تقدم أي ولقد كان ما كان مما تقدم وهو إيتاء موسى الكتاب وقفينا أيضا بعده بالرسل فهو كالعلاوة أو كقول القائل هذا وقد كان كذا.

و (قفى) مضاعف قفا تقول قفوت فلانا إذا جئت في إثره لأنك حينئذ كأنك تقصد جهة قفاه فهو من الأفعال المشتقة من الجوامد مثل جبهه، فصار المضاعف قفاه بفلان تقفية وذلك أنك جعلته مأمورا بأن يقفو بجعل منك لا من تلقاء نفسه أي جعلته يقفوه غيره ولكون المفعول واحدا جعلوا المفعول الثاني عند التضعيف متعلقا بالفعل بباء التعدية لئلا يلتبس التابع بالمتبوع فقالوا: قفى زيدا بعمرو عوض أن يقولوا: قفى زيدا عمرا.

فمعنى قفينا من بعده بالرسل أرسلنا رسلا وقد حذف مفعول قفينا للعلم به وهو ضمير موسى. وقوله: من بعده أي من بعد ذهابه أي موته، وفيه **إيماء** إلى التسجيل على اليهود بأن مجيء الرسل بعد موسى ليس ببدع.

والجمع في الرسل للعدد والتعريف للجنس وهو مراد به التكثير قاله صاحب «الكشاف» أي لأن شأن لفظ الجنس المعرف إذا لم يكن عهد أن يدل على الاستغراق فلما كان الاستغراق هنا متعذرا دل على التكثير مجازا لمشابهة الكثير بجميع أفراد الجنس كقولك لم يبق أحد في البلد لم يشهد الهلال إذا شهده جماعات كثيرة وهو قريب من معنى الاستغراق العرفي (١).

وسمي أنبياء بني إسرائيل الذين من بعد موسى رسلا مع أنهم لم يأتوا بشرع جديد اعتبارا

---

(١) لأن الاستغراق العرفي منظور فيه إلى استغراق جميع الأفراد في مكان أو زمان تنزيلا لهم منزلة الكل. وهذا جعل بمعنى الكثرة لا غير.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١/٥٩٣

٨١٦. ٢٥-"بالنسبة إلى هدى القرآن كلا هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور [المائدة: ٤٤] وقوله: وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة [المائدة: ٤٦] وإما قصرا إضافيا أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات وبذلك أيضا لا ينتفي الهدى عن كثير من التعاليم والنصائح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص.

وقوله: هو الهدى الضمير ضمير فصل. والتعريف في الهدى تعريف الجنس

الدال على الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل وتعريف الجزأين وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر وللخبر أيضا.

والتوكيد بأن لتحقيق الخبر وتحقيق نسبته وإبطال تردد المتردد لأن القصر الإضافي لما كان المقصود منه رد اعتقاد المخاطب قد لا يتفطن المخاطب إلى ما يقتضيه من التأكيد فزيد هنا مؤكد آخر وهو حرف (إن) اهتماما بتأكيد هذا الحكم. فقد اجتمع في هذه الجملة عدة مؤكدات هي: حرف إن والقصر، إذ القصر تأكيد على تأكيد ما في «المفتاح» فهو في قوة مؤكدين، مع تأكيد القصر بضمير الفصل وهي تنحل إلى أربعة مؤكدات لأن القصر بمنزلة تأكيدين وقد انضم إليهما تأكيد القصر بضمير الفصل وتأكيد الجملة بحرف (إن) .

ولعل الآية تشير إلى أن استقبال النبيء صلى الله عليه وسلم في الصلاة إلى القبلة التي يستقبلها اليهود لقطع معذرة اليهود كما سيأتي في قوله تعالى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه [البقرة: ١٤٣] ، فأعلم رسوله بقوله: ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى بأن ذلك لا يلين من تصلب اليهود في عنادهم فتكون إيماء إلى تمهيد نسخ استقبال بيت المقدس.

وقوله: ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم. اللام موطئة للقسم وذلك توكيد للخبر وتحقيق له. وعبر عن طريقتهم هنالك بالملة نظرا لاعتقادهم وشهرة ذلك عند العرب،

وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهد له بقوله: إن هدى الله هو الهدى فإن الهوى". (١)

٨١٧. ٢٦-"وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم.

وإناطة الحكم بوصف الظالمين **إيماء** إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد.

وفي الآية أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقا لإسناد الإمامة إليه أعني سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك. قال فخر الدين: قال الجمهور من الفقهاء والمتكلمين الفاسق حال فسقه لا يجوز عقد الإمامة له. وفي «تفسير ابن عرفة» تسليم ذلك. ونقل ابن عرفة عن المازري والقرطبي عن الجمهور إذا عقد للإمام على وجه صحيح ثم فسق وجار فإن كان فسقه بكفر وجب خلعه وأما بغيره من المعاصي فقال الخوارج والمعتزلة وبعض أهل السنة يخلع وقال جمهور أهل السنة لا يخلع بالفسق والظلم وتعطيل الحدود ويجب وعظه وترك طاعته فيما لا تجب فيه طاعة وهذا مع القدرة على خلعه فإن لم يقدر عليه إلا بفتنة وحرب فاتفقوا على منع القيام عليه وأن الصبر على جوره أولى من استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء انطلاق أيدي السفهاء والفساق في الأرض وهذا حكم كل ولاية في قول علماء السنة، وما نقل عن أبي حنيفة من جواز كون الفاسق خليفة وعدم جواز كونه قاضيا قال أبو بكر الرازي الجصاص هو خطأ في النقل.

وقرأ الجمهور من العشرة (عهدي) بفتح ياء المتكلم وهو وجه من الوجوه في ياء المتكلم وقرأه حمزة وحفص بإسكان الياء.

[١٢٥]

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٥]

وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩٤/١

وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود (١٢٥)
تدرج في ذكر منقبة إبراهيم إذ جعل الله بيته بهذه الفضيلة. و (إذ) أضافها إلى جلالته فقال: (بيتي) ، واستهلال لفضيلة القبلة الإسلامية، فالواو عاطفة على ابتلى [البقرة: ١٢٤] وأعيدت (إذ) للتنبيه على". (١)

٨١٨. ٢٧-"وجاء في التوراة (في الإصحاح ١٧ من التكوين) «ظهر الرب لإبرام أي إبراهيم» وقال له: أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملا فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا وفي فقرة ٢٠ وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا» .

وذكر عبد الحق الإسلامي السبتي الذي كان يهوديا فأسلم هو وأولاده وأهله في سبتة وكان موجودا بها سنة ٧٣٦ ست وثلاثين وسبعمائة في كتاب له سماه «الحسام المحدود في الرد على اليهود» : أن كلمة كثيرا جدا أصلها في النص العبراني «مادا مادا» وأنها رمز في التوراة لاسم محمد بحساب الجمل لأن عدد حروف «مادا مادا» بحساب الجمل عند اليهود تجمع عدد اثنين وتسعين وهو عدد حروف محمد اهـ وتبعه على هذا البقاعي في «نظم الدرر» .

ومعنى يتلوا عليهم آياتك يقرؤها عليهم قراءة تذكير، وفي هذا **إيماء** إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع. فالآيات جمع آية وهي الجملة من جمل القرآن، سميت آية لدلالتها على صدق الرسول بمجموع ما فيها من دلالة صدور مثلها من أمي لا يقرأ ولا يكتب، وما نسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة على توحيد الله وكمال صفاته دلالة لم تترك مسلكا للضلال في عقائد الأمة بحيث أمنت هذه الأمة من الإشراك،

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا» .

وجيء بالمضارع في قوله: يتلوا للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته.

والحكمة العلم بالله ودقائق شرائعه وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده، وعن مالك:

---

(١) التحرير والتنوير ٧٠٧/١

الحكمة معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك، وعن الشافعي الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلاهما ناظر إلى أن عطف الحكمة على الكتاب يقتضي شيئا من المغايرة بزيادة معنى وسيجيء تفصيل معنى الحكمة عند قوله تعالى: يؤتي الحكمة من يشاء في هذه السورة [٢٦٩] .

والتزكية التطهير من النقائص وأكبر النقائص الشرك بالله، وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن وأبوا إلا البقاء على الشرك.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه قال تعالى: فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه [القيامة: ١٨، ١٩] العلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن.". (١)

٨١٩. ٢٨-"يقول البصريون في هذه الآية إنه مقدر قول محذوف خلافا للكوفيين القائلين بأن وصى ونحوه ناصب للجملة المقولة، ويشبه أن يكون الخلاف بينهم لفظيا.

واصطفى لكم اختار لكم الدين أي الدين الكامل، وفيه إشارة إلى أنه اختاره لهم من بين الأديان وأنه فضلهم به لأن اصطفى لك يدل على أنه ادخره لأجله، وأراد به دين الحنيفية المسمى بالإسلام فلذلك قال: فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

ومعنى فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون النهي عن مفارقة الإسلام أعنى ملة إبراهيم في جميع أوقات حياتهم، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة لأن الحي لا يدري متى يأتيه الموت فنهي أحد عن أن يموت غير مسلم أمر بالاتصاف بالإسلام في جميع أوقات الحياة فالمراد من مثل هذا النهي شدة الحرص على تلك المنهي.

وللعرب في النهي المراد منه النهي عن لازمه طرق ثلاثة: الأول: أن يجعلوا المنهي عنه مما لا قدرة للمخاطب على اجتنابه فيدلوا بذلك على أن المراد نفي لازمه مثل قولهم لا تنس كذا أي لا ترتكب أسباب النسيان، ومثل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا أي لا تفعل فأعرفك لأن معرفة المتكلم لا ينهي عنها المخاطب،

وفي الحديث: «فلا يذادن أقوام عن حوضي»

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢٣/١

، الثاني: أن يكون المنهي عنه مقدورا للمخاطب ولا يريد المتكلم النهي عنه ولكن عما يتصل به أو يقارنه فيجعل النهي في اللفظ عن شيء ويقيده بمقارنه للعلم بأن المنهي عنه مضطر لإيقاعه فإذا أوقعه اضطر لإيقاع مقارنه نحو قولك لا أراك بثياب مشوهة، ومنه قوله تعالى: فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، الثالث: أن يكون المنهي عنه ممكن الحصول ويجعله مفيدا مع احتمال المقام لأن يكون النهي عن الأمرين إذا اجتمعا ولو لم يفعل أحدهما نحو لا تجئني سائلا وأنت تريد أن لا يسألك فإما أن يجيء ولا يسأل وإما أن لا يجيء بالمرة، وفي الثانية إثبات أن بني إبراهيم ويعقوب كانوا على ملة الإسلام وأن الإسلام جاء بما كان عليه إبراهيم وبنوه حين لم يكن لأحد سلطان عليهم، وفيه **إيماء** إلى أن ما طرأ على بنيه بعد ذاك من الشرائع إنما اقتضته أحوال عرضت وهي دون الكمال الذي كان عليه إبراهيم ولهذا قال تعالى: إن الدين عند الله الإسلام [آل عمران: ١٩] وقال: وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم

المسلمين من قبل

[الحج: ٧٨] .". (١)

٨٢٠. ٢٩-"اختلف في اشتقاق سبط قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما في سورة الأعراف [١٦٠] عن الزجاج: الأظهر أن السبط عبراني عرب اهـ.

قلت: وفي العبرانية سيبط بتحتية بعد السين ساكنة.

وجملة: قالوا نعبد إلهك جواب عن قوله: ما تعبدون جاءت على طريقة المحاورات بدون واو وليست استئنافا لأن الاستئناف إنما يكون بعد تمام الكلام ولا تمام له قبل حصول الجواب.

وجيء في قوله: نعبد إلهك معرفا بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين وحثيين وأراميين ثم كان موت يعقوب في أرض

---

(١) التحرير والتنوير ١/٧٢٩

الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى. وأيضا فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آبائه أن فيها **إيماء** إلى أنهم مقتدون بسلفهم.

وفي الإتيان بعطف البيان من قولهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ضرب من محسن الاطراد تنويها بأسماء هؤلاء الأسلاف كقول ربيعة بن نصر بن قعين:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وإنما أعيد المضاف في قوله: وإله آبائك لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام وليست بواجبة، وإطلاق الآباء على ما شمل إسماعيل وهو عم ليعقوب إطلاق من باب التغليب ولأن العم بمنزلة الأب.

وقد مضى التعريف بإبراهيم وإسماعيل.

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم وهو أصغر من إسماعيل بأربع عشرة سنة وأمه سارة.

ولد سنة ١٨٩٦ ست وتسعين وثمانمائة وألف قبل ميلاد المسيح وهو جد بني إسرائيل وغيرهم من أمم تقرب لهم.

واليهود يقولون: إن الابن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه وفداه الله هو إسحاق، والحق أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل في صغره حين لم يكن لإبراهيم ولد غيره ليظهر كمال الامتثال". (١)

٨٢١. ٣٠-"والمعنى: وتزول قوتكم ونفوذ أمركم، وذلك لأن التنازع يفضي إلى التفرق، وهو يوهن أمر الأمة، كما تقدم في معنى الفشل.

ثم أمرهم الله بشيء يعم نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفا في قوله: فاثبتوا واذكروا الله كثيرا وفي قوله:

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا الآية. ألا وهو الصبر، فقال: واصبروا لأن الصبر هو تحمل المكروه، وما هو شديد على النفس، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمل المكاره، فالصبر يجمع تحمل الشدائد والمصاعب، ولذلك كان قوله: واصبروا بمنزلة التذييل.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٣٣/١

وقوله: إن الله مع الصابرين إيماء إلى منفعة للصبر إلهية، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلها.

وجملة إن الله مع الصابرين قائمة مقام التعليل للأمر، لأن حرف التأكيد في مثل هذا قائم مقام فاء التفريع، كما تقدم في مواضع.

[٤٧]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٧]

ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (٤٧)

جملة: ولا تكونوا معطوفة على ولا تنازعوا [الأنفال: ٤٦] عطف نهي على نهي.

ويصح أن تكون معطوفة على جملة فاثبتوا [الأنفال: ٤٥] عطف نهي على أمر، إكمالا لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء، بأن يتلبسوا بما يدنيهم من النصر، وأن يتجنبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد.

وجيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين". (١)

٨٢٢. ٣١-"وأما الإضمار في آل عمران فلكون التكذيب تكذيبا لآيات دالة على ثبوت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلم.

وأما الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا، دونه في سورة آل عمران [١١] ، فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم، بمعنى لازمها، وهو إنزال الضر بهم، وينكرون أنه شديد العقاب لهم، فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين، وفي سورة آل عمران [١١] لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/١٠

عقبه: قل للذين كفروا ستغلبون [آل عمران: ١٢] الآية.

وزيد وصف «قوي» هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

والقوي الموصوف بالقوة، وحقيقتها كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال التي تراد منها، وهي متفاوتة مقول عليها بالتشكيك.

وقد تقدم عند قوله تعالى: فخذها بقوة [الأعراف: ١٤٥] . وهي إذا وصف الله بها مستعملة في معناها اللزومي وهي منتهى القدرة على فعل ما تتعلق به إرادته تعالى من الممكنات.

والمقصود من ذكر هذين الوصفين: **الإيماء** إلى أن أخذهم كان قويا شديدا، لأنه عقاب قوي شديد العقاب، كقوله: فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر [القمر: ٤٢] ، وقوله:

إن أخذه أليم شديد [هود: ١٠٢] .

[٥٣]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٥٣]

ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم (٥٣)

استئناف بياني. والإشارة إلى مضمون قوله: فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب [الأنفال: ٥٢] أي ذلك المذكور بسبب أن الله لم يك مغيرا إلخ أي ذلك الأخذ بسبب أعمالهم التي تسببوا بها في زوال نعمتهم.". (١)

٨٢٣. ٣٢-"النبيء صلى الله عليه وسلم، وهم على كفرهم، ثم نقضوا عهدهم، وهم مستمرون على الكفر، وإنما وصفهم ب شر الدواب لأن دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أسطع، ولأن الدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بينة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له، وقد اندرج الفريقان من الكفار في جنس شر الدواب.

وتقدم آنفا الكلام على نظير قوله: إن شر الدواب عند الله الصم البكم [الأنفال:

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٤٤

٢٢] الآية.

وتعريف المسند بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر عنهم بأنهم شر الدواب.

والفاء في فهم لا يؤمنون عطفت صلة على صلة، فأفادت أن الجملة الثانية من الصلة، وأنها تمام الصلة المقصودة للإيماء، أي: الذين كفروا من قبل الإسلام فاستمر كفرهم فهم لا يؤمنون بعد سماع دعوة الإسلام. ولما كان هذا الوصف هو الذي جعلهم شر الدواب عند الله عطف هنا بالفاء للإشارة إلى أن سبب إجراء ذلك الحكم عليهم هو مجموع الوصفين، وأتى بصلة فهم لا يؤمنون جملة اسمية لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنهم غير مرجو منهم الإيمان.

فإن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي مع عدم إيلاء المسند إليه حرف النفي، لقصد إفادة تقوية نفي الإيمان عنهم، أي الذين ينتفي الإيمان منهم في المستقبل انتفاء قويا فهم بعداء عنه أشد الابتعاد.

وليس التقديم هنا مفيدا للتخصيص لأن التخصيص لا أثر له في الصلة، ولأن الأكثر في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي، إذا لم يقع المسند إليه عقب حرف النفي، أن لا يفيد تقديمه إلا التقوي، دون التخصيص، وذلك هو الأكثر في القرآن كقوله تعالى: وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون [البقرة: ٢٧٢] إذ لا يراد وأنتم دون غيركم لا تظلمون.

فقوله: الذين عاهدت منهم بدل من الذين كفروا بدلا مطابقا، فالذين عاهدهم هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون. وتعدية عاهدت بمن للدلالة على أن العهد كان يتضمن التزاما من جانبهم، لأنه يقال أخذت منه عهدا، أي التزاما،". (١)

٨٢٤. ٣٣-"و (صابرون) ثابتون في القتال، لأن الثبات على الآلام صبر، لأن أصل الصبر تحمل المشاق، والثبات منه، قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا وفي الحديث: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لاقيتم فاصبروا»

. وقال النابغة:

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٤٧

تجنب بني حن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تلق إلا بصابر

وقال زفر بن الحارث الكلابي:

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

والمعنى: عرفوا بالصبر والمقدرة عليه، وذلك باستيفاء ما يقتضيه من أحوال الجسد وأحوال النفس، وفيه **إيماء** إلى توخي انتقاء الجيش، فيكون قيدا للتحريض، أي: حرض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون، فالمقصود أن لا يكون فيهم من هو ضعيف النفس فيفشل الجيش، كقول طالوت إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني [البقرة: ٢٤٩] .

وذكر في جانب جيش المسلمين في المرتين عدد العشرين وعدد المائة، وفي جانب جيش المشركين عدد المائتين وعدد الألف، **إيماء** إلى قلة جيش المسلمين في ذاته، مع **الإيماء** إلى أن ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم في أنفسهم، فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوي نفوس أهله، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهن استشعار قلة عدد جيشهم في ذاته.

أما اختيار لفظ العشرين للتعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ العشرة: فلعل وجهه أن لفظ العشرين أسعد بتقابل السكنات في أواخر الكلم لأن للفظة مائتين من المناسبة بسكنات كلمات الفواصل من السورة، ولذلك ذكر المائة مع الألف، لأن بعدها ذكر مميز العدد بألفاظ تناسب سكنات الفاصلة، وهو قوله: لا يفقهون فتعين هذا اللفظ قضاء لحق الفصاحة.". (١)

٨٢٥. ٣٤-"فهذا الخبر كفالة للمسلمين بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله، من عددهم وهو يستلزم وجوب ثبات العدد منهم، لعشرة أمثاله، وبذلك يفيد إطلاق الأمر بالثبات للعدو الواقع في قوله: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا [الأنفال: ٤٥] ، وإطلاق النهي عن الفرار الواقع في قوله: فلا تولوهم الأدبار [الأنفال: ١٥] الآية كما تقدم. وهو

(١) التحرير والتنوير ١٠/٦٧

من هذه الناحية التشريعية حكم شديد شاق اقتضته قلة عدد المسلمين يومئذ وكثرة عدد المشركين، ولم يصل إلينا أن المسلمين احتاجوا إلى العمل به في بعض غزواتهم، وقصارى ما علمنا أنهم ثبتوا لثلاثة أمثالهم في وقعة بدر، فقد كان المسلمون زهاء ثلاثمائة وكان المشركون زهاء الألف، ثم نزل التخفيف من بعد ذلك بالآية التالية.

والتعريف بالموصول في الذين كفروا **للإيماء** إلى وجه بناء الخير الآتي: وهو سلب الفقاهة عنهم.

والباء في قوله: بأنهم للسببية. أي بعدم فقههم. وإجراء نفي الفقاهة صفة

ل قوم دون أن يجعل خبرا فيقال: ذلك بأنهم لا يفقهون، لقصد إفادة أن عدم الفقاهة صفة ثابتة لهم بما هم قوم، لئلا يتوهم أن نفي الفقاهة عنهم في خصوص هذا الشأن، وهو شأن الحرب المتحدث عنه، للفرق بين قولك: حدثت فلانا حديثا فوجدته لا يفقه، وبين قولك: فوجدته رجلا لا يفقه.

والفقه فهم الأمور الخفية، والمراد نفي الفقه عنهم من جانب معرفة الله تعالى بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم.

وإنما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم: لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره، فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب الظاهرية، فيحسبون أن كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلين لقولهم: «إنما الغرة للكاثر» ، ولأنهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح، والمؤمنون يعولون على نصر الله، ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله، ولا يهابون الموت في سبيل الله، لأنهم موقنون بالحياة الأبدية المسرة بعد الموت.". (١)

٨٢٦. ٣٥-"ويجوز في ضاد (ضعف) الضم والفتح، كالمكث والمكث، والفقر والفقر، وقد قرئ بهما فقرأه الجمهور- بضم الضاد- وقرأه عاصم، وحمزة، وخلف- بفتح الضاد-.

ووقع في كتاب «فقه اللغة» للثعالبي أن الفتح في وهن الرأي والعقل، والضم في وهن الجسم،

(١) التحرير والتنوير ٦٨/١٠

وأحسب أنها تفرقة طارئة عند المولدين.

وقرأ أبو جعفر ضعفاء- بضم الضاد وبمد في آخره- جمع ضعيف.

والفاء في قوله: فإن تكن منكم مائة صابرة لتفريع التشريع على التخفيف.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب تكن بالمثناة الفوقية.

وقرأه البقية- بالتحتية- للوجه المتقدم آنفا.

وعبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما: ليجيء الناسخ على وفق المنسوخ، فقوبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقي مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة، **إيماء** إلى أن موجب التخفيف كثرة المسلمين، لا قلة المشركين، وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين **إيماء** إلى أن المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف.

وأعيد وصف مائة المسلمين ب صابرة لأن المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات.

ولم توصف مائة الكفار بالكفر وبأنهم قوم لا يفقهون: لأنه قد علم، ولا مقتضي لإعادته.

وبإذن الله أمره فيجوز أن يكون المراد أمره التكليفي، باعتبار ما تضمنه الخبر من الأمر، كما تقدم، ويجوز أن يراد أمره التكويني باعتبار صورة الخبر والوعد.". (١)

٨٢٧. ٣٦-"و «ما أخذ» هو مال الفداء، والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها. فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بعد إسلامه من فيء البحرين. وإنما حملنا الخير على الأفضل من المال لأن ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع، ولأنه عطف عليه قوله: ويغفر لكم وذلك هو خير الآخرة المترتب على الإيمان، لأن المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن.

والتذييل بقوله: والله غفور رحيم **للإيماء** إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم، لأنها مغفرة شديد الغفران رحيم بعباده، فمثال المبالغة وهو غفور المقتضي قوة المغفرة وكثرتها،

(١) التحرير والتنوير ٧١/١٠

مستعمل فيهما باعتبار كثرة المخاطبين وعظم المغفرة لكل واحد منهم.

وقرأ الجمهور من الأسرى - بفتح الهمزة وراء بعد السين- مثل أسرى الأولى، وقرأها أبو عمرو، وأبو جعفر من الأسارى- بضم الهمزة وألف بعد السين وراءه- فورود هما في هذه الآية تفنن.

[٧١]

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧١]

وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم (٧١)

الضمير في يريدوا عائد إلى من في أيديكم من الأسرى. وهذا كلام خاطب به الله رسوله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لنفسه، وليبلغ مضمونه إلى الأسرى، ليعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنة على المسلمين التي أفادها قوله: فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا [الأنفال: ٦٩] ، فكل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة، أي: أن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة. والخيانة نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة.". (١)

٨٢٨. ٣٧-"الذين لم يطلعوا على دخيلة الأمر، فلعل بعض قبائل العرب من المشركين يتعجب من هذه البراءة، ويسأل عن سببها، وكيف أنهيت العهود وأعلنت الحرب، فكان المقام مقام بيان سبب ذلك، وأنه أمران: بعد ما بين العقائد، وسبق الغدر.

والاستفهام ب كيف: إنكاري إنكارا لحالة كيان العهد بين المشركين وأهل الإسلام، أي دوام العهد في المستقبل مع الذين عاهدوهم يوم الحديبية وما بعده ففعل يكون مستعمل في معنى الدوام مثل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله [النساء: ١٣٦] كما دل عليه قوله بعده فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. وليس ذلك إنكارا على وقوع العهد، فإن العهد قد

---

(١) التحرير والتنوير ٨١/١٠

انعقد بإذن من الله، وسماه الله فتحا في قوله: إنا فتحنا لك فتحا مبينا [الفتح: ١] وسمي رضى المؤمنين به يومئذ سكينة في قوله: هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين [الفتح: ٤] .

والمعنى: أن الشأن أن لا يكون لكم عهد مع أهل الشرك، للبون العظيم بين دين التوحيد ودين الشرك، فكيف يمكن اتفاق أهليهما، أي فما كان العهد المنعقد معهم إلا أمرا موقتا بمصلحة. ففي وصفهم بالمشركين **إيماء** إلى علة الإنكار على دوام العهد معهم.

وهذا يؤيد ما فسرنا به وجه إضافة البراءة إلى الله ورسوله، وإسناد العهد إلى ضمير المسلمين، في قوله تعالى: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم [التوبة: ١] .

ومعنى عند الاستقرار المجازي، بمعنى الدوام أي إنما هو عهد موقت، وقد كانت قريش نكثوا عهدهم الذي عاهدوه يوم الحديبية، إذ أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على خزاعة، وكانت خزاعة داخلة في عهد النبيء صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك سبب التجهيز لغزوة فتح مكة.

واستثناء إلا الذين عاهدتم، من معنى النفي الذي استعمل فيه الاستفهام ب كيف يكون للمشركين عهد، أي لا يكون عهد المشركين إلا المشركين الذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

والذين عاهدوهم عند المسجد الحرام: هم بنو ضمرة، وبنو جذيمة بن الديل، من كنانة وبنو بكر من كنانة.". (١)

٨٢٩. ٣٨-"و (مساجد الله) مواضع عبادته بالسجود والركوع: المراد المسجد الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى.

وعمر المساجد: العبادة فيها لأنها إنما وضعت للعبادة، فعمرها بمن يحل فيها من المتعبدين، ومن ذلك اشتقت العمرة، والمعنى: ما يحق للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله. وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين: **إيماء** إلى أن الشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٠

وقد جاء الحال في قوله: شاهدين على أنفسهم بالكفر مبينا لسبب براءتهم من أن يعمروا مساجد الله، وهو حال من ضمير يعمروا فبين عامل الضمير وهو يعمروا الداخل في حكم الانتفاء، أي: انتفى تأهلهم لأن يعمروا مساجد الله بحال شهادتهم على أنفسهم بالكفر، فكان لهذه الحال مزيد اختصاص بهذا الحرمان الخاص من عمارة مساجد الله، وهو الحرمان الذي لا استحقاق بعده.

والمراد بالكفر: الكفر بالله، أي بوحدانيته، فالكفر مرادف للشرك، فالكفر في حد ذاته موجب للحرمان من عمارة أصحابه مساجد الله، لأنها مساجد الله فلا حق لغير الله فيها، ثم هي قد أقيمت لعبادة الله لا لغيره، وأقام إبراهيم- عليه السلام- أول مسجد وهو الكعبة عنوانا على التوحيد، وإعلانا به، كما تقدم في قوله تعالى: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا في سورة آل عمران [٩٦] ، فهذه أول درجة من الحرمان. ثم كون كفرهم حاصلا باعترافهم به موجب لانتفاء أقل حظ من هذه العمارة، وللبراءة من استحقاقها، وهذه درجة ثانية من الحرمان.

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ، ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: بإفراد مسجد الله أي المسجد الحرام وهو المقصود، أو التعريف بالإضافة للجنس. وقرأ الباقون: مساجد الله، فيعم المسجد الحرام وما عددناه معه آنفا.". (١)

٨٣٠. ٣٩-"وأما الأعنة والقبة فقبة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش وسميت الأعنة وكانت لبني مخزوم. وهم أبناء عم قصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد.

وأما الحكومة وأموال الآلهة- ولم أقف على حقيقتها- فأحسب أن تسميتها الحكومة لأن المال المتجمع بها هو ما يحصل من جزاء الصيد في الحرم أو في الإحرام. وأما تسميتها أموال

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٤٠

الآلهة لأنها أموال تحصل من نحو السائبة والبحيرة وما يوهب للآلهة من سلاح ومتاع. فكانت لبني سهم وهم أبناء عم لقصي. وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن قيس بن سهم.

وأما الأيسار وهي الأزلام التي يستقسمون بها فكانت لبني جمح وهم أبناء عم لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد صفوان بن أمية بن خلف.

وقد أبطل الإسلام جميع هذه المناصب، عدا السدانة والسقاية،

لقول النبيء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع «ألا إن كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت»

(١) .

وكانت مناصب العرب التي بيد قصي بن كلاب خمسة: الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء- فلما كبر قصي جعل المناصب لابنه عبد الدار، ثم اختصم أبناء قصي بعد موته وتداعوا للحرب، ثم تداعوا للصلح، على أن يعطوا بني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأحدثت مناصب لبعض من قريش غير أبناء قصي فانتهت المناصب إلى عشرة كما ذكرنا.

وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ليس لأنه محل التسوية المردودة عليهم لأنهم لم يدعوا التسوية بين السقاية أو العمارة بدون الإيمان، بل ذكر الإيمان إدماج، للإيماء إلى

أن الجهاد أثر الإيمان، وهو ملازم للإيمان، فلا يجوز للمؤمن التنصل منه بعلة اشتغاله بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. وليس ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر لكون الذين جعلوا مزية سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مثل مزية الإيمان

---

(١) رواه ابن الأثير في «النهاية» في مادة (أثر) ومادة (سقى) .". (١)

٨٣١. ٤٠-"برهان على أن الإيمان هو الأصل، وأن شعبه المتولدة منه أفضل الأعمال، وأن ما عداها من المكارم والخيرات في الدرجة الثانية في الفضل، لأنها ليست من شعب الإيمان، وإن كان كلا الصفتين لا ينفع إلا إذا كان مع الإيمان، وخاصة الجهاد.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٤٥

وفيه إيماء إلى أنه: لولا الجهاد لما كان أهل السقاية وعمارة المسجد الحرام مؤمنين، فإن إيمانهم كان من آثار غزوة فتح مكة وجيش الفتح إذ آمن العباس بن عبد المطلب وهو صاحب السقاية، وآمن عثمان بن طلحة وهو صاحب عمارة المسجد الحرام.

فأما ما رواه الطبري والواحدي عن ابن عباس: من أن نزول هذه الآية كان يوم بدر، بسبب المماراة التي وقعت بين علي بن أبي طالب والعباس، فموقع التذييل بقوله:

والله لا يهدي القوم الظالمين واضح: أي لا يهدي المشركين الذين يسقون الحاج ويعمرون المسجد الحرام، إذ لا يجدي ذلك مع الإشراك. فتبين أن ما توهموه من المساواة بين تلك الأعمال وبين الجهاد، وتنازعهم في ذلك، خطأ من النظر، إذ لا تستقيم تسوية التابع بالمتبوع والفرع بالأصل، ولو كانت السقاية والعمارة مساويتين للجهاد لكان أصحابهما قد اهتدوا إلى نصر الإيمان، كما اهتدى إلى نصره المجاهدون، والمشاهدة دلت على خلاف ذلك: فإن المجاهدين كانوا مهتدين ولم يكن أهل السقاية والعمارة بالمهتدين. فالهداية شاع إطلاقها مجازا باستعارتها لمعنى الإرشاد على المطلوب، وهي بحسب هذا الإطلاق مراد بها مطلوب خاص وهو ما يطلبه من يعمل عملا يتقرب به إلى الله، كما يقتضيه تعقيب ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد بهذه الجملة.

وكني بنفي الهداية عن نفي حصول الغرض من العمل.

والمعنى: والله لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم.

ونسب إلى ابن وردان أنه روى عن أبي جعفر أنه قرأ: سقاة الحاج- بضم السين جمع الساقي- وقرأ وعمرة- بالعين المفتوحة وبدون ألف وبفتح الراء جمع عامر- وقد اختلف فيها عن ابن وردان.". (١)

٨٣٢. ٤١-"والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا الفوز لأجل تلك الأوصاف التي ميزتهم: وهي الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس.
[٢١، ٢٢]

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٤٧

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٢١ إلى ٢٢]

يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (٢١) خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم (٢٢)

بيان للدرجة العظيمة التي في قوله: أعظم درجة عند الله [التوبة: ٢٠] فتلك الدرجة هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم. ومجموع هذه الأمور لم يمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة، الذين وإن صلحوا لأن ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها.

والتبشير: الإخبار بخير يحصل للمخبر لم يكن عالما به.

فإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدد إدخال السرور بذلك لهم، لأن تجدد التبشير يؤذن بأن المبشر به شيء لم يكن معلوما للمبشر (بفتح الشين) وإلا لكان الإخبار به تحصيلا للحاصل.

وكون المسند إليه لفظ الرب، دون غيره مما يدل على الخالق سبحانه، **إيماء** إلى الرحمة بهم والعناية: لأن معنى الربوبية يرجع إلى تدبير المربوب والرفق به واللطف به، ولتحصل به الإضافة إلى ضميرهم إضافة تشريف.

وتقدمت الرحمة في قوله: الرحمن الرحيم [الفاتحة: ١] .

والرضوان- بكسر الراء وبضمها-: الرضا الكامل الشديد، لأن هذه الصيغة تشعر بالمبالغة مثل الغفران والشكران والعصيان.

والجنات تقدم الكلام عليها في ذكر الجنة في سورة البقرة، وجمعها باعتبار مراتبها وأنواعها وأنواع النعيم فيها.". (١)

٨٣٣. ٤٢-"الأول يوم حنين، على أن التراخي الزمني مراد تنزيلا لعظم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإن أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت.

والسكينة: الثبات واطمئنان النفس وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى: أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم في سورة البقرة [٢٤٨] ، وتعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٩/١٠

بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سكينة خارقة للعادة ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه أنفا كرامة لنبيئه صلى الله عليه وسلم وإجابة لندائه الناس، ولذلك قدم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين.

وإعادة حرف على بعد حرف العطف: تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول- عليه الصلاة والسلام- سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف.

والجنود جمع جند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو الجماعة المهيئة للحرب، وواحده بياء النسب: جندي، وقد تقدم عند قوله تعالى: فلما فصل طالوت بالجنود في سورة البقرة [٢٤٩] . وقد يطلق الجند على الأمة العظيمة ذات القوة، كما في قوله تعالى: هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود في سورة البروج [١٧، ١٨] والمراد بالجنود هنا جماعات من الملائكة موكلون بهزيمة المشركين كما دل عليه فعل أنزل، أي أرسلها الله لنصرة المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولذلك قال:

لم تروها ولكون الملائكة ملائكة النصر أطلق عليها اسم الجنود.

وتعذيبه الذين كفروا: هو تعذيب القتل والأسر والسبي.

والإشارة ب وذلك جزاء الكافرين إلى العذاب المأخوذ من عذب.

[٢٧]

[سورة التوبة (٩) : آية ٢٧]

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم (٢٧)

ثم للتراخي الرتبي، عطف على جملة ثم أنزل الله سكينته على رسوله إلى قوله وذلك جزاء الكافرين [التوبة: ٢٦] . وهذا إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة فإنهم". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٥٨

٨٣٤.   ٤٣-"[سورة التوبة (٩) : آية ٣٣]

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٣٣)

بيان لجملة ويأبى الله إلا أن يتم نوره [التوبة: ٣٢] بأنه أرسل رسوله بهذا الدين، فلا يريد إزالته، ولا يجعل تقديره باطلا وعبثا. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.

وفي قوله: هو الذي أرسل رسوله صيغة قصر، أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يطفئونه.

واجتلاب اسم الموصول: للإيماء إلى أن مضمون الصلة علة للجملة التي بنيت عليها هذه الجملة وهي جملة: ويأبى الله إلا أن يتم نوره [التوبة: ٣٢] .

وعبر عن الإسلام بالهدى ودين الحق تنويها بفضله، وتعريضا بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.

وفعل الإظهار إذا عدي ب على كان مضمنا معنى النصر، أو التفضيل، أي لينصره على الأديان كلها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها، ومنه المظاهرة أي المناصرة، وقد تقدم ذكرها آنفا عند قوله: ولم يظاهروا عليكم أحدا [التوبة: ٤] .

فالإسلام كان أشرف الأديان: لأن معجزة صدقه القرآن، وهو معجزة تدرك بالعقل، ويستوي في إدراك إعجازها جميع العصور، ولخلو هذا الدين عن جميع العيوب في الاعتقاد والفعل، فهو خلي عن إثبات ما لا يليق بالله تعالى، وخلي عن وضع التكاليف الشاقة، وخلي عن الدعوة إلى الإعراض عن استقامة نظام العالم، وقد فصلت ذلك في الكتاب الذي سميته «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام» .

وظهور الإسلام على الدين كله حصل في العالم باتباع أهل الملل إياه في سائر الأقطار، بالرغم على كراهية أقوامهم وعظماء مللهم ذلك، ومقاومتهم إياه بكل حيلة ومع ذلك فقد ظهر وعلا وبان فضله على الأديان التي جاورها وسلامته من الخرافات". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٧٣

٨٣٥. ٤٤-"عليه وسلم وصاحبيه فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستجلبه من الشام وخشي أبو ذر الفتنة في المدينة فاعتزلها وسكن الربذة وثبت على رأيه وقوله.
والفاء في قوله: فبشرهم داخلة على خبر الموصول، لتنزيل الموصول منزلة الشرط، لما فيه من الإيماء إلى تعليل الصلة في الخبر، فضمير الجمع عائد إلى الذين ويجوز كون الضمير عائدا إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون. والفاء للفصيحة بأن يكون بعد أن ذكر آكلي الأموال الصادين عن سبيل الله وذكر الكانزين، أمر رسوله بأن ينذر جميعهم بالعذاب، فدلت الفاء على شرط محذوف تقديره: إذا علمت أحوالهم هذه فبشرهم، والتبشير مستعار للوعيد على طريقة التهكم.
[٣٥]

[سورة التوبة (٩) : آية ٣٥]
يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٣٥)
انتصب يوم يحمى على الظرفية لعذاب [التوبة: ٣٤] ، لما في لفظ عذاب من معنى يعذبون.
وضمير عليها عائد إلى الذهب والفضة [التوبة: ٣٤] بتأويلهما بالدنانير والدراهم، أو عائد إلى أموال الناس [التوبة: ٣٤] والذهب والفضة [التوبة: ٣٤] ، إن كان الضمير في قوله: فبشرهم [التوبة: ٣٤] عائدا إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون [التوبة: ٣٤] .
والحمي شدة الحرارة. يقال: حمي الشيء إذا اشتد حره.
والضمير المجرور بعلى عائد إلى الذهب والفضة [التوبة: ٣٤] باعتبار أنها دنانير أو دراهم، وهي متعددة وبني الفعل للمجهول لعدم تعلق الغرض بالفاعل، فكأنه قيل: يوم يحمي الحامون عليها، وأسند الفعل المبني للمجهول إلى المجرور لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحمي لظهوره: إذ هو النار التي تحمى، ولذلك لم يقرن بعلامة التأنيث، عدي بعلى الدالة على الاستعلاء المجازي لإفادة أن الحمي تمكن من الأموال بحيث تكتسب حرارة المحمي كلها، ثم أكد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: في نار جهنم فصارت الأموال محمية

عليها النار وموضوعة في النار.". (١)

٨٣٦. ٤٥-"[سورة التوبة (٩) : آية ٤٣]

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣)

استأذن فريق من المنافقين النبيء صلى الله عليه وسلم، أن يتخلفوا عن الغزوة، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة وأذن النبيء صلى الله عليه وسلم لمن استأذنه حملا للناس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلما بأن المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا، كما قال تعالى:

لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا [التوبة: ٤٧] فعاتب الله نبيئه صلى الله عليه وسلم في أن أذن لهم،

لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلا للنبيء صلى الله عليه وسلم على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان، كما قال الله تعالى: ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم [محمد: ٣٠].

والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنه غرض أنف.

وافتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب العتاب لأنه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة **إيماء** إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيء صلى الله عليه وسلم.

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٧٨

وحذف متعلق أذنت لظهوره من السياق، أي لم أذنت لهم في القعود والتخلف.". (١)

٨٣٧. ٤٦-"ومعنى هذه الآية: أن الله كشف سرا من أسرار نفوس المنافقين بأنه خلق في نفوسهم شحا وحرصا على المال وفتنة بتوفيره والإشفاق من ضياعه، فجعلهم بسبب ذلك في عناء وعذاب من جراء أموالهم، فهم في كبد من جمعها. وفي خوف عليها من النقصان، وفي ألم من إنفاق ما يلجئهم الحال إلى إنفاقه منها، فقد أراد الله تعذيبهم في الدنيا بما الشأن أن يكون سبب نعيم وراحة، وتم مراده. وهذا من أشد العقوبات الدنيوية وهذا شأن البخلاء وأهل الشح مطلقا، إلا أن المؤمنين منهم لهم مسلاة عن الرزايا بما يرجون من الثواب على الإنفاق أو على الصبر. ثم يجوز أن يكون هذا الخلق قد جبلهم الله عليه من وقت وجودهم فيكون ذلك من جملة بواعث كفرهم ونفاقهم، إذ الخلق السيء يدعو بعضه بعضا، فإن الكفر خلق سيء فلا عجب أن تنساق إليه نفس البخيل الشحيح، والنفاق يبعث عليه الخلق السيء من الجبن والبخل، ليتقي صاحبه المخاطر، وكذلك الشأن في أولادهم إذ كانوا في فتنة من الخوف على إيمان بعض أولادهم، وعلى خلاف بينهم وبين بعض أولادهم الموفقين إلى الإسلام: مثل حنظلة: ابن أبي عامر الملقب غسيل الملائكة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي فكان ذلك من تعذيب أبويهما.

ولكون ذكر الأولاد كالتكملة هنا لزيادة بيان عدم انتفاعهم بكل ما هو مظنة أن ينتفع به الناس، عطف الأولاد بإعادة حرف النفي بعد العاطف، **إيماء** إلى أن ذكرهم كالتكملة والاستطراد.

واللام في ليعذبهم للتعليل: تعلقت بفعل الإرادة للدلالة على أن المراد حكمة وعلة فتغني عن مفعول الإرادة، وأصل فعل الإرادة أن يعدى بنفسه كقوله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [البقرة: ١٨٥] ويعدى غالبا باللام كما في هذه الآية وقوله تعالى: يريد الله ليبين لكم في سورة النساء [٢٦] وقول كثير:

أريد لأنسى حبها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل مكان

وربما عدوه باللام وكي مبالغة في التعليل كقول قيس بن عبادة:

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢١٠

أردت لكيما يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود". (١)

٨٣٨. ٤٧-"بالإيمان، كما فسر به المفسرون، يعنون بالمؤمنين المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر، وهم المنافقون.

وقرأ حمزة- بجر- ورحمة عطفا على خير، أي أذن رحمة، والمآل واحد.

وقد جاء ذكر هذه الخصلة مع الخصلتين الأخريين على عادة القرآن في انتهاز فرصة الإرشاد إلى الخير، بالترغيب والترهيب، فرغبهم في الإيمان ليكفروا عن سيئاتهم الفارطة،

ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول بقوله: والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبيء بوصف رسول الله إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم، فهو من تعليق الحكم بالمشتق المؤذن بالعلية.

وفي الموصول إيماء إلى أن علة العذاب هي الإيذاء، فالعلة مركبة.

[٦٢]

[سورة التوبة (٩) : آية ٦٢]

يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٢)

عدل عن أسلوب الحكاية عنهم بكلمة ومنهم، لأن ما حكي هنا حال من أحوال جميعهم.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، فلا تغرهم أيمانهم، فضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبيء.

والمراد: الحلف الكاذب، بقرينة قوله: والله ورسوله أحق أن يرضوه، أي بتركهم الأمور التي حلفوا لأجلها، على أنه قد علم أن أيمانهم كاذبة مما تقدم في قوله:

وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون [التوبة: ٤٢] ". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٨/١٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٤/١٠

٨٣٩. ٤٨-"فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير.

التفريع على قوله: جاهد الكفار والمنافقين [التوبة: ٧٣] على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس فلما أمر بجهادهم والغلظة عليهم وتوعدهم بالمصير إلى النار، فرع على ذلك الإخبار بأن التوبة مفتوحة لهم وأن تدارك أمرهم في مكنتهم، لأن المقصود من الأمر بجهادهم قطع شأفة مضرتهم أو أن يصلح حالهم.

والتوبة هي إخلاصهم الأيمان. والضمير يعود إلى الكفار والمنافقين، والضمير في يك عائد إلى مصدر يتوبوا وهو التوب.

والتولي: الإعراض والمراد به الإعراض عن التوبة. والعذاب في الدنيا عذاب الجهاد والأسر، وفي الآخرة عذاب النار.

وجيء بفعل يك في جواب الشرط دون أن يقال فإن يتوبوا فهو خير لهم لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، **والإيماء** إلى أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة لأن فعل التكوين مؤذن بذلك.

وحذف نون «يكن» للتخفيف لأنها لسكونها تهيأت للحذف وحسنه وقوع حركة بعدها والحركة ثقيلة فلذلك شاع حذف هذه النون في كلامهم كقوله: وإن تك حسنة يضاعفها في سورة النساء [٤٠] .

وجملة: وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير عطف على جملة يعذبهم الله إلخ فتكون جوابا ثانيا للشرط، ولا يريبك أنها جملة اسمية لا تصلح لمباشرة أداة الشرط بدون فاء رابطة. لأنه يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في المتبوعات فإن حرف العطف كاف في ربط الجملة تبعا للجملة المعطوف عليها.

والمعنى أنهم إن تولوا لم يجدوا من ينصرهم من القبائل إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلا من لا يعبأ بهم عددا وعددا، والمراد نفي الولي النافع كما هو مفهوم الولي وأما من لا ينفع فهو حبيب وودود وليس بالولي.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧١/١٠

٨٤٠. ٤٩-"ومعنى والله لا يهدي القوم الفاسقين أن الله لا يقدر لهم الهدي إلى الإيمان لأجل فسقهم، أي بعدهم عن التأمل في أدلة النبوءة، وعن الإنصاف في الاعتراف بالحق فمن كان ذلك ديدنه طبع على قلبه فلا يقبل الهدى فمعنى لا يهدي لا يخلق الهدى في قلوبهم.

[٨١]

[سورة التوبة (٩) : آية ٨١]

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٨١)

استئناف ابتدائي. وهذه الآية تشير إلى ما حصل للمنافقين عند الاستنفار لغزوة تبوك فيكون المراد بالمخلفين خصوص من تخلف عن غزوة تبوك من المنافقين.

ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أن فرحهم بتخلفهم قد قوي لما استغفر لهم النبيء صلى الله عليه وسلم وظنوا أنهم استغفلوه فقضوا مأربهم ثم حصلوا الاستغفار ظنا منهم بأن معاملة الله إياهم تجري على ظواهر الأمور.

فالمخلفون هم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك استأذنوا النبيء صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلفين بصيغة اسم المفعول لأن النبيء خلفهم، وفيه **إيماء** إلى أنه ما أذن لهم في التخلف إلا لعلمه بفساد قلوبهم، وأنهم لا يغنون عن المسلمين شيئا كما قال: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا [التوبة: ٤٧] .

وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلف نكدا عليهم ونغصا كما وقع للثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم.

والمقعد هنا مصدر ميمي أي بقعودهم.

وخلاف لغة في خلف. يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم، أي ظعنوا ولم يظعن. ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خلف أنه يشير إلى أن قعودهم كان". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٠/١٠

٨٤١. ٥٠-"والتزكية: جعل الشيء زكيا، أي كثير الخيرات. فقوله: تطهرهم إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله: تزكيهم إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية. فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.

والصلاة عليهم: الدعاء لهم. وتقدم آنفا عند قوله تعالى: وصلوات الرسول [التوبة: ٩٩] .

وقد كان النبيء صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول: اللهم صل على آل فلان

. كما ورد في حديث عبد الله بن أبي أوفى يجمع النبيء صلى الله عليه وسلم في دعائه في هذا الشأن بين معنى الصلاة وبين لفظها فكان يسأل من الله تعالى أن يصلي على المتصدق.

والصلاة من الله الرحمة، ومن النبيء الدعاء.

وجملة: إن صلاتك سكن لهم تعليل للأمر بالصلاة عليهم بأن دعاءه سكن لهم، أي سبب سكن لهم، أي خير. فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل.

والسكن: بفتحتين ما يسكن إليه، أي يطمأن إليه ويرتاح به. وهو مشتق من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه، لأن الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنها غير مستقرة، ولذلك سمي ذلك قلقا لأن القلق كثرة التحرك. وقال تعالى: وجعل الليل سكنا [الأنعام: ٩٦] وقال:

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا [النحل: ٨٠] ، ومن أسماء الزوجة السكن، أو لأن دعاءه لهم يزيد نفوسهم صلاحا وسكونا إلى الصالحات لأن المعصية تردد واضطراب، كما قال تعالى: فهم في ريبهم يترددون [التوبة: ٤٥] ، والطاعة اطمئنان ويقين، كما قال تعالى:

ألا بذكر الله تطمئن القلوب [الرعد: ٢٨] .

وجملة: والله سميع عليم تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا المجيب للدعاء.

وذكره للإشارة إلى قبول دعاء النبيء صلى الله عليه وسلم. ففيه **إيماء** إلى التنويه بدعائه.

وذكر العليم **إيماء** إلى أنه ما أمره بالدعاء لهم إلا لأن في دعائه لهم خيرا عظيما وصلاحا في الأمور.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر ويعقوب

صلاتك بصيغة الجمع. وقرأه حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف". (١)

٨٤٢. ٥١-"وأما توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا فهي استجابته لتوبتهم من ذنبهم.

والمهاجرون والأنصار: هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالثناء لأنهم لم يترددوا ولم يتثاقلوا ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن اتسى بهم من غيرهم من القبائل.

ووصف المهاجرون والأنصار ب الذين اتبعوه **للإيماء** إلى أن لصلة الموصول تسببا في هذه المغفرة.

ومعنى اتبعوه أطاعوه ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

والساعة: الحصة من الزمن.

والعسرة: اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشدة. وساعة العسرة هي زمن استنفار النبيء صلى الله عليه وسلم الناس إلى غزوة تبوك. فهو الذي تقدمت الإشارة إليه بقوله: يا أيها

الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض

[التوبة: ٣٨] فالذين انتدبوا وتأهبوا وخرجوا هم الذين اتبعوه، فأما ما بعد الخروج إلى الغزو فذلك ليس هو الاتباع ولكنه الجهاد. ويدل لذلك قوله: من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم أي من المهاجرين والأنصار، فإنه متعلق ب اتبعوه أي اتبعوا أمره بعد أن خامر فريقا منهم خاطر التثاقل والقعود والمعصية بحيث يشبهون المنافقين، فإن ذلك لا يتصور وقوعه بعد الخروج، وهذا الزيغ لم يقع ولكنه قارب الوقوع.

وكاد من أفعال المقاربة تعمل في اسمين عمل كان، واسمها هنا ضمير شأن مقدر، وخبرها هو جملة الخبر عن ضمير الشأن، وإنما جعل اسمها هنا ضمير شأن لتهويل شأنهم حين أشرفوا على الزيغ.

وقرأ الجمهور تزيغ بالمثناة الفوقية. وقرأه حمزة، وحفص عن عاصم، وخلف بالمثناة التحتية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١١

وهما وجهان في الفعل المسند لجمع تكسير ظاهر.". (١)

٨٤٣. ٥٢-"ولما كان مصير الفقه سجية لا يحصل إلا بمزاولة ما يبلغ إلى ذلك كانت صيغة التفعل المؤذنة بالتكلف متعينة لأن يكون المراد بها تكلف حصول الفقه، أي الفهم في الدين.
وفي هذا إيماء إلى أن فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة، ولذلك جاء
في الحديث الصحيح «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»
، ولذلك جزم العلماء بأن الفقه أفضل العلوم.
وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد.
والإنذار: الإخبار بما يتوقع منه شر. والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة.
ومنه النذير. وتقدم في قوله تعالى: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا في سورة البقرة [١١٩] ، فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنه أهم، لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين.
وحذف مفعول يحذرون للتعميم، أي يحذرون ما يحذر، وهو فعل المحرمات وترك الواجبات.
واقتصر على الحذر دون العمل للإنذار لأن مقتضى الإنذار التحذير، وقد علمت أنه يفيد الأمرين.
[١٢٣]

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢٣]
يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (١٢٣)
كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٥٠

لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على أيلة وبصرى، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة". (١)

٨٤٤. ٥٣-"براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام بحيث كلما استقر بلد للإسلام وكان تجاوره بلاد كفر كان حقا على المسلمين غزو البلاد المجاورة. ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك.

وفي توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبيء إيماء إلى أن النبيء- عليه الصلاة والسلام- لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب. ولعل في قوله: واعلموا أن الله مع المتقين إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم- عليه الصلاة والسلام- وأن الله معهم كقوله في الآية الأخرى وسيجزي الله الشاكرين [آل عمران: ١٤٤] .

والغلظة بكسر الغين: الشدة الحسية والخشونة، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة، كقوله: واغلظ عليهم [التوبة: ٧٣] . قال في «الكشاف» : وذلك يجمع الجرأة والصبر على القتال والعنف في القتل والأسر. اه.

قلت: والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين.

ومعنى أمر المسلمين بحصول ما يجده الكافرون من غلظة المؤمنين عليهم هو أمر المؤمنين بأن يكونوا أشداء في قتالهم. وهذه مبالغة في الأمر بالشدة لأنه أمر لهم بأن يجد الكفار فيهم الشدة. وذلك الوجدان لا يتحقق إلا إذا كانت الغلظة بحيث تظهر وتنال العدو فيحس بها، كقوله تعالى لموسى: فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها [طه: ١٦] . وإنما وقعت هذه المبالغة لما عليه العدو من القوة، فإن المقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم

(١) التحرير والتنوير ٦٢/١١

الروم، وهم أصحاب عدد وعدد فلا يجدون الشدة من المؤمنين إلا إذا كانت شدة عظيمة.". (١)

٨٤٥. ٥٤-"وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما اللام و (قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره، ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولا من الله، ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيث إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء، ولأن في هذا التأكيد تسجيلا عليهم مرادا به **الإيماء** إلى اقتراب الرحيل، لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب انتهائه، وهو تسجيل منه على المؤمنين، وإيداع للمنافقين ومن بقي من المشركين. على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله تعالى: يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين [المائدة: ١٥] وكقوله تعالى: يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا [النساء: ١٧٤] فما زيدت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا لغرض أهم من إزالة الإنكار.

والمجيء: مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين. شبه توجهه إليهم بالخطاب الذي لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكان آخر. وهو استعمال شائع في القرآن.

والأنفس: جمع نفس، وهي الذات. ويضاف النفس إلى الضمير فيدل على قبيلة معاد الضمير، أي هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق.

يقال: هو قريشي من أنفسهم، ويقال: القريشي مولاهم أو حليفهم، فمعنى من أنفسكم من صميم نسبكم، فتعين أن الخطاب للعرب لأن النازل بينهم القرآن يومئذ لا يعدون العرب ومن حالفهم وتولاهم مثل سلمان الفارسي وبلال الحبشي، وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناوأته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن وإنه لذكر لك ولقومك [الزخرف:

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١١

٤٤] أي يبقى منه لكم ذكر حسن.". (١)

٨٤٦. ٥٥-"(الرءوف) : الشديد الرأفة. والرحيم: الشديد الرحمة، لأنهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلق بهما وهو بالمؤمنين.

والرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضر بالمرءوف به. يقال: رؤوف رحيم. والرحمة:

رقة تقتضي الإحسان للمرحوم، بينهما عموم وخصوص مطلق، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة. وتقدمت الرأفة عند قوله تعالى: وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤف رحيم في سورة البقرة [١٤٣] والرحمة في سورة الفاتحة [٣] .

وتقديم المتعلق على عامليه المتنازعينه في قوله: بالمؤمنين رؤف رحيم للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأما رحمته بهم. وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم.

والفاء في قوله: فإن تولوا للتفريع على إرسال النبيء صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الصفات إليهم فإن صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتباعه لأنه من أنفسهم ومحب لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتبعه منهم، فتفرع عليه أنهم محقوقون بالإيمان به فإن آمنوا فذاك وإن لم يؤمنوا فإن الله حسيبه وكافيه. وقد دل الشرط على مقابله لأن فإن تولوا يدل على تقدير ضده وهو إن أذعنوا بالإيمان.

وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتمادا على قرينة حرف التفريع فقيل له: فإن تولوا فقل حسبي

الله

. والتقدير: فإن توليتم عنه فحسبه الله وقل حسبي الله. فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة **الإيماء** إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٧١/١١

والتولي: الإعراض والإدبار: وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد.". (١)

٨٤٧. ٥٦-"والحسب: الكافي، أي كافيك شر إعراضهم لأنهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق. وتلك حالة مظنة السعي في الكيد والأذى.

ومعنى الأمر بأن يقول: حسبي الله أن يقول ذلك قولا ناشئا عن عقد القلب عليه، أي فاعلم أن حسبك الله وقل حسبي الله، لأن القول يؤكد المعلوم ويرسخه في نفس العالم به، ولأن في هذا القول إبلاغا للمعرضين عنه بأن الله كافيه إياهم.

والتوكل: التفويض. وهو مبالغة في وكل.

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها ولم يؤمر بمجرد التوكل كما أمر في قوله: فتوكل على الله إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] . ولا أخبر بأن الله حسبه مجرد إخبار كما في قوله: فإن حسبك الله [الأنفال: ٦٢]
.

وجملة: لا إله إلا هو مستأنفة للثناء، أو في موضع الحال وهي ثناء بالوحدانية.

وعطفت عليها جملة: وهو رب العرش العظيم للثناء بعظيم القدرة لأن من كان ربا للعرش العظيم ثبت أنه قدير، لأنه قد اشتهر أن العرش أعظم المخلوقات، ولذلك وصف بالعظيم، فالعظيم في هذه الآية صفة للعرش، فهو مجرور.

وفي هاتين الآيتين إشعار بالإيداع والإعذار للناس، وتنبيه إلى المبادرة باغتنام وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ليتشرفوا بالإيمان به وهم يشاهدونه ويقتبسون من أنوار هديه، لأن الاهتداء بمشاهدته والتلقي منه أرجى لحصول كمال الإيمان والانتفاع بقليل من الزمان لتحصيل وافر الخير الذي لا يحصل مثله في أضعاف ذلك الزمان.

وفيهما أيضا **إيماء** إلى اقتراب أجل النبيء صلى الله عليه وسلم لأن التذكير بقوله: لقد جاءكم يؤذن بأن هذا المجيء الذي مضى عليه زمن طويل يوشك أن ينقضي، لأن لكل وارد قفولا، ولكل طالع أفولا. وقد روي عن أبي بن كعب وقتادة أن هاتين الآيتين هما أحدث القرآن

(١) التحرير والتنوير ١١/٧٣

عهدا بالله عز وجل، أي آخر ما نزل من القرآن.". (١)

٨٤٨. ٥٧-"في قوله: ما خلق الله ذلك إلا بالحق. فعلى قراءة نفصل بالنون وهي لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير ففي ضمير صاحب الحال التفات، وعلى قراءة يفصل بالتحية وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب أمرها ظاهر.
والتفصيل: التبيين، لأن التبيين يأتي على الفصول الشيء كلها. وقد تقدم عند قوله تعالى: وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين في سورة الأنعام [٥٥] .
والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار.
وجعل التفصيل لأجل قوم يعلمون، أي الذين من شأنهم العلم لما يؤذن به المضارع من تجدد العلم، وإنما يتجدد لمن هو ديدنه ودأبه، فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين.
وذكر لفظ (قوم) **إيماء** إلى أنهم رسخ فيهم وصف العلم، فكان من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] . وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بتفصيل الآيات ليسوا من الذين يعلمون ولا ممن رسخ فيهم العلم.
[٦]

[سورة يونس (١٠) : آية ٦]
إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون (٦)
استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير. وهو استدلال بأحوال الضوء والظلمة وتعاقب الليل والنهار وفي ذلك عبرة عظيمة. وهو بما فيه من عطف قوله تعالى: وما خلق الله في السماوات والأرض أعم من الدليل الأول لشموله ما هو أكثر من خلق الشمس والقمر ومن خلق الليل والنهار ومن كل ما في الأرض والسماء مما تبلغ إليه معرفة الناس في مختلف العصور وعلى تفاوت مقادير الاستدلال من عقولهم.
وتأكيد هذا الاستدلال بحرف إن لأجل تنزيل المخاطبين به الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل

(١) التحرير والتنوير ١١/٧٤

إلى التوحيد منزلة من ينكر أن في ذلك آيات على الوحدانية بعدم جريهم على موجب العلم.". (١)

٨٤٩. ٥٨-"ولوقوع هذه الجملة موقع الوعيد الصالح لأن يعلمه الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم عدل فيها عن طريقة الخطاب بالضمير إلى طريقة الإظهار، وجيء بالموصولة للإيماء إلى أن الصلة علة في حصول الخبر.

وقد جعل عنوان الذين لا يرجون لقاءنا علامة عليهم فقد تكرر وقوعه في القرآن.

ومن المواقع ما لا يستقيم فيه اعتبار الموصولية إلا للاشتهار بالصلة كما سنذكر عند قوله تعالى: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا في هذه السورة [١٥] .

والرجاء: ظن وقوع الشيء من غير تقييد كون المظنون محبوبا وإن كان ذلك كثيرا في كلامهم لكنه ليس بمتعين. فمعنى: لا يرجون لقاءنا لا يظنونه ولا يتوقعونه.

ومعنى: رضوا بالحياة الدنيا أنهم لم يعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى لأن الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة فيشعرون بتطلب حياة تكون أصفى من أكدارها فلا يلبثون أن تطلع لهم أدلة وجودها، وناهيك بإخبار الصادق بها ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جعل الرضى بالحياة الدنيا مذمة وملقيا في مهواة الخسران.

وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة. وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى والتزود لها. وفي ذلك مقامات ودرجات بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية، وأعلاها مقام

قول النبيء صلى الله عليه وسلم «فقلت ما لي وللدنيا»

. والاطمئنان: السكون يكون في الجسد وفي النفس وهو الأكثر، قال تعالى: يا أيتها النفس

---

(١) التحرير والتنوير ٩٧/١١

المطمئنة [الفجر: ٢٧] . وقد تقدم تصريف هذا الفعل عند قوله تعالى: ولكن ليطمئن قلبي في سورة البقرة". (١)

٨٥٠. ٥٩-"ومعنى (اطمأنوا بها) سكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة، لأن السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرك لغيره.

وعن قتادة: إذا شئت رأيت هذا الموصوف صاحب دنيا، لها يرضى، ولها يغضب، ولها يفرح، ولها يهتم ويحزن.

والذين هم غافلون هم عين الذين لا يرجون اللقاء، ولكن أعيد الموصول للاهتمام بالصلة **والإيماء** إلى أنها وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر. وإنما لم يعد الموصول في قوله: ورضوا بالحياة الدنيا لأن الرضى بالحياة الدنيا من تكملة معنى الصلة التي في قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا.

والمراد بالغفلة: إهمال النظر في الآيات أصلا، بقرينة المقام والسياق وبما تومىء إليه الصلة بالجملة الاسمية هم عن آياتنا غافلون الدالة على الدوام، وبتقديم المجرور في قوله عن آياتنا غافلون من كون غفلتهم غفلة عن آيات الله خاصة دون غيرها من الأشياء فليسوا من أهل الغفلة عنها مما يدل مجموعه على أن غفلتهم عن آيات الله دأب لهم وسجية، وأنهم يعتمدونها فتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله وإباء النظر فيها عنادا ومكابرة. وليس المراد من تعرض له الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات.

وأعقب ذلك باسم الإشارة لزيادة إحصاء صفاتهم في أذهان السامعين، ولما يؤذن به جيء اسم الإشارة مبتدأ عقب أوصاف من التنبيه على أن المشار إليه جدير بالخبر من أجل تلك الأوصاف كقوله تعالى: أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

والمأوى: اسم مكان الإيواء، أي الرجوع إلى مصيرهم ومرجعهم.

والباء للسببية. والإتيان ب (ما) الموصولة في قوله: بما كسبوا **للإيماء** إلى علة الحكم، أي أن

---

(١) التحرير والتنوير ٩٩/١١

مكسوبهم سبب في مصيرهم إلى النار، فأفاد تأكيد السببية المفادة بالباء.
والإتيان ب (كان) للدلالة على أن هذا المكسوب ديدنهم.
والإتيان بالمضارع للدلالة على التكرير، فيكون ديدنهم تكرير ذلك الذي كسبوه.". (١)

٨٥١. ٦٠-"[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩ إلى ١٠]
إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم (٩) دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (١٠)
جاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لتكون أحوال المؤمنين مستقلة بالذكر غير تابعة في اللفظ لأحوال الكافرين، وهذا من طرق الاهتمام بالخبر. ومناسبة ذكرها مقابلة أحوال الذين يكذبون بلقاء الله بأضدادها تنويها بأهلها وإغاضة للكافرين.
وتعريف المسند إليه بالموصولية هنا دون اللام **للإيماء** بالموصول إلى علة بناء الخبر وهي أن إيمانهم وعملهم هو سبب حصول مضمون الخبر لهم.
والهداية: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه. فمعنى يهديهم ربهم يرشدهم إلى ما فيه خيرهم. والمقصود الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها. وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.
والباء في بإيمانهم للسببية، بحيث إن الإيمان يكون سببا في مضمون الخبر وهو الهداية فتكون الباء لتأكيد السببية المستفادة من التعريف بالموصولية نظير قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا إلى بما كانوا يكسبون [يونس: ٧، ٨] في تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى، بأن يجعل الله للإيمان نورا يوضع في عقل المؤمن ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سببا مغناطيسيا لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمال لا يزال يزداد يوما فيوما، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٠٠

وفي الحديث: «قد يكون

في الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فعمر بن الخطاب»

(١) . قال ابن وهب: تفسير محدثون ملهمون

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي. واللفظ له.". (١)

٨٥٢. ٦١-"والإتيان بالموصولية في تعريف الكافرين للدلالة على أن الطغيان أشده إنكارهم البعث، ولأنه صار كالعلامة عليهم كما تقدم آنفا.

[١٢]

[سورة يونس (١٠) : آية ١٢]

وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (١٢)

عطف على جملة ولو يعجل الله للناس الشر [يونس: ١١] الآية، لأن الغرض الأهم من كلتيهما هو الاعتبار بذميم أحوال المشركين تفظيعا لحالهم وتحذيرا من الوقوع في أمثالها بقرينة تنهية هذه الآية بجملة كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون. فلما بين في الآية السابقة وجه تأخير عذاب الاستئصال عنهم وإرجاء جزائهم إلى الآخرة بين في هذه الآية حالهم عند ما يمسهم شيء من الضر وعند ما يكشف الضر عنهم.

فالإنسان مراد به الجنس، والتعريف باللام يفيد الاستغراق العرفي، أي الإنسان الكافر، لأن جمهور الناس حينئذ كافرون، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعدون بضعة وسبعين رجلا مع نسائهم وأبنائهم الذين هم تبع لهم. وبهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون، كما في قوله تعالى: ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا [مريم: ٦٦]- وقوله: يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك [الانفطار: ٦، ٧] . ويأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال

---

(١) التحرير والتنوير ١٠١/١١

الجاهلية فيفيق كل من غفلته.
وعدل عن الإتيان بالضمير الراجع إلى (الناس) من قوله: ولو يعجل الله للناس الشر [يونس: ١١] لأن في ذكر لفظ الإنسان إيماء إلى التذكير بنعمة الله عليهم إذ جعلهم، من أشرف الأنواع الموجودة على الأرض. ومن المفسرين من جعل اللام في الإنسان للعهد وجعل المراد به أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه مهشم، وكان مشركا،
وكان أصابه مرض.". (١)

٨٥٣. ٦٢-"ثم إن قولهم يحتمل أن يكون جدا، ويحتمل أن يريدوا به الاستهزاء، وعلى الاحتمالين فقد أمر الله نبيئه صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بما يقلع شبهتهم من نفوسهم إن كانوا جادين، أو من نفوس من يسمعونهم من دهمائهم فيحسبوا كلامهم جدا فيترقبوا تبديل القرآن.
وضمير الغيبة في قوله: وإذا تتلى عليهم راجع إلى الناس المراد منهم المشركون أو راجع إلى الذين لا يرجون لقاءنا في قوله: إن الذين لا يرجون لقاءنا [يونس: ٧] .
وتقديم الظرف في قوله: إذا تتلى على عامله وهو قال الذين لا يرجون لقاءنا
للاهتمام بذكر ذلك الوقت الذي تتلى فيه الآيات عليهم فيقولون فيه هذا القول تعجيبا من كلامهم ووهن أحلامهم.
ولكون العامل في الظرف فعلا ماضيا علم أن قولهم هذا واقع في الزمن الماضي، فكانت إضافة الظرف المتعلق به إلى جملة فعلها مضارع وهو تتلى دالة على أن ذلك المضارع لم يرد به الحال أو الاستقبال إذ لا يتصور أن يكون الماضي واقعا في الحال أو الاستقبال فتعين أن اجتلاب الفعل المضارع لمجرد الدلالة على التكرر والتجدد، أي ذلك قولهم كلما تتلى عليهم الآيات.
وما صدق الذين لا يرجون لقاءنا هو ما صدق الضمير في قوله: (عليهم) ، فكان المقام للإضمار، فما كان الإظهار بالموصولية إلا لأن الذين لا يرجون لقاء الله اشتهر به المشركون فصارت هذه الصلة كالعلم عليهم. كما أشرنا إليه عند قوله آنفا إن الذين لا يرجون لقاءنا

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٩/١١

ورضوا بالحياة الدنيا [يونس: ٧] ، وليس بين الصلة وبين الخبر هنا علاقة تعليل فلا يكون الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر.

ولما كان لاقتراحهم معنى صريح، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجود، ومعنى التزامي كنائي، وهو أنه غير منزل من عند الله وأن الذي جاء به غير مرسل من الله، كان الجواب عن قولهم جوابين، أحدهما: ما لقنه الله بقوله:". (١)

٨٥٤. ٦٣-"وطلبا لصلاحهم، وأنه لا يضره عدم قبولهم رحمته وهدايته. ولذلك أتى في حكاية كلامهم العدول عن اسم الجلالة إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:

من ربه إيماء إلى الربوبية الخاصة بالتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي ربوبية المصطفي (بصيغة اسم الفاعل) للمصطفى (بصيغة المفعول) من بين بقية الخلق المقتضية الغضب لغضبه لتوهمهم أن غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى.

وقد أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى

من مداركهم جوابا فيه تعريض بالتهديد لهم وهو قوله: فقل إنما الغيب لله، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكن من حاله المتثبت في أمره.

والغيب: ما غاب عن حواس الناس من الأشياء، والمراد به هنا ما يتكون من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات. وتفسير هذا قوله: قل إنما الآيات عند الله [الأنعام: ١٠٩] .

واللام للملك، أي الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١١٧

الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام.

وجملة: فانتظروا إني معكم من المنتظرين تفريع على جملة: إنما الغيب لله أي ليس دأبي ودأبكم إلا انتظار ما يأتي به الله إن شاء، كقول نوح لقومه: إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين [هود: ٣٣] .

وهذا تعريض بالتهديد لهم أن ما يأتي به الله لا يترقبون منه إلا شرا لهم، كقوله تعالى: وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون [الأنعام: ٨] ". (١)

٨٥٥. ٦٤-"والجري: السير السريع في الأرض أو في البحر، قال تعالى: بسم الله مجراها [هود: ٤١] والظاهر أنه حقيقة فيهما.

والريح مؤنثة في كلام العرب. وتقدم في قوله: وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته في سورة الأعراف [٥٧] . والطيبة: الملائمة الرفيقة بالراكبين.

والطيب: الموصوف بالطيب الشديد. وأصل معنى الطيب الملاءمة فيما يراد من الشيء، كقوله تعالى: فلنحيينه حياة طيبة [النحل: ٩٧] ، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا. ومنه سمي الشيء الذي له ريح وعرف طيبا.

وجملة: جاءتها ريح عاصف جواب إذا. وفي ذكر جريهن بريح طيبة وفرحهم بها **إيماء** إلى أن مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقع من دلالة علامات النوتية كما هو الغالب. وفيه **إيماء** إلى أن ذلك بتقدير مراد لله تعالى ليخوفهم ويذكرهم بوحدانيته. وضمير جاءتها عائد إلى الفلك لأن جمع غير العاقل يعامل معاملة المفرد المؤنث.

والعاصف: وصف خاص بالريح، أي شديدة السرعة. وإنما لم تلحقه علامة التأنيث لأنه مختص بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث، مثل: نافس وحائض ومرضع، فشاع استعماله كذلك، وذكر وصفا للريح فبقي لا تلحقه التاء. وقالوا: إنما لم تلحقه التاء لأنه في معنى

---

(١) التحرير والتنوير ١٣١/١١

النسب، مثل: لابن، وتامر. وفيه نظر.
ومعنى من كل مكان من كل جهة من جهات الفلك، فالابتداء الذي تفيده (من) ابتداء الأمكنة المتجهة إلى الفلك.
ومعنى أحيط بهم أخذوا وأهلكوا، فالعرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكن منها وغلبها، لأن الإحاطة بها تدل على الإحداق بها وتطويقها. ولما كان ذلك هزيمة وامتلاكا لها صار ترتيب أحيط بهم استعارة تمثيلية للهلاك كما تقدم في قوله
تعالى: والله محيط بالكافرين [البقرة: ١٩] وقوله تعالى: لتأتنني به إلا أن يحاط بكم [يوسف: ٦٦] وقوله: وأحيط بثمره [الكهف: ٤٢] أي هلكت. فمعنى وظنوا أنهم أحيط بهم ظنوا الهلاك.". (١)

٨٥٦. ٦٥-"والضمير في قوله: أكثرهم عائد إلى أصحاب ضمير شركائكم [يونس: ٣٥] وضمير فما لكم كيف تحكمون [يونس: ٣٥] .
وإنما عممهم في ضمائر شركائكم وفما لكم كيف تحكمون، وخص بالحكم في اتباعهم الظن أكثرهم، لأن جميع المشركين اتفقوا في اتباع عبادة الأصنام. وبين هنا أنهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادتها إيماء إلى أن من بينهم عقلاء قليلين ارتقت مدارك أفهامهم فوق أن يعتقدوا أن للأصنام تصرفا ولكنهم أظهروا عبادتها تبعا للهوى وحفظا للسيادة بين قومهم. والمقصود من هذا ليس هو تبرئة للذين عبدوا الأصنام عن غير ظن بإلهيتها فإنهم شر من الذين عبدوها عن تخيل، ولكن المقصود هو زيادة الاستدلال على بطلان عبادتها حتى إن من عبادها فريقا ليسوا مطمئنين لتحقق إلهيتها.
وبالتأمل يظهر أن هؤلاء هم خاصة القوم وأهل الأحلام منهم لأن المقام مقام تخطئة ذلك الظن. ففيه إيقاظ لجمهورهم، وفيه زيادة موعظة لخاصتهم ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطمئن إليه قلوبهم. وهذا كقوله الآتي: ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به [يونس: ٤٠] .
والظن: يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/١١

في قوله تعالى: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون [البقرة: ٤٥، ٤٦] ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك. ويظهر أنه حقيقة في هذا الثاني وأنه مجاز في الأول لكنه في الأول شائع فصار كالمشترك. وقد تقدم في سورة البقرة عند الكلام على الآية المذكورة. ومنه قوله تعالى: قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين في سورة الأعراف [٦٦] ، وقوله: وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه في سورة براءة [١١٨] .

وقد أطلق مجازا على الاعتقاد المخطئ، كما في قوله تعالى: إن بعض الظن إثم [الحجرات: ١٢]

وقول النبيء- عليه الصلاة والسلام- إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث

". (١)

٨٥٧. ٦٦-"[سورة يونس (١٠) : آية ٤٥]

ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥)

عطف على: ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم [يونس: ٢٨] عطف القصة على القصة عودا إلى غرض من الكلام بعد تفصيله وتفريعه وذم المسوق إليهم وتقريعهم فإنه لما جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانية لله تعالى. وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به

أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنه خارج عن طوق البشر وتسفيه الذين كذبوه وتفننوا في الإعراض عنه واستوفى الغرض حقه عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى إذ هو حين خيبة أولئك الذين كذبوا بالبعث وهم الذين أشركوا وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر.

وانتصب يوم على الظرفية لفعل خسر. والتقدير: وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٦٥

نحشرهم، فارتباط الكلام هكذا: وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم. وتقديم الظرف على عامله للاهتمام لأن المقصود الأهم تذكيرهم بذلك اليوم وإثبات وقوعه مع تحذيرهم ووعيدهم بما يحصل لهم فيه.
ولذلك عدل عن الإضمار إلى الموصولية في قوله: قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله دون قد خسروا، للإيماء إلى أن سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله وذلك التكذيب من آثار الشرك فارتبط بالجملة الأولى، وهي جملة: ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم إلى قوله: وضل عنهم ما كانوا يفترون [يونس: ٢٨- ٣٠] .
وقرأ الجمهور نحشرهم بنون العظمة، وقرأه حفص عن عاصم بياء الغيبة، فالضمير يعود إلى اسم الجلالة في قوله قبله: إن الله لا يظلم الناس شيئا [يونس: ٤٤] ". (١)

٨٥٨. ٦٧-"وجملة: يتعارفون بينهم حال من الضمير المنصوب في نحشرهم.
والتعارف: تفاعل من عرف، أي يعرف كل واحد منهم يومئذ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.
والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار لتصوير أنهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنه ينافي تمزق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت. فظهر خسرانهم يومئذ بأنهم نفوا البعث فلم يستعدوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.
[٤٦]

[سورة يونس (١٠) : آية ٤٦]
وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦)
كان ذكر تكذيبهم الذي جاء في صدر السورة بقوله: قال الكافرون إن هذا لسحر مبين [يونس: ٢] ، ثم الوعيد عليه بعذاب يحل بهم، والإشارة إلى أنهم كذبوا بالوعيد في قوله: ولو

(١) التحرير والتنوير ١١/١٨١

يعجل الله للناس الشر إلى قوله: لننظر كيف تعملون [يونس: ١١- ١٤] منذرا بترقب عذاب يحل بهم في الدنيا كما حل بالقرون الذين من قبلهم، وكان معلوما من خلق النبيء صلى الله عليه وسلم رأفته بالناس ورغبته أن يتم هذا الدين وأن يهتدي جميع المدعوين إليه، فربما كان النبيء يحذر أن ينزل بهم عذاب الاستئصال فيفوت اهتداؤهم. وكان قوله: ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون [يونس: ١١] تصريحا بإمكان استبقائهم وإيماء إلى إمهالهم. جاء هذا الكلام بيانا لذلك وإنذارا بأنهم إن أمهلوا فأبقي عليهم في الدنيا فإنهم غير مفلتين من المصير إلى عقاب الآخرة حين يرجعون إلى تصرف الله دون حائل.". (١)

٨٥٩. ٦٨-"وجاء الكلام على طريقة إبهام الحاصل من الحالين لإيقاع الناس بين الخوف والرجاء وإن كان المخاطب به النبيء- صلى الله عليه وسلم.

والمراد ب بعض الذي نعدهم هو عذاب الدنيا فإنهم أوعدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، قال تعالى: وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك. فالمعنى إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيته أنت أو لم يقع فتوفاك الله فمصيرهم إلينا على كل حال.

فمضمون أو نتوفينك قسيم لمضمون نرينك بعض الذي نعدهم.

والجملتان معا جملتا شرط، وجواب الشرط قوله: فإلينا مرجعهم.

ولما جعل جواب الشرطين إرجاعهم إلى الله المكنى به عن العقاب الآجل، تعين أن التقسيم الواقع في الشرط ترديد بين حالتين لهما مناسبة بحالة تحقق الإرجاع إلى عذاب الله على كلا التقديرين، وهما حالة التعجيل لهم بالعذاب في الدنيا وحالة تأخير العذاب إلى الآخرة. وأما إراءة الرسول تعذيبهم وتوفيه بدون إراءته فلا مناسبة لهما بالإرجاع إلى الله على كلتيهما إلا باعتبار مقارنة إحداهما لحالة التعجيل ومناسبة الأخرى لحالة التأخير.

وإنما كني عن التعجيل بأن يريد الله الرسول للإيماء إلى أن حالة تعجيل العذاب لا يريد الله منها إلا الانتصاف لرسوله بأن يريه عذاب معانديه، ولذلك بني على ضد ذلك ضد التعجيل

(١) التحرير والتنوير ١١/١٨٣

فكني بتوفيه عن عدم تعجيل العذاب بل عن تأخيره إذ كانت حكمة التعجيل هي الانتصاف للرسول صلى الله عليه وسلم.

ولما جعل مضمون جملة: نتوفينك قسيما لمضمون جملة: نرينك تعين أن إراءته ما أوعدوا به من عذاب الدنيا إنما هو جزاء عن تكذيبهم إياه وأذاهم له انتصارا له حتى يكون أمره جاريا على سنة الله في المرسلين، كما قال نوح: رب انصرني بما

كذبون

[المؤمنون: ٢٦] وقد أشار إلى هذا قوله تعالى عقبه: ولكل أمة رسول [يونس: ٤٧] الآية وقوله: ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] . وقد أراه الله تعالى بعض الذي توعدهم بما لقوا من". (١)

٨٦٠. ٦٩-"وحكي قولهم بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة، كقوله تعالى: ويصنع الفلك [هود: ٣٨] للدلالة على تكرر صدوره منهم، وأطلق الوعد على الموعود به، فالسؤال عنه باسم الزمان مؤول بتقدير يدل عليه المقام، أي متى ظهوره.

والسؤال مستعمل في الاستبطاء، وهو كناية عن عدم اكتراثهم به وأنهم لا يأبهون به لينتقل من ذلك إلى أنهم مكذبون بحصوله بطريق **الإيماء** بقرينة قولهم: إن كنتم صادقين أي إن كنتم صادقين في أنه واقع فعينوا لنا وقته، وهم يريدون أننا لا نصدقك حتى نرى ما وعدتنا كناية عن اعتقادهم عدم حلوله وأنهم لا يصدقون به. والوعد المذكور هنا ما هددوا به من عذاب الدنيا.

والخطاب بقولهم: إن كنتم للرسول، فضمير التعظيم للتهكم كما في قوله:

وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون [الحجر: ٦] وقوله: وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام [الفرقان: ٧] وقول أبي بكر بن الأسود الكناني:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

وهذا المحمل هو المناسب لجوابهم بقوله: قل لا أملك. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء وللمسلمين، جمعوهم في الخطاب لأن النبيء أخبر به والمسلمين آمنوا به فخاطبوهم بذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/١١

جميعا لتكذيب النبيء وإدخال الشك في نفوس المؤمنين به. وإنما خص الرسول- عليه الصلاة والسلام- بالأمر بجوابهم لأنه الذي أخبرهم بالوعيد وأما المؤمنون فتابعون له في ذلك.
ومعنى: لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا: لا أستطيع، كما تقدم في قوله تعالى:
قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا في سورة العقود [٧٦] .
وقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض لأنهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد ولأن استطاعة الضر أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء.". (١)

٨٦١. ٧٠-"وبتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من الكفار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبيء والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جراء ذلك، ولمح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعدا لا يقبل التغيير ولا التخلف تطمينا لنفوسهم، كما أشعر به قوله عقبه تبديل لكلمات الله.
وافتتاح الكلام بأداة التنبيه **إيماء** إلى أهمية شأنه، كما تقدم في قوله: ألا إنهم هم المفسدون في سورة البقرة [١٢] ، ولذلك أكدت الجملة ب إن بعد أداة التنبيه.
وفي التعبير ب أولياء الله دون أن يؤتى بضمير الخطاب كما هو مقتضى وقوعه عقب قوله: ولا تعملون من عمل [يونس: ٦١] يؤذن بأن المخاطبين قد حق لهم أنهم من أولياء الله مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم.
وجملة: لا خوف عليهم ولا هم يحزنون خبر إن.
والخوف: توقع حصول المكروه للمتوقع، فيتعدى بنفسه إلى الشيء المتوقع حصوله.
فيقال: خاف الشيء، قال تعالى: فلا تخافوهم وخافون [آل عمران: ١٧٥] . وإذا كان توقع حصول المكروه لغير المتوقع يقال للمتوقع: خاف عليه، كقوله تعالى: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم
[الشعراء: ١٣٥] .
وقد اقتضى نظم الكلام نفي جنس الخوف لأن (لا) إذا دخلت على النكرة دلت على نفي الجنس، وأنها إذا بني الاسم بعدها على الفتح كان نفي الجنس نصا وإذا لم يبن الاسم على

(١) التحرير والتنوير ١٨٩/١١

الفتح كان نفي الجنس ظاهرا مع احتمال أن يراد نفي واحد من ذلك الجنس إذا كان المقام صالحا لهذا الاحتمال، وذلك في الأجناس التي لها أفراد من الذوات مثل رجل، فأما أجناس المعاني فلا يتطرق إليها ذلك الاحتمال فيستوي فيها رفع اسم (لا) وبناؤه على الفتح، كما في قول إحدى نساء حديث أم زرع «زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة» فقد رويت هذه الأسماء بالرفع وبالبناء على الفتح.". (١)

٨٦٢. ٧١-"كما متع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا، فذكر قصة نوح مع قومه عظة للمشركين وملقيا بالوجل والذعر في قلوبهم، وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بأنهم أسوة بالأنبياء، والصالحين من أقوامهم، وكذلك قصة موسى- عليه السلام- عقبها كما ينبيء عن ذلك قوله في نهاية هذه القصص أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [يونس: ٩٩] الآيات. وقوله: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك [يونس: ٩٤] الآيات.

وبهذا يظهر حسن موقع (إذ) من قوله: إذ قال لقومه يا قوم إلى آخره، فإن تقييد النبأ بزمن قوله: لقومه **إيماء** إلى أن محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محل العبرة، لأنه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح- عليه السلام- في صم آذانهم عن دعوة رسولهم، وقوله ذلك لهم إنما كان بعد أن كرر دعاءهم زمنا طويلا فكان ذلك آخر جدل بينه وبينهم، والنبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل مكة سنين وقت نزول هذه السورة ثم حاورهم وجادلهم ولأن ذلك الزمن هو أعظم موقف وقفه نوح- عليه السلام- مع قومه، وكان هو الموقف الفاصل الذي أعقبه العذاب بالغرق.

وإذ اسم للزمن الماضي. وهو هنا بدل اشتمال من نبأ أو من نوح. وفي ذكر قصة نوح- عليه السلام- وما بعدها تفصيل لما تقدم إجماله من قوله تعالى: ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات [يونس: ١٣] .

وضمير عليهم عائد إلى الذين يفترون على الله الكذب [يونس: ٦٩] .

والتلاوة: القراءة. وتقدمت في سورة الأنفال.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/١١

والنبأ: الخبر. وتقدم في قوله: ولقد جاءك من نبإ المرسلين في سورة الأنعام". (١)

٨٦٣. ٧٢-"ولك أن تجعل معنى فعل فكذبوه الاستمرار على تكذيبه مثل فعل آمنوا في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله [النساء: ١٣٦] ، فتكون الفاء لتفريع حصول ما بعدها على حصول ما قبلها.

وأما الفاء التي في جملة: فنجيناه فهي للترتيب والتعقيب، لأن تكذيب قومه قد استمر إلى وقت إغراقهم وإنجاء نوح- عليه السلام- ومن اتبعه. وهذا نظم بديع وإيجاز معجز إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمنا بقوله: إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي [يونس: ٧١] الآية، فكان كرد العجز على الصدر. ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلها حتى انتهى بإغراقهم، فذكر إنجاء نوح وإغراق المكذبين له، وبذلك عاد الكلام إلى ما عقب مجادلة نوح الأخيرة قومه المنتهية بقوله: وأمرت أن أكون من المسلمين [يونس: ٧٢] فكان تفننا بديعا في النظم مع إيجاز بهيج.

وتقدم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أن إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذبيه، ولتعجيل المسرة للمسلمين السامعين لهذه القصة.

والفلك: السفينة، وتقدم عند قوله تعالى: والفلك التي تجري في البحر في سورة البقرة [١٦٤]

.

والخلائف: جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره. وتقدم عند قوله تعالى: إني جاعل في الأرض خليفة في سورة البقرة [٣٠] . وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك تفرع على كل زوجين منهم أمة.

وتعريف قوم نوح بطريق الموصولية في قوله: وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا للإيماء إلى سبب تعذيبهم بالغرق، وأنه التكذيب بآيات الله إنذارا للمشركين من العرب ولذلك ذيل بقوله: فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، أي المنذرين بالعذاب المكذبين بالإنذار.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٣٥

(٢) التحرير والتنوير ١١/٢٤٣

٨٦٤. ٧٣-"وما جاءهم من العلم يجوز أن يكون ما جاءهم به الأنبياء من شرع الله فلم يعملوا بما جاؤوهم به، وأعظم ذلك تكذيبهم بمحمد- عليه الصلاة والسلام-.

فعن ابن عباس: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبيء محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قبل مبعثه مقرين بنبيء يأتي، فلما جاءهم العلم، وهو القرآن اختلفوا في تصديق محمد- عليه الصلاة والسلام-، قال ابن عباس: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

ويجوز أن يكون العلم هو القرآن، وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية كمعنى قوله:

إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم [آل عمران: ١٩] ، وقوله: وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة [البينة: ٤] فإن البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم لأن قبل هذا قوله: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة [البينة:

١، ٢] الآية. وقال تعالى: فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به [البقرة: ٨٩] .

وهذا المحمل هو المناسب لحرف (حتى) في قوله تعالى: فما اختلفوا حتى جاءهم العلم.

وتعقيب فما اختلفوا بالغاية يؤذن بأن ما بعد الغاية منتهى حالة الشكر، أي فبقوا

في ذلك المبوأ، وفي تلك النعمة، حتى اختلفوا فسلبت نعمتهم فإن الله سلبهم أوطانهم.

وجملة: إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة تذييل وتوعد، والمقصود منه: أن أولئك قوم مضوا بما عملوا وأن أمرهم إلى ربهم كقوله: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم [البقرة: ١٣٤] ، وفيه إيماء إلى أن على الحاضرين اليوم أن يفكروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة.

و (بين) ظرف مكان للقضاء المأخوذ من فعل (يقضي) ففعل القضاء كأنه متخلل بينهم لأنه متعلق بتبيين المحق والمبطل.". (١)

٨٦٥. ٧٤-"وقوله: فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا [الأنعام: ٤٣] وهذه الآية أصرح في ذلك لوجود (كان) الدالة على المضي والانقضاء. والمقصود: التعريض بأن مشركي أهل مكة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/١١

يوشك أن يكونوا على سنن أهل القرى. قال تعالى: ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون [الأنبياء: ٦] ، ونظير هذه الآية استعمالا ومعنى قوله تعالى: فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم [هود: ١١٦] ، وذلك تعريض بتحريض أهل مكة على الإيمان قبل نزول العذاب.

والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناء منقطعا.

وإذ كان الكلام تغليطا لأهل القرى المعرضين عن دعوة الرسل، وتعريضا بالتحذير مما وقعوا فيه. كان الكلام إثباتا صريحا ووقوع قرية وهو نكرة في مساق الإثبات أفاد العموم بقرينة السياق مثل قول الحريري: «يا أهل ذا المغنى وقيتم ضرا» أي كل ضر لا ضرا معينا، وبقرينة الاستثناء فإنه معيار العموم، وهذا الاستثناء من كلام موجب فلذلك انتصب قوله: إلا قوم يونس فهذا وجه تفسير الآية. وجرى عليه كلام العكبري في «إعراب القرآن» ، والكواشي في «التخليص» وجمهور المفسرين جعلوا جملة: فلولا كانت قرية آمنت في قوة المنفية، وجعلوا الاستثناء منقطعا منصوبا ولا داعي إلى ذلك.

وجملة: لما آمنوا مستأنفة لتفصيل مجمل معنى الاستثناء. وفي الآية **إيماء** إلى أن أهل مكة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب. وذلك حالهم عند ما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عدة وعدة، فيكاد يحل بهم عذاب استئصال لولا أنهم عجلوا بالإيمان يوم الفتح.

فقال لهم النبيء صلى الله عليه وسلم: «أنتم الطلقاء»

". (١)

٨٦٦. ٧٥-"عبد الله بن خطل، لأنه لم يأت مؤمنا قبل أن يتمكن منه المسلمون ولم ينفعه التعلق بأستار الكعبة لأن ذلك التعلق ليس بإيمان وإنما هو من شعار العوذ في الجاهلية بما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٩/١١

أبطله الإسلام إذ

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «إن الحرم لا يعيذ عاصيا»

. وقد بينا في آخر سورة غافر [٨٤] عند قوله تعالى: فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده

إلى آخر السورة فانظره.

[٩٩]

[سورة يونس (١٠) : آية ٩٩]

ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩)

عطف على جملة: إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون [يونس: ٩٧] لتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدم من مشابهة حال قريش مع النبيء صلى الله عليه وسلم بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدمة الكلية للجملة التي بعدها،

وهي جملة: أفأنت تكره المفرعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التسلية.

والناس: العرب، أو أهل مكة منهم، وذلك إيماء إلى أنهم المقصود من سوق القصص الماضية كما بيناه عند قوله تعالى: واتل عليهم نبأ نوح [يونس: ٧١] .

والتأكيد ب كلهم للتنصيص على العموم المستفاد من (من) الموصولة فإنها للعموم، والتأكيد ب جميعا لزيادة رفع احتمال العموم العرفي دون الحقيقي.

والمعنى: لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح.

و". (١)

٨٦٧. ٧٦-"[سورة يونس (١٠) : آية ١٠٩]

واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٠٩)

عطف على قل أي بلغ الناس ذلك القول واتبع ما يوحى إليك، أي اتبع في نفسك

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٩٢

وأصحابك ما يوحى إليك. واصبر أي على معاندة الذين لم يؤمنوا بقرينة الغاية بقوله: حتى يحكم الله فإنها غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر.

ولما كان الحكم يقتضي فريقين حذف متعلقه تعويلا على قرينة السياق، أي حتى يحكم الله بينك وبينهم.

وجملة: وهو خير الحاكمين ثناء وتذييل لما فيه من العموم، أي وهو خير الحاكمين بين كل خصمين في هذه القضية وفي غيرها، فالتعريف في الحاكمين للاستغراق بقرينة التذييل.

وخير تفضيل، أصله أخير فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. والأخيرية من الحاكمين أخيرية وفاء الإنصاف في إعطاء الحقوق. وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم، لأن الأمر بالصبر مشعر بأن المأمور به معتدى عليه، ففي الإخبار بأن الله خير الحاكمين **إيماء** بأن الله ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا. وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع.". (١)

٨٦٨. ٧٧-"فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك [هود: ١٢] ، وقوله: أفمن كان على بينة من ربه إلى قوله أولئك يؤمنون به [هود: ١٧] قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وقوله: وأقم الصلاة طرفي النهار [هود:

١١٤] الآية. قيل نزلت في قصة أبي اليسر كما سيأتي، والأصح أنها كلها مكية وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهم لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي، على أن الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنها مكية.

نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وقد عدت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور. ونقل ابن عطية في أثناء تفسير هذه السورة أنها نزلت قبل سورة يونس لأن التحدي فيها وقع بعشر سور وفي سورة يونس وقع التحدي بسورة، وسيأتي بيان هذا.

وقد عدت آياتها مائة وإحدى وعشرين في العدد المدني الأخير. وكانت آياتها معدودة في المدني الأول مائة واثنتين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة

(١) التحرير والتنوير ١١/٣١٠

وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون.

وأغراضها: ابتدأت **بالإيماء** إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومىء إليه الحروف المقطعة في أول السورة.

وباتلائها بالتنويه بالقرآن.

وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى.

وبأن الرسول- عليه الصلاة والسلام- نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى.

وإثبات الحشر.

والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس.". (١)

٨٦٩. ٧٨-"[٨]

[سورة هود (١١) : آية ٨]

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨)

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه.

مناسبته لما قبله أن في كليهما وصف فن من أفانين عناد المشركين وتهكمهم بالدعوة الإسلامية، فإذا خبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالبعث وأن شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربانية استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكم ظنا أن تأخره عجز.

واللام موطئة للقسم. وجملة ليقولن ما يحبسه جواب القسم مغنية من جواب الشرط.

والأمة: حقيقتها الجماعة الكثيرة من الناس الذين أمرهم واحد، وتطلق على المدة كأنهم راعوا أنها الأمد الذي يظهر فيه جيل فأطلقت على مطلق المدة، أي بعد مدة.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٢/١١

ومعدودة معناه مقدرة، أي مؤجلة. وفيه إيماء إلى أنها ليست مديدة لأنه شاع في كلام العرب إطلاق العد والحساب ونحوهما على التقليل، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد، ولذلك يقولون في عكسه: بغير حساب، مثل والله يرزق من يشاء بغير حساب [البقرة: ٢١٢] .
والحبس: إلزام الشيء مكانا لا يتجاوزه. ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا، أي ما يمنع أن يصل إلينا ويحل بنا وهم يريدون التهكم.". (١)

٨٧٠. ٧٩-"ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن.
هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم إذ يقولون ما يحبس عنا العذاب، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة. وهذا تهديد وتخويف بأنه لا يصرف عنهم ولكنه مؤخر.
وافتتح الكلام بحرف التنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم.
وتقديم الظرف للإيماء بأن إتيان العذاب لا شك فيه حتى أنه يوقت بوقت.
والصرف: الدفع والإقصاء.
والحوق: الإحاطة.
والمعنى: أنه حال بهم حلولا لا مخلص منه بحال.
وجملة وحاق بهم في موضع الحال أو معطوفة على خبر ليس.
وصيغة المضي مستعملة في معنى التحقق، وهذا عذاب القتل يوم بدر.
وما صدق ما كانوا به يستهزؤن هو العذاب، وباء به سببية أي بسبب ذكره فإن ذكر العذاب كان سببا لاستهزائهم حين توعدهم به النبيء صلى الله عليه وسلم.
والإتيان بالموصول في موضع الضمير للإيماء إلى أن استهزاءهم كان من أسباب غضب الله عليهم. وتقديره إحاطة العذاب بهم بحيث لا يجدون منه مخلصا.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٢

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٢

٨٧١. ٨٠-"والنعماء- بفتح النون وبالمد- النعمة واختير هذا اللفظ هنا وإن كان لفظ النعمة أشهر لمحسن رعي النظير في زنة اللفظين النعماء والضراء. والمراد هنا النعمة الحاصلة بعد الضراء.

والمس مستعمل في مطلق الإصابة على وجه المجاز. واختيار فعل الإذاقة لما تقدم، واختيار فعل المس بالنسبة إلى إدراك الضراء **إيماء** إلى أن إصابة الضراء أخف من إصابة النعماء، وأن لطف الله شامل لعباده في كل حال.

وأكدت الجملة باللام الموطئة للقسم وبنون التوكيد في جملة جواب القسم لمثل الغرض الذي بيناه في الجملة السابقة.

وجعل جواب القسم القول للإشارة إلى أنه تبجح وتفاخر، فالخبر في قوله: ذهب السيئات عني مستعمل في الازدهاء والإعجاب، وذلك هو مقتضى زيادة عني متعلقا ب ذهب للإشارة إلى اعتقاد كل واحد أنه حقيق بأن تذهب عنه السيئات غرورا منه بنفسه، كما في قوله: ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى [فصلت: ٥٠] .

وجملة إنه لفرح فخور استئناف ابتدائي للتعجيب من حاله، و (فرح وفخور) مثالا مبالغة، أي لشديد الفرح شديد الفخر. وشدة الفرح: تجاوزه الحد وهو البطر والأشر، كما في قوله: إن الله لا يحب الفرحين [القصص: ٧٦] .

والفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس.

والمعنى أنه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وما كان فيه من الضراء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وناقل الأحوال، والمخالف بين أسبابها. وفي معنى الآيتين قوله في سورة الشورى [٤٨] وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور.". (١)

٨٧٢. ٨١-"إلى أن مضمون الكلام المفرع عليه سبب لتوجيه هذا التوقع لأن من شأن المفرع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء يأسا قد يبعث على ترك دعائهم،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٢

فذلك كله أفيد بفاء التفريع.
والتوقع المستفاد من (لعل) مستعمل في تحذير من شأنه التبليغ. ويجوز أن يقدر استفهام حذفت أداته. والتقدير: ألعلك تارك. ويكون الاستفهام مستعملا في النفي للتحذير، وذلك نظير قوله تعالى: لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين [الشعراء: ٣] .
والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حدا يوجب توقع الأمر المستفهم عنه حتى أن المتكلم يستفهم عن حصوله. وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همة المخاطب وإلهاب همته لدفع الفتور عنه، فليس في هذا تجويز ترك النبيء صلى الله عليه وسلم تبليغ بعض ما يوحى إليه، وذلك البعض هو ما فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها [الأعراف: ٢٠٣] .
والمعنى تحذيره من التأثر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب، فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه.
وضائق: اسم فاعل من ضاق. وإنما عدل عن أن يقال (ضيق) هنا إلى ضائق لمراعاة النظير مع قوله: (تارك) لأن ذلك أحسن فصاحة. ولأن ضائق لا دلالة فيه على تمكن وصف الضيق من صدره بخلاف ضيق، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف، إيماء إلى أن أقصى ما يتوهم توقعه في جانبه صلى الله عليه وسلم هو ضيق قليل يعرض له.
والضيق مستعمل مجازا في الغم والأسف، كما استعمل ضده وهو الانشراح في الفرح والمسرة.". (١)

٨٧٣. ٨٢-"والمراد ب شاهد منه شاهد من ربه، أي شاهد من الله وهو القرآن لأنه لإعجازه
المعاندين عن الإتيان بعشر سور مثله كان حجة على أنه آت من جانب الله.

---
(١) التحرير والتنوير ١٦/١٢

ومن ابتدائية. وضمير منه عائد إلى ربه. ويجوز أن يعود إلى شاهد أي شاهد على صدقه كائن في ذاته وهو إعجازه إياهم عن الإتيان بمثله.

ومن قبله حال من كتاب موسى. وكتاب موسى عطف على شاهد منه والمراد تلوه في الاستدلال بطريق الارتقاء فإن النصارى يهتدون بالإنجيل ثم يستظهرون على ما في الإنجيل بالتوراة لأنها أصله وفيها بيانه، ولذلك لما عطف كتاب موسى على شاهد الذي هو معمول يتلوه قيد كتاب موسى بأنه من قبله، أي ويتلوه شاهد منه. ويتلوه كتاب موسى حالة كونه من قبل الشاهد أي سابقا عليه في النزول. وإذا كان المراد ب فمن كان على بينة من ربه النصارى خاصة كان لذكر كتاب موسى **إيماء** إلى أن كتاب موسى- عليه السلام- شاهد على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ولم يذكر أهل ذلك الكتاب وهم اليهود لأنهم لم يكونوا على بينة من ربهم كاملة من جهة عدم تصديقهم بعيسى- عليه السلام-.

وإماما ورحمة حالان ثناء على التوراة بما فيها من تفصيل الشريعة فهو إمام يهتدى به ورحمة للناس يعملون بأحكامها فيرحمهم الله في الدنيا بإقامة العدل وفي الآخرة بجزاء الاستقامة إذ الإمام ما يؤتم به ويعمل على مثاله.

والإشارة ب أولئك إلى فمن كان على بينة من ربه، أي أولئك الذين كانوا على بينة من ربهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين، وذلك في معنى قوله تعالى: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين [الأنعام: ٨٩] .

وإقحام أولئك هنا يشبه إقحام ضمير الفصل، وفيه تنبيه على أن ما بعده من الخبر مسبب على ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف وهي كونهم على بينة من ربهم معضدة بشواهد من الإنجيل والتوراة.". (١)

٨٧٤. ٨٣-"الإشارة من الوصف، وهذا أشد الظلم كما تقدم في أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده علم أن عرضهم على ربهم عرض زجر وانتقام.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٨

والعرض إذا عدي بحرف (على) أفاد معنى الإحضار بإراءة.
واختيار وصف السبب **للإيماء** إلى القدرة عليهم.
وعطف فعل (يقول) على فعل (يعرضون) الذي هو خبر، فهو عطف على جزء الجملة السابقة وهو هنا ابتداء عطف جملة على جملة فكلا الفعلين مقصود بالإخبار عن اسم الإشارة.
والمعنى أولئك يعرضون على الله للعقاب ويعلن الأشهاد بأنهم كذبوا على ربهم فضحا لهم.
والأشهاد: جمع شاهد بمعنى حاضر، أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحق. وهؤلاء الأشهاد من الملائكة.
واستحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للناس كلهم حتى يشتهر ما سيخبر به عن حالهم، والمقصود من ذلك شهرتهم بالسوء وافتضاحهم.
والإتيان بالموصول في الخبر عنهم **إيماء** إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم وهو ألا لعنة الله على الظالمين، على أن المقصود تشهيرهم دون الشهادة. والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم في قوله: أولئك يعرضون على ربهم.
وجملة ألا لعنة الله على الظالمين من بقية قول الأشهاد. وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير، والخبر مستعمل في الدعاء خزيا وتحقيرا". (١)

٨٧٥. ٨٤-"الإنسان فيطلق كما يطلق الإنسان على الواحد والأكثر، والمؤنث والمذكر. وقد يثنى كما في قوله تعالى: أنؤمن لبشرين مثلنا [المؤمنون: ٤٧] .
وقالوا: وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا فجعلوا أتباع الناس المعدودين في عادتهم أراذل محقورين دليلا على أنه لا ميزة له على سادتهم الذين يلوذ بهم أشراف القوم وأقوياؤهم. فنفوا عنه سبب السيادة من جهتي ذاته وأتباعه، وذلك تعريض بأنهم لا يتبعونه لأنهم يترفعون عن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/١٢

مخالطة أمثالهم وأنه لو أبعدهم عنه لاتبعوه، ولذلك ورد بعده وما أنا بطارد الذين آمنوا [هود: ٢٩] الآية.

والأرذال: جمع أرذل المجعول اسما غير صفة كذلك على القياس، أو جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل: المحتقر. وأرادوا أنهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء. وإضافة (أراذل) إلى ضمير جماعة المتكلمين لتعيين القبيلة، أي أراذل قومنا. وعبر عنهم بالموصول والصلة دون أن يقال: إلا أراذلنا لحكاية أن في كلام الذين كفروا **إيماء** إلى شهرة أتباع نوح- عليه السلام- بين قومهم بوصف الرذالة والحقارة، وكان أتباع نوح- عليه السلام- من ضعفاء القوم ولكنهم من أزكياء النفوس ممن سبق لهم الهدى.

وبادي قرأه الجمهور- بياء تحتية في آخره- على أنه مشتق من بدا المقصور إذا ظهر، وألفه منقلبة عن الواو لما تحركت وانفتح ما قبلها، فلما صيغ منه وزن فاعل وقعت الواو متطرفة إثر كسرة فقلبت ياء. والمعنى فيما يبدو لهم من الرأي دون بحث عن خفاياه ودقائقه.

وقرأه أبو عمرو وحده- بهمزة في آخره- على أنه مشتق من البداء، وهو أول الشيء.

والمعنى: فيما يقع أول الرأي، أي دون إعادة النظر لمعرفة الحق من التمويه، ومآل المعنيين واحد.

والرأي: نظر العقل، مشتق من فعل رأى، كما استعمل رأى بمعنى ظن وعلم.". (١)

٨٧٦. ٨٥-"واختيار وصف الرب دون اسم الجلالة للدلالة على أن إعطاءه البينة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به.

ومعنى فعميت فخفيت، وهو استعارة، إذ شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون كالعمياء في أنها لم تصل إلى عقولهم كما أن الأعمى لا يهتدي للوصول إلى مقصده فلا يصل إليه.

ولما ضمن معنى: الخفاء عدي فعل (عميت) بحرف (على) تجريدا للاستعارة. وفي ضد هذه الاستعارة جاء قوله تعالى: وآتينا ثمود الناقة مبصرة [الإسراء:

٥٩] ، أي آتيناهم آية واضحة لا يستطاع جحدها لأنها آية محسوسة، ولذلك سمي جحدهم إياها ظلما فقال: فظلموا بها [الإسراء: ٥٩] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٤٨

ومن بديع هذه الاستعارة هنا أن فيها طباقا لمقابلة قولهم في مجادلتهم ما نراك إلا بشرا- وما نراك اتبعك- وما نرى لكم علينا من فضل [هود: ٢٧] . فقابل نوح- عليه السلام- كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى.

وعطف (عميت) بفاء التعقيب **إيماء** إلى عدم الفترة بين إيتائه البينة والرحمة وبين خفائها عليهم. وهو تعريض لهم بأنهم بادروا بالإنكار قبل التأمل.

وجملة أنلزمكموها سادة مسد مفعولي أرأيتم لأن الفعل علق عن العمل بدخول همزة الاستفهام.

وجواب الشرط محذوف دل عليه فعل أرأيتم وما سد مسد مفعوليه. وتقدير الكلام: قال يا قوم إن كنت على بينة من ربي إلى آخره أترون أنلزمكم قبول البينة وأنتم لها كارهون.

وجيء بضمير المتكلم المشارك هنا للإشارة إلى أن الإلزام لو فرض وقوعه لكان له أعوان عليه وهم أتباعه فأراد أن لا يهمل ذكر أتباعه وأنهم أنصار له لو شاء أن يهيب بهم. والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين إياهم.". (١)

٨٧٧. ٨٦-"ويجوز أن تجعل كاف التشبيه مفيدة معنى التعليل كالتي في قوله تعالى: واذكروه كما هداكم [البقرة: ١٩٨] فيفيد التفاوت بين السخريتين، لأن السخرية المعللة أحق من الأخرى، فالكفار سخروا من نوح- عليه السلام- لعمل يجهلون غايته، ونوح- عليه السلام- وأتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور، كما دل عليه قوله: فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه فهو تفريع على جملة فإنا نسخر منكم أي سيظهر من هو الأحق بأن يسخر منه.

وفي إسناد (العلم) إلى ضمير المخاطبين دون الضمير المشارك بأن يقال: فسوف نعلم، **إيماء** إلى أن المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك. وهذا يفيد أدبا شريفا بأن الواثق بأنه على الحق لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية، وأن عليه وعلى أتباعه أن يسخروا من الساخرين.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٢

والخزي: الإهانة، وقد تقدم عند قوله تعالى: ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته في آخر سورة آل عمران [١٩٢] .

والعذاب المقيم: عذاب الآخرة، أي من يأتيه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الخالد في الآخرة.

ومن استفهامية معلقة لفعل العلم عن العمل، وحلول العذاب: حصوله شبه الحصول بحلول القادم إلى المكان وهو إطلاق شائع حتى ساوى الحقيقة.

[٤٠]

[سورة هود (١١) : آية ٤٠]

حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل (٤٠)

حتى غاية ل يصنع الفلك [هود: ٣٨] أي يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا، ف إذا ظرف مضمن معنى الشرط ولذلك جيء له بجواب. وهو جملة قلنا احمل.". (١)

٨٧٨. ٨٧-"ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه، لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافا إلى نوح- عليه السلام- تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

وجملة فقال رب إن ابني من أهلي بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع كما لم يعطف البيان في قوله تعالى: إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إني وهن العظم مني [مريم: ٣، ٤] ، وخولف ذلك هنا. ووجه في «الكشاف» اقترانه بالفاء بأن فعل نادى مستعمل في إرادة النداء، أي مثل فعل (قمتم) في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم [المائدة: ٦] الآية، يريد أن ذلك إخراج للكلام على خلاف

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٦٩

مقتضى الظاهر فإن وجود الفاء في الجملة التي هي بيان للنداء قرينة على أن فعل نادى مستعار لمعنى إرادة النداء، أي أراد نداء ربه فأعقب إرادته بإصدار النداء، وهذا إشارة إلى أنه أراد النداء فتردد في الإقدام عليه لما علم من قوله تعالى: إلا من سبق عليه القول [هود: ٤٠] فلم يطل تردده لما غلبته الشفقة على ابنه فأقدم على نداء، ربه، ولذلك قدم الاعتذار بقوله: إن ابني من أهلي. فقوله: إن ابني من أهلي خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ولكنه اقتحمه لأن المسئول له من أهله فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر ب إن للاهتمام به.

وكذلك جملة وإن وعدك الحق خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنه يعلم أن وعد الله حق. والمراد بالوعد ما في قوله تعالى: إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون [المؤمنون: ٣٧] إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق". (١)

٨٧٩. ٨٨-"ونداء نوح- عليه السلام- للتنويه به بين الملأ.

والهبوط: النزول. وتقدم في قوله: اهبطوا مصرا في سورة البقرة [٦١] .

والمراد: النزول من السفينة لأنها كانت أعلى من الأرض.

والسلام: التحية، وهو مما يخاطب بها عند الوداع أيضا، يقولون: اذهب بسلام، ومنه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما وخطابه بالسلام حينئذ إيماء إلى أنه كان في ضيافة الله تعالى لأنه كان كافلا له النجاة، كما قال تعالى: وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا [القمر: ١٣، ١٤] .

وأصل السلام: السلامة، فاستعمل عند اللقاء إيذانا بتأمين المرء ملاقيه وأنه لا يضمر له سوءا، ثم شاع فصار قولا عند اللقاء للإكرام. وبذلك نهى النبيء صلى الله عليه وسلم الذين قالوا: السلام على الله، فقوله هنا: اهبط بسلام نظير قوله: ادخلوها بسلام آمنين [الحجر: ٤٦] فإن السلام ظاهر في التحية لتقييده ب (آمنين) . ولو كان السلام مرادا به السلامة لكان التقييد ب (آمنين) توكيدا وهو خلاف الأصل.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٨٤

ومنا تأكيد لتوجيه السلام إليه لأن (من) ابتدائية، فالمعنى: بسلام ناشىء من عندنا، كقوله: سلام قولا من رب رحيم [يس: ٥٨] . وذلك كثير في كلامهم. وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام فهو أشد مبالغة من الذي لا تذكر معه (من) .

والباء للمصاحبة، أي اهبط مصحوبا بسلام منا. ومصاحبة السلام الذي هو التحية مصاحبة مجازية.". (١)

٨٨٠. ٨٩-"عنهم **إيماء** إلى أن اختصاصهم بالكرامة لأجل كونهم ناشئين عن فئة مكرمة بمصاحبة نوح- عليه السلام-، فحصل تنويه نوح- عليه السلام- وصحبته ونسلهم بطريق إيجاز بديع.

وجملة وأمم سنمتعهم إلخ، عطف على جملة اهبط بسلام منا إلى آخرها، وهي استئناف بياني لأنها تبيين لما أفاده التنكير في قوله: وعلى أمم ممن معك من الاحتراز عن أمم آخرين. وهذه الواو تسمى استينافية وأصلها الواو العاطفة وبعضهم يرجعها إلى الواو الزائدة، ويجوز أن تكون الواو للتقسيم، والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا، والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنهم من ذرية نوح ولم يتبعوا سبيل جدهم، فأشعروا بأنهم من الأمم التي أنبأ الله نوحا بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم. ونظير هذا قوله تعالى: ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا [الإسراء: ٣] أي وكان المتحدث عنهم غير شاكرين للنعمة.

وإطلاق المس على الإصابة القوية تقدم عند قوله تعالى: وإن يمسسك الله بضر

فلا كاشف له إلا هو

في الأنعام [١٧] .

وذكر منا مع يمسهم لمقابلة قوله في ضده بسلام منا ليعلموا أن ما يصيب الأمة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشر هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتب المسببات العادية على أسبابها، إذ من حق الناس أن يتبصروا في الحوادث ويتوسموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم ويعلموا أن الله يخاطبهم بدلالة الكائنات

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٨٩

عند انقطاع خطابه إياهم على ألسنة الرسل، فإن الرسل يبينون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها. ومثاله ما هنا فقد بين لهم على لسان نوح- عليه السلام- أنه يمتع أمما ثم يمسهم عذاب أليم بما يصنعون.". (١)

٨٨١. ٩٠-"وعدي كفروا ربهم بدون حرف الجر لتضمينه معنى عصوا في مقابلة واتبعوا أمر كل جبار عنيد، أو لأن المراد تقدير مضاف، أي نعمة ربهم لأن مادة الكفر لا تتعدى إلى الذات وإنما تتعدى إلى أمر معنوي.

وجملة ألا بعدا لعاد ابتدائية لإنشاء ذم لهم. وتقدم الكلام على بعدا عند قوله في قصة نوح- عليه السلام- وقيل بعدا للقوم الظالمين [هود: ٤٤] .

وقوم هود بيان ل (عاد) أو وصف ل (عاد) باعتبار ما في لفظ قوم من معنى الوصفية.

وفائدة ذكره **الإيماء** إلى أن له أثرا في الذم بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضا بالمشركين من العرب، وليس ذكره للاحتراز عن عاد أخرى وهم إرم كما جوزه صاحب «الكشاف» لأنه لا يعرف في العرب عاد غير قوم هود وهم إرم، قال تعالى:

ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد [الفجر: ٦، ٧] .

[٦١]

[سورة هود (١١) : آية ٦١]

وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١)

قوله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحا- إلى قوله- غيره الكلام فيه كالذي في قوله: وإلى عاد أخاهم هودا [هود: ٥٠] إلخ.

وذكر ثمود وصالح- عليه السلام- تقدم في سورة الأعراف.

وثمود: اسم جد سميت به القبيلة، فلذلك منع من الصرف بتأويل القبيلة.

وجملة هو أنشأكم من الأرض في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهية غيره، وكأنهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٩١

كانوا مثل مشركي قريش لا يدعون لأصنامهم خلقا ولا رزقا، فلذلك كانت الحجة عليهم ناهضة واضحة.". (١)

٨٨٢. ٩١-"[٦٦- ٦٨]

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود (٦٨)

تقدم الكلام على نظائر بعض هذه الآية في قصة هود في سورة الأعراف.

ومتعلق نجينا محذوف.

وعطف ومن خزي يومئذ على متعلق نجينا المحذوف، أي نجينا صالحا- عليه السلام- ومن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيف به العذاب فإن العذاب يكون على كيفيات بعضها أخزى من بعض. فالمقصود من العطف عطف منة على منة لا عطف إنجاء على إنجاء، ولذلك عطف المتعلق ولم يعطف الفعل، كما عطف في قصة عاد نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ [هود: ٥٨] لأن ذلك إنجاء من عذاب مغاير للمعطوف عليه.

وتنوين يومئذ تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا.

والخزي: الذل، وهو ذل العذاب، وتقدم الكلام عليه قريبا.

وجملة إن ربك هو القوي العزيز معترضة.

وقد أكد الخبر بثلاث مؤكدات للاهتمام به. وعبر عن ثمود بالذين ظلموا **للإيماء** بالموصول إلى علة ترتب الحكم، أي لظلمهم وهو ظلم الشرك. وفيه تعريض بمشركي أهل مكة بالتحذير

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٠٧

من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنهم ظالمون أيضا.". (١)

٨٨٣. ٩٢-"والمراد أن يعبده دون غيره ويتوكل عليه دون غيره بقرينة وإليه يرجع الأمر كله، وبقرينة التفريع لأن الذي يرجع إليه كل أمر لا يعقل أن يصرف شيء من العبادة ولا من التوكل إلى غيره، فلذلك لم يؤت بصيغة تدل على تخصيصه بالعبادة للاستغناء عن ذلك بوجوب سبب تخصيصه بهما.

وجملة وما ربك بغافل عما تعملون فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدم. والواو فيه كالواو في قوله: ولله غيب السماوات والأرض فإن عدم غفلته عن أي عمل أنه يعطي كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولذلك علق وصف الغافل بالعمل ولم يعلق بالذوات نحو: بغافل عنكم، إيماء إلى أن على العمل جزاء.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب «عما تعملون» - بتاء فوقية- خطابا للنبيء صلى الله عليه وسلم والناس معه في الخطاب. وقرأ من عداهم بالمثناة التحتية على أن يعود الضمير إلى الكفار فهو تسلية للنبيء- عليه الصلاة والسلام- وتهديد للمشركين.". (٢)

٨٨٤. ٩٣-"وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

قال تعالى: لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين [سورة يوسف: ٧] .

وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف- عليهم السلام- على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

وفيها العبرة بهجرة قوم النبيء صلى الله عليه وسلم إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب- عليه السلام- وآله، وذلك إيماء إلى أن قريشا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعا لهجرة النبيء

(١) التحرير والتنوير ١٢/١١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٩٦

صلى الله عليه وسلم.
وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها. واسترقاق الصبي اللقيط. واسترقاق السارق، وأحوال المساجين. ومراقبة المكاييل.
وإن في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم.
وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و (اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه". (١)

٨٨٥. ٩٤-"القائل من إلقاء يوسف- عليه السلام- في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة لأنه يحصل به إبعاد يوسف- عليه السلام- عن أبيه إبعادا لا يرجى بعده تلاقيهما دون إلحاق ضر الإعدام بيوسف- عليه السلام- فإن التقاط السيارة إياه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده، لأنه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم أو باعوه فزاد بعدا على بعد.
والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع.
والسيارة: الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلاحة والبحارة.
والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأنهم علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة والميرة.
وجملة إن كنتم فاعلين شرط حذف جوابه لدلالة وألقوه، أي إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألقوه في غيابات الجب ولا تقتلوه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٩/١٢

وفيه تعريض بزيادة التريث فيما أضمروه لعلهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه، ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو إن **إيماء** إلى أنه لا ينبغي الجزم به، فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأيا وأقربهم إلى التقوى، وقد علموا أن السيارة يقصدون إلى جميع الجباب للاستقاء، لأنها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر. وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط.". (١)

٨٨٦. ٩٥-"عقبه بالاستدراك بقوله: ولكن أكثر الناس لا يعلمون استدراكا على ما يقتضيه
هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تجعل لأن عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره.
[٢٢]

[سورة يوسف (١٢) : آية ٢٢]
ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (٢٢)
هذا إخبار عن اصطفاء- يوسف- عليه السلام- للنبوءة. ذكر هنا في ذكر مبدأ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منة الله عليه بتمكينه في الأرض وتعليمه تأويل الأحاديث.
والأشد: القوة. وفسر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.
والحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضده. وأريد به هنا النبوءة كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان- عليهما السلام- وكلا آتينا حكما وعلما [سورة الأنبياء: ٧٩] . والمراد بالعلم علم زائد على النبوءة.
وتنكير علما للنوعية، أو للتعظيم. والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه: ذلكما مما علمني ربي [سورة يوسف: ٣٧] .
وقال فخر الدين: الحكم: الحكمة العملية لأنها حكم على هدى النفس. والعلم: الحكمة النظرية.

---
(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٢٦

والقول في وكذلك نجزي المحسنين كالقول في نظيره، وتقدم عند قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا في سورة البقرة [١٤٣] .

وفي ذكر المحسنين إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة.". (١)

٨٨٧. ٩٦-"وعبر عما عرضته المرأة بالموصولية لما في الصلة من الإيماء إلى كون المطلوب حالة هي مظنة الطواعية، لأن تمالئ الناس على طلب الشيء من شأنه أن يوطن نفس المطلوب للفعل، فأظهر أن تمالئهن على طلبهن منه امتثال أمر المرأة لم يفل من صارم عزمه على الممانعة، وجعل ذلك تمهيدا لسؤال العصمة من الوقوع في شرك كيدهن، فانتقل من ذكر الرضى بوعيدها إلى سؤال العصمة من كيدها.

وأسند فعل يدعونني إلى نون النسوة، فالواو الذي فيه هو حرف أصلي وليست واو الجماعة، والنون ليست نون رفع لأنه مبني لاتصاله بنون النسوة، ووزنه يفعلن. وأسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أن التي دعته امرأة واحدة، إما لأن تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في كيدهن، وإما لأن النسوة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف- عليه السلام- وتحريضه على إجابة الداعية، وتحذيره من وعيدها بالسجن. وعلى وزان هذا يكون القول في جمع الضمير في كيدهن [سورة يوسف: ٢٨] أي كيد صنف النساء، مثل قول العزيز إن كيدكن عظيم، أي كيد هؤلاء النسوة.

وجملة وإلا تصرف عني كيدهن خبر مستعمل في التخوف والتوقع التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول والقوة والخشية من تقلب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرع عنه جملة فاستجاب له ربه.

ومعنى أصب أمل. والصبو: الميل إلى المحبوب.

والجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم. والقول في أن مبالغة أكن من الجاهلين أكثر من أكن جاهلا كالقول في وليكونا من الصاغرين [سورة يوسف:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/١٢

٣٢] .". (١)

٨٨٨. ٩٧-"أو رصدوا الأعين إليهم، فيكون ذلك ضرا لهم وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف- عليه السلام- ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» .

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن (بنيامين) يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة.

والمتفرقة أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة **الإيماء** إلى علة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

وجملة وما أغني عنكم من الله من شيء معترضة في آخر الكلام، أي وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئا. ومن الله متعلق ب أغني، أي لا يكون ما أمرتكم به مغنيا غناء مبتدئا من عند الله بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط.

وتقدم وجه تركيب وما أغني عنكم من الله من شيء عند قوله تعالى: ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا في سورة العقود [٤١] .

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليه

قول النبيء صلى الله عليه وسلم «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»

،

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٦٦

وفي الأثر «إذا أراد الله أمرا يسر أسبابه»". (١)

٨٨٩. ٩٨-"وقوله: إن في ذلك لآيات الإشارة إلى ما تقدم من قوله: الله الذي رفع السماوات [الرعد: ٢] إلى هنا بتأويل المذكور.

وجعل الأشياء المذكورات ظروفا لآيات لأن كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أن التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقومات قوميتهم، أي جبلتهم كما بيناه في دلالة لفظ قوم على ذلك عند قوله تعالى: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] .

وفي هذا إيماء إلى أن الذين نسبوا أنفسهم إلى التفكير من الطبائعيين فعللوا صدور الموجودات عن المادة ونفوا الفاعل المختار ما فكروا إلا تفكيرا قاصرا مخلوطا بالأوهام ليس ما تقتضيه جبلة العقل إذ اشتبهت عليهم العلل والمواليد، بأصل الخلق والإيجاد.

وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر.

والتفكير تقدم عند قوله تعالى: أفلا تتفكرون في سورة الأنعام [٥٠] .

[٤]

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤]

وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٤)

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٣

(٢) التحرير والتنوير ٨٥/١٣

٨٩٠.   ٩٩-"والتفضيل: منة بالأفضل وعبرة به وبضده وكناية عن الاختلاف.

وقرأ الجمهور تسقى بفوقية اعتبارا بجمع جنات، وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب يسقى بتحتية على تأويل المذكور.

وقرأ الجمهور ونفضل بنون العظمة، وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ويفضل بتحتية. والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: الله الذي رفع السماوات بغير عمد. وتأنيث بعضها عند من قرأ يسقى بتحتية دون أن يقول بعضه لأنه أريد يفضل بعض الجنات على بعض في الثمرة.

والأكل: بضم الهمزة وسكون الكاف هو المأكول. ويجوز في اللغة ضم الكاف.

وظرفية التفضيل في الأكل ظرفية في معنى الملابسة لأن التفاضل يظهر بالمأكول، أي نفضل بعض الجنات على بعض أو بعض الأعناب والزرع والنخيل على بعض من جنسه بما يثمره.

والمعنى أن اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحدا والغذاء بالماء واحدا ما هو إلا لقوى خفية أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة.

ومن ثم جاءت جملة إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون مجيء التذييل.

وأشار قوله: ذلك إلى جميع المذكور من قوله: وهو الذي مد الأرض [سورة الرعد: ٣] .

وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات. وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدل على ذلك.

ووصفت الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون تعريضا بأن من لم تقنعهم تلك الآيات منزلون منزلة من لا يعقل وزيد في الدلالة على أن العقل سجية للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة لقوم إيماء إلى أن العقل من مقومات قوميتهم كما بيناه في الآية قبلها.". (١)

٨٩١.   ١٠٠-"لما فيه من خفي البشارة والنذارة، ولأنه تمام التمثيل. والتقدير: فذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض.

والجفاء: الطريح المرمي، وهذا وعيد للمشركين بأنهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٨٨

وعبر عن الماء بما ينفع الناس **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض تعريضا للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنهم ليسوا ما ينفع الناس، وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى: أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [سورة الأنبياء: ١٠٥] .

واكتفي بذكر وجه شبه النافع بالماء وغير النافع بالزبد عن ذكر وجه شبه النافع بالذهب أو الفضة وغير النافع بزبدهما استغناء عنه.

وجملة كذلك يضرب الله الأمثال مستأنفة تذييلية لما في لفظ الأمثال من العموم. فهو أعم من جملة كذلك يضرب الله الحق والباطل لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه فلما أعقب بمثل آخر وهو فأما الزبد فيذهب جفاء جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال. وحصل أيضا توكيد جملة كذلك يضرب الله الحق والباطل لأن العام يندرج فيه الخاص.

فإشارة كذلك إلى التمثيل السابق في جملة أنزل من السماء ماء أي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال، وهو المقصود بهذا التذييل.

والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحد للمشركين، وليعلم أن جملة فأما الزبد فيذهب جفاء لم يؤت بها لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع بل ولضرب المثل، فيعلم لممثل له بطريق التعريض بالمشركين". (١)

٨٩٢. ١٠١-"والمؤمنين، فيكون الكلام قد تم عند قوله: كذلك يضرب الله الأمثال كما في شأن التذييل.

[١٨]

[سورة الرعد (١٣) : آية ١٨]

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٣

للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد (١٨)

استئناف بياني لجملة كذلك يضرب الله الأمثال، أي فائدة هذه الأمثال أن للذين استجابوا لربهم حين يضربها لهم الحسنى إلى آخره.

فمناسبته لما تقدم من التمثيلين أنهما عائدان إلى أحوال المسلمين والمشركين. ففي ذكر هذه الجملة زيادة تنبيه للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين لأن المؤمنين استجابوا لله بما عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأما المشركون فأعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، قال تعالى: وما يعقلها إلا العالمون [سورة العنكبوت: ٤٣] ، فكان جزاؤهم عذابا عظيما وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم. فمعنى استجابوا لربهم استجابوا لدعوته بما تضمنه المثل السابق وغيره.

وقوله: الحسنى مبتدأ وللذين استجابوا خبره. وفي العدول إلى الموصولين وصلتيهما في قوله: للذين استجابوا- والذين لم يستجيبوا **إيماء** إلى أن الصلتين سببان لما حصل للفريقين.

وتقديم المسند في قوله: للذين استجابوا لربهم الحسنى لأنه الأهم لأن الغرض التنويه بشأن الذين استجابوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضا.". (١)

٨٩٣. ١٠٢-"الأعمال، لأن بذل المال يشق على النفوس فكان له من الأهمية ما جعله ثانيا للصلاة.

ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله: ويدرؤن بالحسنة السيئة لاقتضاء المقام إفادة التجدد **إيماء** إلى أن تجدد هذا الدرء ما يحرص عليه لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدعوا السيئات بالحسنات.

والقول في عطف والذين صبروا وفي إعادة اسم الموصول كالقول في والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل.

والصبر: من المحامد. وتقدم في قوله تعالى: واستعينوا بالصبر في سورة البقرة [٤٥] . والمراد

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/١٣

الصبر على مشاق أفعال الخير ونصر الدين.

وابتغاء وجه ربهم مفعول لأجله ل صبروا. والابتغاء: الطلب. ومعنى ابتغاء وجه الله ابتغاء رضاه كأنه فعل فعلا يطلب به إقباله عند لقائه، وتقدم في قوله تعالى: وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله في آخر سورة البقرة [٢٧٢] .

والمعنى أنهم صبروا لأجل أن الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء ليقال ما أصبره على الشدائد ولاتقاء شماتة الأعداء.

والسر والعلانية تقدم وجه ذكرهما في قوله تعالى: الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية أواخر سورة البقرة [٢٧٤] .

والدرء: الدفع والطرد. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يعد ما يمنع حصوله، فيصدق ذلك بأن يتبع السيئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة.

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها» . وخاصة فيما بينه وبين ربه.". (١)

٨٩٤. ١٠٣-"ولذلك أردفت الجملة بقوله: لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك.

والأمة: هي أمة الدعوة فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

وتقدم معنى قد خلت من قبلها أمم في سورة آل عمران عند قوله: قد خلت من قبلكم سنن [سورة آل عمران: ١٣٧] . ويتضمن قوله: قد خلت من قبلها أمم التعريض بالوعيد بمثل مصير الأمم الخالية التي كذبت رسلها.

وتضمن لام التعليل في قوله: لتتلوا عليهم أن الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات.

والتلاوة: القراءة. فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن، كقوله: وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه [سورة النمل: ٩٢] الآية.

وفيه **إيماء** إلى أن القرآن هو معجزته لأنه ذكره في مقابلة إرسال الرسل الأولين ومقابلة قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٩/١٣

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه [سورة الرعد: ٧] . وقد جاء ذلك صريحا في قوله: أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم [سورة العنكبوت: ٥١] .
وقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي»
. وجملة وهم يكفرون بالرحمن عطف على جملة كذلك أرسلناك، أي أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر لم تدخل الهداية قلوبهم، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى أمة لأن الأمة منها مؤمنون.
والتعبير بالمضارع في يكفرون للدلالة على تجدد ذلك واستمراره. ومعنى كفرهم بالله إشراكهم معه غيره في الإلهية، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به.". (١)

٨٩٥. ١٠٤-"كانوا قد سروا بنزول القرآن مصدقا للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم مقصورة على العرب فكان اليهود يستظهرون بالقرآن على المشركين، قال تعالى: وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا [سورة البقرة: ٨٩] . وكان النصارى يستظهرون به على اليهود وفريق لم يثبت لهم الفرح بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكة وما كفر الفريقان به إلا حين علموا أن دعوة الإسلام عامة.
وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم ب يفرحون دون يؤمنون. وإنما سلكنا هذا الوجه بناء على أن هذه السورة مكية كان نزولها قبل أن يسلم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن، فإن كانت السورة مدينة أو كان هذا من المدني فلا إشكال. فالمراد بالذين آتيناهم الكتاب الذين أوتوه إيتاء كاملا، وهو المجرد عن العصبية لما كانوا عليه وعن الحسد، فهو كقوله تعالى: الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به [سورة البقرة: ١٢١] .
فالأظهر أن المراد بالأحزاب أحزاب الذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: فاختلف الأحزاب من بينهم في سورة مريم [٣٧] ، أي ومن أحزابهم من ينكر بعض القرآن، فاللام عوض عن المضاف إليه. ولعل هؤلاء هم خبثاؤهم ودهاتهم الذين توسموا أن القرآن يبطل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٤٠

شرائعهم فأنكروا بعضه، وهو ما فيه من الإيماء إلى ذلك من إبطال أصول عقائدهم مثل عبودية عيسى- عليه السلام- بالنسبة للنصارى، ونبوءته بالنسبة لليهود.

وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أن هؤلاء هم المتحزبون المتصلبون لقومهم ولما كانوا عليه. وهكذا كانت حالة اضطراب أهل الكتاب عند ما دمغتهم بعثة النبيء صلى الله عليه وسلم وأخذ أمر الإسلام يفشو.". (١)

٨٩٦. ١٠٥-"ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ويعقوب ويثبت- بسكون المثلثة وتخفيف الموحدة-.

[٤٠]

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤٠]

وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤٠)

عطف على جملة يمحوا الله ما يشاء ويثبت [الرعد: ٣٩] باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبينت هذه الجملة أن النبيء صلى الله عليه وسلم ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقبه وإنما هو مبلغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبيء صلى الله عليه وسلم ذلك أم لم يشهده.

وجعل التوفي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله: نرينك.

والمعنى: ما عليك إلا البلاغ سواء رأيت عذابهم أم لم تره.

وفي الإتيان بكلمة بعض إيماء إلى أنه يرى البعض. وفي هذا إنذار لهم بأن الوعيد نازل بهم ولو تأخر وأن هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه الذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعا مستمرا بعده، ضرورة أن الوسيلة لا تكون من الأهمية بأشد من المقصد المقصودة لأجله.

وتأكيد الشرط بنون التوكيد وما المزيدة بعد إن الشرطية مراد منه تأكيد الربط

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/١٣

بين هذا الشرط وجوابه وهو فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. على أن نون التوكيد لا يقترن بها فعل الشرط إلا إذا زيدت ما بعد إن الشرطية فتكون إرادة التأكيد مقتضية لاجتلاب مؤكدين، فلا يكون ذلك إلا لغرض تأكيد قوي.". (١)

٨٩٧. ١٠٦-"وقد أرى الله نبيئه بعض ما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبيء صلى الله عليه وسلم ولم يره بعضه مثل عذاب أهل الردة فإن معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل: مسيلمة الكذاب.

وفي الآية **إيماء** إلى أن العذاب الذي يحل بالمكذبين لرسوله صلى الله عليه وسلم عذاب قاصر على المكذبين لا يصيب غير المكذب لأنه استئصال بالسيف قابل للتجزئة واختلاف الأزمان رحمة من الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وعلى في قوله: عليك البلاغ وعلينا الحساب مستعملة في الإيجاب والإلزام، وهو في الأول حقيقة وفي الثاني مجاز في الوجوب لله بالتزامه به.

وإنما للحصر، والمحصور فيه هو البلاغ لأنه المتأخر في الذكر من الجملة المدخولة لحرف الحصر، والتقدير: عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب، ولهذا قدم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه.

وجملة وعلينا الحساب عطف على جملة عليك البلاغ فهي مدخولة في المعنى لحرف الحصر.

والتقدير: وإنما علينا الحساب، أي محاسبتهم على التكذيب لا غير الحساب من إجابة مقترحاتهم.

[٤١]

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤١]

أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (٤١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٦٩

عطف على جملة وإما نرينك بعض الذي نعدهم [الرعد: ٤٠] المتعلقة بجملة لكل أجل كتاب. عقبت بهذه الجملة لإنذار المكذبين بأن ملامح نصر النبيء صلى الله عليه وسلم قد لاحت وتباشير ظفره قد طلعت ليتدبروا في". (١)

٨٩٨. ١٠٧-"واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه، وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة. والامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله تعالى الذي أنزله ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه.
وإيقاظ المعاندين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان بدعا من الرسل. وأن كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل.
وضرب له مثلا برسالة موسى- عليه السلام- إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب.
وكيف كانت عاقبة المكذبين.
وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته وذكر البعث وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك **والإيماء** إلى مقابلته بحال المؤمنين.
وعد بعض نعمه على الناس تفضيلا ثم جمعها إجمالا.". (٢)

٨٩٩. ١٠٨-"والقوم: الأمة والجماعة، فقوم كل أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة، وقوم كل رسول أمته المبعوث إليهم، إذ كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم العرب، وأما أمته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم الناس كافة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٧٠

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٧٨

وإنما كان المخاطب أولا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذر نزوله بلغات الأمم كلها، فاختار الله أن يكون رسوله- عليه الصلاة والسلام- من أمة هي أفصح الأمم لسانا، وأسرعهم أفهاما، وألمعهم ذكاء، وأحسنهم استعدادا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من الرسل في حياته عدد من الناس مثل الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في حياته فقد عم الإسلام بلاد العرب وقد حج مع النبيء صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع نحو خمسين ألفا أو أكثر. وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون.

واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب، لأنها أصلح اللغات جمع معان، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع، وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادىء ذي بدء، وعهد إليها نشره بين الأمم.

وفي التعليل بقوله: ليبين لهم **إيماء** إلى هذا المعنى، لأنه لما كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها، قال تعالى: نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين [سورة الشعراء: ١٩٥] . فهذا كله من مطاوي هذه الآية.

ولكن لما كان المقصود من سياقها الرد على طعنهم في القرآن بأنه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتصر في رد خطئهم على أنه إنما كان كذلك ليبين لهم لأن ذلك هو الذي يهمهم.". (١)

٩٠٠. ١٠٩-"سوء العذاب. فكان مضمون جملة ويذبحون هنا مقصودا بالعد كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماما بشأنه، فعطفه من عطف الخاص على العام. وعلى كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر، فالقرآن حكى مراد كلام موسى- عليه السلام- من ذكر العذاب الأعم وذكر الأخص للاهتمام به، وهو حاصل على كلا النظمين. وإنما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفننا في إعادة القصة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبينا.

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٨٧

وأما عطف جملة ويستحيون نساءكم في الآيات الثلاث فلأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب، لأن استحياء النساء في ذاته نعمة ولكنه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء، إذ يعلم أن مقصودهم من استحياء النساء استرقاقهن وإهانتهن فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهن. ولذلك سمي جميع ذلك بلاء.

وأصل البلاء: الاختبار. والبلاء هنا المصيبة بالشر، سمي باسم الاختبار لأنه اختبار لمقدار الصبر، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل. وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلا على المكروه. وما ورد منه مستعملا في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل كقوله: ونبلوكم بالشر والخير فتنة [سورة الأنبياء: ٣٥] ، وقوله: ونبلوا أخباركم [سورة محمد: ٣١] .

وتقدم في نظيرها من سورة البقرة.

وجعل هذا الضر الذي لحقهم واردا من جانب الله لأن تخليه آل فرعون لفعل ذلك وعدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحق الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب- عليهم السلام- واتباعهم دين القبط وعبادة آلهتهم.

واختيار وصف الرب هنا **للإيماء** إلى أنه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين كقوله: وإن عدتم عدنا [سورة الإسراء: ٨] .". (١)

٩٠١. ١١٠-"الذين كفروا رسلهم تكذيبا قاطعا وتوقع الرسل أذاة قومهم إياهم شأن القاطع بكذب من زعم أنه مرسل من الله، ولأنهم قد بدأوهم بالأذى كما دل عليه قولهم: ولنصبرن على ما آذيتمونا. أظهر الرسل لقومهم أنهم غير غافلين عن ذلك وأنهم يتلقون ما عسى أن يواجههم به المكذبون من أذى بتوكلهم على الله هم ومن آمن معهم فابتدأوا بأن أمروا المؤمنين بالتوكل تذكيرا لهم لئلا يتعرض إيمانهم إلى زعزعة الشك حرصا على ثبات المؤمنين،

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم لعمر- رضي الله عنه-: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب»

. وفي ذلك الأمر إيذان بأنهم لا يعبأون بما يضمره لهم الكافرون من الأذى، كقول السحرة

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/١٣

لفرعون حين آمنوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون [سورة الشعراء: ٥٠] .

وتقديم المجرور في قوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون مؤذن بالحصر وأنهم لا يرجون نصرا من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم. وفيه **إيماء** إلى أنهم واثقون بنصر الله.

والجملة معطوفة بالواو عطف الإنشاء على الخبر.

والفاء في قوله: فليتوكل المؤمنون رابطة لجملة (ليتوكل المؤمنون) بما أفاده

تقديم المجرور من معنى الشرط الذي يدل عليه المقام. والتقدير: إن عجبتم من قلة اكتراثنا بتكذيبكم أيها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المكذبين أيها المؤمنون فليتوكل المؤمنون على الله فإنهم لن يضيرهم عدوهم. وهذا كقوله تعالى: وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين كما تقدم في سورة العقود [٢٣] .

والتوكل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنه أعلم بما يصلح، فالتوكل على الله تحقق أنه أعلم بما ينفع أولياءه من خير الدنيا والآخرة. وقد تقدم الكلام على التوكل عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [٥٩] .

وجملة وما لنا ألا نتوكل على الله استدلال على صدق رأيهم في تفويض". (١)

٩٠٢. ١١١-"من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، قال في حجة الوداع «منزلنا إن شاء الله غدا بالخيف خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»

. وعلى تقدير أن يكون المراد ب الذين كفروا في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتصافهم بالكفر حتى صار الخصلة التي يعرفون بها. وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهر الجمع فيكون هذا التوعد سنة الأمم ويكون **الإيماء** إليهم به سنة الله مع رسله.

وتأكيد توعدهم بالإخراج بلام القسم ونون التوكيد ضراوة في الشر.

و (أو) لأحد الشيئين، أقسموا على حصول أحد الأمرين لا محالة، أحدهما من فعل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٣

المقسمين، والآخر من فعل من خوطب بالقسم، وليست هي أو التي بمعنى إلى أو بمعنى إلا.
والعود: الرجوع إلى شيء بعد مفارقته. ولم يكن أحد من الرسل متبعا ملة الكفر بل كانوا منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم، فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم، وكان الرسل يتجنبون مجتمعاتهم بدون أن يشعروا بمجانبتهم، فلما جاءوهم بالحق ظنوهم قد انتقلوا من موافقتهم إلى مخالفتهم فطلبوا منهم أن يعودوا إلى ما كانوا يحسبونهم عليه.
والظرفية في قوله: في ملتنا مجازية مستعملة في التمكن من التلبس بالشيء المتروك فكأنه عاد إليه.
والملة: الدين. وقد تقدم عند قوله تعالى: دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا في آخر سورة الأنعام [١٦١] ، وانظر قوله: فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا في أوائل سورة آل عمران". (١)

٩٠٣. ١١٢-"وتفريع جملة فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين على قول الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا [سورة إبراهيم: ١٣] الخ تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض، أي أوحى الله إلى الرسل ما يثبت به قلوبهم، وهو الوعد بإهلاك الظالمين.
وجملة لنهلكن الظالمين بيان لجملة (أوحى..) .
وإسكان الأرض: التمكين منها وتخويلها إياهم، كقوله: وأورثكم أرضهم وديارهم [سورة الأحزاب: ٢٧] .
والخطاب في لنسكننكم للرسل والذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكن الله لرسوله مكة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها.
ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (١٤) .
ذلك إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من لنهلكن، ولنسكننكم. عاد إليهما اسم الإشارة بالإفراد بتأويل المذكور، كقوله: ومن يفعل ذلك يلق أثاما [سورة الفرقان: ٦٨] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٦/١٣

واللام للملك، أي ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي، كقوله تعالى: ذلك لمن خشي ربه [سورة البينة: ٨] .

والمعنى: ذلك الوعد لمن خاف مقامي، أي ذلك لكم لأنكم خفتم مقامي، فعدل عن ضمير الخطاب إلى لمن خاف مقامي لدلالة الموصول على **الإيماء** إلى أن الصلة علة في حصول تلك العطية.". (١)

٩٠٤. ١١٣-"والخطاب في يذهبكم لجماعة من جملتهم المخاطب ب ألم تر. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة، تأكيدا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله: لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم، أي إن شاء أعدم الناس كلهم وخلق ناسا آخرين.

وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجا للتعليم بالوعيد وإظهارا لعظيم القدرة. وفيه **إيماء** إلى أنه يذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض.

وجملة وما ذلك على الله بعزيز عطف على جملة إن يشأ يذهبكم مؤكد لمضمونها، وإنما سلك بهذا التأكيد ملك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكد في الجملة بأنه يفيد أن هذا المشيء سهل عليه هين، كقوله: وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه [سورة الروم: ٢٧]

.

والعزيز على أحد: المتعاصي عليه الممتنع بقوته وأنصاره.

[٢١]

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢١]

وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١)

عطف على جملة إن يشأ يذهبكم [إبراهيم: ٢٠] باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب، وفي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٧/١٣

الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعا، أي يوم القيامة.
وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ويبرزون لله، فعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع، مثل قوله تعالى: أتى أمر الله [سورة النحل:
١] ." . (١)

٩٠٥. ١١٤-"ومن عصاه، وذكر أنه أراد من إسكان أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يشكروا النعم المسئولة لهم. وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية إليه.
وجملة وما يخفى على الله من شيء تذييل لجملة إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، أي تعلم أحوالنا وتعلم كل شيء. ولكونها تذييلا أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع.
[٣٩]

[سورة إبراهيم (١٤) : آية ٣٩]
الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء (٣٩)
لما دعا الله لأهم ما يهمه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته وأن ذلك ليس بعجب في أمر الله خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدين في إبان
الكبر وحين اليأس من الولادة فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء، أي مجيب، أي متصف بالإجابة وصفا ذاتيا، تمهيدا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوته سلفا. فهذا مناسبة موقع هذه الجملة بعد ما قبلها بقرينة قوله: إن ربي لسميع الدعاء.
واسم الموصول إيماء إلى وجه بناء الحمد. وعلى في قوله: على الكبر للاستعلاء المجازي بمعنى مع، أي وهب ذلك تعليا على الحالة التي شأنها أن لا تسمح بذلك. ولذلك يفسرون على هذه بمعنى مع، أي مع الكبر الذي لا تحصل معه الولادة. وكان عمر إبراهيم حين ولد له إسماعيل- عليهما السلام- ستا وثمانين سنة (٨٦) . وعمره حين ولد له إسحاق- عليهما

(١) التحرير والتنوير ٢١٥/١٣

السلام- مائة سنة (١٠٠) . وكان لا يولد له من قبل.
وجملة إن ربي لسميع الدعاء تعليل لجملة وهب، أي وهب ذلك لأنه سميع الدعاء. والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ". (١)

٩٠٦. ١١٥-"وإنما ذكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها كما أومأ إلى ذلك قوله: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.
والتسوية: تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح.
والنفخ: حقيقته إخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين كالصفير، واستعير هنا لوضع قوة لطيفة السريان قوية التأثير دفعة واحدة، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ.
وتقريب نفخ الروح في الحي أنه تكون القوة البخارية أو الكهربائية المنبعثة من القلب عند انتهاء استواء المزاج وتركيب أجزاء المزاج تكونا سريعا دفعيا وجريان آثار تلك القوة في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن في تجاويف جميع أعضائه الرئيسة وغيرها.
وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق. وفيه **إيماء** إلى أن حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلا بتفاضل آثارها وأعمالها، وأن كراهة الذات أو الرائحة إلى حالة يكرهها بعض الناس أو كلهم إنما هو تابع لما يلائم الإدراك الحسي أو ينافره تبعا لطباع الأمزجة أو لإلف العادة ولا يؤبه في علم الله تعالى. وهذا هو ضابط وصف القذارة والنزاهة عند البشر.
ألا ترى أن المني يستقذر في الحس البشري على أن منه تكوين نوعه، ومنه تخلقت أفاضل البشر. وكذلك المسك طيب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشم وما هو إلا غدة من خارجات بعض أنواع الغزال، قال تعالى: وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٣

ما تشكرون [سورة السجدة: ٧- ٩] .". (١)

٩٠٧. ١١٦-"والفاء في فإنك رجيم دالة على سبب إخراجه من السماوات. و (إن) مؤذنة بالتعليل. وذلك **إيماء** إلى سبب إخراجه من عوالم القدس، وهو ما يقتضيه وصفه بالرجيم متلوث الطوية وخبث النفس، أي حيث ظهر هذا فيك فقد خبثت نفسك خبثا لا يرجى بعده صلاح فلا تبقى في عالم القدس والنزاهة.

والرجيم: المطرود. وهو كناية عن الحقارة. وتقدم في أول هذه السورة وحفظناها من كل شيطان رجيم [سورة الحجر: ١٧] .

وضمير منها عائد إلى السماوات وإن لم تذكر لدلالة ذكر الملائكة عليها. وقيل: إلى الجنة. وقد اختلف علماؤنا في أنها موجودة.

واللعنة: السب بالطرد. و (على) مستعملة في الاستعلاء المجازي وهو تمكن اللعنة والشتم منه حتى كأنه يقع فوقه.

وجعل يوم الدين وهو يوم الجزاء غاية للعن استعمالا في معنى الدوام، كأنه قيل أبدا. وليس ذلك بمقتضي أن اللعنة تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدها، ولكن المراد أن اللعنة عليه في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله فذلك يومئذ أشد من اللعنة.

[٣٦- ٣٨]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٣٦ إلى ٣٨]

قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨)

سؤاله النظرة بعد إعلامه بأنه ملعون إلى يوم الدين فاض به خبث جبلته البالغ نهاية الخباثة التي لا يشفيها إلا دوام الإفساد في هذا العالم، فكانت هذه الرغبة مجلبة لدوام شقوته.".

(١) التحرير والتنوير ٤٤/١٤

(١)

٩٠٨. ١١٧-"وعبر بآل لوط- عليه السلام- لأنهم نزلوا في منزلة بين أهله فجاءوا آله وإن كان المقصود بالخطاب والمجيء هو لوط.

وتولى لوط- عليه السلام- تلقيهم كما هو شأن كبير المنزل ولكنه وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي كانت تمر بهم فألهم إلى أن لهم قصة غريبة ولذلك قال لهم:

إنكم قوم منكرون، أي لا تعرف قبيلتكم. وتقدم عند قوله تعالى: نكرهم في سورة هود [٧٠] .

وقد أجابوه بما يزيل ذلك إذ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون إضرابا عن قوله: إنكم قوم منكرون وإبطالا لما ظنه من كونهم من البشر الذين لم يعرف قبيلتهم فلا يأمنهم أن يعاملوه بما يضره.

وعبر عن العذاب ب «ما كانوا فيه يمترون» إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو التعذيب، أي بالأمر الذي كان قومك يشكون في حلوله بهم وهو العذاب، فعلم أنهم ملائكة.

والمراد بالحق الخبر الحق، أي الصدق، ولذلك ذيل بجملة وإنا لصادقون.

وقوله: قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون حكاية لخطاب الملائكة لوطا- عليه السلام- لمعنى عباراتهم محولة إلى نظم عربي يفيد معنى كلامهم في نظم عربي بليغ، فبنا أن نبين خصائص هذا النظم العربي:

فإعادة فعل أتيناك بعد واو العطف مع أن فعل أتيناك مرادف لفعل جئناك دون أن يقول: وبالحق، يحتمل أن يكون للتأكيد اللفظي بالمرادف. والتعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنن لدفع تكرار الفعل الواحد، كقوله تعالى في سورة الفرقان [٣٣] : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا

. وعليه تكون الباء في قوله: بما كانوا فيه يمترون وقوله: بالحق للملابسة.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٧/١٤

(٢) التحرير والتنوير ٦٣/١٤

٩٠٩. ١١٨-"وزيد هنا أن ذلك خلق بالحق.

وكان قوله تعالى: وإن الساعة لآتية فذلكة لقوله تعالى: وإنا لنحن نحيي ونميت- إلى-: وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم [سورة الحجر: ٢٥] ، فعاد سياق الكلام إلى حيث فارق مهيعه. ولذلك تخلص إلى ذكر القرآن بقوله: ولقد آتيناك سبعا من المثاني [سورة الحجر: ٨٧] الناظر إلى قوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [سورة الحجر: ٩] .

وجملة إن ربك هو الخالق العليم في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي لأن في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربك، فمصلحة النبيء صلى الله عليه وسلم في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم، فالله الخلاق لكم ولهم ولنفسك وأنفسهم، العليم بما يأتيه كل منكم، وهذا كقوله تعالى: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون [سورة فاطر: ٨] .

ومناسبة لقوله تعالى: وإن الساعة لآتية ظاهرة.

وفي وصفه ب الخالق العليم **إيماء** إلى بشارة النبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله يخلق من أولئك من يعلم أنهم يكونون أولياء للنبيء صلى الله عليه وسلم وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين

ولدوا،

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده»

. وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبيء صلى الله عليه وسلم:

دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد

يعني بالداعي النبيء صلى الله عليه وسلم.

وتلك هي نكتة ذكر وصف الخالق دون غيره من الأسماء الحسنى.". (١)

٩١٠. ١١٩-"واعلم أن معنى المقتسمين على الوجه المختار المقتسمون القرآن. وهذا هو معنى جعلوا القرآن عضين، فكان ثاني الوصفين بيانا لأولهما وإنما اختلفت العبارتان للتفنن.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٨/١٤

وأن ذم المشبه بهم يقتضي ذم المشبهين فعلم أن المشبهين قد تلقوا القرآن العظيم بالرد والتكذيب.

[٩٢، ٩٣]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

فو ربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)

الفاء للتفريع، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى: وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل [سورة الحجر: ٨٥] .

والواو للقسم، فالمفرع هو القسم وجوابه. والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. وليس الرسول- عليه الصلاة والسلام- ممن يشك في صدق هذا الوعيد ولكن التأكيد متسلط على ما في الخبر من تهديد معاد ضمير النصب في لنسئلنهم.

ووصف الرب مضافا إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذبين عن تكذيبهم إياه سؤال رب يغضب لرسوله- عليه الصلاة والسلام-.

والسؤال مستعمل في لازم معناه وهو عقاب المسئول كقوله تعالى: ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم [سورة التكاثر: ٨] فهو وعيد للفريقين.

[٩٤- ٩٦]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٩٤ إلى ٩٦]

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين (٩٤) إنا كفيناك المستهزئين (٩٥) الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون (٩٦)

تفريع على جملة ولقد آتيناك سبعا من المثاني [سورة الحجر: ٨٧] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه.". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٤/٨٧

٩١١. ١٢٠-"وجملة إنا كفيناك المستهزئين تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به، فإن اختفاء النبيء صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله أهمها تعدد الداخلين في الإسلام في تلك المدة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدين مع أن دعوته مخفية، ثم إن الله أمر رسوله- عليه الصلاة والسلام- بإعلان دعوته لحكمة أعلى تهيأ اعتبارها في علمه تعالى.

والتعبير عنهم بوصف المستهزئين **إيماء** إلى أنه كفاه استهزاءهم وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى.

وتأكيد الخبر ب (إن) لتحقيقه اهتماما بشأنه لا للشك في تحققه.

والتعريف في المستهزئين للجنس فيفيد العموم، أي كفيناك كل مستهزء. وفي التعبير عنهم بهذا الوصف **إيماء** إلى أن قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى: لن يضروكم إلا أذى [سورة آل عمران: ١١١] ، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبيء صلى الله عليه وسلم بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى الكفاية تولي الكافي مهم المكفي، فالكافي هو متولي عمل عن غيره لأنه أقدر عليه أو لأنه يبتغي راحة المكفى. يقال: كفيت مهمك، فيتعدى الفعل إلى مفعولين ثانيهما هو المهم المكفي منه. فالأصل أن يكون مصدرا فإذا كان اسم ذات فالمراد أحواله التي يدل عليها المقام، فإذا قلت: كفيتك عدوك، فالمراد: كفيتك بأسه، وإذا قلت:

كفيتك غريمك، فالمراد: كفيتك مطالبته. فلما قال هنا كفيناك المستهزئين فهم أن المراد كفيناك الانتقام منهم وإراحتك من استهزائهم. وكانوا يستهزئون بصنوف من الاستهزاء كما تقدم.

ويأتي في آيات كثيرة من استهزائهم استهزاؤهم بأسماء سور القرآن مثل سورة العنكبوت وسورة البقرة، كما في «الإتقان» في ذكر أسماء السور.". (١)

(١) التحرير والتنوير ٨٩/١٤

٩١٢. ١٢١-"الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملا في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق.

ويدخل فيه كما قيل ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنة، غير أن ذلك خاص بالمؤمنين، فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس المتوسل به إلى إقامة الحجة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها **إيماء** إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى (بسكلات) ، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيرة بمصفى النفط وتسمى (أطومبيل) ، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء. فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها.

وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكل من نعمته.

[٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ٩]

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩)

جملة معترضة.. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١١١/١٤

٩١٣. ١٢٢-"وفي هذا **إيماء** إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدم نظيرها في سورة إبراهيم.

وجملة إن الله لغفور رحيم استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنا لك وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [سورة إبراهيم: ٣٤] لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا [سورة إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم لظلوم كفار بوصفين هنا لغفور رحيم إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

[١٩]

[سورة النحل (١٦) : آية ١٩]

والله يعلم ما تسرون وما تعلنون (١٩)

عطف على جملة أفمن يخلق كمن لا يخلق [سورة النحل: ١٧] . فبعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق انتقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم.

ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقب بالدليل لأنه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٤/١٤

٩١٤. ١٢٣-"وتفرع عليه الإخبار بجملة فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة، وهو تفريع الأخبار عن الأخبار، أي يتفرع على هذه القضية القاطعة بما تقدم من الدلائل أنكم قلوبكم منكرة وأنتم مستكبرون وأن ذلك ناشيء عن عدم إيمانكم بالآخرة.

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته «الذين لا يؤمنون بالآخرة» لأنهم قد عرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين، كقوله: وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا [سورة الفرقان: ٢١] ، **وللإيماء** إلى أن لهذه الصلة ارتباطا باستمرارهم على العناد، لأن انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرأهم على نبذ دعوة الإسلام ظهريا فلم يتوقعوا مؤاخذة على نبذها، على تقدير أنها حق فينظروا في دلائل أحقيتها مع أنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يؤمنون بأنه أعد للناس يوم جزاء على أعمالهم.

ومعنى قلوبهم منكرة جاحدة بما هو واقع. استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنه ضد الإقرار. فحذف متعلق منكرة لدلالة المقام عليه، أي منكرة للوحدانية.

وعبر بالجملة الاسمية قلوبهم منكرة للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجية وتمكن من نفوسهم لأنهم ضروا به من حيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصر في العواقب.

وكذلك جملة وهم مستكبرون بنيت على الاسمية للدلالة على تمكن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في آية سورة الفرقان [٢١] لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا لأن تلك الآية لم تتقدمها دلائل على الوحدانية مثل الدلائل المذكورة في هذه الآية.

وجملة لا جرم أن الله يعلم معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.". (١)

٩١٥. ١٢٤-"للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين (٣١) مستأنفة ابتدائية، وهي كلام من الله تعالى مثل نظيرها في آية قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة في سورة الزمر [١٠] ، وليست من حكاية قول الذين اتقوا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٨/١٤

والذين أحسنوا: هم المتقون فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصلا بالإتيان بالموصول إلى **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر، أي جزاؤهم حسنة لأنهم أحسنوا.

وقوله تعالى: في هذه الدنيا يجوز أن يتعلق بفعل أحسنوا. ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا حالا من حسنة. وانظر ما يأتي في نظر هذه الآية من سورة الزمر من نكتة هذا التوسيط.

ومعنى ولدار الآخرة خير أنها خير لهم من الدنيا فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة فلهم في الآخرة أحسن، فكما كان للذين كفروا عذاب الدنيا وعذاب جهنم كان للذين اتقوا خير الدنيا وخير الآخرة. فهذا مقابل قوله تعالى في حق المشركين ليحملوا أوزارهم كاملة [سورة النحل: ٢٥] وقوله تعالى: وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون [سورة النحل: ٢٦] .

وحسنة الدنيا هي الحياة الطيبة وما فتح الله لهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان.

وخير الآخرة هو النعيم الدائم، قال تعالى: من عمل صالحا". (١)

٩١٦. ١٢٥-"وآمنوا، ومنهم أقوام تمكنت منهم الضلالة فهلكوا. ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم.

وأن تفسيرية لجملة بعثنا لأن البعث يتضمن معنى القول، إذ هو بعث للتبليغ.

والطاغوت: جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام. وقد يذكرونه بصيغة الجمع، فيقال: الطواغيت، وهي الأصنام. وتقدم عند قوله تعالى: يؤمنون بالجبت والطاغوت في سورة النساء [٥١] .

وأسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنه أمر جميعهم بالهدى تنبيها للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء [سورة النحل: ٣٥] بأن الله بين لهم الهدى، فاهتداء المهتدين بسبب بيانه، فهو الهادي لهم.

والتعبير في جانب الضلالة بلفظ «حقت عليهم» دون إسناد الإضلال إلى الله إشارة إلى أن الله لما نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة «فحقت عليهم الضلالة» ، أي ثبتت ولم ترتفع.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/١٤

وفي ذلك إيماء إلى أن بقاء الضلالة من كسب أنفسهم ولكن ورد في آيات أخرى أن الله يضل الضالين، كما في قوله: ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا [سورة الأنعام: ١٢٥] ، وقوله عقب هذا فإن الله لا يهدي من يضل [سورة النحل:
٣٧] على قراءة الجمهور، ليحصل من مجموع ذلك علم بأن الله كون أسبابا عديدة بعضها جاء من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض، وبعضها تابع للدعوات الضالة بحيث تهيأت من اجتماع أمور شتى لا يحصيها إلا الله، أسباب تامة تحول بين الضال وبين الهدى. فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حق الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب المباشرة كان ضلالهم من حالات أنفسهم، وباعتبار الأسباب العالية المتوالدة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور. فافهم.". (١)

٩١٧. ١٢٦-"ثم فرع على ذلك الأمر باليسر في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقفا على السير في الأرض، ولو كان المراد مطلق الفناء لأمرهم بمشاهدة المقابر وذكر السلف الأوائل.
[٣٧]

[سورة النحل (١٦) : آية ٣٧]
إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين (٣٧)
استئناف بياني، لأن تقسيم كل أمة ضالة إلى مهتد منها وباق على الضلال يثير سؤالا في نفس النبيء صلى الله عليه وسلم عن حال هذه الأمة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها، أو أن الله يهديهم جميعا. وذلك من حرصه على خيرهم ورأفته بهم، فأعلمه الله أنه مع حرصه على هداهم فإنهم سيبقى منهم فريق على ضلالة.
وفي الآية لطيفتان:
الأولى: التعريض بالثناء على النبيء صلى الله عليه وسلم في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنق في نفس من يلحقه الأذى ولكن نفس محمد

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٥٠

صلى الله عليه وسلم. مطهرة من كل نقص ينشأ عن الأخلاق الحيوانية.
واللطيفة الثانية: الإيماء إلى أن غالب أمة الدعوة المحمدية سيكونون مهتدين وأن الضلال منهم فئة قليلة، وهم الذين لم يقدر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقدرته من الأسباب التي هيأت لهم البقاء في الضلال.
والحرص: فرط الإرادة الملحة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.
والشرط هنا ليس لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط، لأن مضمون الشرط معلوم الحصول، لأن علاماته ظاهرة بحيث يعلمه". (١)

٩١٨. ١٢٧-"السامعين أن يسألوا كيف لم يقتد بهم من بقوا على الكفر فتقع جملة لو كانوا يعلمون بيانا لما استبهم على السائل. والتقدير: لو كانوا يعلمون ذلك لاقتدوا بهم ولكنهم لا يعلمون. فضمير يعلمون عائد إلى الذين كفروا [سورة النحل: ٣٩] .
ويجوز أن يكون السؤال المثار هو: كيف يحزن المهاجرون على ما تركوه من ديارهم وأموالهم وأهليهم، فيكون: المعنى لو كان المهاجرون يعلمون ما أعد لهم علم مشاهدة لما حزنوا على مفارقة ديارهم ولكانت هجرتهم عن شوق إلى ما يلاقونه بعد هجرتهم، لأن تأثير العلم الحسي على المزاج الإنساني أقوى من العلم العقلي لعدم
احتياج العلم الحسي إلى استعمال نظر واستدلال، ولعدم اشتمال العلم العقلي على تفاصيل الكيفيات التي تحبها النفوس وترتمي إليها الشهوات، كما أشار إليه قوله تعالى:
قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي [سورة البقرة: ٢٦٠] . فليس المراد بقوله تعالى: لو كانوا يعلمون لو كانوا يعتقدون ويؤمنون، لأن ذلك حاصل لا يناسب موقع لو الامتناعية.
فضمير يعلمون على هذا «للذين هاجروا» . وفي هذا الوجه تتناسق الضمائر.
والذين صبروا صفة «للذين هاجروا» . والصبر: تحمل المشاق. والتوكل: الاعتماد.
وتقدم الصبر عند قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة أوائل سورة البقرة [٤٥] . والتوكل عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [١٥٩] .

(١) التحرير والتنوير ١٥١/١٤

والتعبير في جانب الصبر بالمضي وفي جانب التوكل بالمضارع إيماء إلى أن صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأن الله قد جعل لهم فرجا بالهجرة الواقعة والهجرة المترقبة. فهذا بشارة لهم.". (١)

٩١٩. ١٢٨-"الكلام آنفا حكاية تكذيبهم إياه تصريحا وتعريضا، فأقبل الله على الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه منزلته بأنه في منزلة الرسل الأولين- عليهم الصلاة والسلام-.

وفي هذا الخطاب تعريض بالمشركين، ولذلك التفت إلى خطابهم بقوله تعالى:

فسئلوا أهل الذكر.

وصيغة القصر لقلب اعتقاد المشركين وقولهم: أبعث الله بشرا رسولا [سورة الإسراء: ٩٤] ، فقصر الإرسال على التعلق برجال موصوفين بأنهم يوحى إليهم.

ثم أشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخا لهم لأن التوبيخ يناسبه الخطاب لكونه أوقع في نفس الموبخ، فاحتج عليهم بقوله: فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون إلخ. فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين أهل الكتب اليهود والنصارى والصابئة.

والذكر: كتاب الشريعة. وقد تقدم عند قوله تعالى: وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر في أول سورة الحجر [٦] .

وفي قوله تعالى: إن كنتم لا تعلمون إيماء إلى أنهم يعلمون ذلك ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء، فلذلك جيء في الشرط بحرف إن التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده.

وجملة فسئلوا أهل الذكر معترضة بين جملة وما أرسلنا وبين قوله تعالى: بالبينات والزبر.

والجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الجملة مفرعا على ما قبله، وقد جعلها في «الكشاف» معترضة على اعتبار وجوه ذكرها في متعلق قوله تعالى: بالبينات.

(١) التحرير والتنوير ١٥٩/١٤

ونقل عنه في سورة الإنسان [٢٩] عند قوله تعالى: إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا أنه لا تقترن الجملة المعترضة بالفاء. وتردد صاحب «الكشاف» في صحة ذلك عنه لمخالفته كلامه في آية سورة النحل.". (١)

٩٢٠. ١٢٩-"والذكر الكلام الذي شأنه أن يذكر، أي يتلى ويكرر. وقد تقدم عند قوله تعالى:

وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر في سورة الحجر [٦] . أي ما كنت بدعا من الرسل فقد أوحينا إليك الذكر. والذكر: ما أنزل ليقرأه الناس ويتلونه تكرارا ليتذكروا ما اشتمل عليه. وتقديم المتعلق المجرور على المفعول للاهتمام بضمير المخاطب.

وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله: بالبينات والزبر إيماء إلى أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو بينة وزبور معا، أي هو معجزة وكتاب شرع. وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا معجزة أخرى، وقد قال الله تعالى: وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون سورة العنكبوت [٥٠، ٥١] .

وفي الحديث: أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»

. والتبيين: إيضاح المعنى.

والتعريف في «الناس» للعموم.

والإظهار في قوله تعالى: ما نزل إليهم يقتضي أن ما صدق الموصول غير الذكر المتقدم، إذ لو كان إياه لكان مقتضى الظاهر أن يقال لتبينه: للناس. ولذا فالأحسن أن يكون المراد بما نزل إليهم الشرائع التي أرسل الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل القرآن جامعا لها ومبينا لها ببليغ نظمه ووفرة معانيه، فيكون في معنى قوله تعالى: ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء [سورة النحل: ٨٩] .

(١) التحرير والتنوير ١٦١/١٤

وإسناد التبيين إلى النبيء- عليه الصلاة والسلام- باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان. واللام على هذا الوجه لذكر العلة الأصلية في إنزال القرآن.". (١)

٩٢١. ١٣٠-"وفسر ما نزل إليهم بأنه عين الذكر المنزل، أي أنزلنا إليك الذكر لتبينه للناس، فيكون إظهارا في مقام الإضمار لإفادة أن إنزال الذكر إلى النبيء صلى الله عليه وسلم هو إنزاله إلى الناس كقوله تعالى: لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم [سورة الأنبياء: ١٠] .

وإنما أتي بلفظه مرتين **للإيماء** إلى التفاوت بين الإنزالين: فإنزاله إلى النبيء صلى الله عليه وسلم مباشرة، وإنزاله إلى إبلاغه إليهم.

فالمراد بالتبيين على هذا تبيين ما في القرآن من المعاني، وتكون اللام لتعليل بعض الحكم الحاقة بإنزال القرآن فإنها كثيرة، فمنها أن يبينه النبيء صلى الله عليه وسلم فتحصل فوائد العلم والبيان، كقوله تعالى: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس [سورة آل عمران: ١٨٧] .

وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنة، وبيان مجمل القرآن بالسنة، وترجيح دليل السنة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه إذ كل من الكتاب والسنة هو من تبيين النبيء صلى الله عليه وسلم إذ هو واسطته.

عطف لعلهم يتفكرون حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكر الناس فيه وتأملهم فيما يقربهم إلى رضى الله تعالى. فعلى الوجه الأول في تفسير لتبين للناس يكون المراد أن يتفكروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده، وعلى الوجه الثاني أن يتفكروا في بيانك ويعوه بأفهامهم.

[٤٥]

[سورة النحل (١٦) : آية ٤٥]

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (٤٥)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/١٤

بعد أن ذكرت مساويهم ومكائدهم وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحا وبعذاب الدنيا تعريضا، فرع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدرين أن". (١)

٩٢٢. ١٣١-"والداخر: الخاضع الذليل، أي داخرون لعظمة الله تعالى.
[٤٩، ٥٠]

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٩ إلى ٥٠]
ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (٤٩)
يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (٥٠)
لما ذكر في الآية السابقة السجود القسري ذكر بعده هنا سجود آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار.
وتقديم المجرور على فعله مؤذن بالحصر، أي سجد لله لا لغيره ما في السموات وما في الأرض، وهو تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام.
وأوثرت ما الموصولة دون (من) تغليبا لكثرة غير العقلاء.
ومن دابة بيان ل ما في الأرض، إذ الدابة ما يدب على الأرض غير الإنسان.
ومعنى سجود الدواب لله أن الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلب الدفع عن نفسها من المتغلب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقي، ونحو ذلك من الملائمات. فحالها بذلك كحال شاكر تتيسر تلك الملائمات لها، وإنما تيسيرها لها ممن فطرها. وقد تصحب أحوال تنعمها حركات تشبه **إيماء** الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به الناس لخفائه وجهلهم بأوقاته، وإطلاق السجود على هذا مجاز.
ويشمل ما في السماوات مخلوقات غير الملائكة، مثل الأرواح، أو يراد بالسماوات الأجواء

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٤

فيراد بما فيها الطيور والفراش.". (١)

٩٢٣. ١٣٢-"ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى: ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى. فموقع الاستدراك هنا أنه تعقيب لقوله تعالى: ما ترك عليها من دابة.

والأجل: المدة المعينة لفعل ما. والمسمى: المعين، لأن التسمية تعيين الشيء وتمييزه، وتسمية الآجال تحديدها.

وتقدم نظير هذه عند قوله تعالى: ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون في سورة الأعراف [٣٤] .

[٦٢]

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٢]

ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون (٦٢)

هذا ضغث على إبالة من أحوالهم في إشراكهم تخالف قصة قوله تعالى: ويجعلون لله البنات [سورة النحل: ٥٧] باعتبار ما يختص بهذه القصة من إضافتهم الأشياء المكروهة عندهم إلى الله مما اقتضته كراهتهم البنات بقوله تعالى: ولهم ما يشتهون [سورة النحل: ٥٧] ، فكان ذلك الجعل ينطوي على خصلتين من دين الشرك، وهما: نسبة البنوة إلى الله، ونسبة أخس أصناف الأبناء في نظرهم إليه، فخصت الأولى بالذكر بقوله ويجعلون لله البنات مع **الإيماء** إلى كراهتهم البنات كما تقدم. وخصت هذه بذكر الكراهية تصريحا، ولذلك كان الإتيان بالموصول والصلة ما يكرهون هو مقتضى المقام الذي هو تفظيع قولهم وتشنيع استئثارهم. وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنهم جعلوا لله أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرف وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها لله كما أشار إليه قوله تعالى: فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون [سورة الأنعام: ١٣٦] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٧٠

وفي «الكشاف» : «يجعلون لله أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها» . فهو مراد من عموم الموصول، فتكون هذه القصة أعم من قصة قوله تعالى:". (١)

٩٢٤. ١٣٣-"وعبر عن الضلال بطريقة الموصولية الذي اختلفوا فيه **للإيماء** إلى أن سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم، فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.

والإتيان بصيغة القصر في قوله تعالى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقيه وتدبره من مؤمن وكافر كل بما يليق بحاله حتى يستووا في الاهتداء.

ثم إن هذا القصر يعرض بتفنيد أقوال من حسبوا من المشركين أن القرآن أنزل لذكر القصص لتعليل الأنفس في الأسمار ونحوها حتى قال مضلهم: أنا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد، آتيكم بقصة (رستم) و (إسفنديار) . فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحق وحصول أثر ذينك الأمرين، وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى.

وأدخلت لام التعليل على فعل «تبين» الواقع موقع المفعول لأجله لأنه من فعل المخاطب لا من فعل فاعل أنزلنا، فالنبيء هو المباشر للبيان بالقرآن تبليغا وتفسيرا.

فلا يصح في العربية الإتيان بالتبيين مصدرا منصوبا على المفعولية لأجله إذ ليس متحدا مع العامل في الفاعل، ولذلك خولف في المعطوف فنصب هدى ورحمة لأنهما من أفعال منزل القرآن، فالله هو الهادي والراحم بالقرآن، وكل من البيان والهدى والرحمة حاصل بالقرآن فآلت الصفات الثلاث إلى أنها صفات للقرآن أيضا.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٩٦/١٤

٩٢٥. ١٣٤-"والتعبير ب لقوم يؤمنون دون للمؤمنين، أو للذين آمنوا، للإيماء إلى أنهم الذين الإيمان كالسجية لهم والعادة الراسخة التي تتقوم بها قوميتهم، كما تقدم في قوله تعالى: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] .

وهاته الآية بمنزلة التذييل للعبر والحجج الناشئة عن وصف أحوال المخلوقات ونعم الخالق على الناس المبتدئة من قوله تعالى: أفمن يخلق كمن لا يخلق [سورة النحل: ١٧] .

[٦٥]

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٥]

والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون (٦٥)

انتهى الكلام المعترض به وعاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه ذلك من التذكير بالنعم. فهذه منة من المنن وعبرة من العبر وحجة من الحجج المتفرعة عن التذكير بنعم الله والاعتبار بعجيب صنعه.

عاد الكلام إلى تعداد نعم جمة ومعها ما فيها من العبر أيضا جمعا عجيبا بين الاستدلال ووصلا للكلام المفارق عند قوله تعالى: وبالنجم هم يهتدون [سورة النحل: ١٦] ، كما علمته فيما تقدم. فكان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة مسوقا مساق الاستدلال، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها بالماء النازل من السماء.

وبهذا الاعتبار خالفت هذه النعمة النعمة المذكورة في قوله سابقا هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر [سورة النحل: ١٠] باختلاف الغرض الأولي، فهو هنا لك الاستدلال بتكوين الماء وهنا الامتنان.

وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، أي الله لا غيره أنزل من السماء ماء. وذلك في معنى قوله تعالى: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٩٧

٩٢٦. ١٣٥-"والقول في جملة إن في ذلك لآية لقوم يعقلون مثل قوله آنفا: إن في ذلك لآية لقوم يسمعون [سورة النحل: ٦٥] . والإشارة إلى جميع ما ذكر من نعمة سقي الألبان وسقي السكر وطعم الثمر.

واختير وصف العقل هنا لأن دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبر فيما وصفته الآية هنا، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم.

[٦٨، ٦٩]

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٨ إلى ٦٩]

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)

عطف عبرة على عبرة ومنة على منة. وغير أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابا، وكان ما في بطون النحل وسطا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإن النحل يمتص ما في الثمرات والأنوار من المواد السكرية العسلية ثم يخرجه عسلا كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى.

وفيه عبرة أخرى وهي أن أودع الله في ذبابة النحل إدراكا لصنع محكم مضبوط منتج شرابا نافعا لا يحتاج إلى حلب الحالب.

فافتتحت الجملة بفعل أوحى دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة والله أنزل [سورة النحل: ٦٥] ، لما في أوحى من **الإيماء** إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرا عجيبا وعملا متقنا وهندسة في الجبلة.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٠٤

٩٢٧.	١٣٦-"بطونها شراب بيانا لما سأل عنه. وهو أيضا موضع المنة كما كان تمام العبرة. وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد الخروج وتكرره.

وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومىء إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به وهو محل المنة، وليرتب عليه جملة فيه شفاء للناس. وسمي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ. وقد تقدم ذكر الشراب في قوله تعالى: لكم منه شراب في أوائل هذه السورة [النحل: ١٠].

ووصفه ب مختلف ألوانه لأن له مدخلا في العبرة، كقوله تعالى: تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل [سورة الرعد: ٤] ، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة.

وفي العسل خواص كثيرة المنافع مبينة في علم الطب.

وجعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وهي الملابسة للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل.

فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظروف عن بعض أجزاء الظرف، لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالبا. شبه تخلف المقارنة في بعض الأحوال بقلة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظروف ومظروفاتها، وبذلك يبقى تعريف «الناس» على عمومه، وإنما التخلف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل.

وتنكير شفاء في سياق الإثبات لا يقتضي العموم فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء، كما أن مفاد (في) من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال.

وعموم التعريف في قوله تعالى: للناس لا يقتضي العموم الشمولي لكل فرد فرد بل لفظ (الناس) عمومه بدلي. والشفاء ثابت للعسل في". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٠٩

٩٢٨. ١٣٧-"والقدس: الطهر. وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حاتم الجود، وزيد الخير. والمراد: حاتم الجواد، وزيد الخير. فالمعنى: الملك المقدس.

والباء في بالحق للملابسة، وهي ظرف مستقر في موضع الحال من الضمير المنصوب في نزله مثل تنبت بالدهن [سورة المؤمنون: ٢٠] ، أي ملابسا للحق لا شائبة للباطل فيه.

وذكرت علة من علل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي تبديل آية مكان آية، بأن في ذلك تثبيتا للذين آمنوا إذ يفهمون محمل كل آية ويهدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر.

ففي قوله تعالى: نزله روح القدس من ربك إبطال لقولهم: إنما أنت مفتر [سورة النحل: ١٠١] ، وفي قوله تعالى بالحق إيقاظ للناس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنها حق.

وفي التعليل بحكمة التثبيت والهدى والبشرى بيان لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنه تثبيت لقلوبهم بصحة اليقين وهدى وبشرى لهم.

وفي تعلق الموصول وصلته بفعل التثبيت **إيماء** إلى أن حصول ذلك لهم بسبب إيمانهم، فيفيد تعريضا بأن غير المؤمنين تقصر مداركهم عن إدراك ذلك الحق فيختلط عليهم الفهم ويزدادون كفرا ويضلون ويكون نذارة لهم.

والمراد بالمسلمين الذين آمنوا، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف.

وقوله تعالى: وهدى وبشرى عطف على الجار والمجرور من قوله: ليثبت، فيكون هدى وبشرى مصدرين في محل نصب على المفعول لأجله، لأن قوله". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٨٥

٩٢٩. ١٣٨-"وعبر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم، فيقال: إنما يفتري الكذب أنتم، ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأن للصلة أثرا في افترائهم، لما تفيده الموصولية من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر.

وعليه فإن من لا يؤمن بالدلائل الواضحة التي هي آيات صدق لا يسعه إلا الافتراء لترويج تكذيبه بالدلائل الواضحة. وفي هذا كناية عن كون تكذيبهم بآيات الله عن مكابرة لا عن شبهة.

ثم أردفت جملة القصر بجملة قصر أخرى بطريق ضمير الفصل وطريق تعريف المسند وهي جملة وأولئك هم الكاذبون.

وافتتحت باسم الإشارة، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، لينبه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرهم على الكذب، لأن من لا يؤمن بآيات الله يتخذ الكذب ديدنا له متجددا.

وجعل المسند في هذه الجملة معرفا باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتحد بهم وصار منحصرا فيهم، أي الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء. وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه، فيحصل قصران في هذه الجملة: قصر موصوف على صفة، وقصر تلك الصفة على ذلك الموصوف. والقصران الأولان الحاصلان من قوله:

إنما يفتري وقوله: وأولئك هم إضافيان، أي لا غيرهم الذي رموه بالافتراء وهو محاشى منه، والثالث أولئك هم الكاذبون قصر حقيقي ادعائي للمبالغة، إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغا قويا منزلة انحصاره فيهم.

واختير في الصلة صيغة لا يؤمنون دون: لم يؤمنوا، لتكون على وزان ما عرفوا به سابقا في قوله: الذين لا يؤمنون بآيات الله، ولما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرون على انتفاء الإيمان لا يثبت لهم ضد ذلك.". (١)

٩٣٠. ١٣٩-"البقرة [١٦٤] ، وقوله تعالى: وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون في سورة يونس [١٠١] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٩١

[١٠٨، ١٠٩]

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠٨ إلى ١٠٩]

أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون (١٠٨) لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون (١٠٩)

جملة مبينة لجملة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين [سورة النحل: ١٠٧] بأن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر الصادق في دلائل الوحدانية، ومن الوعي لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن المنزل عليه، ومن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبسوا به.

وافتتاح الجملة باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز تبيينا لمعنى الصلة المتقدمة، وهي اتصافهم بالارتداد إلى الكفر بعد الإيمان بالقول والاعتقاد.

وأخبر عن اسم الإشارة بالموصول لما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الحكم المبين بهذه الجملة. وهو مضمون جملة فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم [النحل: ١٠٦] .

والطبع: مستعار لمنع وصول الإيمان وأدلته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس. وقد تقدم مفصلا عند قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة في سورة البقرة [٧] .

وجملة وأولئك هم الغافلون تكملة للبيان، أي الغافلون الأكملون في الغفلة، لأن الغافل البالغ الغاية ينافي حالة الاهتداء.". (١)

٩٣١. ١٤٠-"التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى: كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة [سورة آل عمران: ٩٣] ، أي عليهم دون غيرهم فلا تحسبوا أن ذلك من الحنيفية.

[١١٩]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٩٧

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٩]

ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٩)

موقع هذه الآية من اللواتي قبلها كموقع قوله السابق ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا [سورة النحل: ١١٠] . فلما ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرموه على أنفسهم، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك، ووردت قوارع الذم لما صنعوا، كان مما يتوهم علوقه بأذهان المسلمين أن يحسبوا أنهم سينالهم شيء من غمص لما اقترفوه في الجاهلية، فطمأن الله نفوسهم بأنهم لما تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد أن أفسدوا فإن الله قد غفر لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة.

ووقع الإقبال بالخطاب على النبيء صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن تلك المغفرة من بركات الدين الذي أرسل به.

وذكر اسم الرب مضافا إلى ضمير النبيء للنكتة المتقدمة آنفا في قوله: ثم إن ربك للذين هاجروا.

والجهالة: انتفاء العلم بما يجب. والمراد: جهالتهم بأدلة الإسلام.

وثم للترتيب الرتبي، لأن الجملة المعطوفة ب ثم تضمنت حكم التوبة وأن المغفرة والرحمة من آثارها، وذلك أهم عند المخاطبين مما سبق من وعيد، أي الذين عملوا السوء جاهلين بما يدل على فساد ما علموه. وذلك قبل أن يستجيبوا لدعوة الرسول فإنهم في مدة تأخرهم عن الدخول في". (١)

٩٣٢. ١٤١-"الموصول وصلته من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وذلك الإيماء هو المقصود هنا لأن المقصود إثبات أن اليهود لم يكونوا على الحنيفية كما علمت آنفا.

وليس معنى فعل اختلفوا وقوع خلاف بينهم بأمر السبت بل فعل اختلفوا مراد به خالفوا كما

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣١٣

في قول النبيء صلى الله عليه وسلم «واختلافهم أنبيائهم»
، أي عملهم خلاف ما أمر به أنبياؤهم. فحاصل المعنى هكذا: ما فرض السبت على أهل السبت إلا لأنهم لم يكونوا على ملة إبراهيم، إذ مما لا شك فيه عندهم أن ملة إبراهيم ليس منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها.
ولم يقع التعرض لليوم المقدس عند النصارى لعدم الداعي إلى ذلك حين نزول هذه السورة كما علمت.
ولا يؤخذ من هذا أن ملة إبراهيم كان اليوم المقدس فيها يوم الجمعة لعدم ما يدل على ذلك، والكافي في نفي أن يكون اليهود على ملة إبراهيم أن يوم حرمة السبت لم تكن من ملة إبراهيم.
ثم الأظهر أن حرمة يوم الجمعة ادخرت للملة الإسلامية
لقول النبيء صلى الله عليه وسلم «فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد» .
فقوله: «فهدانا الله إليه»
يدل على أنه لم يسبق ذلك في ملة أخرى.
فهذا وجه تفسير هذه الآية، ومحمل الفعل والضمير المجرور في قوله: اختلفوا فيه.
وما ذكره المفسرون من وجوه لا يخلو من تكلف وعدم طائل. وقد جعلوا ضمير فيه عائدا إلى السبت. وتأولوا معنى الاختلاف فيه بوجوه. ولا مناسبة بين الخبر وبين ما توهم أنه تعليل له على معنى جعل السبت عليهم لأنهم اختلفوا على نبيئهم موسى- عليه السلام- لأجل السبت، لأن نبيهم". (١)

٩٣٣. ١٤٢-"فلما كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان الحكمة في ذلك بينت الحكمة بأن الله هو أعلم بمصير الناس وليس ذلك لغير الله من الناس فما عليك إلا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم لأن العلم بمن يهتدي ومن يضل موكول إلى الله وإنما عليك التبليغ في كل حال.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٢٣

وهذا قول فصل بين فريق الحق وفريق الباطل.
وقدم العلم بمن ضل لأنه المقصود من التعليل لأن دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهم، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل.
وفيه **إيماء** إلى أنه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه.
وتأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به. وأما إن فهي في مقام التعليل ليست إلا لمجرد الاهتمام، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز فإن إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصفة على الموصوف، فإن القصر تأكيد على تأكيد.
وإعادة ضمير الفصل في قوله: وهو أعلم بالمهتدين للتنصيص على تقوية هذا الخبر لأنه لو قيل: وأعلم بالمهتدين، لاحتمل أن يكون معطوفا على جملة هو أعلم بمن ضل على أنه خبر (لإن) غير داخل في حيز التقوية بضمير الفصل، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال.
ولم يقل: وبالمهتدين، تصريحا بالعلم في جانبهم ليكون صريحا في تعلق العلم به.
وهذان القصران إضافيان، أي ربك أعلم بالضالين والمهتدين، لا هؤلاء الذين يظنون أنهم مهتدون وأنكم ضالون.". (١)

٩٣٤. ١٤٣-"والتفضيل في قوله: هو أعلم تفضيل على علم غيره بذلك. فإنه علم متفاوت بحسب تفاوت العالمين في معرفة الحقائق.
وفي هذا التفضيل **إيماء** إلى وجوب طلب كمال العلم بالهدى، وتمييز الحق من الباطل، وغوص النظر في ذلك، وتجنب التسرع في الحكم دون قوة ظن بالحق، والحذر من تغلب تيارات الأهواء حتى لا تنعكس الحقائق ولا تسير العقول في بنيات الطرائق، فإن الحق باق على الزمان والباطل تكذبه الحجة والبرهان.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/١٤

والتخلق بهذه الآية هو أن كل من يقوم مقاما من مقامات الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب عليه أن يكون سالكا للطرائق الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلا كان منصرفا عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمة، وأن يخشى أن يعرض مصالح الأمة للتلف، فإصلاح الأمة يتطلب إبلاغ الحق إليها بهذه الوسائل الثلاث. والمجتمع الإسلامي لا يخلو عن متعنت أو ملبس وكلاهما يلقي في طريق المصلحين شواك الشبه بقصد أو بغير قصد. فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه.

في «الموطأ» أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال في خطبة خطبها في آخر عمره: «أيها الناس قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا» وضرب بإحدى يديه على الأخرى. (لعله ضرب بيده اليسرى على يده اليمنى الممسكة السيف أو العصا في حال الخطبة) . وهذا الضرب علامة على أنه ليس وراء ما ذكر مطلب للناس في حكم لم يسبق له بيان في الشريعة.

وقدم ذكر علمه بمن ضل عن سبيله على ذكر علمه بالمهتدين لأن المقام تعريض بالوعيد للضالين، ولأن التخلية مقدمة على التحلية، فالوعيد مقدم على الوعد.". (١)

٩٣٥. ١٤٤-"المشاكلة. ويجوز أن يكون عوقبتم حقيقة لأن ما يلقونه من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آبائهم.

والأمر في قوله: فعاقبوا للوجوب باعتبار متعلقه، وهو قوله: بمثل ما عوقبتم به فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب.

وفي هذه الآية إيماء إلى أن الله يظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم، فلعل بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب. فهي ناظرة إلى قوله: ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا [سورة النحل: ١١٠] .

ورغبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه، لأنه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٣٤

ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم [سورة فصلت: ٣٤] ، وقوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله [سورة الشورى: ٤٠] .

وضمير الغائب عائد إلى الصبر المأخوذ من فعل صبرتم، كما في قوله تعالى:

اعدلوا هو أقرب للتقوى [سورة المائدة: ٨] .

وأكد كون الصبر خيرا- بلام القسم- زيادة في الحث عليه.

وعبر عنهم بالصابرين إظهارا في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين، أي الصبر خير لجنس الصابرين.

[١٢٧]

[سورة النحل (١٦) : آية ١٢٧]

واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧)

خص النبيء صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى، أخذا بالعزيمة بعد أن رخص لهم في المعاقبة.". (١)

٩٣٦. ١٤٥-"بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تأريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى: إلى المسجد الأقصى [الإسراء: ١] فأحل الله به محمدا- عليه الصلاة والسلام- بعد أن هجر وخرب **إيماء** إلى أن أمته تجدد مجده.

وأن الله مكنه من حرمي النبوءة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.

ثم إثبات دلائل تفرد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٣٣٦

إثبات الوحدانية.

والتذكير بالنعم التي سخرها الله للناس، وما فيها من الدلائل على تفرده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتخاذ بنات له.

وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.

وعن ابن عباس أنه قال: التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل.

وفي رواية عنه: ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى، أي من قوله تعالى: لا

تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا

إلى قوله: ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا [الإسراء: ٢٢- ٣٩] . ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أن القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة.". (١)

٩٣٧. ١٤٦-"فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيها أو تنقيصا لا يليقان بجلال الله تعالى مثل سبحان ربك رب العزة عما يصفون [الصافات: ١٨٠] يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التنزيه، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم [النور: ١٦] ، وقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر

ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادرا منه كان المعنى تعجيب السامعين، لأن التعجب مستحيلة حقيقته على الله لا لأن ذلك لا يلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إلى التمثيل، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو لعلكم تفلحون [البقرة: ١٨٩] ، بل لأنه لا يستقيم تعجب المتكلم من فعل نفسه، فيكون معنى التعجيب فيه من قبيل قولهم أتعجب من قول فلان كيت وكيت.

ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٨

يليق بالله تعالى. ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلا للشك في قدرة الله وللإشراك به كان من شأنه أن ينطق المتأمل بتسبيح الله تعالى، أي تنزيهه عن العجز.

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة «سبحان الله» التي نحت منها السبحلة. ووقع التصرف في صيغها بالإضمار نحو سبحانك وسبحانه، وبالموصول نحو سبحان الذي خلق الأزواج كلها [يس: ٣٦] ومنه هذه الآية.

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من **الإيماء** إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى.

ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم، فقد آمن به المسلمون وأكبره المشركون.". (١)

٩٣٨. ١٤٧-"وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات أنه رسول من الله، وأنه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قيل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعا له على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام.

وأسرى لغة في سرى، بمعنى سار في الليل، فالهمزة هنا ليست للتعدية لأن

التعدية حاصلة بالباء، بل أسرى فعل مفتتح بالهمزة مرادف سرى، وهو مثل أبان المرادف بان، ومثل أنهج الثوب بمعنى نهج أي بلي، ف أسرى بعبده بمنزلة ذهب الله بنورهم [البقرة: ١٧] .

وللمبرد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة والتعدية بالباء بأن الثانية أبلغ لأنها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل، فأصل (ذهب به) أنه استصحبه، كما قال تعالى وسار بأهله [القصص: ٢٩] . وقالت العرب أشبعهم شتما، وراحوا بالإبل.

وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال أسرى بعبده دون سرى بعبده، وهي التلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال تعالى فإنك بأعيننا [الطور: ٤٨] ، وقال: إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا [التوبة: ٤٠] .

فالمعنى: الذي جعل عبده مسريا، أي ساريا، وهو كقوله تعالى: فأسر بأهلك بقطع من الليل [هود: ٨١] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٥

وإذ قد كان السرى خاصا بسير الليل كان قوله: ليلا إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيدا، على أن الإفادة كما يقولون خير من الإعادة.

وفي ذلك **إيماء** إلى أنه إسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضا ليتوسل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم.

فتنكير ليلا للتعظيم، بقرينة الاعتناء بذكره مع علمه من فعل أسرى، وبقرينة عدم تعريفه، أي هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنا". (١)

٩٣٩. ١٤٨-"وفي هذا الوصف بصيغة التفضيل باعتبار أصل وضعها معجزة خفية من معجزات القرآن **إيماء** إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذ.

فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية، والتي بينها

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:

مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي»

. وفائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته بقوله: من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أمران:

- أحدهما: التنصيص على قطع المسافة العظيمة في جزء ليلة، لأن كلا من الظرف وهو ليلا ومن المجرورين من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قد تعلق بفعل أسرى، فهو تعلق يقتضي المقارنة، ليعلم أنه من قبيل المعجزات.

- وثانيهما: **الإيماء** إلى أن الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزا إلى أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضا فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرعت في المسجد الأقصى. ثم

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٥

عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سرى يعقبه تأويب. وبذلك حصل رد العجز على الصدر.

ومن هنا يظهر مناسبة نزول التشريع الاجماعي في هذه السورة في الآيات المفتتحة بقوله تعالى: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، ففيها: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن،". (١)

٩٤٠. ١٤٩-"وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم [الإسراء: ٢٣- ٣٥] إيماء إلى أن هذا الدين سيكون دينا يحكم في الناس وتنفذ أحكامه.

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم- عليه السلام- كما ورد ذلك عن النبيء صلى الله عليه وسلم. ففي «الصحيحين» عن أبي ذر قال: «قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت كم بينهما؟ قال أربعون سنة»

. فهذا الخبر قد بين أن المسجد الأقصى من بناء إبراهيم لأنه حدد بمدة هي من مدة حياة إبراهيم- عليه السلام-. وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام.

وهذا مما أهمل أهل الكتاب ذكره. وهو مما خص الله نبيئه بمعرفته. والتوراة تشهد له، فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: أن إبراهيم لما دخل أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين) نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلا من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين (لوزا) فسماه يعقوب: بيت إيل، كما في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن «الطيبة») وبنى هنالك مذبحا للرب.

وهم يطلقون المذبح على المسجد لأنهم يذبحون القرابين في مساجدهم. قال عمر بن أبي ربيعة:

دمية عند راهب قسيس ... صوروها في مذبح المحراب

أي مكان المذبح من المسجد، لأن المحراب هو محل التعبد، قال تعالى: وهو قائم يصلي في

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٥

المحراب [آل عمران: ٣٩] .
ولا شك أن مسجد إبراهيم هو الموضع الذي توخى داود- عليه السلام- أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه أو أوحى الله إليه بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان- عليه السلام- أن يبني عليه المسجد، أي الهيكل. وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفوس) أن الجبل الذي سكنه إبراهيم". (١)

٩٤١. ١٥٠-"الحاصل من قبل الرؤية. قال تعالى: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين [الأنعام: ٧٥] .
فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية. قال تعالى: وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي [البقرة: ٢٦٠] ، ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل أو لم يطمئن قلبك، لأن اطمئنان القلب متسع المدى لا حد له فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوءة، وقد بادر محمدا صلى الله عليه وسلم بإراءة الآيات قبل أن يسأله إياها توفيرا في الفضل.
قال علي بن حزم الظاهري وأجاد:
ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المعاينة الكليم
واعلم أن تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقا بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة.
وفي تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلم في قوله:
باركنا ... ولنريه من آياتنا سلوك لطريقة الالتفات المتبعة كثيرا في كلام البلغاء. وقد مضى الكلام على ذلك في قوله تعالى: إياك نعبد في [الفاتحة: ٥] .
والالتفات هنا امتاز بلطائف:
منها: أنه لما استحضرت الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم.
ومنها: **الإيماء** إلى أن النبيء- عليه الصلاة والسلام- عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٥

من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.". (١)

٩٤٢. ١٥١-"وضمير كما دخلوه عائد إلى العباد المذكور في ذكر المرة الأولى بقرينة اقتضاء المعنى مراجع الضمائر كقوله تعالى: وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها [الروم: ٩] ، وقول عباس بن مرداس:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم ... بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا

فالسياق دال على معاد (أحرزوا) ومعاد (جمعوا) .

وسوء الوجوه: جعل المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتى تبدو على وجوهكم لأن ما يخالج الإنسان من غم وحزن، أو فرح ومسرة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد، كقول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق أراد إذا ما تفرق الناس وتظهر علامات الفرق في أعينهم.

ودخول المسجد دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله: كما دخلوه أول مرة المراد منه قوله: فجاسوا خلال الديار [الإسراء: ٥] .

والتتبير: الإهلاك والإفساد.

وما علوا موصول هو مفعول «يتبروا» ، وعائد الصلة محذوف لأنه متصل منصوب، والتقدير: ما علوه، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب.

ولم يعدهم الله في هذه المرة إلا بتوقع الرحمة دون رد الكرة، فكان **إيماء** إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة. وبهذا تبين أن المشار إليه بهذه المرة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبيء ملاخي في الإصحاحين الثالث والرابع من كتابه وأنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى (١) فلم يرعووا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥

(١) انظر الإصحاح الثالث من إنجيل مرقس الحوارى.". (١)

٩٤٣. ١٥٢-"وتأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه، وحال المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر، فالتوكيد مستعمل في معنييه دفع الإنكار والاهتمام، ولا تعارض بين الاعتبارين.

وقوله: هذا القرآن إشارة إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزل من القرآن قبل هذه الآية.

وبينت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويها بشأن القرآن.

وقد جاءت هذه الآية تنفيسا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قصت عن بني إسرائيل وما حل بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وفي التعبير للتي هي أقوم نكتة لطيفة ستأتي. وتلك عادة القرآن في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه.

وللتي هي أقوم صفة لمحذوف دل عليه يهدي، أي للطريق التي هي أقوم، لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفضيل القويم. والمعنى: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: وجعلناه هدى لبني إسرائيل [الإسراء: ٢] . ففيه **إيماء** إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم، لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم

المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٧

الطريقة". (١)

٩٤٤. ١٥٣-"وعجول: صيغة مبالغة في عاجل. يقال: عجل فهو عاجل وعجول.

وكتب في المصحف ويدع بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل كما كتب سندع الزبانية [العلق: ١٨] ونظائرها. قال الفراء: لو كتبت بالواو لكان صوابا.

[١٢]

[سورة الإسراء (١٧) : آية ١٢]

وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا (١٢)

عطف على ويدع الإنسان بالشر [الإسراء: ١١] ، إلخ. والمناسبة أن جملة ويدع الإنسان تتضمن أن الإبطاء تأخير الوعد لا يرفعه وأن الاستعجال لا يجدي صاحبه لأن لكل شيء أجلا، ولما كان الأجل عبارة عن أزمان كان مشتملا على ليل ونهار متقضيين. وهذا شائع عند الناس في أن الزمان متقض وإن طال.

فلما أريد التنبيه على ذلك أدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة، وكونهما منتين على الناس، وكون الناس ربما كرهوا

الليل لظلمته، واستعجلوا انقضاءه بطلوع الصباح في أقوال الشعراء وغيرهم، ثم بزيادة العبرة في أنهما ضدان، وفي كل منهما آثار النعمة المختلفة وهي نعمة السير في النهار.

واكتفى بعدها عن عد نعمة السكون في الليل لظهور ذلك بالمقابلة، وبتلك المقابلة حصلت نعمة العلم بعدد السنين والحساب لأنه لو كان الزمن كله ظلمة أو كله نورا لم يحصل التمييز بين أجزائه.

وفي هذا بعد ذلك كله إيماء إلى ضرب مثل للكفر والإيمان، وللضلال والهدى، فلذلك عقب

(١) التحرير والتنوير ١٥/٤٠

به قوله: وآتينا موسى الكتاب [الإسراء: ٢] الآية، وقوله:". (١)

٩٤٥. ١٥٤-"وتخصيص من بعد نوح إيجاز، كأنه قيل من قوم نوح فمن بعدهم، وقد جعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنه أول رسول، واعتبر القصص من بعده لأن زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان، ولأن العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم.

ووجه ذكره تذكير المشركين به وأن عذاب الله لا حد له، والتنبيه على أن الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق وناهيك بما حل بقوم نوح من العذاب المهول.

وجملة وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا إقبال على خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بالخصوص، لأن كل ما سبق من الوعيد والتهديد إنما مآله إلى حمل الناس على تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من القرآن بعد أن لجوا في الكفر وتفننوا في التكذيب، فلا جرم ختم ذلك بتطمين النبيء بأن الله مطلع على ذنوب القوم. وهو تعريض بأنه مجازيهم بذنوبهم بما يناسب فظاعتها، ولذلك جاء بفعل كفى وبوصفي خبيرا بصيرا المكنى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية والمعلومة من ضمائرهم أعني أعمالهم ونواياهم.

وقدم ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأن العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح.

وفي الحديث: «ألا وإن في الجسد مضعة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»

. وفي ذكر فعل (كفى) إيماء إلى أن النبيء غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربه فهو كافية وحسبه، قال: فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم [البقرة: ١٣٧] أو إلى أنه في غنية عن الهم في شأنهم كقوله لنوح: فلا تسئلن ما ليس لك به علم [هود: ٤٦] فهذا إما تسلية له عن أذاهم وإما صرف له عن التوجع لهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٤٣

وفي خطاب النبيء بذلك تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار.". (١)

٩٤٦. ١٥٥-"وعطف جملة جعلنا له جهنم بحرف (ثم) لإفادة التراخي الرتبي. وله ظرف مستقر هو المفعول الثاني ل جعلنا، قدم على المفعول الأول للاهتمام.

وجملة يصلاها مذموما مدحورا بيان أو بدل اشتمال لجملة جعلنا له جهنم ومذموما مدحورا حالان من ضمير الرفع في يصلاها يقال: صلي النار إذا أصابه حرقها.

والذم الوصف بالمعايب التي في الموصوف.

والمدحور: المطرود. يقال: دحره، والمصدر: الدحور، وتقدم عند قوله تعالى:

قال اخرج منها مذؤما مدحورا في سورة الأعراف [١٨] .

والاختلاف بين جملة من كان يريد العاجلة وجملة ومن أراد الآخرة بجعل الفعل مضارعا في الأولى وماضيا في الثانية للإيماء إلى أن إرادة الناس العاجلة متكررة متجددة. وفيه تنبيه على أن أمور العاجلة متقضية زائلة، وجعل فعل إرادة الآخرة، ماضيا لدلالة المضي على الرسوخ تنبيها على أن خير الآخرة أولى بالإرادة، ولذلك جردت الجملة من (كان) ومن المضارع، وما شرط في ذلك إلا أن يسعى للآخرة سعيها وأن يكون مؤمنا.

وحقيقة السعي المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنه يسير سيرا سريعا إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها. وإضافته إلى ضمير الآخرة من إضافة المصدر إلى مفعوله في المعنى، أي السعي لها، وهو مفعول مطلق لبيان النوع.

وفي الآية تنبيه على أن إرادة خير الآخرة من غير سعي غرور وأن إرادة كل شيء لا بد لنجاحها من السعي في أسباب حصوله. قال عبد الله بن المبارك:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٧/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٦٠/١٥

٩٤٧.	١٥٦-"مختصر الجامع أن رجلا سأل مالكا فقال: إن أبي في بلد السودان وقد كتب إلي أن أقدم عليه وأمي تمنعني من ذلك؟ فقال مالك: أطع أباك ولا تعص أمك. وذكر القرافي في المسألة السابعة من ذلك الفرق أن مالكا أراد منع الابن من الخروج إلى السودان بغير إذن الأم.

الثاني: قول الشافعية أن الأبوين سواء في البر. وهذا القول يقتضي وجوب طلب الترجيح إذا أمرا ابنهما بأمرين متضادين.

وحكى القرطبي عن المحاسبي في كتاب «الرعاية» أنه قال: لا خلاف بين العلماء في أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع. وحكى القرطبي عن الليث أن للأم ثلثي البر وللأب الثلث، بناء على اختلاف رواية الحديث المذكور أنه قال: ثم أبوك بعد المرة الثانية أو بعد المرة الثالثة.

والوجه أن تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأن محمل الحديث مع اختلاف روايتيه على أن الأم أرجح على الإجمال.

ثم أمر بالدعاء لهما برحمة الله إياهما وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلا بالابتهال إلى الله تعالى.

وهذا قد انتقل إليه انتقالا بديعا من قوله: واخفض لهما جناح الذل من الرحمة فكان ذكر رحمة العبد مناسبة للانتقال إلى رحمة الله، وتنبيها على أن التخلق بمحبة الولد الخير لأبويه يدفعه إلى معاملته إياهما به فيما يعلمانه وفيما يخفى عنهما حتى فيما يصل إليهما بعد مماتهما.

وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير»

. وفي الآية إيماء إلى أن الدعاء لهما مستجاب لأن الله أذن فيه. والحديث المذكور مؤيد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملا لأبويه.

وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلت على التخصيص كقوله: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين [التوبة: ١١٣] الآية.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢/١٥

٩٤٨. ١٥٧-"وأما الخطأ- بفتح الخاء والطاء- فهو ضد العمد. وفعله: أخطأ. واسم الفاعل مخطئ، قال تعالى: وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم [الأحزاب: ٥] . وهذه التفرقة هي سر العربية وعليها المحققون من أئمتها.

وقرأ الجمهور خطأ- بكسر الخاء وسكون الطاء بعدها همزة-، أي إثما. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو جعفر خطأ- بفتح الخاء وفتح الطاء-. والخطأ ضد الصواب، أي أن قتلهم محض خطأ ليس فيه ما يعذر عليه فاعله.

وقرأه ابن كثير خطاء- بكسر الخاء وفتح الطاء وألف بعد الطاء بعده همزة ممدودا-. وهو فعال من خطيء إذا أجرم، وهو لغة في خطء، وكأن الفعال فيها للمبالغة.

وأكد ب (إن) لتحقيقه ردا على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أن وأد البنات من السداد، ويقولون: دفن البنات من المكرمات. وأكد أيضا بفعل (كان) لإشعار (كان) بأن كونه إثما أمرا استقر.

[٣٢]

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٣٢]

ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا (٣٢)

عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات **إيماء** إلى أنهم كانوا يعدون من أعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأن في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يعرف للنسل مرجع يأوي إليه وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجرى الإضمار فيه بصيغة الجمع كما جرى في قوله: ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [الإسراء: ٣١] لمثل ما وجه به تغيير الأسلوب هنالك فإن المنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهل الجاهلية.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٩/١٥

٩٤٩. ١٥٨-"فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالا سيئا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية بل عليهم أن يتبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال: فلا يسرف في القتل.

والسرف: الزيادة على ما يقتضيه الحق، وليس خاصا بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة.

فالسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، أما مع القاتل وهو واضح كما قال المهلهل في الأخذ بثأر أخيه كليب:

كل قتيل في كليب غرة ... حتى يعم القتل آل مرة

وأما قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل فقد كانوا يقتنعون عن العجز عن القاتل بقتل رجل من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي يجعلون كليها متفاوتا بحسب شرف القتيل، كما قالت كبشة بنت معديكرب:

فيقتل جبرا بامرىء لم يكن له ... بواء ولكن لا تكايل بالدم

البواء: الكفء في الدم. تريد فيقتل القاتل وهو المسمى جبرا، وإن لم يكن كفؤا لعبد الله أخيها، ولكن الإسلام أبطل التكايل بالدم.

وضمير يسرف بياء الغيبة، في قراءة الجمهور، يعود إلى الولي مظنة السرف في القتل بحسب ما تعودوه. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف- بتاء الخطاب- أي خطاب للولي.

وجملة إنه كان منصورا استئناف، أي أن ولي المقتول كان منصورا بحكم القود فلما ذا يتجاوز الحد من النصر إلى الاعتداء والظلم بالسرف في القتل. حذرهم الله من السرف في القتل وذكرهم بأنه جعل للولي سلطانا على القاتل.

وقد أكد ذلك بحرف التوكيد وبإقحام (كان) الدال على أن الخبر مستقر الثبوت.

وفيه **إيماء** إلى أن من تجاوز حد العدل إلى السرف في القتل لا ينصر.". (١)

٩٥٠. ١٥٩-"ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه الخفي الإتيان بلفظ (سلطان) هنا الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق والصالح لإرادة إقامة السلطان، وهو الإمام الذي يأخذ الحقوق من المعتدين إلى المعتدى عليهم حين تنتظم جامعة المسلمين بعد الهجرة. ففيه

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/١٥

إيماء إلى أن الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، ولم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان. وهذا الحكم منوط بالقتل الحادث بين الأشخاص وهو قتل العدوان، فأما القتل الذي هو لحماية البيضة والذب عن الحوزة، وهو الجهاد، فله أحكام أخرى. وبهذا تعلم التوجيه للإتيان بضمير جماعة المخاطبين على ما تقدم في قوله تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [الإسراء: ٣١] وما عطف عليه من الضمائر.

واعلم أن جملة ومن قتل مظلوما معطوفة على جملة ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق عطف قصة على قصة اهتماما بهذا الحكم بحيث جعل مستقلا، فعطف على حكم آخر، وإلا فمقتضى الظاهر أن تكون مفصولة، إما استئنافا لبيان حكم حالة تكثر، وإما بدل بعض من جملة إلا بالحق.

و (من) موصولة مبتدأ مراد بها العموم، أي وكل الذي يقتل مظلوما. وأدخلت الفاء في جملة خبر المبتدأ لأن الموصول يعامل معاملة الشرط إذا قصد به العموم والربط بينه وبين خبره.

وقوله تعالى: فقد جعلنا لوليه سلطانا هو في المعنى مقدمة للخبر بتعجيل ما يطمئن نفس ولي المقتول. والمقصود من الخبر التفريع بقوله تعالى: فلا يسرف في القتل، فكان تقديم قوله تعالى: فقد جعلنا لوليه سلطانا تمهيدا لقبول النهي عن السرف في القتل، لأنه إذا كان قد جعل له سلطان فقد صار الحكم بيده وكفاه ذلك شفاء لغليله.". (١)

٩٥١. ١٦٠-"والإصفاء: جعل الشيء صفوا، أي خالصا، وتعدية أصفى إلى ضمير المخاطبين على طريقة الحذف والإيصال، وأصله: أفأصفى لكم. وقوله: بالبنين الباء فيه إما مزيدة لتوكيد لصوق فعل (أصفى) بمفعوله. وأصله: أفأصفى لكم ربكم البنين، كقوله تعالى: وامسحوا برؤسكم [المائدة: ٦] أو ضمن أصفى معنى آثر فتكون الباء للتعدية دالة على معنى الاختصاص بمجرورها، فصار (أصفى) مع متعلقه بمنزلة فعلين، أي قصر البنين عليكم دونه، أي جعل لم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم، وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها. وفساد ذلك ظاهر بأدنى نظر فإذا تبين فساده على هذا الوضع فقد تبين انتفاء وقوعه إذ هو غير لائق بجلال الله تعالى. وقد تقدم هذا عند قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٩٥

ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون في سورة النحل [٥٧] . وقوله: إن يدعون من دونه إلا إناثا في [النساء: ١١٧] .

وجملة إنكم لتقولون قولا عظيما تقرير لمعنى الإنكار وبيان له، أي تقولون: اتخذ الله الملائكة بنات. وأكد فعل «تقولون» بمصدره تأكيدا لمعنى الإنكار. وجعله مجرد قول لأنه لا يعدو أن يكون كلاما صدر عن غير روية، لأنه لو تأمله قائله أدنى تأمل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا.

والعظيم: القوي. والمراد هنا أنه عظيم في الفساد والبطلان بقرينة سياق الإنكار.

ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم، لأنه قول مدخول من جوانبه لاقتضائه إيثار الله بأدون صنفي البنوة مع تخويلهم الصنف الأشرف. ثم ما يقتضيه ذلك من نسبته خصائص الأجسام لله تعالى من تركيب وتولد واحتياج إلى الأبناء للإعانة وليخلفوا الأصل بعد زواله، فأي فساد أعظم من هذا.

وفي قوله: اتخذ **إيماء** إلى فساد آخر، وهو أنهم يقولون: اتخذ الله ولدا [البقرة: ١١٦] . والاتخاذ يقتضي أنه خلقه ليتخذه، وذلك ينافي التولد فكيف يلتئم". (١)

٩٥٢. ١٦١-"الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنبيها للمشركين على وجوب إقلاعهم عن بعثتهم وعنادهم، وتأمينا للنبيء صلى الله عليه وسلم من مكرهم به وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام.

وحقيقة الحجاب: الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه. وهو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبيء- عليه الصلاة والسلام- عن الإضرار به للإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه. وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمون ولا يفعلون، وذلك من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصممون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهمون. وذلك خلق يسري

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٨/١٥

إلى النفوس تدريجيا تغرسه في النفوس بادىء الأمر شهوة الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير ملكة في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره.

وإطلاق الحجاب على ما يصلح للمعنيين إما للحمل على حقيقة اللفظ، وإما للحمل على ما له نظير في القرآن. وقد جاء في الآية الأخرى ومن بيننا وبينك حجاب [فصلت: ٥] .

ولما كان إنكارهم البعث هو الأصل الذي استبعدوا به دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم حتى زعموا أنه يقول محالا إذ يخبر بإعادة الخلق بعد الموت وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة [سبأ: ٧- ٨] استحضروا في هذا الكلام بطريق الموصولة لما في الصلة من **الإيماء** إلى علة جعل ذلك الحجاب بينه وبينهم فلذلك قال: وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة.". (١)

٩٥٣. ١٦٢-"والمعنى: لو كنتم حجارة أو حديدا لأحياكم الله، لأنهم جعلوا كونهم عظاما حجة لاستحالة الإعادة، فرد عليهم بأن الإعادة مقدرة لله تعالى ولو كنتم حجارة أو حديدا، لأن الحجارة والحديد أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات إذ لم يسبق فيهما حلول الحياة قط بخلاف الرفات والعظام.

والتفريع في فسيقولون من يعيدنا على جملة قل كونوا حجارة أي قل لهم ذلك فسيقولون لك: من يعيدنا.

وجعل سؤالهم هنا عن المعيد لا عن أصل الإعادة لأن البحث عن المعيد أدخل في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع فإنهم نفوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلي لأن التسليم الجدلي أقوى، في معارضة الدعوى، من المنع.

والاستفهام في من يعيدنا تهكمي. ولما كان قولهم هذا محقق الوقوع في المستقبل أمر النبيء بأن يجيبهم عند ما يقولونه جواب تعيين لمن يعيدهم إبطالا للازم التهكم، وهو الاستحالة في نظرهم بقوله: قل الذي فطركم أول مرة إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم، لأن ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزيادة المحاجة، كقوله في

---

(١) التحرير والتنوير ١١٦/١٥

محاجة موسى لفرعون قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين [الشعراء: ٢٥- ٢٦] .

وجيء بالمسند إليه موصولا لقصد ما في الصلة من **الإيماء** إلى تعليل الحكم بأن الذي فطرهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم، كقوله تعالى: وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه [الروم: ٢٧] فإنه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر أن يخلقكم مرة ثانية. والإنغاض: التحريك من أعلى إلى أسفل والعكس. فإنغاض الرأس تحريكه كذلك، وهو تحريك الاستهزاء.". (١)

٩٥٤. ١٦٣-"وتغيير أسلوب الخطاب في قوله: وربك أعلم بعد قوله: ربكم أعلم بكم [الإسراء: ٥٤] **إيماء** إلى أن الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأن من شؤون النبيء صلى الله عليه وسلم التي لها مزيد اختصاص به، تقفية على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصفات الإلهية، بإبطال أقوالهم في أحوال النبي. ذلك أن المشركين لم يقبلوا دعوة النبيء بغرورهم أنه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم، وقالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولا، أبعث الله بشرا رسولا، فأبكتهم الله بهذا الرد بقوله: وربك أعلم بمن في السماوات والأرض فهو العالم حيث يجعل رسالته.

وكان قوله: وربك أعلم بمن في السماوات والأرض كالمقدمة لقوله: ولقد فضلنا بعض النبيئين الآية. أعاد تذكيرهم بأن الله أعلم منهم بالمستأهل للرسالة بحسب

ما أعده الله فيه من الصفات القابلة لذلك، كما قال الله تعالى عنهم قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته في سورة الأنعام [١٢٤] .

وكان الحكم في هذه المقدمة على عموم الموجودات لتكون بمنزلة الكلية التي يؤخذ منها كل حكم لجزئياتها، لأن المقصود بالإبطال من أقوال المشركين جامع لصور كثيرة من أحوال الموجودات من البشر والملائكة وأحوالهم لأن بعض المشركين أحالوا إرسال رسول من البشر، وبعضهم أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم، وبعضهم أحالوا إرسال من لا يأتي بمثل

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٨/١٥

ما جاء به موسى- عليه الصلاة والسلام-. وذلك يثير أحوالا جمة من العصور والرجال والأمم أحياء وأمواتا. فلا جرم كان للتعميم موقع عظيم في قوله: بمن في السماوات والأرض، وهو أيضا كالمقدمة لجملة ولقد فضلنا بعض النبيئين على بعض، مشيرا إلى أن تفاضل الأنبياء ناشىء على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضل. وهذا إيجاز تضمن إثبات النبوءة وتقررها فيما مضى ما لا قبل لهم بإنكاره، وتعدد الأنبياء مما". (١)

٩٥٥. ١٦٤-"يجعل محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل، وإثبات التفاضل بين الأفراد من البشر، فمنهم رسول ومنهم مرسل إليهم، وإثبات التفاضل بين أفراد الصنف الفاضل. وتقرر ذلك فيما مضى تقررا لا يستطيع إنكاره إلا مكابر بالتفاضل حتى بين الأفضلين سنة إلهية مقررة لا نكران لها. فعلم أن طعنهم في نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم طعن مكابرة وحسد. كما قال تعالى في شأن اليهود أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما في سورة النساء [٥٤]

.

وتخصيص داوود- عليه السلام- بالذكر عقب هذه القضية العامة وجهه صاحب «الكشاف» ومن تبعه بأن فائدة التلميح إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وأمته أفضل الأمم لأن في الزبور أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون. وهذا حسن. وأنا أرى أن يكون وجه هذا التخصيص **الإيماء** إلى أن كثيرا من الأحوال المرموقة في نظر الجاهلين وقاصري الأنظار بنظر الغضاضة هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال التي اصطفاها الله لها، وأن التفضيل بالنبوءة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة فإن داوود- عليه السلام- كان راعيا من رعاة الغنم في بني إسرائيل، وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داوود لمحاربة جالوت الكنعاني، فلما قتل داوود جالوت آتاه الله النبوءة وصيره ملكا لإسرائيل، فهو النبيء الذي تجلى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة.

وذكر إيتائه الزبور هو محل التعريض للمشركين بأن المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٣٦

لأن ذلك مكتوب في الزبور كما تقدم آنفا. وقد أوتي داوود الزبور ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتابا بعد موسى- عليه السلام-.

وذكر داوود تقدم في سورة الأنعام وفي آخر سورة النساء.". (١)

٩٥٦. ١٦٥-"المنون. والأصل فيها أن يكون الفعل بعدها منصوبا ب (أن) مضمرة، فإذا وقعت بعد عاطف جاز رفع المضارع بعدها ونصبه.

ويجوز أن تكون (إذا) ظرفا للزمان، وتنوينها عوض عن جملة محذوفة على قول جماعة من نحاة الكوفة، وهو غير بعيد. ألا ترى أنها إذا وقعت بعد عاطف لم ينتصب بعدها المضارع إلا نادرا لانتفاء معنى التسبب، ولأنها حينئذ لا يظهر فيها معنى الجواب والجزاء.

والتقدير: وإذا أخرجوك أو وإذا خرجت لا يلبثون خلفك إلا قليلا.

وقرأ الجمهور خلفك.

وخلفك أريد به بعدك. وأصل الخلف الوراء فاستعمل مجازا في البعدية، أي لا يلبثون بعدك.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، وخلف خلافك وهو لغة في خلف. وتقدم عند قوله تعالى: بمقعدهم خلاف رسول الله [التوبة: ٨١] .

واللبث: الاستقرار في المكان، أي لا يستقرون في مكة بل يخرجون منها فلا يرجعون. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك مهاجرا وكانوا السبب في خروجه فكأنهم أخرجوه، كما تقدم عند قوله تعالى: وأخرجوهم من حيث أخرجوكم في سورة البقرة [١٩١] ، فلم يلبث الذين تسببوا في إخراجه وألبوا عليه قومهم بعده إلا قليلا ثم خرجوا إلى وقعة بدر فلقوا حتفهم هنالك فلم يرجعوا وحق عليهم الوعيد، وأبقى الله عامتهم ودهاءهم لضعف كيدهم فأراد الله أن يدخلوا في الإسلام بعد ذلك.

وفي الآية إيماء إلى أن الرسول سيخرج من مكة وأن مخرجيه، أي المتسببين في خروجه، لا يلبثون بعده بمكة إلا قليلا.

والسنة: العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها. وتقدم القول في أنها اسم جامد أو اسم مصدر

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/١٥

عند قوله تعالى: قد خلت من قبلكم سنن [آل عمران: ١٣٦] ، أي عادة الله في كل".
(١)

٩٥٧. ١٦٦-"لكن رحمة من ربك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك فهو باق غير مذهوب به.

وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [الحجر: ٩] .

وموقع إن فضله كان عليك كبيرا موقع التعليل للاستثناء المنقطع، أي لكن رحمة من ربك منعت تعلق المشيئة بإذهاب الذي أوحينا إليك، لأن فضله كان عليك كبيرا فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك. وزيادة فعل (كان) لتوكيد الجملة زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع.

[٨٨]

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٨٨]

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨)

استئناف للزيادة في الامتنان. وهو استئناف بياني لمضمون جملة إن فضله كان عليك كبيرا [الإسراء: ٨٧] . وافتتاحه ب (قل) للاهتمام به. وهذا تنويه بشرف القرآن فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحديا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارا.

واللام موطئة للقسم.

وجملة لا يأتون بمثله جواب القسم المحذوف.

وجرد الجواب من اللام الغالب اقترانها بجواب القسم كراهية اجتماع لامين: لام القسم، ولام

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/١٥

النافية.". (١)

٩٥٨. ١٦٧-"حكاية كلامهم بالاستفهام الإنكاري. وإحالتهم ذلك مستندة إلى أنهم صاروا عظاما ورفاتا، أي بتعذر إعادة خلق أمثال تلك الأجزاء، ولم يستدلوا بدليل آخر، فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء أعظم منها من
عدم أوغل في الفناء دليلا يقطع دعواهم.
والاستفهام في أولم يروا إنكاري مشوب بتعجيب من انتفاء علمهم، لأنهم لما جرت عقائدهم على استبعاد البعث كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى، فيؤول الكلام إلى إثبات أنهم علموا ذلك في نفس الأمر.
والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنها عديت إلى كون الله قادرا، وذلك ليس من المبصرات.
والمعنى: أو لم يعلموا أن الله قادر على أن يخلق مثلهم.
وضمير مثلهم عائد إلى ما عاد إليه ضمير يروا وهو الناس في قوله:
وما منع الناس [الإسراء: ٩٤] أي المشركين.
والمثل: المماثل، أي قادر على أن يخلق ناسا أمثالهم، لأن الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أن الله قادر على أن يخلق خلقا آخر، ويكون في الآية **إيماء** إلى أن البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم، فيخلق لكل ميت جسد جديد على مثال جسده الذي كان في الدنيا وتوضع فيه الروح التي كانت له.
ويجوز أن يكون لفظ «مثل» هنا كناية عن نفس ما أضيف إليه، كقول العرب: مثلك لا يبخل، وقوله تعالى: ليس كمثله شيء [الشورى: ١١] على أحد تأويلين فيه، أي على جعل الكاف الداخلة على لفظ «مثله» غير زائدة. والمعنى: قادر على أن يخلقهم، أي أن يعيد خلقهم، فإن ذلك ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض.
ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث فقيل: تكون الإعادة عن عدم، وقيل تكون

(١) التحرير والتنوير ٢٠٢/١٥

عن جمع ما تفرق من الأجسام. وقيل: ينبت من عجب". (١)

٩٥٩. ١٦٨-"ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرة تلك النواة.

ووصف اسم الجلالة بالموصول **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وهو الإنكار عليهم، لأن خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه.

وجملة وجعل لهم أجلا لا ريب فيه معطوفة على جملة أولم يروا لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول، أي تحققوا أن الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلا لا ريب فيه.

والأجل: الزمان المجعول غاية يبلغ إليها في حال من الأحوال. وشاع إطلاقه على امتداد الحياة، وهو المدة المقدرة لكل حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو تقويها.

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جعل لوقوع البعث في علم الله تعالى.

ووجه كون هذا الجعل لهم أنهم داخلون في ذلك الأجل لأنهم من جملة من يبعث حينئذ، فتخصيصهم بالذكر لأنهم الذين أنكروا البعث، والمعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا.

ومعنى كون الأجل لا ريب فيه: أنه لا ينبغي فيه: ريب، وأن ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر، فهو من باب قوله: ذلك الكتاب لا ريب فيه [البقرة: ٢].

ويجوز أن يكون الأجل أجل الحياة، أي وجعل لحياتهم أجلا، فيكون استدلالا ثانيا على البعث، أي ألم يروا أنه جعل لهم أجلا لحياتهم، فما أوجدهم وأحياهم وجعل لحياتهم أجلا إلا لأنه سيعيدهم إلى حياة أخرى،". (٢)

٩٦٠. ١٦٩-"وإجراء هذه الصلات الثلاث على اسم الجلالة الذي هو متعلق الحمد لأن في هذه الصلاة **إيماء** إلى وجه تخصيصه بالحمد.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٠/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٢١/١٥

والإتيان بالمفعول المطلق بعد كبره للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم، ولأن من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.". (١)

٩٦١. ١٧٠-"أو تنزيلا للفعل منزلة اللازم لأن المقصود المنذر به وهو البأس الشديد تهويلا له ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله.

والبأس: الشدة في الألم. ويطلق على القوة في الحرب لأنها تؤلم العدو. وقد تقدم في قوله تعالى: والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس من سورة البقرة [١٧٧] .

والمراد هنا: شدة الحال في الحياة الدنيا، وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن، وعليه درج الطبري. وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين، وذلك بأس من لدنه تعالى لأنه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه، فاستعمال (لدن) هنا في معنييه الحقيقي والمجازي.

وليس في جعل الإنذار ببأس الدنيا علة لإنزال الكتاب ما يقتضي اقتصار علل إنزاله على ذلك، لأن الفعل الواحد قد تكون له علل كثيرة يذكر بعضها ويترك بعض.

وإنما آثرت الحمل على جعل اليأس الشديد بأس الدنيا للتقصي مما يرد على إعادة فعل وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا [الكهف: ٤] كما سيأتي.

ويجوز أن يراد بالبأس عذاب الآخرة فإنه بأس شديد، ويكون قوله: من لدنه مستعملا في حقيقته. وبهذا الوجه فسر جمهور المفسرين.

ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة وبأس عذاب الدنيا، وعلى هذا درج ابن عطية والقرطبي، ويكون استعمال من لدنه في معنييه الحقيقي والمجازي، أما في عذاب الآخرة فظاهر، وأما في عذاب الدنيا فلأن بعضه بالقتل والأسر وهما من أفعال الناس ولكن الله أمر المسلمين بهما فهما من لدنه.

وحذف مفعول لينذر لدلالة السياق عليه لظهور أنه ينذر الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولا

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٤٠

بالمنزل عليه، ولدلالة مقابله عليه في قوله: ويبشر المؤمنين.". (١)

٩٦٢. ١٧١-"ينذر السابق يعرف بها الفريق المنذرون بكلا الإنذارين، وهو يومىء إلى المنذرين المحذوف في قوله: لينذر بأسا شديدا [الكهف: ٢] ويغني عن ذكره. وهذه العلة أثارتها مناسبة ذكر التبشير قبلها، وقد حذف هنا المنذر به اعتمادا على مقابله المبشر به.
والمراد ب الذين قالوا اتخذ الله ولدا هنا المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأن عيسى ابن الله تعالى، لأن القرآن المكي ما تعرض للرد على أهل الكتاب مع تأهلهم للدخول في العموم لاتحاد السبب.
والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنهم قد عرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعا عليهم بهذه المقالة، وإيماء إلى أنهم استحقوا ما أنذروا به لأجلها ولغيرها، فمضمون الصلة من موجبات ما أنذروا به لأن العلل تتعدد.
والولد: اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى، يستوي فيه الواحد والجمع. وتقدم في قوله: قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه في سورة يونس [٦٨] .
وجملة ما لهم به من علم حال من الذين قالوا. والضمير المجرور بالباء عائد إلى القول المفهوم من قالوا.
و (من) لتوكيد النفي. وفائدة ذكر هذه الحال أنها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذبا ليست لهم فيه شبهة، فأطلق العلم على سبب العلم كما دل عليه قوله تعالى: ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه [المؤمنون: ١١٧] .
وضمير به عائد على مصدر مأخوذ من فعل قالوا، أي ما لهم بذلك القول من علم.
وعطف ولا لآبائهم لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون [الزخرف: ٢٣] ، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلدوهم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٢٥١/١٥

٩٦٣. ١٧٢-"كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع.

ووجه فصل الجملة أنها مخالفة للتي قبلها بالإنشائية المخالفة للخبرية.

وفعل كبرت- بضم الباء-. أصله: الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه، ويستعمل مجازا في الشدة والقوة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجيب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام.

ودل على قصد التعجيب منها انتصاب كلمة على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنه تمييز نسبة التعجيب، ومن أجل هذا مثلوا بهذه الآية لورود فعل الأصلي والمحول لمعنى المدح والذم في معنى نعم وبئس بحسب المقام.

والضمير في قوله: كبرت يرجع إلى الكلمة التي دل عليها التمييز.

وأطلقت الكلمة على الكلام وهو إطلاق شائع، ومنه قوله تعالى: إنها كلمة هو قائلها [المؤمنون: ١٠٠] ،

وقول النبيء صلى الله عليه وآله وسلم: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

وجملة تخرج من أفواههم صفة ل كلمة مقصود بها من جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها.

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلا لفظاعتها.

وفيه **إيماء** إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه، لأنه لاستحالته تتلقاه وتنطق به أفواههم وتسمعه أسماعهم ولا تتعقله عقولهم لأن المحال لا يعتقده العقل ولكنه يتلقاه المقلد دون تأمل.". (١)

٩٦٤. ١٧٣-"ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في شدة حرصه على اتباع قومه له وفي غمه من إعراضهم. وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبته فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم. ويكون حرف (على) ظرفا مستقرا

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٢

في موضع الحال من ضمير الخطاب، ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان.

وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في آخر أوقات رجائه في إيمانهم **إيماء** إلى أنهم غير صائرين إلى الإيمان، وتهيئة نفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم رأفة من ربه به، ولذلك قال: إن لم يؤمنوا بهذا الحديث بصيغة الفعل المضارع المقتضية الحصول في المستقبل، أي إن استمر عدم إيمانهم.

واسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن، لأنه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار. وبين بأنه الحديث.

والحديث: الخبر. وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنه إخبار من الله لرسوله، إذ الحديث هو الكلام الطويل المتضمن أخبارا وقصصا. سمي الحديث حديثا باعتبار اشتماله على الأمر الحديث، أي الذي حدث وجد، أي الأخبار المستجدة التي لا يعلمها المخاطب، فالحديث فعيل بمعنى مفعول. وانظر ما يأتي عند قوله تعالى: الله نزل أحسن الحديث في سورة الزمر [٢٣] .

وأسفا مفعول له من باخع نفسك أي قاتلها لأجل شدة الحزن، والشرط معترض بين المفعولين، ولا جواب له للاستغناء عن الجواب بما قبل الشرط.". (١)

٩٦٥. ١٧٤-"وأوى أويا إلى المكان: جعله مسكنا له، فالمكان: المأوى. وقد تقدم عند قوله تعالى: أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون في سورة يونس [٨] .

والفتية: جمع قلة لفتى، وهو الشاب المكتمل. وتقدم عند قوله تعالى في سورة يوسف. والمراد بالفتية: أصحاب الكهف. وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا، فعدل عن ذلك لما يدل عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السن. وذكرهم بهذا الوصف **للإيماء** إلى ما فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحق، ولذلك عدل عن الإضمار فلم يقل:

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٥

إذ أووا إلى الكهف.

ودلت الفاء في جملة فقالوا على أنهم لما أووا إلى الكهف بادروا بالابتهال إلى الله.

ودعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، أي أن يمن عليهم برحمة عظيمة تناسب عنايته باتباع الدين الذي أمر به، فزيادة من لدنك للتعلق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك، لأن في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقع ضدها، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة، ولئلا يلاقوا في اغترابهم مشقة وألما، وأن لا يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين.

ثم سألوا الله أن يقدر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق والنجاة من مناوأة المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشيء.

و (من) في قوله: من أمرنا ابتدائية.". (١)

٩٦٦. ١٧٥-"على عموم الناس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس، ودل علم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك.

وضمير «يقولون» عائد إلى غير مذكور لأنه معلوم من المقام، أي يقول الناس أو المسلمون، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنهم نبهوا إلى أن جميعه لا حجة لهم فيه.

ومعنى سين الاستقبال سار إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين، وليس في الانتهاء إلى عدد الثمانية إيماء إلى أنه العدة في نفس الأمر.

وقد أعلم الله أن قليلا من الخلق يعلمون عدتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك.

وفي مقدمتهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن قصتهم جاءت على لسانه فلا شك أن الله أطلعه على عدتهم.

وروي أن ابن عباس قال: أنا من القليل.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٦٦

وكأن أقوال الناس تمالأت على أن عدتهم فردية تيمنا بعدد المفرد، وإلا فلا دليل على ذلك دون غيره، وقد سمى الله قولهم ذلك رجما بالغيب.

والرجم حقيقته: الرمي بحجر ونحوه. واستعير هنا لرمي الكلام من غير روية ولا تثبت، قال زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجم والباء في بالغيب للتعدية، كأنهم لما تكلموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به.

وكل من جملة رابعهم كلبهم وجملة سادسهم كلبهم في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف.

وجملة وثامنهم كلبهم الواو فيها واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو وإن كان نكرة". (١)

٩٦٧. ١٧٦-"المصبورة وهي الدابة تشد لتجعل غرضا للرمي. ولتضمين فعل (اصبر) معنى الملازمة علق به ظرف (مع) .

والغداة قرأه الجمهور- بألف بعد الدال-: اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس.

والعشي: المساء. والمقصود أنهم يدعون الله دعاء متخللا سائر اليوم والليلة.

والدعاء: المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات.

والتعبير عنهم بالموصول **للإيماء** إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة. وقرأ ابن عامر بالغداة- بسكون الدال وواو بعد الدال مفتوحة- وهو مرادف الغداة.

وجملة يريدون وجهه في موضع الحال. ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.

ثم أكد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم.

وظاهر ولا تعد عيناك عنهم نهي العينين عن أن تعدوا عن الذين يدعون ربهم، أي أن تجاوزاهم، أي تبعدا عنهم. والمقصود: الإعراض، ولذلك ضمن فعل العدو معنى الإعراض، فعدي إلى المفعول ب (عن) وكان حقه أن يتعدى إليه بنفسه يقال: عداه، إذا جاوزه. ومعنى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩١/١٥

نهي العينين نهي صاحبهما، فيؤول إلى معنى: ولا تعدي عينيك عنهم.

وهو إيجاز بديع.

وجملة تريد زينة الحياة الدنيا حال من كاف الخطاب، لأن المضاف جزء من المضاف إليه، أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت.

وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همهم الصور الظاهرة.". (١)

٩٦٨. ١٧٧-"وجملة وإن تدعهم إلى الهدى عطف على جملة إنا جعلنا على قلوبهم، وهي متفرعة عليها، ولكنها لم تعطف بالفاء لأن المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقل.

وأكد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو (لن) ، وبلفظ (أبدا) المؤكد لمعنى (لن) ، وبحرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط.

وإنما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني، أي ذلك مسبب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحق.

[٥٨]

[سورة الكهف (١٨) : آية ٥٨]

وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا (٥٨)

جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم إمهالا للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلهم يشكرون، موجها الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وآله وسلم مفتتحا باستحضار الجلالة بعنوان الربوبية للنبيء

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٥/١٥

صلى الله عليه وآله وسلم إيماء إلى أن مضمون الخبر تكريم له، كقوله: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم [الأنفال: ٣٣] .

والوجه في نظم الآية أن يكون الغفور نعتا للمبتدأ ويكون ذو الرحمة هو الخبر لأنه المناسب للمقام ولما بعده من جملة لو يؤاخذهم، فيكون ذكر الغفور إدماجا في خلال المقصود. فخص بالذكر من أسماء الله تعالى اسم الغفور تعريضا بالترغيب في الاستغفار.". (١)

٩٦٩. ١٧٨-"وفي هذا أصل من أصول التعليم أن ينبه المعلم المتعلم بعوارض موضوعات العلوم الملقنة لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة.

وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي لوقوعه نكرة في سياق النفي، وأن المنفي استطاعته الصبر المفيد أنه لو تجشم أن يصبر لم يستطع ذلك، فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه.

وزيادة معي إيماء إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره فانتفاء الصبر على أعماله أجدر.

وجملة وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا في موضع الحال من اسم (إن) أو من ضمير تستطيع، فالواو واو الحال وليست واو العطف لأن شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأن بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلة للأولى. وإنما أوثر مجيئها في صورة الجملة الحالية، دون أن تفصل عن الجملة الأولى فتقع علة مع أن التعليل هو المراد، للتنبيه على أن مضمونها علة ملازمة لمضمون التي قبلها إذ هي حال من المسند إليه في الجملة قبلها.

و (كيف) للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خبرا.

والخبر- بضم الخاء وسكون الباء-: العلم. وهو منصوب على أنه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله: ما لم تحط به، أي إحاطة من حيث العلم.

والإحاطة: مجاز في التمكن، تشبيها لقوة تمكن الاتصاف بتمكن الجسم المحيط بما أحاط به.

وقوله: ستجدني إن شاء الله صابرا أبلغ في ثبوت الصبر من نحو: سأصبر، لأنه يدل على

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٦/١٥

حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه. وظاهر أن متعلق الصبر هنا هو الصبر على ما من شأنه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في". (١)

٩٧٠. ١٧٩-"يقل: جزاؤهم الجنة. وقد تقدم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة: إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها [الكهف: ٢٩] ثم قوله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا [الكهف: ٣٠].

وفي الإتيان ب كانت دلالة على أن استحقاقهم الجنات أمر مستقر من قبل مهيأ لهم.

وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنهم نالوا الجنة باستحقاق إيمانهم وعملهم.

كما قال تعالى: وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون [الزخرف: ٧٢] .

وجمع الجنات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنها جنان كثيرة كما

جاء في الحديث: «إنها جنان كثيرة»

. والفردوس: البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين، وعن مجاهد هو معرب عن الرومية. وقيل عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي، أي ليس معربا. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن. وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمى باب الفراديس.

وإضافة الجنات إلى الفردوس بيانية، أي جنات هي من صنف الفردوس.

وورد في

الحديث أن الفردوس أعلى الجنة أو وسط الجنة

. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنه علم بالغلبة.

فإن حملت هذه الآية عليه كانت إضافة جنات إلى الفردوس إضافة حقيقية، أي جنات هذا المكان.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٢/١٥

(٢) التحرير والتنوير ٥٠/١٦

٩٧١. ١٨٠-"وفسر أيضا سويا بأنه حال من ضمير المخاطب، أي حال كونك سويا، أي بدون عاهة الخرس والبكم، ولكنها آية لك اقتضتها الحكمة التي بيناها في سورة آل عمران. وعلى هذا فذكر الوصف لمجرد تأكيد الطمأنينة، وإلا فإن تأجيله بثلاث ليال كاف في الاطمئنان على انتفاء العاهة.

[١١]

[سورة مريم (١٩) : آية ١١]

فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١)

الظاهر أن المعنى أنه خرج على قومه ليصلي على عادته، فكان في محرابه في صلاة خاصة ودعاء خفي، ثم خرج لصلاة الجماعة إذ هو الحبر الأعظم لهم.

وضمن خرج معنى طلع فعدي ب على كقوله تعالى: فخرج على قومه في زينته [القصص: ٧٩] .

والمحراب: بيت أو محتجر يخصص للعبادة الخاصة. قال الحريري: فمحرابي أحرى بي.

والوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها، والإيماء لإفادة معنى شأنه أن يفاد بالكلام.

و (أن) تفسيرية. وجملة سبحوا بكرة وعشيا تفسير (لأوحى) ، لأن (أوحى) فيه معنى القول دون حروفه.

وإنما أمرهم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكرياء لما لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف". (١)

٩٧٢. ١٨١-"ولو فعل أحد صمتا بدون نذر ولا قصد عبادة لم يكن حراما إلا إذا بلغ إلى حد المشقة المضنية.

وقد بقي عند النصارى اعتبار الصمت عبادة وهم يجعلونه ترحما على الميت أن يقفوا صامتين هنيهة.

ومعنى فقولي إني نذرت للرحمن صوما فانذري صوما وإن لقيت من البشر أحدا فقولي: إني

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤/١٦

نذرت صوما فحذفت جملة للقرينة. وقد جعل القول المتضمن إخبارا بالنذر عبارة عن إيقاع النذر وعن الإخبار به كناية عن إيقاع النذر لتلازمهما لأن الأصل في الخبر الصدق والمطابقة للواقع مثل قوله تعالى: قولوا آمنا بالله [البقرة: ١٣٦] . وليس المراد أنها تقول ذلك ولا تفعله لأن الله تعالى لا يأذن في الكذب إلا في حال الضرورة مع عدم تأتي الصدق معها، ولذلك جاء في الحديث: «إن في المعاريض مندوحة عن الكذب»

. وأطلق القول على ما يدل على ما في النفس، وهو **الإيماء** إلى أنها نذرت صوما مجازا بقرينة قوله فلن أكلم اليوم إنسيا. فالمراد أن تؤدي ذلك بإشارة إلى أنها نذرت صوما بأن تشير إشارة تدل على الانقطاع عن الأكل، وإشارة تدل على أنها لا تتكلم لأجل ذلك، فإن كان الصوم في شرعهم مشروطا بترك الكلام كما قيل فالإشارة الواحدة كافية، وإن كان الصوم عبادة مستقلة قد يأتي بها الصائم مع ترك الكلام تشير إشارتين للدلالة على أنها نذرت الأمرين، وقد علمت مريم أن الطفل الذي كلمها هو الذي يتولى الجواب عنها حين تسأل بقرينة قوله تعالى: فأشارت إليه [مريم: ٢٩] .". (١)

٩٧٣. ١٨٢-"في سورة البقرة [٢٤٦] عند قوله: إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا، فدل ذلك على أن قوله لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر

إنما كان عن وحي من الله ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام.

وقرأ الجمهور نبيا بياء مشددة بتخفيف الهمزة ياء لثقلها ولمناسبة الكسرة. وقرأه نافع وحده (نبيئا) بهمزة آخره، وبذلك تصير الفاصلة القرآنية على حرف الألف، ومثل تلك الفاصلة كثير في فواصل القرآن.

وقوله: إذ قال لأبيه

إلخ بدل اشتمال من (إبراهيم) . و (إذ) اسم زمان مجرد عن الظرفية لأن (إذ) ظرف متصرف على التحقيق. والمعنى: اذكر إبراهيم زمان قوله لأبيه فإن ذلك الوقت أجدر أوقات إبراهيم بأن يذكر.

وأبو إبراهيم هو (آزار) تقدم ذكره في سورة الأنعام.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٩٣

وافتتح إبراهيم خطابه أباه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه.

قال الجد الوزير رحمه الله فيما أملاه علي ذات ليلة من عام ١٣١٨ هـ فقال:

«علم إبراهيم أن في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة **إيماء** إلى أنه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ، منبها على خطئه عند ما يتأمل في عمله، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب

عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالا ففطن بخطل رأيه". (١)

٩٧٤. ١٨٣-"والحفي: الشديد البر والإلطاف. وتقدم في سورة الأعراف [١٨٧] عند قوله:

يسئلونك كأنك حفي عنها.

وجملة وأعتزلكم عطف على جملة سأستغفر لك ربي، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إياكم الآن، لأن المضارع غالب في الحال. أظهر إبراهيم العزم على اعتزالهم وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى، وهو المحكي بقوله تعالى: وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين [الصافات: ٩٩] ، وقد خرج من بلد الكلدان عازما على الالتحاق بالشام حسب أمر الله تعالى.

رأى إبراهيم أن هجرانه أباه غير مغن، لأن بقية القوم هم على رأي أبيه فرأى أن يهجرهم جميعا، ولذلك قال له وأعتزلكم.

وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه تنزيلا لهم منزلة الحضور في

ذلك المجلس، لأن أباه واحد منهم وأمرهم سواء، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم.

وعطف على ضمير القوم أصنامهم للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلانا بتغيير المنكر.

---

(١) التحرير والتنوير ١١٣/١٦

وعبر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله ما تدعون من دون الله **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وعلة اعتزاله إياهم وأصنامهم: بأن تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها، فذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم.

والدعاء: العبادة، لأنها تستلزم دعاء المعبود.

وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعو الله احتراسا من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما". (١)

٩٧٥. ١٨٤-"والإرث: مستعمل مجازا في السلب والأخذ، أو كناية عن لازمه وهو الهلاك.

والمقصود: تذكيره بالموت، أو تهديده بقرب هلاكه.

ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإن العاصي ولد عمرا الصحابي الجليل وهشاما الصحابي الشهيد يوم أجنادين، فهنا بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم ونكاية وكمد للعاصي بن وائل.

والفرد: الذي ليس معه ما يصير به عددا، إشارة إلى أنه يحشر كافرا وحده دون ولده، ولا مال له، وفردا حال.

[٨١- ٨٢]

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨١ إلى ٨٢]

واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢)

عطف على جملة ويقول الإنسان أإذا ما مت [مريم: ٦٦] فضمير اتخذوا عائد إلى الذين أشركوا لأن الكلام جرى على بعض منهم.

والاتخاذ: جعل الشخص الشيء لنفسه، فجعل الاتخاذ هنا الاعتقاد والعبادة. وفي فعل الاتخاذ **إيماء** إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر الله به كما قال تعالى عن إبراهيم: قال أتعبدون ما تنحتون [الصافات: ٩٥] .

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٢٢

وفي قوله من دون الله **إيماء** إلى أن الحق يقتضي أن يتخذوا الله إلها، إذ بذلك تقرر الاعتقاد الحق من مبدإ الخليقة، وعليه دلت العقول الراجحة.

ومعنى ليكونوا لهم عزا ليكونوا معزين لهم، أي ناصرين، فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنهم نفس العز، أي أن مجرد الانتماء لها يكسبهم عزا.". (١)

٩٧٦. ١٨٥-"وذكر الرحمن هنا حكاية لقولهم بالمعنى، وهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] ، فهم إنما يقولون: اتخذ الله ولدا كما حكي عنهم في آيات كثيرة منها آية سورة الكهف [٤] . فذكر الرحمن هنا وضع للمرادف في موضع مرادفه، فذكر اسم الرحمن لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.

وفيه أيضا **إيماء** إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمان اتخاذ الولد كما سيأتي في قوله: وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا.

والخطاب في لقد جئتم للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد، كما تقدم في قوله آنفا:

وإن منكم إلا واردها [مريم: ٧١] فلا يحسن تقدير: قل لقد جئتم.

وجملة لقد جئتم شيئا إدا مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة وقالوا اتخذ الرحمن ولدا من التشنيع والتفظيع.

وقرأ نافع والكسائي بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث، وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعا لضمير مؤنث متصل، وقرأ البقية: تكاد بالتاء المثناة الفوقية، وهو الوجه الآخر.

والتفطر: الانشقاق، والجمع بينه وبين وتنشق الأرض تفنن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ. والخرور: السقوط.

ومن في قوله: منه للتعليل، والضمير المجرور بمن عائد إلى شيئا إدا، أو إلى القول المستفاد من

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٦٣

قالوا اتخذ الرحمن ولدا.". (١)

٩٧٧. ١٨٦-"ومعنى آتي الرحمن عبدا: الإتيان المجازي، وهو الإقرار والاعتراف، مثل: باء بكذا، أصله رجع، واستعمل بمعنى اعترف.

وعبدا حال، أي معترف لله بالإلهية غير مستقل عنه في شيء في حال كونه عبدا.

ويجوز جعل آتي الرحمن بمعنى صائر إليه بعد الموت، ويكون المعنى أنه يحيا عبدا ويحشر عبدا بحيث لا تشوبه نسبة البنوة في الدنيا ولا في الآخرة.

وتكرير اسم الرحمن في هذه الآية أربع مرات **إيماء** إلى أن وصف الرحمان الثابت لله، والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته لله وإن أنكروا لفظه، ينافي ادعاء الولد له لأن الرحمان وصف يدل على عموم الرحمة وتكثرها. ومعنى ذلك: أنها شاملة لكل موجود، فذلك يقتضي أن كل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى، ولا يتقوم ذلك إلا بتحقق العبودية فيه. لأنه لو كان بعض الموجودات ابنا لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالبنوة مساويا له في الإلهية المقتضية الغنى المطلق، ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له، وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة.

فذكر هذا الوصف عند قوله: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا وقوله أن دعوا للرحمن ولدا تسجيل لغباوتهم.

وذكره عند قوله: وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا **إيماء** إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن بالله.

وذكره عند قوله: إلا آتي الرحمن عبدا استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها.". (٢)

٩٧٨. ١٨٧-"والذكر يجوز أن يكون بمعنى التذكر بالعقل، ويجوز أن يكون الذكر باللسان.

واللام في لذكري للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، لأن الصلاة تذكر العبد بخالقه.

إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته. ففي هذا الكلام **إيماء** إلى حكمة مشروعية

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٠/١٦

(٢) التحرير والتنوير ١٧٣/١٦

الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [العنكبوت: ٤٥] يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة لأن المكلف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه والله عرف موسى حكمة الصلاة مجملة وعرفها محمدا صلى الله عليه وسلم مفصلة.

ويجوز أن يكون اللام أيضا للتوقيت، أي أقم الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري. ويجوز أن يكون الذكر الذكر اللساني لأن ذكر اللسان يحرك ذكر القلب ويشتمل على الثناء على الله والاعتراف بما له من الحق، أي الذي عينته لك. ففي الكلام **إيماء** إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة، وفي الكلام حذف يعلم من السياق.

وجملة إن الساعة آتية مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء.

والساعة: علم بالغلبة على ساعة القيامة أو ساعة الحساب.

وجملة أكاد أخفيها في موضع الحال من الساعة، أو معترضة بين جملة وعلتها.

والإخفاء: الستر وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام.

والمشهور في الاستعمال أن «كاد» تدل على مقاربة وقوع الفعل المخبر به عنها، فالفعل بعدها في حيز الانتفاء، فقوله تعالى:". (١)

٩٧٩. ١٨٨-"وفرع على كونها آتية وأنها مخفاة التحذير من أن يصده عن الإيمان بها قوم لا يؤمنون بوقوعها اغترارا بتأخر ظهورها، فالتفريع على قوله أكاد أخفيها أوقع لأن ذلك الإخفاء هو الذي يشبه به الذين أنكروا البعث على الناس، قال تعالى: فسينغضون إليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا [الإسراء: ٥١] وقال: وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين [الجاثية: ٣٢] .

وصيغ نهي موسى عن الصد عنها في صيغة نهي من لا يؤمن بالساعة عن أن يصد موسى عن الإيمان بها، مبالغة في نهي موسى عن أدنى شيء يحول بينه وبين الإيمان بالساعة، لأنه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/١٦

لما وجه الكلام إليه وكان النهي نهي غير المؤمن عن أن يصد موسى، علم أن المراد نهي موسى عن ملابسة صد الكافر عن الإيمان بالساعة، أي لا تكن لين الشكيمة لمن يصدك ولا تصغ إليه فيكون لينك له مجرئا إياه على أن يصدك، فوقع النهي عن المسبب. والمراد النهي عن السبب، وهذا الأسلوب من قبيل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا ولا أرينك هاهنا.

وزيادة واتبع هواه **للإيماء** بالصلة إلى تعليل الصد، أي لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى دون دليل ولا شبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة كما أشار إليه قوله لتجزى كل نفس بما تسعى.

وفرع على النهي أنه إن صد عن الإيمان بالساعة ردي، أي هلك. والهلاك مستعار لأسوأ الحال كما في قوله تعالى: يهلكون أنفسهم في سورة براءة [٤٢] .

والتفريع ناشىء عن ارتكاب المنهي لا على النهي، ولذلك جيء بالتفريع بالفاء ولم يقع بالجزاء المجزوم، فلم يقل: ترد، لعدم صحة". (١)

٩٨٠. ١٨٩-"عليها الشك في إمكان استتار المعتاد بساتر خفي أو تخييل، فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه. فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسئول عنه.

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه في مقام الاصطفاء، وأن الكلام الذي سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلم معتاد ولا في صورة المعتاد، كما دل عليه قوله بعد ذلك لنريك من آياتنا الكبرى [طه: ٢٣] .

فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه. وبنيت الإشارة بالظرف المستقر وهو قوله بيمينك، ووقع الظرف حالا من اسم الإشارة، أي ما تلك حال كونها بيمينك؟.

ففي هذا **إيماء** إلى أن السؤال عن أمر غريب في شأنها، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسئول عنه جريا على الظاهر، وببيان بعض منافعها استقصاء لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأن شأن الواضحات أن لا يسأل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٦

عنها إلا والسائل يريد من سؤاله أمرا غير ظاهر، ولذلك لما
قال النبيء صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: «أي يوم هذا؟» سكت الناس وظنوا أنه سيسميه بغير اسمه. وفي رواية أنهم قالوا: «الله ورسوله أعلم، فقال: أليس يوم الجمعة؟ ... » إلى آخره.
فابتدأ موسى ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسئول عنه، وتوقع أن السؤال عنه توسل لتطلب بيان وراءه. فقال: هي عصاي، بذكر المسند إليه، مع أن غالب الاستعمال حذفه في مقام السؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولا". (١)

٩٨١. ١٩٠-"المتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته. لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى في سورة العقود [٣١] فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض.
والتارة: المرة، وجمعها تارات. وأصل ألفها الواو. وقال ابن الأعرابي: أصل ألفها همزة فلما كثر استعمالهم لها تركوا الهمزة. وقال بعضهم: ظهر الهمز في جمعها على فعل فقالوا: تئر بالهمز. ويظهر أنها اسم جامد ليس له أصل مشتق منه.
والإخراج: هو إخراجها إلى الحشر بعد إعادة هياكل الأجسام في داخل الأرض، كما هو ظاهر قوله ومنها نخرجكم، ولذلك جعل الإخراج تارة ثانية للخلق الأول من الأرض. وفيه **إيماء** إلى أن إخراج الأجساد من الأرض بإعادة خلقها كما خلقت في المرة الأولى، قال تعالى: كما بدأنا أول خلق نعيده [الأنبياء: ١٠٤] .
[٥٦]

[سورة طه (٢٠) : آية ٥٦]

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢٠٥

ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦)

رجوع إلى قصص موسى- عليه السلام- مع فرعون. وهذه الجملة بين الجمل التي حكت محاورة موسى وفرعون وقعت هذه كالمقدمة لإعادة سوق ما جرى بين موسى

وفرعون من المحاورة. فيجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة: قال فمن ربكما يا موسى [طه: ٤٩] باعتبار". (١)

٩٨٢. ١٩١-"[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٧٣)

أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل صدق.

والإيثار: التفضيل. وتقدم في قوله تعالى: لقد آثرك الله علينا في سورة يوسف [٩١] . والتفضيل بين فرعون وما جاءهم من البينات مقتض حذف مضاف يناسب المقابلة بالبينات، أي لن نؤثر طاعتك أو دينك على ما جاءنا من البينات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى، وبذلك يلتئم عطف والذي فطرنا، أي لا نؤثرك في الربوبية على الذي فطرنا.

وجيء بالموصول **للإيماء** إلى التعليل، لأن الفاطر هو المستحق بالإيثار.

وأخر الذي فطرنا عن ما جاءنا من البينات لأن البينات دليل على أن الذي خلقهم أراد منهم الإيمان بموسى ونبذ عبادة غير الله، ولأن فيه تعريضا بدعوة فرعون للإيمان بالله.

وصيغة الأمر في قوله فاقض ما أنت قاض مستعملة في التسوية، لأن ما أنت قاض ما صدقه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/١٦

ما توعدهم به من تقطيع". (١)

٩٨٣. ١٩٢-"فجملة ولقد أوحينا إلى موسى ابتدائية، والواو عاطفة قصة على قصة وليست عاطفة بعض أجزاء قصة على بعض آخر.

وأسر أمر من السرى- بضم السين وفتح الراء- وتقدم في سورة الإسراء أنه يقال: سرى وأسرى. وإنما أمره الله بذلك تجنبا لنكول فرعون عليهم. والإضافة في قوله بعبادي لتشريفهم وتقريبهم والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسوا عبيدا لفرعون.

والضرب: هنا بمعنى الجعل كقولهم: ضرب الذهب دنانير. وفي الحديث: «واضربوا إلي معكم بسهم» ، وليس هو كقوله أن اضرب بعصاك البحر [الشعراء: ٦٣] لأن الضرب هنالك متعد إلى البحر وهنا نصب طريقا.

واليبس- بفتح المثناة والموحدة-. ويقال:- بسكون الموحدة-: وصف بمعنى اليابس. وأصله مصدر كالعدم والعدم، وصف به للمبالغة ولذلك لا يؤنث فقالوا: ناقة يبس إذا جف لبنها.

ولا تخاف مرفوع في قراءة الجمهور، وعد لموسى اقتصر على وعده دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى.

والجملة في موضع الحال.

وقرأ حمزة وحده لا تخف على جواب الأمر الذي في قوله فاضرب، وكلمة تخف مكتوبة في المصاحف بدون ألف لتكون قراءتها بالوجهين لكثرة نظائر هذه الكلمة ذات الألف في وسطها في رسم المصحف ويسميه المؤدبون «المحذوف» .

وأما قوله ولا تخشى فالإجماع على قراءته بألف في آخره. فوجه قراءة حمزة فيها مع أنه قرأ بجزم المعطوف عليه". (٢)

٩٨٤. ١٩٣-"والتشبيه راجع إلى تشبيهها بنفسها كناية عن كونها إذا أريد تشبيهها وتقريبها بما هو أعرف منها في بابها لم يجد مريد ذلك طريقا لنفسه في التشبيه إلا أن يشبهها بنفسها،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٦/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٠/١٦

لأنها لا يفوقها غيرها في بابها حتى تقرب به، على نحو ما تقدم في قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا في سورة البقرة [١٤٣] ، ونظائره كثيرة في القرآن.
و (من) في قوله من أنباء ما قد سبق تبعيضية، هي صفة لمحذوف تقديره: قصصا من أنباء ما قد سبق. ولك أن تجعل (من) اسما بمعنى بعض، فتكون مفعول نقص.
والأنباء: الأخبار. و (ما) الموصولة ما صدقها الأزمان، لأن الأخبار تضاف إلى أزمانها، كقولهم: أخبار أيام العرب، والقرون الوسطى. وهي كلها من حقها في الموصولية أن تعرف ب (ما) الغالبة في غير العاقل. ومعلوم أن المقصود ما فيها من أحوال الأمم، فلو عرفت ب (من) الغالبة في العقلاء لصح ذلك وكل ذلك واسع.
وقوله وقد آتيناك من لدنا ذكرا **إيماء** إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها. **فللإيماء** إلى هذا قال تعالى: وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه.
وتنكير ذكرا للتعظيم، أي آتيناك كتابا عظيما. وقوله من لدنا توكيد لمعنى آتيناك وتنويه بشأن القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده.". (١)

٩٨٥. ١٩٤-"وعبر ب يحدث **إيماء** إلى أن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكرا لم يكن من قبل، قال ذو الرمة:
ولما جرت في الجزل جريا كأنه ... سنا الفجر أحدثنا لخالقها شكرا
و (لعل) للرجاء، أي أن حال القرآن أن يقرب الناس من التقوى والتذكر، بحيث يمثل شأن من أنزله وأمر بما فيه بحال من يرجو فيلفظ بالحرف الموضوع لإنشاء الرجاء.
فحرف (لعل) استعارة تبعية تنبيء عن تمثيلية مكنية، وقد مضى معنى (لعل) في القرآن عند قوله تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون في سورة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٢/١٦

البقرة [٢١] .

وجملة فتعالى الله الملك الحق معترضة بين جملة وكذلك أنزلناه وبين جملة ولا تعجل بالقرآن.

وهذا إنشاء ثناء على الله منزل القرآن وعلى منة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بين لعباده من وسائل الإصلاح وحملهم عليه بالترغيب والترهيب وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام وأحسن أسلوب فهو مفرع على ما تقدم من قوله وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا إلى آخرها ...

والتفريع مؤذن بأن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كل ذلك ناشىء عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة.

وفي وصفه بالحق إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص كما قال تعالى: الملك يومئذ الحق للرحمن [الفرقان: ٢٦] .

وفي الحديث: «فيقول الله أنا الملك أين ملوك الأرض»

، أي أحضروهم هل تجدون منهم من ينازع في ذلك، كقول الخليفة معاوية حين خطب في المدينة «يا أهل المدينة أين علماؤكم» ." (١)

٩٨٦. ١٩٥-"ويجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل آياته.

فعن ابن عباس: كان النبيء يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل حرصا على الحفظ وخشية من النسيان فأنزل الله ولا تعجل بالقرآن الآية. وهذا كما قال ابن عباس في قوله تعالى:

لا تحرك به لسانك لتعجل به

[القيامة: ١٦] كما في «صحيح البخاري» . وعلى هذين التأويلين يكون المراد بقضاء وحيه إتمامه وانتهاؤه، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النزول.

وعن مجاهد وقتادة أن معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تمله عليهم حتى تتبين لك معانيه. وعلى هذا التأويل يكون قضاء الوحي تمام معانيه. وعلى كلا التفسيرين يجري اعتبار موقع قوله وقل رب زدني علما.

وقرأ الجمهور يقضى بتحتية في أوله مبنيا للنائب، ورفع وحيه على أنه نائب الفاعل. وقرأه

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٣١٥

يعقوب- بنون العظمة وكسر الضاد وبفتحة على آخر نقضي وبنصب وحيه.
وعطف جملة وقل رب زدني علما يشير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأن الباعث على الاستعجال محمود. وفيه تلطف مع النبيء صلى الله عليه وسلم إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعا وفهما، إيماء إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة
كقول النبيء صلى الله عليه وسلم لأبي بكر حين دخل المسجد فوجد النبيء راكعا فلم يلبث أن يصل إلى الصف بل ركع ودب إلى الصف راكعا فقال له: «زادك الله حرصا ولا تعد»
." (١)

٩٨٧. ١٩٦-"وذكرت تفصيلا هنا، فابتدئ في ذكر متعلق عداوته بآدم لأن آدم هو منشأ عداوة الشيطان لحسده، ثم أتبع بذكر زوجه لأن عداوته إياها تبع لعداوته آدم زوجها، وكانت عداوته متعلقة بكليهما لاتحاد علة العداوة، وهي حسده إياهما على ما وهبهما الله من علم الأسماء الذي هو عنوان الفكر الموصل إلى الهدى وعنوان التعبير عن الضمير الموصل للإرشاد، وكل ذلك مما يبطل عمل الشيطان ويشق عليه في استهوائهما واستهواء ذريتهما، ولأن الشيطان رأى نفسه أجدر بالتفضيل على آدم فحنق لما أمر بالسجود لآدم.
فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى (١١٩) قوله فلا يخرجنكما من الجنة تفريع على الإخبار بعداوة إبليس له ولزوجه: بأن نهيا نهي تحذير عن أن يتسبب إبليس في خروجهما من الجنة، لأن العدو لا يروقه صلاح حال عدوه. ووقع النهي في صورة نهي عن عمل هو من أعمال الشيطان لا من أعمال آدم كناية عن نهي آدم عن التأثر بوسائل إخراجهما من الجنة، كما يقال: لا أعرفنك تفعل كذا، كناية عن: لا تفعل، أي لا تفعل كذا حتى أعرفه منك، وليس المراد النهي عن أن يبلغ إلى المتكلم خبر فعل المخاطب.
وأسند ترتب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه إيجازا، لأن في شقاء أحد الزوجين

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٦

شقاء الآخر لتلازمهما في الكون مع **الإيماء** إلى أن شقاء الذكر أصل شقاء المرأة، مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.". (١)

٩٨٨. ١٩٧-"وجملة إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى تعليل للشقاء المترتب على الخروج من الجنة المنهي عنه، لأنه لما كان ممتعا في الجنة برفاهية العيش من مأكل وملبس ومشرب واعتدال جو مناسب للمزاج كان الخروج منها مقتضيا فقدان ذلك.

وتضحى مضارع ضحي: كرضي، إذا أصابه حر الشمس في وقت الضحى، ومصدره الضحو، وحر الشمس في ذلك الوقت هو مبدأ شدته، والمعنى: لا يصيبك ما ينافر مزاجك، فالاقتصار على انتفاء الضحو هنا اكتفاء، أي ولا تصرد، وآدم لم يعرف الجوع والعري والظمأ والضحو بالوجدان، وإنما عرفها بحقائقها ضمن تعليمه الأسماء كلها كما تقدم في سورة البقرة.

وجمع له في هذا الخبر أصول كفاف الإنسان في معيشته **إيماء** إلى أن الاستكفاء منها سيكون غاية سعي الإنسان في حياته المستقبلة، لأن الأحوال التي تصاحب التكوين تكون إشعارا بخصائص المكون في مقوماته، كما ورد في حديث الإسراء من توفيق النبيء صلى الله عليه وسلم لاختيار اللبن على الخمر فقيل له: لو اخترت الخمر لغوت أمتك.

وقد قرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله ألا تجوع فيها ولا تعرى، وقرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله لا تظمؤا فيها ولا تضحى لمناسبة بين الجوع والعري، في أن الجوع خلو باطن الجسم عما يقيه تألمه وذلك هو الطعام، وأن العري خلو ظاهر الجسم عما يقيه تألمه وهو لفح الحر وقرص البرد ولمناسبة بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أن الأول ألم حرارة الباطن والثاني ألم حرارة الظاهر. فهذا اقتضى عدم اقتران ذكر الظمأ والجوع، وعدم اقتران ذكر العري بألم". (٢)

٩٨٩. ١٩٨-"- والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله.

- والتذكير بأن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢١/١٦

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٢/١٦

بمثل ما جاء به الرسل من قبله.

- وذكر كثير من أخبار الرسل عليهم السلام.

- والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وأنه رحمة للعالمين.

- والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع لا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة.

- وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة، وذكر من أشراط الساعة فتح ياجوج وماجوج.

- وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.

- ومن **الإيماء** إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل.

- ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذ لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.

- وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى.

- وما يكرهه على فعل ما لا يريد.

- وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء.". (١)

٩٩٠. ١٩٩-"و (الذين ظلموا) بدل من واو الجماعة لزيادة تقرير أنهم المقصود من النجوى، ولما في الموصول من **الإيماء** إلى سبب تناجيهم بما ذكر وأن سبب ذلك كفرهم وظلمهم أنفسهم، وللنداء على قبح ما هم متصفون به.

وجملة هل هذا إلا بشر مثلكم بدل من النجوى لأن ذلك هو ما تناجوا به، فهو بدل مطابق. وليست هي كجملة قالوا إن هذان لساحران من جملة فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى في سورة [طه: ٦٢- ٦٣] فإن تلك بدل بعض من كل لأن ذلك القول هو آخر

(١) التحرير والتنوير ١٧/٧

ما أسفرت عليه النجوى.
ووجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطلع المسلمون على ما تآمروا به لئلا يتصدى الرسول صلى الله عليه وسلم للرد عليهم لأنهم علموا أن حجتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضللوا الدهماء، أو أنهم أسروا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم لما تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول الناس في الإسلام فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك وناجوهم بذلك ليدخلوا الشك في قلوبهم.
والنجوى: المحادثة الخفية. والإسرار: هو الكتمان والكلام الخفي جدا. وقد تقدم الجمع بينهما في قوله تعالى ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم في سورة [براءة:
٧٨] ، وتقدم وجه جعل النجوى مفعولا ل أسروا في قوله تعالى وأسروا النجوى في [سورة طه: ٦٢] ، أي جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها لأن شأن التشاور في المهم كتمانه كيلا يطلع عليه المخالف فيفسده.
والاستفهام في قوله هل هذا إلا بشر مثلكم إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أي فكيف تؤمنون بنبوءته وهو أحد منكم.". (١)

٩٩١. ٢٠٠-"الأولون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم كما أنبأ بذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان.
وفي ضمير ذلك تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها فيما حكي عنهم أول السورة بقوله تعالى: ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم [الأنبياء: ٢- ٣] كما أنبأ بذلك ظاهر معنى الآية.
ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم كما اقتضته تعدية فعل أنزلنا بحرف (إلى) شأن تعدية فعل الإنزال أن يكون المجرور ب «إلى» هو المنزل إليه فجعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظرا إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: لقد أنزلنا لكم.
وتنكير كتابا للتعظيم إيماء إلى أنه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٧

ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.
والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله ذكر رحمت ربك عبده زكرياء [مريم: ٢] . وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرفا
بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاما موجها فيصح قصد المعنيين معا من كلمة (الذكر) بأن مجيء القرآن مشتملا على أعظم الهدى، وهو تذكير لهم بما به نهاية إصلاحهم، ومجيئه بلغتهم، وفي قومهم، وبواسطة واحد منهم، سمعة عظيمة لهم كما قال تعالى: بلسان عربي مبين [الشعراء: ١٩٥]- وقال- كما أرسلنا فيكم رسولا منكم [البقرة: ١٥١] .". (١)

٩٩٢. ٢٠١-"ومناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صدق رسله وعده وهو خبر يفيد ابتداء التنويه بشأن الرسل ونصرهم وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر إهلاك المكذبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصف ما حل بهم ليكون ذلك مقصودا بذاته ابتداء اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار
المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة، وأن الله ينشىء بعدهم أمة مؤمنة كقوله تعالى إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد في سورة [إبراهيم: ١٩] .
و (كم) اسم، له حق صدر الكلام لأن أصله اسم استفهام عن العدد، وشاع استعماله للإخبار عن كثرة الشيء على وجه المجاز لأن الشيء الكثير من شأنه أن يستفهم عنه، والتقدير: قصمنا كثيرا من القرى ف (كم) هنا خبرية. وهي واقعة في محل نصب بفعل قصمنا.
وفي (كم) الدالة على كثرة العدد إيماء إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلف إهلاك هذه القرى، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم أي الشرك إيماء إلى سبب الإهلاك فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم، فيعلم المشركون التهديد بأن ذلك حال بهم لا محالة بحكم العموم، وأن هذا ليس مرادا به قرية معينة، فما روي عن ابن عباس: «أن المراد بالقرية

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٧

(حضوراء) - بفتح الحاء- مدينة باليمن قتلوا نبيئا اسمه شعيب بن ذي مهدم في زمن أرمياء نبيء بني إسرائيل فسلط الله عليهم بختنصر فأفناهم» . فإنما أراد أن هذه القرية ممن شملتهم هذه الآية، والتقدير: قصمنا كثيرا. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن في سورة [الأنعام: ٦] .

وأطلق القرية على أهلها كما يدل عليه قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين.". (١)

٩٩٣. ٢٠٢-"وأضرب عن الاستدلال بأنه استدلال مضيع فيهم بقوله تعالى: بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون، أي لا ترج منهم اعترافا ببطلان شركهم من دليل العقل المتقدم ولا من دليل شهادة الشرائع المذكور ثانيا، فإن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يكتسبون علمه. والمراد بكونهم لا يعلمون الحق أنهم لا يتطلبون علمه كما دلت عليه قرينة التفريع عليه بقوله تعالى فهم معرضون، أي معرضون عن النظر في الأدلة التي تدعوهم أنت إلى معرفتها والنظر فيها.

وإنما أسند هذا الحكم إلى أكثرهم لا لجميعهم تسجيلا عليهم بأن قليلا منهم يعلمون الحق ويجحدونه، أو إيماء إلى أن قليلا منهم تهيأت نفوسهم لقبول الحق. وتلك هي الحالة التي تعرض للنفس عند هبوب نسمات التوفيق عليها مثل ما عرض لعمر بن الخطاب حين وجد اللوح عند أخته مكتوبا فيه سورة طه فأقبل على قراءته بشراشره فما أتمها حتى عزم على الإسلام.

[٢٥]

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٢٥]

وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢٥)

لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقيه أقبل على رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى: قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي [الأنبياء: ٢٤] ، فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل سواء

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٤

من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.". (١)

٩٩٤. ٢٠٣-"والاستفهام على كلتا القراءتين إنكاري، توجه الإنكار على إهمالهم للنظر. والرؤية تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية. والاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينقذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار، وإنكار إعمال الفكر في دلالة الأشياء على لوازمها حتى لا يقع أحد في الضلال جدير أيضا بالإنكار أو بالتقرير المشوب بإنكار كما سنفصله.

والرتق: الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء.

والفتق: ضده، وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء.

والإخبار عن السماوات والأرض بأنهما رتق إخبار بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة.

ثم إن قوله تعالى كانتا يحتمل أن تكونا معا رتقا واحدا بأن تكون السماوات والأرض جسما ملتئما متصلا. ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها، والأرض رتقا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى ففتقناهما.

وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقا، لأن الرتق متمكن منهما أشد تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق **إيماء** إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي.

والرتق يحتمل أن يراد به معان تنشأ على محتملاتها معان في الفتق، فإن اعتبرنا الرؤية بصرية فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض،". (٢)

٩٩٥. ٢٠٤-"يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم واثقون بأنهم يموتون بعده فتتم شماتتهم، أو كأنهم لا يموتون أبدا فلا يشمت بهم أحد، وجه إليهم استفهام الإنكار على

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٥٣/١٧

طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون.
وفي الآية إيماء إلى أن الذين لم يقدر الله لهم الإسلام ممن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبيء عليه الصلاة والسلام فلا يشمتون به فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أهلك الله رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيتهم إلى الإسلام.
ففي قوله تعالى: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد طريقة القول بالموجب، أي أنك تموت كما قالوا ولكنهم لا يرون ذلك وهم بحال من يزعمون أنهم مخلدون فأيقنوا
بأنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم، فالتفريع كان على ما في الجملة الأولى من القول بالموجب، أي ما هم بخالدين حتى يوقنوا أنهم يرون موتك. وفي الإنكار الذي هو في معنى النفي إنذار لهم بأنهم لا يرى موته منهم أحد.
[٣٥]

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٣٥]
كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥)
جمل معترضات بين الجملتين المتعاطفتين.
ومضمون الجملة الأولى مؤكد لمضمون الجملة المعطوف عليها، وهي وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد [الأنبياء: ٣٤] . ووجه إعادتها اختلاف القصد فإن الأولى للرد على المشركين وهذه لتعليم المؤمنين.
واستعير الذوق لمطلق الإحساس الباطني لأن الذوق إحساس باللسان يقارنه ازدراد إلى بالباطن.". (١)

٩٩٦. ٢٠٥-"وذكر الوجوه والأدبار للتنكيل بهم وتخويفهم لأن الوجوه أعز الأعضاء على الناس كما قال عباس بن مرداس:
نعرض للسيوف إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للطام
ولأن الأدبار يأنف الناس من ضربها لأن ضربها إهانة وهزي، ويسمى الكسع.

(١) التحرير والتنوير ٦٣/١٧

والوجه الثاني: أن يكون ضمير يكفون عائدا إلى الذين كفروا، والكف بمعنى الدرء والستر مجازا بعلاقة اللزوم، أي حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم ولا عن ظهورهم. أي حين تحيط بهم النار مواجهة ومدابرة. وذكر الظهور بعد ذكر الوجوه عن هذا الاحتمال احتراس لدفع توهم أنهم قد يكفونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفها عن وجوههم.

وهذا الوجه هو الذي اقتصر عليه جميع من لدينا كتبهم من المفسرين. والوجه الأول أرجح معنى، لأنه المناسب مناسبة تامة للكافرين الحاضرين المقرعين ولتكذيبهم بالوعيد بالهلاك في قولهم متى هذا الوعد ولقوله تعالى سأريكم آياتي [الأنبياء: ٣٧] كما تقدم.

وقوله تعالى: ولا هم ينصرون عطف على لا يكفون أي لا يكف عنهم نفح النار، أو لا يدفعون عن أنفسهم نفح النار ولا يجدون لهم ناصرا ينصرهم فهم واقعون في ورطة العذاب.

وفي هذا إيماء إلى أنهم ستحل بهم هزيمة بدر فلا يستطيعون خلاصا منها ولا يجدون نصيرا من أحلافهم.

و (بل) للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعد لهم، إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة وفجأة، وهو أشد على النفوس لعدم التهيؤ له والتوطن عليه، كما قال كثير:

فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يوما لها النفس ذلت". (١)

٩٩٧. ٢٠٦-"وإن كان المراد عذاب الآخرة فنفي الناصر تكذيب لهم في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله [يونس: ١٨] .

وفاعل تأتيهم ضمير عائد إلى الوعد. وإنما قرن الفعل بعلامة المؤنث على الوجه الأول المتقدم في قوله تعالى: حين لا يكفون عن وجوههم النار باعتبار الوقعة أو نحو ذلك، وهو إيماء إلى أن ذلك سيكون فيما اسمه لفظ مؤنث مثل الوقعة والغزوة.

وأما على الوجه الثاني المتقدم الذي درج عليه سائر المفسرين فيما رأينا فلتأويل الوعد بالساعة أو القيامة أو الحين لأن الحين في معنى الساعة.

---

(١) التحرير والتنوير ٧١/١٧

والبغتة: المفاجأة، وهي حدوث شيء غير مترقب.

والبهت: الغلب المفاجئ المعجز عن المدافعة، يقال: بهته فبهت. قال تعالى في سورة [البقرة: ٢٥٨] فبهت الذي كفر أي غلب. وهو معنى التفريع في قوله تعالى: فلا يستطيعون ردها وقوله تعالى: ولا هم ينظرون أي لا تؤخر عنهم. وفيه تنبيه لهم إلى أنهم أنظروا زمنا طويلا لعلهم يقلعون عن ضلالهم.

وما أشد انطباق هذه الهيئة على ما حصل لهم يوم بدر قال تعالى: ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا في [الأنفال: ٤٢] ، وقال تعالى:

ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا [الأنفال: ٤٤] . ولا شك في أن المستهزئين مثل أبي جهل وشيبة ابني ربيعة وعتبة ابن ربيعة وأمية بن خلف، كانوا ممن بغتهم عذاب السيف وكان أنصارهم من قريش ممن بهتهم ذلك.

وأما إذا أريد بضمير تأتيهم الساعة والقيامة فهي تأتي بغتة لمن هم من جنس المشركين أو تأتيهم النفخة والنشرة بغتة. وأما أولئك المستهزءون فكانوا قد انقرضوا منذ قرون.". (١)

٩٩٨. ٢٠٧-"إبراهيم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي الرشد الذي أرشده. وفائدة الإضافة هنا التنبيه على عظم شأن هذا الرشد، أي رشدا يليق به ولأن رشد إبراهيم قد كان مضرب الأمثال بين العرب وغيرهم، أي هو الذي علمتم سمعته التي طبقت الخافقين فما ظنكم برشد أوتيه من جانب الله تعالى، فإن الإضافة لما كانت على معنى اللام كانت مفيدة للاختصاص فكأنه انفرد به. وفيه إيماء إلى أن إبراهيم كان قد انفرد بالهدى بين قومه.

وزاده تنويها وتفخيما تذييله بالجملة المعترضة قوله تعالى: وكنا به عالمين أي آتيناه رشدا عظيما على علم منا بإبراهيم، أي بكونه أهلا لذلك الرشد، وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من قرآنه، أي علم من سريرته صفات قد رضيها وأحمدها فاستأهل بها اتخاذه خليلا. وهذا كقوله تعالى: ولقد اخترناهم على علم على العالمين [الدخان: ٣٢] وقوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٧٢/١٧

وقوله من قبل أي من قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا. ووجه ذكر هذه القبلية التنبيه على أنه ما وقع إيتاء الذكر موسى وهارون إلا لأن شريعتهما لم تزل معروفة مدروسة.

وإذ قال ظرف لفعل آتينا أي كان إيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل إلخ، فذلك هو الرشد الذي أوتيه، أي حين نزول الوحي إليه بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، فذلك أول ما بدىء به من الوحي.

وقوم إبراهيم كانوا من (الكلدان) وكان يسكن بلدا يقال له (كوثى) بمثلثة في آخره بعدها ألف. وهي المسماة في التوراة (أور الكلدان) ، ويقال: أيضا إنها (أورفة) في (الرها) ،". (١)

٩٩٩. ٢٠٨-"ثم سكن هو وأبوه وأهله (حاران) وحاران هي (حران) ، وكانت بعد من بلاد الكلدان كما هو مقتضى الإصحاح ١٢ من التكوين لقوله فيه: «اذهب من أرضك ومن
عشيرتك ومن بيت أبيك» . ومات أبوه في (حاران) كما في الإصحاح ١١ من التكوين فيتعين أن دعوة إبراهيم كانت من (حاران) لأنه من حاران خرج إلى أرض كنعان. وقد اشتهر حران بأنه بلد الصابئة وفيه هيكل عظيم للصابئة، وكان قوم إبراهيم صابئة يعبدون الكواكب ويجعلون لها صورا مجسمة.

والاستفهام في قوله تعالى: ما هذه التماثيل يتسلط على الوصف في قوله تعالى: التي أنتم لها عاكفون فكأنه قال: ما عبادتكم هذه التماثيل؟. ولكنه صيغ بأسلوب توجه الاستفهام إلى ذات التماثيل لإبهام السؤال عن كنه التماثيل في بادىء الكلام **إيماء** إلى عدم الملاءمة بين حقيقتها المعبر عنها بالتماثيل وبين وصفها بالمعبودية المعبر عنه بعكوفهم عليها. وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنونه سائلا مستعلما ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم وجدنا آباءنا لها عابدين فإن شأن السؤال بكلمة (ما) أنه لطلب شرح ماهية المسئول عنه.

والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١٧

والتعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال الذاتي.
والأصنام التي كان يعبدها الكلدان قوم إبراهيم هي (بعل) وهو أعظمها، وكان مصوغا من ذهب وهو رمز الشمس في عهد سميرميس، وعبدوا رموزا للكواكب ولا شك أنهم كانوا يعبدون أصنام قوم نوح: ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا، إما بتلك الأسماء وإما بأسماء أخرى. وقد دلت الآثار على أن من أصنام أشور (إخوان الكلدان) صنما اسمه (نسروخ) وهو نسر لا محالة.". (١)

١٠٠٠. ٢٠٩-"وجعل العكوف مسندا إلى ضميرهم مؤذن بأن إبراهيم لم يكن من قبل مشاركا لهم في ذلك فيعلم منه أنه في مقام الرد عليهم، ذلك أن الإتيان بالجملة الاسمية في قوله تعالى: أنتم لها عاكفون فيه معنى العبادة، فلذلك عدي باللام لإفادة ملازمة عبادتها.
وجاءوا في جوابه بما توهموا إقناعه به وهو أن عبادة تلك الأصنام كانت من عادة آبائهم فحسبوه مثلهم يقدس عمل الآباء ولا ينظر في مصادفته الحق، ولذلك لم يلبث أن أجابهم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين مؤكدا ذلك بلام القسم.
وفي قوله تعالى: كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال من اجتلاب فعل الكون وحرف الظرفية، **إيماء** إلى تمكنهم من الضلال وانغماسهم فيه لإفادة أنه ضلال بواح لا شبهة فيه، وأكد ذلك بوصفه ب مبين. فلما ذكروا له آباءهم شركهم في التخطئة بدون هوادة بعطف الآباء عليهم في ذلك ليعلموا أنهم لا عذر لهم في اتباع آبائهم ولا عذر لآبائهم في سنن ذلك لهم لمنافاة حقيقة تلك الأصنام لحقيقة الألوهية واستحقاق العبادة.
ولإنكارهم أن يكون ما عليه آباؤهم ضلالا، وإيقانهم أن آباءهم على الحق، شكوا في حال إبراهيم أنطق عن جد منه وأن ذلك اعتقاده فقالوا أجئتنا بالحق، فعبروا عنه بالحق المقابل للعب وذلك مسمى الجد. فالمعنى: بالحق في اعتقادك أم أردت به المزح، فاستفهموا وسألوه أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. والباء للمصاحبة.

---

(١) التحرير والتنوير ٩٤/١٧

والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المسمى مزحا، وأرادوا بتأويل". (١)

١٠٠١. ٢١٠-"وعطف ونوحا على لوطا [الأنبياء: ٧٤] ، أي آتينا نوحا حكما وعلما، فحذف المفعول الثاني لآتينا [الأنبياء: ٧٤] لدلالة ما قبله عليه، أي آتيناه النبوءة حين نادى، أي نادانا.

ومعنى نادى دعا ربه أن ينصره على المكذبين من قومه بدليل قوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم.

وبناء قبل على الضم يدل على مضاف إليه مقدر، أي من قبل هؤلاء، أي قبل الأنبياء المذكورين. وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنته المرادة له

تعريضا بالتهديد للمشركين المعاندين ليتذكروا أنه لم تشذ عن نصر الله رسله شاذة ولا فاذة.

وأهل نوح: أهل بيته عدا أحد بنيه الذي كفر به.

والكرب العظيم: هو الطوفان. والكرب: شدة حزن النفس بسبب خوف أو حزن.

ووجه كون الطوفان كربا عظيما أنه يهول الناس عند ابتدائه وعند مده ولا يزال لاحقا بمواقع هروبهم حتى يعمهم فيبقوا زمنا يذوقون آلام الخوف فالغرق وهم يغرقون ويطفون حتى يموتوا بانحباس التنفس وفي ذلك كله كرب متكرر، فلذلك وصف بالعظيم.

وعدي نصرناه بحرف (من) لتضمينه معنى المنع والحماية، كما في قوله تعالى:

إنكم منا لا تنصرون [المؤمنون: ٦٥] ، وهو أبلغ من تعديته ب (على) لأنه يدل على نصر قوي تحصل به المنعة والحماية فلا يناله العدو بشيء. وأما نصره عليه فلا يدل إلا على المدافعة والمعونة.

ووصف القوم بالموصول للإيماء إلى علة الغرق الذي سيذكر بعد. وجملة إنهم كانوا قوم سوء علة لنصر نوح عليه السلام لأن نصره يتضمن إضرار القوم المنصور عليهم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٩٥

(٢) التحرير والتنوير ١٧/١١٣

١٠٠٢. ٢١١-"وذكر الموصول في تعريفهم لأن الموصول للإيماء إلى أن سبب فوزهم هو سبق تقدير الهداية لهم. وذكر اسم الإشارة بعد ذلك لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدم على اسم الإشارة من الأوصاف، وهو سبق الحسنى من الله.

واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم، والرفعة تشبه بالبعد.

وجملة لا يسمعون حسيسها بيان لمعنى مبعدون، أي مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد مما يبلغ منه المرئي.

والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.

وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم. وجيء فيه بما يدل على العموم وهو في ما اشتهت أنفسهم وما يدل على الدوام وهو خالدون.

والشهوة: تشوق النفس إلى ما يلذ لها.

وجملة لا يحزنهم الفزع خبر ثان عن الموصول.

والفزع: نفرة النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجزع. والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم.". (١)

١٠٠٣. ٢١٢-"يجيء مثل هذا الوعد في القرآن في [سورة النور: ٥٥] في قوله تعالى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.

وعلى قراءة حمزة أن هذا الوعد تكرر في الكتب لفرق من العباد الصالحين.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٦/١٧

ومعنى من بعد الذكر أن ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمة.
فبعد أن ألقيت إليهم الأوامر وعدوا بميراث الأرض، وقيل المراد ب الذكر كتاب الشريعة وهو التوراة.
قال تعالى: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين [الأنبياء: ٤٨] فيكون الظرف في قوله تعالى: من بعد الذكر مستقرا في موضع الحال من الزبور.
والمقصود من هذه الحال **الإيماء** إلى أن الوعد المتحدث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة. وهو الوعد الذي ذكر في قوله تعالى حكاية عن موسى: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم [المائدة: ٢١] ، وأنه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من الملك والسلطان لأن ذلك وعد كان قبل داوود. فإن ملك داوود أحد مظاهره. بل المراد **الإيماء** إلى أنه وعد وعده الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل وليسوا إلا المسلمين الذين صدقهم الله وعده فملكوا الأرض بتركة رسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيئهم صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم آنفا.
وجملة إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين تذييل للوعد وإعلان بأن قد آن أوانه وجاء إبانه. وفإن لم يأت بعد داوود قوم مؤمنون ورثوا الأرض، فلما جاء الإسلام وآمن الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بلغ البلاغ إليهم.". (١)

١٠٠٤. ٢١٣-"لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيا، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب، وهي:
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا: «أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل» دون خصوصية أزيد من ذلك فجمع ستة معان لا

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/١٧

غير. وهي غير خصوصية إنما هي وفرة معان. وليس تنكير «حبيب ومنزل» إلا للوحدة لأنه أراد فردا معينا من جنس الأحباب وفردا معينا من جنس المنازل، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل، ومنزله.

واعلم أن انتصاب رحمة على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه **إيماء** لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة.

ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه

النبيء صلى الله عليه وسلم بقوله: «إنما أنا رحمة مهداة»

(١) .

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد تلاميذه أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس:

«زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه محمد بن طاهر المقدسي في كتاب «ذخيرة الحفاظ» عن أبي هريرة يصفه بالضعف.". (١)

١٠٠٥. ٢١٤-"إلى يوم القيامة، ليتلقوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله، فتقوى كل فريق بحسب حالهم من التلبس بما نهى الله عنه والتفريط فيما أمر به، ليستبدلوا ذلك بضده.

وأول فريق من الناس دخولا في خطاب يا أيها الناس هم المشركون من أهل مكة حتى قيل

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٦/١٧

إن الخطاب بذلك خاص بهم. وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم.
وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين **إيماء** إلى استحقاقه أن يتقى لعظمته بالخالقية، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم.
وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف الرب دون نحو الخالق والسيد.
وتعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام. وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية.
وجملة إن زلزلة الساعة شيء عظيم في موضع العلة للأمر بالتقوى كما يفيده حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردد للسامع فيه.
والتعليل يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرا في الأمر بالتقوى وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله:
ولكن عذاب الله شديد
[الحج: ٢] ." (١)

١٠٠٦. ٢١٥-"تقتضي هذه الكناية كناية عن تعميم هذا الهول لكل الناس لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع بحيث يذهل فيه من هو في حال شدة التيقظ لوفرة دواعي اليقظة. وذلك أن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دل ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة. وهذا من بديع الكناية
عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية، وهذا النوع من الكناية يسمى **الإيماء.**

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٦/١٧

و (ما) في عما أرضعت

موصولة ما صدقها الطفل الرضيع. والعائد محذوف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل، وحذف مثله كثير.

والإتيان بالموصول وصلته في تعريف المذهول عنه دون أن يقول عن ابنها للدلالة على أنها تذهل عن شيء هو نصب عينها وهي في عمل متعلق به وهو الإرضاع زيادة في التكني عن شدة الهول.

وقوله وتضع كل ذات حمل حملها

هو كناية أيضا كقوله تذهل كل مرضعة عما أرضعت

. ووضع الحمل لا يكون إلا لشدة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف لأن الحمل في قرار مكين.

والحمل: مصدر بمعنى المفعول، بقرينة تعلقه بفعل تضع

أي تضع جنينها.

والتعبير ب ذات حمل

دون التعبير: بحامل، لأنه الجاري في الاستعمال في الأكثر. فلا يقال: امرأة حامل، بل يقال: ذات". (١)

١٠٠٧. ٢١٦-"[سورة الحج (٢٢) : آية ٣]

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣)

عطف على جملة يا أيها الناس اتقوا ربكم [الحج: ١] ، أي الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتقي الله ويخشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته. وهذا الفريق هم أيمة الشرك وزعماء الكفر لأنهم الذين يتصدون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة وتمويه.

والاقتصار على ذكرهم **إيماء** إلى أنهم لولا تضليلهم قومهم وصدهم إياهم عن متابعة الدين لاتبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجته وقبولها في الفطرة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٠/١٧

وقيل: أريد ب من يجادل في الله النضر بن الحارث أو غيره كما سيأتي، فتكون (من) الموصولة صادقة على متعدد عامة لكل من تصدق عليه الصلة.

والمجادلة: المخاصمة والمحاجة. والظرفية مجازية، أي يجادل جدلا واقعا في شأن الله. ووصف الجدل بأنه بغير علم، أي جدلا ملتبسا بمغايرة العلم، وغير العلم هو الجهل، أي جدلا ناشئا عن سوء نظر وسوء تفكير فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات كالوحدانية والعلم وفعل ما يشاء.

واتباع الشيطان: الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتاده والعمل بذلك دون تردد ولا عرض على نظر واستدلال.

وكلمة (كل) في قوله كل شيطان مستعملة في معنى الكثرة. كما سيأتي قريبا عند قوله تعالى: وعلى كل ضامر [الحج: ٢٧] في هذه السورة.". (١)

١٠٠٨. ٢١٧-"[١٢]

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٢]

يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد (١٢)

جملة يدعوا من دون الله إلخ حال من ضمير انقلب [الحج: ١١] .

وقدم الضر على النفع في قوله ما لا يضره **إيماء** إلى أنه تملص من الإسلام تجنبا للضر لتوهمه أن ما لحقه من الضر بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه، فعاد إلى عبادة الأصنام حاسبا أنها لا تضره. وفي هذا **الإيماء** تهكم به يظهر بتعقيبه بقوله تعالى: وما لا ينفعه أي فهو مخطئ في دعائه الأصنام لتزيل عنه الضر فينتفع بفعلها.

والمعنى: أنها لا تفعل ما يجلب ضرا ولا ما يجلب نفعا.

والإشارة في قوله ذلك هو الضلال إلى الدعاء المستفاد من يدعوا.

والقول في اسم الإشارة وضمير الفصل والقصر مثل ما تقدم في قوله ذلك هو الخسران المبين [الحج: ١١] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/١٧

والبعيد: المتجاوز الحد المعروف في مدى الضلال، أي هو الضلال الذي لا يماثله ضلال لأنه يعبد ما لاغناء له.

[١٣]

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٣]

يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير (١٣)

جملة في موضع حال ثانية، ومضموها ارتقاء في تضليل عابدي الأصنام. فبعد أن بين لهم أنهم يعبدون ما لا غناء لهم فيه زاد". (١)

١٠٠٩. ٢١٨-"فيحتمل أن يكون موقعها استئنافا ابتدائيا أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين في قوله تعالى: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم [الحج: ٨] الآية، وقوله: ومن الناس من يعبد الله على حرف [الحج: ١١] . وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجلهم للدخول في الإسلام وأن لم يتريثوا في ذلك وهؤلاء هم المنافقون.

ويحتمل أن يكون موقعها تذييلا لقوله: ومن الناس من يعبد الله على حرف [الحج: ١١] الآية بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى فيكون المراد: أن الفريق الذين يعبدون الله على حرف والمخبر عنهم بقوله: خسر الدنيا والآخرة [الحج: ١١] هم قوم يظنون أن الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام.

فأما ظنهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنهم قد أيسوا من النصر استبطاء، وأما في الآخرة فلأنهم لا يؤمنون بالبعث ومن أجل هذا علق فعل لن ينصره بالمجرور بقوله في الدنيا والآخرة **إيماء** إلى كونه متعلق الخسران في قوله خسر الدنيا والآخرة [الحج: ١١] . فإن عدم النصر خسران في الدنيا بحصول ضده، وفي الآخرة باستحالة وقوع الجزاء في الآخرة حسب اعتقاد كفرهم، وهؤلاء مشركون مترددون.

ويترجح هذا الاحتمال بتغيير أسلوب الكلام، فلم يعطف بالواو كما عطف قوله

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢١٥

ومن الناس من يعبد الله [الحج: ١١] ولم تورد فيه جملة ومن الناس كما أوردت في ذكر الفريقين السابقين ويكون المقصود من الآية تهديد هذا الفريق. فيكون التعبير عن هذا الفريق بقوله من كان يظن إلخ إظهارا في مقام الإضمار فإن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ذلك الفريق فيقال بعد قوله: إن الله يفعل ما يريد [الحج: ١٤] ،". (١)

١٠١٠. ٢١٩-"ذكر الهداية في قوله: وهدوا إلى الطيب من القول، ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لأحوال الكافرين وسيجيء ذكر مقابلها في قوله: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله إلى قوله: نذقه من عذاب أليم [الحج: ٢٥] وذلك من أفانين المقابلة. والمعنى: وقد هدوا إلى صراط الحميد في الدنيا، وهو دين الإسلام، شبه بالصراط لأنه موصل إلى رضى الله.

والحميد من أسماء الله تعالى، أي المحمود كثيرا فهو فعيل بمعنى مفعول، فإضافة صراط إلى اسم «الله» لتعريف أي صراط هو. ويجوز أن يكون الحميد صفة ل صراط، أي المحمود لسالكه. فإضافة صراط إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، والصراط المحمود هو صراط دين الله. وفي هذه الجملة إيماء إلى سبب استحقاق تلك النعم أنه الهداية السابقة إلى دين الله في الحياة الدنيا.

[٢٥]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٢٥]

إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم (٢٥)

هذا مقابل قوله وهدوا إلى صراط الحميد [الحج: ٢٤] بالنسبة إلى أحوال المشركين إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل في الأحوال المذكورة في آية فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار [الحج: ١٩] كما تقدم. فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني. والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك

(١) التحرير والتنوير ٢١٨/١٧

العذاب كفرهم وصدهم عن سبيل الله.". (١)

١٠١١. ٢٢٠-"ووصف المسجد بقوله: الذي جعلناه للناس الآية **للإيماء** إلى علة مؤاخذة المشركين بصدهم عنه لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبد به العاكف فيه، أي المستقر في المسجد، والبادي، أي البعيد عنه إذا دخله.

والمراد بالعاكف: الملازم له في أحوال كثيرة، وهو كناية عن الساكن بمكة لأن الساكن بمكة يعكف كثيرا في المسجد الحرام، بدليل مقابلته بالبادي، فأطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازا بعلاقة اللزوم العرفي. وفي ذكر العكوف تعريض بأنهم لا يستحقون بسكنى مكة مزية على غيرهم، وبأنهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من

الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة.

وقرأ الجمهور سواء- بالرفع- على أنه مبتدأ والعاكف فيه فاعل سد مسد الخبر، والجملة مفعول ثان ل جعلناه. وقرأه حفص بالنصب على أنه المفعول الثاني ل جعلناه.

والعكوف: الملازمة. والبادي: ساكن البادية.

وقوله سواء لم يبين الاستواء فيما ذا لظهور أن الاستواء فيه بصفة كونه مسجدا إنما هي في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته وهي: الطواف، والسعي، ووقوف عرفة.

وكتب والباد في المصحف بدون ياء في آخره، وقرأ ابن كثير والبادي بإثبات الياء على القياس لأنه معرف، والقياس إثبات ياء الاسم المنقوص إذا كان معرفا باللام، ومحمل كتابته في المصحف بدون ياء عند أهل هذه القراءة أن الياء عوملت معاملة الحركات وألفات أواسط الأسماء فلم يكتبوها. وقرأه نافع بغير". (٢)

١٠١٢. ٢٢١-"به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة» . أ. هـ.

يعني أن المشرك لما عدل عن الإيمان الفطري وكان في مكنته فكأنه كان في السماء فسقط

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٧/١٧

منها، فتوزعته أنواع المهالك، ولا يخفى عليك أن في مطاوي هذا التمثيل تشبيهات كثيرة لا يعوزك استخراجها.

والسحيق: البعيد فلا نجاة لمن حل فيه.

وقوله: أو تهوي به الريح تخيير في نتيجة التشبيه، كقوله: أو كصيب من السماء [البقرة: ١٩] . أشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه. وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو **إيماء** إلى أن من المشركين من شركه لا

يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول.

والخرور: السقوط. وتقدم في قوله: فخر عليهم السقف من فوقهم في [سورة النحل: ٢٦]
.

وفتخطفه مضاعف خطف للمبالغة، الخطف والخطف: أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو ومنه تخطف الكرة. والهوي: نزول شيء من علو إلى الأرض. والباء في تهوي به للتعدية مثلها في: ذهب به.

وقرأ نافع، وأبو جعفر فتخطفه- بفتح الخاء وتشديد الطاء مفتوحة- مضارع خطف المضاعف. وقرأه الجمهور- بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة- مضارع خطف المجرد.". (١)

١٠١٣. ٢٢٢-"[٣٧]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٧]

لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين (٣٧)

لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/١٧

جملة في موضع التعليل لجملة كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون [الحج: ٣٦] ، أي دل على أنا سخرناها لكم لتشكروني أنه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها حين تتمكنون من الانتفاع بها فلا يريد الله منكم على ذلك إلا أن تتقوه.

والنيل: الإصابة. يقال ناله، أي أصابه ووصل إليه. ويقال أيضا بمعنى أحرز، فإن فيه معنى الإصابة كقوله تعالى: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون [آل عمران: ٩٢] وقوله: وهموا بما لم ينالوا [التوبة: ٧٤] .

والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نضح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمروة. قال الحسن: كانوا يلطخون بدماء القرابين وكانوا يشرحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى، يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج.

وفي قوله: لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم **إيماء** إلى أن

إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا إذ لا ينتفع بلحومها وجلودها وأجزائها إلا بالنحر أو الذبح وأن المقصد من شرعها انتفاع الناس المهدين وغيرهم.

فأما المهدون فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النحر". (١)

١٠١٤. ٢٢٣-"وتعرض صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول طلبا لفضيلة المبادرة، فإن التقوى التي

تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها.

وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفرس الحبس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وهي المعاوضة لربع الحبس إذا خرب.

وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل، ومعنى التعليل فيه أقوى، وعلته انتفاع المسلمين،

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٦٧

ومسلك العلة **الإيماء** الذي في قوله تعال: فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر [الحج: ٣٦] .
واعلم أن توهم التقرب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرب إليه بتلك الدماء عقيدة وثنية قديمة فربما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام فلا يدعون أحدا يأكله.
وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رمادا ويتوهمون أن رائحة الشواء تسر الآلهة المتقرب إليها بالقرابين، وكان المصريون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل لأنها مقدسة.
وقرأ الجمهور ينال، ويناله بتحتية في أولهما. وقرأه يعقوب بفوقية على مراعاة ما يجوز في ضمير جمع غير العاقل. وربما كانوا يقذفون بمزع من اللحم على أنها لله فربما أصابها محتاج وربما لم يتفطن لها فتأكلها السباع أو تفسد.
ويشمل التقوى ذكر اسم الله عليها والتصدق ببعضها على المحتاجين.
ويناله مشاكلة ل ينال الأول، استعير النيل لتعلق العلم. شبه علم الله تقواهم بوصول الشيء المبعوث إلى الله تشبيها وجهه الحصول في كل وحسنته المشاكلة.". (١)

١٠١٥. ٢٢٤-"[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٨]
إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور (٣٨)
استئناف بياني جوابا لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله الآية، فإنه توعد المشركين على صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم، وبشر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضد وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة. وطال الكلام في ذلك بما تبعه لا جرم تشوفت نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم في الدنيا، وهل ينتصر لهم من أعدائهم أو يدخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة. فكان المقام خليقا بأن يطمئن الله نفوسهم بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم، وحذف مفعول يدافع لدلالة المقام.
فالكلام موجه إلى المؤمنين، ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إما لمجرد تحقيق الخبر، وإما لتنزيل غير المتردد منزلة المتردد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه.

---
(١) التحرير والتنوير ٢٦٩/١٧

والتعبير بالموصول لما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر وأن دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم.

وقرأ الجمهور لفظ يدافع بألف بعد الدال فيفيد قوة الدفع. وقرأه أبو عمرو، وابن كثير، ويعقوب يدافع بدون ألف بعد الدال.

وجملة إن الله لا يحب كل خوان كفور تعليل لتقييد الدفاع بكونه عن الذين آمنوا، بأن الله لا يحب الكافرين الخائنين،". (١)

١٠١٦. ٢٢٥-"وهذا يجري على كلتا القراءتين في قوله يقاتلون والتفسير الذي رأيته أنسب وأرشق.

وجملة وإن الله على نصرهم لقدير عطف على جملة أذن للذين يقاتلون أي أذن لهم بذلك وذكروا بقدرة الله على أن ينصرهم. وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سنن كلام العظيم المقتدر بإيراد الوعد في صورة الإخبار بأن ذلك بمحل العلم منه ونحوه، كقولهم: عسى أن يكون كذا، أو أن عندنا خيرا، أو نحو ذلك، بحيث لا يبقى للمترقب شك في الفوز بمطلوبه. وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردد في ذلك لأنهم استبطأوا النصر.

[٤٠]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٤٠]

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠)

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله

بدل من الذين يقاتلون [الحج: ٣٩] ، وفي إجراء هذه الصلة عليهم **إيماء** إلى أن المراد بالمقاتلة الأذى، وأعظمه إخراجهم من ديارهم كما قال تعالى: والفتنة أشد من القتل [البقرة: ١٩١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧١/١٧

وبغير حق حال من ضمير أخرجوا، أي أخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم الموجب إخراجهم، فإن للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولد بين قوم هو مساو لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغلبة لسكانه، كما قال عمر بن الخطاب". (١)

١٠١٧. ٢٢٦-"والبيع: جمع بيعة- بكسر الباء وسكون التحتية- مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها، ولعلها معربة عن لغة أخرى.

والصلوات: جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معربة عن كلمة (صلوثا) (بالمثلثة في آخره بعدها ألف) . فلما عربت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك. وعن مجاهد، والجحدري، وأبي العالية، وأبي رجاء أنهم قرأوها هنا وصلوات بمثلثة في آخره. وقال ابن عطية: قرأ عكرمة، ومجاهد صلويثا- بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء- (أي المثلثة كما قال القرطبي) وهذه المادة قد فاتت أهل اللغة وهي غفلة عجيبة.

والمساجد: اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء ومسجد المدينة.

وجملة يذكر فيها اسم الله كثيرا صفة والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلى ما في تلك الجمل من الموصوف بالصفة. فلذلك قيل برجوع صفة يذكر فيها اسم الله إلى صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد للأربعة المذكورات قبلها وهي معاد ضمير فيها.

وفائدة هذا الوصف **الإيماء** إلى أن سبب هدمها أنها يذكر فيها اسم الله كثيرا، أي ولا تذكر أسماء أصنام أهل الشرك فإنهم لما أخرجوا المسلمين بلا سبب إلا أنهم يذكرون اسم الله فيقولون ربنا الله، لمحو ذكر اسم الله من بلدهم لا جرم أنهم يهدمون المواضع المجعولة لذكر اسم الله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٤/١٧

كثيرا، أي دون ذكر الأصنام. فالكثرة مستعملة في الدوام". (١)

١٠١٨. ٢٢٧-"لاستغراق الأزمنة، وفي هذا **إيماء** إلى أن في هذه المواضع فائدة دينية وهي ذكر اسم الله.

قال ابن خويز منداد من أيمة المالكية (من أهل أواخر القرن الرابع) «تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نارهم» اه.

قلت: أما بيوت النار فلا تتضمن هذه الآية منع هدمها فإنها لا يذكر فيها اسم الله وإنما منع هدمها عقد الذمة الذي ينعقد بين أهلها وبين المسلمين، وقيل الصفة راجعة إلى مساجد خاصة.

وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأن صوامع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها، وكانت أشهر عندهم، لأنهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها، وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى مثل الصوامع. وأما ذكر الصلوات بعدهما فلأنه قد تهيأ المقام لذكرها، وتأخير المساجد لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالا للفائدة.

وقوله ولينصرن الله من ينصره عطف على جملة ولولا دفاع الله الناس، أي أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله، ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد. وهذه الجملة تذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين الذين أخرجهم المشركون.

وجملة إن الله لقوي عزيز تعليل لجملة ولينصرن الله من ينصره، أي كان نصرهم مضمونا لأن ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزة. والقوة مستعملة في القدرة:

والعزة هنا حقيقة لأن العزة هي المنعة، أي عدم تسلط غير صاحبها على صاحبها.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٨/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٩/١٧

١٠١٩. ٢٢٨-"بالمصير إلى مصيرهم، ونظير هذه الآية إجمالا وتفصيلا تقدم غير مرة في سورة آل عمران وغيرها.

وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: فقد كذبت قبلهم إلخ إذ التقدير: فلا عجب في تكذيبهم، أو فلا غضاضة عليك في تكذيب قومك إياك فإن تلك عادة أمثالهم.

وقوم إبراهيم هم الكلدان، وأصحاب مدين هم قوم شعيب، وإنما لم يعبر عنهم بقوم شعيب لئلا يتكرر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات.

وقال: وكذب موسى لأن مكذبيه هم القبط قوم فرعون ولم يكذبه قومه بنو إسرائيل.

وقوله: فأمليت للكافرين معناه فأمليت لهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل تعريضا بالنذارة لمشركي قريش.

والأخذ حقيقته: التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم، ومناسبة هذه الاستعارة أن الإملاء لهم يشبه بعد الشيء عن متناوله فشبه انتهاء ذلك الإملاء بالتناول، شبه ذلك بأخذ الله إياهم عنده، لظهور قدرته عليهم بعد وعيدهم، وهذا الأخذ معلوم في آيات أخرى عدا أن قوم إبراهيم لم يتقدم في القرآن ذكر لعذابهم أو أخذهم سوى أن قوله تعالى في [سورة الأنبياء: ٧٠] وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين مشير إلى سوء عاقبتهم مما أرادوا به من الكيد، وهذه الآية صريحة في ذلك كما أشرنا إليه هنالك.

ومناسبة عد قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذكر فيها من أخذوا من الأقوام، أن". (١)

١٠٢٠. ٢٢٩-"كما حكى الله عنهم في قوله: وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] ، وقال: ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين [السجدة: ٢٨] فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله فأمليت للكافرين [الحج: ٤٤] الآية.

وحكي ويستعجلونك بصيغة المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديدا منهم للاستهزاء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/١٧

وتوركا على المسلمين.
والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إياهم.
والباء من قوله بالعذاب زائدة لتأكيد معنى الاستعجال بشدته كأنه قيل يحرصون على تعجيله. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة في أول [سورة الرعد: ٦] .
ولما كان استعجالهم إياه تعريضا منهم بأنهم موقنون بأنه غير واقع أعقب بقوله:
ولن يخلف الله وعده، أي فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة لأنه وعد من الله والله لا يخلف وعده. وفيه تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلا يستبطئونه.
وقوله: وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون عطف على جملة ولن يخلف الله وعده، فإن الله توعدهم بالعذاب وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة وهم إنما استعجلوا عذاب الدنيا تهكما وكناية عن إيقانهم بعدم وقوعه بلازم واحد، **وإيماء** إلى عدم
وقوع عذاب الآخرة بلازمين، فرد الله عليهم ردا عاما بقوله: ولن يخلف الله وعده، وكان ذلك تثبيتا للمؤمنين، ثم أعقبه بإنذارهم بأن عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا وهو أشد العذاب.
فقوله: وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون خبر مستعمل في التعريض بالوعيد، وهذا اليوم هو يوم القيامة.". (١)

١٠٢١. ٢٣٠-"والغرض من خطابهم إعلامهم بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يغيظ النبيء صلى الله عليه وسلم ولا يصده عن أداء رسالته، ففي ذلك قمع لهم إذ كانوا يحسبون أنهم بتكذيبهم واستهزائهم يملونه فيترك دعوتهم، وفيه تثبيت للنبيء وتسلية له فيما يلقاه منهم.
وقصر النبيء على صفة النذارة قصر إضافي، أي لست طالبا نكايتكم ولا تزلفا إليكم فمن آمن فلنفسه ومن عمي فعليها.
والنذير: المحذر من شر يتوقع.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٢٩١

وفي تقديم المجرور المؤذن بالاهتمام بنذارتهم **إيماء** إلى أنهم مشرفون على شر عظيم فهم أحرياء بالنذارة.

والمبين: المفصح الموضح، أي مبين للإنذار بما لا إيهام فيه ولا مصانعة.

وفرع على الأمر بالقول تقسيم للناس في تلقي هذا الإنذار المأمور الرسول بتبليغه إلى مصدق ومكذب لبيان حال كلا الفريقين في الدنيا والآخرة ترغيبا في الحالة الحسنى وتحذيرا من الحالة السوأى فقال تعالى: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم إلى آخره ... فهذا إخبار من الله تعالى كما يقتضيه قوله في آياتنا.

والجملة معترضة بالفاء.

والمغفرة: غفران ما قدموه من الشرك وما يتبعه من شرائع الشرك وضلالاته ومفاسده. وهذه المغفرة تفضي إلى نعيم الآخرة، فالمعنى: أنهم فازوا في الدار الآخرة.

والرزق: العطاء. ووصفه بالكريم يجمع وفرته وصفاءه من المكدرات كقوله تعالى: لهم أجر غير ممنون [فصلت: ٨] ذلك هو الجنة.". (١)

١٠٢٢. ٢٣١-"وللذين في قلوبهم مرض هم المترددون في قبول الإيمان. والقاسية قلوبهم هم الكافرون المصممون على الكفر. والفريقان هم المراد ب الظالمين في قوله: وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. فذكر الظالمين إظهار في مقام الإضمار **للإيماء** إلى أن علة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم، أي كفرهم.

والشقاق: الخلاف والعداوة.

والبعيد هنا مستعمل في معنى: البالغ حدا قويا في حقيقته. تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد كما في قوله تعالى فذو دعاء عريض [فصلت: ٥١] أي دعاء كثير ملح.

وجملة وإن الظالمين لفي شقاق بعيد معترضة بين المتعاطفات.

والذين أوتوا العلم هم المؤمنون بقرينة مقابلته ب للذين في قلوبهم مرض وبقوله وإن الله لهاد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٤/١٧

الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. فالمراد بالعلم الوحي والكتب التي أوتيها أصحاب الرسل السابقين فإنهم بها يصيرون من أهل العلم.

وإطلاق الذين أوتوا العلم على المؤمنين تكرر في القرآن.

وهذا ثناء على أصحاب الرسل بأنهم أوتوا العلم، وهو علم الدين الذي يبلغهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن نور النبوءة يشرق في قلوب الذين يصحبون الرسول.

ولذلك تجد من يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون قبل الإيمان جلفا فإذا آمن انقلب حكيما، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»

." (١)

١٠٢٣. ٢٣٢-"قوله تعالى:

ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني في سورة [البقرة: ٧٨] .

وجملة إن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم معترضة. والواو للاعتراض، والذين أوتوا العلم هم المؤمنون. وقد جمع لهم الوصفان كما في قوله تعالى: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث في سورة [الروم: ٥٦] .

وكما في سورة [سبأ: ٦] ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق.

فإظهار لفظ الذين آمنوا في مقام ضمير الذين أوتوا العلم لقصد مدحهم بوصف الإيمان، **والإيماء** إلى أن إيمانهم هو سبب هديهم. وعكسه قوله تعالى: إن الله لا يهدي

من هو كاذب كفار

[الزمر: ٣] . فالمراد بالهدى في كلتا الآيتين عناية الله بتيسيره وإلا فإن الله هدى الفريقين بالدعوة والإرشاد فمنهم من اهتدى ومنهم من كفر.

وكتب في المصحف لهاد بدون ياء بعد الدال واعتبارا بحالة الوصل على خلاف الغالب. وفي الوقف يثبت يعقوب الياء بخلاف البقية.

(١) التحرير والتنوير ٣٠٢/١٧

[٥٥]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٥٥]

ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم (٥٥)

لما حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أن ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرسل يكون عليهم فتنة. خص في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخصهم بأنهم يستمر شكهم فيما جاء به". (١)

١٠٢٤. ٢٣٣-"لأننا نعاقب على قدر الذنب لا على قدر الغضب، فليس ذكر وصفي لعفو غفور **إيماء** إلى الترغيب في العفو عن المشركين.

ويجوز أن يكون تعليلا للوعد بجزاء المهاجرين اتباعا للتعليل في قوله: إن الله لعليم حليم [الحج: ٥٩] لأن الكلام مستمر في شأنهم.

[٦١]

[سورة الحج (٢٢) : آية ٦١]

ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير (٦١)

ليس اسم الإشارة مستعملا في الفصل بين الكلامين مثل شبيهه الذي قبله، بل الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفل النصر، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب

مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، لما تقرر من اشتهار التضاد بين الليل والنهار، أي الظلمة والنور، وقريب منها استعارة التلبيس للإقحام في الحرب في قول المرار السلمي:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى ... إذا التبست نفضت لها يدي

فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله: بأن الله يولج الليل إلخ.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٠٧

ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريرا لشبيهه السابق لقصر توكيده لأنه متصل به لأن جملة بأن الله يولج الليل في النهار إلخ، مرتبطة بجملة ومن عاقب بمثل ما عوقب به إلخ، ولذلك يصح جعل بأن الله يولج الليل في النهار إلخ متعلقا بقوله لينصرنه الله [الحج: ٦٠] .
والإيلاج: الإدخال. مثل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه تشبيها لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر،". (١)

١٠٢٥. ٢٣٤-"فإيلاج الليل في النهار: غشيان ضوء النهار على ظلمة الليل، وإيلاج النهار في الليل: غشيان ظلمة الليل على ما كان من ضوء النهار. فالمولج هو المختفي، فإيلاج الليل انقضاؤه. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة لأن تقلص ظلمة الليل يحصل تدريجا، وكذلك تقلص ضوء النهار يحصل تدريجا، فأشبه ذلك إيلاج شيء في شيء إذ يبدو داخلا فيه شيئا فشيئا.
والباء للسببية، أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.
والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل **للإيماء** إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصناع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل.
وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقاد، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة، ولأن الإيمان نور يتجلى به
الحق والاعتقاد الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي في النهار، ففي هذا **إيماء** إلى أن الإيلاج

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/١٧

المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل، أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك، ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار.". (١)

١٠٢٦. ٢٣٥-"والإتيان بالفعل المضارع المفيد للتجدد على الوجهين لأن في الدلائل التي تحف بهم والتي ذكروا ببعضها في الآيات الماضية ما هو كاف لإقلاعهم عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحق.

ومن دون يفيد أنهم يعرضون عن عبادة الله، لأن كلمة دون وإن كانت اسما للمباعدة قد يصدق بالمشاركة بين ما تضاف إليه وبين غيره. فكلمة (دون) إذا دخلت عليها (من) صارت تفيد معنى ابتداء الفعل من جانب مباعد لما أضيف إليه (دون) . فاقتضى أن المضاف إليه غير مشارك في الفعل. فوجه ذلك أنهم لما أشربت قلوبهم الإقبال على عبادة الأصنام وإدخالها في شؤون قرباتهم حتى الحج إذ قد وضعوا في شعائره أصناما بعضها وضعوها في الكعبة وبعضها فوق الصفا والمروة جعلوا كالمعطلين لعبادة الله أصلا.

والسلطان: الحجة. والحجة المنزلة: هي الأمر الإلهي الوارد على ألسنة رسله وفي شرائعه، أي يعبدون ما لا يجدون عذرا لعبادته من الشرائع السالفة: وقصارى أمرهم أنهم اعتذروا بتقدم آبائهم بعبادة أصنامهم، ولم يدعوا أن نبيئا أمر قومه بعبادة صنم ولا أن دينا إلهيا رخص في عبادة الأصنام.

وما ليس لهم به علم، أي ليس لهم به اعتقاد جازم لأن الاعتقاد الجازم لا يكون إلا عن دليل، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه. وتقديم انتفاء الدليل الشرعي على انتفاء الدليل العقلي لأن الدليل الشرعي أهم.

وما التي في قوله وما للظالمين من نصير نافية. والجملة عطف على جملة ويعبدون من دون الله أي يعبدون ما ذكر وما لهم نصير فلا تنفعهم عبادة الأصنام.

فالمراد بالظالمين المشركون المتحدث عنهم، فهو من الإظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى".

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٥/١٧

(١)

١٠٢٧. ٢٣٦-"وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارها إياها، إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها.

والخطاب في قوله تعرف لكل من يصلح للخطاب بدليل قوله بالذين يتلون عليهم آياتنا.

والتعبير ب الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار. ومقتضى الظاهر أن يكون تعرف في وجوه الذين كفروا، أي وجوه الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، فخولف مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم **بالإيماء** إلى أن علة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر.

والسطو: البطش، أي يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدة الغضب والغيظ من سماع القرآن.

وبالذين يتلون يجوز أن يكون مرادا به النبيء صلى الله عليه وسلم من إطلاق اسم الجمع على الواحد كقوله: وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم [الفرقان: ٣٧] ، أي كذبوا الرسول. ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول، أما الذين سطوا عليهم من المؤمنين فلعلهم غير الذين قرأوا عليهم القرآن، أو لعل السطو عليهم كان بعد نزول هذه الآية فلا إشكال في ذكر فعل المقاربة.

وجملة يكادون يسطون في موضع بدل الاشتمال لجملة تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر لأن الهم بالسطو مما يشتمل عليه المنكر.". (٢)

١٠٢٨. ٢٣٧-"وفي هذا الترتيب **إيماء** إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال.

والمراد بالركوع والسجود الصلوات. وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية. وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله واعبدوا ربكم تنبيه على أن الصلاة عماد الدين.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٥/١٧

والمراد بالعبادة: ما أمر الله الناس أن يتعبدوا به مثل الصيام والحج.
وقوله وافعلوا الخير أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة، وحسن المعاملة كصلة الرحم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق، وهذا مجمل بينته وبينت مراتبه أدلة أخرى.
والرجاء المستفاد من لعلكم تفلحون مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحد الموجب للفلاح فيما حدد الله تعالى، فهذه حقيقة الرجاء. وأما ما يستلزمه الرجاء من تردد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تحيل الشك على الله تعالى.
واعلم أن قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا إلى لعلكم تفلحون اختلف الأئمة في كون ذلك موضع سجدة من سجود القرآن. والذي ذهب إليه الجمهور أن ليس ذلك موضع سجدة وهو قول مالك في «الموطأ» و «المدونة» ، وأبي حنيفة، والثوري.
وذهب جمع غفير إلى أن ذلك موضع سجدة، وروى الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وفقهاء المدينة، ونسبه ابن العربي إلى مالك". (١)

١٠٢٩. ٢٣٨-"[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٢]
الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢)
إجراء الصفات على المؤمنون [المؤمنون: ١] بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره **للإيماء** إلى وجه فلاحهم وعلته، أي أن كل خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم. وهذا يقتضي أن كل خصلة من هذه الخصال سبب للفلاح لأنه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا فإن الفلاح لا يتم إلا بخصال أخرى مما هو مرجع التقوى، ولكن لما كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبيء عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سببا للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين [المدثر: ٤٢- ٤٦] على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها في الغرض المذكور.

(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٤٦

والخشوع تقدم في قوله تعالى: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين في سورة البقرة [٤٥] وفي قوله: وكانوا لنا خاشعين في سورة الأنبياء [٩٠] . وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولا شك أن الخشوع، أي الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح.

وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع

وخاصة إذا كان في حال الصلاة لأن الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته.

وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له. وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها.". (١)

١٠٣٠. ٢٣٩-"ووصف الفواكه ب كثيرة باعتبار اختلاف الأصناف كالبسر والرطب والتمر، وكالزيت والعنب الرطب، وأيضا باعتبار كثرة إثمار هذين الشجرين.

وشجرة عطف على جنات أي وأخرجنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء

وهي شجرة الزيتون، وجملة تخرج صفة ل شجرة وتخصيصها بالذكر مع طي كون الناس منها يأكلون تنويه بشأنها، **وإيماء** إلى كثرة منافعها لأن من ثمرتها طعاما وإصلاحا ومداواة، ومن أعودها وقود وغيره،

وفي الحديث «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»

. وطور سيناء: جبل في صحراء سيناء الواقعة بين عقبة أيلة وبين مصر، وهي من بلاد فلسطين في القديم وفيه ناجى موسى ربه تعالى، وتقدم الكلام عليه في سورة الأعراف [١٤٣] عند قوله: ولكن انظر إلى الجبل، وغلب عليه اسم الطور بدون إضافة، وطور سيناء أو طور سينين. ومعنى الطور الجبل. وسيناء قيل اسم شجر يكثر هنالك. وقيل اسم حجارة. وقيل هو اسم لذلك المكان، قيل هو اسم نبطي وقيل هو اسم حبشي ولا يصح.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٩

وإنما اغتر من قاله بمشابهة هذا الاسم لوصف الحسن في اللغة الحبشية وهو كلمة سناه، ومثل هذا التشابه قد أثار أغلاطا.

وسكنت ياء سيناء سكونا ميتا وبه قرأ الجمهور. ويجوز فيها الفتح وسكون الياء سكونا حيا، وبه قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، وهو في القراءتين ممدود، وهو فيهما ممنوع من الصرف فقيل للعلمية والعجمة على قراءة الكسر لأن وزن فعلاء إذا كان عينه أصلا لا تكون ألفه للتأنيث بل للإلحاق وألف الإلحاق لا تمنع الصرف، وعلى قراءة الفتح فمنعه لأجل ألف التأنيث لأن وزن فعلاء من أوزان ألف التأنيث.

وقوله: تخرج من طور سيناء يقتضي أن لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة". (١)

١٠٣١. ٢٤٠-"وعطف مقالة نوح على جملة إرساله بفاء التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال.

وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) حتى أهملوا عبادة الله ونسوها.

وكذلك حكيت دعوة نوح قومه في أكثر الآيات بصيغة أمر بأصل عبادة الله دون الأمر بقصر عبادتهم على الله مع الدلالة على أنهم ما كانوا ينكرون وجود الله ولذلك عقب كلامه بقوله: ما لكم من إله غيره.

ويدل على هذا قولهم: ولو شاء الله لأنزل ملائكة فهم مثبتون لوجود الله، فجملة ما لكم من إله غيره في موقع التعليل للأمر بعبادته وهو تعليل أخص من المعلل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره فلا يستحق غيره العبادة فلا تعبدوا أصنامكم معه.

وغيره نعت ل إله. قرأه الجمهور بالرفع على اعتبار محل المنعوت ب (غير) لأن المنعوت مجرور بحرف جر زائد، وقرأه الكسائي بالجر على اعتبار اللفظ المجرور بالحرف الزائد.

وفرع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتقائهم عذاب الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤/١٨

وقد خولفت في حكاية جواب الملأ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة في سورة البقرة [٣٠] . فعطف هنا جواب الملأ من قومه بالفاء لوجهين:

أحدهما: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح.

والثاني: ليفاد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر. ووصف الملأ بأنهم الذين كفروا **للإيماء** إلى أن كفرهم هو الذي أنطقهم". (١)

١٠٣٢. ٢٤١-"وقد حكى الله في آيات أخرى عن قوم هود وعن قوم صالح أنهم أجابوا دعوة رسولهم بالرد والزجر كقول قوم هود قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء [هود: ٥٣، ٥٤] ، وقول قوم صالح قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب

[هود: ٦٢] .

وقوله وقال الملأ من قومه الذين كفروا الذين كفروا نعت ثان ل الملأ فيكون على وزان قوله في قصة نوح فقال الملأ الذين كفروا من قومه [المؤمنون: ٢٤] .

وإنما أخر النعت هنا ليتصل به الصفتان المعطوفتان من قوله: وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم.

واللقاء: حضور أحد عند آخر. والمراد لقاء الله تعالى للحساب كقوله تعالى:

واعلموا أنكم ملاقوه في سورة البقرة [٢٢٣] وعند قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا في سورة الأنفال [٤٥] .

وإضافة بلقاء إلى الآخرة على معنى (في) أي اللقاء في الآخرة.

والإتراف: جعلهم أصحاب ترف. والترف: النعمة الواسعة. وقد تقدم عند قوله:

وارجعوا إلى ما أترفتم فيه في سورة الأنبياء [١٣] .

وفي هذين الوصفين **إيماء** إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسولهم لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/١٨

ينفي عنهم توقع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف إذ ألفوا أن يكونوا سادة لا تبعا، قال تعالى: وذرني والمكذبين أولي النعمة [المزمل: ١١] ، ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به فقال بعضهم لبعض ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون.

وما هذا إلا بشر مثلكم كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولا من الله فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.". (١)

١٠٣٣. ٢٤٢-"صدق بالخبر لأجل المخبر، أي لأجل ثقته في نفسه. فأصل هذه اللام لام العلة والأجل. ومنه قوله تعالى: فآمن له لوط [العنكبوت: ٢٦] وقوله: وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون [الدخان: ٢١] . وأما تعدية فعل الإيمان بالباء فإنها إذا علق به ما يدل على الخبر تقول: آمنت بأن الله واحد. وبهذا ظهر الفرق بين قولك: آمنت بمحمد وقولك: آمنت لمحمد. فمعنى الأول: أنك صدقت شيئا.

ولذلك لا يقال: آمنت لله وإنما يقال: آمنت بالله. وتقول: آمنت بمحمد وآمنت لمحمد.

ومعنى الأول يتعلق بذاته وهو الرسالة ومعنى الثاني أنك صدقته فيما جاء به.

ومثلنا وصف لبشرين وهو مما يصح التزام إفراده وتذكيره دون نظر إلى مخالفة صيغة موصوفه كما هنا. ويصح مطابقته لموصوفه كما في قوله تعالى: إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم [الأعراف: ١٩٤] .

وهذا طعن في رسالتهما من جانب حالهما الذاتي ثم أعقبوه بطعن من جهة منشئهما وقبيلهما فقالوا: وقومهما لنا عابدون، أي وهم من فريق هم عباد لنا وأحط منا فكيف يسوداننا.

وقوله: عابدون جمع عابد، أي مطيع خاضع. وقد كانت بنو إسرائيل خولا للقبط وخدما لهم قال تعالى: وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل [الشعراء: ٢٢] .

وتفرع على قولهم التصميم على تكذيبهم إياهما المحكي بقوله فكذبوهما، أي أرسي أمرهم

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٨

على أن كذبوهما، ثم فرع على تكذيبهم أن كانوا من المهلكين إذ أهلكهم الله بالغرق، أي فانتظموا في سلك الأقوام الذين أهلكوا. وهذا أبلغ من أن يقال:

فأهلكوا، كما مر بنا غير مرة.

والتعقيب هنا تعقيب عرفي لأن الإغراق لما نشأ عن التكذيب فالتكذيب مستمر إلى حين الإهلاك.

وفي هذا تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم لأن في قوله: من المهلكين **إيماء** إلى أن الإهلاك سنة الله في الذين يكذبون رسله.". (١)

١٠٣٤. ٢٤٣-"وعطف العمل الصالح على الأمر بأكل الطيبات **إيماء** إلى أن همة الرسل إنما تنصرف إلى الأعمال الصالحة، وهذا كقوله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات [المائدة: ٩٣] المراد به ما تناولوه من الخمر قبل تحريمها.

وقوله: إني بما تعملون عليم تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة لأن ذلك يتضمن الوعد بالجزاء عنها وأنه لا يضيع منه شيء، فالخبر مستعمل في التحريض.

[٥٢]

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥٢]

وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (٥٢)

يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة يا أيها الرسل كلوا من الطيبات [المؤمنون: ٥١] إلخ، فيكون هذا مما قيل للرسل. والتقدير: وقلنا لهم إن هذه أمتكم أمة واحدة الآية. ويجوز أن تكون عطفا على قصص الإرسال المبدوءة من قوله: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه [المؤمنون: ٢٣] لأن تلك القصص إنما قصت عليهم ليهتدوا بها إلى أن شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله بالإلهية. وعلى هذا الوجه يكون سياقها كسياق آية سورة الأنبياء [٩٢] إن هذه أمتكم أمة واحدة الآية.

(١) التحرير والتنوير ١٨/٦٥

وفي هذه الآية ثلاث قراءات بخلاف آية سورة الأنبياء. فتلك اتفق القراء على قراءتها بكسر همزة (إن) . فأما هذه الآية فقرأ الجمهور وأن بفتح الهمزة وتشديد النون، فيجوز أن تكون خطابا للرسل وأن تكون خطابا للمقصودين بالنذارة على الوجهين وفتح الهمزة بتقدير لام كي متعلقة بقوله: فاتقون عند من لا يرى وجود الفاء فيه مانعا من تقديم معموله، أو متعلقة بمحذوف دل عليه فاتقون عند من يمنع تقديم المعمول على العامل المقترن بالفاء، كما تقدم في قوله تعالى: فإياي فارهبون في سورة النحل". (١)

١٠٣٥. ٢٤٤-"وقد تقدم عند قوله تعالى: وأولئك لهم الخيرات في سورة براءة [٨٨] ، وتقدم في سورة الأنبياء [٧٣- ٩٠] .

و (بل) إضراب عن المظنون لا على الظن كما هو ظاهر بالقرينة، أي لسنا نسارع لهم بالخيرات كما ظنوا بل لا يشعرون بحكمة ذلك الإمداد وأنها لاستدراجهم وفضحهم بإقامة الحجة عليهم.

[٥٧- ٦١]

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥٧ إلى ٦١]

إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لا يشركون (٥٩) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون (٦٠) أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٦١)

هذا الكلام مقابل ما تضمنته الغمرة من قوله فذرهم في غمرتهم [المؤمنون: ٥٤] من الإعراض عن عبادة الله وعن التصديق بآياته، ومن إشراكهم آلهة مع الله، ومن شحهم عن الضعفاء وإنفاق مالهم في اللذات، ومن تكذيبهم بالبعث. كل ذلك مما شملته الغمرة فجيء في مقابلها بذكر أحوال المؤمنين ثناء عليهم، ألا ترى إلى قوله بعد هذا بل قلوبهم في غمرة من هذا [المؤمنون: ٦٣] .

فكانت هذه الجملة كالتفصيل لإجمال الغمرة مع إفادة المقابلة بأحوال المؤمنين.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/١٨

واختير أن يكون التفصيل بذكر المقابل لحسن تلك الصفات وقبح أضدادها تنزيها للذكر عن تعداد رذائلهم، فحصل بهذا إيجاز بديع، وطباق من ألطف البديع، وصون للفصاحة من كراهة الوصف الشنيع.

وافتتاح الجملة ب إن للاهتمام بالخبر، والإتيان بالموصولات للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها وتكرير". (١)

١٠٣٦. ٢٤٥-"و (إذا) الأولى ظرفية فيها معنى الشرط فلذلك كان الأصل والغالب فيها أن تدل على ظرف مستقبل. وإذا الثانية فجائية داخلة على جواب شرط (إذا) .

والمترفون: المعطون ترفا وهو الرفاهية، أي المنعمون كقوله تعالى: وذرني والمكذبين أولي النعمة [المزمل: ١١] فالمترفون منهم هم سادتهم وأكابرهم والضمير المضاف إليه عائد إلى جميع المشركين أصحاب الغمرة.

وإنما جعل الأخذ واقعا على المترفين منهم لأنهم الذين أضلوا عامة قومهم ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لا تبعت الدهماء الحق لأن العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحق بسبب سلامتهم من جل دواعي المكابرة من توقع تقلص سؤدد وزوال نعيم. وكذلك حق على قادة الأمم أن يؤاخذوا بالتبعات اللاحقة للعامة من جراء أخطائهم ومغامرتهم عن تضليل أو سوء تدبر، وأن يسألوا عن الخيبة أن ألقوا بالذين اتبعوهم في مهواة الخطر كما قال تعالى: وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] ، وقال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون [النحل: ٢٥] .

وتخصيص المترفين بالتعذيب مع أن شأن العذاب الإلهي إن كان دنيويا أن يعم الناس كلهم إيماء إلى أن المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامة، ولأن المترفين هم أشد إحساسا بالعذاب لأنهم لم يعتادوا مس الضراء والآلام. وقد علم مع ذلك أن العذاب يعم جميعهم من قوله: إذا هم يجأرون فإن الضميرين في إذا هم ويجأرون عائدان إلى ما عاد إليه ضمير مترفيهم بقرينة

(١) التحرير والتنوير ٧٦/١٨

قوله: قد كانت آياتي تتلى عليكم إلى قوله سامرا تهجرون فإن ذلك كان من عمل جميعهم. ويجوز أن يكون المراد بالمترفين جميع المشركين فتكون الإضافة بيانية ويكون ذكر المترفين تهويلا في التهديد تذكيرا لهم بأن العذاب". (١)

١٠٣٧. ٢٤٦-"(٩٥)

آذنت الأيات السابقة بأقصى ضلال المشركين وانتفاء عذرهم فيما دانوا به الله تعالى وبغضب الله عليهم لذلك، وأنهم سواء في ذلك مع الأمم التي عجل الله لها العذاب في

الدنيا وادخر لها عذابا آخر في الآخرة، فكان ذلك نذراة لهم بمثله وتهديدا بما سيقولونه وكان مثارا لخشية النبيء صلى الله عليه وسلم أن يحل العذاب بقومه في حياته والخوف من هؤله فلقن الله نبيئه أن يسأل النجاة من ذلك العذاب. وفي هذا التلقين تعريض بأن الله منجيهم من العذاب بحكمته، وإيماء إلى أن الله يري نبيئه حلول العذاب بمكذبيه كما هو شأن تلقين الدعاء كما في قوله: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [البقرة: ٢٨٦] الآية.

فهذه الجملة استئناف بياني جوابا عما يختلج في نفس رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقد تحقق ذلك فيما حل بالمشركين يوم بدر ويوم حنين. فالوعيد المذكور هنا وعيد بعقاب في الدنيا كما يقتضيه قوله: فلا تجعلني في القوم الظالمين.

وذكر في هذا الدعاء لفظ (رب) مكررا تمهيدا للإجابة لأن وصف الربوبية يقتضي الرأفة بالمربوب.

وأدخل بعد حرف الشرط (ما) الزائدة للتوكيد فاقترن فعل الشرط بنون التوكيد لزيادة تحقيق ربط الجزاء بالشرط.

ونظيره في تكرير المؤكدات بين الشرط وجوابه قول الأعشى:

إما ترينا حفاة لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

أي فاعلمي حقا أنا نحفى تارة وننتعل أخرى لأجل ذلك، أي لأجل إخفاء الخطى لا للأجل وجدان نعل مرة وفقدانها أخرى كحال أهل الخصاصة.

وقد تقدم في قوله وإما ينزغنك من الشيطان نزغ في آخر الأعراف [٢٠٠] .

---

(١) التحرير والتنوير ٨٢/١٨

والمعنى: إذا كان ما يوعدون حاصلا في حياتي فأنا أدعوكم أن لا تجعلوني فيهم حينئذ.".
(١)

١٠٣٨. ٢٤٧-"واستعمال حرف الظرفية من قوله: في القوم الظالمين يشير إلى أنه أمر أن يسأل الكون في موضع غير موضع المشركين، وقد تحقق ذلك بالهجرة إلى المدينة فالظرفية هنا حقيقية، أي بينهم.
والخبر الذي هو قوله: وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون مستعمل في إيجاد الرجاء بحصول وعيد المكذبين في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا فلا حاجة إلى إعلام الرسول بقدرة الله على ذلك.
وفي قوله: أن نريك **إيماء** إلى أنه في منجاة من أن يلحقه ما يوعدون به وأنه
سيراه مرأى عين دون كون فيه. وقد يبدو أن هذا وعد غريب لأن المتعارف أن يكون العذاب سماويا فإذا نجى الله منه بعض رسله مثل لوط فإنه يبعده عن موضع العذاب ولكن كان عذاب هؤلاء غير سماوي فتحقق في مصرع صناديدهم يوم بدر بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ووقف رسول الله على القليب قليب بدر وناداهم بأسمائهم واحدا واحدا وقال لهم «لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا»
. وبهذا القصد يظهر موقع حرفي التأكيد (إن) واللام من إصابة محز الإعجاز.
[٩٦]

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٩٦]
ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون (٩٦)
لما أنبأ الله رسوله عليه الصلاة والسلام بما يلمح له بأنه منجز وعيده من الذين كذبوه فعلم الرسول والمسلمون أن الله ضمن لهم النصر أعقب ذلك بأن أمره بأن يدفع مكذبيه بالتي هي أحسن وأن لا يضيق بتكذيبهم صدره فذلك دفع السيئة بالحسنة كما هو أدب الإسلام.

---

(١) التحرير والتنوير ١١٨/١٨

وسيأتي بيانه في سورة فصلت [٣٤] عند قوله ادفع بالتي هي أحسن.
وقوله نحن أعلم بما يصفون خبر مستعمل كناية عن كون الله يعامل أصحاب الإساءة لرسوله بما هم أحقاء به من العقاب لأن الذي هو أعلم بالأحوال يجري عمله على مناسب تلك الأحوال بالعدل وفي هذا تطمين لنفس الرسول صلى الله عليه وسلم.". (١)

١٠٣٩. ٢٤٨-"من صحت يمينه صح لعانه وهذا قول مالك والشافعي، واشترط أبو حنيفة الحرية وحجته في ذلك إلحاق اللعان بالشهادة لأن الله سماه شهادة.
ولأجل المحافظة على هذه البدلية اشترط أن تكون أيمان اللعان بصيغة: «أشهد بالله» عند الأئمة الأربعة. وأما ما بعد صيغة (أشهد) فيكون كاليمين على حسب الدعوى التي حلف عليها بلفظ لا احتمال فيه.
وقوله: فشهادة أحدهم أربع شهادات قرأه الجمهور بنصب أربع على أنه مفعول مطلق لشهادة فيكون فشهادة أحدهم محذوف الخبر دل عليه معنى الشرطية الذي في الموصول واقتران الفاء بخبره، والتقدير: فشهادة أحدهم لازمة له. ويجوز أن يكون الخبر قوله: إنه لمن الصادقين على حكاية اللفظ مثل قولهم: «هجيرا أبي بكر لا إله إلا الله» . وقرأه حمزة والكسائي وحفص وخلف برفع أربع على أنه خبر المبتدإ وجملة إنه لمن الصادقين إلى آخرها بدل من فشهادة أحدهم. ولا خلاف بين القراء
في نصب أربع شهادات الثاني.
وفي قوله: إنه لمن الصادقين حكاية للفظ اليمين مع كون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة، أي يقول: إني لمن الصادقين فيما ادعيت عليها.
وأما قوله: والخامسة أي فالشهادة الخامسة، أي المكملة عدد خمس للأربع التي قبلها. وأنث اسم العدد لأنه صفة لمحذوف دل عليه قوله فشهادة أحدهم والتقدير: والشهادة الخامسة. وليس لها مقابل في عدد شهود الزنى. فلعل حكمة زيادة هذه اليمين مع الأيمان الأربع القائمة مقام الشهود الأربعة أنها لتقوية الأيمان الأربع باستذكار ما يترتب على أيمانه إن كانت غموسا من الحرمان من رحمة الله تعالى. وهذا هو وجه كونها مخالفة في صيغتها لصيغ

---

(١) التحرير والتنوير ١١٩/١٨

الشهادات الأربع التي تقدمتها. وفي ذلك **إيماء** إلى أن الأربع هي المجعولة بدلا عن الشهود وأن هذه الخامسة تذييل للشهادة وتغليظ لها.

وقرأ الجمهور: والخامسة أن غضب الله عليها بالرفع كقوله: والخامسة أن لعنت الله عليه وهو من عطف الجمل. وقرأه حفص عن". (١)

١٠٤٠. ٢٤٩-"والإثم: الذنب وتقدم عند قوله تعالى: قل فيهما إثم كبير في سورة البقرة [٢١٩]

وعند قوله: وذروا ظاهر الإثم وباطنه في سورة الأنعام [١٢٠] .

وتولي الأمر: مباشرة عمله والتهمم به.

والكبر بكسر الكاف في قراءة الجمهور، ويجوز ضم الكاف. وقرأ به يعقوب وحده، ومعناه: أشد الشيء ومعظمه، فهما لغتان عند جمهور أيمة اللغة. وقال ابن جني والزجاج: المكسور بمعنى الإثم، والمضموم: معظم الشيء. والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو منافق وليس من المسلمين.

وضمير منهم عائد إلى الذين جاؤ بالإفك. وقيل: الذي تولى كبره حسان ابن ثابت لما وقع في «صحيح البخاري» : «عن مسروق قال: دخل حسان على عائشة فأنشد عندها أبياتا منها:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكن أنت لست كذلك. قال مسروق فقلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله تعالى: والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم فقالت: أي عذاب أشد من العمى» .

والوعيد بأن له عذابا عظيما يقتضي أنه عبد الله بن أبي بن سلول. وفيه إنباء بأنه يموت على الكفر فيعذب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار، وأما بقية العصبة فلهم من الإثم بمقدار ذنبهم. وفيه **إيماء** بأن الله يتوب عليهم إن تابوا كما هو الشأن

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/١٦٥

في هذا الدين.

[١٢]

[سورة النور (٢٤) : آية ١٢]

لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين (١٢)

استئناف لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين وتعنيفهم بعد أن سماه إفكا.". (١)

١٠٤١. ٢٥٠-"بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يحب أن يستره ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب.

ومعنى تستأنسوا تطلبوا الأنس بكم، أي تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت، وأنسه به بانتفاء الوحشة والكراهية. وهذا كناية لطيفة عن الاستئذان، أي أن يستأذن الداخل، أي يطلب إذنا من شأنه أن لا يكون معه استيحاش رب المنزل بالداخل. قال ابن وهب قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان. يريد أنه المراد كناية أو مرادفة فهو من الأنس، وهذا الذي قاله مالك هو القول الفصل. ووقع لابن القاسم في «جامع العتبية» أن الاستئناس التسليم. قال ابن العربي: وهو بعيد. وقلت: أراد ابن القاسم السلام بقصد الاستئذان فيكون عطف وتسلموا عطف تفسير. وليس المراد بالاستئناس أنه مشتق من آنس بمعنى علم لأن ذلك إطلاق آخر لا يستقيم هنا فلا فائدة في ذكره وذلك بحسب الظاهر فإنه إذا أذن له دل إذنه على أنه لا يكره دخوله وإذا كره دخوله لا يأذن له والله متولي علم ما في قلبه فلذلك عبر عن الاستئذان بالاستئناس مع ما في ذلك من **الإيماء** إلى علة مشروعية الاستئذان.

وفي ذلك من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على توفر الأخوة الإسلامية.

وعطف الأمر بالسلام على الاستئناس وجعل كلاهما غاية للنهي عن دخول البيوت تنبيها

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٣/١٨

على وجوب الإتيان بهما لأن النهي لا يرتفع إلا عند حصولهما.

وعن ابن سيرين: «أن رجلا استأذن على النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: أأدخل؟ فأمر النبيء رجلا عنده أو أمة اسمها روضة فقال: إنه لا يحسن أن يستأذن فليقل: السلام عليكم أأدخل. فسمعه الرجل فقال:

السلام عليكم أأدخل. فقال: ادخل»

، وروى مطرف عن مالك عن زيد بن أسلم: «أنه استأذن على عبد الله بن عمر فقال: أألج. فأذن له ابن عمر، فلما دخل قال له ابن عمر:

ما لك واستئذان العرب؟ (يريد أهل الجاهلية) إذا استأذنت". (١)

١٠٤٢. ٢٥١-"لوضع متاعه بدلالة لحن الخطاب.

وكذلك يشمل دخول المسافر وإن كان لا متاع له لقصد التظلل أو المبيت بدلالة لحن الخطاب أو القياس.

وقد فسر المتاع بالمصدر، أي التمتع والانتفاع. قال جابر بن زيد: كل منافع الدنيا متاع. وقال أبو جعفر النحاس: هذا شرح حسن من قول إمام من أيمة المسلمين وهو موافق للغة، وتبعه على ذلك في «الكشاف» . ونوه بهذا التفسير أبو بكر ابن العربي فيكون **إيماء** إلى أن من لا منفعة له في دخولها لا يؤذن له في دخولها لأنه يضيق على أصحاب الاحتياج إلى بقاعها.

وجملة: والله يعلم ما تبدون وما تكتمون مستعملة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود وهي كون البيوت غير مسكونة وكون الداخل محتاجا إلى دخولها بله أن يدخلها بقصد التجسس على قطانها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم.

[٣٠]

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٠]

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٧/١٨

(٣٠)

أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه.

ولما كان الغض التام لا يمكن جيء في الآية بحرف من الذي هو للتبعيض **إيماء** إلى ذلك إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه وذلك يتذكره المسلم من استحضاره أحكام الحلال والحرام في هذا الشأن فيعلم أن غض البصر مراتب: منه واجب ومنه دون ذلك، فيشمل غض البصر عما اعتاد الناس كراهية التحقق فيه كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك فقد

جاء في حديث عمر بن الخطاب حين". (١)

١٠٤٣. ٢٥٢-"وكلم الغزل. ومن ذلك رقص النساء في مجالس الرجال ومن ذلك التلطخ بالطيب الذي يغلب عبيقه. وقد أومأ إلى علة ذلك قوله تعالى: ليعلم ما يخفين من زينتهن ولعن النبيء صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلجات للحسن.

قال مكي بن أبي طالب ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع وسماها أبو بكر ابن العربي: آية الضمائر.

وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

أعقبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين والمؤمنات بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله **إيماء** إلى أن فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلة البشرية من الاستحسان والشهوة فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثم يتغلغل هو فيه فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم.

والجملة معطوفة على جملة: قل للمؤمنين [النور: ٣٠] . ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٠٣

استئناف تشريع.
ونبه بقوله: جميعا على أن المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات وإن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب، وأن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابوا.
وتقدم الكلام على التوبة في سورة النساء [١٧] عند قوله تعالى: إنما التوبة على الله.
وكتب في المصحف أيه بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة المؤمنون.
فقرأها الجمهور بفتح الهاء بدون ألف في الوصل. وقرأها أبو عامر بضم الهاء إتباعا لحركة (أي) . ووقف عليها". (١)

١٠٤٤. ٢٥٣-"بيده عقدة النكاح [البقرة: ٢٣٧] في قول جماعة في محمل الذي بيده عقدة النكاح منهم الشافعي.
وقال بعض المفسرين: الخطاب في قوله: وآتوهم للمسلمين. أمرهم الله بإعانة المكاتبين.
والأمر محمول على الندب عند أكثر العلماء وحمله الشافعي على الوجوب. وقال إسماعيل بن حماد القاضي: وجعل الشافعي الكتابة غير واجبة وجعل الأمر بالإعطاء للوجوب فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا وهذا لا نظير له اهـ. وفيه نظر.
وإضافة المال إلى الله لأنه ميسر أسباب تحصيله. وفيه **إيماء** إلى أن الإعطاء من ذلك المال شكر والإمساك جحد للنعمة قد يتعرض به الممسك لتسلب النعمة عنه.
والموصول في قوله الذي آتاكم يجوز أن يكون وصفا ل مال الله ويكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه. ويجوز أن يكون وصفا لاسم الجلالة فيكون امتنانا وحثا على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة ويكون مفعول آتاكم محذوفا للعموم، أي ءاتاكم على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة. ويكون مفعول آتاكم محذوفا للعموم، أي ءاتاكم نعما كثيرة كقوله: وآتاكم من كل ما سألتموه [إبراهيم: ٣٤] .
وأحكام الكتابة وعجز المكاتب عن أداء نجومه ورجوعه مملوكا وموت المكاتب وميراث الكتابة وأداء أبناء المكاتب نجوم كتابته مبسوطة في كتب الفروع.
ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٤/١٨

الله من بعد إكراههن غفور رحيم.". (١)

١٠٤٥. ٢٥٤-"ولا يعقل أن يكون البغاء محرما قبل نزول هذه الآية إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدل على تحريم البغاء، ولأنه لو كان كذلك لم يتصور حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم.
ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى [النساء: ٤٣] توطئة لتحريم الخمر ألبتة. وهو الذي جرى عليه المفسرون مثل الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة بل بما تأولوا به معاني الآية إذ تأولوا قوله: إن أردن تحصنا بأن الشرط لا يراد به عدم النهي عن الإكراه على البغاء إذا انتفت إرادتهن التحصن بل كان الشرط خرج مخرج الغالب لأن إرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات إذ كن يحببن التعفف، أو لأن القصة التي كانت سبب نزول الآية كانت معها إرادة التحصن.
والداعي إلى ذكر القيد تشنيع حالة البغاء في الإسلام بأنه عن إكراه وعن منع من التحصن.
ففي ذكر القيدين **إيماء** إلى حكمة تحريمه وفساده وخباثة الاكتساب به.
وذكر إن أردن تحصنا لحالة الإكراه إذ إكراههم إياهن لا يتصور إلا وهن يأبين وغالب الإباء أن يكون عن إرادة التحصن. هذا تأويل الجمهور ورجعوا في الحامل على التأويل إلى حصول إجماع الأمة على حرمة البغاء سواء كان الإجماع لهذه الآية أو بدليل آخر انعقد الإجماع على مقتضاه فلا نزاع في أن الإجماع على تحريم البغاء ولكن النظر في أن تحريمه هل كان بهذه الآية.
وأنا أقول: إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول.
والذي يظهر من كلام ابن العربي أنه قد نحا بعض العلماء إلى اعتبار الشرط في الآية دليلا على تحريم الإكراه على البغاء بقيد إرادة الإماء التحصن.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢١/١٨

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٦/١٨

١٠٤٦. ٢٥٥-"يقولون: ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين ونسقي الحاج ونقري الضيف. كما أشار إليه قوله تعالى: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر [التوبة: ١٩] يعدون أعمالا من أفعال الخير فكانت هذه الآيات إبطالا لحسبانهم، قال تعالى: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا [الفرقان: ٢٣] وقد أعلمناك أن هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة وذلك حين كان المشركون يتعقبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسسون ما نزل من القرآن.

والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. والذين كفروا مبتدأ وخبره جملة: أعمالهم كسراب إلخ. وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بني عليه مسند إليه آخر وهو أعمالهم. ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرر في النفس كمال التقرر وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة.

وفي الإتيان بالموصول وصلته **إيماء** إلى وجه بناء الخبر. وهو أنه من جزاء كفرهم بالله. على أنه قد يكون عنوان الذين كفروا قد غلب على المشركين من أهل مكة فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف إشارة إلى أنه إبطال لشيء اعتقده الذين كفروا. فتشبيه الكافرين وأعمالهم تشبيه تمثيلي: شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضى الله ثم تبين أنها لا تجديهم بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز: شبه ذلك بحالة ظمئان يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء لم يجد ماء ووجد هنالك غريما يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة.

واعلم أن الحالة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول والحالة المشبه بها حالة محسوسة. أي داخلة تحت إدراك الحواس.". (١)

١٠٤٧. ٢٥٦-"(٥٠)

عطف جملة: ويقولون على جملة: والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [النور: ٤٦] لما تتضمنه جملة: يهدي من يشاء من هداية بعض الناس وحرمان بعضهم من الهداية كما هو

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٥١

مقتضى: من يشاء. وهذا تخلص إلى ذكر بعض ممن لم يشأ الله هدايتهم وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام وهم أهل النفاق. فبعد أن ذكرت دلائل انفراد الله تعالى بالإلهية وذكر الكفار الصرحاء الذين لم يهتدوا بها في قوله: والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة [النور: ٣٩] الآيات تهيأ المقام لذكر صنف آخر من الكافرين الذين لم يهتدوا بآيات الله وأظهروا أنهم اهتدوا بها.

وضمير الجمع عائد إلى معروفين عند السامعين وهم المنافقون لأن ما ذكر بعده هو من أحوالهم، وعود الضمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن، على أنهم قد تقدم ما يشير إليهم بطريق التعريض في قوله: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة [النور: ٣٧] .

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثم إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضى بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة وفريقا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنا.

ففي قوله: يقولون **إيماء** إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى: قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] .

وعبر بالمضارع لإفادة تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق التي بينتها في سورة البقرة. ومفعول أطعنا محذوف دل عليه ما قبله، أي أطعنا الله والرسول.

والإشارة في قوله: وما أولئك إلى ضمير يقولون، أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم. وإنما يظهر كفرهم عند ما تحل بهم النوازل". (١)

١٠٤٨. ٢٥٧-"يخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك كما حكى الله تعالى من قول عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [المنافقون: ٨] ، فكانوا يظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالاة لأهل الشرك حتى إذا

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٦٨

ظهروا على المسلمين لم يلمزوا المنافقين بأنهم قد بدلوا دينهم، مع ما لهذا الكلام من المناسبة مع قوله: وإن تطيعوه تهتدوا [النور: ٥٤] ، فيكون المعنى: وإن تطيعوه تهتدوا وتنصروا و تأمنوا.

ومع ما روي من حوادث تخوف المسلمين ضعفهم أمام أعدائهم فكانوا مشفقين عن غزو أهل الشرك ومن كيد المنافقين ودلالتهم المشركين على عورات المسلمين فقيل كانت تلك الحوادث سببا لنزول هذه الآية.

قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح.

فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: لا تغبرون (أي لا تمكثون) إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة» . ونزلت هذه الآية

. فكان اجتماع هذه المناسبات سببا لنزول هذه الآية في موقعها هذا بما اشتملت عليه من الموعود به الذي لم يكن مقتصرا على إبدال خوفهم أمنا كما اقتضاه أثر أبي العالية، ولكنه كان من جملة الموعود كما كان سببه من عداد الأسباب.

وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قدم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيها لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا **إيماء** إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم: وإن تطيعوه تهتدوا [النور: ٥٤] ، وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات". (١)

١٠٤٩. ٢٥٨-"وإنما صيغ الكلام في هذا النظم ولم يقتصر على قوله: ليستخلفنهم دون تقييد بقوله: في الأرض ل ليستخلفنهم **للإيماء** إلى أن الاستخلاف يحصل في معظم الأرض. وذلك يقبل الامتداد والانقباض كما كان الحال يوم خروج بلاد الأندلس من حكم

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٨٢

الإسلام. ولكن حرمة الأمة واتقاء بأسها ينتشر في المعمورة كلها بحيث يخافهم من عداهم من الأمم في الأرض التي لم تدخل تحت حكمهم ويسعون الجهد في مرضاتهم ومسالمتهم. وهذا اسخلاف كامل ولذلك نظر بتشبيه باستخلاف الذين من قبلهم يعني الأمم التي حكمت معظم العالم وأخافت جميعه مثل الأشوريين والمصريين والفنيقيين واليهود زمن سليمان، والفرس، واليونان، والرومان.

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر فيكون موصول الجمع مستعملا في معنى المثنى. وعن الضحاك: هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ولعل هذا مراد مالك. وعلى هذا فالمراد بالذين من قبلهم صلحاء الملوك مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأنوشروان، وأصحمة النجاشي، وملكي صادق الذي كان في زمن إبراهيم ويدعى حمورابي، وذي القرنين، وإسكندر المقدوني، وبعض من ولي جمهورية اليونان.

وفي الآية دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية كانوا بمحل الرضى من الله تعالى لأنه استخلفهم استخلافا كاملا كما استخلف الذين من قبلهم وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة.

وجملة: ليستخلفنهم بيان لجملة: وعد لأنها عين الموعود به. ولما كانت جملة قسم وهو من قبيل القول كانت إحداهما بيانا للأخرى.

وقرأ الجمهور: كما استخلف بالبناء للفاعل، أي كما استخلف الله الذين من قبلهم. وقرأه أبو بكر عن عاصم بالبناء للنائب فيكون الذين نائب فاعل.". (١)

١٠٥٠. ٢٥٩-"وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل. وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبيء صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه قوله: «وإن هم أبوا (أي إلا القتال) فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (أي ينفصل مقدم العنق عن الجسد) ولينفذن الله أمره» .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٦/١٨

وقوله: لهم مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله: دينهم لأن المجرور بالحرف أضعف تعلقا من مفعول الفعل، فقدم لهم عليه للإيماء إلى العناية بهم، أي يكون التمكين لأجلهم، كتقديم المجرور على المفعولين في قوله: ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك [الشرح: ١، ٢] .
وإضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به لأنه دين الله كما دل عليه قوله عقبه: الذي ارتضى لهم، أي الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضا ليكونوا أتباع هذا الدين. وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم.
وإنما قال: وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ولم يقل: وليؤمننهم، كما قال في سابقيه لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذ إلا إلى الأمن، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدم آنفا، فكانوا في حالة هي ضد الأمن ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منة واحدة. وإضافة الخوف إلى ضميرهم للإشارة إلى أنه خوف معروف مقرر.
وتنكير أمنا للتعظيم بقرينة كونه مبدلا من بعد خوفهم المعروف بالشدة.
والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين. وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة. وليس هذا الوعد بمقتض أن لا تحدث حوادث". (١)

١٠٥١. ٢٦٠-"والعورة في الأصل: الخلل والنقص. وفيه قيل لمن فقدت عينه أعور وعورت عينه، ومنه عورة الحي وهي الجهة غير الحصينة منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر، قال لبيد:
وأجن عورات الثغور ظلامها وقال تعالى: يقولون إن بيوتنا عورة [الأحزاب: ١٣] ثم أطلقت على ما يكره انكشافه كما هنا وكما سمي ما لا يحب الإنسان كشفه من جسده عورة. وفي قوله: ثلاث عورات لكم نص على علة إيجاب الاستئذان فيها.
وقوله: ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن تصريح بمفهوم الظروف في قوله:
من قبل صلاة الفجر وما عطف عليه، أي بعد تلك الأوقات المحددة. فصلاة الفجر حد معلوم، وحالة وضع الثياب من الظهيرة تحديد بالعرف، وما بعد صلاة العشاء من الحصة

(١) التحرير والتنوير ٢٨٧/١٨

التي تسع في العرف تصرف الناس في التهيؤ إلى النوم.

ولك أن تجعل (بعد) بمعنى (دون) ، أي في غير تلك الأوقات الثلاثة كقوله تعالى:
فمن يهديه من بعد الله [الجاثية: ٢٣] ، وضمير بعدهن عائد إلى ثلاث عورات، أي بعد تلك الأوقات.

ونفي الجناح عن المخاطبين في قوله: ليس عليكم بعد أن كان الكلام على استئذان المماليك والذين لم يبلغوا الحلم **إيماء** إلى لحن خطاب حاصل من قوله:
ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم فإن الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات كما يرشد السامع إليه قوله: ثلاث عورات لكم.

وإنما لم يصرح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم إذ الشأن أنهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم فأما إذا دعت الحاجة إلى الدخول عليهم فالحكم فيهم سواء. وقد أشار إلى العلة قوله تعالى:
طوافون عليكم بعضكم على بعض.". (١)

١٠٥٢. ٢٦١-"والفرقان: القرآن وهو في الأصل مصدر فرق، كما في قوله: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان [الأنفال: ٤١] وقوله: يجعل لكم فرقانا [الأنفال: ٢٩] . وجعل علما بالغلبة على القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل لما بين من دلائل الحق ودحض الباطل. وقد تقدم في قوله تعالى: وأنزل الفرقان في سورة آل عمران [٤] .

وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا **للإيماء** إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرق بين الحق والباطل.

ووصف النبيء ب عبده تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله: وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام [الفرقان: ٧] الآية.

والمراد ب للعالمين جميع الأمم من البشر لأن العالم يطلق على الجنس وعلى النوع وعلى

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٩٤

الصنف بحسب ما يسمح به المقام، والنذارة لا تكون إلا للعقلاء ممن قصدوا بالتكليف. وقد مضى الكلام على لفظ العالمين في سورة الفاتحة [٢] .

والنذير: المخبر بسوء يقع، وهو فعيل بمعنى مفعل بصيغة اسم الفاعل مثل الحكيم.

والاقتصار في وصف الرسول هنا على النذير دون البشير كما في قوله: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا

[سبأ: ٢٨] لأن المقام هنا لتهديد المشركين إذ كذبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام. فكان مقتضيا لذكر النذارة دون البشارة، وفي ذلك اكتفاء لأن البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة. وسيجيء: وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا في هذه السورة [٥٦] .

وفي هذه الآية جمع بين التنويه بشأن القرآن وأنه منزل من الله وتنويه بشأن النبيء عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته.

[٢]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢]

الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا". (١)

.١٠٥٣ ٢٦٢-"(٢)

أجريت على اسم الله تعالى هذه الصفات الأربع بطريق تعريف الموصولية لأن بعض الصلات معروف عند المخاطبين اتصاف الله به وهما الصفتان الأولى والرابعة وإذ قد كانتا معلومتين كانت الصلتان الأخريان المذكورتان معهما في حكم المعروف لأنهما أجريتا على من عرف بالصلتين الأولى والرابعة فإن المشركين ما كانوا يمترون في أن الله هو مالك السماوات والأرض ولا في أن الله هو خالق كل شيء كما في قوله: قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله الآيات من سورة المؤمنين [٨٦، ٨٧] ، ولكنهم يثبتون لله ولدا وشريكا في الملك.

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٨

ومن بديع النظم أن جعل الوصفان المختلف فيهما معهم متوسطين بين الوصفين اللذين لا مرية فيهما حتى يكون الوصفان المسلمين كالدليل أولا والنتيجة آخرا، فإن الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولدا ولا أن يتخذ شريكا لأن ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق فيقتضي أن يكون اتخاذه ولدا وشريكا عبثا إذ لا غاية له، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدس.

فقوله: الذي له ملك السماوات والأرض بدل من الذي نزل الفرقان [الفرقان: ١] .

وإعادة اسم الموصول لاختلاف الغرض من الصلتين لأن الصلة الأولى في غرض الامتنان بتنزيل القرآن للهدى، والصلة الثانية في غرض اتصاف الله تعالى بالوحدانية.

وفي الملك **إيماء** إلى أن الاشتراك في الملك ينافي حقيقة الملك التامة التي لا يليق به غيرها.

والخلق: الإيجاد، أي أوجد كل موجود من عظيم الأشياء وحقيرها. وفرع على خلق كل شيء فقدره تقديرا لأنه دليل على إتقان الخلق إتقانا يدل على أن الخالق متصف بصفات الكمال.". (١)

١٠٥٤. ٢٦٣-"وتقدم في قوله: ومن أظلم ممن منع مساجد الله في سورة البقرة [١١٤] .

والظلم الذي أتوه هو نسبتهم الرسول إلى الاختلاق فإنه اعتداء على حقه الذي هو الصدق.

والزور: الكذب، وأحسن ما قيل في الزور: إنه الكذب المحسن المموه بحيث يشتبه بالصدق.

وكون قولهم ذلك كذبا ظاهر لمخالفته الواقع فالقرآن ليس فيه شيء من الإفك، والذين زعموهم معينين عليه لا يستطيع واحد منهم أن يأتي بكلام عربي بالغ غاية البلاغة ومرتق إلى حد الإعجاز، وإذا كان لبعضهم معرفة ببعض أخبار الرسل فما هي إلا معرفة ضئيلة غير محققة كشأن معرفة العامة والدهماء.

[٥]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥]

وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣١٨

الضمير عائد إلى الذين كفروا، فمدلول الصلة مراعى في هذا الضمير **إيماء** إلى أن هذا القول من آثار كفرهم.

الأساطير: جمع أسطورة بضم الهمزة كالأحدوثة والأحاديث، والأغلوطة والأغاليط، وهي القصة المسطورة. وقد تقدم معناها مفصلا عند قوله: حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين في سورة الأنعام [٢٥] . وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث العبدري قال: إن القرآن قصص من قصص الماضين.

وكان النضر هذا قد تعلم بالحيرة قصص ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار فكان يقول لقريش: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم وكان يقول في القرآن: هو أساطير الأولين. قال ابن عباس: كل ما ذكر فيه أساطير الأولين في القرآن فالمقصود منه قول النضر بن الحارث. وقد تقدم هذا في سورة الأنعام وفي أول سورة يوسف.". (١)

١٠٥٥. ٢٦٤-"(١٦)

الأمر بالقول يقتضي مخاطبا مقولا له ذلك: فيجوز أن يقصد: قل لهم، أي للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق: «أذلك خير أم الجنة» ؟ فالجمل متصلة السياق، والاستفهام حينئذ للتهكم إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيرا. ويجوز أن يقصد: قل للمؤمنين، فالجملة معترضة بين آيات الوعيد لمناسبة إبداء البون بين حال المشركين وحال المؤمنين، والاستفهام حينئذ مستعمل في التلميح والتلطف. وهذا كقوله:

أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم في سورة الصافات [٦٢] .

والإشارة إلى المكان الضيق في جهنم.

وخير اسم تفضيل، وأصله (أخير) بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال.

والتفضيل على المحمل الأول في موقع الآية مستعمل للتهكم بالمشركين.

وعلى المحمل الثاني مستعمل للتمليح في خطاب المؤمنين وإظهار المنة عليهم.

ووصف الموعودين بأنهم متقون على المحمل الأول جار على مقتضى الظاهر، وعلى المحمل الثاني جار على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير الخطاب،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٤/١٨

فوجه العدول إلى الإظهار ما يفيده المتقون من العموم للمخاطبين ومن يجيء بعدهم.

وجملة: كانت لهم جزاء ومصيرا تذييل لجملة: جنة الخلد التي وعد المتقون لما فيها من التنويه بشأن الجنة بتنكير جزاء ومصيرا مع **الإيماء** إلى أنهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى: نعم الثواب وحسنت مرتفقا [الكهف: ٣١] وقوله:

بئس الشراب وساءت مرتفقا في سورة الكهف [٣١- ٢٩] .

وجملة: لهم فيها ما يشاؤن، حال من جنة الخلد أو صفة ثانية. وجملة:

كان على ربك وعدا مسؤلا حال ثانية والرابط محذوف إذ التقدير: وعدا لهم.

والضمير المستتر في: كان على ربك وعدا عائد إما إلى الوعد المفهوم". (١)

١٠٥٦. ٢٦٥-"ونسبوا إليهم موالاتهم. والمعنى لا نتخذ من يوالينا دونك، أي من يعبدنا دونك.

والاستدراك الذي أفاده (لكن) ناشيء عن التبري من أن يكونوا هم المضلين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلا يتوهم أن تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين. والمقصود بالاستدراك ما بعد (حتى) وهو نسوا الذكر. وأما ما قبلها فقد أدمج بين حرف الاستدراك ومدخوله ما يسجل عليهم فظاعة ضلالهم بأنهم قابلوا رحمة الله ونعمته عليهم وعلى آبائهم بالكفران، فالخبر عن الله بأنه متع الضالين وآباءهم مستعمل في الثناء على الله بسعة الرحمة، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران غضبا عليهم.

وجعل نسيانهم الذكر غاية للتمتيع **للإيماء** إلى أن ذلك التمتيع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم فهو كجود في أرض سبخة قال تعالى: وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون [الواقعة: ٨٢]

.

والتعرض إلى تمتيع آبائهم هنا مع أن نسيان الذكر إنما حصل من المشركين الذين بلغتهم الدعوة المحمدية ونسوا الذكر، أي القرآن، هو زيادة تعظيم نعمة التمتيع عليهم بأنها نعمة

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣٣٥

متأثلة تليدة، مع الإشارة إلى أن كفران النعمة قد انجر لهم من آبائهم الذين سنوا لهم عبادة الأصنام. ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يظهر أن ضمير نسوا وضمير كانوا عائدان إلى الظالمين المكذبين بالإسلام دون آبائهم لأن الآباء لم يسمعوا الذكر.

والنسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة لأنه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمل ولا بصيرة. وتقدم في قوله تعالى: وتنسون ما تشركون في سورة الأنعام [٤١] .

والذكر: القرآن لأنه يتذكر به الحق، وقد تقدم في قوله تعالى:". (١)

١٠٥٧. ٢٦٦-"والجملة استئناف يتنزل منزلة جواب عن قولهم. والتأكيد بلام القسم لإفادة معنى التعجيب لأن القسم يستعمل في التعجب كقول أحد بني كلاب أو بني نمير أنشده ثعلب في «مجالسه» والقالي في «أماليه» :

ألا يا سنا برق على قلل الحمى ... لهنك من برق علي كريم

فإن قوله: من برق، في قوة التمييز وإنما يكون التمييز فيه لما فيه من معنى التعجب.

والاستكبار: مبالغة في التكبر، فالسين والتاء للمبالغة مثل استجاب.

وفي للظرفية المجازية شبهت أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها، أي هو استكبار متمكن منهم كقوله تعالى: وفي أنفسكم أفلا تبصرون [الذاريات: ٢١] .

ويجوز أن تكون في للتعليل كما

في الحديث «دخلت امرأة النار في هرة حبستها»

الحديث، أي استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم. وليست الظرفية حقيقية لقلة جدوى ذلك إذ من المعلوم أن الاستكبار لا يكون إلا في النفس لأنه من الأفعال النفسية.

والعتو: تجاوز الحد في الظلم، وتقدم في قوله تعالى: وعتوا عن أمر ربهم في الأعراف [٧٧] .

وإنما كان هذا ظلما لأنهم تجاوزوا مقدار ما خولهم الله من القابلية.

وفي هذا إيماء إلى أن النبوءة لا تكون بالاكتساب وإنما هي إعداد من الله تعالى قال: الله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٠/١٨

أعلم حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] .
[٢٢]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٢]
يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا (٢٢)
استئناف ثان جواب عن مقالتهم، فبعد إبداء التعجيب منها عقب بوعيد لهم، فيه حصول بعض ما طلبوا حصوله الآن، أي هم سيرون الملائكة ولكنها رؤية تسوءهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ففي هذا الاستئناف تلميح وتهكم بهم لأن ابتداءه مطمع بالاستجابة وآخره مؤيس بالوعيد، فالكلام جرى". (١)

١٠٥٨. ٢٦٧-"وجملة (يا ويلتا) معترضة بين جملة يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا وجملة ليتني لم أتخذ فلانا خليلا.
و (فلان) : اسم يكني عمن لا يذكر اسمه العلم، كما يكنى ب (فلانة) عمن لا يراد ذكر اسمها العلم، سواء كان ذلك في الحكاية أم في غيرها. قاله ابن السكيت وابن مالك خلافا لابن السراج وابن الحاجب في اشتراط وقوعه في حكاية بالقول، فيعامل (فلان) معاملة العلم المقرون بالنون الزائدة و (فلانة) معاملة العلم المقترن بهاء التأنيث، وقد جمعهما قول الشاعر:
ألا قاتل الله الوشاة وقولهم ... فلانة أضحت خلة لفلان
أراد نفسه وحبيبته.
وقال المرار العبسي:
وإذا فلان مات عن أكرومة ... دفعوا معاوز فقده بفلان
أراد: إذا مات من له اسم منهم أخلفوه بغيره في السؤدد، وكذلك قول معن بن أوس:
وحتى سألت القرض من كل ذي ... الغنى ورد فلان حاجتي وفلان
وقال أبو زيد في «نوادره» : أنشدني المفضل لرجل من ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة،

---
(١) التحرير والتنوير ٦/١٩

أي في أواسط القرن الأول للهجرة:

إن لسعد عندنا ديوانا ... يخزي فلانا وابنه فلانا

والداعي إلى الكناية بفلان إما قصد إخفاء اسمه خيفة عليه أو خيفة من أهلهم أو للجهل به، أو لعدم الفائدة لذكره، أو لقصد نوع من له اسم علم. وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي أو حملت على إرادة كل مشرك له خليل صده عن اتباع الإسلام.

وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليلا دون تمني أن يكون عصاه فيما سول له قصدا للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها.

وفيه **إيماء** إلى أن شأن الخلة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي". (١)

١٠٥٩. ٢٦٨-"والموصول في قوله: الذين كذبوا بآياتنا **للإيماء** إلى علة الخبر عنهم بالتدمير.

وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختصرت به القصة فذكر منها حاشيتاها: أولها وآخرها لأنهما المقصود بالقصة وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم.

والتدمير: الإهلاك، والهلاك: دمور.

وإتباع الفعل بالمفعول المطلق لما في تنكير المصدر من تعظيم التدمير وهو الإغراق في اليم.

[٣٧]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٣٧]

وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما (٣٧)

عطف على جملة ولقد آتينا موسى الكتاب [الفرقان: ٣٥] باعتبار أن المقصود وصف قومه بالتكذيب والإخبار عنهم بالتدمير.

وانتصب قوم نوح بفعل محذوف يفسره أغرقناهم على طريقة الاشتغال، ولا يضر الفصل

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٤

بكلمة لما لأنها كالظرف، وجوابها محذوف دل عليه مفسر الفعل المحذوف، وفي هذا النظم اهتمام بقوم نوح لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكد بضميرهم.
ويجوز أن يكون وقوم نوح عطفا على ضمير النصب في قوله فدمرناهم [الفرقان: ٣٦] أي ودمرنا قوم نوح، وتكون جملة لما كذبوا الرسل أغرقناهم مبينة لجملة فدمرناهم.
والآية: الدليل، أي جعلناهم دليلا على مصير الذين يكذبون رسلهم. وجعلهم آية: هو تواتر خبرهم بالغرق آية.
وجعل قوم نوح مكذبين الرسل مع أنهم كذبوا رسولا واحدا لأنهم استندوا في تكذيبهم رسولهم إلى إحالة أن يرسل الله بشرا لأنهم قالوا:". (١)

١٠٦٠. ٢٦٩-"وانتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشد من حال الأنعام بأنهم أضل سبيلا من الأنعام. وضلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها وهؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا كقوله تعالى فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار [البقرة: ٧٤] الآية.
[٤٥، ٤٦]

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ إلى ٤٦]
ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦)
استئناف ابتدائي فيه انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وإثبات أن القرآن من عند الله أنزله على رسوله، وصفات الرسل وما تخلل ذلك من الوعيد وهو من هذا الاعتبار
متصل بقوله: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] الآية.
وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله وهو من هذه الجهة

---
(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٩

متصل بقوله في أول السورة واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا [الفرقان: ٣] الآية.
وتوجيه الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وسلم يقتضي أن الكلام متصل بنظيره من قوله تعالى: قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض [الفرقان: ٦] . وما عطف عليه قل أذلك خير [الفرقان: ١٥] وما أرسلنا قبلك من المرسلين [الفرقان: ٢٠] وكفى بربك هاديا [الفرقان: ٣١] فكلها مخاطبات للنبيء صلى الله عليه وسلم. وقد جعل مد الظل وقبضه تمثيلا لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجما جار على حكمة التدرج لأنه أمكن في حصول المقصود، وذلك ما دل عليه قوله سابقا كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] . فكان في قوله: ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ... الآية زيادة في التعليل على ما في قوله كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] .
ويستتبع هذا إيماء إلى تمثيل نزول القرآن بظهور شمس في المواضع التي كانت". (١)

١٠٦١. ٢٧٠-"ليكون مستكملا وصف الطهارة القاصرة والمتعدية، فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنة في أثناء المنن المقصودة، ويكون كقوله تعالى: وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به [الأنفال: ١١] وصف الطهارة الذاتية وتطهيره، فيكون هذا الوصف إدماجا ولولا ذلك لكان الأحق بمقام الامتنان وصف الماء بالصفاء أو نحو ذلك.
والبلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للري والجفاف لأن ري الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي، وجفاف الأرض يجف به النبات فيشبه الميت.
ولماء المطر خاصية الإحياء لكل أرض لأنه لخلوه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحا بكل أرض وبكل نبات على اختلاف طباع الأرضين والمنابت.
والبلدة: البلد. والبلد يذكر ويؤنث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا: دار ودارة. ووصفت البلدة بميت، وهو وصف مذكر لتأويل بلدة بمعنى مكان لقصد التخفيف. وقال في «الكشاف» ما معناه: إنه لما دل على المبالغة في الاتصاف بالموت ولم يكن جاريا على

(١) التحرير والتنوير ١٩/٣٨

أمثلة المبالغة نزل منزلة الاسم الجامد (أي فلم يغير) . وأحسن من هذا أنه أريد به اسم الميت، ووصف البلدة به وصف على معنى التشبيه البليغ.

وفي قوله لنحيي به بلدة ميتا **إيماء** إلى تقريب إمكان البعث.

ونسقيه بضم النون مضارع أسقى مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال:

أسقى وسقى. قال تعالى: قالتا لا نسقي [القصص: ٢٣] بفتح النون. وقيل: سقى: أعطى الشراب، وأسقى: هيأ الماء للشرب. وهذا القول أسد لأن الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى هيأناه لشرب الأنعام والأناسي فكل من احتاج للشرب شرب منه سواء من شرب ومن لم يشرب.

وأنعاما مفعول ثان ل نسقيه. وقوله: مما خلقنا حال من أنعاما وأناسي. و (من) تبعيضية. و (ما) موصولة، أي بعض ما خلقناه، والموصول **للإيماء** إلى علة الخبر، أي نسقيهم لأنهم مخلوقات. ففائدة هذا الحال الإشارة إلى رحمة الله بها لأنها خلقه. وفيه إشارة إلى أن أنواعا أخرى من". (١)

١٠٦٢. ٢٧١-"يعذب عذابا غير مضاعف وغير مخلد فيه، لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده، إلا بقرينة.

والتوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب، وإذ كان فيما سبق ذكر الشرك فالتوبة هنا التلبس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخذة كما اقترفه المشرك في مدة شركه كما

في الحديث «الإسلام يجب ما قبله»

، ولذلك فعطف وآمن على من تاب للتنويه بالإيمان، وليبنى عليه قوله:

وعمل عملا صالحا وهو شرائع الإسلام تحريضا على الصالحات **وإيماء** إلى أنها لا يعتد بها إلا مع الإيمان كما قال تعالى في سورة البلد [١٧] ثم كان من الذين آمنوا، وقال في عكسه

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٤٨

والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا [النور: ٣٩] .

وقتل النفس الواقع في مدة الشرك يجبه إيمان القاتل لأجل مزية الإيمان، والإسلام يجب ما قبله بلا خلاف، وإنما الخلاف الواقع بين السلف في صحة توبة القاتل إنما هو في المؤمن القاتل مؤمنا متعمدا. ولما كان مما تشمله هذه الآية لأن سياقها في الثناء على المؤمنين فقد دلت الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من هذه الذنوب المعدودة ومنها قتل النفس بدون حق وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة. وقد تقدم ذلك مفصلا في سورة النساء [٩٣] عند قوله تعالى: ومن يقتل مؤمنا متعمدا الآية.

وفرع على الاستثناء الذين تابوا وآمنوا وعملوا عملا صالحا أنهم يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهو كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك لأن من تاب مستثنى من من يفعل ذلك [الفرقان: ٦٨] فتعين أن السيئات المضافة إليهم هي

السيئات المعروفة، أي التي تقدم ذكرها، الواقعة منهم في زمن شركهم.

والتبديل: جعل شيء بدلا عن شيء آخر، وتقدم عند قوله تعالى: ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة في سورة الأعراف [٩٥] ، أي يجعل الله لهم حسنات كثيرة عوضا عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة وهذا التبديل جاء مجملا وهو". (١)

١٠٦٣. ٢٧٢-"ويجوز أن يكون إطلاق اللقي لسماع ألفاظ التحية والسلام لأجل **الإيماء** إلى أنهم يسمعون التحية من الملائكة يلقونهم بها، فهو مجاز بالحذف قال تعالى: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون في سورة الأنبياء [١٠٣] .

وقوله: حسنت مستقرا ومقاما هو ضد ما قيل في المشركين إنها ساءت مستقرا ومقاما [الفرقان: ٦٦] . والتحية تقدمت في قوله: وإذا حييتم بتحية في سورة النساء [٨٦] ، وفي قوله: وتحيتهم فيها سلام في سورة يونس [١٠] ، وقوله: تحية من عند الله مباركة طيبة في آخر النور [٦١] .

[٧٧]

---

(١) التحرير والتنوير ٧٦/١٩

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٧]

قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (٧٧)

لما استوعبت السورة أغراض التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمنته من توحيد الله، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعللاتهم، وأحوال المؤمنين، وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، ختمت بأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنهم قد شفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتوركهم في مجادلته فبين لهم حقارتهم عند الله تعالى وأنه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعا لعذرهم فإذ كذبوا فسوف يحل بهم العذاب.

وما من قوله: ما يعبؤا بكم نافية. وتركيب: ما يعبأ به، يدل على التحقير، وضده عبأ به يفيد الحفاوة.

ومعنى ما يعبؤا: ما يبالي وما يهتم، وهو مضارع عبأ مثل: ملأ يملأ مشتق من العبء بكسر العين وهو الحمل بكسر الحاء وسكون الميم، أي الشيء الثقيل الذي يحمل على البعير ولذلك يطلق العبء على العدل بكسر فسكون، ثم تشعبت عن هذا إطلاقات كثيرة. فأصل ما يعبؤا: ما يحمل عبئا، تمثيلا بحالة المتعب من الشيء، فصار المقصود: ما يهتم وما يكترث، وهو كناية عن قلة العناية.". (١)

١٠٦٤. ٢٧٣-"والمشار إليه ب ذلك هو المذكور من الأرض، وإنبات الله الأزواج فيها، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة.

والتأكيد بحرف إن لتنزيل المتحدث عنهم منزلة من ينكر دلالة ذلك الإنبات وصفاته على ثبوت الوحدانية التي هي باعث تكذيبهم الرسول لما دعاهم إلى إثباتها، وإفراد (آية) لإرادة الجنس، أو لأن في المذكور عدة أشياء في كل واحد منها آية فيكون على التوزيع.

وجملة: وما كان أكثرهم مؤمنين عطف على جملة: إن في ذلك لآية إخبارا عنهم بأنهم مصرون على الكفر بعد هذا الدليل الواضح، وضمير أكثرهم عائد إلى معلوم من المقام كما عاد

---

(١) التحرير والتنوير ٨٥/١٩

الضمير الذي في قوله: ألا يكونوا مؤمنين [الشعراء: ٣] ، وهم مشركو أهل مكة وهذا تحد لهم كقوله: ولن تفعلوا [البقرة: ٢٤] .

وأسند نفي الإيمان إلى أكثرهم لأن قليلا منهم يؤمنون حينئذ أو بعد ذلك.

وكان هنا مقحمة للتأكيد على رأي سيبويه والمحققين.

وجملة: وإن ربك لهو العزيز الرحيم تذييل لهذا الخبر: بوصف الله بالعزة، أي تمام القدرة فتعلمون أنه لو شاء لعجل لهم العقاب، وبوصف الرحمة **إيماء** إلى أن في إمهالهم رحمة بهم لعلهم يشكرون، ورحيم بك. قال تعالى: وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب [الكهف: ٥٨] . وفي وصف الرحمة **إيماء** إلى أنه يرحم رسله بتأييده ونصره.

واعلم أن هذا الاستدلال لما كان عقليا اقتصر عليه ولم يكرر بغيره من نوع الأدلة العقلية كما كررت الدلائل الحاصلة من العبرة بأحوال الأمم من قوله: وإذ نادى ربك موسى [الشعراء: ١٠] إلى آخر قصة أصحاب ليكة.

[١٠، ١١]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٠ إلى ١١]

وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون (١١)

شروع في عد آيات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر عواقب المكذبين برسلهم". (١)

١٠٦٥. ٢٧٤-"ليحذر المخاطبون بالدعوة إلى الإسلام من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين.

وفي ضمن ذلك تبيين لبعض ما نادى به الرسل من البراهين.

وإذ قد كانت هذه الأدلة من المثلات قصد ذكر كثير اشتهر منها ولم يقتصر على حادثة واحدة لأن الدلالة غير العقلية يتطرقها احتمال عدم الملازمة بأن يكون ما أصاب قوما من أولئك على وجه الصدفة والاتفاق فإذا تبين تكرر أمثالها ضعف احتمال الاتفاقية، لأن

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٠٢

قياس التمثيل لا يفيد القطع إلا بانضمام مقومات له من تواتر وتكرر.
وإنما ابتدئ بذكر قصة موسى ثم قصة إبراهيم على خلاف ترتيب حكاية القصص الغالب في القرآن من جعلها على ترتيب سبقها في الزمان، لعله لأن السورة نزلت للرد على المشركين في إلحاحهم على إظهار آيات من خوارق العادات في الكائنات زاعمين أنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءتهم آية فضرب لهم المثل بمكابرة فرعون وقومه في آيات موسى إذ قالوا: إن هذا لساحر مبين [يونس: ٢] وعطف وإذ نادى ربك موسى عطف جملة على جملة: أولم يروا إلى الأرض [الشعراء: ٧] بتمامها.
ويكون إذ اسم زمان منصوبا بفعل محذوف تقديره: واذكر إذ نادى ربك موسى على طريقة قوله في القصة التي بعدها واتل عليهم نبأ إبراهيم [الشعراء: ٦٩] . وفي هذا المقدر تذكير للرسول عليه الصلاة والسلام بما يسليه عما يلقاه من قومه.
ونداء الله موسى الوحي إليه بكلام سمعه من غير واسطة ملك.
جملة: أن ائت القوم الظالمين تفسير لجملة: نادى، وأن تفسيرية.
والمقصود من سوق هذه القصة هو الموعظة بعاقبة المكذبين وذلك عند قوله تعالى: فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر إلى قوله: وإن ربك لهو العزيز الرحيم [الشعراء: ٦٣- ٦٨] . وأما ما تقدم ذلك من قوله: وإذ نادى ربك موسى إلخ فهو تفصيل لأسباب الموعظة بذكر دعوة موسى إلى ما أمر بإبلاغه وإعراض فرعون وقومه وما عقب ذلك إلى الخاتمة.
واستحضار قوم فرعون بوصفهم بالقوم الظالمين **إيماء** إلى علة الإرسال. وفي هذا الإجمال توجيه نفس موسى لترقب تعيين هؤلاء القوم بما يبينه، وإثارة لغضب". (١)

١٠٦٦. ٢٧٥-"موسى عليهم حتى ينضم داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثال أمر الله الباعثه إليهم، وذلك أوقع لكلامه في نفوسهم. وفيه **إيماء** إلى أنهم اشتهروا بالظلم.
ثم عقب ذلك بذكر وصفهم الذاتي بطريقة البيان من القوم الظالمين وهو قوله:

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٠٣

قوم فرعون، وفي تكرير كلمة قوم موقع من التأكيد فلم يقل: ائت قوم فرعون الظالمين، كقول جرير:

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم ... لا يلفينكم في سوأة عمر

والظلم يعم أنواعه، فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة، ومنها ظلمهم الناس حقوقهم إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم، وتقدم استعماله في المعنيين مرارا في ضد العدل ومن أظلم ممن منع مساجد الله في البقرة [١١٤] ، وبمعنى الشرك في قوله: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم في الأنعام [٨٢] .

واعلم أنه قد عدل هنا عن ذكر ما ابتدئ به نداء موسى مما هو في سورة طه [١٢- ٢٣] بقوله: إني أنا ربك فاخلع نعليك إلى قوله: لنريك من آياتنا الكبرى لأن المقام هنا يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتعاظ بعاقبتهم. وأما مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربه ورسالته معا فكان مقام إطناب مع ما في ذلك من اختلاف الأسلوب في حكاية القصة الواحدة كما تقدم في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير.

والإتيان المأمور به هو ذهابه لتبليغ الرسالة إليهم. وهذا إيجاز يبينه قوله: أتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين

[الشعراء: ١٦] إلى آخره.

وجملة: ألا يتقون مستأنفة استئنافا بيانيا لأنه لما أمره بالإتيان إليهم لدعوتهم ووصفهم بالظالمين كان الكلام مثيرا لسؤال في نفس موسى عن مدى ظلمهم فجيء بما يدل على توغلهم في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعث لموسى على بلوغ الغاية في الدعوة وتهيئة لتلقيه تكذيبهم بدون مفاجأة، فيكون ألا من قوله: ألا يتقون مركبا من حرفين همزة الاستفهام و (لا) النافية. والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم، وتعجيب موسى من ذلك، فإن موسى كان مطلعا على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد علم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتل أنبياء بني إسرائيل....". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٠٤

١٠٦٧. ٢٧٦-"الغرض المستفهم عنه على فرض وقوعها وهو غرض الاستمرار على التكذيب، وهو استفهام حقيقي.

وليست الواو مؤخرة عن همزة الاستفهام لأن لحرف الاستفهام الصدارة بل هي لعطف الاستفهام.

والعامل في الحال وصاحب الحال مقدران دل عليهما قوله: لأجعلنك [الشعراء: ٢٩] ، أي أتجعلني من المسجونين.

ووصف «شيء» ب مبين اسم فاعل من أبان المتعدي، أي مظهر أني رسول من الله.

وأعرض فرعون عن التصريح بالتزام الاعتراف بما سيجيئ به موسى فجاء بكلام محتمل إذ قال فأت به إن كنت من الصادقين. وفي قوله: إن كنت من الصادقين **إيماء** إلى أن في كلام فرعون ما يقتضي أن فرض صدق موسى فرض ضعيف كما هو الغالب في شرط إن مع إيهام أنه جاء بشيء مبين يعتبر صادقا فيما دعا إليه، فبقي تحقيق أن ما سيجيء به موسى مبين أو غير مبين. وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع والنزول ليتأتى إنكاره إن احتاج إليه.

والثعبان: الحية الضخمة الطويلة.

ووصف ثعبان بأنه مبين الذي هو اسم فاعل من أبان القاصر الذي بمعنى بان بمعنى ظهر، ف مبين دال على شدة الظهور من أجل أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أي ثعبان ظاهر أنه ثعبان لا لبس فيه ولا تخييل.

وبالاختلاف بين مبين الأول ومبين الثاني اختلفت الفاصلتان معنى فكانتا من قبيل الجناس ولم تكونا مما يسمى مثله إيطاء.

والإلقاء: الرمي من اليد إلى الأرض، وتقدم في سورة الأعراف.

والنزع: سل شيء مما يحيط به، ومنه نزع اللباس، ونزع الدلو من البئر. ونزع اليد: إخراجها من القميص، فلذلك استغنى عن ذكر المنزوع منه لظهوره، أي أخرج يده من جيب قميصه.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/١٩

١٠٦٨. ٢٧٧-"بالأقصر و (أبودو) وتسمى اليوم العرابة المدفونة، و (أبو) وهي (بو) وهي إدنو، و (أون رميسي) ، و (أرمنت) و (سنى) وهي أسناء و (ساورت) وهي السيوط، و (خمونو) وهي الأشمونيين، و (بامازيت) وهي البهنسا، و (خسوو) وهي سخا، و (كاريينا) وهي سد أبي قيرة، و (سودو) وهي الفيوم، و (كويتي) وهي قفط.

والتعريف في المدائن للاستغراق، أي في مدائن القطر المصري، وهو استغراق عرفي، أي المدائن التي لحكم فرعون أو المظنون وقوعها قرب طريقهم. وكان فرعون وقومه لا يعلمون أين اتجه بنو إسرائيل فأراد أن يتعرض لهم في كل طريق يظن مرورهم به. وكان لا يدري لعلهم توجهوا صوب الشام، أو صوب الصحراء الغربية، وما كان يظن أنهم يقصدون شاطىء البحر الأحمر بحر «القلزم» وكان يومئذ يسمى بحر «سوف» .

وجملة إن هؤلاء لشرذمة قليلون مقول لقول محذوف لأن حاشرين يتضمن معنى النداء، أي يقولون إن هؤلاء لشرذمة قليلون.

والإشارة ب هؤلاء إلى حاضر في أذهان الناس لأن أمر بني إسرائيل قد شاع في أقطار مصر في تلك المدة التي بين جمع السحرة وبين خروج بني إسرائيل، وليست الإشارة للسحرة خاصة إذ لا يلتئم ذلك مع القصة.

وفي اسم الإشارة **إيماء** إلى تحقير لشأنهم أكده التصريح بأنهم شرذمة قليلون.

والشرذمة: الطائفة القليلة من الناس، هكذا فسره المحققون من أئمة اللغة، فإتباعه بوصف قليلون للتأكيد لدفع احتمال استعمالها في تحقير الشأن أو بالنسبة إلى جنود فرعون، فقد كان عدد بني إسرائيل الذين خرجوا ستمائة ألف، هكذا قال المفسرون، وهو موافق لما في سفر العدد من التوراة في الإصحاح السادس والعشرين.

وقليلون خبر ثان عن اسم الإشارة، فهو وصف في المعنى لمدلول هؤلاء وليس وصفا لشرذمة ولكنه مؤكد لمعناها، ولهذا جيء به بصيغة جمع السلامة الذي هو ليس من جموع الكثرة.". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٣٠

١٠٦٩. ٢٧٨-"نظام تلك المخلوقات كما كان حال الإشراك في العرب فيكون الاستثناء متصلا لأن الله من جملة معبوديهم، أي إلا الرب الذي خلق العوالم. وتقدم ذكر أصنام قوم إبراهيم في سورة الأنبياء. وانظر ما يأتي في سورة العنكبوت.

[٧٨- ٨٢]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧٨ إلى ٨٢]

الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢)

الأظهر أن الموصول في موضع نعت ل رب العالمين [الشعراء: ٧٧] وأن فهو يهدين عطف على الصلة مفرع عليه لأنه إذا كان هو الخالق فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولاها غيره. ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ مستأنفا به ويكون فهو يهدين خبرا عن الذي. وزيدت الفاء في الخبر لمشابهة الموصول للشرط. وعلى الاحتمالين ففي الموصولية **إيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو الاستدراك بالاستثناء الذي في قوله: إلا رب العالمين [الشعراء: ٧٧] ، أي ذلك هو الذي أخلص له لأنه خلقني كقوله في الآية الأخرى: إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض [الأنعام: ٧٩] .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: فهو يهدين دون أن يقول: فيهدين، لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب. وليس الضمير ضمير فصل لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف.

والتعبير بالمضارع في قوله: يهدين لأن الهداية متجددة له. وجعل فعل الهداية مفرعا بالفاء على فعل الخلق لأنه معاقب له لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنها ناشئة عن خلق العقل كما قال تعالى: الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [طه: ٥٠] . والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى: وهديناه النجدين [البلد: ١٠] فيكون المعنى: الذي خلقني جسدا وعقلا. ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل

عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصوما من الخطأ.". (١)

١٠٧٠. ٢٧٩-"وتقدم الكلام على معنى الخزي عند تفسير قوله تعالى: إلا خزي في الحياة الدنيا في سورة البقرة [٨٥] . وقوله: إنك من تدخل النار فقد أخزيته في آل عمران [١٩٢]
.

وضمير يبعثون راجع إلى العباد المعلوم من المقام.

وجملة: إنه كان من الضالين تعليل لطلب المغفرة لأبيه فيه إيماء إلى أنه سأل له مغفرة خاصة وهي مغفرة أكبر الذنوب أعني الإشراك بالله، وهو سؤال اقتضاه مقام الخلة وقد كان أبوه حيا حينئذ لقوله في الآية الأخرى: قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا [مريم: ٤٧] . ولعل إبراهيم علم من حال أبيه أنه لا يرجى إيمانه بما جاء به ابنه أو أن الله أوحى إليه بذلك ما ترشد إليه آية وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [التوبة: ١١٤] . ويجوز أنه لم يتقرر في شرع إبراهيم حينئذ حرمان المشركين من المغفرة فيكون ذلك من معنى قوله تعالى: فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [التوبة: ١١٤] . ويجوز أن يكون طلب الغفران له كناية عن سبب الغفران وهو هدايته إلى الإيمان.

ويوم لا ينفع مال إلخ يظهر أنه من كلام إبراهيم عليه السلام فيكون يوم لا ينفع بدلا من يوم يبعثون قصد به إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

واستظهر ابن عطية: أن الآيات التي أولها يوم لا ينفع مال ولا بنون يريد إلى قوله: فنكون من المؤمنين [الشعراء: ١٠٢] منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله تعالى صفة لليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه أن لا يخزى فيه اه.

وهو استظهار رشيق فيكون: يوم لا ينفع مال استئنافا خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو يوم لا ينفع مال ولا بنون. وفتحة يوم فتحة بناء لأن (يوم) ظرف أضيف إلى فعل معرب فيجوز إعرابه ويجوز بناؤه على الفتح، فهو كقوله تعالى: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم [المائدة:

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/١٩

١١٩] . ويظهر على هذا الوجه أن يكون المراد ب من أتى الله بقلب سليم الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى وصفه". (١)

١٠٧١. ٢٨٠-"موضع الحال من الواو في أتأتون. ومن فصلية، أي تفيد معنى الفصل بين متخالفين بحيث لا يماثل أحدهما الآخر. فالمعنى: مفصولين من العالمين لا يماثلكم في ذلك صنف من العالمين. وهذا المعنى جوزه في «الكشاف» ثانيا وهو أوفق بمعنى: العالمين الذي المختار فيه أنه جمع (عالم) بمعنى النوع من المخلوقات كما تقدم في سورة الفاتحة.

وإثبات معنى الفصل لحرف من قاله ابن مالك، ومثل بقوله تعالى: والله يعلم المفسد من المصلح [البقرة: ٢٢٠] ، وقوله: ليميز الله الخبيث من الطيب [الأنفال: ٣٧] .

ونظر فيه ابن هشام في «مغني اللبيب» وهو معنى رشيق متوسط بين معنى الابتداء ومعنى البدلية وليس أحدهما. وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى والله يعلم المفسد من المصلح في سورة البقرة [٢٢٠] .

والمعنى: أتأتون الذكران مخالفين جميع العالمين من الأنواع التي فيها ذكور وإناث فإنها لا يوجد فيها ما يأتي الذكور.

فهذا تنبيه على أن هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العجم فهو عمل ابتدعوه ما فعله غيرهم، ونحوه قوله تعالى في الآية الأخرى إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين [العنكبوت: ٢٨] .

والمراد بالأزواج: الإناث من نوع، وإطلاق اسم الأزواج عليهن مجاز مرسل بعلاقة الأول، ففي هذا المجاز تعريض بأنه يرجو ارعواءهم.

وفي قوله: ما خلق لكم ربكم **إيماء** إلى الاستدلال بالصلاحية الفطرية لعمل على بطلان عمل يضاده، لأنه مناف للفطرة. فهو من تغيير الشيطان وإفساده لسنة الخلق والتكوين، قال تعالى حكاية عنه ولآمرنهم فليغيرن خلق الله [النساء: ١١٩] .

وبل لإضراب الانتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذم تغليظا للإنكار بعد لينه لأن شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر والأخذ بأصرح مراتب الإعلان فإنه إن

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/١٩

استطاع بلسانه غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لينه وأنه يبتدىء باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشد ولذلك انتقل لوط من قوله:". (١)

١٠٧٢. ٢٨١-"والذي يشهد لذلك ويرجحه أن القرآن لما ذكر هذه القصة لأهل مدين وصف شعيبا بأنه أخوهم، ولما ذكرها لأصحاب ليكة لم يصف شعيبا بأنه أخوهم إذ لم يكن شعيب نسيبا ولا صهرا لأصحاب ليكة، وهذا **إيماء** دقيق إلى هذه النكتة. ومما يرجح ذلك قوله تعالى في سورة الحجر [٧٨، ٧٩] وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين، فجعل ضميرهم مثنى باعتبار أنهم مجموع قبيلتين: مدين وأصحاب ليكة.
وقد بينا ذلك في سورة الحجر. وإنما ترسل الرسل من أهل المدائن قال تعالى:
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى [يوسف: ١٠٩] وتكون الرسالة شاملة لمن حول القرية.
وافتتح شعيب دعوته بمثل دعوات الرسل من قبله للوجه الذي قدمناه.
وشمل قوله: ألا تتقون النهي عن الإشراك فقد كانوا مشركين كما في آية سورة هود.
[١٨١- ١٨٣]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٨١ إلى ١٨٣]
أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم (١٨٢) ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١٨٣)
استئناف من كلامه انتقل به من غرض الدعوة الأصلية بقوله: ألا تتقون [الشعراء: ١٧٧] إلى آخره إلى الدعوة التفصيلية بوضع قوانين المعاملة بينهم، فقد كانوا مع شركهم بالله يطففون المكيال والميزان ويبخسون أشياء الناس إذا ابتاعوها منهم، ويفسدون في الأرض.
فأما تطفيف الكيل والميزان فظلم وأكل مال بالباطل، ولما كان تجارهم قد تمالؤوا عليه اضطر الناس إلى التبايع بالتطفيف.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/١٩

وأوفوا أمر بالإيفاء، أي جعل الشيء وافيا، أي تاما، أي اجعلوا الكيل غير ناقص. والمخسر: فاعل الخسارة لغيره، أي المنقص، فمعنى ولا تكونوا من المخسرين لا تكونوا من المطففين. وصوغ من المخسرين أبلغ من: لا تكونوا مخسرين. لأنه يدل على الأمر بالتبرؤ من أهل هذا الصنيع، كما تقدم آنفا في عدة آيات منها قوله: لتكونن من المرجومين [الشعراء: ١١٦] في قصة نوح.". (١)

١٠٧٣. ٢٨٢-"والقسطاس: بضم القاف وبكسرها من أسماء العدل، ومن أسماء الميزان، وتقدم في قوله تعالى: وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا في سورة الإسراء [٣٥] ، حمل على المعنيين هنا كما هنالك وإن كان الوصف ب المستقيم يرجح أن المقصود به الميزان، وتقدم تفصيل ما يرجع إليه هذا التشريع في قصته في الأعراف.

وقرأ الجمهور: بالقسطاس بضم القاف. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر القاف.

وبخس أشياء الناس: غبن منافعها وذمها بغير ما فيها ليضطروهم إلى بيعها بغبن.

وأما الفساد فيقع على جميع المعاملات الضارة.

والبخس: النقص والذم. وتقدم في قوله: ولا يبخس منه شيئا في سورة البقرة [٢٨٢] ونظيره في سورة الأعراف. وقد تقدم نظير بقية الآية في سورة هود. ومن بخس الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع: إن سلعتك رديئة، ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برخص. [١٨٤]

[سورة الشعراء (٢٦) : آية ١٨٤]

واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين (١٨٤)

أكد قوله في صدر خطابه فاتقوا الله [الشعراء: ١٧٩] بقوله هنا: واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين وزاد فيه دليل استحقاقه التقوى بأن الله خلقهم وخلق الأمم من قبلهم، وباعتبار هذه الزيادة أدخل حرف العطف على فعل اتقوا ولو كان مجرد تأكيد لم يصح عطفه. وفي قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٤/١٩

الذي خلقكم **إيماء** إلى نبذ اتقاء غيره من شركائهم.

والجبلة: بكسر الجيم والباء وتشديد اللام: الخلقة، وأريد به المخلوقات لأن الجبلة اسم كالمصدر ولهذا وصف ب الأولين. وقيل: أطلق الجبلة على أهلها، أي وذوي الجبلة الأولين.

والمعنى: الذي خلقكم وخلق الأمم قبلكم.". (١)

١٠٧٤. ٢٨٣-"والمعنى: فإن عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم. ولما كان التبرؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبت الله جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم وأن يتوكل على ربه فهو كافيه كما قال: ومن يتوكل على الله فهو حسبه [الطلاق: ٣] . وعلق التوكل بالاسمين العزيز الرحيم وما تبعهما من الوصف بالموصول وما ذيل به من **الإيماء** إلى أنه يلاحظ قوله ويعلم نيته، إشارة إلى أن التوكل على الله يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف العزيز الرحيم للإشارة إلى أنه بعزته قادر على تغلبه على عدوه الذي هو أقوى منه، وأنه برحمته يعصمه منهم. وقد لوحظ هذان الاسمان غير مرة في هذه السورة لهذا الاعتبار كما تقدم.

والتوكل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمه، وقد تقدم عند قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في سورة آل عمران [١٥٩] .

ووصفه تعالى: ب الذي يراك حين تقوم

مقصود به لازم معناه. وهو أن النبيء صلى الله عليه وسلم بمحل العناية منه لأنه يعلم توجهه إلى الله ويقبل ذلك منه، فالمراد من قوله: يراك

رؤية خاصة وهي رؤية الإقبال والتقبل كقوله: فإنك بأعيننا [الطور: ٤٨] .

والقيام: الصلاة في جوف الليل، غلب هذا الاسم عليه في اصطلاح القرآن، والتقلب في الساجدين هو صلاته في جماعات المسلمين في مسجده. وهذا يجمع معنى العناية بالمسلمين تبعا للعناية برسولهم، فهذا من بركته صلى الله عليه وسلم، وقد جمعها هذا التركيب العجيب الإيجاز.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/١٨٥

وفي هذه الآية ذكر صلاة الجماعة. قال مقاتل لأبي حنيفة: هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال أبو حنيفة: لا يحضرني فتلا مقاتل هذه الآية.

وموقع إنه هو السميع العليم موقع التعليل للأمر ب فقل إني بريء مما تعملون [الشعراء: ٢١٦] ، وللأمر ب توكل على العزيز الرحيم، فصفة السميع مناسبة للقول، وصفة العليم مناسبة للتوكل، أي إنه يسمع قولك ويعلم عزمك.

وضمير الفصل في قوله: هو السميع العليم للتقوية.". (١)

١٠٧٥. ٢٨٤-"والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن ييسر الله الاهتداء به دون من جحدوا أنه من عند الله.

والتحدي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء.

والاعتبار بملك أعظم ملك أوتيه نبيء. وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام، وما بلغه من العلم بأحوال الطير، وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة.

وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود. والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ. وفي ذلك إيماء إلى أن نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة تقارنها سياسة الأمة ثم يعقبها ملك، وهو خلافة النبيء صلى الله عليه وسلم.

وأن الشريعة المحمدية سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لبني إسرائيل ملك سليمان.

ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كهانهم وعرافيهم، وسدنة آلهتهم. وإثبات البعث وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطها.

وأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة. ثم موادعة المشركين وإنباؤهم بأن شأن الرسول الاستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأن آيات الصدق سيشاهدونها والله مطلع على أعمالهم.

قال ابن الفرس: ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ. ونفيه أن يكون فيها إحكام ولا نسخ معناه أنها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ. وقال القرطبي في تفسير آية وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه [النمل:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٤/١٩

٩١، ٩٢] الآية نسختها آية القتال اه، يعني الآية النازلة بالقتال في سورة البراءة. وتسمى آية السيف، والقرطبي معاصر لابن الفرس إلا أنه كان بمصر وابن الفرس بالأندلس، وقوله: لأعذبنه عذابا شديدا [النمل: ٢١] ويؤخذ منهما حكمان كما سيأتي.

[١]

[سورة النمل (٢٧) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم". (١)

١٠٧٦. ٢٨٥-"والبشرى: اسم للتبشير، ووصف الكتاب بالهدى والبشرى جار على طريقة المجاز العقلي، وإنما الهادي والمبشر الله أو الرسول بسبب الكتاب. والعامل في الحال ما في اسم الإشارة من معنى: أشير، كقوله: وهذا بعلي شيخا [هود: ٧٢] ، وقد تقدم ما فيه في سورة إبراهيم.

وللمؤمنين يتنازعه هدى وبشرى لأن المؤمنين هم الذين انتفعوا بهديه كقوله:

هدى للمتقين [البقرة: ٢] .

ووصف المؤمنين بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنهم عرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين، ألا ترى أن الله عرف الكفار بقوله وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة [فصلت: ٦، ٧] ، ولأن في الصلة إيماء إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنهم على هدى من ربهم ومفلحون.

والزكاة: الصدقة لأنها تزكي النفس أو تزكي المال، أي تزيده بركة. والمراد بالزكاة هنا الصدقة مطلقا أو صدقة واجبة كانت على المسلمين، وهي مواساة بعضهم بعضا كما دل عليه قوله في صفة المشركين بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين [الفجر: ١٧، ١٨] . وأما الزكاة المقدرة بالنصب والمقادير الواجبة على أموال الأغنياء فإنها فرضت بعد الهجرة فليست مرادا هنا لأن هذه السورة مكية.

وجملة: وهم بالآخرة هم يوقنون عطف على الصلة وليست من الصلة، ولذلك خولف بين

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢١٦

أسلوبها وأسلوب الصلة فأتي له بجملة اسمية اهتماما بمضمونها لأنه باعث على فعل الخيرات، على أن ضمير هم الثاني يجوز أن يعتبر ضمير فصل دالا على القصر، أي ما يوقن بالآخرة إلا هؤلاء.

والقصر إضافي بالنسبة إلى مجاوريهم من المشركين، وإلا فإن أهل الكتاب يوقنون بالآخرة، إلا أنهم غير مقصود حالهم للمخاطبين من الفريقين. وتقديم بالآخرة للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بها.". (١)

١٠٧٧. ٢٨٦-"خالصا أو مشوبا بشيء من التأمل في مفاسده، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

[٥]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٥]

أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥)

قصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أن استحقاقهم ما يخبر به عنهم ناشيء عما تقدم اسم الإشارة كما في أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

وعزز ما نبه عليه باسم الإشارة فأعقب باسم الموصول وصلته لما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر.

وجيء بلام الاختصاص للإشارة إلى أنهم في حالتهم هذه قد هيىء لهم سوء العذاب. والظاهر أن المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر وما بعده بقرينة عطف: وهم في الآخرة هم الأخسرون.

ففي الآية إشارة إلى جزاءين: جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقونه بكفرهم، فهم ما داموا كافرين متهيئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.

وجزاء في الآخرة ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر، وهذا المصير يسمى بالموافاة عند

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/١٩

الأشعري.

ولكون نوال العذاب الأول إياهم قابلا للتفصي منه بالإيمان قبيل حلوله بهم جيء في جانبه بلام الاختصاص المفيدة كونه مهيأ تهيئة، أما أصالة جزاء الآخرة إياهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.

فالضمائر في قوله لهم وقوله: وهم في الآخرة هم عائدة إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة [النمل: ٤] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص معينين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه". (١)

١٠٧٨. ٢٨٧-"في قوله: فإني غفور رحيم. فالتقدير: إلا من ظلم من قبل الإرسال وتاب من ظلمه فخاف عقابي فلا يخاف لأني غافر له وقابل لتوبته لأني غفور رحيم. وانتظم الكلام على إيجاز بديع اقتضاه مقام تعجيل المسرة، ونسج على منسج التذكرة الرمزية لعلم المتخاطبين بذلك كأنه يقول: لم أهمل توبتك يوم اعتديت وقولك هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي [القصص: ١٥، ١٦] ، وعزمك على الاستقامة يوم قلت: رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين [القصص: ١٧]
.

ولذلك اقتصر في الاستثناء على خصوص من بدل حسنا بعد سوء إذ لا يتصور في الرسول الإصرار على الظلم.

ومن ألطف الإيماء الإتيان بفعل ظلم ليومىء إلى قول موسى يوم ارتكب الاعتداءب إني ظلمت نفسي
[القصص: ١٦] ولذلك تعين أن يكون المقصود ب من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء موسى نفسه.

وقال الفراء والزجاج والزمخشري وجرى عليه كلام الضحاك: الاستثناء منقطع وحرف الاستثناء بمعنى الاستدراك فالكلام استطراد للتنبيه على أن من ظلم وبدل حسنا بعد سوء من الناس يغفر له. وعليه تكون من صادقة على شخص ظلم وليس المراد بها مخالفات بعض

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٢/١٩

الرسل. وهذا التأويل دعا إليه أن الرسالة تنافي سبق ظلم النفس. والذي حداهم إلى ذلك أن من مقتضى الاستثناء المتصل إثبات نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى، ونقيض انتفاء الخوف حصول الخوف. والموجود بعد أداة الاستثناء أنه مغفور له فلا خلاف عليه. ويفهم منه أنه لو ظلم ولم يبدل حسنا بعد سوء يخاف عذاب الآخرة.

أما الزمخشري فزاد على ما سلكه الفراء والزجاج فجعل ما صدق من ظلم رسولا ظلم. والذي دعاه إلى اعتبار الاستثناء منقطعا هو أحد الداعيين اللذين دعيا الفراء والزجاج وهو أن الحكم المثبت للمستثنى ليس نقيضا لحكم المستثنى منه ولذلك جعل ما صدق من ظلم رسولا من الرسل ظلم بما فرط منه من صغائر ليشمل موسى وهو واحد منهم.

وقد تحصل من الاحتمالين في معنى الاستثناء أن الرسل في حضرة الله (أي حين". (١)

١٠٧٩. ٢٨٨-"تكون عارفة بالعبرانية، ويحتمل أن يكون الكتاب مكتوبا بالعربية القحطانية، فإن عظمة ملك سليمان لا تخلو من كتاب عارفين بلغات الأمم المجاورة لمملكته، وكونه بلغته أظهر وأنسب بشعار الملوك، وقد كتب النبيء صلى الله عليه وسلم للملوك باللغة العربية.

أما الكلام المذكور في هذه الآية فهو ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى بتضمين دقائقه وخصوصيات اللغة التي أنشئ بها.

وقوله: إنه من سليمان هو من كلام الملكة ابتدأت به مخاطبة أهل مشورتها لإيقاظ أفهامهم إلى التدبر في مغزاه لأن اللائق بسليمان أن لا يقدم في كتابه شيئا قبل اسم الله تعالى، وأن معرفة اسم سليمان تؤخذ من ختمه وهو خارج الكتاب فلذلك ابتدأت به أيضا.

والتأكيد ب (إن) في الموضعين يترجم عما في كلامهما باللغة السبائية من عبارات دالة على اهتمامها بمرسل الكتاب وبما تضمنه الكتاب اهتماما يؤدى مثله في العربية الفصحى بحرف التأكيد الذي يدل على الاهتمام في مقام لا شك فيه.

وتكرير حرف (إن) بعد واو العطف **إيماء** إلى اختلاف المعطوف والمعطوف عليه بأن المراد بالمعطوف عليه ذات الكتاب، والمراد بالمعطوف معناه وما اشتمل عليه، كما تقول: إن فلانا لحسن الطلعة وإنه لزكي. وهذا من خصوصيات إعادة العامل بعد حرف العطف مع إغناء

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٣٠

حرف العطف عن ذكر العامل، ونظيره قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم
[النساء: ٥٩] ، أعيد أطيعوا لاختلاف معنى الطاعتين، لأن طاعة الله تنصرف إلى الأعمال الدينية، وطاعة الرسول مراد بها طاعته في التصرفات الدنيوية، ولذلك عطف على الرسول أولو الأمر من الأمة.
وقوله: إنه من سليمان حكاية لمقالها، وعرفت هي ذلك من عنوان الكتاب بأعلاه أو بظاهره على حسب طريقة الرسائل السلطانية في ذلك العهد في بني إسرائيل، مثل افتتاح كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بجملة: «من محمد رسول الله» .". (١)

١٠٨٠. ٢٨٩-"ذكره أن نزول هذه السورة كان في وقت تآمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبيء صلى الله عليه وسلم، وهو التآمر
الذي حكاه الله في قوله: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين [الأنفال: ٣٠] فضرب الله لهم مثلا بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم وكيف كان عاقبة مكرهم، ولذلك ترى بين الآيتين تشابها وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر الله بهم، وذكر أن في قصتهم آية لقوم يعلمون.
[٥٠ -٥٣]

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٠ إلى ٥٣]
ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٥١) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣)
سمى الله تآمرهم مكرا لأنه كان تدبير ضر في خفاء. وأكد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر، وتنوينه للتعظيم.
والمكر الذي أسند إلى اسم الجلالة مكر مجازي. استعير لفظ المكر لمبادرة الله إياهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٩/١٩

باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله، وتأخيره استئصالهم إلى الوقت الذي تآمروا فيه على قتل صالح لشبه فعل الله ذلك بفعل الماكر في تأجيل فعل إلى وقت الحاجة، مع عدم إشعار من يفعل به.

وأكد مكر الله وعظم كما أكد مكرهم وعظم، وذلك بما يناسب جنسه، فإن عذاب الله لا يدانيه عذاب الناس فعظيمه أعظم من كل ما يقدره الناس.

والمراد بالمكر المسند إلى الجلالة هو ما دلت عليه جملة: أنا دمرناهم وقومهم أجمعين الآية.

وفي قوله: وهم لا يشعرون تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال فليس في ذلك ترشيح للاستعارة ولا تجريد.

والخطاب في قوله: فانظر للنبيء صلى الله عليه وسلم. واقترانه بفاء التفريع إيماء إلى أن". (١)

١٠٨١. ٢٩٠-"كالفساد كان ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم. وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت وتلا: فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا. وهذا من أسلوب أخذ كل ما يحتمل من معاني الكلام في القرآن كما ذكرناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

ونزيده هنا ما لم يسبق لنا في نظائره، وهو أن الحقائق العقلية لما كان قوام ماهياتها حاصلا في الوجود الذهني كان بين كثير منها انتساب وتقارب يرد بعضها إلى بعض

باختلاف الاعتبار. فالشرك مثلا حقيقة معروفة يكون بها جنسا عقليا وهو بالنظر إلى ما يبعث عليه وما ينشأ عنه ينتسب إلى حقائق أخرى مثل الظلم، أي الاعتداء على الناس بأخذ حقوقهم فإنه من أسبابه، ومثل الفسق فإنه من آثاره، وكذلك التكذيب فإنه من آثاره أيضا: وذرني والمكذبين [المزمل: ١١] ، ومثل الكبر ومثل الإسراف فإنهما من آثاره أيضا: فمن أساليب القرآن أن يعبر عن الشرك بألفاظ هذه الحقائق للإشارة إلى أنه جامع عدة فظائع، وللتنبيه على انتسابه إلى هذه الأجناس، وليعلم المؤمنون فساد هذه الحقائق من حيث هي فيعبر عنه هنا بالظلم وهو كثير ليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم، ناهيك أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٨٤

الشرك من أنواعه. وكذلك قوله: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب [غافر: ٢٨] أي هو متأصل في الشرك وإلا فإن الله هدى كثيرا من المسرفين والكاذبين بالتوبة، ومن قوله: أليس في جهنم مثوى للمتكبرين [الزمر: ٦٠] ونحو ذلك.

وجملة: إن في ذلك لآية معترضة بين الجمل المتعاطفة. والإشارة إلى ما ذكر من عاقبة مكرهم.

والآية: الدليل على انتصار الله لرسله.

واللام في لقوم يعلمون لام التعليل يعني آية لأجلهم، أي لأجل إيمانهم. وفيه تعريض بأن المشركين الذين سبقت إليهم هذه الموعظة إن لم يتعظوا بها فهم قوم لا يعلمون.

وفي ذكر كلمة (قوم) إيماء إلى أن من يعتبر بهذه الآية متمكن في العقل حتى كان العقل من صفته القومية، كما تقدم في قوله تعالى: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة". (١)

١٠٨٢. ٢٩١-"فأما إذا جرينا على قول الذين نسبوا إلى اليهود استقبال جهة المغرب وإلى النصارى استقبال جهة المشرق من المفسرين فيأتي على تفسيرهم أن تقول أن ذكر المشرق والمغرب إشارة إلى قبلة النصارى وقبلة اليهود، فيكون الجواب جوابا بالإعراض عن ترجيح قبلة المسلمين لعدم جدواه هنا، أو يكون قوله: يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم إيماء إلى قبلة الإسلام، والمراد بالصراط المستقيم هنا وسيلة الخير وما يوصل إليه كما تقدم في قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم [الفاتحة: ٦] فيشمل ذلك كل هدي إلى خير ومنه الهدي إلى استقبال أفضل جهة. فجملة: يهدي من يشاء حال من اسم الجلالة ولا يحسن جعلها بدل اشتمال من جملة: لله المشرق والمغرب لعدم وضوح اشتمال جملة: قل لله المشرق والمغرب على معنى جملة: يهدي من يشاء إذ مفاد الأولى أن الأرض جميعها لله أي فلا تتفاضل الجهات ومفاد الثانية أن الهدى بيد الله.

واتفق علماء الإسلام على أن استقبال الكعبة أي التوجه إليها شرط من شروط صحة الصلاة المفروضة والنافلة إلا لضرورة في الفريضة كالقتال والمريض لا يجد من يوجهه إلى جهة القبلة أو لرخصة في النافلة للمسافر إذا كان راكبا على دابة أو في سفينة لا يستقر بها. فأما

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٨٦

الذي هو في المسجد الحرام ففرض عليه استقبال عين الكعبة من أحد جوانبها ومن كان بمكة في موضع يعاين منه الكعبة فعليه التوجه إلى جهة الكعبة التي يعاينها فإذا طال الصف من أحد جوانب الكعبة وجب على من كان من أهل الصف غير مقابل لركن من أركان الكعبة أن يستدير بحيث يصلون دائرين بالكعبة صفا وراء صف بالاستدارة، وأما الذي تغيب ذات الكعبة عن بصره فعليه الاجتهاد بأن يتوخى أن يستقبل جهتها فمن العلماء من قال يتوخى المصلي جهة مصادفة عين الكعبة بحيث لو فرض خط بينه وبين الكعبة لوجد وجهه قبالة جدارها، وهذا شاق يعسر تحققه إلا بطريق إرصاد علم الهيئة (١) ويعبر
عن هذا باستقبال العين وباستقبال السمت وهذا قول ابن القصار واختاره أحد أشياخ أبي الطيب عبد المنعم الكندي ونقله المالكية عن الشافعي، ومن العلماء من قال يتوخى المصلي أن يستقبل جهة أقرب ما بينه وبين الكعبة بحيث لو مشى باستقامة لوصل حول الكعبة ويعبر عن هذا باستقبال الجهة أي جهة الكعبة وهذا قول أكثر المالكية واختاره الأبهري والباجي وهو قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل وهو من التيسير ورفع

---

(١) قاله ابن رشد في «البداية» (١/ ١١١) ، دار المعرفة، وفيه: «إن إصابة العين شيء لا يدرك إلا". (١)

١٠٨٣. ٢٩٢-"بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلا رسولها، وقد يكون تقديمه لتكون الكلمة التي تختم بها الآية في محل الوقف كلمة ذات حرف مد قبل الحرف الأخير لأن المد أمكن للوقف وهذا من بدائع فصاحة القرآن، وقيل تقديم المجرور مفيد لقصر الفاعل على المفعول وهو تكلف ومثله غير معهود في كلامهم.
وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.
الواو عاطفة على جملة: سيقول السفهاء من الناس [البقرة: ١٤٢] وما اتصل بها من الجواب بقوله: قل لله المشرق والمغرب قصد به بيان الحكمة من شرع استقبال بيت المقدس ثم تحويل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢

ذلك إلى شرع استقبال الكعبة، وما بين الجملتين من قوله: وكذلك جعلناكم أمة وسطا إلى آخرها اعتراض.

والجعل هنا جعل التشريع بدليل أن مفعوله من شؤون التعبد لا من شؤون الخلق وهو لفظ القبلة، ولذلك ففعل جعل هنا متعد إلى مفعول واحد لأنه بمعنى شرعنا، فهذه الآيات نزلت بعد الأمر بالتوجه إلى الكعبة فيكون المراد بيت المقدس، وعدل عن تعريف المسند باسمه إلى الموصول لمحاكاة كلام المردود عليهم حين قالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها [البقرة: ١٤٢] مع **الإيماء** إلى تعليل الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: إلا لنعلم أي ما جعلنا تلك قبلة مع إرادة نسخها فألزمناكها زمنا إلا لنعلم إلخ.

والاستثناء في قوله: إلا لنعلم استثناء من علل وأحوال أي ما جعلنا ذلك لسبب وفي حال إلا لنظهر من كان صادق الإيمان في الحالتين حالة تشريع استقبال بيت المقدس وحالة تحويل الاستقبال إلى الكعبة. وذكر عبد الحكيم (١) أنه قد روي أن بعض العرب ارتدوا عن الإسلام لما استقبل رسول الله بيت المقدس حمية لقبلة العرب، واليهود كانوا تأولوا لأنفسهم العذر في التظاهر بالإسلام كما قررناه عند قوله تعالى: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا [البقرة: ١٤] فنافقوا وهم يتأولون للصلاة معه بأنها عبادة لله تعالى وزيادة على صلواتهم التي هم محافظون عليها إذا خلوا إلى شياطينهم مع أن صلاتهم مع المسلمين لا تشتمل على ما ينافي تعظيم شعائرهم

---

(١) أي السيالكوتي.". (١)

١٠٨٤. ٢٩٣-"ولأن في استقبالها **إيماء** إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب. ولما كان الرضى مشعرا بالمحبة الناشئة عن تعقل اختير في هذا المقام دون تحبها أو تهواها أو نحوهما فإن مقام النبيء صلى الله عليه وسلم يربو عن أن يتعلق ميله بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعية استقبال بيت المقدس، ألا ترى أنه لما جاء في جانب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢

قبلتهم بعد أن نسخت جاء بقوله: ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم الآية.
وقوله: فول وجهك تفريع على الوعد وتعجيل به والمعنى فول وجهك في حالة الصلاة وهو مستفاد من قرينة سياق الكلام على المجادلة مع السفهاء في شأن قبلة الصلاة.
والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والأمر متوجه إليه باعتبار ما فيه من إرضاء رغبته، وسيعقبه بتشريك الأمة معه في الأمر بقوله: وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره.
والشطر بفتح الشين وسكون الطاء الجهة والناحية وفسره قتادة بتلقاء، وكذلك قرأه أبي بن كعب، وفسر الجبائي وعبد الجبار الشطر هنا بأنه وسط الشيء، لأن الشطر يطلق على نصف الشيء فلما أضيف إلى المسجد والمسجد مكان اقتضى أن نصفه عبارة عن نصف مقداره ومساحته وذلك وسطه، وجعلا شطر المسجد الحرام كناية عن الكعبة لأنها واقعة من المسجد الحرام في نصف مساحته من جميع الجوانب (أي تقريبا) قال عبد الجبار ويدل على أن المراد ما ذكرنا وجهان أحدهما أن المصلي لو وقف بحيث يكون متوجها إلى المسجد ولا يكون متوجها إلى الكعبة لا تصح صلاته، الثاني لو لم نفسر
الشطر بما ذكرنا لم يبق لذكر الشطر فائدة إذ يغني أن يقول: فول وجهك شطر المسجد الحرام ولكان الواجب التوجه إلى المسجد الحرام لا إلى خصوص الكعبة.
فإن قلت ما فائدة قوله: فلنولينك قبلة ترضاها قبل قوله: فول وجهك وهلا قال: في السماء فول وجهك إلخ، قلت فائدته إظهار الاهتمام برغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها بحيث يعتنى بها كما دل عليه وصف القبلة بجملة ترضاها.
ومعنى (نولينك) نوجهنك، وفي التوجيه قرب معنوي لأن ولى المتعدي بنفسه إذا لم يكن بمعنى القرب الحقيقي فهو بمعنى الارتباط به، ومنه الولاء والولي، والظاهر أن تعديته إلى مفعول ثان من قبيل الحذف والتقدير ولى وجهه إلى كذا ثم يعدونه إلى مفعول ثالث بحرف عن". (١)

١٠٨٥. ٢٩٤-"استقبال المسلمين في صلاتهم لجهة معينة تكميل لمعنى الخشوع في صلاة الإسلام فيكون من التكملات التي ادخرها الله تعالى لهذه الشريعة لتكون تكملة الدين تشريفا لصاحبها صلى الله عليه وسلم ولأمته إن كان الاحتمال الأول، فإن كان الثاني فالأمر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢

لنا بالاستقبال لئلا تكون صلاتنا أضعف استحضارا لجلال الله تعالى من صلاة غيرنا.
ولذلك اتفق علماؤنا على أن الاستقبال لجهة معينة كان مقارنا لمشروعية الصلاة في الإسلام فإن كان استقباله جهة الكعبة عن اجتهاد من النبيء صلى الله عليه وسلم فعلته أنه المسجد الذي عظمه أهل الكتابين والذي لم يداخله إشراك ولا نصبت فيه أصنام فكان ذلك أقرب دليل لاستقبال جهته ممن يريد استحضار وحدانية الله تعالى، وإن كان استقبال بيت المقدس بوحي من الله تعالى فلعل حكمته تأليف قلوب أهل الكتابين وليظهر بعد ذلك للنبيء وللمسلمين من اتبعهم من أهل الكتاب حقا ومن اتبعهم نفاقا لأن الأخيرين قد يتبعون الإسلام ظاهرا ويستقبلون في صلاتهم قبلتهم القديمة فلا يرون حرجا على أنفسهم في ذلك فإذا تغيرت القبلة خافوا من قصدهم لاستدبارها فأظهروا ما كانوا مستبطينه من الكفر كما أشار له قوله تعالى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول [البقرة: ١٤٢] الآية.
ولعل العدول عن الأمر باستقبال الكعبة في صدر الإسلام كان لخضد شوكة مكابرة قريش وطعنهم في الإسلام فإنه لو استقبل مكة لشمخوا بأنوفهم وقالوا هذا بلدنا ونحن أهله واستقباله حنين إليه وندامة على الهجرة منه، كما قد يكون قوله تعالى: ومن أظلم ممن منع مساجد الله [البقرة: ١١٤] وقوله: ولله المشرق والمغرب [البقرة: ١١٥] إيماء إليه كما قدمناه، وعليه ففي تحويل القبلة إلى الكعبة بعد ذلك بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن أمر قريش قد أشرف على الزوال وأن وقعة بدر ستكون الفيصل بين المسلمين وبينهم، ثم أمر الله بتحويل القبلة إلى البيت الذي هو أولى بذلك وإلى جهته للبعيد عنه.
وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (١٤٤) .
اعتراض بين جملة: فول وجهك شطر المسجد الحرام وجملة ومن حيث خرجت فول وجهك [البقرة: ١٤٩] الآية.". (١)

١٠٨٦. ٢٩٥-"ولذلك وقع التعبير بالمضارع في قوله:
لمن يقتل في سبيل الله المشعر بأنه أمر مستقبل وهم الذين قتلوا في وقعة بدر بعيد نزول هذه

(١) التحرير والتنوير ٣٣/٢

الآية.

وقد تقدم القول في نظير هذه الآية عند قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة [البقرة: ٤٥] الآية إلا أنا نقول هنا إن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إنها لكبيرة علما منه بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال وقال هنالك إلا على الخاشعين ولم يذكر مثل هذا هنا، وفي هذا **إيماء** إلى أن المسلمين قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنهم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك، وزاد هنا فقال: إن الله مع الصابرين فبشرهم بأنهم ممن يمتثل هذا الأمر ويعد لذلك في زمرة الصابرين.

وقوله: إن الله مع الصابرين تذييل في معنى التعليل أي اصبروا ليكون الله معكم لأنه مع الصابرين.

وقوله: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء عطف النهي على الأمر قبله لمناسبة التعرض للغزو مما يتوقع معه القتل في سبيل الله، فلما أمروا بالصبر عرفوا أن الموت في سبيل الله أقوى ما يصبرون عليه، ولكن نبه مع ذلك على أن هذا الصبر ينقلب شكرا عند ما يرى الشهيد كرامته بعد الشهادة، وعند ما يوقن ذووه بمصيره من الحياة الأبدية، فقوله: ولا تقولوا نهي عن القول الناشئ عن اعتقاد، ذلك لأن الإنسان لا يقول إلا ما يعتقد فالمعنى ولا تعتقدوا، والظاهر أن هذا تكميل لقوله: وما كان الله ليضيع إيمانكم [البقرة: ١٤٣] كما تقدم من حديث البراء فإنه قال: «قتل أناس قبل تحويل القبلة» ، فأعقب قوله: وما كان الله ليضيع إيمانكم بأن فضيلة شهادتهم غير منقوصة.

وارتفع أموات على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي لا تقولوا هم أموات.

وبل للإضراب الإبطالي إبطالا لمضمون المنهي عن قوله، والتقدير بل هم أحياء، وليس المعنى بل قولوا هم أحياء لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبر العظيم،

فقوله: «أحياء» هو خبر مبتدأ محذوف وهو كلام مستأنف بعد بل الإضرابية.

وإنما قال: ولكن لا تشعرون للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٢

١٠٨٧. ٢٩٦-"والكتمان يكون بإلغاء الحفظ والتدريس والتعليم، ويكون بإزالته من الكتاب أصلا وهو ظاهره قال تعالى: وتخفون كثيرا [الأنعام: ٩١] ، يكون بالتأويلات البعيدة عن مراد الشارع لأن إخفاء المعنى كتمان له، وحذف متعلق يكتمون الدال على المكتوم عنه للتعميم أي يكتمون ذلك عن كل أحد ليتأتى نسيانه وإضاعته.

وقوله: من بعد متعلق ب (يكتمون) وذكر هذا الظرف لزيادة التفظيع لحال الكتمان وذلك أنهم كتموا البينات والهدى مع انتفاء العذر في ذلك لأنهم لو كتموا ما لم يبين لهم لكان لهم بعض العذر أن يقولوا كتمناه لعدم اتضاح معناه فكيف وهو قد بين ووضح في التوراة.

واللام في قوله: للناس لام التعليل أي بيناه في الكتاب لأجل الناس أي أردنا إعلانه وإشاعته أي جعلناه بينا، وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من الكتمان وهو أنه مع كونه كتمانا للحق وحرمانا منه هو اعتداء على مستحقه الذي جعل لأجله ففعلهم هذا تضليل وظلم.

والتعريف في (الناس) للاستغراق لأن الله أنزل الشرائع لهدى الناس كلهم وهو استغراق عرفي أي الناس المشرع لهم.

وقوله: أولئك إشارة إلى الذين يكتمون وسط اسم الإشارة بين اسم إن وخبرها للتنبيه على أن الحكم الوارد بعد ذلك قد صاروا أحرياء به لأجل تلك الصفات التي ذكرت قبله بحيث إن تلك الصفات جعلتهم كالمشاهدين للسامع فأشير إليهم وهو في الحقيقة إشارة إلى أوصافهم، فمن أجل ذلك أفادت الإشارة التنبيه على أن تلك الأوصاف

هي سبب الحكم وهو إيماء للعلة على حد: أولئك على هدى من ربهم [البقرة: ٥] .

واختير اسم إشارة البعيد ليكون أبعث للسامع على التأمل منهم والالتفات إليهم أو لأن اسم الإشارة بهذه الصيغة هو الأكثر استعمالا في كلامهم.

وقد اجتمع في الآية إيمان إلى وجه ترتب اللعن على الكتمان وهما الإيماء بالموصول إلى وجه بناء الخبر أي علته وسببه، والإيماء باسم الإشارة للتنبيه على أحرويتهم بذلك، فكان تأكيد الإيماء إلى التعليل قائما مقام التنصيص على العلة.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٦٧/٢

١٠٨٨. ٢٩٧-"وفيه: «أشهد عليكم اليوم السماء والأرض قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة» .

فقوله تعالى: ويلعنهم اللاعنون تذكير لهم باللعنة المسطورة في التوراة فإن التوراة متلوة دائما بينهم فكلما قرأ القارئون هذا الكلام تجددت لعنة المقصودين به، والذين كتموا ما أنزل من البينات والهدى هم أيضا يقرأون التوراة فإذا قرأوا لعنة الكاتمين فقد لعنوا أنفسهم بألسنتهم فأما الذين يلعنون المجرمين والظالمين غير الكاتمين ما أنزل من البينات والهدى فهم غير مشمولين في هذا العموم وبذلك كان الاستغراق المستفاد من تعريف اللاعنون باللام استغراقا عرفيا.

واعلم أن لام الاستغراق العرفي واسطة بين لام الحقيقة ولام الاستغراق الحقيقي.

وإنما عدل إلى التعريف مع أنه كالنكرة مبالغة في تحققه حتى كأنه صار معروفا لأن المنكر مجهول، أو يكون التعريف للعهد أي يلعنهم الذين لعنوهم من الأنبياء الذين أوصوا بإعلان العهد وأن لا يكتموه.

ولما كان في صلة الذين يكتمون **إيماء** كما قدمناه فكل من يفعل فعلا من قبيل مضمون الصلة من غير أولئك يكون حقيقا بما تضمنه اسم الإشارة وخبره فإن من مقاصد القرآن في ذكر القصص الماضية أن يعتبر بها المسلمون في الخير والشر، وعن ابن عباس أن كل ما ذم الله أهل الكتاب عليه فالمسلمون محذرون من مثله، ولذا قال أبو هريرة لما قال الناس أكثر أبو هريرة من الرواية عن رسول الله فقال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم حديثا بعد أن قال الناس أكثر أبو هريرة: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية وساق الحديث (١) .

فالعالم يحرم عليه أن يكتم من علمه ما فيه هدى للناس لأن كتم الهدى إيقاع في الضلالة سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة والعلم

الذي يحصل عن نظر كالاجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأن فيها خيرا للمسلمين، ويحرم عليه بطريق القياس الذي تومئ إليه العلة أن يبث في الناس ما يوقعهم في أوهام بأن يلقنها وهو لا يحسن تنزيلها ولا تأويلها، فقد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله

ورسوله»

وكذلك كل ما يعلم أن الناس لا يحسنون وضعه.

---

(١) أخرجه البخاري في: (٣) «كتاب العلم» (٤٢) ، باب حفظ العلم، حديث (١١٨) . انظر «فتح الباري» (١/ ٢١٣، دار المعرفة.". (١)

١٠٨٩. ٢٩٨-"وقوله: حلالا طيبا تعريض بتحميقهم فيما أعنتوا به أنفسهم فحرموها من نعم طيبة افتراء على الله، وفيه **إيماء** إلى علة إباحته في الإسلام وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم.

والمقصود إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من قوله: وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم [الأنعام: ١٣٨] الآيات. قيل نزلت في ثقيف وبني عامر بن صعصعة وخزاعة وبني مدلج حرموا على أنفسهم من الأنعام أي مما ذكر في سورة الأنعام.

ومن في قوله: مما في الأرض للتبعيض، فالتبعيض راجع إلى كون المأكول بعضا من كل نوع وليس راجعا إلى كون المأكول أنواعا دون أنواع، لأنه يفوت غرض الآية، فما في الأرض عام خصصه الوصف بقوله: حلالا طيبا فخرجت المحرمات الثابت تحريمها بالكتاب أو السنة.

وقوله: حلالا طيبا حالان من (ما) الموصولة، أولهما لبيان الحكم الشرعي والثاني لبيان علته لأن الطيب من شأنه أن تقصده النفوس للانتفاع به فإذا ثبت الطيب ثبتت الحلية لأن الله رفيق بعباده لم يمنعهم مما فيه نفعهم الخالص أو الراجح.

والمراد بالطيب هنا ما تستطيبه النفوس بالإدراك المستقيم السليم من الشذوذ وهي النفوس التي تشتهي الملائم الكامل أو الراجح بحيث لا يعود تناوله بضر جثماني أو روحاني وسيأتي معنى الطيب لغة عند قوله تعالى: قل أحل لكم الطيبات [المائدة: ٤] في سورة المائدة.

وفي هذا الوصف معنى عظيم من **الإيماء** إلى قاعدة الحلال والحرام فلذلك قال علماؤنا: إن

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٦٩

حكم الأشياء التي لم ينص الشرع فيها بشيء أن أصل المضار منها التحريم وأصل المنافع الحل، وهذا بالنظر إلى ذات الشيء بقطع النظر عن عوارضه كتعلق حق الغير به الموجب تحريمه، إذ التحريم حينئذ حكم للعارض لا للمعروض.

وقد فسر الطيب هنا بما يبيحه الشرع وهو بعيد لأنه يفضي إلى التكرار، ولأنه يقتضي استعمال لفظ في معنى غير متعارف عندهم.

وقوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دوما، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة.". (١)

١٠٩٠. ٢٩٩-"[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٠]

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (١٧٠)

الأحسن عندي أن يكون عطفا على قوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان [البقرة: ١٦٨] ، فإن المقصود بالخطاب في ذلك هم المشركون فإنهم الذين ائتمروا لأمره بالسوء والفحشاء، وخاصة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، والمسلمون محاشون عن مجموع ذلك.

وفي هذه الآية المعطوفة زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات، أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر.

بل إضراب إبطال، أي أضربوا عن قول الرسول، اتبعوا ما أنزل الله، إضراب إعراض بدون حجة إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم.

وفي ضمير لهم التفات من الخطاب الذي في قوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان [البقرة: ١٦٨] .

والمراد بما ألفوا عليه ءاباءهم، ما وجدوهم عليه من أمور الشرك كما قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون [الزخرف: ٢٣] والأمة: الملة وأعظم ذلك عبادة الأصنام.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٠٢

وقوله: أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون كلام من جانب آخر للرد على قولهم نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإن المتكلم لما حكاه عنهم رد قولهم هذا باستفهام يقصد منه الرد ثم التعجيب، فالهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجيب **إيماء**، والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي.

و (لو) للشرط وجوابها محذوف دل عليه الكلام السابق، تقديره: لاتبعوهم، والمستفهم عنه هو الارتباط الذي بين الشرط وجوابه، وإنما صارت الهمزة للرد لأجل

العلم بأن المستفهم عنه يجاب عنه بالإثبات بقرائن حال المخبر عنه والمستفهم. ومثل هذا التركيب من بديع التراكيب العربية وأعلاها إيجازا و (لو) في مثله تسمى وصلية وكذلك (إن) إذا وقعت في موقع (لو) .

وللعلماء في معنى الواو وأداة الشرط في مثله ثلاثة أقوال:". (١)

١٠٩١. ٣٠٠-"وقد قيل في وجه ذكر اللحم هنا وتركه في قوله: إنما حرم عليكم الميتة وجوه قال ابن عطية: إن المقصد الدلالة على تحريم عينه ذكي أم لم يذك اه. ومراده بهذا ألا يتوهم متوهم أنه إنما يحرم إذا كان ميتة وفيه بعد، وقال الألوسي خصه لإظهار حرمته، لأنهم فضلوه على سائر اللحوم فربما استعظموا وقوع تحريمه اه. يريد أن ذكره لزيادة التغليظ أي ذلك اللحم الذي تذكرونه بشراهة، ولا أحسب ذلك، لأن الذين استجادوا لحم الخنزير هم الروم دون العرب، وعندي أن إقحام لفظ اللحم هنا إما مجرد تفنن في الفصاحة وإما **للإيماء** إلى طهارة ذاته كسائر الحيوان، وإنما المحرم أكله لئلا يفضي تحريمه بالناس إلى قتله أو تعذيبه، فيكون فيه حجة لمذهب مالك بطهارة عين الخنزير كسائر الحيوان الحي، وإما للترخيص في الانتفاع بشعره لأنهم كانوا يغرزون به الجلد.

وحكمة تحريم لحم الخنزير أنه يتناول القاذورات بإفراط فتنشأ في لحمه دودة (١) مما يقتاته لا تهضمها معدته فإذا أصيب بها آكله قتلته.

ومن عجيب ما يتعرض له المفسرون والفقهاء البحث في حرمة خنزير الماء وهي مسألة فارغة

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٠٦

إذ أسماء أنواع الحوت روعيت فيها المشابهة كما سموا بعض الحوت فرس البحر وبعضه حمام البحر وكلب البحر، فكيف يقول أحد بتأثير الأسماء والألقاب في الأحكام الشرعية وفي «المدونة» توقف مالك أن يجيب في خنزير الماء وقال: أنتم تقولون خنزير. قال ابن شأس: رأى غير واحد أن توقف مالك حقيقة لعموم أحل لكم صيد البحر [المائدة: ٩٦] وعموم قوله تعالى: ولحم الخنزير ورأى بعضهم أنه غير متوقف فيه حقيقة، وإنما امتنع من الجواب إنكارا عليهم تسميتهم إياه خنزيرا ولذلك قال أنتم تسمونه خنزيرا يعني أن العرب لم يكونوا يسمونه خنزيرا وأنه لا ينبغي تسميته خنزيرا ثم السؤال عن أكله حتى يقول قائلون أكلوا لحم الخنزير، أي فيرجع كلام مالك إلى صون ألفاظ الشريعة ألا يتلاعب بها، وعن أبي حنيفة أنه منع أكل خنزير البحر غير متردد أخذا بأنه سمي خنزيرا، وهذا عجيب منه وهو المعروف بصاحب الرأي، ومن أين لنا ألا يكون

لذلك الحوت اسم آخر في لغة بعض العرب فيكون أكله محرما على فريق ومباحا لفريق.

وقوله تعالى: وما أهل به لغير الله أي ما أعلن به أو نودي عليه بغير اسم الله تعالى، وهو مأخوذ من أهل إذا رفع صوته بالكلام ومثله استهل ويقولون: استهل الصبي صارخا إذا رفع

---

(١) وتسمى في الفرنسية () والمرض يسمى () .". (١)

١٠٩٢. ٣٠١-"صوته بالبكاء، وأهل بالحج أو العمرة إذا رفع صوته بالتلبية عند الشروع فيهما، والأقرب أنه مشتق من قول الرجل: هلا لقصد التنبيه المستلزم لرفع الصوت وهلا أيضا اسم صوت لزجر الخيل، وقيل مشتق من الهلال، لأنهم كانوا إذا رأوا الهلال نادى بعضهم بعضا وهو عندي من تلفيقات اللغويين وأهل الاشتقاق، ولعل اسم الهلال إن كان مشتقا وكانوا يصيحون عند رؤيته وهو الذي اشتق من هل وأهل بمعنى رفع صوته، لأن تصاريف أهل أكثر، ولأنهم سموا الهلال شهرا من الشهرة كما سيأتي.

وكانت العرب في الجاهلية إذا ذبحت أو نحرت للصنم صاحوا باسم الصنم عند الذبح فقالوا باسم اللات أو باسم العزى أو نحوهما، وكذلك كان عند الأمم التي تعبد آلهة إذا قربت لها

---

(١) التحرير والتنوير ١١٩/٢

القرابين، وكان نداء المعبود ودعاؤه عند الذبح إليه عادة عند اليونان كما جاء في «الإلياذة» لهوميروس.

فأهل في الآية مبني للمجهول أي ما أهل عليه المهل غير اسم الله، وضمن (أهل) معنى تقرب فعدي لمتعلقه بالباء وباللام مثل تقرب، فالضمير المجرور بالباء عائد إلى ما أهل، وفائدة هذا التضمين تحريم ما تقرب به لغير الله تعالى سواء نودي عليه باسم المتقرب إليه أم لا، والمراد بغير الله الأصنام ونحوها.

وأما ما يذبحه سودان بلدنا بنية أن الجن تشرب دمه ولا يذكرون اسم الله عليه زعما بأن الجن تفر من نورانية اسم الله فالظاهر أنه لا يجوز أكله وإن كان الذين يفعلونه مسلمين ولا يخرجهم ذلك عن الإسلام. وقال ابن عرفة في «تفسيره» : الأظهر جواز أكله لأنه لم يهل به لغير الله.

وقوله: «فمن اضطر» إلخ الفاء فيه لتفريع الإخبار لا لتفريع المعنى، فإن معنى رفع الحرج عن المضطر لا ينشأ عن التحريم، والمضطر هو الذي ألجأته الضرورة أي الحاجة أي اضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات فلا إثم عليه، وقوله: غير باغ ولا عاد حال، والبغي الظلم، والعدوان المحاربة والقتال، ومجيء هذه الحال هنا للتنويه بشأن المضطر في حال إباحة هاته المحرمات له بأنه بأكلها يكون غير باغ ولا عاد، لأن الضرورة تلجئ إلى البغي والاعتداء فالآية إيماء إلى علة الرخصة وهي رفع البغي

والعدوان بين الأمة، وهي أيضا إيماء إلى حد الضرورة وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان بأنه سيبغي ويعتدي". (١)

١٠٩٣. ٣٠٢-"عما تمكن المؤاخذة عليه لا بمعنى تجاوز الذنب، ونحوه

قوله صلى الله عليه وسلم في رؤيا القليب «وفي نزعه ضعف والله يغفر له»

. ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة.

[١٧٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٢٠

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٤]

إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٧٤)

عود إلى محاجة أهل الكتاب لاحق بقوله تعالى: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى [البقرة: ١٥٩] بمناسبة قوله: إنما حرم عليكم الميتة والدم [البقرة: ١٧٣] تحذيرا للمسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم وتحليل بعض ما حرم الله عليهم لأنهم كانوا إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرؤا من كتابهم ما غيروا العمل بأحكامه كما قال تعالى: تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا [الأنعام: ٩١] كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة حين دعا النبيء صلى الله عليه وسلم أحد اليهود ليقرأ ذلك الحكم من التوراة فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك كما أخرجه البخاري في كتاب الحدود، ولجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات جاء قوله هنا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار لقصد المشاكلة.

وفي هذا تهيئة للتخلص إلى ابتداء شرائع الإسلام فإن هذا الكلام فيه إبطال لما شرعه أهل الكتاب في دينهم فكون التخلص ملونا بلوني الغرض السابق والغرض اللاحق.

وعدل عن تعريفهم بغير الموصول إلى الموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى سبب الخبر وعلته نحو قوله تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [غافر: ٦٠] .

والقول في الكتمان تقدم عند قوله تعالى: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى [البقرة: ١٥٩] والكتاب المذكور هنا هو الكتاب المعهود من السياق وهو كتاب الذين يكتمون

، فيشبه أن تكون (أل) عوضا عن المضاف إليه، والذين يكتمونه هم اليهود والنصارى أي يكتمون البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ويكتمون بعض الأحكام التي بدلوها.". (١)

١٠٩٤. ٣٠٣-"وإذا تقرر أن الآية لا دلالة لها على نفي القصاص بين الأصناف المختلفة ولا على إثباته من جهة ما ورد على كل تأويل غير ذلك من انتقاض بجهة أخرى، فتعين أن

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢

قوله:
الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى محمله الذي لا شك فيه هو مساواة أفراد كل صنف بعضها مع بعض دون تفاضل بين الأفراد، ثم أدلة العلماء في تسوية القصاص بين
بعض الأصناف مع بعض الذكور بالإناث وفي عدمها كعدم تسوية الأحرار بالعبيد عند الذين لا يسوون بين صنفيهما خلافا لأبي حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وداود أدلة أخرى غير هذا القيد الذي في ظاهر الآية، فأما أبو حنيفة فأخذ بعموم قوله: القتلى ولم يثبت له مخصصا ولم يستثن منه إلا القصاص بين المسلم والكافر الحربي واستثناؤه لا خلاف فيه، ووجهه أن الحربي غير معصوم الدم، وأما المعاهد ففي حكم قتل المسلم إياه مذاهب، وأما الشافعي وأحمد فنفيا القصاص من المسلم للذمي والمعاهد وأخذا
بحديث «لا يقتل مسلم بكافر»
، ومالك والليث قالا لا قصاص من المسلم إذا قتل الذمي والمعاهد قتل عدوان وأثبتا القصاص منه إذا قتل غيلة.
وأما القصاص بين الحر والعبد في قطع الأطراف فليس من متعلقات هذه الآية وسيأتي عند قوله تعالى: والجروح قصاص [المائدة: ٤٥] في سورة العقود. ونفى مالك والشافعي وأحمد القصاص من الحر للعبد استنادا لعمل الخلفاء الراشدين وسكوت الصحابة، واستنادا لآثار مروية، وقياسا على انتفاء القصاص من الحر في إصابة أطراف العبد فالنفس أولى بالحفظ. والقصاص من العبد لقتله الحر ثابت عندهما بالفحوى، والقصاص من الذكر لقتل الأنثى ثابت بلحن الخطاب.
فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة.
الفاء لتفريع الإخبار أي لمجرد الترتيب اللفظي لا لتفريع حصول ما تضمنته الجملة المعطوفة بها على حصول ما تضمنته ما قبلها، والمقصود بيان أن أخذ الولي بالقصاص المستفاد من صور كتب عليكم القصاص في القتلى ليس واجبا عليه ولكنه حق له فقط لئلا يتوهم من قوله: كتب عليكم أن الأخذ به واجب على ولي القتيل، والتصدي لتفريع ذكر هذا بعد ذكر

حق القصاص للإيماء إلى أن الأولى بالناس قبول الصلح استبقاء لأواصر أخوة". (١)

١٠٩٥. ٣٠٤-"والجمهور على أن الوصية بأكثر من الثلث باطلة للحديث المشهور عن سعد بن أبي وقاص أنه مرض فعاده النبيء صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في أن يوصي بجميع ماله فمنعه إلى أن قال له «الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» ،

وقال أبو حنيفة: إن لم يكن للموصي ورثة ولو عصبة دون بيت المال جاز للموصي أن يوصي بجميع ماله ومضى ذلك أخذا بالإيماء إلى العلة في قوله «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير» إلخ. وقال: إن بيت المال جامع لا عاصب وروي أيضا عن علي وابن عباس ومسروق وإسحاق بن راهويه، واختلف في إمضائها للوارث إذا أجازها بقية الورثة ومذهب العلماء من أهل الأمصار أنها إذا أجازها الوارث مضت.

هذا وقد اتفق المسلمون على أن الله تعالى عين كيفية قسمة تركة الميت بآية المواريث، وأن آية الوصية المذكورة هنا صارت بعد ذلك غير مراد منها ظاهرها، فالقائلون بأنها محكمة قالوا: بقيت الوصية لغير الوارث والوصية للوارث بما زاد على نصيبه من الميراث فلا نسخ بين الآيتين.

والقائلون بالنسخ يقول منهم من يرون الوصية لم تزل مفروضة لغير الوارث: إن آية المواريث نسخت الاختيار في الموصى له والإطلاق في المقدار الموصى به، ومن يرى

منهم الوصية قد نسخ وجوبها وصارت مندوبة يقولون: إن آية المواريث نسخت هذه الآية كلها فأصبحت الوصية المشروعة بهذه الآية منسوخة بآية المواريث للإجماع على أن آية المواريث نسخت عموم الوالدين والأقربين الوارثين، ونسخت الإطلاق الذي في لفظ (الوصية) والتخصيص بعد العمل بالعام، والتقييد بعد العمل بالمطلق كلاهما نسخ، وإن كان لفظ آية المواريث لا يدل على ما يناقض آية الوصية، لاحتمالها أن يكون الميراث بعد إعطاء الوصايا أو عند عدم الوصية بل ظاهرها ذلك لقوله: من بعد وصية [النساء: ١١] ، وإن كان الحديثان الواردان في ذلك آحادا لا يصلحان لنسخ القرآن عند من لا يرون نسخ

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٤٠

القرآن بخبر الآحاد، فقد ثبت حكم جديد للوصية وهو الندب أو الوجوب على الخلاف في غير الوارث وفي الثلث بدليل الإجماع المستند للأحاديث وفعل الصحابة، ولما ثبت حكم جديد للوصية فهو حكم غير مأخوذ من الآية المنسوخة بل هو حكم مستند للإجماع، هذا تقرير أصل استنباط العلماء في هذه المسألة وفيه ما يدفع عن الناظر إشكالات كثيرة للمفسرين والفقهاء في تقرير كيفية النسخ.". (١)

١٠٩٦. ٣٠٥-"شهد بمعنى تحقق وعلم، مع زيادة في تأكيد حكم الرخصة ولزيادة بيان معنى قوله: فمن شهد منكم الشهر فليصمه.

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

استئناف بياني كالعلة لقوله: ومن كان مريضا إلخ بين به حكمة الرخصة أي شرع لكم القضاء لأنه يريد بكم اليسر عند المشقة.

وقوله: ولا يريد بكم العسر نفي لضد اليسر، وقد كان يقوم مقام هاتين الجملتين جملة قصر نحو أن يقول: ما يريد بكم إلا اليسر، لكنه عدل عن جملة القصر إلى جملتي إثبات ونفي لأن المقصود ابتداء هو جملة الإثبات لتكون تعليلا للرخصة، وجاءت بعدها جملة النفي تأكيدا لها، ويجوز أن يكون قوله: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر تعليلا لجميع ما تقدم من قوله: كتب عليكم الصيام [البقرة: ١٨٣] إلى هنا فيكون إيماء إلى أن مشروعية الصيام وإن كانت تلوح في صورة المشقة والعسر فإن في طيها من المصالح ما يدل على أن الله أراد بها اليسر أي تيسير تحصيل رياضة النفس بطريقة سليمة من إرهاق أصحاب بعض الأديان الأخرى أنفسهم.

وقرأ الجمهور: (اليسر) و (العسر) بسكون السين فيهما، وقرأه أبو جعفر بضم السين ضمة إتباع.

ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون.

عطف على جملة: يريد الله بكم اليسر إلخ إذ هي في موقع العلة كما علمت فإن مجموع هذه الجمل الأربع تعليل لما قبلها من قوله: فمن شهد منكم الشهر إلى قوله: فعدة من أيام أخر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٥١

واللام في قوله: ولتكبروا تسمى شبه الزائدة وهي اللام التي يكثر وقوعها بعد فعل الإرادة وفعل الأمر أي مادة أمر اللذين مفعولهما أن المصدرية مع فعلها، فحق ذلك". (١)

١٠٩٧. ٣٠٦-"في سياق الشرط فقال سألك عبادي وقال:

أجيب دعوة الداع ولو قيل وليدعوني فأستجيب لهم لكان حكما جزئيا خاصا بهم، فقد ظهر وجه اتصال الآية بالآيات قبلها ومناسبتها لهن وارتباطها بهن من غير أن يكون هنالك اعتراض جملة.

وقيل إنها جملة معترضة اقترنت بالواو بين أحكام الصيام للدلالة على أن الله تعالى مجازيهم على أعمالهم وأنه خبير بأحوالهم، قيل إنه ذكر الدعاء هنا بعد ذكر الشكر للدلالة على أن الدعاء يجب أن يسبقه الثناء.

والعباد الذين أضيفوا إلى ضمير الجلالة هم المؤمنون لأن الآيات كلها في بيان أحكام الصوم ولوازمه وجزائه وهو من شعار المسلمين، وكذلك اصطلاح القرآن غالبا في ذكر العباد مضافا لضمير الجلالة، وأما قوله تعالى: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء [الفرقان: ١٧] بمعنى المشركين فاقتضاه أنه في مقام تنديمهم على استعبادهم للأصنام.

وإنما قال تعالى: فإني قريب ولم يقل: فقل لهم إني قريب إيجازا لظهوره من قوله: وإذا سألك عبادي عني، وتنبيها على أن السؤال مفروض غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفة قرآنية وهي إيهام أن الله تعالى تولى جوابهم عن سؤالهم بنفسه إذ حذف في اللفظ ما يدل على وساطة النبيء صلى الله عليه وسلم تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء.

واحتيج للتأكيد بإن، لأن الخبر غريب وهو أن يكون تعالى قريبا مع كونهم لا يرونه.

وأجيب خبر ثان لإن وهو المقصود من الإخبار الذي قبله تمهيدا له لتسهيل قبوله.

وحذفت ياء المتكلم من قوله «دعان» في قراءة نافع وأبي عمرو وحمزة والكسائي لأن حذفها في الوقف لغة جمهور العرب عدا أهل الحجاز، ولا تحذف عندهم في الوصل لأن الأصل عدمه ولأن الرسم يبنى على حال الوقف، وأثبت الياء ابن كثير وهشام ويعقوب في الوصل والوقف، وقرأ ابن ذكوان وعاصم بحذف الياء في الوصل والوقف وهي لغة هذيل، وقد تقدم

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٧٥

أن الكلمة لو وقعت فاصلة لكان الحذف متفقا عليه في قوله تعالى: وإياي فارهبون [البقرة: ٤٠] في هذه السورة.

وفي هذه الآية **إيماء** إلى أن الصائم مرجو الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مرجوة دعواته، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان.". (١)

١٠٩٨. ٣٠٧-"وثعلبة بن غنمة الأنصاري فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، قال العراقي لم أقف لهذا السبب على إسناد.

وجمع الضمير في قوله: يسئلونك مع أن المروي أن الذي سأله رجلان- نظرا

لأن المسئول عنه يهم جميع السامعين أثناء تشريع الأحكام ولأن من تمام ضبط النظام أن يكون المسئول عنه قد شاع بين الناس واستشرف كثير منهم لمعرفته سواء في ذلك من سأل بالقول ومن سأل في نفسه.

وذكر فوائد خلق الأهلة في هذا المقام **للإيماء** إلى أن الله جعل للحج وقتا من الأشهر لا يقبل التبديل وذلك تمهيدا لإبطال ما كان في الجاهلية من النسيء في أشهر الحج في بعض السنين.

والسؤال: طلب أحد من آخر بذل شيء أو إخبارا بخبر، فإذا كان طلب بذل عدي فعل السؤال بنفسه وإذا كان طلب إخبار عدي الفعل بحرف «عن» أو ما ينوب منابه.

وقد تكررت في هذه السورة آيات مفتتحة ب يسئلونك وهي سبع آيات غير بعيد بعضها عن بعض، جاء بعضها غير معطوف بحرف العطف وهي أربع وبعضها معطوفا به وهي الثلاث الأواخر منها، وأما غير المفتتحة بحرف العطف فلا حاجة إلى تبيين تجردها عن العاطف لأنها في استئناف أحكام لا مقارنة بينها وبين مضمون الجمل التي قبلها فكانت جديرة بالفصل دون عطف، ولا يتطلب لها سوى المناسبة لمواقعها. وأما الجمل الثلاث الأواخر المفتتحة بالعاطف فكل واحدة منها مشتملة على أحكام لها مزيد اتصال بمضمون ما قبلها فكان السؤال المحكي فيها مما شأنه أن ينشأ عن التي قبلها فكانت حقيقة بالوصل

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٧٩

بحرف العطف كما سيتضح في مواقعها.

والسؤال عن الأهلة لا يتعلق بذواتها إذ الذوات لا يسأل إلا عن أحوالها، فيعلم هنا تقدير وحذف أي عن أحوال الأهلة، فعلى تقدير كون السؤال واقعا بها غير مفروض فهو يحتمل السؤال عن الحكمة ويحتمل السؤال عن السبب، فإن كان عن الحكمة فالجواب بقوله: قل هي مواقيت للناس جار على وفق السؤال، وإلى هذا ذهب صاحب «الكشاف» ، ولعل المقصود من السؤال حينئذ استثبات كون المراد الشرعي منها موافقا لما اصطلحوا عليه لأن كونها مواقيت ليس مما يخفى حتى يسأل عنه، فإنه متعارف لهم، فيتعين كون المراد من سؤالهم إن كان واقعا هو تحقق الموافقة للمقصد الشرعي.

وإن كان السؤال عن السبب فالجواب بقوله: قل هي مواقيت". (١)

١٠٩٩. ٣٠٨-"والمراد من الذين آمنوا المسلمون لا محالة، والضمير في اختلفوا عائد للمختلفين كلهم، سواء الذين اختلفوا في الحق قبل مجيء الرسل والذين اختلفوا في الشرائع بعد مجيء الرسل والبينات ولذلك بينه بقوله: من الحق وهو الحق الذي تقدم ذكره في قوله: وأنزل معهم الكتاب بالحق اختلاف الفريقين راجع إلى الاختلاف في تعيين الحق إما عن جهل أو عن حسد وبغي.

والإذن: الخطاب بإباحة فعل وأصله مشتق من فعل أذن إذا أصغى أذنه إلى كلام من يكلمه، ثم أطلق على الخطاب بإباحة فعل على طريقة المجاز بعلاقة اللزوم لأن الإصغاء إلى كلام المتكلم يستلزم الإقبال عليه وإجابة مطلبه، وشاع ذلك حتى صار الإذن أشيع في معنى الخطاب بإباحة الفعل، وبذلك صار لفظ الإذن قابلا لأن يستعمل مجازا في معان من مشابهات الخطاب بالإباحة، فأطلق في هذه الآية على التمكين من الاهتداء وتيسيره بما في الشرائع من بيان الهدى والإرشاد إلى وسائل الاهتداء على وجه الاستعارة، لأن من ييسر لك شيئا فكأنه أباح لك تناوله.

وفي هذا **إيماء** إلى أن الله بعث بالإسلام لإرجاع الناس إلى الحق وإلى التوحيد الذي كانوا عليه، أو لإرجاعهم إلى الحق الذي جاءت الرسل لتحصيله، فاختلف أتباعهم فيه بدلا من

---

(١) التحرير والتنوير ٢/١٩٤

أن يحققوا بأفهامهم مقاصد ما جاءت به رسلهم، فحصل بما في الإسلام من بيان القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وضوح الحق والإرشاد إلى كيفية أخذه، فحصل بمجيء الإسلام إتمام مراد الله مما أنزل من الشرائع السالفة.

وقوله: والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم تذييل لبيان أن فضل الله يعطيه من يشاء، وهذا إجمال، وتفصيله أن حكمة الله اقتضت أن يتأخر تمام الهدى إلى وقت مجيء شريعة الإسلام لما تهيأ البشر بمجيء الشرائع السابقة لقبول هذه الشريعة الجامعة،

فكانت الشرائع السابقة تمهيدا وتهيئة لقبول دين الإسلام، ولذلك صدرت هذه الآية بقوله: كان الناس أمة واحدة، فكما كان البشر في أول أمره أمة واحدة على هدى بسيط ثم عرضت له الضلالات عند تحرك الأفكار البشرية، رجع البشر إلى دين واحد في حالة ارتقاء الأفكار، وهذا اتحاد عجيب، لأنه جاء بعد تشتت الآراء والمذاهب، ولذا قال تعالى: إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، و". (١)

١١٠٠. ٣٠٩-"إن هذا لشيء عجاب [ص: ٥] فليس الكفر بالله إلا ركنا من أركان الصد عن الإسلام فلذلك قدم الصد عن سبيل الله ثم ثنى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصد عن سبيل الله بدلالة التضمن، ثم عد عليهم الصد عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه. ولا يصح أن يكون «والمسجد الحرام» عطفا على الضمير في قوله (به) لأنه لا معنى للكفر بالمسجد الحرام فإن الكفر يتعدى إلى ما يعبد وما هو دين وما يتضمن دينا، على أنهم يعظمون المسجد الحرام ولا يعتقدون فيه ما يسوغ أن يتكلف بإطلاق لفظ الكفر عليه على وجه المجاز.

وقوله: وإخراج أهله منه أي إخراج المسلمين من مكة فإنهم كانوا حول المسجد الحرام لأن في إخراجهم مظالم كثيرة فقد مرض المهاجرون في خروجهم إلى المدينة ومنهم كثير من أصابته الحمى حتى رفعت من المدينة ببركة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، على

أن التفضيل إنما تعلق بوقوع القتال في الأشهر الحرم لا بنفس القتل فإن له حكما يخصه.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٢/٢

والأهل: الفريق الذين لهم مزيد اختصاص بما يضاف إليه اللفظ، فمنه أهل الرجل عشيرته، وأهل البلد المستوطنون به، وأهل الكرم المتصفون به، أراد به هنا المستوطنين بمكة وهم المسلمون، وفيه **إيماء** إلى أنهم أحق بالمسجد الحرام، لأنهم الذين اتبعوا ملة من بنى المسجد الحرام قال تعالى: وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون [الأنفال: ٣٤] وقوله: والفتنة أكبر من القتل تذييل مسوق مساق التعليل، لقوله: وإخراج أهله منه وإذ قد كان إخراج أهل الحرم منه أكبر من القتل كان ما ذكر قبله من الصد عن الدين والكفر بالله والصد عن المسجد الحرام أكبر بدلالة الفحوى، لأن تلك أعظم جرما من جريمة إخراج المسلمين من مكة.

والفتنة: التشغيب والإيقاع في الحيرة واضطراب العيش فهي اسم شامل لما يعظم من الأذى الداخل على أحد أو جماعة من غيرهم، وأريد بها هنا ما لقيه المسلمون من المشركين من المصائب في الدين بالتعرض لهم بالأذى بالقول والفعل، ومنعهم من إظهار عبادتهم، وقطيعتهم في المعاملة، والسخرية بهم والضرب المدمي والتمالؤ على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم والإخراج من مكة ومنع من أموالهم ونسائهم وصدهم عن البيت، ولا يخفى أن مجموع ذلك أكبر من قتل المسلمين واحدا من رجال المشركين وهو عمرو الحضرمي وأسرهم رجلين منهم.". (١)

١١٠١. ٣١٠-"وجيء باسم الإشارة للدلالة على أن رجاءهم رحمة الله لأجل إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، فتأكد بذلك ما يدل عليه الموصول من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وإنما احتيج لتأكيده لأن الصلتين لما كانتا مما اشتهر بهما المسلمون وطائفة منهم صارتا كاللقب إذ يطلق على المسلمين يومئذ في لسان الشرع اسم الذين آمنوا كما يطلق على مسلمي قريش يومئذ اسم المهاجرين فأكد قصد الدلالة على وجه بناء الخبر من الموصول.

والرجاء: ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله، فإن وعد الله وإن كان لا يخلف فضلا منه وصدقا، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل لمراد الله قد تفوت لموانع لا يدريها المكلف

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٣٠

ولئلا يتكلوا في الاعتماد على العمل.

[٢١٩، ٢٢٠]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٩]

يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٠]

في الدنيا والآخرة ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم (٢٢٠)

يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.

استئناف لإبطال عملين غالبين على الناس في الجاهلية وهما شرب الخمر والميسر وهذا من عداد الأحكام التي بينها في هاته السورة مما يرجع إلى إصلاح الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهلية، والمشروع في بيانها من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى [البقرة: ١٧٨] إلى آخر السورة، عدا ما تخلل ذلك من الآداب والزواجر والبشائر والمواعظ والأمثال والقصص على عادة القرآن في تفنن أساليبه تنشيطا للمخاطبين والسامعين والقارئين ومن بلغ، وقد تناسقت في هذه الآية.

والسائلون هم المسلمون قال الواحدي: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال، فنزلت هذه الآية، قال في «الكشاف» : فلما نزلت هذه الآية ترك الخمر قوم وشربها آخرون ثم نزلت بعدها آية المائدة [٩٠] : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر.

وشرب الخمر عمل متأصل في البشر قديما لم تحرمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأما ما يذكره علماء الإسلام إن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد

لهم عليه بل الشواهد على ضده متوافرة، وإنما جرأهم على هذا القول ما قعدوه في". (١)

١١٠٢. ٣١١-"وقدم الإمساك على التسريح **إيماء** إلى أنه الأهم، المرغب فيه في نظر الشرع.
والإمساك حقيقته قبض اليد على شيء مخافة أن يسقط أو يتفلت، وهو هنا استعارة لدوام المعاشرة.
والتسريح ضد الإمساك في معنييه الحقيقي والمجازي، وهو مستعار هنا لإبطال سبب المعاشرة بعد الطلاق، وهو سبب الرجعة ثم استعارة ذلك الإبطال للمفارقة فهو مجاز بمرتبتين.
والمعروف هنا هو ما عرفه الناس في معاملاتهم من الحقوق التي قررها الإسلام أو قررتها العادات التي لا تنافي أحكام الإسلام. وهو يناسب الإمساك لأنه يشتمل على أحكام العصمة كلها من إحسان معاشرة، وغير ذلك، فهو أعم من الإحسان. وأما التسريح فهو فراق ومعروفه منحصر في الإحسان إلى المفارقة بالقول الحسن والبذل بالمتعة، كما قال تعالى: فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا [الأحزاب: ٤٩] وقد كان الأزواج يظلمون المطلقات ويمنعونهن من حليهن ورياشهن، ويكثرون الطعن فيهن قال ابن عرفة في «تفسيره» : «فإن قلت هلا قيل فإمساك بإحسان أو تسريح بمعروف قلت عادتهم يجيبون بأن المعروف أخف من الإحسان إذ المعروف حسن العشرة وإعطاء حقوق الزوجية، والإحسان ألا يظلمها من حقها فيقتضي الإعطاء وبذل المال أشق على النفوس من حسن المعاشرة فجعل المعروف مع الإمساك المقتضي دوام العصمة، إذ لا يضر تكرره وجعل الإحسان
الشاق مع التسريح الذي لا يتكرر» .
وقد أخذ قوم من الآية منع الجمع بين الطلاق الثلاث في كلمة، بناء على أن المقصود من قوله مرتان التفريق وسنذكر ذلك عند قوله تعالى: فإن طلقها فلا تحل له من بعد [البقرة: ٢٣٠] الآية.
ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به.
يجوز أن تكون الواو اعتراضية، فهو اعتراض بين المتعاطفين، وهما قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٣٨

فإمساك". (١)

١١٠٣. ٣١٢-"لكم أن تأخذوا [البقرة: ٢٢٩] إلخ إذ لا يصح تفريع الطلاق الذي لا تحل بعده المرأة على وقوع الخلع، إذ ليس ذلك من أحكام الإسلام في قول أحد، فمن العجيب ما وقع في «شرح الخطابي على سنن أبي داود» : أن ابن عباس احتج لكون الخلع فسخا بأن الله ذكر الخلع ثم أعقبه بقوله: فإن طلقها فلا تحل له من بعد الآية قال: «فلو كان الخلع طلاقا لكان الطلاق أربعا» ولا أحسب هذا يصح عن ابن عباس لعدم جريه على معاني الاستعمال العربي.

وقوله: فلا تحل له أي تحرم عليه وذكر قوله: من بعد أي من بعد ثلاث تطليقات تسجيلا على المطلق، وإيماء إلى علة التحريم، وهي تهاون المطلق بشأن امرأته، واستخفافه بحق المعاشرة، حتى جعلها لعبة تقلبها عواصف غضبه وحماقته، فلما ذكر لهم قوله من بعد علم المطلقون أنهم لم يكونوا محقين في أحوالهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

والمراد من قوله: تنكح زوجا غيره أن تعقد على زوج آخر، لأن لفظ النكاح في كلام العرب لا معنى له إلا العقد بين الزوجين، ولم أر لهم إطلاقا آخر فيه لا حقيقة ولا مجازا، وأيا ما كان إطلاقه في الكلام فالمراد في هاته الآية العقد بدليل إسناده إلى المرأة، فإن المعنى الذي ادعى المدعون أنه من معاني النكاح بالاشتراك والمجاز أعني المسيس، لا يسند في كلام العرب للمرأة أصلا، وهذه نكتة غفلوا عنها في المقام.

وحكمة هذا التشريع العظيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق أزواجهم، وجعلهن لعبا في بيوتهم، فجعل للزوج الطلقة الأولى هفوة، والثانية تجربة، والثالثة فراقا، كما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث موسى والخضر: «فكانت الأولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا فلذلك قال له الخضر في الثالث هذا فراق بيني وبينك

[الكهف: ٧٨] .

وقد رتب الله على الطلقة الثالثة حكمين وهما سلب الزوج حق الرجعة، بمجرد الطلاق،

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٠٧

وسلب المرأة حق الرضا بالرجوع إليه إلا بعد زوج، واشتراط التزوج بزوج ثان بعد ذلك لقصد تحذير الأزواج من المسارعة بالطلقة الثالثة، إلا بعد التأمل والتريث، الذي لا يبقى بعده رجاء في حسن المعاشرة، للعلم بحرمة العود إلا بعد زوج، فهو عقاب للأزواج المستخفين بحقوق المرأة، إذا تكرر منهم ذلك ثلاثا، بعقوبة ترجع إلى إيلام الوجدان، لما ارتكز". (١)

١١٠٤. ٣١٣-"واذكروا نعمت الله عليكم فذكرهم بما أنعم عليهم بعد الجاهلية بالإسلام، الذي سماه نعمة كما سماه بذلك في قوله: واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا [آل عمران: ١٠٣] فكما أنعم عليكم بالانسلاخ عن تلك الضلالة، فلا ترجعوا إليها

بالتعاهد بعد الإسلام.

وقوله: وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة معطوف على (نعمة) ، وجملة يعظكم به حال ويجوز جعله مبتدأ وجملة يعظكم خبرا، والكتاب: القرآن.

والحكمة: العلم المستفاد من الشريعة، وهو العبرة بأحوال الأمم الماضية وإدراك مصالح الدين، وأسرار الشريعة، كما قال تعالى، بعد أن بين حكم الخمر والميسر كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠] ومعنى إنزال الحكمة أنها كانت حاصلة من آيات القرآن كما ذكرنا، ومن **الإيماء** إلى العلل، ومما يحصل أثناء ممارسة الدين، وكل ذلك منزل من الله تعالى بالوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن فسر الحكمة بالسنة فقد فسرها ببعض دلائلها. والموعظة والوعظ: النصح والتذكير بما يلين القلوب، ويحذر الموعوظ.

وقوله: واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شيء تنزيلا لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة، منزلة من يجهل أن الله عليم، فإن العليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء، لأن هذا العليم قدير.

[٢٣٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤١٥

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٢]

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢٣٢)

المراد من هذه الآية مخاطبة أولياء النساء بألا يمنعوهن من مراجعة أزواجهن بعد أن أمر المفارقين بإمساكهن بمعروف ورغبهم في ذلك، إذ قد علم أن المرأة إذا رأت الرغبة من الرجل الذي كانت تألفه وتعاشره لم تلبث أن تقرن رغبته برغبتها، فإن المرأة سريعة". (١)

١١٠٥. ٣١٤-"ووجه تفسيره هذا بقوله: «لأنه إذا وجد العضل بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين» .

والعضل: المنع والحبس وعدم الانتقال، فمنه عضلت المرأة بالتشديد إذا عسرت ولادتها وعضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج، والمعاضلة في الكلام: احتباس المعنى حتى لا يبدو من الألفاظ، وهو التعقيد، وشاع في كلام العرب في منع الولي مولاته من النكاح. وفي الشرع هو المنع بدون وجه صلاح، فالأب لا يعد عاضلا برد كفء أو اثنين، وغير الأب يعد عاضلا برد كفء واحد.

وإسناد النكاح إلى النساء هنا لأنه هو المعضول عنه، والمراد بأزواجهن طالبو المراجعة بعد انقضاء العدة، وسماهن أزواجا مجازا باعتبار ما كان، لقرب تلك الحالة، وللإشارة إلى أن المنع ظلم فإنهم كانوا أزواجا لهن من قبل، فهم أحق بأن يرجعهن إليهم.

وقوله: إذا تراضوا بينهم بالمعروف شرط للنهي، لأن الولي إذا علم عدم التراضي بين الزوجين، ورأى أن المراجعة ستعود إلى دخل وفساد فله أن يمنع مولاته نصحا لها، وفي هذا الشرط إيماء إلى علة النهي: وهي أن الولي لا يحق له منعها مع تراضي الزوجين بعود المعاشرة، إذ لا يكون الولي أدرى بميلها منها، على حد قولهم في المثل المشهور «رضي الخصمان ولم يرض القاضي» .

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٢٥

وفي الآية إشارة إلى اعتبار الولاية للمرأة في النكاح بناء على غالب الأحوال يومئذ لأن جانب المرأة جانب ضعيف مطموع فيه، معصوم عن الامتهان، فلا يليق تركها تتولى مثل هذا الأمر بنفسها لأنه ينافي نفاستها وضعفها، فقد يستخف بحقوقها الرجال، حرصا على منافعهم وهي تضعف عن المعارضة.

ووجه الإشارة: أن الله أشار إلى حقين: حق الولي بالنهي عن العضل إذ لو لم يكن الأمر بيده لما نهى عن منعه، ولا يقال: نهى عن استعمال ما ليس بحق له لأنه لو كان كذلك لكان النهي عن البغي والعدوان كافيا، ولجيء بصيغة: ما يكون لكم ونحوها وحق المرأة في الرضا ولأجله أسند الله النكاح إلى ضمير النساء، ولم يقل: أن تنكحوهن أزواجهن، وهذا مذهب مالك والشافعي وجمهور فقهاء الإسلام، وشذ أبو حنيفة في المشهور عنه فلم يشترط الولاية في النكاح، واحتج له الجصاص بأن الله أسند النكاح هنا للنساء وهو استدلال بعيد استعمال العرب في قولهم: نكحت المرأة، فإنه بمعنى تزوجت". (١)

١١٠٦. ٣١٥-"وجملة يرضعن خبر مراد به التشريع، وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات، ولأنه عقب بقوله وإن أردتم أن تسترضعوا فإن الضمير شامل للآباء والأمهات على وجه التغليب كما يأتي، فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لها، وقد صرح بذلك في سورة الطلاق بقوله وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى [الطلاق: ٦] ولأنه عقب بقوله: وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف وذلك أجر الرضاعة، والزوجة في العصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة، بل لأجل العصمة.

وقوله: أولادهن صرح بالمفعول مع كونه معلوما، إيماء إلى أحقية الوالدات بذلك وإلى ترغيبهن فيه لأن في قوله: أولادهن تذكيرا لهن بداعي الحنان والشفقة، فعلى هذا التفسير- وهو الظاهر من الآية والذي عليه جمهور السلف- ليست الآية واردة إلا لبيان إرضاع المطلقات أولادهن، فإذا رامت المطلقة إرضاع ولدها فهي أولى به، سواء كانت بغير أجر أم طلبت أجر مثلها، ولذلك كان المشهور عن مالك: أن الأب إذا وجد من ترضع له غير الأم بدون

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٢٧

أجر وبأقل من أجر المثل، لم يجب إلى ذلك، كما سنبينه.

ومن العلماء من تأول الوالدات على العموم، سواء كن في العصمة أو بعد الطلاق كما في القرطبي والبيضاوي، ويظهر من كلام ابن الفرس في «أحكام القرآن» أن هذا قول مالك. وقال ابن رشد في «البيان والتحصيل» : إن قوله تعالى: والوالدات يرضعن أولادهن محمول على عمومه في ذات الزوج وفي المطلقة مع عسر الأب، ولم ينسبه إلى مالك، ولذلك قال ابن عطية: قوله: يرضعن خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على الندب والتخيير لبعضهن وتبعه البيضاوي، وفي هذا استعمال صيغة الأمر في القدر المشترك وهو مطلق الطلب ولا داعي إليه. والظاهر أن حكم إرضاع الأم ولدها في العصمة يستدل له بغير هذه الآية، ومما يدل على أنه ليس المراد الوالدات اللائي في العصمة قوله تعالى: وعلى المولود له رزقهن الآية، فإن اللائي في العصمة لهن النفقة والكسوة بالأصالة.

والحول في كلام العرب: العام، وهو مشتق من تحول دورة القمر أو الشمس في فلكه من مبدأ مصطلح عليه، إلى أن يرجع إلى السمت الذي ابتدأ منه، فتلك المدة التي ما بين المبدأ والمرجع تسمى حولا.". (١)

١١٠٧. ٣١٦-"وللأمزجة في ذلك تأثير أيضا.

وعن ابن عباس أن التقدير بالحولين للولد الذي يمكث في بطن أمه ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر، فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا، وهكذا بزيادة كل شهر في البطن ينقص شهر من مدة الرضاعة حتى يكون لمدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى:

وحمله وفصاله ثلاثون شهرا [الأحقاف: ١٥] ، وفي هذا القول منزع إلى تحكيم أحوال الأمزجة لأنه بمقدار ما تنقص مدة مكثه في البطن، تنقص مدة نضج مزاجه. والجمهور على خلاف هذا وأن الحولين غاية لإرضاع كل مولود. وأخذوا من الآية أن الرضاع المعتبر هو ما كان في الحولين، وأن ما بعدهما لا حاجة إليه، فلذلك لا يجاب إليه طالبه.

وعبر عن الوالد بالمولود له، إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم لأن منافع الولد منجرة إليه، وهو لا حق به ومعتز به في القبيلة حسب مصطلح الأمم، فهو الأجدر بإعاشته، وتقويم وسائلها.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٣٠

والرزق: النفقة، والكسوة: اللباس، والمعروف: ما تعارفه أمثالهم وما لا يجحف بالأب. والمراد بالرزق والكسوة هنا ما تأخذه المرضع أجرا عن إرضاعها، من طعام ولباس لأنهم كانوا يجعلون للمراضع كسوة ونفقة، وكذلك غالب إجاراتهم إذ لم يكن أكثر قبائل العرب أهل ذهب وفضة، بل كانوا يتعاملون بالأشياء، وكان الأجراء لا يرغبون في الدرهم والدينار، وإنما يطلبون كفاية ضروراتهم، وهي الطعام والكسوة، ولذلك أحال

الله تقديرهما على المعروف عندهم من مراتب الناس وسعتهم، وعقبه بقوله: لا تكلف نفس إلا وسعها.

وجمل: لا تكلف نفس إلا وسعها إلى قول: ولا مولود له بولده معترضات بين جملة وعلى المولود وجملة وعلى الوارث فموقع جملة لا تكلف نفس إلا وسعها تعليل لقوله بالمعروف، وموقع جملة لا تضار والدة إلى آخرها موقع التعليل أيضا، وهو اعتراض يفيد أصولا عظيمة للتشريع ونظام الاجتماع.

والتكليف تفعيل بمعنى جعله ذا كلفة، والكلفة: المشقة، والتكلف: التعرض لما فيه مشقة، ويطلق التكليف على الأمر بفعل فيه كلفة، وهو اصطلاح شرعي جديد.

والوسع، بتثليث الواو: الطاقة، وأصله من وسع الإناء الشيء إذا حواه ولم يبق منه شيء، وهو ضد ضاق عنه، والوسع هو ما يسعه الشيء فهو بمعنى المفعول، وأصله استعارة". (١)

١١٠٨. ٣١٧-"الطفل لورثه هو، روي عن عمر بن الخطاب وقتادة والسدي والحسن ومجاهد وعطاء وإسحاق وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل فيتقرر بالآية، أن النفقة واجبة على قرابة الرضيع وهم بالضرورة قرابة أبيه أي إذا مات أبوه ولم يترك مالا: تجب نفقة الرضيع على الأقارب. على حسب قربهم في الإرث ويجري ذلك على الخلاف في توريث ذي الرحم المحرم فهؤلاء يرون حقا على القرابة إنفاق العاجز في مالهم كما أنهم يرثونه إذا ترك مالا فهو من المواساة الواجبة مثل الدية.

وقال الضحاك وقبيصة بن ذؤيب وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز: المراد وارث الأب وأريد به نفس الرضيع. فالمعنى: أنه إذا مات أبوه وترك مالا فنفقته من إرثه.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣٢/٢

ويتجه على هذا أن يقال: ما وجه العدول عن التعبير بالولد إلى التعبير بالوارث؟ فتجيب بأنه للإيماء إلى أن الأب إنما وجبت عليه نفقة الرضيع لعدم مال للرضيع، فلهذا لما اكتسب مالا وجب عليه في ماله لأن غالب أحوال الصغار ألا تكون لهم أموال مكتسبة سوى الميراث، وهذا تأويل بعيد لأن الآية تكون قد تركت حكم من لا مال له.

وقيل: أريد بالوارث المعنى المجازي وهو الذي يبقى بعد انعدام غيره كما في قوله تعالى: ونحن الوارثون [الحجر: ٢٣] يعني به أم الرضيع قاله سفيان فتكون النفقة على الأم قال التفتازاني في «شرح الكشاف» «وهذا قلق في هذا المقام إذ ليس لقولنا: فالنفقة

على الأب وعلى من بقي من الأب والأم معنى يعتد به» يعني أن إرادة الباقي تشمل صورة ما إذا كان الباقي الأب ولا معنى لعطفه على نفسه بهذا الاعتبار. وفي «المدونة» عن زيد بن أسلم وربيعة أن الوارث هو ولي الرضيع عليه مثل ما على الأب من عدم المضارة.

هذا كله على أن الآية محكمة لا منسوخة وأن المشار إليه بقوله: مثل ذلك هو الرزق والكسوة. وقال جماعة: الإشارة بقوله: مثل ذلك راجعة إلى النهي عن المشارة. قال ابن عطية: وهو لمالك وجميع أصحابه والشعبي والزهري والضحاك اهـ.

وفي «المدونة» في ترجمة ما جاء فيمن تلزم النفقة من كتاب إرخاء الستور عن ابن القاسم قال مالك وعلى الوارث مثل ذلك أي ألا يضار. واختاره ابن العربي بأنه الأصل فقال القرطبي: يعني في الرجوع إلى أقرب مذكور، ورجحه ابن عطية بأن الأمة أجمعت على ألا يضار الوارث. واختلفوا: هل عليه رزق وكسوة اهـ يعني مورد الآية بما هو مجمع على حكمه ويترك ما فيه الخلاف.

وهنالك تأويل بأنها منسوخة، رواه أسد بن الفرات عن ابن القاسم". (١)

١١٠٩. ٣١٨-"وجعل جماعة الأمر هنا للندب لقوله بعد: حقا على المحسنين فإنه قرينة على صرف الأمر إلى أحد ما يقتضيه، وهو ندب خاص مؤكد للندب العام في معنى الإحسان، وهو قول مالك وشريح، فجعلها حقا على المحسنين، ولو كانت واجبة لجعلها حقا على جميع الناس، ومفهوم جعلها حقا على المحسنين أنها ليست حقا على جميع الناس،

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣٦/٢

وكذلك قوله المتقين في الآية الآتية، لأن المتقي هو كثير الامتثال، على أننا لو حملنا المتقين على كل مؤمن لكان بين الآيتين تعارض المفهوم والعموم، فإن المفهوم الخاص يخصص العموم.

وفي «تفسير الأبي» عن ابن عرفة: «قال محمد بن مسلمة من أصحاب مالك: المتعة واجبة يقضى بها إذ لا يأبى أن يكون من المحسنين ولا من المتقين إلا رجل سوء، ثم ذكر ابن عرفة عن ابن عبد السلام عن ابن حبيب أنه قال بتقديم العموم على المفهوم عند التعارض، وأنه الأصح عند الأصوليين، قلت: فيه نظر، فإن القائل بالمفهوم لا بد أن يخصص بخصوصه عموم العام إذا تعارضا، على أن لمذهب مالك أن المتعة عطية

ومؤاساة، والمؤاساة في مرتبة التحسيني، فلا تبلغ مبلغ الوجوب، ولأنها مال بذل في غير عوض، فيرجع إلى التبرعات، والتبرعات مندوبة لا واجبة، وقرينة ذلك قوله تعالى: حقا على المحسنين فإن فيه إيماء إلى أن ذلك من الإحسان لا من الحقوق، على أنه قد نفى الله الجناح عن المطلق ثم أثبت المتعة، فلو كانت المتعة واجبة لانتقض نفي الجناح، إلا أن يقال: إن الجناح نفي لأن المهر شيء معين، قد يجحف بالمطلق بخلاف المتعة، فإنها على حسب وسعه ولذلك نفى مالك ندب المتعة للتي طلقت قبل البناء وقد سمى لها مهرا، قال: فحسبها ما فرض لها أي لأن الله قصرها على ذلك، رفقا بالمطلق، أي فلا تندب لها ندب خاصا، بأمر القرآن. وقد قال مالك: بأن المطلقة المدخول بها يستحب تمتيعها، أي بقاعدة الإحسان الأعم ولما مضى من عمل السلف.

وقوله: على الموسع قدره وعلى المقتر قدره الموسع من أوسع إذا صار ذا سعة، والمقتر من أقتر إذا صار ذا قتر وهو ضيق العيش، والقدر- بسكون الدال وبفتحها- ما به تعيين ذات الشيء أو حاله، فيطلق على ما يساوي الشيء من الأجرام، ويطلق على ما يساويه في القيمة، والمراد به هنا الحال التي يقدر بها المرء في مراتب الناس في الثروة، وهو". (١)

١١١٠. ٣١٩-"الاختلاف بين فساء مطر المنذرين وبين فانظر كيف كان عاقبة المجرمين [الأعراف:

(١) التحرير والتنوير ٤٦٢/٢

٨٤] فهما عبرتان بحالهم تفرعتا على وصف ما حل بهم فوزعت العبرتان على الآيتين لئلا يخلو تكرير القصة من فائدة.

والمراد بآل لوط لوط وأهل بيته لأن رب البيت ملاحظ في هذا الاستدلال كقوله تعالى أدخلوا آل فرعون أشد العذاب [غافر: ٤٦] ، أراد فرعون وآله.

[٥٩]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٥٩]

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لما استوفى غرض الاعتبار والإنذار حقه بذكر عواقب بعض الأمم التي كذبت الرسل وهي أشبه أحوالا بأحوال المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذي أنزل عليه، وفي خلال ذلك وحفافيه تسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من قومه أقبل الله بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يلقنه ماذا يقوله عقب القصص والمواعظ السالفة استخلاصا واستنتاجا منها، وشكر الله على المقصود منها.

فالكلام استئناف والمناسبة ما علمت. أمر الرسول بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم من النصر ورفعة الدرجات. وعلى أن أهلك الأعداء الظالمين كقوله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين [الأنعام: ٤٥] ونظيره قوله في سورة العنكبوت [٦٣] قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون وقوله في آخر هذه السورة [٩٣] وقل الحمد

لله سيريكم

الآية. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحمد الله على ذلك باعتبار ما أفاده سوق تلك القصص من **الإيماء** إلى وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر على أعدائه. فقوله قل الحمد لله أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بإنشاء حمد الله. وقد تقدمت صيغة الحمد في أول الفاتحة.

وعطف على المأمور بأن يقوله من الحمد أمر بأن يتبعه بالسلام على الرسل الذين سبقوه

قدرا لقدر ما تجشموه في نشر الدين الحق.

وأصل سلام سلمت سلاما، مقصود منه الإنشاء فحذف الفعل وأقيم". (١)

١١١١. ٣٢٠-"والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه.

والاستفهام إنكاري. وبل للإضراب عن الاستفهام الإنكاري تفيد معنى (لكن) باعتبار ما تضمنه الإنكار من انتفاء أن يكون مع الله إله فكان حق الناس أن لا يشركوا معه في الإلهية غيره فجيء بالاستدراك لأن المخاطبين بقوله وأنزل لكم وقوله ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لم ينتفعوا بالدليل مع أنه دليل ظاهر مكشوف، فهم مكابرون في إعراضهم عن الاهتداء بهذا الدليل، فهم يعدلون بالله غيره، أي يجعلون غيره عديلا مثيلا له في الإلهية مع أن غيره عاجز عن ذلك فيكون يعدلون من عدل الذي يتعدى بالباء، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يعدى ب (عن) .

وسئل بعض العرب عن الحجاج فقال: «قاسط عادل» ، فظنوه أثنى عليه فبلغت كلمته للحجاج، فقال: أراد قوله تعالى أما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا
[الجن: ١٥] أي وذلك قرينة على أن المرار ب (عادل) أنه عادل عن الحق.

وأيا ما كان فالمقصود توبيخهم على الإشراك مع وضوح دلالة خلق السموات والأرض وما ينزل من السماء إلى الأرض من الماء.

ولما كانت تلك الدلالة أوضح الدلالات المحسوسة الدالة على انفراد الله بالخلق وصف الذين أشركوا مع الله غيره بأنهم في إشراكهم معرضون إعراض مكابرة عدولا عن الحق الواضح قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان:
٢٥] .

والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنهم مستمرون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل. وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم إيماء إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة.

[٦١]

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٠

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦١]
أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١)
أم للإضراب الانتقالي مثل أختها السابقة. وهذا انتقال من الاستدلال". (١)

١١١٢. ٣٢١-"و (من) هذه وإن كانت من صيغ العموم فالضمائر المذكورة عائدة إليها بتخصيص عمومها ببعض من في الأرض وهم الذين يزعمون أنهم يعلمون الغيب من الكهان والعرافين وسدنة الأصنام الذين يستقسمون للناس بالأزلام، وهو تخصيص لفظي من دلالة السياق وهو من قسم المخصص المنفصل اللفظي. والخلاف الواقع بين علماء الأصول في اعتبار عود الضمير إلى بعض أفراد العام مخصصا للعموم يقرب من أن يكون خلافا لفظيا.
ومنه قوله تعالى وبعولتهن أحق بردهن [البقرة: ٢٢٨] فإن ضمير بعولتهن عائد إلى المطلقات الرجعيات من قوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن [البقرة: ٢٢٨] الذي هو عام للرجعيات وغيرهن.
وبهذا تعلم أن التعبير ب الذين كفروا [النمل: ٦٧] هنا ليس من الإظهار في مقام الإضمار لأن الذين كفروا أعم من ما صدق (من) في قوله لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب. [٦٧- ٦٨]

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦٧ إلى ٦٨]
وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون (٦٧) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٦٨)
أعقب وصف عماية الزاعمين علم الغيب بذكر شبهتهم التي أرتهم البعث مستحيل الوقوع، ولذلك أسند القول هنا إلى جميع الذين كفروا دون خصوص الذين يزعمون علم الغيب، ولذلك عطفت الجملة لأنها غايرت التي قبلها بأنها أعم.

---
(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٠

والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من **الإيماء** إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين فكأنه قيل وقالوا بكفرهم أإذا كنا ترابا..

إلى آخره استفهاما بمعنى الإنكار.

أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم.

والتأكيد ب إن لمجاراة كلام المردود عليه بالإنكار. والتأكيد تهكم.". (١)

١١١٣. ٣٢٢-"[سورة النمل (٢٧) : آية ٧٨]

إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم (٧٨)

لما سبق ذكر المشركين بطعنهم في القرآن وتكذيبهم بوعيده، وذكر بني إسرائيل بما يقتضي طعنهم فيه بأنه لمخالفة ما في كتبهم، وذكر المؤمنين بأنهم اهتدوا به وكان لهم رحمة فهم موقنون بما فيه، تمخض الكلام عن خلاصة هي افتراق الناس في القرآن فريقين: فريق طاعن، وفريق موقن، فلا جرم اقتضى ذلك حدوث تدافع بين الفريقين. وهو مما يثير في نفوس المؤمنين سؤالا عن مدى هذا التدافع، والتخالف بين الفريقين ومتى ينكشف الحق، فجاء قوله إن ربك يقضي بينهم بحكمه استئنافا بيانيا فيعلم أن القضاء يقتضي مختلفين. وأن كلمة (بين) تقتضي متعددا، فأفاد أن الله يقضي بين المؤمنين بالقرآن والطاعنين فيه قضاء يبين المحق من المبطل. وهذا تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن استبطائهم النصر فإن النبيء أول المؤمنين، وإنما تقلد المؤمنون ما أنبأهم به فالقضاء للمؤمنين قضاء له بادىء ذي بدء.

وفيه توجيه الخطاب إلى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإسناد القضاء إلى الله في شأنه بعنوان أنه رب له **إيماء** بأن القضاء سيكون مرضيا له وللمؤمنين. فجعل الرسول في هذا الكلام بمقام المبلغ وجعل القضاء بين أمته مؤمنهم وكافرهم، وتعجيل لمسرة الرسول بهذا **الإيماء**.

وإذا قد أسند القضاء إلى الله وعلق به حكم مضاف إلى ضميره فقد تعين أن يكون المراد من المتعلق غير المتعلق به وذلك يلجيء: إما إلى تأويل معنى إضافة الحكم بما يخالف معنى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٤

إسناد القضاء إذا اعتبر اللفظان مترادين لفظا ومعنى، فيكون ما تدل عليه الإضافة من اختصاص المضاف بالمضاف إليه مقصودا به ما اشتهر به المضاف باعتبار المضاف إليه.
وذلك أن الكل يعلمون أن حكم الله هو العدل ولأن المضاف إليه هو الحكم العدل. فالمعنى على هذا: أن ربك. يقضي بينهم بحكمه المعروف المشتهر اللائق بعموم علمه واطراد عدله.
وإما أن يؤول الحكم بمعنى الحكمة وهو إطلاق شائع قال تعالى وكلا آتينا حكما وعلما [الأنبياء: ٧٩] وقال وآتيناه الحكم صبيا [مريم: ١٢] ولم يكن يحيى حاكما وإنما كان حكيما نبيئا فيكون". (١)

١١١٤. ٣٢٣-"في تأييده ونفعه. وشأن (إن) إذا جاءت في مقام التعليل أن تكون بمعنى الفاء فلا تفيد تأكيدا ولكنها للاهتمام.
وجيء في فعل التوكل بعنوان اسم الجلالة لأن ذلك الاسم يتضمن معاني الكمال كلها، ومن أعلاها العدل في القضاء ونصر المحق. وذلك بعد أن عجلت مسرة **الإيماء** إلى أن القضاء في جانب الرسول عليه الصلاة والسلام بإسناده القضاء إلى عنوان الرب مضافا إلى ضمير الرسول كما تقدم آنفا.
وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي اقتضاه وجود مقتضي جلب حرف التوكيد لإفادة التعليل فلا يفيد التقديم تخصيصا ولا تقويا.
والمبين: الواضح الذي لا ينبغي الامتراء فيه ولا المصانعة للمحكوم له.
وفي الآية إشارة إلى أن الذي يعلم أن الحق في جانبه حقيق بأن يثق بأن الله مظهر حقه ولو بعد حين.
[٨٠]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٨٠]
إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين (٨٠)
استئناف بياني جوابا عما يخطر في بال السامع عقب قوله إنك على الحق المبين [النمل:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٠

٧٩] من التساؤل عن إعراض أهل الشرك لما عليه الرسول من الحق المبين. وهو أيضا تعليل آخر للأمر بالتوكل على الله بالنظر إلى مدلوله الكنائي، فموقع حرف التوكيد فيه كموقعه في التعليل بالجملة التي قبله. وهذا عذر للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له، ولكونه تعليلا لجانب من التركيب وهو الجانب الكنائي غير الذي علل بجملة إنك على الحق المبين [النمل: ٧٩] لم تعطف هذه الجملة على التي قبلها تنبيها على استقلالها بالتعليل.

والإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.

والموتى والصم: مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون من يقوله لهم. شبهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن،". (١)

١١١٥. ٣٢٤-"وقال الماوردي: قيل هذا مثل ضربه الله، أي وليس بخبر. وفيما ضرب فيه المثل ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه مثل للدنيا يظن الناظر إليها أنها ثابتة كالجبال وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب، قاله سهل بن عبد الله التستري.

الثاني: أنه مثل للإيمان تحسبه ثابتا في القلب، وعمله صاعد إلى السماء.

الثالث: أنه مثل للنفس عند خروج الروح، والروح تسير إلى العرش.

وكأنهم أرادوا بالتمثيل التشبيه والاستعارة.

ولا يخفى على الناقد البصير بعد هذه التأويلات الثلاثة لأنه إن كان الجبال مشبها بها فهذه الحالة غير ثابتة لها حتى تكون هي وجه الشبه وإن كان لفظ الجبال مستعارا لشيء وكان مر السحاب كذلك كان المستعار له غير مصرح به ولا ضمنيا.

وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية بأن الرائي يحسب الجبال جامدة، ولا بيان وجه تشبيه سيرها بسير السحاب، ولا توجيه التذليل بقوله تعالى صنع الله الذي أتقن كل شيء فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق، ومعنى بالتأمل خليق، فوضعها أنها وقعت موقع الجملة المعترضة بين المجمل وبيانه من قوله ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلى قوله من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون [النمل: ٨٧- ٨٩] بأن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤/٢٠

يكون من تخلل دليل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد إدماجا وجمعا بين استدعاء للنظر، وبين الزواجر والنذر، كما صنع في جملة ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه [النمل: ٨٦] الآية.

أو هي معطوفة على جملة ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه [النمل: ٨٦] الآية، وجملة ويوم ينفخ في الصور [النمل: ٨٧] معترضة بينهما لمناسبة ما في الجملة المعطوف عليها من **الإيماء** إلى تمثيل الحياة بعد الموت، ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها". (١)

١١١٦. ٣٢٥-"وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم وماهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى.

وأعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى. وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين.

وتخلل ذلك **إيماء** إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة، **وإيماء** إلى أن الله مظهرهم على المشركين بقوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض [القصص: ٥] الآية.

وختم الكلام بتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم وتثبيته ووعده بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين.

ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودوا أن تفصل لهم قصة رسالة موسى عليه السلام فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيلها من معرفة نافعة لهم تنظيرا لحالهم وحال أعدائهم. فالمقصود ابتداء هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أولها نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون [القصص: ٣] أي للمؤمنين.

[١]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٠

[سورة القصص (٢٨) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم (١)

تقدم القول في نظيره في فاتحة سورة الشعراء.

[٢، ٣]

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢ إلى ٣]

تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣)

الإشارة في قوله تلك آيات الكتاب المبين على نحو الإشارة في نظيره في سورة الشعراء [٢] . فالمشار إليه ما هو مقروء يوم نزول هذه الآية من القرآن تنويها بشأن القرآن وأنه شأن عظيم.

وجملة نتلوا عليك من نبإ موسى مستأنفة استئنافا ابتدائيا.". (١)

١١١٧. ٣٢٦-"وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها.

والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى طائفة منهم إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعا.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/٢٠

وأشار بقوله طائفة إلى أنه استضعف فريقا كاملا، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية وذلك فساد لأنه يقرن الفاضل بالمفضول.

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة وهي:

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم أي يأمر بذبحهم، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي. والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال. وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة. وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل **إيماء** إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء". (١)

١١١٨.   ٣٢٧-"جانب بني إسرائيل وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم [البقرة: ٢١٦] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه: أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا [القصص: ٨] مع قوله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا [القصص: ٩] .

وسادسه: أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاء أسرع ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٦٩

إلى أن رده إلى أمه فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] وليتوسموا من بوارق ظهور النبيء محمد صلى الله عليه وسلم وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأخرة.

وثامنه: العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين يخفف من لأواء فساد المفسدين فإن وجود امرأة فرعون كان سببا في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي فقالت امرأته لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا [القصص: ٩] كما قدمنا تفسيره.

وتاسعه: ما في قوله ولتعلم أن وعد الله حق من **الإيماء** إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله ولكن أكثرهم لا يعلمون من الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.". (١)

١١١٩. ٣٢٨-"وجملة فغفر له معترضة بين جملة قال رب إني ظلمت نفسي وجملة قال رب بما أنعمت علي [القصص: ١٧] كان اعتراضها إعلاما لأهل القرآن بكرامة موسى عليه السلام عند ربه.

وجملة إنه هو الغفور الرحيم تعليل لجملة فغفر له علل المغفرة له بأنه شديد الغفران ورحيم بعباده، مع تأكيد ذلك بصيغة القصر **إيماء** إلى أن ما جاء به هو من ظلم نفسه وما حفه من الأمور التي ذكرناها.

[١٧]

[سورة القصص (٢٨) : آية ١٧]

قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين (١٧)

إعادة قال أفاد تأكيدا لفعل قال رب إني ظلمت نفسي [القصص: ١٦] . أعيد القول للتنبيه على اتصال كلام موسى حيث وقع الفصل بينه بجملتي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٨٦

[القصص: ١٦] . ونظم الكلام: قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، رب بما أنعمت فلن أكون ظهيرا للمجرمين، وليس قوله قال رب بما أنعمت علي مستأنفا عن قوله فغفر له [القصص: ١٦] لأن موسى لم يعلم أن الله غفر له إذ لم يكن يوحى إليه يومئذ.

والباء للسببية في بما أنعمت علي و (ما) موصولة وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير مجرور بمثل ما جر به الموصول، والحذف في مثله كثير. والتقدير: بالذي أنعمت به علي. ويجوز أن تكون (ما) مصدرية وما صدق الإنعام عليه، هو ما أوتيه من الحكمة والعلم فتميزت عنده الحقائق ولم يبق للعوائد والتقاليد تأثير على شعوره. فأصبح لا ينظر الأشياء إلا بعين الحقيقة، ومن ذلك أن لا يكون ظهيرا وعونا للمجرمين.

وأراد بالمجرمين من يتوسم منهم الإجرام، وأراد بهم الذين يستذلون الناس ويظلمونهم لأن القبطي أذل الإسرائيلي بغصبه على تحميله الحطب دون رضاه.

ولعل هذا الكلام ساقه مساق الاعتبار عن قتله القبطي وثوقا بأنه قتله خطأ.

واقتران جملة فلن أكون ظهيرا للمجرمين بالفاء لأن الموصول كثيرا ما". (١)

١١٢٠. ٣٢٩-"تدبير، وأن الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته كما أشار إليه قوله تعالى فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون [يونس: ١٦] . وإن أوضح تلك المظاهر هو مظهر استقامة السيرة ومحبة الحق، وأن دليل عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته مما له من المكائد. وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي حالهم معه. ثم إن في قوله تعالى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك الآية **إيماء** إلى أن رسوله صلى الله عليه وسلم سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه.

[٢٢]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٢٢]

ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل (٢٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٩٢/٢٠

هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام إذ قال إني مهاجر إلى ربي [العنكبوت: ٢٦] . وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيئا يبصره بآداب النبوءة ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته كما دل عليه قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل.

فقوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين عطف على جمل محذوفة إذ التقدير: ولما خرج من المدينة هائما على وجهه فاتفق أن كان مسيره في طريق يؤدي إلى أرض مدين حينئذ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. قال ابن عباس: خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظن بربه.

وتوجه: ولى وجهه، أي استقبل بسيره تلقاء مدين.

وتلقاء: أصله مصدر على وزن التفعال بكسر التاء، وليس له نظير في كسر التاء إلا تمثال، وهو بمعنى اللقاء والمقاربة. وشاع إطلاق هذا المصدر على جهته فصار من ظروف المكان التي تنصب على الظرفية. والتقدير: لما توجه جهة تلاقي مدين، أي جهة تلاقي بلاد مدين، وقد تقدم قوله تعالى وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار في سورة الأعراف". (١)

١١٢١. ٣٣٠-"قوله تعالى وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم [الشورى: ٥٢] فهي الهداية بالدعوة والإرشاد فاختلف الإطلاقان.

ومفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي من يشاء اهتداءه، والمشيئة تعرف بحصول الاهتداء وتتوقف على ما سبق من علمه وتقديره.

وفي قوله وهو أعلم بالمهتدين **إيماء** إلى ذلك، أي هو أعلم من كل أحد بالمهتدين في أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب ما تهيأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير واتقاء العاقبة والانفعال لما يلقى إليها من الدعوة ودلائلها. ولكل ذلك حال ومدى ولكليهما أسباب تكوينية في الشخص وأسلافه وأسباب نمائه أو ضعفه من الكيان والوسط والعصر والتعقل.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٩٧

[٥٧]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٥٧]

وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون (٥٧)

هذه بعض معاذيرهم قالها فريق منهم ممن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق، فاعتذروا بهذه

المعذرة، فروي عن ابن عباس أن الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناسا من قريش جاءوا النبيء صلى الله عليه وسلم فقال الحارث «إنا لنعلم أن قولك حق ولكنا نخاف إن اتبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنما نحن أكلة رأس» (أي أن جمعنا يشبعه الرأس الواحد من الإبل وهذه الكلمة كناية عن القلة) فهؤلاء اعترفوا في ظاهر الأمر بأن النبيء صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الهدى.

والتخطف: مبالغة في الخطف، وهو انتزاع شيء بسرعة، وتقدم في قوله تعالى تخافون أن يتخطفكم الناس في سورة الأنفال [٢٦] . والمراد: يأسرنا الأعداء معهم إلى ديارهم، فرد الله عليهم بأن قريشا مع قلتهم عدا وعدة أتاح الله لهم بلدا هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من العدو على كثرة قبائل العرب واشتغالهم بالغارة على". (١)

١١٢٢. ٣٣١-"والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها. وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثرا في القرى.

وإسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أن المقصود بهذا الإنذار هم أمة محمد الذين كذبوا فالخطاب للنبيء عليه السلام لهذا المقصد. ولهذا وقع الالتفات عنه إلى ضمير المتكلم في قوله آياتنا للإشارة إلى أن الآيات من عند الله وأن الدين دين الله.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٢٠

وضمير عليهم عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله وسئل القرية التي كنا فيها [يوسف: ٨٢] ، ومنه قوله فليدع ناديه [العلق: ١٧] .

وقد حصل في هذه الجملة تفنن في الأساليب إذ جمعت الاسم الظاهر وضمائر الغيبة والخطاب والتكلم.

ثم بين السبب بقوله وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى في حالة إلا في حالة ظلمهم أنفسهم بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول.

وجملة وأهلها ظالمون في موضع الحال، وهو حال مستثنى من أحوال محذوفة اقتضاها الاستثناء المفرغ، أي ما كنا مهلكي القرى في حال إلا في حال ظلم أهلها.

[٦٠]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٠]

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون (٦٠)

لما ذكرهم الله بنعمه عليهم تذكيرا أدمج في خلال الرد على قولهم إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا [القصص: ٥٧] بقوله تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا [القصص: ٥٧] أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأما ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا". (١)

١١٢٣. ٣٣٢-"صنعوا حين تحققوا أنهم معذبون؟ فأجيب بأنهم لو أنهم كانوا يهتدون سبيلا لسلكوه ولكنهم لا سبيل لهم إلى النجاة.

وعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون لو حرف شرط وجوابها محذوفا دل عليه حذف مفعول يهتدون أي يهتدون خلاصا أو سبيلا. والتقدير: لتخلصوا منه. وعلى الوجوه الثلاثة ففعل كانوا مزيد في الكلام لتوكيد خبر (أن) أي لو أنهم يهتدون اهتداء متمكنا من نفوسهم، وفي ذلك **إيماء** أنهم حينئذ لا قرارة لنفوسهم. وصيغة المضارع في يهتدون دالة على التجدد

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٣/٢٠

فالاهتداء منقطع عنهم وهو كناية عن عدم الاهتداء من أصله.
الوجه الرابع: أن تكون لو للتمني المستعمل في التحسر عليهم. والمراد اهتداؤهم في حياتهم الدنيا كيلا يقعوا في هذا العذاب، وفعل كانوا حينئذ في موقعه الدال على الاتصاف بالخبر في الماضي، وصيغة المضارع في يهتدون لقصد تجدد الهدى المتحسر على فواته عنهم فإن الهدى لا ينفع صاحبه إلا إذا استمر إلى آخر حياته.
ووجه خامس عندي: أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا، والكلام على حذف مضاف تقديره: ورأوا آثار العذاب. والرؤية بصرية، أي وهم رأوا العذاب في حياتهم أي رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذبوا الرسل وهذا في معنى قوله تعالى في سورة إبراهيم [٤٥ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وجملة لو أنهم كانوا يهتدون شرط جوابه محذوف دل عليه لو أنهم كانوا يهتدون أي بالاتعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدنيا على أن وراءه عذابا أعظم منه لاهتدوا فأقلعوا عن الشرك وصدقوا النبيء صلى الله عليه وسلم. وهذا لأنه يفيد معنى زائدا على ما أفادته جملة فلم يستجيبوا لهم. فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية، وكلها مقصودة، فالآية من جوامع الكلم.
[٦٥- ٦٦]

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٥ إلى ٦٦]
ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦)
هو يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون [القصص: ٦٢] . كرر الحديث عنه". (١)

١١٢٤. ٣٣٣-"فإنهم لما نودوا أين شركائي الذين كنتم تزعمون [القصص: ٦٢] انبرى رؤساؤهم فلفقوا جوابا عدلوا به عن جادة الاستفهام إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنوا لقومهم عبادة الأصنام، فلما سئلوا عن جواب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم عيوا عن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٦١

الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنهم لم

يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإن الرسول بعث إليهم أنفسهم.

ولهذا تفرع على (عميت عليهم الأنباء) قوله فهم لا يتساءلون أي لا يسأل بعضهم بعضا لاستخراج الآراء وذلك من شدة البهت والبغت على الجميع أنهم لا متنصل لهم من هذا السؤال فوجموا.

وإذ كان الاستفهام لتمهيد أنهم محقوقون بالعذاب علم من عجزهم عن الجواب عنه أنهم قد حق عليهم العذاب.

[٦٧]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٧]

فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧)

تخلل بين حال المشركين ذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين على طريقة الاعتراض لأن الأحوال تزداد تميزا بذكر أضدادها، والفاء للتفريع على ما أفاده قوله فعميت عليهم الأنباء [القصص: ٦٦] من أنهم حق عليهم العذاب.

ولما كانت (أما) تفيد التفصيل وهو التفكيك والفصل بين شيئين أو أشياء في حكم فهي مفيدة هنا أن غير المؤمنين خاسرون في الآخرة وذلك ما وقع **الإيماء** إليه بقوله فهم لا يتساءلون [القصص: ٦٦] فإنه يكتفي بتفصيل أحد الشيئين عن ذكر مقابله ومنه قوله تعالى فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل [النساء: ١٧٥] أي وأما الذين كفروا بالله فيضد ذلك.

والتوبة هنا: الإقلاع عن الشرك والندم على تقلده. وعطف الإيمان عليها لأن المقصود حصول إقلاع عن عقائد الشرك وإحلال عقائد الإسلام محلها ولذلك عطف عليه وعمل صالحا لأن بعض أهل الشرك كانوا شاعرين بفساد دينهم". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٢٠

١١٢٥. ٣٣٤-"وكان يصدهم عن تقلد شعائر الإسلام أسباب مغرية من الأعراض الزائلة التي فتنوا بها.

و (عسى) ترج لتمثيل حالهم بحال من يرجى منه الفلاح. وأن يكون من المفلحين أشد في إثبات الفلاح من: أن يفلح، كما تقدم غير مرة.

[٦٨]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٨]

وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٦٨)

وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة.

هذا من تمام الاعتراض وهي جملة فأما من تاب وآمن وعمل صالحا [القصص: ٦٧] وظاهر عطفه على ما قبله أن معناه آيل إلى التفويض إلى حكمة الله تعالى في خلق قلوب منفتحة للاهتداء ولو بمراحل، وقلوب غير منفتحة له فهي قاسية صماء، وأنه الذي اختار فريقا على فريق. وفي «أسباب النزول» للواحدي «قال أهل التفسير نزلت جوابا للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله عنه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] اه. يعنون بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف. وهما المراد بالقريتين. وتبعه الزمخشري وابن عطية. فإذا كان كذلك كان اتصال معناها بقوله ماذا أجبتم المرسلين [القصص: ٦٥] ، فإن قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم هو من جملة ما أجابوا به دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. والمعنى: أن الله يخلق ما يشاء من خلقه من البشر وغيرهم ويختار من بين مخلوقاته لما يشاء مما يصلح له جنس ما منه الاختيار، ومن ذلك اختياره للرسالة من يشاء إرساله، وهذا في معنى قوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته [الأنعام: ١٢٤] ، وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم والوجهان لا يتزاحمان.

والمقصود من الكلام هو قوله ويختار فذكر يخلق ما يشاء إيماء إلى أنه أعلم بمخلوقاته.

وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي يفيد القصر في هذا المقام إن لوحظ سبب النزول أي ربك وحده لا أنتم تختارون من يرسل إليكم.

وجوز أن يكون ما من قوله ما كان لهم الخيرة موصولة مفعولا لفعل". (١)

١١٢٦. ٣٣٥-"جميع المحامد مما تضمنه اسم الجلالة في أصل معناه قبل نقله إلى العلمية.
والمجرور يتنازعه كلا الفعلين. ووجه تقييد التنزيه والترفيع ب (ما يشركون) أنه لم يجترىء أحد أن يصف الله تعالى بما لا يليق به ويستحيل عليه إلا أهل الشرك بزعمهم أن ما نسبوه إلى الله إنما هو كمال مثل اتخاذ الولد أو هو مما أنبأهم الله به، وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها [الأعراف: ٢٨] . وزعموا أن الآلهة شفعاؤهم عند الله. وقالوا في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وأما ما عدا ذلك فهم معترفون بالكمال لله، قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان: ٢٥] . وما مصدرية أي سبحانه وتعالى عن إشراكهم.
[٦٩]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٩]
وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٦٩)
عطف على وربك يخلق ما يشاء ويختار [القصص: ٦٨] أي هو خالقهم ومركبهم على النظام الذي تصدر عنه الأفعال والاعتقادات فيكونون مستعدين لقبول الخير والشر وتغليب أحدهما على الآخر اعتقادا وعملا، وهو يعلم ما تخفيه صدورهم، أي نفوسهم
وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم. فضمير صدورهم عائد إلى ما من قوله يخلق ما يشاء [القصص: ٦٨] باعتبار معناها، أي ما تكن صدور المخلوقات وما يعلنون. وحيث أجريت عليهم ضمائر العقلاء فقد تعين أن المقصود البشر من المخلوقات وهم المقصود من العموم في ما يشاء [القصص: ٦٨] فبحسب ما يعلم منهم يختارهم ويجازيهم فحصل بهذا **إيماء** إلى علة الاختيار وإلى الوعد والوعيد. وهذا منتهى الإيجاز.
وفي إحضار الجلالة بعنوان وربك **إيماء** إلى أن مما تكنه صدورهم بغض محمد صلى الله عليه وسلم. وتقدم ما تكن صدورهم وما يعلنون آخر النمل [٧٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٦٤

[٧٠]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٧٠]

وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون (٧٠)

عطف على جملة وربك يخلق ما يشاء ويختار [القصص: ٦٨] الآية. والمقصود هو قوله". (١)

١١٢٧. ٣٣٦-"موجودا بالإجاءة بشيء من مكان إلى مكان، ووجه الشبه المثول والظهور. والضياء: النور. وهو في هذا العالم من شعاع الشمس قال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء. وتقدم في سورة يونس [٥] . وعبر بالضياء دون النهار لأن ظلمة الليل قد تخف قليلا بنور القمر فكان ذكر الضياء إيماء إلى ذلك.

وفي تعدية فعل يأتيكم في الموضعين إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أن إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس. وهذا إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال على الانفراد بالإلهية. وإذ قد استمر المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدليل وقد علموا أن الأصنام لا تقدر على إيجاد الضياء جعلوا كأنهم لا يسمعون هذه الآيات التي أقامت الحجة الواضحة على فساد معتقدهم، ففرع على تلك الحجة الاستفهام الإنكاري عن انتفاء سماعهم بقوله أفلا تسمعون أي أفلا تسمعون الكلام المشتمل على التذكير بأن الله هو خالق الليل والضياء ومنه هذه الآية. وليس قوله أفلا تسمعون تذييلا.

وكرر الأمر بالقول في مقام التقرير لأن التقرير يناسبه التكرير مثل مقام التوبيخ ومقام التهويل.

وعكس الاستدلال الثاني بفرض أن يكون النهار وهو انتشار نور الشمس، سرمدا بأن خلق الله الأرض غير كروية الشكل بحيث يكون شعاع الشمس منتشرا على جميع سطح الأرض دوما.

ووصف الليل ب تسكنون فيه إدماج للمنة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة وتلك هي نعمة السكون فيه فإنها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٦٦

استعادة نشاط المجموع العصبي الذي به التفكير والعمل، ولذة الأمن من العدو.

ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

وتفرع على هذا الاستدلال أيضا تنزيلهم منزلة من لا يبصرون الأشياء الدالة على عظيم صنع الله وتفرده بصنعها وهي منهم بمرأى الأعين.". (١)

١١٢٨. ٣٣٧-"ويجوز أن تكون إن لمجرد الاهتمام بالخبر ومناط الاهتمام هو مجموع ما تضمنته القصة من العبر التي منها أنه من قوم موسى فصار عدوا له ولأتباعه، فأمره أغرب من أمر فرعون.

وعدل عن أن يقال: كان من بني إسرائيل، لما في إضافة قوم إلى موسى من الإيماء إلى أن لقارون اتصالا خاصا بموسى فهو اتصال القرابة.

وجملة فبغى عليهم معترضة بين جملة إن قارون كان من قوم موسى وجملة وآتيناه من الكنوز، والفاء فيها للترتيب والتعقيب، أي لم يلبث أن بطر النعمة واجترأ على ذوي قرابته، للتعجيب من بغي أحد على قومه كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

والبغي: الاعتداء، والاعتداء على الأمة الاستخفاف بحقوقها، وأول ذلك خرق شريعتها.

وفي الإخبار عنه بأنه من قوم موسى تمهيد للكناية بهذا الخبر عن إرادة التنظير بما عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي بعض قرابته من المشركين عليه.

وفي قوله إن قارون كان من قوم موسى محسن بديعي وهو ما يسمى النثر المتزن، أي النثر الذي يجيء بميزان بعض بحور الشعر، فإن هذه الجملة جاءت على ميزان مصراع من بحر الخفيف، ووجه وقوع ذلك في القرآن أن الحال البلاغي يقتضي التعبير بألفاظ وتركيب يكون مجموعه في ميزان مصراع من أحد بحور الشعر.

وجملة إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة صلة ما الموصولة عند نحاة البصرة الذين لا يمنعون أن تقع إن في افتتاح صلة الموصول. ومنع الكوفيون من ذلك واعتذر عنهم بأن ذلك غير مسموع في كلام العرب ولذلك تأولوا ما هنا بأنها نكرة موصوفة وأن الجملة بعدها في محل الصفة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٧٠

والمفاتح: جمع مفتح بكسر الميم وفتح المثناة الفوقية وهو آلة الفتح، ويسمى المفتاح أيضا. وجمعه مفاتيح وقد تقدم عند قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب في سورة الأنعام". (١)

١١٢٩. ٣٣٨-"ولاختلاف هذه التقادير اختلفوا في الوقف فالجمهور يقفون على ويكأنه بتمامه والبعض يقف على (وي) والبعض يقف على (ويك) .

ومعنى الآية على الأقوال كلها أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله تعالى في خلقه وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق فخاطب بعضهم بعضا بذلك وأعلنوه.

والبسط: مستعمل مجازا في السعة والكثرة.

ويقدر مضارع قدر المتعدي، وهو بمعنى: أعدى بمقدار، وهو مجاز في القلة لأن التقدير يستلزم قلة المقدر لعسر تقدير الشيء الكثير قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها [الطلاق: ٧] .

وفائدة البيان بقوله من عباده **الإيماء** إلى أنه في بسطة الأرزاق وقدرها متصرف تصرف المالك في ملكه إذ المبسوط لهم والمقدور عليهم كلهم عبيده فحقهم الرضى بما قسم لهم مولاهم.

ومعنى لولا أن من الله علينا لخسف بنا: لولا أن من الله علينا فحفظنا من رزق كرزق قارون لخسف بنا، أي لكنا طغينا مثل طغيان قارون فخسف بنا كما خسف به، أو لولا أن من الله علينا بأن لم نكن من شيعة قارون لخسف بنا كما خسف به وبصاحبيه، أو لولا أن من الله علينا بثبات الإيمان.

وقرأ الجمهور لخسف بنا على بناء فعل «خسف» للمجهول للعلم بالفاعل من قولهم: لولا أن من الله علينا. وقرأه يعقوب بفتح الخاء والسين، أي لخسف الله الأرض بنا.

وجملة ويكأنه لا يفلح الكافرون تكرير للتعجيب، أي قد تبين أن سبب هلاك قارون هو كفره برسول الله.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/٢٠

(٢) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٠

١١٣٠. ٣٣٩-"هدى وأنهم على ضلال بعد أن قدم لذلك من أحوال رسالة موسى عليه السلام ما فيه عبرة بالمقارنة بين حالي الرسولين وما لقياه من المعرضين.

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام به. وجيء بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العلم لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر. وأنه خبر الكرامة والتأييد أي أن الذي أعطاك القرآن ما كان إلا مقدرا نصرك وكرامتك لأن إعطاء القرآن شيء لا نظير له فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى. قال كعب بن زهير:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ال ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

وفيه **إيماء** إلى تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومعنى فرض عليك القرآن اختاره لك من قولهم: فرض له كذا، إذا عين له فرضا، أي نصيبا.

ولما ضمن فرض معنى (أنزل) لأن فرض القرآن هو إنزاله، عدي فرض بحرف (على) .

والرد: إرجاع شيء إلى حاله أو مكانه. والمعاد: اسم مكان العود، أي الأول كما يقتضيه حرف الانتهاء. والتنكير في معاد للتعظيم كما يقتضيه مقام الوعد والبشارة، وموقعهما بعد قوله من جاء بالحسنة فله خير منها (١) [القصص: ٨٤] ، أي إلى معاد أي معاد.

والمعاد يجوز أن يكون مستعملا في معنى آخر أحوال الشيء وقراره الذي لا انتقال منه تشبيها بالمكان العائد إليه بعد أن صدر منه أو كناية عن الأخارة فيكون مرادا به الحياة الآخرة. قال ابن عطية: وقد اشتهر يوم القيامة بالمعاد لأنه معاد الكل اه. أي فأبشر بما تلقى في معادك من الكرامة التي لا تعادلها كرامة والتي لا تعطى لأحد غيرك. فتنكير معاد أفاد أنه عظيم الشأن، وترتبه على الصلة أفاد أنه لا يعطى لغيره مثله كما أن القرآن لم يفرض على أحد مثله.

ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهود القريب من الحقيقة. وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه، فيراد به هنا بلده الذي كان به وهو مكة. وهذا الوجه يقتضي أنه كناية عن خروجه منه ثم عوده إليه لأن الرد يستلزم المفارقة. وإذ قد كانت السورة

---

(١) في المطبوعة (عشر أمثالها) .". (١)

١١٣١. ٣٤٠-"من الفتنة من المشركين واستبطأوا النصر على الظالمين، وذهولهم عن سنة الكون في تلك الحالة منزلة من ينكر أن من يخالف الدهماء في ضلالهم ويتجافى عن أخلاقهم ورذالتهم لا بد أن تلحقه منهم فتنة.

ولما كان هذا السنن من آثار ما طبع الله عليه عقول غالب البشر وتفكيرهم غير المعصوم بالدلائل وكان حاصلا في الأمم السالفة كلها أسند فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسنادا مجازيا لأنه خالق أسبابه كما خلق أسباب العصمة منه لمن كان أهلا للعصمة من مثله، وفي هذا الإسناد إيماء إلى أن الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها. وإلى هذا يشير دعاء موسى عليه السلام المحكي في سورة يونس [٨٨] وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فسأل الله أن يخلق ضد الأسباب التي غرت فرعون وملأه وغشيت على قلبه بالضلال.

والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى، وقد قص القرآن بعض ذلك في سورة البروج.

وحكمها سار في حال كل من يتمسك بالحق بين قوم يستخفون به من المسلمين لأن نكران الحق أنواع كثيرة.

والواو الداخلة على جملة ولقد فتنا الذين من قبلهم يجوز أن تكون عاطفة على جملة أحسب الناس [العنكبوت: ٢] ، ويجوز كونها عاطفة على جملة وهم لا يفتنون [العنكبوت: ٢] فتكون بمعنى الحال، أي والحال قد فتنا الذين من قبلهم، وعلى كلا التقديرين فالجملة معترضة بين ما قبلها وما تفرع عنه من قوله فليعلمن الله الذين صدقوا. فلك أن تسمي تلك الواو اعتراضية. وإسناد فعل فتنا إلى الله تعالى لقصد تشريف هذه الفتون بأنه جرى على سنة الله في الأمم. فالفاء في قوله فليعلمن الله الذين صدقوا تفريع على جملة وهم لا يفتنون

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٩٢

[العنكبوت: ٢] ، أي يفتنون فيعلم الله الذين صدقوا منهم والكاذبين. والمفرع هو علم الله الحاصل في". (١)

١١٣٢. ٣٤١-"مبينة لها ولذلك فصلت. ولولا هذا الوقع لكان حق الإخبار بها أن يجيء بواسطة حرف العطف.

ورجاء لقاء الله: ظن وقوع الحضور لحساب الله.

ولقاء الله: الحشر للجزاء لأن الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم، لهم أو عليهم، مباشرة بدون واسطة، وقد تقدم في قوله الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم [البقرة:
٤٦] وقوله واعلموا أنكم ملاقوه في سورة البقرة [٢٢٣] .

وأجل الله يجوز أن يكون الوقت الذي عينه الله في علمه للبعث والحساب فيكون من الإظهار في مقام الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقال: فإنه لآت فعدل إلى الإظهار كما في إضافة أجل إلى اسم الجلالة من **الإيماء** إلى أنه لا يخلف. والمقصود الاهتمام بالتحريض على الاستعداد. ويجوز أن يكون المراد ب أجل الله الأجل الذي عينه الله لنصر المؤمنين وانتهاء فتنة المشركين إياهم باستئصال مساعير تلك الفتنة، وهم صناديد قريش وذلك بما كان من النصر يوم بدر ثم ما عقبه إلى فتح مكة فيكون الكلام تثبيتا للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حين استبطأ المؤمنون النصر للخلاص من فتنة المشركين حتى يعبدوا الله لا يفتنوهم في عبادته. والمعنى عليه: إن كنتم مؤمنين بالبعث إيقانا ينبعث من تصديق وعد الله به فإن تصديقكم بمجيء النصر أجدر لأنه وعدكم به، ف من شرطية، وجعل فعل الشرط فعل الكون للدلالة على تمكن هذ الرجاء من فاعل فعل الشرط.

ولهذا كان قوله فإن أجل الله لآت جوابا لقوله من كان يرجوا لقاء الله باعتبار دلالته على الجواب المقدر ليلتئم الربط بين مدلول جملة الشرط ومدلول جملة الجزاء.

ولولا ذلك لاختل الربط بين الشرط والجزاء إذ يفضي إلى معنى من لم يكن يرجو لقاء الله فإن أجل الله غير آت. وهذا لا يستقيم في مجاري الكلام فلزم تقدير شيء من باب دلالة الاقتضاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٤

وتأكيد جملة الجزاء بحرف التوكيد على الوجه الأول للتحريض والحث على الاستعداد للقاء الله، وعلى الوجه الثاني لقصد تحقيق النصر الموعود به تنزيلا لاستبطائه منزلة التردد لقصد إذكاء يقينهم بما وعد الله ولا يوهنهم طول المدة الذي يضخمه الانتظار. وبهذا يظهر وقع التذييل بوصفي السميع العليم دون غيرهما من الصفات العلى **للإيماء** بوصف السميع إلى أن الله تعالى سمع". (١)

١١٣٣. ٣٤٢-"مقالة بعضهم من الدعاء بتعجيل النصر كما أشار إليه قوله تعالى وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله [البقرة: ٢١٤] .

وكقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»

. **والإيماء** بوصف العليم إلى أن الله علم ما في نفوسهم من استعجال النصر ولو كان المراد من أجل الله الموت لما كان وجه للإعلام بإتيانه بله تأكيده، وكذا لو كان المراد منه البعث لكان قوله من كان يرجوا لقاء الله كافيا، فهذا وجه ما أشارت إليه الآيات بالمنطوق والاقتضاء، والعدول بها عن هذا المهيع وإلى ما في «الكشاف» و «مفاتيح الغيب» أخذا من كلام أبي عبيدة تحويل لها عن مجراها وصرف كلمة الرجاء عن معناها وتفكيك لنظم الكلام عن أن يكون آخذا بعضه بحجز بعض.

وإظهار اسم الجلالة في جملة فإن أجل الله لآت مع كون مقتضى الظاهر الإضمار لتقدم اسم الجلالة في جملة الشرط من كان يرجوا لقاء الله لئلا يلتبس معاد الضمير بأن يعاد إلى من إذ المقصود الإعلام بأجل مخصوص وهو وقت النصر الموعود كما في قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون [سبأ: ٢٩، ٣٠] .

وعبر بفعل الرجاء عن ترقب البعث لأن الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممن يرجو لقاء الله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٨

لأنهم يترقبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه. قال بلال رضي الله عنه حين احتضاره متمثلا بقول بعض الأشعريين الذين وفدوا على النبيء صلى الله عليه وسلم:

غدا ألقى الأحبه ... محمدا وصحبه

[٦]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦]

ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين (٦)

أي ومن جاهد ممن يرجون لقاء الله، فليست الواو للتقسيم، وليس من". (١)

١١٣٤. ٣٤٣-"هو أنهم آمنوا وعملوا الصالحات وهو على الوجه إظهار في مقام الإضمار لنكتة هذا **الإيماء**.

فالجزاء فضل لأن العبد إذا امتثل أمر الله فإنما دفع عن نفسه تبعة العصيان فأما الجزاء على طاعة مولاه فذلك فضل من المولى، وغفران ما تقدم من سيئاتهم فضل عظيم لأنهم كانوا أحقاء بأن يؤاخذوا بما عملوه وبأن إقلاعهم عن ذلك في المستقبل لا يقتضي التجاوز عن الماضي لكنه زيادة في الفضل.

وانتصب أحسن على أنه وصف لمصدر محذوف هو مفعول مطلق من فعل لنجزينهم. والتقدير: ولنجزينهم جزاء أحسن.

وإضافته إلى الذي كانوا يعملون لإفادة عظم الجزاء كله فهو مقدر بأحسن أعمالهم. وتقدير الكلام: لنجزينهم عن جميع صالحاتهم جزاء أحسن صالحاتهم. وشمل هذا من يكونون مشركين فيؤمنون ويعملون الصالحات بعد نزول هذه الآية.

[٨- ٩]

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٨ إلى ٩]

ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٠٩

مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين (٩)

لم يترك القرآن فاذة من أحوال علائق المسلمين بالمشركين إلا بين واجبهم فيها المناسب لإيمانهم، ومن أشد تلك العلائق علاقة النسب فالنسب بين المشرك والمؤمن

يستدعي الإحسان وطيب المعاشرة ولكن اختلاف الدين يستدعي المناواة والمغاضبة ولا سيما إذا كان المشركون متصلبين في شركهم ومشفقين من أن تأتي دعوة الإسلام على أساس دينهم فهم يلحقون الأذى بالمسلمين ليقلعوا عن متابعة الإسلام، فبين الله بهذه الآية ما على المسلم في معاملة أنسبائه من المشركين. وخص بالذكر منها نسب الوالدين لأنه أقرب نسب فيكون ما هو دونه أولى بالحكم الذي يشرع له.

وحدثت قضية أو قضيتان دعتا إلى تفصيل هذا الحكم.

روي أن سعد بن". (١)

١١٣٥. ٣٤٤-"سؤالا في نفوس الأبناء أنهم هل يعاملون الوالدين بالإساءة لأجل إشراكهما فأنبئوا أن عقابهما على الشرك مفوض إلى الله تعالى فهو الذي يجازي المحسنين والمسيئين.

والمرجع: البعث. والإنباء: الإخبار، وهو مستعمل كناية عن علمه تعالى بما يعملونه من ظاهر الأعمال وخفيها، أي ما يخفونه عن المسلمين وما يكنونه في قلوبهم، وذلك أيضا كناية عن الجزاء عليه من خير أو شر، ففي قوله فأنبئكم كنايتان: أولاهما **إيماء**، وثانيتهما تلويح، أي فأجازيكم ثوابا على عصيانهما فيما يأمران، وأجازيهما عذابا على إشراكهما.

فجملة والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين تصريح ببعض ما أفادته الكناية التي في قوله فأنبئكم بما كنتم تعملون، اهتماما بجانب جزاء المؤمنين. وقد أشير إلى شرف هذا الجزاء بأنه جزاء الصالحين الكاملين كقوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين [النساء: ٦٩] ألا ترى إلى قول سليمان وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين [النمل: ١٩] .

ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن المؤمن لما أمر بعصيان والديه إذا أمراه

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٢/٢٠

بالشرك كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة فجعل الله جزاء عن وحشة تلك التفرقة أنسا بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

[١٠]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ١٠]

ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠)

هذا فريق من الذين أسلموا بمكة كان حالهم في علاقاتهم مع المشركين حال من لا يصبر على الأذى فإذا لحقهم أذى رجعوا إلى الشرك بقلوبهم وكتموا ذلك عن المسلمين فكانوا منافقين فأنزل الله فيهم هذه الآية قبل الهجرة، قاله الضحاك وجابر بن زيد. وقد تقدم في آخر سورة النحل أن من هؤلاء الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبا قيس بن الوليد ابن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن". (١)

١١٣٦. ٣٤٥-"[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٤ إلى ١٥]

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون (١٤) فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين (١٥)

سيقت هذه القصة واللاتي بعدها شواهد على ما لقي الرسل والذين آمنوا معهم من تكذيب المشركين كما صرح به قوله عقب القصتين وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم [العنكبوت: ١٨] على أحد الوجهين الآتيين.

وابتدئت القصص بقصة أول رسول بعثه الله لأهل الأرض فإن لأوليات الحوادث وقعا في نفوس المتأملين في التاريخ، وقد تقدم تفصيل قصته في سورة هود.

وزادت هذه الآية أنه لبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة. وظاهر الآية أن هذه مدة رسالته إلى قومه ولا غرض في معرفة عمره يوم بعثه الله إلى قومه، وفي ذلك اختلاف بين المفسرين، وفائدة ذكر هذه المدة للدلالة على شدة مصابرته على أذى قومه ودوامه على إبلاغ الدعوة

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢١٥

تثبيتا للنبيء صلى الله عليه وسلم. وأوثر تمييز ألف ب سنة لطلب الخفة بلفظ سنة، وميز خمسين بلفظ عاما لئلا يكرر لفظ سنة.

والفاء من قوله: فأخذهم الطوفان عطف على أرسلنا كما عطف عليه فلبث وقد طوي ذكر ما ترتب عليه أخذهم بالطوفان وهو استمرار تكذيبهم.

وجملة وهم ظالمون حال، أي أخذهم وهم متلبسون بالظلم، أي الشرك وتكذيب الرسول، تلبسا ثابتا لهم متقررا وهذا تعريض للمشركين بأنهم سيأخذهم عذاب.

وفاء فأنجيناه عطف على فأخذهم الطوفان. وهذا **إيماء** إلى أن الله منجي المؤمنين من العذاب.

وقوله وجعلناها آية للعالمين الضمير للسفينة. ومعنى كونها آية أنها دليل على وقوع الطوفان عذابا من الله للمكذبين الرسل، فكانت السفينة آية ماثلة في". (١)

١١٣٧. ٣٤٦-"ولذلك أعقب بجملة ثم الله ينشئ النشأة الآخرة فهي جملة مستقلة. (وثم) للترتيب الرتبي كما تقدم في قوله ثم يعيده [العنكبوت: ١٩] .

وإظهار اسم الجلالة بعد تقدم ضميره في قوله كيف بدأ الخلق وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ثم ينشىء. قال في «الكشاف» : لأن الكلام كان واقعا في الإعادة فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فالذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة. فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ اه. يريد أن العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتسجيل وقوع هذا الإنشاء الثاني، فتكون الجملة مستقلة حتى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل لأن في اسم الجلالة إحضارا لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين، وليفيد وقوع المسند إليه مخبرا عنه بمسند فعلي معنى التقوي.

وجملة إن الله على كل شيء قدير تذييل، أي قدير على البعث وعلى كل شيء إذا أراده.

وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذييل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال.

والنشأة بوزن فعلة: المرة من النشء وهو الإيجاد، وكذلك قرأها الجمهور، عبر عنها بصيغة المرة لأنها نشأة دفعية تخالف النشء الأول ويقال: النشاءة بمد بعد الشين بوزن الكآبة ومثلها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٢٢

الرأفة والرءافة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بالمد. ووصفها ب الآخرة **إيماء** بأنها مساوية للنشأة الأولى فلا شبهة لهم في إحالة وقوعها. وأما قوله تعالى ولقد علمتم النشأة الأولى [الواقعة: ٦٢] فذلك على سبيل المشاكلة التقديرية لأن قوله قبله وننشئكم في ما لا تعلمون

[الواقعة: ٦١] يتضمن النشأة الآخرة فعبر عن مقابلتها بالنشأة.

[٢١]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٢١]

يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون (٢١)

لما ذكر النشأة الآخرة أتبع ذكرها بذكر أهم ما تشتمل عليه وما أوجدت لأجله وهو الثواب والعقاب.". (١)

١١٣٨. ٣٤٧-"ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها. ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

روى أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، فقال: سينهاه ما تقول»

أي صلاته بالليل.

واعلم أن التعريف في قوله الفحشاء والمنكر تعريف الجنس فكلما تذكر المصلي عند صلاته عظمة ربه ووجوب طاعته وذكر ما قد يفعله من الفحشاء والمنكر كانت صلاته حينئذ قد نهته عن بعض أفراد الفحشاء والمنكر.

والفحشاء: اسم للفاحشة، والفحش: تجاوز الحد المقبول. فالمراد من الفاحشة: الفعلة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٠

المتجاوزة ما يقبل بين الناس. وتقدم في قوله تعالى إنما يأمركم بالسوء والفحشاء في سورة البقرة [١٦٩] . والمقصود هنا من الفاحشة: تجاوز الحد المأذون فيه شرعا من القول والفعل، وبالمنكر: ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه.

وكأن الجمع بين الفاحشة والمنكر منظور فيه إلى اختلاف جهة ذمه والنهي عنه.

وقوله ولذكر الله أكبر يجوز أن يكون عطفا على جملة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فيكون عطف علة على علة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة كما في قوله تعالى فاسعوا إلى ذكر الله [الجمعة: ٩] أي صلاة الجمعة. ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريق الإضافة **للإيماء** إلى تعليل أن الصلاة

تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر لأنها ذكر الله وذكر الله أمر كبير، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف كما في قولنا: الله أكبر، لا تريد أنه أكبر من كبير آخر.". (١)

١١٣٩. ٣٤٨-"المزية الخامسة: أن كون القرآن كتابا متلوا مستطاعا إدراك خصائصه لكل عربي، ولكل من حذق العربية من غير العرب مثل أيمة العربية، يبعده عن مشابهة نفثات السحرة والطلاسم، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنه تخيلات كما قال قوم فرعون لموسى: يا أيها الساحر [الزخرف: ٤٩] وقال تعالى حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر:

وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر [القمر: ٢] ، فأشار قوله: يعرضوا إلى أن ذلك القول صدر عنهم في معجزة مرئية.

وعلق بالرحمة والذكرى قوله: لقوم يؤمنون للإشارة إلى أن تلك منافع من القرآن

زائدة على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة التي هي منفعة الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن حاصلة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيبته ومستقلة عن الحاجة إلى بيانه وتكميله بالدعوة وبتكريرها.

واستحضار المؤمنين بعنوان: (قوم يؤمنون) دون أن يقال: للمؤمنين، لما في لفظ قوم من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٠/٢٠

الإيماء إلى أن الإيمان من مقومات قوميتهم، أي لقوم شعارهم أن يؤمنوا، يعني لقوم شعارهم النظر والإنصاف فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلما وعلوا، فالفعل مراد به الحال القريبة من الاستقبال. وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها.

[٥٢]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٥٢]

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون (٥٢)

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض.

بعد أن ألقمهم حجر الحجة الدامغة أمر بأن يجعل الله حكما بينه وبينهم لما استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة. وهذا من الكلام المنصف المقصود منه استدراج المخاطب.

وكفى بالله بمعنى هو كاف لي في إظهار الحق، والباء مزيدة للتوكيد وقد تقدم نظيره في قوله: وكفى بالله شهيدا في سورة النساء". (١)

١١٤٠. ٣٤٩-"والمسمى أريد به المعين المحدود أي في علم الله تعالى. وقد تقدم عند قوله تعالى: ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى في سورة الحج [٥] .

والمعنى: لولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلا لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم ولكن أراد الله تأخيره لحكم علمها، منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد، وليعلموا أن الله لا يستفزه استعجالهم العذاب لأنه حكيم لا يخالف ما قدره بحكمته، حليم يمهل عباده. فالمعنى: لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب في وقت طلبهم تعجيله، ثم أنذرهم بأنه آتيهم بغتة وأن إتيانه محقق لما دل عليه لام القسم ونون التوكيد وذلك عند حلول الأجل المقدر له. وقد حل بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال تعالى: ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد [الأنفال: ٤٢] فاستأصل صناديدهم يومئذ وسقط في أيديهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢١

وإذ قد كان الله أعد لهم عذابا أعظم من عذاب يوم بدر وهو عذاب جهنم الذي يعم جميعهم أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم. وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضا بين المتعاطفين **إيماء** إلى أن ذلك جواب استعجالهم فإنهم استعجلوا العذاب فأنذروا بعذابين، أحدهما أعجل من الآخر. وفي إعادة: يستعجلونك بالعذاب تهديد وإنذار بأخذهم، فجملة: وإن جهنم معطوفة على جملة: وليأتينهم بغتة فهما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف.

والإحاطة كناية عن عدم إفلاتهم منها.

والمراد بالكافرين المستعجلون، واستحضروا بوصف الكافرين للدلالة على أنه موجب إحاطة العذاب بهم. واستعمل اسم الفاعل في الإحاطة المستقبلة مع أن شأن اسم الفاعل أن يفيد الاتصاف في زمن الحال، تنزيلا للمستقبل منزلة زمان الحال تنبيها على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في إخباره.

ويتعلق: يوم يغشاهم العذاب ب (محيطة) ، أي تحيط بهم يوم يغشاهم العذاب.

وفي قوله: يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم تصوير للإحاطة. والغشيان: التغطية والحجب.". (١)

١١٤١. ٣٥٠-"ثم يرجعون إلى الله. وقصد منها أيضا تهوين ما يلاقيه المؤمنون من الأذى في الله ولو بلغ إلى الموت بالنسبة لما يترقبهم من فضل الله وثوابه الخالد، وفيه إيذان بأنهم يترقبهم جهاد في سبيل الله.

وقرأ الجمهور ترجعون بتاء الخطاب على أنه خطاب للمؤمنين في قوله: يا عبادي الذين آمنوا [العنكبوت: ٥٦] . وقرأه أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة تبعا لقوله: يغشاهم العذاب [العنكبوت: ٥٥] .

[٥٨- ٥٩]

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٩

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين (٥٨) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٥٩)

عطف على جملة: والذين آمنوا بالباطل [العنكبوت: ٥٢] .

وجيء بالموصول **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر، أي نبوئنهم غرفا لأجل إيمانهم وعملهم الصالح.

والتبوئة: الإنزال والإسكان، وقد تقدم عند قوله تعالى: ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق في سورة يونس [٩٣] . وقرأ الجمهور: لنبوئنهم بموحدة بعد نون العظمة وهمزة بعد الواو. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: لنثوينهم بمثلثة بعد النون وتحتية بعد الواو من أثواه بهمزة التعدية إذا جعله ثاويا، أي مقيما في مكان.

والغرف: جمع غرفة، وهو البيت المعتلى على غيره. وتقدم عند قوله تعالى:

أولئك يجزون الغرفة في آخر سورة الفرقان [٧٥] .

وجملة: نعم أجر العاملين إلخ ... إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذي أعطوه، فلذلك قطعت عن العطف. وقوله: الذين صبروا خبر مبتدأ محذوف اتباعا للاستعمال، والتقدير: هم". (١)

١١٤٢. ٣٥١-"وعلق ذلك بعنوان الكافرين للتنبيه على استحقاقهم ذلك لأجل كفرهم.

والتعريف في (الكافرين) تعريف العهد، أي لهؤلاء الكافرين وهم الذين ذكروا من قبل بأنهم افتروا على الله كذبا وكذبوا بالحق، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لإحضارهم بوصف الكفر.

والهمزة في أليس في جهنم مثوى للاستفهام التقريري، وأصلها: إما الإنكار بتنزيل المقر منزلة المنكر ليكون إقراره أشد لزوما له، وإما أن تكون للاستفهام فلما دخلت على النفي أفادت التقرير لأن إنكار النفي إثبات للمنفي وهو إثبات مستعمل في التقرير على وجه الكناية.

وهذا التقرير بالهمزة هو غالب استعمال الاستفهام مع النفي، ومنه قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فإنه لا يحتمل غير معنى التقرير بشهادة الذوق ولياقة مقام مدح الخليفة. وهذا تقرير لمن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٣

يسمع هذا الكلام. جعل كون جهنم مثواهم أمرا مسلما معروفا بحيث يقر به كل من يسأل عنه كناية عن تحقق المغبة على طريقة **إيماء** الكناية.

[٦٩]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٩]

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين (٦٩)

ختم توبيخ المشركين وذمهم بالتنويه بالمؤمنين إظهارا لمزيد العناية بهم فلا يخلو مقام ذم أعدائهم عن الثناء عليهم، لأن ذلك يزيد الأعداء غيظا وتحقيرا. والذين جاهدوا في الله هم المؤمنون الأولون فالموصول بمنزلة المعرف بلام العهد. وهذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ومدافعة كيد العدو وهو المتقدم في قوله أول السورة

[العنكبوت: ٦] ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال كما علمت من قبل. وجيء بالموصول **للإيماء** إلى أن الصلة سبب الخبر. ومعنى جاهدوا فينا". (١)

١١٤٣. ٣٥٢-"جاهدوا في مرضاتنا، والدين الذي اخترناه لهم. والظرفية مجازية، يقال: هي ظرفية تعليل تفيد مبالغة في التعليل.

والهداية: الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي، أي لنزيدنهم هدى.

وسبل الله: الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه، شبهت بالطرق الموصلة إلى منزل الكريم المكرم للضيف.

والمراد ب المحسنين جميع الذين كانوا محسنين، أي كان عمل الحسنات شعارهم وهو عام.

وفيه تنويه بالمؤمنين بأنهم في عداد من مضى من الأنبياء والصالحين.

وهذا أوقع في إثبات الفوز لهم مما لو قيل: فأولئك المحسنون لأن في التمثيل بالأمور المقررة المشهورة تقريرا للمعاني ولذلك

جاء في تعليم الصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم قوله: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٣٦

. والمعية: هنا مجاز في العناية والاهتمام بهم. والجملة في معنى التذييل بما فيها من معنى العموم. وإنما جيء بها معطوفة للدلالة على أن المهم من سوقها هو ما تضمنته من أحوال المؤمنين، فعطفت على حالتهم الأخرى وأفادت التذييل بعموم حكمها.

وفي قوله لنهدينهم سبلنا **إيماء** إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهبون لها أيام نزول هذه السورة.". (١)

١١٤٤. ٣٥٣-"وتقديم أنفسهم وهو مفعول يظلمون على فعله للاهتمام بأنفسهم في تسليط ظلمهم عليها لأنه ظلم يتعجب منه، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة. وليس تقديم المفعول هنا للحصر لأن الحصر حاصل من جملتي النفي والإثبات.

[١٠]

[سورة الروم (٣٠) : آية ١٠]

ثم كان عاقبة الذين أساؤا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن (١٠)

ثم للتراخي الرتبي لأن هذه العاقبة أعظم رتبة في السوء من عذاب الدنيا، فيجوز أن يكون هذا الكلام تذييلا لحكاية ما حل بالأمم السالفة من قوله كيف كان عاقبة الذين من قبلهم [الروم: ٩] .

والمعنى: ثم عاقبة كل من أساءوا السوأى مثلهم، فيكون تعريضا بالتهديد لمشركي العرب كقوله تعالى دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها [محمد: ١٠] ، فالمراد ب الذين أساؤا كل مسيىء من جنس تلك الإساءة وهي الشرك. ويجوز أن يكون إنذارا لمشركي العرب المتحدث عنهم من قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون [الروم: ٦] فيكونوا المراد ب الذين أساؤا، ويكون إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لقصد **الإيماء** بالصلة، أي أن سبب عاقبتهم السوأى هو إساءتهم، وأصل الكلام: ثم كان عاقبتهم السوأى. وهذا إنذار بعد الموعظة ونص بعد القياس، فإن الله وعظ المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم بعواقب الأمم التي كذبت رسلها ليكونوا على حذر من مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل، ثم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧/٢١

أعقب تلك الموعظة بالنذارة بأنهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة بحكم قياس التمثيل، ثم أعقب تلك الموعظة بالنذارة بأنهم ستكون لهم مثل تلك العاقبة، وأوقع فعل كان الماضي في موقع المضارع للتنبيه على تحقيق وقوعه مثل أتى أمر الله [النحل: ١] إتماما للنذارة.
والعاقبة: الحالة الأخيرة التي تعقب حالة قبلها. وتقدمت في قوله: ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين
في سورة الأنعام [١١] ، وقوله: والعاقبة للتقوى في طه". (١)

١١٤٥. ٣٥٤-"والإخراج: فصل شيء محوي عن حاويه. يقال: أخرجه من الدار، وأخرج يده من جيبه، فهو هنا مستعمل لإنشاء شيء من شيء. والإتيان بصيغة المضارع في يخرج ويحي لاستحضار الحالة العجيبة مثل قوله الله الذي يرسل الرياح [الروم: ٤٨] . فهذا الإخراج والإحياء آية عظيمة على استحقاقه التعظيم والإفراد بالعبادة إذ أودع هذا النظام العجيب في الموجودات فجعل في الشيء الذي لا حياة له قوة وخصائص تجعله ينتج الأشياء الحية الثابتة المتصرفة ويجعل في تراب الأرض قوى تخرج الزرع والنبات حيا ناميا.
وإخراج الحي من الميت يظهر في أحوال كثيرة منها: إنشاء الأجنة من النطف، وإنشاء الفراخ من البيض وإخراج الميت من الحي يظهر في العكس وقد تقدم في سورة آل عمران. وفي الآية إيماء إلى أن الله يخرج من غلاة المشركين أفاضل من المؤمنين مثل إخراج خالد بن الوليد من أبيه الوليد بن المغيرة،
وإخراج هند بنت عتبة بن ربيعة من أبيها أحد أيمة الكفر وقد قالت للنبيء صلى الله عليه وسلم: «ما كان أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك واليوم ما أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك، فقال لها النبيء صلى الله عليه وسلم:
«وأيضا»
(أي ستزيدين حبا لنا بسبب نور الإسلام) .
وإخراج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط من أبيها. ولما كلمت أم كلثوم بنت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن إسلامها وهجرتها إلى المدينة حين جاء أخواها يرومان ردها

(١) التحرير والتنوير ٢١/٥٩

إلى مكة حسب شروط الهدنة فقالت: يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صبر لي، فقرأ النبيء صلى الله عليه وسلم: يخرج الحي من الميت، ونزلت آية الامتحان فلم يردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما وكانت أول النساء المهاجرات إلى المدينة بعد صلح الحديبية.

والتشبيه في قوله وكذلك تخرجون راجع إلى ما يصلح له من المذكور قبله وهو ما فيه إنشاء حياة شيء بعد موته بناء على ما قدمناه من أن قوله ويخرج الميت من الحي ليس مقصودا من الاستدلال ولكنه احتراس وتكملة. ويجوز أن يكون التشبيه راجعا إلى أقرب مذكور وهو إحياء الأرض بعد موتها، أي وكإخراج النبات من الأرض بعد موته فيها يكون إخراجكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتا فيها، كما قال تعالى والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم". (١)

١١٤٦. ٣٥٥-"السماوية والأرضية، وما هو محل العبرة من أحوالهما المتقاربة المتلازمة كالليل والنهار والفصول، والمتضادة كالعلو والانخفاض.

وإذ قد كان أشرف ما على الأرض نوع الإنسان قرن ما في بعض أحواله من الآيات بما في خلق الأرض من الآيات، وخص من أحواله المتخالفة لأنها أشد عبرة إذ كان فيها اختلاف بين أشياء متحدة في الماهية، ولأن هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامتة أشعة الشمس لها فهي من آثار خلق السماوات والأرض. ولذلك فالظاهر أن المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان وأن ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له وإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض. وقد كانت هذه الآية متعلقة بأحوال عرضية في الإنسان ملازمة له فبتلك الملازمة أشبهت الأحوال الذاتية المطلقة ثم النسبية، فلذلك ذكرت هذه الآية عقب الآيتين السابقتين حسب الترتيب السابق. وقد ظهر وجه المقارنة بين خلق السماوات والأرض وبين اختلاف ألسن البشر وألوانهم، وتقدم في

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢١

سورة آل عمران [١٩٠] قوله إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.

والألسنة: جمع لسان، وهو يطلق على اللغة كما في قوله تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه [إبراهيم: ٤] وقوله لسان الذي يلحدون إليه أعجمي [النحل: ١٠٣] .

واختلاف لغات البشر آية عظيمة فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة.". (١)

١١٤٧. ٣٥٦-"صنع الله تعالى مما يشعر به صاحب النوم من أحوال نومه، لأن النائم لا يعرف من نومه إلا الاستعداد له وإلا أنه حين يهب من نومه يعلم أنه كان نائما فأما حالة النائم في حين نومه ومقدار تنبهه لمن يوقظه، وشعوره بالأصوات التي تقع بقربه، والأضواء التي تنتشر على بصره فتنبهه أو لا تنبهه، كل ذلك لا يتلقاه النائم إلا بطريق الخبر من الذين يكونون أيقاظا في وقت نومه. فطريق العلم بتفاصيل أحوال النائمين واختلافها السمع، وقد يشاهد المرء حال نوم غيره إلا أن عبرته بنومه الخاص به أشد، فطريق السمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النوم، فلذلك قيل لقوم يسمعون. وأيضا لأن النوم يحول دون الشعور بالمسموعات بادىء ذي بدء قبل أن يحول دون الشعور بالمبصرات.

وأجريت صفة يسمعون على قوم للإيماء إلى أن السمع متمكن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] . ووجه جعل ذلك آيات لما ينطوي عليه من تعدد الدلالات بتعدد المستدلين وتولد دقائق تلك الآية بعضها عن بعض كما تقدم آنفا.

ومعنى اللام في قوله لقوم يسمعون كما تقدم في معناه عند قوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [الروم: ٢١] .

[٢٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٧٣

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٤]
ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٢٤)
تلك آية خامسة وهي متعلقة بالإنسان وليست متصلة به، فإن البرق آية من آيات صنع الله وهو من خلق القوى الكهربائية النورانية في الأسحبة وجعلها آثارا مشاهدة، وكم من قوى أمثالها منبثة في العوالم العلوية لا تشاهد آثارها.". (١)

١١٤٨. ٣٥٧-"وباسم المصدر تارة ومن آياته منامكم بالليل والنهار [الروم: ٢٣] ومرة بالفعل المجرد المؤول بالمصدر ومن آياته يريكم البرق.
ولك أن تجعل المجرور متعلقا ب يريكم وتكون من ابتدائية في موضع الحال من البرق، وتكون جملة يريكم البرق معطوفة على جملة ومن آياته منامكم بالليل
والنهار
[الروم: ٢٣] إلخ. فيكون تغيير الأسلوب لأن مناط هذه الآية هو تقرير الناس بها إذ هي غير متصلة بذواتهم فليس حظهم منها سوى مشاهدتها والإقرار بأنها آية بينة. فهذا التقرير كالذي في قوله تعالى الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها [الرعد: ٢] ، وليتأتى عطف وينزل من السماء ماء عليه لأنه تكملة لهذه الآية.
وقوله خوفا وطمعا مفعول لأجله معطوف عليه. والمراد: خوفا تخافونه وطمعا تطمعونه. فالمصدران مؤولان بمعنى الإرادة، أي إرادة أن تخافوا خوفا وتطمعوا. وقد تقدم الكلام على البرق في قوله هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا في سورة الرعد [١٢] . وتقدم هنالك أن خوفا مفعول له وطمعا كذلك وتوجيه ذلك.
وجعلت هذه الآية آيات لا نطوائها على دقائق عظيمة في خلق القوى التي هي أسباب البرق ونزول المطر وخروج النبات من الأرض بعد جفافها وموتها. ونيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل لأن العقل المستقيم غير المشوب بعاهة العناد والمكابرة كاف في فهم

(١) التحرير والتنوير ٢١/٧٧

ما في تلك المذكورات من الدلائل والحكم على نحو ما قرر في نظائره آنفا.
وإجراء يعقلون على لفظ قوم **للإيماء** إلى ما تقدم ذكره آنفا في مثله. ومعنى اللام في قوله لقوم يعقلون مثل معنى أختها في قوله لقوم يتفكرون [الروم: ٢١] .
[٢٥]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٥]
ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٢٥)
ختمت الآيات بهذه الآية السادسة وهي التي دلت على عظيم القدرة على". (١)

١١٤٩. ٣٥٨-"ولذلك عقب بجملة كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون، أي نفصل الدلائل على الاعتقاد الصحيح تفصيلا كهذا التفصيل وضوحا بينا، وجملة إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون [الروم: ٢٤] استئناف ابتدائي. والقوم الذين يعقلون هم المتنزهون عن المكابرة والإعراض، والطالبون للحق والحقائق لوفرة عقولهم، فيزداد المؤمنون يقينا ويؤمن الغافلون والذين تروج عليهم ضلالات المشركين ثم تنكشف عنهم بمثل هذه الدلائل البينة.
وفي ذكر لفظ قوم وإجراء الصفة عليه **إيماء** إلى أن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا من كان العقل من مقومات قوميته كما تقدم في قوله تعالى لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] ، وتقدمت له نظائر كثيرة. والقول في إيثار وصف العقل هنا دون غيره من أوصاف النظر والفكر كالقول فيما تقدم عند قوله ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا إلى قوله يعقلون [الروم: ٢٤] .
وفي هذا تعريض بالمتصلبين في شركهم بأنهم ليسوا من أهل العقول، وليسوا ممن ينتفعون كقوله تعالى وما يعقلها إلا العالمون [العنكبوت: ٤٣] وقوله ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون [البقرة: ١٧١] .
وقوله كذلك تقدم نظيره في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٧٩

[٢٩]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٩]

بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين (٢٩)

إضراب إبطالي لما تضمنه التعريض الذي في قوله كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون [الروم: ٢٨] إذ اقتضى أن الشأن أن ينتفع الناس بمثل هذا المثل فيقلع المشركون منهم عن إشراكهم ويلجوا حظيرة الإيمان، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وما تسوله لهم نفوسهم ولم يطلبوا الحق ويتفهموا دلائله فهم عن العلم بمنأى. فالتقدير: فما نفعتهم الآيات المفصلة بل اتبعوا أهواءهم.". (١)

١١٥٠. ٣٥٩-"وثم للتراخي الرتبي لأن إشراكهم بالله بعد الدعاء والإنابة وحصول رحمته أعجب من إشراكهم السابق، ففي التراخي الرتبي معنى التعجيب من تجدد إشراكهم، وحرف المفاجأة إذا يفيد أيضا أن هذا الفريق أسرعوا العودة إلى الشرك بحدثان ذوق الرحمة لتأصل الكفر منهم وكمونه في نفوسهم.

وضمير منه عائد إلى الله تعالى. ومن ابتدائية متعلقة ب أذاقهم.

ورحمة فاعل أذاقهم ولم يؤنث لها الفعل لأن تأنيث مسمى الرحمة غير حقيقي ولأجل الفصل بالمجرور. وتقديم المجرور على الفاعل للاهتمام به ليظهر أن الذي أصابهم هو من فضل الله وتقديره لا غير ذلك. واللام في قوله ليكفروا لام التعليل وهي مستعارة لمعنى التسبب الذي حقه أن يفاد بالفاء لأنهم لما أشركوا لم يريدوا بشركهم أن يجعلوه علة للكفر بالنعمة ولكنهم أشركوا محبة للشرك فكان الشرك مفضيا إلى كفرهم نعمة الله خشية الإفضاء والتسبب بالعلة الغائية على نحو قوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا [القصص: ٨] .

وضمير ليكفروا عائد إلى الفريق باعتبار معناه.

والإيتاء: إعطاء النافع، أي بما أنعمنا عليهم من النعم التي هي نعمة الإيجاد والرزق وكشف الضر عنهم. ثم التفت عن الغيبة إلى الخطاب بقوله فتمتعوا توبيخا لهم وإنذارا، وجيء بفاء التفريع في قوله فتمتعوا لأن الإنذار والتوبيخ مفرعان عن الكلام السابق. والأمر في (تمتعوا)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٢١

مستعمل في التهديد والتوبيخ. والتمتع: الانتفاع بالملائم وبالنعمة مدة تنقضي.
والفاء في فسوف تعلمون تفريع للإنذار على التوبيخ، وهو رشيق. و (سوف تعلمون) إنذار بأنهم يعلمون في المستقبل شيئا عظيما، والعلم كناية عن حصول الأمر الذي يعلم، أي عن حلول مصائب بهم لا يعلمون كنهها الآن، وهو **إيماء** إلى عظمتها وأنها غير مترقبة لهم. وهذا إشارة إلى ما سيصابون به". (١)

١١٥١. ٣٦٠-"والإذاقة: استعارة مكنية شبه ما يصيبهم من الآلام فيحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم. ولما كان ما عملوه لا يصيبهم بعينه تعين أن بعض الذي عملوا أطلق على جزاء العمل ولذلك فالبعضية تبعيض للجزاء، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل، أي أن ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقونه. وفي هذا تهديد إن لم يقلعوا عن مساوئ أعمالهم كقوله تعالى: ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة [فاطر: ٤٥] ، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال تعالى:
ولعذاب الآخرة أشد وأبقى [طه: ١٢٧] .
والعدول عن أن يقال: بعض أعمالهم إلى بعض الذي عملوا **للإيماء** إلى ما في الموصول من قوة التعريف، أي أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدورها منهم.
والرجاء المستفاد من (لعل) يشير إلى أن ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عما هم اكتسبوه، وأن حالهم حال من يرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين تمردهم وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى: أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون [التوبة: ١٢٦] .
والرجوع مستعار للإقلاع عن المعاصي كأن الذي عصى ربه عبد أبق عن سيده، أو دابة قد أبدت، ثم رجع. وفي الحديث «الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٩٨

دابته عنده» .

وقرأ الجمهور ليذيقهم بالياء التحتية، أي ليذيقهم الله. ومعاد الضمير قوله الله الذي خلقكم [الروم: ٤٠] . وقرأه قنبل عن ابن كثير وروح عن عاصم بنون العظمة.". (١)

١١٥٢. ٣٦١-"السماء، فتعين أن يكون الجمع بينهما في الذكر مرادا منه اختلاف أحوال السحاب. والمقصود من هذا: أن اختلاف الحال آية على سعة القدرة.

والخطاب في فترى الودق خطاب لغير معين وهو كل من يتأتى منه سماع هذا وتتأتى منه رؤية الودق. والودق: المطر. وضمير خلاله للسحاب بحالتيه المذكورتين وهما حالة بسطه في السماء وحالة جعله كسفا فإن المطر ينزل من خلال السحاب المغلق والغمامات. والخلال: جمع خلل بفتحتين وهو الفرجة بين شيئين. وتقدم نظير هذه الجملة في سورة النور [٤٣] . وذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر وفي وقت انحباسه بين استبشار وإبلاس إدماج للتذكير برحمة الله إياهم وللاعتبار باختلاف تأثرات نفوسهم في السراء والضراء، وفي ذلك **إيماء** إلى عظيم تصرف الله في خلقة الإنسان إذ جعله قابلا لاختلاف الانفعال مع اتحاد العقل والقلب كما جعل السحاب مختلف الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج الودق من خلاله.

وإن في قوله وإن كانوا مخففة مهملة عن العمل، واللام في قوله لمبلسين اللام الفارقة بين إن المخففة وإن الشرطية.

والإبلاس: يأس مع انكسار. وقوله من قبله تكرير لقوله من قبل أن ينزل عليهم [الروم: ٤٩] لتوكيد معنى قبلية نزول المطر وتقريره في نفوس السامعين. قال ابن

عطية: أفاد التأكيد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار اهـ. يعني أن إعادة قوله من قبله زيادة تنبيه على الحالة التي كانت من قبل نزول المطر. وقال في «الكشاف» : «فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم إبلاسهم فكان

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١١٣

الاستبشار على قدر اغتمامهم» اهـ.". (١)

١١٥٣. ٣٦٢-"عجل [الأنبياء: ٣٧]

يدل على تمكن الوصف من الموصوف حتى كأنه منتزع منه، قال تعالى: وخلق الإنسان ضعيفا [النساء: ٢٨] .

والمعنى: أنه كما أنشأكم أطوارا تبتدئ من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأول وما لحقه من الأطوار، ولهذا أخبر عنه بقوله: يخلق ما يشاء.

وذكر وصف العلم والقدرة لأن التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم، وإبرازه على أحكم وجه هو من أثر القدرة. وتنكير ضعف وقوة للنوعية ف ضعف المذكور ثانيا هو عين ضعف المذكور أولا، وقوة المذكورة ثانيا عين قوة المذكورة أولا. وقولهم: النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى، يريدون به التنكير المقصود منه الفرد الشائع لا التنكير المراد به النوعية. وعطف وشيبة **للإيماء** إلى أن هذا الضعف لا قوة بعده وأن بعده العدم بما شاع من أن الشيب نذير الموت.

والشيبة: اسم مصدر الشيب. وقد تقدم في قوله تعالى: واشتعل الرأس شيبا في سورة مريم [٤] .

[٥٥]

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٥]

ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون (٥٥)

لما ذكر عدم انتفاع المشركين بآيات القرآن وشبهوا بالأموات والصم والعمي فظهرت فظاعة حالهم في العاجلة أتبع ذلك بوصف حالهم حين تقوم الساعة في استصحاب مكابرتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، بأن الله حين يعيد خلقهم وينشىء لهم أجساما كأجسامهم ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه في الدنيا من السفسطة والمغالطة

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢١

والغرور، فإذا نشروا من القبور وشعروا بصحة أجسامهم وعقولهم وكانوا قد علموا في آخر أوقات حياتهم". (١)

١١٥٤. ٣٦٣-"الإعانة أو الإغناء أو غير ذلك من فوائد الشكر للمشكورين على تفاوت مقاماتهم، والله غني عن جميع ذلك، وهو حميد، أي: كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلها حتى حال الكافر به كما قال تعالى ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها سورة الرعد [١٥] .

ومن بلاغة القرآن وبديع إيجازه أن كان قوله أن اشكر لله جامعا لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان، ولأمره بالشكر على ذلك، فقد جمع قوله أن اشكر لله الإرشاد إلى الشكر، مع الشروع في الأمر المشكور عليه تنبيها على المبادرة بالشكر عند حصول النعمة. وإنما قوبل الإعراض عن الشكر بوصف الله بأنه حميد لأن الحمد والشكر متقاربان،

وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر»

، فلما لم يكن في أسماء الله تعالى اسم من مادة الشكر إلا اسمه الشكور وهو بمعنى شاكر، أي: شاكر لعباده عبادتهم إياه عبر هنا باسمه حميد. وجيء في فعل يشكر بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد.

واللام في قوله أن اشكر لي [لقمان: ١٤] داخلة على مفعول الشكر وهي لام ملتزم زيادتها مع مادة الشكر للتأكيد والتقوية، وتقدم في قوله واشكروا لي في سورة البقرة [١٥٢] .

[١٣]

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٣]

وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣)

عطف على جملة آتينا لقمان الحكمة [لقمان: ١٢] لأن الواو نائبة مناب الفعل فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ

قال لابنه فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من الحكمة لا

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٢٨

محالة، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة.

وإذ ظرف متعلق بالفعل المقدر الذي دلت عليه واو العطف، أي والتقدير:

وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه. وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء". (١)

١١٥٥. ٣٦٤-"أصله، ثم لما التقت ياء التصغير ساكنة قبل واو الكلمة المتحركة بحركة الإعراب قلبت الواو ياء لتقاربهما وأدغمتا، ولما

نودي وهو مضاف إلى ياء المتكلم حذفت ياء المتكلم لجواز حذفها في النداء وكراهية تكرر الأمثال، وأشير إلى الياء المحذوفة بإلزامه الكسر في أحوال الإعراب الثلاثة لأن الكسرة دليل على ياء المتكلم. وتقدم في سورة يوسف. والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة.

ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل. وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدهرية والإشراك، فكان قوله لا تشرك بالله يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته. وقرأ حفص عن عاصم في المواضع الثلاثة في هذه السورة يا بني بفتح الياء مشددة على تقدير: يا بنيا بالألف وهي اللغة الخامسة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ثم حذفت الألف واكتفي بالفتحة عنها، وهذا سماع.

وجملة إن الشرك لظلم عظيم تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها. وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودل عليه الحديث

في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لا

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥٣

يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم

". (١)

١١٥٦. ٣٦٥-"وجملة إن الله لطيف خبير:

- يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف لأن النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس ولذلك جيء بالنتيجة كلية بعد الاستدلال بجزئية. وإنما لم نجعلها تعليلا لأن مقام تعليم لقمان ابنه يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق، وشرط التعليل أن يكون مسلما معلوما قبل العلم بالمعلل ليصح الاستدلال به.

- ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان تعليما من الله للمسلمين.

واللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذن بالعلم والقدرة الكاملين، أي يعلم ويقدر وينفذ قدرته، وتقدم في قوله وهو اللطيف الخبير في سورة الأنعام [١٠٣] . ففي تعقيب يأت بها الله بوصفه ب (اللطيف) إيماء إلى أن التمكن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من اختلال نظام صنعه. وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح.

[١٧]

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٧]

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٢١

الأمور (١٧)
انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح. وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وتقدم في أول سورة البقرة. وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال ليتطلب". (١)

١١٥٧. ٣٦٦-"والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره.
والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترا واختيالا فلذلك يسمى ذلك المشي مرحا كما في الآية، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق، أي مشيا مرحا، وتقدم في سورة الإسراء [٣٧] . وموقع قوله في الأرض بعد لا تمش مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض هو **الإيماء** إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم قويهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنه مساو لسائر الناس.
وموقع إن الله لا يحب كل مختال فخور موقع إن الله لطيف خبير [لقمان: ١٦] كما تقدم.
والمختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال من فعل خال إذا كان ذا خيلاء، فهو خائل.
والخيلاء: الكبر والازدهاء، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف فوزن المختال مختيل فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا، فقوله إن الله لا يحب كل مختال مقابل قوله ولا تصاعر خدك للناس، وقوله فخور مقابل قوله ولا تمش في الأرض مرحا.
والفخور: شديد الفخر. وتقدم في قوله إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا في سورة النساء [٣٦] .
ومعنى إن الله لا يحب كل مختال فخور أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين، ولا يخطر ببال أهل الاستعمال أن يكون مفاده أن الله لا يحب مجموع المختالين الفخورين إذا اجتمعوا بناء على ما ذكره عبد القاهر من أن كل إذا وقع في حيز النفي مؤخرا عن أداته

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٦٤

ينصب النفي على الشمول، فإن ذلك إنما هو في كل التي يراد منها تأكيد الإحاطة لا في كل التي يراد منها الأفراد، والتعويل في ذلك على القرائن. على أنا نرى ما ذكره الشيخ أمر أغلبي غير مطرد في استعمال أهل اللسان ولذلك نرى صحة الرفع والنصب في لفظ (كل) في قول أبي النجم العجلي:

قد أصبحت أم الخيار تدعي ... علي ذنبا كله لم أصنع

وقد بينت ذلك في تعليقاتي على دلائل الإعجاز.". (١)

١١٥٨. ٣٦٧-"لله، أي خالصا له كما في قوله تعالى فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله في سورة آل عمران [٢٠] .

والإحسان: العمل الصالح والإخلاص في العبادة.

وفي الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

. والمعنى: ومن يسلم إسلاما لا نفاق فيه ولا شك فقد أخذ بما يعتصم به من الهوي أو التزلزل.

وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى مضى الكلام على نظيره عند قوله تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى في سورة البقرة [٢٥] ، وهو ثناء على المسلمين. وتذييل هذا بقوله وإلى الله عاقبة الأمور **إيماء** إلى وعدهم بلقاء الكرامة عند الله في آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة.

والتعريف في الأمور للاستغراق، وهو تعميم يراد به أن أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله وموكولة إليه فجزاؤهم بالخير مناسب لعظمة الله.

والعاقبة: الحالة الخاتمة والنهاية. والأمور: جمع أمر وهو الشأن.

وتقديم إلى الله للاهتمام والتنبيه إلى أن الراجع إليه يلاقي جزاءه وافيا.

[٢٣]

[سورة لقمان (٣١) : آية ٢٣]

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٧/٢١

ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور (٢٣) لما خلا ذم الذين كفروا عن الوعيد وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم عطف عنان الكلام إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتهوين كفرهم عليه تسلية له وتعريضا بقلة العبء بهم لأن مرجعهم إلى الله فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم، فهو تعريض لهم بالوعيد.
وأسند النهي إلى كفرهم عن أن يكون محزنا للرسول صلى الله عليه وسلم مجازا عقليا في نهي". (١)

١١٥٩. ٣٦٨-"وقوله من رب العالمين خبر عن المبتدأ ومن ابتدائية.
والمعنى: من عنده ووحيه، كما تقول: جاءني كتاب من فلان. ووقعت جملة لا ريب فيه بأسلوب المعلوم المقرر فلم تجعل خبرا ثانيا عن المبتدأ لزيادة التشويق إلى الخبر ليقرر كونه من رب العالمين.
ومعنى لا ريب فيه أنه ليس أهلا لأن يرتاب أحد في تنزيله من رب العالمين لما حف بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعه، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاستقامة، ومجيء مثله من مثله مع ما هو معلوم من وصف الأمية. فمعنى نفي أن يكون الريب مظروفا في هذا الكتاب أنه لا يشتمل على ما يثير الريب، فالذين ارتابوا بل كذبوا أن يكون من عند الله فهم لا يعدون أن يكونوا متعنتين على علم، أو جهالا يقولون قبل أن يتأملوا وينظروا والأولون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم، وقد تقدم ذلك في أول سورة البقرة.
واستحضار الجلالة بطريق الإضافة بوصف رب العالمين دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من **الإيماء** إلى عموم الشريعة وكون كتابها منزلا للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية، كما قال تعالى: مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه [المائدة: ٤٨] . وفيه **إيماء** إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالته بشرا منهم حسدا من عند أنفسهم لأن ربوبية الله للعالمين تنبيء عن أنه لا يسأل عما يفعل وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته.

---
(١) التحرير والتنوير ٢١/١٧٧

[٣]

[سورة السجده (٣٢) : آية ٣]

أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون (٣)

جاءت أم للإضراب عن الكلام السابق إضراب انتقال، وهي أم المنقطعة التي بمعنى بل التي للإضراب.". (١)

١١٦٠. ٣٦٩-"[سورة السجده (٣٢) : آية ٤]

الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون (٤)

لما كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عقب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن.

وجيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به قطعا لدابر عقيدة الشريك في الإلهية، وخبر المبتدأ جملة ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع، ويكون قوله: الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما صفة لاسم الجلالة.

وجيء باسم الموصول **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وأنه الانفراد بالربوبية لجميع الخلائق في السماوات والأرض وما بينهما، ومن أولئك المشركون المعنيون بالخبر، والخطاب موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

والولي: مشتق من الولاء، بمعنى: العهد والحلف والقرابة. ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولى. وأريد بالولي: المشارك في الربوبية.

والشفيع: الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضر أو جلب نفع. والمشركون زعموا أن الأصنام آلهة شركاء لله في الإلهية ثم قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله [يونس: ١٨] وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى [الزمر: ٣] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٠٦

ومن في قوله من دونه ابتدائية في محل الحال من ضمير لكم، و (دون) بمعنى غير، ومن في قوله من ولي زائدة لتأكيد النفي، أي: لا ولي لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالا لما زعموه لأصنامهم من الوصفين إبطالا راجعا إلى إبطال الإلهية عنها. وليس المراد أنهم لا نصير لهم ولا شفيع إلا الله لأن الله لا ينصرهم على نفسه ولا يشفع لهم عند نفسه، قال الله تعالى: ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم [محمد: ١١] وقال: من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه [البقرة: ٢٥٥] .

وتقدم تفسير نظيره إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام". (١)

١١٦١. ٣٧٠-"وتخلص من هذا الوصف العام إلى خلق الإنسان لأن في خلقة الإنسان دقائق في ظاهره وباطنه وأعظمها العقل.

والإنسان أريد به الجنس، وبدء خلقه هو خلق أصله آدم كما في قوله تعالى:

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم [الأعراف: ١١] ، أي: خلقنا أباكم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. ويدل على هذا المعنى هنا قوله: ثم جعل نسله من سلالة فإن ذلك بدىء من أول نسل لآدم وحواء، وقد تقدم خلق آدم في سورة البقرة. ومن في قوله من طين ابتدائية.

والنسل: الأبناء والذرية. سمي نسلا لأنه ينسل، أي: ينفصل من أصله وهو مأخوذ من نسل الصوف والوبر إذا سقط عن جلد الحيوان، وهو من بابي كتب وضرب.

ومن في قوله من سلالة ابتدائية. وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سلالة كما في الآية لأنها تنفصل عن الرجل، فقوله من ماء مهين بيان ل سلالة. ومن بيانية فالسلالة هي الماء المهين، هذا هو الظاهر لمتعارف الناس ولكن في الآية **إيماء** علمي لم يدركه الناس إلا في هذا العصر وهو أن النطفة يتوقف تكون الجنين عليها لأنه يتكون من ذرات فيها تختلط مع سلالة من المرأة وما زاد على ذلك يذهب فضله، فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين، فتكون من في قوله من ماء مهين للتبعيض أو للابتداء.

والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار

---

(١) التحرير والتنوير ٢١١/٢١

بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصان.

والتسوية: التقويم، قال تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم [التين: ٤] .

والضمير المنصوب في سواه عائد إلى نسله لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف ب ثم وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح، قال تعالى:". (١)

١١٦٢. ٣٧١-"حمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بتخفيف الميم على أنها مركبة من لام التعليل و (ما) المصدرية، أي جعلناهم أيمة لأجل صبرهم وإيقانهم.

[٢٥]

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢٥]

إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (٢٥)

استئناف بياني لأن قوله تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا [السجدة: ٢٤] يثير سؤالا في نفس السامع من المؤمنين الذين سمعوا ما في القرآن من وصف اختلاف بني إسرائيل وانحرافهم عن دينهم وشاهد كثير منهم بني إسرائيل في زمانه غير متحلين بما يناسب ما قامت به أئمتهم من الهداية فيود أن يعلم سبب ذلك فكان في هذه الآية جواب ذلك تعليما للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

والخطاب للنبيء والمراد أمته تحذيرا من ذلك وإيماء إلى وجوب تجنب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين.

والفصل: القضاء والحكم، وهو يقتضي أن اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من الهدى فهو اختلاف غير مستند إلى أدلة ولا جار في مهيع أصل الشريعة ولكنه متابعة للهوى وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى: ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم [آل عمران: ١٠٥] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/٢١

وليس منه اختلاف أيمة الدين في تفاريع الأحكام وفي فهم الدين مما لا ينقض أصوله ولا يخالف نصوصه وإنما هو إعمال لأصوله ولأدلته في الأحوال المناسبة لها وحمل متعارضها بعضه على بعض فإن ذلك كله محمود غير مذموم وقد اختلف أصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم في حياته فلم يعنف أحدا، واختلفوا بعد وفاته فلم يعنف بعضهم بعضا. ويشمل ما كانوا فيه يختلفون ما كان اختلافا بين المهتدين والضالين منهم وما كان اتفاقا من جميع أمتهم على الضلالة فإن ذلك خلاف بين المجمعين وبين ما". (١)

١١٦٣. ٣٧٢-"نطقت به شريعتهم وسنته أنبياؤهم، ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم. وضمير هو في قوله هو يفصل ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى إيماء إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة.

[٢٦]

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢٦]

أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون (٢٦)

عطف على جملة ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها [السجدة: ٢٢] ، ولما كان ذلك التذكير متصلا كقوله وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون [السجدة: ١٠] كان الهدي، أي العلم المستفهم عنه بهذا الاستفهام شاملا للهدي إلى دليل البعث وإلى دليل العقاب على الإعراض عن التذكير فأفاد قوله كم أهلكنا من قبلهم من القرون معنين: أحدهما: إهلاك أمم كانوا قبلهم فجاء هؤلاء المشركون بعدهم، وذلك تمثيل للبعث وتقريب لإمكانه. وثانيهما: إهلاك أمم كذبوا رسلهم ففيهم عبرة لهم أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٣٨

يصيبهم مثل ما أصابهم.

والاستفهام إنكاري، أي هم لم يهتدوا بدلائل النظر والاستدلال التي جاءهم بها القرآن فأعرضوا عنها ولا اتعظوا بمصارع الأمم الذين كذبوا أنبياءهم وفي مهلكهم آيات تزجر أمثالهم عن السلوك فيما سلكوه. فضمير لهم عائد إلى المجرمين أو إلى من ذكر بآيات ربه. ويهد من الهداية وهي الدلالة والإرشاد، يقال: هداه إلى كذا.

وضمن فعل يهد معنى يبين، فعدي باللام فأفاد هداية واضحة بينة. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى أولم يهد للذين يرثون الأرض في سورة [الأعراف: ١٠٠] . واختير فعل الهداية في هذه الآية لإرادة الدلالة الجامعة للمشاهدة ولسماع أخبار تلك الأمم تمهيدا لقوله في آخرها أفلا يسمعون، ولأن كثرة". (١)

١١٦٤. ٣٧٣-"واسم الإشارة في هذا الفتح مع إمكان الاستغناء عنه بذكر مبينه مقصود منه التحقير وقلة الاكتراث به كما في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

إنباء بقلة اكتراثه بالموت ومنه قوله تعالى حكاية عنهم: أهذا الذي يذكر آلهتكم [الأنبياء: ٣٦] فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأن يوم الفتح الحق هو يوم القيامة وهو يوم الفصل وحينئذ ينقطع أمل الكفار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة ولا يجدون إنظارا لتدارك ما فاتهم، أي إفادتهم هذه الموعظة خير لهم من تطلبهم معرفة وقت حلول يوم الفتح لأنهم يقولون يومئذ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون [السجدة: ١٢] مع ما في هذا الجواب من **الإيماء** إلى أن زمن حلوله غير معلوم للناس وأنه مما استأثر الله به فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنه لا يدري متى يحل به لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا [الأنعام: ١٥٨] . ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين: من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحق، وهم إنما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في الحياة الدنيا.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٣٩

وإظهار وصف الذين كفروا في مقام الإضمار مع أنهم هم القائلون متى هذا الفتح لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب خيبتهم. ثم فرع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه الله خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعرض عن هؤلاء القائلين المكذبين وأن لا يزيد في الإلحاح عليهم تأييسا من إيمان المجادلين منهم المتصدين للتمويه على دهمائهم. وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتيا لا إعراض مستمر، ولا عن الدعوة إلى الله ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية.

والانتظار: الترقب. وأصله مشتق من النظر فكأنه مطاوع: أنظره، أي أراه فانتظر، أي: تكلف أن ينظر. وحذف مفعول انتظر للتهويل، أي: انتظر أياما يكون لك فيها النصر،". (١)

١١٦٥. ٣٧٤-"وأن ينزلوا عند عبد الله بن أبي ابن سلول ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، وطعمة بن أبيرق فسألوا رسول الله أن يترك ذكر آلهة قريش، فغضب المسلمون وهم عمر بقتل النفر القرشيين، فمنعه رسول الله لأنه كان أعطاهم الأمان، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فنزلت هذه الآية، أي:- اتق الله في حفظ الأمان ولا تطع الكافرين- وهم النفر القرشيون- والمنافقين- وهم عبد الله بن أبي ومن معه-. وهذا الخبر لا سند له ولم يعرج عليه أهل النقد مثل الطبري وابن كثير. [٢]

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٢]

واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا (٢)

هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبني وما يتصل بها، ولذلك جيء بالفعل المضارع الصالح للاستقبال، وجرد من علامة الاستقبال لأنه قريب من زمن الحال. والمقصود من الأمر باتباعه أنه أمر باتباع خاص تأكيد للأمر العام باتباع الوحي.

وفيه إيذان بأن ما سيوحى إليه قريبا هو مما يشق عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبني

(١) التحرير والتنوير ٢٤٣/٢١

لأنهم ألفوه واستقر في عوائدهم وعاملوا المتبنين معاملة الأبناء الحق.
ولذلك ذيلت جملة واتبع ما يوحى إليك بجملة إن الله كان بما تعملون خبيرا تعليلا للأمر بالاتباع وتأنيسا به لأن الله خبير بما في عوائدكم ونفوسكم فإذا أبطل شيئا من ذلك فإن إبطاله من تعلق العلم بلزوم تغييره فلا تتريثوا في امتثال أمره في ذلك، فجملة إن الله كان بما تعملون خبيرا في موقع العلة فلذلك فصلت لأن حرف التوكيد مغن غناء فاء التفريع كما مر آنفا.
وفي إفراد الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بقوله واتبع وجمعه بما يشمله وأمته في قوله بما تعملون **إيماء** إلى أن فيما سينزل من الوحي ما يشتمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبيء عليه الصلاة والسلام مشاركا لبعض الأمة في التلبس بها وهو حكم التبني إذ كان النبيء متبنيا زيد بن حارثة من قبل بعثته.". (١)

١١٦٦. ٣٧٥-"إلى ضمير الجلالة في قوله واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به [المائدة: ٧] .
وقوله ومنك ومن نوح إلخ هو من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام بهم فإن هؤلاء المذكورين أفضل الرسل، وقد ذكر ضمير محمد صلى الله عليه وسلم قبلهم **إيماء** إلى تفضيله على جميعهم، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود. ولهذه النكتة خص ضمير النبيء بإدخال حرف (من) عليه بخصوصه، ثم أدخل حرف (من) على مجموع الباقين فكان قد خص باهتمامين: اهتمام التقديم، واهتمام إظهار اقتران الابتداء بضمير بخصوصه غير مندمج في بقيتهم عليهم السلام.
وسيجيء أن ما في سورة الشورى [١٣] من تقديم ما وصى به نوحا على والذي أوحينا إليك [الشورى: ١٣] طريق آخر هو آثر بالغرض الذي في تلك السورة من قوله تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم الآية [الشورى: ١٣] .

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٥٢

وجملة وأخذنا منهم ميثاقا غليظا أعادت مضمون جملة وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم لزيادة تأكيدها، وليبنى عليها وصف الميثاق بالغليظ، أي: عظيما جليل الشأن في جنسه فإن كل ميثاق له عظم فلما وصف هذا ب غليظا أفاد أن له عظما خاصا، وليعلق به لام التعليل من قوله ليسئل الصادقين.

وحقيقة الغليظ: القوي المتين الخلق، قال تعالى: فاستغلظ فاستوى على سوقه [الفتح: ٢٩] . واستعير الغليظ للعظيم الرفيع في جنسه لأن الغليظ من كل صنف هو أمكنه في صفات جنسه.

واللام في قوله ليسئل الصادقين عن صدقهم لام كي، أي: أخذنا منهم ميثاقا غليظا لنعظم جزاء للذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ولنشدد العذاب جزاء للذين يكفرون بما جاءتهم به رسل الله، فيكون من دواعي ذكر هذا الميثاق هنا أنه توطئة لذكر جزاء الصادقين وعذاب الكافرين زيادة على ما ذكرنا من دواعي ذلك آنفا. وهذه علة من علل أخذ الميثاق من النبيئين وهي آخر العلل حصولا فأشعر". (١)

١١٦٧. ٣٧٦-"قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عزم عليه. وأرسل الله على جيش المشركين ريحا شديدة فأزالت خيامهم وأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، واختل أمرهم، وهلك كراعهم وخفهم، وحدث تخاذل بينهم وبين قريظة وظنت قريش أن قريظة صالحت المسلمين وأنهم ينضمون إلى المسلمين على قتال الأحزاب، فرأى أهل الأحزاب الرأي في أن يرتحلوا فارتحلوا عن المدينة وانصرف جيش المسلمين راجعا إلى المدينة. فقوله تعالى إذ جاءتكم جنود ذكر توطئة لقوله فأرسلنا عليهم ريحا إلخ لأن ذلك هو محل المنة. والريح المذكورة هنا هي ريح الصبا وكانت باردة وقلعت الأوتاد والأطناب وسفت التراب في عيونهم وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم. وفيها

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٥/٢١

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» .

والجنود التي لم يروها هي جنود الملائكة الذين أرسلوا الريح وألقوا التخاذل بين الأحزاب وكانوا وسيلة إلقاء الرعب في نفوسهم.

وجملة وكان الله بما تعملون بصيرا في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله نعمة الله وهي إيماء إلى أن الله نصرهم على أعدائهم لأنه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة والمصابرة في حفر الخندق والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة وبذلهم النفوس في نصر دين الله فجازاهم الله بالنصر المبين كما قال ولينصرن الله من ينصره [الحج: ٤٠] .

وقرأ الجمهور بما تعملون بصيرا بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة ومحملها على الالتفات.

والجنود الأول جمع جند، وهو الجمع المتحد المتناصر ولذلك غلب على الجمع المجتمع لأجل القتال فشاع الجند بمعنى الجيش. وذكر جنود هنا بلفظ الجمع مع". (١)

١١٦٨. ٣٧٧-"في ناحية منها، أي: اسم أرض بما فيها من الحوائط والنخل والمدينة في تلك الأرض. سميت باسم يثرب من العمالقة، وهو يثرب بن قانية الحفيد الخامس لإرم بن سام بن نوح. وقد

روي عن البراء بن عازب وابن عباس أن النبيء صلى الله عليه وسلم نهى عن تسميتها يثرب وسماها طابة.

وفي قوله يا أهل يثرب لا مقام لكم محسن بديعي، وهو الاتزان لأن هذا القول يكون منه مصراع من بحر السريع من عروضه الثانية المخبولة المكشوفة إذ صارت مفعولات بمجموع الخبل والكشف إلى فعلن فوزنه مستفعلن مستفعلن فعلن.

والمراد بقوله فريق منهم جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وليسوا فريقا من الطائفة المذكورة آنفا، بل هؤلاء هم أوس بن قيظي وجمع من عشيرته بني حارثة وكان بنو حارثة أكثرهم مسلمين وفيهم منافقون، فجاء منافقوهم يعتذرون بأن منازلهم عورة، أي: غير حصينة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٩/٢١

وجملة ويستأذن فريق عطف على جملة قالت طائفة، وجيء فيها بالفعل المضارع للإشارة إلى أنهم يلحون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه.

والعورة: الثغر بين الجبلين الذي يتمكن العدو أن يتسرب منه إلى الحي، قال لبيد:

وأجن عورات الثغور ظلامها والاستئذان: طلب الإذن وهؤلاء راموا الانخذال واستحيوا. ولم يذكر المفسرون أن النبيء صلى الله عليه وسلم أذن لهم. وذكر أهل السير أن ثمانين منهم رجعوا دون إذنه. وهذا يقتضي أنه لم يأذن لهم وإلا لما ظهر تميزهم عن غيرهم، وأيضا فإن في الفعل المضارع من قوله

يستأذن إيماء إلى أنه لم يأذن لهم وستعلم ذلك، ومنازل بني حارثة كانت في أقصى المدينة قرب منازل بني سلمة فإنهما كانا حيين متلازمين قال تعالى: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا [آل عمران: ١٢٢] هما بنو حارثة وبنو سلمة في غزوة أحد.

وفي الحديث: أن بني سلمة راموا أن ينقلوا منازلهم قرب المسجد فقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم»

أي خطاكم.". (١)

١١٦٩. ٣٧٨-"والرد: الإرجاع إلى المكان الذي صدر منه فإن ردهم إلى ديارهم من تمام النعمة على المسلمين بعد نعمة إرسال الريح عليهم لأن رجوعهم أعمل في اطمئنان المسلمين.

وعبر عن الأحزاب بالذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم هو سبب خيبتهم العجيبة الشأن.

والباء في بغيظهم للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: ردهم مغيظين.

وإظهار اسم الجلالة دون ضمير المتكلم للتنبيه على عظم شأن هذا الرد العجيب كما تقدم في قوله تعالى: ليجزي الله الصادقين بصدقهم [الأحزاب: ٢٤] .

والغيظ: الحنق والغضب، وكان غضبهم عظيما يناسب حال خيبتهم لأنهم تجشموا كلفة التجمع والإنفاق وطول المكث حول المدينة بلا طائل وخابت آمالهم في فتح المدينة وأكل ثمارها وإفناء المسلمين، وهم يحسبون أنها منازلة أيام قليلة، ثم غاظهم ما لحقهم من النكبة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٨٥

بالريح والانهزام الذي لم يعرفوا سببه.

وجملة لم ينالوا خيرا حال ثانية. ولك أن تجعل جملة لم ينالوا خيرا استئنافا بيانيا لبيان موجب غيظهم.

وكفى بمعنى أغنى، أي: أراحهم من كلفة القتال بأن صرف الأحزاب.

وكفى بهذا المعنى تتعدى إلى مفعولين يقال: كفيتك مهمك وليست هي التي تزاد الباء في مفعولها فتلك بمعنى: حسب.

وفي قوله وكفى الله المؤمنين القتال حذف مضاف، أي كلفة القتال، أو أرزاء القتال، فإن المؤمنين كانوا يومئذ بحاجة إلى توفير عددهم وعددهم بعد مصيبة يوم أحد ولو التقوا مع جيش المشركين لكانت أرزاؤهم كثيرة ولو انتصروا على المشركين.

والقول في إظهار اسم الجلالة في قوله وكفى الله المؤمنين القتال كالقول في ورد الله الذين كفروا بغيظهم.". (١)

١١٧٠. ٣٧٩-"وتقديم المفعول في فريقا تقتلون للاهتمام بذكره لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى، ولذلك لم يقدم مفعول تأسرون إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله.

وقوله وأرضا لم تطؤها أي: تنزلوا بها غزاة وهي أرض أخرى غير أرض قريظة وصفت بجملة لم تطؤها أي: لم تمشوا فيها. فقيل: إن الله بشرهم بأرض أخرى يرثونها من بعد. قال قتادة: كنا نحدث أنها مكة. وقال مقاتل وابن رومان: هي خيبر، وقيل: أرض فارس والروم. وعلى هذه التفاسير يتعين أن يكون فعل أورثكم مستعملا في حقيقته ومجازه فأما في حقيقته فبالنسبة إلى مفعوله وهو أرضهم وديارهم وأموالهم، وأما استعماله في مجازه فبالنسبة إلى تعديته إلى أرضا لم تطؤها، أي:

أن يورثكم أرضا أخرى لم تطؤوها، من باب: أتى أمر الله [النحل: ١] أو يؤول فعل أورثكم بمعنى: قدر أن يورثكم. وأظهر هذه الأقوال أنها أرض خيبر فإن المسلمين فتحوها بعد غزوة قريظة بعام وشهر. ولعل المخاطبين بضمير أورثكم هم الذين فتحوا خيبر لم ينقص منهم أحد

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٣١٠

أو فقد منه القليل ولأن خيبر من أرض أهل الكتاب وهم ممن ظاهروا المشركين فيكون قصدها من قوله وأرضا مناسبا تمام المناسبة.

وفي التذييل بقوله وكان الله على كل شيء قديرا **إيماء** إلى البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده.

وعندي: أن المراد بالأرض التي لم يطؤوها أرض بني النضير وأن معنى لم تطؤها لم تفتحوها عنوة، فإن الوطء يطلق على معنى الأخذ الشديد، قال الحارث بن وعلة الذهلي:

ووطأتنا وطئا على حنق ... وطء المقيد نابت الهرم

ومنه قوله تعالى: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم [الفتح: ٢٥] ، فإن أرض بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله من غير إيجاف". (١)

١١٧١. ٣٨٠-"[٣٣]

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٣]

وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٣)

وقرن في بيوتكن.

هذا أمر خصصن به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرا لهن، وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبيء صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة. وقد كان المسلمون لما ضاق عليهم المسجد النبوي يصلون الجمعة في بيوت أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم كما في حديث «الموطأ» . وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف. ووجهها أبو عبيدة عن الكسائي والفراء والزجاج بأنها لغة أهل الحجاز في قر بمعنى: أقام واستقر، يقولون: قررت في المكان بكسر الراء من باب علم فيجيء مضارعه بفتح الراء فأصل قرن اقررن فحذفت الراء الأولى للتخفيف من التضعيف وألقيت حركتها على القاف نظير قولهم: أحسن بمعنى أحسن في قول أبي زبيد:

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٣/٢١

سوى أن الجياد من المطايا ... أحسن به فهن إليه شوس

وأنكر المازني وأبو حاتم أن تكون هذه لغة، وزعم أن قررت بكسر الراء في الماضي لا يرد إلا في معنى قرة العين، والقراءة حجة عليهما. والتزم النحاس قولهما وزعم أن تفسير الآية على هذه القراءة أنها من قرة العين وأن المعنى: واقررن عيونا في بيوتكن، أي لكن في بيوتكن قرة عين فلا تتطلعن إلى ما جاوز ذلك، أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن.

وقرأ بقية العشرة وقرن بكسر القاف. قال المبرد: هو من القرار، أصله: اقررن بكسر الراء الأولى فحذفت تخفيفا، وألقيت حركتها على القاف كما قالوا: ظلت ومست.

وقال ابن عطية: يصح أن يكون قرن، أي بكسر القاف أمرا من الوقار، يقال: وقر فلان يقر، والأمر منه قر للواحد، وللنساء قرن مثل عدن، أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن مع **الإيماء** إلى علة ذلك بأنه وقار لهن.

وقرأ الجمهور بيوتكن بكسر الباء. وقرأه ورش عن نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر بضم الباء.". (١)

١١٧٢. ٣٨١-"إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى: يا نساء النبيء من يأت منكن [الأحزاب: ٣٠] الآية. فإن موقع إنما يفيد ربط ما بعدها بما قبلها لأن حرف (إن) جزء من إنما وحرف (إن) من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب كما بينه الشيخ عبد القاهر، فالمعنى أمركن الله بما أمر ونهاكن عما نهى لأنه أراد لكن تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة.

والتعريف في البيت تعريف العهد وهو بيت النبيء صلى الله عليه وسلم وبيوت النبيء عليه الصلاة والسلام كثيرة فالمراد بالبيت هنا بيت كل واحدة من أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم وكل بيت من تلك البيوت أهله النبيء صلى الله عليه وسلم وزوجه صاحبة ذلك، ولذلك جاء بعده قوله: واذكرن ما يتلى في بيوتكن [الأحزاب: ٣٤] ، وضميرا الخطاب موجهان إلى نساء النبيء صلى الله عليه وسلم على سنن الضمائر التي تقدمت. وإنما جيء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٠

بالضميرين بصيغة جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبيء صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب لأنه رب كل بيت من بيوتهن وهو حاضر هذا الخطاب إذ هو مبلغه. وفي هذا التغليب **إيماء** إلى أن هذا التطهير لهن لأجل مقام النبيء صلى الله عليه وسلم لتكون قريناته مشابهات له في الزكاة والكمال، كما قال الله تعالى: والطيبات للطيبين [النور: ٢٦] يعني أزواج النبيء للنبيء صلى الله عليه وسلم، وهو نظير قوله في قصة إبراهيم: رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت [هود: ٧٣] والمخاطب زوج إبراهيم وهو معها.

والرجس في الأصل: القذر الذي يلوث الأبدان، واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية لأنها تجعل عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقذر. وقد تقدم في قوله تعالى: رجس من عمل الشيطان في سورة العقود [٩٠] .

واستعير التطهير لضد ذلك وهو تجنيب الذنوب والنقائص كما يكون الجسم أو الثوب طاهرا.

واستعير الإذهاب للإنجاء والإبعاد.". (١)

١١٧٣. ٣٨٢-"وجه تعداد الصفات المذكورة في هذه الآية لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة.

وسلك مسلك الإطناب في تعداد الأوصاف لأن المقام لزيادة البيان لاختلاف أفهام الناس في ذلك، على أن في هذا التعداد **إيماء** إلى أصول التشريع كما سنبينه في آخر تفسير هذه الآية.

وبهذه الآثار يظهر اتصال هذه الآيات بالتي قبلها. وبه يظهر وجه تأكيد هذا الخبر بحرف إن لدفع شك من شك في هذا الحكم من النساء.

والمراد ب المسلمين والمسلمات من اتصف بهذا المعنى المعروف شرعا.

والإسلام بالمعنى الشرعي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، ولا يعتبر إسلاما إلا مع الإيمان. وذكر المؤمنين والمؤمنات بعده للتنبيه على أن الإيمان هو الأصل، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٤

فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون في البقرة [١٣٢] .

والمراد ب المؤمنين والمؤمنات الذين آمنوا. والإيمان: أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقدر خيره وشره. وتقدم الكلام على الإيمان في أوائل سورة البقرة.

و (القانتين والقانتات) : أصحاب القنوت وهو الطاعة لله وعبادته، وتقدم آنفا ومن يقنت منكن لله ورسوله [الأحزاب: ٣١] والصادقين والصادقات من حصل منهم صدق القول وهو ضد الكذب، والصدق كله حسن، والكذب لا خير فيه إلا لضرورة.

وشمل ذلك الوفاء بما يلتزم به من أمور الديانة كالوفاء بالعهد والوفاء بالنذر، وتقدم عند قوله تعالى: أولئك الذين صدقوا في سورة البقرة [١٧٧] .

وب الصابرين والصابرات: أهل الصبر والصبر محمود في ذاته لدلالته على قوة العزيمة، ولكن المقصود هنا هو تحمل المشاق في أمور الدين، وتحمل المكاره في". (١)

١١٧٤. ٣٨٣-"أحدهما: ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته.

قال النبيء صلى الله عليه وسلم «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده»

، ففي قوله: «وذكرهم الله»

إيماء إلى أن الجزاء من جنس عملهم فدل على أنهم كانوا في شيء من ذكر الله وقد قال تعالى: فاذكروني أذكركم [البقرة: ١٥٢]

وقال فيما أخبر عنه رسوله صلى الله عليه وسلم «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»

. وشمل ما يذكر عقب الصلوات ونحو ذلك من الأذكار.

والمحمل الثاني: الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه كما قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى:

والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [آل عمران: ١٣٥] فدخل فيه التوبة ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلها من القتل وأخذ أموال الناس والحرابة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٢٢

والإضرار بالناس في المعاملات. ومما يوضح شموله لهذه الشرائع كلها تقييده ب كثيرا لأن المرء إذا ذكر الله كثيرا فقد استغرق ذكره على المحملين جميع ما يذكر الله عنده.

ويراعى في الاتصاف بهذه الصفات أن تكون جارية على ما حدده الشرع في تفاصيلها.

والمغفرة: عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، وقد تقدمت في قوله تعالى: وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين في سورة الأعراف [٢٣] . واعلم أن عطف الصفات بالواو المفيد مجرد التشريك في الحكم دون حرفي الترتيب: الفاء وثم، شأنه أن يكون الحكم المذكور معه ثابتا لكل واحد اتصف بوصف من الأوصاف المشتق منها موصوفه لأن أصل العطف بالواو أن يدل على مغايرة المعطوفات في الذات، فإذا قلت:

وجدت فيهم الكريم والشجاع والشاعر كان المعنى: أنك وجدت فيهم ثلاثة أناس كل واحد منهم موصوف بصفة من المذكورات.

وفي الحديث: «فإن منهم المريض والضعيف وذا الحاجة»

أي أصحاب المرض والضعف والحاجة، بخلاف العطف بالفاء كقوله تعالى:

والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا [الصافات: ١- ٣] فإن الأوصاف المذكورة في تلك الآية ثابتة". (١)

١١٧٥. ٣٨٤-"وكان صائما، فلما غربت الشمس قال لبلال: «انزل فاجدح لنا» ، فقال: يا رسول الله لو أمسيت. ثم قال: «انزل فاجدح لنا» ، فقال: يا رسول الله لو أمسيت إن عليك نهارا ثم قال: «انزل فاجدح» ، فنزل فجدح له في الثالثة فشرب. فمراجعة بلال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أنه علم أن الأمر غير عزم.

وذكر اسم الجلالة هنا **للإيماء** إلى أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة لله، قال تعالى: من يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: ٨٠] . فالمقصود إذا قضى رسول الله أمرا كما تقدم في قوله تعالى: فأن لله خمسه وللرسول في سورة الأنفال [٤١] إذ المقصود: فإن للرسول خمسه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤

والخيرة: اسم مصدر تخير، كالطيرة اسم مصدر تطير. قيل ولم يسمع في هذا الوزن غيرهما، وتقدم في قوله تعالى: ما كان لهم الخيرة في سورة القصص [٦٨] .

ومن تبعيضية وأمرهم بمعنى شأنهم وهو جنس، أي أمورهم. والمعنى: ما كان اختيار بعض شؤونهم ملكا يملكونه بل يتعين عليهم اتباع ما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا خيرة لهم.

و (مؤمن ومؤمنة) لما وقعا في حيز النفي يعمان جميع المؤمنين والمؤمنات فلذلك جاء ضميرها ضميرها جمع لأن المعنى: ما كان لجمعهم ولا لكل واحد منهم الخيرة كما هو شأن العموم.

وقرأ الجمهور أن تكون بمثناة فوقية لأن فاعله مؤنث لفظا. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام وابن عامر بتحتية لأن الفاعل المؤنث غير الحقيقي يجوز في فعله التذكير ولا سيما إذا وقع الفصل بين الفعل وفاعله.

وقوله: ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام سواء فيما هو فيه الخيرة أم كان عن عمد للهوى في المخالفة". (١)

١١٧٦. ٣٨٥-"والقدر بفتح الدال: إيجاد الأشياء على صفة مقصودة وهو مشتق من القدر بسكون الدال وهو الكمية المحددة المضبوطة، وتقدم في قوله تعالى: فسالت أودية بقدرها في سورة الرعد [١٧] وقوله: وما ننزله إلا بقدر معلوم في سورة الحجر [٢١] . ولما كان من لوازم هذا المعنى أن يكون مضبوطا محكما كثرت الكناية بالقدر عن الإتقان والصدور عن العلم.

ومنه حديث: «كل شيء بقضاء وقدر»

، أي من الله.

واصطلح علماء الكلام: أن القدر اسم للإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه، ويطلقون على الشيء الذي تعلق به القدر وهو المقدور كما في هذه الآية، فالمعنى:

وكان أمر الله مقدرا على حكمة أرادها الله تعالى من ذلك الأمر، فالله لما أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بتزوج زينب التي فارقها زيد كان عالما بأن ذلك لائق برسوله عليه الصلاة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٨

والسلام كما قدر لأسلافه من الأنبياء.

وفي قوله: الذين يبلغون جيء بالموصول دون اسم الإشارة أو الضمير لما في هذه الصلة من **إيماء** إلى انتفاء الحرج عن الأنبياء في تناول المباح بأن الله أراد منهم تبليغ الرسالة وخشية الله بتجنب ما نهى عنه ولم يكلفهم إشقاق نفوسهم بترك الطيبات التي يريدونها، ولا حجب وجدانهم عن إدراك الأشياء على ما هي عليه من حسن الحسن وقبح القبيح، ولا عن انصراف الرغبة إلى تناول ما حسن لديهم إذا كان ذلك في حدود الإباحة، ولا كلفهم مراعاة ميول الناس ومصطلحاتهم وعوائدهم الراجعة إلى الحيدة بالأمور عن مناهجها فإن في تناولهم رغباتهم المباحة عونا لهم على النشاط في تبليغ رسالات الله، ولذلك عقب بقوله: ولا يخشون أحدا إلا الله، أي لا يخشون أحدا خشية تقتضي فعل شيء أو تركه.

ثم إن جملة الذين يبلغون إلى آخرها يجوز أن تكون في موضع الصفة للذين

خلوا من قبل، أي الأنبياء. وإذ قد علم أن النبيء صلى الله عليه وسلم متبع ما أذن الله له اتباعه من سنة الأنبياء قبله علم أنه متصف بمضمون جملة الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله بحكم قياس المساواة، فعلم أن الخشية التي في قوله: وتخشى الناس [الأحزاب: ٣٧] ليست خشية خوف توجب ترك ما يكرهه الناس أو فعل ما يرغبونه بحيث يكون الناس محتسبين على النبيء عليه الصلاة". (١)

١١٧٧. ٣٨٦-"لواحد) والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صبيانا ولم يكن منهم موجود حين نزول الآية.

والمنفي هو وصف الأبوة المباشرة لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم فلا التفات إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها إذ ليس ذلك بمقصود، ولا يخطر ببال أحد نفي أبوته لهم بمعنى الأبوة العليا، أو المراد أبوة الصلب دون أبوة الرحم.

وإضافة (رجال) إلى ضمير المخاطبين والعدول عن تعريفه باللام لقصد توجيه الخطاب إلى الخائضين في قضية تزوج زينب إخراجا للكلام في صيغة التغليط والتغليظ.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢/٢٢

وأما توجيهه بأنه كالاحتراز عن أحفاده وأنه قال: من رجالكم وأما الأحفاد فهم من رجاله ففيه سماجة وهو أن يكون في الكلام توجيه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم بريء من المخاطبين أعني المنافقين وليس بينه وبينهم الصلة الشبيهة بصلة الأبوة الثابتة بطريقة لحن الخطاب من قوله تعالى وأزواجه أمهاتهم [الأحزاب: ٦] كما تقدم.

واستدراك قوله: ولكن رسول الله لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة فذكروا بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كالأب لجميع أمته في شفقته ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبيء مع أمته.

والواو الداخلة على لكن زائدة ولكن عاطفة ولم ترد لكن في كلام العرب عاطفة إلا مقترنة بالواو كما صرح به المرادي في «شرح التسهيل» . وحرف لكن مفيد الاستدراك.

وعطف صفة وخاتم النبيئين على صفة رسول الله تكميل وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم وإيماء إلى أن في انتفاء أبوته لأحد من الرجال حكمة قدرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه.

وإذ قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبيء كان كونه خاتم النبيئين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع". (١)

١١٧٨. ٣٨٧-"والذكر: ذكر اللسان وهو المناسب لموقع الآية بما قبلها وبعدها.

والتسبيح: يجوز أن يراد به الصلوات النوافل فليس عطف وسبحوه على اذكروا الله من عطف الخاص على العام.

ويجوز أن يكون المأمور به من التسبيح قول: سبحان الله، فيكون عطف وسبحوه على اذكروا الله من عطف الخاص على العام اهتماما بالخاص لأن معنى التسبيح التنزيه عما لا يجوز على الله من النقائص فهو من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتمجيد، ولأن في التسبيح إيماء إلى التبرؤ مما يقوله المنافقون في حق النبيء صلى الله عليه وسلم فيكون في معنى قوله تعالى: ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٤٤

[النور: ١٦] فإن كلمة: سبحان الله، يكثر أن تقال في مقام

التبرؤ من نسبة ما لا يليق إلى أحد

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله! المؤمن لا ينجس» .

وقول هند بنت عتبة حين أخذ على النساء البيعة «أن لا يزنين» : سبحان الله أتزني الحرة.

والبكرة: أول النهار. والأصيل: العشي الوقت الذي بعد العصر. وانتصبا على الظرفية التي يتنازعها الفعلان اذكروا الله.. وسبحوه.

والمقصود من البكرة والأصيل إعمار أجزاء النهار بالذكر والتسبيح بقدر المكنة لأن ذكر طرفي الشيء يكون كناية عن استيعابه كقول طرفة:

لكالطول المرخى وثنياه باليد ومنه قولهم: المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلها، والرأس والعقب كناية عن الجسد كله، والظهر والبطن كذلك.

وقدم البكرة على الأصيل لأن البكرة أسبق من الأصيل لا محالة. وليس الأصيل جديدا بالتقديم في الذكر كما قدم لفظ تمسون في قوله في سورة الروم فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون [الروم: ١٧] لأن كلمة المساء تشمل أول الليل فقدم لفظ تمسون هنالك رعيا لا عتبار الليل أسبق في حساب أيام الشهر عند العرب وفي الإسلام وليست كذلك كلمة الأصيل.". (١)

١١٧٩. ٣٨٨-"والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة. وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبيء صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل.

وقدمت البشارة على النذارة لأن النبيء صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

والنذير: مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبيء عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٢

الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.

وانتصب شاهدا على الحال من كاف الخطاب وهي حال مقدرة، أي أرسلناك مقدرا أن تكون شاهدا على الرسل والأمم في الدنيا والآخرة. ومثل سيبويه للحال المقدرة بقوله: مررت برجل معه صقر صائدا به.

وجيء في جانب النذارة بصيغة فعيل دون اسم الفاعل لإرادة الاسم فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم. ومن الأمثال: أنا النذير العريان، أي الآتي بخبر حلول العدو بديار قوم. والمراد بالعريان أنه ينزع عنه قميصه ليشير به من مكان مرتفع فيراه من لا يسمع نداءه، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم كما قال: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ: ٤٦] **للإيماء** إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بمنذر.

وفي الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه: وأنذر عشيرتك الأقربين [الشعراء: ٢١٤] خرج حتى صعد الصفا، فنادى: يا

صباحاه (كلمة ينادي بها من يطلب النجدة) فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»

. فهذا يشير إلى تمثيل الحالة التي استخلصها

بقوله: (فإني نذير". (١)

١١٨٠. ٣٨٩-"مما يعزز الأخوة الإسلامية المرغب فيها. ونقل قريب من هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد واختاره أبو علي الجبائي وهو الأرجح لأن قرة العين لا تحصل على مضض ولأن الحط في الحق يوجب الكدر. ويؤيده أن النبيء صلى الله عليه وسلم لم يأخذ إلا به ولم يحفظ عنه أنه آثر إحدى أزواجه

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٢٢

بليلة سوى ليلة سودة التي وهبتها لعائشة، استمر ذلك إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وقد جاء في الصحيح أنه كان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به كل يوم على بيوت أزواجه، وكان مبدأ شكواه في بيت ميمونة إلى أن جاءت نوبة ليلة عائشة فأذن له أزواجه أن يمرض في بيتها رفقا به.

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حين قسم لهن «اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»

، ولعل ذلك كان قبل نزول التفويض إليه بهذه الآية.

وفي قوله: ويرضين بما آتيتهن كلهن إشارة إلى أن المراد الرضى الذي يتساوين فيه وإلا لم يكن للتأكيد ب كلهن نكتة زائدة، فالجمع بين ضميرهن في قوله: كلهن يومىء إلى رضى متساو بينهن.

وضميرا أعينهن ولا يحزن عائدان إلى (من) في قوله: ممن عزلت. وذكر ولا يحزن بعد ذكر أن تقر أعينهن مع ما في قرة العين من تضمن معنى انتفاء الحزن **بالإيماء** إلى ترغيب النبيء صلى الله عليه وسلم في ابتغاء بقاء جميع نسائه في مواصلته لأن في عزل بعضهن حزنا للمعزولات وهو بالمؤمنين رؤوف لا يحب أن يحزن أحدا.

وكلهن توكيد لضمير يرضين أو يتنازعه الضمائر كلها.

والإيتاء: الإعطاء وغلب على إعطاء الخير إذا لم يذكر مفعوله الثاني، أو ذكر غير معين كقوله: فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين [الأعراف: ١٤٤] ، فإذا ذكر مفعوله الثاني فالغالب أنه ليس بسوء. ولم أره يستعمل في إعطاء السوء فلا تقول: آتاه سجنا وآتاه ضربا، إلا في مقام التهكم أو المشاكلة، فما هنا من القبيل الأول، ولهذا يبعد تفسيره بأنهن يرضين بما أذن الله فيه لرسوله من عزلهن وإرجائهن. وتوجيهه في «الكشاف» تكلف.

والتذييل بقوله: والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما كلام جامع لمعنى الترغيب والتحذير ففيه ترغيب النبيء صلى الله عليه وسلم في الإحسان بأزواجه وإمائه". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٧٦

١١٨١. ٣٩٠-"والمتعرضات للتزوج به، وتحذير لهن من إضمار عدم الرضى بما يلقينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي إجراء صفتي عليما حليما على اسم الجلالة **إيماء** إلى ذلك، فمناسبة صفة العلم لقوله: والله يعلم ما في قلوبكم ظاهرة، ومناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم في أليق الأحوال بصفة الحليم لأن همه صلى الله عليه وسلم التخلق بخلق الله

تعالى وقد أجرى الله عليه صفات من صفاته مثل رؤوف رحيم ومثل شاهد. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

ولهذا لم يأخذ رسول الله بهذا التخيير في النساء اللاتي كن في معاشرته، وأخذ به في الواهبات أنفسهن مع الإحسان إليهن بالقول والبذل فإن الله كتب الإحسان على كل شيء.

وأخذ به في ترك التزوج من بنات عمه وعماته وخاله وخالاته لأن ذلك لا حرج فيه عليهن.

[٥٢]

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٢]

لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا (٥٢)

موقع هذه الآية في المصحف عقب التي قبلها يدل على أنها كذلك نزلت وأن الكلام متصل بعضه ببعض ومنتظم هذا النظم البديع، على أن حذف ما أضيفت إليه بعد ينادي على أنه حذف معلوم دل عليه الكلام السابق فتأخرها في النزول عن الآيات التي قبلها وكونها متصلة بها وتتمة لها مما لا ينبغي أن يتردد فيه، فتقدير المضاف إليه المحذوف لا يخلو: إما أن يؤخذ من ذكر الأصناف قبله، أي من بعد الأصناف المذكورة بقوله: إنا أحللنا لك أزواجك [الأحزاب: ٥٠] الخ. وإما أن يكون مما يقتضيه الكلام من الزمان، أي من بعد هذا الوقت، والأول الراجح.

وبعد يجوز أن يكون بمعنى (غير) كقوله تعالى: فمن يهديه من بعد الله [الجاثية: ٢٣] وهو

استعمال كثير في اللغة، وعليه فلا ناسخ لهذه الآية من القرآن ولا هي ناسخة لغيرها، ومما يؤيد هذا المعنى التعبير بلفظ الأزواج في قوله: ولا أن تبدل". (١)

١١٨٢. ٣٩١-"[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٦]

إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦)
أعقبت أحكام معاملة أزواج النبيء عليه الصلاة والسلام بالثناء عليه وتشريف مقامه إيماء إلى أن تلك الأحكام جارية على مناسبة عظمة مقام النبيء عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى، وإلى أن لأزواجه من ذلك التشريف حظا عظيما. ولذلك كانت صيغة الصلاة عليه التي علمها للمسلمين مشتملة على ذكر أزواجه كما سيأتي قريبا، وليجعل ذلك تمهيدا لأمر المؤمنين بتكرير ذكر النبيء صلى الله عليه وسلم بالثناء والدعاء والتعظيم، وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالا من صلاة أشرف المخلوقات على الرسول لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك، والتأكيد للاهتمام. ومجيء الجملة الاسمية لتقوية الخبر، وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الحكم، والصلاة من الله والملائكة تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: هو الذي يصلي عليكم وملائكته في هذه السورة [٤٣] . وهذه صلاة خاصة هي أرفع صلاة مما شمله قوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته لأن عظمة مقام النبيء يقتضي عظمة الصلاة عليه.
وجملة يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه هي المقصودة وما قبلها توطئة لها وتمهيد لأن الله لما حذر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربهم فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، فجملة يا أيها الذين آمنوا بمنزلة النتيجة الواقعة بعد التمهيد. وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيرا إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٧٧

والأمر بالصلاة عليه معناه: إيجاد الصلاة، وهي الدعاء، فالأمر يؤول إلى إيجاد أقوال فيها دعاء وهو مجمل في الكيفية.

والصلاة: ذكر بخير، وأقوال تجلب الخير، فلا جرم كان الدعاء هو أشهر". (١)

١١٨٣. ٣٩٢-"الذين آذوا رسولهم، وجه إليهم بعد ذلك نداء بأن يتسموا بالتقوى وسداد القول لأن فائدة النهي عن المناكر التلبس بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبث الفضائل.

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به واستجلاب الإصغاء إليه. ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من **الإيماء** إلى أن الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به. ففيه تعريض بأن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبيء صلى الله عليه وسلم قصدا ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منافقون، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شعب التقوى كما هو من شعب الإيمان.

والقول: الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه.

والسديد: الذي يوافق السداد. والسداد: الصواب والحق ومنه تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها، فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل ابتداء السلام وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه: إني أحبك.

والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر.

وفي الحديث: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»

،

وفي الحديث الآخر: «رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم»

،

وفي الحديث الآخر: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» .

ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء. فقراءة القرآن على الناس من القول

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٩٧

السديد، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد.

وفي الحديث: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها»

وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأيمة الفقه. ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح. ومن القول السديد الآذان والإقامة قال تعالى: إليه يصعد الكلم الطيب في سورة فاطر [١٠] . فبالقول السديد

تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيء تشيع الضلالات والتمويهات". (١)

١١٨٤. ٣٩٣-"منها، وهو يستلزم التمكن من تصريفها، ففي التتميم بهذين الوصفين **إيماء** إلى أن المقصود من الجملة قبله استحماق الذين أقبلوا في شؤونهم على آلهة باطلة.

[٢]

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٢]

يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (٢)

بيان لجملة وهو الحكيم الخبير [سبأ: ١] لأن العلم بما ذكر هنا هو العلم بذواتها وخصائصها وأسبابها وعللها وذلك عين الحكمة والخبرة، فإن العلم يقتضي العمل، وإتقان العمل بالعلم.

وخص بالذكر في متعلق العلم ما يلج وما يخرج من الأرض دون ما يدب على سطحها، وما ينزل وما يعرج إلى السماء دون ما يجول في أرجائها لأن ما ذكر لا يخلو عن أن يكون دابا وجائلا فيهما، والذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم ما يدب عليها وما يزحف فوقها، والذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج يعلم ما في الأجواء والفضاء من الكائنات المرئية وغيرها ويعلم سير الكواكب ونظامها.

والولوج: الدخول والسلوك مثل ولوج ماء المطر في أعماق الأرض وولوج الزريعة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢٢

والذي يخرج من الأرض، النبات والمعادن والدواب المستكنة في بيوتها ومغاراتها، وشمل ذلك من يقبرون في الأرض وأحوالهم. والذي ينزل من السماء: المطر والثلج والرياح، والذي يعرج فيها ما يتصاعد في طبقات الجو من الرطوبات البحرية ومن العواصف الترابية، ومن العناصر التي تتبخر في الطبقات الجوية فوق الأرض، وما يسبح في الفضاء وما يطير في الهواء، وعروج الأرواح عند مفارقة الأجساد قال تعالى: تعرج الملائكة والروح إليه [المعارج: ٤] .

واعلم أن كلمتي يلج ويخرج أوضح ما يعبر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض، وأن كلمتي ينزل ويعرج أوضح ما يعبر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء، من كلمات اللغة التي تدل على المعاني الموضوعة للدلالة عليها دلالة مطابقية على". (١)

١١٨٥. ٣٩٤-"والأظهر أن المراد من الذين أوتوا العلم من آمنوا بالنبيء صلى الله عليه وسلم من أهل مكة لأنهم أوتوا القرآن. وفيه علم عظيم هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه، فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فظا غليظا حتى إذا أسلم رق قلبه وامتلأ صدره بالحكمة وانشرح لشرائع الإسلام واهتدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. وأول مثال لهؤلاء وأشهره وأفضله هو عمر بن الخطاب للبون البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام. وهذا ما أعرب عنه قول أبي خراش الهذلي خالطا فيه الجد بالهزل:

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

فإنهم كانوا إذا لقوا النبيء صلى الله عليه وسلم أشرقت عليهم أنوار النبوءة فملأتهم حكمة وتقوى.

وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: «لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها»

. وبفضل ذلك ساسوا الأمة وافتتحوا الممالك وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذميهم ومعاهدهم وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة. وعلى هذا المحمل حمل الذين أوتوا العلم في

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٢٢

سورة الحج [٥٤] ويؤيده قوله تعالى: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في سورة الروم [٥٦]
.

وجملة ويهدي إلى صراط العزيز الحميد في موضع المعطوف على المفعول الثاني ل يرى. والمعنى: يرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هاديا إلى العزيز الحميد، وهو من عطف الفعل على الاسم الذي فيه مادة الاشتقاق وهو الحق فإن المصدر في قوة الفعل لأنه إما مشتق أو هو أصل الاشتقاق. والعدول عن الوصف إلى صيغة المضارع لإشعارها بتجدد الهداية وتكررها. وإيثار وصفي العزيز الحميد هنا دون بقية الأسماء الحسنى **إيماء** إلى أن المؤمنين حين يؤمنون بأن القرآن هو الحق والهداية استشعروا من الإيمان أنه صراط يبلغ به إلى العزة قال تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [المنافقون: ٨] ، ويبلغ إلى الحمد، أي الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.". (١)

١١٨٦. ٣٩٥-"وقال الزمخشري عند قوله: إن في ذلك لآية لكل عبد منيب [سبأ: ٩] لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به اهـ. فقال الطيبي: فيه إشارة إلى بيان نظم هذه الآية بقوله: ولقد آتينا داود منا فضلا لأنه كالتخلص منه إليه، لأنه من المنيبين المتفكرين في آيات الله، قال تعالى:
واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب [ص: ١٧] هـ. يريد الطيبي أن داود من أشهر المثل في المنيبين بما اشتهر به من انقلاب حاله بعد أن كان راعيا غليظا إلى أن اصطفاه الله نبيئا وملكا صالحا مصلحا لأمة عظيمة، فهو مثل المنيبين كما قال تعالى: واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب وقال: فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب [ص: ٢٤] ، فلإنابته وتأويبه أنعم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وباركه وبارك نسله. وفي ذكر فضله عبرة للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضا بضد ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله، وفي هذا
إيماء إلى بشارة النبيء صلى الله عليه وسلم بأنه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزة عظيمة وتأسيس ملك أمة عظيمة كما آلت حال داود، وذلك **الإيماء** أوضح

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٦/٢٢

في قوله تعالى:

اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب الآية في سورة ص [١٧] .

وسمى الطيبي هذا الانتقال إلى ذكر داود وسليمان تخلصا، والوجه أن يسميه استطرادا أو اعتراضا وإن كان طويلا، فإن الرجوع إلى ذكر أحوال المشركين بعد ما ذكر من قصة داود وسليمان وسبأ يرشد إلى أن إبطال أحوال أهل الشرك هي المقصود من هذه السورة كما سننبه عليه عند قوله تعالى: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه [سبأ: ٢٠] .

وتقديم التعريف بداود عليه السلام عند قوله تعالى: وآتينا داود زبورا في سورة النساء [١٦٣] وعند قوله: ومن ذريته داود في سورة الأنعام [٨٤] .

و (من) في قوله: منا ابتدائية متعلقة ب آتينا، أي من لدنا ومن عندنا، وذلك تشريف للفضل الذي أوتيه داود، كقوله تعالى: رزقا من لدنا [القصص: ٥٧] . وتنكير فضلا لتعظيمه وهو فضل النبوءة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمة، وفضل القضاء بالعدل، وفضل الشجاعة في الحرب، وفضل سعة النعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع". (١)

١١٨٧. ٣٩٦-"وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف صدق بتشديد الدال بمعنى حقق ظنه عليهم حين انخدعوا لوسوسته فهو لما وسوس لهم ظن أنهم يطيعونه فجد في الوسوسة حتى استهواهم فحقق ظنه عليهم.

وفي (على) **إيماء** إلى أن عمل إبليس كان من جنس التغلب والاستعلاء عليهم.

وقوله: فاتبعوه تفريع وتعقيب على فعل صدق عليهم إبليس ظنه أي تحقق ظنه حين انفعلوا لفعل وسوسته فبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران.

وإلا فريقا استثناء من ضمير الرفع في فاتبعوه وهو استثناء متصل إن كان ضمير «اتبعوه» عائدا على المشركين وأما إن كان عائدا على أهل سبإ فيحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين وإلا فهو استثناء منقطع، أي لم يعصه في ذلك إلا فريق من المؤمنين وهم الذين آمنوا من أهل مكة، أو الذين آمنوا من أهل سبإ. فلعل فيهم طائفة مؤمنين ممن نجوا قبل إرسال سيل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٥٥

العرم.

والفريق: الطائفة مطلقا، واستثناؤها من ضمير الجماعة يؤذن بأنهم قليل بالنسبة للبقية، وإلا فإن الفريق يصدق بالجماعة الكثيرة كما في قوله تعالى: فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة [الأعراف: ٣٠] .

والتعريف في المؤمنين للاستغراق ومن تبعيضية، أي إلا فريقا هم بعض جماعات المؤمنين في الأزمان والبلدان.

وقوله: وما كان له عليهم من سلطان أي ما كان للشيطان من سلطان على الذين اتبعوه.

وفعل كان في النفي مع من التي تفيد الاستغراق في النفي يفيد انتفاء السلطان، أي الملك والتصريف للشيطان، أي ليست له قدرة ذاتية هو مستقل بها يتصرف بها في العالم كيف يشاء لأن تلك القدرة خاصة بالله تعالى.

والاستثناء في قوله: إلا لنعلم استثناء من علل. فيفيد أن تأثير وسوسته فيهم كان بتمكين من الله، أي لكن جعلنا الشيطان سببا يتوجه إلى عقولهم وإرادتهم فتخامرها وسوسته فيتأثر منها فريق وينجو منها فريق بما أودع الله في هؤلاء". (١)

١١٨٨. ٣٩٧-"وهذا احتجاج بالدليل النظري لأن الاعتراف بأن الله هو الرزاق يستلزم انفراده بإلهيته إذ لا يجوز أن ينفرد ببعض صفات الإلهية ويشارك في بعض آخر فإن الإلهية حقيقة لا تقبل التجزئة والتبعيض.

وأعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول فإن أصل الأمر بالقول في مقام التصدي للتبليغ دال على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمر زيادة في الاهتمام.

ومن استفهام للتنبيه على الخطأ ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله:

قل الله لتحقق أنهم لا ينكرون ذلك الجواب كما في قوله تعالى: قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار إلى قوله: فسيقولون الله في سورة يونس [٣١] . وتقدم نظير صدر هذه الآية في سورة الرعد.

وعطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفية توقع الخصم في شرك المغلوبية وذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٣/٢٢

بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر بين موافقة الحق وعدمها، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدوانهما. ولذلك جيء بحرف أو المفيد للترديد المنتزع من

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

ومن لطائفه هنا أن اشتمل على **إيماء** إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللف. فإنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين، ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى والآخرين موجهون إلى الضلال المبين، لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا أيضا من التعريض وهو أوقع من التصريح لا سيما في استنزال طائر الخصم.

وفيه أيضا تجاهل العارف فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات.". (١)

١١٨٩. ٣٩٨-"[سورة سبإ (٣٤) : آية ٢٦]

قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (٢٦)

إعادة فعل قل لما عرفت في الجملة التي قبلها من زيادة الاهتمام بهذه المحاجات لتكون كل مجادلة مستقلة غير معطوفة فتكون هذه الجملة استئنافا ابتدائيا.

وأيضا فهي بمنزلة البيان للتي قبلها لأن نفي سؤال كل فريق عن عمل غيره يقتضي أن هنالك سؤالا عن عمل نفسه فبين بأن الذي يسأل الناس عن أعمالهم هو الله تعالى، وأنه الذي يفصل بين الفريقين بالحق حين يجمعهم يوم القيامة الذي هم منكروه فما ظنك بحالهم يوم تحقق ما أنكروه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٩٢

وهنا تدرج الجدل من الإيماء إلى الإشارة القريبة من التصريح لما في إثبات يوم الحساب والسؤال من المصارحة بأنهم الضالون. ويسمى هذا التدرج عند أهل الجدل بالترقي.

والفتح: الحكم والفصل بالحق، كقوله تعالى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين [الأعراف: ٨٩] وهو مأخوذ من فتح الكوة لإظهار ما خلفها.

وجملة وهو الفتاح العليم تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته وإحاطة العلم، وبذلك كان تذييلا لجملة يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق المتضمنة حكما جزئيا فذيل بوصف كلي.

وإنما أتبع الفتاح ب العليم للدلالة على أن حكمه عدل محض لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب.". (١)

١١٩٠. ٣٩٩-"[سورة سبإ (٣٤) : آية ٢٧]

قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم (٢٧)

أعيد الأمر بالقول رابع مرة لمزيد الاهتمام وهو رجوع إلى مهيع الاحتجاج على

بطلان الشرك فهو كالنتيجة لجملة قل من يرزقكم من السماوات والأرض [سبأ: ٢٤] .

والأمر في قوله: أروني مستعمل في التعجيز، وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله: قل من يرزقكم إلى إبطال ذلك بدليل البداهة.

وقد سلك من طرق الجدل طريق الاستفسار، والمصطلح عليه عند أهل الجدل أن يكون الاستفسار مقدما على طرائق المناظرة وإنما أخر هنا لأنه كان مفضيا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافيرها فأريد تأخيره لئلا يفوت افتضاح الخصم بالأدلة السابقة تبسيطا لبساط المجادلة حتى يكون كل دليل مناديا على غلط الخصوم وباطلهم. وافتضاح الخطأ من مقاصد المناظر الذي قامت حجته.

والإراءة هنا من الرؤية البصرية فيتعدى إلى مفعولين: أحدهما بالأصالة، والثاني بهمزة التعدية.

والمقصود: أروني شخوصهم لنبصر هل عليها ما يناسب صفة الإلهية، أي أن كل من يشاهد

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٥/٢٢

الأصنام بادىء مرة يتبين له أنها خلية عن صفات الإلهية إذ يرى حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه لأن انتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها كقول البحتري:

أن يرى مبصر ويسمع واع والتعبير عن المرئي بطريق الموصولية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إياهم شركاء لله تعالى في الربوبية على نحو قول عبدة بن الطيب:

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

وفي جعل الصلة ألحقتم **إيماء** إلى أن تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفا ذاتيا حقا ولكن المشركين ألحقوها بالله تعالى، فتلك خلعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء.

وتلك حالة تخالف صفة الإلهية لأن الإلهية صفة ذاتية قديمة، وهذا الإلحاق اخترعه لهم عمرو بن لحي ولم يكن عند العرب من قبل، وضمير به عائد إلى اسم الجلالة من جملة قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله [سبأ: ٢٤] .

وانتصب شركاء على الحال من اسم الموصول. والمعنى: شركاء له.". (١)

١١٩١. ٤٠٠-"في الزمان وإضافته إلى اليوم بيانية لأن الميعاد هو اليوم نفسه.

وجملة لا تستأخرون عنه ساعة إما صفة ل ميعاد وإما حال من ضمير لكم.

والاستئخار والاستقدام مبالغة في التأخر والتقدم مثل: استحباب، فالسين والتاء للمبالغة.

وقدم الاستئخار على الاستقدام **إيماء** إلى أنه ميعاد بأس وعذاب عليهم من شأنه أن يتمنوا تأخره، ويكون ولا تستقدمون تتميما لتحققه عند وقته المعين في علم الله.

والساعة: حصة من الزمن، وتنكيرها للتقليل بمعونة المقام.

[٣١]

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣١]

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٩٦

مؤمنين (٣١)

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه.

كان المشركون لما فاجأتهم دعوة الإسلام وأخذ أمره في الظهور قد سلكوا طرائق مختلفة لقمع تلك الدعوة، وقد كانوا قبل ظهور الإسلام لاهين عن الخوض فيما سلف من الشرائع فلما قرعت أسماعهم دعوة الإسلام اضطربت أقوالهم: فقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء [الأنعام: ٩١] ، وقالوا غير ذلك، فمن ذلك أنهم لجأوا إلى أهل الكتاب وهم على مقربة منهم بالمدينة وخيبر وقريظة ليتلقوا منهم ملقنات يفحمون بها النبيء صلى الله عليه وسلم فكان أهل الكتب يملون عليهم كلما لقوهم ما عساهم أن يموهوا على الناس عدم صحة الرسالة المحمدية، فمرة يقولون: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى [القصص: ٤٨] ، ومرة يقولون: لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه [الإسراء: ٩٣] ، وكثيرا ما كانوا يحسبون مساواته للناس في الأحوال البشرية منافية لكونه رسولا إليهم مختارا من عند الله فقالوا:

مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق [الفرقان: ١٧] وإلى قوله: هل كنت إلا بشرا رسولا [الإسراء: ٩٣] ، وهم لا يحاجون بذلك عن اعتقاد بصحة رسالة موسى عليه السلام ولكنهم يجعلونه وسيلة لإبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فلما دمغتهم حجج القرآن العديدة الناطقة بأن محمدا ما هو بدع من الرسل وأنه جاء بمثل ما جاءت به الرسل فحاجهم بقوله: قل فأتوا بكتاب من". (١)

١١٩٢. ٤٠١-"عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين [القصص: ٤٩] الآية.

فلما لما يجدوا سبيلا للمكابرة في مساواة حاله بحال الرسل الأولين وأووا إلى مأوى الشرك الصريح فلجأوا إلى إنكار رسالة الرسل كلهم حتى لا تنهض عليهم الحجة بمساواة أحوال الرسول وأحوال الرسل الأقدمين فكان من مستقر أمرهم أن قالوا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه.

وقد كان القرآن حاجهم بأنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل كما في سورة القصص [٤٨] ، أي كفر أمثالهم من عبدة الأصنام وهم قبط مصر بما أوتي موسى وهو من الاستدلال بقياس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/٢٢

المساواة والتمثيل.
فهذا وجه قولهم: ولا بالذي بين يديه لأنهم لم يكونوا مدعوين لا يؤمنوا بكتاب آخر غير القرآن ولكن جرى ذلك في مجاري الجدال والمناظرة فعدم إيمانهم بالقرآن مشهور معلوم وإنما أرادوا قطع وسائل الإلزام الجدلي.
وهذه الآية انتقال إلى ذكر طعن المشركين في القرآن وهي معطوفة على جملة ويقولون متى هذا الوعد [سبأ: ٢٩] .
والاقتصار على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يبطلها **إيماء** إلى أن بطلانها باد لكل من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع وهذا بهتان واضح.
وحكاية مقالتهم هذه بصيغة الماضي تؤذن بأنهم أقلعوا عنها.
وجيء بحرف لن لتأكيد نفي إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد تأييسا للنبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين من الطمع في إيمانهم به.
واسم الإشارة مشار به إلى حاضر في الأذهان لأن الخوض في القرآن شائع بين الناس من مؤيد ومنكر فكأنه مشاهد. وليس في اسم الإشارة معنى التحقير لأنهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنقصان، ألا ترى إلى قول الوليد بن المغيرة: «إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق» ، وقول عبد الله بن أبي بعد ذلك: «لا أحسن مما تقول أيها المرء» ،
وأن عتبة بن ربيعة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال له: «هل ترى بما أقول بأسا؟» فقال: «لا والدماء»
. وكيف وقد تحداهم الإتيان". (١)

١١٩٣. ٤٠٢-"تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا ... علي حراصا لو يسرون مقتلي
وأما ابن عطية فأنكره، وقال: «ولم يثبت قط في اللغة أن (أسر) من الأضداد» .
قلت: وفيه نظر. وقد عد هذه الكلمة في الأضداد كثير من أهل اللغة وأنشد أبو عبيدة قول الفرزدق:
ولما رأى الحجاج جرد سيفه ... أسر الحروري الذي كان أضمرا

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٠٢

وفي كتاب «الأضداد» لأبي الطيب الحلبي قال أبو حاتم: ولا أثق بقول أبي عبيدة في القرآن ولا بقول الفرزدق والفرزدق كثير التخليط في شعره. وذكر أبو الطيب عن التوزي أن غير أبي عبيدة أنشد بيت الفرزدق والذي جر على تفسير «أسروا» بمعنى أظهروا هنا هو ما يقتضي إعلانهم بالندامة من قولهم: لولا أنتم لكنا مؤمنين [سبأ: ٣١] . وفي
آيات أخرى مثل قوله تعالى: ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا [الفرقان: ٢٧] الآية.
والندامة: التحسر من عمل فات تداركه. وقد تقدمت عند قوله تعالى: فأصبح من النادمين في سورة العقود [[المائدة]] [٣١] .
وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون [٣٣] .
عطف على جملة إذ الظالمون موقوفون [سبأ: ٣١] . والتقدير: ولو ترى إذ جعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا. وجواب (لو) المحذوف جواب للشرطين.
والأغلال: جمع غل بضم الغين، وهو دائرة من حديد أو جلد على سعة الرقبة توضع في رقبة المأسور ونحوه ويشد إليها بسلسلة أو سير من جلد أو حبل، وتقدم في أول سورة الرعد. وجعل الأغلال في الأعناق شعار على أنهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه. وتقدم عند قوله تعالى: وأولئك الأغلال في أعناقهم في الرعد [٥] . والذين كفروا هم هؤلاء الذين جرت عليهم الضمائر المتقدمة فالإتيان بالاسم الظاهر وكونه موصولا **للإيماء** إلى أن ذلك جزاء الكفر، ولذلك عقب بجملة هل يجزون إلا ما كانوا يعملون مستأنفة استئنافا بيانيا،". (١)

١١٩٤. ٤٠٣-"[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٩]
قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٣٩)
أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى ردا على مزاعم المشركين بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات انتفاع بالمال للتقرب إلى

(١) التحرير والتنوير ٢١٠/٢٢

رضى الله إن استعمل في طلب مرضاة الله تفضيلا لما أشير إليه إجمالا من أن ذلك قد يكون فيه قربة إلى الله بقوله: إلا من آمن وعمل صالحا [سبأ: ٣٧] كما تقدم.

وقوله: قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له تقدم نظيره قريبا تأكيدا لذلك وليبنى عليه قوله: وما أنفقتم من شيء الآية. فالذي تقدم رد على المشركين، والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين، والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة. وهذا من

وجوه الإعجاز أن يكون الكلام الواحد صالحا لغرضين وأن يتوجه إلى طائفتين.

ولما كان هذا الثاني موجها إلى المؤمنين أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله: من عباده أي المؤمنين، وضمير له عائد إلى من، أي ويقدر لمن يشاء من عباده.

ومفعول يقدر محذوف دل عليه مفعول يبسط.

وكان ما تقدم حديثا عن بسط الرزق لغير المؤمنين فلم ينعموا بوصف من عباده لأن في الإضافة تشريفا للمؤمنين، وفي هذا امتنان على الذين يبسط عليهم الرزق بأن جمع الله لهم فضل الإيمان وفضل سعة الرزق، وتسلية للذين قدر عليهم رزقهم بأنهم نالوا فضل الإيمان وفضل الصبر على ضيق الحياة.

وفي تعليق له ب يقدر **إيماء** إلى أن ذلك القدر لا يخلو من فائدة للمقدور عليه رزقه، وهي فائدة الثواب على الرضى من قسم له والسلامة من الحساب عليه يوم القيامة.

وفي الحديث «ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كفر بها عنه حتى الشوكة يشاكها»

. ولولا هذا **الإيماء** لقيل: ويقدر عليه، كما قال: ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله [الطلاق: ٧] . وأما حال الكافرين فإنهم ينعم على بعضهم برزق يحاسبون عليه أشد". (١)

١١٩٥. ٤٠٤-"مجادلتهم لأن الواقع ينافي ذلك فقد نزل القرآن بعد ذلك طويلا مشتملا على دعوتهم وتحذيرهم وإنذارهم.

وصيغة القصر التي في قوله: فإنما أضل على نفسي لقصر الضلال المفروض، أي على نفسي لا عليكم لأنهم كانوا يحاولون أن يقلع عما دعاهم إليه ولم يقتصروا على صدودهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/٢٢

وتعدية أضل بحرف على تتضمن استعارة مكنية إذ شبه الضلال بجريرة عليه فعداه بالحرف الشائع استعماله في الأشياء المكره عليها غير الملائمة، عكس اللام، وذكر حرف الاستعلاء تخييل للمكنية ولا يقال: ضمن أضل معنى أجني، لأن ضللت الذي هو فعل الشرط المفروض غير مضمن معنى فعل آخر.

وأما قوله: وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي فكالاحتراس من أن يكون حاله مقتصرا على فرض كونه مظنة الضلال مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأن ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه لأنه ما كان يصل لذلك وهو مغمور بأمة جاهلية لولا إرشاد الله إياه كما قال تعالى: وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان [الشورى: ٥٢] .

واختير في جانب الهدى فعل اهتديت الذي هو مطاوع (هدى) لما فيه من الإيماء إلى أن له هاديا، وبينه بقوله: فبما يوحي إلي ربي ليحصل شكره لله إجمالا ثم تفصيلا، وفي قوله: فبما يوحي إلي ربي إيماء إلى أنه على هدى لأنه أثبت أن وحيا من الله وارد إليه.

وقد استفيد أن الضلال المفروض إن حصل فسببه من قبل نفسه، من إسناد فعل أضل إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم، وهو أغرق في التعلق به، وليس الغرض من ذلك الكلام بيان التسبب ولكن عدم مجاوزة الضلال المفروض إليهم إذ هم يتبعوه فيما تلبس به، ولم يرتكب مثل هذا في جانب فرض اهتدائه لأن اهتداءه كان هو الحاصل في الواقع وكان شاملا له ولغيره من الذين اتبعوه لأن اهتداءه ملابس لدعوته الناس إلى اتباعه، ولأن الغرض من الشرطين مختلف وإن كان يعلم من المقابلة أن سبب الضلال". (١)

١١٩٦. ٤٠٥-"وأما المؤمنون العصاة فليسوا من حزبه لأنهم يعلمون كيده ولكنهم يتبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون منه. وقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٤٠

هذه ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم»

. وذكر والذين آمنوا وعملوا الصالحات تتميم بأن الذين لم يكونوا من حزبه قد فازوا بالخيرات. وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطوت ما بين ذينك من المراتب ليعلم أن ما بين ذلك ينالهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين على عادة القرآن في وضع المسلم بين الخوف والرجاء، والأمل والرهبة.

[٨]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٨]

أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون (٨)

لما جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإنساني، وتقسيم الناس إلى فريقين: فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغتروا بغروره ولم يناصبوه العداء، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنبوا السير في مسالكه، ثم تقسيمهم إلى كافر معذب ومؤمن صالح منعم عليه، أعقب ذلك **بالإيماء** إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير، وبتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم على من لم يخلصوا من حبائل الشيطان من أمة دعوته بأسلوب الملاطفة في التسلية ففرع على جميع ما تقدم قوله: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا إلى قوله: بما يصنعون فابتداؤه بفاء التفريع ربط له بما تقدم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم، فالتفريع على قوله: إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير [فاطر: ٦] ، ثم بإبراز الكلام المفرع في صورة الاستفهام الإنكاري، واجتلاب الموصول الذي تومىء صلته إلى علة الخبر المقصود، فأشير إلى أن وقوعه في

هذه الحالة ناشىء من تزيين الشيطان له سوء عمله، فالمزين للأعمال السيئة هو الشيطان قال تعالى: وزين لهم الشيطان أعمالهم [النمل: ٢٤] فرأوا أعمالهم". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٦٣

١١٩٧. ٤٠٦-"و (الرفع) : حقيقته نقل الجسم من مقره إلى أعلى منه وهو هنا كناية للقبول عند عظيم، لأن العظيم تتخيله التصورات رفيع المكان. فيكون كل من (يصعد) و (يرفع) تبعتين قرينتي مكنية بأن شبه جانب القبول عند الله تعالى بمكان مرتفع لا يصله إلا ما يصعد إليه.

فقوله: العمل مبتدأ وخبره يرفعه، وفي بناء المسند الفعلي على المسند إليه ما يفيد تخصيص المسند إليه بالمسند، فإذا انضم إليه سياق جملته عقب سياق جملة القصر المشعر بسريان حكم القصر إليه بالقرينة لاتحاد المقام إذ لا يتوهم أن يقصر صعود الكلم الطيب على الجانب الإلهي ثم يجعل لغيره شركة معه في رفع العمل الصالح، تعين معنى التخصيص، فصار المعنى: الله الذي يقبل من المؤمنين أقوالهم وأعمالهم الصالحة.

وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة يرفعه ولم يعطف على الكلم الطيب في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:

أولاهما: **الإيماء** إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب (عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة) فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا تلقاها الرحمان بيمينه، وكلتا يديه يمين، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل الجبل»

. وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنما يحسن أن يجعل متعلقا لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع.". (١)

١١٩٨. ٤٠٧-"والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور.

هذا فريق من الذين يريدون العزة من المشركين وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك [الأنفال: ٣٠] الآية قاله أبو العالية فعطفهم

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٧٣

على من كان يريد العزة تخصيص لهم بالذكر لما اختصوا به من تدبير المكر. وهو من عطف الخاص على العام للاهتمام بذكره.

والمكر: تدبير إلحاق الضر بالغير في خفية لئلا يأخذ حذره، وفعله قاصر. وهو يتعلق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة، يقال: مكر بفلان، ويتعلق بوسيلة المكر بباء السببية يقال: مكر بفلان بقتله فانتصاب السيئات هنا على أنه وصف لمصدر المكر نائبا مناب المفعول المطلق المبين لنوع الفعل فكأنه قيل والذين يمكرون المكر السيء.

وكان حق وصف المصدر أن يكون مفردا كقوله تعالى: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله [فاطر: ٤٣] فلما أريد هنا التنبيه على أن أولياء الشيطان لهم أنواع من المكر عدل عن الإفراد إلى الجمع وأتي به جمع مؤنث للدلالة على معنى الفعلات من المكر، فكل واحدة من مكرهم هي سيئة، كما جاء ذلك في لفظ (صالحة) كقول جرير:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

أي صالحات كثيرة، وأنواع مكراتهم هي ما جاء في قوله تعالى: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك [الأنفال: ٣٠] .

والتعريف في السيئات تعريف الجنس. وجيء باسم الموصول للإيماء إلى أن مضمون الصلة علة فيما يرد بعدها من الحكم، أي لهم عذاب شديد جزاء مكرهم. وعبر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدد مكرهم واستمراره وأنه دأبهم وهجيراهم.

ولما توعدهم الله بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أن مكرهم لا يروج ولا ينفق وأن الله سيبطله فلا ينتفعون منه في الدنيا، ويضرون بسببه في الآخرة فقال ومكر أولئك هو يبور.".

(١)

١١٩٩. ٤٠٨-"دعا به في قادش المذكور في الإصحاح التاسع من سفر التثنية، ووصيته في عبر الأردن التي في الإصحاح السابع والعشرين من السفر المذكور، ومثل نشيده الوعظي الذي نطق به وأمر بني إسرائيل بحفظه والترنم به في الإصحاح الثاني والثلاثين منه، ومثل الدعاء الذي بارك به أسباط إسرائيل في عربات مؤاب في آخر حياته في الإصحاح الثالث

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٧٤

والثلاثين منه.

وزبور عيسى أقواله المأثورة في الأناجيل مما لم يكن منسوبا إلى الوحي.

فالضمير في «جاءوا» للرسل وهو على التوزيع، أي جاء مجموعهم بهذه الأصناف من الآيات، ولا يلزم أن يجيء كل فرد منهم بجميعها كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا.

وجواب إن يكذبوك محذوف دلت عليه علته وهي قوله: فقد كذبت رسل من قبلك

[فاطر: ٤] . والتقدير: إن يكذبوك فلا تحزن، ولا تحسبهم مفلتين من العقاب على ذلك إذ قد كذب الأقوام الذين جاءتهم رسل من قبل هؤلاء وقد عاقبناهم على تكذيبهم.

فالفاء في قوله: فقد كذب الذين من قبلهم فاء فصيحة أو تفريع على المحذوف.

وجملة جاءتهم صلة الذين، ومن قبلهم في موضع الحال من اسم الموصول مقدم عليه أو متعلق ب جاءتهم.

وثم عاطفة جملة أخذت على جملة جاءتهم أي ثم أخذتهم، وأظهر الذين كفروا في موضع ضمير الغيبة **للإيماء** إلى أن أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنهم كفروا.

والأخذ مستعار للاستئصال والإفناء شبه إهلاكهم جزاء على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم فتبقى ديارهم بلقعا كأنهم أخذوا منها.

و (كيف) استفهام مستعمل في التعجيب من حالهم وهو مفرع بالفاء على أخذت الذين كفروا، والمعنى: أخذتهم أخذا عجيبا كيف ترون أعجوبته.". (١)

١٢٠٠. ٤٠٩-"صفة غفور [فاطر: ٢٨] ولذلك ختمت هذه الآية بقوله: إنه غفور شكور فصل ذلك الثناء وذكرت آثاره ومنافعه.

فالمراد ب الذين يتلون كتاب الله المؤمنون به لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به وهم المراد بالعلماء.

قال تعالى: بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم [العنكبوت: ٤٩] . وهو أيضا كناية عن إيمانهم لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صدق به وتلقاه باعتناء.

وتضمن هذا أنهم يكتسبون من العلم الشرعي من العقائد والأخلاق والتكاليف، فقد أشعر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٢٩٩

الفعل المضارع بتجدد تلاوتهم فإن نزول القرآن متجدد فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه.
وكتاب الله القرآن وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته إليه من تعظيم شأنه.
وأتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة [٢] الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة فإنها أعظم الأعمال البدنية، ثم أتبعت بعمل عظيم من الأعمال في المال وهي الإنفاق، والمراد بالإنفاق حيثما أطلق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبها وما ورد الإنفاق في السور المكية إلا والمراد به الصدقات المستحبة إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ على أنه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حددت بالنصب والمقادير.
وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه، وامتثال الذي كلفوا به يقتضي أنهم مداومون عليه.
وقوله: مما رزقناهم إدماج للامتنان **وإيماء** إلى أنه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق فهم يعطون منه أهل الحاجة.
ووقع الالتفات من الغيبة من قوله: كتاب الله إلى التكلم في قوله: مما رزقناهم لأنه المناسب للامتنان.". (١)

١٢٠١. ٤١٠-"أي كرمه، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى: كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة [البقرة: ٢٦١] الآية.
وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه، فإن من صفاته الغفور الشكور، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر.
فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما همت به ولم تفعله، وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة، والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل لأن الذي يجازي على عمل المجزي بجزاء وافر يدل

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠٦

جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله.

وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها.

وفي الآية ما يشمل ثواب قراء القرآن، فإنهم يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب والتنور بأنوار كلام الله.

[٣١]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٣١]

والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير (٣١)

والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه.

لما كان المبدأ به من أسباب ثواب المؤمنين هو تلاوتهم كتاب الله أعقب التنويه بهم بالتنويه بالقرآن للتذكير بذلك، ولأن في التذكير بجلال القرآن وشرفه **إيماء** إلى علة استحقاق الذين يتلونه ما استحقوا. وابتدئ التنويه به بأنه وحي من الله إلى رسوله، وناهيك بهذه الصلة تنويها بالكتاب، وهو يتضمن تنويها بشأن الذي أنزل عليه من قوله:

والذي أوحينا إليك، ففي هذا مسرة للنبيء صلى الله عليه وسلم وبشارة له بأنه أفضل الرسل وأن كتابه أفضل الكتب.". (١)

١٢٠٢. ٤١١-"وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه كونه الحق الكامل، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأن يقال: وهو الكتاب الحق.

فالتعريف في الكتاب تعريف العهد.

ومن بيانية لما في الموصول من الإبهام، والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحق. فقدم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٢

الموصول الذي حقه أن يقع صفة للكتاب تقديما للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكن من الذهن فضل تمكن.

فجملة والذي أوحينا إليك من الكتاب معطوفة على جملة إن الذين يتلون كتاب الله [فاطر: ٢٩] فهي مثلها في حكم الاستئناف.

وضمير هو ضمير فصل، وهو تأكيد لما أفاده تعريف المسند من القصر.

والتعريف في الحق تعريف الجنس. وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه، أي قصر جنس الحق على الذي أوحينا إليك، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بحقية ما عداه من الكتب.

فأما الكتب غير الإلهية مثل (الزند فستا) كتاب (زرادشت) ومثل كتب الصابئة فلأن ما فيها من قليل الحق قد غمر بالباطل والأوهام.

وأما الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وما تضمنته كتب الأنبياء كالزبور وكتاب أرميا من الوحي الإلهي، فما شهد القرآن بحقيته فقد دخل في شهادة قوله: مصدقا لما بين يديه، وما جاء نسخه بالقرآن فقد بين النسخ تحديد صلاحيته في القرآن. وذلك أيضا

تصديق لها لأنه يدفع موهم بطلانها عند من يجد خلافها في القرآن وما عسى أن يكون قد نقل على تحريف أو تأويل فقد دخل فيما أخرجه القصر. وقد بين القرآن معظمه وكشف عن مواقعه كقوله: وهو محرم عليكم إخراجهم [البقرة: ٨٥] .

ومعنى «ما بين يديه» ما سبقه لأن السابق يجيء متقدما على المسبوق فكأنه يمشي بين يديه كقوله تعالى: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ: ٤٦] .". (١)

١٢٠٣. ٤١٢-"والمس: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو شدة حر وشدة برد.

واللغوب: الإعياء من جراء عمل أو جري.

وإعادة الفعل المنفي في قوله: ولا يمسنا فيها لغوب لتأكيد انتفاء المس.

[٣٦]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٩/٢٢

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٣٦]

والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور (٣٦)

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقينا بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان.

وفي قوله تعالى في الكفار: ولا يخفف عنهم من عذابها **إيماء** إلى أن نار عقاب المؤمنين خفيفة عن نار المشركين.

فجملة والذين كفروا معطوفة على جملة جنات عدن يدخلونها [فاطر: ٣٣] .

ووقع الإخبار عن نار جهنم بأنها لهم بلام الاستحقاق للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم كقوله تعالى: فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين في سورة البقرة [٢٤] وقوله: واتقوا النار التي أعدت للكافرين في سورة آل عمران

[١٣١] ، فنار عقاب عصاة المؤمنين نار مخالفة أو أنها أعدت للكافرين.

وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم لاقترافهم الأعمال السيئة التي شأنها أن تكون للكافرين.

وقدم المجرور في لهم نار جهنم على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن.

وجملة لا يقضى عليهم بدل اشتمال من جملة لهم نار جهنم، والقضاء:
حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى: فوكزه موسى فقضى عليه [القصص: ١٥] . وهو هنا محتمل". (١)

١٢٠٤. ٤١٣-"وفي هذا إبطال لخلق أهل الجاهلية القائلين في أمثالهم «انصر أخاك ظالما أو

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/٢٢

مظلوما» . وقد ألقى النبيء صلى الله عليه وسلم على أصحابه إبطال ذلك فساق لهم هذا المثل حتى سألوا عنه ثم أصلح معناه مع بقاء لفظه فقال: «إذا كان ظالما تنصره على نفسه فتكفه عن ظلمه» .

[٣٨، ٣٩]

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور (٣٨) هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا (٣٩)

جملة إن الله عالم غيب السماوات والأرض

استئناف واصل بين جملة إن الله بعباده لخبير بصير [فاطر: ٣١] وبين جملة قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض [فاطر: ٤٠] الآية، فتسلسلت معانيه فعاد إلى فذلكة الغرض السالف المنتقل عنه من قوله: وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم إلى قوله: إن الله بعباده لخبير بصير [فاطر: ٢٥- ٣١] ، فكانت جملة: إن الله عالم غيب السماوات والأرض

كالتذييل لجملة إن الله بعباده لخبير بصير.

وفي هذا إيماء إلى أن الله يجازي كل ذي نية على حسب ما أضمره ليزداد النبيء صلى الله عليه وسلم يقينا بأن الله غير عالم بما يكنه المشركون.

وجملة إنه عليم بذات الصدور

مستأنفة هي كالنتيجة لجملة إن الله عالم غيب السماوات والأرض

لأن ما في الصدور من الأمور المغيبة فيلزم من علم الله بغيب السموات والأرض علمه بما في صدور الناس.

و «ذات الصدور» ضمائر الناس ونياتهم، وتقدم عند قوله تعالى: إنه عليم بذات الصدور في سورة الأنفال [٤٣] .

وجيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور

بصيغة المبالغة لأن المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنه". (١)

١٢٠٥. ٤١٤-"يعم الظلم وغيره. وأوثر في سورة النحل بظلمهم لأنها جاءت عقب تشنيع ظلم عظيم من ظلمهم وهو ظلم بناتهم الموءودات وإلا أن هنالك قال: ما ترك عليها [النحل: ٦١] وهنا ما ترك على ظهرها وهو تفنن تبعه المعري في قوله:

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد

والضمير للأرض هنا وهناك في البيت لأنها معلومة من المقام. والظهر: حقيقته متن الدابة الذي يظهر منها، وهو ما يعلو الصلب من الجسد وهو مقابل البطن فأطلق على ظهر الإنسان أيضا وإن كان غير ظاهر لأن الذي يظهر من الإنسان صدره وبطنه. وظهر الأرض مستعار لبسطها الذي يستقر عليه مخلوقات الأرض تشبيها للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية. ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة.

فأما قوله هنا: فإن الله كان بعباده بصيرا، وقد قال هنالك لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون [النحل: ٦١] ، فما هنا **إيماء** إلى الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى.

والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، ولهذا فقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا دليل جواب (إذا) وليس هو جوابها، ولذلك كان حقيقا بقرنه بفاء التسبب، وأما ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنهم إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.

وقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا هو أيضا جواب عن سؤال مقدر أن يقال: ماذا جنت الدواب حتى يستأصلها الله بسبب ما كسب الناس، وكيف يهلك كل من على الأرض وفيهم المؤمنون والصالحون، فأفيد أن الله أعلم بعدله. فأما الدواب فإنها مخلوقة لأجل الإنسان كما قال تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٩] ، فإهلاكها قد يكون إنذارا للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم، وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقا إلى النجاة كما نجى هودا ومن معه، ولعله إن أهلكهم أن يعوض لهم حسن الدار كما

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٢

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ثم يحشرون على نياتهم» .". (١)

١٢٠٦. ٤١٥-"على أهل أقصى المدينة. وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، قال أبو تمام:

كانت هي الوسط المحمي فاتصلت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وأما قوله تعالى في سورة القصص [٢٠] وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن داعيا للإيمان.

وعلى هذا فهذا الرجل غير مذكور في سفر أعمال الرسل وهو مما امتاز القرآن بالإعلام به.

وعن ابن عباس وأصحابه وجد أن اسمه حبيب بن مرة قيل: كان نجارا وقيل غير ذلك فلما أشرف الرسل على المدينة رآهم ورأى معجزة لهم أو كرامة فآمن. وقيل:

كان مؤمنا من قبل، ولا يبعد أن يكون هذا الرجل الذي وصفه المفسرون بالنجار أنه هو (سمعان) الذي يدعى (بالنيجر) المذكور في الإصحاح الحادي عشر من سفر أعمال الرسل وأن وصف النجار محرف عن (نيجر) فقد جاء في الأسماء التي جرت في كلام المفسرين عن ابن عباس اسم شمعون الصفا أو سمعان. وليس هذا الاسم موجودا في كتاب أعمال الرسل.

ووصف الرجل بالسعي يفيد أنه جاء مسرعا وأنه بلغه هم أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحهم خشية عليهم وعلى الرسل، وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر.

وجملة قال يا قوم بدل اشتمال من جملة «جاء رجل» لأن مجيئه لما كان لهذا الغرض كان مما اشتمل عليه المجيء المذكور.

وافتتاح خطابه إياهم بندائهم بوصف القومية له قصد منه أن في كلامه الإيماء إلى أن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه.

والاتباع: الامتثال، استعير له الاتباع تشبيها للأخذ برأي غيره بالمتبع له في سيره.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٤٠

والتعريف في المرسلين للعهد.". (١)

١٢٠٧. ٤١٦-"وجملة اتبعوا من لا يسئلكم أجرا مؤكدة لجملة اتبعوا المرسلين مع زيادة **الإيماء** إلى علة اتباعهم بلوائح علامات الصدق والنصح على رسالتهم إذ هم يدعون إلى هدى ولا نفع ينجر لهم من ذلك فتمحضت دعوتهم لقصد هداية المرسل إليهم، وهذه كلمة حكمة جامعة، أي اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم.

وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنهم يجرون لأنفسهم نفعا من ذلك لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال وصاروا بعداء عن إدراك المقاصد السامية كانوا يعدون كل سعي يلوح على امرئ إنما يسعى به إلى نفعه. فقدم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة وليتهيؤوا إلى التأمل فيما يدعونهم إليه، ولأن هذا من قبيل التخلية بالنسبة للمرسلين والمرسل إليهم، والتخلية تقدم على التحلية، فكانت جملة لا يسئلكم أجرا أهم في صلة الموصول.

والأجر يصدق بكل نفع دنيوي يحصل لأحد من عمله فيشمل المال والجاه والرئاسة. فلما نفي عنهم أن يسألوا أجرا فقد نفي عنهم أن يكونوا يرمون من دعوتهم إلى نفع دنيوي يحصل لهم.

وبعد ذلك تهيأ الموقع لجملة وهم مهتدون، أي وهم متصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى، فتضمنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه وترغيبا في متابعتهم.

واعلم أن هذه الآية قد مثل بها القزويني في «الإيضاح» و «التلخيص» للإطناب المسمى بالإيغال وهو أن يوتى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتم المعنى بدونه لنكتة، وقد تبين لك مما فسرنا به أن قوله: وهم مهتدون لم يكن مجرد زيادة بل كان لتوقف الموعظة عليها، وكان قوله: من لا يسئلكم أجرا كالتوطئة له. ونعتذر لصاحب «التلخيص» بأن المثال يكفي

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٢

فيه الفرض والتقدير.". (١)

١٢٠٨. ٤١٧-"ويجوز أن يكون من حذف المفعول لإرادة العموم. والتقدير: وما عملت أيديهم شيئا من ذلك. وكلا الحذفين شائع.
وفرع عليه استفهام الإنكار لعدم شكرهم بأن اتخذوا للذي أوجد هذا الصنع العجيب أندادا.
وجيء بالمضارع مبالغة في إنكار كفرهم بأن الله حقيق بأن يكرروا شكره فكيف يستمرون على الإشراك به.
[٣٦]

[سورة يس (٣٦) : آية ٣٦]
سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)
اعتراض بين جملة وآية لهم الأرض [يس: ٣٣] وجملة وآية لهم الليل [يس:
٣٧] ، أثاره ذكر إحياء الأرض وإخراج الحب والشجر منها فإن ذلك أحوالا وإبداعا عجيبا يذكر بتعظيم مودع تلك الصنائع بحكمته وذلك تضمن الاستدلال بخلق الأزواج على طريقة الإدماج. وسبحان هنا لإنشاء تنزيه الله تعالى عن أحوال المشركين تنزيها عن كل ما لا يليق بإلهيته وأعظمه الإشراك به وهو المقصود هنا. وإجراء الموصول على الذات العلية للإيماء إلى وجه إنشاء التنزيه والتعظيم. وقد مضى الكلام على سبحان في سورة البقرة وغيرها.
والأزواج: جمع زوج وهو يطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان، ويطلق
الزوج على معنى الصنف المتميز بخواصه من نوع الموجودات تشبيها له بصنف الذكر وصنف الأنثى كما في قوله تعالى: فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى وتقدم في سورة طه [٥٣] ، والإطلاق الأول هو الكثير كما يؤخذ من كلام الراغب، وهو الذي يناسبه نقل اللفظ من الزوج الذي يكون ثانيا لآخر، فيجوز أن يحمل للأزواج في هذه الآية على المعنى الأول فيكون تذكيرا بخلق أصناف الحيوان الذي منه الذكر والأنثى، وتكون من في المواضع الثلاثة

---
(١) التحرير والتنوير ٣٦٧/٢٢

ابتدائية متعلقة بفعل خلق.". (١)

١٢٠٩. ٤١٨-"من فضول أموالهم أو أن يعطوهم ما كانوا يجعلونه لله من أموالهم الذي حكاه الله عنهم بقوله:

وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا [الأنعام: ١٣٦] فلعل من أسلم من الفقراء سألوا المشركين ما اعتادوا يعطونهم قبل إسلامهم فيقولون أعطوا مما رزقكم الله وقد سمعوا منهم كلمات إسلامية لم يكونوا يسمعونها من قبل، وربما كانوا يحاجونهم بأن الله هو الرزاق ولا يقع في الكون كائن إلا بإرادته فجعل المشركون يتعللون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقناه الله فلما ذا لم يرزقكم، فلو شاء الله لأطعمكم كما أطعمنا. وقد يقول بعضهم ذلك جهلا فإنهم كانوا يجهلون وضع صفات الله في مواضعها كما حكى الله عنهم: وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم [الزخرف: ٢٠] .

وإظهار الموصول من قوله: قال الذين كفروا في مقام الإضمار مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: قالوا أنطعم إلخ لنكتة **الإيماء** إلى أن صدور هذا القول منهم إنما هو لأجل كفرهم ولأجل إيمان الذين سئل الإنفاق عليهم.

روى ابن عطية: إن النبيء صلى الله عليه وسلم أمر المشركين بالإنفاق على المساكين في شدة أصابت الناس فشح فيها الأغنياء على المساكين ومنعوهم ما كانوا يعطونهم.

واللام في قوله: للذين آمنوا يجوز أن تكون لتعدية فعل القول إلى المخاطب به أي خاطبوا المؤمنين بقولهم: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، ويجوز أن تكون اللام للعلة، أي قال الذين كفروا لأجل الذين آمنوا، أي قالوا في شأن الذين آمنوا كقوله تعالى: الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا [آل عمران: ١٦٨] وقوله: وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه [الأحقاف: ١١] أي قالوا ذلك تعلة لعدم الإنفاق على فقراء المؤمنين.

والاستفهام في أنطعم إنكاري، أي لا نطعم من لو شاء الله لأطعمهم بحسب اعتقادكم أن الله هو المطعم.

والتعبير في جوابهم بالإطعام مع أن المطلوب هو الإنفاق: إما لمجرد التفنن تجنبا لإعادة اللفظ

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٥

فإن الإنفاق يراد منه الإطعام، وإما لأنهم سئلوا الإنفاق وهو أعم من الإطعام لأنه يشمل الإكساء والإسكان فأجابوا بإمساك الطعام وهو أيسر". (١)

١٢١٠. ٤١٩-"ذلك عن الله تعالى.

واسم الرحمن حينئذ من كلام الملائكة لزيادة توبيخ الكفار على تجاهلهم به في الدنيا.
[٥٣]

[سورة يس (٣٦) : آية ٥٣]

إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥٣)

فذلكة لجملة ما ينظرون إلا صيحة واحدة [يس: ٤٩] إلى قوله: وصدق المرسلون [يس: ٥٢] لأن النفخ مرادف للصيحة في إطلاقها المجازي، فاقتران فعل كانت بتاء التأنيث لتأويل النفي مأخوذ من ونفخ في الصور [يس: ٥١] بمعنى النفخة ينظر إلى الإخبار عنه ب صيحة. ووصفها ب واحدة لأن ذلك الوصف هو المقصود من الاستثناء المفرغ، أي ما كان ذلك النفخ إلا صيحة واحدة لا يكرر استدعاؤهم للحضور بل النفخ الواحد يخرجهم من القبور ويسير بهم ويحضرهم للحساب.

وأما قوله تعالى: ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [الزمر: ٦٨] فتلك نفخة سابقة تقع على الناس في الدنيا فيفنى بها الناس وسيأتي ذكرها في سورة الزمر.

ولما كان قوله: إن كانت إلا صيحة واحدة في قوة التكرير والتوكيد لقوله ونفخ في الصور [يس: ٥١] كان ما تفرع عليه من قوله: فإذا هم جميع لدينا محضرون بمنزلة العطف على قوله: فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون [يس: ٥١] فكأنه مثل ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون [يس: ٥١] وفإذا هم جميع لدينا محضرون، وإعادة حرف المفاجأة إيماء إلى حصول مضمون الجملتين المقترنتين بحرف المفاجأة في مثل لمح البصر حتى كان كليهما مفاجأ في وقت واحد. وتقدم الكلام على نظير هذا التركيب آنفا.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٣

وجميع نعت للمبتدأ، أي هم جميعهم، فالتنوين في جميع عوض المضاف إليه الرابط للنعت بالمنعوت، أي مجتمعون لا يحضرون أفواجا وزرافات، وقد تقدم قوله تعالى: وإن كل لما جميع لدينا محضرون [يس: ٣٢] في هذه السورة.". (١)

١٢١١. ٤٢٠-"[سورة يس (٣٦) : آية ٥٩]

وامتازوا اليوم أيها المجرمون (٥٩)

يجوز أن يكون عطفا على جملة إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون [يس: ٥٥] ويجوز أن يعطف على سلام قولا [يس: ٥٨] ، أي ويقال: امتازوا اليوم أيها المجرمون، على الضد مما يقال لأصحاب الجنة. والتقدير: سلام يقال لأهل الجنة قولا، ويقال للمجرمين: امتازوا، فتكون من توزيع الخطابين على مخاطبين في مقام واحد كقوله تعالى: يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك [يوسف: ٢٩] .

وامتاز مطاوع مازه، إذا أفرده عما كان مختلطا معه، وجه الأمر إليهم بأن يمتازوا مبالغة في الإسراع بحصول الميز لأن هذا الأمر أمر تكوين فعبر عن معنى. فيكون الميز بصوغ الأمر من مادة المطاوعة، فإن قولك: لتنكسر الزجاجة أشد في الإسراع بحصول الكسر فيها من أن تقول: اكسروا الزجاجة. والمراد: امتيازهم بالابتعاد عن الجنة، وذلك بأن يصيروا إلى النار فيؤول إلى معنى: ادخلوا النار. وهذا يقتضي أنهم كانوا في المحشر ينتظرون ماذا يفعل بهم كما أشرنا إليه عند قوله تعالى آنفا: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون [يس: ٥٥] ، فلما حكي ما فيه أصحاب الجنة من النعيم حين يقال لأصحاب النار: فاليوم لا تظلم نفس شيئا [يس: ٥٤] ، حكي ذلك ثم قيل للمشركين وامتازوا اليوم أيها المجرمون.

وتكرير كلمة اليوم ثلاث مرات في هذه الحكاية للتعريض بالمخاطبين فيه وهم الكفار الذين كانوا يجحدون وقوع ذلك اليوم مع تأكيد ذكره على أسماعهم بقوله: فاليوم لا تظلم نفس [يس: ٥٤] وقوله: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل [يس: ٥٥] وقوله:

امتازوا اليوم أيها المجرمون.

ونداؤهم بعنوان: المجرمون للإيماء إلى علة ميزهم عن أهل الجنة بأنهم مجرمون، فاللام في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٩

المجرمون موصولة، أي أيها الذين أجرموا.". (١)

١٢١٢. ٤٢١-"وفرع عليه توبيخهم بقلة العقول بقوله: أفلم تكونوا تعقلون، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون، أي يدركون، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك. وزيادة فعل الكون للإيماء إلى أن العقل لم يتكون فيهم ولا هم كائنون به.

[٦٣، ٦٤]

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

هذه جهنم التي كنتم توعدون (٦٣) اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤)

إقبال على خطاب الذين عبدوا معبودات يسولها لهم الشيطان، إذ تبدو لهم جهنم بحيث يشار إليها ويعرفون أنها هي جهنم التي كانوا في الدنيا ينذرون بها وتذكر لهم في الوعيد مدة الحياة. والأمر بقوله: اصلوها مستعمل في الإهانة والتنكير.

واصلوها أمر من صلي يصلى، إذا استدفأ بحر النار، وإطلاق الصلي على الإحراق تهكم.

والتعريف في اليوم تعريف العهد، أي هذا اليوم الحاضر وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا من استبطاء الوعد والتكذيب إذ يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] .

والباء في بما كنتم تكفرون سببية، أي بسبب كفركم في الدنيا.

[٦٥]

[سورة يس (٣٦) : آية ٦٥]

اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥)

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وقوله: اليوم ظرف متعلق ب نختم.

والقول في لفظ اليوم كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥/٢٣

العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.". (١)

١٢١٣. ٤٢٢-"[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٦ إلى ٦٧]

ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (٦٧)

عطف على جملة ويقولون متى هذا الوعد [يس: ٤٨] . وموقع هاتين الآيتين من التي قبلهما أنه لما ذكر الله إلجاءهم إلى الاعتراف بالشرك بعد إنكاره يوم القيامة كان ذلك مثيرا لأن يهجس في نفوس المؤمنين أن يتمنوا لو سلك الله بهم في الدنيا مثل هذا الإلجاء فألجأهم إلى الإقرار بوحدانيته وإلى تصديق رسوله واتباع دينه، فأفاد الله أنه لو تعلقت إرادته بذلك في الدنيا لفعل، إيماء إلى أن إرادته تعالى تجري تعلقاتها على وفق علمه تعالى وحكمته. فهو قد جعل نظام الدنيا جاريا على حصول الأشياء عن أسبابها التي وكل الله إليها إنتاج مسبباتها وأثارها وتوالداتها حتى إذا بدل هذا العالم بعالم الحقيقة أجرى الأمور كلها على المهيع الحق الذي لا ينبغي غيره في مجاري العقل والحكمة. والمعنى إنا ألجأناهم إلى الإقرار في الآخرة بأن ما كانوا عليه في الدنيا شرك وباطل ولو نشاء لأريناهم آياتنا في الدنيا ليرتدعوا ويرجعوا عن كفرهم وسوء إنكارهم.

ولما كانت لو تقتضي امتناعا لامتناع فهي تقتضي معنى: لكنا لم نشأ ذلك فتركناهم على شأنهم استدراجا وتمييزا بين الخبيث والطيب. فهذا كلام موجه إلى المسلمين ومراد منه تبصرة المؤمنين وإرشادهم إلى الصبر على ما يلاقونه من المشركين حتى يأتي نصر الله.

فالطمس والمسخ المعلقان على الشرط الامتناعي طمس ومسخ في الدنيا لا في الآخرة. والطمس: مسخ شواهد العين بإزالة سوادها وبياضها أو اختلاطهما وهو العمى أو العور، ويقال: طريق مطموسة، إذا لم تكن فيها آثار السائرين ليقفوها السائر. وحرف الاستعلاء للدلالة على تمكن الطمس وإلا فإن طمس يتعدى بنفسه.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٥١/٢٣

١٢١٤. ٤٢٣-"تكريرهم الشكر كانت إفادة التعجيب من عدم الشكر من أصله بالفحوى ولذلك أعقبه بقوله: واتخذوا من دون الله آلهة [يس: ٧٤] .
[٧٤، ٧٥]

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٤ إلى ٧٥]
واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥)
عطف على جملة أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما [يس: ٧١] ، أي ألم يروا دلائل الوحدانية ولم يتأملوا جلائل النعمة، واتخذوا آلهة من دون الله المنعم والمنفرد بالخلق.
ولك أن تجعله عطفا على الجملتين المفرعتين، والمقصود من الإخبار
باتخاذهم آلهة من دون الله التعجيب من جريانهم على خلاف حق النعمة ثم مخالفة مقتضى دليل الوحدانية المدمج في ذكر النعم.
والإتيان باسم الجلالة العلم دون ضمير إظهار في مقام الإضمار لما يشعر به اسمه العلم من عظمة الإلهية **إيماء** إلى أن اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة ليكون ذلك توطئة لقوله بعده فلا يحزنك قولهم [يس: ٧٦] أي فإنهم قالوا ما هو أشد نكرا.
وأما الإضمار في قوله في سورة الفرقان [٣] : واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون فلأنه تقدم ذكر انفراده بالإلهية صريحا من قوله: الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا [الفرقان: ٢] .
وقوله: لعلهم ينصرون وقعت (لعل) فيه موقعا غير مألوف لأن شأن (لعل) أن تفيد إنشاء رجاء المتكلم بها وذلك غير مستقيم هنا. وقد أغفل المفسرون التعرض لتفسيره، وأهمله علماء النحو واللغة من استعمال (لعل) ، فيتعين: إما أن تكون (لعل) تمثيلية مكنية بأن شبه شأن الله فيما أخبر عنهم بحال من". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٧٠/٢٣

١٢١٥. ٤٢٤-"فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسندا للمحيي، على أن الجواب صالح لأن يكون إبطالا للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري كأنه قيل: بل يحييها الذي أنشأها أول مرة. ولم يبن الجواب على بيان إمكان الإحياء وإنما جعل بيان الإمكان في جعل المسند إليه موصولا لتدل الصلة على الإمكان فيحصل الغرضان، فالموصول هنا إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو يحييها، أي

يحييها لأنه أنشأها أول مرة فهو قادر على إنشائها ثاني مرة كما أنشأها أول مرة. قال تعالى: ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون [الواقعة: ٦٢] ، وقال: وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه [الروم: ٢٧] .

وذيل هذا الاستدلال بجملة وهو بكل خلق عليم أي واسع العلم محيط بكل وسائل الخلق التي لا نعلمها: كالخلق من نطفة، والخلق من ذرة، والخلق من أجزاء النبات المغلقة كسوس الفول وسوس الخشب، فتلك أعجب من تكوين الإنسان من عظامه.

وفي تعليق الإحياء بالعظام دلالة على أن عظام الحي تحلها الحياة كلحمه ودمه، وليست بمنزلة القصب والخشب وهو قول مالك وأبي حنيفة ولذلك تنجس عظام الحيوان الذي مات دون ذكاة. وعن الشافعي: أن العظم لا تحله الحياة فلا ينجس بالموت. قال ابن العربي: وقد اضطرب أرباب المذاهب فيه. والصحيح ما ذكرناه، يعني أن بعضهم نسب إلى الشافعي موافقة قول مالك وهو قول أحمد فيصير اتفاقا وعلماء الطب يثبتون الحياة في العظام والإحساس. وقال ابن زهر الحكيم الأندلسي في كتاب «التيسير» : أن جالينوس اضطرب كلامه في العظام هل لها إحساسا والذي ظهر لي أن لها إحساسا بطيئا.

[٨٠]

[سورة يس (٣٦) : آية ٨٠]

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون (٨٠)

بدل من الذي أنشأها [يس: ٧٩] بدلا مطابقا، وإنما لم تعطف الصلة على الصلة فيكتفى بالعطف عن إعادة اسم الموصول لأن في إعادة الموصول تأكيدا للأول واهتماما بالثاني حتى

تستشرف نفس السامع لتلقي ما يرد بعده فيفطن بما في". (١)

١٢١٦. ٤٢٥-"يختاره العاقل، فكان من جزائهم على ذلك أنهم يطعمون طعاما مؤلما ويسقون شرابا قذرا بدون اختيار كما تلقوا دين آبائهم تقليدا واعتباطا.

فموقع (إن) موقع فاء السببية، ومعناها معنى لام التعليل، وهي لذلك مفيدة ربط الجملة بالتي قبلها كما تربطها الفاء ولام التعليل كما تقدم غير مرة.

والمراد: المشركون من أهل مكة الذين قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة [الزخرف: ٢٢] .

وفي قوله: ألفوا آباءهم ضالين **إيماء** إلى أن ضلالهم لا يخفى عن الناظر فيه لو تركوا على الفطرة العقلية ولم يغشوها بغشاوة العناد.

والفاء الداخلة على جملة فهم على آثارهم يهرعون فاء العطف للتفريع والتسبب، أي متفرع على إلفائهم آباءهم ضالين أن اقتفوا آثارهم تقليدا بلا تأمل، وهذا ذم لهم.

والآثار: ما تتركه خطى الماشين من موطىء الأقدام فيعلم السائر بعدهم أن مواقعها مسلوكة موصلة إلى معمور، فمعنى على الاستعلاء التقريبي، وهو معنى المعية لأنهم يسيرون معها ولا يلزم أن يكونوا معتلين عليها.

ويهرعون بفتح الراء مبنيا للمجهول مضارع: أهرعه، إذا جعله هارعا، أي حمله على الهرع وهو الإسراع المفرط في السير، عبر به عن المتابعة دون تأمل، فشبه قبول الاعتقاد بدون تأمل بمتابعة السائر متابعة سريعة لقصد الالتحاق به.

وأسند إلى المجهول للدلالة على أن ذلك ناشيء عن تلقين زعمائهم وتعاليم المضللين، فكأنهم مدفوعون إلى الهرع في آثار آبائهم فيحصل من قوله: يهرعون تشبيه حال الكفرة بحال من يزجى ويدفع إلى السير وهو لا يعلم إلى أين يسار به.". (٢)

١٢١٧. ٤٢٦-"الدرجة، اقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويها بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويقلع المشركون عن الشرك. وهذه نعمة تاسعة. وأقحم معها من عبادنا لتشريفه

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ١٢٧/٢٣

بتلك الإضافة على نحو ما تقدم آنفا في قوله تعالى: إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم [الصافات: ٤٠- ٤١] وهذه نعمة عاشرة، وفي ذلك تنبيه على عظيم قدر الإيمان.

وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حل بقوم نوح وتسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وجعل نوح قدوة له، **وإيماء** إلى أن الله ينصره كما نصر نوحا على قومه وينجيه من أذاهم وتنويه بشأن المؤمنين. وثم التي في قوله: ثم أغرقنا الآخرين للترتيب والتراخي الرتبيين لأن بعض ما ذكر قبلها في الكلام هو مما حصل بعد مضمون جملتها في نفس الأمر كما هو بين، ومعنى التراخي الرتبي هنا أن إغراق الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله، أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه.

ومعنى الآخرين من عداه وعدا أهله، أي بقية قومه، وفي التعبير عنهم بالآخرين ضرب من الاحتقار. ومما في الحديث أنه جاءه رجل فقال: «إن الآخر قد زنى» يعني نفسه على رواية الآخر بمد الهمزة وهي إحدى روايتين في الحديث.

وتقدم ذكر نوح وقصته عند قوله تعالى: إن الله اصطفى آدم ونوحا في آل عمران [٣٣] ، وفي الأعراف، وفي سورة هود، وذكر سفينته في أول سورة العنكبوت.

[٨٣- ٨٧]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٣ إلى ٨٧]

وإن من شيعته لإبراهيم (٨٣) إذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤) إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أإفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧)

تخلص إلى حكاية موقف إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوتهم إلى التوحيد". (١)

١٢١٨. ٤٢٧-"والمعنى: ففكر في حيلة يخلو له بها بد أصنامهم فقال: إني سقيم ليلزم مكانه ويفارقوه فلا يريهم بقاؤه حول بدهم ثم يتمكن من إبطال معبوداتهم بالفعل. والوجه: أن التعقيب الذي أفادته الفاء من قوله: فنظر تعقيب عرفي، أي لكل شيء بحسبه فيفيد كلاما مطويا يشير إلى قصة إبراهيم التي قال فيها: إني سقيم والتي تفرع عليها قوله تعالى: فراغ إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٣٥

أهله [الذاريات: ٢٦] إلخ.

وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله: نظرة **إيماء** إلى أن الله ألهمه المكيدة وأرشده إلى الحجة كما قال تعالى: ولقد آتينا إبراهيم رشده [الأنبياء: ٥١] .

وقوله: إني سقيم عذر انتحله ليتركوه فيخلو ببيت الأصنام ليخلص إليها عن كثب فلا يجد من يدفعه عن الإيقاع بها. وليس في القرآن ولا في السنة بيان لهذا لأنه غني عن البيان. وذكر المفسرون أنه اعتذر عن خروجه مع قومه من المدينة في يوم عيد يخرجون فيه فزعم أنه مريض لا يستطيع الخروج فافترض إبراهيم خروجهم ليخلو ببد الأصنام وهو الملائم لقوله: فتولوا عنه مدبرين.

والسقيم: صفة مشبهة وهو المريض كما تقدم في قوله: بقلب سليم [الصافات: ٨٤] . يقال: سقم بوزن مرض، ومصدره السقم بالتحريك، فيقال: سقام وسقم بوزن قفل.

والتولي: الإعراض والمفارقة.

لم ينطق إبراهيم فإن النجوم دلته على أنه سقيم ولكنه لما جعل قوله: إني سقيم مقارنا لنظره في النجوم أو هم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

ومدبرين حال، أي ولوه أدبارهم، أي: ظهورهم. والمعنى: ذهبوا وخلفوه وراء ظهورهم بحيث لا ينظرونه. وقد قيل: إن مدبرين حال مؤكدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولي غالبا لدفع توهم أنه تولي مخالفة وكراهة دون انتقال. وما وقع في التفاسير في معنى نظره في النجوم وفي تعيين سقمه المزعوم كلام لا يمتع بين موازين المفهوم، وليس في الآية ما يدل على أن للنجوم دلالة على حدوث شيء من حوادث الأمم ولا الأشخاص ومن يزعم ذلك فقد ضل". (١)

١٢١٩. ٤٢٨-"وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكراما لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحيد.

والفاء في قوله: فانظر ماذا ترى فاء تفريع، أو هي فاء الفصيحة، أي إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى. والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقه أن يتعدى إلى مفعولين ولكن علقه

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/٢٣

الاستفهام عن العمل. والمعنى: تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول لأنه أعلم بصلاح ابنه وليس إبراهيم مأمورا بذبح ابنه جبرا، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتبر كافرا.

وقرأ الجمهور ماذا ترى بفتح التاء والراء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، أي ماذا تريني من امتثال أو عدمه. وحكي جوابه فقال: يا أبت افعل ما تؤمر دون عطف، جريا على حكاية المقاولات كما تقدم عند قوله تعالى: قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها في سورة البقرة [٣٠] .

وابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن.

والتعبير عن الذبح بالموصول وهو ما تؤمر دون أن يقول: اذبحني، يفيد وحده إيماء إلى السبب الذي جعل جوابه امتثالا لذبحه.". (١)

١٢٢٠. ٤٢٩-"رجال حرمه وسدنة بيته» فكان ذلك قبل الإسلام وقال الله تعالى لهم بعد الإسلام: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله [التوبة: ١٩] . وقال تعالى: وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون [الأنفال: ٣٤] وقال:

إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيء والذين آمنوا [آل عمران: ٦٨] .

وقد ضرب الله هذه القصة مثلا لحال النبيء صلى الله عليه وسلم في ثباته على إبطال الشرك وفيما لقي من المشركين وإيماء إلى أنه يهاجر من أرض الشرك وأن الله يهديه في هجرته ويهب له أمة عظيمة كما وهب إبراهيم أتباعا، فقال: إن إبراهيم كان أمة [النحل: ١٢٠]

---

(١) التحرير والتنوير ١٥١/٢٣

.

وفي قوله تعالى: ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين مثل لحال النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه من أهل مكة ولحال المشركين من أهل مكة.

[١١٤- ١١٦]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ إلى ١١٦]

ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦)

عطف على قوله: ولقد نادانا نوح [الصافات: ٧٥] ، والمناسبة هي ما ذكر هنالك.

وذكر هنا ما كان منة على موسى وهارون وهو النبوءة فإنها أعظم درجة يرفع إليها الإنسان، ولذلك اكتفي عن تعيين الممنون به لحمل الفعل على أكمل معناه. وجعلت منة من الله عليهما لأن موسى لم يسأل النبوءة إذ ليست النبوءة بمكتسبة وكانت منة على هارون أيضا لأنه إنما سأل له موسى ذلك ولم يسأله هارون، فهي منة عليه وإرضاء لموسى، والمنة عليهما من قبيل إيصال المنافع فإن الله أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإبراهيم وإسرائيل.

وفي اختلاف مبادئ القصص الثلاث إشارة إلى أن الله يغضب لأوليائه إما باستجابة دعوة، وإما لجزاء على سلامة طوية وقلب سليم، وإما لرحمة منه ومنة على عباده المستضعفين. وإنجاء موسى وهارون وقومهما كرامة أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمة إزالة الضر، فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام وهما: إعطاء المنافع، ودفع المضار.". (١)

١٢٢١. ٤٣٠-"والتولي حقيقته: المفارقة كما تقدم في قصة إبراهيم فتولوا عنه مدبرين [الصافات: ٩٠] ، واستعمل هنا مجازا في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم. والحين: الوقت. وأجمل هنا **إيماء** إلى تقليله، أي تقريبه، فالتنكير للتحقير المعنوي وهو التقليل. ومعنى أبصرهم انظر إليهم، أي من الآن، وعدي (أبصر) إلى ضميرهم الدال على ذواتهم،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٢٣

وليس المراد النظر إلى ذواتهم لكن إلى أحوالهم، أي تأمل أحوالهم تركيف ننصرك عليهم، وهذا وعيد بما حل بهم يوم بدر.

وحذف ما يتعلق به الإبصار من حال أو مفعول معه بتقدير: وأبصرهم مأسورين مقتولين، أو وأبصرهم وما يقضى به عليهم من أسر وقتل لدلالة ما تقدم من قوله: إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون [الصافات: ١٧٢، ١٧٣] عليه، إذ ليس المأمور به أيضا ذواتهم، وهذا من دلالة الاقتضاء. وصيغة الأمر في وأبصرهم مستعملة في الإرشاد على حد قول:

إذا أعجبتك الدهر حال من امرئ ... فدعه وواكل أمره واللياليا

أي إذا شئت أن تتحقق قرارة حاله فانتظره.

وعبر عن ترتب نزول الوعيد بهم بفعل الإبصار للدلالة على أن ما توعدوا به واقع لا محالة وأنه قريب حتى أن الموعود بالنصر يتشوف إلى حلوله فكان ذلك كناية عن تحققه وقربه لأن تحديق البصر لا يكون إلا إلى شيء أشرف على الحلول.

وتفريع فسوف يبصرون على وأبصرهم تفريع لإنذارهم بوعيد قريب على بشارة النبيء بقربه فإن ذلك المبصر يسر النبيء صلى الله عليه وسلم ويحزن أعداءه، ففي الكلام اكتفاء، كأنه قيل: أبصرهم وما ينزل بهم فسوف تبصر ما وعدناك وليبصروا ما ينزل بهم فسوف يبصرونه. وحذف مفعول يبصرون لدلالة ما دلت عليه دلالة الاقتضاء. واعلم أن تفريع فسوف يبصرون على وأبصرهم يمنع من إرادة أن يكون المعنى: وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب بعد ذلك الحين كما لا يخفى.". (١)

١٢٢٢. ٤٣١-"ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل» .

واعلم أن في اختيار هذا التمثيل البديع معنى بديعا من **الإيماء** إلى أن العذاب الذي وعدوه هو ما أصابهم يوم بدر من قتل وأسر على طريقة التورية.

[١٧٨- ١٧٩]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/١٩٦

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٧٨ إلى ١٧٩]

وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩)

عطف على جملة فإذا نزل بساحتهم [الصافات: ١٧٧] الآية لأن معنى المعطوف عليها الوعد بأن الله سينتقم منهم فعطف عليه أمره رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتم بعنادهم.

وهذه نظير التي سبقتها المفرعة بالفاء فلذلك يحصل منها تأكيد نظيرتها، على أنه قد يكون هذا التولي غير الأول وإلى حين آخر وإبصار آخر، فالظاهر أنه تول عمن يبقى من المشركين بعد حلول العذاب الذي استعجلوه، فيحتمل أن يكون حينا من أوقات الدنيا فهو إنذار بفتح مكة. ويحتمل أن يكون إلى حين من أحيان الآخرة، وإنما جعل ذلك غاية لتولي النبيء صلى الله عليه وسلم عنهم لأن توليه العذاب عنهم غاية لتولي النبيء صلى الله عليه وسلم عنهم لأن توليه عنهم مستمر إلى يوم القيامة فإن مدة لحاق النبيء صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى لما كانت متصلة بتوليه عنهم جعلت تلك المدة كأنها ظرف للتولي ينتهي بحين إحضارهم للعقاب، فيكون قوله:

حتى حين مرادا به الأبد.

وحذف مفعول وأبصر في هذه الآية لدلالة ما في نظيرها عليه.

[١٨٠- ١٨٢]

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٨٠ إلى ١٨٢]

سبحان ربك رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١) والحمد لله رب العالمين (١٨٢)

خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم تذييلا لخطابه المبتدأ بقوله تعالى: فاستفتهم ألربك البنات [الصافات: ١٤٩] الآية. فإنه خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله. وهذه الآية فذلكة لما احتوت عليه السورة من الأغراض جمعت تنزيه الله والثناء على". (١)

(١) التحرير والتنوير ١٩٨/٢٣

١٢٢٣. ٤٣٢-"ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن لنقص في علوه ومجده ولكن لأنهم عجبوا أن جاءهم به رجل منهم.

ولك أن تجعل بل إضراب انتقال من الشروع في التنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه، لأن في بيان ذلك السبب تحقيقا للتنويه بالقرآن كما يقال: دع ذا وخذ في حديث..، كقول امرئ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقال زهير:

دع ذا وعد القول في هرم ... خير البداة وسيد الحضر

وقول الأعشى:

فدع ذا ولكن ما ترى رأي كاشح ... يرى بيننا من جهله دق منشم

وقول العجاج:

دع ذا وبهج حسبا مبهجا ومعنى ذلك أن الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن ذلك إلى ما هو أهم وهو بيان سبب إعراض المعرضين عنه لاعتزازهم بأنفسهم وشقاقهم، فوقع العدول عن جواب القسم استغناء بما يفيد مفاد ذلك الجواب.

وإنما قيل: الذين كفروا دون (الكافرون) لما في صلة الموصول من **الإيماء** إلى الإخبار عنهم بأنهم في عزة وشقاق. والعزة تحوم إطلاقاتها في الكلام حول معاني المنعة والغلبة والتكبر فإن كان ذلك جاريا على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية وإن كان عن غرور وإعجاب بالنفس فهي عزة مزورة قال تعالى: وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم [البقرة: ٢٠٦] ، أي أخذته الكبرياء وشدة العصيان، وهي هنا عزة باطلة أيضا لأنها إباء من الحق وإعجاب بالنفس. وضد العزة الذلة قال تعالى: أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين [المائدة: ٥٤] وقال السموأل أو غيره:

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٠٥

١٢٢٤. ٤٣٣-"و (في) للظرفية المجازية مستعارة لقوة التلبس بالعزة. والمعنى: متلبسون بعزة على الحق.

والشقاق: العناد والخصام. والمراد: وشقاق لله بالشرك ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب.

والمعنى: أن الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن هو ما في قرارة نفوسهم من العزة والشقاق. [٣]

[سورة ص (٣٨) : آية ٣]

كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص (٣)

استئناف بياني لأن العزة عن الحق والشقاق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم مما يثير في خاطر السامع أن يسأل عن جزاء ذلك فوقع هذا بيانا له، وهذه الجملة معترضة بين جملة بل الذين كفروا في عزة وشقاق [ص: ٢] ، وبين جملة وعجبوا أن جاءهم منذر منهم [ص: ٤] .

وكان هذا البيان إخبارا مرفقا بحجة من قبيل قياس تمثيل، لأن قوله: من قبلهم يؤذن بأنهم مثلهم في العزة والشقاق ومتضمنا تحذيرا من التريث عن إجابة دعوة الحق، أي ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم ندم ولا متاب كما لم ينفع القرون من قبلهم. فالتقدير:

سيجازون على عزتهم وشقاقهم بالهلاك كما جوزيت أمم كثيرة من قبلهم في ذلك فليحذروا ذلك فإنهم إن حقت عليهم كلمة العذاب لم ينفعهم متاب كما لم ينفع الذين من قبلهم متاب عند رؤية العذاب.

وكم اسم دال على عدد كثير. ومن قرن تمييز لإبهام العدد، أي عددا كثيرا من القرون، وهي في موضع نصب بالمفعولية ل أهلكنا.

والقرن: الأمة كما في قوله تعالى: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين [المؤمنون: ٤٢] . ومن قبلهم يجوز أن يكون ظرفا مستقرا جعل صفة ل قرن مقدمة عليه فوقعت حالا، وإنما قدم للاهتمام بمضمونه ليفيد الاهتمام إيماء إلى أنهم أسوة لهم في العزة والشقاق وأن ذلك سبب إهلاكهم. ويجوز أن يكون متعلقا ب أهلكنا على أنه ظرف لغو، وقدم على مفعول فعله".

(١)

١٢٢٥. ٤٣٤-"مع أن المفعول أولى بالسبق من بقية معمولات الفعل ليكون تقديمه اهتماما به إيماء إلى الإهلاك كما في الوجه الأول.

وفرع على الإهلاك أنهم نادوا فلم ينفعهم نداؤهم، تحذيرا من أن يقع هؤلاء في مثل ما وقعت فيه القرون من قبلهم إذ أضاعوا الفرصة فنادوا بعد فواتها فلم يفدهم نداؤهم ولا دعاؤهم.

والمراد بالنداء في فنادوا نداؤهم الله تعالى تضرعا، وهو الدعاء كما حكي عنهم في قوله تعالى:

ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون [الدخان: ١٢] . وقوله:

حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون [المؤمنون: ٦٤] .

وجملة ولات حين مناص في موضع الحال، والواو واو الحال، أي نادوا في حال لا حين مناص لهم.

ولات حرف نفي بمعنى (لا) المشبهة ب (ليس) ولات حرف مختص بنفي أسماء الأزمان وما يتضمن معنى الزمان من إشارة ونحوها. وهي مركبة من (لا) النافية وصلت بها تاء زائدة لا تفيد تأنيثا لأنها ليست هاء وإنما هي كزيادة التاء في قولهم: ربت وثمت. والنفي بها لغير الزمان ونحوه خطأ في اللغة وقع فيه أبو الطيب إذ قال:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... والآن أقحم حتى لات مقتحم

وأغفل شارحو ديوانه كلهم وقد أدخل لات على غير اسم زمان. وأيا ما كان فقد صارت (لا) بلزوم زيادة التاء في آخرها حرفا مستقلا خاصا بنفي أسماء الزمان فخرجت عن نحو: ربت وثمت.

وزعم أبو عبيد القاسم بن سلام أن التاء في ولات حين مناص متصلة ب حين وأنه رآها في مصحف عثمان متصلة ب حين وزعم أن هذه التاء". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٦/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٧/٢٣

١٢٢٦.   ٤٣٥-"يصطفيه وليس الاختيار لهم فيجعلوا من لم يقدموه عليهم في دينهم غير أهل لأن يختاره الله.

وتقديم الظرف للاهتمام لأنه مناط الإنكار وهو كقوله تعالى: أهم يقسمون رحمت ربك [الزخرف: ٣٢] .

والخزائن: جمع خزانة بكسر الخاء. وهي البيت الذي يخزن فيه المال أو الطعام، ويطلق أيضا على صندوق من خشب أو حديد يخزن فيه المال.

والخزن: الحفظ والحرز. والرحمة: ما به رفق بالغير وإحسان إليه، شبهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إليه النفوس في أنه لا يعطى إلا بمشيئة خازنه على طريقة الاستعارة المكنية. وإثبات الخزائن: تخييل مثل إثبات الأظفار للمنية،

والإضافة على معنى لام الاختصاص. والعدول عن اسم الجلالة إلى وصف لأن له مزيد مناسبة للغرض الذي الكلام فيه **إيماء** إلى أن تشريفه إياه بالنبوءة من آثار صفة ربوبيته له لأن وصف الرب مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال. وأجري على الرب صفة العزيز لإبطال تدخلهم في تصرفاته، وصفة الوهاب لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعا لرغباتهم دون موادة الله تعالى.

والعزيز: الذي لا يغلبه شيء، والوهاب: الكثير المواهب فإن النبوءة رحمة عظيمة فلا يخول إعطاؤها إلا لشديد العزة وافر الموهبة.

[١٠]

[سورة ص (٣٨) : آية ١٠]

أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب (١٠)

إضراب انتقالي إلى رد يأتي على جميع مزاعمهم ويشمل بإجماله جميع النقوض التفصيلية لمزاعمهم بكلمة جامعة كالحوصلة فيشبه التذييل لما يتضمنه من عموم الملك وعموم الأماكن المقتضي عموم العلم وعموم التصرف ينعى عليهم قولهم في المغيبات بلا علم وتحكمهم في

مراتب الموجودات بدون قدرة ولا غنى.". (١)

١٢٢٧. ٤٣٦-"فأنتج ذلك التسجيل استحقاقهم عذاب الله في قوله: فحق عقاب، أي عقابي، فحذفت ياء المتكلم للرعاية على الفاصلة وأبقيت الكسرة في حالة الوصل.
وحق: تحقق، أي كان حقا، لأنه اقتضاه عظيم جرمهم. والعقاب: هو ما حل بكل أمة منهم من العذاب وهو الغرق والتمزيق بالريح، والغرق أيضا، والصيحة، والخسف، وعذاب يوم الظلة.
وفي هذا تعريض بالتهديد لمشركي قريش بعذاب مثل عذاب أولئك لاتحادهم في موجبه. [١٥]

[سورة ص (٣٨) : آية ١٥]
وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق (١٥)
لما أشعر قوله: فحق عقاب [ص: ١٤] بتهديد مشركي قريش بعذاب ينتظرهم جريا على سنة الله في جزاء المكذبين رسله، عطف على جملة الإخبار عن حلول العذاب بالأحزاب السابقين جملة توعد بعذاب الذين ماثلوهم في التكذيب.
وهؤلاء إشارة إلى كفار قريش لأن تجدد دعوتهم ووعيدهم وتكذيبهم يوما فيوما جعلهم كالحاضرين فكانت الإشارة مفهوما منها أنها إليهم، وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته إذا استعمل هؤلاء ولم يكن معه مشار إليه مذكور: أنه يريد به المشركين من
أهل مكة كما نبهت عليه فيما مضى غير مرة.
وينظر مشتق من النظر بمعنى الانتظار قال تعالى: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة [الأنعام: ١٥٨] ، أي ما ينتظر المشركون إلا صيحة واحدة، وهذا كقوله تعالى:
فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم [يونس: ١٠٢] .
والمتبادر من الآية أنها تهديد لهم بصيحة صاعقة ونحوها كصيحة ثمود أو صيحة النفخ في الصور التي يقع عندها البعث للجزاء، ولكن ما سبق ذكره آنفا من أن قوله تعالى: جند ما

---
(١) التحرير والتنوير ٢١٦/٢٣

هنالك مهزوم من الأحزاب [ص: ١١] **إيماء** إلى بشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن معانديه سيهزمون ويعمل فيهم السيف يوم بدر، يقتضي أن الصيحة". (١)

١٢٢٨. ٤٣٧-"صيحة القتال وهي أن يصيح النذير: يا صباحاه كما صاح الصارخ بمكة حين تعرض المسلمون لعير قريش ببدر. ووصفها ب واحدة إشارة إلى أن الصاعقة عظيمة مهلكة، أو أن النفخة واحدة وهي نفخة الصعق، وفي خفي المعنى **إيماء** إلى أن القوم يبتدرون إلى السلاح ويخرجون مسرعين لإنقاذ غيرهم فكانت الوقعة العظيمة وقعة يوم بدر أو صيحة المبارزين للقتال يومئذ.

وأسند الانتظار إليهم في حين أنهم غافلون عن ذلك ومكذبون بظاهره إسناد مجازي على طريقة المجاز العقلي فإنهم ينتظر بهم ذلك المسلمون الموعودون بالنصر، أو ينتظر بهم الملائكة الموكلون بحشرهم عند النفخة، فلما كانوا متعلق الانتظار أسند فعل ينظر إليهم لملابسة المفعولية على نحو في عيشة راضية [الحاقة: ٢١] .

والفواق، بفتح الفاء وضمها: اسم لما بين حلبتي حالب الناقة ورضعتي فصيلها، فإن الحالب يحلب الناقة ثم يتركها ساعة ليرضعها فصيلها ليدر اللبن في الضرع ثم يعودون فيحلبونها، فالمدة التي بين الحلبتين تسمى فواقا. وهي ساعة قليلة وهم قبل ابتداء الحلب يتركون الفصيل يرضعها لتدر باللبن. وجمهور أهل اللغة على أن الفتح والضم فيه سواء، وذهب أبو عبيدة والفراء إلى أن بين المفتوح والمضموم فرقا فقالا: المفتوح بمعنى الراحة مثل الجواب من الإجابة، والمضموم اسم للمدة. واللبن المجتمع في تلك الحصة يسمى:

الفيقة بكسر الفاء، وجمعها أفاويق.

ومعنى ما لها من فواق ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، وهذا كقوله تعالى: ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية [يس: ٤٩، ٥٠] .

وقرأ الجمهور فواق بفتح الفاء. وقرأه حمزة والكسائي بضم الفاء.

[١٦]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٢٣

[سورة ص (٣٨) : آية ١٦]

وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب (١٦)

حكاية حالة استخفافهم بالبعث والجزاء وتكذيبهم ذلك، وتكذيبهم بوعيد". (١)

١٢٢٩. ٤٣٨-"تعجيل العقاب بأن يكونوا سموا الحظ من العقاب قطا على طريق التهكم، كما قال عمرو بن

كلثوم إذ جعل القتال قرى:

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا

فيكونون قد أدمجوا تهكما في تهكم إغراقا في التهكم.

وتسميتهم يوم الحساب أيضا من التهكم لأنهم لا يؤمنون بالحساب.

[١٧- ٢٠]

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١٧ إلى ٢٠]

اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب (١٧) إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق (١٨) والطير محشورة كل له أواب (١٩) وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (٢٠)

أعقب حكاية أقوالهم من التكذيب ابتداء من قوله: وقال الكافرون هذا ساحر كذاب [ص: ٤] إلى هنا، بأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوالهم إذ كان جميعها أذى: إما صريحا كما قالوا: ساحر كذاب وقالوا: إن هذا إلا اختلاق [ص: ٧] إن هذا لشيء يراد [ص: ٦] ، وإما ضمنا وذلك ما في سائر أقوالهم من إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بقولهم: ربنا عجل لنا قطنا [ص: ١٦] من إثبات أن الإله واحد، ويشمل ما يقولونه مما لم يحك في أول هذه السورة.

وقوله: واذكر عبدنا داود إلى آخره يجوز أن يكون عطفا على قوله: اصبر على ما يقولون بأن أتبع أمره بالصبر وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لقوه من الناس ثم كانت لهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٤/٢٣

عاقبة النصر وكشف الكرب. ويجوز أن يكون عطفا على مجموع ما تقدم عطف القصة على القصة والغرض هو هو. وابتدئ بذكر داود لأن الله أعطاه ملكا وسلطانا لم يكن لآبائه ففي ذكره **إيماء** إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند فقد كان حال النبيء صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود عليه السلام.

وأدمج في خلال ذلك **الإيماء** إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى واتقاء". (١)

١٢٣٠. ٤٣٩-"مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة إبعادا لرسوله صلى الله عليه وسلم عن مهاوي الخطأ والزلل وتأديبا له في أول أمره وآخره مما أن يتلقى بالعذل. وكان داود أيضا قد صبر على ما لقيه من حسد شاول (طالوت) ملك إسرائيل إياه على انتصاره على جالوت ملك فلسطين.

فالمصدر المتصرف منه واذكر عبدنا داود هو الذكر بضم الذال وهو التذكر

وليس هو ذكر اللسان لأنه إنما أمر النبيء صلى الله عليه وسلم بذلك لتسليته وحفظ كماله لا ليعلمه المشركين ولا ليعلمه المسلمين على أن كلا الأمرين حاصل تبعا حين إبلاغ المنزل في شأن داود إليهم وقراءته عليهم. ومعنى الأمر بتذكر ذلك تذكر ما سبق إعلام النبيء صلى الله عليه وسلم به من فضائله وتذكير ما عسى أن يكون لم يعلمه مما يعلم به في هذه الآية.

ووصف داود ب عبدنا وصف تشريف بالإضافة بقرينة المقام كما تقدم عند قوله:

إلا عباد الله المخلصين في سورة الصافات [٤٠] .

والأيد: القوة والشدة، مصدر: آد يئيد، إذا اشتد وقوي، ومنه التأييد التقوية، قال تعالى:

فآواكم وأيدكم بنصره في سورة الأنفال [٢٦] .

وكان داود قد أعطي قوة نادرة وشجاعة وإقداما عجيبين وكان يرمي الحجر بالمقلاع فلا يخطىء الرمية، وكان يلوي الحديد ليصنعه سردا للدروع بأصابعه، وهذه القوة محمودة لأنه استعملها في نصر دين التوحيد.

وجملة إنه أواب تعليل للأمر بذكره **إيماء** إلى أن الأمر لقصد الاقتداء به، كما قال تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٢٦

فبهداهم اقتده [الأنعام: ٩٠] ، فالجملة معترضة بين جملة واذكر وجملة بيانها وهي إنا سخرنا الجبال معه.
والأواب: الكثير الأوب، أي الرجوع. والمراد: الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عند حدوده وتدارك ما فرط فيه. والتائب يطلق عليه الأواب، وهو غالب استعمال القرآن وهو مجاز ولا تسمى التوبة أوبا، و «زبور» داود المسمى عند اليهود ب «المزامير» مشتمل على كثير من الاستغفار وما في معناه من التوبة.". (١)

١٢٣١. ٤٤٠-"العلماء في الخليفة شروطا كلها تحوم حول الحيلولة بينه وبين اتباع الهوى وما يوازيه من الوقوع في الباطل، وهي:
التكليف، والحرية، والعدالة، والذكورة، وأما شرط كونه من قريش عند الجمهور فلئلا يضعف أمام القبائل بغضاضة.
وانتصب فيضلك بعد فاء السببية في جواب النهي. ومعنى جواب النهي جواب المنهي عنه فهو السبب في الضلال وليس النهي سببا في الضلال. وهذا بخلاف طريقة الجزم في جواب النهي.
وسبيل الله: الأعمال التي تحصل منها مرضاته وهي الأعمال التي أمر الله بها ووعد بالجزاء عليها، شبهت بالطريق الموصل إلى الله، أي إلى مرضاته. وجملة: إن الذين يضلون عن سبيل الله إلى آخرها يظهر أنها مما خاطب الله به داود، وهي عند أصحاب العدد آية واحدة من قوله: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض إلى يوم الحساب، فهي في موقع العلة للنهي، فكانت (إن) مغنية عن فاء التسبب والترتب، فالشيء الذي يفضي إلى العذاب الشديد خليق بأن ينهى عنه، وإن كانت الجملة كلاما منفصلا عن خطاب داود كانت معترضة ومستأنفة استئنافا بيانيا لبيان خطر الضلال عن سبيل الله.
والعموم الذي في قوله الذين يضلون عن سبيل الله يكسب الجملة وصف التذييل أيضا وكلا الاعتبارين موجب لعدم عطفها. وجيء بالموصول **للإيماء** إلى أن الصلة علة لاستحقاق العذاب. واللام في لهم عذاب للاختصاص، والباء في بما نسوا يوم الحساب سببية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٣

و (ما) مصدرية، أي بسبب نسيانهم يوم الحساب، وتتعلق الباء بالاستقرار الذي ناب عنه المجرور في قوله: لهم عذاب.

والنسيان: مستعار للإعراض الشديد لأنه يشبه نسيان المعرض عنه كما في قوله تعالى: نسوا الله فنسيهم [التوبة: ٦٧] ، وهو مراتب أشدها إنكار البعث والجزاء، قال تعالى: فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم [السجدة: ١٤] . ودونه مراتب كثيرة تكون على وفق مراتب العذاب لأنه إذا كان السبب ذا مراتب كانت المسببات تبعا لذلك.". (١)

١٢٣٢. ٤٤١-"ووصفه ب بارد إيماء إلى أن به زوال ما بأيوب من الحمى من القروح.

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء»

، أي نافع شاف، وبالتنوين استغني عن وصف شراب إذ من المعلوم أن الماء شراب فلولا إرادة التعظيم بالتنوين لكان الإخبار عن الماء بأنه شراب إخبارا بأمر معلوم، ومرجع تعظيم شراب إلى كونه عظيما لأيوب وهو شفاء ما به من مرض.

[٤٣]

[سورة ص (٣٨) : آية ٤٣]

ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب (٤٣)

اقتصار أيوب في دعائه على التعريض بإزالة النصب والعذاب يشعر بأنه لم يصب بغير الضر في بدنه. ويحتمل أن يكون قد أصابه تلف المال وهلاك العيال كما جاء في كتاب «أيوب» من كتب اليهود فيكون اقتصاره على النصب والعذاب في دعائه لأن في هلاك الأهل والمال نصبا وعذابا للنفس. ولم يتقدم في هذه الآية ولا في آية سورة الأنبياء أن أيوب رزىء أهله فيجوز أن يكون معنى ووهبنا له أهله ومثلهم معهم أن الله أبقى له أهله فلم يصب فيهم بما يكره وزاده بنين وحفدة.

ويكون فعل وهبنا مستعملا في حقيقته ومجازه. ويؤيد هذا المحمل وقوع كلمة معهم عقب كلمة ومثلهم فإن (مع) تشعر بأن الموهوب لاحق بأهله ومزيد فيهم فليس في الآية تقدير

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٤٥

مضاف في قوله: ووهبنا له أهله.
وليس في الأخبار الصحيحة ما يخالف هذا إلا أقوالا عن المفسرين ناشئة عن أفهام مختلفة.
ويحتمل أن يكون مما أصابه أنه هلك وأولاده في مدة ضره كما جاء في كتاب «أيوب» من كتب اليهود وأقوال بعض السلف من المفسرين فيتعين تقدير مضاف، أي وهبنا له عوض أهله. وألفاظ الآية تنبو عن هذا الوجه الثاني.". (١)

١٢٣٣. ٤٤٢-"إلى غيرهم وذلك كناية عن قصر محبتهن على أزواجهن.
ويجوز أن يكون المعنى: أنهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن فلا تتوجه أنظار أزواجهن إلى غيرهن اكتفاء منهم بحسنهن وذلك كناية عن تمام حسنهن في أنظار أزواجهن بحيث لا يتعلق استحسانهم بغيرهن، فالأطراف المقصورة أطراف أزواجهن، وإسناد قاصرات إليهن مجاز عقلي إذ كان حسنهن سبب قصر أطراف الأزواج فإنهن ملابسات سبب سبب القصر.
وأتراب: جمع ترب بكسر التاء وسكون الراء، وهو اسم لمن كان عمره مساويا عمر من يضاف إليه، تقول: هو ترب فلان، وهي ترب فلانة، ولا تلحق لفظ ترب علامة تأنيث.
والمراد: أنهن أتراب بعضهن لبعض، وأنهن أتراب لأزواجهن لأن التحاب بين الأقران أمكن.
والظاهر أن أتراب وصف قائم بجميع نساء الجنة من مخلوقات الجنة ومن النساء اللاتي كن أزواجا في الدنيا لأصحاب الجنة، فلا يكون بعضهن أحسن شبابا من بعض فلا يلحق بعض أهل الجنة غض إذا كانت نساء غيره أجد شبابا، ولئلا تتفاوت نساء الواحد من المتقين في شرخ الشباب، فيكون النعيم بالأقل شبابا دون النعيم بالأجد منهن.
وتقدم الكلام على وعندهم قاصرات الطرف عين في سورة الصافات [٤٨] .
[٥٣]

[سورة ص (٣٨) : آية ٥٣]
هذا ما توعدون ليوم الحساب (٥٣)
استئناف ابتدائي فيجوز أن يكون كلاما قيل للمتقين وقت نزول الآية فهو مؤكد لمضمون

---
(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٧١

جملة وإن للمتقين لحسن مآب [ص: ٤٩] . والإشارة إذن إلى ما سبق ذكره من قوله: لحسن مآب فاسم الإشارة هنا مغاير لاستعماله المتقدم في قوله: هذا ذكر [ص: ٤٩] . وجيء باسم الإشارة القريب تنزيلا للمشار إليه منزلة المشار إليه الحاضر **إيماء** إلى أنه محقق وقوعه تبشيرا للمتقين. والتعبير بالمضارع في قوله: توعدون على ظاهره.". (١)

١٢٣٤. ٤٤٣-"الاستفهام، وحذفت همزة الوصل من فعل (اتخذنا) لأنها لا تثبت مع همزة الاستفهام لعدم صحة الوقف على همزة الاستفهام، فجملة أتخذناهم بدل من جملة ما لنا لا نرى رجالا. وأم حرف إضراب، والتقدير: بل زاغت عنهم أبصارنا.

والزيغ: الميل عن الجهة، أي مالت أبصارنا عن جهتهم فلم تنظرهم.

و (ال) في الأبصار عوض عن المضاف إليه، أي أبصارنا، فيكون المعنى: أكان تحقيرنا إياهم في الدنيا خطأ. وكني عنه باتخاذهم سخريا لأن في فعل أتخذناهم **إيماء** إلى أنهم ليسوا بأهل للسخرية، وهذا تندم منهم على الاستسخار بهم.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف أتخذناهم بهمزة وصل على أن الجملة صفة رجالا ثانية وعليه تكون أم منقطعة للإضراب عن قولهم أتخذناهم سخريا أي بل زاغت عنهم الأبصار.

والسخري: اسم مصدر سخر منه، إذا استهزأ به، فالسخري الاستهزاء، وهو دال على شدة الاستهزاء لأن ياءه في الأصل ياء نسب وياء النسب تأتي للمبالغة في الوصف.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين. وقرأه الباقون بكسر السين كما تقدم في سورة المؤمنين.

[٦٤]

[سورة ص (٣٨) : آية ٦٤]

إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤)

تذييل وتنهية لوصف حال الطاغين وأتباعهم، وعذابهم، وجدالهم. وتأكيد الخبر بحرف التوكيد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٨٣

منظور فيه لما يلزم الخبر من التعريض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم بأنه حق، أي ثابت كقوله: وإن الدين لواقع [الذاريات: ٦] .". (١)

١٢٣٥. ٤٤٤-"والخلق العجيب في أطوار تكون الإنسان والحيوان. والاستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عند ما يصيبهم الضر. والدعوة إلى التدبر فيما يلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول. وتنبيههم على كفرانهم شكر النعمة. والمقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله. وأن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل. والتحذير من أن يحل بالمشركين ما حل بأهل الشرك من الأمم الماضية. وإعلام المشركين بأنهم وشركاءهم لا يعبأ بهم عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم فالله غني عن عبادتهم، ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأن الله كفاه إياهم جميعا. وإثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت.

وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها. وضرب لهم مثله بالنوم والإفاقة بعده وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين. وتمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ودعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم، ودعاء

المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر. وختمت بوصف حال يوم الحساب.

وتخلل ذلك كله وعيد ووعد، وأمثال، وترهيب وترغيب، ووعظ **وإيماء** بقوله: قل هل يستوي الذين يعلمون [الزمر: ٩] الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم وأن المشركين أهل جهالة، وذلك تنويه برفعة العلم ومذمة الجهل.

[١- ٢]

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١ إلى ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٣١٣/٢٣

١٢٣٦. ٤٤٥-"تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (١) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (٢)

فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جعلت مقدمة لهذه السورة لأن القرآن جامع لما حوته وغيره من أصول الدين.

ف تنزيل مصدر مراد به معناه المصدري لا معنى المفعول، كيف وقد أضيف إلى الكتاب وأصل الإضافة أن لا تكون بيانية.

وتنزيل: مصدر نزل المضاعف وهو مشعر بأنه أنزله منجما. واختيار هذه الصيغة هنا للرد على الطاعنين لأنهم من جملة ما تعللوا به قولهم: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] . وقد تقدم الفرق بين المضاعف والمهموز في مثله في المقدمة الأولى.

والتعريف في الكتاب للعهد، وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير وكل مجادلة. وأجرى على اسم الجلالة الوصف ب العزيز الحكيم للإيماء إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين، فيكون عزيزا قال تعالى: وإنه لكتاب عزيز [فصلت: ٤١] ، أي القرآن، عزيز غالب بالحجة لمن كذب به، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه، ويكون حكيما مثل صفة منزله.

والحكيم: إما بمعنى الحاكم، فالقرآن أيضا حاكم عن معارضيه بالحجة، وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان قال تعالى: مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه [المائدة: ٤٨] .

وإما بمعنى: المحكم المتقن، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ، وإما بمعنى الموصوف بالحكمة، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزله بها. وهذه

معان مرادة من الآية فيما نرى، على أن في هذين الوصفين إيماء إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وبإعجازه العلمي، إذا اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها كما بيناه في المقدمة العاشرة.

وفي وصف الحكيم إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة يؤتي الحكمة من يشاء [البقرة:

٢٦٩]. ". (١)

١٢٣٧. ٤٤٦-"وهذا **إيماء** إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالشكر بإفراده بالعبادة، **وإيماء** إلى أن إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات:
٥٦].

فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله مخلصا له الدين، فالمأمور به عبادة خاصة، ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملا في معنى الأمر بالدوام عليها. ولذلك أيضا لم يؤت في هذا التركيب بصيغة قصر خلاف قوله: بل الله فاعبد [الزمر: ٦٦] لأن المقصود هنا زيادة التصريح بالإخلاص والرسول صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يعبد غير الله. وقد توهم ابن الحاجب من عدم تقديم المعمول هنا أن تقديم المفعول في قوله تعالى: بل الله فاعبد في آخر هذه السورة لا يفيد القصر وهي زلة عالم.

والإخلاص: الإمحاض وعدم الشوب بمغاير، وهو يشمل الإفراد. وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي إفراد الله بالإلهية. وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد وأخص منه وهو أن تكون عبادة النبيء صلى الله عليه وسلم ربه غير مشوبة بحظ دنيوي كما قال تعالى: قل ما أسئلكم عليه من أجر [ص: ٨٦] .

والدين: المعاملة. والمراد به هنا معاملة المخلوق ربه وهي عبادته. فالمعنى:

مخلصا له العبادة غير خالط بعبادته عبادة غيره. وانتصب مخلصا على الحال من الضمير المستتر في فاعبد.

ولما أفاد قوله: مخلصا له الدين معنى إفراده بالعبادة لم يكن هنا مقتض لتقديم مفعول فاعبد الله على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله: مخلصا له الدين، وبذلك

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٣

يبطل استناد الشيخ ابن الحاجب لهذه الآية في توجيه رأيه بأنكار إفادة تقديم المفعول على فعله التخصيص، وتضعيفه لاستدلال أيمة المعاني بقوله تعالى: بل الله فاعبد آخر السورة [٦٦] بأنه تقديم لمجرد". (١)

١٢٣٨. ٤٤٧-"إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار.

يجوز أن يكون خبرا ثانيا عن قوله: والذين اتخذوا من دونه أولياء وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله وعن كونهم كفارين بسبب ذلك، وكناية عن كونهم ضالين.

ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا لأن قوله: إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون يثير في نفوس السامعين سؤالا عن مصير حالهم في الدنيا من جراء اتخاذهم أولياء من دونه، فيجاب بأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، أي يذرهم في ضلالهم ويمهلهم إلى يوم الجزاء بعد أن بين لهم الدين فخالفوه.

والمراد ب من هو كاذب كفار الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي المشركين، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم، وعدل عنه إلى الإضمار لما في الصلة من وصفهم بالكذب وقوة الكفر.

وهداية الله المنفية عنهم هي: أن يتداركهم الله بلطفه بخلق الهداية في نفوسهم، فالهداية المنفية هي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ وهو ظاهر، فالمراد نفي عناية الله بهم، أي العناية التي بها تيسير الهداية عليهم حتى يهتدوا، أي لا يوفقهم الله بل يتركهم على رأيهم غضبا عليهم. والتعبير عنهم بطريق الموصولية لما في الموصول من الصلاحية لإفادة **الإيماء** إلى علة الفعل ليفيد أن سبب حرمانهم التوفيق هو كذبهم وشدة كفرهم.

فإن الله إذا أرسل رسوله إلى الناس فبلغهم كانوا عند ما يبلغهم الرسول رسالة ربه بمستوى متحد عند الله بما هم عبيد مربوبون ثم يكونون أصنافا في تلقيهم الدعوة فمنهم طالب هداية بقبول ما فهمه ويسأل عما جهله، ويتدبر وينظر ويسأل، فهذا بمحل الرضى من ربه فهو يعينه ويشرح صدره للخير حتى يشرق باطنه بنور الإيمان كما قال تعالى: فمن يرد الله أن

(١) التحرير والتنوير ٣١٦/٢٣

يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا [الأنعام: ١٢٥]
وقال:
ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم [الحجرات: ٧، ٨] .". (١)

١٢٣٩. ٤٤٨-"وفي استحضارهم بالموصول وصلته **إيماء** إلى أن تقرر إيمانهم مما يقتضي التقوى والامتثال للمهاجرة. وجملة للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وما عطف عليها استئناف بياني لأن إيراد الأمر بالتقوى للمتصفين بها يثير سؤال سائل عن المقصود من ذلك الأمر فأريد بيانه بقوله: أرض الله واسعة، ولكن جعل قوله للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة تمهيدا له لقصد تعجيل التكفل لهم بموافقة الحسنى في هجرتهم.
ويجوز أن تكون جملة للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة مسوقة مساق التعليل للأمر بالتقوى الواقع بعدها.
والمراد بالذين أحسنوا: الذين اتقوا الله وهم المؤمنون الموصوفون بما تقدم من قوله: أمن هو قانت [الزمر: ٩] الآية، لأن تلك الخصال تدل على الإحسان المفسر
بقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»
، فعدل عن التعبير بضمير
الخطاب بأن يقال: لكم في الدنيا حسنة، إلى الإتيان باسم الموصول الظاهر وهو الذين أحسنوا ليشمل المخاطبين وغيرهم ممن ثبتت له هذه الصلة. وذلك في معنى: اتقوا ربكم لتكونوا محسنين فإن للذين أحسنوا حسنة عظيمة فكونوا منهم. وتقديم المسند في للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة للاهتمام بالمحسن إليهم وأنهم أحرياء بالإحسان.
والمراد بالحسنة الحالة الحسنة، واستغني بالوصف عن الموصوف على حد قوله:
ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [البقرة: ٢٠١] . وقوله في عكسه وجزاء سيئة سيئة مثلها [الشورى: ٤٠] . وتوسيط قوله: في هذه الدنيا بين للذين أحسنوا وبين حسنة نظم مما اختص به القرآن في مواقع الكلم لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم، وهذا من طرق

(١) التحرير والتنوير ٣٢٣/٢٣

إعجاز القرآن. فيجوز أن يكون قوله: في هذه الدنيا حالا من حسنة قدم على صاحب الحال للتنبيه من أول الكلام على أنها جزاؤهم في الدنيا، لقلة خطور ذلك في بالهم ضمن الله لهم تعجيل الجزاء الحسن في الدنيا قبل ثواب الآخرة على". (١)

١٢٤٠. ٤٤٩-"والمعنى: أن الله وعدهم أن يلاقوا حسنة إذا هم هاجروا من ديار الشرك. وليس حسن العيش ولا ضده مقصورا على مكان معين وقد وقع التصريح بما كني عنه هنا في قوله تعالى: قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها [النساء: ٩٧] .

والمراد: **الإيماء** إلى الهجرة إلى الحبشة. قال ابن عباس في قوله تعالى: قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة.

ونكتة الكناية هنا إلقاء الإشارة إليهم بلطف وتأنيس دون صريح الأمر لما في مفارقة الأوطان من الغم على النفس، وأما الآية التي في سورة النساء فإنها حكاية توبيخ الملائكة لمن لم يهاجروا.

وموقع جملة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب موقع التذييل لجملة للذين أحسنوا وما عطف عليها لأن مفارقة الوطن والتغرب والسفر مشاق لا يستطيعها إلا صابر، فذيل الأمر به بتعظيم أجر الصابرين ليكون إعلاما للمخاطبين بأن أجرهم على ذلك عظيم لأنهم حينئذ من الصابرين الذين أجرهم بغير حساب.

والصبر: سكون النفس عند حلول الآلام والمصائب بأن لا تضجر ولا تضطرب لذلك، وتقدم عند قوله تعالى: وبشر الصابرين في سورة البقرة [١٥٥] . وصيغة العموم في قوله: الصابرين تشمل كل من صبر على مشقة في القيام بواجبات الدين وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ومراتب هذا الصبر متفاوتة وبقدرها يتفاوت الأجر.

والتوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي تاما. والأجر: الثواب في الآخرة كما هو مصطلح القرآن. وقوله: بغير حساب كناية عن الوفرة والتعظيم لأن الشيء الكثير لا يتصدى لعده، والشيء العظيم لا يحاط بمقداره فإن الإحاطة بالمقدار ضرب من الحساب وذلك

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٥٣

شأن ثواب الآخرة الذي لا يخطر على قلب بشر.". (١)

١٢٤١. ٤٥٠-"اللذين وجه الخطاب السابق إليهما، وتعيين كل لما وجه إليه منطو بقرينة السياق وقرينة ما بعده من قوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه [الزمر: ١٥] .
وإعادة الأمر بالقول على هذا للتأكيد اهتماما بهذا المقول، وأما على الوجه الثاني من الوجهين المتقدمين في المراد من توجيه المطلب في قوله: إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين [الزمر: ١١] الآية فتكون إعادة فعل قل لأجل اختلاف المقصودين بتوجيه القول إليهم، وقد تقدم قول مقاتل: قال كفار قريش للنبيء: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى.
[١٤- ١٥]

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١٤ إلى ١٥]
قل الله أعبد مخلصا له ديني (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين (١٥)
قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه (١٤) .
أمر بأن يعيد التصريح بأنه يعبد الله وحده تأكيدا لقوله: قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين [الزمر: ١١] ، لأهميته، وإن كان مفاد الجملتين واحدا لأنهما معا تفيدان أنه لا يعبد إلا الله تعالى باعتبار تقييد أعبد الله الأول بقيد مخلصا له الدين وباعتبار تقديم المفعول على أعبد الثاني فتأكد معنى التوحيد مرتين ليتقرر ثلاث مرات، وتمهيدا لقوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه وهو المقصود.
والفاء في قوله: فاعبدوا إلخ لتفريع الكلام الذي بعدها على الكلام قبلها فهو تفريع ذكري.
والأمر في قوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه مستعمل في معنى التخلية، ويعبر عنه بالتسوية.
والمقصود التسوية في ذلك عند المتكلم فتكون التسوية كناية عن قلة
الاكتراث بفعل المخاطب، أي أن ذلك لا يضرني كقوله في سورة الكهف [٢٩] : فمن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٥/٢٣

شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، أي اعبدوا أي شيء شئتم عبادته من دون الله. وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة **إيماء** إلى أن رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل.". (١)

١٢٤٢. ٤٥١-"والجملة معطوفة على جملة قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم [غافر: ١٥] الآية.

والتعبير عن المؤمنين ب- الذين اجتنبوا الطاغوت لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو لهم البشرى، وهذا مقابل قوله: ذلك يخوف الله به عباده [الزمر: ١٦] .

والطاغوت: مصدر أو اسم مصدر طغا على وزن فعلوت بتحريك العين بوزن رحموت وملوكت. وفي أصله لغتان الواو والياء لقولهم: طغا طغوا مثل علو، وقولهم: طغوان وطغيان. وظاهر «القاموس» أنه واوي، وإذ كانت لامه حرف علة ووقعت بعدها واو زنة فعلوت استثقلت الضمة عليها فقدموها على العين ليتأتى قلبها ألفا حيث تحركت وانفتح ما قبلها فصار طاغوت بوزن فلعوت بتحريك اللام وتاؤه زائدة للمبالغة في المصدر.

ومن العلماء من جعل الطاغوت اسما أعجميا على وزن فاعول مثل جالوت وطالوت وهارون، وذكره في «الإتقان» فيما وقع في القرآن من المعرب وقال: إنه الكاهن بالحبشية. واستدركه ابن حجر فيما زاده على أبيات ابن السبكي في الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن، وقد تقدم ذكره بأخصر مما هنا عند قوله تعالى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت في سورة النساء [٥١] .

وأطلق الطاغوت في القرآن والسنة على القوي في الكفر أو الظلم، فأطلق على الصنم، وعلى جماعة الأصنام، وعلى رئيس أهل الكفر مثل كعب بن الأشرف. وأما جمعه على طواغيت فذلك على تغليب الإسمية علما بالغلبة إذ جعل الطاغوت لواحد الأصنام وهو قليل، وهو هنا مراد به جماعة الأصنام وقد أجري عليه ضمير المؤنث في قوله: أن يعبدوها باعتبار أنه جمع لغير العاقل، وأجري عليه ضمير جماعة الذكور في قوله تعالى: والذين كفروا أولياؤهم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٩/٢٣

الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات في سورة البقرة [٢٥٧] باعتبار أنه وقع خبرا عن الأولياء وهو جمع مذكر، وباعتبار تنزيلها منزلة العقلاء في زعم عبادها. وأن يعبدوها بدل من الطاغوت بدل اشتمال.". (١)

١٢٤٣. ٤٥٢-"مستعملا في تفاوت الموصوف به في الفضل على غيره فهو للدلالة على قوة الوصف، مثل قوله تعالى: قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه [يوسف: ٣٣] . أثنى الله عليهم بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام نظار في الأدلة الحقيقية نقاد للأدلة السفسطائية. وفي الموصول **إيماء** إلى أن اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله إياهم.

وجملة أولئك الذين هداهم الله مستأنفة لاسترعاء الذهن لتلقي هذا الخبر. وأكد هذا الاسترعاء بجعل المسند إليه اسم إشارة ليتميز المشار إليهم. أكمل تميزه مع التنبيه على أنهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله واستماعهم كلام الله واتباعهم إياه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل.

والإتيان باسم الإشارة عقب ذكر أوصاف أو أخبار طريقة عربية في الاهتمام بالحكم والمحكوم عليه فتارة يشار إلى المحكوم عليه كما هنا وتارة يشار إلى الخبر كما في قوله:

هذا وإن للطاغين لشر مآب في سورة [ص: ٥٥] .

وقد أفاد تعريف الجزأين في قوله: أولئك الذين هداهم الله قصر الهداية عليهم وهو قصر صفة على موصوف وهو قصر إضافي قصر تعيين، أي دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

ومعنى هداهم الله أنهم نالوا هذه الفضيلة بأن خلق الله نفوسهم قابلة للهدى الذي يخاطبهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فتهيأت نفوسهم لذلك وأقبلوا على سماع الهدى بشراشرهم وسعوا إلى ما يبلغهم إلى رضاه وطلبوا النجاة من غضبه. وليس المراد بهدي الله إياهم أنه وجه إليهم أوامر إرشاده لأن ذلك حاصل للذين خوطبوا بالقرآن فأعرضوا عنه ولم يتطلبوا البحث

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٤/٢٣

عما يرضي الله تعالى فأصروا على الكفر.". (١)

١٢٤٤. ٤٥٣-"يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش
وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها» .
[٢٠]

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٠]
لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد (٢٠)
أعيدت بشارة الذين اجتنبوا الطاغوت تفصيلا للإجمال الواقع من قبل. وافتتح الإخبار عنهم بحرف الاستدراك لزيادة تقرير الفارق بين حال المؤمنين وحال المشركين والمضادة بينهما، فحرف الاستدراك هنا لمجرد الإشعار بتضاد الحالين ليعلم السامع أنه سيتلقى حكما مخالفا لما سبق كما تقدم في قوله تعالى: ولكن انظر إلى الجبل في سورة الأعراف [١٤٣] ، وقوله: ولكن كره الله انبعاثهم في سورة براءة [٤٦] ، فحصل في قضية الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت تقرير على تقرير ابتدئ بالإشارتين في قوله: أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب [الزمر: ١٨] ثم بما أعقب من تفريع حال أضدادهم على ذكر أحوالهم ثم بالاستدراك الفارق بين حالهم وحال أضدادهم.
والمراد بالذين اتقوا ربهم: هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله واتبعوا أحسن القول واهتدوا بهدي الله وكانوا أولي الألباب، فعدل عن الإتيان بضميرهم هنا إلى الموصول لقصد مدحهم بمدلول الصلة وللإيماء إلى أن الصلة سبب للحكم المحكوم به على الموصول وهو نوالهم الغرف. وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف الرب المضاف إلى ضمير المتقين لما في تلك الإضافة من تشريفهم برضى ربهم عنهم.

---
(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٦٦

واللام في لهم للاختصاص. والمعنى: أنها لهم في الجنة، أي أعدت لهم في الجنة.

والغرف: جمع غرفة بضم الغين وسكون الراء، وهي البيت المرتكز على بيت آخر، ويقال لها العلية (بضم العين وكسرها وبكسر اللام مشددة والتحتية كذلك)". (١)

١٢٤٥. ٤٥٤-"الفاعل في اقتضائه الاتصاف بالوصف في زمن الحال فيكون **إيماء** إلى أن الجنة مخلوقة من الآن.

ويجوز عندي أن يكون الوصف احترازا عن نوع من الغرف تكون نحتا في الحجر في الجبال مثل غرف ثمود، ومثل ما يسميه أهل الجنوب التونسي غرفا، وهي بيوت منقورة في جبال (مدنين) و (مطماطة) و (تطاوين) وانظر هل تسمى تلك البيوت غرفا في العربية فإن كتب اللغة لم تصف مسمى الغرفة وصفا شافيا. ويجوز أن يكون مبنية وصفا للغرف باعتبار ما دل عليه لفظها من معنى المبني المعتلي فيكون الوصف دالا على تمكن المعنى الموصوف، أي مبنية بناء بالغا الغاية في نوعه كقولهم: ليل أليل، وظل ظليل.

وجري الأنهار من تحتها من كمال حسن منظرها للمطل منها. ومعنى من تحتها أن الأنهار تمر على ما يجاور تحتها، كما تقدم في قوله تعالى: جنات تجري من تحتها الأنهار في آل عمران [١٥] ، فأطلق اسم «تحت» على مجاوره.

ويجوز أن يكون المعنى: تجري من تحت أسسها الأنهار، أي تخترق أسسها وتمر

فيها وفي ساحاتها، وذلك من أحسن ما يرى في الديار كديار دمشق وقصر الحمراء بالأندلس وديار أهل الترف في مدينة فاس فيكون إطلاق «تحت» حقيقة.

والمعنى: أن كل غرفة منها يجري تحتها نهر فهو من مقابلة الجمع ليقسم على الآحاد، وذلك بأن يصعد الماء إلى كل غرفة فيجري تحتها.

ووعد الله مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لنفسه لأن قوله: لهم غرف في معنى: وعدهم الله غرفا وعدا منه. ويجوز انتصابه على الحال من غرف على حد قوله: وعدا علينا، وإضافة وعد إلى اسم الجلالة مؤذنة بأنه وعد موفى به فوقعت جملة لا يخلف الله الميعاد بيانا لمعنى وعد الله.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٣/٢٣

والميعاد: مصدر ميمي بمعنى الوعد.". (١)

١٢٤٦. ٤٥٥-"الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية بدليل من مخلوقاته التي يشاهدها الناس مشاهدة متكررة، فيكون قوله تعالى: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء إلى قوله: إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب (١) متصلا بقوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها [الزمر: ٦] المتصل بقوله تعالى: خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار [الزمر: ٥] ، ويكون ما بيناه من تمثيل حال نزول القرآن وانتفاع المؤمنين إدماجا في هذا الاستدلال. وعلى كلا الوجهين أدمج في أثناء الكلام **إيماء** إلى إمكان إحياء الناس حياة ثانية.

والكلام استفهام تقريري، والخطاب لكل من يصلح للخطاب فليس المراد به مخاطبا معينا.

والرؤية بصرية.

وقوله: أنزل من السماء ماء تقدم نظيره في قوله: وهو الذي أنزل من السماء ماء في سورة الأنعام [٩٩] .

وفسلكه أدخله، أي جعله سالكا، أي داخلا، ففعل سلك هنا متعد وقد تقدم عند قوله تعالى: وسلك لكم فيها سبلا في سورة طه [٥٣] ، وذكرنا هنالك أن فعل سلك يكون قاصرا ومتعديا، وهذا الإدخال دليل ثان.

وينابيع جمع ينبوع وهو العين من الماء، تقدم في قوله تعالى: حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا في سورة الإسراء [٩٠] . وانتصب ينابيع على الحال من ضمير ماء. وتصيير الماء الداخل في الأرض ينابيع دليل ثالث على عظيم قدرة الله.

وعطف ب ثم قوله: ثم يخرج به زرعا لإفادة التراخي الرتبي بحرف ثم كشأنها في عطف الجمل لأن إخراج الزرع من الأرض بعد إقحالها أوقع في نفوس الناس لأنه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم وإذ هو المقصود من المطر. وهذا الإخراج دليل رابع.

والألوان: جمع لون، واللون: كيفية لائحة على ظاهر الجسم في الضوء، وتقدم في سورة فاطر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٣٧٥

(١) في المطبوعة إنما يتذكر أولوا الألباب.". (١)

١٢٤٧. ٤٥٦-"مقام الإضمار للإيماء إلى أن ما يلاقونه من العذاب مسبب على ظلمهم، أي شركهم.

والمعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب فلا يجد وقاية تنجيه من ذوق العذاب فيقال لهم: ذوقوا العذاب.

ويجوز أن يكون المراد بالظالمين جميع الذين أشركوا بالله من الأمم غير خاص بالمشركين المتحدث عنهم، فيكون الظالمين إظهارا على أصله لقصد التعميم، فتكون الجملة في معنى التذييل، أي ويقال لهؤلاء وأشباههم، ويظهر بذلك وجه تعقيبه بقوله تعالى: كذب الذين من قبلهم [الزمر: ٢٥] .

وجاء فعل وقيل بصيغة المضي وهو واقع في المستقبل لأنه لتحقق وقوعه نزل منزلة فعل مضى. ويجوز أن يكون جملة وقيل للظالمين في موضع الحال بتقدير (قد) ولذلك لا يحتاج إلى تأويل صيغة المضي على معنى الأمر المحقق وقوعه.

والذوق: مستعار لإحساس ظاهر الجسد لأن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجلد فوجه الشبه قوة الجنس.

والمذوق: هو العذاب فهو جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه، فجعل المذوق نفس ما كانوا يكسبون مبالغة مشيرة إلى أن الجزاء وفق أعمالهم وأن الله عادل في تعذيبهم. وأوثر تكسبون على (تعملون) لأن خطابهم كان في حال اتقائهم سوء العذاب ولا يخلو حال المعذب من التبرم الذي هو كالإنكار على معذبه. فجيء بالصلة الدالة على أن ما ذاقوه جزاء ما اكتسبوه قطعا لتبرمهم.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٧/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ٣٩٤/٢٣

١٢٤٨. ٤٥٧-"[٣٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الزمر) \

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٣٢]

فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين (٣٢)

أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها تفريع القضاء عن الخصومة التي في قوله:

ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون [الزمر: ٣١] إذ قد علمت أن الاختصام كني به عن الحكم بينهم فيما خالفوا فيه وأنكروه، والمعنى: يقضي بينكم يوم القيامة فيكون القضاء على من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه إذ هو الذي لا أظلم منه، أي فيكون القضاء على المشركين إذ كذبوا على الله بنسبة الشركاء إليه والبنات، وكذبوا بالصدق وهو القرآن، وما صدق ممن كذب على الله الفريق الذين في قوله: وإنهم ميتون [الزمر: ٣٠] وهم المعنيون في قوله تعالى: وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون [الزمر: ٢٤] .

وقد كني عن كونهم مدينين بتحقيق أنهم أظلم لأن من العدل أن لا يقر الظالم على ظلمه فإذا وصف الخصم بأنه ظالم علم أنه محكوم عليه كما قال تعالى حكاية عن داود:

قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه [ص: ٢٤] . وقد عدل عن صوغ الحكم عليهم بصيغة الإخبار إلى صوغه في صورة الاستفهام **للإيماء** إلى أن السامع لا يسعه إلا الجواب بأنهم أظلم.

فالاستفهام مستعمل مجازا مرسلا أو كناية مراد به أنهم أظلم الظالمين وأنه لا ظالم أظلم منهم، فآل معناه إلى نفي أن يكون فريق أظلم منهم فإنهم أتوا أصنافا من". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٥

١٢٤٩. ٤٥٨-"الظلم العظيم: ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته إذ زعموا أن له شركاء في الربوبية، والكذب عليه بادعاء أنه أمرهم بما هم عليه من الباطل، وظلم الرسول صلى الله عليه وسلم بتكذيبه، وظلم القرآن بنسبته إلى الباطل، وظلم المؤمنين بالأذى، وظلم حقائق العالم بقلبها وإفسادها، وظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد.

وعدل عن الإتيان بضميرهم إلى الإتيان بالموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه كونهم أظلم الناس. وإنما اقتصر في التعليل على أنهم كذبوا على الله وكذبوا بالصدق لأن هذين الكذبين هما جماع ما أتوا به من الظلم المذكور آنفا.

والصدق: ضد الكذب. والمراد بالصدق القرآن الذي جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم، ومجيء الصدق إليهم: بلوغه إياهم، أي سماعهم إياه وفهمهم فإنه بلسانهم وجاء بأفصح بيان بحيث لا يعرض عنه إلا مكابر مؤثر حظوظ الشهوة والباطل على حظوظ الإنصاف والنجاة.

وفي الجمع بين كلمة (الصدق) وفعل كذب محسن الطباق.

وإذ جاءه متعلق ب كذب، وإذ ظرف زمن ماض وهو مشعر بالمقارنة بين الزمن الذي تدل عليه الجملة المضاف إليها، وحصول متعلقه، فقوله: إذ جاءه يدل

على أنه كذب بالحق بمجرد بلوغه إياه بدون مهلة، أي بادر بالتكذيب بالحق عند بلوغه إياه من غير وقفة لإعمال رؤية ولا اهتمام بميز بين حق وباطل.

وجملة أليس في جهنم مثوى للكافرين مبينة لمضمون جملة فمن أظلم ممن كذب على الله أي أن ظلمهم أوجب أن يكون مثواهم في جهنم.

والاستفهام تقريري، وإنما وجه الاستفهام إلى نفي ما المقصود التقرير به جريا". (١)

١٢٥٠. ٤٥٩-"ووعد الإيجاب، يقال: لك عندي كذا أي ألتزم لك بكذا، ثم يجوز أن الله يلهمهم أن يشاءوا ما لا يتجاوز قدر ما عين الله من الدرجات في الجنة فإن أهل الجنة متفاوتون في الدرجات.

وفي الحديث: «إن الله يقول لأحدهم: تمنه، فلا يزال يتمنى حتى تنقطع به الأماني فيقول الله لك ذلك وعشرة أمثاله معه»

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٤

. ويجوز أن ما يشاؤن مما يقع تحت أنظارهم في قصورهم ويحجب الله عنهم ما فوق ذلك بحيث لا يسألون إلا ما هو من عطاء أمثالهم وهو عظيم ويقلع الله من نفوسهم ما ليس من حظوظهم. ويجوز أن ما يشاؤن كناية عن سعة ما يعطونه كما
ورد في الحديث «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»
وهذا كما يقول من أسديت إليه بعمل عظيم:
لك علي حكمك، أو لك عندي ما تسأل، وأنت تريد ما هو غاية الإحسان لأمثاله.
وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف ربهم في قوله: عند ربهم **إيماء** إلى أنه
يعطيهم عطاء الربوبية والإيثار بالخير.
ثم نوه بهذا الوعد بقوله: ذلك جزاء المحسنين والمشار إليه هو ما يشاءون لما تضمنه من أنه جزاء لهم على التصديق. وأشير إليه باسم الإشارة لتضمنه تعظيما لشأن المشار إليه. والمراد بالمحسنين أولئك الموصوفون بأنهم المتقون، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم فيقال: ذلك جزاؤهم، فوقع الإظهار في مقام الإضمار لإفادة الثناء عليهم بأنهم محسنون.
والإحسان: هو كمال التقوى لأنه
فسره النبيء صلى الله عليه وسلم بأنه: «أن تعبد الله كأنك تراه»
وأي إحسان وأي تقوى أعظم من نبذهم ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم تصديقا للذي جاء بالصدق وإيثارا لرضى الله على شهوة النفس ورضى العشيرة.". (١)

١٢٥١. ٤٦٠-"إذا ذكر النبيء صلى الله عليه وسلم أن الله واحد أو ذكر المسلمون كلمة لا إله إلا الله اشمأزت قلوب المشركين من ذلك. وكذلك إذا ذكر الله بأنه إله الناس ولم يذكر مع ذكره أن أصنامهم شركاء لله اشمأزت قلوبهم من الاقتصار على ذكر الله فلا يرضون بالسكوت عن وصف أصنامهم بالإلهية وذلك مؤذن بأنهم يسوونها بالله تعالى.
فقوله: وحده لك أن تجعله حالا من اسم الجلالة ومعناه منفردا. ويقدر في قوله: ذكر الله معنى: ذكر بوصف الإلهية ويكون معنى ذكر الله وحده ذكر تفرده بالإلهية. وهذا جار على

(١) التحرير والتنوير ٩/٢٤

قول يونس بن حبيب في وحده. ولك أن تجعله مصدرا وهو قول الخليل بن أحمد، أي هو مفعول مطلق لفعل ذكر لبيان نوعه، أي ذكرا وحدا، أي لم يذكر مع اسم الله أسماء أصنامهم. وإضافة المصدر إلى ضمير الجلالة لاشتهار المضاف إليه بهذا الوحد. وهذا الذكر هو الذي يجري في دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم وفي الصلوات وتلاوة القرآن وفي مجامع المسلمين.
ومعنى إذا ذكر الذين من دونه إذا ذكرت أصنامهم بوصف الإلهية وذلك حين يسمعون أقوال جماعة المشركين في أحاديثهم وإيمانهم باللات والعزى، أي ولم يذكر اسم الله معها فاستبشارهم بالاقتصار على ذكر أصنامهم مؤذن بأنهم يرجحون جانب الأصنام على جانب الله تعالى. والذكر: هو النطق بالاسم. والمراد إذا ذكر المسلمون اسم الله اشمأز المشركون لأنهم لم يسمعوا ذكر آلهتهم وإذا ذكر المشركون أسماء أصنامهم استبشر الذين يسمعونهم من قومهم.
والتعبير عن آلهتهم ب الذين من دونه
دون لفظ:
شركائهم أو شفعائهم، **للإيماء** إلى أن علة استبشارهم بذلك الذكر هو أنه ذكر من هم دون الله، أي ذكر مناسب لهذه الصلة، أي هو ذكر خال عن اسم الله، فالمعنى: وإذا ذكر شركاؤهم دون ذكر الله إذا هم يستبشرون.
والاقتصار على التعرض لهذين الذكرين لأنهما أظهر في سوء نوايا المشركين نحو الله تعالى، وفي بطلان اعتذارهم بأنهم ما يعبدون الأصنام إلا ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، فأما الذكر الذي يذكر فيه اسم الله وأسماء آلهتهم كقولهم في". (١)

١٢٥٢. ٤٦١-"القول تنفيسا عنه من كدر الأسى على قومه، وإعذارا لهم بالنذارة، وإشعارا لهم بأن الحق في جانبهم مضاع، وأن الأجدر بالرسول صلى الله عليه وسلم متاركتهم وأن يفوض الحكم في خلافهم إلى الله. وفي هذا التفويض إشارة إلى أن الذي فوض أمره إلى الله هو الواثق بحقية دينه المطمئن بأن التحكيم يظهر حقه وباطل خصمه.
وابتدئ خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه بالنداء لأن المقام مقام توجيه وتحاكم.
وإجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلهم لحكمه وشمول

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٩

علمه لدخائلهم من محق ومبطل.

والفاطر: الخالق، وفاطر السماوات والأرض فاطر لما تحتوي عليه. ووصف فاطر السماوات والأرض مشعر بصفة القدرة، وتقديمه قبل وصف العلم لأن شعور الناس بقدرته سابق على شعورهم بعلمه، ولأن القدرة أشد مناسبة لطلب الحكم لأن الحكم إلزام وقهر فهو من آثار القدرة مباشرة.

والغيب: ما خفي وغاب عن علم الناس، والشهادة: ما يعلمه الناس مما يدخل تحت الإحساس الذي هو أصل العلوم.

والعدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر في قوله: بين عبادك دون أن يقول:

بيننا، لما في عبادك من العموم لأنه جمع مضاف فيشمل الحكم بينهم في قضيتهم هذه والحكم بين كل مختلفين لأن التعميم أنسب بالدعاء والمباهلة.

وجملة أنت تحكم بين عبادك خبر مستعمل في الدعاء. والمعنى: احكم بيننا.

وفي تلقين هذا الدعاء للنبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أنه الفاعل الحق. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: أنت تحكم لإفادة الاختصاص، أي أنت لا غيرك. وإذ لم يكن في الفريقين من يعتقد أن غير الله يحكم بين الناس في مثل هذا الاختلاف فيكون الرد عليه بمفاد القصر، تعين أن القصر مستعمل كناية تلويحية". (١)

١٢٥٣. ٤٦٢-"وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة. فقلنا:

الموعد أضاة بني غفار، وقلنا: من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحباه. فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام وإذا هو قد فتن فافتتن فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة. وكانوا هم يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله: قل يا عبادي الذين أسرفوا إلى قوله: مثوى للمتكبرين [الزمر: ٦٠] قال عمر فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى فقلت: اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم» اهـ. فقول عمر: «فأنزل الله» يريد أنه سمعه بعد أن هاجر وأنه مما نزل بمكة

---

(١) التحرير والتنوير ٣١/٢٤

فلم يسمعه عمر إذ كان في شاغل تهيئة الهجرة فما سمعها إلا وهو بالمدينة فإن عمر هاجر إلى المدينة قبل النبيء صلى الله عليه وسلم.

فالخطاب بقوله: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم تمهيد بإجمال يأتي بيانه في الآيات بعده من قوله: وأنيبوا إلى ربكم [الزمر: ٥٤] . وبعد هذا فعموم «عبادي» وعموم صلة الذين أسرفوا يشمل أهل المعاصي من المسلمين وإن كان المقصود الأصلي من الخطاب المشركين على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعها.

وقرأ الجمهور يا عبادي الذين أسرفوا بفتح ياء المتكلم، وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب بإسكان الياء. ولعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها وهو قوله تعالى: قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم [الزمر: ١٠] ، أن الخطاب هنا للذين أسرفوا وفي مقدمتهم المشركون وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات (يا) المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلم تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى **إيماء** إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده.

والإسراف: الإكثار. والمراد به هنا الإسراف في الذنوب والمعاصي، وتقدم ذكر الإسراف في قوله تعالى: ولا تأكلوها إسرافا في سورة النساء [٦] وقوله: فلا يسرف في القتل في سورة الإسراء [٣٣] . والأكثر أن يعدى إلى متعلقه بحرف من، وتعديته هنا ب- (على) لأن". (١)

١٢٥٤. ٤٦٣-"السامع يسأل عن سبب اسوداد الوجوه فيجاب بأن في جهنم مثواهم يعني لأن السواد يناسب ما سيلفح وجوههم من مس النار فأجيب بطريقة الاستفهام التقريري بتنزيل السائل المقدر منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم، لمصيرهم إلى النار، فإن للدخائل عناوينها، وهذا الاستفهام كما في قوله تعالى: ليقولوا أهؤلاء من

الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين

[الأنعام: ٥٣] ، وكقول أبي مسعود الأنصاري للمغيرة بن شعبة حين كان أمير الكوفة وقد

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٤

أخر الصلاة يوما «ما هذا يا مغيرة أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم» . وكقول الحجاج في خطبته في أهل الكوفة «ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر» إلخ.

والتكبر: شدة الكبر، ومن أوصاف الله تعالى المتكبر، والكبر: إظهار المرء التعاظم على غيره لأنه يعد نفسه عظيما. وتعريف المتكبرين هنا للاستغراق، وأصحاب التكبر مراتب أقواها الشرك، قال تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [غافر: ٦٠] وهو المعني

بقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان» أخرجه مسلم عن ابن مسعود ، ألا ترى أنه قابله بالإيمان، ودونه مراتب كثيرة متفاوتة في قوة حقيقة ماهية التكبر، وكلها مذمومة. وما يدور على الألسن: أن الكبر على أهل الكبر عبادة، فليس بصحيح.

وفي وصفهم بالمتكبرين **إيماء** إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبا لكبريائهم لأن المتكبر إذا كان سيىء الوجه انكسرت كبرياؤه لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه.

[٦١]

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٦١]

وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون (٦١)

عطف على جملة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة [الزمر: ٦٠] إلى". (١)

١٢٥٥. ٤٦٤-"فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

وانتصب جميعا هنا على الحال من الأرض وتقدم نظيره آنفا في قوله: قل لله الشفاعة جميعا [الزمر: ٤٤] .

والقبضة بفتح القاف المرة من القبض، وتقدم في قوله: فقبضت قبضة من أثر الرسول في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٥١

سورة طه [٩٦] .

والإخبار عن الأرض بهذا المصدر الذي هو بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق للمبالغة في الاتصاف بالمعنى المصدري وإنما صيغ لها وزن المرة تحقيرا لها في جانب عظمة ملك الله تعالى، وإنما لم يجأ بها مضمومة القاف بمعنى الشيء المقبوض لئلا تفوت المبالغة في الاتصاف ولا الدلالة على التحقير فالقبضة مستعارة للتناول استعارة تصريحية، والقبضة تدل على تمام التمكن من المقبوض وأن المقبوض لا تصرف له ولا تحرك.

وهذا إيماء إلى تعطيل حركة الأرض وانقماع مظاهرها إذ تصبح في عالم الآخرة شيئا موجودا لا عمل له وذلك بزوال نظام الجاذبية وانقراض أسباب الحياة التي كانت تمد الموجودات الحية على سطح الأرض من حيوان ونبات.

وطي السماوات: استعارة مكنية لتشويش تنسيقها واختلال أبعاد أجرامها، فإن الطي رد ولف بعض شقق الثوب أو الورق على بعض بعد أن كانت مبسوطة منتشرة على نسق مناسب للمقصود من نشره فإذا انتهى المقصود طوي المنشور، قال تعالى: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده [الأنبياء: ١٠٤] . وإثبات الطي تخييل.

والباء في بيمينه للآلة والسببية. واليمين: وصف لليد ولا يد هنا وإنما هي كناية عن القدرة لأن العمل يكون باليد اليمين قال الشاعر أنشده الفراء والمبرد، قال القرطبي:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها ... تناولت منها حاجتي بيمين". (١)

١٢٥٦. ٤٦٥-"[سورة الزمر (٣٩) : آية ٧٥]

وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)

وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم.

عطف على ما قبله من ذكر أحوال يوم القيامة التي عطف بعضها على بعض ابتداء من قوله تعالى: ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض [الزمر: ٦٨] إن من جملة تلك الأحوال حف الملائكة حول العرش.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٢/٢٤

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم فيكون إيذانا بأنها رؤية دنو من العرش وملائكته، وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش.
والحف: الإحداق بالشيء والكون بجوانبه.
وجملة يسبحون بحمد ربهم حال، أي يقولون أقوالا تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة لحمدهم إياه. فالباء في بحمد ربهم للملابسة تتعلق ب يسبحون.
وفي استحضار الله تعالى بوصف ربهم **إيماء** إلى أن قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق.
وقضي بينهم بالحق.
تأكيد لجملة وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون [الزمر: ٦٩] المتقدمة.
وقيل الحمد لله رب العالمين.
يجوز أن يكون توكيدا لجملة وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده [الزمر: ٧٤] .
ويجوز أن يكون حكاية قول آخر لقائلين من الملائكة والرسل وأهل الجنة، فهو أعم من القول المتقدم الذي هو قول المسوقين إلى الجنة من المتقين، فهذا قولهم يحمدون الله على عدل قضائه وجميع صفات كماله.". (١)

١٢٥٧. ٤٦٦-"الأخذ لأن ذلك الأخذ كان تحقيقا لكلمات الله، أي تصديقا لما أخبرهم به من الوعيد، فالمراد ب الذين كفروا جميع الكافرين، فالكلام تعميم بعد تخصيص فهو تذييل لأن المراد بالأحزاب الأمم المعهودة التي ذكرت قصصها فيكون الذين كفروا أعم.
وبذلك يكون التشبيه في قوله:
وكذلك حقت كلمات ربك جاريا على أصل التشبيه من المغايرة بين المشبه والمشبه به، وليس هو من قبيل قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] ونظائره.
ويجوز أن يكون المراد ب الذين كفروا عين المراد بقوله آنفا: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا [غافر: ٤] أي مثل أخذ قوم نوح والأحزاب حقت كلمات ربك على كفار قومك، أي حقت عليهم كلمات الوعيد إذا لم يقلعوا عن كفرهم.

---
(١) التحرير والتنوير ٧٤/٢٤

و (كلمات الله) هي أقواله التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذبين، وعلى الذين كفروا يتعلق ب حقت.

وقوله: أنهم أصحاب النار يجوز أن يكون بدلا من كلمة ربك بدلا مطابقا فيكون ضمير أنهم عائد إلى الذين كفروا، أي حق عليهم أن يكونوا أصحاب النار، وفي هذا **إيماء** إلى أن الله غير معاقب أمة الدعوة المحمدية بالاستئصال لأنه أراد أن يخرج منهم ذرية مؤمنين.

ويجوز أن يكون على تقدير لام التعليل محذوفة على طريقة كثرة حذفها قبل (أن) .

والمعنى: لأنهم أصحاب النار، فيكون ضمير أنهم عائدا إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا.

وقرأ الجمهور كلمة ربك بالإفراد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع، والإفراد هنا مساو للجمع لأن المراد به الجنس بقرينة أن الضمير المجرور ب (على) تعلق بفعل حقت وهو ضمير جمع فلا جرم أن تكون الكلمة جنسا صادقا بالمتعدد بحسب تعدد أزمان كلمات الوعيد وتعدد الأمم المتوعدة.". (١)

١٢٥٨. ٤٦٧-"سأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأن الأهم أن يسأل عن ضد ذلك، وفي هذا الأسلوب

إيماء ورمز إلى أن المهم من هذه الآيات كلها هو موعظة أهل الشرك رجوعا إلى قوله: وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار [غافر: ٦] والمراد ب الذين كفروا هنا مشركو أهل مكة، فإنهم المقصود بهذه الأخبار كما تقدم آنفا في قوله: ويستغفرون للذين آمنوا [غافر: ٧] .

والمعنى: أنهم يناديهم الملائكة تبليغا عن رب العزة، قال تعالى: أولئك ينادون من مكان بعيد [فصلت: ٤٤] وهو بعد عن مرتبة الجلال، أي ينادون وهم في جهنم كما دل عليه قوله: فهل إلى خروج من سبيل [غافر: ١١] .

واللام في لمقت الله لام القسم. والمقت: شدة البغض. وإذ تدعون ظرف ل مقتكم أنفسكم.

(١) التحرير والتنوير ٨٨/٢٤

وإذ ظرف للزمن الماضي، أي حين كنتم تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في الدنيا بقرينة تدعون وجيء بالمضارع في تدعون وفتكفرون
للدلالة على تكرر دعوتهم إلى الإيمان وتكرر كفرهم، أي تجدده.
ومعنى: مقتهم أنفسهم حينئذ أنهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومغبة سوء، فكان فعلهم ذلك شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضر والكيد، وهذا كما يقال: فلان عدو نفسه. وفي حديث سعد بن أبي وقاص عن عمر بن الخطاب أن عمر قال لنساء من قريش يسألن النبيء صلى الله عليه وسلم ويستكثرن، فلما دخل عمر ابتدرن الحجاب فقال لهن: «يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم» .
فالمقت مستعار لقلة التدبر فيما يضر. وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله: إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون فمناط الكلام هو فتكفرون وفي ذكر ينادون ما يدل على كلام محذوف تقديره: إن الذين كفروا يمقتهم الله وينادون لمقت الله إلخ.". (١)

١٢٥٩. ٤٦٨-"لا ظلم اليوم، ثم إن الله سريع الحساب، وأما مواقع هاته الجمل الثلاث فإن جملة اليوم تجزى إلخ واقعة موقع البيان لما في جملة لمن الملك اليوم [غافر: ١٦] وجوابها من إجمال، وجملة لا ظلم اليوم واقعة موقع بدل الاشتمال من جملة اليوم تجزى كل نفس بما كسبت أي جزاء عادلا لا ظلم فيه، أي ليس فيه أقل شوب من الظلم حسبما اقتضاه وقوع النكرة بعد لا النافية للجنس.
وتعريف اليوم في قوله: اليوم تجزى كل نفس وقوله: لا ظلم اليوم نظير تعريف لمن الملك اليوم [غافر: ١٦] ، وجملة إن الله سريع الحساب واقعة موقع
التعليل لوقوع الجزاء في ذلك اليوم ولانتفاء الظلم عن ذلك الجزاء. وتأخيرها عن تينك الجملتين مشير إلى أنها علة لهما، فحرف التوكيد واقع موقع فاء السببية كما هو شأن إن إذا جاءت في غير مقام رد الإنكار، فسرعة الحساب تقتضي سرعة الحكم. وسرعة الحكم تقتضي تملؤ الحاكم من العلم بالحق، ومن تقدير جزاء كل عامل على عمله دون تردد ولا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٩٥

بحث لأن الحاكم علام الغيوب، فكان قوله: سريع الحساب علة لجميع ما تقدمه في هذا الغرض. والمعنى: أن الله محاسبهم حسابا سريعا لأنه سريع الحساب.

والحساب مصدر حاسب حاسب غيره إذا حسب له ما هو مطلوب بإعداده، وفائدة ذلك تختلف فتارة يكون الحساب لقصد استحضار أشياء كيلا يضيع منها شيء، وتارة يكون لقصد توقيف من يتعين توقيفه عليها، وتارة يكون لقصد مجازاة كل شيء منها بعدله، وهذا الأخير هو المراد هنا ولأجله سمي يوم الجزاء يوم الحساب، وهو المراد في قوله تعالى:

إن حسابهم إلا على ربي [الشعراء: ١١٣] . والباء في قوله: بما كسبت للسببية، أي تجزى بسبب ما كسبت، أي جزاء مناسبا لما كسبت، أي عملت.

وفي الآية **إيماء** إلى أن تأخير القضاء بالحق بعد تبينه للقاضي بدون عذر ضرب من ضروب الجور لأن الحق إن كان حق العباد فتأخير الحكم لصاحب الحق إبقاء لحقه بيد غيره، ففيه تعطيل انتفاعه بحقه برهة من الزمان وذلك ظلم، ولعل صاحب الحق في حاجة إلى تعجيل حقه لنفع معطل أو لدفع ضر جاثم، ولعله أن". (١)

١٢٦٠. ٤٦٩-"والذين آمنوا معه وأنهم أضمروه ولم يعلنوه ثم شغلهم عن إنفاذه ما حل بهم من المصائب التي ذكرت في قوله تعالى في سورة الأعراف [١٣٠] : ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الآية، ثم بقوله: فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد [الأعراف: ١٣٣] الآية.

والضلال: الضياع والاضمحلال كقوله: قالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد [السجدة: ١٠] أي هذا الكيد الذي دبروه قد أخذ الله على أيديهم فلم يجدوا لانقاذه سبيلا.

[٢٦]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٦]

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٤

عطف وقال بالواو يدل على أنه قال هذا القول في موطن آخر ولم يكن جوابا لقولهم: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه [غافر: ٢٥] ، وفي هذا الأسلوب إيماء إلى أن فرعون لم يعمل بإشارة الذين قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه وأنه سكت ولم يراجعهم بتأييد ولا إعراض، ثم رأى أن الأجدر قتل موسى دون أن يقتل الذين آمنوا معه لأن قتله أقطع لفتنتهم.

ومعنى: ذروني إعلامهم بعزمه بضرب من إظهار ميله لذلك وانتظاره الموافقة عليه بحيث يمثل حاله وحال المخاطبين بحال من يريد فعل شيء فيصد عنه، فلرغبته فيه يقول لمن يصده: دعني أفعل كذا، لأن ذلك التركيب مما يخاطب به الممانع والملائم ونحوهما، قال طرفة:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ثم استعمل هذا في التعبير عن الرغبة ولم يكن ثمة معارض أو ممانع، وهو استعمال شائع في هذا وما يرادفه مثل: دعني وخلني، كما في قوله تعالى: ذرني ومن خلقت وحيدا [المدثر: ١١] وقوله: وذرني والمكذبين [المزمل: ١١] ، وقول أبي القاسم السهيلي:". (١)

١٢٦١. ٤٧٠-"فأخبر موسى قومه بأن ربه حافظ له ليثقوا بالله كما كان مقام النبيء لا حين كان في أول البعثة تحرسه أصحابه في الليل فلما نزل قوله تعالى: فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين [الحجر: ٩٤، ٩٥] الآية أمر أصحابه بأن يتخلوا عن حراسته.

وتأكيد الخبر بحرف (إن) متوجه إلى لازم الخبر وهو أن الله ضمن له السلامة وأكد ذلك لتنزيل بعض قومه أو جلهم منزلة من يتردد في ذلك لما رأى من إشفاقهم عليه.

والعوذ: الالتجاء إلى المحل الذي يستعصم به العائذ فيدفع عنه من يروم ضره، يقال: عاذ بالجبل، وعاذ بالجيش، وقال تعالى: فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم [النحل: ٩٨] .

وعبر عن الجلالة بصفة الرب مضافا إلى ضمير المتكلم لأن في صفة الرب إيماء إلى توجيه العوذ به لأن العبد يعوذ بمولاه. وزيادة وصفه برب المخاطبين للإيماء إلى أن

عليهم أن لا يجزعوا من مناواة فرعون لهم وأن عليهم أن يعوذوا بالله من كل ما يفظعهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٤/٢٤

وجعلت صفة لا يؤمن بيوم الحساب مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنها تتضمن الإشراك وزيادة، لأنه إذا اجتمع في المرء التجبر والتكذيب بالجزاء قلت مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس.

[٢٨]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٨]

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)

عطف قول هذا الرجل يقتضي أنه قال قوله هذا في غير مجلس شورى". (١)

١٢٦٢. ٤٧١-"والإشارة في قوله كذلك: إلى الضلال المأخوذ من قوله: يضل الله أي مثل ذلك الضلال يضل الله المسرفين المرتابين، أي أن ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام. والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين.

والمسرف: المفرط في فعل لا خير فيه. والمرتاب: الشديد الريب، أي الشك.

وإسناد الإضلال إلى الله كإسناد نفي الهداية إليه في قوله: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب [غافر: ٢٨] ، وتقدم آنفا.

وقوله: الذين يجادلون في آيات الله يجوز أن يكون مبتدأ خبره كبر مقتا ويجوز أن يكون بدلا من (من) في قوله: من هو مسرف مرتاب فبين أن ما صدق (من) جماعة لا واحد، فروعي في من هو مسرف مرتاب لفظ (من) فأخبر عنه بالإفراد، وروعي في البدل معنى (من) فأبدل منه موصول الجمع. وصلة الذين عرف بها المشركون من قريش قال تعالى: إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا [فصلت:

٤٠] وقال في هذه السورة [٤] : ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٢٤

في البلاد.

واختيار المضارع في يجادلون لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها وأنهم لا ينفكون عنها. وهذا صريح في ذمهم وكناية عن ذم جدالهم الذي أوجب ضلالهم.

وفي الموصولية **إيماء** إلى علة إضلالهم، أي سبب خلق الضلال في قلوبهم الإسراف بالباطل تكرر مجادلتهم قصدا للباطل. والمجادلة: تكرير الاحتجاج لإثبات مطلوب المجادل وإبطال مطلوب من يخالفه قال تعالى: وجادلهم بالتي هي أحسن [النحل: ١٢٥] ، فمن المجادلة في آيات الله المحاجة لإبطال دلالتها، ومنها المكابرة فيها كما قالوا:". (١)

١٢٦٣. ٤٧٢-"واليوم كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا. ومن العذاب بيان ل يوما لأنه أريد به المقدار فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز. ويجوز تعلقه ب يخفف.

وجواب خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به: إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب. وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم بأن الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب.

والواو في قوله: أولم تك تأتيكم رسلكم لم يعرج المفسرون على موقعها. وهي واو العطف عطف بها (خزنة جهنم) كلامهم على كلام الذين في النار من قبيل طريقة عطف المتكلم كلاما على كلام صدر من المخاطب **إيماء** إلى أن حقه أن يكون من بقية كلامه وأن لا يغفله، وهو ما يلقب بعطف التلقين كقوله تعالى: قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي [البقرة: ١٢٤] فإن أهل النار إذا تذكروا ذلك علموا وجاهة تنصل خزنة جهنم من الشفاعة لهم، وتفريع فادعوا على ذلك ظاهر على كلا التقديرين.

وهمزة الاستفهام مقدمة من التأخير على التقديرين، لوجوب صدارتها.

وجملة وما دعاء الكافرين إلا في ضلال يجوز أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلا لكلامهم يبين أن قولهم: فادعوا مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي دعاؤكم لم ينفعكم لأن دعاء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٤٢

الكافرين في ضلال والواو اعتراضية، ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا واعتراضا.
والبينات: الحجج الواضحة والدعوات الصريحة إلى اتباع الهدى. فلم يسعهم إلا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم بالبينات فقالوا: بلى فرد عليهم خزنة جهنم بالتنصل من أن يدعوا الله بذلك، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم بقولهم: فادعوا تفريعا على اعترافهم بمجيء الرسل إليهم بالبينات.". (١)

١٢٦٤. ٤٧٣-"واللعنة: البعد والطرد، أي من رحمة الله، ولهم سوء الدار هي جهنم. وتقديم (لهم) في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم.
[٥٣- ٥٤]

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥٣ إلى ٥٤]
ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)
هذا من أوضح مثل نصر الله رسله والذين آمنوا بهم وهو أشبه الأمثال بالنصر الذي قدره الله تعالى للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإن نصر موسى على قوم فرعون كون الله به أمة عظيمة لم تكن يؤبه بها وأوتيت شريعة عظيمة وملكا عظيما، وكذلك كان نصر النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكان أعظم من ذلك وأكمل وأشرف.
فجملة: ولقد آتينا موسى الهدى إلخ معترضة بين إنا لننصر رسلنا [غافر: ٥١] وبين التفريع عليه في قوله: فاصبر إن وعد الله حق [غافر: ٥٥] ، وأي نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقلة والتبع لأمة أخرى في أحكام تلائم أحوال الأمة التابعة، إلى مصير الأمة مالكة أمر نفسها ذات شريعة ملائمة لأحوالها ومصالحها وسيادة على أمم أخرى، وذلك مثل المسلمين مع النبيء صلى الله عليه وسلم وبعده وهو **إيماء** إلى الوعد بأن القرآن الذي كذب به المشركون باق موروث في الأمة الإسلامية.
والهدى الذي أوتيه موسى هو ما أوحي إليه من الأمر بالدعوة إلى الدين الحق، أي الرسالة

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٦٥

وما أنزل إليه من الشريعة وهي المراد بالكتاب، أي التوراة، وهو الذي أورثه الله بني إسرائيل، أي جعله باقيا فيهم بعد موسى عليه السلام فهم ورثوه عن موسى، أي أخذوه منه في حياته وأبقاه الله لهم بعد وفاته، فإطلاق الإيراث استعارة. وفي ذلك إيذان بأن الكتاب من جملة الهدى الذي أوتيه موسى، قال تعالى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور [المائدة: ٤٤] ، ففي الكلام إيجاز حذف تقديره: ولقد آتينا موسى الهدى والكتاب وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، فإن موسى أوتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل وهو الرسالة وأوتي من الهدى ما أورثه بنو إسرائيل وهو الشريعة التي في التوراة.

وهدى وذكرى حالان من الكتاب، أي هدى لبني إسرائيل وذكرى". (١)

١٢٦٥. ٤٧٤-"مقتضى الظاهر الإضمار، لتكون الجملة مستقلة بالدلالة فتصلح لأن تسير مسير الأمثال، فالمعنى أنهم أنكروا البعث لاستبعادهم خلق الأجسام مع أن في خلق السماوات والأرض ما لا يبقى معه استبعاد مثل ذلك.

[٥٨]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٥٨]

وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨)

لما نزلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلا لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير، وقد علم حال المؤمنين من مفهوم صفة أكثر الناس لأن الأكثرين من الذين لا يعلمون يقابلهم أقلون يعلمون. والمعنى: لا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين الذين تضمنهما قوله: ولكن أكثر الناس لا يعلمون [غافر: ٥٧] .

ونفي الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر كما قدمنا في قوله تعالى:

لا يستوي القاعدون من المؤمنين الآية في سورة النساء [٩٥] ، ومن المتبادر أن الأفضل هو

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٩/٢٤

صاحب الحال الأفضل وهو البصير إذ لا يختلف الناس في أن البصر أشرف من العمى في شخص واحد، ونفي الاستواء بدون متعلق يقتضي العموم في متعلقاته، لكنه يخص بالمتعلقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته، ويسمى مثل هذا العموم العموم العرفي، وتقدم نظيرها في سورة فاطر [١٩] .

وقوله: والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء زيادة بيان لفضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان.

والمعنى: وما يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيئون، أي في أعمالهم كما يؤذن بذلك قوله: وعملوا الصالحات ولا المسيء، وفيه **إيماء** إلى". (١)

١٢٦٦. ٤٧٥-"اختلاف جزاء الفريقين وهذا **الإيماء** إدماج للتنبيه على الثواب والعقاب.

والواو في قوله: والذين آمنوا عاطفة الجملة على الجملة بتقدير: وما يستوي الذين آمنوا.

والواو في قوله: ولا المسيء عاطفة المسيء على الذين آمنوا عطف المفرد على المفرد، فالعطف الأول عطف المجموع مثل قوله تعالى: هو الأول والآخر والظاهر والباطن [الحديد: ٣] .

وإنما قدم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة، والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون، فقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة.

وأما قوله: والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماما بشرف المؤمنين.

وأعيدت (لا) النافية بعد واو العطف على النفي، وكان العطف مغنيا عنها فإعادتها لإفادة تأكيد نفي المساواة ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب، ولذلك تعد (لا) في مثله زائدة كما في «مغني اللبيب» ، وكان الظاهر أن تقع (لا) قبل (الذين آمنوا) ، فعدل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عمل الصالحات، وأن ذكر الذين آمنوا قبل المسيء للاهتمام بالذين آمنوا ولا مقتضي للعدول عنه بعد أن قضي حق الاهتمام بالذين سبق

(١) التحرير والتنوير ١٧٧/٢٤

الكلام لأجل تمثيلهم، فحصل في الكلام اهتمامان.

وقريب منه ما في سورة فاطر في أربع جمل: اثنتين قدم فيهما جانب تشبيه الكافرين، واثنتين قدم فيهما تشبيه جانب المؤمنين، وذلك قوله تعالى: وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات [فاطر: ١٩- ٢٢]
.

وقليلا حال من أكثر الناس في قوله تعالى قبله:". (١)

١٢٦٧. ٤٧٦-"يؤت بلام الابتداء في قوله في سورة طه [١٥] إن الساعة آتية لأن الخطاب لموسى عليه السلام.

وجيء باسم الفاعل في آتية الذي هو حقيقة في الحال، **للإيماء** إلى أنها لما تحققت فقد صارت كالشيء الحاضر المشاهد. والمراد تحقيق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

وجملة لا ريب فيها مؤكدة لجملة إن الساعة لآتية، ونفي الريب عن نفس الساعة، والمراد نفيه عن إتيانها لدلالة قوله: آتية على ذلك.

ومعنى نفي الريب في وقوعها: أن دلائلها واضحة بحيث لا يعتد بريب المرتابين فيها لأنهم ارتابوا فيها لعدم الروية والتفكر، وهذا قريب من قوله تعالى: ذلك الكتاب لا ريب فيه [البقرة: ٢] .

فموقع الاستدراك الذي في قوله: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل كيف ينفي الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس، فكان الاستدراك بقوله: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون جوابا لذلك السؤال.

والمعنى: ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها ولو تأملوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، فلذلك نفي عنهم هنا وصف الإيمان.

وهذا الاستدراك استئناف بياني، ولولا أن (لكن) يكثر أن تقع بعد واو العطف لكانت الجملة جديرة بالفصل دون عطف، فهذا العطف تحلية لفظية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٧٨

وأكثر الناس هم المشركون، وهم يومئذ أكثر من المؤمنين جدا.
[٦٠]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٠]
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠)

لما كانت المجادلة في آيات الله تشمل مجادلتهم في وحدانية الإلهية كما دل عليه". (١)

١٢٦٨. ٤٧٧-"فإذا كان الدعاء هو العبادة كانت العبادة هي الدعاء لا محالة.
فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه، وهذا إطلاق أقل شيوعا من الأول، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفراد الله بالعبادة، أي الاعتراف بوحدانيته.
والاستجابة تطلق على إعطاء المسئول لمن سأله وهو أشهر إطلاقها وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك السابق وبحصول الثواب على أعمال الإيمان فإفادة الآية على معنى طلب الحاجة من الله يناسب ترتب الاستجابة على ذلك الطلب معلقا على مشيئة الله أو على استيفاء شروط قبول الطلب، وإعطاء خير منه في الدنيا، أو إعطاء عوض منه في الآخرة. وإفادتها على معنى إفراد الله بالعبادة، أي بأن يتوبوا عن الشرك، فترتب الاستجابة هو قبول ذلك، فإن قبول التوبة من الشرك مقطوع به.
فلما جمعت الآية بين الفعلين على تفاوت بين شيوع الإطلاق في كليهما علمنا أن في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صرح بالمعنى المشهور، في كلا الفعلين ثم أعقب بقوله: إن الذين يستكبرون عن عبادتي، فعلمنا أن المراد الدعاء والعبادة، وأن الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة. ففعل ادعوني مستعمل في معنييه بطريقة عموم المشترك.
وفعل أستجب مستعمل في حقيقته ومجازه، والقرينة ما علمت، وذلك من الإيجاز والكلام

---
(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٨٠

الجامع.

وتعريف الله بوصف الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافته من **الإيماء** إلى وجوب امتثال أمره لأن من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها لأن المربوب محقوق بالطاعة لربه، ولهذا لم يعرج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته.

وجملة إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم تعليل للأمر". (١)

١٢٦٩. ٤٧٨-"بالدعاء تعليلا يفيد التحذير من إباية دعاء الله حين الإقبال على دعاء الأصنام، كما قال تعالى:

ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا [غافر: ١٢] وكان المشركون لا يضرعون إلى الله إلا إذا لم يتوسموا استجابة شركائهم، كما قال تعالى: فلما نجاكم إلى البر أعرضتم [الإسراء: ٦٧] . ومعنى التعليل للأمر بالدعاء بهذا التحذير: أن الله لا يحب لعباده ما يفضي بهم إلى العذاب، قال تعالى: ولا يرضى لعباده الكفر [الزمر:

٧] ففي الآية دليل على طلب الله من عباده أن يدعوه في حاجاتهم.

ومشروعية الدعاء لا خلاف فيها بين المسلمين وإنما الخلاف في أنه ينفع في رد القدر أو لا؟ وهو خلاف بيننا وبين المعتزلة. وليس في الآية حجة عليهم لأنهم تأولوا معنى أستجب لكم، وتقدم قوله تعالى: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب الآية في سورة البقرة [١٨٦] ، وفي الإتيان بالموصول **إيماء** إلى التعليل.

وداخرين حال من ضمير سيدخلون أي أذلة، دخر كمنع وفرح: صغر وذل، وتقدم قوله: سجدا لله وهم داخرون في سورة النحل [٤٨] .

وقرأ الجمهور سيدخلون بفتح التحتية وضم الخاء. وقرأه أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم التحتية وفتح الخاء على البناء للنائب، أي سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم.

[٦١]

[سورة غافر (٤٠) : آية ٦١]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٨٢

الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١)

يجوز أن يكون اسم الجلالة بدلا من ربكم في وقال ربكم [غافر: ٦٠] أتبع ربكم بالاسم العلم ليقضى بذلك حقان: حق استحقاقه أن يطاع بمقتضى الربوبية والعبودية، وحق استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات. ولذلك لم يؤت مع وصف الرب المتقدم بشيء من ذكر نعمه ولا كمالاته اجتزاء بمقتضى حق الربوبية، وذكر مع الاسم العلم بعض إنعامه وإفضاله ثم وصف الاسم بالموصول وصلته إشارة إلى بعض صفاته، **وإيماء** إلى وجه الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تقوية الأمر بدعائه.". (١)

١٢٧٠. ٤٧٩-"[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٣]

كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣)

هذه الجملة معترضة بمنزلة التعليل لمضمون الجملة التي قبلها وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربهم خالقهم وخالق كل شيء فإن في تعليل ذلك ما يبين سبب التعجيب، فجيء في جانب المأفوكين بالموصول لأن الصلة تومىء إلى وجه بناء الخبر وعلته، أي أن استمرارهم على الجحد بآيات الله دون تأمل ولا تدبر في معانيها ودلائلها يطبع نفوسهم على الانصراف عن العلم بوجوب الوحدانية له تعالى. فالإشارة بذلك إلى الإفك المأخوذ من فعل تؤفكون [غافر: ٦٢] أي مثل إفككم ذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون.

فيجوز أن يكون المراد ب الذين كانوا بآيات الله يجحدون المخاطبين بقوله:

ذلكم الله ربكم [غافر: ٦٢] ، ويكون الموصول وصلته إظهارا في مقام الإضمار، والمعنى: كذلك تؤفكون، أي مثل إفككم تؤفكون، ويكون التشبيه مبالغة في أن إفكهم بلغ في كنه الإفك النهاية بحيث لو أراد المقرب أن يقربه للسامعين بشبيه له لم يجد شبيها له أوضح منه وأجلى في ماهيته فلا يسعه إلا أن يشبهه بنفسه على الطريقة المألوفة المبينة في قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] ، وبذلك تكون صلة الموصول من قوله: الذين

(١) التحرير والتنوير ١٨٣/٢٤

كانوا بآيات الله يجحدون إيماء إلى علة إفكهم تعليلا صريحا.

ويجوز أن يكون المراد ب الذين كانوا بآيات الله يجحدون كل من جحد بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذبين فيصير التعليل المومى إليه بالصلة تعليلا تعريضيا لأنه إذا كان الإفك شأن الذين يجحدون بآيات الله كلهم فقد شمل ذلك هؤلاء بحكم المماثلة.

وصيغة المضارع لاستحضار الحالة، وذكر فعل الكون للدلالة على أن الجحد بآيات الله شأنهم وهجيراهم.

وهذا أصل عظيم في الأخلاق العلمية، فإن العقول التي تتخلق بالإنكار". (١)

١٢٧١. ٤٨٠-"وعبر عن هذا الخلق بفعل صوركم لأن التصوير خلق على صورة مرادة تشعر بالعناية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم [الأعراف: ١١] فاقتضى حسن الصور فلذلك عدل في جانب خلق الإنسان عن فعل الجعل إلى فعل التصوير بقوله: وصوركم فهو كقوله تعالى: الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة [الانفطار: ٧، ٨] ثم صرح بما اقتضاه فعل التصوير من الإتقان والتحسين بقوله: فأحسن صوركم.

والفاء في قوله: فأحسن صوركم عاطفة جملة على جملة ودالة على التعقيب أي أوجد صورة الإنسان فجاءت حسنة.

وعطف على هذه العبرة والمنة منة أخرى فيها عبرة، أي خلقكم في أحسن صورة ثم أمدكم بأحسن رزق، فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد، ولما كان الرزق شهوة في ظاهره وكان مشتملا على حكمة إمداد الجسم بوسائل تجديد قواه الحيوية وكان في قوله:

ورزقكم إيماء إلى نعمة طول الوجود فلم يكن الإنسان من الموجودات التي تظهر على الأرض ثم تضمحل في زمن قريب وجمع له بين حسن الإيجاد وبين حسن الإمداد فجعل ما به مدد الحياة وهو الرزق من أحسن الطيبات على خلاف رزق بقية أنواع الحيوان.

ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين موقع ذلكم الله ربكم كموقع نظيره المتقدم آنفا. وإعادة هذا تكرير للتوقيف على خطل رأيهم في عبادة غيره على طريقة التعريض، بقرينة ما تقدم

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٤

في نظيره من قوله: لا إله إلا هو فأنى تؤفكون [غافر: ٦٢] ، وقرينة قوله هنا: لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين [غافر: ٦٥] .

وفرع على ما ذكر من بدائع صنعه وجزيل منه. أن أنش ئ الثناء عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الكمال فقال: فتبارك الله، وفعل تبارك صيغة مفاعلة مستعملة مجازا في قوة ما اشتق منه الفعل. وهو مشتق من اسم جامد وهو البركة، والبركة: اسم يدل على تزايد الخير. وإظهار اسم الجلالة مع فعل". (١)

١٢٧٢. ٤٨١-"عن القائل أسرع أعمال الإنسان وأيسر، وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو كن المركب من حرفين متحرك وساكن.

[٦٩- ٧٢]

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٩ إلى ٧٢]

ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢)

بنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورك كما تقدم في أول السورة إذ كان من أولها قوله: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا [غافر: ٤] وتكرر ذلك خمس مرات فيها، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها بقوله: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا [غافر: ٤] ثم بإبطاله بقوله: الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله [غافر: ٣٥] ، ثم بقوله: إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر [غافر: ٥٦] ثم بقوله: ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون.

وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٩١

إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله، فجملة ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله مستأنفة للتعجيب
من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البينة. والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظا، والمراد به: التقرير على الإثبات، كما تقدم غير مرة، منها عند قوله: قال أولم تؤمن في سورة البقرة [٢٦٠] .
والرؤية علمية، وفعلها معلق عن العمل بالاستفهام ب أنى يصرفون، و (أنى) بمعنى (كيف) ، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله:". (١)

١٢٧٣. ٤٨٢-"قول عمر لما قال له أبو قتادة يوم حنين «ما شأن الناس» حين انهزموا وفروا قال عمر: «أمر الله» . وفي العدول عن: إذن الله، إلى أمر الله تعريض بأن ما سيظهره الله من الإذن لمحمد صلى الله عليه وسلم هي آيات عقاب لمعانديه، فمنها: آية الجوع سبع سنين حتى أكلوا الميتة، وآية السيف يوم بدر إذ استأصل صناديد المكذبين من أهل مكة، وآية السيف يوم حنين إذ استأصل صناديد أهل الطائف، وآية الأحزاب التي قال الله عنها: يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها [الأحزاب: ٩] ثم قال: ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديرا [الأحزاب: ٢٥- ٢٧] .
وفي إيثار قضي بالحق بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبين الصدق، ترشيح لما في قوله: أمر الله من التعريض بأنه أمر انتصاف من المكذبين. ولذلك عطف عليه وخسر هنالك المبطلون أي خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.
والخسران: مستعار لحصول الضر لمن أراد النفع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدم معناه غير مرة، منها قوله تعالى: فما ربحت تجارتهم في أوائل سورة البقرة [١٦] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٠٠

وهنالك أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلى الزمان المعبر عنه ب (إذا) في قوله: فإذا جاء أمر الله.

وفي هذه الاستعارة نكتة بديعية وهي **الإيماء** إلى أن المبطلين من قريش ستأتيهم الآية في مكان من الأرض وهو مكان بدر وغيره من مواقع إعمال السيف فيهم". (١)

١٢٧٤. ٤٨٣-"وهذا حكم الله في البأس بمعنى العقاب الخارق للعادة والذي هو آية بينة، فأما البأس الذي هو معتاد والذي هو آية خفية مثل عذاب بأس السيف الذي نصر الله به رسوله يوم بدر ويوم فتح مكة، فإن من يؤمن عند رؤيته مثل أبي سفيان بن حرب حين رأى جيش

الفتح، أو بعد أن ينجو منه مثل إيمان قريش يوم الفتح بعد رفع السيف عنهم، فإيمانه كامل مثل إيمان خالد بن الوليد، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد ارتداده.

ووجه عدم قبول الإيمان عند حلول عذاب الاستئصال وقبول الإيمان عند نزول بأس السيف أن عذاب الاستئصال مشارفة للهلاك والخروج من عالم الدنيا فإيقاع الإيمان عنده لا يحصل المقصد من إيجاب الإيمان وهو أن يكون المؤمنون حزبا وأنصارا لدينه وأنصارا لرسله، وماذا يغني إيمان قوم لم يبق فيهم إلا رمق ضعيف من حياة، فإيمانهم حينئذ بمنزلة اعتراف أهل الحشر بذنوبهم وليست ساعة عمل، قال تعالى في شأن فرعون:

إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين [يونس: ٩٠، ٩١] ، أي فلم يبق وقت لاستدراك عصيانه وإفساده، وقال تعالى: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا [الأنعام: ١٥٨] فأشار قوله: أو كسبت في إيمانها خيرا إلى حكمة عدم انتفاع أحد بإيمانه ساعتئذ. وإنما كان ما حل بقوم يونس حالا وسيطا بين ظهور البأس وبين الشعور به عند ظهور علاقاته كما بيناه في سورة يونس.

وجملة وخسر هنالك الكافرون كالفذلكة لقوله: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، وبذلك

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٤

آذنت بانتهاء الغرض من السورة. وهنالك اسم إشارة إلى مكان، استعير للإشارة إلى الزمان، أي خسروا وقت رؤيتهم بأسنا إذ انقضت حياتهم وسلطانهم وصاروا إلى ترقب عذاب خالد مستقبل.

والعدول عن ضمير الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة [غافر: ٢١] إلى الاسم الظاهر وهو الكافرون **إيماء** إلى أن سبب خسرانهم هو الكفر بالله وذلك إعذار للمشركين من قريش.". (١)

١٢٧٥. ٤٨٤-"أسلوب سورة غافر

أسلوبها أسلوب المحاجة والاستدلال على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا. وافتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأن أول أغراضها أن القرآن من عند الله ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحداهم، لذلك فلم يفعلوا، كما تقدم في فاتحة سورة البقرة. وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزل القرآن **إيماء** إلى أنه لا يشبه كلام البشر لأنه كلام العزيز العليم، **وإيماء** إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر، وترهيب من العقاب على الإصرار، وذلك كله من براعة الاستهلال. ثم تخلص من **الإيماء** والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

وخص بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر وأطيل ذلك لشدة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم مثل مؤمن آل فرعون، وتخلل ذلك ثبات موسى وثبات مؤمن آل فرعون **إيماء** إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات. وختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/٢٤

الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعماهم عن النظر في دلائل الكون فحسبوا أنهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر. وخوف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأولين بأن سنة الله في عباده الإمهال ثم المؤاخذة، فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسن الختام.". (١)

١٢٧٦. ٤٨٥-"ولك أن تجعل قوله: من الرحمن الرحيم في موضع الصفة للمبتدأ وتجعل قوله: كتاب خبر المبتدأ، وعلى كلا التقديرين هو أسلوب فخم وقد مضى مثله في قوله تعالى: المص كتاب أنزل إليك [الأعراف: ١، ٢] .

والمراد: أنه منزل، فالمصدر بمعنى المفعول كقوله: وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣] وهو مبالغة في كونه فعل الله تنزيله، تحقيقا لكونه موحى به وليس منقولا من صحف الأولين. وتنكير تنزيل وكتاب لإفادة التعظيم.

والكتاب: اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة وسمي القرآن كتابا لأن الله أوحى بألفاظه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يكتب ما أوحي إليه، ولذلك اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبون له كل ما ينزل عليه من القرآن. وإيثار الصفتين الرحمن الرحيم على غيرهما من الصفات العلية **للإيماء** إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور كقوله تعالى: فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة [الأنعام: ١٥٧] وقوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] وقوله: أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون [العنكبوت: ٥١] .

والجمع بين صفتي الرحمن الرحيم **للإيماء** إلى أن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة. وفي ذلك **إيماء** إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا به هم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٢٤

أهل المرحمة لقوله بعد ذلك: قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى [فصلت: ٤٤] .

ومعنى: فصلت آياته بينت، والتفصيل: التبيين والإخلاء من الالتباس.". (١)

١٢٧٧. ٤٨٦-"والاستغفار: طلب العفو عما فرط من ذنب أو عصيان وهو مشتق من الغفر وهو الستر.

والمعنى: فأخلصوا إلى الله في عبادته ولا تشركوا به غيره واسألوا منه الصفح عما فرط منكم من الشرك والعناد.

وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون (٧) وعيد للمشركين بسوء الحال والشقاء في الآخرة يجوز أن يكون من جملة القول الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله فهو معطوف على جملة إنما أنا بشر. ويجوز أن يكون كلاما معترضا من جانب الله تعالى فتكون الواو اعتراضية بين جملة قل إنما أنا بشر وجملة قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض [فصلت: ٩] أي أجبهم بقولك: أنا بشر مثلك يوحى إلي ونحن أعتدنا لهم الويل والشقاء إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه، فيكون هذا إخبارا من الله تعالى.

وذكر المشركين إظهار في مقام الإضمار ويستفاد تعليق الوعيد على استمرارهم على الكفر من الإخبار عن الويل بكونه ثابتا للمشركين والموصوفين بالذين لا يؤتون الزكاة وبأنهم كافرون بالبعث لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، ولأن الموصول يؤذن **بالإيماء** إلى وجه بناء الخبر. فأما كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل

فظاهر، وأما كون عدم إيتاء الزكاة موجبا للويل فذلك لأنه حمل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام، فذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث بأنهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشح بالمال وكفى بذلك تشويها في حكم الأخلاق وحكم العرف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٠/٢٤

فيهم لأنهم يتعيرون باللؤم، ولكنهم يبذلون المال في غير وجهه ويحرمون منه مستحقيه.". (١)

١٢٧٨. ٤٨٧-"فإن قول الرسل لهم: لا تعبدوا إلا الله قد حكي بفعل فيه دلالة على القول، وهو فعل جاءتهم كما تقدم آنفا.

فقولهم: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة يتضمن إبطال رسالة البشر عن الله تعالى.

ومفعول شاء محذوف دل عليه السياق، أي لو شاء ربنا أن يرسل إلينا لأنزل ملائكة من السماء مرسلين إلينا، وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولا عليه بجواب لو كقوله تعالى: فلو شاء لهداكم أجمعين [الأنعام: ١٤٩] ، ونكتته الإبهام ثم البيان، وأما الحذف في الآية فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة، ونظيره

قول المعري:

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد

وتضمن كلامهم قياسا استثنائيا تركيبه: لو شاء ربنا أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة ينزلهم من السماء لكنه لم ينزل إلينا ملائكة فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولا. وهذا **إيماء** إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم: فإنا بما أرسلتم به كافرون أي جاحدون رسالتكم وهو أيضا كناية عن التكذيب.

[١٥، ١٦]

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١٥ إلى ١٦]

فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (١٦)

بعد أن حكى عن عاد وثمود ما اشترك فيه الأمتان من الكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصت به كل أمة منهما من صورة الكفر، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٣٩

حل بكل أمة منهما من العذاب.". (١)

١٢٧٩. ٤٨٨-"وجملة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة جملة معترضة، والواو اعتراضية. والرؤية علمية، والاستفهام إنكاري، والمعنى: إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوة حيث أعرضوا عن رسالة رسول ربهم وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم. وإجراء وصف الذي خلقهم على اسم الجلالة لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافيا في الدلالة على أنه أشد منهم قوة، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه فينظروا في أدلة صدق رسوله إليهم.

وضمير هو أشد منهم ضمير فصل، وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محققا كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفيا.

والقوة حقيقتها: حالة في الجسم يتأتى بها أن يعمل الأعمال الشاقة، وتطلق على لازم ذلك من القدرة ووسائل الأعمال، وقد تقدم بيان إطلاقها في قوله تعالى: فخذها بقوة في سورة الأعراف [١٤٥] ، والمراد بها هنا معناها الحقيقي والكنائي والمجازي، فهو مستعمل في حقيقته تصريحا وكناية، ومجازه لما عندهم من وسائل تذليل صعاب الأمور لقوة أجسامهم وقوة عقولهم. والعرب تضرب المثل بعاد في أصالة آرائهم فيقولون:

أحلام عاد، قال النابغة:

أحلام عاد وأجسام مطهرة ... من المعقة والآفات والإثم

ويقولون في وصف الأشياء التي يقل صنع أمثالها: عادية يقولون: بئر عادية، وبناء عادي.

ولما كانت القوة تستلزم سعة القدرة أسند القوة إلى الله تعالى بمعنى أن قدرته تعالى لا يستعصي عليها شيء تتعلق به إرادته تعالى، وهذا المراد هنا في قوله: أن الله الذي خلقهم هو أشد

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٥٥

منهم قوة أي هو أوسع قدرة من قدرتهم فإطلاق القوة". (١)

١٢٨٠. ٤٨٩-"وأتبع اسم الإشارة بالبدل بقوله: ظنكم لزيادة بيانه ليتمكن ما يعقبه من الخبر، والخبر هو فعل أرداكم وما تفرع عليه.

والذي ظننتم بربكم صفة ل ظنكم. والإتيان بالموصول لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو أرداكم وما تفرع عليه، أي الذي ظننتم بربكم ظنا باطلا. والعدول عن اسم الله العلم إلى بربكم للتنبيه على ضلال ظنهم، إذ ظنوا خفاء بعض أعمالهم عن علمه مع أنه ربهم وخالقهم فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم، وهو يشير إلى قوله: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [الملك: ١٤] ، ففي وصف بربكم **إيماء** إلى هذا المعنى.

والإرداء: الإهلاك، يقال: ردي كرضي، إذا هلك، أي مات، والإرداء مستعار للإيقاع في سوء الحالة بحيث أصارهم مثل الأموات فإن ذلك أقصى ما هو متعارف بين الناس في سوء الحالة وفي الإتيان بالمسند فعلا إفادة قصر، أي ما أرداكم إلا ظنكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي لم تردكم شهادة جوارحكم حتى تلوموها بل أرداكم ظنكم أن الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه.

وقوله: فأصبحتم من الخاسرين تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون الله ووثقوا من تحصيل سعادتهم، وهم ما عرفوا الله حق معرفته فعاملوا الله بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنوا النجاة، فشبه حالهم بحال التاجر الذي استعد للربح فوقع في الخسارة.

والمعنى: أنه نعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، تلك الأصول التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن الله ونفوا البعث، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى: وذلكم ظنكم الذي ظننتم

(١) التحرير والتنوير ٢٥٧/٢٤

بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين.". (١)

١٢٨١. ٤٩٠-"وعلى كلا الوجهين يتعين أن يكون المراد ب الذين كفروا هنا: المشركين الذين الكلام عنهم.

ف الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من **الإيماء** إلى علة إذاقة العذاب، أي لكفرهم المحكي بعضه فيما تقدم. وإذاقة العذاب: تعذيبهم، استعير له الإذاقة على طريق المكنية والتخييلة. والعذاب الشديد عن ابن عباس: أنه عذاب يوم بدر فهو عذاب الدنيا.

وعطف ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون عن ابن عباس: لنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة. وأسوأ الذي كانوا يعملون منصوب على نزع الخافض.

والتقدير: على أسوأ ما كانوا يعملون، ولك أن تجعله منصوبا على النيابة عن المفعول المطلق تقديره: جزاء مماثلا أسوأ الذي كانوا يعملون.

وأسوأ: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وإنما أريد به السيئ، فصيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوئه. وإضافته إلى الذي كانوا يعملون من إضافة البعض إلى الكل وليس من إضافة اسم التفضيل إلى المفضل عليه.

والإشارة ب ذلك جزاء أعداء الله إلى ما تقدم وهو الجزاء والعذاب الشديد على أسوأ أعمالهم. وأعداء الله: هم المشركون الذين تقدم ذكرهم بقوله تعالى: ويوم نحشر أعداء الله [فصلت: ١٩] .

والنار عطف بيان من جزاء أعداء الله.

ودار الخلد: النار. فقوله: لهم فيها دار الخلد جاء بالظرفية بتنزيل النار منزلة ظرف لدار الخلد وما دار الخلد إلا عين النار. وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار. وهو معدود من المحسنات البديعية، ومنه قوله تعالى: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٧٢

[الأحزاب: ٢١] وقول أبي حامد العتابي:". (١)

١٢٨٢. ٤٩١-"قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»

. وعن أبي بكر ثم استقاموا: لم يشركوا بالله شيئا. وعن عمر: استقاموا على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان: ثم أخلصوا العمل لله.

وعن علي: ثم أدوا الفرائض

. فقد تولى تفسير هذه الآية الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره، وعناية هؤلاء الأربعة أقطاب الإسلام ببيان الاستقامة مشير إلى أهميتها في الدين.

وتعريب المسند إليه بالموصولية دون أن يقال: إن المؤمنين ونحوه لما في الصلة من **الإيماء** إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزل الملائكة عليهم بتلك الكرامة مسبب على قولهم: ربنا الله واستقامتهم فإن الاعتقاد الحق والإقبال على العمل الصالح هما سبب الفوز.

وثم للتراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم:

ربنا الله كان قولا منبعثا عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية.

وجمع قوله: قالوا ربنا الله ثم استقاموا أصلي الكمال الإسلامي، فقوله: قالوا ربنا الله مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به، ومعرفة الخير لأجل العمل به، فالكمال علم يقيني وعمل صالح، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني.

وأشار قوله: استقاموا إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق، أي أن يكون وسطا غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط قال تعالى: اهدنا الصراط المستقيم [الفاتحة: ٦] وقال: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٩/٢٤

يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل،". (١)

١٢٨٣. ٤٩٢-"الوصف الرابع: أنه لا يتطرقه الباطل ولا يخالطه صريحه ولا ضمنيه، أي لا يشتمل على الباطل بحال. فمثل ذلك ب من بين يديه ولا من خلفه.
والمقصود استيعاب الجهات تمثيلا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه فإن صده خاتله فأتاه من خلفه، وقد تقدم في قوله تعالى: ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم [الأعراف: ١٧] .
فمعنى: لا يأتيه الباطل لا يوجد فيه ولا يداخله، وليس المراد أنه لا يدعى عليه الباطل.
الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية لأنه تنزيل من حكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا [البقرة: ٢٦٩] فإن كلام الحكيم يأتي محكما متقنا رصينا لا يشوبه الباطل.
الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، والحميد هو المحمود حمدا كثيرا، أي
مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد وإنما يحمد الكلام إذ يكون دليلا للخيرات وسائقا إليها لا مطعن في لفظه ولا في معناه، فيحمده سامعه كثيرا لأنه يجده مجلبة للخير الكثير، ويحمد قائله لا محالة خلافا للمشركين.
وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه ففرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال: وإنه لكتاب عزيز الآيات.
[٤٣]

[سورة فصلت (٤١) : آية ٤٣]
ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم (٤٣)
ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٣/٢٤

استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله: إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا [فصلت: ٤٠] ، وقوله: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم [فصلت: ٤١] وما تخلل ذلك من الأوصاف فيقول سائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ فأجيب بأن هذه سنة الأنبياء". (١)

١٢٨٤. ٤٩٣-"إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بأن الله يغفر له. ووقوع هذا الخبر عقب قوله: ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك يومىء إلى أن هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله وأن الوعيد للذين آذوه، فالخبر مستعمل في لازمه.

ومعنى المغفرة له: التجاوز عما يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير. وحرف إن فيه لإفادة التعليل والتسبب لا للتأكيد.

وكلمة ذو مؤذنة بأن المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكل منهما.

ووصف العقاب ب أليم دون وصف آخر للإشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا لأجله فإنهم آلموا نفس النبيء صلى الله عليه وسلم بما عصوا وآذوا.

وفي جملة: إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم محسن الجمع ثم التقسيم، فقوله: ما يقال لك يجمع قائلا ومقولا له فكان **الإيماء** بوصف (ذو مغفرة) إلى المقول له، ووصف ذو عقاب أليم إلى القائلين، وهو جار على طريقة اللف والنشر المعكوس وقرينة المقام ترد كلا إلى مناسبه.

[٤٤]

[سورة فصلت (٤١) : آية ٤٤]

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد (٤٤)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٣٠٩

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياتهء أعجمي وعربي.
اتصال نظم الكلام من أول السورة إلى هنا وتناسب تنقلاته بالتفريع والبيان والاعتراض والاستطراد يقتضي أن قوله: ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا إلى آخره تنقل في درج إثبات أن قصدهم العناد فيما يتعللون به ليواجهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه بما يختلقونه عليه من الطعن فيه والتكذيب به، وتكلف الأعذار الباطلة ليتستروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم المحجوج، فأخذ ينقض دعاويهم عروة عروة، إذ ابتدئت السورة بتحديهم بمعجزة القرآن بقوله:". (١)

١٢٨٥. ٤٩٤-"والميزان، لأجل ما في الموصولية من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنه من جنس الحق والعدل، مثل الموصول في قوله تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [غافر: ٦٠] .
ولام التعريف في الكتاب لتعريف الجنس، أي إنزال الكتب وهو ينظر إلى قوله آنفا: وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب [الشورى: ١٥] .
والباء في بالحق للملابسة، أي أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل.
والحق: كل ما يحق، أي يجب في باب الصلاح عمله ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة.
والميزان حقيقته: آلة الوزن، والوزن: تقدير ثقل جسم، والميزان آلة ذات كفتين معتدلتين معلقتين في طرفي قضيب مستو معتدل، له عروة في وسطه، بحيث لا تتدلى إحدى الكفتين على الأخرى إذا أمسك القضيب من عروته. والميزان هنا مستعار للعدل والهدي بقرينة قوله أنزل فإن الدين هو المنزل والدين يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدين وفي إعطاء الحقوق، فشبه بالميزان في تساوي رجحان كفتيه قال تعالى: وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط [الحديد: ٢٥] .
وجملة وما يدريك لعل الساعة قريب معطوفة على جملة الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، والمناسبة هي ما ذكرناه من إيذان تلك الجملة بمقدر.

---

(١) التحرير والتنوير ٣١١/٢٤

وكلمة وما يدريك جارية مجرى المثل، والكاف منها خطاب لغير معين بمعنى:
قد تدري، أي قد يدري الداري، ف ما استفهامية والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة.
ويدريك من الدراية بمعنى العلم. وقد علق فعل (يدري) عن العمل بحرف الترجي.
وعن ابن عباس كل ما جاء فعل (ما أدراك) فقد أعلمه الله به أي بينه له عقب كلمة (ما أدراك) نحو وما أدراك ما هيه نار حامية [القارعة: ١٠، ١١] وكل ما جاء فيه وما يدريك". (١)

١٢٨٦. ٤٩٥-"منه أن الله يمحو باطل المشركين وبهتانهم ويحقق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم.
وعلى مراعاة هذا المعنى جرى جمع من أهل التفسير مثل الكسائي وابن الأنباري والزجاج والزمخشري ولم يجعلوا ويمح عطفا على فعل الجزاء لأن المتبادر أن هذا وعد من الله بإظهار الإسلام، ووعيد المشركين بأن دينهم زائل. وهذا هو المتبادر من رفع ويحق باتفاق القراء على رفعه، والمراد بالمحو على هذا: الإزالة. والمراد بالباطل:
الباطل المعهود وهو دين الشرك. وبالحق: الحق المعهود، وهو الإسلام.
أو يكون المعنى أن من شأن الله تعالى أن يزيل الباطل ويفضحه بإيجاد أسباب زواله وأن يوضح الحق بإيجاد أسباب ظهوره، حتى يكون ظهوره فاضحا لبطلان الباطل فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه وأظهر الحق، فالمراد بالباطل: جنس الباطل، وبالحق جنس الحق، وتكون الجملة كالتذييل للتفريع. والمعنى الأول أنسب بالاستئناف، ولإفادته الوعيد بإزالة ما هم عليه ونصر المسلمين عليهم.
وعلى كلا المعنيين فقوله: ويمح الله الباطل كلام مستأنف ليس معطوفا على جزاء الشرط إذ ليس المعنى على: إن يشأ الله يمح الباطل، بل هو تحقيق لمحوه للباطل كقوله تعالى: إن الباطل كان زهوقا [الإسراء: ٨١] ، كما دل عليه رفع ويحق الحق بكلماته، ففعل يمح مرفوع وحقه ظهور الواو في آخره، ولكنها حذفت تخفيفا في النطق، وتبع حذفها في النطق حذفها في الرسم اعتبارا بحال النطق كما حذف واو سندع الزبانية [العلق: ١٨] وواو ويدع الإنسان

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢٥

بالشر دعاءه بالخير [الإسراء: ١١] . وذكر في «الكشاف» أن الواو ثبتت في بعض المصاحف ولم يعينه ولا ذكره غيره فيما رأيت.

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ويمح الله الباطل دون أن يقول: ويمح الباطل، لتقوية تمكن المسند إليه من الذهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل. وإنما عدل على الجملة الاسمية في صوغ ويمح الله الباطل فلم يقل: والله يمحو الباطل، لأنه أريد أن ما في إفادة المضارع من التجدد والتكرير **إيماء** إلى أن هذا شأن الله وعادته لا تتخلف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأن إفادة". (١)

١٢٨٧. ٤٩٦-"فحصلت في جملة وهو الذي يقبل التوبة عن عباده أربع مبالغات: بناء الجملة على الاسمية وعلى الموصولية وعلى المضارعية، وعلى تعدية فعل الصلة ب عن عن دون (من) .

والتوبة: الإقلاع عن فعل المعصية امتثالا لطاعة الله، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه في سورة البقرة [٣٧] . وقبول التوبة منة من الله تعالى لأنه لو شاء لما رضي عن الذي اقترف الجريمة ولكنه جعلها مقبولة لحكمته وفضله.

وفي ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك **إيماء** إلى أن الله رفيق بعباده لمقام العبودية فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه.

والعفو: عدم مؤاخذة الجاني بجنايته. والسيئات: الجرائم لأنها سيئة عند الشرع.

والعفو عن السيئات يكون بسبب التوبة بأن يعفو عن السيئات التي اقترفها العاصي قبل توبته، ويكون بدون ذلك مثل العفو عن السيئات عقب الحج المبرور، ومثل العفو عن السيئات لأجل الشهادة في سبيل الله، ومثل العفو عن السيئات لكثرة الحسنات بأن يمحى عن العاصي من سيئاته ما يقابل مقدارا من حسناته على وجه يعلمه الله تعالى، ومثل العفو عن الصغائر باجتناب الكبائر.

والتعريف في السيئات تعريف الجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك قال

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٢٥

تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به [النساء: ٤٨] ولك أن تجعله عوضا عن المضاف إليه، أي عن سيئات عباده فيعم جميع العباد عموما مخصوصا بالأدلة لهذا الحكم كما في الوجه الأول.

وجملة ويعلم ما تفعلون معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال، والمقصود: أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرها. وقرأ الجمهور ما يفعلون بياء الغيبة، أي ما يفعل عباده. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب على طريقة الالتفات. والاستجابة: مبالغة في الإجابة، وخصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوة أو الأمر.". (١)

١٢٨٨. ٤٩٧-"يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم ومحاسبة أنفسهم حتى لا يحسبوا أن الجزاء الذي أوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة بل يعلموا أنه قد يصيبهم الله بما هو جزاء لهم في الدنيا، ولما كان ما أصاب قريشا من القحط والجوع استجابة لدعوة النبيء صلى الله عليه وسلم عليهم كما تقدم، وكانت تلك الدعوة ناشئة على ما لاقوه به من الأذى، لا جرم كان ما أصابهم مسببا على ما كسبت أيديهم.

فالجملة عطف على جملة وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا [الشورى: ٢٨] ، وأطلق كسب الأيدي على الأفعال والأقوال المنكرة على وجه المجاز بعلاقة الإطلاق، أي بما صدر منكم من أقوال الشرك والأذى للنبيء صلى الله عليه وسلم وفعل المنكرات الناشئة عن دين الشرك.

والخطاب للمشركين ابتداء لأنهم المقصود من سياق الآيات كلها وهم أولى بهذه الموعظة لأنهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة ويشمل المؤمنين بطريق القياس وبما دل على شمول هذا الحكم لهم من الأخبار الصحيحة ومن آيات أخرى.

والباء للسببية، أي سبب ما أصابكم من مصيبة هو أعمالكم. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر فبما كسبت أيديكم على أن (ما) موصولة وهي مبتدأ. وفبما كسبت أيديكم ظرف مستقر هو خبر المبتدأ. وكذلك كتبت في مصحف المدينة ومصحف الشام وقرأ الباقون فبما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٩٠

كسبت أيديكم بفاء قبل الباء وكذلك كتبت في مصحف البصرة ومصحف الكوفة، على أن (ما) متضمنة معنى الشرط فاقترن خبرها بالفاء لذلك، أو هي شرطية والفاء رابطة لجواب الشرط ويكون وقوع فعل الشرط ماضيا للدلالة على التحقق.

ومن بيانية على القراءتين لما في الموصول واسم الشرط من الإبهام.

والمصيبة: اسم للحادثة التي تصيب بضر ومكروه، وقد لزمتها هاء التأنيث للدلالة على الحادثة فلذلك تنوسيت منها الوصفية وصارت اسما للحادثة المكروهة.

فقراءة الجمهور تعين معنى عموم التسبب لأفعالهم فيما يصيبهم من المصائب لأن (ما) في هذه القراءة إما شرطية والشرط دال على التسبب وإما موصولة مشبهة بالشرطية، فالموصولية تفيد **الإيماء** إلى علة الخبر، وتشبيهها بالشرطية يفيد التسبب.". (١)

١٢٨٩. ٤٩٨-"[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٢ إلى ٣٤]

ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣٣) أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير (٣٤)

لما جرى تذكيرهم بأن ما أصابهم من مصيبة هو مسبب عن اقتراف أعمالهم، وتذكيرهم بحلول المصائب تارة وكشفها تارة أخرى بقوله: ويعفوا عن كثير [الشورى: ٣٠] ، وأعقب بأنهم في الحالتين غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية سيق لهم ذكر هذه الآية جامعة مثالا لإصابة المصائب وظهور مخائلها المخيفة المذكرة بما يغفلون عنه من قدرة الله والتي قد تأتي بما أنذروا به وقد تنكشف عن غير ضر، ودليلا على عظيم قدرة الله تعالى وأنه لا محيص عن إصابة ما أراده، وإدماجا للتذكير بنعمة السير في البحر وتسخير البحر للناس فإن ذلك نعمة، قال تعالى: والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس في سورة البقرة [١٦٤] ، فكانت هذه الجملة اعتراضا مثل جملة ومن آياته خلق السماوات والأرض [الشورى: ٢٩] .

والآيات: الأدلة الدالة على الحق.

والجواري: جمع جارية صفة لمحذوف دل عليه ذكر البحر، أي السفن الجواري في البحر كقوله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٩٩

تعالى في سورة الحاقة [١١] إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية.

وعدل عن: الفلك إلى الجوار إيماء إلى محل العبرة لأن العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها.

والأعلام: جمع علم وهو الجبل، والمراد: بالجواري السفن العظيمة التي تسع ناسا كثيرين، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر.

وكتبت كلمة الجوار في المصحف بدون ياء بعد الراء ولها نظائر كثيرة في القرآن في الرسم والقراءة، وللقراء في أمثالها اختلاف هي التي تدعى عند علماء القراءات بالياءات الزوائد.

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر الجواري في هذه السورة بإثبات الياء في". (١)

١٢٩٠. ٤٩٩-"وجعلت وأمرهم شورى بينهم عطفا على الصلة. وقد عرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم فإذا نزل بهم مهم اجتمعوا وتشاوروا وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة، فلما أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري فأجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له.

وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان وأي أمر أعظم من أمر الإيمان.

والأمر: اسم من أسماء الأجناس العامة مثل: شيء وحادث. وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام، أي جميع أمورهم متشاور فيها بينهم.

والإخبار عن الأمر بأنه شورى من قبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة. والإسناد مجاز عقلي لأن الشورى تسند للمتشاورين، وأما الأمر فهو ظرف مجازي للشورى، ألا ترى أنه يقال: تشاورا في كذا، قال تعالى: وشاورهم في الأمر فاجتمع في قوله: وأمرهم شورى مجاز عقلي واستعارة تبعية ومبالغة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٥

والشورى مصدر كالبشرى والفتيا هي أن قاصد عمل يطلب ممن يظن فيه صواب الرأي والتدبير أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوة من عمله، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: وشاورهم في الأمر في سورة آل عمران [١٥٩] .

وقوله: بينهم ظرف مستقر هو صفة ل شورى. والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الظرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمهم الأمر من أهل الرأي فلا يدخل فيها من لا يهمه الأمر، وإلى أنها سر بين المتشاورين قال بشار:

ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم وقد كان شيخ الإسلام محمود ابن الخوجة أشار في حديث جرى بيني وبينه إلى اعتبار هذا الإيماء إشارة بيده حين تلا هذه الآية، ولا أدري أذلك استظهار منه أم". (١)

١٢٩١. ٥٠٠-"ربهم هذه المعاملة تسليك عن معاملتهم إياك على نحو قوله تعالى: يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك [النساء: ١٥٣] ، ولهذا لا تجد نظائر هذه الجملة في معناها مفتتحا بمثل هذا الضمير لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه وإن كان معناهما متماثلا، فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة.

ولكن نظم هذه الآية جاء صالحا لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خلق للناس كلهم مرتكز في الجبلة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية، فيحمل الإنسان في الموضعين على جنس بني آدم ويحمل الفرح على مطلقه المقول عليه بالتشكيك حتى يبلغ مبلغ البطر، وتحمل السيئة التي قدمتها أيديهم على مراتب السيئات إلى أن تبلغ مبلغ الإشراك، ويحمل وصف كفور على ما يشمل اشتقاقه من الكفر بتوحيد الله، والكفر بنعمة الله.

ولهذا اختلفت محامل المفسرين للآية. فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي، ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير. ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٥

هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشف ومنهم من عكس وهي طريقة الكواشي في تلخيصه. وعلى الوجهين فالمراد ب الإنسان في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق، أي إذا أذقنا الناس، وأن الناس كفورون، ويكون استغراقا عرفيا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان لأن أكثر نوع الإنسان يومئذ مشركون، وهذا هو المناسب لقوله: فإن الإنسان كفور أي شديد الكفر قويه، ولقوله: بما قدمت أيديهم أي من الكفر. وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان **للإيماء** إلى أن هذا الخلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام فالذين لم". (١)

١٢٩٢. ٥٠١-"وتأكيد الخبر ب (إن) للاهتمام به لأن الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبيء صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بهذا المقام العظيم فالخبر مستعمل في لازم معناه، على أنه مستعمل أيضا للتعريض بالمنكرين لهديه فيكون في التأكيد ملاحظة تحقيقه وإبطال إنكارهم.

فكما أن الخبر مستعمل في لازمين من لوازم معناه فكذلك التأكيد ب (إن) مستعمل في غرضين من أغراضه، وكلا الأمرين مما ألحق باستعمال المشترك في معنييه.

وتنكير صراط للتعظيم مثل تنكير (عظم) في قول أبي خراش:

فلا وأبي الطير المربة في الضحى ... على خالد لقد وقعن على عظم

ولأن التنكير أنسب بمقام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته.

وعدل عن إضافة صراط إلى اسم الجلالة ابتداء لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل بأن يبدل منه بعد ذلك صراط الله ليتمكن بهذا الأسلوب المعنى المقصود فضل تمكن على نحو قوله: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم [الفاتحة: ٦، ٧].

وإجراء وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته **للإيماء** إلى أن سبب استقامة الصراط الذي يهدي إليه النبيء بأنه صراط الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض فلا يعزب عنه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١٣٤

شيء مما يليق بعباده، فلما أرسل إليهم رسولا بكتاب لا يرتاب في أن ما أرسل لهم فيه صلاحهم.

ألا إلى الله تصير الأمور.

تذييل وتنهية للسورة بختام ما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع منذر بوعيد للمعرضين فاجع ومبشر بالوعد لكل خاشع. وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لاسترعاء أسماع الناس.". (١)

١٢٩٣. ٥٠٢-"ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يصطفى لها ورحمة للناس المرسل إليهم، جعل تحكمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيار هم من يختار لها وتعيين المتأهل لإبلاغها إلى المرحومين.

ووجه الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وسلم وأضيف لفظ (الرب) إلى ضميره **إيماء** إلى أن الله مؤيده تأنيسا له، لأن قولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] قصدوا منه الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أن الله ربه، أي متولي أمره وتدبيره.

وجملة نحن قسمنا بينهم معيشتهم تعليل للإنكار والنفي المستفاد منه، واستدلال عليه، أي لما قسمنا بين الناس معيشتهم فكانوا مسيرين في أمورهم على نحو ما هيأنا لهم من نظام الحياة وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجا إلى بعض ومسخرا به. فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدنيا، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ فإن ذلك أعظم شؤون البشر. فهذا وجه الاستدلال.

والسخري بضم السين وبكسرها وهما لغتان ولم يقرأ في القراءات المشهورة إلا بضم السين. وقرأ ابن محيص في الشاذ بكسر السين: اسم للشيء المسخر، أي المجبور على عمل بدون اختياره، واسم لمن يسخر به، أي يستهزأ به كما في «مفردات» الراغب و «الأساس» و

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١٥٥

«القاموس» . وقد فسر هنا بالمعنيين كما قال القرطبي. وقال ابن عطية: هما لغتان في معنى التسخير ولا تدخل لمعنى الهزء في هذه الآية. ولم يقل ذلك غيره وكلام الراغب محتمل. واقتصر الطبري على معنى التسخير. فالوجه في ذلك أن المعنيين معتبران في هذه الآية. وإيثار لفظ سخريا في الآية دون غيره لتحمله للمعنيين وهو اختيار من وجوه الإعجاز فيجوز أن يكون المعنى ليتعمل بعضهم بعضا في شؤون حياتهم فإن الإنسان مدني، أي محتاج إلى إعانة بعضه بعضا، وعليه فسر الزمخشري وابن عطية وقاله السدي وقتادة والضحاك وابن زيد،". (١)

١٢٩٤. ٥٠٣-"لن يخلص العام خليل عشرا ... ذاق الضماد أو يزور القبرا

وقد حصل من اجتماع هذه الدوال الثلاث في الآية طباق عزيز بين ثلاثة معان متضادة في الجملة.

[٤٠]

[سورة الزخرف (٤٣) : آية ٤٠]

أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠)

تفريع على جملة ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا [الزخرف: ٣٦] لأن ذلك أفاد توغلهم في الضلالة وعسر انفكاكهم عنها، لأن مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلى التهوين على النبيء صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من الكد والتحرق عليهم في تصميمهم على الكفر والغي وفيه **إيماء** إلى تأييس من اهتداء أكثرهم.

والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداهم ناجعا فيهم إذا كان الله قدر ضلالهم فأوجد أسبابه، قال تعالى: إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل [النحل: ٣٧] ، ولما كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم في معاودة دعوتهم كحال من يظن أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزل منزلة من يظن ذلك فخوطب باستفهام الإنكار وسلط الاستفهام على كلام فيه طريق قصر بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مع إيلاء الضمير حرف الإنكار وهو قصر مؤكد وقصر قلب، أي أنت لا تسمعهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/٢٥

ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء، وهو نظير أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [يونس:
٩٩] .

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشا، وهو النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصم العمي إشارة أن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال لا أن التخلق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات. وهو معنى
قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»
أي حتى يحق عليه أن الكذب ملكة له، وإذ قد كان إعراضهم انصرافا عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصم العمي كما مهد لذلك بقوله: ومن يعش عن ذكر الرحمن [الزخرف: ٣٦]". (١)

١٢٩٥. ٥٠٤-"كما ذكرناه هنالك، فظهرت
المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصم العمي.
وعطف ومن كان في ضلال مبين فيه معنى التذييل لأنه أعم من كل من الصم والعمي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أن الصمم والعمى لما كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصر جزئيا في حالة خاصة فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيها على عموم الأحوال وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة لأن اجتماع الصمم والعمى أبين ضلالا.
[٤١، ٤٢]

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٤١ إلى ٤٢]
فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون (٤١) أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون (٤٢)
تفريع على جملة أفأنت تسمع الصم [الزخرف: ٤٠] إلى آخرها المتضمنة إيماء إلى التأسيس

(١) التحرير والتنوير ٢١٦/٢٥

من اهتدائهم، والصريحة في تسلية النبيء صلى الله عليه وسلم من شدة الحرص في دعوتهم، فجاء هنا تحقيق وعد بالانتقام منهم، ومعناه: الوعد بإظهار الدين إن كان في حياة النبيء صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته، ووعيدهم بالعقاب في الدنيا قبل عقاب الآخرة، فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذكر في هذه الجملة أمران: الانتقام منهم لا محالة، وكون ذلك واقعا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته. والمفرع هو فإنا منهم منتقمون وما ذكر معه، فمراد منه تحقق ذلك على كل تقدير.

و (إما) كلمتان متصلتان أصلهما (إن) الشرطية و (ما) زائدة بعد (إن) ، وأدغمت نون (إن) في الميم من حرف (ما) ، وزيادة (ما) للتأكيد، ويكثر اتصال فعل الشرط بعد (إن) المزيدة بعدها (ما) بنون التوكيد زيادة في التأكيد، ويكتبونها بهمزة وميم وألف تبعا لحالة النطق بها.

والذهاب به هنا مستعمل للتوفي بقرينة قوله: أو نرينك الذي وعدناهم لأن الموت مفارقة للأحياء فالإماتة كالانتقال به، أي تغييبه ولذلك يعبر عن الموت بالانتقال.

والمعنى: فإما نتوفينك فإنا منهم منتقمون بعد وفاتك.". (١)

١٢٩٦. ٥٠٥-"في قوله: إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل [الزخرف: ٥٩] الآية، أي لما جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به، فحذف جواب لما لأن المقصود هو قوله: فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم [الزخرف: ٦٥] لأنه يفيد أن سنن الأمم المبعوث إليهم الرسل لم يختلف فإنه لم يخل رسول عن قوم آمنوا به وقوم كذبوه ثم كانوا سواء في نسبة الشركاء في الإلهية بمزاعم النصارى أن عيسى ابن لله تعالى كما أشار إليه قوله: فويل للذين ظلموا [الزخرف: ٦٥] أي أشركوا كما هو اصطلاح القرآن غالبا. فتم التشابه بين الرسل السابقين وبين محمد صلى الله عليهم أجمعين، فحصل في الكلام إيجاز تدل عليه فاء التفريع.

وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أن الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقا بها من قبل، فإن عيس بعث إلى قوم لم يكونوا

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٧/٢٥

يدينون بالشرك إذ هو قد بعث لبني إسرائيل وكلهم موحدون فلما اختلف أتباعه بينهم وكذبت به فرق وصدقه فريق ثم لم يتبعوا ما أمرهم به لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك.
وجملة قال قد جئتكم بالحكمة مبينة لجملة جاء عيسى بالبينات وليست جوابا لشرط لما الذي جعل التفريع في قوله: فاختلف الأحزاب من بينهم [مريم: ٣٧] دليلا عليه. وفي إيقاع جملة قد جئتكم بالحكمة بيانا لجملة جاء عيسى بالبينات **إيماء** إلى أنه بادأهم بهذا القول، لأن شأن أهل الضلالة أن يسرعوا إلى غاياتها ولو كانت مبادئ الدعوة تنافي عقائدهم، أي لم يدعهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلف فيه ولم يدعهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب.
وابتداؤه بإعلامهم أنه جاءهم بالحكمة والبيان وهو إجمال حال رسالته ترغيب لهم في وعي ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة المفرع بعضها على هذه المقدمة بقوله:
فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه.
والحكمة هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكف عن القبيح وهي هنا النبوءة،". (١)

١٢٩٧. ٥٠٦-"التشريعات بأن ذلك كله من ربه، أي بواسطته فإنه إذا كان الإرسال رحمة كان الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة قال تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] ، ويعلم من كونه رب الرسول صلى الله عليه وسلم أنه رب الناس كلهم إذ لا يكون الرب رب بعض الناس دون بعض فأغنى عن أن يقول:
رحمة من ربك وربهم، لأن غرض إضافة رب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم يأبى ذلك، ثم سيصرح بأنه ربهم في قوله ربكم ورب آبائكم الأولين [الدخان: ٨] وهو مقام آخر سيأتي بيانه.
وجملة إنه هو السميع العليم تعليل لجملة إنا كنا مرسلين رحمة من ربك أي كنا مرسلين رحمة بالناس لأنه علم عبادة المشركين للأصنام وعلم إغواء أيمة الكفر للأمم وعلم ضجيج الناس من ظلم قويهم ضعيفهم وعلم ما سوى ذلك من أقوالهم فأرسل الرسل لتقويمهم وإصلاحهم وعلم أيضا نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض فأرسل الرسل بالشرائع لكف الناس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٦/٢٥

عن الفساد وإصلاح عقائدهم وأعمالهم، فأشير إلى علم النوع الأول
بوصف السميع لأن السميع هو الذي يعلم الأقوال فلا يخفى عليه منها شيء. وأشير إلى علم النوع الثاني بوصف العليم الشامل لجميع المعلومات. وقدم السميع للاهتمام بالمسموعات لأن أصل الكفر هو دعاء المشركين أصنامهم.
واعلم أن السميع والعليم تعليلان لجملة إنا كنا مرسلين بطريق الكناية الرمزية لأن علة الإرسال في الحقيقة هي إرادة الصلاح ورحمة الخلق. وأما العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقه، فالتعليل بصفة العلم بناء على مقدمة أخرى وهي أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد، فإذا كان لا يحب ذلك وكان عليما بتصرفات الخلق كان علمه وحكمته مقتضيين أن يرسل للناس رسلا رحمة بهم. وضمير الفصل أفاد الحصر، أي هو السميع العليم لا أصنامكم التي تدعونها. وفي هذا **إيماء** إلى الحاجة إلى إرسال الرسول إليهم بإبطال عبادة الأصنام.
وفي وصف السميع العليم تعريض بالتهديد.". (١)

١٢٩٨. ٥٠٧-"والمشركين في بلد واحد كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا [الأعراف: ١٥٥] . وفيه **إيماء** إلى أن الله سيخرج المؤمنين من مكة قبل أن يحل بأهلها هذا العذاب، فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [البقرة:
٢٨٦] الآيات. وعليه فجملة إنا مؤمنون تعليل لطلب دفع العذاب عنهم، أي إنا متلبسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين، وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان، وأسلوب الكلام جار على أن جملة إنا مؤمنون تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إن) من معنى الإخبار دون الوعد، ومن التعليل دون التأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل في زمن الحال دون الاستقبال، ولأن سياقه خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بترقب إعانة الله إياه على المشركين، كما كان يدعو «أعني عليهم بسبع كسني يوسف» فمقتضى المقام تأمينه من أن يصيب العذاب المسلمين وفيهم النبيء صلى الله عليه وسلم، وظاهر مادة الكشف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٢٨٢

تقتضي إزالة شيء كان حاصلا في شيء إلا أن الكشف هنا لما لم يكن مستعملا في معناه الحقيقي كان مجازه محتملا أن يكون مستعملا في منع حصول شيء يخشى حصوله كما في قوله تعالى:

إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا [يونس: ٩٨] فإن قوم يونس لم يحل بهم عذاب فزال عنهم ولكنهم توعدوا به فبادروا بالإيمان فنجاهم الله منه، وقول جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

أراد أنه يمنع العدو من أن ينالهم بسوء، ومحتملا للاستعمال في زوال شيء كان حصل. ولم يذكر أحد من رواة السير والآثار أن المشركين وعدوا النبيء صلى الله عليه وسلم بأنهم يسلمون إن أزال الله عنهم القحط.". (١)

١٢٩٩. ٥٠٨-"[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٤٣ إلى ٥٠]

إن شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦)

خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم (٤٧)

ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق إنك أنت العزيز الكريم (٤٩) إن هذا ما كنتم به تمترون (٥٠)

لما ذكر الله فريقا مرحومين على وجه الإجمال قابله هنا بفريق معذبون وهم المشركون، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم، فكان مقتضى الظاهر أن يبتدأ الكلام بالإخبار عنهم بأنهم يأكلون شجرة الزقوم كما قال في سورة الواقعة [٥١، ٥٢] ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم الآية، فعدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم بأنها طعام الأثيم اهتماما بالإعلام بحال هذه الشجرة. وقد جعلت شجرة الزقوم شيئا معلوما للسامعين فأخبر عنها بطريق تعريف الإضافة لأنها سبق ذكرها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدخان فإن الواقعة عدت السادسة والأربعين في عداد نزول السور وسورة الدخان ثالثة وستين. ومعنى كون الشجرة طعاما أن ثمرها طعام، كما قال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٠/٢٥

تعالى: طلعها كأنه رؤس الشياطين فإنهم لآكلون منها [الصافات: ٦٥، ٦٦] .
وكتبت كلمة شجرة في المصاحف بتاء مفتوحة مراعاة لحالة الوصل وكان الشائع في رسم أواخر الكلم أن تراعى فيه حالة الوقف، فهذا مما جاء على خلاف الأصل.
والأثيم: الكثير الآثام كما دلت عليه زنة فعيل. والمراد به: المشركون المذكورون في قوله: إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى [الدخان: ٣٤، ٣٥] ، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لقصد **الإيماء** إلى أن المهم بالشرك مع سبب معاملتهم هذه.". (١)

١٣٠٠. ٥٠٩-"ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم (٥٧) .
عطف على وزوجناهم بحور عين وهذا تذكير بنعمة السلامة مما ارتبك فيه غيرهم. وذلك مما يحمد الله عليه كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني مما هو فيه. وضمير وقاهم عائد إلى ضمير المتكلم في وزوجناهم على طريقة الالتفات.
وفضلا حال من المذكورات. والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم.
وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منا.
ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبيء صلى الله عليه وسلم **والإيماء** إلى أن ذلك إكرام له لإيمانهم به.
وجملة ذلك هو الفوز العظيم تذييل، والإشارة في ذلك هو الفوز العظيم لتعظيم الفضل ببعد المرتبة. وأتي بضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل المشار إليه وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنه لا فوز غيره.
[٥٨، ٥٩]

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٥٨ إلى ٥٩]
فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون (٥٨) فارتقب إنهم مرتقبون (٥٩)
الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣١٤

للسورة، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتب علتها.

وضمير يسرناه عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله". (١)

١٣٠١. ٥١٠-"من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك **إيماء** إلى أن إعجازه، من جانب بلاغته إذ غلبت بلاغة بلغائهم، ومن جانب معانيه إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء، وقد تقدم مثيل هذا في طالعة سورة الزمر وقريب منه في طالعة سورة غافر.

[٣- ٥]

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٣ إلى ٥]

إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين (٣) وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥)

موقع هذا الكلام موقع تفصيل المجمل لما جمعته جملة تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم [الجاثية: ٢] باعتبار أن آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنما كانت آيات للمؤمنين الموقنين، وللذين حصل لهم العلم بسبب ما ذكرهم به القرآن، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: تلك آيات الله نتلوها عليك [الجاثية: ٦] .

وأكد ب إن وإن كان المخاطبون غير منكريه لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى وإلا فقد قال الله تعالى: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم في سورة الزخرف [٩] .

والخطاب موجه إلى المشركين ولذلك قال: لآيات للمؤمنين وقال: آيات لقوم يوقنون دون أن يقال: لآيات لكم أو آيات لكم، أي هي آيات لمن يعلمون دلالتها من

المؤمنين ومن الذين يوقنون إشارة إلى أن تلك الآيات لا أثر لها في نفوس من هم بخلاف

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٠/٢٥

ذلك. والمراد بكون الآيات في السماوات والأرض أن ذات السماوات والأرض وعداد صفاتها دلائل على الوحدانية فجعلت السماوات والأرض بمنزلة الظرف لما أودعته". (١)

١٣٠٢. ٥١١-"يتأتيان في مثل هذا التركيب كلما وقع في الكلام، وقد تقدم عند قوله تعالى: قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة في سورة إبراهيم [٣١] .
وللذين لا يرجون أيام الله يراد بهم المشركون من أهل مكة.
والرجاء: ترقب وتطلب الأمر المحبوب، وهذا أشهر إطلاقاته وهو الظاهر في هذه الآية.
والأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب على معاند أو مقاتل، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب: أيام العرب، أي التي كان فيها قتال بين قبائل منهم فانتصر بعضهم على بعض، كما يقال أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس، قال عمرو بن كلثوم:
وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا
فإذا قالوا: أيام بني فلان، أرادوا الأيام التي انتصر فيها من أضيفت الأيام إلى اسمه، ويقولون: أيام بني فلان على بني فلان فيريدون أن المجرور بحرف الاستعلاء
مغلوب لتضمن لفظ أيام أو (يوم) معنى الانتصار والغلب. وبذلك التضمن كان المجرور متعلقا بلفظ أيام أو (يوم) وإن كان جامدا، فمعنى أيام الله على هذا هو من قبيل قولهم: أيام بني فلان، فيحصل من محمل الرجاء على ظاهر استعماله.
ومحمل أيام الله على محمل أمثاله أن معنى الآية للذين لا تترقب نفوسهم أيام نصر الله، أي نصر الله لهم: إما لأنهم لا يتوكلون على الله ولا يستنصرونه بل توجههم إلى الأصنام، وإما لأنهم لا يخطر ببالهم إلا أنهم منصورون بحولهم وقوتهم فلا يخطر ببالهم سؤال نصر الله أو رجاؤه وهم معروفون بهذه الصلة بين المسلمين فلذلك أجريت عليهم هنا وعرفوا بها. وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأن الله ينصر الذين يرجون أيام نصره وهم المؤمنون.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٦/٢٥

والغرض من هذا التعريض **الإيماء** بالموصول إلى وجه أمر". (١)

١٣٠٣. ٥١٢-"وجعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيته.

وذكر لفظ (قوم) **للإيماء** إلى أن الإيقان متمكن من نفوسهم كأنه من مقومات قوميتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين.

والإيقان: العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه. وحذف متعلقه لأنه معلوم بما جاءت به آيات الله.

[٢١]

[سورة الجاثية (٤٥) : آية ٢١]

أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون (٢١)

انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها ثم من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله ثم من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال وتخييلهم للناس أنهم يصيرون في الآخرة، على الحال التي كانوا عليها في الدنيا، عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الآخرة، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله: من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون [الجاثية: ١٥] .

فحرف أم

للإضراب الانتقالي، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد أم

استفهام إنكاري، والتقدير: لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا لا في الحياة وفي في الممات. والذين اجترحوا السيئات

في نقل عن ابن عباس: أنهم المشركون كما يؤذن به الانتقال من الغرض السابق إلى هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٣٤٠

الغرض وإنما عبر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد ولأن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم". (١)

١٣٠٤. ٥١٣-"أحسن حالا من المؤمنين لا أن يكونوا مثل المؤمنين لأنهم قالوا ذلك في مقام التطاول على المؤمنين، وإرادة إفحامهم بسفسطتهم. فبنا أن نبين موقع هذا الكاف في الآية.
والذي أرى: أن موقعه **الإيماء** إلى أن الله قدر للمؤمنين حسن الحال بعد الممات حتى صار ذلك المقدر مضرب الأمثال ومناط التشبيه، وإلى أن حسبان المشركين أنفسهم في الآخرة على حالة حسنة باطل، فعبر عن حسبانهم الباطل بأنهم أثبتوا لأنفسهم في الآخرة الحال التي هي حال المؤمنين، أي حسب المشركون بزعمهم أن يكونوا بعد الموت في حالة إذا أراد الواصف أن يصفها وصفها بمشابهة حال المؤمنين في عند الله وفي نفس الأمر، وليس المراد أن المشركين مثلوا حالهم بحال المؤمنين فيؤول قوله:
كالذين آمنوا
إلى حكاية الكلام المحكي بعبارة تساويه لا بعبارة قائله، وذلك مما يتوسع فيه في حكاية الأقوال كقوله تعالى حكاية عن عيسى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله، ربي وربكم [المائدة: ١١٧] فإن ما أمره الله به: أن اعبدوا الله ربك وربهم، وذلك من خلاف مقتضى الظاهر دعا الله هنا قصد التنويه بالمؤمنين والعناية بزلفاهم عند الله، فكأنه قيل: أحسبوا أن نجعلهم في حالة حسنة ولكن هذا المأمول في حسبانهم هو في نفس الأمر حال المؤمنين لا حالهم. فأوجز الكلام، وفهم السامع يبسطه. والمواجه بهذا الكلام هم النبيء والمؤمنون تكملة للغرض المبتدأ به في قوله: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله [الجاثية: ١٤]
على أن لك أن تجعل قوله تعالى: كالذين آمنوا
معترضا بين مفعولي (نجعل) وهما ضميرا الغائبين وجملة سواء محياهم
أو ولفظ سواء
في قراءة نصبه فلا يكون مرادا إدخاله في حسبان المشركين.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥١/٢٥

ويجوز على هذا أن يكون قوله: كالذين آمنوا

تهكما على المشركين في حسبانهم تأكيدا للإنكار عليهم.

ومن خلاف ظاهر التركيب ما قيل: إن مدلول سواء محياهم ومماتهم

ليس من

حسبان المشركين المنكور ولكنه كلام مستأنف، والمعنى: أنه لما أنكر". (١)

١٣٠٥. ٥١٤-"حسبان استواء الكافرين والمؤمنين خطر ببال السامع أن يسأل كيف واقع حال الفريقين فأجيب بأن حال محياهم هو مقياس حال مماتهم، أي حالهم في الآخرة مختلف كما هو في الدنيا مختلف، فالمؤمنون يحيون في الإقبال على ربهم ورجاء فضله، والكافرون يعيشون معرضين عن عبادة ربهم آيسين من البعث والجزاء. وهذا ليس عين الجواب ولكنه من الاكتفاء بعلة الجواب عن ذكره. والتقدير: حال الفريقين مختلف في الآخرة كما كان مختلفا في الحياة.

وجملة ساء ما يحكمون

تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني. واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في تخالف حالي المشركين والمؤمنين فإن نوط الحكم فيها بصلة الذين اجترحوا السيئات

يجعل منها **إيماء** إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان وإن لم يحسب أحد من المؤمنين ذلك وعن تميم الداري أنه بات ليلة يقرأ هذه الآية ويركع ويسجد ويبكي إلى الصباح.

وروي مثل ذلك عن الربيع بن خيثم وعن الفضيل بن عياض: أنه كان كثيرا ما يردد من أول الليل هذه الآية ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت. يخاطب نفسه فكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين.

والمحيا والممات: مصدران ميميان أو اسما زمان، أي حياتهم وموتهم، وهو على كلا الاعتبارين بتقدير مضاف، أي حالة محياهم وحالات مماتهم.

[٢٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٤/٢٥

[سورة الجاثية (٤٥) : آية ٢٢]

وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون (٢٢)

الجملة معترضة والواو اعتراضية وهو اعتراض بين الكلام المتقدم وبين ما فرع عليه من قوله: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه [الجاثية: ٢٣] هو كالدليل على انتفاء أن يكون الذين اجترحوا السيئات الذين هم في بحبوحة عيش مدة حياتهم أن يكونوا في نعيم بعد مماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مدة حياتهم فكان جزاؤهم النعيم بعد". (١)

١٣٠٦. ٥١٥-"وتقديم هم على يستعتبون وهو مسند فعلي بعد حرف النفي هنا تعريض بأن الله يعتب غيرهم، أي يرضي المؤمنين، أي يغفر لهم.

[٣٦، ٣٧]

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٣٦ إلى ٣٧]

فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين (٣٦) وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٣٧)

الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم، فلما كان ذلك كله من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه فيجوز أن يكون هذا الكلام مرادا منه ظاهر الإخبار، ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملا في معناه الكنائي وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه. ويجوز أن يكون إنشاء حمد لله تعالى وثناء عليه. وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ونظيره قوله تعالى: فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين في سورة الأنعام [٤٥] .

وتقديم (لله) لإفادة الاختصاص، أي الحمد مختص به الله تعالى يعني الحمد الحق الكامل

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٥/٢٥

مختص به تعالى كما تقدم في سورة الفاتحة.

وإجراء وصف رب السماوات على اسمه تعالى **إيماء** إلى علة قصر الحمد على الله إخبارا وإنشاء تأكيدا لما اقتضته الفاء في قوله: فلله الحمد. وعطف ورب الأرض بتكرير لفظ رب للتنويه بشأن الربوبية لأن رب السماوات والأرض يحق حمده على أهل السماء والأرض، فأما أهل السماء فقد حمدوه كما أخبر الله عنهم بقوله:

والملائكة يسبحون بحمد ربهم [الشورى: ٥] . وأما أهل الأرض فمن حمده منهم فقد أدى حق الربوبية ومن حمد غيره وأعرض عنه فقد سجل على نفسه سمة الإباق، وكان بمأوى النار محل استحقاق.". (١)

١٣٠٧. ٥١٦-"وهو عمل شاق لأمه فذكرت مدة الحمل والإرضاع لأنها لطولها تستدعي صبر الأم على تحمل كلفة الجنين والرضيع.

والفصال: الفطام، وذكر الفصال لأنه انتهاء مدة الرضاع فذكر مبدأ مدة الحمل بقوله: وحمله وانتهاء الرضاع بقوله: وفصاله. والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرا. وقرأ يعقوب وفصله بسكون الصاد، أي فصله عن الرضاعة بقرينة المقام.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة تسعة أشهر وهو الغالب أرضعت المولود أحد وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرا زائدا في الإرضاع لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالا.

ومن بديع هذا الطي في الآية أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع فلولا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٧/٢٥

قصد **الإيماء** إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام. وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع آية سورة البقرة [٢٣٣] والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين دليلا على أن الوضع قد يكون لستة أشهر، ونسب مثله إلى ابن عباس.
ورووا عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت
لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فذكر له فبعث إليها عثمان، فلما أتي بها أمر برجمها فبلغ ذلك عليا". (١)

١٣٠٨. ٥١٧-"على الراحلة أفيجزئ أن أحج عنه، قال: نعم حجي عنه»
، وهو حج غير واجب على أبيها لعجزه.
والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية وهو جمع لم يسمع له بمفرد. وقيل مفرده: شدة بكسر الشين وهاء التأنيث مثل نعمة جمعها أنعم، وليس الأشد اسما لعدد من سني العمر وإنما سنو العمر مظنة للأشد. ووقته ما بعد الثلاثين سنة وتمامه عند الأربعين سنة ولذلك عطف على بلغ أشده قوله: وبلغ أربعين سنة أي بلغ الأشد ووصل إلى أكمله فهو كقوله تعالى: ولما بلغ أشده واستوى [القصص: ١٤] ، وتقدم في سورة يوسف، وليس قوله: وبلغ أربعين سنة تأكيدا لقوله بلغ أشده لأن إعادة فعل بلغ تبعد احتمال التأكيد وحرف العطف أيضا يبعد ذلك الاحتمال.
وأوزعني: ألهمني. وأصل فعل أوزع الدلالة على إزالة الوزع، أي الانكفاف عن عمل ما، فالهمزة فيه للإزالة، وتقدم في سورة النمل.
ونعمتك اسم مصدر مضاف يعم، أي ألهمني شكر النعم التي أنعمت بها علي وعلى والدي من جميع النعم الدينية كالإيمان والتوفيق ومن النعم الدنيوية كالصحة والجدة.
وما ذكر من الدعاء لذريته بقوله: وأصلح لي في ذريتي استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفل الإنسان عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذريته إليه مثل ما كان منه لأبويه وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد.

---
(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٦

وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين **إيماء** إلى أن المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة.

وفي حديث أبي هريرة عن النبيء صلى الله عليه وسلم: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»

، وفي رواية «لولده» وهو حديث حسن متعددة طرقه.". (١)

١٣٠٩. ٥١٨-"المراد بالإنسان من قوله: ووصينا الإنسان [الأحقاف: ١٥] غير معين بل المراد الجنس المستعمل في الاستغراق كما قدمناه. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما قبلها من الوصف والحث يحدث ترقب السامع لمعرفة فائدة ذلك فكان قوله: أولئك الذين يتقبل عنهم إلى آخره جوابا لترقية.

وعموم أحسن ما عملوا يكسب الجملة فائدة التذييل، أي الإحسان بالوالدين والدعاء لهما وللذرية من أفضل الأعمال فهو من أحسن ما عملوا. وقد تقبل منهم كل ما هو أحسن ما عملوا. والتقبل: ترتب آثار العمل من ثواب على العمل واستجابة للدعاء.

وفي هذا **إيماء** إلى أن هذا الدعاء مرجو الإجابة لأن الله تولى تلقينه مثل الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

وعدي فعل يتقبل بحرف (عن) ، وحقه أن يعدى بحرف (من) تغليبا لجانب المدعو لهم وهم الوالدان والذرية، لأن دعاء الولد والوالد لأولئك بمنزلة النيابة عنهم في عبادة الدعاء وإذا كان العمل بالنيابة متقبلا علم أن عمل المرء لنفسه متقبل أيضا ففي الكلام اختصار كأنه قيل: أولئك يتقبل منهم ويتقبل عن والديهم وذريتهم أحسن ما عملوا.

وقرأ الجمهور يتقبل ويتجاوز بالياء التحتية مضمومة مبنيين للنائب وأحسن مرفوع على النيابة عن الفاعل ولم يذكر الفاعل لظهور أن المتقبل هو الله وقرأها حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنونين مفتوحتين ونصب أحسن.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣/٢٦

وقوله: في أصحاب الجنة في موضع الحال من اسم الإشارة، أي كائنين في أصحاب الجنة
حين يتقبل أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم لأن أصحاب الجنة متقبل
أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم، وذكر هذا للتنويه بهم بأنهم من الفريق المشرفين كما
يقال: أكرمه في أهل العلم.
وانتصب وعد الصدق على الحال من التقبل والتجاوز المفهوم من معاني يتقبل ويتجاوز،
فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل كما أعيد". (١)

١٣١٠. ٥١٩-"يحصل لهم يوم البعث جمعا بين الاستدلال والإنذار، وذكر من ذلك ما
يقال لهم مما لا مندوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم جمعا بين ما رد به في الدنيا من قوله: بلى
(١) [الأحقاف: ٣٣] وما يردون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم: بلى وربنا. والجملة
عطف على جملة أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض [الأحقاف: ٣٣] إلخ.
وأول الجملة المعطوفة قوله: أليس هذا بالحق لأنه مقول فعل قول محذوف تقديره: ويقال
للذين كفروا يوم
يعرضون على النار.
وتقديم الظرف على عامله للاهتمام بذكر ذلك اليوم لزيادة تقريره في الأذهان.
وذكر الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار للإيماء بالموصول إلى علة بناء الخبر، أي يقال
لهم ذلك لأنهم كفروا. والإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعده قال فذوقوا العذاب. والحق:
الثابت.
والاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمون أن الجزاء باطل وكذب، وقالوا وما نحن
بمعذبين [الصافات: ٥٩] ، وإنما أقسموا على كلامهم بقسم وربنا قسما مستعملا في الندامة
والتغليظ لأنفسهم وجعلوا المقسم به بعنوان الرب تحننا وتخضعا.
وفرع على إقرارهم فذوقوا العذاب. والذوق مجاز في الإحساس. والأمر مستعمل في الإهانة.
[٣٥]

(١) التحرير والتنوير ٣٥/٢٦

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٣٥]
فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥)
فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى واستهزائهم به وبما جاء به من البعث ابتداء من قوله: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين [الأحقاف: ٧] ، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم.

---

(١) في المطبوعة: فله.". (١)

١٣١١. ٥٢٠-"فهل يهلك إلا القوم الفاسقون.
فرع على جملة كأنهم يوم يرون ما يوعدون إلى من نهار، أي فلا يصيب العذاب إلا المشركين أمثالهم. والاستفهام مستعمل في النفي، ولذلك صح الاستثناء منه كقوله تعالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه [البقرة: ١٣٠] .
ومعنى التفريع أنه قد اتضح مما سمعت أنه لا يهلك إلا القوم الفاسقون، وذلك من قوله: قل ما كنت بدعا من الرسل [الأحقاف: ٩] ، وقوله: لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين إلى قوله: ولا هم يحزنون [الأحقاف: ١٢، ١٣] ، وقوله: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى [الأحقاف: ٢٧] الآية.
والإهلاك مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي، فإن ما حكي فيما مضى بعضه إهلاك حقيقي مثل ما في قصة عاد، وما في قوله: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى، وبعضه مجازي وهو سوء الحال، أي عذاب الآخرة: وذلك فيما حكي من عذاب الفاسقين.
وتعريف القوم تعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي كل القوم الفاسقين فيعم مشركي مكة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٦٦

الذين عناهم القرآن فكان لهذا التفريع معنى التذييل.
والتعبير بالمضارع في قوله: فهل يهلك على هذا الوجه لتغليب إهلاك المشركين الذي لما يقع على إهلاك الأمم الذين قبلهم. ولك أن تجعل التعريف تعريف العهد، أي القوم المتحدث عنهم في قوله: كأنهم يوم يرون ما يوعدون الآية، فيكون إظهارا في مقام الإضمار **للإيماء** إلى سبب إهلاكهم أنه الإشراك.
والمراد بالفسق هنا الفسق عن الإيمان وهو فسق الإشراك. وأفاد الاستثناء أن غيرهم لا يهلكون هذا الهلاك، أو هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.". (١)

١٣١٢. ٥٢١-"وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، **وإيماء** بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر أي لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود.
والكفر: الإشراك بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجردا عن قرينة إرادة غير المشركين. وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي:
الكفر، والصد عن سبيل الله، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال الله إياهم.
والصد عن سبيل: هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى. وأضيف (السبيل) إلى الله لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده إن الدين عند الله الإسلام [آل عمران: ١٩] . واستعير اسم السبيل للدين لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته.
ومن الصد عن سبيل الله صدهم المسلمين عن المسجد الحرام قال تعالى:
ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام [الحج: ٢٥] . ومن الصد عن المسجد الحرام:
إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة، وصدهم عن العمرة عام الحديبية.
ومن الصد عن سبيل الله: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم، فلذلك قيل: إن الآية نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا من سادة المشركين من قريش.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٢٦

وهم:
أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبي بن خلف وأمية بن خلف ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج وأبو البختري بن هشام والحارث بن هشام وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل وحكيم بن حزام وهذا الأخير أسلم من بعد وصار من خيرة الصحابة. وعد منهم صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ومقيس الجمحي والعباس بن". (١)

١٣١٣. ٥٢٢-"عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وهذان أسلما وحسن إسلامهما وفي الثلاثة الآخرين خلاف. ومن الصد عن سبيل الله صدهم الناس عن سماع القرآن وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [فصلت: ٢٦] .
والإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله الخطأ للطريق المسلوك للوصول إلى مكان يراد وهو يستلزم المعاني الأخر. وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا لأنه الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يثبهم عليها من صلة رحم، وإطعام جائع، ونحوهما، ولأن من إضلال أعمالهم أن كان غالب أعمالهم عبثا وسيئا ولأن من إضلال أعمالهم أن الله خيب سعيهم فلم يحصلوا منه على طائل فانهزموا يوم بدر وذهب إطعامهم الجيش باطلا، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يشفوا غليلهم يوم أحد، ثم توالت انهزاماتهم في المواقع كلها قال تعالى: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون [الأنفال: ٣٦] .
[٢]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٢]
والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم (٢)
هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته، أي لأجل إيمانهم إلخ كفر عنهم سيئاتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٧٣

وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي: الإيمان مقابل الكفر، والإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه أضل أعمالهم [محمد: ١] ، وكفر عنهم سيئاتهم مقابل بعض آخر مما تضمنه أضل أعمالهم، وأصلح بالهم مقابل بقية ما تضمنه أضل أعمالهم. وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله: وهو الحق من ربهم". (١)

١٣١٤. ٥٢٣-"به فجع الفرسان فوق خيولهم ... كما فجعت تحت الستور العواتق

تساقط من أيديهم البيض حيرة ... وزعزع عن أجيادهن المخانق

وفي هذه الآية محسن الطباق مرتين بين الذين كفروا والذين آمنوا وبين الحق والباطل. وفي بيتي الزمخشري محسن الطباق مرة واحدة بين فوق وتحت.

واتباع الباطل واتباع الحق تمثيليتان لهيئتي العمل بما يأمر به أيمة الشرك أولياءهم وما يدعو إليه القرآن، أي عملوا بالباطل وعمل الآخرون بالحق.

ووصف الحق بأنه من ربهم تنويه به وتشريف لهم.

كذلك يضرب الله للناس أمثالهم.

تذييل لما قبله، أي مثل ذلك التبيين للحالين يبين الله الأحوال للناس بيانا واضحا.

والمعنى: قد بينا لكل فريق من الكافرين والمؤمنين حاله تفصيلا وإجمالا، وما تفضي إليه من استحقاق المعاملة بحيث لم يبق خفاء في كنه الحالين، ومثل ذلك البيان يمثل الله للناس أحوالهم كيلا تلتبس عليهم الأسباب والمسببات.

ومعنى يضرب: يلقي وهذا إلقاء تبيين بقرينة السياق، وتقدم عند قوله تعالى:

أن يضرب مثلا ما في سورة البقرة [٢٦] .

والأمثال: جمع مثل بالتحريك وهو الحال التي تمثل صاحبها، أي تشهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره. واللام للأجل، والمراد بالناس جميع الناس. وضمير أمثالهم للناس.

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٢٦

والمعنى: كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم، وفي هذا **إيماء** إلى وجوب التوسم لتمييز المنافقين عن المسلمين حقا، فإن من مقاصد السورة التحذير من المنافقين.". (١)

١٣١٥. ٥٢٤-"أي أمرتم بضرب رقابهم، والحال أن الله لو شاء لاستأصلهم ولم يكلفكم بقتالهم، ولكن الله ناط المسببات بأسبابها المعتادة وهي أن يبلو بعضكم ببعض.

وتعدية (انتصر) بحرف (من) مع أن حقه أن يعدى بحرف (على) لتضمينه معنى: انتقم.

والاستدراك راجع إلى ما في معنى المشيئة من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب غير ما بعد الاستدراك.

والبلو حقيقته: الاختبار والتجربة، وهو هنا مجاز في لازمه وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم ومن إهانة الكفار، وهو أن شأنهم بمرأى ومسمع من الناس.

والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦) هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض وهو مقابل ما في قوله: فضرب الرقاب إلى قوله: وإما فداء، فإن ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا فذكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

وجملة والذين قتلوا في سبيل الله إلخ عطف على جملة فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب الآية فإنه لما أمرهم بقتال المشركين أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله.

وذكر الذين قتلوا في سبيل الله إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يضل الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن مقتضى الظاهر من الإضمار إلى الإظهار ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوي الخبر، وليكون ذريعة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٧٧

إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته، **وللإيماء** إلى وجه بناء الخبر على الصلة بأن تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر.". (١)

١٣١٦. ٥٢٥-"فجملة فلن يضل أعمالهم خبر عن الموصول، وقرنت بالفاء لإفادة السببية في ترتب ما بعد الفاء على صلة الموصول لأن الموصول كثيرا ما يشرب معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل قتلوا منصرفة إلى الاستقبال لأن ذلك مقتضى الشرط. وجملة سيهديهم وما عطف عليها بيان لجملة فلن يضل أعمالهم. وتقدم الكلام آنفا على معنى إضلال الأعمال وإصلاح البال.
ومعنى عرفها لهم أنه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنة، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يترددون في أنهم داخلوها، وذلك من تعجيل الفرح بها. وقيل: عرفها جعل فيها عرفا، أي ريحا طيبا، والتطييب من تمام حسن الضيافة.
وقرأ الجمهور قاتلوا بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم.
وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم قتلوا بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.
[٧]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٧]
يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧)
لما ذكر أنه لو شاء الله لا نتصر منهم علم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين.
فالجملة استئناف ابتدائي لهاته المناسبة. وافتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام **وإيماء** إلى أن **الإيماء** يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد

---

(١) التحرير والتنوير ٨٣/٢٦

أن اجتنوا فائدته مشاهدة يوم بدر.". (١)

١٣١٧. ٥٢٦-"والداعية إلى الطاعة، وبأنه ما يقع عنده صلاح العبد آخرة. وفسر المعتزلة اللطف بإيصال المنافع إلى العبد من وجه يدق
إدراكه وتمكينه بالقدرة والآلات.
[١٧]

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٧]
والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧)
جملة معترضة بين جملة ومنهم من يستمع إليك [الأنعام: ٢٥] وما فيهم عنها من قوله: فهل ينظرون إلا الساعة [الزخرف: ٦٦] والواو اعتراضية. والمقصود من هذا الاعتراض: مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على الأسلوب الذي أقيمت عليه هذه السورة كما تقدم في أولها. فهذا أسلوب مستمر وإن اختلفت مواقع جمله.
والمعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا لطف الله بهم فزادهم هدى وأرسخ الإيمان في قلوبهم ووفقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم. وإيتاء التقوى مستعار لتيسير أسبابها إذ التقوى معنى نفساني، والإيتاء يتعدى حقيقة للذوات. وإضافة التقوى إلى ضمير الذين اهتدوا إيماء إلى أنهم عرفوا بها واختصت بهم.
[١٨]

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٨]
فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم (١٨)
فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها
تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله: أفلم يسيروا في الأرض إلى قوله: واتبعوا أهواءهم [محمد: ١٠- ١٦] الشاملة لأحوال الفريقين ففرع عليها أن كلا الفريقين

(١) التحرير والتنوير ٨٤/٢٦

ينتظرون حلول الساعة لينالوا جزاءهم على سوء كفرهم فضمير ينظرون مراد به الكافرون لأن الكلام تهديد ووعيد، ولأن المؤمنين ينتظرون أمورا أخر مثل النصر والشهادة، قال تعالى: قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين [التوبة: ٥٢] الآية.

والنظر هنا بمعنى الانتظار كما في قوله تعالى: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك [الأنعام: ١٥٨] الآية.

والاستفهام إنكار مشوب بتهكم، وهو إنكار وتهكم على غائبين، موجه إلي". (١)

١٣١٨. ٥٢٧-"حين فروا من الجهاد فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال

قال الحريش القريعي، أو العباس بن مدراس:

نعرض للسيوف إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للنظام

ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفروا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم.

[٢٨]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٢٨]

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم (٢٨)

الإشارة بذلك إلى الموت الفظيع الذي دل عليه قوله: فكيف إذا توفتهم الملائكة [محمد: ٢٧] كما تقدم آنفا. واتباعهم ما أسخط الله: هو اتباعهم الشرك. والسخط مستعار لعدم الرضى بالفعل. وكراهتهم رضوان الله: كراهتهم أسباب رضوانه وهو الإسلام.

وفي ذكر اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه محسن الطباق مرتين للمضادة بين السخط والرضوان، والاتباع والكراهية. والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر **للإيماء** إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار، ففي الكلام أيضا محسن اللف والنشر المرتب. فكان ذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/٢٦

التعذيب مناسبا لحالي توقيهم في الفرار من القتال وللسببين الباعثين على ذلك التوقي.

وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه قوله: فأحبط أعمالهم فكان اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سببا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم.". (١)

١٣١٩. ٥٢٨-"الشيخ الجد في «حاشيته على المحلي» عن القرافي في «شرح المحصول» ونقل حلولو في «شرح جمع الجوامع» عن القرافي في «الذخيرة» : أن مالكا قال بوجوب سبع نوافل بالشروع، وهي: الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد، وزاد حلولو إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع ولم أقف على مأخذ القرافي ذلك ولا على مأخذ حلولو في الأخير. ولم ير الشافعي وجوبا بالشروع في شيء من النوافل وهو الظاهر.

[٣٤]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٣٤]

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم (٣٤)

هذه الآية تكملة لآية إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول [محمد: ٣٢] إلخ لأن تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ولبيان أن الله مبطل صنائعهم وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم لمغفرة الله إذا ماتوا على ما هم عليه من الكفر فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

واقتران خبر الموصول بالفاء **إيماء** إلى أنه أشرف معنى الشرط فلا يراد به ذو صلة معين بل المراد كل من تحققت فيه ماهية الصلة وهي الكفر والموت على الكفر.

[٣٥]

[سورة محمد (٤٧) : آية ٣٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١١٩

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم (٣٥)
الفاء للتفريع على ما تقرر في نفوس المؤمنين من خذل الله تعالى المشركين بما أخبر به من أنه أضل أعمالهم وقدر لهم التعس، وبما ضرب لهم من مصائر أمثالهم من الذين من قبلهم دمرهم الله وأهلكهم ولم يجدوا ناصرا، وما وعد به المؤمنين من النصر عليهم وما أمرهم به من قتالهم وبتكلفه للمؤمنين بالولاية وما وعدهم من الجزاء في دار الخلد وبما أتبع ذلك من وصف كيد فريق المنافقين للمؤمنين". (١)

١٣٢٠. ٥٢٩-"الحديبية ثمرة غزوهم، ويتضمن تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلف بأنهم حين يعلمون أن هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم
ولا أهاليهم، فلو كان عذرهم حقا لما حرصوا على الخروج إذا توقعوا المغانم ولأقبلوا على الاشتغال بأموالهم وأهليهم.
ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة لم يؤت معها بمجرور لك كما أتي به في قوله: سيقول لك المخلفون آنفا لأن هذا قول راغب صادق غير مزور لأجل الترويج على النبيء صلى الله عليه وسلم كما علمت ذلك فيما تقدم.
واستغني عن وصفهم بأنهم من الأعراب لأن تعريف المخلفون تعريف العهد، أي المخلفون المذكورون.
وقوله: إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها متعلق ب سيقول المخلفون وليس هو مقول القول.
وإذا ظرف للمستقبل، ووقوع فعل المضي بعده دون المضارع مستعار لمعنى التحقيق، وإذا قرينة على ذلك لأنها خاصة بالزمن المستقبل.
والمراد بالمغانم في قوله: إذا انطلقتم إلى مغانم: الخروج إلى غزوة خيبر فأطلق عليها اسم مغانم مجازا لعلاقة الأول مثل إطلاق خمرا في قوله: إني أراني أعصر خمرا [يوسف: ٣٦] . وفي هذا المجاز إيماء إلى أنهم منصورون في غزوتهم.
وأن النبيء صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية إلى المدينة أقام شهر ذي الحجة سنة

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٩/٢٦

وست وأياما من محرم سنة سبع ثم خرج إلى غزوة خيبر ورام المخلفون عن الحديبية أن يخرجوا معه فمنعهم لأن الله جعل غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان خاصة إذ وعدهم بفتح قريب.

وقوله: لتأخذوها ترشيح للمجاز وهو **إيماء** إلى أن المغانم حاصلة لهم لا محالة.

وذلك أن الله أخبر نبيئه صلى الله عليه وسلم أنه وعد أهل الحديبية أن يعوضهم عن عدم دخول مكة مغانم خيبر.". (١)

١٣٢١. ٥٣٠-"[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢١]

وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا (٢١)

هذا من عطف الجملة على الجملة فقوله: أخرى مبتدأ موصوف بجملة لم تقدروا عليها والخبر قوله: قد أحاط الله بها.

ومجموع الجملة عطف على جملة وعدكم الله مغانم كثيرة [الفتح: ٢٠] فلفظ أخرى صفة لموصوف محذوف دل عليه مغانم الذي في الجملة قبلها، أي هي نوع آخر من المغانم صعبة المنال، ومعنى المغانم يقتضي غانمين فعلم أنها لهم، أي غير التي وعدهم الله بها، أي هذه لم يعدهم الله بها، ولم نجعل وأخرى عطفا على قوله هذه [الفتح: ٢٠] عطف المفرد على المفرد إذ ليس المراد غنيمة واحدة بل غنائم كثيرة.

ومعنى لم تقدروا عليها: أنها موصوفة بعدم قدرتكم عليها، فلما كانت جملة لم تقدروا عليها صفة ل أخرى لم يقتض مدلول الجملة أنهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا، وإنما المعنى: أن صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلق أطماعكم بأخذها.

والإحاطة بالهمز: جعل الشيء حائطا أي حافظا، فأصل همزته للجعل وصار بالاستعمال قاصرا، ومعناه: احتوى عليه ولم يترك له منصرفا فول على شدة القدرة عليه قال تعالى: لتأتنني به إلا أن يحاط بكم [يوسف: ٦٦] أي إلا أن تغلبوا غلبا لا تستطيعون معه الإتيان به.

فالمعنى: أن الله قدر عليها، أي قدر عليها فجعلها لكم بقرينة قوله قبله لم تقدروا عليها.

والمعنى: ومغانم أخرى لم تقدروا على نيلها قد قدر الله عليها، أي فأنا لكم إياها.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٧/٢٦

وإلا لم يكن لإعلامهم بأن الله قدر على ما لم يقدروا عليه جدوى لأنهم لا يجهلون ذلك، أي أحاط الله بها لأجلكم، وفي معنى الإحاطة إيماء إلى أنها كالشيء المحاط به من جوانبه فلا يفوتهم مكانه، جعلت كالمخبوء لهم. ولذلك ذيل بقوله: وكان الله على كل شيء قديرا إذ هو أمر مقرر في علمهم.". (١)

١٣٢٢. ٥٣١-"فعلم أن الآية أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم: نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول وهي مغانم خيبر، ونوع هو مغانم مرجوة كثيرة غير معين وقت حصولها، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات، ونوع هو مغانم عظيمة لا يخطر ببالهم نوالها قد أعدها الله للمسلمين ولعلها مغانم بلاد الروم وبلاد الفرس وبلاد البربر. وفي الآية إيماء إلى أن هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنه لم يأت في ذكره بضميرهم، وهو
الذي تأوله عمر في عدم قسمة سواد العراق وقرأ قوله تعالى: والذين جاؤ من بعدهم [الحشر: ١٠].
[٢٢، ٢٣]

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٢ إلى ٢٣]
ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا (٢٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٣)
هذا عطف على قوله: وكف أيدي الناس عنكم [الفتح: ٢٠] على أن بعضه متعلق بالمعطوف عليه، وبعضه معطوف على المعطوف عليه فما بينهما ليس من الاعتراض.
والمقصود من هذا العطف التنبيه على أن كف أيدي الناس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوتهم وعدتهم ونشاطهم. وليس الكف لدفع غلبة المشركين إياهم لأن الله قدر للمسلمين عاقبة النصر فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيرا، أي لم ينتصروا بجمعهم ولا بمن يعينهم.
والمراد بالذين كفروا ما أريد بالناس في قوله: وكف أيدي الناس عنكم. وكان مقتضى الظاهر

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٠/٢٦

الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو أن الكفر هو سبب تولية الأدبار في قتالهم للمسلمين تمهيدا لقوله: سنة الله التي قد خلت من قبل.". (١)

١٣٢٣. ٥٣٢-"والموعود به صادق بدخولهم مكة بالعمرة سنة سبع وهي عمرة القضية، فإنهم دخلوا المسجد الحرام آمنين وحلق بعضهم وقصر بعض غير خائفين إذ كان بينهم وبين المشركين عهد، وذلك أقرب دخول بعد هذا الوعد، وصادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجة الوداع، وعدم الخوف فيه أظهر. وأما دخولهم مكة يوم الفتح فلم يكونوا فيه محرمين. قال مالك في «الموطأ» بعد أن ساق حديث قتل ابن خطل يوم الفتح (ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ محرما والله أعلم) .

ومحلقين رؤسكم حال من ضمير آمنين وعطف عليه ومقصرين والتحليق والتقصير كناية عن التمكن من إتمام الحج والعمرة وذلك من استمرار الأمن على أن هذه الحالة حكت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤياه، أي يحلق من رام الحلق ويقصر من رام التقصير، أي لا يعجلهم الخوف عن الحلق فيقتصروا على التقصير.

وجملة لا تخافون في موضع الحال فيجوز أن تكون مؤكدة ل آمنين تأكيدا بالمرادف للدلالة على أن الأمن كامل محقق، ويجوز أن تكون حالا مؤسسة على أن آمنين معمول لفعل تدخلن وأن لا تخافون معمول ل آمنين، أي آمنين أمن من لا يخاف، أي لا تخافون غدرا.

وذلك **إيماء** إلى أنهم يكونون أشد قوة من عدوهم الذي أمنهم، وهذا يومىء إلى حكمة تأخير دخولهم مكة إلى عام قابل حيث يزدادون قوة واستعدادا وهو أظهر في دخولهم عام حجة الوداع.

والفاء في قوله: فعلم ما لم تعلموا لتفريع الأخبار لا لتفريع المخبر به لأن علم الله سابق على دخولهم وعلى الرؤيا المؤذنة بدخولهم كما تقدم في قوله: فعلم ما في قلوبهم [الفتح: ١٨] .

وفي إيثار فعل جعل في هذا التركيب دون أن يقول: فتح لكم من دون ذلك فتحا قريبا أو

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/١٨١

نحوه إفادة أن هذا الفتح أمره عجيب ما كان ليحصل مثله لولا أن الله كونه.

وصيغة الماضي في جعل لتنزيل المستقبل المحقق منزلة الماضي، أو لأن جعل بمعنى قدر. ودون هنا بمعنى غير، ومن (م) ابتدائية أو". (١)

١٣٢٤. ٥٣٣-"وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين في سورة العقود [٥٤] .

وفي تعليق رحماء مع ظرف (بين) المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعا

قال النبيء صلى الله عليه وسلم «تجد المسلمين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى له جميع الجسد بالسهر والحمى»

. والخطاب في تراهم لغير معين بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي.

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك، أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعا سجدا. وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه.

والسيما: العلامة، وتقدم عند قوله تعالى: تعرفهم بسيماهم في البقرة [٢٧٣] وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود.

واختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها من أثر السجود على ثلاثة أنحاء الأول: أنها

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٠٠

أثر محسوس للسجود، الثاني أنها من الأثر النفسي للسجود، الثالث أنها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة. فبالأول فسر مالك بن أنس وعكرمة وأبو العالية قال مالك: السيما هي ما". (١)

١٣٢٥. ٥٣٤-"بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان [الحجرات: ١١] تحذيرا لهم من الحياد عن مهيع الإيمان وتجنيبا لهم ما هو من شأن أهل الكفر.

فالخبر في قوله: حبب إليكم الإيمان إلى قوله: والعصيان مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة محبة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه. وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية من آثار الكفر والفسوق والعصيان.

وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلم لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة. وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبب إليه ونبذ ما كره إليه.

وعدي فعلا حبب وكره بحرف (إلى) لتضمينهما معنى بلغ، أي بلغ إليكم حب الإيمان وكره الكفر. ولم يعد فعل وزينه بحرف (إلى) مثل فعلي حبب وكره، **للإيماء** إلى أنه لما رغبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم. والتزيين: جعل الشيء زينا، أي حسنا قال عمر بن أبي ربيعة:

أجمعت خلتي مع الفجر بينا ... جلل الله ذلك الوجه زينا

وجملة أولئك هم الراشدون معترضة للمدح. والإشارة ب أولئك إلى ضمير المخاطبين في قوله: إليكم مرتين وفي قوله: قلوبكم أي الذين أحبوا الإيمان وتزينت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي هم المستقيمون على طريق الحق.

وأفاد ضمير الفصل القصر وهو قصر إفراد إشارة إلى أن بينهم فريقا ليسوا براشدين وهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٠٥

الذين تلبسوا بالفسق حين تلبسهم به فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين.". (١)

١٣٢٦. ٥٣٥-"وهذا **إيماء** إلى بيان قوله: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] ، أي من أجل ما يخالجكم ارتياب في بعض ما آمنتم به مما اطلع الله عليه.
وقوله: أولئك هم الصادقون قصر، وهو قصر إضافي أيضا، أي هم الصادقون لا أنتم في قولكم آمنا.
[١٦]

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٦]
قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم (١٦)
أعيد فعل قل ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر أن يقول لهم لم تؤمنوا إلى آخره، فأعيد لما طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة، فهذا متصل بقوله: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم اتصال البيان بالمبين، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام.
وجملة قل معترضة بين الجملتين المبينة والمبينة.
قيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: قل لم تؤمنوا الآية جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلفوا أنهم مؤمنون فنزل قوله: «قل أتعلمون الله بدينكم ولم يرو بسند معروف وإنما ذكره البغوي تفسيرا ولو كان كذلك لوبخهم الله على الأيمان الكاذبة كما وبخ المنافقين في سورة براءة [٤٢] بقوله وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم الآية. ولم أر ذلك بسند مقبول، فهذه الآية مما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم.
والتعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلم لأن صيغة التفعيل تقتضي قوة في حصول الفعل كالتفريق والتفسير، يقال: أعلمه وعلمه كما يقال: أنبأه ونبأه. وهذا يفيد أنهم تكلفوا وتعسفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أبلغهم أن الله نفى عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه تدل إلى محاولة إقناع الله بما يعلم

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣٧

خلافه.

وباء بدينكم زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله كقوله تعالى: وامسحوا برؤسكم وقول النابغة:". (١)

١٣٢٧. ٥٣٦-"القائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله: النخل باسقات لها طلع نضيد [ق: ١٠] .
وهذه السورة مكية كلها قال ابن عطية: بإجماع من المتأولين.
وفي «تفسير القرطبي» و «الإتقان» عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب [ق: ٣٨] أنها نزلت في اليهود، يعني في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أن مقالة اليهود سمعت بالمدينة، يعني:
وألحقت بهذه السورة لمناسبة موقعها. وهذا المعنى وإن كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوءة والأنبياء، على أن إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالها إلى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه [الزمر: ٦٧] فإنها نزلت بمكة.
وورد أن النبيء صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والبحار على أصبع والجبال على أصبع ثم يقول «أنا الملك أين ملوك الأرض» فتلا النبيء صلى الله عليه وسلم الآية
. والمقصود من تلاوتها هو قوله: وما قدروا الله حق قدره. والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله.
وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٦٨

المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد [البلد: ١] .

وقد أجمع العادون على عد آيها خمسا وأربعين.". (١)

١٣٢٨. ٥٣٧-"و (أن جاءهم) مجرور ب (من) المحذوفة مع أن، أي عجبوا من مجيء منذر منهم، أو عجبوا من ادعاء أن جاءهم منذر منهم.

وعبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف منذر وهو المخبر بشر سيكون للإيماء إلى أن عجبهم كان ناشئا عن صفتين في الرسول صلى الله عليه وسلم إحداهما أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي مخبر بما لا يصدقون بوقوعه، وإنما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب الآخرة بعد البعث كما قال تعالى: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ: ٤٦] . والثانية كونه من نوع البشر.

وفرع على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذكر مقالتهم التي تفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة بقوله: فقال الكافرون هذا شيء عجيب الآية. وخص هذا بالعناية بالذكر لأنه أدخل عندهم في الاستبعاد وأحق بالإنكار فهو الذي غرهم فأحالوا أن يرسل الله إليهم أحد من نوعهم ولذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء بصفة منذر قبل وصفه بأنه منهم ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوى الاستبعاد والتعجب.

ثم إن ذلك يتخلص منه إلى إبطال حجتهم وإثبات البعث وهو المقصود بقوله: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم إلى قوله: كذلك الخروج [ق: ٤- ١١] . فقد حصل في ضمن هاتين الفاصلتين خصوصيات كثيرة من البلاغة: منها إيجاز الحذف، ومنها ما أفاده الإضراب من الاهتمام بأمر البعث، ومنها الإيجاز البديع الحاصل من التعبير ب منذر، ومنها إقحام وصفه بأنه منهم لأن لذلك مدخلا في تعجبهم، ومنها الإظهار في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر، ومنها الإجمال المعقب بالتفصيل في قوله: هذا شيء عجيب أإذا متنا إلخ.

وعبر عنهم بالاسم الظاهر في فقال الكافرون دون: فقالوا، لتوسيمهم فإن هذه المقالة من

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٤

آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين.". (١)

١٣٢٩. ٥٣٨-"وفصلت الجملة بدون عطف لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام. وقيل هي جواب القسم كما علمته آنفا وأيا ما كان فهو رد لقولهم ذلك رجع بعيد.

والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكن لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالما بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجساما كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة فقوله: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم **إيماء** إلى دليل الإمكان لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا. فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم فلو قال، نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم.

واعلم أن هذا الكلام بيان للإمكان رعيا لما تضمنه كلامهم من الإحالة لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم وهو كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمر لم نكلف بالبحث عنه وقد اختلف فيها أيمة أهل السنة فقال جمهور أهل السنة والمعتزلة تعاد الأجسام بعد عدمها. ومعنى إعادتها. إعادة أمثالها بأن يخلق الله أجسادا مثل الأولى تودع فيها الأرواح التي كانت في الدنيا حالة في الأجساد المعدومة الآن فيصير ذلك الجسم لصاحب الروح في الدنيا وبذلك يحق أن يقال: إن هذا هو فلان الذي عرفناه في الدنيا إذ الإنسان كان إنسانا بالعقل والنطق، وهما مظهر الروح. وأما الجسد فإنه يتغير بتغيرات كثيرة ابتداء من وقت كونه جنينا، ثم من وقت الطفولة ثم ما بعدها من الأطوار فتخلف أجزاؤه المتجددة أجزاءه المقتضية، وبرهان ذلك مبين في علم الطبيعيات، لكن ذلك التغير لم يمنع من اعتبار الذات ذاتا واحدة لأن هوية

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٧٩

الذات حاصلة من الحقيقة". (١)

١٣٣٠. ٥٣٩-"والباسقات: الطويلات في ارتفاع، أي عاليات فلا يقال: باسق للطويل الممتد على الأرض. وعن ابن شداد: الباسقات الطويلات مع الاستقامة. ولم أره لأحد من أيمة اللغة. ولعل مراده من الاستقامة الامتداد في الارتفاع. وهو بالسين المهملة في لغة جميع العرب عدا بني العنبر من تميم يبدلون السين صادا في هذه الكلمة. قال ابن جني: الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف.

وروى الثعلبي عن قطبة بن مالك أنه سمع النبيء صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح قرأها بالصاد

. ومثله في ابن عطية وهو حديث غير معروف.

والذي في «صحيح مسلم» وغيره عن قطبة بن مالك مروية بالسين. ومن العجيب أن الزمخشري قال: وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم باصقات.

وانتصب باسقات على الحال.

والمقصود من ذلك **الإيماء** إلى بديع خلقته وجمال طلعته استدلالا وامتنانا.

والطلع: أول ما يظهر من ثمر التمر، وهو في الكفرى، أي غلاف العنقود.

والنضيد: المنضود، أي المصفف بعضه فوق بعض ما دام في الكفرى فإذا انشق عنه الكفرى فليس بنضيد. فهو معناه بمعنى مفعول قال تعالى: وطلح منضود [الواقعة: ٢٩] .

وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة ومن المنة بمحاسن منظر ما أوتوه.

[١١]

[سورة ق (٥٠) : آية ١١]

رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)

رزقا للعباد مفعول لأجله لقوله: فأنبتنا به جنات [ق: ٩] إلى آخره، فهو مصدر، أي لنرزق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٨١

العباد، أي نقوتهم. والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله: تبصرة وذكرى [ق: ٨] .

والعباد: الناس وهو جمع عبد بمعنى عبد الله، فأما العبد المملوك فجمعه العبيد.

وهذا استدلال وامتنان.". (١)

١٣٣١. ٥٤٠-"المستفهم عنه، أي بل ما عيينا بالخلق الأول، أي وهم يعلمون ذلك ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنهم تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه، فالإضراب على أصله من الإبطال.

واللبس: الخلط للأشياء المختلفة الحقائق بحيث يعسر أو يتعذر معه تمييز مختلفاتها بعضها عن بعض. والمراد منه اشتباه المألوف المعتاد الذي لا يعرفون غير بالواجب العقلي الذي لا يجوز انتفاؤه، فإنهم اشتبه عليهم إحياء الموتى وهو ممكن عقلا بالأمر المستحيل في العقل فجزموا بنفي إمكانه فنفوه، وتركوا القياس بأن من قدر على إنشاء ما لم يكن موجودا هو على إعادة ما كان موجودا أقدر.

وجيء بالجملة الاسمية من قوله: هم في لبس من خلق جديد للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنه متمكن من نفوسهم لا يفارقهم البتة، وليتأتى اجتلاب حرف الظرفية في الخبر فيدل على انغماسهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

ومن في قوله: من خلق جديد ابتدائية وهي صفة ل لبس، أي لبس واصل إليهم ومنجر عن خلق جديد، أي من لبس من التصديق به.

وتنكير لبس للنوعية وتنكير خلق جديد كذلك، أي ما هو إلا خلق من جملة ما يقع من خلق الله الأشياء مما وجه إحالته ولتنكيره أجريت عليه الصفة ب جديد.

والجديد: الشيء الذي في أول أزمان وجوده.

وفي هذا الوصف تورك عليهم وتحميق لهم من إحالتهم البعث، أي اجعلوه خلقا جديدا كالخلق الأول، وأي فارق بينهما.

وفي تسمية إعادة الناس للبعث باسم الخلق **إيماء** إلى أنها إعادة بعد عدم الأجزاء لا جمع

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٩٣

لمتفرقها، وقد مضى القول فيه في أول السورة.". (١)

١٣٣٢. ٥٤١-"والتقديم: جعل الشيء قدام غيره.

والمراد به هنا: كونه سابقا على المؤاخذة بالشرك لأن الله توعدهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالمعنى الأول المكنى عنه بين بجملة ما يبدل القول لدي، أي لست مبطلا ذلك الوعيد، وهو القول، إذ الوعيد من نوع القول، والتعريف للعهد، أي فما أوعدتكم واقع لا محالة لأن الله تعهد أن لا يغفر لمن يشرك به ويموت على ذلك.

والمعنى الثاني المكنى عنه بين بجملة وما أنا بظلام للعبيد، أي فلذلك قدمت إليكم الوعيد.

والمبالغة التي في وصف بظلام راجعة إلى تأكيد النفي. والمراد: لا أظلم شيئا من الظلم، وليس المعنى: ما أنا بشديد الظلم كما قد يستفاد من توجه النفي إلى المقيد يفيد أن يتوجه إلى القيد لأن ذلك أغلبي. والأكثر في نفي أمثلة المبالغة أن يقصد بالمبالغة مبالغة النفي، قال طرفة:

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فإنه لا يريد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي.

وذكر الشيخ في «دلائل الإعجاز» توجه نفي الشيء المقيد إلى خصوص القيد كتوجه الإثبات سواء، ولكن كلام التفتازاني في كتاب «المقاصد في أصول الدين» في مبحث رؤية الله تعالى أشار إلى استعمالين في ذلك، فالأكثر أن النفي يتوجه إلى القيد فيكون المنفي القيد، وقد يعتبر القيد قيدا للنفي وهذا هو التحقيق. على أني أرى أن عد مثل صيغة المبالغة في عداد القيود محل نظر فإن المعتبر من القيود هو ما كان لفظا زائدا على اللفظ المنفي من صفة أو حال أو نحو ذلك، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال: لست ظلاما، ولكن أظلم، ويحسن أن يقال لا آتيك محاربا ولكن مسالما.

وقد أشار في «الكشاف» إلى أن إيثار وصف بظلام هنا **إيماء** إلى أن المنفي". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٨/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ٣١٦/٢٦

١٣٣٣. ٥٤٢-"ويجوز أن يكون توعدون من الوعد، أي الإخبار بشيء يقع في المستقبل مثل قوله: إن وعد الله حق [لقمان: ٣٣] فوزنه تفعلون. والمراد بالوعد الوعد بالبعث.

ووصف لصادق مجاز عقلي إذ الصادق هو الموعد به على نحو فهو في عيشة راضية [الجاثية: ٢١] .

والدين: الجزاء. والمراد إثبات البعث الذي أنكروه.

ومعنى لواقع واقع في المستقبل بقرينة جعله مرتبا في الذكر على ما يوعدون وإنما يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل وفي ذكر الجزاء زيادة على الكناية به عن إثبات البعث تعريض بالوعيد على إنكار البعث.

وكتب في المصاحف إنما متصلة وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد لأنهما كلمتان لم تصيرا كلمة واحدة، بخلاف إنما التي هي للقصر. ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه.

[٧- ٩]

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٧ إلى ٩]

والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩)

هذا قسم أيضا لتحقيق اضطراب أقوالهم في الطعن في الدين وهو كالتذييل للذي قبله، لأن ما قبله خاص بإثبات الجزاء. وهذا يعم إبطال أقوالهم الضالة فالقسم لتأكيد المقسم عليه لأنهم غير شاعرين بحالهم المقسم على وقوعه، ومتهالكون على الاستزادة منه، فهم منكرون لما في أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلا مركبا والجهل المركب إنكار للعلم الصحيح. والقول في القسم ب السماء كالقول في القسم ب الذاريات [الذاريات: ١] .

ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك، أي طرائق لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قددا ولذلك وصف المقسم به ليكون **إيماء** إلى نوع جواب القسم.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٤٠

١٣٣٤. ٥٤٣-"الحسن وقتادة: أنه عائد إلى القرآن أو إلى الدين، أي لأنهما مما جرى القول في شأنهما، وحرف (عن) للمجاوزة.

وعلى كل فالمراد بقوله من أفك المشركون المصروفون عن التصديق. والمراد بالذي فعل الإفك المجهول المشركون الصارفون لقومهم عن الإيمان، وهما الفريقان اللذان تضمنهما قوله تعالى: وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [فصلت: ٢٦] .

وإنما حذف فاعل يؤفك وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز.

وقد حملهم الله بهاتين الجملتين تبعة أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم كما قال تعالى: وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم [العنكبوت: ١٣] .

[١٠، ١١]

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١٠ إلى ١١]

قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١)

دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف لأن المقصود بقتلهم أن الله يهلكهم، ولذلك يكثر أن يقال: قاتله الله، ثم أجري مجرى اللعن والتحقير والتعجيب من سوء أحوال المدعو عليه بمثل هذا.

وجملة الدعاء لا تعطف لأنها شديدة الاتصال بما قبلها مما أوجب ذلك الوصف لدخولهم في هذا الدعاء، كما كان تعقيب الجمل التي قبلها بها إيماء إلى أن ما قبلها سبب للدعاء عليهم، وهذا من بديع الإيجاز.

والخرص: الظن الذي لا حجة لصاحبه على ظنه، فهو معرض للخطأ في ظنه، وذلك كناية عن الضلال عمدا أو تساهلا، فالخراصون هم أصحاب القول المختلف، فأفاد أن قولهم المختلف ناشيء عن خواطر لا دليل عليها. وقد تقدم في الأنعام [١١٦] إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون فالمراد هنا الخرص بالقول في ذات الله وصفاته.

واعلم أن الخرص في أصول الاعتقاد مذموم لأنها لا تبنى إلا على اليقين لخطر أمرها وهو

أصل محل الذم في هذه الآية.". (١)

١٣٣٥. ٥٤٤-"فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول:

أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»

. وفي إيثار التعبير عن الجلالة بوصف (رب) مضاف إلى ضمير المتقين معنى من اختصاصهم بالكرامة والإيماء إلى أن سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيته المختصة بهم وهي المطابقة لصفات الله تعالى في نفس الأمر.

وجملة إنهم كانوا قبل ذلك محسنين تعليل لجملة إن المتقين في جنات وعيون، أي كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم كما قيل للمشركين ذوقوا فتنتكم [الذاريات: ١٤] . والمحسنون: فاعلو الحسنات وهي الطاعات.

وفائدة الظرف في قوله: قبل ذلك أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنات والعيون وما آتاهم ربهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه، ثم يفاد بقوله قبل ذلك، أي قبل التنعم به أنهم كانوا محسنين، أي عاملين الحسنات كما فسره قوله: كانوا قليلا من الليل ما يهجعون الآية. فالمعنى: أنهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده ولم يروه.

وجملة كانوا قليلا من الليل ما يهجعون بدل من جملة كانوا قبل ذلك محسنين بدل بعض من كل لأن هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان في العمل.

وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يبذل على النفس وهو شيئان.

أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة.

وثانيهما: المال الذي تشح به النفوس غالبا، وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النفس وإصلاح الناس. وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال فإن صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى الله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٣/٢٦

تعالى. وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل.". (١)

١٣٣٦. ٥٤٥-"وكون ذلك في السماء يجوز أن يكون معناه أنه محقق في علم أهل السماء، أي الملائكة الموكلين بتصريفه. ويجوز أن يكون المعنى: أن مكان حصوله في السماء، من جنة أو جهنم بناء على أن الجنة وجهنم موجودتان من قبل يوم القيامة، وفي ذلك اختلاف لا حاجة إلى ذكره. وفيه إيماء إلى أن ما أوعدوه يأتيهم من قبل السماء كما قال تعالى:

فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم [الدخان: ١٠، ١١]

.

فإن ذلك الدخان كان في طبقات الجو كما تقدم في سورة الدخان.

[٢٣]

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٢٣]

فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)

بعد أن أكد الكلام بالقسم ب الذاريات [الذاريات: ١] وما عطف عليها فرع على ذلك زيادة تأكيد بالقسم بخالق السماء والأرض على أن ما يوعدون حق فهو عطف على الكلام السابق ومناسبته قوله: وما توعدون [الذاريات: ٢٢] .

وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الرب سبحانه.

وضمير إنه لحق عائد إلى ما توعدون [الذاريات: ٢٢] . وهذا من رد العجز على المصدر لأنه رد على قوله أول السورة إنما توعدون لصادق [الذاريات: ٥] وانتهى الغرض.

وقوله: مثل ما أنكم تنطقون زيادة تقرير لوقوع ما أوعدوه بأن شبه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون. وهذا نظير قولهم: كما أن قبل اليوم أمس، أو كما أن بعد اليوم غدا. وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة، ومنه تمثيل سرعة الوصول لقرب المكان في قول زهير:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٦

فهن ووادي الرس كاليد للفم وقولهم: مثل ما أنك هاهنا، وقولهم: كما أنك ترى وتسمع.".
(١)

١٣٣٧. ٥٤٦-"والذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من **الإيماء** إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم.
واليوم الذي أوعدوه هو زمن حلول العذاب فيحتمل أن يراد يوم القيامة ويحتمل حلول العذاب في الدنيا، وأيا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.
وإضافة (يوم) إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي هو معين لجزائهم كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون [الأنبياء: ١٠٣] . واليوم: يصدق بيوم القيامة، ويصدق بيوم بدر الذي استأصل الله فيه شوكتهم.
ولما كان المضاف إليه ضمير الكفار المعينين وهم كفار مكة ترجح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنما هو يوم بدر لأن يوم القيامة لا يختص بهم بل هو عام لكفار الأمم كلهم بخلاف اليوم الذي في قوله في سورة الأنبياء [١٠٣] : وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون لأن ضمير الخطاب فيها عائد إلى الذين سبقت لهم منا الحسنى [الأنبياء: ١٠١] كلهم.
وفي الآية من اللطائف تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر قليب بدر الذي رميت فيه أشلاء سادتهم وهو اليوم القائل فيه شداد بن الأسود الليثي المكنى أبا بكر يرثي قتلاهم:
وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى تزين بالسنام

تحيي بالسلامة أم بكر ... وهل لي بعد قومي من سلام
ولعل هذا مما يشمل قول النبيء صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر قد

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٥٥

وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا [الأعراف: ٤٤] .". (١)

١٣٣٨. ٥٤٧-"ووصفه ب المعمور لأنه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين قال تعالى: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر [التوبة: ١٨] الآية.
ومناسبة القسم سبق القسم بكتاب التوراة فعقب ذلك بالقسم بمواطن نزول القرآن فإن ما نزل به من القرآن أنزل بمكة وما حولها مثل جبل حراء. وكان نزوله شريعة ناسخة لشريعة التوراة، على أن الوحي كان ينزل حول الكعبة.
وفي حديث الإسراء «بينا أنا نائم عند المسجد الحرام إذ جاءني الملكان»
إلخ، فيكون توسيط القسم بالكعبة في أثناء ما أقسم به من شؤون شريعة موسى عليه السلام إدماجا.
وفي «الطبري» : أن عليا سئل: ما البيت المعمور؟ فقال: «بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا، يقال: له الضراح»
(بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وحاء مهملة) ، وأن مجاهدا والضحاك وابن زيد قالوا مثل ذلك.
وعن قتادة أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «هل تدرون ما البيت المعمور؟ قال: فإنه مسجد في السماء تحته
الكعبة»
إلى آخر الخبر. وثمة أخبار كثيرة متفاوتة في أن في السماء موضعا يقال له: البيت المعمور، لكن الروايات في كونه المراد من هذه الآية ليست صريحة.
وأما السقف المرفوع: ففسروه بالسماء لقوله تعالى: وجعلنا السماء سقفا محفوظا [الأنبياء: ٣٢] وقوله: والسماء رفعها [الرحمن: ٧] فالرفع حقيقي ومناسبة القسم بها أنها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن. وتسمية السماء على طريقة التشبيه البليغ.
والبحر: يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية. وعندي: أن المراد بحر القلزم، وهو البحر الأحمر ومناسبة القسم به أنه به أهلك فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٢٧

فلحق بهم فرعون.

والمسجور: قيل المملوء، مشتقا من السجر، وهم الملء والإمداد. فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال خلق الله إياه مملوءا ماء دون أن تملأه أودية أو سيول، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه وذلك دال على عظم القدرة. والظاهر عندي: أن وصفه بالمسجور **للإيماء** إلى". (١)

١٣٣٩. ٥٤٨-"على لغة أزد شنوة فإنه لم يسمع في فصيح الكلام: تزوج بامرأة.

وحور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، وهن النساء اللاتي كن أزواجا لهم في الدنيا إن كن مؤمنات ومن يخلقهن الله في الجنة لنعمة الجنة وحكم نساء المؤمنين اللاتي هن مؤمنات ولم يكن في العمل الصالح مثل أزواجهن في لحاقهن بأزواجهن في الدرجات في الجنة تقدم عند قوله تعالى: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون في سورة الزخرف [٧٠] وما يقال فيهن يقال في الرجال من أزواج النساء الصالحات.

وعين صفة ثانية، وحقها أن تعطف ولكن كثر ترك العطف.

[٢١]

[سورة الطور (٥٢) : آية ٢١]

والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين (٢١)

والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء.

اعتراض بين ذكر كرامات المؤمنين، والواو اعتراضية.

والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار لتكون الصلة **إيماء** إلى أن وجه بناء الخبر الوارد بعدها، أي أن سبب إلحاق ذرياتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم وكون الذريات آمنوا بسبب إيمان آبائهم لأن الآباء المؤمنين يلقنون أبناءهم الإيمان.

والمعنى: والمؤمنون الذين لهم ذريات مؤمنون ألحقنا بهم ذرياتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٢٧

وقد قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا [التحريم: ٦] ، وهل يستطيع أحد أن يقي النار غيره إلا بالإرشاد. ولعل ما في الآية من إلحاق ذرياتهم من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته.

والتنكير في قوله: بإيمان يحتمل أن يكون للتعظيم، أي بإيمان عظيم، وعظمته بكثرة الأعمال الصالحة، فيكون ذلك شرطا في إلحاقهم بآبائهم وتكون النعمة في جعلهم في مكان واحد.". (١)

١٣٤٠. ٥٤٩-"وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة إيماء إلى أن هذه العناية بالمحسنين من أمته قد حصلت لهم ببركته.

والواسع: الكثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأن المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممن يحل فيه قال تعالى: ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما، وتقدم في سورة غافر [٧] .

هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

الخطاب للمؤمنين، ووقوعه عقب قوله: ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ينبىء عن اتصال معناه بمعنى ذلك فهو غير موجه لليهود كما في «أسباب النزول» للواحدي وغيره. وأصله

لعبد الله بن لهيعة عن ثابت بن حارث الأنصاري. قال: «كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير يقولون: هو صديق، فبلغ ذلك النبيء صلى الله عليه وسلم فقال: كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» ، فأنزل الله هذه الآية

. وعبد الله بن لهيعة ضعفه ابن معين وتركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي. وقال الذهبي: العمل على تضعيفه، قلت: لعل أحد رواة هذا الحديث لم يضبط فقال: فأنزل الله هذه الآية، وإنما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذا بعموم قوله: هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض إلخ، حجة عليهم، وإلا فإن السورة مكية والخوض مع اليهود إنما كان بالمدينة.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٧

وقال ابن عطية: حكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم. وكأن الباعث على تطلب سبب لنزولها قصد إبداء وجه اتصال قوله:
فلا تزكوا أنفسكم بما قبله وما بعده وأنه استيفاء لمعنى سعة المغفرة ببيان سعة الرحمة واللطف بعباده إذ سلك بهم مسلك اليسر والتخفيف فعفا عما لو أخذهم به لأحرجهم فقوله: هو أعلم بكم نظير قوله:". (١)

١٣٤١. ٥٥٠-"وقرأ الجمهور (وثمودا) بالتنوين على إطلاق اسم جد القبيلة عليها. وقرأه عاصم وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة.
وجملة إنهم كانوا هم أظلم وأطغى تعليل لجملة أهلك عادا إلى آخرها، وضمير الجمع في إنهم كانوا يجوز أن يعود إلى قوم نوح، أي كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون عائدا إلى عاد وثمود وقوم نوح والمعنى: أنهم أظلم وأطغى من قومك الذين كذبوك فتكون تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الرسل من قبله لقوا من أممهم أشد مما لقيه محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه إيماء إلى أن الله مبق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنه قدر دخول بقيتها في الإسلام ثم أبنائها.
وضمير الفصل في قوله كانوا هم أظلم لتقوية الخبر.
[٥٣، ٥٤]

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٥٣ إلى ٥٤]
والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤)
والمؤتفكة صفة لموصوف محذوف يدل عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي، والتقدير: القرى المؤتفكة، وهي قرى قوم لوط الأربع وهي (سدوم) و (عمورة) و (آدمة) و (صبوييم) . ووصفت في سورة براءة [٧٠] بالمؤتفكات لأن وصف جمع المؤنث يجوز أن يجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث. وقد صار هذا الوصف غالبا عليها بالغلبة.
وذكرت القرى باعتبار ما فيها من السكان تفننا ومراعاة للفواصل.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/٢٧

ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفا للأمة، أي لأمة لوط ليكون نظيرا لذكر عاد وثمود وقوم نوح كما في قوله تعالى: وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة في سورة الحاقة [٩] . والائتفاك: الانقلاب، يقال: أفكها فأتفكت. والمعنى: التي خسف بها فجعل عاليها سافلها، وقد تقدم ذكرها في سورة براءة.

وانتصب المؤتفكة مفعول أهوى أي أسقط أي جعلها هاوية.

والإهواء: الإسقاط، يقال: أهواه فهوى، ومعنى ذلك: أنه رفعها في الجو". (١)

١٣٤٢. ٥٥١-"اضمحلال هذا العالم، وكان فعل الماضي مستعملا في حقيقته. وروي أن حذيفة بن اليمان قرأ وقد انشق القمر.

وإن كان نزولها قبل حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث أنس بن مالك فهو إنذار باقتراب الساعة وانشقاق القمر الذي هو من أشراط الساعة ومع **الإيماء** إلى أن الانشقاق سيكون معجزة لما يسأله المشركون. ويرجح هذا المحمل قوله تعالى عقبه: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر [القمر: ٢] كما سيأتي هنالك.

وإذ قد حمل معظم السلف من المفسرين ومن خلفهم هذه الآية على أن انشقاق القمر حصل قبل نزولها أو بقرب نزولها فبنا أن نبين إمكان حصول هذا الانشقاق مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالا لجحد الملحدين، وتقريبا لفهم المصدقين.

فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدث في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيل أنه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأن الهوة انشقاق وموافق لمرأى الناس لأنهم رأوه كأنه مشقوق.

ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ظل ذلك الجسم على نحو ما يسمى بالخسوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكد هذا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٤/٢٧

ومن الممكن أن يكون هذا الانشقاق حدثا مركبا من خسوف نصفي في القمر على عادة الخسوف فحجب نصف القمر، والقمر على سمت أحد الجبلين وقد حصل في الجو ساعتئذ سحاب مائي انعكس في بريق مائه صورة القمر مخسوفا بحيث يخاله الناظر نصفا آخر من القمر دون كسوف طالعا على جهة ذلك الجبل، وهذا من غرائب حوادث الجو.

وقد عرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة". (١)

١٣٤٣. ٥٥٢-"فالمراد بالاستقرار الذي في قوله: مستقر الاستقرار في الدنيا.

وفي هذا تعريض بالإيماء إيماء إلى أن أمر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سيرسخ ويستقر بعد تقلقله.

ومستقر: بكسر القاف اسم فاعل من استقر، أي قر، والسين والتاء للمبالغة مثل السين والتاء في استجاب.

وقرأ الجمهور برفع الراء من مستقر. وقرأه أبو جعفر بخفض الراء على جعل كل أمر عطفا على الساعة [القمر: ١] . والتقدير: واقترب كل أمر. وجعل مستقر صفة أمر.

والمعنى: أن إعراضهم عن الآيات وافتراءهم عليها بأنها سحر ونحوه وتكذيبهم الصادق وتمالؤهم على ذلك لا يوهن وقعها في النفوس ولا يعوق إنتاجها. فأمر النبيء صلى الله عليه وسلم صائر إلى مصير أمثاله الحق من الانتصار والتمام واقتناع الناس به وتزايد أتباعه، وأن اتباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم صائر إلى مصير أمثاله الباطلة من الانخذال والافتضاح وانتقاص الأتباع.

وقد تضمن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وتهديدا للمشركين واستدعاء لنظر المترددين.

[٤، ٥]

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤ إلى ٥]

ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/١٦٩

عطف على جملة وكذبوا واتبعوا أهواءهم [القمر: ٣] أي جاءهم في القرآن من أنباء الأمم ما فيه مزدجر لهؤلاء، أو أريد بالأنباء الحجج الواردة في القرآن، أي جاءهم ما هو أشد في الحجة من انشقاق القمر. ومن الأنباء بيان ما فيه مزدجر قدم على المبين ومن بيانية.

والمزدجر: مصدر ميمي، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على". (١)

١٣٤٤. ٥٥٣-"في معنى القول بالتكذيب، فإن قوم نوح شافهوا نوحا بأنه كاذب، وإن كان مستعملا في اعتقادهم كذبه، فقد دل على اعتقادهم إعراضهم عن إنذاره وإهمالهم الانضواء إليه عند ما أنذرهم بالطوفان.

وعرف قوم نوح بالإضافة إلى اسمه إذ لم تكن للأمة في زمن نوح اسم يعرفون به.

وأسند التكذيب إلى جميع القوم لأن الذين صدقوه عدد قليل فإنه ما آمن به إلا قليل، كما تقدم في سورة هود.

والفاء في قوله: فكذبوا عبدنا لتفريع الإخبار بتفصيل تكذيبهم إياه بأنهم قالوا: مجنون وازدجر، على الإخبار بأنهم كذبوه على الإجمال، وإنما جيء بهذا الأسلوب لأنه لما كان المقصود من الخبر الأول تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فرع عليه الإخبار بحصول المشابهة بين تكذيب قوم نوح رسولهم وتكذيب المشركين محمدا صلى الله عليه وسلم في أنه تكذيب لمن أرسله الله واصطفاه بالعبودية الخاصة، وفي أنه تكذيب مشوب ببهتان إذ قال كلا الفريقين لرسوله: مجنون، ومشوب ببذاءة إذ آذى كلا الفريقين رسولهم وازدجروه. فمحل التفريع هو وصف نوح بعبودية الله تكريما له، والإخبار عن قومه بأنهم افتروا عليه وصفه بالجنون، واعتدوا عليه بالأذى والازدجار. فأصل تركيب الكلام: كذبت قبلهم قوم نوح فقالوا: مجنون وازدجر. ولما أريد **الإيماء** إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء جعل ما بعد التسلية مفرعا بفاء التفريع ليظهر قصد استقلال ما قبله ولولا ذلك لكان الكلام غنيا عن الفاء إذ كان يقول: كذبت قوم نوح عبدنا.

وأعيد فعل فكذبوا لإفادة توكيد التكذيب، أي هو تكذيب قوي كقوله تعالى: وإذا بطشتم بطشتم جبارين [الشعراء: ١٣٠] وقوله: ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٤/٢٧

غوينا [القصص: ٦٣] ، وقول الأحوص:

فإذا تزول تزول عن متخمط ... تخشى بوادره على الأقران

وقد نبه على ذلك ابن جني في إعراب هذا البيت من «ديوان الحماسة» ، وذكر أن أبا علي الفارسي نحا غير هذا الوجه ولم يبينه.". (١)

١٣٤٥. ٥٥٤-"وجملة كذلك نجزي من شكر معترضة، وهي استئناف بياني عن جملة نجيناهم بسحر باعتبار ما معها من الحال، أي إنعاما لأجل أنه شكر، ففيه **إيماء** بأن إهلاك غيرهم لأنهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين.

وفي قوله: من عندنا تنويه بشأن هذه النعمة لأن ظرف (عند) يدل على الادخار والاستئثار مثل (لدن) في قوله: من لدنا. فذلك أبلغ من أن يقال: نعمة منا أو أنعمنا.

[٣٦]

[سورة القمر (٥٤) : آية ٣٦]

ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦)

عطف على جملة إنا أرسلنا عليهم حاصبا [القمر: ٣٤] .

وتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة لأجله وهو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتماروا بالنذر.

والبطشة: المرة من البطش، وهو الأخذ بعنف لعقاب ونحوه، وتقدم في قوله: أم لهم أيد يبطشون بها في آخر الأعراف [١٩٥] ، وهي هنا تمثيل للإهلاك السريع مثل قوله: يوم نبطش البطشة الكبرى في سورة الدخان [١٦] .

والتماري: تفاعل من المراء وهو الشك. وصيغة المفاعلة للمبالغة. وضمن فتماروا معنى: كذبوا، فعدي بالباء، وتقدم عند قوله تعالى: فبأي آلاء ربك تتمارى في سورة النجم [٥٥] .

[٣٧]

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٠/٢٧

[سورة القمر (٥٤) : آية ٣٧]
ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧)
إجمال لما ذكر في غير هذه السورة في قصة قوم لوط أنه نزل به ضيف فرام قومه الفاحشة بهم وعجز لوط عن دفع قومه إذ اقتحموا بيته وأن الله أعمى أعينهم فلم يروا كيف يدخلون.". (١)

١٣٤٦. ٥٥٥-"فقوله: سيهزم الجمع ويولون الدبر جواب عن قولهم: نحن جميع منتصر فلذلك لم تعطف الجملة على التي قبلها. وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم بذلك وهو يعلم أن الله
منجز وعده ولا يزيد ذلك الكافرين إلا غرورا فلا يعيروه جانب اهتمامهم وأخذ العدة لمقاومته كما قال تعالى في نحو ذلك: ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا [الأنفال: ٤٤].
والتعريف في الجمع للعهد، أي الجمع المعهود من قوله: نحن جميع منتصر والمعنى: سيهزم جمعهم. وهذا معنى قول النحاة: اللام عوض عن المضاف إليه.
والهزم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، كقوله: قل للذين كفروا ستغلبون [آل عمران: ١٢] . وبني الفعل للمجهول لظهور أن الهازم المسلمون.
ويولون: يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدى بالتضعيف إلى مفعولين، وقد حذف مفعوله الأول هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولونكم الأدبار.
والدبر: الظهر، وهو ما أدبر، أي كان وراء، وعكسه القبل.
والآية: إخبار بالغيب، فإن المشركين هزموا يوم بدر، وولوا الأدبار يومئذ، وولوا الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق ففروا بليل كما مضى في سورة الأحزاب
وقد ثبت في «الصحيح» أن النبيء صلى الله عليه وسلم لما خرج لصف القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا.

---
(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٠٥

وأفرد الدبر، والمراد الجمع لأنه جنس يصدق بالمتعدد، أي يولي كل أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن، على أن انهزام الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة. وهذا الهزم وقع يوم بدر.

روي عن عكرمة أن عمر بن الخطاب قال: «لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبيء صلى الله عليه وسلم". (١)

١٣٤٧. ٥٥٦-"ففي خلق الإنسان دلالتان: أولاهما: الدلالة على تفرد الله تعالى بالإلهية، وثانيتهما: الدلالة على نعمة الله على الإنسان.

والخلق: نعمة عظيمة لأن فيها تشريفا للمخلوق بإخراجه من غياهب العدم إلى مبرز الوجود في الأعيان، وقدم خلق الإنسان على خلق السماوات والأرض لما علمت آنفا من مناسبة إردافه بتعليم القرآن.

ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه يفيد تقوي الحكم. ولك أن تجعله للتخصيص بتنزيلهم منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لأنهم عبدوا غيره.

[٤]

[سورة الرحمن (٥٥) : آية ٤]

علمه البيان (٤)

خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي علم جنس الإنسان أن يبين عما في نفسه ليفيده غيره ويستفيد هو.

والبيان: الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان فهو من أعظم النعم.

وأما البيان بغير النطق من إشارة **وإيماء** ولمح النظر فهو أيضا من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق.

ومعنى تعليم الله الإنسان البيان: أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك وألهمه وضع اللغة

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٧

للتعارف، وقد تقدم عند قوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها في سورة البقرة [٣١] .
وفيه الإشارة إلى أن نعمة البيان أجل النعم على الإنسان، فعد نعمة التكاليف الدينية وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان وهي خصائص اللغة وآدابها.
ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه لإفادة تقوي الحكم.
وفيه من التبكيت ما علمته آنفا، ووجهه أنهم لم يشكروه على نعمة البيان إذ". (١)

١٣٤٨. ٥٥٧-"والمراد بالإنسان آدم وهو أصل الجنس وقوله: من صلصال تقدم نظيره في سورة الحجر [٢] .
والصلصال: الطين اليابس.
والفخار: الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف. وظاهر كلام المفسرين أن قوله:
كالفخار صفة ل صلصال. وصرح بذلك الكواشي في «تلخيص التبصرة» ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف. والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالا من الإنسان، أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة.
والمعنى أنه صلصال يابس يشبه يبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به، وقد عبر عنه بالحمأ المسنون، والطين اللازب، والتراب.
والجان: الجن والمراد به إبليس وما خرج عنه من الشياطين، وقد حكى الله عنه قوله: خلقتني من نار وخلقته من طين [ص: ٧٦] .
والمارج: هو المختلط وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق، وعيشة راضية، أي خلق الجان من خليط من النار، أي مختلط بعناصر أخرى إلا أن الناس أغلب عليه كما كان التراب أغلب على تكوين الإنسان مع ما فيه من عنصر النار وهو الحرارة الغريزية والمقصود هنا هو خلق الإنسان بقرينة تذييله بقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان [الرحمن: ١٦] وإنما قرن بخلق الجان إظهارا لكمال النعمة في خلق الإنسان من مادة لينة قابلا للتهذيب والكمال وصدور الرفق بالموجودات التي معه على وجه الأرض.
وهو أيضا تذكير وموعظة بمظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته في خلق نوع الإنسان وجنس

(١) التحرير والتنوير ٢٣٣/٢٧

الجان.

وفيه إيماء إلى ما سبق في القرآن النازل قبل هذه السورة من تفضيل الإنسان على الجان إذ أمر الله الجان بالسجود للإنسان، وما ينطوي في ذلك من وفرة مصالح الإنسان على مصالح الجان، ومن تأهله لعمران العالم لكونه مخلوقا من طينته إذ الفضيلة تحصل من مجموع أوصاف لا من خصوصيات مفردة.". (١)

١٣٤٩. ٥٥٨-"تذكيرا بنعمة إلهام الناس إلى اختراع الشراع لإسراع سير السفن وهي مما اخترع بعد صنع سفينة نوح.

ووصفت الجواري بأنها كالأعلام، أي الجبال وصفا يفيد تعظيم شأنها في صنعها المقتضي بداعة إلهام عقول البشر لصنعها، والمقتضي عظم المنة بها لأن السفن العظيمة أمكن لحمل العدد الكثير من الناس والمتاع.

[٢٥]

[سورة الرحمن (٥٥) : آية ٢٥]

فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٥)

تكرير لنظيره السابق.

[٢٦، ٢٧]

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧)

لما كان قوله: وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام [الرحمن: ٢٤] مؤذنا بنعمة إيجاد أسباب النجاة من الهلاك وأسباب السعي لتحصيل ما به إقامة العيش إذ يسر للناس السفن عونا للناس على الأسفار وقضاء الأوطار مع السلامة من طغيان ماء البحار، وكان وصف السفن بأنها كالأعلام توسعة في هذه النعمة أتبعه بالموعظة بأن هذا لا يحول بين الناس وبين ما قدره

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٤٥

الله لهم من الفناء، على عادة القرآن في الفرص للموعظة والتذكير كقوله: أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة [النساء: ٧٨] . وفائدة هذا أن لا ينسوا الاستعداد للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته.

ووقوع هذه الجملة عقب ما عدد من النعم فيه **إيماء** إلى أن مصير نعم الدنيا إلى الفناء.

والجملة استئناف ابتدائي.

وضمير عليها مراد به الأرض بقرينة المقام مثل حتى توارت بالحجاب [ص: ٣٢] ، أي الشمس ومثله في القرآن وكثير وفي كلام البلغاء.". (١)

١٣٥٠. ٥٥٩-"وأفاد تعليق مجروره به بواسطة (إلى) أنه مسير إليه حتى ينتهي إليه، فدل على مكان.

وهذا من الإيجاز.

وإضافة ميقات إلى يوم معلوم لأن التجمع واقع في ذلك اليوم. وإذ كان التجمع الواقع في اليوم واقعا في ذلك الميقات كانت بين الميقات واليوم ملابسة صححت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة وهذا أدق من جعل الإضافة بيانية. وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه في ذلك اليوم الذي جحدوه.

[٥١- ٥٥]

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٥١ إلى ٥٥]

ثم إنكم أيها الضالون المكذبون (٥١) لآكلون من شجر من زقوم (٥٢) فمالؤن منها البطون (٥٣) فشاربون عليه من الحميم (٥٤) فشاربون شرب الهيم (٥٥)

هذا من جملة ما أمر النبيء صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم.

وثم للترتيب الرتبي فإن في التصريح بتفصيل جزائهم في ذلك اليوم ما هو أعظم وقعا في النفوس من التعريض الإجمالي بالوعيد الذي استفيد من قوله: إن الأولين والآخرين لمجموعون

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٥٢

[الواقعة: ٤٩، ٥٠] .

وهذا التراخي الرتبي مثل الذي في قوله تعالى: قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم [التغابن: ٧] بمنزلة الاعتراض بين جملة إن الأولين والآخرين [الواقعة: ٤٩] وجملة: خلقناكم فلولا تصدقون [الواقعة: ٥٧] .

والخطاب موجه للمقول إليهم ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم فليس في هذا الخطاب التفات كما قد يتوهم، وفي ندائهم بهذين الوصفين **إيماء** إلى أنهما سبب ما لحقهم من الجزاء السيئ، ووصفهم بأنهم: ضالون مكذبون، ناظر إلى قولهم: أإذا متنا وكنا ترابا [الواقعة: ٤٧] إلخ.

وقدم وصف الضالون على وصف المكذبون مراعاة لترتيب الحصول لأنهم ضلوا عن الحق فكذبوا بالبعث ليحذروا من الضلال ويتدبروا في دلائل البعث وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقع.". (١)

١٣٥١. ٥٦٠-"الذي تحرثون الأرض لأجله، وهو النبات ما أنتم تنبتونه بل نحن ننبته.

وجملة أأنتم تزرعونه إلخ بيان لجملة أفرأيتم ما تحرثون كما تقدم في أأنتم تخلقونه [الواقعة: ٥٩] والاستفهام في أأنتم تزرعونه إنكاري كالذي في قوله: أأنتم تخلقونه.

والقول في موقع أم من قوله: أم نحن الزارعون كالقول في موقع نظيرتها من قوله: أم نحن الخالقون [الواقعة: ٥٩] أي أن (أم) منقطعة للإضراب.

وكذلك القول في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: أأنتم تزرعونه مثل ما في قوله: أأنتم تخلقونه [الواقعة: ٥٩] .

وكذلك القول في نفي الزرع عنهم وإثباته لله تعالى يفيد معنى قصر الزرع، أي الإنبات على الله تعالى، أي دونهم، وهو قصر مبالغة لعدم الاعتداد بزرع الناس.

ويؤخذ من الآية **إيماء** لتمثيل خلق الأجسام خلقا ثانيا مع الانتساب بين الأجسام البالية والأجسام المجددة منها بنبات الزرع من الحبة التي هي منتسبة إلى سنبلة زرع أخذت

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٣٠٩

هي منها فتأتي هي بسنبلة مثلها.
[٦٥- ٦٧]

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٦٥ إلى ٦٧]
لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧)
جملة لو نشاء لجعلناه حطاما، موقعها كموقع جملة: نحن قدرنا بينكم الموت [الواقعة: ٦٠] في أنها استدلال بإفنائه ما أوجده على انفراده بالتصرف إيجادا وإعداما، تكلمة لدليل إمكان البعث.
واللام في قوله: لجعلناه مفيدة للتأكيد. ويكثر اقتران جواب (لو) بهذه اللام إذا كان ماضيا مثبتا كما يكثر تجرده عنها كما سيجيء في الآية الموالية لهذه.
والحطام: الشيء الذي حطمه حاطم، أي كسره ودقه فهو بمعنى المحطوم،". (١)

١٣٥٢. ٥٦١-"وجملة إن كنتم صادقين بيان لجملة إن كنتم غير مدينين وعلى التفسير الأول لمعنى مدينين يكون وجه إعادة هذا الشرط مع أنه مما استفيد بقوله: إن كنتم غير مدينين هو **الإيماء** إلى فرض الشرط في قوله: إن كنتم غير مدينين بالنسبة لما في نفس الأمر وأن الشرط في قوله: إن كنتم صادقين هو فرض وتقدير لا وقوع له نفي البعث، وعلى الوجه الثاني يرجع قوله: إن كنتم صادقين إلى ما أفاده التحضيض، وموقع فاء التفريع من إرادة أن قبض الأرواح لتأخيرها إلى يوم الجزاء، أي إن كنتم صادقين في نفي البعث والجزاء.
وضمير التأنيث في قوله: ترجعونها عائد إلى الروح الدال عليه التاء في قوله:
إذا بلغت الحلقوم.
ومعنى الاستدراك في ولكن لا تبصرون راجع إلى قوله: ونحن أقرب إليه منكم لرفع توهم قائل: كيف يكون أقرب إلى المحتضر من العواد الحافين حوله وهم يرون شيئا غيرهم يدفع ذلك بأنهم محجوبون عن رؤية أمر الله تعالى.
وجملة ولكن لا تبصرون معترضة، والواو اعتراضية. ومفعول تبصرون محذوف دل عليه قوله:

---
(١) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٧

ونحن أقرب إليه.

ومعنى مدينين مجازين على أعمالكم. وعلى هذا المعنى حمله جمهور المتقدمين من المفسرين ابن عباس ومجاهد وجابر بن زيد والحسن وقتادة، وعليه جمهور المفسرين من المتأخرين على الإجمال، وفسره الفراء والزمخشري مدينين بمعنى: عبيد لله، من

قولهم: دان السلطان الرعية، إذا ساسهم، أي غير مربوبين وهو بعيد عن السياق.

واعلم أن قوله: إن كنتم غير مدينين فرض وتقدير ف إن فيه بمنزلة (لو) ، أي لو كنتم غير مدينين، أي غير مجزيين على الأعمال.

وأسند فعل إن كنتم غير مدينين إلى المخاطبين بضمير المخاطبين، دون أن يقول: إن كان الناس غير مدينين لأن المخاطبين هم الذين لأجل إنكارهم البعث سيق هذا الكلام. والمعنى: لو كنتم أنتم وكان الناس غير مدينين لما أخرجت". (١)

١٣٥٣. ٥٦٢-"الأرواح من الأجساد إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غرض سام، وهو وضع كل روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاء على الأعمال، ولذلك أوثر لفظ غير مدينين دون أن يقال: غير مبعوثين، أو غير معادين، وإن كان لا يلزم من نفي الإدانة نفي البعث فإنه يجوز أن يكون بعث بلا جزاء لكن ذلك لا يدعى لأنه عبث.

فقوله: إن كنتم غير مدينين إيماء إلى أن الغرض من سوق هذا الدليل إبطال إنكارهم البعث الذي هو لحكمة الجزاء.

ومن مستتبعات هذا الكلام أن يفيد الإيماء إلى حكمة الموت بالنسبة للإنسان لأنه لتخليص الأرواح من هذه الحياة الزائلة المملوءة باطلا إلى الحياة الأبدية الحق التي تجري فيها أحوال الأرواح على ما يناسب سلوكها في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله تعالى:

أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون [المؤمنون: ١١٥] فيقتضي أنه لولا أنكم مدينون لما انتزعنا الأرواح من أجسادها بعد أن جعلناها فيها ولأبقيناها لأن الروح الإنساني ليس كالروح الحيواني، فتكون الآية مشتملة على دليلين: أحدهما بحاق التركيب، والآخر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٥/٢٧

بمستتبعاته التي أومأ إليها قوله: إن كنتم غير مدينين. والغرض الأول هو الذي ذيل بقوله: إن كنتم صادقين.

هذا تفسير الآية الذي يحيط بأوفر معانيها دلالة واقتضاء ومستتبعات. وجعل في «الكشاف» معنى الآية يصب إلى إبطال ما يعتقده الدهريون، أي الذين يقولون نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر [الجاثية: ٢٤] ، لأنهم نفوا أن يكونوا عبادا لله. وجعل معنى مدينين مملوكين لله، وبذلك فسره الفراء وقال ابن عطية: «إنه أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبر بمجازى أو بمحاسب، فذلك هنا قلق» . وقلت: في كلامه نظر ظاهر.

وجعل الزمخشري تفريعه على ما حكي من كلامهم السابق مبنيا على أن ما حكي من كلامهم في الأنواء والتكذيب يفضي إلى مذهب التعطيل، فاستدل عليهم بدليل يقتضي وجود الخالق وهو كله ناء عن معنى الآية لأن الدهرية لا ينتحلها جميع العرب بل هي نحلة طوائف قليلة منهم وناء عن متعارف ألفاظها وعن ترتيب استدلالها.". (١)

١٣٥٤. ٥٦٣-"ذو روح، أما من كان في العذاب فحياته أقل من الموت، قال تعالى: لا يموت فيها ولا يحيى [الأعلى: ١٣] ، أي لأنه يتمنى الموت فلا يجده.

والريحان: شجر لورقه وقضبانه رائحة ذكية شديد الخضرة كانت الأمم تزين به مجالس الشراب. قال الحريري «وطورا يستبزل الدنان، ومرة يستنشق الريحان» وكانت ملوك العرب تتخذه، قال النابغة:

يحيون بالريحان يوم السباسب وتقدم عند قوله تعالى: والحب ذو العصف والريحان في سورة الرحمن [١٢] ، فتخصيصه بالذكر قبل ذكر الجنة التي تحتوي عليه **إيماء** إلى كرامتهم عند الله، مثل قوله:

والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار [الرعد: ٢٣، ٢٤] .

وجملة فروح وريحان جواب (أما) التي هي بمعنى: مهما يكن شيء. وفصل بين (ما) المتضمنة معنى اسم شرط وبين فعل شرط وبين الجواب بشرط آخر هو إن كان من المقربين لأن

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٧

الاستعمال جرى على لزوم الفصل بين (أما) وجوابها بفاصل كراهية اتصال فاء الجواب بأداة الشرط لما التزموا حذف فعل الشرط فأقاموا مقامه فاصلا كيف كان.

وجواب (إن) الشرطية محذوف أغنى عنه جواب (أما) .

وكذلك قوله: فسلام لك من أصحاب اليمين.

والسلام: اسم للسلامة من المكروه، ويطلق على التحية، واللام في قوله: لك للاختصاص.

والكلام إجمال للتنويه بهم وعلو مرتبتهم وخلاصهم من المكدرات لتذهب نفس السامع كل مذهب.

واختلف المفسرون في قوله: فسلام لك من أصحاب اليمين فقيل: كاف الخطاب موجهة لغير معين، أي لكل من يسمع هذا الخبر. والمعنى: أن السلامة الحاصلة لأصحاب اليمين تسر من يبلغه أمرها. وهذا كما يقال:". (١)

١٣٥٥. ٥٦٤-"وتحذير المسلمين من الوقوع في مهواة فساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم من إهمال ما جاءهم من الهدى حتى قست قلوبهم وجر ذلك إلى الفسوق كثيرا منهم.

والتذكير بالبعث. والدعوة إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية.

والأمر بالصبر على النوائب والتنويه بحكمة إرسال الرسل والكتب لإقامة أمور الناس على العدل العام.

والإيماء إلى فضل الجهاد في سبيل الله.

وتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام على أن في ذريتهما مهتدين وفاسقين.

وأن الله أتبعهما برسل آخرين، منهم عيسى عليه السلام الذي كان آخر رسول أرسل بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعه كانوا على سنة من سبقهم، منهم مؤمن ومنهم كافر.

ثم أهاب بالمسلمين أن يخلصوا الإيمان تعريضا بالمنافقين ووعدهم بحسن العاقبة وأن الله فضلهم على الأمم لأن الفضل بيده يوتيه من يشاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٨/٢٧

[١]

[سورة الحديد (٥٧) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (١)

افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كنهها المشركون والمانوية ونحوهم من أهل التثنية وأصحاب التثليث والبراهمة، وهي الصفة التي ينبىء عنها اسمه العلم أعني". (١)

١٣٥٦. ٥٦٥-"(٢)

تتنزل جملة الذين يظاهرون منكم من نسائهم وما يتم أحكامها منزلة البيان لجملة قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها [المجادلة: ١] الآية لأن فيها مخرجا مما لحق بالمجادلة من ضر بظهار زوجها، وإبطالا له، ولها أيضا موقع الاستئناف البياني لجملة قد سمع الله يثير سؤالا في النفس أن تقول: فماذا نشأ عن استجابة الله لشكوى المجادلة فيجاب بما فيه المخرج لها منه.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب يظهرون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء مفتوحتين بدون ألف بعد الظاء على أن أصله: يتظهرون، فأدغمت التاء في الظاء لقرب مخرجيهما، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف يظاهرون بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها على أن أصله: يتظاهرون، فأدغمت التاء كما تقدم، وقرأ عاصم يظاهرون بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء على أنه مضارع ظاهر.

ولم يأت مصدره إلا على وزن الفعال ووزن المفاعلة. يقال: صدر منه ظهار ومظاهرة، ولم يقولوا في مصدره بوزن التظهر، فقراءة نافع قد استغني فيها عن مصدره بمصدر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٦/٢٧

مرادفه.

ومعناه أن يقول الرجل لزوجه: أنت علي كظهر أمي. وكان هذا قولا يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيد تحريم نكاحها وبت عصمته. وهو مشتق من الظهر ضد البطن لأن الذي يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي، يريد بذلك أنه حرمها على نفسه. كما أن أمه حرام عليه، فإسناد تركيب التشبيه إلى ضمير المرأة على تقدير حالة من حالاتها، وهي حالة الاستمتاع المعروف، سلكوا في هذا التحريم مسلك الاستعارة المكنية بتشبيه الزوجة حين يقربها زوجها بالراحلة، وإثبات الظهر لها تخيل للاستعارة، ثم تشبيه ظهر زوجته بظهر أمه، أي في حالة من أحواله، وهي حالة الاستمتاع المعروف. وجعل المشبه ذات الزوجة. والمقصود أخص أحوال الزوجة وهو حال قربانها فآل إلى إضافة الأحكام إلى الأعيان.

فالتقدير: قربانك كقربان ظهر أمي، أي اعتلائها الخاص. ففي هذه الصيغة حذف ومجيء حروف لفظ ظهر في صيغة ظهار أو مظاهرة يشير إلى صيغة التحريم التي هي «أنت علي كظهر أمي» **إيماء** إلى تلك الصيغة على نحو". (١)

١٣٥٧. ٥٦٦-"ولهذا ذيل بقوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون لأنهم إذا توكلوا على الله توكلا حقا بأن استفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان واستعانوا بالله على تيسير ذلك لهم فإن الله يحفظهم من كيد الشيطان قال تعالى: ومن يتوكل على الله فهو حسبه [الطلاق: ٣]
.

ويجوز أن يكون عموم شيئا مرادا به الخصوص، أي ليس بضارهم شيئا مما يوهمه تناجي المنافقين من هزيمة أو قتل إلا بتقدير الله حصول هزيمة أو قتل.

والمعنى: أن التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعا فأعلمهم الله أن لا يحزنوا بالنجوى لأن الأمور تجري على ما قدره الله في نفس الآمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة.

وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: وعلى الله فليتوكل المؤمنون للاهتمام بمدلول هذا المتعلق.
[١١]

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢٨

[سورة المجادلة (٥٨) : آية ١١]

يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١)

فصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنهما يجمعهما غرض التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك المراعاة أولى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.

ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخرت تلك عن آيات النجوى العامة إيذانا بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في النجوى هو مسوغ الانتقال من النوع الأول إلى النوع الثاني، **والإيماء** إلى تميزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.

وأيضا قد كان للمنافقين نية مكر في قضية المجلس كما كان لهم نية مكر في". (١)

١٣٥٨. ٥٦٧-"النجوى، وهذا مما أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسح في المجلس النبوي الشريف.

روي عن مقاتل أنه قال: كان النبيء صلى الله عليه وسلم في الصفة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سبقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم وكان النبيء صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر فقال لمن حوله: قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبوا القرب من نبيئهم فسبقوا إلى مجلسه فأنزل الله هذه الآية

تطييبا لخاطر الذين أقيموا، وتعليما للأمة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها، وواجب الاعتراف بمزية أهل المزايا، قال الله تعالى: ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض [النساء: ٣٢] ، وقال: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٦

درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى [الحديد: ١٠] .

والخطاب ب يا أيها الذين آمنوا خطاب لجميع المؤمنين يعم من حضروا المجلس الذي وقعت فيه حادثة سبب النزول وغيرهم ممن عسى أن يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم.

وابتدئت الآية بالأمر بالتفسح لأن إقامة الذين أقيموا إنما كانت لطلب التفسيح فإناطة الحكم **إيماء** إلى علة الحكم.

والتفسح: التوسع وهو تفعل من فسح له بفتح السين مخففة إذا أوجد له فسحة في مكان، وفسح المكان من باب كرم إذا صار فسيحا. ومادة التفعل هنا للتكلف، أي يكلف أن يجعل فسحة في المكان وذلك بمضايقة مع الجلاس.

وتعريف المجالس يجوز أن يكون تعريف العهد، وهو مجلس النبيء صلى الله عليه وسلم، أي إذا قال النبيء صلى الله عليه وسلم لكم ذلك لأن أمره لا يكون إلا لمراعاة حق راجح على غيره والمجلس مكان الجلوس. وكان مجلس النبيء صلى الله عليه وسلم بمسجده والأكثر أن يكون جلوسه المكان المسمى بالروضة وهو ما بين منبر النبيء صلى الله عليه وسلم وبيته.

ويجوز أن يكون تعريف المجالس تعريف الجنس. وقوله: يفسح الله لكم". (١)

١٣٥٩. ٥٦٨-"من المؤمنين، أي دون من يضمه المجلس من المنافقين. فكان مقتضى الظاهر أن يقال: يرفع الله الناشزين منكم فاستحضروا بالموصول بصلة الإيمان لما تؤذن به الصلة من **الإيماء** إلى علة رفع الدرجات لأجل امتثالهم أمر القائل انشزوا وهو الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان لإيمانهم وأن ذلك الامتثال من إيمانهم ليس لنفاق أو لصاحبه امتعاض.

وعطف «الذين أوتوا العلم منهم» عطف الخاص على العام لأن غشيان مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو لطلب العلم من مواعظه وتعليمه، أي والذين أوتوا العلم منكم أيها المؤمنون، لأن الذين أوتوا العلم قد يكون الأمر لأحد بالقيام من المجلس لأجلهم، أي لأجل إجلاسهم، وذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا، ولأنهم إذا تمكنوا من مجلس الرسول صلى الله عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧/٢٨

وسلم كان تمكنهم أجمع للفهم وأنفى للملل، وذلك أدعى لإطالتهم الجلوس وازديادهم التلقي وتوفير مستنبطات أفهامهم فيما يلقى إليهم من العلم، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا.

ولعل البدريين الذين نزلت الآية بسبب قصتهم كانوا من الصحابة الذين أوتوا العلم.

ويجوز أن بعضا من الذين أمروا بالقيام كان من أهل العلم فأقيم لأجل رجحان فضيلة البدريين عليه، فيكون في الوعد للذي أقيم من مكانه برفع الدرجات استئناس له بأن الله رافع درجته.

هذا تأويل نظم الآية الذي اقتضاه قوة إيجازه. وقد ذهب المفسرون في الإفصاح عن استفادة المعنى من هذا النظم البديع مذاهب كثيرة وما سلكناه أوضح منها.

وانتصب درجات، على أنه ظرف مكان يتعلق ب يرفع أي: يرفع الله الذين آمنوا رفعا كائنا في درجات.

ويجوز أن يكون نائبا عن المفعول المطلق ل يرفع لأنها درجات من الرفع، أي مرافع.". (١)

١٣٦٠. ٥٦٩-"وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار.

ثم خطاب المؤمنين بالأمر بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار والتذكير بتفاوت حال الفريقين.

وبيان عظمة القرآن وجلالته واقتضائه خشوع أهله.

وتخلل ذلك إيماء إلى حكمة شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظمها الإسلام بحيث لا تشق على أصحاب الأموال.

والآمر باتباع ما يشرعه الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وختمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنه يسبح له ما في السماوات والأرض [الحشر: ٢٤] تزكيه لحال المؤمنين وتعريضا بالكافرين.

---

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٨

[١]

[سورة الحشر (٥٩) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١)

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى تذكير للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير فكأنه قال سبحوا لله كما سبح له ما في السماوات والأرض.

وتعريض بأولئك الذين نزلت السورة فيهم بأنهم أصابهم ما أصابهم لتكبرهم عن تسبيح الله حق تسبيحه بتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم إذ أعرضوا عن النظر في دلائل رسالته أو كابروا في معرفتها.

والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد [١] ، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها: ما في السماوات والأرض وهاهنا قال: ما في السماوات وما في الأرض لأن فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على". (١)

١٣٦١. ٥٧٠-"عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجمع ذلك كله في اسم واحد هو ما الموصولة التي صلتها قوله: في السماوات والأرض. وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي ما الموصولة الثانية التي صلتها في الأرض، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها. وأوثر الإخبار عن سبح لله ما في السماوات وما في الأرض بفعل المضي لأن المخبر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير.

[٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٦٤/٢٨

[سورة الحشر (٥٩) : آية ٢]

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار (٢)

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا.

يجوز أن تجعل جملة هو الذي أخرج الذين كفروا إلى آخرها استئنافا ابتدائيا لقصد إجراء هذا التمجيد على اسم الجلالة لما يتضمنه من باهر تقديره، ولما يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

ويجوز أن تجعل علة لما تضمنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين هم فريقان مما في الأرض فإن القصة التي تضمنتها فاتحة السورة من أهل أحوالهما.

ويجوز أن تجعل مبينة لجملة وهو العزيز الحكيم [الحشر: ١] لأن هذا التسخير العظيم من آثار عزه وحكمته.

وعلى كل الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين **وإيماء** إلى أن يشكروا الله على ذلك وتمهيد للمقصود من السورة وهو قسمة أموال بني النضير.

وتعريف جزأي الجملة بالضمير والموصول يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا". (١)

١٣٦٢. ٥٧١-"ثم أمر النبيء صلى الله عليه وسلم المسلمين بالسير إليهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة فسار إليهم هو والمسلمون وأمرهم بأن يخرجوا من قريتهم فامتنعوا وتنادوا إلى الحرب ودس إليهم عبد الله بن أبي ابن سلول أن لا يخرجوا من قريتهم وقال: إن قاتلكم المسلمون فنحن معكم ولننصرنكم وإن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة (أي سدوا منافذ بعضها لبعض ليكون كل درب منها صالحا للمدافعة) وحصونها، ووعدهم أن معه ألفين من قومه وغيرهم، وأن معهم قريظة وحلفاءهم من غطفان من العرب فحاصرهم النبيء

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٦٥

صلى الله عليه وسلم وانتظروا عبد الله بن أبي ابن سلول وقريظة وغطفان أن يقدموا إليهم ليردوا عنهم جيش المسلمين فلما رأوا أنهم لم ينجدوهم قذف الله في قلوبهم الرعب فطلبوا من النبيء صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى إلا الجلاء عن ديارهم وتشارطوا على أن يخرجوا ويحمل كل ثلاثة أبيات منهم حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به من الخشب والأبواب.

فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر، وقليل منهم لحقوا ببلاد الشام في مدن (أريحا) وأذرعات من أرض الشام وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

واللام في قوله: لأول الحشر لام التوقيت وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول ظرفا لعمل مثل قوله تعالى: يقول يا ليتني قدمت لحياتي [الفجر: ٢٤] أي من وقت حياتي. وقولهم: كتب ليوم كذا. وهي بمعنى (عند) . فالمعنى أنه أخرجهم عند مبدأ الحشر المقدر لهم، وهذا **إيماء** إلى أن الله قدر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب. وهذا التقدير أمر به النبيء صلى الله عليه وسلم كما سيأتي. فالتعريف في الحشر تعريف العهد.

والحشر: جمع ناس في مكان قال تعالى: وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم [الشعراء: ٣٦، ٣٧] .

والمراد به هنا: حشر يهود جزيرة العرب إلى أرض غيرها، أي جمعهم للخروج، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء إذا كان الجلاء لجماعة عظيمة تجمع من متفرق ديار البلاد.". (١)

١٣٦٣. ٥٧٢-"العجوة والبرمني في قول جمهور أهل المدينة وأيمة اللغة. وتمر اللينة يسمى اللون.

وإيثار لينة على نخلة لأنه أخف ولذلك لم يرد لفظ نخلة مفردا في القرآن، وإنما ورد النخل اسم جمع.

قال أهل اللغة: ياء لينة أصلها واو انقلبت ياء لوقوعها إثر كسرة ولم يذكروا سبب كسر أوله ويقال: لونة وهو ظاهر.

وفي كتب السيرة يذكر أن بعض نخل بني النضير أحرقه المسلمون وقد تضمن ذلك شعر

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢٨

حسان ولم يذكر القرآن الحرق فلعل خبر الحرق مما أرجف به فتناقله بعض الرواة، وجرى عليه شعر حسان وشعر أبي سفيان بن الحارث، أو أن النخلات التي قطعت أحرقها الجيش للطبخ أو للدفء.

وجيء بالحال في قوله: قائمة على أصولها لتصوير هيئتها وحسنها. وفيه إيماء إلى أن ترك القطع أولى. وضمير أصولها عائد إلى ما الموصولة في قوله تعالى:

ما قطعتم لأن مدلول ما هنا جمع وليس عائدا إلى لينة لأن اللينة ليس لها عدة أصول بل لكل لينة أصل واحد.

وتعلق على أصولها ب قائمة. والمقصود: زيادة تصوير حسنها. والأصول:

القواعد. والمراد هنا: سوق النخل قال تعالى: أصلها ثابت وفرعها في السماء [إبراهيم: ٢٤] . ووصفها بأنها قائمة على أصولها هو بتقدير: قائمة فروعها على أصولها لظهور أن أصل النخلة بعضها.

والفاء من قوله: فبإذن الله مزيدة في خبر المبتدأ لأنه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيرا إذا ضمن معنى التسبب، وقد قرىء بالفاء وبدونها قوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم في سورة الشورى [٣٠] .

وعطف وليخزي الفاسقين من عطف العلة على السبب وهو فبإذن الله لأن السبب في معنى العلة، ونظيره قوله تعالى: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين الآية في آل عمران [١٦٦] .". (١)

١٣٦٤. ٥٧٣-"وعندي أن هذا أحسن الوجوه، وإن قل قائلوه. والجمهور يجعلون النصب على المفعول معه سماعيا فهو عندهم قليل الاستعمال فتجنبوا تخريج آيات القرآن عليه حتى ادعى ابن هشام في «مغني اللبيب» أنه غير واقع في القرآن بيقين. وتأول قوله تعالى: فأجمعوا أمركم وشركاءكم [يونس: ٧١] ، ذلك لأن جمهور البصريين يشترطون أن يكون العامل في المفعول معه هو العامل في الاسم الذي صاحبه ولا يرون واو المعية ناصبة المفعول معه خلافا للكوفيين والأخفش فإن الواو عندهم بمعنى (مع) . وقال عبد القاهر:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٧٧

منصوب بالواو.

والحق عدم التزام أن يكون المفعول معه معمولا للفعل، ألا ترى صحة قول القائل:

استوى الماء والخشبة. وقولهم: سرت والنيل، وهو يفيد الثناء عليهم بأن دار الهجرة دارهم آووا إليها المهاجرين لأنها دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها.

وبذلك يتضح أن متعلق من قبلهم فعل تبوؤا بمفرده، وأن المجرور المتعلق به قيد فيه دون ما ذكر بعد الواو لأن الواو ليست واو عطف فلذلك لا تكون قائمة مقام الفعل السابق لأن واو المعية في معنى ظرف فلا يعلق بها مجرور.

وفي ذكر الدار (وهي المدينة) مع ذكر الإيمان **إيماء** إلى فضيلة المدينة بحيث جعل تبوءهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان ولعل هذا هو الذي عناه مالك رحمه الله فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق. فقال:

إن المدينة تبوئت بالإيمان والهجرة وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ: والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم الآية.

وجملة يحبون من هاجر إليهم حال من الذين تبوؤوا الدار، وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

ومن آثار هذه المحبة ما ثبت في «الصحيح» من خبر سعد بن الربيع مع عبد الرحمان بن عوف إذ عرض سعد عليه أن يقاسمه ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه، وقد أسكنوا المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم، وحسبك الأخوة التي آخى النبيء صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.". (١)

١٣٦٥. ٥٧٤-"وجملة يقولون في موضع المفعول الثاني. والتقدير: ألم ترهم قائلين. وجيء بالفعل المضارع لقصد تكرر ذلك منهم، أي يقولون ذلك مؤكدينه ومكررينه لا على سبيل البداء أو الخاطر المعدول عنه.

والذين نافقوا المخبر عنهم هنا هم فريق من بني عوف من الخزرج من المنافقين سمي منهم عبد

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٩١

الله بن أبي ابن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، ووديعة بن أبي قوتل، أو ابن قوقل، وسويد (لم ينسب) وداعس (لم ينسب) ، بعثوا إلى بني النضير حين حاصر جيش المسلمين بني النضير يقولون لهم:

اثبتوا في معاقلكم فإنا معكم.

والمراد بإخوانهم بنو النضير وإنما وصفهم بالإخوة لهم لأنهم كانوا متحدين في الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وليست هذه أخوة النسب فإن بني النضير من اليهود، والمنافقين الذين بعثوا إليهم من بني عوف من عرب المدينة وأصلهم من الأزد.

وفي وصف إخوانهم ب الذين كفروا **إيماء** إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر إلا أن كفر المنافقين كفر الشرك وكفر إخوانهم كفر أهل الكتاب وهو الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولام لئن أخرجتم موطئة للقسم، أي قالوا لهم كلاما مؤكدا بالقسم.

وإنما وعدوهم بالخروج معهم ليطمئنوا لنصرتهم فهو كناية عن النصر وإلا فإنهم لا يرضون أن يفارقوا بلادهم.

وجملة ولا نطيع فيكم أحدا معطوفة على جملة لئن أخرجتم فهي من المقول لا من المقسم عليه، وقد أعريت عن المؤكد لأن بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر.

ومعنى فيكم في شأنكم، ويعرف هذا بقرينة المقام، أي في ضركم إذ لا يخطر بالبال أنهم لا يطيعون من يدعوهم إلى موالاة إخوانهم، ويقدر المضاف في مثل هذا بما يناسب المقام.

ونظيره قوله تعالى: فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، [المائدة: ٥٢]". (١)

١٣٦٦. ٥٧٥-"ولذلك أقحم لفظ القوم في قوله بأنهم قوم لا يعقلون **إيماء** إلى أن ذلك من آثار ضعف عقولهم حتى صارت عقولهم كالمعدومة فالمراد: أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح.

وأوثر هنا لا يعقلون. وفي الآية التي قبلها لا يفقهون [الحشر: ١٣] لأن معرفة مآل التشتت

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٩٩

في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفت في ساعد الأمة معرفة «مشهورة» بين العقلاء. قال أحد بني نبهان يخاطب قومه إذ أزمعوا على حرب بعضهم:

وأن الحزامة أن تصرفوا ... لحي سوانا صدور الأسل

فإهمالهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم فكانت هذه الحالة شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين.

وقد تقدم غير مرة أن إسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأن ذلك الحكم كالجبلة المقومة للقومية وقد ذكرته آنفا.

[١٥]

[سورة الحشر (٥٩) : آية ١٥]

كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (١٥)

خبر مبتدأ محذوف دل عليه هذا الخبر، فالتقدير: مثلهم كمثل الذين من قبلهم قريبا، أي حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الذين من قبلهم قريبا.

والمراد: أن حالهم المركبة من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، ومن خذلان المنافقين إياهم عند الحاجة، ومن أنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، كحال الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب وهم بنو النضير فإنهم أظهروا الاستعداد للحرب وأبوا الجلاء، فلم يحاربوا إلا في قريتهم إذ حصنوها وقبعوا فيها حتى أعياهم الحصار فاضطروا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانهم من أهل الكتاب.". (١)

١٣٦٧. ٥٧٦-"وابتدئ في هذه الصفات العلية بصفة الوحدانية وهي مدلول الذي لا إله إلا هو وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات. ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي، وفاتحة آل عمران.

وثني بصفة عالم الغيب لأنها الصفة التي تقتضيها صفة الإلهية إذ علم الله هو العلم الواجب

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/٢٨

وهي تقتضي جميع الصفات إذ لا تتقوم حقيقة العلم الواجب إلا بالصفات السلبية، وإذ هو يقتضي الصفات المعنوية، وإنما ذكر من متعلقات علمه أمور الغيب لأنه الذي فارق به علم الله تعالى علم غيره، وذكر معه علم الشهادة للاحتراس توهم أنه يعلم الحقائق العالية الكلية فقط كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين ولأن التعريف في الغيب والشهادة للاستغراق. أي كل غيب وشهادة، وذلك مما لا يشاركه فيه غيره.

وهو علم الغيب والشهادة، أي الغائب عن إحساس الناس والمشاهد لهم. فالمقصود فيهما بمعنى اسم الفاعل، أي عالم ما ظهر للناس وما غاب عنهم من كل غائب يتعلق به العلم على ما هو عليه.

والتعريف في الغيب والشهادة للاستغراق الحقيقي.

وفي ذكر الغيب **إيماء** إلى ضلال الذين قصروا أنفسهم على المشاهدات وكفروا بالمغيبات من البعث والجزاء وإرسال الرسل، أما ذكر علم الشهادة فتتميم على أن المشركين يتوهمون الله لا يطلع على ما يخفونه. قال تعالى: وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم إلى قوله: من الخاسرين [فصلت: ٢٢، ٢٣] .

وضمير هو الرحمن الرحيم ضمير فصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها قال تعالى: ورحمتي وسعت كل شيء [الأعراف: ١٥٦] .

وقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»

. وقد تقدم الكلام على الرحمن الرحيم في سورة الفاتحة [٣] .

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى". (١)

١٣٦٨. ٥٧٧-"وتعدية جاء إلى ضمير المخاطبين وهم الذين آمنوا لأنهم الذين انتفعوا بذلك الحق وتقبلوه فكأنه جاء إليهم لا إلى غيرهم وإلا فإنه جاء لدعوة الذين آمنوا والمشركين فقبله

---

(١) التحرير والتنوير ١١٩/٢٨

الذين آمنوا ونبذه المشركون.

وفيه إيماء إلى أن كفر الكافرين به ناشيء عن حسدهم الذين آمنوا قبلهم.

وفي ذلك أيضا إلهاب لقلوب المؤمنين ليحذروا من موالاة المشركين.

وجملة يخرجون الرسول وإياكم حال من ضمير كفروا، أي لم يكتفوا بكفرهم بما جاء من الحق فتلبسوا معه بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخراجكم من بلدكم لأن تؤمنوا بالله ربكم، أي هو اعتداء حملهم عليه أنكم آمنتم بالله ربكم. وأن ذلك لا عذر لهم فيه لأن إيمانكم لا يضيرهم. ولذلك أجري على اسم الجلالة وصف ربكم على حد قوله تعالى: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد [الكافرون: ١- ٣] ثم قال: لكم دينكم ولي دين [الكافرون: ٦] .

وحكيت هذه الحالة بصيغة المضارع لتصوير الحالة لأن الجملة لما وقعت حالا من ضمير وقد كفروا كان إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تلك الحالة عملا فظيعا، فأريد استحضار صورة ذلك الإخراج العظيم فظاعة اعتلالهم له.

والإخراج أريد به: الحمل على الخروج بإتيان أسباب الخروج من تضييق على المسلمين وأذى لهم.

وأسند الإخراج إلى ضمير العدو كلهم لأن جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين. وربما أغروا به سفهاءهم، ولذلك فالإخراج مجاز في أسبابه، وإسناده إلى المشركين إسناد حقيقي.

وهذه الصفات بمجموعها لا تنطبق إلا على المشركين من أهل مكة ومجموعها هو علة النهي عن موادتهم.

وجيء بصيغة المضارع في قوله تعالى: أن تؤمنوا، لإفادة استمرار إيمان المؤمنين وفيه إيماء إلى الثناء على المؤمنين بثباتهم على دينهم، وأنهم لم يصدهم عنه ما سبب لهم الخروج من بلادهم.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/٢٨

١٣٦٩. ٥٧٨-"(١)

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أن الكافرين محقوقون بأن تقاتلوهم لأنهم شذوا عن جميع المخلوقات فلم يسبحوا الله ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية. وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنهم لم يؤدوا حق تسبيح الله، لأن الله مستحق لأن يوفى بعهده في الحياة الدنيا وأن الله ناصر الذين آمنوا على عدوهم.

وتقدم الكلام على نظير قوله: سبح لله إلى الحكيم في أول سورة الحشر وسورة الحديد.

وفي إجراء وصف العزيز عليه تعالى هنا إيماء إلى أنه الغالب لعدوه فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه فتفروا منهم عند اللقاء.

وإجراء صفة الحكيم إن حملت على معنى المتصف بالحكمة أن الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يخليهم يغلبونكم. وإن حملت على معنى

المحكم للأمور فكذلك.

[٢، ٣]

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٢ إلى ٣]

يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣)

ناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأن الإيمان من شأنه أن يزع المؤمن عن أن يخالف فعله قوله في الوعد بالخير.

واللام لتعليل المستفهم عنه وهو الشيء المبهم الذي هو مدلول ما الاستفهامية لأنها تدل على أمر مبهم يطلب تعيينه.

والتقدير: تقولون ما لا تفعلون لأي سبب أو لأية علة.

وتتعلق اللام بفعل تقولون المجرور مع حرف الجر لصدارة الاستفهام.

والاستفهام عن العلة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضيا لله تعالى، أي أن ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك كما في قوله

تعالى: قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل في سورة البقرة". (١)

١٣٧٠. ٥٧٩-"شاهدوه من دلائل رسالته، وكما أكد علمهم ب قد أكد حصول المعلوم ب (أن) المفتوحة، فحصل تأكيدان للرسالة. والمعنى: فكيف لا يجري أمركم على وفق هذا العلم.

والإتيان بعد قد بالمضارع هنا للدلالة على أن علمهم بذلك مجدد بتجدد الآيات والوحي، وذلك أجدى بدوام امتثاله لأنه لو جيء بفعل المضي لما دل على أكثر من حصول ذلك العلم فيما مضى. ولعله قد طرأ عليه ما يبطله، وهذا كالمضارع في قوله:

قد يعلم الله المعوقين منكم في سورة الأحزاب [١٨] .

والزيغ: الميل عن الحق، أي لما خالفوا ما أمرهم رسولهم جعل الله في قلوبهم زيغا، أي تمكن الزيغ من نفوسهم فلم ينفكوا عن الضلال.

وجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين تذييل، أي وهذه سنة الله في الناس فكان قوم موسى الذين آذوه من أهل ذلك العموم.

وذكر وصف الفاسقين جاريا على لفظ القوم **للإيماء** إلى الفسوق الذي دخل في مقومات قوميتهم. كما تقدم عند قوله تعالى: إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله: لآيات لقوم يعقلون في البقرة [١٦٤] .

فالمعنى: الذين كان الفسوق عن الحق سجية لهم لا يلطف الله بهم ولا يعتني بهم عناية خاصة تسوقهم إلى الهدى، وإنما هو طوع الأسباب والمناسبات.

[٦]

[سورة الصف (٦١) : آية ٦]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

عطف على جملة وإذ قال موسى لقومه [الصف: ٥] فعلى الوجه الأول في موقع التي قبلها

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٤/٢٨

فموقع هذه مساو له.

وأما على الوجه الثاني في الآية السابقة فإن هذه مسوقة مساق التتميم لقصة موسى بذكر مثال آخر لقوم حادوا عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم من غير إفادة". (١)

١٣٧١. ٥٨٠-"موضع الحال، وهذا الوجه يناسب قوله تعالى: لما يلحقوا بهم لأن اللحوق هو معنى الاتصال.

وموضع جملة لما يلحقوا بهم موضع الحال، وينشأ عن هذا المعنى **إيماء** إلى أن الأمم التي تدخل في الإسلام بعد المسلمين الأولين يصيرون مثلهم، وينشأ منه أيضا رمز إلى أنهم يتعربون لفهم الدين والنطق بالقرآن فكم من معان جليلة حوتها هذه الآية سكت عنها أهل التفسير.

وهذه بشارة غيبية بأن دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم ستبلغ أمما ليسوا من العرب وهم فارس، والأرمن، والأكراد، والبربر، والسودان، والروم، والترك، والتتار، والمغول، والصين، والهنود، وغيرهم وهذا من معجزات القرآن من صنف الإخبار بالمغيبات.

وفي الآية دلالة على عموم رسالة النبيء صلى الله عليه وسلم لجميع الأمم.

والنفي ب (لما) يقتضي أن المنفي بها مستمر الانتفاء إلى زمن التكلم فيشعر بأنه مترقب الثبوت كقوله تعالى: ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] ، أي وسيدخل كما في «الكشاف» ، والمعنى: أن آخرين هم في وقت نزول هذه الآية لم يدخلوا في الإسلام ولم يلتحقوا بمن أسلم من العرب وسيدخلون في أزمان أخرى.

واعلم أن

قول النبيء صلى الله عليه وسلم «لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء»

إيماء إلى مثال مما يشمله قوله تعالى: وآخرين منهم لأنه لم يصرح في جواب سؤال السائل بلفظ يقتضي انحصار المراد ب آخرين في قوم سلمان. وعن عكرمة: هم التابعون. وعن مجاهد: هم الناس كلهم الذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عمر: هم أهل اليمن.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/٢٨

وقوله: وهو العزيز الحكيم تذييل للتعجيب من هذا التقدير الإلهي لانتشار هذا الدين في جميع الأمم. فإن العزيز لا يغلب قدرته شيء. والحكيم تأتي أفعاله عن قدر محكم.
[٤]

[سورة الجمعة (٦٢) : آية ٤]
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم". (١)

١٣٧٢. ٥٨١-"وأحسب أن ذلك تخفيف على الناس إذ وجبت عليهم خطبتان مع الصلاة فكانت كل
خطبة بمنزلة ركعة وهذا سبب الجلوس بين الخطبتين **للإيماء** إلى أنهما قائمتان مقام الركعتين ولذلك كان الجلوس خفيفا. غير أن الخطبتين لم تعطيا أحكام الركعتين فلا يضر فوات إحداهما أو فواتهما معا ولا يجب على المسبوق تعويضهما ولا سجود لنقصهما عند جمهور فقهاء الأمصار، روي عن عطاء ومجاهد وطاووس: أن من فاتته الخطبة يوم الجمعة صلى أربعا صلاة الظهر. وعن عطاء: أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة أضاف إليها ثلاث ركعات وهو أراد إن فاتته الخطبة وركعة من صلاة الجمعة (١) .
وجعلت القراءة في الصلاة جهرا مع أن شأن صلوات النهار إسرار القراءة لفائدة إسماع الناس سورا من القرآن كما أسمعوا الخطبة فكانت صلاة إرشاد لأهل البلد في يوم من كل أسبوع.
والإجماع على أن صلاة الجمعة قائمة مقام صلاة الظهر في يوم الجمعة فمن صلاها لا يصلي معها ظهرا فأما من لم يصلها لعذر أو لغيره فيجب عليه أن يصلي الظهر. ورأيت في الجامع الأموي في دمشق قام إمام يصلي بجماعة ظهرا بعد الفراغ من صلاة الجمعة وذلك بدعة.
وإنما اختلف الأئمة في أصل الفرض في وقت الظهر يوم الجمعة فقال مالك والشافعي في آخر قوليه وأحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة: صلاة الجمعة المعروفة فرض وقت الزوال في يوم الجمعة وصلاة الظهر في ذلك اليوم لا تكون إلا بدلا عن صلاة الجمعة، أي لمن لم يصل الجمعة لعذر ونحوه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٢/٢٨

وقال أبو حنيفة والشافعي في أول قوليه (المرجوع عنه) وأبو يوسف ومحمد في رواية: الفرض بالأصل هو الظهر وصلاة الجمعة بدل عن الظهر، وهو الذي صححه فقهاء الحنفية.
وقال محمد في رواية عنه: الفرض إحدى الصلاتين من غير تعيين والتعيين للمكلف فأشبه الواجب المخير (لأن الواجب المخير لا يأثم فيه فاعل أحد الأمرين وتارك الجمعة بدون عذر آثم) .

---

(١) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» ص ٥٤٨ ج ٣.". (١)

١٣٧٣. ٥٨٢-"ومجيء الأجل حلول الوقت المحدد للاتصال بين الروح والجسد وهو ما علمه الله من طاقة البدن للبقاء حيا بحسب قواه وسلامته من العوارض المهلكة.
وهذا إرشاد من الله للمؤمنين ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، فلا يؤخروا ما يهمهم عمله سؤال ثوابه فما من أحد يؤخر العمل الذي يسره أن يعمله وينال ثوابه إلا وهو معرض لأن يأتيه الموت عن قريب أو يفاجئه، فعليه بالتحرز الشديد من هذا التفريط في كل وقت وحال، فربما تعذر عليه التدارك بفجأة الفوات، أو وهن المقدرة فإنه إن كان لم تطاوعه نفسه على العمل الصالح قبل الفوات فكيف يتمنى تأخير الأجل المحتوم.
والله خبير بما تعملون.
عطف على جملة لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم [المنافقون: ٩] . أو تذييل والواو اعتراضية.
ويفيد بناء الخبر على الجملة الاسمية تحقيق علم الله بما يعمله المؤمنون. ولما كان المؤمنون لا يخامرهم شك في ذلك كان التحقيق والتقوي راجعا إلى لازم الخبر وهو الوعد والوعيد والمقام هنا مقامهما لأن الإنفاق المأمور به منه الواجب المندوب. وفعلهما يستحق الوعد. وترك أولهما يستحق الوعيد.
وإيثار وصف خبير دون: عليم، لما تؤذن به مادة خبير من العلم بالأمور الخفية ليفيد أنه تعالى عليم بما ظهر من الأعمال وما بطن مثل أعمال القلب التي هي العزائم والنيات، وإيقاع هذه الجملة بعد ذكر ما يقطعه الموت من ازدياد الأعمال الصالحة **إيماء** إلى أن ما عسى أن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/٢٨

يقطعه الموت من العزم على العمل إذا كان وقته المعين له شرعا ممتدا كالعمر للحج على المستطيع لمن لم يتوقع طرو مانع. وكالوقت المختار للصلوات، أن حيلولة الموت دون إتمامه لا يرزيء المؤمن ثوابه لأن المؤمن إذا اعتاد حزبا أو عزم على عمل صالح ثم عرض له ما منعه منه أن الله يعطيه أجره.

ومن هذا القبيل: أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة كما في الحديث الصحيح.". (١)

١٣٧٤. ٥٨٣-"[٣]

[سورة التغابن (٦٤) : آية ٣]

خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (٣)

خلق السماوات والأرض.

استئناف بياني ناشيء عن قوله: فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] يبين أن انقسامهم إلى قسمي الكافرين والمؤمنين نشأ عن حياد فريق من الناس عن الحق الذي أقيم عليه خلق السماوات والأرض لأن الحق أن يؤمن الناس بوجود خالقهم، وبأنه واحد وأن يفردوه بالعبادة فذلك الذي أراده الله من خلقهم، قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] . وقال: فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله [الروم: ٣٠] فمن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر فقد حاد عن الحق والفطرة.

بالحق.

وقوله: بالحق معترض بين جملة خلق السماوات والأرض وجملة وصوركم.

وفي قوله: بالحق إيماء إلى إثبات البعث والجزاء لأن قوله بالحق متعلق بفعل خلق تعلق الملابسة المفاد بالباء، أي خلقا ملابسا للحق، والحق ضد الباطل، ألا

ترى إلى قوله: إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله: ربنا ما خلقت هذا باطلا [آل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٦/٢٨

عمران: ١٩٠، ١٩١] . والباطل مصدقه هنالك هو العبث لقوله تعالى: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق [الدخان: ٣٨، ٣٩] فتعين أن مصدق الحق في قوله: خلق السماوات والأرض بالحق أنه ضد العبث والإهمال.

والمراد ب خلق السماوات والأرض خلق ذواتهن وخلق ما فيهن من المخلوقات كما أنبأ عنه قوله: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق، أي ما خلقناهما وما بينهما إلا بالحق، فكذلك يكون التقدير في الآية من هذه السورة.

وملابسة الحق لخلق السماوات والأرض يلزم أن تكون ملابسة عامة مطردة لأنه لو اختلت ملابسة حال من أحوال مخلوقات السماوات للحق لكان ناقضا لمعنى ملابسة خلقها للحق، فكان نفي البعث للجزاء على أعمال المخلوقات موجبا". (١)

١٣٧٥. ٥٨٤-"اختلال تلك الملابسة في بعض الأحوال. وتخلف الجزاء عن الأعمال في الدنيا مشاهد إذ كثيرا ما نرى الصالحين في كرب ونرى أهل الفساد في نعمة، فلو كانت هذه الحياة الدنيا قصارى حياة المكلفين لكان كثير من أهل الصلاح غير لاق جزاء على صلاحه. وانقلب أكثر أهل الفساد متمتعا بإرضاء خباثة نفسه ونوال مشتهياته، فكان خلق كلا هذين الفريقين غير ملابس للحق، بالمعنى المراد.

ولزيادة الإيقاظ لهذا الإيمان عطف عليه قوله: وإليه المصير وكل ذلك توطئة إلى ما سبقه من قوله تعالى: زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا [التغابن: ٧] الآية.

وفي قوله: بالحق رمز إلى الجزاء وهو وعيد ووعد.

وفي قوله: خلق السماوات إلى آخره إظهار أيضا لعظمة الله في ملكوته.

وصوركم فأحسن صوركم.

إدماج امتنان على الناس بأنهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإجمال وذلك من الكمال وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية فقد خلقوا في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه لا يعتورها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما يناكد محاسن سائرها بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطير والحيتان من

(١) التحرير والتنوير ٢٦٤/٢٨

مشي على أربع مع انتكاس الرأس غالبا، أو زحف، أو نقز في
المشي في البعض.

ولا تعتور الإنسان نقائص في صورته إلا من عوارض تعرض في مدة تكوينه من صدمات لبطون الأمهات، أو علل تحل بهن، أو بالأجنة أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور. فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإنسان على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة ولكنه نقص نسبي في المحاسن فقد جمع بين **الإيماء** إلى ما اقتضته الحكمة قد نبههم إلى ما اقتضاه الإنعام. وفيه إشارة إلى دليل إمكان البعث كما قال:

أفعيينا بالخلق الأول [ق: ١٥] ، وقال: أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم [يس: ٨١] .". (١)

١٣٧٦. ٥٨٥-"وأما عطف وما تعلنون فتتميم للتذكير بعموم تعلق علمه تعالى بالأعمال.

وقد تضمن قوله: ويعلم ما تسرون وما تعلنون وعيدا ووعدا ناظرين إلى قوله:

فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] فكانت الجملة لذلك شديدة الاتصال بجملة هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن [التغابن: ٢] .

وإعادة فعل يعلم للتنبيه على العناية بهذا التعلق الخاص للعلم الإلهي بعد ذكر تعلقه العام في قوله: يعلم ما في السماوات والأرض تنبيها على الوعيد والوعد بوجه خاص.

وجملة والله عليم بذات الصدور تذييل لجملة ويعلم ما تسرون لأنه يعلم ما يسره جميع الناس من المخاطبين وغيرهم.

وذات الصدور صفة لموصوف محذوف نزلت منزلة موصوفها، أي صاحبات الصدور، أي المكتومة فيها.

والتقدير: بالنوايا والخواطر ذات الصدور كقوله: وحملناه على ذات ألواح [القمر:
١٣] وتقدم بيانه عند قوله تعالى: إنه عليم بذات الصدور في سورة الأنفال [٤٣] .
[٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٦٥

[سورة التغابن (٦٤) : آية ٥]

ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (٥)

انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله: والله بما تعملون بصير [التغابن: ٢] ، إلى قوله: وإليه المصير [التغابن: ٣] ، وقوله: ويعلم ما تسرون وما تعلنون [التغابن: ٤] ، إلى تعريض أوضح منه بطريق **الإيماء** إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معا فأن ما يسمى في باب الكناية بالإيمان أقل لوازم من التعريض والرمز فهو أقرب إلى التصريح.

وهذا **الإيماء** بضرب المثل بحال أمم تلقوا رسلهم بمثل ما تلقى به المشركون محمدا صلى الله عليه وسلم

تحذيرا لهم من أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك، فالجملة ابتدائية لأنها عد لصنف ثان من أصناف كفرهم وهو إنكار الرسالة.

فالخطاب لخصوص الفريق الكافر بقرينة قوله: الذين كفروا من قبل فهذا". (١)

١٣٧٧. ٥٨٦-"والمعنى: أن المؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متبع لوصايا الله تعالى فهو مجاف لفاسد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة. قال تعالى: وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون [البقرة: ١٥٥- ١٥٧] ، أي أصحاب الهدى الكامل لأنه هدى متلقى من التعاليم الإلهية الحق المعصومة من الخطل كقوله هنا: يهد قلبه.

وهذا الخبر في قوله: ومن يؤمن بالله يهد قلبه **إيماء** إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب فلذلك ذيل بجملة والله بكل شيء عليم فهو تذييل للجملة التي قبلها وارد على مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن الله، ومن أن الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب ومن الأمر بالثبات والصبر عند المصائب، أي يعلم

(١) التحرير والتنوير ٢٦٧/٢٨

جميع ذلك.

وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب لأن فائدة علم الله التي تهم الناس هو التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات.

[١٢]

[سورة التغابن (٦٤) : آية ١٢]

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين (١٢)

عطف على جملة ومن يؤمن بالله يهد قلبه [التغابن: ١١] لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيئون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من مصالح الأعمال كما يدل عليه تذييل الكلام بقوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون [آل عمران: ١٢٢] ، ولأن طلب الطاعة فرع عن

تحقق الإيمان كما

في حديث معاذ «أن النبيء صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: إنك ستأتي قوما أهل كتاب فأول ما تدعوهم إليه فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة»

الحديث.". (١)

١٣٧٨. ٥٨٧-"به قال تعالى: إن بعض الظن إثم [الحجرات: ١٢] وقال: أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [الحجرات: ٦] .

والعفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها. ولو مع توبيخ.

والصفح: الإعراض عن المذنب، أي ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ.

والغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته.

والجمع بينها هنا إيماء إلى تراتب آثار هذه العداوة وما تقتضيه آثارها من هذه المعاملات الثلاث. وحذف متعلق الأفعال الثلاثة لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم فيما يصدر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٠

منهم مما يؤذيكم، ويجوز أن يكون حذف المتعلق لإرادة عموم الترغيب في العفو.
وإنما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب إذا كان ذنبه متعلقا بحق ذلك المرء وبهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة وفي أدلة الشريعة تقييدات لها.
وجملة فإن الله غفور رحيم دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر فالتقدير وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم لأن الله غفور رحيم، أي للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث.
[١٥]

[سورة التغابن (٦٤) : آية ١٥]
إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١٥)
تذييل لأن فيه تعميم أحوال الأولاد بعد أن ذكر حال خاص ببعضهم.
وأدمج فيه الأموال لأنها لم يشملها طلب الحذر ولا وصف العداوة. وقدم ذكر الأموال على الأولاد لأن الأموال لم يتقدم ذكرها بخلاف الأولاد.
ووجه إدماج الأموال هنا أن المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم من المشركين فغلبوهم على أموالهم ولم تذكر الأموال في الآية السابقة لأن الغرض هو التحذير من أشد الأشياء اتصالا بهم وهي أزواجهم وأولادهم. ولأن فتنة هؤلاء مضاعفة لأن الداعي إليها يكون من أنفسهم ومن مساعي الآخرين وتسويلهم. وجرد عن ذكر". (١)

١٣٧٩. ٥٨٨-"وعدد آيها اثنتا عشرة آية في عدد الأكثر. وعدها أهل البصرة إحدى عشرة آية.
وهي معدودة السادسة والتسعين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البينة.
وسبب نزولها ما
رواه مسلم عن طريق ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمان بن أيمن يسأل ابن عمر

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٥

كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضا؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ليراجعها، فردها وقال: إذا طهرت فليطلق أو ليمسك. قال ابن عمر وقرأ النبيء: يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن

[الطلاق: ١] .

وظاهر قوله: وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم إلخ. إنها نزلت عليه ساعتئذ. ويحتمل أن تكون نزلت قبل هذه الحادثة. وقال الواحدي عن السدي: أنها نزلت في قضية طلاق ابن عمر، وعن قتادة أنها نزلت بسبب أن النبيء صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ولم يصح. وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئا من ذلك لم يصح وأن الأصح أن الآية نزلت بيانا لشرع مبتدإ.

أغراضها

الغرض من آيات هذه السورة تحديد أحكام الطلاق وما يعقبه من العدة والإرضاع والإنفاق والإسكان. تتميما للأحكام المذكورة في سورة البقرة.

والإيماء إلى حكمة شرع العدة.

والنهي عن الإضرار بالمطلقات والتضييق عليهن.

والإشهاد على التطليق وعلى المراجعة.

وإرضاع المطلقة ابنها بأجر على الله.

والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما.

وتخلل ذلك الأمر بالمحافظة الوعد بأن الله يؤيد من يتقي الله ويتبع حدوده ويجعل له من أمره يسرا ويكفر عنه سيئاته.". (١)

١٣٨٠. ٥٨٩-"شرع مبتدإ قالوا: إنه يجوز أن يكون المراد إذا طلقتم في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم ولكن طلقوهن لعدتهن، أي في أطهارهن كما سيأتي.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٣

وتكرير فعل فطلقوهن لمزيد الاهتمام به فلم يقل إذا طلقتم النساء فلطهرهن وقد تقدم نظير ذلك عند قوله تعالى: وإذا بطشتم بطشتم جبارين في سورة الشعراء [١٣٠] ، وقوله: وإذا مروا باللغو مروا كراما في سورة الفرقان [٧٢] .

واللام في لعدتهن لام التوقيت وهي بمعنى عند مثل كتب ليوم كذا من شهر كذا. ومنه قوله تعالى: أقم الصلاة لدلوك الشمس [الإسراء: ٧٨] لا تحتمل هذه اللام غير ذلك من المعاني التي تأتي لها اللام. ولما كان مدخول اللام هنا غير زمان علم أن المراد الوقت المضاف إلى عدتهن أي وقت الطهر.

ومعنى التركيب أن عدة النساء جعلت وقتا لإيقاع طلاقهن فكني بالعدة عن الطهر لأن المطلقة تعتد بالأطهار.

وفائدة ذلك أن يكون إيماء إلى حكمة هذا التشريع وهي أن يكون الطلاق عند ابتداء العدة وإنما تبتدأ العدة بأول طهر من أطهار ثلاثة لدفع المضرة عن المطلقة بإطالة انتظار تزويجها لأن ما بين حيضها إذا طلقت فيه وبين طهرها أيام غير محسوبة في عدتها فكان أكثر المطلقين يقصدون بذلك إطالة مدة العدة ليوسعوا على أنفسهم زمن الارتياء للمراجعة قبل أن يبن منهم.

وفعل طلقتم مستعمل في معنى أردتم الطلاق وهو استعمال وارد ومنه قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم [المائدة: ٦] الآية والقرينة ظاهرة.

والآية تدل على إباحة التطليق بدلالة الإشارة لأن القرآن لا يقدر حصول فعل محرم من دون أن يبين منعه.

والطلاق مباح لأنه قد يكون حاجيا لبعض الأزواج فإن الزوجين شخصان اعتشرا اعتشارا حديثا في الغالب لم تكن بينهما قبله صلة من نسب ولا جوار ولا تخلق بخلق متقارب أو متماثل فيكثر أن يحدث بينهما بعد التزوج تخالف في بعض نواحي المعاشرة قد يكون شديدا ويعسر تذليله، فيمل أحدهما ولا يوجد سبيل إلى". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٥

١٣٨١. ٥٩٠-"شديدة اللهجة في التحدي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ولزيادة الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ربكم للتذكير بأنه حقيق بأن يتقى غضبه.

لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة.

استئناف أو حال من ضمير أحصوا العدة، أي حالة كون العدة في بيوتهن، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من مضمون جملة أحصوا العدة لأن مكثهن في بيوتهن في مدة العدة يحقق معنى إحصاء العدة.

ولكلا الوجهين جردت الجملة عن الاقتران بالواو جوازا أو وجوبا.

وفي إضافة البيوت إلى ضمير النساء **إيماء** إلى أنهن مستحقات المكث في البيوت مدة العدة بمنزلة مالك الشيء وهذا ما يسمى في الفقه ملك الانتفاع دون العين ولأن بقاء المطلقات في البيوت اللاتي كن فيها أزواجا استصحاب لحال الزوجية إذ الزوجة هي المتصرفة في بيت زوجها ولذلك يدعوها العرب «ربة البيت» وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت في العدة إلا في استمتاع المطلق.

وهذا الحكم سببه مركب من قصد المكارمة بين المطلق والمطلقة. وقصد الانضباط في علة الاعتداد تكميلا لتحقق لحاق ما يظهر من حمل بأبيه المطلق حتى يبرأ النسب من كل شك.

وجملة ولا يخرجن عطف على جملة لا تخرجوهن وهو نهي لهن عن الخروج فإن المطلق قد يخرجها فترغب المطلقة في الخروج لأنها تستثقل البقاء في بيت زالت عنه سيادتها فنهاهن الله عن الخروج. فإذا كان البيت مكترى سكنته المطلقة وكراؤه على المطلق وإذا انتهى أمد كرائه فعلى المطلق تجديده إلى انتهاء عدة المطلقة.

وهذا الترتب بين الجملتين يشعر بالسببية وأن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة لأنها معتدة لأجله أي لأجل حفظ نسبه وعرضه فهذا". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٩

١٣٨٢. ٥٩١-"والإمساك: اعتزام المراجعة عبر عنه بالإمساك **للإيماء** إلى أن المطلقة الرجعية لها حكم الزوجة فيما عدا الاستمتاع فكأنه لما راجعها قد أمسكها أن لا تفارقه فكأنه لم يفارقها لأن الإمساك هو الضن بالشيء وعدم التفريط فيه ومنه قوله تعالى: أمسك عليك زوجك [الأحزاب: ٣٧] وأنه إذا لم يراجعها فكأنه قد أعاد فراقها وقسا قلبه.

ومن أجل هذه النكتة جعل عدم الإمساك فراقا جديدا في قوله: أو فارقوهن بمعروف.

والأمر في فأمسكوهن أو فارقوهن للإباحة، وأو فيه للتخيير.

والباء في بمعروف للملابسة أي ملابسة كل من الإمساك والفراق للمعروف.

والمعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.

فالمعروف في الإمساك: حسن اللقاء والاعتذار لها عما فرط والعود إلى حسن المعاشرة.

والمعروف في الفراق: كف اللسان عن غيبتها وإظهار الاستراحة منها.

والمعروف في الحالين من عمل الرجل لأنه هو المخاطب بالإمساك أو الفراق.

وأما المعروف الذي هو من عمل المرأة فمقرر من أدلة أخرى كقوله تعالى: ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف [البقرة: ٢٢٨] .

وتقديم الإمساك أعني المراجعة على إمضاء المفارقة، **إيماء** إلى أنه أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة مع ما تقدم من التعبير عن المراجعة بالإمساك، ففهم أن المراجعة مندوب إليها لأن أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

ولما قيد أمر الإباحة من قوله: فأمسكوهن أو فارقوهن، بقيد بالمعروف، فهم منه أنه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية أن يطلق الرجل امرأته فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أياما ثم طلقها يفعل ذلك ثلاثا ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضرارا بها.

وقد تقدم هذا عند قوله تعالى: وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، إلى قوله: ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا في سورة البقرة". (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٠٨

١٣٨٣. ٥٩٢-"والمراد عذاب الآخرة لأن الإعداد التهيئة وإنما يهيأ الشيء الذي لم يحصل.

وإن جعلت الحساب والعذاب المذكورين آنفا حساب الآخرة وعذابها كما تقدم آنفا فجملة أعد الله لهم عذابا شديدا استئنافا لبيان أن ذلك متزايد غير مخفف منه كقوله:

فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا [النبأ: ٣٠] .

فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا.

هذا التفريع المقصود على التكاليف السابقة وخاصة على قوله: وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه [الطلاق: ١] وهو نتيجة ما مهد له به من قوله: وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله.

وفي نداء المؤمنين بوصف أولي الألباب إيماء إلى أن العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله لأنها كمال نفساني، ولأن فوائدها حقيقية دائمة، ولأن بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون [يونس: ٦٢، ٦٣] ، وقوله: أولي معناه ذوي، وتقدم بيانه عند قوله:

واللائي يئسن من المحيض [الطلاق: ٤] آنفا والذين آمنوا بدل من أولي الألباب.

وهذا الاتباع يومىء إلى أن قبولهم الإيمان عنوان على رجاحة عقولهم. والإتيان بصلة الموصول إشعار بأن الإيمان سبب للتقوى وجامع لمعظمها ولكن للتقوى درجات هي التي أمروا بأن يحيطوا بها.

قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور.

في هذه الجملة معنى العلة للأمر بالتقوى لأن إنزال الكتاب نفع عظيم لهم مستحق شكرهم عليه.". (١)

١٣٨٤. ٥٩٣-"(١)

افتتاح السورة بخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بالنداء تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبيء صلى الله عليه وسلم والأمة ولأن سبب النزول كان من علائقه.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٦/٢٨

والاستفهام في قوله: لم تحرم مستعمل في معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاما بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللاء تمالأن عليه لفرط غيرتهن، أي ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام.

وهذا يومىء إلى ضبط ما يراعى من الغيرة وما لا يراعى.

وفعل تحرم مستعمل في معنى: تجعل ما أحل لك حراما، أي تحرمه على نفسك كقوله تعالى: إلا ما حرم إسرائيل على نفسه [آل عمران: ٩٣] وقرينته قوله هنا: ما أحل الله لك.

وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراما كما في قوله تعالى: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق [الأعراف: ٣٢] ، وقوله: يحلونه عاما ويحرمونه عاما [التوبة: ٣٧] ، فإن التفعيل يأتي بمعنى التصبير كما يقال: وسع هذا الباب ويأتي بمعنى إيجاد الشيء على حالة مثل ما يقال للخياط: وسع طوق الجبة.

ولا يخطر ببال أحد أن يتوهم منه أنك غيرت إباحته حراما على الناس أو عليك.

ومن العجيب قول «الكشاف» : ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله إنما أحله لمصلحة عرفها في إحلاله إلخ.

وصيغة المضارع في قوله: لم تحرم لأنه أوقع تحريما متجددا.

فجملة تبتغي حال من ضمير تحرم. فالتعجيب واقع على مضمون الجملتين مثل قوله: لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة [آل عمران: ١٣٠] .

وفي الإتيان بالموصول في قوله: ما أحل الله لك لما في الصلة من **الإيماء** إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما". (١)

١٣٨٥. ٥٩٤-"والاستفهام حقيقي ولك أن تجعله للتعجب من علمه بذلك.

وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سر زوجها زلة خلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٨

شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سر زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة وواجب الإخلاص لرسول الله أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل.

وهذا هو الأدب السادس من معاني الآداب التي اشتملت عليها القصة وأجملنا ذكرها آنفا.

وإيثار وصفي العليم الخبير هنا دون الاسم العلم لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علما وخبرا بكل شيء.

والعليم: القوي العلم وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي العلم المحيط بكل معلوم.

والخبير: أخص من العليم لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله ولذلك يقال خبرته، أي بلوته وتطلعت بواطن أمره، قال ابن برجان (بضم الموحدة وبجيم مشددة) في «شرح الأسماء» : «الفرق بين الخبر والعلم وسائر الأشياء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من وجه وأضف ذلك إلى تلك الصفة وسم الفائدة بذلك الوجه الذي عنه حصلت فمتى حصلت من موضع الحضور سميت مشاهدة والمتصف بها هو الشاهد والشهيد. وكذلك إن حصلت من وجه سمع أو بصر فالمتصف بها سميع وبصير. وكذلك إن حصلت من علم أو علامة فهو العلم والمتصف به العالم والعليم، وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه ببلوى أو امتحان أو تجربة أو تبليغ فهو الخبر. والمسمى به الخبير» اه. وقال الغزالي في «المقصد الأسنى» : «العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيرا اه» .

فيتضح أن اتباع وصف العليم بوصف الخبير **إيماء** إلى أن الله علم دخيلة المخاطبة وما قصدته من إفشاء السر للأخرى.". (١)

١٣٨٦. ٥٩٥-"[سورة التحريم (٦٦) : آية ٤]

إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٥٤

التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما فهو استئناف خطاب وجهه الله إلى حفصة وعائشة لأن إنباء النبيء صلى الله عليه وسلم بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذ قد كان ذلك إثما لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره ذكرها بواجب التوبة منه.

وخطاب التثنية عائدة إلى المنبئة والمنبأة فأما المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله: إلى بعض أزواجه [التحريم: ٣] .

وأما المنبأة فمعادها ضمني لأن فعل نبأت [التحريم: ٣] يقتضيه فأما المنبئة فأمرها بالتوبة ظاهر. وأما المذاع إليها فلأنها شريكة لها في تلقي الخبر السر ولأن المذيعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك فهاتان موعظتان لمذيع السر ومشاركة المذاع إليه في ذلك وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها بما أذاعته عنه ضرتها.

وصغت: مالت، أي مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج، ومنه سمي سماع الكلام إصغاء لأن المستمع يميل سمعه إلى من يكلمه، وتقدم عند قوله تعالى:

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة في سورة الأنعام [١١٣] . وفيه إيماء إلى أن فيما فعلتاه انحرافا عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به وأن عليهما أن تتوبا مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما.

وهذان الأدبان الثامن والتاسع من الآداب التي اشتملت عليها هذه الآيات.

والتوبة: الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه وسيأتي الكلام عليها في هذه السورة.

وإذ كان المخاطب مثنى كانت صيغة الجمع في (قلوب) مستعملة في الاثنين طلبا لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين فإن صيغة التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام. فلما أمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية.". (١)

١٣٨٧. ٥٩٦-"(٥)

ليس هذا مما يتعلق بالشرط في قوله: وإن تظاهرا عليه [التحريم: ٤] بل هو كلام مستأنف عدل به إلى تذكير جميع أزواجه بالحذر من أن يضيق صدره عن تحمل أمثال هذا الصنيع

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٦/٢٨

فيفارقهن لتقلع المتلبسة وتحذر غيرها من مثل فعلها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عقبت بها جملة إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما [التحريم: ٤] التي أفادت التحذير من عقاب في الآخرة إن لم تتوبا مما جرى منهما في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفاد هذا **الإيماء** إلى التحذير من عقوبة دنيوية لهن يأمر الله فيها نبيئه صلى الله عليه وسلم وهي عقوبة الطلاق عليه ما يحصل من المؤاخذة في الآخرة إن لم تتوبا، ولذلك فصلت عن التي قبلها لاختلاف الغرضين.

وفي قوله: عسى ربه إن طلقكن إيجاز بحذف ما يترتب عليه إبدالهن من تقدير إن فارقكن.

فالتقدير: عسى أن يطلقكن هو (وإنما يطلق بإذن ربه) أن يبدله ربه بأزواج خير منكن.

وفي هذا ما يشير إلى المعنى الرابع عشر والخامس عشر من معاني الموعظة والإرشاد التي ذكرناها آنفا.

وعسى هنا مستعملة في التحقيق وإيثارها هنا لأن هذا التبديل مجرد فرض وليس بالواقع لأنهن لا يظن بهن عدم الإرعواء عما حذرن منه، وفي قوله: خيرا منكن تذكير لهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من فضل زوجهن عند الله وإجراء الأوصاف المفصلة بعد الوصف المجمل وهو خيرا منكن للتنبيه على أن أصول التفضيل موجودة فيهن فيكمل اللاء يتزوجهن النبيء صلى الله عليه وسلم فضل على بقية النساء بأنهن صرن أزواجا للنبيء صلى الله عليه وسلم.

وهذه الآية إلى قوله: خيرا منكن نزلت موافقة لقول عمر لابنته حفصة رضي الله عنهما مثل هذا اللفظ وهذا من القرآن الذي نزل وفاقا لقول عمر أو رأيه تنويها بفضله.

وقد

وردت في حديث في «الصحيحين» واللفظ للبخاري «عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى [البقرة: ١٢٥] ، وقلت: «يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب» فأنزل الله آية الحجاب. وبلغني معاتبة النبيء بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت:

إن انتهيتن أو ليبدلن الله". (١)

١٣٨٨. ٥٩٧-"وذكر خروجها من السفينة بعد الطوفان ثم طوي ذكرها لما ذكر الله بركته نوحا وبنيه وميثاقه معهم فلم تذكر معهم زوجه. فلعلها كفرت بعد ذلك أو لعل نوحا تزوج امرأة أخرى بعد الطوفان لم تذكر في التوراة.

ووصف الله فعل امرأة نوح بخيانة زوجها، فقال المفسرون: هي خيانة في الدين، أي كانت كافرة مسرة الكفر، فلعل الكفر حدث مرة أخرى في قوم نوح بعد الطوفان ولم يذكر في القرآن.

وأما حديث امرأة لوط فقد ذكر في القرآن مرات. وتقدم في سورة الأعراف ويقال: فلانة كانت تحت فلان، أي كانت زوجا له.

والتحتية هنا مجاز في معنى الصيانة والعصمة ومنه قول أنس بن مالك في الحديث المروي في «الموطأ» وفي «صحيح البخاري» عن أم حرام بنت ملحان: «وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت» .

ومن بدائع الأجوبة أن أحد الأمراء من الشيعة سأل أحد علماء السنة: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأجابه: «الذي كانت ابنته تحته» فظن أنه فضل عليا إذ فهم أن الضمير المضاف إليه «ابنة» ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الضمير المضاف إليه (تحت) ضمير اسم الموصول، وإنما أراد السني العكس بأن يكون ضمير «ابنته» ضمير الموصول «تحته» ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك هو أبو بكر.

وقد ظهر أن المراد بالعبدين نوح ولوط وإنما خصا بوصف «عبدين صالحين» مع أن وصف النبوة أخص من وصف الصلاح تنويها بوصف الصلاح **وإيماء** إلى أن النبوة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين كما في قوله تعالى: وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين [الصافات: ١١٢] . ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن فإن وصف النبوءة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم.

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٦٠

والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك تفريط المرء ما اؤتمن عليه وما". (١)

١٣٨٩. ٥٩٨-"وهذا **إيماء** إلى تبرئتها مما رماها به القوم البهت.

وهذا نظير قوله تعالى: والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون [النور: ٢٦].

ويجوز أن تجعل من للتبعيض، أي هي بعض من قنت لله. وغلبت صيغة جمع الذكور ولم يقل: من القانتات، جريا على طريقة التغليب وهو من تخريج الكلام على مقتضى الظاهر.

وهذه الآية مثال في علم المعاني.

ونكتته هنا الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة وأن شأن ذلك أن يكون للرجال لأن نساء بني إسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة.

ووصفت مريم بالموصول وصلته لأنها عرفت بتلك الصلة من قصتها المعروفة من تكرر ذكرها فيما نزل من القرآن قبل هذه السورة.

وفي ذكر القانتين **إيماء** إلى ما أوصى الله به أمهات المؤمنين بقوله تعالى: ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين [الأحزاب: ٣١] الآية.

وقرأ الجمهور وكتابه. وقرأه حفص وأبو عمرو ويعقوب وكتبه بصيغة الجمع، أي آمنت بالكتب التي أنزلت قبل عيسى وهي «التوراة» و «الزبور» وكتب الأنبياء من بني إسرائيل، و «الإنجيل» إن كان قد كتبه الحواريون في حياتها.

الجزء التاسع والعشرون". (٢)

١٣٩٠. ٥٩٩-"ويجوز أن يكون خلق مصدرا فيشمل خلق السماوات وخلق غيرها فإن صنع الله رحمة للناس لو استقاموا كما صنع لهم وأوصاهم، فتفيد هذه الجملة مفاد التذييل في أثناء

الكلام على وجه الاعتراض ولا يكون إظهارا في مقام الإضمار.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٥/٢٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٧٩/٢٨

والتعبير بوصف الرحمن دون اسم الجلالة إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سببا لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى: وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر [الأنعام: ٩٧] وقال: هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق [يونس: ٥] .

وأيضا في ذلك الوصف تورك على المشركين إذ أنكروا اسمه تعالى: الرحمن وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا [الفرقان: ٦٠] .

وفرع عليه قوله: فارجع البصر إلخ. والتفريع للتسبب، أي انتفاء رؤية التفاوت، جعل سببا للأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوما عن يقين دون تقليد للمخبر.

ورجع البصر: تكريره والرجع: العود إلى الموضع الذي يجاء منه، وفعل: رجع يكون قاصرا ومتعديا إلى مفعول بمعنى: أرجع، فارجع هنا فعل أمر من رجع المتعدي.

والرجع يقتضي سبق حلول بالموضع، فالمعنى: أعد النظر، وهو النظر الذي دل عليه قوله: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت أي أعد رؤية السماوات وأنها لا تفاوت فيها إعادة تحقيق وتبصر، كما يقال: أعد نظرا.

والخطاب في قوله: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت وقوله: فارجع البصر إلخ. خطاب لغير معين.

وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشركين مع دلالته على الوجوب للمسلمين فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال.". (١)

١٣٩١. ٦٠٠-"والقبض: ضد البسط. والمراد به هنا ضد الصف المذكور قبله، إذ كان ذلك الصف صادقا على معنى البسط ومفعوله المحذوف هنا هو عين المحذوف في المعطوف عليه، أي قابضات أجنحتهن حين يدنينها من جنوبهن للازدياد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٩

وأوثر الفعل المضارع في يقبضن لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين إذ بذلك العكس يزداد الطيران قوة امتداد زمان.

وجيء في وصف الطير ب صافات بصيغة الاسم لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي ويجددن قبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض
الأجنحة على زيادة التحرك عند ما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران، ونظيره قوله تعالى في الجبال والطير يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة [ص: ١٨-١٩] لأن التسبيح في وقتين والطير محشورة دوما.

وانتصب فوقهم على الحال من الطير وكذلك انتصب صافات.

وجملة ويقبضن في موضع نصب على الحال لعطفها على الوصف الذي هو حال فالرؤية بصرية مضمنة معنى النظر، ولذلك عديت إلى المرئي ب (إلى) . والاستفهام في أولم يروا إنكاري، ونزلوا منزلة من لم ير هاته الأحوال في الطير لأنهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية.

وجملة ما يمسكهن إلا الرحمن مبينة لجملة أولم يروا إلى الطير وما فيها من استفهام إنكار، أي كان حقهم أن يعلموا أنهن ما يمسكهن إلا الرحمان إذ لا ممسك لها ترونه كقوله تعالى: ويمسك السماء أن تقع على الأرض [الحج: ٦٥] .

وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهوي المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطير من الهوي.

ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها". (١)

١٣٩٢. ٦٠١-"وأقحم الشرط بين فعل الرؤية وما سد مسد مفعوليه.

والفاء في قوله: فمن يأتيكم [الملك: ٣٠] رابطة لجواب الشرط لأنه لما وقع بعد ما أصله المبتدأ والخبر وهو المفعولان المقدران رجح جانب الشرط.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٢٩

والمعية في قوله: ومن معي معية مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى: محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار [الفتح: ٢٩] الآية، أي الذين آمنوا معه، وقوله: والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم [التحريم: ٨] كما أطلقت على الموافقة في الرأي والفهم في قول أبي هريرة: «أنا مع ابن أخي» ، يعني موافق لأبي سلمة بن عبد الرحمان، وذلك حين اختلف أبو سلمة وابن عباس في المتوفى عنها الحامل إذا وضعت حملها قبل مضي عدة الوفاة.

والاستفهام بقوله: فمن يجير الكافرين إلخ إنكاري، أي لا يجيرهم منه مجير، أي أظننتم أن تجدوا مجيرا لكم إذا هلكنا فذلك متعذر فماذا ينفعكم هلاكنا.

والعذاب المذكور هنا ما عبر عنه بالوعد في الآية قبلها.

وتنكير عذاب للتهويل.

والمراد ب الكافرين جميع الكافرين فيشمل المخاطبين.

والكلام بمنزلة التذييل، وفيه حذف، تقديره: من يجيركم من عذاب فإنكم كافرون ولا مجير للكافرين.

وذكر وصف الكافرين لما فيه من **الإيماء** إلى علة الحكم لأنه وصف إذا علق به حكم أفاد تعليل ما منه اشتقاق الوصف.

وقرأ الجمهور بفتحة على ياء أهلكني، وقرأها حمزة بإسكان الياء.

وقرأ الجمهور ياء معي بفتحة. وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء.

[٢٩]

[سورة الملك (٦٧) : آية ٢٩]

قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين (٢٩)". (١)

١٣٩٣. ٦٠٢-"هذا تكرير ثالث لفعل قل من قوله: قل هو الذي أنشأكم [الملك: ٢٣] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٥٣

وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله: أو رحمنا [الملك: ٢٨] فإنه بعد أن سوى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أن أي الحالين فرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب، أعقبه بأن المسلمين آمنوا بالرحمان، فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أي الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءه عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة.

وضمير هو عائد إلى الله تعالى الواقع في الجملة قبله، أي الله هو الذي وصفه الرحمن فهو يرحمنا، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تحرموا آثار رحمته.

ونحن توكلنا عليه دون غيره وأنتم غركم عزكم وجعلتم الأصنام معتمدكم ووكلاءكم.

وبهذه التوطئة يقع **الإيماء** إلى الجانب المهتدي والجانب الضال من قوله:

فستعلمون من هو في ضلال مبين لأنه يظهر بداء تأمل أن الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف الرحمن وتوكلوا على الأوثان.

ومن موصولة، وما صدق من فريق مبهم متردد بين فريقين تضمنهما قوله:

إن أهلكني الله ومن معي [الملك: ٢٨] وقوله: فمن يجير الكافرين [الملك: ٢٨] ، فأحد الفريقين فريق النبيء صلى الله عليه وسلم ومن معه، والآخر فريق الكافرين، أي فستعلمون اتضاح الفريق الذي هو في ضلال مبين.

وتقديم معمول توكلنا عليه لإفادة الاختصاص، أي توكلنا عليه دون غيره تعريضا بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوها في التوكل مع الله، أو نسوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الأصنام.

وإنما لم يقدم معمول آمنا عليه فلم يقل: به آمنا لمجرد الاهتمام إلى الإخبار عن إيمانهم بالله لوقوعه عقب وصف الآخرين بالكفر في قوله: فمن يجير الكافرين من عذاب أليم [الملك: ٢٨] فإن هذا جواب آخر عن تمنيهم له الهلاك سلك به طريق التبكيت، أي هو الرحمان يجيرنا من سوء ترومونه لنا لأننا آمنا به ولم نكفر به". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤/٢٩

١٣٩٤.   ٦٠٣-"كما كفرتم، فلم يكن المقصود في إيراده نفي الإشراك وإثبات التوحيد، إذ الكلام في الإهلاك والإنجاء المعبر عنه ب رحمنا [الملك: ٢٨] فجيء بجملة آمنا على أصل مجرد معناها دون قصد الاختصاص، بخلاف قوله: وعليه توكلنا لأن التوكل يقتضي منجيا وناصرا،

والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتكل على ما أنتم متكلون عليه، بل على الرحمان وحده توكلنا.

وفعل فستعلمون معلق عن العمل لمجيء الاستفهام بعده.

وقرأ الجمهور فستعلمون بتاء الخطاب على أنه مما أمر بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقرأه الكسائي بياء الغائب على أن يكون إخبارا من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين.

[٣٠]

[سورة الملك (٦٧) : آية ٣٠]

قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (٣٠)

إيماء إلى أنهم يترقبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف فإن مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم، كما دل عليه خبر تعجب القافلة من (جرهم) التي مرت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجر بابنه إسماعيل ففجر الله لها زمزم ولمحت القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا: ما عهدنا بهذه الأرض ماء، ثم حفر ميمون بن خالد الحضرمي بأعلاها بئرا تسمى بئر ميمون في عهد الجاهلية قبيل البعثة، وكانت بها بئر أخرى تسمى الجفر (بالجيم) لبني تيم بن مرة، وبئر تسمى الجم ذكرها ابن عطية وأهملها «القاموس» و «تاجه» ، ولعل هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبيء صلى الله عليه وسلم.

فماء هذه الآبار هو الماء الذي أنذروا بأنه يصبح غورا، وهذا الإنذار نظير الواقع في سورة القلم [١٧- ٣٣] إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إلى قوله: لو كانوا يعلمون.

والغور: مصدر غارت البئر، إذا نزح ماؤها فلم تنله الدلاء.

والمراد: ماء البئر كما في قوله: أو يصبح ماؤها غورا في ذكر جنة سورة الكهف". (١)

١٣٩٥. ٦٠٤-"ومن قوله: فاصبر لحكم ربك إلى قوله: من الصالحين [القلم: ٤٨- ٥٠] مدني، ومن قوله: وإن يكاد الذين كفروا [القلم: ٥١] إلى آخر السورة مكي.

وفي «الإتقان» عن السخاوي: أن المدني منها من قوله: إنا بلوناهم إلى لو كانوا يعلمون [القلم: ١٧- ٣٣] ومن قوله: فاصبر لحكم ربك إلى قوله: من الصالحين [القلم: ٤٨- ٥٠] فلم يجعل قوله: إن للمتقين عند ربهم إلى قوله: فهم يكتبون [القلم: ٣٤- ٤٧] مدنيا خلافا لما نسبه الماوردي إلى ابن عباس.

وهذه السورة عدها جابر بن زيد ثانية السور نزولا قال: نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك وبعدها سورة المزمل ثم سورة المدثر، والأصح حديث عائشة «أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر» .

وما في حديث جابر بن عبد الله «أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي» يحمل على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك جمعا بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي «تفسير القرطبي» : أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

واتفق العادون على عد آيها ثنتين وخمسين.

أغراضها

جاء في هذه السورة الإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: والقلم وما يسطرون [القلم: ١] .

وابتدئت بخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين.

وإبطال مطاعن المشركين في النبيء صلى الله عليه وسلم.

وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٥٥

وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان". (١)

١٣٩٦. ٦٠٥-"كما تقدم في قوله تعالى: والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا في سورة الزخرف [٢- ٣] ، وتنظيره بقول أبي تمام:

وثناياك إنها إغريض ... البيت ويسطرون: مضارع سطر، يقال: سطر من باب نصر، إذا كتب كلمات عدة تحصل منها صفوف من الكتابة، وأصله مشتق من السطر وهو القطع، لأن صفوف الكتابة تبدو كأنها قطع.

وضمير يسطرون راجع إلى غير مذكور في الكلام وهو معلوم للسامعين لأن ذكر القلم ينبيء بكتبة يكتبون به فكان لفظ القسم متعلقا بآلة الكتابة والكتابة، والمقصود:

المكتوب في إطلاق المصدر على المفعول، فهو بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن الساطرين غير معلومين، فكأنه قيل: والمسطور، نظير قوله تعالى: وكتاب مسطور في رق منشور [الطور: ٢- ٣] .

ومن فسر القلم بمعنى تعلق علم الله تعالى بما سيكون جعل ضمير يسطرون راجعا إلى الملائكة فيكون السطر رمزا لتنفيذ الملائكة ما أمر الله بتنفيذه حين تلقي ذلك، أي يكتبون ذلك للعمل به أو لإبلاغه من بعضهم إلى بعض على وجه لا يقبل الزيادة ولا

النقصان، فشبه ذلك الضبط بضبط الكاتب ما يريد إبلاغه بدون تغيير.

وأوثر القسم بالقلم والكتابة **للإيماء** إلى أن باعث الطاعنين على الرسول صلى الله عليه وسلم واللامزين له بالمجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب.

والمقسم عليه نفي أن يكون النبيء صلى الله عليه وسلم مجنونا والخطاب له بهذا تسلية له لئلا يحزنه قول المشركين لما دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبيء صلى الله عليه وسلم وحكاه الله عنهم في آخر السورة [القلم: ٥١] وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون. وهكذا كل ما ورد فيه نفي صفة الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال المشركين كقوله: وما صاحبكم بمجنون [التكوير: ٢٢] . وقد زل فيه صاحب «الكشاف» زلة لا تليق بعلمه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٥٨

والمقصود من نفي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفيه وهو أن يكون". (١)

١٣٩٧. ٦٠٦-"ساءهم منه تحقيرهم بصفات الذم وتحقير أصنامهم وآبائهم من جانب الكفر فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه وكان الحال صلحا بينهم ويترك كل فريقا وما عبده.

والطاعة: قبول ما يبتغى عمله، ووقوع فعل تطع في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعم كل إجابة لطلب منهم، فالطاعة مراد بها هنا المصالحة والملاينة كما في قوله تعالى: فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا [الفرقان: ٥٢] ، أي لا تلن لهم.

واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف لأنه بمنزلة الموصول في **الإيماء** إلى وجه بناء الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فإن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته.

ومن هنا يتضح أن جملة ودوا لو تدهن فيدهنون بيان لمتعلق الطاعة المنهي عنها ولذلك فصلت ولم تعطف.

وفعل تدهن مشتق من الإدهان وهو الملاينة والمصانعة، وحقيقة هذا الفعل أن يجعل لشيء دهنا إما لتليينه وإما لتلوينه، ومن هاذين المعنيين تفرعت معاني الإدهان كما أشار إليه الراغب، أي ودوا منك أن تدهن لهم فيدهنوا لك، أي لو تواجههم بحسن المعاملة فيواجهونك بمثلها.

والفاء في فيدهنون للعطف، والتسبب عن جملة لو تدهن جوابا لمعنى التمني المدلول عليه بفعل ودوا بل قصد بيان سبب ودادتهم ذلك، فلذلك لم ينصب الفعل بعد الفاء بإضمار (أن) لأن فاء المتسبب كافية في إفادة ذلك، فالكلام بتقدير مبتدإ محذوف تقديره: فهم يدهنون. وسلك هذا الأسلوب ليكون الاسم المقدر مقدما على الخبر الفعلي فيفيد معنى الاختصاص، أي فالإدهان منهم لا منك، أي فاترك الإدهان لهم ولا تتخلق أنت به، وهذه طريقة في الاستعمال إذا أريد بالترتبات أنه ليس تعليق جواب كقوله تعالى: فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا [الجن: ١٣] ، أي فهو لا يخاف بخسا ولا رهقا.

وحرف لو يحتمل أن يكون شرطيا ويكون فعل تدهن شرطا، وأن يكون جواب الشرط محذوفا

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/٢٩

ويكون التقدير: لو تدهن لحصل لهم ما يودون. ويحتمل أن". (١)

١٣٩٨. ٦٠٧-"وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب قال تعالى: أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون [السجدة: ١٨] ، وقال: لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة [الحشر: ٢٠] ، وقال: أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار [ص: ٢٨]
وقال السموأل أو الحارثي:
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول
وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظا في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدنيا بطريق فحوى الخطاب.
وقوله: أفنجعل المسلمين كالمجرمين كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود بالمجرمين، عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف المجرمين من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين.
فلذلك لم يكن ضمير الخطاب في قوله: ما لكم كيف تحكمون التفاتا عن ضمائر الغيبة من قوله: ودوا لو تدهن فيدهنون [القلم: ٩] وقوله إنا بلوناهم [القلم: ١٧] .
وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعا لتغير توجيه الكلام، لأن شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد.
وما لكم استفهام إنكاري لحالة حكمهم، ف ما لكم مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى: قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله في سورة البقرة [٢٤٦] .
وكيف تحكمون استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير لكم، أي انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم، أي فإن ثبت لهم كان منكرا باعتبار حالة حكمهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٢٩

والمعنى: لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم.". (١)

١٣٩٩. ٦٠٨-"فالتقمه

الحوت وهو مليم

وإما بمعنى العيب وهو كونه عاريا جائعا فيكون في معنى قوله:

فنبذناه بالعراء وهو سقيم [الصافات: ١٤٥] فإن السقم عيب أيضا.

وتنكير نعمة للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة.

وفرع على هذا النفي الإخبار بأن الله اجتباه وجعله من الصالحين.

والمراد ب الصالحين المفضلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين [الشعراء: ٨٣] وذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات، وقد تقدم في قوله: كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين في سورة التحريم [١٠]
.

قال ابن عباس: رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه.

[٥١- ٥٢]

[سورة القلم (٦٨) : الآيات ٥١ إلى ٥٢]

وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (٥١) وما هو إلا ذكر للعالمين (٥٢)

عطف على جملة فذرني ومن يكذب بهذا الحديث [القلم: ٤٤] ، عرف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبيء صلى الله عليه وسلم من الحقد والغيظ وإضمار الشر عند ما يسمعون القرآن.

والزلق: بفتحتين زلل الرجل من ملاسة الأرض من طين عليها أو دهن، وتقدم في قوله تعالى: فتصبح صعيدا زلقا في سورة الكهف [٤٠] .

ولما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالبا أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاض

---

(١) التحرير والتنوير ٩٢/٢٩

على وجه الكناية، ومنه قوله هنا ليزلقونك، أي يسقطونك ويصرعونك.

وعن مجاهد: أي ينفذونك بنظرهم. وقال القرطبي: يقال زلق السهم وزهق، إذا نفذ، ولم أراه لغيره، قال الراغب قال يونس: لم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القرآن اه.". (١)

١٤٠٠. ٦٠٩-"تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرق زجل

وقول جرير:

ونحن لكم يوم القيامة أفضل أي ونحن منكم أفضل.

ويجوز أن تكون اللام التي تنوى في الإضافة إذا لم تكن الإضافة على معنى (من) .

والأصل: فهل ترى باقيتهم، فلما قصد التنصيص على عموم النفي واقتضى ذلك جلب (من) الزائدة لزم تنكير مدخول (من) الزائدة فأعطي حق معنى الإضافة بإظهار اللام التي الشأن أن تنوى كما في قوله تعالى: بعثنا عليكم عبادا لنا [الإسراء: ٥] فإن أصله: عبادنا.

وموقع المجرور باللام في موقع النعت ل باقية قدم عليها فصار حالا.

[٩- ١٠]

[سورة الحاقة (٦٩) : الآيات ٩ إلى ١٠]

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة (٩) فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية (١٠)

عطف على جملة كذبت ثمود وعاد بالقارعة [الحاقة: ٤] .

وقد جمع في الذكر هنا عدة أمم تقدمت قبل بعثة موسى عليه السلام إجمالا وتصريحا، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكرا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم، فحصل في الكلام

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/٢٩

احتباك.

والمراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام وهو (منفطاح الثاني) .

وإنما أسند الخطء إليه لأن موسى أرسل إليه ليطلق بني إسرائيل من العبودية قال تعالى: اذهب إلى فرعون إنه طغى [النازعات: ١٧] فهو المؤاخذ بهذا العصيان وتبعه القبط امتثالا لأمره وكذبوا موسى وأعرضوا عن دعوته.". (١)

١٤٠١. ٦١٠-"وتقديم الجحيم على عامله لتعجيل المساءة مع الرعاية على الفاصلة وكذلك تقديم في سلسلة على عامله.

واقتران فعل فاسلكوه بالفاء إما لتأكيد الفاء التي اقترنت بفعل فغلوه، وإما للإيذان بأن الفعل منزل منزلة جزاء شرط محذوف، وهذا الحذف يشعر به تقديم المعمول غالبا كأنه قيل: مهما فعلتم به شيئا فاسلكوه في سلسلة، أو مهما يكن شيء فاسلكوه.

والمقصود تأكيد وقوع ذلك والحث على عدم التفريط في الفعل وأنه لا يرجى له تخفيف، ونظيره قوله تعالى: وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر [المدثر: ٣- ٥] ، وتقدم عند قوله تعالى: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا في سورة [يونس: ٥٨] .

والسلسلة: اسم لمجموع حلق من حديد داخل بعض تلك الحلق في بعض تجعل لوثاق شخص كي لا يزول من مكانه، وتقدم في قوله تعالى: إذ الأغلال في أعناقهم
والسلاسل
في سورة غافر [٧١] .

وجملة ذرعها سبعون ذراعا صفة سلسلة وهذه الصفة وقعت معترضة بين المجرور ومتعلقه للتهويل على المشركين المكذبين بالقارعة، وليست الجملة مما خوطب الملائكة الموكلون بسوق المجرمين إلى العذاب، ولذلك فعدد السبعين مستعمل في معنى الكثرة على طريقة الكناية مثل قوله تعالى: إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم [التوبة: ٨٠] .

والذرع: كيل طول الجسم بالذراع وهو مقدار من الطول مقدر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٠/٢٩

الشبر، والفتر، والرتب (بفتح الراء والتاء) ، والعتب، والبصم، والخطوة.
وجملة إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم.
ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.". (١)

١٤٠٢. ٦١١-"وعدل عن أن يقال: إنا خلقناهم من نطفة، كما قال في آيات أخرى إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج [الإنسان: ٢] وقال: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم [يس: ٧٧، ٧٨] وغيرها من آيات كثيرة، عدل عن ذلك إلى الموصول في قوله: مما يعلمون توجيها للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا، وعلم ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون، ومنه قوله تعالى: ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون [الواقعة: ٦٢] . وكان في قوله تعالى: مما يعلمون إيماء إلى أنهم يخلقون الخلق الثاني مما لا يعلمون كما قال في الآية الأخرى سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون [يس: ٣٦] وقال: وننشئكم في ما لا تعلمون
[الواقعة: ٦١] فكان في الخلق الأول سر لا يعلمونه.
ومجيء إنا خلقناهم موكدا بحرف التأكيد لتنزيلهم فيما صدر منهم من الشبهة الباطلة منزلة من لا يعلمون أنهم خلقوا من نطفة وكانوا معدومين، فكيف أحالوا إعادة خلقهم بعد أن عدم بعض أجزائهم وبقي بعضها ثم أتبع هذه الكناية عن إمكان إعادة الخلق بالتصريح بذلك بقوله: فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم مفرعا على قوله: إنا خلقناهم مما يعلمون والتقدير: فإنا لقادرون الآية.
وجملة (لا أقسم برب المشارق) إلخ معترضة بين الفاء وما عطفته.
والقسم بالله بعنوان ربوبيته المشارق والمغارب معناه: ربوبيته العالم كله لأن العالم منحصر في

---
(١) التحرير والتنوير ١٣٨/٢٩

جهات شروق الشمس وغروبها.

وجمع المشارق والمغارب باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته على عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات،

ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب، أقسم الله به على سنة أقسام القرآن.

وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسم بربها رعي لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياء بعد الموت.". (١)

١٤٠٣. ٦١٢-"و (حتى) متعلقة ب (ذرهم) لما فيه من معنى، أمهلهم وانتظرهم، فإن اليوم الذي وعدوه هو يوم النشور حين يجازون على استهزائهم وكفرهم، فلا يكون غاية ل يخوضوا ويلعبوا والغاية هنا كناية عن دوام تركهم.

وإضافة (يوم) إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.

وقرأ الجمهور يلاقوا بألف بعد اللام من الملاقاة. وقرأه أبو جعفر بدون ألف من اللقاء.

واللقاء: مجاز على كل تقدير: فعلى قراءة الجمهور هو مجاز من جهتين لأن اليوم لا يلقى ولا يلقى. وعلى قراءة أبي جعفر هو مجاز من جهة واحدة لأن اللقاء إنما يقع بين الذوات.

ويوم يخرجون من الأجداث بدل من يومهم ليس ظرفا.

والخروج: بروز أجسادهم من الأرض.

وقرأ الجمهور يخرجون بفتح التحتية على البناء للفاعل. وقرأه أبو بكر عن عاصم بضمها على البناء للمفعول.

والأجداث: جمع جدث بفتحتين وهو القبر، والقبر: حفير يجعل لموارة الميت.

وضمير يخرجون عائد إلى المشركين المخبر عنه بالأخبار السابقة. وجميعهم قد دفنوا في قبور أو وضعوا في قليب بدر.

والنصب بفتح فسكون: الصنم، ويقال: نصب بضمتين، ووجه تسميته نصبا أنه ينصب

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٩/٢٩

للعبادة، قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

ويوفضون مضارع أوفض، إذا أسرع وعدا في سيره، أي كأنهم ذاهبون إلى صنم، شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها لأن لهذا الإسراع اختصاصا بهم، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام **وإيماء** إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دع، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام.". (١)

١٤٠٤. ٦١٣-"الربط والتلازم بين هذا الشرط المقدر وبين جزائه بجملة إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، أي أن الوقت الذي عينه الله لحلول العذاب بكم إن لم تعبدوه ولم تطيعون إذا جاء إبانه باستمراركم على الشرك لا ينفعكم الإيمان ساعتئذ، كما قال تعالى: فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين [يونس: ٩٨] ، فيكون هذا حثا على التعجيل بعبادة الله وتقواه.

فالأجل الذي في قوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر غير الأجل الذي في قوله:

ويؤخركم إلى أجل مسمى ويناسب ذلك قوله عقبه لو كنتم تعلمون المقتضي أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة المتعلقة بآجال الأمم المعينة لاستئصالهم، وأما عدم تأخير آجال الأعمار عند حلولها فمعلوم للناس مشهور في كلام الأولين. وفي إضافة أجل إلى اسم الجلالة في قوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر **إيماء** إلى أنه ليس الأجل المعتاد بل هو أجل عينه الله للقوم إنذارا لهم ليؤمنوا بالله. ويحتمل أن تكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تحديد غاية تأخيرهم إلى أجل مسمى، أي دون تأخيرهم تأخيرا مستمرا فيسأل السامع في نفسه عن علة تنهية تأخيرهم بأجل آخر فيكون أجل الله غير الأجل الذي في

قوله: إلى أجل مسمى.

ويحتمل أن تكون الجملة تعليلا لكلا الأجلين: الأجل المفاد من قوله: من قبل أن يأتيهم عذاب أليم [نوح: ١] فإن لفظ قبل يؤذن بأن العذاب موقت بوقت غير بعيد فله أجل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٨٣

مبهم غير بعيد، والأجل المذكور بقوله: ويؤخركم إلى أجل مسمى فيكون أجل الله صادقا على الأجل المسمى وهو أجل كل نفس من القوم.
وإضافته إلى الله إضافة كشف، أي الأجل الذي عينه الله وقدره لكل أحد.
وبهذا تعلم أنه لا تعارض بين قوله: ويؤخركم إلى أجل مسمى وبين قوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر إما لاختلاف المراد بلفظي (الأجل) في قوله: إلى أجل مسمى وقوله: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، وإما لاختلاف معنيي المجيء ومعنيي التأخير في قوله: إذا جاء لا يؤخر فانفكت جهة التعارض.". (١)

١٤٠٥. ٦١٤-"وفي جعل القمر نورا **إيماء** إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام هو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة.
وقد اجتمع في قوله: وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا استدلال وامتنان.
[١٧- ١٨]

[سورة نوح (٧١) : الآيات ١٧ إلى ١٨]
والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨)
أنشأ الاستدلال بخلق السماوات حضور الأرض في الخيال فأعقب نوح به دليله السابق، استدلالا بأعجب ما يرونه من أحوال ما على الأرض وهو حال الموت والإقبار، ومهد لذلك ما يتقدمه من إنشاء الناس.
وأدمج في ذلك تعليمهم بأن الإنسان مخلوق من عناصر الأرض مثل النبات وإعلامهم بأن بعد الموت حياة أخرى.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/٢٩

وأطلق على معنى: أنشأكم، فعل أنبتكم للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين كما قال تعالى: وأنبتها نباتا حسنا [آل عمران: ٣٧] ، أي أنشأها وكما يقولون: زرعك الله للخير، ويزيد وجه الشبه هنا قربا من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض، وقيل التقدير: أنبت أصلكم، أي آدم عليه السلام، قال تعالى: كمثل آدم خلقه من تراب [آل عمران: ٥٩] .

ونباتا: اسم من أنبت، عومل معاملة المصدر فوقع مفعولا مطلقا ل أنبتكم للتوكيد، ولم يجر على قياس فعله فيقال: إنباتا، لأن نباتا أخف فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالا في الفصاحة، بخلاف قوله بعده إخراجا فإنه لم يعدل عنه إلى: خروجا، لعدم ملاءمته لألفاظ". (١)

١٤٠٦. ٦١٥-"[سورة نوح (٧١) : الآيات ٢١ إلى ٢٣]

قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١) ومكروا مكرا كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣)

هذه الجملة بدل من جملة قال رب إني دعوت قومي [نوح: ٥] بدل اشتمال لأن حكاية عصيان قومه إياه مما اشتملت عليه حكاية أنه دعاهم فيحتمل أن تكون المقالتان في وقت واحد جاء فيه نوح إلى مناجاة ربه بالجواب عن أمره له بقوله: أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم [نوح: ١] فتكون إعادة فعل قال من قبيل ذكر عامل المبدل منه في البدل كقوله تعالى: تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا [المائدة: ١١٤] ، للربط بين كلاميه لطول الفصل بينهما.

ويحتمل أن تكون المقالتان في وقتين جمعها القرآن حكاية لجوابيه لربه، فتكون إعادة فعل قال لما ذكرنا مع الإشارة إلى تباعد ما بين القولين.

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما سبقها من قوله: قال رب إني دعوت قومي إلى هنا مما يثير عجبا من حال قومه المحكي بحيث يتساءل السامع عن آخر أمرهم، فابتدئ ذكر ذلك بهذه الجملة وما بعدها إلى قوله: أنصارا [نوح: ٢٥] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٤/٢٩

وتأخير هذا بعد عن قوله قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا [نوح: ٥] ارتقاء في التذمر منهم لأن هذا حكاية حصول عصيانهم بعد تقديم الموعظة إليهم بقوله: يرسل السماء عليكم مدرارا إلى قوله: سبلا فجاجا [نوح: ١١- ٢٠] وإظهار اسم نوح مع القول الثاني دون إضمار لبعد معاد الضمير لو تحمله الفعل، وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه، كما تقدم في قوله: قال رب إلخ. وتأكيد الخبر ب (إن) للاهتمام بما استعمل فيه من التحسر والاستنصار.

ثم ذكر أنهم أخذوا بقول الذين يصدونهم عن قبول دعوة نوح، أي اتبعوا سادتهم وقادتهم. وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد، فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال.

وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في". (١)

١٤٠٧. ٦١٦-"وليس ذلك مما يدخل في أصول عقيدة الإسلام ولذلك لم نكفر منكري وجود موجودات معينة من هذا النوع إذ لم تثبت حقيقتها بأدلة قطعية، بخلاف حال من يقول: إن ذكر الجن لم يذكر في القرآن بعد علمه بآيات ذكره.

وأما ما يروى في الكتب من أخبار جزئية في ظهورهم للناس وإتيانهم بأعمال عجيبة فذلك من الروايات الخيالية.

وإنا لم نلق أحدا من أثبات العلماء الذين لقيناهم من يقول: إنه رأى أشكالهم أو آثارهم وما نجد تلك القصص إلا على ألسنة الذين يسرعون إلى التصديق بالأخبار أو تغلب عليهم التخيلات.

وإن كان فيهم من لا يتهم بالكذب ولكنه مما يضرب له مثل قول المعري:

ومثلك من تخيل ثم خالا فظهور الجن للنبيء صلى الله عليه وسلم تارات كما في حديث الجني الذي تفلت ليفسد عليه صلاته

هو من معجزاته مثل رؤيته الملائكة ورؤيته الجنة والنار في حائط القبلة وظهور الشيطان لأبي هريرة في حديث زكاة الفطر.

وقد مضى ذكر الجن عند قوله: وجعلوا لله شركاء الجن في سورة الأنعام [١٠٠] ، وقوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٦/٢٩

ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس في سورة الأعراف [١٧٩] .

والذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم أنه أوحي إليه بخبر الجن: هم جميع الناس الذين كان النبيء صلى الله عليه وسلم يبلغهم القرآن من المسلمين والمشركين أراد الله إبلاغهم هذا الخبر لما له من دلالة على شرف هذا الدين وشرف كتابه وشرف من جاء به، وفيه إدخال مسرة على المسلمين وتعريض بالمشركين إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن وفهموا مقاصده وهم لا يعرفون لغته ولا يدركون بلاغته فأقبلوا عليه، والذين جاءهم بلسانهم وأدركوا خصائص بلاغته أنكروه وأعرضوا عنه.

وفي الإخبار عن استماع الجن للقرآن بأنه أوحي إليه ذلك **إيماء** إلى أنه ما علم بذلك إلا بإخبار الله إياه بوقوع هذا الاستماع، فالآية تقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم بحضور الجن لاستماع القرآن قبل نزول هذه الآية.

وأما آية الأحقاف [٢٩] وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن". (١)

١٤٠٨. ٦١٧-"عن ذكرنا، أو عن ذكري، لاقتضاء الحال **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر فإن المعرض عن ربه الذي خلقه وأنشأه ودبره حقيق بأن يسلك عذابا صعدا.

والصعد: الشاق الغالب، وكأنه جاء من مصدر صعد، كفرح إذا علا وارتفع، أي صعد على مفعوله وغلبه، كما يقال: علاه بمعنى تمكن منه، وأن لا تعلوا على الله [الدخان: ١٩] .

وقرأ الجمهور نسلكه بنون العظمة ففيه التفات. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف يسلكه بياء الغائب فالضمير المستتر يعود إلى ربه.

[١٨]

[سورة الجن (٧٢) : آية ١٨]

وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨)

اتفق القراء العشرة على فتح الهمزة في وأن المساجد لله فهي معطوفة على مرفوع أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن [الجن: ١] ، ومضمونها مما أوحي به إلى النبيء صلى الله عليه وسلم

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/٢٩

وأمر بأن يقوله. والمعنى: قل أوحي إلي أن المساجد لله، فالمصدر المنسبك مع أن واسمها وخبرها نائب فاعل أوحي [الجن: ١] .

والتقدير: أوحي إلي اختصاص المساجد بالله، أي بعبادته لأن بناءها إنما كان ليعبد الله فيها، وهي معالم التوحيد.

وعلى هذا الوجه حمل سيبويه الآية وتبعه أبو علي في «الحجة» .

وذهب الخليل أن الكلام على حذف لام جر قبل أن، فالمجرور مقدم على متعلقه للاهتمام.

والتقدير: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا.

واللام في قوله لله للاستحقاق، أي الله مستحقها دون الأصنام والأوثان فمن وضع الأصنام في مساجد الله فقد اعتدى على الله.

والمقصود هنا هو المسجد الحرام لأن المشركين كانوا وضعوا فيه الأصنام والأنصاب وجعلوا الصنم (هبل) على سطح الكعبة، قال تعالى: ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها [البقرة: ١١٤] يعني بذلك المشركين من قريش.

وهذا توبيخ للمشركين على اعتدائهم على حق الله وتصرفهم فيما ليس لهم أن". (١)

١٤٠٩. ٦١٨-"يطلع لأن يظهر جاء من الظهور وهو المشاهدة ولتضمينه معنى: يطلع، عدي بحرف على.

ووقوع الفعل في حيز النفي يفيد العموم، وكذلك وقوع مفعوله وهو نكرة في حيزه يفيد العموم.

وحرف على مستعمل في التمكن من الاطلاع على الغيب وهو كقوله تعالى وأظهره الله عليه [التحريم: ٣] فهو استعلاء مجازي.

واستثني من هذا النفي من ارتضاه ليطلعه على بعض الغيب، أي على غيب أراد الله إظهاره من الوحي فإنه من غيب الله، وكذلك ما أراد الله أن يؤيد به رسوله صلى الله عليه وسلم من إخبار

بما سيحدث أو إطلاع على ضمائر بعض الناس.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٠/٢٩

فقوله: ارتضى مستثنى من عموم أحدا. والتقدير: إلا أحدا ارتضاه، أي اختاره للاطلاع على شيء من الغيب لحكمة أرادها الله تعالى.

والإتيان بالموصول والصلة في قوله: إلا من ارتضى من رسول لقصد ما تؤذن به الصلة من **الإيماء** إلى تعليل الخبر، أي يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيعلم من هذا الإيماء أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو أن يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى: غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين [الروم ٢- ٤] .

والمراد بهذا الإطلاع المحقق المفيد علما كعلم المشاهدة. فلا تشمل الآية ما قد يحصل لبعض الصالحين من شرح صدر بالرؤيا الصادقة،

ففي الحديث: «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوءة، أو بالإلهام»

. قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» رواه مسلم

. قال مسلم: قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون.

وقد قال مالك في الرؤيا الحسنة: إنها تسر ولا تغر، يريد لأنها قد يقع الخطأ في تأويلها.". (١)

١٤١٠. ٦١٩-"قيام الليل في أول هذه السورة فقام النبيء وأصحابه»

، على أنه لا خلاف في رفع فرض القيام عن المسلمين. وتقرر أنه مندوب فيه.

واختلف في استمرار وجوبه على النبيء صلى الله عليه وسلم ولا طائل وراء الاستدلال على ذلك أو عدمه.

وقوله: إلا قليلا استثناء من الليل أي إلا قليلا منه، فلم يتعلق إيجاب القيام عليه بأوقات

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٤٨

الليل كلها.

ونصفه بدل من قليلا بدلا مطابقا وهو تبيين لإجمال قليلا فجعل القليل هنا النصف أو أقل منه بقليل.

وفائدة هذا الإجمال **الإيماء** إلى أن الأولى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل وأن جعله نصف الليل رحمة ورخصة للنبيء صلى الله عليه وسلم، ويدل لذلك تعقيبه بقوله: أو انقص منه قليلا أي انقص من النصف قليلا، فيكون زمن قيام الليل أقل من نصفه، وهو حينئذ قليل فهو رخصة في الرخصة.

وقال أو زد عليه وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد أو زد عليه بمثل ما قيد به أو انقص منه لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبيء صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه وقيل له في ذلك: «إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا» . والتخيير المستفاد من حرف أو منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر لأن لذلك ارتباطا بسعة النهار للعمل ولأخذ الحظ الفائت من النوم.

وبعد فذلك توسيع على النبيء صلى الله عليه وسلم لرفع حرج تحديده لزمن القيام فسلك به مسلك التقريب.

وجعل ابن عطية الليل اسم جنس يصدق على جميع الليالي، وأن المعنى: إلا قليلا من الليالي، وهي الليالي التي يكون فيها عذر يمنعه من قيامها، أي هو استثناء من الليالي باعتبار جزئياتها لا باعتبار الأجزاء، ثم قال: نصفه إلى آخره.

وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقت النوم عادة فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله: ولأن الليل وقت سكون". (١)

١٤١١. ٦٢٠-"ووقع في قوله تعالى: أو زد عليه ورتل القرآن إذا (شبعت) فتحة نون القرآن محسن الاتزان بأن يكون مصراعا من بحر الكامل أحذ دخله الإضمار مرتين.

[٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٥٩

[سورة المزمل (٧٣) : آية ٥]

إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥)

تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضا بين جملة قم الليل [المزمل: ٢] وجملة إن ناشئة الليل هي أشد وطئا [المزمل: ٦] ، وهو جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبيء صلى الله عليه وسلم ليحمل شدة الوحي، وفي هذا **إيماء** إلى أن الله يسر عليه ذلك كما قال تعالى: إن علينا جمعه وقرآنه

[القيامة: ١٧] ، فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة قم الليل إلا قليلا [المزمل: ٢]

فهذا إشعار بأن نزول هذه الآية كان في أول عهد النبيء صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن فلما قال له: ورتل القرآن ترتيلا [المزمل: ٤] أعقب ببيان علة الأمر بترتيل القرآن.

والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه: إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة الملك.

وحقيقة الإلقاء: رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه، ويقال: شيء لقى، أي مطروح، استعير الإلقاء للإبلاغ دفعة على غير ترقب.

والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيرا على الرسول الأمي تنوء الطاقة عن تلقيه.

وأشعر قوله: إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لقوله قبله: إنا سنلقي عليك وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقيل صعب تلقيه ممن أنزل عليه.

قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده»

(أي تغير بمثل القشعريرة)

وقالت عائشة: «رأته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا»

. ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال

هديه ووفرة معانيه. قال الفراء: «ثقيلا ليس بالكلام السفساف» . وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به فكم غاصت فيه أفهام". (١)

١٤١٢. ٦٢١-"واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مثله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون [المؤمنون: ٤٧] وقد قال أهل مكة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا [الفرقان: ٢١] . وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل وهو زعيم المناوين للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤلبين عليه وأشد صناديد قريش كفرا.

وأكد الخبر ب (إن) لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولا.

ونكر رسولا لأنهم يعلمون المعني به في هذا الكلام، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإرسال.

وأدمج في التنظير والتهديد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه شاهدا عليهم.

والمراد بالشهادة هنا: الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس وبذلك يكون وصف شاهدا موافقا لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال، أي هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ.

وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربهم، وذلك قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا

كما ورد تفصيل تفسيرها في الحديث الصحيح، وقد تقدم في سورة البقرة [١٤٣] .

وتنكير رسولا المرسل إلى فرعون لأن الاعتبار بالإرسال لا بشخص المرسل إذ التشبيه تعلق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦١/٢٩

بالإرسال في قوله: كما أرسلنا إلى فرعون إذ تقديره كإرسالنا إلى فرعون رسولا.

وتفريع فعصى فرعون الرسول إيماء إلى أن ذلك هو الغرض من هذا الخبر وهو التهديد بأن يحل بالمخاطبين لما عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما حل بفرعون.". (١)

١٤١٣. ٦٢٢-"بالخبر مختلفا فإن بين قيام النبيء صلى الله عليه وسلم وقيام الطائفة التي معه تفاوتا في الحكم والمقدار، وكذلك براءة الله من المشركين وبراءة رسوله. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن

ويعاملهم، وأما الله فغاضب عليهم ولا عنهم. وهذا وجه العدول عن أن يقول: إن الله يعلم أنكم تقومون. إلى قوله: أنك تقوم ثم قوله: وطائفة إلخ.

ووصف طائفة بأنهم (من الذين معه) ، فإن كان المراد بالمعية المعية الحقيقية، أي المصاحبة في عمل مما سيق له الكلام. أي المصاحبين لك في قيام الليل، لم يكن في تفسيره تعيين لناس بأعيانهم،

ففي حديث عائشة في «صحيح البخاري» «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان»

. وإن كانت المعية معية مجازية وهي الانتساب والصحبة والموافقة فقد عددنا منهم:

عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي وأبا الدرداء، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت تويت الأسدية، فهؤلاء ورد ذكرهم مفرقا في أحاديث التهجد من «صحيح البخاري» .

واعلم أن صدر هذه الآية إيماء إلى الثناء على النبيء صلى الله عليه وسلم في وفائه بقيام الليل حق الوفاء وعلى الطائفة الذين تابعوه في ذلك.

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٧٣

فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم مراد به الكناية عن الرضى عنهم فيما فعلوا.
والمقصود: التمهيد لقوله: علم أن لن تحصوه إلى آخر الآية.
ولأجل هذا الاعتبار أعيد فعل علم في جملة علم أن سيكون منكم مرضى إلخ ولم يقل: وأن سيكون منكم مرضى بالعطف.
وجملة والله يقدر الليل والنهار معترضة بين جملتي إن ربك يعلم أنك تقوم وجملة علم أن لن تحصوه وقد علمت مناسبة اعتراضها آنفا.". (١)

١٤١٤. ٦٢٣-"لهم أن ما التزموه من التأسي بالنبيء صلى الله عليه وسلم في ذلك غير لازم لهم. وعلل عدم وجوبه عليهم بأن الأمة يكثر فيها أصحاب الأعذار التي يشق معها قيام الليل فلم يجعله الله واجبا عليهم أو رفع وجوبه. ولولا اعتبار المظنة العامة لأبقي حكم القيام ورخص لأصحاب العذر في مدة العذر فقط فتبين أن هذا تعليل الحكم الشرعي بالمظنة والحكم هنا عدمي، أي عدم الإيجاب فهو نظير قصر الصلاة في السفر على قول عائشة أم المؤمنين: «إن الصلاة فرضت ركعتين ثم زيد في ثلاث من الصلوات في الحضر وأبقيت صلاة السفر» ، وعلة بقاء الركعتين هو مظنة المشقة في السفر.
وأوجب الترخص في قيام الليل أنه لم يكن ركنا من أركان الإسلام فلم تكن المصلحة الدينية قوية فيه.
وأما حكم القيام فهو ما دل عليه قوله: قم الليل إلا قليلا [المزمل: ٢] وما دلت عليه أدلة التحريض عليه من السنة. وقد مضى ذلك كله. فهذه الآية صالحة لأن تكون أصلا للتعليل بالمظنة وصالحة لأن تكون أصلا تقاس عليه الرخص العامة التي تراعى فيها مشقة غالب الأمة مثل رخصة بيع السلم دون الأحوال الفردية والجزئية.
وقوله: وأقيموا الصلاة تذكير بأن الصلوات الواجبة هي التي تحرصون على إقامتها وعدم التفريط فيها كما قال تعالى: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا [النساء: ١٠٣] .
وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة **إيماء** إلى أن في الصلوات الخمس ما
يرفع التبعة عن المؤمنين وأن قيام الليل نافلة لهم وفيه خير كثير وقد تضافرت الآثار على هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/٢٩

ما هو في كتب السنة.

وعطف وآتوا الزكاة تتميم لأن الغالب أنه لم يخل ذكر الصلاة من قرن الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» .

وإقراض الله هو الصدقات غير الواجبة، شبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يقرضه الله لأن الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل فشابه حال معطي الصدقة مستجيبا رغبة الله فيه بحال من أقرض مستقرضا في أنه حقيق بأن يرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الذي يعطاه يوم الجزاء.". (١)

١٤١٥. ٦٢٤-"وبالأسحار هم يستغفرون [الذاريات: ١٨] ،

وقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا كل ليلة (١) إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» . وقال: «من تعار (٢) من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له»

. وجملة إن الله غفور رحيم تعليل للأمر بالاستغفار، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة. والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة. وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة.

---

(١) هذا من المتشابه، وتأويله: أنه ينزل رضاه على عباده.

(٢) التعارر: التقلب على الفراش ليلا بعد نوم حين ينتبه النائم فيبدل جنبا عوض جنب.".

(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٧/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٠/٢٩

١٤١٦.	٦٢٥-"والواو عطفت جملة ربك فكبر على جملة قم فأنذر [المدثر: ٢] .
ودخلت الفاء على (كبر) إيذانا بشرط محذوف يكون (كبر) جوابه، وهو شرط عام إذ لا دليل على شرط مخصوص وهيئ لتقدير الشرط بتقديم المفعول. لأن تقديم المعمول قد ينزل منزلة الشرط

كقول النبيء صلى الله عليه وسلم «ففيهما فجاهد»

(يعني الأبوين) .

فالتقدير: مهما يكن شيء فكبر ربك.

والمعنى: أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده في كل زمان وكل حال وهذا من الإيجاز.

وجوز ابن جني أن تكون الفاء زائدة قال: هو كقولك زيدا فاضرب، تريد: زيدا اضرب.

وتكبير الرب تعظيمه ففعل (كبر) يفيد معنى نسبة مفعوله إلى أصل مادة اشتقاقه وذلك من معاني صيغة فعل، أي أخبر عنه بخبر التعظيم، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظم بشيء كبير في نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.

فمعنى وربك فكبر: صف ربك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها.

ومعنى (كبر) : كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعليما. ويشمل هذا المعنى أن يقول: «الله أكبر» لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجل وأنزه من كل جليل، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير **إيماء** إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله: وثيابك فطهر [المدثر: ٤] فإنه **إيماء** إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة. ووقع في رواية معمر عن الزهري عند مسلم أن قال: وذلك قبل أن تفرض الصلاة. فالظاهر أن الله فرض عليه الصلاة عقب هذه السورة وهي غير الصلوات الخمس فقد ثبت أنه صلى

في المسجد الحرام.". (١)

١٤١٧. ٦٢٦-"لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي «إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم» .

ففي هذه الآية إيماء إلى التصدق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة.

والمن: تذكير المنعم المنعم عليه بإنعامه.

والاستكثار: عد الشيء كثيرا، أي لا تستعظم ما تعطيه.

وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة. وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعنى ولا تمنن تستكثر ليس شيء منها بمناسب، وقد أنهاها القرطبي إلى أحد عشر.

وتستكثر جملة في موضع الحال من ضمير تمنن وهي حال مقدرة.

[٧]

[سورة المدثر (٧٤) : آية ٧]

ولربك فاصبر (٧)

تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.

والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها.

ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمل للشيء الشاق.

ويعدى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف (على) ، يقال: صبر على الأذى.

ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام.

ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله. فيجوز أن تكون اللام في قوله لربك لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف، أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٩٦

سورة الطور [٤٨] وقوله: فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا في سورة الإنسان [٢٤] فيناسب نداءه ب يا أيها المدثر [المدثر: ١] لأنه تدثر من شدة وقع رؤية الملك، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب.". (١)

١٤١٨. ٦٢٧-"ويجوز أن تكون اللام للتعليل، وحذف متعلق فعل الصبر، أي اصبر لأجل ربك على كل ما يشق عليك.

وتقديم لربك على « (اصبر) للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجعل بعضهم اللام في لربك لام التعليل، أي اصبر على أذاهم لأجله، فيكون في معنى: إنه يصبر توكلا على أن الله يتولى جزاءهم، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق النبيء صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

والصبر تقدم عند قوله تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة في [البقرة: ٤٥] .

وفي التعبير عن الله بوصف (ربك) **إيماء** إلى أن هذا الصبر بر بالمولى وطاعة له.

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته وهي من جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.

[٨- ١٠]

[سورة المدثر (٧٤) : الآيات ٨ إلى ١٠]

فإذا نقر في الناقور (٨) فذلك يومئذ يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير (١٠)

الفاء لتسبب هذا الوعيد عن الأمر بالإنذار في قوله فأنذر [المدثر: ٢] ، أي فأنذر المنذرين وأنذرهم وقت النقر في الناقور وما يقع يومئذ بالذين أنذروا فأعرضوا عن التذكرة، إذ الفاء يجب أن تكون مرتبطة بالكلام الذي قبلها.

ويجوز أن يكون معطوفا على فاصبر [المدثر: ٧] بناء على أنه أمر بالصبر على أذى المشركين.

والناقور: البوق الذي ينادى به الجيش ويسمى الصور وهو قرن كبير، أو شبهه ينفخ فيه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٢٩٩

النافخ لنداء ناس يجتمعون إليه من جيش ونحوه، قال خفاف بن ندبة:

إذا ناقورهم يوما تبدى ... أجاب الناس من غرب وشرق

ووزنه فاعول وهو زنة لما يقع به الفعل من النقر وهو صوت اللسان مثل". (١)

١٤١٩. ٦٢٨-"أمر محمد وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فقال ابن إسحاق: فأنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله: ذرني ومن خلقت وحيدا الآيات.

وعن أبي نصر القشيري أنه قال: قيل بلغ النبيء صلى الله عليه وسلم قول كفار مكة: أنت ساحر فوجد من ذلك غما وحم فتدثر بثيابه فقال الله تعالى: قم فأنذر

[المدثر: ٢] .

وأياما كان فقد وقع الاتفاق على أن هذا القول صدر عن الوليد بن المغيرة وأنه المعني بقوله تعالى: ومن خلقت وحيدا فإن كان قول الوليد صدر منه بعد نزول صدر هذه السورة فجملة ذرني ومن خلقت وحيدا مستأنفة استئنافا ابتدائيا والمناسبة ظاهرة، وإن كان قول الوليد هو سبب نزول السورة، كان متصلا بقوله: ولربك فاصبر [المدثر: ٧] على أنه تعليل للأمر بالصبر بأن الله يتولى جزاء هذا القائل، وما بينهما اعتراض، ويؤيد هذا أن ابتداء الوحي كان في رمضان وأن فترة الوحي دامت أربعين يوما على الأصح سواء نزل وحي بين بدء الوحي وفترته مدة أيام، أو لم ينزل بعد بدئه شيء ووقعت فترته، فيكون قد أشرف شهر ذي القعدة على الانصرام فتلك مدة اقتراب الموسم فأخذ المشركون في الاستعداد لما يقولونه للوفود إذا استخبروهم خبر النبيء صلى الله عليه وسلم.

وتصدير الجملة بفعل ذرني إيماء إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مهتما ومغتما مما اختلقه الوليد بن المغيرة، فاتصاله بقوله: ولربك فاصبر يزداد وضوحا.

وتقدم ما في نحو ذرني وكذا، من التهديد والوعيد للمذكور بعد واو المعية، في تفسير قوله تعالى: فذرني ومن يكذب بهذا الحديث في سورة القلم [٤٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٠

وجيء بالموصول وصلته في قوله: ومن خلقت وحيدا لإدماج تسجيل كفران الوليد النعمة في الوعيد والتهديد.

وانتصب وحيدا على الحال من من الموصولة.

والوحيد: المنفرد عن غيره في مكان أو حال مما يدل عليه سياق الكلام، أو شهرة أو قصة، وهو فعيل من وحد من باب كرم وعلم، إذا انفرد.". (١)

١٤٢٠. ٦٢٩-"وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته وهي كثرة الولد وسعة المال، ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش في أمورهم لأنه كان أسن من أبي جهل وأبي سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به. وجاء هذا الوصف بعد فعل خلقت، ليصرف هذا الوصف عما كان مرادا به فينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل خلقت أي أوجدته وحيدا عن المال والبنين والبسطة، فيغير عن غرض المدح

والثناء الذي كانوا يخصونه به، إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كل مخلوق فتكون من قبيل قوله: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا [النحل: ٧٨] الآية.

وعطف على ذلك وجعلت له مالا عطف الخاص على العام.

والممدود: اسم مفعول من مد الذي بمعنى: أطال، بأن شبهت كثرة المال بسعة مساحة الجسم، أو من مد الذي بمعنى: زاد في الشيء من مثله، كما يقال: مد الوادي النهر، أي مالا مزيدا في مقداره ما يكتسبه صاحبه من المكاسب. وكان الوليد من أوسع قريش ثراء.

وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان وكانت غلة ماله ألف دينار (أي في السنة) .

وامتن الله عليه بنعمة البنين ووصفهم بشهود جمع شاهد، أي حاضر، أي لا يفارقونه فهو مستأنس بهم لا يشتغل باله بمغيبهم وخوف معاطب السفر عليهم فكانوا بغنى عن طلب الرزق بتجارة أو غارة، وكانوا يشهدون معه المحافل فكانوا فخرا له، قيل: كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر ابنا، والمذكور منهم سبعة، وهم: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٣/٢٩

والعاصي، وقيس أو أبو قيس، وعبد شمس (وبه يكنى) . ولم يذكر ابن حزم في «جمهرة الأنساب» : العاصي. واقتصر على ستة.

والتمهيد: مصدر مهد بتشديد الهاء الدال على قوة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما يقض جنب المضطجع عليها، ومهد الصبي تسمية بالمصدر.

والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر.". (١)

١٤٢١. ٦٣٠-"واليقين: اسم مصدر يقن كفرح، إذا علم علما لا شك معه ولا تردد.

وإتيانه مستعار لحصوله بعد إن لم يكن حاصلا، شبه الحصول بعد الانتفاء بالمجيء بعد المغيب.

والمعنى: حتى حصل لنا العلم بأن ما كنا نكذب به ثابت، فقوله: حتى أتانا اليقين على هذا الوجه غاية لجملة نكذب بيوم الدين.

ويطلق اليقين أيضا على الموت لأنه معلوم حصوله لكل حي فيجوز أن يكون مرادا هنا كما في قوله تعالى: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين [الحجر: ٩٩] . فتكون جملة حتى أتانا اليقين غاية للجمل الأربع التي قبلها من قوله: لم نك من المصلين إلى بيوم الدين.

والمعنى: كنا نفعل ذلك مدة حياتنا كلها.

وفي الأفعال المضارعة في قوله: لم نك، ونخوض، ونكذب إيذان بأن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم.

وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته، وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها.

وقد حرم الله هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعة المؤمنين على أقدارهم.

وفي قوله: فما تنفعهم شفاعة الشافعين **إيماء** إلى ثبوت الشفاعة لغيرهم يوم القيامة على

(١) التحرير والتنوير ٣٠٤/٢٩

الجملة وتفصيلها في صحاح الأخبار.

وفاء فما تنفعهم شفاعة الشافعين تفريع على قوله: كل نفس بما كسبت رهينة، أي فهم دائمون في الارتهان في سقر.". (١)

١٤٢٢. ٦٣١-"والوزر: المكان الذي يلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون.

فيجوز أن يكون كلا لا وزر كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى جوابا لمقالة الإنسان، أي لا وزر لك، فينبغي الوقف على المفر. ويجوز أن يكون من تمام مقالة

الإنسان، أي يقول: أين المفر؟ ويجيب نفسه بإبطال طعمه فيقول كلا لا وزر أي لا وزر لي، وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلا النار كما ورد في الحديث، فيحسن أن يوصل أين المفر بجملة كلا لا وزر.

وأما قوله: إلى ربك يومئذ المستقر

فهو كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبيء صلى الله عليه وسلم في الدنيا بقرينة قوله: يومئذ

، فهو اعتراض وإدماج للتذكير بملك ذلك اليوم.

وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته.

والمستقر

: مصدر ميمي من استقر، إذا قر في المكان ولم ينتقل، والسين والتاء للمبالغة في الوصف.

وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي إلى ربك لا إلى ملجأ آخر. والمعنى: لا ملجأ يومئذ للإنسان إلا منتهيا إلى ربك، وهذا كقوله تعالى: وإلى الله المصير [آل عمران: ٢٨] .

وجملة ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر

مستأنفة استئنافا بيانيا أثاره قوله: إلى ربك يومئذ المستقر

، أو بدل اشتمال من مضمون تلك الجملة، أي إلى الله مصيرهم وفي مصيرهم ينبأون بما

(١) التحرير والتنوير ٣٢٨/٢٩

قدموا وما أخروا.

وينبغي أن يكون المراد ب الإنسان

الكافر جريا على سياق الآيات السابقة لأنه المقصود بالكلام وإن كان كل إنسان ينبأ يومئذ بما قدم وأخر من أهل الخير ومن أهل الشر قال تعالى: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء الآية [آل عمران: ٣٠] . واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد، فإن في القرآن فنونا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة. وهذا مما يغفل عن مراعاته بعض المفسرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة.". (١)

١٤٢٣. ٦٣٢-"وتقدم في قوله تعالى: يوم يكشف عن ساق في سورة القلم [٤٢] .

فمعنى والتفت الساق بالساق طرأت مصيبة على مصيبة.

والخطاب في قوله: إلى ربك التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله: بل تحبون العاجلة [القيامة: ٢٠] لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

والتعريف في المساق تعريف الجنس الذي يعم الناس كلهم بما فيهم الإنسان الكافر المردود عليه. ولك أن تعبر عن اللام بأنها عوض عن المضاف إليه، أي مساق

الإنسان الذي يسأل: أيان يوم القيامة [القيامة: ٦] .

والمساق: مصدر ميمي ل (ساق) ، وهو تسيير ماش أمام مسيره إلى حيث يريد مسيره، وضده القود، وهو هنا مجاز مستعمل في معنى الإحضار والإيصال إلى حيث يلقى جزاء ربه.

وسلك في الجمل التي بعد إذا مسلك الإطناب لتهويل حالة الاحتضار على الكافر وفي ذلك إيماء إلى أن الكافر يتراءى له مصيره في حالة احتضاره وقد دل عليه

حديث عبادة بن الصامت في «الصحيح» عن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت.

قال: ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٩

إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه» .

[٣١- ٣٥]

[سورة القيامة (٧٥) : الآيات ٣١ إلى ٣٥]

فلا صدق ولا صلى (٣١) ولكن كذب وتولى (٣٢) ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥)

تفريع على قوله: يسئل أيان يوم القيامة [القيامة: ٦] .

فالضمير عائد إلى الإنسان في قوله: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [القيامة: ٣] أي لجهله البعث لم يستعد له.". (١)

١٤٢٤. ٦٣٣-"إهمال أحد شيئا وعدم عنايته بأحواله ويتعهده، وهو هنا مستعمل في المعنى المجازي.

والمراد بما يترك عليه الإنسان هنا ما يدل عليه السياق، أي حال العدم دون إحياء مما دل عليه قوله تعالى: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [القيامة: ٣] وقوله: ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر

[القيامة: ١٣] .

وعدل عن بناء فعل يترك للفاعل فبني للنائب إيجازا لأجل العلم بالفاعل من قوله السابق: ألن نجمع عظامه فكأنه قال: أيحسب الإنسان أن نتركه دون بعث وأن نهمل أعماله سدى.

فجاء ذكر سدى هنا على طريقة الإدماج فيما سيق له الكلام، **إيماء** إلى أن مقتضى حكمة خلق الإنسان أن لا يتركه خالقه بعد الموت فلا يحييه ليجازيه على ما عمله في حياته الأولى.

وفي إعادة أيحسب الإنسان تهيئة لما سيعقب من دليل إمكان البعث من جانب المادة بقوله: ألم يك نطفة [القيامة: ٣٧] إلى آخر السورة.

فقوله: أيحسب الإنسان أن يترك سدى تكرير وتعداد للإنكار على الكافرين تكذيبهم

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٦٠

بالعبث، ألا ترى أنه وقع بعد وصف يوم القيامة وما فيه من الحساب على ما قدم الإنسان وأخر.

ومعنى هذا مثل قوله تعالى: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون [المؤمنون: ١١٥] .

وسدى بضم السين وبالقصر: اسم بمعنى المهمل ويقال: سدى بفتح السين والضم أكثر وهو اسم يستوي فيه المفرد والجمع يقال: إبل سدى، وجمل سدى ويشتق منه فعل فيقال: أسدى إبله وأسديت إبلي، وألفه منقلبة عن الواو.

ولم يفسر صاحب «الكشاف» هذه الكلمة وكذلك الراغب في المفردات ووقع سدى في موضع الحال من ضمير يترك.

فإن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأبدع تركيبه ووهبه القوى العقلية التي لم يعطها غيره من أنواع الحيوان ليستعملها في منافع لا تنحصر أو في ضد". (١)

١٤٢٥. ٦٣٤-"أغراضها

التذكير بأن كل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرا لخالقه ومحذر من الإشراك به.

وإثبات الجزاء على الحالين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن

الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.

وتثبيت النبيء صلى الله عليه وسلم على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه له وبالإقبال على عبادته.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٥/٢٩

والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.

[١]

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١)

استفهام تقريري والاستفهام من أقسام الخطاب وهو هنا موجه إلى غير معين ومستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك **إيماء** إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالواحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين.

وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.

فجملة هل أتى على الإنسان تمهيد وتوطئة للجملة التي بعدها وهي إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج [الإنسان: ٢] إلخ.". (١)

١٤٢٦. ٦٣٥-"[سورة الإنسان (٧٦) : الآيات ٢٣ إلى ٢٤]

إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤)

من هنا يبتدىء ما لا خلاف في أنه مكي من هذه السورة.

وعلى كلا القولين فهذا استئناف ابتدائي، ويجيء على قول الجمهور أن السورة كلها مكية وهو الأرجح، أنه استئناف للانتقال من الاستدلال على ثبوت البعث بالحجة والترهيب والوعيد للكافرين به والترغيب والوعد للمؤمنين به بمرهبات ومرغبات هي من الأحوال التي تكون بعد البعث، فلما استوفى ذلك ثني عنان الكلام إلى تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والربط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغم على تصلب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أنزل عليه مما شأنه أن يوهن العزيمة البشرية، فذكره الله بأنه نزل عليه الكتاب لئلا يعبأ بتكذيبهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٧١

وفي إيراد هذا بعد طول الكلام في أحوال الآخرة، قضاء لحق الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا فابتدئ بحال أشرف الناس وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بحال الذين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين من يحبون العاجلة [الإنسان: ٢٧] ومن اتخذ إلى ربه سبيلا [الإنسان:
٢٩] فأدخلهم في رحمته.
وتأكيد الخبر ب (إن) للاهتمام به.
وتأكيد الضمير المتصل بضمير منفصل في قوله: إنا نحن لتقرير مدلول الضمير تأكيدا لفظيا للتنبيه على عظمة ذلك الضمير ليفضي به إلى زيادة الاهتمام بالخبر إذ يتقرر أنه فعل من ذلك الضميران له لأنه لا يفعل إلا فعلا منوطا بحكمة وأقصى الصواب.
وهذا من الكناية الرمزية، وبعد فالخبر بمجموعه مستعمل في لازم معناه وهو التثبيت والتأييد فمجموعه كناية ومزية.
وإيثار فعل نزلنا الدال على تنزيله منجما آيات وسورا تنزيلا مفرقا إدماج للإيماء إلى أن ذلك كان من حكمة الله تعالى التي أومأ إليها تأكيد الخبر ب (إن) وتأكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل، فاجتمع فيه تأكيد على تأكيد وذلك". (١)

١٤٢٧. ٦٣٦-"والمعنى: أحكمنا ربط أجزاء أجسامهم فكانت مشدودا بعضها إلى بعض.
وقوله: وإذا شئنا بدلنا أمثالهم إخبار بأن الله قادر على أن يبدلهم بناس آخرين.
فحذف مفعول شئنا لدلالة وجواب إذا عليه كما هو الشأن في فعل المشيئة غالبا.
واجتلاب إذا في هذا التعليق لأن شأن إذا أن تفيد اليقين بوقوع ما قيد بها بخلاف حرف (إن) فهو إيماء إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع.
فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله: نحن خلقناهم إلخ، ويحمل الشرط على التحقق قال تعالى: وإن الدين لواقع [الذاريات: ٦] .
ويجوز أن يكون قوله: وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تهديدا لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث،

---
(١) التحرير والتنوير ٢٩/٤٠٢

أي لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقا آخر مثلهم كقوله تعالى: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد [إبراهيم: ١٩] .

ويكون إذا مرادا به تحقق التلازم بين شرط إذا وجوابها، أي الجملة المضاف إليها، والجملة المتعلق بها.

وفعل التبديل يقتضي مبدلا ومبدلا به وأيهما اعتبرته في موضع الآخر صح لأن كل مبدل بشيء هو أيضا مبدل به ذلك الشيء، ولا سيما إذا لم يكن في المقام غرض ببيان المرغوب في اقتنائه والمسموح ببذله من الشيئين المستبدلين، فحذف من الكلام هنا متعلق بدلنا وهو المجرور بالباء لأنه أولى بالحذف، وأبقي المفعول.

وقد تقدم نظيره في سورة الواقعة [٦١] في قوله: على أن نبدل أمثالكم

، ومنه قوله تعالى: إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم في سورة المعارج [٤٠، ٤١] فالتقدير: بدلنا منهم.

والأمثال: جمع مثل وهو المماثل في ذات أو صفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم وهو التبديل الذي سيكون في المعاد.". (١)

١٤٢٨. ٦٣٧-"[سورة المرسلات (٧٧) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

ثم نتبعهم الآخرين (١٧) كذلك نفعل بالمجرمين (١٨)

حرف (ثم) للتراخي الرتبي لأن التهديد أهم من الإخبار عن أهل المحشر، لأنه الغرض من سوق هذا كله، ولأن إهلاك الآخرين أشد من إهلاك الأولين لأنه مسبوق بإهلاك آخر.

ووقعت جملة كذلك نفعل بالمجرمين موقع البيان لجملة ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين [المرسلات: ١٦، ١٧] ، وهو كالتذييل يبين سبب وقوع إهلاك الأولين وأنه سبب لإيقاع الإهلاك بكل مجرم، أي تلك سنة الله في معاملة المجرمين فلا محيص لكم عنها.

وذكر وصف المجرمين **إيماء** إلى أن سبب عقابهم بالإهلاك هو إجرامهم.

والإشارة في قوله: كذلك إلى الفعل المأخوذ من نفعل، أي مثل ذلك الفعل نفعل.

و (المجرمون) من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن قال تعالى: إن الذين أجرموا كانوا من

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٤١٠

الذين آمنوا يضحكون [المطففين: ٢٩] وسيأتي في هذه السورة كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون [المرسلات: ٤٦] .
[١٩]

[سورة المرسلات (٧٧) : آية ١٩]
ويل يومئذ للمكذبين (١٩)
تقرير لنظيره المتقدم تأكيدا للتهديد وإعادة لمعناه.
التهديد: من مقامات التكرير كقول الحارث بن عياد:
قربا مربط النعامة مني الذي كرره مرارا متوالية في قصيدته اللامية التي أثارت حرب البسوس.".
(١)

١٤٢٩. ٦٣٨-"واسم الإشارة مبتدأ والرسل خبر، وليس الرسل بدلا لأن الإخبار عن الجماعة بأنها الرسل أوقع في استحضار الجماعة العجيب شأنهم الباهر خبرهم، وجملة «فضلنا» حال.
والمقصود من هذه الآية تمجيد سمعة الرسل عليهم السلام، وتعليم المسلمين أن هاته الفئة الطيبة مع عظيم شأنها قد فضل الله بعضها على بعض، وأسباب التفضيل لا يعلمها إلا الله تعالى، غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدى البشر، وفي عموم ذلك الهدى ودوامه، وإذا
كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس»
، فما بالك بمن هدى الله بهم أمما في أزمان متعاقبة، ومن أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل. ويتضمن الكلام ثناء عليهم وتسلية للرسول عليه السلام فيما لقي من قومه.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٩/٢٩

وقد خص الله من جملة الرسل بعضا بصفات يتعين بها المقصود منهم، أو بذكر اسمه، فذكر ثلاثة إذ قال: منهم من كلم الله، وهذا موسى عليه السلام لاشتهاره بهذه الخصلة العظيمة في القرآن، وذكر عيسى عليه السلام، ووسط بينهما **الإيماء** إلى محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه، بقوله: ورفع بعضهم درجات.

وقوله: ورفع بعضهم درجات يتعين أن يكون المراد من البعض هنا واحدا من الرسل معينا لا طائفة، وتكون الدرجات مراتب من الفضيلة ثابتة لذلك الواحد: لأنه لو كان المراد من البعض جماعة من الرسل مجملا، ومن الدرجات درجات بينهم لصار الكلام تكرارا مع قوله فضلنا بعضهم على بعض، ولأنه لو أريد بعض فضل على بعض لقال، ورفع بعضهم فوق بعض درجات كما قال في الآية الأخرى: ورفع بعضكم فوق بعض درجات [الأنعام: ١٦٥]

.

وعليه فالعدول من التصريح بالاسم أو بالوصف المشهور به لقصد دفع الاحتشام عن المبلغ الذي هو المقصود من هذا الوصف وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والعرب تعبر بالبعض عن

النفس كما في قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها". (١)

١٤٣٠. ٦٣٩-"والمراد بالبينات على هذا الاحتمال أدلة الشريعة الواضحة التي تفرق بين متبع الشريعة ومعاندها والتي لا تقبل خطأ الفهم والتأويل لو لم يكن دأبهم المكابرة ودحض الدين لأجل عرض الدنيا، والمعنى أن الله شاء اقتتالهم فاقتتلوا، وشاء اختلافهم فاختلفوا، والمشيئة هنا مشيئة تكوين وتقدير لا مشيئة الرضا لأن الكلام مسوق مساق التمني للجواب والتحسير على امتناعه وانتفائه المفاد بلو كقول طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

وقوله: ولكن اختلفوا استدراك على ما تضمنه جواب لو شاء الله: وهو ما اقتتل، لكن ذكر في الاستدراك لازم الضد لجواب لو وهو الاختلاف لأنهم لما اختلفوا اقتتلوا ولو لم يختلفوا لما

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٣

اقتتلوا. وإنما جيء بلازم الضد في الاستدراك للإيماء إلى سبب الاقتتال ليظهر أن معنى نفي مشيئة الله تركهم الاقتتال، هو أنه خلق داعية الاختلاف فيهم، فبتلك الداعية اختلفوا، فجرهم الخلاف إلى أقصاه وهو الخلاف في العقيدة، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فاقتتلوا لأن لزوم الاقتتال لهذه الحالة أمر عرفي شائع، فإن كان المراد اختلاف أمة الرسول الواحد فالإيمان والكفر في الآية عبارة عن خطأ أهل الدين فيه

إلى الحد الذي يفضي ببعضهم إلى الكفر به، وإن كان المراد اختلاف أمم الرسل كل للأخرى كما في قوله: وقالت اليهود ليست النصارى على شيء [البقرة: ١١٣] ، فالإيمان والكفر في الآية ظاهر، أي فمنهم من آمن بالرسول الخاتم فاتبعه ومنهم من كفر به فعاداه، فاقتتل الفريقان.

وأياما كان المراد من الوجهين فإن قوله: فمنهم من آمن ومنهم من كفر ينادي على أن الاختلاف الذي لا يبلغ بالمختلفين إلى كفر بعضهم بما آمن به الآخر لا يبلغ بالمختلفين إلى التقاتل، لأن فيما أقام الله لهم من بينات الشرع ما فيه كفاية الفصل بين المختلفين في اختلافهم إذا لم تغلب عليهم المكابرة والهوى أو لم يعمهم سوء الفهم وقلة الهدى.

لا جرم أن الله تعالى جعل في خلقة العقول اختلاف الميول والأفهام، وجعل في تفاوت الذكاء وأصالة الرأي أسبابا لاختلاف قواعد العلوم والمذاهب، فأسباب الاختلاف إذن مركوزة في الطباع، ولهذا قال تعالى: ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم". (١)

١٤٣١.   ٦٤٠-"وقال الشيخ ابن عاشور جدي في تعليق له على حديث فضل إخفاء الصدقة من «صحيح مسلم» : «عطف إيتاء الفقراء على الإخفاء المجعول شرطا للخيرية في الآية- مع العلم بأن الصدقة للفقراء- يؤذن بأن الخيرية لإخفاء حال الفقير وعدم إظهار اليد العليا عليه» ، أي فهو إيماء إلى العلة وأنها الإبقاء على ماء وجه الفقير، وهو القول الفصل لانتفاء شائبة الرياء.

وقوله: ويكفر عنكم من سيئاتكم قرأه نافع والكسائي وأبو بكر وأبو جعفر وخلف بنون

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٣

العظمة، وبجزم الراء عطفاء على موضع جملة الجواب وهي جملة فهو خير لكم، فيكون التكفير معلقا على الإخفاء. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بالنون أيضا وبرفع الراء على أنه وعد على إعطاء الصدقات ظاهرة أو خفية وقرأه ابن عامر وحفص بالتحتية- على أن ضميره عائد إلى الله- وبالرفع.

[٢٧٢]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٢]

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢)

استئناف معترض به بين قوله إن تبدوا الصدقات [البقرة: ٢٧١] وبين قوله: وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، ومناسبته هنا أن الآيات المتقدمة يلوح من خلالها أصناف من الناس: منهم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومنهم

الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، ومنهم الذين يتيممون الخبيث منه ينفقون، ومنهم من يعدهم الشيطان الفقر ويأمرهم بالفحشاء. وكان وجود هذه الفرق مما يثقل على النبيء صلى الله عليه وسلم، فعقب الله ذلك بتسكين نفس رسوله والتهوين عليه بأن ليس عليه هداهم ولكن عليه البلاغ. فالهدى هنا بمعنى الإلجاء لحصول الهدى في قلوبهم، وأما الهدى بمعنى التبليغ والإرشاد فهو على النبيء، ونظائر هذا في القرآن كثيرة. فالضمير راجع إلى جميع من بقي فيهم شيء من عدم الهدى وأشدهم المشركون والمنافقون، وقيل الضمير راجع إلى ناس معروفين، روي أنه كان لأسماء ابنة أبي بكر أم كافرة وجد كافر فأرادت أسماء- عام عمرة القضية- أن تواسيهما بمال، وأنه أراد بعض الأنصار الصدقة على قرابتهم وأصهارهم في بني النضير وقريظة، فنهى". (١)

١٤٣٢. ٦٤١-"يسألون، وتعين أن قوله:

لا يسئلون الناس إلحافا تعريض بالملحفين في السؤال، أي زيادة فائدة في عدم السؤال.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٣

وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم.

أعيد التحريض على الإنفاق فذكر مرة رابعة، وقوله: فإن الله به عليم كناية عن الجزاء عليه لأن العلم يكنى به عن أثره كثيرا، فلما كان الإنفاق مرغبا فيه من الله، وكان علم الله بذلك معروفا للمسلمين، تعين أن يكون الإخبار بأنه عليم به أنه عليم بامتثال المنفق، أي فهو لا يضيع أجره إذ لا يمنعه منه مانع بعد كونه عليما به، لأنه قدير عليه.

وقد حصل بمجموع هذه المرات الأربع من التحريض ما أفاد شدة فضل الإنفاق بأنه نفع للمنفق، وصلة بينه وبين ربه، ونوال الجزاء من الله، وأنه ثابت له في علم الله.

[٢٧٤]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٤]

الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٧٤)

جملة مستأنفة تفيد تعميم أحوال فضائل الإنفاق بعد أن خصص الكلام بالإنفاق للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، فاسم الموصول مبتدأ، وجملة فلهم أجرهم خبر المبتدأ.

وأدخل الفاء في خبر الموصول للتنبيه على تسبب استحقاق الأجر على الإنفاق لأن المبتدأ لما كان مشتملا على صلة مقصود منها التعميم، والتعليل، **والإيماء** إلى علة بناء الخبر على المبتدأ- وهي ينفقون- صح إدخال الفاء في خبره كما تدخل في جواب الشرط لأن أصل الفاء الدلالة على التسبب وما أدخلت في جواب الشرط إلا لذلك.

والسر: الخفاء. والعلانية: الجهر والظهور. وذكر عند ربهم لتعظيم شأن الأجر.". (١)

١٤٣٣. ٦٤٢-"عنهم أنهم قالوا: «ليس علينا في الأميين سبيل» . وهذه نصوص التوراة في مواضع كثيرة تنهى عن أشياء أو تأمر بأشياء وتخصها ببني إسرائيل، وتسوغ مخالفة ذلك مع الغريب، ولم نر في دين من الأديان التصريح بالتسوية في الحقوق سوى دين الإسلام، فكيف نعتد بشهادة هؤلاء الذين يرون المسلمين مارقين عن دين الحق مناوئين لهم، ويرمون بذلك

---

(١) التحرير والتنوير ٧٧/٣

نبيئهم فمن دونه، فماذا يرجى من هؤلاء أن يقولوا الحق لهم أو عليهم والنصرانية تابعة لأحكام التوراة. على أن تجافي أهل الأديان أمر كان كالجبلي فهذا الإسلام مع أمره المسلمين بالعدل مع أهل الذمة لا نرى منهم امتثالا فيما يأمرهم به في شأنهم.

وفي القرآن إيماء إلى هذه العلة «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل» .

وفي «البخاري» ، في حديث أبي قلابة في مجلس عمر بن عبد العزيز. وما روي عن سهل بن أبي حثمة الأنصاري: أن نفرا من قومه ذهبوا إلى خيبر فتفرقوا بها، فوجدوا أحدهم قتيلا، فقالوا للذين وجد فيهم القتيل أنتم قتلتم صاحبنا، قالوا ما قتلنا، فانطلقوا إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فشكوا إليه، فقال لهم: «تأتون بالبينة على من قتله» ، قالوا: «ما لنا بينة» ، قال: «فتحلف لكم يهود خمسين يمينا» ، قالوا: «ما يبالون أن يقتلونا أجمعين ثم يحلفون» ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبطل دمه ووداه من مال الصدقة. فقد أقر النبيء صلى الله عليه وسلم قول الأنصار في اليهود: إنهم ما يبالون أن يقتلوا كل القوم ثم يحلفون.

فإن قلت: كيف اعتدت الشريعة بيمين المدعى عليه من الكفار، قلت: اعتدت بها لأنها أقصى ما يمكن في دفع الدعوى، فرأتها الشريعة خيرا من إهمال الدعوى من أصلها.

ولأجل هذا اتفق علماء الإسلام على عدم قبول شهادة أهل الكتاب بين المسلمين في غير الوصية في السفر، واختلفوا في الإشهاد على الوصية في السفر، فقال ابن عباس ومجاهد وأبو موسى الأشعري وشريح بقبول شهادة غير المسلمين في الوصية في السفر، وقضى به أبو موسى الأشعري مدة قضائه في الكوفة، وهو قول أحمد وسفيان الثوري وجماعة من العلماء، وقال الجمهور: لا تجوز شهادة غير المسلمين على المسلمين ورأوا أن ما في آية الوصية منسوخ، وهو قول زيد بن أسلم ومالك وأبي حنيفة والشافعي، واختلفوا في شهادة بعضهم على بعض عند قاضي المسلمين فأجازها أبو حنيفة ناظرا في ذلك". (١)

١٤٣٤. ٦٤٣-"وجعل إحداهما الثاني مرادا به إحدى المرأتين. ولما اختلف المدلول لم يبق إظهار في

مقام الإضمار، وهو تكلف وتشتيت للضمائر لا دليل عليه، فينزه تخريج كلام الله عليه،

(١) التحرير والتنوير ١٠٧/٣

وهو الذي عناه الغزنوي بقوله: «ومن رددتم عليه الحل إلخ» .

والذي أراه أن هذا الإظهار في مقام الإضمار لنكتة هي قصد استقلال الجملة بمدلولها كيلا تحتاج إلى كلام آخر فيه معاد الضمير لو أضمر، وذلك يرشح الجملة لأن تجري مجرى المثل.

وكأن المراد هنا **الإيماء** إلى أن كلتا الجملتين علة لمشروعية تعدد المرأة في الشهادة، فالمرأة معرضة لتطرق النسيان إليها وقلة ضبط ما يهم ضبطه، والتعدد مظنة لاختلاف مواد النقص والخلل، فعسى ألا تنسى إحداهما ما نسيته الأخرى. فقوله أن تضل تعليل لعدم الاكتفاء بالواحدة، وقوله: فتذكر إحداهما الأخرى تعليل لإشهاد امرأة ثانية حتى لا تبطل شهادة الأولى من أصلها.

ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا.

عطف ولا يأب على واستشهدوا شهيدين لأنه لما أمر المتعاقدين باستشهاد شاهدين نهى من يطلب إشهاده عن أن يأبى، ليتم المطلوب وهو الإشهاد.

وإنما جيء في خطاب المتعاقدين بصيغة الأمر وجيء في خطاب الشهداء بصيغة النهي اهتماما بما فيه التفريط. فإن المتعاقدين يظن بهما إهمال الإشهاد فأمرا به، والشهود يظن بهم الامتناع فنهوا عنه، وكل يستلزم ضده.

وتسمية المدعوين شهداء باعتبار الأول القريب، وهو المشارفة، وكأن في ذلك نكتة عظيمة: وهي **الإيماء** إلى أنهم بمجرد دعوتهم إلى الإشهاد، قد تعينت عليهم الإجابة، فصاروا شهداء.

وحذف معمول دعوا إما لظهوره من قوله- قبله- واستشهدوا شهيدين أي إذا ما دعوا إلى الشهادة أي التحمل، وهذا قول قتادة، والربيع بن سليمان، ونقل عن ابن عباس، فالنهي عن الإباية عند الدعاء إلى الشهادة حاصل بالأولى، ويجوز أن يكون". (١)

١٤٣٥. ٦٤٤-"إذ جعل صاحب «الكشاف» كيف يلتقيان بيانا لحاجة وأخرى، أو تجعل تديرونها صفة ثانية لتجارة في معنى البيان، ولعل فائدة ذكره **الإيماء** إلى تعليل الرخصة في ترك الكتابة، لأن إدارتها أغنت عن الكتابة. وقيل: الاستثناء متصل، والمراد بالتجارة الحاضرة

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٣

المؤجلة إلى أجل قريب، فهي من جملة الديون، رخص فيها ترك الكتابة بها، وهذا بعيد.
وقوله: فليس عليكم جناح ألا تكتبوها تصريح بمفهوم الاستثناء، مع ما في زيادة قوله: جناح من الإشارة إلى أن هذا الحكم رخصة، لأن رفع الجناح مؤذن بأن الكتابة أولى وأحسن.
وقرأ الجمهور تجارة بالرفع: على أن تكون تامة، وقرأه عاصم بالنصب: على أن تكون ناقصة، وأن في فعل تكون ضميرا مستترا عائدا على ما يفيده خبر كان، أي إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة، كما في قول عمرو بن شاس- أنشده سيبويه-:
بني أسد هل تعلمون بلاءنا ... إذا كان يوماذا كواكب أشنعا

تقديره إذا كان اليوم يوماذا كواكب، وقوله: ألا أصله إن لا فرسم مدغما.
وأشهدوا إذا تبايعتم.
تشريع للإشهاد عند البيع ولو بغير دين إذا كان البيع غير تجارة حاضرة، وهذا إكمال لصور المعاملة: فإنها إما تداين، أو آيل إليه كالبيع بدين، وإما تناجز في تجارة، وإما تناجز في غير تجارة كبيع العقار والعروض في غير التجر. وقيل: المراد بتبايعتم التجارة، فتكون الرخصة في ترك الكتابة مع بقاء الإشهاد بدون كتابة، وهذا بعيد جدا، لأن الكتابة
ما شرعت إلا لأجل الإشهاد والتوثق.
وقوله تعالى: وأشهدوا أمر: قيل هو للوجوب، وهذا قول أبي موسى الأشعري، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، والضحاك،". (١)

١٤٣٦. ٦٤٥-"وقوله تعالى: وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم حذف مفعول تفعلوا وهو معلوم، لأنه الإضرار المستفاد من لا يضار مثل «اعدلوا هو أقرب» والفسوق: الإثم العظيم، قال تعالى: بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان [الحجرات: ١١] .
واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم.
أمر بالتقوى لأنها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق. وقوله: ويعلمكم الله تذكير بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، ونظام العالم، وهو أكبر العلوم

(١) التحرير والتنوير ٣/١١٦

وأنفعها، ووعد بدوام ذلك لأنه جيء فيه بالمضارع، وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل أي ليعلمكم. وجعله بعضهم من معاني الواو، وليس بصحيح.

وإظهار اسم الجلالة في الجمل الثلاث: لقصد التنويه بكل جملة منها حتى تكون مستقلة الدلالة، غير محتاجة إلى غيرها المشتمل على معاد ضميرها، حتى إذا سمع السامع كل واحدة منها حصل له علم مستقل، وقد لا يسمع إحداها فلا يضره ذلك في فهم أخراها، ونظير هذا الإظهار قول الحماسي (١) :

اللؤم أكرم من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

واللؤم داء لوبر يقتلون به ... لا يقتلون بداء غيره أبدا

فإنه لما قصد التشنيع بالقبيلة ومن ولدها، وما ولدته، أظهر اللؤم في الجمل الثلاث ولما كانت الجملة الرابعة كالتأكيد للثالثة لم يظهر اسم اللؤم بها. هذا، ولإظهار اسم الجلالة نكتة أخرى وهي التهويل. وللتكرير مواقع يحسن فيها، ومواقع لا يحسن فيها، قال الشيخ في «دلائل الإعجاز» (٢) ، في الخاتمة التي ذكر فيها أن الذوق قد يدرك أشياء لا يهتدى لأسبابها، وأن ببعض الأئمة قد يعرض له الخطأ في التأويل: «ومن ذلك

---

(١) وهو الحكم ابن مقداد ويدعى ابن زهرة وزهرة أمه ويعرف بالحكم الأصم الفزاري، وتنسب الأبيات إلى عويف القوافي أيضا واسمه عوف بن حصن الفزاري.

(٢) ص ٤٠٠ مطبعة الموسوعات بمصر.". (١)

١٤٣٧. ٦٤٦-"وقعة بدر، ويبعد ذلك أن سورة آل عمران اشتملت على التذكير بنصر المسلمين يوم بدر، وأن فيها ذكر يوم

أحد، ويجوز أن يكون بعضها نزل متأخرا. وذكر الواحدي في أسباب النزول، عن المفسرين: أن أول هذه السورة إلى قوله: ونحن له مسلمون [آل عمران: ٨٤] نزل بسبب وفد نجران،

---

(١) التحرير والتنوير ١١٨/٣

هو وفد السيد والعاقب، أي سنة اثنتين من الهجرة، ومن العلماء من قالوا:
نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال، وكان نزولها في وقعة أحد، أي شوال سنة ثلاث، وهذا وأقرب، فقد اتفق المفسرون على أن قوله تعالى: وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال [آل عمران: ١٢١] أنه قتال يوم أحد. وكذلك قوله: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم [آل عمران: ١٤٤] فإنه مشير إلى الإرجاف يوم أحد بقتل النبيء صلى الله عليه وسلم.
ويجوز أن يكون أولها نزل بعد البقرة إلى نهاية ما يشير إلى حديث وفد نجران، وذلك مقدار ثمانين آية من أولها إلى قوله: وإذ غدوت من أهلك [آل عمران: ١٢١] قاله القرطبي في أول السورة، وفي تفسير قوله: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب [آل عمران:
٧٩] الآية. وقد تقدم القول في صدر سورة الفاتحة: إننا بينا إمكان تقارن نزول سور عدة في مدة واحدة، فليس معنى قولهم: نزلت سورة كذا بعد سورة كذا، مرادا منه أن المعدودة نازلة بعد أخرى أنها ابتدئ نزولها بعد انتهاء الأخرى، بل المراد أنها ابتدئ نزولها بعد ابتداء نزول التي سبقتها.
وقد عدت هذه السورة الثامنة والأربعين في عداد نزول سور القرآن.
وعدد آيها مائتان في عد الجمهور وعددها عند أهل العدد بالشام مائة وتسع وتسعون.
واشتملت هذه السورة، من الأغراض: على الابتداء بالتنويه بالقرآن، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وتقسيم آيات القرآن، ومراتب الأفهام في تلقيها، والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه لا يعدله دين، وأنه لا يقبل دين عند الله، بعد ظهور الإسلام، غير الإسلام، والتنويه بالتوراة والإنجيل، والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن، تمهيدا لهذا الدين فلا يحق للناس، أن يكفروا به، وعلى التعريف بدلائل إلاهية الله تعالى، وانفراده، وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: من جعلوا له". (١)

١٤٣٨. ٦٤٧-"[٢- ٤]

(١) التحرير والتنوير ٣/١٤٤

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢ الى ٤]

الله لا إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام (٤)

الله لا إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان.

ابتدئ الكلام بمسند إليه خبره فعلي: لإفادة تقوية الخبر اهتماما به.

وجيء بالاسم العلم: لتربية المهابة عند سماعه، ثم أردف بجملة لا إله إلا هو، جملة معترضة أو حالية، ردا على المشركين، وعلى النصارى خاصة. وأتبع بالوصفين الحي القيوم لنفي اللبس عن مسمى هذا الاسم، **والإيماء** إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها لأنه غير حي أو غير قيوم، فالأصنام لا حياة لها، وعيسى في اعتقاد النصارى قد أميت، فما هو الآن بقيوم ولا هو في حال حياته بقيوم على تدبير العالم، وكيف وقد أوذي في الله، وكذب، واختفى من أعدائه. وقد مضى القول في معنى الحي القيوم في تفسير آية الكرسي.

وقوله: نزل عليك الكتاب خبر عن اسم الجلالة. والخبر هنا مستعمل في الامتنان، أو هو تعريض ونكاية بأهل الكتاب: الذين أنكروا ذلك. وجيء بالمسند فعلا لإفادة تقوية الخبر، أو للدلالة- مع ذلك- على الاختصاص: أي الله لا غيره نزل عليك الكتاب إبطالا لقول المشركين: إن القرآن من كلام الشيطان، أو من طرائق الكهانة، أو يعلمه بشر.

والتضعيف في نزل للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كميته، في الفعل المتعدي بغير التضعيف، من أجل أنهم قد أتوا ببعض الأفعال المتعدية، للدلالة على ذلك، كقولهم: فسر وفسر، وفرق وفرق، وكسر وكسر، كما أتوا بأفعال قاصرة بصيغة المضاعفة، دون تعدية للدلالة على قوة الفعل، كما قالوا: مات وموت وصاح وصيح. فإما إذا صار التضعيف للتعدية فلا أوقن بأنه يدل على تقوية الفعل، إلا أن يقال: إن العدول عن التعدية بالهمز، إلى التعدية بالتضعيف، لقصد ما عهد في التضعيف من

تقوية معنى الفعل، فيكون قوله:". (١)

١٤٣٩. ٦٤٨-"أبطل أحكام الكتابين، وأما كون شرع من قبلنا شرعا لنا عند معظم أهل الأصول، فذلك فيما حكاه عنهم القرآن لا ما يوجد في الكتابين، فلا يستقيم اعتبار الاستغراق بهذا الاعتبار بل بما ذكرناه.

والفرقان في الأصل مصدر فرق كالشكران والكفران والبهتان، ثم أطلق على ما يفرق به بين الحق والباطل قال تعالى: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان [الأنفال: ٤١] وهو يوم بدر. وسمي به القرآن قال تعالى: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده [الفرقان: ١] والمراد بالفرقان هنا القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل، وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه على هدي التوراة والإنجيل لأن التفرقة بين الحق والباطل أعظم أحوال الهدى، لما فيها من البرهان، وإزالة الشبهة. وإعادة قوله: وأنزل الفرقان بعد قوله: نزل عليك الكتاب بالحق للاهتمام، وليوصل الكلام به في قوله: إن الذين كفروا بآيات الله [آل عمران: ٤] الآية أي بآياته في القرآن.

إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام.

استئناف بياني ممهد إليه بقوله: نزل عليك الكتاب بالحق لأن نفس السامع تتطلع إلى معرفة عاقبة الذين أنكروا هذا التنزيل.

وشمل قوله: الذين كفروا بآيات الله المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة، لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات الله- هنا- لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله لأنه معجزة. وعبر عنهم بالموصول إيجازا لأن الصلة تجمعهم، **والإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو قوله: لهم عذاب شديد.

وعطف قوله: والله عزيز ذو انتقام على قوله: إن الذين كفروا بآيات الله لأنه من تكملة هذا الاستئناف: لمجيئه مجيء التبيين لشدة عذابهم إذ هو عذاب عزيز منتقم كقوله: فأخذناهم

---

(١) التحرير والتنوير ٣/١٤٧

أخذ عزيز مقتدر [القمر: ٤٢] .". (١)

١٤٤٠. ٦٤٩-"(كيف) مشتملة على حروف مادة الكيفية، والتكيف، وهو الحالة والهيئة، وإن كان الأكثر في الاستعمال أن تكون اسم استفهام، وليست (كيف) فعلا لأنها لا دلالة فيها على الزمان، ولا حرفا لاشتمالها على مادة اشتقاق. وقد تجيء (كيف) اسم شرط إذا اتصلت بها ما

الزائدة وفي كل ذلك لا تفارقها الدلالة على الحالة، ولا يفارقها إيلاء الجملة الفعلية إياها إلا ما شذ من قولهم: كيف أنت. فإذا كانت استفهاما فالجملة بعدها هي المستفهم عنه فتكون معمولة للفعل الذي بعدها، ملتزما تقديمها عليه لأن للاستفهام الصدارة، وإذا جردت عن الاستفهام كان موقعها من الإعراب على حسب ما يطلبه الكلام الواقعة هي فيه من العوامل كسائر الأسماء.

وأما الجملة التي بعدها- حينئذ- فالأظهر أن تعتبر مضافا إليها اسم كيف ويعتبر كيف من الأسماء الملازمة للإضافة. وجرى في كلام بعض أهل العربية أن فتحة (كيف) فتحة بناء.

والأظهر عندي أن فتحة كيف فتحة نصب لزمتها لأنها دائما متصلة بالفعل فهي معمولة له على الحالية أو نحوها، فلملازمة ذلك الفتح إياها أشبهت فتحة البناء.

فكيف في قوله هنا كيف يشاء يعرب مفعولا مطلقا «ليصوركم» ، إذ التقدير: حال تصوير يشاؤها كما قاله ابن هشام في قوله تعالى: كيف فعل ربك [الفجر: ٦] .

وجوز صاحب «المغني» أن تكون شرطية، والجواب محذوف لدلالة قوله:

يصوركم عليه وهو بعيد لأنها لا تأتي في الشرط إلا مقترنة بما. وأما قول الناس:

كيف شاء فعل فلحن. وكذلك جزم الفعل بعدها قد عد لحنا عند جمهور أئمة العربية.

وذل تعريف الجزأين على قصر صفة التصوير عليه تعالى وهو قصر حقيقي لأنه كذلك في الواقع إذ هو مكون أسباب ذلك التصوير وهذا **إيماء** إلى كشف شبة النصارى إذ توهموا أن تخلق عيسى بدون ماء أب دليل على أنه غير بشر وأنه إله وجهلوا أن التصوير في الأرحام وإن اختلفت كيفياته لا يخرج عن كونه خلقا لما كان معدوما فكيف يكون ذلك المخلوق

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٠/٣

المصور في الرحم إلها.". (١)

١٤٤١. ٦٥٠-"**إيماء** إلى أن دعوتهم استجيبت. والمراد بالذين كفروا: المشركون، وهذا وصف غالب عليهم في اصطلاح القرآن وقيل: الذين كفروا بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم أريد هنا قريظة والنضير وأهل نجران ويرجح هذا بأنهم ذكروا بحال فرعون دون حال عاد وثمود فإن اليهود والنصارى أعلق بأخبار فرعون. كما أن العرب أعلق بأخبار عاد وثمود، وأن الرد على النصارى من أهم أغراض هذه السورة. ويجوز أن يكون المراد جميع الكافرين: من المشركين، وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون لأن وعيد اليهود في هذه الآية أهم.

ومعنى «تغني» تجزي وتكفي وتدفع، وهو فعل قاصر يتعدى إلى المفعول بعن نحو: «ما أغنى ماليه» .

ولدلالة هذا الفعل على الإجزاء والدفع، كان مؤذنا بأن هنالك شيئا يدفع ضره، وتكفى كلفته، فلذلك قد يذكرون مع هذا الفعل متعلقا ثانيا ويعدون الفعل إليه بحرف (من) كما في هذه الآية. فتكون (من) للبدل والعوض على ما ذهب إليه في «الكشاف» ، وجعل ابن عطية (من) للابتداء.

وقوله: من الله أي من أمر يضاف إلى الله لأن تعليق هذا الفعل، تعليقا ثانيا، باسم ذات لا يقصد منه إلا أخص حال اشتهرت به، أو في الغرض المسوق له الكلام فيقدر معنى اسم مضاف إلى اسم الجلالة. والتقدير هنا من رحمة الله، أو من طاعته، إذا كانت (من) للبدل وكذا قدره في «الكشاف» ، ونظره بقوله تعالى: وإن الظن لا يغني من الحق شيئا [النجم: ٢٨] . وعلى جعل (من) للابتداء كما قال ابن عطية تقدر من غضب الله، أو من عذابه، أي غناء مبتدئا من ذلك: على حد قولهم: نجاه من كذا أي فصله منه، ولا

يلزم أن تكون (من) مع هذا الفعل، إذا عدي بعن، مماثلة لمن الواقعة بعد هذا الفعل الذي يعد بعن، لإمكان اختلاف معنى التعلق باختلاف مساق الكلام. والغالب أن يأتوا بعد فعل أغنى بلفظ (شيء) مع ذكر المتعلقين كما في الآية، وبدون ذكر متعلقين، كما في قول

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٣

أبي سفيان، يوم أسلم: «لقد علمت أن لو كان معه إله غيره لقد أغنى عني شيئا» .". (١)

١٤٤٢. ٦٥١-"النبيء صلى الله عليه وسلم. والاستفهام للعرض تشويقا من نفوس المخاطبين إلى تلقي ما سيقص عليهم كقوله تعالى: هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم [الصف: ١٠] الآية.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب: أأنبئكم بتسهيل الهمزة الثانية واوا. وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وروح عن يعقوب، وخلف: بتخفيف الهمزتين.

وجملة للذين اتقوا عند ربهم جنات مستأنفة وهي المنبأ به. ويجوز أن يكون للذين اتقوا متعلقا بقوله: «خير» و «جنات» مبتدأ محذوف الخبر: أي لهم، أو خبرا لمبتدأ محذوف. وقد ألغي ما يقابل شهوات الدنيا في ذكر نعيم الآخرة لأن لذة البنين ولذة المال هنالك مفقودة، للاستغناء عنها، وكذلك لذة الخيل والأنعام إذ لا دواب في الجنة، فبقي ما يقابل النساء والحرث، وهو الجنات والأزواج، لأن بهما تمام النعيم والتأنس، وزيد عليهما رضوان الله الذي حرمه من جعل حظه لذات الدنيا وأعرض عن الآخرة. ومعنى المطهرة المنزهة مما يعتري نساء البشر مما تشمئز منه النفوس، فالطهارة هنا حسية لا معنوية.

وعطف رضوان من الله على ما أعد للذين اتقوا عند الله: لأن رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي لأن رضوان الله تقريب روحاني قال تعالى: ورضوان من الله أكبر [التوبة: ٧٢] .

وقرأ الجمهور: رضوان- بكسر الراء- وقرأه أبو بكر عن عاصم: بضم الراء وهما لغتان.

وأظهر اسم الجلالة في قوله: ورضوان من الله، دون أن يقول ورضوان منه أي من ربهم: لما في اسم الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان.

وجملة والله بصير بالعباد اعتراض لبيان الوعد أي أنه عليم بالذين اتقوا ومراتب تقواهم، فهو يجازيهم، ولتضمن بصير معنى عليم عدي بالباء. وإظهار اسم الجلالة في قوله: والله بصير بالعباد لقصد استقلال الجملة لتكون كالمثل.

وقوله: الذين يقولون عطف بيان للذين اتقوا وصفهم بالتقوى وبالتوجه إلى الله تعالى بطلب

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٢/٣

المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، والجاري على". (١)

١٤٤٣. ٦٥٢-"[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (٢٦) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (٢٧)

استئناف ابتدائي المقصود منه التعريض بأهل الكتاب بأن إعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوءة منهم، وانقراض الملك منهم، بتهديدهم وبإقامة الحجة عليهم في أنه لا عجب أن تنتقل النبوءة من بني إسرائيل إلى العرب، مع **الإيماء** إلى أن الشريعة الإسلامية شريعة مقارنة للسلطان والملك.

واللهم في كلام العرب خاص بنداء الله تعالى في الدعاء، ومعناه يا الله. ولما كثر حذف حرف النداء معه قال النحاة: إن الميم عوض من حرف النداء يريدون أن لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لما لم يقع إلا عند إرادة الدعاء صار غنيا عن جلب حرف النداء اختصارا، وليس المراد أن الميم تفيد النداء. والظاهر أن الميم علامة تنوين في اللغة المنقول منها كلمة (اللهم) من عبرانية أو قحطانية وأن أصلها لا هم مرادف إله.

ويدل على هذا أن العرب نطقوا به هكذا في غير النداء كقول الأعشى:

كدعوة من أبي رباح ... يسمعها اللهم الكبير

وأنهم نطقوا به كذلك مع النداء كقول أبي خراش الهذلي:

إني إذا ما حدث ألما ... أقول يا اللهم يا اللهما

وأنهم يقولون يا الله كثيرا. وقال جمهور النحاة: إن الميم عوض عن حرف النداء المحذوف وإنه تعويض غير قياسي: وإن ما وقع على خلاف ذلك شذوذ. وزعم الفراء أن اللهم مختزل من اسم الجلالة وجملة أصلها «يا الله أم» أي أقبل علينا بخير، وكل ذلك تكلف لا دليل عليه.".

---

(١) التحرير والتنوير ٣/١٨٤

(١)

١٤٤٤. ٦٥٣-"ومن يخرج الحي من الميت في سورة يونس [٣١] . وهذا رمز إلى ظهور الهدى والملك في أمة أمية، وظهور ضلال الكفر في أهل الكتابين، وزوال الملك من خلفهم يعد أن كان شعار أسلافهم، بقرينة افتتاح الكلام بقوله: اللهم مالك الملك إلخ.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف: «الميت» بتشديد التحتية. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب: بسكون التحتية وهما وجهان في لفظ الميت.

وقوله: وترزق من تشاء بغير حساب هو كالتذييل لذلك كله.

والرزق ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام والثمار كقوله: وجد عندها رزقا [آل عمران: ٣٧] وقوله: فليأتكم برزق منه [الكهف: ١٩] ، ويطلق على أعم من ذلك مما ينتفع به كما في قوله تعالى: يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب- ثم قال- إن هذا لرزقنا ما له من نفاد [ص: ٥١- ٥٤] وقوله: قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله ومن ثم سميت الدراهم والدنانير رزقا: لأن بها يعوض ما هو رزق، وفي هذا **إيماء** إلى بشارة للمسلمين بما أخبئ لهم من كنوز الممالك الفارسية والقيصرية وغيرها.

[٢٨]

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٨]

لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير (٢٨)

استئناف عقب به الآي المتقدمة، المتضمنة عداء المشركين للإسلام وأهله، وحسد اليهود لهم، وتوليهم عنه: من قوله: إن الذين كفروا لن تغني عنهم [آل عمران: ١١٦] إلى هنا.

فالمناسبة أن هذه كالنتيجة لما تقدمها:

نهى الله المؤمنين- بعد ما بين لهم بغي المخالفين وإعراضهم- أن يتخذوا الكفار أولياء من

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢١٢

دون المؤمنين لأن اتخاذهم أولياء- بعد أن سفه الآخرون دينهم وسفهوا أحلامهم في اتباعه- يعد ضعفا في الدين وتصويبا للمعتدين.". (١)

١٤٤٥. ٦٥٤-"وهو ترهيب

- ثم بذكر مقابله في الترغيب بقوله: قل أأنبئكم بخير من ذلكم [آل عمران: ١٥] الآية

- ثم بتأييد ما عليه المسلمون بقوله: شهد الله أنه لا إله إلا هو [آل عمران: ١٨] الآية وفي ذلك تفصيل كثير.

- ثم جاء بطريق المجادلة بقوله: فإن حاجوك [آل عمران: ٢٠] الآية ثم بترهيب بغير استدلال صريح ولكن **بالإيماء** إلى الدليل وذلك قوله: إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق [آل عمران: ٢١]

- ثم بطريق التهديد والإنذار التعريضي بقوله: قل اللهم مالك الملك [آل عمران: ٢٦] الآيات.

- ثم أمر بالقطيعة في قوله: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء [آل عمران: ٢٨] .

- ثم انتقل إلى طريقة الترغيب في قوله: قل إن كنتم تحبون الله إلى قوله: الكافرين

- وختم بذكر عدم محبة الكافرين ردا للعجز على الصدر المتقدم في قوله: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم [آل عمران: ١٠] الآية ليكون نفي المحبة عن جميع الكافرين، نفيا عن هؤلاء الكافرين المعينين.

[٣٣، ٣٤]

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٣٤)

انتقال من تمهيدات سبب السورة إلى واسطة بين التمهيد والمقصد، كطريقة التخلص، فهذا تخلص لمحاجة وفد نجران وقد ذكرناه في أول السورة، فابتدئ هنا بذكر آدم ونوح وهما أبوا

(١) التحرير والتنوير ٣/٢١٥

البشر أو أحدهما وذكر إبراهيم وهو أبو المقصودين بالتفضيل وبالخطاب. فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلا شذوذا من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوروبا واخترعوا نظرية تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهي نظرية فائلة.
وآدم اسم أبي البشر عند جميع أهل الأديان، وهو علم عليه وضعه لنفسه بإلهام من الله تعالى كما وضع مبدأ اللغة، ولا شك أن من أول ما يحتاج إليه هو وزوجه أن يعبر أحدهما للآخر، وظاهر القرآن أن الله أسماه بهذا الاسم من قبل خروجه من جنة عدن ولا يجوز أن يكون اسمه مشتقا من الأدمة، وهي اللون المخصوص لأن تسمية ذلك اللون بالأدمة خاص بكلام العرب فلعل العرب وضعوا اسم ذلك اللون أخذا من وصف لون آدم أبي البشر.". (١)

١٤٤٦. ٦٥٥-"وقوله: وما كنت لديهم إيماء إلى خلو كتبهم عن بعض ذلك، وإلا لقال: وما كنت تتلو كتبهم مثل: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب» أي إنك تخبرهم عن أحوالهم كأنك كنت لديهم.
وقوله: إذ يلقون أقلامهم وهي الأقلام التي يكتبون بها التوراة كانوا يقترعون بها في المشكلات: بأن يكتبوا عليها أسماء المقترعين أو أسماء الأشياء المقترع عليها، والناس يصيرون إلى القرعة عند انعدام ما يرجح الحق، فكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام وجعل اليهود الاقتراع بالأقلام التي يكتبون بها التوراة في المدراس رجاء أن تكون بركتها مرشدة إلى ما هو الخير. وليس هذا من شعار الإسلام وليس لإعمال القرعة في الإسلام إلا مواضع تمييز الحقوق المتساوية من كل الجهات وتفصيله في الفقه.
وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالة مريم حين ولدتها أمها حنة، إذ كانت يتيمة كما تقدم فحصل من هذا الامتنان إعلام بأن كفالة زكرياء مريم كانت بعد الاستقسام وفيه تنبيه على تنافسهم في كفالتها.
[٤٥، ٤٦]

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٤٥ إلى ٤٦]

---
(١) التحرير والتنوير ٣/٢٢٩

إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (٤٦)
بدل اشتمال من جملة وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك [آل عمران: ٤٢] قصد منه التكرير لتكميل المقول بعد الجمل المعترضة. ولكونه بدلا لم يعطف على إذ قالت الأول. وتقدم الكلام على يبشرك.
والكلمة مراد بها كلمة التكوين وهي تعلق القدرة التنجيزي كما
في حديث خلق الإنسان من قوله: «ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله»
إلخ.
ووصف عيسى بكلمة مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون الأسباب المعتادة.". (١)

١٤٤٧. ٦٥٦-"عن توجه الإرادة بالتنجيز، فبتلك الكلمة كان آدم أيضا كلمة من الله ولكنه لم يوصف بذلك لأنه لم يقع احتياج إلى ذلك لفوات زمانه.
وإنما قال: فيكون ولم يقل فكان لاستحضار صورة تكونه، ولا يحمل المضارع في مثل هذا إلا على هذا المعنى، مثل قوله: الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا [فاطر: ٩] وحمله على غير هذا هنا لا وجه له.
وقوله: الحق من ربك خبر مبتدأ محذوف: أي هذا الحق. ومن ربك حال من
الحق. والخطاب في فلا تكن من الممترين للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود التعريض بغيره، والمعرض بهم هنا هم النصارى الممترون الذين امتروا في الإلاهية بسبب تحقق أن لا أب لعيسى.
[٦١]

[سورة آل عمران (٣) : آية ٦١]
فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٤٥

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين (٦١)
تفريع على قوله: الحق من ربك فلا تكن من الممترين لما فيه من **إيماء** إلى أن وفد نجران ممترون في هذا الذي بين الله لهم في هذه الآيات: أي فإن استمروا على محاجتهم إياك مكابرة في هذا الحق أو في شأن عيسى فادعهم إلى المباهلة والملاعنة.
ذلك أن تصميمهم على معتقدهم بعد هذا البيان مكابرة محضة بعد ما جاءك من العلم وبينت لهم، فلم يبق أوضح مما حاججتهم به فعلمت أنهم إنما يحاجونك عن مكابرة، وقلة يقين، فادعهم إلى المباهلة بالملاعنة الموصوفة هنا.
وتعالوا اسم فعل لطلب القدوم، وهو في الأصل أمر من تعالى يتعالى إذا قصد العلو، فكأنهم أرادوا به في الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو، ثم شاع". (١)

١٤٤٨. ٦٥٧-"نصرانيا وكان لا يعبد إلا الله، فخرج من عنده فلقي عالما من النصارى فقاوله مثل مقاولة اليهودي، غير أن النصراني قال: أن تأخذ بنصيبك من لعنة الله، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم، فلم يزل رافعا يديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد أني على دين إبراهيم وهذا أمنية منه لا تصادف الواقع. وفي «صحيح البخاري» ، عن أسماء بنت أبي بكر: قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: «يا معشر قريش ليس منكم على دين إبراهيم غيري» وفيه أن النبيء صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبيء صلى الله عليه وسلم الوحي فقدمت إلى النبيء صلى الله عليه وسلم سفرة فأبى زيد بن عمرو أن يأكل منها وقال: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وهذا توهم منه أن النبيء صلى الله عليه وسلم يفعل كما تفعل قريش. وإن زيدا كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء أنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله.
واسم الإشارة في قوله: وهذا النبي مستعمل مجازا في المشتهر بوصف بين المخاطبين كقوله في الحديث: «فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار»

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٤/٣

فالإشارة استعملت في استحضار الدواب المعروفة بالتساقط على النار عند وقودها، والنبيء ليس بمشاهد للمخاطبين بالآية، حينئذ، ولا قصدت الإشارة إلى ذاته. ويجوز أن تكون الإشارة مستعملة في حضور التكلم باعتبار كون النبيء هو الناطق بهذا الكلام، فهو كقول الشاعر:

«نجوت وهذا تحملين طليق» أي والمتكلم الذي تحملينه. والاسم الواقع بعد اسم الإشارة، بدلا منه، هو الذي يعين جهة الإشارة ما هي. وعطف النبيء على الذين اتبعوا إبراهيم للاهتمام به وفيه **إيماء** إلى أن متابعته إبراهيم عليه السلام ليست متابعة عامة فكون الإسلام من الحنيفية أنه موافق لها في أصولها. والمراد بالذين آمنوا المسلمون. فالمقصود معناه اللقبي، فإن وصف الذين آمنوا صار لقبا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك كثر خطابهم في القرآن بيا أيها الذين آمنوا.

ووجه كون هذا النبيء صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا أولى الناس بإبراهيم، مثل الذين اتبعوه،

أنهم قد تخلقوا بأصول شرعه، وعرفوا قدره، وكانوا له لسان صدق دائبا بذكره،". (١)

١٤٤٩. ٦٥٨-"أغراضها اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضا عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

وتهديدهم على استهزائهم.

وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

وصفة يوم الحشر إنذارا للذين جحدوا به **والإيماء** إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٧٧

يوم البعث.

وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس.

[١- ٣]

[سورة النبإ (٧٨) : الآيات ١ إلى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣)

افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم، افتتاح تشويق ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن.

وإذ كان هذا الافتتاح مؤذنا بعظيم أمر كان مؤذنا بالتصدي لقول فصل فيه، ولما كان في ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضهم يومئذ يجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال.". (١)

١٤٥٠. ٦٥٩-"الابتداء بخلق الأرض في الاستدلال فهي أن من الأرض يخرج الناس للبعث فكذلك ثني باستدلال بخلق الناس الأول لأنهم الذين سيعاد خلقهم يوم البعث وهم الذين يخرجون من الأرض، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى:

ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا [مريم: ٦٦، ٦٧] .

وانتصب أزواجا على الحال من ضمير الخطاب في خلقناكم لأن المقصود الاستدلال بخلق الناس وبكون الناس أزواجا، فلما كان المناسب لفعل خلقنا أن يتعدى إلى الذوات جيء بمفعوله ضمير ذوات الناس، ولما كان المناسب لكونهم أزواجا أن يساق مساق إيجاد الأحوال جيء به حالا من ضمير الخطاب في خلقناكم، ولو صرح له بفعل لقيل: وخلقناكم وجعلناكم أزواجا، على نحو ما تقدم في قوله: ألم نجعل الأرض مهادا [النبأ: ٦] وما يأتي من قوله: وجعلنا نومكم سباتا [النبأ: ٩] .

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٣٠

والأزواج: جمع زوج وهو اسم للعدد الذي يكرر الواحد تكريرة واحدة وقد وصف به كما يوصف بأسماء العدد في نحو قول لبيد:

حتى إذا سلخا جمادى ستة ثم غلب الزواج على كل من الذكر وأنثاه من الإنسان والحيوان، فقوله: أزواجا أفاد أن يكون الذكر زوجا للأنثى والعكس، فالذكر زوج لأنثاه والأنثى زوج لذكرها، وتقدم ذلك عند قوله تعالى: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة في سورة البقرة [٣٥] .

وفي قوله: وخلقناكم أزواجا **إيماء** إلى ما في ذلك الخلق من حكمة إيجاد قوة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى وهو مناط **الإيماء** إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد فإن القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداء بقوة التناسل قادر على إيجاد مثله بمثل تلك الدقة أو أدق.

وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته، وامتنان على الناس بأنه خلقهم، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجا". (١)

١٤٥١. ٦٦٠-"والمعاش: يطلق مصدر عاش إذا حيي، فالمعاش: الحياة ويطلق اسما لما به عيش الإنسان من طعام وشراب على غير قياس.

والمعنيان صالحان للآية إذ يكون المعنى: وجعلنا النهار حياة لكم، شبهت اليقظة فيه الحياة، أو يكون المعنى وجعلنا النهار معيشة لكم، والإخبار عنه بأنه معيشة مجاز أيضا بعلاقة السببية لأن النهار سبب للعمل الذي هو سبب لحصول المعيشة وذلك يقابل جعل الليل سباتا بمعنى الانقطاع عن العمل، قال تعالى: ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله [القصص: ٧٣] .

ففي مقابلة السبات بالمعاش على هذين الاعتبارين مطابقتان من المحسنات.

[١٢]

[سورة النبإ (٧٨) : آية ١٢]

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٠

وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)

ناسب بعد ذكر الليل والنهار وهما من مظاهر الأفق المسمى سماء أن يتبع ذلك وما سبقه من خلق العالم السفلي بذكر خلق العوالم العلوية.

والبناء: جعل الجاعل أو صنع الصانع بيتا أو قصرا من حجارة وطين أو من أثواب، أو من أدم على وجه الأرض، وهو مصدر بنى، فبيت المدر مبني، والخيمة مبنية، والطراف والقبة من الأدم مبنيان. والبناء يستلزم الإعلاء على الأرض فليس الحفر بناء ولا نقر الصخور في الجبال بناء. قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

فذكر الدعائم وهي من أجزاء الخيمة.

واستعير فعل بنينا في هذه الآية لمعنى: خلقنا ما هو عال فوق الناس، لأن تكوينه عاليا يشبه البناء.

ولذلك كان قوله: فوقكم **إيماء** إلى وجه الشبه في إطلاق فعل بنينا وليس

ذلك تجريدا للاستعارة لأن الفوقية لا تختص بالمبنيات، مع ما فيه من تنبيه النفوس للاعتبار والنظر في تلك السبع الشداد.

والمراد بالسبع الشداد: السماوات، فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف". (١)

١٤٥٢. ٦٦١-"ذكر: أعصرت الجارية، أي حان وقت أن تصير تحيض، وذكر ابن قتيبة في «أدب الكاتب» : أركب المهر، إذا حان أن يركب، وأقطف الكرم، إذا حان أن يقطف. ثم ذكر: أقطف القوم: حان أن يقطفوا كرومهم، وأنتجت الخيل: حان وقت نتاجها.

وفي تفسير ابن عطية عند قوله تعالى: ألم تر أن الله يزجي سحابا الآية من سورة النور [٤٣] ، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاما جاء بالريح عصر بعضه بعضا فيخرج الودق منه، ومن ذلك قوله: وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ومن

ذلك قول حسان:

كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠

أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به، أي هذه من عصير العنب وهذه من عصير السحاب، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن العنبري (١) للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان اه.

والثجاج: المنصب بقوة وهو فعال من ثج القاصر إذا انصب، يقال: ثج الماء، إذا انصب بقوة، فهو فعل قاصر. وقد يسند الثج إلى السحاب، يقال: ثج السحاب يثج بضم الثاء، إذا صب الماء، فهو حينئذ فعل متعد.

ووصف الماء هنا بالثجاج للامتنان.

وقد بينت حكمة إنزال المطر من السحاب بأن الله جعله لإنبات النبات من الأرض جمعا بين الامتنان **والإيماء** إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث وشكر الصانع.

وجيء بفعل لنخرج دون نحو: لننبت، لأن المقصود **الإيماء** إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام ألا ترى أنه لما كان المقصد الأول من آية سورة (ق) هو الامتنان جيء بفعل «أنبتنا» في قوله:

---

(١) ولي قضاء البصرة سنة ١٥٨ وعزل سنة ١٦٥ وتوفي سنة ١٦٨. وهو الذي ينسب إليه القول بأن المجتهد لا يأثم ولو في أصول الدين إذا لم يخرج باجتهاده عن الإسلام.". (١)

١٤٥٣. ٦٦٢-"ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات [ق: ٩] الآية. ثم أتبع ثانيا بالاستدلال به على البعث بقوله: كذلك الخروج [ق: ١١] . والبعث خروج من الأرض قال تعالى: ومنها نخرجكم تارة أخرى في سورة طه [٥٥] .

والحب: اسم جمع حبة وهي البزرة. والمراد بالحب هنا: الحب المقتات للناس مثل: الحنطة، والشعير، والسلت، والذرة، والأرز، والقطنية، وهي الحبوب التي هي ثمرة السنابل ونحوها.

والنبات أصله اسم مصدر نبت الزرع، قال تعالى: والله أنبتكم من الأرض نباتا [نوح: ١٧] وأطلق النبات على النبات من إطلاق المصدر على الفاعل وأصله المبالغة ثم شاع استعماله

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٣٠

فنسيت المبالغة.

والمراد به هنا: النبات الذي لا يؤكل حبه بل الذي ينتفع بذاته وهو ما تأكله الأنعام والدواب مثل التبن والقرط والفصفصة والحشيش وغير ذلك.

وجعلت الجنات مفعولا ل (تخرج) على تقدير مضاف، أي نخل جنات أو شجر جنات، لأن الجنات جمع جنة وهي القطعة من الأرض المغروسة نخلا، أو نخلا وكرما، أو بجميع الشجر المثمر مثل التين والرمان كما جاء في مواضع من القرآن، وهي استعمالات مختلفة باختلاف المنابت.

ووجه إيثار لفظ جنات أن فيه **إيماء** إلى إتمام المنة لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق لما فيها من التنعم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر، ولذلك أتبعت بوصف ألفافا لأنه يزيدها حسنا، وإن كان الفلاحون عندنا يفضلون التباعد بين الأشجار لأن ذلك أوفر لكمية الثمار لأن تباعدها أسعد لها بتخلل الهواء وشعاع الشمس، لكن مساق الآية هنا الامتنان بما فيه نعيم الناس.

وألفاف: اسم جمع لا واحد له من لفظه وهو مثل أوزاع وأخياف، أي كل جنة ملتفة، أي ملتفة الشجر بعضه ببعض.

فوصف الجنات بألفاف مبني على المجاز العقلي لأن الالتفاف في أشجارها ولكن لما كانت الأشجار لا يلتف بعضها على بعض في الغالب إلا إذا جمعتها جنة". (١)

١٤٥٤. ٦٦٣-"أسند ألفاف إلى جنات بطريق الوصف. ولعله من مبتكرات القرآن إذ لم أر شاهدا عليه من كلام العرب قبل القرآن.

وقيل: ألفاف جمع لف بكسر اللام بوزن جذع، أي كل جنة منها لف بكسر اللام ولم يأتوا بشاهد عليه. وذكر في «الكشاف» أن صاحب «الإقليد» (١) ذكر بيتا أنشده الحسن بن علي الطوسي (٢) ولم يعزه إلى قائل. وفي «الكشاف» زعم ابن قتيبة (٣) أنه لفاء ولف ثم ألفاف (أي أن ألفافا جمع الجمع) قال: «وما أظنه واجدا له نظيرا» أي لا يجمع فعل جمعا على أفعال، أي لا نظير له إذ لا يقال خضر وأخضار وحمر وأحمار. يريد أنه لا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٣٠

يخرج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد.

فكان أظهر الوجوه أن ألفافا اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت **الإيماء** إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك.

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار. ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا وذلك من رد العجز على الصدر.

[١٧- ١٨]

---

(١) الإقليد اسم تفسير كذا قال القزويني في «الكشف» على «الكشاف» ورأيت في طرة نسخة فيه أن الإقليد لأبي الفتح الهمذاني ولم أعثر على ترجمة مؤلفه.

(٢) الحسن بن علي الطوسي لعله الوزير الملقب نظام الملك والبيت هو:

جنة لف وعيش مغدق ... وندامى كلهم بيض زهر

(٣) لعله ذكر ذلك في غير كتاب أدب الكتاب فإني لم أجده فيه. [.....]".(١)

١٤٥٥. ٦٦٤-"[سورة النبإ (٧٨) : الآيات ١٧ إلى ١٨]

إن يوم الفصل كان ميقاتا (١٧) يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا (١٨)

هذا بيان لما أجمله قوله: عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون [النبأ: ٢- ٣] وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة وهيأت للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله:

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٠

لنخرج به حبا ونباتا [النبأ: ١٥] إلخ، لأن ذلك شبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى: فأنبتنا به جنات وحب الحصيد إلى قوله: كذلك الخروج في سورة ق [٩- ١١] .

وهو استئناف بياني أعقب به قوله: لنخرج به حبا ونباتا [النبأ: ١٥] الآية فيما قصد به من **الإيماء** إلى دليل البعث.

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالا لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل.

ويوم الفصل: يوم البعث للجزاء.

والفصل: التمييز بين الأشياء المختلطة، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني المتشابهة والملتبسة فلذلك أطلق على الحكم، وقد يضاف إليه فيقال: فصل القضاء، أي نوع من الفصل لأن القضاء يميز الحق من الظلم.

فالجزاء على الأعمال فصل بين الناس بعضهم من بعض.

وأوثر التعبير عنه بيوم الفصل لإثبات شيئين:

أحدهما: أنه بين ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء وذلك فصل بين الصدق وكذبهم.

وثانيهما: القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اعتدى به بعضهم على بعض.

وإقحام فعل كان لإفادة أن توقيته متأصل في علم الله لما اقتضته حكمته تعالى التي هو أعلم بها وأن استعجالهم به لا يقدمه على ميقاته.". (١)

١٤٥٦. ٦٦٥-"مرصادا أمر مقدر لها كما تقدم في قوله: إن يوم الفصل كان ميقاتا [النبأ: ١٧] . وفيه **إيماء** إلى سعة علم الله تعالى حيث أعد في أزله عقابا للطاغين.

ومآبا: مكان الأوب وهو الرجوع، أطلق على المقر والمسكن إطلاقا أصله كناية ثم شاع استعماله فصار اسما للموضع الذي يستقر به المرء.

ونصب مآبا على الحال من جهنم أو على أنه خبر ثان لفعل كانت أو على أنه بدل اشتمال من مرصادا لأن الرصد يشتمل على أشياء مقصودة منها أن يكونوا صائرين إلى جهنم.

وللطاغين متعلق ب مآبا قدم عليه لإدخال الروع على المشركين الذين بشركهم طغوا على

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠

الله، وهذا أحسن كما علمت آنفا. ولك أن تجعله متعلقا ب مرصادا أو متنازعا فيه بين مرصادا ومآبا كما علمت آنفا.

والطغيان: تجاوز الحد في عدم الاكتراث بحق الغير والكبر، والتعريف فيه للعهد فالمراد به المشركون المخاطبون بقوله: فتأتون أفواجا [النبأ: ١٨] فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب جعل جهنم لهم لأن الشرك أقصى الطغيان إذ المشركون بالله أعرضوا عن عبادته ومتكبرون على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أنفوا من قبول دعوته وهم المقصود من معظم ما في هذه السورة كما يصرح به قوله: إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا [النبأ: ٢٧، ٢٨] . هذا وإن المسلمين المستخفين بحقوق الله، أو المعتدين على الناس بغير حق، واحتقارا لا لمجرد غلبة الشهوة لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر.

واللابث: المقيم بالمكان. وانتصب لابثين على الحال من الطاغين.

وقرأه الجمهور لابثين على صيغة جمع لابث. وقرأه حمزة وروح عن يعقوب لبثين على صيغة جمع (لبث) من أمثلة المبالغة مثل حذر على خلاف فيه، أو من الصفة المشبهة فتقتضي أن اللبث شأنه كالذي يجثم في مكان لا ينفك عنه.

وأحقاب: جمع حقب بضمتين، وهو زمن طويل نحو الثمانين سنة، وتقدم في قوله: أو أمضي حقبا في سورة الكهف". (١)

١٤٥٧. ٦٦٦-"العربدة من هذيان، وكذب وسباب، واللغو والكذب من العيوب التي تعرض لمن تدب الخمر في رؤوسهم، أي فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قبل تحريم الخمر ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا.

وكان العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، قال عمارة بن الوليد:

ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا ... ثياب الندامى بينهم كالغنائم

ولكننا يا أم عمرو نديمنا ... بمنزلة الريان ليس بعائم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦

وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

ويجوز أن يعود ضمير فيها إلى مفازا باعتبار تأويله بالجنة لوقوعه في مقابلة جهنم من قوله: إن جهنم كانت مرصادا [النبأ: ٢١] أو لأنه أبدل حدائق من مفازا وهذا المعنى نشأ عن أسلوب نظم الكلام حيث قدم حدائق وأعنابا إلخ، وأخر وكأسا دهاقا حتى إذا جاء ضمير (فيها) بعد ذلك جاز إرجاعه إلى الكأس وإلى المفاز كما علمت. وهذا من بديع الإيجاز مع وفرة المعاني مما عددناه من وجوه الإعجاز من جانب الأسلوب في المقدمة العاشرة من هذا التفسير، أي لا يسمعون في الجنة الكلام السافل ولا الكذب، فلما أحاط بأهل جهنم أشد الأذى بجميع حواسهم من جراء حرق النار وسقيهم الحميم والغساق لينال العذاب بواطنهم كما نال ظاهر أجسادهم، كذلك نفى عن أهل الجنة أقل الأذى وهو أذى سماع ما يكرهه الناس فإن ذلك أقل الأذى.

وكني عن انتفاء اللغو والكذاب عن شاربي خمر الجنة بأنهم لا يسمعون اللغو والكذاب فيها لأنه لو كان فيها لغو وكذب لسمعوه وهذا من باب قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره أي لا منار به فيهتدى به، وهو نوع من لطيف الكناية، والذي في الآية أحسن مما وقع في بيت امرئ القيس ونحوه لأن فيه **إيماء** إلى أن أهل الجنة منزهة أسماعهم". (١)

١٤٥٨. ٦٦٧-"عن سقط القول وسفل الكلام كما في قوله في سورة الواقعة [٢٥] لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما واللغو: الكلام الباطل والهذيان وسقط القول الذي لا يورد عن روية ولا تفكير.

والكذاب: تقدم معناه آنفا.

وقرأ الجمهور: كذابا هنا مشددا، وقرأه الكسائي هنا بتخفيف الذال، وانتصب جزاء على الحال من مفازا وأصل الجزاء مصدر جزى، ويطلق على المجازى به من إطلاق المصدر على المفعول، فالجزاء هنا المجازى به وهو الحدائق والجنات والكواعب والكأس.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٦/٣٠

والجزاء: إعطاء شيء عوضا على عمل. ويجوز أن يجعل الجزاء على أصل معناه المصدري وينتصب على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعل مقدر. والتقدير: جزينا المتقين.
وإضافة رب إلى ضمير المخاطب مرادا به النبيء صلى الله عليه وسلم للإيماء إلى أن جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبيء صلى الله عليه وسلم لأن إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل إيمانهم به وعملهم بما هداهم إليه.
ومن ابتدائية، أي صادرا من لدن الله، وذلك تنويه بكرم هذا الجزاء وعظم شأنه.
ووصف الجزاء بعطاء وهو اسم لم يعطى، أي يتفضل به بدون عوض للإشارة إلى أن ما جوزوا به أوفر مما عملوه، فكان ما ذكر للمتقين من المفاز وما فيه جزاء شكرا لهم وعطاء كرما من الله تعالى وكرامة لهذه الأمة إذ جعل ثوابها أضعافا.
وحسابا: اسم مصدر حسب بفتح السين يحسب بضمها، إذا عد أشياء وجميع ما تصرف من مادة حسب متفرع عن معنى العد وتقدير المقدار، فوقع حسابا صفة جزاء، أي هو جزاء كثير مقدر على أعمالهم.
والتنوين فيه للتكثير، والوصف باسم المصدر للمبالغة وهو بمعنى المفعول،". (١)

١٤٥٩. ٦٦٨-"ل ربك من قوله: جزاء من ربك [النبأ: ٣٦] والرحمن نعت ثان.
والرب: المالك المتصرف بالتدبير ورعي الرفق والرحمة، والمراد بالسماوات والأرض وما بينهما مسماها مع ما فيها من الموجودات لأن اسم المكان قد يراد به ساكنه كما في قوله تعالى: فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها في سورة الحج [٤٥] ، فإن الظلم من صفات سكان القرية لا صفة لذاتها، والخواء على عروشها من أحوال ذات القرية لا من أحوال سكانها، فكان إطلاق القرية مرادا به كلا المعنيين.
والمراد بما بين السماوات والأرض: ما على الأرض من كائنات وما في السماوات من الملائكة وما لا يعلمه بالتفصيل إلا الله وما في الجو من المكونات حية وغيرها من أسحبة وأمطار وموجودات سابحة في الهواء.
وما موصولة وهي من صيغ العموم، وقد استفيد من ذلك تعميم ربوبيته على جميع

(١) التحرير والتنوير ٤٧/٣٠

المصنوعات.

وأتبع وصف رب السماوات بذكر اسم من أسمائه الحسنى، وهو اسم الرحمن وخص بالذكر دون غيره من الأسماء الحسنى لأن في معناه **إيماء** إلى أن ما يفيضه من خير على المتقين في الجنة هو عطاء رحمان بهم.

وفي ذكر هذه الصفة الجليلة تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسم الرحمن الوارد في القرآن كما حكى الله عنهم بقوله: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] .

لا يملكون منه خطابا يجوز أن تكون هذه الجملة حالا من ما بينهما لأن ما بين السماوات والأرض يشمل ما في ذلك من المخلوقات العاقلة، أو المزعوم لها العقل مثل الأصنام، فيتوهم أن من تلك المخلوقات من يستطيع خطاب الله ومراجعته.

ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا لإبطال مزاعم المشركين أو للاحتراس لدفع توهم أن ما تشعر به صلة رب من الرفق بالمربوبين في تدبير شؤونهم يسيغ إقدامهم على خطاب الرب.". (١)

١٤٦٠. ٦٦٩-"أن الله ارتضى قبول الشفاعة فيه وهم يعلمون ذلك بإلهام هو من قبيل الوحي لأن الإلهام في ذلك العالم لا يعتريه الخطأ.

وجملة وقال صوابا يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول، أي وقد قال المأذون له في الكلام صوابا، أي بإذن الله له في الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضي الله.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة أذن له الرحمن، أي وإلا من قال صوابا فعلم أن من لا يقول الصواب لا يؤذن له.

وفعل وقال صوابا مستعمل في معنى المضارع، أي ويقول صوابا، فعبر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك، أي في علم الله.

وإطلاق صفة الرحمن على مقام الجلالة **إيماء** إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار.

[٣٩]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩/٣٠

[سورة النبإ (٧٨) : آية ٣٩]

ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩)

استئناف ابتدائي كالفذلكة لما تقدم من وعيد ووعد، إنذار وتبشير، سيق مساق التنويه ب يوم الفصل [النبأ: ١٧] . الذي ابتدئ الكلام عليه من قوله: إن يوم الفصل كان ميقاتا [النبأ: ١٧] . والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب وهو نتيجة أعمال الناس من يوم وجود الإنسان في الأرض.

فوصف اليوم بالحق يجوز أن يراد به الثابت الواقع كما في قوله تعالى: وإن الدين لواقع [الذاريات: ٦] قوله آنفا: إن يوم الفصل كان ميقاتا، فيكون الحق بمعنى الثابت مثل ما في قوله تعالى: واقترب الوعد الحق [الأنبياء: ٩٧] .

ويجوز أن يراد بالحق ما قابل الباطل، أي العدل وفصل القضاء فيكون وصف اليوم به على وجه المجاز العقلي إذ الحق يقع فيه واليوم ظرف له قال تعالى: يوم القيامة يفصل بينكم [الممتحنة: ٣] .". (١)

١٤٦١. ٦٧٠-"والتدبير: جولان الفكر في عواقب الأشياء وبإجراء الأعمال على ما يليق بما توجد له فإن كانت السابحات جماعات الملائكة، فمعنى تدبيرها تنفيذ ما نيط بعهدتها على أكمل ما أذنت به فعبر عن ذلك بالتدبير للأمور لأنه يشبه فعل المدبر المتثبت.

وإن كانت السابحات خيل الغزاة فالمراد بالتدبير: تدبير مكائد الحرب من كر، وفر، وغارة، وقتل، وأسر، ولحاق للفارين، أو ثبات بالمكان. وإسناد التدبير إلى السابحات على هذا الوجه مجاز عقلي لأن التدبير للفرسان وإنما الخيل وسائل لتنفيذ التدبير، كما قال تعالى: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق [الحج: ٢٧] ، فأسند الإتيان إلى ضمير كل ضامر من الإبل لأن إتيان الحجيج من الفجاج العميقة يكون بسير الإبل.

وفي هذا المجاز إيماء إلى حذق الخيل وسرعة فهمها مقاصد فرسانها حتى كأنها هي المدبرة لما دبره فرسانها.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣

والأمر: الشأن والغرض المهم وتنوينه للتعظيم، وإفراده لإرادة الجنس، أي أمورا.
وينتظم من مجموع صفات النازعات، والناشطات، والسابحات، إذا فهم منها جماعات الرماة والجمالة والفرسان أن يكون إشارة إلى أصناف المقاتلين من مشاة وهم الرماة بالقسي، وفرسان على الخيل وكانت الرماة تمشي قدام الفرسان تنضح عنهم بالنبال حتى يبلغوا إلى مكان الملحمة. قال أنيف بن زبان الطائي:
وتحت نحور الخيل خرشف رجلة ... تتاح لغرات القلوب نبالها
ولتحمل الآية لهذه الاحتمالات كانت تعريضا بتهديد المشركين بحرب تشن عليهم
وهي غزوة فتح مكة أو غزوة بدر مثل سورة (والعاديات) وأضرابها، وهي من دلائل نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم إذ كانت هذه التهديدات صريحها وتعريضها في مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة والمسلمون في ضعف فحصل من هذا القسم تعريض بعذاب في الدنيا.
وجملة يوم ترجف الراجفة إلى خاشعة جواب القسم وصريح الكلام". (١)

١٤٦٢. ٦٧١-"وتأكيد الخبر ب إن ولام الابتداء لتنزيل السامعين الذين سيقت لهم القصة منزلة من ينكر ما فيها من المواعظ لعدم جريهم على الاعتبار والاتعاظ بما فيها من المواعظ.
[٢٧- ٢٩]

[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ٢٧ إلى ٢٩]
أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (٢٧) رفع سمكها فسواها (٢٨) وأغطش ليلها وأخرج ضحاها (٢٩)
انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث وهي قوله: أإنا لمردودون في الحافرة [النازعات: ١٠] وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم إحالة البعث. وإذ قد فرضوا استحالة عود الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا: أإنا لمردودون [النازعات: ١٠] جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض

(١) التحرير والتنوير ٦٥/٣٠

فقيل لهم: أأنتم أشد خلقا أم السماء، فلذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل: آلإنسان أشد خلقا، وما هم إلا من الإنسان، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفا بضمائر الغيبة من قوله: يقولون إلى قوله: فإذا هم بالساهرة [النازعات: ١٠- ١٤] ، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب.

فالجملة مستأنفة لقصد الجواب عن شبهتهم لأن حكاية شبهتهم ب يقولون أإنا إلى آخره، تقتضي ترقب جواب عن ذلك القول كما تقدم **الإيماء** إليه عند قوله: يقولون أإنا لمردودون [النازعات: ١٠] .

والاستفهام تقريري، والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى: لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون [غافر: ٥٧] ، ذلك أن نظرهم العقلي غيمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة.". (١)

١٤٦٣. ٦٧٢-"وتعريف النفس في قوله: ونهى النفس هو مثل التعريف في المأوى وفي تعريف «أصحاب الجحيم» و «أصحاب الجنة» بطريق الموصول **إيماء** إلى أن الصلتين علتان في استحقاق ذلك المأوى.

[٤٢- ٤٥]

[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ٤٢ إلى ٤٥]

يسئلونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) فيم أنت من ذكراها (٤٣) إلى ربك منتهاها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشاها (٤٥)

استئناف بياني منشؤه أن المشركين كانوا يسألون عن وقت حلول الساعة التي يتوعدهم بها

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٨٣

النبيء صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله عنهم غير مرة في القرآن كقوله: ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] .

وكان سؤالهم استهزاء واستخفافا لأنهم عقدوا قلوبهم على استحالة وقوع الساعة وربما طلبوا التعجيل بوقوعها وأوهموا أنفسهم وأشياعهم أن تأخر وقوعها دليل على اليأس منها لأنهم يتوهمون أنهم إذا فعلوا ذلك مع الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان صادقا لحمي غضب الله مرسله سبحانه فبادر بإراءتهم العذاب وهم يتوهمون شؤون الخالق كشؤون الناس إذا غضب أحدهم عجل بالانتقام طيشا وحنقا قال تعالى: لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا [الكهف: ٥٨] .

فلا جرم لما قضي حق الاستدلال على إمكان البعث بإقامة الدليل وضرب الأمثال، وعرض بعقاب الذين استحقوا بها في قوله: فإذا جاءت الطامة الكبرى [النازعات: ٣٤] ، كان ذلك مثارا لسؤالهم أن يقولوا: هل لمجيء هذه الطامة الكبرى وقت معلوم؟ فكان الحال مقتضيا هذا الاستئناف البياني قضاء لحق المقام وجوابا عن سابق الكلام.

فضمير «يسألون» عائد إلى المشركين أصحاب القلوب الواجفة والذين قالوا: أإنا لمردودون في الحافرة [النازعات: ١٠] ."(١)

١٤٦٤. ٦٧٣-"قد يخالف ما في علم الله، وأن الله لا يقر رسوله صلى الله عليه وسلم على ما فيه مخالفة لما أراده الله في نفس الأمر.

ونظير هذه القضية قضية أسرى بدر التي حدثت بعد سنين من نزول هذه الآية والموقف فيهما متماثل.

وفي قوله تعالى: وما يدريك لعله يزكى [عبس: ٣] إيماء إلى عذر النبيء صلى الله عليه وسلم في

تأخيره إرشاد ابن أم مكتوم لما علمت من أنه يستعمل في التنبيه على أمر مغفول عنه، والمعنى: لعله يزكى تزكية عظيمة كانت نفسه متهيئة لها ساعتئذ إذ جاء مسترشدا حريصا، وهذه حالة خفية.

(١) التحرير والتنوير ٩٤/٣٠

وكذلك عذره في الحرص على إرشاد المشرك بقوله: وما عليك ألا يزكى [عبس: ٧] إذ كان النبيء صلى الله عليه وسلم يخشى تبعة من فوات إيمان المشرك بسبب قطع المحاورة معه والإقبال على استجابة المؤمن المسترشد.

فإن قال قائل: فلما ذا لم يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم.

قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبين غفلة، أو إشعار بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تعطش ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر بين المسلمين وليحصل للنبيء صلى الله عليه وسلم مزية كلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا المهيع من علي الاجتهاد لتكون نفسه غير غافلة عن مثله وليتأسى به علماء أمته وحكامها وولاة أمورها.

ونظير هذا ما ضربه الله لموسى عليه السلام من المثل في ملاقاة الخضر، وما جرى من المحاورة بينهما، وقول الخضر لموسى: وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا [الكهف: ٦٨] ثم قوله له: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا [الكهف: ٨٢] . وقد سبق مثله في الشرائع السابقة كقوله في قصة نوح: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح [هود: ٤٦] وقوله لإبراهيم: لا ينال عهدي الظالمين [البقرة: ١٢٤] .

هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلا وتفصيلا، وهو بناء على أساس". (١)

١٤٦٥. ٦٧٤-"فذكر فعل خلقه الثاني من أسلوب المساواة ليس بإيجاز، وليس بإطناب.

والنطفة: الماء القليل، وهي فعلة بمعنى مفعولة كقولهم: قبضة حب، وغرفة ماء.

وغلب إطلاق النطفة على الماء الذي منه التناسل، فذكرت النطفة لتعين ذكرها لأنها مادة خلق الحيوان للدلالة على أن صنع الله بديع فإمكان البعث حاصل، وليس في ذكر النطفة هنا **إيماء** إلى تحقير أصل نشأة الإنسان لأن قصد ذلك محل نظر، على أن المقام هنا للدلالة على خلق عظيم وليس مقام زجر المتكبر.

وفرع على فعل خلقه فعل فقدره بفاء التفريع لأن التقدير هنا إيجاد الشيء على مقدار

---

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٣٠

مضبوط منظم كقوله تعالى: وخلق كل شيء فقدره تقديرا [الفرقان: ٢] أي جعل التقدير من آثار الخلق لأنه خلقه متهيئا للنماء وما يلابسه من العقل والتصرف وتمكينه من النظر بعقله، والأعمال التي يريد إتيانها وذلك حاصل مع خلقه مدرجا مفرعا.

وهذا التفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان في خلال الاستدلال.

وحرف ثم من قوله: ثم السبيل يسره للتراخي الرتبي لأن تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدلالة على بديع صنع الله لأنه أثر العقل وهو أعظم ما في خلق الإنسان وهو أقوى في المنة.

والسبيل: الطريق، وهو هنا مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيها للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي تشبيه المحسوس بالمعقول.

ويجوز أن يكون مستعارا لمسقط المولود من بطن أمه فقد أطلق على ذلك الممر اسم السبيل في قولهم: «السبيلان» فيكون هذا من استعمال اللفظ في مجازيه. وفيه مناسبة لقوله بعده: ثم أماته فأقبره، ف أماته مقابل خلقه و (أقبره) مقابل ثم السبيل يسره لأن الإقبار إدخال في الأرض وهو ضد خروج المولود إلى الأرض.

والتيسير: التسهيل، والسبيل منصوب بفعل مضمر على طريق". (١)

١٤٦٦. ٦٧٥-"والإغناء: جعل الغير غنيا، أي غير محتاج لشيء في غرضه. وأصل الإغناء والغنى:

حصول النافع المحتاج إليه، قال تعالى: وما أغني عنكم من الله من شيء [يوسف: ٦٧]

وقال: ما أغنى عني ماليه [الحاقة: ٢٨] . وقد استعمل هنا في معنى الإشغال والإشغال أعم. فاستعمل الإغناء الذي هو نفع في معنى الإشغال الأعم على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة **إيماء** إلى أن المؤمنين يشغلهم عن قرابتهم المشركين فرط النعيم ورفع الدرجات كما دل عليه قوله عقبه: وجوه يومئذ مسفرة إلى آخر السورة.

وجملة: وجوه يومئذ مسفرة جواب (إذا) ، أي إذا جاءت الصاخة كان الناس صنفين صنف وجوههم مسفرة وصنف وجوههم مغبرة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٣/٣٠

وقدم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في سورة النازعات [٣٧] فأما من طغى ثم قوله: وأما من خاف مقام ربه [النازعات: ٤٠] إلى آخره لأن هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين فكان حظ الفريقين مقصودا مسوقا إليه الكلام وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك من قوله: وما يدريك لعله يزكى [عبس: ٣] إلى آخره، ثم قوله: أما من استغنى فأنت له تصدى [عبس: ٥، ٦] .

وأما سورة النازعات فقد بنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة [النازعات: ٦- ٨] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب.

وتنكير وجوه الأول والثاني للتنويع، وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ.

وإعادة يومئذ لتأكيد الربط بين الشرط وجوابه ولطول الفصل بينهما والتقدير:

وجوه مسفرة يوم يفر المرء من أخيه إلى آخره.

وقد أغنت إعادة يومئذ عن ربط الجواب بالفاء.

والمسفرة ذات الإسفار، والإسفار النور والضياء يقال: أسفر الصبح، إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر، أي وجوه متهللة فرحا وعليها أثر النعيم.". (١)

١٤٦٧. ٦٧٦-"على الأرض فيهلك الناس والأنعام. وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس وانكدار النجوم.

والوحوش: جمع وحش وهو الحيوان البري غير المتأنس بالناس.

وحشرها: جمعها في مكان واحد، أي مكان من الأرض عند اقتراب فناء العالم فقد يكون سبب حشرها طوفانا يغمر الأرض من فيضان البحار فكلما غمر جزءا من الأرض فرت وحوشه حتى تجتمع في مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك، ويشعر بهذا عطف وإذا البحار سجرت عليه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٣٠

وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش **إيماء** إلى شدة الهول فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس، وليس هذا الحشر الذي يحشر الناس به للحساب بل هذا حشر في الدنيا وهو المناسب لما عد معه من الأشراط، وروي معناه عن أبي بن كعب.

وتسجير البحار: فيضانها قال تعالى: والبحر المسجور في سورة الطور [٦] .

والمراد تجاوز مياهها معدل سطوحها واختلاط بعضها ببعض وذلك من آثار اختلال قوة كرة الهواء التي كانت ضاغطة عليها، وقد وقع في آية سورة الانفطار [٣] : وإذا البحار فجرت وإذا حدث ذلك اختلط ماؤها برملها فتغير لونه.

يقال: سجر مضاعفا وسجر مخففا. وقرئ بهما فقرأه الجمهور مشددا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مخففا.

وقوله تعالى: وإذا النفوس زوجت شروع في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يوم القيامة وقد انتقل إلى ذكرها لأنها تحصل عقب الستة التي قبلها وابتدئ بأولها وهو تزويج النفوس، والتزويج: جعل الشيء زوجا لغيره بعد أن كان كلاهما فردا، والتزويج أيضا: جعل الأشياء أنواعا متماثلة قال تعالى: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين [الرعد: ٣] لأن الزوج يطلق على النوع والصنف من الأشياء والنفوس: جمع نفس، والنفس يطلق على الروح، قال تعالى: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك [الفجر:

٢٧، ٢٨] وقال: أخرجوا أنفسكم [الأنعام: ٩٣] ."." (١)

١٤٦٨. ٦٧٧-"وإضافة «قول» إلى رسول إما لأدنى ملابسة لأن جبريل يبلغ ألفاظ القرآن إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فيحكيها كما أمره الله تعالى فهو قائلها، أي صادرة منه ألفاظها.

وفي التعبير عن جبريل بوصف رسول **إيماء** إلى أن القول الذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٣/٣٠

بإبلاغها كما هي.

قال ابن عطية: وقال آخرون الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم في الآية كلها اهـ. ولم يعين اسم أحد ممن قالوا هذا من المفسرين.

واستطرد في خلال الثناء على القرآن الثناء على الملك المرسل به تنويها بالقرآن فإجراء أوصاف الثناء على رسول للتنويه به أيضا، وللكناية على أن ما نزل به صدق لأن كمال القائل يدل على صدق القول.

ووصف رسول بخمسة أوصاف:

الأول: كريم وهو النفيس في نوعه.

والوصفان الثاني والثالث: ذي قوة عند ذي العرش مكين فالقوة حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يقدر عليها غالبا. ومن أوصافه تعالى: «القوي» ، ومنها مقدرة الذات من إنسان أو حيوان على كثير من الأعمال التي لا يقدر عليها أبناء نوعه.

وضدها الضعف قال تعالى: الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف

قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة

[الروم: ٥٤] .

وتطلق القوة مجازا على ثبات النفس على مرادها والإقدام ورباطة الجأش، قال تعالى: يا يحيى خذ الكتاب بقوة [مريم: ١٢] وقال: خذوا ما آتيناكم بقوة [البقرة: ٦٣] ، فوصف جبريل ب ذي قوة يجوز أن يكون شدة المقدرة كما وصف بذلك في قوله تعالى:

ذو مرة [النجم: ٦] ، ويجوز أن يكون في القوة المجازية وهي الثبات في أداء ما أرسل به كقوله تعالى: علمه شديد القوى [النجم: ٥] لأن المناسب للتعليم هو قوة النفس، وأما إذا كان المراد محمد صلى الله عليه وسلم فوصفه ب ذي قوة عند ذي العرش يراد بها المعنى المجازي وهو الكرامة والاستجابة له.". (١)

١٤٦٩. ٦٧٨-"وعلق وصف (بصير) بضمير الإنسان الذي ظن أن لن يحور، والمراد: العلم بأحواله لا بذاته.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٣٠

وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام بهذا المجرور أي بصير به لا محالة مع مراعاة الفواصل.

[١٦- ١٩]

[سورة الانشقاق (٨٤) : الآيات ١٦ إلى ١٩]

فلا أقسم بالشفق (١٦) والليل وما وسق (١٧) والقمر إذا اتسق (١٨) لتركبن طبقا عن طبق (١٩)

الفاء لتفريع القسم وجوابه، على التفصيل الذي في قوله: فأما من أوتي كتابه بيمينه [الانشقاق: ٧] إلى هنا: فإنه اقتضى أن ثمة حسابا وجزاء بخير وشر فكان هذا التفريع فذلكة وحوصلة لما فصل من الأحوال وكان أيضا جمعا إجماليا لما يعترض في ذلك من الأهوال.

وتقدم أن: «لا أقسم» يراد منه أقسم، وتقدم وجه القسم بهذه الأحوال والمخلوقات عند قوله: فلا أقسم بالخنس في سورة التكوير [١٥] .

ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسم عليه لأن الشفق والليل والقمر تخالط أحوالا بين الظلمة وظهور النور معها، أو في خلالها، وذلك مناسب لما في قوله: لتركبن طبقا عن طبق من تفاوت الأحوال التي يختبط فيها الناس يوم القيامة أو في حياتهم الدنيا، أو من ظهور أحوال خير من خلال أحوال شر أو انتظار تغير الأحوال إلى ما يرضيهم إن كان الخطاب للمسلمين خاصة كما سيأتي.

ولعل ذكر الشفق **إيماء** إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأن غروب الشمس مثل حالة الموت، وأن ذكر الليل **إيماء** إلى شدة الهول يوم الحساب وذكر القمر **إيماء** إلى حصول الرحمة للمؤمنين.

والشفق: اسم للحمرة التي تظهر في أفق مغرب الشمس إثر غروبها وهو ضياء من شعاع الشمس إذا حجبها عن عيون الناس بعض جرم الأرض، واختلف في تسمية البياض الذي يكون عقب الاحمرار شفقا.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٢٦

١٤٧٠. ٦٧٩-"[سورة الانشقاق (٨٤) : آية ٢٢]

بل الذين كفروا يكذبون (٢٢)

يجوز أنه إضراب انتقالي من التعجيب من عدم إيمانهم وإنكاره عليهم إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على الكفر والطعن في القرآن، فالكلام ارتقاء في التعجيب والإنكار.

فالإخبار عنهم بأنهم يكذبون مستعمل في التعجيب والإنكار فلذلك عبر عنه بالفعل المضارع الذي يستروح منه استحضار الحالة مثل قوله: يجادلنا في قوم لوط [هود: ٧٤] .

ويجوز أن يكون بل إضرابا إبطاليا، أي لا يوجد ما لأجله لا يؤمنون ولا يصدقون بالقرآن بل الواقع بضد ذلك فإن بواعث الإيمان من الدلائل متوفرة ودواعي الاعتراف بصدق القرآن والخضوع لدعوته متظاهرة ولكنهم يكذبون، أي يستمرون على التكذيب عنادا وكبرياء ويومىء إلى ذلك قوله: والله أعلم بما يوعون [الانشقاق: ٢٣] .

وهذان المعنيان نظير الوجهين في قوله تعالى في سورة الانفطار [٩- ١٠] بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين

وفي اجتلاب الفعل المضارع دلالة على حدوث التكذيب منهم وتجدده، أي بل هم مستمرون على التكذيب عنادا وليس ذلك اعتقادا فكما نفي عنهم تجدد الإيمان وتجدد الخضوع عند قراءة القرآن أثبت لهم تجدد التكذيب.

وقوله: الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: بل هم يكذبون، فعدل إلى الموصول والصلة لما تؤذن به الصلة من ذمهم بالكفر **للإيماء** إلى علة الخبر، أي أنهم استمروا على التكذيب لتأصل الكفر فيهم وكونهم ينعتون به.

[٢٣]

[سورة الانشقاق (٨٤) : آية ٢٣]

والله أعلم بما يوعون (٢٣)

اعتراض بين جملة بل الذين كفروا يكذبون [الانشقاق: ٢٢] ، وجملة: فبشرهم بعذاب أليم

[الانشقاق: ٢٤] وهو كناية عن الإنذار والتهديد بأن الله يجازيهم بسوء طويتهم.". (١)

١٤٧١. ٦٨٠-"مواقيت الأشهر والفصل. كما قال تعالى في نحو هذا: ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم
[المائدة: ٩٧] .
وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأن الله وعد بوقوعه قال تعالى: ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون [المعارج: ٤٤] مع ما في القسم به من إدماج الإيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرض بهم.
ومناسبة القسم ب شاهد ومشهود على اختلاف تأويلاته، ستذكر عند ذكر التأويلات وهي قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود، ويقابله في المقسم عليه قوله:
وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود والبروج: تطلق على علامات من قبة الجو يتراءى للناظر أن الشمس تكون في سمتها مدة شهر من أشهر السنة الشمسية، فالبرج: اسم منقول من اسم البرج بمعنى القصر لأن الشمس تنزله أو منقول من البرج بمعنى الحصن.
والبرج السماوي يتألف من مجموعة نجوم قريب بعضها من بعض لا تختلف أبعادها أبدا، وإنما سمي برجا لأن المصطلحين تخيلوا أن الشمس تحل فيه مدة فهو كالبرج، أي القصر، أو الحصن، ولما وجدوا كل مجموعة منها يخال منها شكل لو أحيط بإطار لخط مفروض لأشبه محيطها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات، ميزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريبا فقالوا:
برج الثور، برج الدلو، برج السنبلة مثلا.
وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهارا في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلا، وقد تقدم عند قوله تعالى: تبارك الذي جعل في السماء بروجا في سورة الفرقان [٦١] .
وشاهد ومشهود مراد بهما النوع. فالشاهد: الرائي، أو المخبر بحق لإلزام منكره. والمشهود:

---
(١) التحرير والتنوير ٢٣٣/٣٠

المرئي أو المشهود عليه بحق. وحذف متعلق الوصفين لدلالة". (١)

١٤٧٢. ٦٨١-"[سورة الطارق (٨٦) : الآيات ١١ إلى ١٤]

والسماء ذات الرجع (١١) والأرض ذات الصدع (١٢) إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤)

بعد أن تبين الدليل على إمكان البعث أعقب بتحقيق أن القرآن حق وأن ما فيه قول فصل إبطالا لما موه عليهم من أن أخباره غير صادقة إذ قد أخبرهم بإحياء الرمم البالية.

فالجملة استئناف ابتدائي لغرض من أغراض السورة.

وافتتح الكلام بالقسم تحقيقا لصدق القرآن في الإخبار بالبعث وفي غير ذلك مما اشتمل عليه من الهدى. ولذلك أعيد القسم ب السماء كما أقسم بها في أول السورة، وذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر.

وفي الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا» . الحديث.

وفي اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله: إنه على رجعه لقادر [الطارق: ٨] وفيه محسن الجناس التام وفي مسمى الرجع وهو المطر المعاقب لمطر آخر مناسبة لمعنى الرجع البعث فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة.

وعطف الأرض في القسم لأن بذكر الأرض إتمام المناسبة بين المقسم والمقسم عليه كما علمت من المثل الذي في الحديث.

والصدع: الشق، وهو مصدر بمعنى المفعول، أي المصدوع عنه، وهو النبات الذي يخرج من شقوق الأرض قال تعالى: أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا [عبس: ٢٥- ٢٩] .

ولأن في هذين الحالين إيماء إلى دليل آخر من دلائل إحياء الناس للبعث فكان في هذا القسم دليلان.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٣٠

والضمير الواقع اسما ل (إن) عائد إلى القرآن وهو معلوم من المقام.". (١)

١٤٧٣. ٦٨٢-"تعالى، وإذا نفينا الإلاهية عن الأصنام لأنها لا تخلق كما في قوله تعالى: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له [الحج: ٧٣] كان ذلك تسبيحا لذات الله لا لاسمه لأن اسمه لم يجر عليه في هذا الكلام إخبار ولا توصيف.

فهذا مناط الفرق بين استعمال سبح اسم ربك واستعمال وسبحه ومآل الإطلاقين في المعنى واحد لأن كلا الإطلاقين مراد به الإرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائص.

واعلم أن مما يدل على إرادة التسبيح بالقول وجود قرينة في الكلام تقتضيه مثل التوقيت بالوقت في قوله تعالى: وسبحوه بكرة وأصيلا [الأحزاب: ٤٢] فإن الذي يكلف بتوقيته هو الأقوال والأفعال دون العقائد، ومثل تعدية الفعل بالباء مثل قوله تعالى:

وسبحوا بحمد ربهم [السجدة: ١٥] فإن الحمد قول فلا يصاحب إلا قولا مثله.

وتعريف: اسم بطريق الإضافة إلى ربك دون تعريفه بالإضافة إلى علم الجلالة نحو: سبح اسم الله، لما يشعر به وصف رب من أنه الخالق المدبر. وأما إضافة (رب) إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم فلتشريفه بهذه الإضافة وأن يكون له حظ زائد على التكليف بالتسبيح.

ثم أجري على لفظ ربك صفة الأعلى وما بعدها من الصلات الدالة على تصرفات قدرته، فهو مستحق للتنزيه لصفات ذاته ولصفات إنعامه على الناس بخلقهم في أحسن تقويم، وهدايتهم، ورزقهم، ورزق أنعامهم، للإيماء إلى موجب الأمر بتسبيح اسمه بأنه حقيق بالتنزيه استحقاقا لذاته ولوصفه بصفة أنه خالق المخلوقات خلقا يدل على العلم والحكمة وإتقان الصنع، وبأنه أنعم بالهدى والرزق الذين بهما استقامة حال البشر في النفس والجسد وأوثرت الصفات الثلاث الأول لما لها من المناسبة لغرض السورة كما سنبينه.

فلفظ الأعلى اسم يفيد الزيادة في صفة العلو، أي الارتفاع. والارتفاع معدود في عرف الناس من الكمال فلا ينسب العلو بدون تقييد إلا إلى شيء غير مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضل عليه أفاد التفضيل المطلق كما في وصفه تعالى هنا. ولهذا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٦/٣٠

حكي عن فرعون أنه قال: أنا ربكم الأعلى [النازعات: ٢٤] .". (١)

١٤٧٤. ٦٨٣-"والمراد: إخراجه من الأرض وهو إنباته.

والمرعى: النبت الذي ترعاه السوائم، وأصله: إما مصدر ميمي أطلق على الشيء المرعي من إطلاق المصدر على المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق وإما اسم مكان الرعي أطلق على ما ينبت فيه ويرعى إطلاقا مجازيا بعلاقة الحلول كما أطلق اسم الوادي على الماء الجاري فيه.

والقرينة جعله مفعولا ل أخرج، وإيثار كلمة المرعى دون لفظ النبات، لما يشعر به مادة الرعي من نفع الأنعام به ونفعها للناس الذين يتخذونها مع رعاية الفاصلة ...

والغثاء: بضم الغين المعجمة وتخفيف المثلثة، ويقال بتشديد المثلثة هو اليابس من النبت.

والأحوى: الموصوف بالحوة بضم الحاء وتشديد الواو، وهي من الألوان: سمرة تقرب من السواد. وهو صفة غثاء لأن الغثاء يابس فتصير خضرته حوة.

وهذا الوصف أحوى لاستحضار تغير لونه بعد أن كان أخضر يانعا وذلك دليل على تصرفه تعالى بالإنشاء وبالإنهاء. وفي وصف إخراج الله تعالى المرعى وجعله غثاء أحوى مع ما سبقه من الأوصاف في سياق المناسبة بينها وبين الغرض المسوق له الكلام **إيماء** إلى تمثيل حال القرآن وهدايته وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس بحال الغيث

الذي ينبت به المرعى فتنتفع به الدواب والأنعام، وإلى أن هذه الشريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله فيها كما يكمل المرعى ويبلغ نضجه حين يصير غثاء أحوى، على طريقة تمثيلية مكنية رمز إليها بذكر لازم الغيث وهو المرعى. وقد جاء بيان هذا **الإيماء** وتفصيله

بقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا»

الحديث.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٤/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٨/٣٠

١٤٧٥. ٦٨٤-"واليسرى: مؤنث الأيسر، وصيغة فعلى تدل على قوة الوصف لأنها مؤنث أفعل.

والموصوف محذوف، وتأنيث الوصف مشعر بأن الموصوف المحذوف مما يجري في الكلام على اعتبار اسمه مؤنثا بأن يكون مفردا فيه علامة تأنيث أو يكون جمعا إذ المجموع تعامل معاملة المؤنث. فكان الوصف المؤنث مناديا على تقدير موصوف مناسب للتأنيث في لفظه، وسياق الكلام الذي قبله يهدي إلى أن يكون الموصوف المقدر معنى الشريعة فإن خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن مراعى فيه وصفه العنواني وهو أنه رسول فلا جرم أن يكون أول شؤونه هو ما أرسل به وهو الشريعة.

وقوله: ونيسرك لليسرى إن حمل على ظاهر نظم الكلام وهو ما جرى عليه المفسرون. فالتيسير مستعار للتهيئة والتسخير، أي قوة تمكينه صلى الله عليه وسلم من اليسرى وتصرفه فيها بما يأمر الله به، أي نهيئك للأمور اليسرى في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ القرآن لك وتيسير الشريعة التي أرسلت بها وتيسير الخير لك في الدنيا والآخرة. وهذه الاستعارة تحسنها المشاكلة.

ومعنى اللام في قوله: لليسرى العلة، أي لأجل اليسرى، أي لقبولها، ونحوه

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «كل ميسر لما خلق له»

وتكون هذه الآية على مهيع قوله تعالى:

فسنيسره لليسرى وقوله: فسنيسره للعسرى في سورة الليل [٧- ١٠] .

ويجوز أن يجعل الكلام جاريا على خلاف مقتضى الظاهر بسلوك أسلوب القلب وأن الأصل: ونيسر لك اليسرى، أي نجعلها سهلة لك فلا تشق عليك فيبقى فعل: «نيسرك» على حقيقته، وإنما خولف عمله في مفعوله والمجرور المتعلق به على عكس الشائع في مفعوله والمجرور المتعلق به.

وفي وصفها ب (اليسرى) إيماء إلى استتباب تيسره لها بما أنها جعلت يسرى، فلم يبق إلا حفظه من الموانع التي يشق معها تلقي اليسرى.

فاشتمل الكلام على تيسيرين: تيسير ما كلف به النبيء صلى الله عليه وسلم، أي جعله

يسيرا مع وفائه بالمقصود منه، وتيسير النبيء صلى الله عليه وسلم للقيام بما كلف به.". (١)

١٤٧٦. ٦٨٥-"بسم الله الرحمن الرحيم

٨٨- سورة الغاشية

سميت في المصاحف والتفاسير «سورة الغاشية» . وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من «جامعه» لوقوع لفظ «الغاشية» في أولها.

وثبتت في السنة تسميتها «هل أتاك حديث الغاشية» ،

ففي «الموطأ» أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير «بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال:

هل أتاك حديث الغاشية

[الغاشية: ١] . وهذا ظاهر في التسمية لأن السائل سأل عما يقرأ مع سورة الجمعة فالمسؤول عنه السورة الثانية، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه» .

وربما سميت «سورة هل أتاك» بدون كلمة حديث الغاشية، وبذلك عنونها ابن عطية في «تفسيره» وهو اختصار.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة السابعة والستين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف.

وآياتها ست وعشرون.

أغراضها

اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهة حالتهم، ومن ثواب قوم ناعمة حالتهم وعلى وجه الإجمال المرهب أو المرغب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/٣٠

والإيماء إلى ما يبين ذلك الإجمال كله بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة". (١)

١٤٧٧. ٦٨٦-"من توقع معاملته إياهم بمثل ما عامل به المكذبين الأولين. أي أن الله بالمرصاد لكل طاغ مفسد.

وعلى كونها جواب القسم تكون كناية عن تسليط العذاب على المشركين إذ لا يراد من الرصد إلا دفع المعتدي من عدو ونحوه، وهو المقسم عليه وما قبله اعتراضا تفننا في نظم الكلام إذ قدم على المقصود بالقسم ما هو استدلال عليه وتنظير بما سبق من عقاب أمثالهم من الأمم من قوله: ألم تر كيف فعل ربك بعاد إلخ، وهو أسلوب من أساليب الخطابة إذ يجعل البيان والتنظير بمنزلة المقدمة ويجعل الغرض المقصود بمنزلة النتيجة والعلة إذا كان الكلام صالحا للاعتبارين مع قصد الاهتمام بالمقدم والمبادرة به.

والعدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى ربك في قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب وقوله: إن ربك لبالمرصاد **إيماء** إلى أن فاعل ذلك ربه الذي شأنه أن ينتصر له، فهو مؤمل بأن يعذب الذين كذبوه انتصارا له انتصار المولى لوليه.

والمرصاد: المكان الذي يترقب فيه الرصد، أي الجماعة المراقبون شيئا، وصيغة مفعال تأتي للمكان وللزمان كما تأتي للآلة، فمعنى الآلة هنا غير محتمل، فهو هنا إما للزمان أو المكان إذ الرصد الترقب.

وتعريف «المرصاد» تعريف الجنس وهو يفيد عموم المتعلق، أي بالمرصاد لكل فاعل، فهو تمثيل لعموم علم الله تعالى بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم، بحال اطلاع الرصد على تحركات العدو والمغيرين، وهذا المثل كناية عن مجازاة كل عامل بما عمله وما يعمله إذ لا يقصد الرصد إلا للجزاء على العدوان، وفي ما يفيده من التعليل **إيماء** إلى أن الله لم يظلمهم فيما أصابهم به.

والباء في قوله لبالمرصاد للظرفية". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٣/٣٠

١٤٧٨. ٦٨٧-"ووصف النفس ب المطمئنة ليس وصفا للتعريف ولا للتخصيص، أي لتمييز المخاطبين بالوصف الذي يميزهم عمن عداهم فيعرفون أنهم المخاطبون المأذونون بدخول الجنة لأنهم لا يعرفون أنهم مطمئنون إلا بعد الإذن لهم بدخول الجنة، فالوصف مراد به الثناء والإيماء إلى وجه بناء الخبر. وتبشير من وجه الخطاب إليهم بأنهم مطمئنون آمنون.

ويجوز أن يكون للتعريف أو التخصيص بأن يجعل الله إلهاما في قلوبهم يعرفون به أنهم مطمئنون.

والاطمئنان: مجاز في طيب النفس وعدم ترددها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح فيهم حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا ومن أثره اطمئنانهم يوم القيامة حين يرون مخائل الرضى والسعادة نحوهم ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء.

وقد فسر الاطمئنان: بيقين وجود الله ووحدانيته، وفسر باليقين بوعد الله، وبالإخلاص في العمل، ولا جرم أن ذلك كله من مقومات الاطمئنان المقصود فمجموعه مراد وأجزاؤه مقصودة، وفسر بتبشيرهم بالجنة، أي قبل ندائهم ثم نودوا بأن يدخلوا الجنة.

والرجوع يحتمل الحقيقة والمجاز كما علمت من الوجوه المتقدمة في معنى الآية.

والراضية: التي رضت بما أعطيته من كرامة وهو كناية عن إعطائها كل ما تطمح إليه.

والمرضية: اسم مفعول وأصله: مرضيا عنها، فوقع فيه الحذف والإيصال فصار نائب فاعل بدون حرف الجر، والمقصود من هذا الوصف زيادة الثناء مع الكناية عن الزيادة في إفاضة الإنعام لأن المرضي عنه يزيده الراضي عنه من الهبات والعطايا فوق ما رضي به هو.

وفرع على هذه البشرى الإجمالية تفصيل ذلك بقوله: فادخلي في عبادي وادخلي جنتي فهو تفصيل بعد الإجمال لتكرير إدخال السرور على أهلها.

والمعنى: ادخلي في زمرة عبادي. والمراد العباد الصالحون بقرينة مقام الإضافة مع قرنه بقوله: جنتي ومعنى هذا كقوله تعالى: لندخلنهم في الصالحين [العنكبوت: ٩] ". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٣/٣٠

١٤٧٩. ٦٨٨-"بدرا فإذا صار بدرا صار تلوه الشمس حقيقة لأنه يظهر عند ما تغرب الشمس، وقريبا من غروبها قبله أو بعده، وهو أيضا يضيء في أكثر ليالي الشهر جعله الله عوضا عن الشمس في عدة ليال في الإنارة، ولذلك قيد القسم بحين تلوه لأن تلوه للشمس حينئذ تظهر منه مظاهر التلو للناظرين، فهذا الزمان مثل زمان الضحى في القسم به، فكان بمنزلة قسم بوقت تلوه الشمس، فحصل القسم بذات القمر وبتلوه الشمس.

وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن وهو مما أشرت إليه في المقدمة العاشرة.

وابتدئ بالشمس لمناسبة المقام **إيماء** للتنويه بالإسلام لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكا، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، وأتبع بالقمر لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه لأنهما مثل لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك وذلك عكس ما في سورة الليل لما يأتي.

ومناسبة استحضار السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل، واضحة، ثم ذكرت النفس الإنسانية لأنها مظهر الهدى والضلال وهو المقصود.

والضمير المؤنث في قوله: جلاها ظاهره أنه عائد إلى الشمس فمعنى تجلية النهار بالشمس وقت ظهور الشمس.

فإسناد التجلية إلى النهار مجاز عقلي والقسم إنما هو بالنهار لأنه حالة دالة على دقيق نظام العالم الأرضي. وقيل: الضمير عائد إلى الأرض، أي أضاء الأرض فتجلت للناظرين لظهور المقصود كما يقال عند نزول المطر «أرسلت» يعنون أرسلت السماء ماءها.

وقيد القسم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجا للمنة في القسم.

وابتدئ القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأصلية والمنعكسة لأن الشمس". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٧

١٤٨٠. ٦٨٩-"أعظم النيرات التي يصل نور شديد منها للأرض، ولما في حالها وحال أضوائها من **الإيماء** إلى أنها مثل لظهور الإيمان بعد الكفر وبث التقوى بعد الفجور فإن الكفر والمعاصي تمثل بالظلمة والإيمان والطاعات تمثل بالضياء قال تعالى: ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه [المائدة: ١٦] .

وأعقب القسم بالنهار بالقسم بالليل لأن الليل مقابل وقت النهار فهو وقت الإظلام.

والغشي: التغطية وليس الليل بمغط للشمس على الحقيقة ولكنه مسبب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب وهو زمن لذلك الغشي.

فإسناد الغشي إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمنه أو إلى مسببه (بفتح الباء) .

والغاشي في الحقيقة هو تكوير الأرض ودورانها تجاه مظهر الشمس وهي الدورة اليومية، وقيل: ضمير المؤنث في يغشاها عائد إلى الأرض على نحو ما قيل في والنهار إذا جلاها وإذا في قوله: إذا تلاها وقوله: إذا جلاها وقوله: إذا يغشاها في محل نصب على الظرفية متعلقة بكون هو حال من القمر ومن النهار ومن الليل فهو ظرف مستقر، أي مقسما بكل واحد من هذه الثلاثة في الحالة الدالة على أعظم أحواله وأشدها دلالة على عظيم صنع الله تعالى.

وبناء السماء تشبيه لرفعها فوق الأرض بالبناء. والسماء آفاق الكواكب قال تعالى: لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق [المؤمنون: ١٧] وتقييد القسم بالليل بوقت تغشيته تذكيرا بالعبرة بحدوث حالة الظلمة بعد حالة النور.

وطحو الأرض: بسطها وتوطئتها للسير والجلوس والاضطجاع، يقال: طحا يطحو ويطحي طحوا وطحيا وهو مرادف «دحا» في سورة النازعات [٣٠] .

و «النفس» : ذات الإنسان كما تقدم عند قوله تعالى: يا أيتها النفس المطمئنة [الفجر: ٢٧] وتنكير «نفس» للنوعية أي جنس النفس فيعم كل نفس عموما بالقرينة على نحو قوله تعالى: علمت نفس ما قدمت وأخرت [الانفطار: ٥] ." (١)

١٤٨١. ٦٩٠-"فالمقصود منه إثبات أن من شؤون الله تعالى تيسرا للعبد أن يعمل بعمل السعادة أو عمل الشقاء سواء كان عمله أصلا للسعادة كالإيمان أو للشقاوة كالكفر، أم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠

كان للعمل مما يزيد السعادة وينقص من الشقاوة وذلك بمقدار الأعمال الصالحة لمن كان مؤمنا لأن ثبوت أحد معنيي التيسير يدل على ثبوت جنسه فيصلح دليلا لثبوت التيسير من أصله.

أو يكون المقصود من سوق الآية الاستدلال على قوله: «اعملوا» لأن الآية ذكرت عملا وذكرت تيسيرا لليسرى وتيسيرا للعسرى، فيكون الحديث إشارة إلى أن العمل هو علامة التيسير وتكون اليسرى معنيا بها السعادة والعسرى معنيا بها الشقاوة، وما صدق السعادة الفوز بالجنة، وما صدق الشقاوة الهوي في النار.

وإذ كان الوعد بتيسير اليسرى لصاحب تلك الصلات الدالة على أعمال الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى كان سلوك طريق الموصولية **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو التيسير فتعين أن التيسير مسبب عن تلك الصلات، أي جزاء عن فعلها: فالمتيسر: تيسير الدوام عليها، وتكون اليسرى صفة للأعمال، وذلك من الإظهار في مقام الإضمار.

والأصل: مستيسر له أعماله، وعدل عن الإضمار إلى وصف اليسرى للثناء على تلك الأعمال بأنها ميسرة من الله كقوله تعالى: ونيسرك لليسرى في سورة الأعلى [٨] .

وخلاصة الحديث أنه بيان للفرق بين تعلق علم الله بأعمال عباده قبل أن يعملوها، وبين تعلق خطابه إياهم بشرائعه، وأن ما يصدر عن الناس من أعمال ظاهرة وباطنة إلى خاتمة كل أحد وموافاته هو عنوان للناس على ما كان قد علمه الله، ويلتقي المهيعان في أن العمل هو وسيلة الحصول على الجنة أو الوقوع في جهنم.

وإنما خص الإعطاء بالذكر في قوله: فأما من أعطى واتقى مع شمول اتقى لمفاده، وخص البخل بالذكر في قوله: وأما من بخل واستغنى مع شمول استغنى له، لتحريض المسلمين على الإعطاء، فالإعطاء والتقوى شعار المسلمين مع التصديق بالحسنى وضد الثلاثة من شعار المشركين.". (١)

١٤٨٢. ٦٩١-"«وقد ودع محمد» . ولعل

جندبا روى حديثين جمعهما ابن عيينة. وقيل: إن كلمة «في غار» تصحيف، وأن أصلها:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٨٦

كنت غازيا. ويتعين حينئذ أن يكون حديثه جمع حديثين.

وعدت هذه السورة حادية عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الفجر وقبل سورة الانشراح.

وعدد آيها إحدى عشرة آية.

وهي أول سورة في قصار المفصل.

أغراضها

إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبيء صلى الله عليه وسلم قد انقطع عنه.

وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله.

[١- ٣]

[سورة الضحى (٩٣) : الآيات ١ إلى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣)

القسم لتأكيد الخبر ردا على زعم المشركين أن الوحي انقطع عن النبيء صلى الله عليه وسلم حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليال. فالتأكيد منصب على التعريض المعرض به لإبطال دعوى المشركين. فالتأكيد تعريض بالمشركين وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتردد في وقوع ما يخبره الله بوقوعه.

ومناسبة القسم ب الضحى والليل أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو **إيماء** إلى تمثيل

نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام". (١)

١٤٨٣. ٦٩٢-"والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة **إيماء** إلى أن الإسلام جاء مصدقا لها وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام.

والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه.

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه.

[١- ٥]

[سورة التين (٩٥) : الآيات ١ إلى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣) لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤)

ثم رددناه أسفل سافلين (٥)

ابتداء الكلام بالقسم المؤكد يؤذن بأهمية الغرض المسوق له الكلام، وإطالة القسم تشويق إلى المقسم عليه.

والتين ظاهره الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكمثرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير، وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته، فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.

والزيتون أيضا ظاهره الثمرة المشهورة ذات الزيت الذي يعتصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به. والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩٤/٣٠

إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.
وعلى ظاهر الاسمين للتين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة والنخعي وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم،". (١)

١٤٨٤. ٦٩٣-"والبلد الأمين: مكة، سمي الأمين لأن من دخله كان آمنا، فالأمين فعيل بمعنى مفعل مثل: «الداعي السميع» في بيت عمرو بن معديكرب، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول على وجه الإسناد المجازي، أي المأمون ساكنوه قال تعالى: وآمنهم من خوف [قريش: ٤].
والإشارة إليه للتعظيم ولأن نزول السورة في ذلك البلد فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين نظير قوله: لا أقسم بهذا البلد [البلد: ١] .
وعلى ما تقدم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الإيمان وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر، فالتين **إيماء** إلى رسالة نوح وهي أول شريعة لرسول، والزيتون **إيماء** إلى شريعة إبراهيم فإنه بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث وقد تقدم في أول الإسراء، وطور سينين **إيماء** إلى شريعة التوراة، والبلد الأمين **إيماء** إلى مهبط شريعة الإسلام، ولم يقع **إيماء** إلى شريعة عيسى لأنها تكملة لشريعة التوراة.
وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان وبأنه المسجد الأقصى **إيماء** إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام لأن المسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى ويكون قوله: وهذا البلد الأمين **إيماء** إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية وبذلك يكون **إيماء** هذه الآية ما صرح به في قوله تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى [الشورى: ١٣] ، وبذلك يكون ترتيب **الإيماء** إلى شرائع نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام غير جار على ترتيب ظهورها فتوجيه مخالفة الترتيب الذكري

(١) التحرير والتنوير ٤٢٠/٣٠

للترتيب الخارجي أنه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين، ومقارنة الاسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض، ليتأتى محسن مراعاة النظير ومحسن التورية، وليناسب سينين فواصل السورة.

وفي ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركا لأدلة وجود الخالق ووحدانية. وفيه **إيماء** إلى أن ما خالف". (١)

١٤٨٥. ٦٩٤-"وعن جابر أول سورة المدثر، وتؤول بأن كلامه نص أن سورة المدثر أول سورة

نزلت بعد فترة الوحي كما في «الإتقان» كما أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحي الثانية.

وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة عشرون، وفي عد أهل الشام ثمان عشرة، وفي عد أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة.

أغراضها

تلقين محمد صلى الله عليه وسلم الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.

والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء.

وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم.

وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقا عجيبا مستخرجا من علقة فذلك مبدأ النظر.

وتهديد من كذب النبيء صلى الله عليه وسلم وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.

وإعلام النبيء صلى الله عليه وسلم أن الله عالم بأمر من يناوؤنه وأنه قامعهم وناصر رسوله.

وتثبيت الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله.

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢٢/٣٠

وأن لا يعبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم.

[١- ٥]

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ١ الى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤)

علم الإنسان ما لم يعلم (٥)

اقرأ باسم ربك الذي خلق - خلق الإنسان من علق - اقرأ

هذا أول ما أوحي به من القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم لما ثبت عن عائشة عن النبيء صلى الله عليه وسلم مما سيأتي قريبا.". (١)

١٤٨٦. ٦٩٥-"وعدل عن اسم الله العلم إلى صفة ربك لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده ردا على الذين جعلوا لأنفسهم أربابا من دون الله فكانت هذه الآية أصلا للتوحيد في الإسلام.

وجيء في وصف الرب بطريق الموصول الذي خلق ولأن في ذلك استدلالا على انفراد الله بالإلهية لأن هذا القرآن سيتلى على المشركين لما تفيده الموصولية من **الإيماء**

إي علة الخبر، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالق دل ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره الذي ليس بخالق، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم العزى، وكون الله هو الخالق يعترفون به قال تعالى: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان: ٢٥] فلما كان المقام مقام ابتداء كتاب الإسلام دين التوحيد كان مقتضيا لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته.

وجملة خلق الإنسان من علق يجوز أن تكون بدلا من جملة الذي خلق بدل مفصل من

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣٤/٣٠

مجمل إن لم يقدر له مفعول، أو بدل بعض إن قدر له مفعول عام، وسلك طريق الإبدال لما فيه من الإجمال ابتداء لإقامة الاستدلال على افتقار المخلوقات كلها إليه تعالى لأن المقام مقام الشروع في تأسيس ملة الإسلام. ففي الإجمال إحضار للدليل مع الاختصار مع ما فيه من إفادة التعميم ثم يكون التفصيل بعد ذلك لزيادة تقرير الدليل.

ويجوز أن تكون بيانا من الذي خلق إذا قدر لفعل خلق الأول مفعول دل عليه بيانه فيكون تقدير الكلام: اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق.

وعدم ذكر مفعول لفعل خلق يجوز أن يكون لتنزيل الفعل منزلة اللازم، أي الذي هو الخالق وأن يكون حذف المفعول لإرادة العموم، أي خلق كل المخلوقات، وأن يكون تقديره: الذي خلق الإنسان اعتمادا على ما يرد بعده من قوله خلق الإنسان، فهذه معان في الآية.". (١)

١٤٨٧. ٦٩٦-"والكرم: التفضل بعطاء ما ينفع المعطى، ونعم الله عظيمة لا تحصى ابتداء من نعمة الإيجاد، وكيفية الخلق، والإمداد.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف الذي خلق ووصف الذي علم بالقلم يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من **الإيماء** إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها. ووصف الأكرم يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص.

ومفعولا علم بالقلم محذوفان دل عليهما قوله: بالقلم وتقديره: علم الكاتبين أو علم ناسا الكتابة، وكان العرب يعظمون علم الكتابة ويعدونها من خصائص أهل الكتاب كما قال أبو حية النميري:

كما خط الكتاب بكف يوما ... يهودي يقارب أو يزيل

ويتفاخر من يعرف الكتابة بعلمه وقال الشاعر:

تعلمت باجاد وآل ... مرامر وسودت أثوابي ولست بكاتب

وذكر أن ظهور الخط في العرب أول ما كان عند أهل الأنبار، وأدخل الكتابة إلى الحجاز

---

(١) التحرير والتنوير ٤٣٧/٣٠

حرب بن أمية تعلمه من أسلم بن سدرة وتعلمه أسلم من مرامر بن مرة وكان الخط سابقا عند حمير باليمن ويسمى المسند.

وتخصيص هذه الصلة بالذكر وجعلها معترضة بين المبتدأ والخبر **للإيماء** إلى إزالة ما خطر ببال النبيء صلى الله عليه وسلم من تعذر القراءة عليه لأنه لا يعلم الكتابة فكيف القراءة إذ

قال للملك: «ما أنا بقارئ»

ثلاث مرات، لأن

قوله: «ما أنا بقارئ»

اعتذار عن تعذر امتثال أمره بقوله: اقرأ فالمعنى أن الذي علم الناس الكتابة بالقلم والقراءة قادر على أن يعلمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة.

والقلم: شظية من قصب ترقق وتثقف وتبرى بالسكين لتكون ملساء بين الأصابع ويجعل طرفها مشقوقا شقا في طول نصف الأنملة، فإذا بل ذلك الطرف". (١)

١٤٨٨. ٦٩٧-"بالقلم **إيماء** إلى استمرار صفة الأمية للنبيء صلى الله عليه وسلم لأنها وصف مكمل لإعجاز القرآن قال تعالى:

وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون [العنكبوت: ٤٨]

.

وهذه آخر الخمس الآيات التي هي أول ما أنزل على النبيء صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

[٦- ١٠]

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ٦ إلى ١٠]

كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨) أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤٠/٣٠

استئناف ابتدائي لظهور أنه في غرض لا اتصال له بالكلام الذي قبله.
وحرف كلا ردع وإبطال، وليس في الجملة التي قبله ما يحتمل الإبطال والردع، فوجود كلا في أول الجملة دليل على أن المقصود بالردع هو ما تضمنه قوله: أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى الآية.
وحق كلا أن تقع بعد كلام لإبطاله والزجر عن مضمونه، فوقوعها هنا في أول الكلام يقتضي أن معنى الكلام الآتي بعدها حقيق بالإبطال وبردع قائله، فابتدئ الكلام بحرف الردع للإبطال، ومن هذا القبيل أن يفتتح الكلام بحرف نفي ليس بعده ما يصلح لأن يلي الحرف كما في قول امرئ القيس:
فلا وأبيك ابنة العامر ... ي لا يدعي القوم أني أفر

روى مسلم عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه (أي يسجد في الصلاة) بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته فأتى رسول الله وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده. فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا قال: فأنزل الله

، لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه: إن الإنسان ليطغى الآيات اهـ.". (١)

١٤٨٩. ٦٩٨-"وتفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام.
ويستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام والتصدق.
[١]

[سورة القدر (٩٧) : آية ١]
بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) التحرير والتنوير ٤٤٢/٣٠

إنا أنزلناه في ليلة القدر (١)

اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف (إن) وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي.

ويفيد هذا التقديم قصرا وهو قصر قلب للرد على المشركين الذي نفوا أن يكون القرآن منزلا من الله تعالى.

وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن.

وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر **إيماء** إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه فكون الضمير دون سبق معاد **إيماء** إلى شهرته بينهم.

فيجوز أن يراد به القرآن كله فيكون فعل: «أنزلنا» مستعملا في ابتداء الإنزال لأن الذي أنزل في تلك الليلة خمس الآيات الأول من سورة العلق ثم فتر الوحي ثم عاد إنزاله منجما ولم يكمل إنزال القرآن إلا بعد نيف وعشرين سنة، ولكن لما كان جميع القرآن مقررا في علم الله تعالى مقداره وأنه ينزل على النبيء صلى الله عليه وسلم منجما حتى يتم، كان إنزاله بإنزال الآيات الأول منه لأن ما ألحق بالشيء يعد بمنزلة أوله فقد

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه» الحديث فاتفق العلماء على أن الصلاة فيما ألحق بالمسجد النبوي لها ذلك الفضل، وأن الطواف في زيادات المسجد الحرام يصح كلما اتسع المسجد.

ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إماء إلى أن الضمير في أنزلناه يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة وهو". (١)

١٤٩٠. ٦٩٩-"[٧، ٨]

[سورة البينة (٩٨) : الآيات ٧ الى ٨]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٦/٣٠

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (٧) جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه (٨)

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية - جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه

قوبل حال الكفرة من أهل الكتاب وحال المشركين بحال الذين آمنوا بعد أن أشير إليهم بقوله: وذلك دين القيمة [البينة: ٥] ، استيعابا لأحوال الفرق في الدنيا والآخرة وجريا على عادة القرآن في تعقيب نذارة المنذرين ببشارة المطمئنين وما ترتب على ذلك من الثناء عليهم، وقدم الثناء عليهم على بشارتهم على عكس نظم الكلام المتقدم في ضدهم ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم فإن الله شكور.

والجملة استئناف بياني ناشيء عن تكرر ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فإن ذلك يثير في نفوس الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين تساؤلا عن حالهم لعل تأخر إيمانهم إلى ما بعد نزول الآيات في التنديد عليهم يجعلهم في انحطاط درجة، فجاءت هذه الآية مبينة أن من آمن منهم هو معدود في خير البريئة.

والقول في اسم الإشارة، وضمير الفصل والقصر وهمز البريئة كالقول في نظيره المتقدم.

واسم الإشارة والجملة المخبر بها عنه جميعها خبر عن اسم إن وجملة: جزاؤهم عند ربهم جنات عدن إلى آخرها مبينة لجملة: أولئك هم خير البرية وعند ربهم ظرف وقع اعتراضا بين جزاؤهم وبين جنات عدن للتنويه بعظم الجزاء بأنه مدخر لهم عند ربهم تكرمة لهم لما في عند من الإيماء إلى الحظوة والعناية، وما في لفظ ربهم من الإيماء إلى إجزال الجزاء بما يناسب عظم المضاف إليه عند، وما يناسب شأن من يرب أن يبلغ بمربوبه عظيم الإحسان.

وإضافة: جنات إلى عدن لإفادة أنها مسكنهم لأن العدن الإقامة، أي ليس جزاؤهم تنزها في الجنات بل أقوى من ذلك بالإقامة فيها.". (١)

١٤٩١. ٧٠٠-"اصفرار الشمس فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مثلي قدره بعد الظل الذي كان له

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨٥/٣٠

عند زوال الشمس. وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشي. ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس، قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القن ... اص عصرا وقد دنا الإمساء

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل ونظام لابتدائه وانقطاعه. وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه **إيماء** إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني أي كل عصر.

ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت العصر. وهي صلاة معظمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى [البقرة: ٢٣٨] .

وجاء في الحديث: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» .

وورد في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة» فذكر «ورجل حلف يمينا فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي بها ما لم يعط»

وتعريفه على هذا تعريف العهد وصار علما بالغلبة كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعرفة باللام مثل العقبة.

ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جبل من الناس، أو ملك أو نبيء، أو دين، ويعين بالإضافة، فيقال: عصر الفطحل، وعصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية، فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا ويكون". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٩/٣٠

١٤٩٢.   ٧٠١-"وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش وهو ما فسر به قوله تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات [هود: ١١٤] .

وهذا الخبر مراد به الحصول في المستقبل بقرينة مقام الإنذار والوعيد، أي لفي خسر في الحياة الأبدية الآخرة فلا التفات إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا، قال تعالى:

لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] .

وتنكير خسر يجوز أن يكون للتنويع، ويجوز أن يكون مفيدا للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسم.

والمعنى: إن الناس لفي خسران عظيم وهم المشركون.

والتعريف في قوله: الصالحات تعريف الجنس مراد به الاستغراق، أي عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بعملها بأمر الدين وعمل الصالحات يشمل ترك السيئات. وقد أفاد استثناء المتصفين بمضمون الصلة ومعطوفها **إيماء** إلى علة حكم الاستثناء وهو نقيض الحكم الثابت للمستثنى منه فإنهم ليسوا في خسر لأجل أنهم آمنوا

وعملوا الصالحات.

فأما الإيمان فهو حقيقة مقول على جزئياتها بالتواطيء. وأما الصالحات فعمومها مقول عليه بالتشكك، فيشير إلى أن انتفاء الخسران عنهم يتقدر بمقدار ما عملوه من الصالحات وفي ذلك مراتب كثيرة.

وقد دل استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أن يكونوا في خسر على أن سبب كون بقية الإنسان في خسر هو عدم الإيمان والعمل الصالح بدلالة مفهوم الصفة. وعلم من الموصول أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب انتفاء إحاطة الخسر بالإنسان.

وعطف على عمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عطف الخاص على العام للاهتمام به لأنه قد يغفل عنه، يظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم

غيره ودعوته إلى الحق، فالتواصي بالحق يشمل تعليم". (١)

١٤٩٣. ٧٠٢-"إيماء إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبيء صلى الله عليه وسلم إرهاصا لنبوءته إذ كان ذلك عام مولده.

وأصحاب الفيل: الحبشة الذين جاءوا مكة غازين مضمرين هدم الكعبة انتقاما من العرب من أجل ما فعله أحد بني كنانة الذين كانوا أصحاب النسيء في أشهر الحج. وكان خبر ذلك وسببه أن الحبشة قد ملكوا اليمن بعد واقعة الأخدود التي عذب فيها الملك ذو نواس النصارى، وصار أمير الحبشة على اليمن رجلا يقال له: (أبرهة) وأن أبرهة بنى كنيسة عظيمة في صنعاء دعاها القليس (بفتح القاف وكسر اللام بعد ما تحتية ساكنة،

وبعضهم يقولها بضم القاف وفتح اللام وسكون التحتية) . وفي «القاموس» بضم القاف وتشديد اللام مفتوحة وسكون الياء. وكتبه السهيلي بنون بعد اللام ولم يضبطه وزعم أنه اسم مأخوذ من معاني القلس للارتفاع. ومنه القلنسوة واقتصر على ذلك ولم أعرف أصل هذا اللفظ فإما أن يكون اسم جنس للكنيسة ولعل لفظ كنيسة في العربية معرب منه، وإما أن يكون علما وضعوه لهذه الكنيسة الخاصة وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة فروي أن رجلا من بني فقيم من بني كنانة وكانوا أهل النسيء للعرب كما تقدم عند قوله تعالى: إنما النسيء زيادة في الكفر في سورة براءة [٣٧] ، قصد الكناني صنعاء حتى جاء القليس فأحدث فيها تحقيرا لها ليتسامع العرب بذلك فغضب أبرهة وأزمع غزو مكة ليهدم الكعبة وسار حتى نزل خارج مكة ليلا بمكان يقال له المغمس (كمعظم موضع قرب مكة في طريق الطائف) أو ذو الغميس (لم أر ضبطه) وأرسل إلى عبد المطلب ليحذره من أن يحاربوه وجرى بينهما كلام، وأمر عبد المطلب آله وجميع أهل مكة بالخروج منها إلى الجبال المحيطة بها خشية من معرة الجيش إذا دخلوا مكة. فلما أصبح هيأ جيشه لدخول مكة وكان أبرهة راكبا فيلا وجيشه معه فبينا هو يتهيأ لذلك إذ أصاب جنده داء عضال هو الجدري الفتاك يتساقط منه الأنامل، ورأوا قبل ذلك طيرا ترميهم بحجارة لا تصيب أحدا إلا هلك وهي طير من جند الله فهلك معظم الجيش وأدبر بعضهم ومرض (أبرهة) فقفل راجعا إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣٢/٣٠

صنعاء مريضا، فهلك في صنعاء وكفى الله أهل مكة أمر عدوهم. وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط (فبراير)". (١)

١٤٩٤. ٧٠٣-"بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحملونهم سلعهم، وصارت مكة وسطا تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع إذ كانوا بواد غير ذي زرع وكانوا يجلبون أقواتهم فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر وشعير وذرة وزبيب وأديم وثياب والسيوف اليمانية، ومن بلاد الشام الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثياب والسيوف المشرفية، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم، وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله تعالى: ليعبدوا رب هذا البيت
فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن الله عليهم نعما كثيرة لأن هذا الإيلاف كان سببا جامعا لأهم النعم التي بها قوام بقائهم.
وقد تقدم آنفا الكلام على معنى الفاء من قوله: ليعبدوا رب هذا البيت
على الوجوه كلها.
والعبادة التي أمروا بها عبادة الله وحده دون إشراك الشركاء معه في العبادة لأن إشراك من لا يستحق العبادة مع الله الذي هو الحقيق بها ليس بعبادة أو لأنهم شغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله فلا يذكرون الله إلا في أيام الحج في التلبية على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.
وتعريف ب
بالإضافة إلى ذا البيت
دون أن يقال: فليعبدوا الله لما يومىء إليه لفظب
من استحقاقه الإفراد بالعبادة دون شريك.
وأوثر إضافةب
إلى ذا البيت

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤٦/٣٠

دون أن يقال: ربهم للإيماء إلى أن البيت هو أصل نعمة الإيلاف بأن أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام فكان سببا لرفعة شأنهم بين العرب قال تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس [المائدة: ٩٧] وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله.

والبيت معهود عند المخاطبين.". (١)

١٤٩٥. ٧٠٤-"عليها، فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته.

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنه أبتر، فإن الصلاة لله شكر له وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال تعالى: أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى [العلق: ٩، ١٠] لأنهم إنما نهوه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم، وكذلك النحر لله.

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: فصل لربك دون: فصل لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه.

وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبيء صلى الله عليه وسلم وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به.

ويتعين أن في تفريع الأمر بالنحر مع الأمر بالصلاة على أن أعطاه الكوثر خصوصية تناسب الغرض الذي نزلت السورة له، ألا ترى أنه لم يذكر الأمر بالنحر مع الصلاة في قوله تعالى: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين في سورة الحجر [٩٧، ٩٨] .

ويظهر أن هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صد المشركين إياه عن البيت في الحديبية، فأعلمه الله تعالى بأنه أعطاه خيرا كثيرا، أي قدره له في المستقبل وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فيكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى: إنا فتحنا لك فتحا مبينا [الفتح: ١] فإنه نزل في أمر الحديبية فقد قال له عمر بن الخطاب: أفتح هذا؟ قال: نعم.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٦٠/٣٠

وهذا يرجع إلى ما رواه الطبري عن قول سعيد بن جبير: أن قوله: فصل لربك وانحر أمر بأن يصلي وينحر هديه وينصرف من الحديبية.

وأفادت اللام من قوله: لربك أنه يخص الله بصلاته فلا يصلي لغيره. ففيه تعريض بالمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها.

وعطف وانحر على فصل لربك يقتضي تقدير متعلقه مماثلا لمتعلق". (١)

١٤٩٦. ٧٠٥-"فصل لربك لدلالة ما قبله عليه كما في قوله تعالى: أسمع بهم وأبصر [مريم: ٣٨] أي وأبصر بهم، فالتقدير: وانحر له. وهو **إيماء** إلى إبطال نحر المشركين قربانا للأصنام فإن كانت السورة مكية فلعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اقترب وقت الحج وكان يحج كل عام قبل البعثة وبعدها قد تردد في نحر هداياه في الحج بعد بعثته، وهو يود أن يطعم المحاويج من أهل مكة ومن يحضر في الموسم ويتحرج من أن يشارك أهل الشرك في أعمالهم فأمره الله أن ينحر الهدي لله ويطعمها المسلمين، أي لا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناويا بما تنحره أنه لله.

وإن كانت السورة مدنية، وكان نزولها قبل فرض الحج كان النحر مرادا به الضحايا يوم عيد النحر ولذلك قال كثير من الفقهاء إن قوله: فصل لربك مراد به صلاة العيد،

وروي ذلك عن مالك في تفسير الآية وقال: لم يبلغني فيه شيء.

وأخذوا من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة دلالة على أن الضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح مع أن الضأن أفضل في الضحايا وهي لا تنحر وأن النبيء صلى الله عليه وسلم لم يضح إلا بالضأن تغليب للفظ النحر وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يوم النحر وليشمل الضحايا في البدن والهدايا في الحج أو ليشمل الهدايا التي عطل إرسالها في يوم الحديبية كما علمت آنفا. ويرشح إيثار النحر رعي فاصلة الراء في السورة. وللمفسرين الأولين أقوال أخر في تفسير «انحر» تجعله لفظا غريبا.

[٣]

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٧٤

[سورة الكوثر (١٠٨) : آية ٣]

إن شانئك هو الأبتر (٣)

استئناف يجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا. ويجوز أن تكون الجملة تعليلا لحرف إن إذا لم يكن لرد الإنكار يكثر أن يفيد التعليل كما تقدم عند قوله تعالى: قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم في سورة البقرة [٣٢] .

واشتمال الكلام على صيغة قصر وعلى ضمير غائب وعلى لفظ الأبتر مؤذن بأن". (١)

١٤٩٧. ٧٠٦-"بسم الله الرحمن الرحيم

١١٠- سورة النصر

سميت هذه السورة في كلام السلف «سورة إذا جاء نصر الله والفتح روى البخاري: «أن عائشة قالت: لما نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح الحديث.

وسميت في المصاحف وفي معظم التفاسير «سورة النصر» لذكر نصر الله فيها، فسميت بالنصر المعهود عهدا ذكريا.

وهي معنونة في «جامع الترمذي» «سورة الفتح» لوقوع هذا اللفظ فيها فيكون هذا الاسم مشتركا بينها وبين سورة: إنا فتحنا لك فتحا مبينا وعن ابن مسعود أنها تسمى «سورة التوديع» في «الإتقان» لما فيها من **الإيماء** إلى وداعه صلى الله عليه وسلم اهـ. يعني من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى كما سيأتي عن عائشة.

وهي مدنية بالاتفاق. واختلف في وقت نزولها فقيل: نزلت منصرف النبيء صلى الله عليه وسلم من خيبر (أي في سنة سبع) ، ويؤيده ما

رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء نصر أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية»

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٧٥

اهـ، ومجيء أهل اليمن أول مرة هو مجيء وقد الأشعريين عام غزوة خيبر.

ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة، وعليه فالفتح". (١)

١٤٩٨. ٧٠٧-"مستقبل ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبل أيضا وهو الأليق باستعمال (إذا) ويحمل

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «جاء نصر الله والفتح»

على أنه استعمال الماضي في معنى المضارع

لتحقق وقوعه أو لأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة.

وعن قتادة: نزلت قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين. وقال الواحدي عن ابن عباس:

«نزلت منصرفه من حنين» ، فيكون الفتح قد مضى ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبلا، وهو في سنة الوفود سنة تسع، وعليه تكون (إذا) مستعملة في مجرد التوقيت دون تعيين.

وروى البزار والبيهقي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عمر أنها نزلت أواسط أيام التشريق (أي عام حجة الوداع) . وضعفه ابن رجب بأن فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. وقال أحمد بن حنبل: لا تحل الرواية عنه وإن صحت هذه الرواية كان الفتح ودخول الناس في الدين أفواجا قد مضيا.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها نحوا من ثلاثة أشهر وعليه تكون (إذا) مستعملة للزمن الماضي لأن الفتح ودخول الناس في الدين قد وقعا.

وقد تظافرت الأخبار رواية وتأويلا أن هذه السورة تشتمل على **إيماء** إلى اقتراب أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها إذ لا خلاف في أن هذا **الإيماء** يشير إلى توقيت بمجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجا فإذا حصل ذلك حان الأجل الشريف.

وفي حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨٧/٣٠

أعلمه له قال: إذا جاء نصر الله والفتح [النصر: ١] وذلك علامة أجلك: فسبح بحمد ربك واستغفره [النصر: ٣] .

وفي هذا ما يؤول ما في بعض الأخبار من إشارة إلى اقتراب ذلك الأجل مثل ما في حديث ابن عباس عند البيهقي في «دلائل النبوة» والدارمي وابن مردويه: لما نزلت: إذا جاء نصر الله والفتح دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة وقال: إنه قد نعيت إلي نفسي فبكت»

إلخ، فإن قوله: «لما نزلت» مدرج من الراوي، وإنما هو". (١)

١٤٩٩. ٧٠٨-"إعلام لها في مرضه كما جاء في حديث الوفاة في «الصحيحين» فهذا جمع بين ما يلوح منه تعارض في هذا الشأن.

وعدها جابر بن زيد السورة المائة والثلاث في ترتيب نزول السور، وقال: نزلت بعد سورة الحشر وقبل سورة النور. وهذا جار على رواية أنها نزلت عقب غزوة خيبر.

وعن ابن عباس أنها آخر سورة نزلت من القرآن فتكون على قوله السورة المائة وأربع عشرة نزلت بعد سورة براءة ولم تنزل بعدها سورة أخرى.

وعدد آياتها ثلاث وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلا أنها أطول من سورة الكوثر عدة كلمات، وأقصر من سورة العصر. وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات. وفي حديث ابن أبي شيبة عن أبي إسحاق السبعي في حديث: «طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصلى عبد الرحمان بن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن: إنا أعطيناك الكوثر [الكوثر: ١] وإذا جاء نصر الله والفتح [النصر: ١] .

أغراضها

والغرض منها الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إن كان نزولها عند منصرف النبيء صلى الله عليه وسلم من خيبر كما قال ابن عباس في أحد قوليه.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨٨/٣٠

والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة. ووعده بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية الحد الذي لا يفي بما تطلبه همته الملكية بحيث يكون قد ساوى الحد الملكي الذي وصفه الله تعالى في الملائكة بقوله: يسبحون الليل والنهار لا يفترون [الأنبياء". (١)

١٥٠٠. ٧٠٩-"قد قلت لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر

وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه عن تعرضه الثناء

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخلو عن تسبيح الله فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح ودخول الأمة في الإسلام.

وعطف الأمر باستغفار الله تعالى على الأمر بالتسبيح مع الحمد يقتضي أنه من حيز جواب إذا، وأنه استغفار يحصل مع الحمد مثل ما قرر في فسبح بحمد ربك فيدل على أنه استغفار خاص لأن الاستغفار الذي يعم طلب غفران التقصير ونحوه مأمور به من قبل وهو من شأن النبيء صلى الله عليه وسلم فقد

قال: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة»

فكان تعليق الأمر بالتسبيح وبالاستغفار على حصول النصر والفتح إيماء إلى تسبيح واستغفار يحصل بهما تقرب لم ينو من قبل، وهو التهيؤ للقاء الله، وأن حياته الدنيوية أو شكت على الانتهاء، وانتهاء أعمال الطاعات والقربات التي تزيد النبيء صلى الله عليه وسلم في رفع درجاته عند ربه فلم يبق إلا أن يسأل ربه التجاوز عما يعرض له من اشتغال ببعض الحظوظ الضرورية للحياة أو من اشتغال بمهم من أحوال الأمة يفوته بسببه أمر آخر هو أهم منه، مثل فداء أسرى بدر مع فوات مصلحة استئصالهم الذي هو أصلح للأمة فعوتب عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨٩/٣٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى [الأنفال: ٦٧] الآية، أو من ضرورات الإنسان كالنوم والطعام التي تنقص من حالة شبهه بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فكان هذا إيذانا باقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتقاله من حياة تحمل أعباء الرسالة إلى حياة أبدية في العلويات الملكية.

والكلام من قبيل الكناية الرمزية وهي لا تنافي إرادة المعنى الصريح بأن يحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإكثار من قول ذلك. وقد دل ذوق الكلام بعض ذوي الأفهام النافدة من الصحابة على هذا المعنى وغاصب عليه مثل

أبي بكر وعمر والعباس وابنه عبد الله وابن مسعود، فعن مقاتل: «لما نزلت قرأها". (١)

١٥٠١. ٧١٠-"ومقتضى الظاهر أن يقول: فسبح بحمده، لتقدم اسم الجلالة في قوله: إذا جاء نصر الله فعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وهو ربك لما في صفة (رب) وإضافتها إلى ضمير المخاطب من **الإيماء** إلى أن من حكمة ذلك النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام نعمة أنعم الله بها عليه إذا حصل هذا الخير الجليل بواسطته فذلك تكريم له وعناية به وهو شأن تلطف الرب بالمربوب، لأن معناه السيادة المرفوقة بالرفق والإبلاغ إلى الكمال.

وقد انتهى الكلام عند قوله: واستغفره وقد

روي: «أن النبيء صلى الله عليه وسلم كان في قراءته يقف عند واستغفره ثم يكمل السورة» . إنه كان توابا تذييل للكلام السابق كله وتعليل لما يقتضي التعليل فيه من الأمر باستغفار ربه باعتبار الصريح من الكلام السابق كما سيتبين لك.

وتواب: مثال مبالغة من تاب عليه. وفعل تاب المتعدي بحرف (على) يطلق بمعنى:

وفق للتوبة، أثبته في «اللسان» و «القاموس» ، وهذا الإطلاق خاص بما أسند إلى الله.

وقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي: إن، وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه.

وحيث كان توكيد ب (إن) هنا غير مقصود به رد إنكار ولا إزالة تردد إذ لا يفرضان في جانب المخاطب صلى الله عليه وسلم، فقد تمحض (إن) لإفادة الاهتمام بالخبر بتأكيده.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩٤/٣٠

وقد تقرر أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء فاء الترتيب والتسبب وتفيد التعليل وربط الكلام بما قبله كما تفيده الفاء، وقد تقدم غير مرة، منها عند قوله تعالى: إنك أنت العليم الحكيم في سورة البقرة [٣٢] ، فالمعنى: هو شديد القبول لتوبة عباده كثير قبوله إياها.

وإذ قد كان الكلام تذييلا وتعليلا للكلام السابق تعين أن حذف متعلق توابا يقدر بنحو: على التائبين. وهذا المقدر مراد به العموم، وهو عموم". (١)

١٥٠٢. ٧١١-"للتوبة **إيماء** إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى، فإنه لا يسأل عما يفعل بعباده، لولا تفضله بما بين لهم من مراده، ولأن وصف (تواب) أشد ملاءمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة أفواجا لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرخوة.

وروي في «الصحيح» عن عائشة قالت: «ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت

عليه سورة: إذا جاء نصر الله والفتح إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن»

أي يتأول الأمر في قوله: فسبح بحمد ربك واستغفره على ظاهره كما تأوله في مقام آخر على معنى اقتراب أجله صلى الله عليه وسلم.". (٢)

١٥٠٣. ٧١٢-"شواه، ثم جاء منه صلي كأفعال الإحساس مثل فرح ومرض. ونصب نارا على نزع الخافض.

ووصف النار ب ذات لهب لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وبين كفره إذ هو أبو لهب والنار ذات لهب.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩٦/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٥٩٨/٣٠

وهو ما تقدم الإيماء إليه بذكر كنيته كما قدمناه آنفا، وفي وصف النار بذلك زيادة كشف لحقيقة النار وهو مثل التأكيد.

وبين لفضي لهب الأول ولهب الثاني الجناس التام.

[٤، ٥]

[سورة المسد (١١١) : الآيات ٤ إلى ٥]

وامرأته حمالة الحطب (٤) في جيدها حبل من مسد (٥)

أعقب ذم أبي لهب ووعيده بمثل ذلك لامرأته لأنها كانت تشاركه في أذى النبيء صلى الله عليه وسلم وتعينه عليه.

وامرأته: أي زوجه، قال تعالى في قصة إبراهيم: وامرأته قائمة [هود: ٧١] وفي قصة لوط: إلا امرأته كانت من الغابرين [الأعراف: ٨٣] وفي قصة نسوة يوسف: امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه [يوسف: ٣٠] .

وامرأة أبي لهب هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وقيل: اسمها العوراء، فقيل هو وصف وأنها كانت عوراء، وقيل:

اسمها، وذكر بعضهم: أن اسمها العواء بهمزة بعد الواو.

وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوك فتضعه في الليل في طريق النبيء صلى الله عليه وسلم الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه.

فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا، فأنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سببا لعذاب أعز الناس عليها.". (١)

١٥٠٤. ٧١٣-"فقوله: وامرأته عطف على الضمير المستتر في سيصلى [المسد: ٣] أي وتصلى امرأته نارا.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٠٥/٣٠

وقوله: حمالة الحطب قرأه الجمهور برفع حمالة على أنه صفة لامرأته فيحتمل أنها صفتها في جهنم أنها ويحتمل أنها صفتها التي كانت تعمل في الدنيا بجلب حطب العضاه لتضعه في طريق النبيء صلى الله عليه وسلم على طريقة التوجيه **والإيماء** إلى تعليل تعذيبها بذلك.

وقرأه عاصم بنصب حمالة على الحال من امرأته وفيه من التوجيه **والإيماء** ما في قراءة الرفع.

وجملة: في جيدها حبل من مسد صفة ثانية أو حال ثانية وذلك إخبار بما تعامل به في الآخرة، أي جعل لها حبل في عنقها تحمل فيه الحطب في جهنم لإسعار النار على زوجها جزاء مماثلا لعملها في الدنيا الذي أغضب الله تعالى عليها.

والجيد: العنق، وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محل القلادة منه فقل أن يذكر العنق في وصف النساء في الشعر العربي إلا إذا كان عنقا موصوفا بالحسن وقد جمعهما امرؤ القيس في قوله:

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطل

قال السهيلي في «الروض» : «والمعروف أن يذكر العنق إذا ذكر الحلي أو الحسن فإنما حسن هنا ذكر الجيد في حكم البلاغة لأنها امرأة والنساء تحلي أجيادهن وأم جميل لا حلي لها في الآخرة إلا الحبل المجعول في عنقها فلما أقيم لها ذلك مقام الحلي ذكر الجيد معه، ألا ترى إلى قول الأعشى:

يوم تبدي لنا قتيلة عن جي ... د أسيل تزينه الأطواق

ولم يقل عن عنق، وقول الآخر:

وأحسن من عقد المليحة جيدها

ولم يقل عنقها ولو قال لكان غثا من الكلام. اهـ.". (١)

١٥٠٥. ٧١٤-"إلى الله والدا.

وفيه **الإيماء** إلى أن من يكون مولودا مثل عيسى لا يكون إلها لأنه لو كان الإله مولودا لكان وجوده مسبوقا بعدم لا محالة، وذلك محال لأنه لو كان مسبوقا بعدم لكان مفتقرا إلى من

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٦

يخصصه بالوجود بعد العدم، فحصل من مجموع جملة: لم يلد ولم يولد
إبطال أن يكون الله والدا لمولود، أو مولودا من والد بالصراحة. وبطلت إلهية كل مولود بطريق الكناية فبطلت العقائد المبنية على تولد الإله مثل عقيدة (زرادشت) الثانوية القائلة بوجود إلهين: إله الخير وهو الأصل، وإله الشر وهو متولد عن إله الخير، لأن إله الخير وهو المسمى عندهم (يزدان) فكر فكرة سوء فتولد منه إله الشر المسمى عندهم (أهرمن) ، وقد أشار إلى مذهبهم أبو العلاء بقوله:

قال أناس باطل زعمهم ... فراقبوا الله ولا تزعمن

فكر (يزدان) على غرة ... فصيغ من تفكيره (أهرمن)

وبطلت عقيدة النصارى بإلهية عيسى عليه السلام بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الإله لا يكون إلا إلها بأن الإله يستحيل أن يكون له ولد فليس عيسى بابن لله، وبأن الإله يستحيل أن يكون مولودا بعد عدم. فالمولود المتفق على أنه مولود يستحيل أن يكون إلها فبطل أن يكون عيسى إلها.

فلما أبطلت الجملة الأولى إلهية إله غير الله بالأصالة، وأبطلت الجملة الثانية إلهية غير الله بالاستحقاق، أبطلت هذه الجملة إلهية غير الله بالفرعية والتولد بطريق الكناية.

وإنما نفي أن يكون الله والدا وأن يكون مولودا في الزمن الماضي، لأن عقيدة التولد ادعت وقوع ذلك في زمن مضى، ولم يدع أحد أن الله سيتخذ ولدا في المستقبل.

[٤]

[سورة الإخلاص (١١٢) : آية ٤]

ولم يكن له كفوا أحد (٤)

في معنى التذييل للجمل التي قبلها لأنها أعم من مضمونها لأن تلك الصفات المتقدمة صريحها وكنايتها وضمنيها لا يشبهه فيها غيره، مع إفادة هذه انتفاء". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٦١٩/٣٠

١٥٠٦. ٧١٥-"وعدد آيها ست آيات، وذكر في «الإتقان» قولا: إنها سبع آيات وليس معزوا لأهل

أغراضها

إرشاد النبيء صلى الله عليه وسلم لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبيء صلى الله عليه وسلم وإفساد إرشاده الناس ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر **إيماء** إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومع السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى.

[١- ٦]

[سورة الناس (١١٤) : الآيات ١ إلى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أعوذ برب الناس (١) ملك الناس (٢) إله الناس (٣) من شر الوسواس الخناس (٤)

الذي يوسوس في صدور الناس (٥) من الجنة والناس (٦)

شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلا أن سورة الفلق تعوذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين.

والقول في الأمر بالقول، وفي المقول، وفي أن الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم، والمقصود شموله أمته، كالقول في نظيرة من سورة الفلق سواء.

وعرف (رب) بإضافته إلى الناس دون غيرهم من المربوبين لأن الاستعاذة من شر يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيضلون ويضلون، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس، فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ومن يلقى إليهم ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين كما يقال لمولى العبد: يا مولى فلان كف عني عبدك.

وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبا مدرجا فإن الله خالقهم، ثم هم غير خارجين

عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بيانا بوصف". (١)

١٥٠٧. ٧١٦-"أردف بما يدل على عقابهم، ففي بعض هذه الأحوال إرضاء له من جانب الانتصار له، وفي بعضها إرضاء له من جانب تطويعهم له. ولأجل هذا المقصد عاد الكلام إلى بقية عقوبات المشركين بقوله تعالى:

أو يعذبهم.

ولكون التذكير بيوم بدر وقع في خلال الإشارة إلى وقعة أحد، كأن في هذا التقسيم **إيماء** إلى ما يصلح بيانا لحكمة الهزيمة اللاحقة المسلمين يوم أحد، إذ كان في استبقاء كثير من المشركين، لم يصبهم القتل يومئذ، ادخار فريق عظيم منهم للإسلام فيما بعد، بعد أن حصل رعبهم من المسلمين بوقعة بدر، وإن حسبوا للمسلمين أي حساب بما شاهدوه من شجاعتهم يوم أحد، وإن لم ينتصروا. ولا يستقيم أن يكون قوله: ليس لك من الأمر شيء متعلقا بأحوال يوم أحد: لأن سياق الكلام ينبو عنه، وحال المشركين يوم أحد لا يناسبه قوله: ليقطع طرفا من الذين كفروا إلى قوله: خائبين.

ووقع في «صحيح مسلم» ، عن أنس بن مالك: أن النبيء صلى الله عليه وسلم شج وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد، وجاء المسلمون يمسحون الدم عن وجه نبيهم، فقال النبيء- عليه السلام-: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»

أي في حال أنه يدعوهم إلى الخير عند ربهم، فنزلت الآية، ومعناه: لا تستبعد فلاحهم. ولا شك أن قوله فنزلت هذه الآية متأول على إرادة:: فذكر النبيء صلى الله عليه وسلم بهذه الآية، لظهور أن ما ذكروه غير صالح لأن يكون سببا لأن النبيء تعجب من فلاحهم أو استبعده، ولم يدع لنفسه شيئا، أو عملا، حتى يقال: «ليس لك من الأمر شيء» .

وروى الترمذي: أن النبيء صلى الله عليه وسلم دعا على أربعة من المشركين، وسمى أناسا، فنزلت هذه الآية لنهيه عن ذلك، ثم أسلموا

. وقيل:

إنه هم بالدعاء، أو استأذن الله أن يدعو عليهم بالاستيصال، فنهي. ويرد هذه الوجوه ما

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠

في «صحيح مسلم» ، عن ابن مسعود، قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيئا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون

. و". (١)

١٥٠٨. ٧١٧-"الله تعالى على الإشراك به، ومن حكمته تعالى أن رتب على الأمور الخبيثة آثارا خبيثة، فإن الشرك لما كان اعتقاد تأثير من لا تأثير له، وكان ذلك الاعتقاد يرتكز في نفوس معتقديه على غير دليل، كان من شأن معتقده أن يكون مضطرب النفس متحيرا في العاقبة في تغلب بعض الآلهة على بعض، فيكون لكل قوم صنم هم أخص به، وهم في تلك الحالة يعتقدون أن

لغيره من الأصنام مثل ما له من القدرة والغيرة. فلا تزال آلهتهم في مغالبة ومنافرة. كما لا يزال أتباعهم كذلك، والذين حالهم كما وصفنا لا يستقر لهم قرار في الثقة بالنصر في حروبهم، إذ هم لا يدرون هل الربح مع آلهتهم أم مع أضدادها، وعليه فقوله: ما لم ينزل به سلطانا صلة أجريت على المشرك به ليس القصد بها تعريف الشركاء، ولكن قصد بها **الإيماء** إلى أنه من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم، إذ هم على غير يقين فيما أشركوا واعتقدوا، فقلوبهم وجلة متزلزلة، إذ قد علم كل أحد أن الشركاء يستحيل أن ينزل بهم سلطان. فإن قلت: ما ذكرته يقتضي أن الشرك سبب في إلقاء الرعب في قلوب أهله، فيتعين أن يكون الرعب نازلا في قلوبهم من قبل هذه الوقعة، والله يقول سنلقي» أي في المستقبل، قلت: هو كذلك إلا أن هذه الصفات تستكن في النفوس حتى يدعو داعي ظهورها، فالرعب والشجاعة صفتان لا تظهران إلا عند القتال، وتقويان وتضعفان، فالشجاع تزيد شجاعته بتكرر الانتصار، وقد ينزوي قليلا إذا انهزم ثم تعود له صفته سرعى. كما وصفه عمرو بن الإطنابة في قوله:

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

وقول الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

(١) التحرير والتنوير ٨١/٤

وكذلك الرعب والجبن قد يضعف عند حصول بارقة انتصار، فالمشركون لما انهزموا بادىء الأمر يوم أحد، فلت عزيمتهم، ثم لما ابتلى الله المؤمنين بالهزيمة راجعهم شيء من الشجاعة والازدهاء، ولكنهم بعد انصرافهم". (١)

١٥٠٩. ٧١٨-"[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٧]

إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم (١٧٧)

تكرير لجملة إنهم لن يضروا الله شيئا قصد به، مع التأكيد، إفادة هذا الخبر استقلالا للاهتمام به بعد أن ذكر على وجه التعليل لتسلية الرسول. وفي اختلاف الصلتين إيماء إلى أن مضمون كل صلة منهما هو سبب الخبر الثابت لموصولها، وتأكيد لقوله:

إنهم لن يضروا الله شيئا المتقدم، كقول لبيد:

كدخان نار ساطع أسنامها بعد قوله:

كدخان مشعلة يشب ضرامها مع زيادة بيان اشتهارهم هم بمضمون الصلة.

والاشتراء مستعار للاستبدال كما تقدم في قوله تعالى: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى في سورة البقرة [١٦] .

[١٧٨]

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٨]

ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين (١٧٨)

عطف على قوله: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا [آل عمران: ١٦٩] والمقصود مقابلة الإعلام بخلاف الحسبان في حالتين: إحداهما تلوح للناظر حالة ضر، والأخرى تلوح حالة خير، فأعلم الله أن كلتا الحالتين على خلاف ما يتراءى للناظرين.

ويجوز كونه معطوفا على قوله: ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [آل عمران: ١٧٦] إذ نهاه عن أن يكون ذلك موجبا لحزنه، لأنهم لا يضرون الله شيئا، ثم ألقى إليه خبرا

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٢٤

لقصد إبلاغه إلى المشركين وإخوانهم المنافقين: أن لا يحسبوا أن بقاءهم نفع لهم بل هو إملاء لهم يزدادون به آثاما، ليكون أخذهم بعد". (١)

١٥١٠. ٧١٩-"الحرص في الإيمان بوحدانيته، إذ الرب هو المالك الذي يرب مملوكه أي، يدبر شؤونه، وليتأتى بذكر لفظ (الرب) طريق الإضافة الدالة على أنهم محقوقون بتقواه حق التقوى، والدالة على أن بين الرب والمخاطبين صلة تعد إضاعتها حماقة وضلالا. وأما التقوى في قوله:

واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام فالمقصد الأهم منها: تقوى المؤمنين بالحذر من التساهل في حقوق الأرحام واليتامى من النساء والرجال. ثم جاء باسم الموصول الذي خلقكم للإيماء إلى وجه بناء الخبر لأن الذي خلق الإنسان حقيق بأن يتقى.

ووصل خلقكم بصلة من نفس واحدة إدماج للتنبيه على عجيب هذا الخلق وحقه بالاعتبار. وفي الآية تلويح للمشركين بأحقية اتباعهم دعوة الإسلام، لأن الناس أبناء أب واحد، وهذا الدين يدعو الناس كلهم إلى متابعته ولم يخص أمة من الأمم أو نسبا من الأنساب، فهو جدير بأن يكون دين جميع البشر، بخلاف بقية الشرائع فهي مصرحة باختصاصها بأمم معينة. وفي الآية تعريض للمشركين بأن أولى الناس بأن يتبعوه هو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه من ذوي رحمهم. وفي الآية تمهيد لما سيبين في هذه السورة من الأحكام المرتبة على النسب والقرابة.

والنفس الواحدة: هي آدم. والزوج: حواء، فإن حواء أخرجت من آدم. من ضلعه، كما يقتضيه ظاهر قوله: منها.

و (من) تبعيضية. ومعنى التبعيض أن حواء خلقت من جزء من آدم. قيل: من بقية الطينة التي خلق منها آدم. وقيل: فصلت قطعة من ضلعه وهو ظاهر الحديث الوارد في «الصحيحين» .

ومن قال: إن المعنى وخلق زوجها من نوعها لم يأت بطائل، لأن ذلك لا يختص بنوع الإنسان فإن أنثى كل نوع هي من نوعه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٤/٤

وعطف قوله: وخلق منها زوجها على خلقكم من نفس واحدة، فهو صلة ثانية. وقوله: وبث منهما صلة ثالثة لأن الذي يخلق هذا الخلق العجيب جدير بأن". (١)

١٥١١. ٧٢٠-"من أيدي الناس تقاربوا في الحاجة والخصاصة، فأصبحوا في ضنك وبؤس، واحتاجوا إلى قبيلة أو أمة أخرى وذلك من أسباب ابتزاز عزهم، وامتلاك بلادهم، وتصيير منافعهم لخدمة غيرهم، فلأجل هاته الحكمة أضاف الله تعالى الأموال إلى جميع المخاطبين ليكون لهم الحق في إقامة الأحكام التي تحفظ الأموال والثروة العامة.

وهذه إشارة لا أحسب أن حكيما من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها. وقد أبعد جماعة جعلوا الإضافة لأدنى ملابسة، لأن الأموال في يد الأولياء، وجعلوا الخطاب للأولياء خاصة. وجماعة جعلوا الإضافة للمخاطبين لأن الأموال من نوع أموالهم، وإن لم تكن أموالهم حقيقة، وإليه مال الزمخشري. وجماعة جعلوا الإضافة لأن السفهاء من نوع المخاطبين فكأن أموالهم أموالهم وإليه مال فخر الدين. وقارب ابن العرب إذ قال: «لأن الأموال مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلى يد وتخرج من ملك إلى ملك» وبما ذكرته من البيان كان لكلمته هذه شأن. وأبعد فريق آخرون فجعلوا الإضافة حقيقية أي لا تؤتوا- يا أصحاب الأموال- أموالكم لمن يضيعها من أولادكم ونسائكم، وهذا أبعد الوجوه، ولا إخال الحامل على هذا التقدير إلا الحيرة في وجه الجمع بين كون الممنوعين من الأموال السفهاء، وبين إضافة تلك الأموال إلى ضمير المخاطبين، وإنما وصفته بالبعد لأن قائله جعله هو المقصود من الآية ولو جعله وجها جائزا يقوم من لفظ الآية لكان له وجه وجيه بناء على ما تقرر في المقدمة التاسعة.

وأجري على الأموال صفة تزيد إضافتها إلى المخاطبين وضوحا وهي قوله: التي جعل الله لكم قياما فجاء في الصفة بموصول **إيماء** إلى تعليل النهي، وإيضاحا لمعنى الإضافة، فإن (قياما) مصدر على وزن فعل بمعنى فعال: مثل عوذ بمعنى عياذ، وهو من الواوي وقياسه قوم، إلا أنه أعل بالياء شذوذا كما شذ جياد في جمع جواد وكما شذ طيال في لغة ضبة في جمع طويل، قصدوا قلب الواو ألفا بعد الكسرة كما فعلوه في قيام ونحوه، إلا أن ذلك في وزن فعال مطرد،

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢١٥

وفي غيره شاذ لكثرة فعال في المصادر، وقلة
فعل فيها، وقيم من غير الغالب. كذا قرأه نافع، وابن عامر: «قيما» بوزن فعل، وقرأه الجمهور «قياما» ، والقيام ما به يتقوم المعاش وهو واوي أيضا". (١)

١٥١٢. ٧٢١-"البلوغ. ومن طلب الرجل الزواج عند بلوغه، وبلوغ صلاحية الزواج تختلف باختلاف البلاد في الحرارة والبرودة، وباختلاف أمزجة أهل البلد الواحد في القوة والضعف، والمزاج الدموي والمزاج الصفراوي، فلذلك أحاله القرآن على بلوغ أمد النكاح، والغالب في بلوغ البنت أنه أسبق من بلوغ الذكر، فإن تخلفت عن وقت مظنتها فقال الجمهور: يستدل بالسن الذي لا يتخلف عنه أقصى البلوغ عادة، فقال مالك، في رواية ابن القاسم عنه: هو ثمان عشرة سنة للذكور والإناث، وروي مثله عن أبي حنيفة في الذكور، وقال: في الجاري سبع عشرة سنة، وروى غير ابن القاسم عن مالك أنه سبع عشرة سنة. والمشهور عن أبي حنيفة: أنه تسع عشرة سنة للذكور وسبع عشرة للبنات، وقال الجمهور: خمس عشرة سنة. قاله القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وإسحاق، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وابن الماجشون، وبه قال أصبغ، وابن وهب، من أصحاب مالك، واختاره الأبهري من المالكية، وتمسكوا بحديث ابن عمر أنه عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم أحد وهو ابن خمس عشرة فأجازه. ولا حجة فيه إذ ليس يلزم أن يكون بلوغ عبد الله بن عمر هو معيار بلوغ عموم المسلمين، فصادف أن رآه النبيء صلى الله عليه وسلم وعليه ملامح الرجال، فأجازه، وليس ذكر السن في كلام ابن عمر إيماء إلى ضبط الإجازة. وقد غفل عن هذا ابن العربي في أحكام القرآن، فتعجب من ترك هؤلاء الأئمة تحديد سن البلوغ بخمس عشرة سنة، والعجب منه أشد من عجبه منهم، فإن قضية ابن عمر قضية عين، وخلاف العلماء في قضايا الأعيان معلوم، واستدل الشافعية بما
روي أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كتب ما له وما عليه، وأقيمت عليه الحدود

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٣٥

. وهو حديث ضعيف لا ينبغي الاستدلال به.
ووقت الابتلاء يكون بعد التمييز لا محالة، وقبل البلوغ: قاله ابن المواز عن مالك، ولعل وجهه أن الابتلاء قبل البلوغ فيه تعريض بالمال للإضاعة لأن عقل اليتيم غير كامل، وقال البغداديون من المالكية: الابتلاء قبل البلوغ. وعبر عن استكمال". (١)

١٥١٣. ٧٢٢-"والأولاد جمع ولد بوزن فعل مثل أسد ووثن، وفيه لغة ولد- بكسر الواو وسكون اللام- وكأنه حينئذ فعل الذي بمعنى المفعول كالذبح والسلخ. والولد اسم للابن ذكرا كان أو أنثى، ويطلق على الواحد وعلى الجماعة من الأولاد، والوارد في القرآن بمعنى الواحد وجمعه أولاد.
وفي هنا للظرفية المجازية، جعلت الوصية كأنها مظروفة في شأن الأولاد لشدة تعلقها به كاتصال المظروف بالظرف، ومجرورها محذوف قام المضاف إليه مقامه، لظهور أن ذوات الأولاد لا تصلح ظرفا للوصية، فتعين تقدير مضاف على طريقة دلالة الاقتضاء، وتقديره: في إرث أولادكم، والمقام يدل على المقدر على حد حرمت عليكم أمهاتكم [النساء: ٢٣] فجعل الوصية مظروفة في هذا الشأن لشدة تعلقها به واحتوائه عليها.
وجملة: للذكر مثل حظ الأنثيين بيان لجملة يوصيكم لأن مضمونها هو معنى مضمون الوصية، فهي مثل البيان في قوله تعالى: فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم وتقديم الخبر على المبتدأ في هذه الجملة للتنبيه من أول الأمر على أن الذكر صار له شريك في الإرث وهو الأنثى لأنه لم يكن لهم به عهد من قبل إذ كان الذكور يأخذون المال الموروث كله ولا حظ للإناث، كما تقدم آنفا في تفسير قوله تعالى: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون [النساء: ٧]
.
وقوله: للذكر مثل حظ الأنثيين جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، ولم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به، فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم، وقد كان هذا المراد صالحا لأن يؤدى بنحو: للأنثى نصف حظ ذكر، أو للأنثيين مثل حظ ذكر، إذ ليس المقصود إلا بيان المضاعفة.

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٣٩

ولكن قد أوثر هذا التعبير لنكتة لطيفة وهي **الإيماء** إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر، إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات.

وقوله: فإن كن نساء فوق اثنتين إلخ معاد الضمير هو لفظ الأولاد، وهو". (١)

١٥١٤. ٧٢٣-"فإذا تزول تزول عن متخمط ... تخشى بوادره على الأقران

وقوله تعالى: ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا [القصص: ٦٣] والمقصد من التعرض لإرادة الذين يتبعون الشهوات تنبيه المسلمين إلى دخائل أعدائهم، ليعلموا الفرق بين مراد الله من الخلق. ومراد أعوان الشياطين، وهم الذين يتبعون الشهوات.

ولذلك قدم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: والله يريد أن يتوب عليكم ليدل على التخصيص الإضافي. أي الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي يحرضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي، وأما الذين يتبعون الشهوات فيريدون انصرافكم عن الحق، وميلكم عنه إلى المعاصي. وإطلاق الإرادة على رغبة أصحاب الشهوات في ميل المسلمين عن الحق لمشاكلة يريد الله ليبين لكم [النساء: ٢٦] . والمقصود: ويحب الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا. ولما كانت رغبتهم في ميل المسلمين عن الحق رغبة لا تخلو عن سعيهم لحصول ذلك، أشبهت رغبتهم إرادة المريد للفعل، ونظيره قوله تعالى- بعد هذه الآية- يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل [النساء: ٤٤] .

وحذف متعلق تميلوا لظهوره من قرينة المقام، وأراد بالذين يتبعون الشهوات الذين تغلبهم شهواتهم على مخالفة ما شرعه الله لهم: من الذين لا دين لهم، وهم الذين لا ينظرون في عواقب الذنوب ومفاسدها وعقوبتها، ولكنهم يرضون شهواتهم الداعية إليها. وفي ذكر هذه الصلة هنا تشنيع لحالهم، ففي الموصول **إيماء** إلى تعليل الخبر.

والمراد بهم المشركون: أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح أزواج الآباء، واليهود أرادوا أن يتبعوهم في نكاح الأخوات من الأب ونكاح العمات والجمع بين الأختين. والميل العظيم هو

---

(١) التحرير والتنوير ٤/٢٥٧

البعد عن أحكام الشرع والطعن فيها. فكان المشركون يحببون للمسلمين الزنى ويعرضون عليهم البغايا. وكان المجوس يطعنون في تحريم ابنة الأخ وابنة الأخت ويقولون: لماذا أحل دينكم ابنة العمة وابنة الخالة. وكان اليهود يقولون: لا تحرم الأخت التي للأب ولا تحرم العمة ولا الخالة ولا العم ولا الخال. وعبر عن جميع ذلك بالشهوات لأن مجيء الإسلام قد بين انتهاء إباحة ما أبيح في الشرائع الأخرى، بله ما كان حراما في الشرائع كلها وتساهل فيه أهل الشرك.". (١)

١٥١٥. ٧٢٤-"موصولة، فالعائدان من الصلتين محذوفان: أما المجرور فلأن اسم الموصول مجرور بحرف مثل الذي جر به الضمير المحذوف، وأما العائد المنصوب من صلة وبما أنفقوا فلأن العائد المنصوب يكثر حذفه من الصلة. والمراد بالبعض في قوله تعالى: فضل الله بعضهم هو فريق الرجال كما هو ظاهر من العطف في قوله: وبما أنفقوا من أموالهم فإن الضميرين للرجال.

فالتفضيل هو المزايا الجبلية التي تقتضي حاجة المرأة إلى الرجل في الذب عنها وحراستها لبقاء ذاتها، كما قال عمرو بن كلثوم:

يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

فهذا التفضيل ظهرت آثاره على مر العصور والأجيال، فصار حقا مكتسبا للرجال، وهذه حجة برهانية على كون الرجال قوامين على النساء فإن حاجة النساء إلى الرجال من هذه الناحية مستمرة وإن كانت تقوى وتضعف.

وقوله: وبما أنفقوا جيء بصيغة الماضي **للإيماء** إلى أن ذلك أمر قد تقرر في المجتمعات الإنسانية منذ القدم، فالرجال هم العائلون لنساء العائلة من أزواج وبنات.

وأضيفت الأموال إلى ضمير الرجال لأن الاكتساب من شأن الرجال، فقد كان في عصور البداوة بالصيد وبالغارة وبالغنائم والحرث، وذلك من عمل الرجال، وزاد اكتساب الرجال في عصور الحضارة بالغرس والتجارة والإجارة والأبنية، ونحو ذلك، وهذه حجة خطابية لأنها ترجع إلى مصطلح غالب البشر، لا سيما العرب. ويندر أن تتولى النساء مساعي من

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢١

الاكتساب، لكن ذلك نادر بالنسبة إلى عمل الرجل مثل استئجار الظئر نفسها وتنمية المرأة مالا ورثته من قرابتها.

ومن بديع الإعجاز صوغ قوله: بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم في قالب صالح للمصدرية وللموصولية، فالمصدرية مشعرة بأن القيامة سببها تفضيل من الله وإنفاق، والموصولية مشعرة بأن سببها ما يعلمه الناس من فضل الرجال ومن إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين: عالمهم وجاهلهم، كقول السموأل أو الحارثي:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول". (١)

١٥١٦. ٧٢٥-"والقرب هنا مستعمل في معناه المجازي وهو التلبس بالفعل، لأن (قرب) حقيقة في الدنو من المكان أو الذات يقال: قرب منه- بضم الراء- وقربه- بكسر الراء- وهما بمعنى، ومن الناس من زعم أن مكسور الراء للقرب المجازي خاصة، ولا يصح.

وإنما اختير هذا الفعل دون لا تصلوا ونحوه للإشارة إلى أن تلك حالة منافية للصلاة، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام، ومن هنا كانت مؤذنة بتغير شأن الخمر، والتنفير منها، لأن المخاطبين يومئذ هم أكمل الناس إيمانا وأعلقهم بالصلاة، فلا يرمقون شيئا يمنعهم من الصلاة إلا بعين الاحتقار. ومن المفسرين من تأول الصلاة هنا بالمسجد من إطلاق اسم الحال على المحل كما في قوله تعالى: وصلوات ومساجد [الحج: ٤٠] ، ونقل عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن قالوا: كان جماعة من الصحابة يشربون الخمر ثم يأتون المسجد للصلاة مع رسول الله فنهاهم الله عن ذلك ولا يخفى بعده ومخالفته لمشهور الآثار.

وقوله: حتى تعلموا ما تقولون غاية للنهي وإيماء إلى علته، واكتفى بقوله (تقولون) عن تفعلون لظهور أن ذلك الحد من السكر قد يفضي إلى اختلال أعمال الصلاة، إذ العمل يسرع إليه الاختلال باختلال العقل قبل اختلال القول. وفي الآية إيذان بأن السكر الخفيف لا يمنع الصلاة يومئذ أو أريد من الغاية أنها حالة انتهاء السكر فتبقى بعدها النشوة. وسكارى جمع سكران، والسكران من أخذ عقله في الانغلاق، مشتق من السكر، وهو الغلق، ومنه سكر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩/٥

الحوض وسكر الباب وسكرت أبصارنا [الحجر: ١٥] .

ولما نزلت هذه الآية اجتنب المسلمون شرب الخمر في أوقات الصلوات فكانوا لا يشربون إلا بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح، لبعد ما بين هاتين الصلاتين وبين ما تليانهما، ثم أكمل مع تحريم قربان الصلاة في حالة السكر تحريم قربانها بدون طهارة.". (١)

١٥١٧. ٧٢٦-"وأحسب أن حكمة تشريعه تقرير لزوم الطهارة في نفوس المؤمنين، وتقرير حرمة الصلاة، وترفيع شأنها في نفوسهم، فلم تترك لهم حالة يعدون فيها أنفسهم مصلين بدون طهارة تعظيما لمناجاة الله تعالى، فلذلك شرع لهم عملا يشبه **الإيماء** إلى الطهارة ليستشعروا أنفسهم متطهرين، وجعل ذلك بمباشرة اليدين صعيد الأرض التي هي منبع الماء، ولأن التراب مستعمل في تطهير الآنية ونحوها، ينظفون به ما علق لهم من الأقذار في ثيابهم وأبدانهم وما عونهم، وما الاستجمار إلا ضرب من ذلك، مع ما في ذلك من تجديد طلب الماء لفاقده وتذكيره بأنه مطالب به عند زوال مانعه، وإذ قد كان التيمم طهارة رمزية اقتنعت الشريعة فيه بالوجه والكفين في الطهارتين الصغرى والكبرى، كما دل عليه حديث عمار بن ياسر، ويؤيد هذا المقصد أن المسلمين لما عدموا الماء في غزوة

المريسيع صلوا بدون وضوء فنزلت آية التيمم. هذا منتهى ما عرض لي من حكمة مشروعية التيمم بعد طول البحث والتأمل في حكمة مقنعة في النظر، وكنت أعد التيمم هو النوع الوحيد بين الأحكام الشرعية في معنى التعبد بنوعه، وأما التعبد ببعض الكيفيات والمقادير من أنواع عبادات أخرى فكثير، مثل عدد الركعات في الصلوات، وكأن الشافعي لما اشترط أن يكون التيمم بالتراب خاصة وأن ينقل المتيمم منه إلى وجهه ويديه، راعى فيه معنى التنظيف كما في الاستجمار، إلا أن هذا القول لم ينقل عند أحد من السلف، وهو ما سبق إلى خاطر

عمار بن ياسر حين تمرغ في التراب لما تعذر عليه الاغتسال، فقال له النبيء صلى الله عليه وسلم «يكفيك من ذلك الوجه والكفان»

. ولأجل هذا أيضا اختلف السلف في حكم التيمم، فقال عمر وابن مسعود: لا يقع التيمم

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٦١

بدلا إلا عن الوضوء دون الغسل، وأن الجنب لا يصلي حتى يغتسل سواء كان ذلك في الحضر أم في السفر. وقد تناظر في ذلك أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود: روى البخاري في كتاب التيمم قال أبو موسى لا بن مسعود: أرأيت إذا أجنب فلم يجد الماء كيف يصنع؟ قال عبد الله: لا يصلي حتى يجد الماء. فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبيء: كان يكفيك هكذا، فضرب بكفيه الأرض ثم مسح بهما وجهه وكفيه، قال ابن مسعود: ألم تر عمر لم يقنع منه بذلك، قال أبو موسى. فدعنا من قول عمار، كيف تصنع بهذه الآية وإن كنتم مرضى أو على سفر فما درى عبد الله ما يقول، فقال: إنا لو رخصنا لهم في هذا لأوشك إذا برد على". (١)

١٥١٨. ٧٢٧-"أنه الشرك، والإشارة بقوله: هؤلاء أهدى إلى الذين كفروا، وهو حكاية للقول بمعناه، لأنهم إنما قالوا: «أنتم أهدى من محمد وأصحابه» ، أو قال بعض اليهود لبعض في شأن أهل مكة هؤلاء أهدى، أي حين تناجوا وزوروا ما سيقولونه، وكذلك قوله من الذين آمنوا حكاية لقولهم بالمعنى نداء على غلطهم، لأنهم إنما قالوا: «هؤلاء أهدى من محمد وأتباعه» وإذ كان محمد وأتباعه مؤمنين فقد لزم من قولهم: إن المشركين أهدى من المؤمنين. وهذا محل التعجيب.

وعقب التعجيب بقوله أولئك الذين لعنهم الله. وموقع اسم الإشارة هنا في نهاية الرشاقة، لأن من بلغ من وصف حاله هذا المبلغ صار كالمشاهد، فناسب بعد قوله ألم تر أن يشار إلى هذا الفريق المدعى أنه مرئي، فيقال: (أولئك) . وفي اسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما سيذكر من الحكم لأجل ما تقدم من أحوالهم.

والصلة التي في قوله الذين لعنهم الله ليس معلوما للمخاطبين اتصاف المخبر عنهم بها اتصاف من اشتهر بها فالمقصود أن هؤلاء هم الذين إن سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هم.

ويجوز أن يكون المسلمون قد علموا أن اليهود ملعونون، فالمقصود من الصلة هو ما عطف عليها بقوله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. والموصول على كلا الاحتمالين فيه **إيماء** إلى تعليل الإخبار الضمني عنهم: بأنهم لا نصير لهم، لأنهم لعنهم الله، والذي

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٥

يلعنه لا نصير له. وهذا مقابل قوله في شأن المسلمين والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا [النساء: ٤٥] .". (١)

١٥١٩. ٧٢٨-"[سورة النساء (٤) : الآيات ٧٤ إلى ٧٦]

فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٧٤) وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (٧٦)

الفاء: إما للتفريع، تفريع الأمر على الآخر، أي فرع فليقاتل على خذوا حذركم فانفروا [النساء: ٧١] ، أو هي فاء فصيحة، أفصحت عما دل عليه ما تقدم من قوله:

خذوا حذركم وقوله: وإن منكم لمن ليبطئن [٧٢] لأن جميع ذلك اقتضى الأمر بأخذ الحذر، وهو مهيء لطلب القتال والأمر بالنفير والإعلام بمن حالهم حال المتردد المتقاعس، أي فإذا علمتم جميع ذلك، فالذين يقاتلون في سبيل الله هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة لا كل أحد.

ويشرون معناه يبيعون، لأن شرى مقابل اشترى، مثل باع وابتاع وأكرى واكترى، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى في سورة البقرة [١٦] . فالذين يشرون الحياة الدنيا هم الذين يبذلونها ويرغبون في حظ الآخرة. وإسناد القتال المأمور به إلى أصحاب هذه الصلة وهي: يشرون الحياة الدنيا بالآخرة للتنويه بفضل المقاتلين في سبيل الله، لأن في الصلة إيماء إلى علة الخبر، أي يبعثهم على القتال في سبيل الله بذلهم حياتهم الدنيا لطلب الحياة الأبدية، وفضيحة أمر المبطئين حتى يرتدعوا عن التخلف، وحتى يكشف المنافقون عن دخيلتهم، فكان". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/٥

(٢) التحرير والتنوير ١٢١/٥

١٥٢٠.   ٧٢٩-"آنفا- يجعل الآية صالحة للاستدلال، وهو استدلال تقريبي لأن أصول الدين لا يستدل فيها بالظواهر كالعموم.

وجيء في حكاية قولهم: يقولوا هذه من عند الله- يقولوا هذه من عندك بكلمة (عند) للدلالة على قوة نسبة الحسنة إلى الله ونسبة السيئة للنبيء عليه الصلاة والسلام أي قالوا ما يفيد جزمهم بذلك الانتساب.

ولما أمر الله رسوله أن يجيبهم قال: قل كل من عند الله مشاكلة لقولهم، وإعرابا عن التقدير الأزلي عند الله.

وأما قوله: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فلم يؤت فيه بكلمة (عند) ، **إيماء** إلى أن ابتداء مجيء الحسنة من الله ومجيء السيئة من نفس المخاطب، ابتداء المتسبب لسبب الفعل، وليس ابتداء المؤثر في الأثر.

وقوله: وأرسلناك للناس رسولا عطف على قوله: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك للرد على قولهم: السيئة من عند محمد، أي أنك بعثت مبلغا شريعة وهاديا، ولست مؤثرا في الحوادث ولا تدل مقارنة الحوادث المؤلمة على عدم صدق الرسالة.

فمعنى أرسلناك بعثناك كقوله وأرسلنا الرياح [الحجر:
٢٢] ونحوه. وللناس متعلق ب أرسلناك. وقوله رسولا حال من أرسلناك، والمراد بالرسول هنا معناه الشرعي المعروف عند أهل الأديان: وهو النبيء المبلغ عن الله تعالى، فهو لفظ لقيي دال على هذا المعنى، وليس المراد به اسم المفعول بالمعنى اللغوي ولهذا حسن مجيئه حالا مقيدة ل «أرسلناك» ، لاختلاف المعنيين، أي بعثناك مبلغا لا مؤثرا في الحوادث، ولا أمارة على وقوع الحوادث السيئة. وبهذا يزول إشكال مجيء هذه الحال غير مفيدة إلا التأكيد، حتى احتاجوا إلى جعل المجرور متعلقا ب رسولا، وأنه قدم عليه دلالة على الحصر باعتبار العموم المستفاد من التعريف، كما في «الكشاف» ، أي لجميع الناس لا لبعضهم، وهو تكلف لا داعي إليه، وليس المقام هذا الحصر.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٤/٥

١٥٢١.   ٧٣٠-"فلتؤجروا»

. ووصفها بالحسنة وصف كاشف لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة في الخير، وأما إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شر فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيئة، إذ لا يقال (شفع) للذي سعى بجلب سوء.

والنصيب: الحظ من كل شيء: خيرا كان أو شرا، وتقدم في قوله تعالى: أولئك لهم نصيب مما كسبوا في سورة البقرة [٢٠٢] .

والكفل- بكسر الكاف وسكون الفاء- الحظ كذلك، ولم يتبين لي وجه اشتقاقه بوضوح. ويستعمل الكفل بمعنى المثل، فيؤخذ من التفسيرين أن الكفل هو الحظ المماثل لحظ آخر، وقال صاحب «اللسان» : لا يقال هذا كفل فلان حتى يكون قد هيئ لغيره مثله، ولم يعز هذا، ونسبه الفخر إلى ابن المظفر، ولم يذكر ذلك أحد غير هذين فيما علمت، ولعله لا يساعد عليه الاستعمال. وقد قال الله تعالى: يؤتكم كفلين من رحمته [الحديد: ٢٨] . وهل يحتج بما قاله ابن المظفر- وابن المظفر هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي الأديب معاصر المتنبي-. وفي مفردات الراغب أن الكفل هو الحظ من الشر والشدة، وأنه مستعار من الكفل وهو الشيء الرديء، فالجزاء في جانب الشفاعة الحسنة بأنه نصيب إيماء إلى أنه قد يكون له أجر أكثر من ثواب من شفع عنده.

وجملة وكان الله على كل شيء مقيتا تذييل لجملة من يشفع شفاعة حسنة الآية، لإفادة أن الله يجازي على كل عمل بما يناسبه من حسن أو سوء.

والمقيت الحافظ، والرقيب، والشاهد، والمقتدر. وأصله عند أبي عبيدة الحافظ. وهو اسم فاعل من أقات إذا أعطى القوت، فوزنه مفعل وعينه واو. واستعمل مجازا في معاني الحفظ والشهادة بعلاقة اللزوم، لأن من يقيت أحدا فقد حفظه من الخصاصة أو من الهلاك، وهو هنا مستعمل في معنى الاطلاع، أو مضمن معناه، كما ينبيء عنه تعديته بحرف (على) . ومن أسماء الله تعالى المقيت، وفسره الغزالي بموصل الأقوات. فيؤول إلى معنى الرازق، إلا أنه أخص، وبمعنى المستولي على الشيء القادر عليه، وعليه يدل قوله تعالى: وكان الله على كل شيء

مقيتا فيكون راجعا إلى القدرة والعلم.". (١)

١٥٢٢. ٧٣١-"ومجيء صفتهم بطريقة الموصول لإفادة تعليل استحقاقهم العذاب الأليم، أي لأنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي اتخذوهم أولياء لأجل مضادة المؤمنين. والمراد بالكافرين مشركو مكة، أو أحبار اليهود، لأنه لم يبق بالمدينة مشركون صرحاء في وقت نزول هذه السورة، فليس إلا منافقون ويهود. وجملة أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله استئناف بياني باعتبار المعطوف وهو فإن العزة لله وقوله: أيبتغون هو منشأ الاستئناف، وفي ذلك **إيماء** إلى أن المنافقين لم تكن موالاتهم للمشركين لأجل المماثلة في الدين والعقيدة، لأن معظم المنافقين من اليهود، بل اتخذوهم ليعتزوا بهم على المؤمنين، **وإيماء** إلى أن المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز، وفي ذلك نهاية التجهيل والذم. والاستفهام إنكار وتوبيخ، ولذلك صح التفريع عنه بقوله: فإن العزة لله جميعا أي لا عزة إلا به، لأن الاعتزاز بغيره باطل. كما قيل: من اعتز بغير الله هان.

وإن كان المراد بالكافرين اليهود فالاستفهام تهكم بالفريقين كقول المثل: كالمستغيث من الرمضاء بالنار. وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية.

وجملة وقد نزل عليكم في الكتاب إلخ يجوز أن تكون معطوفة على جملة بشر المنافقين تذكيرا للمسلمين بما كانوا أعلموا به مما يؤكد التحذير من مخالطتهم، فضمير الخطاب موجه إلى المؤمنين، وضمائر الغيبة إلى المنافقين، ويجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير (يتخذون) ، فيكون ضمير الخطاب في قوله: وقد نزل عليكم خطابا لأصحاب الصلة من قوله: الذين يتخذون الكافرين أولياء [النساء: ١٣٩] على طريقة الالتفات، كأنهم بعد أن أجريت عليهم الصلة صاروا معينين معروفين، فالتفت إليهم بالخطاب، لأنهم يعرفون أنهم أصحاب تلك الصلة، فلعلهم أن يقلعوا عن موالاة الكافرين. وعليه فضمير الخطاب للمنافقين، وضمائر الغيبة للكافرين، والذي نزل في الكتاب هو آيات نزلت قبل نزول هذه السورة في القرآن: في شأن كفر الكافرين والمنافقين

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٤/٥

واستهزائهم.

قال المفسرون: إن الذي أحيل عليه هنا هو قوله تعالى في سورة [٦٨] الأنعام:

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره لأن شأن الكافرين يسري إلى الذين يتخذونهم أولياء، والظاهر أن الذي أحال الله عليه هو ما". (١)

١٥٢٣. ٧٣٢-"تكرر في القرآن من قبل نزول هذه السورة نحو قوله في البقرة: وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن مما حصل من مجموعه تقرر هذا المعنى.

و (أن) في قوله: أن إذا سمعتم تفسيرية، لأن (نزل) تضمن معنى الكلام دون حروف القول، إذ لم يقصد حكاية لفظ (ما نزل) بل حاصل معناه. وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوفا، وهو بعيد.

وإسناد الفعلين: يكفر ويستهزأ إلى المجهول لتتأتى، بحذف الفاعل، صلاحية إسناد الفعلين إلى الكافرين والمنافقين. وفيه **إيماء** إلى أن المنافقين يركنون إلى المشركين واليهود لأنهم يكفرون بالآيات ويستهزئون، فتنثلج لذلك نفوس المنافقين، لأن المنافقين لا يستطيعون أن يتظاهروا بذلك للمسلمين فيشفي غليلهم أن يسمع المسلمون ذلك من الكفار.

وقد جعل زمان كفرهم واستهزائهم هو زمن سماع المؤمنين آيات الله. والمقصود أنه زمن نزول آيات الله أو قراءة آيات الله، فعدل عن ذلك إلى سماع المؤمنين، ليشير إلى عجيب تضاد الحالين، فلفي حالة اتصاف المنافقين بالكفر بالله والهزل بآياته يتصف المؤمنون بتلقي آياته والإصغاء إليها وقصد الوعي لها والعمل بها.

وأعقب ذلك بتفريع النهي عن مجالستهم في تلك الحالة حتى ينتقلوا إلى غيرها، لئلا يتوسل الشيطان بذلك إلى استضعاف حرص المؤمنين على سماع القرآن، لأن للأخلاق عدوى، وفي المثل «تعدي الصحاح مبارك الجرب» .

وهذا النهي يقتضي الأمر بمغادرة مجالسهم إذا خاضوا في الكفر بالآيات والاستهزاء بها. وفي النهي عن القعود إليهم حكمة أخرى: وهي وجوب إظهار الغضب لله من ذلك كقوله: تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق [الممتحنة: ١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٣٤

و (حتى) حرف يعطف غاية الشيء عليه، فالنهي عن القعود معهم غايته أم يكفوا عن الخوض في الكفر بالآيات والاستهزاء بها.

وهذا الحكم تدريج في تحريم موالاة المسلمين للكافرين، جعل مبدأ ذلك أن لا يحضروا مجالس كفرهم ليظهر التمايز بين المسلمين الخلص وبين المنافقين، ورخص". (١)

١٥٢٤. ٧٣٣-"وجملة إن المنافقين مستأنفة استئنافا بيانيا، ثانيا إذ هي عود إلى أحوال المنافقين.

وتأكيد الخبر ب (إن) لإفادة أنه لا محيص لهم عنه.

والدرك: اسم جمع دركة، ضد الدرج اسم جمع درجة. والدركة المنزلة في الهبوط. فالشيء الذي يقصد أسفله تكون منازل التدلي إليه دركات، والشيء الذي يقصد أعلاه تكون منازل الرقي إليه درجات، وقد يطلق الاسمان على المنزلة الواحدة باختلاف الاعتبار وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل، أي في أذل منازل العذاب، لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حف به من الرذائل.

وقرأ الجمهور: في الدرك- بفتح الراء- على أنه اسم جمع دركة ضد الدرجة.

وقرأه عاصم. وحمزة، والكسائي، وخلف- بسكون الراء- وهما لغتان وفتح الراء هو الأصل، وهو أشهر.

والخطاب في ولن تجد لهم نصيرا لكل من يصح منه سماع الخطاب، وهو تأكيد للوعيد، وقطع لرجائهم، لأن العرب ألفوا الشفاعات والنجدات في المضائق. فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوهما.

واستثنى من هذا الوعيد من آمن من المنافقين، وأصلح حاله، واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، وأخلص دينه لله، فلم يشبه بتردد ولا تربص بانتظار من ينتصر من الفريقين: المؤمنين والكافرين، فأخبر أن من صارت حاله إلى هذا الخير فهو مع المؤمنين، وفي لفظ (مع) **إيماء** إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق لأن (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/٥

وجيء باسم الإشارة في قوله: فأولئك مع المؤمنين لزيادة تمييز هؤلاء الذين تابوا، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة.

وقد علم الناس ما أعد الله للمؤمنين بما تكرر في القرآن، ولكن زاده هنا تأكيدا بقوله: وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما. وحرف التنفيس هنا دل على أن المراد من الأجر أجر الدنيا وهو النصر وحسن العاقبة وأجر الآخرة، إذ الكل مستقبل، وأن ليس المراد منه الثواب لأنه حصل من قبل.". (١)

١٥٢٥. ٧٣٤-"إن تبدوا خيرا أو تخفوه إلا إذا خصص ذلك بإبداء الخير لمن ظلمهم، وإخفائه عمن ظلمهم.

وفي الحديث «أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك»

. [١٥٠- ١٥٢]

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٠ إلى ١٥٢]

إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (١٥١) والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما (١٥٢)

عادة القرآن عند التعرض إلى أحوال من أظهروا النواء للمسلمين أن ينتقل من صفات المنافقين، أو أهل الكتاب، أو المشركين إلى صفات الآخرين، فالمراد من الذين يكفرون بالله ورسله هنا هم اليهود والنصارى، قاله أهل التفسير. والأظهر أن المراد به اليهود خاصة لأنهم المختلطون بالمسلمين والمنافقين، وكان كثير من المنافقين يهودا وعبر عنهم بطريق الموصول دون الاسم لما في الصلة من **الإيماء** إلى وجه الخير، ومن شناعة صنيعهم ليناسب الإخبار عنهم باسم الإشارة بعد ذلك.

وجمع الرسل لأن اليهود كفروا بعيسى ومحمد- عليهما السلام-، والنصارى كفروا بمحمد

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٤٤

صلى الله عليه وسلم، فجمع الرسل باعتبار مجموع الكفار، أو أراد بالجمع الاثنين، أو أراد بالإضافة معنى الجنس فاستوى فيه صيغة الإفراد والجمع، لأن المقصود ذم من هذه صفتهم بدون تعيين فريق، وطريق العرب في مثل هذا أن يعبروا بصيغة الجموع وإن كان المعرض به واحدا كقوله تعالى: أم يحسدون الناس [النساء: ٥٤] وقوله: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل [النساء: ٣٧]". (١)

١٥٢٦. ٧٣٥-"علما بالغلبة في لغة العرب على كتاب داود النبيء، وهو أحد أسفار الكتاب المقدس عند اليهود.

وعطفت جملة وآتينا داود زبورا على أوحينا إليك. ولم يعطف اسم داود على بقية الأسماء المذكورة قبله للإيماء إلى أن الزبور موحى بأن يكون كتابا.

وقرأ الجمهور زبورا- بفتح الزاي-، وقرأه حمزة وخلف- بضم الزاي-.

وقوله: ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل يعني في آي القرآن مثل: هود، وصالح، وشعيب، وزكرياء، ويحيى، وإلياس، واليسع، ولوط، وتبع. ومعنى قوله:

ورسلا لم نقصصهم عليك لم يذكرهم الله تعالى في القرآن، فمنهم من لم يرد ذكره في السنة: مثل حنظلة بن صفوان نبيء أصحاب الرس، ومثل بعض حكماء اليونان عند بعض علماء الحكمة. قال السهروردي في «حكمة الإشراق» : «منهم أهل السفارة» . ومنهم من ذكرته السنة: مثل خالد بن سنان العبسي.

وإنما ذكر الله تعالى هنا الأنبياء الذين اشتهروا عند بني إسرائيل لأن المقصود محاجتهم. وإنما ترك الله أن يقص على النبيء صلى الله عليه وسلم أسماء كثير من الرسل للاكتفاء بمن قصهم عليه، لأن المذكورين هم أعظم الرسل والأنبياء قصصا ذات عبر.

وقوله: وكلم الله موسى تكليما غير الأسلوب فعدل عن العطف إلى ذكر فعل آخر، لأن لهذا النوع من الوحي مزيد أهمية، وهو مع تلك المزية ليس إنزال كتاب من السماء، فإذا لم تكن عبرة إلا بإنزال كتاب من السماء حسب اقتراحهم، فقد بطل أيضا ما عدا الكلمات العشر المنزلة في الألواح على موسى- عليه السلام-.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٦

وكلام الله تعالى صفة مستقلة عندنا، وهي المتعلقة بإبلاغ مراد الله إلى الملائكة والرسل، وقد تواتر ذلك في كلام الأنبياء والرسل تواترا ثبت". (١)

١٥٢٧. ٧٣٦-"حقيقة. وإظهار فعل يشهدون مع وجود حرف العطف للتأكيد. وحرف (لكن) بسكون النون مخفف لكن المشددة النون التي هي من أخوات (إن) وإذا خففت بطل عملها.

وقوله: وكفى بالله شهيدا يجري على الاحتمالين.

وقوله: بما أنزل إليك أنزله بعلمه وقع تحويل في تركيب الجملة لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل، ليكون أوقع في النفس. وأصل الكلام: يشهد بإنزال ما أنزله إليك بعلمه لأن قوله: بما أنزل إليك لم يفد المشهود به إلا ضمنا مع المشهود فيه إذ جيء باسم الموصول ليوصل بصلة فيها **إيماء** إلى المقصود، ومع ذلك لم يذكر المقصود من الشهادة الذي هو حق مدخول الباء بعد مادة شهد، فتكون جملة أنزله بعلمه مكملة معنى الشهادة. وهذا قريب من التحويل الذي يستعمله العرب في تمييز النسبة. وقال

الزمخشري: «موقع قوله: أنزله بعلمه من قوله: لكن الله يشهد بما أنزل إليك موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز» . فلعله يجعل جملة لكن الله يشهد بما أنزل إليك مستقلة بالفائدة، وأن معنى بما أنزل إليك بصحة ما أنزل إليك، وما ذكرته أعرق في البلاغة.

ومعنى أنزله بعلمه أي متلبسا بعلمه، أي بالغا الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلم من الله تعالى، ومعنى ذلك أنه معجز لفظا ومعنى، فكما أعجز البلغاء من أهل اللسان أعجز العلماء من أهل الحقائق العالية.

والباء في قوله: وكفى بالله شهيدا زائدة للتأكيد، وأصله: كفى الله شهيدا كقوله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا أو يضمن (كفى) معنى اقتنعوا، فتكون الباء للتعدية.

[١٦٧]

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٣٥

[سورة النساء (٤) : آية ١٦٧]

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا". (١)

١٥٢٨. ٧٣٧-"(١٦٧)

يجوز أن يكون المراد بالذين كفروا هنا أهل الكتاب، أي اليهود، فتكون الجملة بمنزلة الفذلكة للكلام السابق الراد على اليهود من التحاور المتقدم. وصدهم عن سبيل الله يحتمل أن يكون من صد القاصر الذي قياس مضارعه يصد- بكسر الصاد-، أي أعرضوا عن سبيل الله. أي الإسلام، أو هو من صد المتعدي الذي قياس مضارعه- بضم الصاد-، أي صدوا الناس. وحذف المفعول لقصد التكثير. فقد كان اليهود يتعرضون للمسلمين بالفتنة، ويقوون أوهام المشركين بتكذيبهم النبيء صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا المشركين، كما هو الغالب في إطلاق هذا الوصف في القرآن، فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا، انتقل إليه بمناسبة الخوض في مناواة أهل الكتاب للإسلام. وصدهم عن سبيل الله، أي صدهم الناس عن الدخول في الإسلام مشهور.

والضلال الكفر لأنه ضياع عن الإيمان، الذي هو طريق الخير والسعادة، فإطلاق الضلال على الكفر استعارة مبنية على استعارة الطريق المستقيم للإيمان. ووصف الضلال بالبعيد مع أن البعد من صفات المسافات هو استعارة البعد لشدة الضلال وكماله في نوعه، بحيث لا يدرك مقداره، وهو تشبيه شائع في كلامهم: أن يشبهوا بلوغ الكمال بما يدل على المسافات والنهايات كقولهم: بعيد الغور، وبعيد القعر، ولا نهاية له، ولا غاية له، ورجل بعيد الهمة، وبعيد المرمى، ولا منتهى لكبارها، وبحر لا ساحل له، وقولهم:

هذا إغراق في كذا.

ومن بديع مناسبته هنا أن الضلال الحقيقي يكون في الفيافي والموامي، فإذا اشتد التيه والضلال بعد صاحبه عن المعمور، فكان في وصفه بالبعيد تعاهد للحقيقة، وإيماء إلى أن في إطلاقه

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٤٥

على الكفر والجهل نقلا عرفيا.". (١)

١٥٢٩. ٧٣٨-"ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم خدلج الساقين خفاق القدم ثم أقبل الحطم في العام القابل وهو عام القضية فسمعوا تلبية حجاج اليمامة فقالوا:

هذا الحطم وأصحابه ومعهم هدي هو مما نهبه من إبل المسلمين، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نهيهم، فنزلت الآية في النهي عن ذلك. فهي حكم عام نزل بعد تلك القضية، وكان النهي عن التعرض لبدن الحطم مشمولا لما اشتملت عليه هذه الآية.

والبيت الحرام هو الكعبة. وسيأتي بيان وصفه بهذا الوصف عند قوله: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس [المائدة: ٩٧] في هذه السورة. وجملة يبتغون فضلا من ربهم صفة ل آمين من قصدهم ابتغاء فضل الله ورضوانه وهم الذين جاءوا لأجل الحج **إيماء** إلى سبب حرمة آمي البيت الحرام.

وقد نهى الله عن التعرض للحجيج بسوء لأن الحج ابتغاء فضل الله ورضوانه، وقد كان أهل الجاهلية يقصدون منه ذلك، قال النابغة:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد عزما

مشمرين على خوص مزممة ... نرجو الإله ونرجو البر والطعما

ويتنزهون عن فحش الكلام، قال العجاج:

ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم

ويظهرون الزهد والخشوع، قال النابغة:

بمصطحبات من لصاف وثبرة ... بزرن إلالا سيرهن التدافع

(١) التحرير والتنوير ٦/٤٦

عليهن شعث عامدون لربهم ... فهن كأطراف الحني خواشع". (١)

١٥٣٠. ٧٣٩-"والظاهر أن علة تحريمه القذارة: لأنه يكتسب رائحة كريهة عند لقائه الهواء، ولذلك قال كثير من الفقهاء بنجاسة عينه، ولا تعرض في الآية لذلك، أو لأنه يحمل ما في جسد الحيوان من الأجزاء المضرة التي لا يحاط بمعرفتها، أو لما يحدثه تعود شرب الدم من الضراوة التي تعود على الخلق الإنساني بالفساد. وقد كانت العرب تأكل الدم، فكانوا في المجاعات يفصدون من إبلهم ويخلطون الدم بالوبر ويأكلونه، ويسمونه العلهز- بكسر العين والهاء.- وكانوا يملأون المصير بالدم ويشوونها ويأكلونها، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: إنما حرم عليكم الميتة والدم في سورة البقرة [١٧٣] .

وإنما قال: ولحم الخنزير ولم يقل والخنزير كما قال: وما أهل لغير الله به إلى آخر المعطوفات. ولم يذكر تحريم الخنزير في جميع آيات القرآن إلا بإضافة لفظ لحم إلى الخنزير. ولم يأت المفسرون في توجيه ذلك بوجه ينثلج له الصدر. وقد بينا ذلك في

نظير هذه الجملة من سورة البقرة [١٧٣] . ويبدو لي أن إضافة لفظ لحم إلى الخنزير للإيماء إلى أن المحرم أكل لحمه لأن اللحم إذا ذكر له حكم فإنما يراد به أكله. وهذا إيماء إلى أن ما عدا أكل لحمه من أحوال استعمال أجزائه هو فيها كسائر الحيوان في طهارة شعره، إذا انتزع منه في حياته بالجز، وطهارة عرقه وطهارة جلده بالدبغ، إذا اعتبرنا الدبغ مطهرا جلد الميتة، اعتبارا بأن الدبغ كالذكاة. وقد روي القول بطهارة جلد الخنزير بالدبغ عن داود الظاهري وأبي يوسف أخذا بعموم

قوله صلى الله عليه وسلم: «أيما إهاب دبغ فقد طهر»

رواه مسلم والترمذي عن ابن عباس. وعلة تحريم الخنزير أن لحمه يشتمل على جراثيم مضرة لا تقتلها حرارة النار عند الطبخ، فإذا وصلت إلى دم آكله عاشت في الدم فأحدثت أضرارا عظيمة، منها مرض الديدان التي في المعدة.

(١) التحرير والتنوير ٨٤/٦

وما أهل لغير الله به هو ما سمي عليه عند الذبح اسم غير الله.". (١)

١٥٣١. ٧٤٠-"والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

عطف والمحصنات من المؤمنات على وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم عطف المفرد على المفرد. ولم يعرج المفسرون على بيان المناسبة لذكر حل المحصنات من المؤمنات في أثناء إباحة طعام أهل الكتاب، وإباحة تزوج نسائهم. وعندي: أنه **إيماء** إلى أنهن أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب، والمقصود هو حكم المحصنات من الذين أوتوا الكتاب فإن هذه الآية جاءت لإباحة التزوج بالكتابيات. فقوله: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب عطف على وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم. فالتقدير:

والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم.

والمحصنات: النسوة اللاء أحصنهن ما أحصنهن، أي منعهن عن الخنا أو عن الريب، فأطلق الإحصان: على المعصومات بعصمة الأزواج كما في قوله تعالى في سورة النساء [٢٤] عطفا على المحرمات المحصنات من النساء وعلى المسلمات لأن الإسلام وزعهن عن الخنا، قال الشاعر:

ويصدهن عن الخنا الإسلام وأطلق على الحرائر، لأن الحرائر يترفعن عن الخنا من عهد الجاهلية. ولا يصلح من هذه المعاني هنا الأول، إذ لا يحل تزوج ذات الزوج، ولا الثاني لقوله: من المؤمنات الذي هو ظاهر في أنهن بعض المؤمنات فتعين معنى الحرية، ففسرها مالك بالحرائر، ولذلك منع نكاح الحر". (٢)

١٥٣٢. ٧٤١-"ويحتمل أن يكون المراد بها الجنس وتكون الصلة **إيماء** إلى تعليل كونهم كافرين فتقتضي أن كل من لا يحكم بما أنزل الله يكفر. وقد اقتضى هذا قضيتين:

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٩٠

(٢) التحرير والتنوير ٦/١٢٣

إحداهما: كون الذي يترك الحكم بما تضمنته التوراة مما أوحاه الله إلى موسى كافرا، أو تارك الحكم بكل ما أنزله الله على الرسل كافرا والثانية: قصر وصف الكفر على تارك الحكم بما أنزل الله.

فأما القضية الأولى: فالذين يكفرون مرتكب الكبيرة يأخذون بظاهر هذا. لأن الجور في الحكم كبيرة والكبيرة كفر عندهم. وعبروا عنه بكفر نعمة يشاركه في ذلك جميع الكبائر، وهذا مذهب باطل كما قررناه غير مرة. وأما جمهور المسلمين وهم أهل السنة من الصحابة فمن بعدهم فهي عندهم قضية مجملة، لأن ترك الحكم بما أنزل الله يقع على أحوال كثيرة فبيان إجماله بالأدلة الكثيرة القاضية بعدم التكفير بالذنوب، ومساق الآية يبين إجمالها. ولذلك قال جمهور العلماء: المراد بمن لم يحكم هنا خصوص اليهود، قاله البراء بن عازب ورواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه مسلم في «صحيحه» . فعلى هذا تكون (من) موصولة، وهي بمعنى لام العهد. والمعنى عليه: ومن ترك الحكم بما أنزل الله تركا مثل هذا الترك، هو ترك الحكم المشوب بالطعن في صلاحيته. وقد عرف اليهود بكثرة مخالفة حكامهم لأحكام كتابهم بناء على تغييرهم إياها باعتقاد عدم مناسبتها لأحوالهم كما فعلوا في حد الزنى فيكون القصر ادعائيا وهو المناسب لسبب نزول الآيات التي كانت هذه ذيلا لها فيكون الموصول لتعريف أصحاب هذه الصلة وليس معللا للخبر. وزيدت الفاء في خبره لمشابهته بالشرط في لزوم خبره له، أي أن الذين عرفوا بهذه الصفة هم الذين إن سألت عن الكافرين فهم هم لأنهم كفروا وأساءوا الصنع.

وقال جماعة: المراد من لم يحكم بما أنزل الله من ترك الحكم به جحدا له، أو استخفافا به، أو طعنا في حقيته بعد ثبوت كونه حكم الله بتواتر أو سماعه من رسول الله، سمعه المكلف بنفسه. وهذا مروي عن ابن مسعود، وابن". (١)

١٥٣٣. ٧٤٢-"والنصارى أولياء ذريعة للارتداد، لأن استمرار فريق على موالاة اليهود والنصارى من المنافقين وضعفاء الإيمان يخشى منه أن ينسل عن الإيمان فريق. وأنبأ المترددين ضعفاء الإيمان بأن الإسلام غني عنهم إن عزموا على الارتداد إلى الكفر.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١١/٦

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر من يرتدد- بدالين- على فك الإدغام، وهو أحد وجهين في مثله، وهو لغة أهل الحجاز، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام.

وقرأ الباقون- بدال واحدة مشددة بالإدغام-، وهو لغة تميم.- وبفتح على الدال- فتحة تخلص من التقاء الساكنين لخفة الفتح، وكذلك هو مرسوم في مصحف مكة ومصحف الكوفة ومصحف البصرة.

والارتداد مطاوع الرد، والرد هو الإرجاع إلى مكان أو حالة، قال تعالى: ردوها علي [ص: ٣٣] . وقد يطلق الرد بمعنى التصيير ومنكم من يرد إلى أرذل العمر [النحل: ٧٠] . وقد لوحظ في إطلاق اسم الارتداد على الكفر بعد الإسلام ما كانوا عليه قبل الإسلام من الشرك وغيره، ثم غلب اسم الارتداد على الخروج من الإسلام ولو لم يسبق للمرتد عنه اتخاذ دين قبله.

وجملة فسوف يأتي الله بقوم إلخ جواب الشرط، وقد حذف منها العائد على الشرط الاسمي، وهو وعد بأن هذا الدين لا يعدم أتباعا بررة مخلصين. ومعنى هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض وعن المنافقين وقلة الاكتراث بهم، كقوله

تعالى: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا وتطمين الرسول والمؤمنين الحق بأن الله يعوضهم بالمرتدين خيرا منهم. فذلك هو المقصود من جواب الشرط فاستغني عنه بذكر ما يتضمنه حتى كان للشرط جوابان.

وفي نزول هذه الآية في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم **إيماء** إلى ما سيكون من ارتداد كثير من العرب عن الإسلام مثل أصحاب الأسود العنسي باليمن، وأصحاب طلحة بن خويلد في بني أسد، وأصحاب مسيلمة بن حبيب الحنفي باليمامة. ثم إلى ما كان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من ارتداد قبائل كثيرة مثل فزارة وغطفان وبني تميم وكندة ونحوهم.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/٦

١٥٣٤. ٧٤٣-"القرآن. وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تسيرها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلا عن بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة بأن يكون لينا في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال، قال:

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب

وقال تعالى: أشداء على الكفار رحماء بينهم [الفتح: ٢٩] .

وقوله: يجاهدون في سبيل الله صفة ثالثة، وهي من أكبر العلامات الدالة على صدق الإيمان.

والجهاد: إظهار الجهد، أي الطاقة في دفاع العدو، ونهاية الجهد التعرض للقتل، ولذلك جيء به على صيغة مصدر فاعل لأنه يظهر جهده لمن يظهر له مثله. وقوله:

ولا يخافون لومة لائم صفة رابعة، وهي عدم الخوف من الملامة، أي في أمر الدين، كما هو السياق.

واللومة الواحدة من اللوم. وأريد بها هنا مطلق المصدر، كاللوم لأنها لما وقعت في سياق النفي فعمت زال منها معنى الواحدة كما يزول معنى الجمع في الجمع المعمم بدخول ال الجنسية لأن (لا) في عموم النفي مثل (ال) في عموم الإثبات، أي لا يخافون جميع أنواع اللوم من جميع اللائمين إذ اللوم منه: شديد، كالتقريع، وخفيف واللائمون:

منهم اللائم المخيف، والحبيب فنفى عنهم خوف جميع أنواع اللوم. ففي الجملة ثلاثة عمومات: عموم الفعل في سياق النفي، وعموم المفعول، وعموم المضاف إليه. وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء واللوم لأن الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة.

ولم يزل الإعراض عن ملام اللائمين علامة على الثقة بالنفس وأصالة الرأي. وقد عد فقهاؤنا في وصف القاضي أن يكون مستخفا باللائمة على أحد تأويلين في عبارة المتقدمين، واحتمال التأويلين دليل على اعتبار كليهما شرعا.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٦

١٥٣٥. ٧٤٤-"والرؤية في قوله: وترى بصرية، أي أن حالهم في ذلك بحيث لا يخفى على أحد. والخطاب لكل من يسمع.

وتقدم معنى يسارعون عند قوله: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [النساء: ٤١] .

والإثم: المفاسد من قول وعمل، أريد به هنا الكذب، كما دل عليه قوله: عن قولهم الإثم.

والعدوان: الظلم، والمراد به الاعتداء على المسلمين إن استطاعوه.

والسحت تقدم في قوله: سماعون للكذب أكالون للسحت [المائدة: ٤٢] .

ولولا تحضيض أريد منه التوبيخ.

والربانيون والأحبار تقدم بيان معناهما في قوله تعالى: يحكم بها النبيون [المائدة: ٤٤] الآية.

واقتصر في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم، لأن الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه، ضعف.

وجملة لبئس ما كانوا يصنعون مستأنفة، ذم لصنيع الربانيين والأحبار في سكوتهم عن تغيير المنكر، ويصنعون بمعنى يعلمون، وإنما خولف هنا ما تقدم في الآية قبلها للتفنن، وقيل: لأن يصنعون أدل على التمكن في العمل من يعملون.

واللام للقسم.

[٦٤]

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٤]

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (٦٤)

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.

عطف على جملة وإذا جاؤكم قالوا آمنا [المائدة: ٦١] ، فإنه لما كان أولئك من اليهود والمنافقين انتقل إلى سوء معتقدهم وخبث طويتهم ليظهر فرط التنافي بين معتقدهم ومعتقد أهل الإسلام، وهذا قول اليهود الصرحاء غير المنافقين فلذلك أسند إلى اسم (اليهود) .". (١)

١٥٣٦. ٧٤٥-"وهذا بيان للسبب الذي بعثهم على تلك المقالة الشنيعة، أي أعماهم الحسد فزادهم طغيانا وكفرا، وفي هذا إعداد للرسول- عليه الصلاة والسلام- لأخذ الحذر منهم، وتسلية له بأن فرط حنقهم هو الذي أنطقهم بذلك القول الفظيع.

وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

عطف على جملة ولعنوا بما قالوا عطف الخبر على الإنشاء على أحد الوجهين فيه. وفي هذا الخبر الإيماء إلى أن الله عاقبهم في الدنيا على بغضهم المسلمين بأن ألقى البغضاء بين بعضهم وبعض، فهو جزاء من جنس العمل، وهو تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يهمه أمر عداوتهم له، فإن البغضاء سجيتهم حتى بين أقوامهم وأن هذا الوصف دائم لهم شأن الأوصاف التي عمي أصحابها عن مداواتها بالتخلق الحسن. وتقدم القول في نظيره آنفا.

كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين.

تركيب أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله تمثيل، شبه به حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها والحزامة في أمرها، بحال من يوقد النار لحاجة بها فتنطفيء، فإنه شاعت استعارات معاني التسعير والحمي والنار ونحوها للحرب، ومنه حمي الوطيس، وفلان مسعر حرب، ومحش حرب، فقوله: أوقدوا نارا للحرب كذلك، ولا نار في الحقيقة، إذ لم يؤثر عن العرب أن لهم نارا تختص بالحرب تعد في نيران العرب التي يوقدونها لأغراض. وقد وهم من ظنها حقيقة، ونبه المحققون على وهمه.

وشبه حال انحلال عزمهم أو انهزامهم وسرعة ارتدادهم عنها، وإحجامهم عن مصابحة

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٤٨

أعدائهم، بحال من انطفأت ناره التي أوقدها.". (١)

١٥٣٧. ٧٤٦-"بتثبيت قلبه وشرح صدره بأن يدوم على تبليغ الشريعة ويجهد في ذلك ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار، إذ كان نزول هذه السورة في آخر مدة النبيء صلى الله عليه وسلم لأن الله دائم على عصمته من أعدائه وهم الذين هون أمرهم في قوله: يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [المائدة: ٤١] فهم المعنيون من الناس في هذه الآية، فالمأمور بتبليغه بعض خاص من القرآن.

وقد علم من خلق النبيء صلى الله عليه وسلم أنه يحب الرفق في الأمور ويقول: إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله (كما جاء في حديث عائشة حين سلم اليهود عليه فقالوا: السام عليكم، وقالت عائشة لهم: السام عليكم واللعنة) ، فلما أمره الله أن يقول لأهل الكتاب وأن أكثركم فاسقون قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه [المائدة: ٥٩، ٦٠] الآية، وكان ذلك القول مجاهرة لهم بسوء أعلمه الله بأن هذا لا رفق فيه فلا يدخل فيما كان يعاملهم به من المجادلة بالتي هي أحسن، فتكون هذه الآية مخصصة لما في حديث عائشة وتدخل في الاستثناء الذي في قوله تعالى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم [النساء: ١٤٨] .

ولذلك أعيد افتتاح الخطاب له بوصف الرسول المشعر بمنتهى شرفه، إذ كان واسطة بين الله وخلقه، والمذكر له بالإعراض عمن سوى من أرسله.

ولهذا الوصف في هذا الخطاب الثاني موقع زائد على موقعه في الخطاب الأول، وهو ما فيه من **الإيماء** إلى وجه بناء الكلام الآتي بعده، وهو قوله: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، كما قال تعالى: ما على الرسول إلا البلاغ [المائدة: ٩٩] .

فكما ثبت جنانه بالخطاب الأول أن لا يهتم بمكائد أعدائه، حذر بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن، أو من خشيته إعراضهم عنه إذا أنزل من القرآن في شأنهم، إذ لعله يزيدهم عنادا وكفرا، كما دل عليه قوله في آخر هذه الآية وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٥١

إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين [المائدة: ٦٨] .". (١)

١٥٣٨. ٧٤٧-"والتبليغ يحصل بما يكفل للمحتاج إلى معرفة حكم تمكنه من معرفته في وقت الحاجة أو قبله، لذلك كان الرسول- عليه الصلاة والسلام- يقرأ القرآن على الناس عند نزول الآية ويأمر بحفظها عن ظهر قلب وبكتابتها، ويأمر الناس بقراءته وبالاستماع إليه.

وقد أرسل مصعبا بن عمير إلى المدينة قبل هجرته ليعلم الأنصار القرآن. وكان أيضا يأمر السامع مقالته بإبلاغها من لم يسمعها، مما يكفل ببلوغ الشريعة كلها للأجيال من الأمة.

ومن أجل ذلك كان الخلفاء من بعده يعطون الناس العطاء على قدر ما معهم من القرآن.

ومن أجل ذلك أمر أبو بكر بكتابة القرآن في المصحف بإجماع الصحابة، وأكمل تلك المزية عثمان بن عفان بانتساخ القرآن في المصاحف وإرسالها إلى أمصار الإسلام، وقد كان رسول الله عين لأهل الصفة الانقطاع لحفظ القرآن.

والذي ظهر من تتبع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يبادر بإبلاغ القرآن عند نزوله، فإذا نزل عليه ليلا أخبر به عند صلاة الصبح.

وفي حديث عمر، قال رسول الله: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: إنا فتحنا لك فتحا مبينا [الفتح: ١] .

وفي حديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك «فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله عند أم سلمة، فقال: يأم سلمة تيب على كعب بن مالك، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره، قال: «إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة. حتى إذا صلى رسول الله صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا» .

وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله نزلت عليه سورة الأنعام جملة واحدة بمكة ودعا رسول الله الكتاب فكتبوها من ليلتهم.

وفي الإتيان بضمير المخاطب في قوله: إليك من ربك **إيماء** عظيم إلى تشريف الرسول صلى الله عليه وسلم بمرتبة الوساطة بين الله والناس، إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم، كما قال في آية آل عمران [١٩٩] وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٧/٦

وقوله: لتبين للناس ما نزل إليهم [النحل: ٤٤] .". (١)

١٥٣٩. ٧٤٨-"قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين، وليبكت من علم الله أنهم سيفترون، فيزعمون أن قرآنا كثيرا لم يبلغه رسول الله الأمة.

ومعنى لم تفعل لم تفعل ذلك، وهو تبليغ ما أنزل إليك. وهذا حذف شائع في كلامهم، فيقولون: فإن فعلت، أو فإن لم تفعل. قال تعالى: ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين [يونس: ١٠٦] أي إن دعوت ما لا ينفعك، يحذفون مفعول فعلت ولم تفعل لدلالة ما تقدم عليه، وقال تعالى: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا في سورة البقرة [٢٤] . وهذا مما جرى مجرى المثل فلا يتصرف فيه إلا قليلا ولم يتعرض له أئمة الاستعمال.

ومعنى ترتب هذا الجواب على هذا الشرط أنك إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك فتركت بعضه كنت لم تبلغ الرسالة، لأن كتم البعض مثل كتمان الجميع في الاتصاف بعدم التبليغ، ولأن المكتوم لا يدرى أن يكون في كتمانه ذهاب بعض فوائد ما وقع تبليغه، وقد ظهر التغاير بين الشرط وجوابه بما يدفع الاحتياج إلى تأويل بناء الجواب على الشرط، إذ تقدير الشرط: إن لم تبلغ ما أنزل، والجزاء، لم تبلغ الرسالة، وذلك كاف في صحة بناء الجواب على الشرط بدون حاجة إلى ما تأولوه مما في «الكشاف» وغيره. ثم يعلم من هذا الشرط أن تلك منزلة لا تليق بالرسل، فينتج ذلك أن الرسول لا يكتم شيئا مما أرسل به.

وتظهر فائدة افتتاح الخطاب ب يا أيها الرسول للإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي بعده، وفائدة اختتامه بقوله: فما بلغت رسالته.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر رسالاته- بصيغة الجمع. وقرأه الباقون رسالته بالإفراد. والمقصود الجنس فهو في سياق النفي سواء مفرده وجمعه.

ولا صحة لقول بعض علماء المعاني استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، وأن نحو: لا رجال في الدار، صادق بما إذا كان فيها رجلان أو رجل واحد، بخلاف نحو لا رجل في الدار. ويظهر أن قراءة الجمع أصرح لأن لفظ الجمع المضاف من صيغ العموم لا يحتمل

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٥٩

العهد بخلاف المفرد". (١)

١٥٤٠. ٧٤٩-"التكبر والتعاظم، ويطلق على المكابرة وكراهية الحق، وهما متلازمان. فالمراد من قوله: لا يستكبرون أنهم متواضعون منصفون. وضمير وأنهم لا يستكبرون يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير بأن منهم، أي وأن الذين قالوا إنا نصارى لا يستكبرون، فيكون قد أثبت التواضع لجميع أهل ملة النصرانية في ذلك العصر. وقد كان نصارى العرب متحلين بمكارم من الأخلاق. قال النابغة يمدح آل النعمان الغساني وكانوا متنصرين:

مجلتهم ذات الإله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وظاهر قوله الذين قالوا إنا نصارى أن هذا الخلق وصف للنصارى كلهم من حيث أنهم نصارى فيتعين أن يحمل الموصول على العموم العرفي، وهم نصارى العرب، فإن اتباعهم النصرانية على ضعفهم فيها ضم إلى مكارم أخلاقهم العربية مكارم أخلاق دينية، كما كان عليه زهير ولبيد وورقة بن نوفل وأضرابهم.

وضمير وأنهم لا يستكبرون عائد إلى قسيسين ورهبانا لأنه أقرب في الذكر، وهذا تشعر به إعادة قوله وأنهم، ليكون إيماء إلى تغيير الأسلوب في معاد الضمير، وتكون ضمائر الجمع من قوله وإذا سمعوا- إلى قوله- فأثابهم الله [المائدة: ٨٣- ٨٥] تابعة لضمير وأنهم لا يستكبرون.

وقرينة صرف الضمائر المتشابهة إلى معادين هي سياق الكلام. ومثله وارد في الضمائر كقوله تعالى: وعمروها أكثر مما عمروها [الروم: ٩] . فضمير الرفع في عمروها الأول عائد إلى غير ضمير الرفع في عمروها الثاني. وكقول عباس بن مرداس:". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٢٦٢/٦

(٢) التحرير والتنوير ٨/٧

١٥٤١. ٧٥٠-"ما في الشرائع السابقة من شدة العناية بأحكام المأكولات. وفي ذلك تنبيه لهذه الأمة.

وقوله واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون جاء بالموصول **للإيماء** إلى علة الأمر بالتقوى، أي لأن شأن الإيمان أن يقتضي التقوى، فلما آمنتم بالله واهتديتم إلى الإيمان فكملوه بالتقوى. روي أن الحسن البصري لقي الفرزدق في جنازة، وكانا عند القبر، فقال الحسن للفرزدق: ما أعددت لهذا. يعني القبر. قال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله كذا كذا سنة. فقال الحسن: هذا العمود، فأين الأطناب.

[٨٩]

[سورة المائدة (٥) : آية ٨٩]

لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (٨٩)

استئناف ابتدائي نشأ بمناسبة قوله: لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم [المائدة: ٨٧] لأن التحريم يقع في غالب الأحوال بأيمان معزومة، أو بأيمان تجري على اللسان لقصد تأكيد الكلام، كأن يقول: والله لا آكل كذا، أو تجري بسبب غضب. وقيل: إنها نزلت مع الآية السابقة فلا حاجة لإبداء المناسبة لذكر هذا بعد ما قبله. روى الطبري والواحدي عن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم [المائدة: ٨٧] ونهاهم النبيء صلى الله عليه وسلم عما عزموا عليه من ذلك، كما تقدم آنفا، قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفناها عليها، فأنزل الله تعالى: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم الآية.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٧

١٥٤٢. ٧٥١-"الجناح عنهم مقيد بأن يتقوا ويؤمنوا ويعملوا الصالحات، للعلم بأن لكل عمل أثرا على فعله أو على تركه، وإذ قد كانوا مؤمنين من قبل، وكان الإيمان عقدا عقليا لا يقبل التجدد تعين أن المراد بقوله: وآمنوا معنى وداموا على الإيمان ولم ينقضوه بالكفر.

وجملة ثم اتقوا وآمنوا تأكيد لفظي لجملة إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات وقرن بحرف ثم الدال على التراخي الرتبي ليكون إيماءا إلى الازدياد في التقوى وآثار الإيمان، كالتأكيد في قوله تعالى: كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون [النبإ: ٤، ٥] ولذلك لم يكرر قوله: وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات مشمول للتقوى.

وأما جملة ثم اتقوا وأحسنوا فتفيد تأكيدا لفظيا لجملة ثم اتقوا وتفيد الارتقاء في التقوى بدلالة حرف ثم على التراخي الرتبي. مع زيادة صفة الإحسان. وقد فسر النبيء صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . وهذا يتضمن الإيمان لا محالة فلذلك استغني عن إعادة وآمنوا هنا. ويشمل فعل

وأحسنوا الإحسان إلى المسلمين، وهو زائد على التقوى، لأن منه إحسانا غير واجب وهو مما يجلب مرضاة الله، ولذلك ذيله بقوله: والله يحب المحسنين.

وقد ذهب المفسرون في تأويل التكرير الواقع في هذه الآية طرائق مختلفة لا دلائل عليها في نظم الآية، ومرجعها جعل التكرير في قوله: ثم اتقوا على معنى تغاير التقوى والإيمان باختلاف الزمان أو باختلاف الأحوال. وذهب بعضهم في تأويل قوله تعالى: إذا ما اتقوا وما عطف عليه إلى وجوه نشأت عن حمله على معنى التقييد لنفي الجناح بحصول المشروط. وفي جلبها طول.

وقد تقدم أن بعضا من السلف تأول هذه الآية على معنى الرخصة في". (١)

١٥٤٣. ٧٥٢-"باعتبار الجماعة. قال تعالى: وجاءت سيارة [يوسف: ١٩] . والمعنى أحل لكم صيد البحر تتمتعون بأكله ويتمتع به المسافرون، أي تبيعونه لمن يتجرون ويجلبونه إلى الأمصار.

وقوله: وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما زيادة تأكيد لتحريم الصيد، تصريحا بمفهوم قوله

(١) التحرير والتنوير ٣٦/٧

لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم [المائدة: ٩٥] ، ولبيان أن مدة التحريم مدة كونهم حرما، أي محرمين أو مارين بحرم مكة. وهذا إيماء لتقليل مدة التحريم استئناسا بتخفيف، وإيماء إلى نعمة اقتصار تحريمه على تلك المدة، ولو شاء الله لحرمه أبدا. وفي «الموطأ» :

أن عائشة قالت لعروة بن الزبير: يا بن أختي إنما هي عشر ليال (أي مدة الإحرام) فإن تخلج في نفسك شيء فدعه. تعني أكل لحم الصيد.

وذيل ذلك بقوله: واتقوا الله الذي إليه تحشرون. وفي إجراء الوصف بالموصول وتلك الصلة تذكير بأن المرجع إلى الله ليعد الناس ما استطاعوا من الطاعة لذلك اللقاء.

والحشر: جمع الناس في مكان. والصيد مراد به المصيد، كما تقدم.

والتحريم متعلق بقتله لقوله قبله لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم [المائدة: ٩٥] فلا يقتضي قوله: وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما تحريم أكل صيد البر على المحرم إذا

اشتراه من بائع أو ناوله رجل حلال إياه، لأنه قد علم أن التحريم متعلق بمباشرة المحرم قتله في حال الإصابة.

وقد أكل رسول الله- صلى الله عليه وسلم - من الحمار الذي صاده أبو قتادة، كما في حديث «الموطأ» عن زيد بن أسلم. وأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم - بقسمة الحمار الذي صاده زيد البهزي بين الرفاق وهم محرمون.

وعلى ذلك مضى عمل الصحابة، وهو قول.

وأما ما صيد لأجل المحرم

فقد ثبت أن النبيء- صلى الله عليه وسلم - رد على الصعب بن جثامة حمارا وحشيا أهداه إليه وقال له: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم» .

وقد اختلف الفقهاء في محل هذا الامتناع. فقيل: يحرم أن يأكله من صيد لأجله لا غير. وهذا قول عثمان بن عفان، وجماعة من فقهاء المدينة، ورواية عن مالك، وهو الأظهر، لأن الظاهر أن الضمير

في قول النبيء- صلى الله عليه وسلم -: «إنما لم نرده عليك إلا أنا حرم»

أنه عائد". (١)

١٥٤٤. ٧٥٣-"عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم. قال الأئمة: وقد انفرد به البخاري. ومحمله أنه رأي من ابن عباس، وهو لا يناسب افتتاح الآية بخطاب الذين آمنوا اللهم إلا أن يكون المراد تحذير المؤمنين من نحو تلك المسائل عن غفلة من مقاصد المستهزئين، كما في قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا [البقرة: ١٠٤] ، أو أريد بالذين آمنوا الذين أظهروا الإيمان، على أن لهجة الخطاب في الآية خالية عن **الإيماء** إلى قصد المستهزئين، بخلاف قوله: لا تقولوا راعنا [البقرة: ١٠٤] فقد عقب بقوله: وللكافرين عذاب أليم [البقرة: ١٠٤].

وروى الترمذي والدارقطني عن علي بن أبي طالب لما نزلت ولله على الناس حج البيت [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله في كل عام، فسكت، فأعادوا. فقال: لا، ولو قلت: نعم لوجبت، فأنزل الله

يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم

قال: هذا حديث حسن غريب. وروى الطبري قريبا منه عن أبي أمامة وعن ابن عباس.

وتأويل هذه الأسانيد أن الآية تليت عند وقوع هذا السؤال وإنما كان نزولها قبل حدوثه فظنها الراوون نزلت حينئذ. وتأويل المعنى على هذا أن الأمة تكون في سعة إذا لم يشرع لها حكم، فيكون الناس في سعة الاجتهاد عند نزول الحادثة بهم بعد الرسول- صلى الله عليه وسلم -، فإذا سألوا وأجيبوا من قبل الرسول- صلى الله عليه وسلم - تعين عليهم العمل بما أجيبوا به. وقد تختلف الأحوال والأعصار فيكونون في حرج إن راموا تغييره فيكون معنى إن تبد لكم تسؤكم على هذا الوجه أنها تسوء بعضهم أو تسوءهم في بعض الأحوال إذا شقت عليهم. وروى مجاهد عن ابن عباس: نزلت في قوم سألوا رسول الله- صلى الله عليه وسلم - عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. وقال مثله سعيد بن جبير والحسن.

وقوله: أشياء تكثير شيء، والشيء هو الموجود، فيصدق بالذات وبحال الذات، وقد سألوا عن أحوال بعض المجهولات أو الضوال أو عن أحكام بعض الأشياء.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٧

و (أشياء) كلمة تدل على جمع (شيء) ، والظاهر أنه صيغة جمع لأن زنة شيء (فعل) ، و (فعل) إذا كان معتل العين قياس جمعه (أفعال) مثل بيت وشيخ. فالجاري على متعارف". (١)

١٠٤٥. ٧٥٤-"الريبة أرجى إلى الظن بحصول الصدق لكثرة ما ضبط على كلا الفريقين مما ينفي الغفلة والتساهل، بله الزور والجور مع توقي سوء السمعة.

ومعنى أن يأتوا بالشهادة: أن يؤدوا الشهادة. جعل أداؤها والإخبار بها كالإتيان بشيء من مكان.

ومعنى قوله على وجهها، أي على سنتها وما هو مقوم تمامها وكمالها، فاسم الوجه في مثل هذا مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيها بوجه الإنسان، إذ هو العضو الذي يعرف به المرء ويتميز عن غيره. ولما أريد منه معنى الاستعارة لهذا المعنى،

وشاع هذا المعنى في كلامهم، قالوا: جاء بالشيء الفلاني على وجهه، فجعلوا الشيء مأتيا به، ووصفوه بأنه أتي به متمكنا من وجهه، أي من كمال أحواله. فحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد منه التمكن، مثل أولئك على هدى من ربهم [البقرة: ٥] .

والجار والمجرور في موضع الحال من بالشهادة، وصار ذلك قرينة على أن المراد من الوجه غير معناه الحقيقي.

وسنة الشهادة وكمالها هو صدقها والتثبت فيها والتنبه لما يغفل عنه من مختلف الأحوال التي قد يستخف بها في الحال وتكون للغفلة عنها عواقب تضيع الحقوق، أي ذلك يعلمهم وجه التثبت في التحمل والأداء وتوخي الصدق، وهو يدخل في قاعدة لزوم صفة اليقظة للشاهد.

وفي الآية إيماء إلى حكمة مشروعية الإعذار في الشهادة بالطعن أو المعارضة، فإن في ذلك ما يحمل شهود الشهادة على التثبت في مطابقة شهادتهم، للواقع لأن المعارضة والإعذار يكشفان عن الحق.

وقوله أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم عطف على قوله أن يأتوا باعتبار ما تعلق به من المجرورات، وذلك لأن جملة يأتوا بالشهادة على وجهها أفادت الإتيان بها صادقة لا نقصان

---

(١) التحرير والتنوير ٦٦/٧

فيها بباعث من أنفس الشهود، ولذلك قدرناه بمعنى أن يعلموا كيف تكون الشهادة الصادقة.
فأفادت الجملة المعطوف عليها إيجاد وازع للشهود من أنفسهم، وأفادت الجملة المعطوفة وازعا هو توقع ظهور كذبهم.". (١)

١٥٤٦. ٧٥٥-"والنور، ومنه قوله تعالى: هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها [الأعراف: ١٨٩] فإن الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر، ولذلك عقبه بقوله: ليسكن إليها [الأعراف: ١٨٩] والخلق أعم في الإطلاق ولذلك قال تعالى في آية أخرى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها [النساء: ١] لأن كل تكوين لا يخلو من تقدير ونظام.
وخص بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين، وهما: الظلمات والنور فقال وجعل الظلمات والنور لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما. وبذكر هذه الأمور الأربعة حصلت الإشارة إلى جنسي المخلوقات من جواهر وأعراض. فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات. وإن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما، وهو ما يسمى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها.
والاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه الأربعة تعريض بإبطال عقائد كفار العرب فإنهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، وكلهم قد أثبتوا آلهة غير الله فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم. فأخبرهم الله تعالى أنه خالق
السماوات والأرض، أي بما فيهم، وخالق الظلمات والنور.
ثم إن في إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض **إيماء** وتعريضا بحالي المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق، فإن الكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه استبانة الهدى والحق. قال تعالى: يخرجهم من الظلمات إلى النور

(١) التحرير والتنوير ٧/٩٣

[البقرة: ٢٥٧] . وقدم ذكر الظلمات مراعاة للترتب في الوجود لأن الظلمة سابقة النور، فإن النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامة.

وإنما جمع الظلمات وأفرد النور اتباعا للاستعمال، لأن لفظ (الظلمات) بالجمع أخف، ولفظ (النور) بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) في القرآن إلا جمعا". (١)

١٥٤٧. ٧٥٦-"وفعل فحاق اختلف أئمة اللغة في معناه. فقال الزجاج: هو بمعنى أحاط، وتبعه

الزمخشري، وفسره الفراء بمعنى عاد عليه. وقال الراغب: أصله حق، أي بمعنى وجب، فأبدل أحد حرفي التضعيف حرف علة تخفيفا، كما قالوا تظنى في تظنن، أي وكما قالوا:

تقضى البازي، بمعنى تقضض. والأظهر ما قاله أبو إسحاق الزجاج.

واختير فعل الإحاطة للدلالة على تمكن ذلك منهم وعدم إفلاته أحدا منهم.

وإنما جيء بالموصول في قوله: بالذين سخروا ولم يقل بالساخرين للإيماء إلى تعليل الحكم، وهو قوله فحاق.

ومنهم يتعلق ب سخروا، والضمير المجرور عائد إلى الرسل، لزيادة تقرير كون العقاب لأجلهم ترفيعا لشأنهم. وما في قوله: ما كانوا به يستهزؤن موصولة.

والباء في به لتعدية فعل الاستهزاء. ووجود الباء مانع من جعل ما غير موصولة.

وهو ما أطال التردد فيه الكاتبون.

والمراد ب ما كانوا به يستهزؤن ما أنذرهم الرسل به من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم، فحصل بذلك فائدة أخرى، وهي أن المستهزئين كانوا يستهزئون بالرسل وخاصة بما ينذرونهم به من حلول العذاب إن استمروا على عدم التصديق بما جاءوا به.

فاستهزاؤهم بما أنذروا به جعل ما أنذروا به كالشخص المهزوء به إذا جعلنا الباء للتعدية، أو استهزاؤهم بالرسل بسبب ما أنذروهم به إذا جعلت الباء للسببية.

[١١]

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٧

[سورة الأنعام (٦) : آية ١١]

قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)

هذه الجملة وزانها وزان البيان لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فصلت، فإن الجملة التي قبلها تخبر بأن الذين استهزأوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين. وليس افتتاح هذه الجملة بخطاب". (١)

١٥٤٨. ٧٥٧-"الرابع: أن فيه **إيماء** إلى أن الله قد نجى أمة الدعوة المحمدية من عذاب الاستئصال الذي عذب به الأمم المكذبة رسلها من قبل، وذلك ببركة النبيء محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعله رحمة للعالمين في سائر أحواله بحكم قوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء:

١٠٧] ، وإذ أراد تكثير تابعيه فلذلك لم يقض على مكذبيه قضاء عاجلا بل أمهلهم وأملى لهم ليخرج منهم من يؤمن به، كما رجا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك لما قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم [الأنفال: ٣٣] . وقد حصل ما رجاه رسول الله فلم يلبث من بقي من المشركين أن آمنوا بالله ورسوله بعد فتح مكة ودخلوا في دين الله أفواجا، وأيد الله بهم بعد ذلك دينه ورسوله ونشروا كلمة الإسلام في آفاق الأرض. وإذ قد قدر الله تعالى أن يكون هذا الدين خاتمة الأديان كان من الحكمة إمهال المعاندين له والجاحدين، لأن الله لو استأصلهم في أول ظهور الدين لأتى على من حوته مكة من مشرك ومسلم، ثم يحشرون على نياتهم، كما

ورد في الحديث لما قالت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم، إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نياتهم» .

فلو كان ذلك في وقت ظهور الإسلام لارتفع بذلك هذا الدين فلم يحصل المقصود من جعله خاتمة الأديان. وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه قل هو القادر على أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٧

يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم

فقال: أعوذ بسبحات وجهك الكريم.

ومعنى كتب تعلقت إرادته، بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلقة تعلقا عاما مطردا بالنسبة إلى المخلوقات وإن كان خاصا بالنسبة إلى الأزمان والجهات. فلما كان ذلك مطردا شبهت إرادته بالإلزام، فاستعير لها فعل (كتب) الذي هو حقيقة في الإيجاب، والقرينة هي مقام الإلهية، أو جعل ذلك على نفسه لأن أحدا لا يلزم نفسه بشيء إلا اختيارا وإلا فإن غيره يلزمه. والمقصود أن ذلك لا يتخلف كالأمر الواجب المكتوب، فإنهم كانوا إذا أرادوا تأكيد وعد أو عهد كتبوه، كما قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء حذر الجور والتطاخي وهل ينقض ما في المهارق الأهواء". (١)

١٥٤٩. ٧٥٨-"وفهم من قوله: إن عصيت ربي أن الآمر له بأن يكون أول من أسلم والناهي عن كونه من المشركين هو الله تعالى. وفي العدول عن اسم الجلالة إلى قوله: ربي إيماء إلى أن عصيانه أمر قبيح لأنه ربه فكيف يعصيه.

وأضيف العذاب إلى يوم عظيم تهويلا له لأن في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق وانهزام فريق من المحاربين، فيكون اليوم نكالا على المنهزمين، إذ يكثر فيهم القتل والأسر ويسام المغلوب سوء العذاب، فذكر يوم يثير من الخيال مخاوف مألوفة، ولذلك قال الله تعالى: فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم [الشعراء: ١٨٩] ولم يقل عذاب الظلة إنه كان عذابا عظيما. وسيأتي بيان ذلك مفصلا عند قوله تعالى: يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن في سورة التغابن [٩] ، وبهذا الاعتبار حسن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب، لأن عظمة اليوم العظيم تستلزم عظم ما يقع فيه عرفا.

وقوله: من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة ل عذاب. ويصرف مبني للمجهول في قراءة الأكثر، على أنه رافع لضمير العذاب أو لضمير من على

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٧

النيابة عن الفاعل. والضمير المجرور ب «عن» عائد إلى من أي يصرف العذاب عنه، أو عائد إلى العذاب، أي من يصرف هو عن العذاب، وعلى عكس هذا العود يكون عود الضمير المستتر في قوله: يصرف.
وقرأه حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، وخلف يصرف- بالبناء للفاعل- على أنه رافع لضمير ربي على الفاعلية.
أما الضمير المستتر في رحمه فهو عائد إلى ربي، والمنصوب عائد إلى من على كلتا القراءتين.
ومعنى وصف العذاب بمضمون جملة الشرط والجزاء، أي من وفقه الله لتجنب أسباب ذلك العذاب فهو قد قدر الله له الرحمة ويسر له أسبابها.". (١)

١٥٥٠. ٧٥٩-"ولام القسم لتأكيد الخبر بتنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة من ذهل طويلا عن تكذيب الرسل لأنه لما أحزنه قول قومه فيه كان كمن بعد علمه بذلك. ومن قبلك وصف كاشف ل رسل جيء به لتقرير معنى التأسي بأن ذلك سنة الرسل.
وفي موقع هذه الآية بعد التي قبلها إيماء لرجاحة عقول العرب على عقول من سبقهم من الأمم، فإن الأمم كذبت رسلها باعتقاد ونطق ألسنتها، والعرب كذبوا باللسان وأيقنوا بصدق الرسول- عليه الصلاة والسلام- بعقولهم التي لا يروج عندها الزيف.
و (ما) مصدرية، أي صبروا على التكذيب، فيجوز أن يكون قوله وأوذوا عطفا على كذبوا وتكون جملة فصبروا معترضة. والتقدير: ولقد كذبت وأوذيت رسل فصبروا. فلا يعتبر الوقف عند قوله على ما كذبوا بل يوصل الكلام إلى قوله نصرنا، وأن يكون عطفا على كذبت رسل، أي كذبت وأوذوا. ويفهم الصبر على الأذى من الصبر على التكذيب لأن التكذيب أذى فيحسن الوقف عند قوله: على ما كذبوا.
وقرن فعل كذبت بعلامة التأنيث لأن فاعل الفعل إذا كان جمع تكسير يرجح اتصال الفعل بعلامة التأنيث على التأويل بالجماعة. ومن ثم جاء فعلا فصبروا وكذبوا مقترنين بواو الجمع، لأن فاعليهما ضميران مستتران فرجح اعتبار التذكير.
وعطف وأوذوا على كذبت عطف الأعم على الأخص، والأذى أعم من التكذيب، لأن

---

(١) التحرير والتنوير ١٦١/٧

الأذى هو ما يسوء ولو إساءة ما، قال تعالى: لن يضروكم إلا أذى [آل عمران: ١١١]
ويطلق على الشديد منه. فالأذى اسم اشتق منه أذى إذا جعل له أذى وألحقه
به. فالهمزة به للجعل أو للتصيير. ومصادر هذا الفعل أذى وأذاة وأذية. وكلها أسماء مصادر وليست مصادر. وقياس مصدره الإيذاء لكنه لم يسمع في كلام العرب. فلذلك قال صاحب «القاموس» : لا يقال: إيذاء. وقال الراغب: يقال: إيذاء. ولعل الخلاف مبني على الخلاف في أن القياسي يصح إطلاقه ولو لم يسمع في كلامهم أو يتوقف إطلاقه". (١)

١٥٥١. ٧٦٠-"العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون [السجدة: ٢١] وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته وفيه إنذار لقريش بأنهم سيصيبهم البأساء والضراء قبل
الاستئصال، وهو استئصال السيف. وإنما اختار الله أن يكون استئصالهم بالسيف إظهارا لكون نصر الرسول- عليه الصلاة والسلام- عليهم كان بيده ويد المصدقين به. وذلك أوقع على العرب، ولذلك روعي حال المقصودين بالإنذار وهم حاضرون. فنزل جميع الأمم منزلتهم، فقال: فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، فإن (لولا) هنا حرف توبيخ لدخولها على جملة فعلية ماضوية واحدة، فليست (لولا) حرف امتناع لوجود.
والتوبيخ إنما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود. ففي هذا التنزيل **إيماء** إلى مساواة الحالين وتوبيخ للحاضرين بالمهم من العبرة لبقاء زمن التدارك قطعا لمعذرهم.
ويجوز أن تجعل (لولا) هنا للتمني على طريقة المجاز المرسل، ويكون التمني كناية عن الإخبار بمحبة الله الأمر المتمنى فيكون من بناء المجاز على المجاز، فتكون هذه المحبة هي ما عبر عنه بالفرح
في الحديث «الله أفرح بتوبة عبده»
الحديث. وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله في قوله إذ جاءهم بأسنا تضرعوا للاهتمام بمضمون جملته، وأنه زمن يحق أن يكون باعثا على الإسراع بالتضرع مما حصل فيه من البأس.

(١) التحرير والتنوير ٢٠١/٧

والبأس تقدم عند قوله تعالى: وحين البأس في سورة البقرة [١٧٧] . والمراد به هنا الشدة على العدو وغلبته. ومجيء البأس: مجيء أثره، فإن ما أصابهم من البأساء والضراء أثر من آثار قوة قدرة الله تعالى وغلبه عليهم. والمجيء مستعار للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيها لحدوث الشيء بوصول القادم من مكان آخر بتنقل الخطوات.
ولما دل التوبيخ أو التمني على انتفاء وقوع الشيء عطف عليه ب (لكن) عطفا على معنى الكلام، لأن التضرع ينشأ عن لين القلب فكان نفيه المفاد بحرف التوبيخ ناشئا عن ضد اللين وهو القساوة، فعطف ب لكن.". (١)

١٥٥٢. ٧٦١-"وجملة: والحمد لله رب العالمين يجوز أن تكون معطوفة على جملة: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك بما اتصل بها. عطف غرض على غرض. ويجوز أن تكون اعتراضا تذييليا فتكون الواو اعتراضية. وأيا ما كان موقعها ففي المراد منها اعتبارات ثلاثة:
أحدها: أن تكون تلقينا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يحمدوا الله على نصره رسله وأولياءهم وإهلاك الظالمين، لأن ذلك النصر نعمة بإزالة فساد كان في الأرض، ولأن في تذكير الله الناس به **إيماء** إلى ترقب الأسوة بما حصل لمن قبلهم أن يترقبوا نصر الله كما نصر المؤمنين من قبلهم فيكون الحمد لله مصدرا بدلا من فعله، عدل عن نصبه وتنكيره إلى رفعه وتعريفه للدلالة على معنى الدوام والثبات، كما تقدم في قوله تعالى:
الحمد لله في سورة الفاتحة [٢] .
ثانيها: أن يكون الحمد لله كناية عن كون ما ذكر قبله نعمة من نعم الله تعالى لأن من لوازم الحمد أن يكون على نعمة، فكأنه قيل: فقطع دابر القوم الذين ظلموا.
وتلك نعمة من نعم الله تقتضي حمده.
ثالثها: أن يكون إنشاء حمد لله تعالى من قبل جلاله مستعملا في التعجيب من معاملة الله تعالى إياهم وتدريجهم في درجات الإمهال إلى أن حق عليهم العذاب.
ويجوز أن يكون إنشاء الله تعالى ثناء على نفسه، تعريضا بالامتنان على الرسول والمسلمين.
واللام في الحمد للجنس، أي وجنس الحمد كله الذي منه الحمد على نعمة إهلاك الظالمين.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٢٨

وفي ذلك كله تنبيه على أنه يحق الحمد لله عند هلاك الظلمة، لأن هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب. وهذا الحمد شكر لأنه مقابل نعمة.

وإنما كان هلاكهم صلاحا لأن الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم.". (١)

١٥٥٣. ٧٦٢-"والشمس تجري لمستقر لها [يس: ٣٨] ، وهو شامل لوعيد الآخرة ووعيد الدنيا ولكل مستقر. وعن السدي: استقر يوم بدر ما كان يعدهم به من العذاب.

وعطف سوف تعلمون على جملة لكل نبإ مستقر أي تعلمونه، أي هو الآن غير معلوم وتعلمونه في المستقبل عند حلوله بكم. وهذا أظهر في وعيد العذاب في الدنيا.

[٦٨]

[سورة الأنعام (٦) : آية ٦٨]

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)

عطف على جملة وكذب به قومك [الأنعام: ٦٦] . والعدول عن الإتيان بالضمير إلى الإتيان بالاسم الظاهر وهو اسم الموصول، فلم يقل: وإذا رأيتهم فأعرض عنهم، يدل على أن الذي يخوضون في الآيات فريق خاص من القوم الذين كذبوا بالقرآن أو بالعذاب.

فعموم القوم أنكروا وكذبوا دون خوض في آيات القرآن، فأولئك قسم، والذين يخوضون في الآيات قسم كان أبذى وأقذع، وأشد كفرا وأشنع، وهم المتصدون للطعن في القرآن.

وهؤلاء أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مجادلتهم وترك مجالسهم حتى يرعووا عن ذلك.

ولو أمر الرسول- عليه الصلاة والسلام- بالإعراض عن جميع المكذبين لتعطلت الدعوة والتبليغ.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٣٢

ومعنى إذا رأيت الذين يخوضون إذا رأيتهم في حال خوضهم. وجاء تعريف هؤلاء بالموصولية دون أن يقال الخائضين أو قوما خائضين لأن الموصول فيه **إيماء** إلى وجه الأمر بالإعراض لأنه أمر غريب، إذ شأن الرسول- عليه الصلاة والسلام- أن يمارس الناس لعرض دعوة الدين، فأمر الله إياه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه واستئناس. وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته، أي فأعرض عنهم لأنهم يخوضون في آياتنا.". (١)

١٥٥٤. ٧٦٣-"وهذه الآية أحسن ما يمثل به، لمجيء الموصول **للإيماء** إلى إفادة تعليل ما بني عليه من خبر أو إنشاء، ألا ترى أن الأمر بالإعراض حدد بغاية حصول ضد الصلة. وهي أيضا أعدل شاهد لصحة ما فسر به القطب الشيرازي في «شرح المفتاح» قول السكاكي (أو أن تومىء بذلك إلى وجه بناء الخبر) بأن وجه بناء الخبر هو علته وسببه، وإن أبى التفتازاني ذلك التفسير.

والخوض حقيقته الدخول في الماء مشيا بالرجلين دون سباحة ثم استعير للتصرف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسف وهو المشي في الرمل لذلك. واستعير الخوض أيضا للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل لأنه يتكلف له قائله، قال الراغب:

وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، قال تعالى: يخوضون في آياتنا، نخوض ونلعب [التوبة: ٦٥] ، وخضتم كالذي خاضوا [التوبة: ٦٩] ، ذرهم في خوضهم يلعبون [الأنعام: ٩١] . فمعنى يخوضون في آياتنا يتكلمون فيها بالباطل والاستهزاء.

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة وحكم بقية المسلمين كحكمه، كما قال في ذكر المنافقين في سورة النساء [١٤٠] فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

والإعراض تقدم تفسيره عند قوله تعالى: فأعرض عنهم وعظهم في سورة النساء [٦٣] .

والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم، وهو مجاز قريب من الحقيقة لأنه يلزمه الإعراض الحقيقي غالبا، فإن هم غشوا مجلس الرسول- عليه الصلاة والسلام- فالإعراض عنهم أن يقوم عنهم وعن ابن جريج: فجعل إذا استهزأوا قام فحذروا وقالوا لا تستهزءوا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٨/٧

فيقوم. وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلهم يرجعون عن عنادهم.
وحتى غاية للإعراض لأنه إعراض فيه توقيف دعوتهم زمانا أوجبه رعي مصلحة أخرى هي من قبيل الدعوة فلا يضر توقيف الدعوة زمانا، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هديهم إلى أصلهم لأنها تمحضت للمصلحة.". (١)

١٥٥٥. ٧٦٤-"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا [المائدة: ٤٨] . ونسب القرطبي هذا القول للكثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعي. وفي «توضيح» صدر الشريعة نسبة مثل هذا القول لجماعة من أصحابهم.
الثالث: إنما يلزم الاقتداء بشرع إبراهيم- عليه السلام- لقوله تعالى: ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا [النحل: ١٢٣] . ولم أقف على تعيين من نسب إليه هذا القول.
الرابع: لا يلزم إلا اتباع شريعة عيسى لأنها آخر الشرائع نسخت ما قبلها. ولم أقف على تعيين صاحب هذا القول. قال ابن رشد في «المقدمات» : وهذا أضعف الأقوال.
والهاء في قوله: اقتده ساكنة عند جمهور القراء، فهي هاء السكت التي تجلب عند الوقف على الفعل المعتل اللام إذا حذفت لامه للجازم، وهي تثبت في الوقف وتحذف في الوصل، وقد ثبتت في المصحف لأنهم كانوا يكتبون أواخر الكلم على مراعاة
حال الوقف. وقد أثبتها جمهور القراء في الوصل، وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف وهو وارد في الكلام الفصيح. والأحسن للقارىء أن يقف عليها جريا على الأفصح، فجمهور القراء أثبتوها ساكنة ما عدا رواية هشام عن ابن عامر فقد حركها بالكسر، ووجه أبو علي الفارسي هذه القراءة بأنها تجعل الهاء ضمير مصدر «اقتد» ، أي اقتد الاقتداء، وليست هاء السكت، فهي كالهاء في قوله تعالى: عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين [المائدة: ١١٥] أي لا أعذب ذلك العذاب أحدا. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، بحذف الهاء في حالة الوصل على القياس الغالب.
قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين.
استئناف عقب به ذلك البيان العظيم الجامع لأحوال كثير من الأمم. **والإيماء** إلى نبوءة جمع

(١) التحرير والتنوير ٧/٢٨٩

من الأنبياء والصالحين، وبيان طريقة الجدل في تأييد الدين، وأنه ما جاء إلا كما جاءت ملل تلك الرسل، فلذلك ذيله الله بأمر رسوله أن يذكر قومه بأنه يذكرهم. كما ذكرت الرسل أقوامهم، وأنه". (١)

١٥٥٦. ٧٦٥-"وجملة: فاعبدوه مفرعة على قوله: ربكم لا إله إلا هو وقد جعل الأمر بعبادته مفرعا على وصفه بالربوبية والوحدانية لأن الربوبية مقتضية استحقاق العبادة، والانفراد بالربوبية يقتضي تخصيصه بالعبادة، وقد فهم هذا التخصيص من التفريع.

ووجه أمرهم بعبادته أن المشركين كانوا معرضين عن عبادة الله تعالى بحيث لا يتوجهون بأعمال البر في اعتقادهم إلا إلى الأصنام فهم يزورونها ويقربون إليها القرابين وينذرون لها النذور ويستعينون بها ويستنجدون بنصرتها، وما كانوا يذكرون الله إلا في موسم الحج، على أنهم قد خلطوه بالتقرب إلى الأصنام إذ جعلوا فوق الكعبة (هبل) ، وجعلوا فوق الصفا والمروة (إسافا ونائلة) . وكان كثير منهم يهل (لمناة) في منتهى الحج، فكانوا معرضين عن عبادة الله تعالى، فلذلك أمروا بها صريحا، وأمروا بالاقتصار عليها بطريق **الإيماء** بالتفريع.

وجملة: وهو على كل شيء وكيل يجوز أن تكون معطوفة على الصفات المتقدمة فتكون جملة فاعبدوه معترضة، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة فاعبدوه بناء على جواز عطف الخبر على الإنشاء والعكس (وهو الحق) ، على وجه تكميل التعليل للأمر بعبادته دون غيره، بأنه متكفل بالأشياء كلها من الخلق والرزق والإنعام وكل ما يطلب المرء حفظه له، فالوجه عبادته ولا وجه لعبادة غيره، فإن اسم الوكيل جامع لمعنى الحفظ والرقابة، كما تقدم عند قوله تعالى: وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل في سورة آل عمران [١٧٣] .

[١٠٣]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٣]

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣)

جملة ابتدائية لإفادة عظمته تعالى وسعة علمه، فلعظمته جل عن أن يحيط به شيء من

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٩/٧

أبصار المخلوقين، وذلك تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام". (١)

١٥٥٧. ٧٦٦-"فلنحمل اسم الاستفهام هنا على معنى التنبيه والتشكيك في الظن، ونحمل فعل يشعركم على أصل مقتضى أمثاله من أفعال العلم، وإذا كان كذلك كان نفي إيمان المشركين بإتيان آية وإثباته سواء في الفرض الذي اقتضاه الاستفهام، فكان المتكلم بالخيار بين أن يقول: إنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأن يقول: إنها إذا جاءت يؤمنون. وإنما أوثر جانب النفي **للإيماء** إلى أنه الطرف الراجح الذي ينبغي اعتماده في هذا الظن.

هذا وجه الفرق بين التركيبين. وللفروق في علم المعاني اعتبارات لا تنحصر ولا ينبغي لصاحب علم المعاني غض النظر عنها، وكثيرا ما بين عبد القاهر أصنافا منها فليلحق هذا الفرق بأمثاله.

وإن أبيت إلا قياس ما يشعركم على (ما يدريكم) سواء، كما سلكه المفسرون فاجعل الغالب في استعمال (ما يدريك) هو مقتضى الظاهر في استعمال ما يشعركم واجعل تعليق المنفي بالفعل جريا على خلاف مقتضى الظاهر لنكتة ذلك **الإيماء** ويسهل الخطب. وأما وجه كون الواو في قوله: وما يشعركم واو الحال فتكون «ما» نكرة موصوفة بجملة يشعركم. ومعناها شيء موصوف بأنه يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. وهذا الشيء هو ما سبق نزوله من القرآن، مثل قوله تعالى: إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية [يونس: ٩٦، ٩٧] ، وكذلك ما جربوه من تلون المشركين في التفصي من ترك دين آبائهم، فتكون الجملة حالا، أي والحال أن القرآن والاستقراء أشعركم بكذبهم فلا تطمعوا في إيمانهم لو جاءتهم آية ولا في صدق أيمانهم، قال تعالى: إنهم لا أيمان لهم [التوبة: ١٢] . وإني لأعجب كيف غاب عن المفسرين هذا الوجه من جعل «ما» نكرة موصوفة في حين إنهم تطرقوا إلى ما هو أغرب من ذلك.". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٣/٧

(٢) التحرير والتنوير ٤٣٩/٧

١٥٥٨. ٧٦٧-"ومعنى تصغى تميل، يقال: صغى يصغى صغيا، ويصغو صغوا- بالياء وبالواو- ووردت الآية على اعتباره- بالياء- لأنه رسم في المصحف بصورة الياء. وحقيقته الميل الحسي، يقال: صغى، أي مال، وأصغى أمال. وفي حديث الهرة:

أنه أصغى إليها الإناء، ومنه أطلق: أصغى بمعنى استمع، لأن أصله أمال سمعه أو أذنه، ثم حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال. وهو هنا مجاز في الاتباع وقبول القول.

والذين لا يؤمنون بالآخرة هم المشركون. وخص من صفات المشركين عدم إيمانهم بالآخرة، فعرفوا بهذه الصلة **للإيماء** إلى بعض آثار وحي الشياطين لهم. وهذا الوصف أكبر ما أضر بهم، إذ كانوا بسببه لا يتوخون فيما يصنعون خشية العاقبة وطلب الخير، بل يتبعون أهواءهم وما يزين لهم من شهواتهم، معرضين عما في خلال ذلك من المفاسد والكفر، إذ لا يترقبون جزاء عن الخير والشر، فلذلك تصغى عقولهم إلى غرور الشياطين.

ولا تصغى إلى دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم والصالحين.

وعطف وليرضوه على ولتصغى، وإن كان الصغي يقتضي الرضى ويسببه فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرر لام التعليل، فخولف مقتضى الظاهر، للدلالة على استقلاله بالتعليل، فعطف بالواو وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال، فيدل على أن صغي أفئدتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلا لأنهم رضوه.

وعطف وليقترفوا ما هم مقترفون على وليرضوه كعطف وليرضوه على ولتصغى.

والاقتراف افتعال من قرف إذا كسب سيئة، قال تعالى بعد هذه الآية: إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون [الأنعام: ١٢٠] فذكر هنالك ل يكسبون مفعولا لأن الكسب يعم الخير والشر، ولم يذكر هنا". (١)

١٥٥٩. ٧٦٨-"ولذلك قال تعالى: يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [المجادلة: ١١] وقال: إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار [النساء: ١٤٥] ولما كان لفظ (كل) مرادا به جميع أهل القرية، وأتى بلفظ الدرجات كان **إيماء** إلى تغليب حال المؤمنين

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٢

لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكة بأنهم لا بأس عليهم من عذاب مشركيها، ففيه **إيماء** إلى أن الله منجيهم من العذاب:

في الدنيا بالهجرة، وفي الآخرة بحشرهم على أعمالهم ونياتهم لأنهم لم يقصروا في الإنكار على المشركين، ففي هذه الآية إيذان بأنهم سيخرجون من القرية التي حق على أهلها العذاب، فإن الله أصاب أهل مكة بالجوع والخوف ثم بالغزو بعد أن أنجى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وقد علم من الدرجات أن أسافلها دركات فغلب درجات لنكتة الإشعار ببشارة المؤمنين بعد نذارة المشركين. ومن في قوله مما عملوا تعليلية، أي من أعمالهم أي بسبب تفاوت أعمالهم.

وقوله: وما ربك بغافل عما يعملون خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم.

وقرأ الجمهور: يعملون- بياء الغيبة- فيعود الضمير إلى أهل القرى، والمقصود

مشركو مكة، فهو للتسلية والتطمين لئلا يستبطىء وعد الله بالنصر، وهو تعريض بالوعيد للمشركين من باب: واسمعي يا جارة. وقرأه ابن عامر- بتاء الخطاب-، فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، فهو وعد بالجزاء على صالح أعمالهم، ترشيحا للتعبير بالدرجات حسبما قدمناه، ليكون سلا لهم من وعيد أهل القرى أصحاب الظلم، وكلتا القراءتين مراد الله تعالى فيما أحسب.

[١٣٣]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٣]

وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣)

وربك الغني ذو الرحمة.". (١)

١٥٦٠. ٧٦٩-"استعارة تمثيلية مكنية، شبهت حالة المؤمنين الفائزين في عملهم، مع حالة المشركين، بحالة الغالب على امتلاك دار عدوه، وطوي المركب الدال على الهيئة المشبه بها،

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/٨٤

ورمز إليه بذكر ما هو من روادفه، وهو عاقبة الدار، فإن التمثيلية تكون مصرحة، وتكون مكنية، وإن لم يقسموها إليهما، لكنه تقسيم لا محيص منه. ويجوز أن تكون الدار مستعارة للحالة التي استقر فيها أحد، تشبيها للحالة بالمكان في الاحتواء، فتكون إضافة عاقبة إلى الدار إضافة بيانية، أي العاقبة الحسنى التي هي حاله، فيكون الكلام استعارة مصرحة.

ومن محاسنها هنا: أنها بنت على استعارة المكانة للحالة في قوله: اعملوا على مكانتكم فصار المعنى: اعملوا في داركم ما أنتم عاملون فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار. وفي الكلام مع ذلك إيماء إلى أن عاقبة تلك الدار، أي بلد مكة، أن تكون للمسلمين، كقوله تعالى: أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [الأنبياء: ١٠٥] وقد فسر قوله: من تكون له عاقبة الدار بغير هذا المعنى.

وقرأ الجمهور: من تكون- بتاء فوقية- وقرأه حمزة، والكسائي، بتحتية، لأن تأنيث عاقبة غير حقيقي، فلما وقع فاعلا ظاهرا فيجوز فيه أن يقرن بعلامة التأنيث وبدونها.

وجملة: إنه لا يفلح الظالمون تذييل للوعيد يتنزل منزلة التعليل، أي لأنه لا يفلح الظالمون، ستكون عقبى الدار للمسلمين، لا لكم، لأنكم ظالمون.

والتعريف في الظالمون للاستغراق، فيشمل هؤلاء الظالمين ابتداء، والضمير المجعول اسم (إن) ضمير الشأن تنبيها على الاهتمام بهذا الخبر وأنه أمر عظيم.". (١)

١٥٦١. ٧٧٠-"فعلوه يعود إلى المشركين، أي: لو شاء الله لعصمهم من تزيين شركائهم، أو يعود إلى الشركاء، أي: لو شاء الله لصدهم عن إغواء أتباعهم، وضمير النصب يعود إلى القتل أو إلى التزيين على التوزيع، على الوجهين في ضمير الرفع.

والمراد: ب ما يفترون ما يفترونه على الله بنسبة أنه أمرهم بما اقترفوه، وكان افتراؤهم اتباعا لافتراء شركائهم، فسماه افتراء لأنهم تقلدوه عن غير نظر ولا استدلال، فكأنهم شاركوا الذين افتروه من الشياطين، أو سدنة الأصنام، وقادة دين الشرك، وقد كانوا يموهون على الناس أن هذا مما أمر الله به كما دل عليه قوله في الآية بعد هذه:

افتراء عليه [الأنعام: ١٣٨] وقوله في آخر السورة: قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/٩٣

حرم هذا [الأنعام: ١٥٠] .

[١٣٨]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٣٨]

وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون (١٣٨)

عطف على جملة: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم [الأنعام: ١٣٧]

وهذا ضرب آخر من دينهم الباطل، وهو راجع إلى تحجير التصرف على أنفسهم في بعض أموالهم، وتعيين مصارفه، وفي هذا العطف **إيماء** إلى أن ما قالوه هو من تلقين شركائهم وسدنة أصنامهم كما قلنا في معنى زين لهم شركاؤهم.

والإشارة بهذه وهذه إلى حاضر في ذهن المتكلمين عند صدور ذلك القول: وذلك أن يقول أحدهم هذه الأصناف مصرفها كذا، وهذه مصرفها كذا، فالإشارة من محكي

قولهم حين يشرعون في بيان أحكام". (١)

١٥٦٢. ٧٧١-"التناسل، حفظا للنوع، وتعميرا للعالم، وإظهارا لما في الإنسان من مواهب تنفعه وتنفع قومه، على ما في عملهم من اعتداء على حق البنت الذي جعله الله لها وهو حق الحياة إلى انقضاء الأجل المقدر لها وهو حق فطري لا يملكه الأب فهو ظلم بين لرجاء صلاح لغير المظلوم ولا يضر بأحد لينتفع غيره. فلما قتل بعض العرب بناتهم بالوأد كانوا قد عطلوا مصالح عظيمة محققة، وارتكبوا به أضرارا حاصلة، من حيث أرادوا التخلص من أضرار طفيفة غير محققة الوقوع، فلا جرم أن كانوا في فعلهم كالتاجر الذي أراد الربح فباء بضياع أصل ماله، ولأجل ذلك سمى الله فعلهم: سفها، لأن السفه هو خفة العقل واضطرابه، وفعلهم ذلك سفه محض، وأي سفه أعظم من إضاعة مصالح جمة وارتكاب أضرار عظيمة وجناية شنيعة، لأجل التخلص من أضرار طفيفة قد تحصل وقد لا تحصل. وتعريف المسند إليه بالموصولية **للإيماء** إلى أن الصلة علة في الخبر فإن خسرانهم مسبب عن قتل أولادهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٠٥

وقوله: سفها منصوب على المفعول المطلق المبين لنوع القتل: أنه قتل سفه لا رأي لصاحبه، بخلاف قتل العدو وقتل القاتل، ويجوز أن ينتصب على الحال من الذين قتلوا، وصفوا بالمصدر لأنهم سفهاء بالغون أقصى السفه.

والباء في قوله: بغير علم للملابسة، وهي في موضع الحال إما من سفها فتكون حالا مؤكدة، إذ السفه لا يكون إلا بغير علم، وإما من فاعل قتلوا، فإنهم لما فعلوا القتل كانوا جاهلين بسفاهتهم وبشناعة فعلهم وبعاقبة ما قدروا حصوله لهم من الضر، إذ قد يحصل خلاف ما قدروه ولو كانوا يزنون المصالح والمفاسد لما أقدموا على فعلتهم الفظيعة.

والمقصود من الإخبار عن كونه بغير علم، بعد الإخبار عنه بأنه". (١)

١٥٦٣. ٧٧٢-"مما رزقكم الله لما في صلة الموصول من **الإيماء** إلى تضليل الذين حرموا على أنفسهم، أو على بعضهم، الأكل من بعضها، فعطلوا على أنفسهم بعضا مما رزقهم الله.

ومعنى: ولا تتبعوا خطوات الشيطان النهي عن شؤون الشرك فإن أول خطوات الشيطان في هذا الغرض هي تسويله لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم.

وخطوات الشيطان تمثيل، وقد تقدم عند قوله تعالى: يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان في سورة البقرة [١٦٨] .

وجملة: إنه لكم عدو مبين تعليل للنهي، وموقع (إن) فيه يغني عن فاء التفريع كما تقدم غير مرة، وقد تقدم بيانه في آية البقرة.

[١٤٣، ١٤٤]

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٣ إلى ١٤٤]

ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين".

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١١٤

(١)

١٥٦٤. ٧٧٣-"فلذلك خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان المحرمات في شريعة الإسلام بعد أن خوطب ببيان ما ليس بمحرم مما حرمه المشركون في قوله: قل آلذكرين حرم أم الأنثيين [الأنعام: ١٤٤] الآيات.

وافتتح الكلام المأمور بأن يقوله بقوله: لا أجد إدماجا للرد على المشركين في خلال بيان ما حرم على المسلمين، وهذا الرد جار على طريقة كناية **الإيماء** بأن لم ينف تحريم ما ادعوا تحريمه صريحا، ولكنه يقول لا أجده فيما أوحي إلي ويستفاد من ذلك أنه ليس تحريمه من الله في شرعه، لأنه لا طريق إلى تحريم شيء مما يتناوله الناس إلا بإعلام من الله تعالى، لأن الله هو الذي يحل ما شاء ويحرم ما شاء على وفق علمه وحكمته، وذلك الإعلام لا يكون إلا بطريق الوحي أو ما يستنبط منه، فإذا كان حكم غير موجود في الوحي ولا في فروعه فهو حكم غير حق، فاستفيد بطلان تحريم ما زعموه بطريقة **الإيماء**، وهي طريقة استدلالية لأن فيها نفي الشيء بنفي ملزومه.

وأجد بمعنى: أظفر، وهو الذي مصدره الوجد والوجدان، وهو هنا مجاز في حصول الشيء وبلوغه، يقال: وجدت فلانا ناصرا، أي حصلت عليه، فشبه التحصيل للشيء بالظفر وإلفاء المطلوب، وهو متعد إلى مفعول واحد.

والمراد، ب ما أوحي ما أعلمه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بوحي غير القرآن لأن القرآن النازل

قبل هذه الآية ليس فيه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وإنما نزل القرآن بتحريم ما ذكر في هذه الآية ثم في سورة المائدة.

والطاعم: الآكل، يقال: طعم كعلم، إذا أكل الطعام، ولا يقال ذلك للشارب، وأما طعم بمعنى ذاق فيستعمل في ذوق المطعومات والمشروبات، وأكثر استعماله في النفي، وتقدم بيانه

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٢٧

عند قوله تعالى:". (١)

١٥٦٥. ٧٧٤-"قوله: ما حرم ربكم [الأنعام: ١٥١] لغرض **الإيماء** إلى عصمة هذا الصراط من الزلل، لأن كونه صراط الله يكفي في إفادة أنه موصل إلى النجاح، فلذلك صح تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله. ويجوز عود الياء إلى النبيء المأمور بالقول، إلا أن هذا يستدعي بناء التفريع بالأمر باتباعه على ادعاء أنه واضح الاستقامة، وإلا فإن كونه طريق النبيء لا يقتضي تسبب الأمر باتباعه عنه بالنسبة إلى المخاطبين المكذبين.

وقوله: مستقيما حال من اسم الإشارة، وحسن وقوعه حالا أن الإشارة بنيت على ادعاء أنه مشاهد، فيقتضي أنه مستحضر في الذهن بمجمل كلياته وما جربوه منه وعرفوه، وأن ذلك يريهم أنه في حال الاستقامة كأنه أمر محسوس، ولذلك كثر مجيء الحال من اسم الإشارة نحو: وهذا بعلي شيخا [هود: ٧٢] ولم يأتوا به خبرا.

والسبل: الطرق، ووقوعها هنا في مقابلة الصراط المستقيم يدل على صفة محذوفة، أي السبل المتفرقة غير المستقيمة، وهي التي يسمونها: بنيات الطريق، وهي طرق تتشعب من السبيل الجادة ذاهبة، يسلكها بعض المارة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حي، ولا يستطيع السير فيها إلا من عقلها واعتادها، فلذلك سبب عن النهي قوله: فتفرق بكم عن سبيله، أي فإنها طرق متفرقة فهي تجعل سالكها متفرقا عن السبيل الجادة، وليس ذلك لأن السبيل اسم للطريق الضيقة غير الموصلة، فإن السبيل يرادف الصراط ألا ترى إلى قوله: قل هذه سبيلي [يوسف: ١٠٨] ، بل لأن المقابلة والإخبار عنها بالتفرق دل على أن المراد سبل خاصة موصوفة بغير الاستقامة.

والباء في قوله: بكم للمصاحبة: أي فتتفرق السبل مصاحبة لكم، أي تتفرقون مع تفرقها، وهذه المصاحبة المجازية تجعل الباء بمنزلة". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٨-أ/١٣٧

(٢) التحرير والتنوير ٨-أ/١٧٣

١٥٦٦. ٧٧٥-"وقوله: قليلا ما تشكرون هو كقوله في أول السورة قليلا ما تذكرون [الأعراف:
٣] ونظائره.
والخطاب للمشركين خاصة، لأنهم الذين قل شكرهم لله تعالى إذا اتخذوا معه آلهة.
ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم كما تقدم آنفا في أول السورة، ويجوز أن يكون على حقيقته أي إن شكركم الله قليل. لأنهم لما عرفوا أنه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها، ويجوز أن تكون القلة كناية عن العدم على طريقة الكلام المقتصد استنزالا لتذكرهم.
وانتصب (قليلا) على الحال من ضمير المخاطبين و (ما) مصدرية، والمصدر المؤول في محل الفاعل بقليلا فهي حال سببية.
وفي التعقيب بهذه الآية لآية: وكم من قرية أهلكناها [الأعراف: ٤] **إيماء** إلى أن إهمال شكر النعمة يعرض صاحبها لزوالها، وهو ما دل عليه قوله: أهلكناها.
[١١- ١٣]

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١ إلى ١٣]
ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين (١٣)
عطف على جملة: ولقد مكناكم في الأرض [الأعراف: ١٠] تذكيرا بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأن الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد". (١)

١٥٦٧. ٧٧٦-"الآية أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل، وآيات الله الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، كما تقدم عند قوله

---
(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٣٥

تعالى:

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا في سورة البقرة [٣٩] ، وقوله تعالى: وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه في سورة الأنعام [٣٧] ، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للناس، للتعريض بالمشركين من العرب، الذين أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ووجه دلالة الآيات على ذلك إما لأنها جاءت على نظم يعجز البشر عن تأليف مثله، وذلك من خصائص القرآن، وإما لأنها تشتمل على أحكام ومعان لا قبل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها، أو لأنها تدعو إلى صلاح لم يعهده الناس. فيدل ما اشتملت عليه على أنه مما أراده الله للناس، مثل بقية الكتب التي جاءت بها الرسل، وإما لأنها قارنتها أمور خارقة

للعادة تحدى بها الرسول المرسل بتلك الأقوال أمته، فهذا معنى تسميتها آيات، ومعنى إضافتها إلى الله تعالى، ويجوز أن يكون المراد بالآيات ما يشمل المعجزات غير القولية، مثل نبع الماء من بين أصابع محمد صلى الله عليه وسلم ومثل قلب العصا حية لموسى عليه السلام. وإبراء الأكمه لعيسى عليه السلام، ومعنى التكذيب بها العناد بإنكارها وجحدها.

وجملة: فمن اتقى وأصلح جواب الشرط وبينها وبين جملة: إما يأتينكم محذوف تقديره: فاتقى منكم فريق وكذب فريق فمن اتقى إلخ، وهذه الجملة شرطية أيضا، وجوابها فلا خوف عليهم، أي فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولما كان إتيان الرسل فائدته لإصلاح الناس، لا لنفع الرسل، عدل عن جعل الجواب اتباع الرسل إلى جعله التقوى والصلاح. إيماء إلى حكمة إرسال الرسل، وتحريضا على اتباعهم بأن فائدته للأمم لا للرسل، كما قال شعيب: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت [هود: ٨٨] ، أي لا خوف عليهم من عقوبة الله في الدنيا والآخرة ولا هم يحزنون من شيء". (١)

١٥٦٨. ٧٧٧-"وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد، وإن كان المشركون يثبتون الربوبية لله، والمسلمون لا يمترون في ذلك، لتنزيل المشركين من المخاطبين منزلة من يتردد في كون الله ربا لهم لكثرة إعراضهم عنه في عباداتهم وتوجهاتهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/١٠٩

وقوله: الذي خلق السماوات والأرض صفة لاسم الجلالة، والصلة مؤذنة **بالإيماء** إلى وجه بناء الخبر المتقدم، وهو إن ربكم الله لأن خلق السماوات والأرض يكفيهم دليلا على انفراده بالإلهية، كما تقدم عند قوله تعالى: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون بسورة الأنعام [١] .

وقوله: في ستة أيام ثم استوى على العرش تعليم بعظيم قدرته، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية، فلا يدل قوله: في ستة أيام على أن أهل مكة كانوا يعلمون ذلك، وفيه تحد لأهل الكتاب كما في قوله تعالى:

أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل [الشعراء: ١٩٧] وليس القصد من قوله: في ستة أيام الاستدلال على الواحدانية، إذ لا دلالة فيه على ذلك.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجا، وأن لا يكون دفعة، لأنه جعل العوالم متولدا بعضها من بعض، لتكون أتقن صنعا مما لو خلقت دفعة، وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرج، وكانت تلك المدة أقل زمن يحصل فيه المراد من التولد بعظيم القدرة. ولعل تكرر ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التنبيه إلى هذه النكتة البديعة، من كونها مظهر سعة العلم وسعة القدرة.". (١)

١٥٦٩. ٧٧٨-"إثبات حكم كلي، فإنه ذكرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء ونعم مجملة وهي زيادة بصطتهم، ثم ذكرهم بقية النعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف.

والآلاء جمع (إلى) ، والإلى: النعمة، وهذا مثل جمع عنب على أعناب، ونظيره جمع إنى بالنون، وهو الوقت، على آناء قال تعالى: غير ناظرين إناه [الأحزاب: ٥٣] أي وقته، وقال ومن آناء الليل فسبح [طه: ١٣٠] .

ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأن ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة.

[٧٠، ٧١]

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/١٦١

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٠ إلى ٧١]

قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين (٧١)

جاوبوا هودا بما أنبأ عن ضياع حجته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتوحيد، وهذا الجواب أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأول، إذ قالوا: إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين [الأعراف: ٦٦] كأنهم راموا استنزل نفس هود ومحاولة إرجاعه عما دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار وذكروه بأن الأمر الذي أنكره هو دين آباء الجميع تعريضا بأنه سفه آباءه، وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصولية في قولهم: ما كان يعبد آباؤنا **إيماء** إلى وجه الإنكار عليه وإلى أنه حقيق بمتابعة دين آبائه، كما

قال الملأ من قريش لأبي طالب حين". (١)

١٥٧٠. ٧٧٩-"وتفسير قوله: وقطعنا دابر الذين كذبوا نظير قوله تعالى: فقطع دابر القوم الذين ظلموا في سورة الأنعام [٤٥] ، وقد أرسل عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعا ولم يبق منهم أحد. والظاهر أن الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم نسل. وأما الآية فلا تقتضي إلا انقراض نسل الذين كذبوا ونزل بهم العذاب والتعريف بطريق الموصولية تقدم في قوله:

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا [الأعراف: ٦٤] في قصة نوح آنفا، فهو **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر وهو قطع دابرهم.

وما كانوا مؤمنين عطف على كذبوا فهو من الصلة، وفائدة عطفه الإشارة إلى أن كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم: وهما التكذيب والإشراك، تعريضا بمشركي قريش، ولموعظتهم ذكرت هذه القصص. وقد كان ما حل بعاد من الاستيصال تطهيرا أول لبلاد العرب من الشرك، وقطعا لدابر الضلال منها في أول عصور عمرانها، إعدادا لما أراد الله تعالى من انبثاق

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٢٠٧

نور الدعوة المحمدية فيها.

[٧٣]

[سورة الأعراف (٧) : آية ٧٣]

وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (٧٣)

الواو في قوله: وإلى ثمود مثلها في قوله: وإلى عاد أخاهم هودا [الأعراف: ٦٥] ، وكذلك القول في تفسيرها إلى قوله تعالى: من إله غيره.

وثمود أمة عظيمة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جاثر- بجيم ومثلثة كما في «القاموس» - ابن إرم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد في (إرم)". (١)

١٥٧١. ٧٨٠-"كفرهم، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيبا، كما تقدم، فحصل من الآيتين أنهم مستكبرون كافرون.

والمخاطب في قوله: لئن اتبعتم شعيبا هم الحاضرون حين الخطاب لدى الملأ، فحكي كلام الملأ كما صدر منهم، والسياق يفسر المعنيين بالخطاب، أعني عامة قوم شعيب الباقين على الكفر.

(واللام) موطئة للقسم. وإنكم إذا لخاسرون جواب القسم وهو دليل على جواب الشرط محذوف، كما هو الشأن في مثل هذا التركيب.

والخسران تقدم عند قوله تعالى: قد خسر الذين قتلوا أولادهم في سورة الأنعام [١٤٠] .

وهو مستعار لحصول الضر من حيث أريد النفع، والمراد به هنا التحذير من أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم، لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث، فإن كانوا يعتقدونه، فالمراد الخسران الأعم، ولكن الأهم عندهم هو الدنيوي.

(والفاء) في: فأخذتهم الرجفة للتعقيب، أي: كان أخذ الرجفة إياهم عقب قولهم لقومهم ما

---

(١) التحرير والتنوير ٨-ب/٢١٥

قالوا.

وتقدم تفسير: فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين في نظيرها من قصة ثمود.

والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلة، وهي السحابة، قال تعالى في سورة الشعراء [١٨٩] . فأخذهم عذاب يوم الظلة، وقد عبر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة فتعين أن تكون من نوع الأصوات المنشقة عن قالع ومقلوع لا عن قارع ومقروع وهو الزلزال، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة كما يدل عليه قوله: كأن لم يغنوا فيها.

وجملة: الذين كذبوا شعيبا مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية **للإيماء** إلى وجه بناء الخبر، وهو أن اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيبا.". (١)

١٥٧٢. ٧٨١-"وخاطب موسى قومه بذلك تطمينا لقلوبهم، وتعليما لهم بنصر الله إياهم لأنه علم لأنه بوحي الله إليه.

وجملة: إن الأرض لله تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر، أي: افعلوا ذلك لأن حكم الظلم لا يدوم، ولأجل هذا المعنى فصلت الجملة.

وقوله: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده كناية عن ترقب زوال استعباد فرعون إياهم، قصد منها صرف اليأس عن أنفسهم الناشئ عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه، بأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه لأن ملك الأرض كلها لله فهو الذي يقدر لمن يشاء ملك شيء منها وهو الذي يقدر نزعه.

فالمراد من الأرض هنا الدنيا لأنه أليق بالتذييل وأقوى في التعليل، فهذا **إيماء** إلى أنهم خارجون من مصر وسيملكون أرضا أخرى.

وجملة: والعاقبة للمتقين تذييل، فيجوز أن تكون الواو اعتراضية، أي: عاطفة على ما في قوله: إن الأرض لله من معنى التعليل، فيكون هذا تعليلا ثانيا للأمر بالاستعانة والصبر، وبهذا الاعتبار أوثر العطف بالواو على فصل الجملة مع أن مقتضى التذييل أن تكون

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٩

مفصولة.
والعاقبة حقيقتها نهاية أمر من الأمور وآخره، كقوله تعالى: فكان عاقبتهما أنهما في النار [الحشر: ١٧] ، وقد تقدم ذكرها عند قوله تعالى: قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين في أول سورة الأنعام [١١] ، فإذا عرفت العاقبة باللام
كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أوله ولعل التعريف فيها من قبيل العلم بالغلبة.
وذلك لأن كل أحد يود أن يكون آخر أحواله خيرا من أولها لكراهة مفارقة الملائم، أو للرغبة في زوال المنافر، فلذلك أطلقت العاقبة معرفة على انتهاء الحال بما يسر ويلائم، كما قال تعالى: والعاقبة للتقوى [طه: ١٣٢] . وفي حديث أبي سفيان قول هرقل: «وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة» فلا تطلق المعرفة على عاقبة السوء.
فالمراد بالعاقبة هنا عاقبة أمورهم في الحياة الدنيا ليناسب قوله إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده". (١)

١٥٧٣. ٧٨٢-"وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكر في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالة معجزة القرآن، فلذلك أعيد التصريح بتسبب الإعراض في غرقهم مع استفادته من التفريع بالفاء في قوله: فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم تنبيها للسامعين للانتقال من القصة إلى العبرة.
وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أن هذا الإعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنه هو علة التكذيب المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدده عند تجدد الآيات.
[١٣٧]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٣٧]
وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون

---

(١) التحرير والتنوير ٦٠/٩

(١٣٧)

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها.

عطف على فانتقمنا منهم [الأعراف: ١٣٦] . والمعنى: فأخذناهم بالعقاب الذي استحقوه وجازينا بني إسرائيل بنعمة عظيمة.

وتقدم ءانفا الكلام على معنى أورثنا عند قوله تعالى: أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها [الأعراف: ١٠٠] والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم. وقد قيل إن فرعون كان له سلطان على بلاد الشام، ولا حاجة إلى هذا إذ ليس في الآية تعيين

الموروث عنه.

والقوم الذين كانوا يستضعفون هم بنو إسرائيل كما وقع في الآية الأخرى: كذلك وأورثناها بني إسرائيل [الشعراء: ٥٩] ، وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين: أولاهما: **الإيماء** إلى علة الخبر، أي أن الله ملكهم الأرض وجعلهم أمة حاكمة جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد، غيرة من الله على عبيده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم بأنهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاء على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم.

ومعنى يستضعفون: يستعبدون ويهانون، فالسين والتاء للحسبان مثل استنجب، أو للمبالغة كما في استجاب.". (١)

١٥٧٤. ٧٨٣-"هنا صرف تكويني في نفوس الأقوام، وعن الحسن: إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى حد إذا وصل إليه مات قلبه.

وفي قص الله تعالى هذا الكلام على محمد صلى الله عليه وسلم تعريض بكفار العرب بأن الله دافعهم عن تعطيل آياته، وبأنه مانع كثيرا منهم عن الإيمان بها لما ذكرناه آنفا.

ويجوز أن تكون جملة سأصرف عن آياتي من خطاب الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٧٦/٩

وسلم روى الطبري ذلك عن سفيان بن عيينة، فتكون الجملة معترضة في أثناء قصة بني إسرائيل

بمناسبة قوله: سأريكم دار الفاسقين [الأعراف: ١٤٥] تعريضا بأن حال مشركي العرب كحال أولئك الفاسقين، وتصريحا بسبب إدامتهم العناد والإعراض عن الإيمان، فتكون الجملة مستأنفة استينافا ابتدائيا، وتأتي في معنى الصرف عن الآيات الوجوه السابقة واقتران فعل سأصرف بسين الاستقبال القريب تنبهه على أن الله يعجل ذلك الصرف.

وتقديم المجرور على مفعول سأصرف للاهتمام بالآيات، ولأن ذكره عقب الفعل المتعلق هو به أحسن.

وتعريف المصروفين عن الآيات بطريق الموصولية **للإيماء** بالصلة إلى علة الصرف.

وهي ما تضمنته الصلات المذكورة، لأن من صارت تلك الصفات حالات له ينصره الله، أو لأنه إذا صار ذلك حاله رين على قلبه، فصرف قلبه عن إدراك دلالة الآيات وزالت منه الأهلية لذلك الفهم الشريف.

والأوصاف التي تضمنتها الصلات في الآية تنطبق على مشركي أهل مكة أتم الانطباق.

والتكبر الاتصاف بالكبر. وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلف، وقد بينا ذلك عند قوله تعالى: أبى واستكبر [البقرة: ٣٤] وقوله: استكبرتم في سورة البقرة [٨٧] ، والمعنى: أنهم يعجبون بأنفسهم، ويعدون أنفسهم عظماء فلا يأتمرون لآمر، ولا ينتصحون لناصح.

وزيادة قوله: في الأرض لتفضيح تكبرهم، والتشهير بهم بأن كبرهم مظروف في الأرض، أي ليس هو خفيا مقتصرا على أنفسهم، بل هو مبثوث في الأرض، أي". (١)

١٥٧٥. ٧٨٤-"فإنهم آمنوا بالله ورسله، وإنما المقصود زيادة النهي عن اعتقاد التثليث، وهو المقصود من سياق الكلام.

والإيمان بالله الإيمان بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات، والإيمان بالرسول الإيمان بأخص صفاته وهو الرسالة، وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٤/٩

وفي قوله: ورسوله النبيء الأمي التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم.

ووصف النبيء الأمي بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق، وهذا نظير قوله تعالى، في تفضيل المسلمين: وتؤمنون بالكتاب كله [آل عمران: ١١٩] وتقدم معنى الأمي قريبا.

وكلمات جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى: كلا إنها كلمة هو قائلها [المؤمنون: ١٠٠] أي قوله: رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] . فكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرسل، وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه، لأن المقصود الإيماء إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين، إذ كان تكون عيسى عن غير سبب التكون المعتاد بل كان تكونه بقول الله كن كما قال تعالى: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون [آل عمران: ٥٩] ، فاقتضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى، أي

بكونه رسولا من الله، وذلك قطع لمعذرة النصارى في التردد في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واقتضى أن الرسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله، وليس ابن الله، وفي ذلك بيان للإيمان الحق، ورد على اليهود فيما نسبوه إليه، ورد على النصارى فيما غلوا فيه.

والقول في معنى الاتباع تقدم، وكذلك القول في نحو لعلكم تهتدون.

[١٥٩]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٥٩]

ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٥٩)

ومن قوم موسى عطف على قوله: واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا [الأعراف:

١٤٨]". (١)

١٥٧٦. ٧٨٥-"الإسلام، أي لغفور لمن تاب ورجع إلى الحق، وفيه **إيماء** إلى أن الله قد ينفس عليهم في فترات من الزمن لأن رحمة الله سبقت غضبه، وقد ألم بمعنى هذه الآية قوله تعالى: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا [الإسراء: ٤-٨] .

[١٦٨]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٨]

وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون (١٦٨)

عطف قصة على قصة، وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفرقهم بعد الاجتماع، والتقطيع التفريق، فيكون محمودا مثل وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا [الأعراف: ١٦٠] ، ويكون مذموما، فالتعويل على القرينة لا على لفظ التقطيع.

فالمراد من الأرض الجنس أي في أقطار الأرض.

وأمما جمع أمة بمعنى الجماعة، فيجوز أن يكون المراد هنا تقطيعا مذموما أي تفريقا بعد اجتماع أمتهم فيكون إشارة إلى أسر بني إسرائيل عند ما غزا مملكة إسرائيل (شلمناصر) ملك بابل. ونقلهم إلى جبال أنشور وأرض بابل سنة ٧٢١ قبل الميلاد. ثم أسر (بختنصر) مملكة يهوذا وملكها سنة ٥٧٨ قبل الميلاد، ونقل اليهود من (أرشليم) ولم يبق إلا الفقراء والعجز. ثم عادوا إلى أرشليم سنة ٥٣٠، وبنوا البيت المقدس إلى أن أجلاهم (طيطوس) الروماني، وخرب

---

(١) التحرير والتنوير ٩/١٤١

بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك فتمزقوا أيدي سبأ.
ووصف الأمم بأنهم منهم الصالحون إيذان بأن التفريق شمل المذنبين وغيرهم، وأن الله جعل للصالحين منزلة إكرام عند الأمم التي حلوا بينهما، كما دل عليه قوله:
وبلوناهم بالحسنات والسيئات.". (١)

١٥٧٧. ٧٨٦-"والعرض- بفتح العين وفتح الراء- الأمر الذي يزول ولا يدوم. ويراد به المال، ويراد به أيضا ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.
والأدنى الأقرب من المكان، والمراد به هنا الدنيا، وفي اسم الإشارة **إيماء** إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه كالإشارة في قول قيس بن الخطيم:
متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها
وقد قيل: أخذ عرض الدنيا أريد به ملابسة الذنوب، وبذلك فسر سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري، فيشمل كل ذنب، ويكون الأخذ مستعملا في المجاز وهو الملابسة، فيصدق بالتناول باليد وبغير ذلك، فهو من عموم المجاز، وقيل عرض الدنيا هو الرشا وبه فسر السدي، ومعظم المفسرين، فيكون الأخذ مستعملا في حقيقته وهو التناول، وقد يترجح هذا التفسير بقوله وإن يأتهم عرض كما سيأتي.
والقول في: ويقولون هو الكلام اللساني، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات، لأن (ما) بعد يقولون يناسبه الكلام اللفظي، ويجوز أن يكون الكلام النفساني، لأنه فرع عنه، أي قولهم في أنفسهم يعللونها به حين يجيش فيها وازع النهي، فهو بمنزلة قوله تعالى: ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول [المجادلة:
٨] وذلك من غرورهم في الدين.
وبناء فعل «يغفر» على صيغة المجهول لأن الفاعل معروف، وهو الله، إذ لا يصدر هذا الفعل إلا عنه، وللدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم، أو الذي تلبسوا به حين القول، ونائب الفاعل محذوف لعلمه من السياق، والتقدير: سيغفر لنا ذلك، أو ذنوبنا، لأنهم يحسبون أن ذنوبهم كلها مغفورة وقالوا لن تمسنا

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/٩

النار إلا أياما معدودة كما تقدم في سورة البقرة [٨٠] ، أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة، وهو التوبة كما يعلم من السياق، وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها.

وقوله لنا لا يصلح للنيابة عن الفاعل، لأنه ليس في معنى المفعول، إذ فعل". (١)

١٥٧٨. ٧٨٧-"وقال رائدهم أرسوا نزاولها ومرسى السفينة استقرارها بعد المخر قال تعالى: بسم الله مجراها ومرساها [هود:
٤١] ، وقد أطلق الإرساء هنا استعارة للوقوع تشبيها لوقوع الأمر الذي كان مترقبا أو متردد فيه بوصول السائر في البر أو البحر إلى المكان الذي يريده.
وقد أمر الله رسوله بجوابهم جواب جد وإغضاء عن سوء قصدهم بالسؤال التهكم، إظهارا لنفي الوصمة عن وصف النبوءة من جراء عدم العلم بوقت الشاعة، وتعليما للذين يترقبون أن يحصل من جواب الرسول عن سؤال المشركين علم للجميع بتعيين وقت الساعة فإذا أمر الساعة مما تتوجه النفوس إلى تطلبه.
فقد
ورد في الصحيح أن رجلا من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ - فقال رسول الله- ماذا أعددت لها؟ - فقال- ما أعددت لها كبير عمل إلا أني أحب الله ورسوله- فقال- أنت مع من أحببت
. وعلم الساعة هو علم تحديد وقتها كما ينبيء عنه السؤال، وقوله: لا يجليها لوقتها إلا هو، فإضافة علم إلى ضمير الساعة على تقدير مضاف بينهما أي علم وقتها، والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله، وظرفية (عند) مجازية استعملت في تحقيق تعلق علم الله بوقتها.
والحصر حقيقي: لأنه الأصل، ولما دل عليه توكيده بعد في قوله: قل إنما علمها عند الله، والقصر الحقيقي يشتمل على معنى الإضافي وزيادة، لأن علم الساعة بالتحديد مقصور على الله تعالى.
والتعريف بوصف الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم إيماء إلى الاستدلال على استئثار الله تعالى

---
(١) التحرير والتنوير ٩/١٦١

بعلم وقت الساعة دون الرسول المسئول ففيه **إيماء** إلى خطأهم وإلى شبهة خطأهم.
و (التجلية) الكشف، والمراد بها ما يشمل الكشف بالإخبار والتعيين، والكشف بالإيقاع، وكلاهما منفي الإسناد عن غير الله تعالى، فهو الذي يعلم وقتها، وهو الذي يظهرها إذا أراد، فإذا أظهرها فقد أجلاها.
واللام في قوله: لوقتها للتوقيت كالتي في قوله تعالى: أقم الصلاة لدلوك الشمس [الإسراء: ٧٨] .
ومعنى التوقيت، قريب من معنى (عند) ، والتحقيق: أن معناه ناشىء عن معنى لام الاختصاص.". (١)

١٥٧٩. ٧٨٨-"ومعنى اللام يناسب أحد معنيي الإجلاء، وهو الإظهار، لأنه الذي إذا حصل تم كشف أمرها، وتحقق الناس أن القادر على إجلائها كان عالما بوقت حلولها.
وفصلت جملة: لا يجليها لوقتها إلا هو لأنها تتنزل من التي قبلها منزلة التأكيد والتقرير.
وقدم المجرور وهو لوقتها على فاعل يجليها الواقع استثناء مفرغا للاهتمام به تنبيها على أن تجلية أمرها تكون عند وقت حلولها لأنها تأتي بغتة.
وجملة: ثقلت في السماوات والأرض معترضة لقصد الإفادة بهولها، **والإيماء** إلى حكمة إخفائها.
وفعل ثقلت يجوز أن يكون لمجرد الإخبار بشدة، أمرها كقوله: ويذرون وراءهم يوما ثقيلا.
ويجوز أن يكون تعجيبا بصيغة فعل- بضم العين- فتقدر الضمة ضمة تحويل الفعل للتعجيب، وإن كانت هي ضمة أصلية في الفعل، فيكون من قبيل قوله: كبرت كلمة تخرج من أفواههم [الكهف: ٥] .
والثقل مستعار للمشقة كما يستعار العظم والكبر، لأن شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تخيل لمن خلت به أنه حامل شيئا ثقيلا، ومنه قوله تعالى: إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا [المزمل: ٥] أي شديدا تلقيه وهو القرآن، ووصف الساعة بالثقل باعتبار ما هو مظروف

(١) التحرير والتنوير ٢٠٢/٩

في وقتها من الحوادث، فوصفها بذلك مجاز عقلي، والقرينة واضحة، وهي كون الثقل بمعنى الشدة لا يكون وصفا للزمان، ولكنه وصف للأحداث، فإذا أسند إلى الزمان، فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفا للأحداث، كقوله: وقال هذا يوم عصيب
[هود: ٧٧] .

وثقل الساعة أي شدتها هو عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض، من تصادم الكواكب، وانخرام سيرها، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين، والبحار، وجفاف المياه، ونحو ذلك مما ينشأ عن اختلال النظام الذي مكان عليه سير العالم، وذلك كله يحدث شدة عظيمة على كل ذي إدراك من الموجودات.". (١)

١٥٨٠. ٧٨٩-"يعلمهم الله صدق التوجه إليه، ويكون موقع ولن تغني عنكم فئتكم شيئا زيادة تقرير لمضمون إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وقوله: وإن تعودوا نعد أي لا تعتمدوا إلا على نصر الله.

فموقع قوله: ولن تغني عنكم فئتكم شيئا بمنزلة التعليل لتعليق مجيء الفتح على أن تستفتحوا المشعر بأن النصر غير مضمون الحصول إلا إذا استنصروا بالله تعالى وجملة ولو كثرت في موضع الحال، ولو إتصالية، وصاحب الحال متصف بضد مضمونها، أي: ولو كثرت فكيف وفئتكم قليلة، وعلى هذا الوجه يكون في قوله: وأن الله مع المؤمنين إظهار في مقام الإضمار، لأن مقتضى الظاهر أن يقال: وإن الله معكم، فعدل إلى الاسم الظاهر للإيماء إلى أن سبب عناية الله بهم هو إيمانهم. فهذان تفسيران للآية والوجدان يكون كلاهما مرادا.

والفتح حقيقته إزالة شيء مجعول حاجزا دون شيء آخر، حفظا له من الضياع أو الافتكاك والسرقة، فالجدار حاجز، والباب حاجز، والسد حاجز، والصندوق حاجز، والعدل تجعل فيه الثياب والمتاع حاجز، فإذا أزيل الحاجز أو فرج فيه فرجة يسلك منها إلى المحجوز سميت تلك الإزالة فتحا، وذلك هو المعنى الحقيقي، إذ هو المعنى الذي لا يخلو عن اعتباره جميع استعمال مادة الفتح وهو بهذا المعنى يستعار لإعطاء الشيء العزيز النوال استعارة مفردة أو تمثيلية وقد تقدم عند قوله تعالى: فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٢٠٣

[الأنعام: ٤٤] وقوله تعالى: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات الآية في سورة الأعراف [٩٦] فالاستفتاح هنا طلب الفتح أي النصر، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر.

وكثر إطلاق الفتح على حلول قوم بأرض أو بلد غيرهم في حرب أو غارة، وعلى النصر، وعلى الحكم، وعلى معان أخر، على وجه المجاز أو الكناية وقوله: وأن الله مع المؤمنين وقرأه نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، بفتح همزة إن على تقدير لام التعليل عطفا على قوله: وأن الله موهن كيد الكافرين [الأنفال:
١٨].

وقرأه الباقون بكسر الهمزة، فهو تذييل للآية في معنى التعليل، لأن التذييل لما فيه من العموم يصلح لإفادة تعليل المذيل، لأنه بمنزلة المقدمة الكبرى للمقدمة الصغرى.". (١)

١٥٨١. ٧٩٠-"تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا، فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا **إيماء** إلى أن الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلها، وأنه سيكون هذا أثره فيهم كلما احتفظوا عليه كفوه من قبل سؤالهم، ومن قبل تسديد حالهم، فكيف لا يكونون بعد ترفه حالهم أشد استجابة وأثبت قلوبا.

وفعل واذكروا مشتق من الذكر- بضم الدال- وهو التذكر لا ذكر اللسان، أي تذكروا.

وإذ اسم زمان مجرد عن الظرفية، فهو منصوب على المفعول به، أي اذكروا زمن كنتم قليلا.

وجملة: أنتم قليل مضاف إليها إذ ليحصل تعريف المضاف، وجيء بالجملة اسمية للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم.

وأخبر ب قليل وهو مفرد عن ضمير الجماعة لأن قليلا وكثيرا قد يجيئان غير مطابقين لما جريا عليه، كما تقدم عند قوله تعالى: معه ربيون كثير في سورة آل عمران

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٣٠١

. [١٤٦]
والأرض يراد بها الدنيا كما تقدم عند قوله تعالى: ولا تفسدوا في الأرض في سورة الأعراف [٥٦] فالتعريف شبيه بتعريف الجنس، أو أريد بها أرض مكة، فالتعريف للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة قليلا مستضعفين بين المشركين، فإنهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد قد جفاهم قومهم وعادوهم فصاروا لا قوم لهم وكانوا على دين لا يعرفه أحد من أهل العالم فلا يطمعون في نصر موافق لهم في دينهم وإذا كانوا كذلك وهم في مكة فهم كذلك في غيرها من الأرض فآواهم الله بأن صرف أهل مكة عن استيصالهم ثم بأن قيض الأنصار أهل العقبة الأولى وأهل العقبة الثانية، فأسلموا وصاروا أنصارا لهم بيثرب، ثم أخرجهم من مكة إلى بلاد الحبشة فئاواهم بها، ثم أمرهم بالهجرة إلى يثرب فئاواهم بها، ثم صار جميع المؤمنين بها أعداء للمشركين فنصرهم هنالك على المشركين يوم بدر، فالله". (١)

١٥٨٢. ٧٩١-"المسلمين وكانت مكة لقاحا.وثم للتراخي الحقيقي والرتبي مثل التي قبلها.
والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون.
كان مقتضى الظاهر أن يقال وإلى جهنم يحشرون كما قال في الآية الأخرى: قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد [آل عمران: ١٢] فعدل عن الإضمار هنا إلى الإظهار تخريجا على خلاف مقتضى الظاهر، للإفصاح عن التشنيع بهم في هذا الإنذار حتى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بأصرح عبارة، وهذا كقول عويف القوافي:
اللؤم أكرم من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدالقصد زيادة تشنيع وبر المهجو بتقرير اسمه واسم اللؤم الذي شبه به تشبيها بليغا.وعرفوا بالموصولية **إيماء** إلى أن علة استحقاقهم الأمرين في الدنيا والآخرة هو وصف الكفر، فيعلم أن هذا يحصل لمن لم يقلعوا عن هذا الوصف قبل حلول الأمرين بهم.وليميز متعلق ب يحشرون لبيان أن من حكمة حشرهم إلى جهنم أن يتميز الفريق الخبيث من الناس من الفريق الطيب في يوم الحشر، لأن العلة غير المؤثرة تكون متعددة، فتمييز الخبيث من الطيب من جملة الحكم لحشر الكافرين

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٩/٩

إلى جهنم.وقرأ الجمهور- ليميز- بفتح التحتية الأولى وكسر الميم وسكون التحتية الثانية- مضارع ماز بمعنى فرز وقرأ حمزة والكسائي، ويعقوب، وخلف: بضم التحتية الأولى وفتح الميم التحتية وتشديد الثانية. مضارع ميز إذا محص الفرز وإذ أسند هذا الفعل إلى الله تعالى استوت القراءتان.". (١)

(١) التحرير والتنوير ٣٤٢/٩